العقيدة في ضوء الكتاب والسنة



العقيدة في الله

الدكتور عمر سليمان الأشقر





ة جديدة ومنقحة

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة (١)

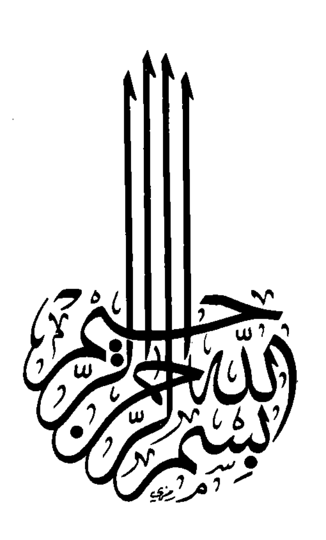


تأليف

الدكتور عمر سليمان الأشقر



دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية عشر
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م



العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص . ب: ٢١١٥١١ عمّان ١١١٢١ الأردن
هاتف: ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس ٥٦٩٣٩٤١
بريد الكتروني: ALNAFAES @ Hotmall.com

الفهرس

فهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الفهرس

الصفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

محتوى الكتاب

الفهرس

الباب الأول القيامة الصغرى

الفصل الأول : تعريف وبيان

الفصل الثاني : الاحتضار

الفصل الخامس : الروح والنفس

الباب الثاني أشراط الساعة

الفصل الأول : وقت الساعة

الفصل الثاني علامات الساعة التي وقعت

الفصل الثالث

العلامات التي وقعت ، وهي مستمرة ، أو وقعت مرة ويمكن أن يتكرر وقوعها

الفصل الخامس : العلامات الكبرى

الفهرس

الفصل الأول

أسماء يوم القيامة

الفصل الثاني

إفناء الأحياء

الفصل الثالث

البعث والنشور

الفصل الثامن

أحوال الناس في يوم القيامة

الفصل التاسع

الشفاعة

الفصل العاشر

الحساب والجزاء

الفصل الحادي عشر

اقتصاص المظالم بين الخلق

الفصل الثاني عشر

الميزان

الفصل الثالث عشر
الحوض

الفصل الرابع عشر
الحشر إلى دار القرار : الجنة أو النار

الفهرس

الباب الثاني الجنة

الفهرس

مقدمة الطبعة الجديدة والمنقحة
من سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

الحمد لله الواحد المعبود ، قيوم السموات والأرض ، الذي هدانا إلى دينه القويم وصراطه المستقيم ، وأصلي على خيرته من خلقه ، وخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ ، وعلى آله الأبرار وصحبه الأخيار ، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فقد ابتدأت الكتابة في سلسلة (العقيدة في ضوء الكتاب والسنة) منذ خمس عشرة سنة تقريباً ، ولم تكتمل الكتابة فيها إلا منذ سنوات، وقدر الله لهذه السلسلة أن تنتشر في بقاع الأرض ، وأقبل على دراستها والانتفاع بها طلبة العلم في مختلف الأقطار ، وكل هذا من فضل الله وحده ، فهو الذي هداني إلى تدوينها وتأليفها ، وهو الذي أنعم عليَّ بإتمامها ، وهو الذي جعل لها القبول عند عباده ، فله الحمد والمنّة والثناء الحسن وحده ، وأسأله تعالى أن يدخر لي أجرها وثوابها عند لقياه .

ومنذ أن أكملت تدوينها وأنا أطمع في أن أعيد النظر في أجزاء هذه السلسلة ، خاصة الأجزاء الأولى منها ، ولكن كان يحول دون تحقيق

هذه الأمنية مشاغل وأعمال مع اعتلال في الصحة . وقد وجدت في الأشهر الماضية فسحة من الوقت اغتنمتها لإعادة النظر فيما دونته ، فجاءت هذه الطبعة المزيدة والمنقحة للأجزاء الثلاثة الأولى منها ، ولعلي أستطيع أن أتمَّ مراجعة وتنقيح بقية أجزائها في مقبل الأيام بحول الله وقوته.

لم يحصل تغيير في مباحث وموضوعات الأجزاء المنقحة ، ولكنني بذلت جهداً في توثيق النصوص وعزوها وضبطها ، كما أجريت بعض التقديم والتأخير في المباحث ، وهناك بعض الزيادات في بعض الموضوعات اقتضى المقام بسط القول فيها أو تدعيمها بالأدلة ، كما اختصرت أو حذفت بعض المباحث ، وهذا في مواضع قليلة .

والتغيير والتبديل والإصلاح فيما يدونه الإنسان طبيعة البشر ، فقد أبى الله أن يكون الكمال لغير كتابه .

والحمد لله رب العالمين .

عمر سليمان عبد الله الأشقر
كلية الشريعة ـ الجامعة الأردنية
١٩ من رجب ١٤١٤ هـ
٣١ من كانون ثاني (يناير) ١٩٩٤م

افتتاحية الطبعة الأولى

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونستهديه ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يَهْدِهِ الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد:

فهذا مؤلف في العقيدة الإسلامية ، أسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعله لي ذخراً في يوم لقياه إنّه سميع مجيب .

وهذا المؤلف عنوانه ينبيك عنه ، فهو مؤلف في العقيدة الإسلامية يرجع بها إلى مصدريها الأصليين: كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، وهذان المصدران هما اللذان بنيا عقيدة الرعيل الأول من هذه الأمة ..

ولا أظن أن أحداً يخالف في أنَّ عقيدة أولئك الرجال كانت هي العقيدة الصافية صفاء ماء البحيرة حال سكون الرياح ، القوية قوة الجبال الرواسي ، المتينة متانة العروة الوثقى ، وقد غيّر الله بأصحاب تلك العقيدة مسار التاريخ الإنساني ، فهل نلام إذا عدنا بالعقيدة إلى منابعها، تلك المنابع التي نهل منها الأبرار الأخيار من سلفنا الصالح ؟ !

ودعوى الرجوع إلى الكتاب والسنة يدّعيها أقوام كثيرون بألسنتهم وخطبهم ومقالاتهم ، ولكنَّهم يخالفونها في مجال الاحتجاج والاستدلال وفي مجال العمل والاهتداء .

فنراهم يقدمون آراء الرجال على النصوص القرآنية والحديثية ، ونراهم يهتدون بغير هدى الإسلام في السلوك والمعاملة. . . ؛ ولذا أطلت النفس في

المقدمة مؤكداً على الرجوع إلى هذين المصدرين: الكتاب وصحيح السنة في العقيدة والشريعة، وذكرت شُبه بعض المعرضين عن السنة.

وفي المقدمة مباحث جمة غير هذه المسألة كتعريف العقيدة ، وبيان موقعها من الشريعة والإيمان ، وحكم منكرها أو منكر أصلٍ من أصولها، واستطردت قليلاً لبيان شبهة الطائفة القديمة الحديثة التي تكفّر الناس بمجرد الذنوب .

ولم أنس أن أبين في المقدمة المنهج الإيماني القرآني الذي جاء به الإسلام، وكيف أنه يخالف المنهج الفلسفي الكلامي الذي جرّ على الأمة بلاء عظيماً ، أرجو أن أكون قد وفقت في تحديد الفرق بين المنهجين في المنابع والمصادر ، وفي المنهج والسبيل ، وفي طريقة الاستدلال ، وفي الجنى والعطاء . . .

ومن خلال ذلك البيان تلمح تفرد المنهج القرآني وخصائصه .

وفي مبحث الإيمان بالله تجد الأدلة التي تدل على وجود الله ، ومناقشة شبه الملحدين ، والرد على القائلين إن الكون خلق مصادفة ، أو هو من صنع الطبيعة .

وبعد ذلك أتينا على السبيلين اللذين يعرفاننا بربنا وهما آيات الله المنظورة، وآياته المسطورة ، وقد استرشدنا في ذلك بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، ومباحث هذه المسألة هي صلب الكتاب ولبّه .

ولما كانت هذه المسألة في غاية الأهمية ، وهي السبب الأعظم في فُرقة الأمة وجدت أنه لا مناص من ذكر الأسس التي تفهم في ضوئها النصوص التي تتحدث عن أسماء الله وصفاته ، والقواعد المهمة التي توضح ذلك ، وتردُّ على الذين أخطؤوا السبيل الإيماني القرآني .

وفي الختام تعرضت لتوحيد الله: مفهومه ، وكيفية تحقيقه ، وعنوانه (لا إله إلا الله) وبينت معناها وشروطها ، كما بينت ما يناقض التوحيد وينافيه وهو (الشرك) .

ثم تعرضت لشيء من تاريخ العقيدة مبيناً بطلان نظرية تطور العقيدة.

وقد استعنت بما وقع تحت يديّ من مؤلفات قديمة وحديثة ، وقد ذكرت طرفاً منها في الخاتمة ، إلا أن اختياري من هذه المؤلفات كان محكوماً بالمنهج الذي يعلن عنه عنوان الكتاب .

قد يرضي هذا الكتاب فريقاً من الناس ، وقد يُسخط فريقاً آخر ، ويعلم الله أن رضوان ربي كان نصب عيني وأنا أسطر مباحثه ، وليس معنى ذلك أن ما فيه صوابٌ كله . فالقلم قد ينبو ، والعقل قد يشت ، والفكر قد يحار ، وليس من معصوم إلا المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما دام في العمر بقية فأنا راجع عن كل خطأ وقعت فيه مخالفاً لما جاء عن الله أو عن رسوله ﷺ ، فإن أخذ الله وديعته قبل أن أعلن ذلك فقولي قول الإمام الشافعي رحمه الله: « إذا صح الحديث فهو مذهبي ، وإذا رأيتم قولي يخالف قول رسول الله - ﷺ - فاضربوا بقولي عرض الحائط » .

وستصدر أجزاء أخرى تحت هذا العنوان تجلي بقية أصول الاعتقاد على النسق نفسه إن شاء الله ، أسأله تعالى السداد في القول والعمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

د.عمر سليمان الأشقر

الكويت ١٨/ من رجب ١٣٩٨هـ .

٢٤/من يونيو ١٩٧٨ م .

المقدمة

المبحث الأول

العقيدة تعريف وبيان

المطلب الأول: العقيدة لغة واصطلاحاً

تتردد كلمة العقيدة على ألسنة الناس وفي محاوراتهم ومحادثاتهم كثيراً، فنراهم يقولون: « أنا أعتقد كذا ، وفلان عقيدته حسنة ، والعقيدة الإسلامية السبب الأقوى الذي أدى إلى الانتصارات الإسلامية العظيمة في كلّ زمان ومكان ، والحرب بيننا وبين اليهود حرب عقائدية في حقيقتها. . . » .

فماذا يريد الناس من كلمة (عقيدة) ؟ وما معنى هذه الكلمة في اللغة؟ وما مفهومها في الشرع ؟

العقائد هي الأمور التي تصدق بها النفوس ، وتطمئن إليها القلوب ، وتكون يقيناً عند أصحابها ، لا يمازجها ريب ولا يخالطها شك [1].

و« عَقْد الحبل » شدُّ بعضه ببعض نقيض حله، ومادة « عقد » في اللغة مدارها على اللزوم والتأكد والاستيثاق، ففي القرآن: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ [2]، وتعقيد الأيمان إنما يكون بقصد القلب وعزمه ، بخلاف لغو اليمين التي تجري على اللسان بدون

---

(١) رسالة العقائد ، للشيخ حسن البنا ، انظر مجموع الرسائل: ٤٢٩ ، ومع أن العلماء المسلمين قديماً وحديثاً عنونوا لمباحث هذا العلم: بالعقائد فإنَّ كلمة عقيدة لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ .

(٢) سورة المائدة: ٨٩ .

قصد .

و«العقود»: أوثق العهود، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾(1)، وتقول العرب: «اعتقد الشيء: صلب واشتدّ» (2).

والعقيدة في الإسلام تقابل الشريعة ، إذ الإسلام عقيدة وشريعة ، والشريعة تعني التكاليف العملية التي جاء بها الإسلام في العبادات والمعاملات.

المطلب الثاني: العقائد علمية قلبية

والعقيدة ليست أموراً عملية ، بل أمور علمية يجب على المسلم أن يعتقدها في قلبه ، لأنّ الله أخبره بها بطريق كتابه ، أو بطريق وحيه إلى رسوله ﷺ .

وأصول العقائد التي أمرنا الله باعتقادها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾(3)، وحدّدها الرسول ﷺ في حديث جبريل المشهور بقوله: (الإيمانُ: أنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ ، ومَلائِكَتِهِ وكتابهِ ، ولقائه ،ورسله ، وتؤمن بالبعث الآخر) (4).
إذن العقيدة في الإسلام: هي المسائل العلمية التي صح بها الخبر عن الله ورسوله ، والتي يجب أن ينعقد عليها قلب المسلم تصديقاً لله ورسوله .

---

(1) سورة المائدة: ١ .
(2) لسان العرب: مادة عقد: ٢/ ٨٣٦ .
(3) سورة البقرة: ٢٨٥ .
(4) رواه البخاري، انظر صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١/ ١١٤ ، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٩، ورقمه: ٥ ، واللفظ لمسلم .

المطلب الثالث: العقيدة يقين لا تقبل الشك

وحتى تصبح هذه الأصول عقيدة لا بد أن نصدق بها تصديقاً جازماً لا ريب فيه ، فإن كان فيها ريب أو شك كانت ظناً لا عقيدة ، يقول صاحب المعجم الوسيط: « العقيدة: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده»[1] ، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾[2]، وقال: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ :[3]، وقال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾[4]، وذم المشركين المرتابين: ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[5].

المطلب الرابع: المعتقدات غيب غير منظور

ويلاحظ أن المسائل التي يجب اعتقادها أمور غيبية ، ليست مشاهدة منظورة، وهي التي عناها الله بقوله عندما مدح المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[6] .

فالله غيب ، وكذلك الملائكة واليوم الآخر ، أما الكتب والرسل فقد يتبادر أنها تشاهد وتنظر، ولكنَّ المراد هو الإيمان بنسبتها إلى الله ، أي كون الرسل مبعوثين من عند الله ، وأن الكتب منزلة من عند الله ، وهذا أمر غيبي .

---

(١) المعجم الوسيط: ٢/ ٦١٤ .
(٢) سورة الحجرات: ١٥ .
(٣) سورة البقرة: ١، ٢ .
(٤) سورة آل عمران: ٩.
(٥) سورة التوبة: ٤٥.
(٦) سورة البقرة: ٣.

المطلب الخامس: العقيدة الصحيحة والعقيدة الفاسدة

العقيدة ليست مختصة بالإسلام ، بل كل ديانة أو مذهب لا بدَّ لأصحابه من عقيدة يقيمون عليها نظام حياتهم ، وهذا ينطبق على الأفراد كما ينطبق على الجماعات ، والعقائد منذ بدء الخليقة وإلى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قسمان:

الأول: يمثل العقيدة الصحيحة ، وهي تلك العقائد التي جاءت بها الرسل الكرام ، وهي عقيدة واحدة ، لأنها منزلة من العليم الخبير ، ولا يتصور أن تختلف من رسول إلى رسول ومن زمان إلى زمان .

والقسم الثاني: يشمل العقائد الفاسدة على كثرتها وتعددها ، وفسادها ناشئ من كونها نتاج أفكار البشر ، ومن وضع عقلائهم ومفكريهم ، ومهما بلغ البشر من عظم الشأن ، فإن علمهم يبقى محدوداً مقيداً بقيود متأثراً بما حولهم من عادات وتقاليد وأفكار .

وقد يأتي فساد العقيدة من تحريفها ، وتغييرها وتبديلها ، كما هو الحال بالنسبة للعقيدة اليهودية والنصرانية في الوقت الحاضر ، فإنهما حُرِّفتا منذ عهد بعيد ، ففسادهما كان من هذا التحريف ، وإن كانت كل واحدة منهما عقيدة سليمة في الأصل .

أين العقيدة الصحيحة اليوم ؟

العقيدة الصحيحة اليوم لا توجد إلا في الإسلام ، لأنَّه الدين المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [1] والعقائد في غير الإسلام ، وإن كان في بعضها نتف من الحق ، فإنها لا تمثل الحق ولا تجليه .

فمن أراد أن يعرف العقيدة السليمة فإنه لن يجدها في اليهودية ، ولا في النصرانية ، ولا في كلام الفلاسفة . . . ، وإنما يجدها في الإسلام في أصليه: الكتاب والسنة ، نديَّة طريَّة صافية مشرقة ، تقنع العقل بالحجة

---

(١) سورة الحجر: ٩.

والبـرهان، وتمـلأ القلـب إيمانـاً ويقينـاً ونـوراً وحيـاة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [1].

المطلب السادس: أهمية العقيدة الإسلامية وضرورتها

العـقيدة الإسـلاميـة ضرورية للإنسـان ضرورة الماء والهـواء ؛ إذ هو بدون هذه العقـيدة ضائع تائه يـفقد ذاته ووجـوده ، العقيـدة الإسلاميـة وحدها هي التي تجيب على التساؤلات التي شـغلت ، ولا تزال تشغل الفكر الإنساني ، بل تحيّره: من أين جئـت ؟ ومن أين جاء هذا الكـون ؟ من الموجد ؟ ومـا صفـاته ؟ وما أسـماؤه ؟ ولماذا أوجـدنا وأوجد الكون ؟ ومـا دورنا في هذا الكون ؟ ومـا علاقتنـا بالخالق الذي خلقنا ؟ وهل هناك عـوالم غيـر منظورة وراء هذا العـالم المشـهـود ؟ وهل هنـاك مـخلوقـات عـاقلة مـفكرة غـيـر هذا الإنسان ؟ وهل بعـد هذه الحياة من حياة أخـرى نصير إليهـا ؟ وكيف تكون تلك الحياة إن كان الجواب بالإيجاب ؟

لا توجد عـقيدة سـوى العقيـدة الإسلاميـة اليوم ـ تجيب عـلى هذه الأسئلة إجابة صـادقة مقنـعة، وكل من لم يعرف هذه العـقيدة، أو لم يـعتنقهـا، فإن حاله لن يختلف عن حال ذلك الشاعر البائس [2] الذي لا يدري شيئاً:

جئت ، لا أعلم من أين ، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامـــــي طريقاً فمشـيت
وسأبقى سائـــــراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئـت ؟ كيـف أبصـرت طريقـي ؟

لست أدري

---

(١) سورة الشورى: ٥٢ .

(٢) هو إيليا أبو ماضي من قصيدة له طويلة بعنوان « الطلاسم » من ديوانه (الجداول) ص: ١٠٦.

أجديد أم قديـــم أنا في هذا الوجـود ؟
هل أنا حرّ طليق أم أســير فـي قـيود ؟
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود ؟
أتــمـــــنى أننـــي أدري ولكــــــنّي

لست أدري

وطريقي مـا طريقي ؟ أطويل أم قصير ؟
هـل أنـا أصعـــد أم أهـبط فيه وأغور ؟
أأنا السـائر في الدرب أم الدرب تسير ؟
أم كلانا واقـــف والـــدهر يجري ؟ !

لست أدري

ليت شعري وأنا فـي عالـم الغيب الأمين
أتراني كـنـت أدري أنـــني فيـه دفـــين
وبأنـــــي سـوف أبـدو وبـأني سـاكـون
أم تـــرانـــي كـنـت لا أدرك شيـئـاً ؟

لست أدري

أتراني قبلمــــــــا أصبحت إنساناً سويّاً
كنت محواً أو محالاً أم تراني كنت شيئاً
ألهذا الـلغز حلٌّ ؟ أم سيبـــــقى أبدياً
لست أدري . . . ولمـاذا لســت أدري ؟

لست أدري

أي حيـرة هذه ! وأي قلق تجلبـه هذه المجاهيـل للنفس الإنسـانيـة ؟! ألا يستـحق أبناء هذا القرن الذين فـقدوا المعرفـة بالحقائق الكـبرى التي لا تستـقيم

حياتهم إلا بها هذه الهموم التي تملأ النفس وتسبب الأوجاع والعقد النفسية؟!

وأين هؤلاء من المسلم الذي يدري ، ويعرف معرفة مستيقنة كل هذه الحقائق ، فإذا به يجد برد اليقين ، وهدوء البال ، وإذا به يسير في طريق مستقيم إلى غاية مرسومة يعرف معالمها ، ويدري غايتها .

واستمع إلى الشاعر البائس يتحدث عن الموت والمصير:

إن يكُ الموت قصاصاً ! أي ذنب للطهارة ؟
وإن كان ثواباً ، أي فضل للدعارة ؟
وإذا كان وما فيه جزاء أو خسارة
فلم الأسماء إثم وصلاح ؟

لست أدري

إن يك الموت رقاداً بعده صحو طويل
فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل ؟
ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرحيل ؟
ومتى ينكشف الستر فيدري ؟

لست أدري

إن يك الموت هجوعاً يملأ النفس سلاماً
وانعتاقاً لا اعتقالا وابتداء لا ختاماً
فلماذا لا أعشق النوم ولا أهوى الحماما ؟
ولماذا تجزع الأرواح منه ؟

لست أدري

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور ؟
فحياة ، فخلود ، أم فناء فدثور ؟

أكلام الناس صدق أم كلام الناس زور ؟
أصحيح أن بعض الناس يدري ؟

لست أدري

إن أكن أبعثُ بعد الموت جُثماناً وعقلاً
أترى أبعث بعضاً أم ترى أبعث كُلاً
أترى أبعث طفلاً أم ترى أبعث كهلاً ؟
ثم هل أعرف بعد البعث ذاتي ؟

لست أدري

إنه لا يدري إلى أين المصير ، ومصير الإنسان يهمه ويعنيه ، ويريد أن يطمئن على ذاك المصير ، ونحن نرى لوعة الشاعر وأساه ؛ لأنَّه لا يدري إلى أين يصير ؟ وماذا سيصير ؟ إنه الضلال عن الحقيقة ، إنَّه شقاء القلب المثقل المكدود ، الذي أتعبه المسير ، وكم في الحياة من أمثال هذا الشاعر البائس الضال، بعضهم يستطيع أن يفصح عن شقوته، وحيرته ، وبعضهم يحس ويعاني ، وتبقى أفكاره حبيسة نفسه الشقية .

« لست أدري » تلك هي الإجابة عن التساؤلات الخالدة ، وليست هي قولة شاعر فحسب ، « فسقراط » الفيلسوف الذي يُعدُّ من عمالقة الفلاسفة، يقول بصريح العبارة: « الشيء الذي لا أزال أجهله جيداً أنني لست أدري»[1]، بل إنَّ « اللاأدرية » مذهب فلسفي قديم .

بالإسلام وحده يصبح الإنسان يدري من أين جاء ، وإلى أين المصير، يدري لماذا هو موجود ، وما دوره في هذا الوجود ، يدري ذلك حقاً وصدقاً، وفرق بين من يدري ومن لا يدري ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] .

---

(١) الدين ، لدراز: ٦٩ .
(٢) سورة الملك : ٢٢ .

المبحث الثاني

علاقة العقيدة بالإيمان والشريعة

المطلب الأول: علاقة العقيدة بالإيمان

امتدح الله في كتابه الإيمان وأهل الإيمان في مثل قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، وقال فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]، ووعدهم بالجنة: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3].

والإيمان الذي أثنى الله على أهله ليس هو العقيدة فحسب ، ولكنَّ العقيدة تمثل قاعدة الإيمان وأصله ، فالإيمان: عقيدة تستقرُّ في القلب استقراراً يلازمه، ولا ينفك عنه ، ويعلن صاحبها بلسانه عن العقيدة المستكنَّة في قلبه، ويُصدِّق الاعتقاد والقول بالعمل وفق مقتضى هذه العقيدة .

إنَّ العقيدة التي تستكنّ في القلب ، ولا يكون لها وجود في العلانية عقيدة خاوية باردة ، لا تستحق أن تسمى عقيدة ، وقد نرى كثيراً من الناس يعرفون الحقيقة على وجهها ، ولكنَّهم لا ينصاعون لها ، ولا يصوغون حياتهم وفقها ، بل قد يعارضون الحق الذي استيقنوه ويحاربونه، فهذا إبليس يعرف الحقائق الكبرى معرفة يقينية ، يعرف الله، ويعرف صدق الرسل والكتب ، ولكنّه نذر نفسه لمحاربة الحق الذي يعرفه .

وفرعون كان يوقن بأن المعجزات التي جاء بها موسى إنما هي من عند الله، ولكنه جحد بها استكباراً وعلواً ، كما قال الله في حقه وملئه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[4].

وقد خاطب موسى فرعون قائلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ

(١) سورة المؤمنون: ١ .
(٢) سورة البقرة: ٥ .
(٣) سورة المؤمنون: ١٠، ١١.
(٤) سورة النمل: ١٤ .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [1] .

وأهل الكتاب يعرفون أنَّ محمداً مرسل من ربه: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [2] ، ولكنهم لا يقرّون بذلك.

واسمع إلى قول أبي طالب يخاطب الرسول ﷺ معتذراً لعدم إيمانه:

ولقد علمتُ بأنّ دين محمد ... من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

إذن ليس الإيمان مجرد معرفة باردة بالله ، أو معرفة يستعلي صاحبها عن الإقرار بها ، أو يرفض أن ينصاع لحكمها ، بل هي عقيدة رضي بها قلب صاحبها ، وأعلن عنها بلسانه ، وارتضى المنهج الذي صاغه الله متصلاً بها.

ولذلك قال علماء السلف: « الإيمان: اعتقاد بالجنان ، ونطق باللسان، وعمل بالأركان » [3] .

المطلب الثاني: صلة العقيدة بالشريعة

الإيمان كما ذكرنا له شطران: عقيدة نقية راسخة تستكن في القلب ، وعمل يظهر على الجوارح ، فإذا فُقِد أحد الركنين ، فإن الإيمان يزول أو يختل ؛ إذ الاتصال بين الطرفين وثيق جداً .

مثل الإيمان كشجرة طيبة ضاربة بجذورها في الأرض الطيبة ، وباسقة بسوقها في السماء ، مزهرة مثمرة مِعْطاءة ، تعطي أكلها كلَّ حين بإذن ربها، فالإيمان هو الشجرة ، وجذورها العقيدة التي تغلغت في قلب صاحبها، والسوق والفروع والثمار هي العمل .

---

(١) سورة الإسراء: ١٠٢ .

(٢) سورة البقرة: ١٤٦ .

(٣) هذا قول عامة السلف ، ومنهم الأئمة الثلاثة أحمد ومالك والشافعي . وخالف الإمام أبو حنيفة فقال: الإيمان: الاعتقاد والنطق ، والعمل من لوازم الإيمان ولا يدخل في مسماه .
وذهب فريق آخر إلى أن الإيمان مجرد التصديق فقط ، ولو لم يكن معه قول ولا عمل ، هذا مذهب الجهمية والأشاعرة . وذهبت الكرامية إلى أنَّ الإيمان هو القول فقط . والرد على مذاهبهم يعلم مما أشرنا إليه في الأصل .

ولا شك أنَّ الجذور إذا خلعت أو تعفنت فسدت الشجرة ، ويبست، ولم يبق لها وجود ، وكذلك الإيمان لا يبقى له وجود إذا زالت العقيدة، أمَّا إذا قطعت الساق والفروع ، أو قطع بعض منها فإنَّ الشجرة تضعف وتهزل ، وقد تموت كلياً ، لأن وجود الفروع والأوراق ضروري كي تحافظ الشجرة على بقائها ، وكذلك الأعمال إذا تركت أو ترك جزء منها ، فإنَّ الإيمان ينقص أو يزول .

المطلب الثالث: العناية بالعمل

ومن هنا يجب الاعتناء بفعل الأعمال التي فرضها الله علينا، أو حبب إلينا القيام بها ، وبترك ما نهى عنه من أعمال ؛ لأنَّ ذلك جزء من الإيمان، فالعمل المتروك ـ وإن كان قليلاً ـ ينقص من الإيمان بذلك المقدار.

ومن هنا يجب أن ينتبه الذين يهوّنون من شأن العمل بسنة الرسول ﷺ والتزامها إلى خطورة موقفهم ، وقد يتعدى بعض هؤلاء طوره ، فيصف أموراً من السنن أو الدين بأنها قشور ، ونسأل الله أن يعفو عن هؤلاء ، فإنَّ الدين كله لباب لا قشور فيه ، وإن تفاوتت أمور الدين في الأهمية .

ولا يفهم من قولنا أننا لا نُعنى بالأولويات في العلم والعمل والدعوة إلى الله ، فهذا أمر ينبغي أن يكون مقرراً ومعلوماً ، ولكن الذي ننكره هو ترك الجزئيات ، ولوم الذين يلزمون أنفسهم بالصغير والكبير من أمر الإسلام وسنة المصطفى ﷺ .

وكم يؤثر في نفسي مشهد عمر عندما طُعِن ، ودخل عليه شاب ، وقال لعمر قولاً حسناً، فلما أدبر الشاب ليخرج ، إذا إزاره يمس الأرض ، فدعاه عمر وقال له: « يا ابن أخي ، ارفع ثوبك ، فإنّه أنقى لثوبك ، وأتقى لربك » [1] ، ولم يمنعه الموت الذي نزل به من أن يرشد ذلك الرجل إلى أمر يعدّه كثير من الناس اليوم من القشور ، التي لا يجوز أن يُعْنى بها .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، انظر صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ٧/ ٦٠ ، ورقم الحديث: ٣٧٠٠ .

المبحث الثالث
الإيمان والكفر

المطلب الأول: حكم انكار العقيدة

كل من أنكر العقيدة إنكاراً كلياً كالشيوعيين الذين ينكرون وجود الله، ويكذبون الرسل ، والكتب ، ولا يؤمنون بالمصير والجزاء ، أو أنكر جزءاً من العقيدة ، فإنَّه كافر غير مسلم ، ويجب أن يُعْلم أن العقيدة الإسلامية لا تقبل التجزئة أبداً ؛ لأنها وحدة مترابطة أشدّ الترابط .

فالإيمان بالله يقتضي الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، والإيمان بالكتب يتضمن بقية أصول الإيمان ، والإيمان بالرسول ﷺ يعني تصديقه فيما أخبر ...، لذا فقد عدَّ الله من آمن بأصل وكفر بآخر كافراً حقاً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾[1] والتكذيب بجزئية من جزئيات الأصول الاعتقادية مما ثبت في الكتاب أو السنة ثبوتاً قاطعاً يُعدّ كفراً ، كإنكار رسول من الرسل أو ملك من الملائكة .

المطلب الثاني: الأعمال والأقوال التي تعد كفرًا

ليس الكفر هو إنكار الأصول الاعتقادية فحسب ، بل هناك أعمال فِعلها كفر ، ويمكن تحديدها بعبارة واحدة: (عبادة غير الله) فالعبادة حقٌّ الله وحده ، وصرفها لغير الله شرك ، كالصلاة لغير الله ، والذبح لغير الله ، ودعاء غير الله ...

---

(١) سورة النساء: ١٥٠ ـ ١٥١ .

وقد يكفر المرء باللفظ كالذي يسب الخالق (جلَّ وعلا) أو الإسلام أو الرسول أو يستهزئ بالإسلام ، أو يفضِّل على الإسلام المبادئ الضالة كالشيوعية أو البوذية ، أو الأديان المحرّفة كاليهودية والنصرانية ، أو يتهم الإسلام بالنقص والقصور ، والتأخر والرجعية .

المطلب الثالث : الموقف من الكفار

يجب أن يعادي المسلم الكفار ، فيكرههم لما تلبسوا به من كفر ، كما يكره كفرهم ، وعليه أن يحارب هذا الباطل وأهله بالقول والبيان ، بأن يدعوهم إلى الحقِّ ، ويشرح لهم ما هم فيه من ضلال ، ويعرض لهم الحقَّ عرضاً قوياً نقياً ، فنحن وإن كنَّا نبغض الكافرين ، إلا أنَّنا نحبُّ لهم الهداية، ونرجوها لهم .

وللكفار أحكام بينتها كتب الفقه منها: أننا لا نزوجهم المسلمات ، ولا نتزوج من نسائهم إلا الكتابية ، ولا نغسل موتاهم ، ولا نصلي عليهم...

المطلب الرّابع : الكافر عند الله

الذي بلغته الدعوة الإسلامية ورفضها عن علم كافر مخلد في نار جهنم ، لا حجة له يوم القيامة .

أمَّا الذين لم يبلغهم الإسلام لسبب من الأسباب كأن بعدت ديارهم ، أو فقدوا السمع والبصر ، أو بلغهم الإسلام وهم كبار لا يعقلون ، فهؤلاء لا يعذّبون في يوم القيامة حتى يختبروا ويمتحنوا؛ لأنَّ الحجة لم تقم عليهم، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1] .

والدليل على أنهَّم يمتحنون الحديث الذي رواه الأسود بن سريع قال: قال رسول الله ﷺ: (أَرْبَعَةٌ يَحْتَجونَ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لا يَسْمَعُ شَيْئاً ، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي الفَتْرَةِ (لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةُ رَسُولٍ). فَأَمَّا الأَصَمُّ فَيقُولُ: رَبِّ قَدْ جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما

(١) سورة الإسراء: ١٥ .

الأحمق فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر ، وأما الهرم فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلام وما أعقلُ شيئاً ، وأمّا الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني مِن رسول . فيأخذ الله مواثيقه ليطيعنه ، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها ، لكانت عليهم برداً وسلاماً)[1] .

المطلب الخامس: ترك الواجبات وفعل المحرمات

١ـ موقف السلف من مرتكب الكبيرة

لا شك أنَّ الذي يترك ما ألزمه الله به من الطاعات كالزكاة والصوم والحج وبرِّ الوالدين ، أو يفعل المحرمات كالزنا والربا وأكل مال اليتيم، قد شوَّه وجه الإيمان ، وتناقص إيمانه بمقدار الطاعات التي ترك ، وبمقدار الذنوب التي فعل ، ولكنْ هل يكفر بمجرد هذا الترك للواجبات، والفعل للمحرمات ، إذا لم يكن جاحداً للأول ، ولا مستحلاً للثاني ؟

إن النصوص التي بين أيدينا تهدينا إلى أنَّ المسلم لا يكفر بفعله للذنوب ، ولا بتركه للواجبات ، بل ينقص ذلك من إيمانه ، ويكون أمره إلى الله إن شاء غفر له ، وإن شاء عذَّبه . ومن النصوص الصريحة في ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[2] ، فالذي لا يقبل الغفران: الشرك ، أما ما دون الشرك فهو إلى الله ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه .

وقد جاءت أحاديث توضح مدلول الآية ففي الحديث القدسي: (ابن آدمَ لوْ أتيتني بقرابِ[3] الأرضِ خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، أتيتك بقرابها مغفرة)[4].

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، وصححه البيهقي . راجع ابن كثير: عند تفسيره آية رقم: ١٥، من سورة الإسراء .
(٢) سورة النساء: ٤٨ .
(٣) أي بما يقارب ملأها.
(٤) رواه الترمذي في سننه: ٤٩/٤ ورقمه: ٣٥٤٠ ، وقال فيه: « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا

وفي حديث قدسي آخر: (ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة ، لا يشرك بي شيئاً ، لقيته بمثلها مغفرة) [1] .

وعن عتبان بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (فإن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) [2] .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) [3] .

وفي حديث الشفاعة أن الله يقول: (وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله) [4] .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (يدخل أهل الجنة الجنّة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردلٍ من إيمان) [5] .

وقال أبو سفيان: « جاورت جابر بن عبدالله بمكة ستة أشهر ، فسأله رجل: هل كنتم تسمون أحداً من أهل القبلة كافراً ؟ قال: معاذ الله ! قال: فهل تسمونه مشركاً ؟ قال: لا » [6].

هذه النصوص جعلت العلماء الأفذاذ من سلف الأمة يقولون في مرتكب الذنوب وتارك الواجبات: « هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ». فهم أثبتوا له إيماناً ، ولكنَّه ليس الإيمان المطلق الذي يستحقه من فعل الطاعات ، وانتهى عن المعاصي ، بل إيمان مقيد بفسقه بسبب الذنب الكبير الذي ارتكبه .

من هذا الوجه » . وانظر صحيح سنن الترمذي للألباني: ٣/١٧٥، ورقمه: ٢٨٠٥ .

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/٢٠٦٨، ورقمه: ٢٦٨٧ .

(٢) صحيح البخاري: ١/٥١٩ ، ورقمه: ٤٢٥ .

(٣) صحيح مسلم: ١/٩٤ . ورقمه: ٩٤ .

(٤) صحيح البخاري: ١٣/٤٧٤ .

(٥) صحيح البخاري: ١/٧٢ ، ورقمه: ٢٢.

(٦) رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الإيمان له بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني: ص ٩٨، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط مسلم . وأبو سفيان راوي الحديث تابعي .

٢ـ الخوارج الذين يكفرون بالذنوب

في مقابل هؤلاء اتجهت طائفة أخرى ترمي الناس بالكفر إذا قصَّروا في واجب ، أو فعلوا محرَّماً ، ولا زلنا نرى كثيراً من النَّاس يسارعون إلى التكفير بمثل ذلك ، وأول من تبنى هذا القول (الخوارج) ، وهم طائفة خرجوا من جيش علي بن أبي طالب بعد أن أخفق المحكمان: أبو موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص في حسم الخلاف الناشب بين المسلمين بقيادة علي ومعاوية .

زعم الخوارج أن تحكيم الرجال خطأ شرعاً ، وعدّوه كفراً ، وكفروا جميع المسلمين الذين رضوا عن ذلك ، وشهدوا على أنفسهم بالكفر ، ثم آمنوا من جديد ، وطالبوا عليّاً بالإقرار على نفسه بالكفر كشرط لعودتهم إلى صفوف جيشه ، وناقشهم علي ، وأرسل إليهم حبْر الأمة عبدالله بن عباس، فأقام عليهم الحجة ، ونقض مذهبهم ، وعاد منهم بضعة ألوف ، وأصر على ذلك القول ألفان حاربهم علي وقضى عليهم، إلا أن مذهبهم انتشر ، وتبناه من بعدهم أناس كثيرون ، ولا تزال فكرة التكفير تثور بين فترة وأخرى، وقد ثارت من جديد في أيامنا هذه.

أدلة الخوارج على تكفير مرتكب الكبيرة

والخوارج [1] يزعمون أنَّ مرتكب الكبيرة كافر خارج من الإسلام ، حلال دمه وماله ، ويقولون: هو خالد في النار ، وهم يحتجون على ذلك بأدلة ظنوها مثبتة لما ذهبوا إليه ، منها:

١ـ قالوا: أنتم توافقوننا على أنَّ الأعمال داخلة في مسمى الإيمان ، لأنَّ الإيمان: اعتقاد ، وقول ، وعمل ، وإذا زال جزء من الإيمان كالعمل زال الإيمان كله .

---

(١) هناك فرقة أخرى وهم (المعتزلة) أتباع واصل بن عطاء ، قالوا: إنّ مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً، وليس كافراً ، بل هو في منزلة وسط بين الكفر والإيمان ، أمّا في الآخرة فيحكمون عليه بالخلود في النار .

٢- واحتجوا بأنَّ الله سمَّى بعض الذنوب فسقاً كقوله: ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾[١]، فأطلق لفظ الفاسق هنا على الكاذب، وهذا ظاهر من التأمل في سياق الآيات.

وقال ﷺ: (سِبابُ المؤمن فسوق) [٢].

وقالوا: سمى الله بعض الذنوب ظلماً كأكل مال اليتيم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾[٣] وسمى من يُخرج المرأة المتوفى عنها من بيت الزوجية في مدة محدودة ظالماً؛ لأنَّه متعدّ لحدود الله، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾[٤].

قالوا: هذه الذنوب فسق وظلم، والفاسقون والظالمون كافرون بنصّ القرآن: ﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [٥]﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [٦].

وقالوا: وردت النصوص بنفي الإيمان عن الذي ارتكب ذنباً، فمن ذلك ما رواه مسلم أن النبيَّ ﷺ قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) [٧]، وقوله: (لا يبغض الأنصار أحدٌ يؤمن بالله ورسوله)[٨]، وقوله: (والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا) [٩].

---

(١) سورة الحجرات: ٦.
(٢) صحيح مسلم: ١/ ٨٠، ورقمه ٦٤.
(٣) سورة النساء: ١٠.
(٤) سورة الطلاق: ١.
(٥) سورة البقرة: ٢٥٤.
(٦) سورة النور: ٥٥.
(٧) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٧٦، ورقمه: ٥٧.
(٨) صحيح مسلم: ١/ ٨٦.
(٩) صحيح مسلم: ١/ ٧٤، ورقمه: ٥٤.

٣- وقالوا: تبرأ الرسول ﷺ ممن فعل بعض الذنوب، كقوله ﷺ: (من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا)[١]، وفي الحديث الآخر (من غشَّ فليس مني)[٢] ، وفي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن) قيل: مَنْ يا رسول الله ؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)[٣] .

٤- وقالوا: جاء تسمية بعض الذنوب كفراً كقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٤].

وقال الرسول ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[٥].

وقال: (إذا كفَّر الرجل أخاه فقدْ باء بها أحَدُهُما)[٦].

الرد على ما استدل الخوارج به

هذه هي الحجج التي احتجوا بها على تكفير مرتكب الذنوب والمعاصي، وسنحاول أن نبين موطن الخطأ في هذه الحجج:

١- أما استدلالهم بأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان فلا ننكر عليهم ذلك ، ولكنّ خطاهم أنّهم عدّوها شرطاً في الإيمان ، والصحيح أنّها ليست كذلك ، فزوالها ينافي كمال الإيمان الواجب ، أي إذا زالت زال من الإيمان جزء ، وبقي ناقصاً ، ومثل ذلك مثل الإنسان تقطع يده أو رجله أو تقلع عينه ، أو أذنه ، ويبقى مع ذلك إنساناً تتردد فيه الحياة، فإذا قطع وسطه أو رأسه أو قلع قلبه كان كمن زال الإيمان منه، فزوال اليد أو الرجل أو العين

---

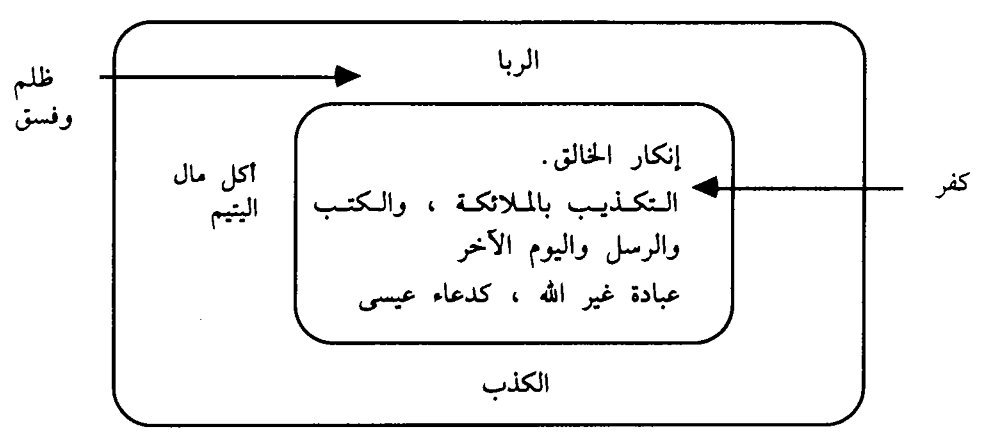
(١) صحيح مسلم: ٩٩/١ ، ورقمه: ١٠١ .
(٢) صحيح مسلم: ١٠١/١ ، ورقمه: ١٠٢ .
(٣) مشكاة المصابيح: ٦٠٧/٢ ، ورقمه: ٤٩٦٢ .
(٤) سورة آل عمران: ٩٧ .
(٥) رواه مسلم: ٨٢/١ ، ورقمه: ٦٥ .
(٦) صحيح مسلم: ٧٩/١ ، ورقمه: ٧٩ .

تشبه زوال بعض الأعمال الواجبة أو فعل الأمور المحرمة ، وزوال الرأس أو القلب يشبه زوال العقيدة .

٢ـ أمّا ما احتجوا به من أنَّ الفسق والظلم كفر فهذا فهم خاطئ ، إذ معنى الفسق الخروج عن طاعة الله ، والخروج عن طاعة الله ليس على حد سواء ، فقد يكون خروج كفر ، وقد يكون خروجاً ليس بكفر ، فمنكر الملائكة خارج عن طاعة الله خروج كفر ، وشارب الخمر خارج عن طاعة الله خروج معصية لا كفر .

وكذلك الظلم يتفاوت في نفسه ، فقد يكون الظلم شديداً بالغاً درجة الكفر ، وقد يكون أدنى من ذلك .

ويمكن أن نتصور ذلك إذا رسمنا دائرة كبيرة في وسطها دويرة صغيرة، الدائرة الكبرى تمثل الظلم والفسق ، والصغرى تمثل الكفر ، فيكون الكفر داخلاً في الظلم والفسق ، لأنهما أعمّ من الكفر ، بينما بعض الظلم والفسق ليس بكفر



ومما يدل على أن الفسق قد لا يكون كفراً قوله ﷺ: (سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر) [1] ، فقد فرق الرسول ﷺ بينهما ، وإن كان المراد بالكفر في الحديث الكفر الذي لا يخرج من الملة .

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٨٠ ، ورقمه: ٦٤ .

أما النصوص التي احتجوا بها وقالوا: إنها تنفي الإيمان بالذنوب ، أو فيها براءة الرسول ﷺ ممن فعل ذنباً ، أو نصَّت على كفر من فعل ذنباً ، فليس المراد منها أنَّ الإيمان يزول بالذنوب والمعاصي ، وأنَّ الذنوب والمعاصي توجب الكفر ، ولكنَّها تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه ، الذي نعت الله به أهله، واشترطه عليهم في مواضع من كتابه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١١) ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ (٢) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ (٤) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾[2].

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[3].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم[4] ، بعد أن ساق هذه الآيات: «فهذه الآيات التي شرحت وأبانت شرائع الإسلام المفروضة على أهله ، ونفت عنه المعاصي كلها ، ثم فسرته السنة بالأحاديث التي فيها خِلال الإيمان ، فلما خالطت هذه المعاصي هذا الإيمان المنعوت بغيرها ، قيل ليس هذا من الشرائط التي أخذها الله على المؤمنين ولا الإمارات التي يعرف بها أنه الإيمان فنفت عنهم حينئذ حقيقته ، ولم يزل عنهم اسمه».

ثم ناقش شبهة من يقول: كيف يجوز أن يقال ليس بمؤمن ، واسم الإيمان غير زائل عنه ؟ مبيِّناً أنَّ هذا جرى على طريقة العرب في نفي العمل الذي

(١) سورة التوبة: ١١١، ١١٢ .
(٢) سورة المؤمنون: ١ ـ ٥ .
(٣) سورة الأنفال: ٢ـ٣ .
(٤) هذه النصوص من كلام أبي عبيد منقولة من كتابه (الإيمان) ضمن رسائل أربع حققها الشيخ ناصر الدين الألباني ص: ٩٠ ـ ٩٦ .

لم يأت به صاحبه على وجهه ، والقرآن نزل بكلام العرب وأساليبها «وكلام العرب المستفيض عندنا ، غير المستنكر في إزالة العمل عن عامله إذا كان عمله على غير حقيقته ، الا ترى أنهم يقولون للصانع إذا كان ليس محكماً لعمله: ما صنعت شيئاً ، ولا عملت شيئاً ، إنما وقع معناها هنا على نفي التجويد ، لا على الصنعة في نفسها ، فهو عندهم عامل بالاسم، وغير عامل في الإتقان »

وبيّن أنَّ العرب تتكلم بأشدَّ من هذا « وذلك كرجل يعق أباه ويبلغ منه الأذى ، فيقال: ما هو بولد ، وهم يعلمون أنّه ابن صلبه . ثم يقال مثله في الأخ والزوجة والمملوك ، وإنَّما مذهبهم في هذا المزايلة من الأعمال الواجبة عليهم من الطاعة والبر ، وأما النكاح والرقُّ والأنساب ، فعلى ما كانت عليه إمكانها وأسماؤها » .

ثم بين أن هذه النصوص التي تنفي الإيمان وردت على النسق نفسه ، فقال: « فكذلك هذه الذنوب التي ينفى بها الإيمان ، إنما أحبطت الحقائق منه الشرائع التي هي من صفاته ، فأمّا الأسماء فعلى ما كانت قبل ذلك ، ولا يقال لهم إلا المؤمنون ، وبه الحكم عليهم » .

واستشهد بآية آل عمران التي تخبر أنَّ الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم ، ومع ذلك فإنَّه حكم لهم بحكم أهل الكتاب في آيات أخرى ، وأباح لنا أكل ذبائحهم ، ونكاح نسائهم، ثم قال: « فهم بالأحكام والأسماء في الكتاب داخلون، وهم لها بالحقائق مفارقون » .

وأورد حديث المسيء صلاته الذي أخرجه الشيخان ، وفيه يقول الرسول ﷺ: (ارْجع فصلِّ فإنك لم تصل)[1] أكثر من مرة ، مع أنَّه كان في كل مرة يصلي ، فإنه مُصلّ بالاسم ، وغير مصلّ بالحقيقة .

(١) رواه البخاري: ٢/ ٢٧٧ . ورقمه: ٧٩٣ ورواه مسلم: ١/ ٢٩٨، ورقمه: ٣٩٧ .

المراد من النصوص التي تبرأ فيها الرسول ﷺ من مقترفي الذنوب:

قرر أبو عبيد: « أنَّ البراءة هنا ليس معناها التبرؤ من رسول الله ﷺ ولا من ملته ، إنما مذهبه عندنا أنَّه ليس من المطيعين لنا ، ولا من المقتدين بنا ، ولا من المحافظين على شرائعنا » .

المراد بالنصوص التي تكفر بالذنوب:

قال أبو عبيد: « وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبها بالمعاصي ، فإنَّ معناها عندنا ليست تثبت على أهلها كفراً ولا شركاً يزيلان الإيمان عن صاحبه ، إنما وجوهها أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون ، وقد وجد لهذين النوعين من الدلائل في الكتاب والسنة نحو ما وجدنا في النوعين الأولين » .

وبين أنّ المراد بالذنوب التي سميت كفراً وشركاً« أنها أخلاق المشركين وتسميتهم وسنتهم وألفاظهم وأحكامهم ، ونحو ذلك من أمورهم».

واستشهد على ذلك بقول ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1]، قال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة » ، وقال عطاء: « كفر دون كفر » . وأثر ابن عباس قال فيه محقق الكتاب: « أخرجه الحاكم في المستدرك من طريق طاوس عن ابن عباس ، وصححه هو والذهبي »[2].

فالحكم بغير ما أنزل الله وإنْ سمي كفراً إلا أنه غير ناقل عن ملة الإسلام، والدّين باق على حاله ، وإن خالطه هذا الذنب ، فالمعنى أنَّ الحكم بغير ما أنزل الله من سنن الكفار ، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾[3].

ثم قال: تأويله عند أهل التفسير أنَّ من حكم بغير ما أنزل الله ـ وهو على ملة الإسلام ـ كان بذلك الحكم كأهل الجاهلية ، إنما هو أنَّ أهل

---

(١) سورة المائدة: ٤٤ .
(٢) كتاب الإيمان ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ، منشور ضمن أربع رسائل ، ص: ٩٤ .
(٣) سورة المائدة: ٥٠ .

الجاهلية كذلك كانوا يحكمون ، وهذا كقوله: (ثلاثة من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب ، والنياحة ، والأنواء) . حديث صحيح[1] ، وكذلك حديث: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان)[2] .

قال أبو عبيد: « ليس وجوه هذه الآثار أنَّ راكبها يكون جاهلاً ، ولا كافراً ، ولا منافقاً ، وهو مؤمن بالله وما جاء من عنده ، ومؤد لفرائضه ، ولكن معناها أنها تتبين من أفعال الكفار المحرمة المنهي عنها في الكتاب والسنة ، ليتحاماها المسلمون ، ويتجنبوها ، فلا يتشبّهون بشيء من أخلاقهم، ولا شرائعهم » .

وأورد حديث: (إذا استعطرت المرأة ثم مرت بقوم يوجد ريحها أنها زانية)[3] ، فهل يكون هذا من الزنى الذي تجب فيه الحدود ؟

ولعل مراد أبي عبيد القاسم بن سلام بقوله: « أنَّ الحكم بغير ما أنزل الله ليس كفراً مخرجاً من الملة » هو حكم القاضي أو الحاكم المسلم في قضية ما بالهوى مع حكمه في بقية الأمور بحكم الله .

أما الحكم بالقوانين الكافرة ، وتطبيقها على الشعوب الإسلامية بقوة الحديد والنَّار، ومحاربة وتعذيب كل من نادى بتطبيق الإسلام فهذا ليس من الإسلام في شيء ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ .

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ١/٥٨٣ . ورقمه: ٣٠٣٩ ، ولفظه فيه: (ثلاث من فعل أهل الجاهلية، لا يدعهنَّ أهل الإسلام : استسقاء بالكواكب ، وطعن في النسب ، والنياحة على الميت » وعزاه إلى البخاري في التاريخ ، والطبراني في الكبير ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه

(٢) صحيح البخاري: ١/٨٩ ، ورقمه: ٣٣ ، وصحيح مسلم: ١/٧٨ . ورقمه: ٥٩.

(٣) قال محقق كتاب الإيمان: ص: ٩٦ ، حديث صحيح ، أخرجه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم في « صحاحهم » عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً بلفظ (أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية ، وكل عين زانية) وأخرجه بنحوه أبو داود والترمذي وصححه .

(٤) سورة النساء: ٦٥ .

٣- القائلون إن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان

جنح الخوارج إلى جانب واحد من النصوص ، تلك النصوص التي تبين أنَّ مرتكب الكبيرة قد شوَّه إيمانه وأنقصه ، ولم يدركوا النصوص الدالة على أن الإيمان لم يزل منه بالكلية ، وفي مقابل هؤلاء فريق [1] آخر زعم أن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان ، وقرروا « أنه لا يضرُّ مع الإيمان ذنب » وهؤلاء قالوا: الإيمان اعتقاد القلب ، ونطق اللسان ، والأعمال ليست من الإيمان . وقالوا: الإيمان القلبي شيء واحد لا يتفاوت فيه الناس ، واحتجوا بالنصوص التي تدلُّ على أنَّ الذين ارتكبوا الكبائر مؤمنون يدخلون الجنة .

ويردُّ عليهم أنَّه ورد في أكثر من نصّ اعتبار الأعمال من الإيمان كقوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان)[2].

ويردُّ قولهم أيضاً نصوص الوعيد كقوله ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[3] .

وهذان الفريقان لهما آثار سيئة ، فالأولون المكفرون ييئسون الناس من رحمة الله ، والآخرون يجرئون النَّاس على ارتكاب الذنوب والمعاصي ، وسلف الأمة وسط بين هؤلاء وهؤلاء ، فهم يثبتون لمرتكب الكبيرة إيماناً مقيداً في الدنيا ، وفي الآخرة أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم .

---

(١) هؤلاء هم الذين يسمون « بالمرجئة »: لأنهم ارجؤوا « أخَّروا » الأعمال عن الإيمان .
(٢) رواه البخاري: ١/٥١ ، ورقمه: ٩ . ومسلم: ١/٦٣ ، ورقمه: ٣٥ ، واللفظ لمسلم .
(٣) رواه البخاري ومسلم ، وقد سبق تخريجه .

المبحث الرابع

العقيدة والفلسفة وعلم الكلام

المطلب الأول

الفرق بين العقيدة الإسلامية والفلسفة وعلم الكلام

على الرغم من أنَّ الموضوع الذي تعالجه الفلسفة هو الموضوع ذاته الذي يعالجه الدين ، إذ يزعم الفلاسفة أنَّ مباحثهم تهدف إلى معرفة أصل الوجود وغايته ، ومعرفة السبيل الذي يحقق السعادة الإنسانية عاجلاً وآجلاً ، وهذان هما موضوع علم الفلسفة بقسميها العلمي والعملي ، وهما كذلك موضوع علم الدين [1] ـ أقول على الرغم من ذلك إلا أنّ الاختلاف بين الدِّين والفلسفة اختلاف كبير . فهما يختلفان في المصادر والمنابع ، وفي المنهج والسبيل ، وفي قوة التأثير والسيطرة ، وفي الأسلوب وطريقة الاستدلال ، وفي آثار كل منهما . وسنحاول أن نبين ذلك كله حتى يزول هذا الخلط بين الدين والفلسفة.

١ـ المصادر والمنابع :

الفلسفة في كل صورها « عمل إنساني » يتحكم فيه كل ما في طبيعة الإنسان من قيود وحدود وتدرج بطيء في الوصول إلى المجهول ، وقابلية للتغير والتحول ، وتقلب بين الهدى والضلال ، واقتراب أو ابتعاد عن درجة الكمال .

ولذا فإن أساطين الفلسفة لم يستطيعوا أن يتخلّصوا من التأثر بالبيئة،

---

(١) الدين ، لدراز: ٥٩ ، ٦٠ .

فكانت تصوراتهم ومعتقداتهم فيها صدى كبير لما يحيط بهم[1].

ولنأخذ على ذلك مثلاً (أفلاطون) فإنّا إذا درسنا نتاجه رأيناه يردد الأساطير التي سادت في عصره، بل إنّه ينشئ الأسطورة، ويضمنها أفكاره ومعتقداته ، بل إن كثيراً من معتقداته وآرائه هي أساطير في ذاتها.

اسمع ما يقوله العقاد في (أفلاطون): « غلبت البيئة الوثنية أفلاطون على تفكيره بحكم العادة وتواتر المحسوسات ، فأدخل في عقيدته أرباباً، وأنصاف أرباب لا محل لها في ديانات التوحيد »[2].

ثم يعرض العقاد نظرية أفلاطون في الوجود تدليلاً على ما يقول: «فالوجود في مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان: طبقة العقل المطلق ، وطبقة المادة الأولية أو (الهيولي) ، والقدرة كلها من العقل المطلق ، والعجز كله من (الهيولي) ، وبين ذلك كائنات على درجات تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل ، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولي ، وهذه الكائنات المتوسطة بعضها أرباب ، وبعضها أنصاف أرباب ، وبعضها نفوس بشرية »[3].

والسبب الذي من أجله ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة كما يقول العقاد « إنه أراد أن يعلل بها ما في العالم من شرّ ونقص وألم ، فإنَّ العقل المطلق كمال لا يحدُّه الزمان والمكان ، ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة ، فهذه الأرباب الوسطى هي التي تولت الخلق لتوسطها بين الإله القادر « والهيولي » العاجز ، فجاء النقص والشر والألم من هذا التوسط بين الطرفين »[4].

ومن المعروف أيضاً أن أفلاطون يؤمن بعقيدة تناسخ الأرواح .

هذه هي الفلسفة في مصادرها .

أما العقيدة الإسلامية فهي وحي من الله ، له كلّ ما للإلهيات من ثبات الحقّ الذي لا تبديل لكلماته ، وصرامة الصدق الذي لا يأتيه الباطل من بين

---

(١) المصدر السابق: ٧٣ .
(٢) كتاب الله، للعقاد: ١٢٩ .
(٣) كتاب الله ، للعقاد: ١٢٩ .
(٤) المصدر السابق.

يديه ولا من خلفه ، ثم هو فوق ذلك « منحة كريمة » تصل إلى حامليها وسفرائها عفواً بلا كدح ولا نصب ، وتغمرهم بنورها في فترات خاطفة كلمح البصر أو هو أقرب[1] .

٢ـ المنهج والسبيل[2] :

يختلف المنهج الفلسفي عن المنهج الإسلامي في خط سير كلٍّ منهما بداية ونهاية ، فالفلاسفة كثير منهم يبدؤون بدراسة النفس الإنسانية ، ويجعلونها الأصل الذي يبنون عليه ، ويفرعون عنه ، فتكلموا في إدراكهم للعلم : وأنه تارة يكون بالحسِّ ، وتارة بالعقل ، وتارة بهما .

وجعلوا العلوم الحسيَّة ، والبدهية ونحوها : هي الأصل الذي لا يحصل علم إلا بها ، ثم زعموا أنهم إنما يدركون بذلك الأمور القريبة منهم ،من الأمور الطبعية والحسابية ، والأخلاق ، فجعلوا هذه الثلاثة هي الأصول التي يبنون عليها سائر العلوم ، ولهذا يمثلون ذلك في أصول علم الكلام ، بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الجسم لا يكون بمكانين ، وأن الضدّين ـ كالسواد والبياض ـ لا يجتمعان .

وكثير من هؤلاء لا يجعلون الأخلاق مثل : العدل ، والعفَّة من الأصول، بل من الفروع التي تفتقر إلى الدليل .

وكثير من المصنفين في الفلسفة يبتدئ بالمنطق ، ثم الطبيعي والرياضي، ثم ينتقل إلى العلم الإلهي ، وتجد المصنفين في الكلام يبدؤون بمقدماته في الكلام : في النظر والعلم والدليل ، وهو من جنس المنطق ، ثم ينتقلون إلى حدوث العالم وإثبات مُحدِثه ، ومنهم من ينتقل من تقسيم المعلومات إلى الموجود والمعدوم وأقسامه ، كما يفعله الفيلسوف في أول العلم الإلهي .

وغالبية الفلاسفة يتوسعون في الأمور الطبعية ، ثم يصعدون إلى الأفلاك وأحوالها ، ثم المتألهون منهم يصعدون إلى واجب الوجود ، وإلى العقول

---

(١) الدين ، لدراز : ٧٣ .

(٢) راجع في هذا الموضوع مجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام : ٢/١ ، ٢٥ ، وهذا الذي ذكره وأثبتناه هنا باختصار أصل عظيم يدل على فقه كبير منه رحمه الله .

والنفوس ، ومنهم من يثبت واجب الوجود ابتداء من جهة أن الوجود لا بدَّ فيه من واجب .

وأما الغاية التي يرمي إليها المتكلمون الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر هي إثبات وحدانية الخالق ، وأنَّه لا شريك له ، ويظنون أنَّ هذا هو المراد بـ (لا إله إلا الله) .

هذا المنهج الفلسفي الكلامي يشغل الباحث والناظر فيه في قضايا ينقضي العمر ، ولا ينتهي من بعضها ، بل إنَّ الذي يحصِّله منها ينطوي على شبهات تجعل اليقين غير موجود ، فيصاب الباحث بالحيرة والشك.

أما المنهج القرآني ، فإنَّه يجعل فاتحة دعوته ودعوة الرسل جميعاً: الدعوة إلى عبادة الله وحده ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1] وكلُّ رسول كان يطالب قومه في أول الأمر بأن يعبدوا الله وحده ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[2] يطالبهم بعبادته بالقلب، وعبادته باللسان، وعبادته بالجوارح، وعبادة الله متضمنة لمعرفته وذكره.

وأصل العلم عندهم هو العلم بالله سبحانه ، لا الحس ولا البدهيات، فالله هو الأول الذي خلق الكائنات ، والآخر الذي إليه تصير الحادثات، فهو الأصل الجامع ، والعلم به أصل كل علم وجامعة، وذكره أصل كل ذكر وجامعه ، والعمل له أصل كل عمل وجامعة .

ومن العلم به تتشعب أنواع العلوم ، ومن عبادته وقصده تتشعب وجوه المقاصد الصالحة ، والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم مستمسك قد لجأ إلى ركن وثيق، واعتصم بالدليل الهادي، والبرهان الوثيق، فلا يزال إما في زيادة في العلم والإيمان ، وإما في السلامة عن الجهل والكفران ، فالعلم بالله أعظم سبيل لمعرفة الله ، ومعرفة الحياة والأشياء ، ومعرفة النفس الإنسانية .

يقول ابن أبي حاتم: « عرفنا كل شيء بالله » . وسئل ابن عباس: بم عرفت ربك ؟ قال: « من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس ،

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٢) سورة المؤمنون: ٢٣ .

ظاعناً [1] في الاعوجاج ، زائغاً [2] عن المنهج ، أعرفه بما عرف به نفسه، وأصفه بما وصف به نفسه » .

وقد أخبر الرسول ﷺ معاذاً حين أرسله إلى اليمن للدعوة إلى الله: أنّه سيقدم على قوم أهل كتاب وأوصاه أن يكون أول ما يدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا ذلك فيدعوهم إلى الفرائض ، ولم يأمره ﷺ أن يدعوهم أولاً إلى الشك، أو النظر ، أو القصد إلى النظر كما هي طريقة بعض المتكلمين.

ولذا ابتدأ البخاري كتابه بالأصل الذي يقوم عليه العلم والإيمان الا وهو الوحي، فعقد كتاباً عنونه بـ (بدء نزول الوحي) ، فأخبر عن صفة نزول العلم والإيمان على الرسول ﷺ أولاً، ثم أتبعه بكتاب الإيمان الذي هو الإقرار بما جاء به، ثم بكتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به، فرتبه الترتيب الحقيقي الذي يدل على علمه وحكمته رحمه الله.

والله عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدهية ، والمنطق والطبعي، بل يسألهم عن استجابتهم للرسل أو عدمها ﴿ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[3]، والحجة لا تقوم على الناس إلا ببعثه الرسل ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾[4].

وكما أن الدعوة إلى عبادة الله هي نقطة البداية في المنهاج القرآني ، ومعرفة الله هي الأصل الذي تتفرع منه العلوم ، فإن نقطة النهاية أيضاً عبادة الله المتضمنة معرفته وتوحيده. أما مجرد الإقرار بوحدانية الخالق وإفراد الصانع التي هي نهاية مطلوب علماء الكلام ، فإنها ـ على الرغم من أهميتها ـ جزئية في المنهج القرآني لا يكفي مجرد الإقرار بها، ولذا لم تنفع المشركين الذين حاربهم الرسول ﷺ مع إقرارهم بذلك ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) الظعن: السير ، أي أبعد في الاعوجاج .
(٢) زائغاً: مائلاً وحائداً .
(٣) سورة الملك: ٨ ـ ١١.
(٤) سورة الإسراء: ١٥ .

وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[1] . ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾[2] .

أما الفلاسفة الذين بحثوا في العقول والنفوس فهم يخبطون في هذا المجال خبطاً لا قرار له ، وحسبك دليلاً على ذلك أن التقدم العلمي الهائل في هذا العصر لم يكشف لنا حقيقة النفس الإنسانية « ولقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه ، ولكن على الرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظات التي كدسها الفلاسفة والعلماء والشعراء وكبار الروحانيين في جميع الأزمان إلا أننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا ، إننا لا نفهم الإنسان ككل . . . ، إننا نعرفه على أنّه مكون من أجزاء مختلفة ، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا ! فكل واحد منا مكوّن من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة .

وواقع الأمر أنّ جهلنا مطبق ، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنة ما زالت غير معروفة »[3] .

إذا كانت هذه هي المعرفة التي بلغتها الأبحاث في القرن العشرين ، فكيف تجعل النفس الإنسانية هي الأصل الذي يتفرع عنه مختلف العلوم، أمّا المعرفة بما وراء الطبيعة فإن الفلسفة ضلت فيها ضلالاً أبعد وأبين.

٣ـ قوة التأثير[4] :

العقيدة تمتاز بسلطان قوي قاهر على نفوس معتنقيها ، وليس للفلسفة أن تطمح إلى نيل هذه الميزة ، وإلا لجاوزت قدرها ، وتناقضت في نفسها ، والسبب في ذلك أنّ الفلسفة تبحث عن المعرفة والحقيقة بقدر الطاقة البشرية، ثم تعرض ما تظفر به في جوانب تلك الحقيقة ، والفيلسوف هو أول من

---

(١) سورة لقمان: ٢٥ .
(٢) سورة المؤمنون: ٨٦ـ ٨٧ .
(٣) كتاب العلم يدعو إلى الإيمان.
(٤) راجع في هذا المبحث كتاب الدين ، لدراز: ٦٩ ، وما بعدها .

يعرف قصور العقل البشري ، وقصور كل ما هو إنساني عن درجة الكمال، ولذلك كان التسامح والتواضع العلمي من أظهر خصائصه، فسقراط وهو مَنْ هو بين الفلاسفة يقول: « الشيء الذي لا أزال أعلمه جيداً هو أنني لست أعلم شيئاً » .

أما صاحب العقيدة فيرى أنّ عقيدته التي يحملها مستمدة من العالم بسر الوجود الذي أحاط بكل شيء علماً، فهي تمثل الحقيقة بلا غبش .

فهي بطبيعتها ملزمة ، تتقاضى صاحبها الخضوع والتسليم ، ولا تقبل منه في حكمها جدالاً ولا مناقضة ، بل لا تبيح له في نفسها بحثاً ولا ترديداً، فإن فعل ذلك في مسألة ما، كان في هذه المسألة بعينها متفلسفاً غير متدين، حتى يستقرَّ فيها على رأي معين يدين به ، فهنالك لا يقبل فيه مساومة، ولا يستطيع منه تحللاً؛ إذ يصبح عقيدة يخلص لها إخلاصاً خارقاً للعادة ، حتى لا يبالي بأن يضحي في سبيلها بحياته، ولا نكاد نجد هذا السلطان على النفس لفكرة أخرى: علمية أو سياسية أو غيرها.

ويبين الشيخ محمد عبدالله دراز السر في هذه الظاهرة فيقول: « السر في هذه الظاهرة - وهي قوة سلطان العقيدة وتميزها بذلك عن الفلسفة - يتمثل في الفارق بين حقيقة المعرفة وحقيقة الإيمان ، وفي الفرق بين القوة النفسية التي تقوم بوظيفة المعرفة ، والقوة النفسية التي تقوم بوظيفة الإيمان . فالواحد من الناس قد يدرك معنى الجوع والعطش وهو غير محس بآلامهما ، وقد يفهم معنى الحبّ والشوق ، وليس من أهلهما ، وقد يرى الأثر الفني البارع فيفهم أسراره ، ويقف على دقائق صنعه ، ولكنه لا يتذوقه ، ولا يتملك قلبه الإعجاب به . . .

هذه ضروب من المعرفة والعلم ، يهديها إلينا الحس ، أو الفكر ، أو البديهة ، فتلاحظها النفس ، وكأنها غريبة عنها ، أو تمرُّ بها عابرة ، فتمسها مساً جانبياً لا يبلغ إلى قرارتها ، أو تختزنها وتدخرها ، ولكنها لا تهضمها ولا تتمثلها ، وكل حالة نفسية تقف بالأفكار والمبادئ عند هذه المراحل فليست من الإيمان في قليل ولا كثير .

الإيمان معرفة تتجاوب أصداؤها في أعماق الضمير ، وتختلط مادتها بشغاف القلوب ، فلا يجد الصدر منها شيئاً من الضيق والحرج ، بل تحس النفس ببرد اليقين ، الإيمان تذوق ووجدان يحمل الفكرة من سماء العقل إلى قرارة القلب ، فيجعلها للنفس رياً وغذاء يدخل في كيانها ، ويصبح عنصراً من عناصر حياتها ، الإيمان يحول الفكرة قوة دافعة فعَّالة خلاقة ، لا يقف في سبيلها شيء في الكون إلا استهانت به .

هذا هو فصل ما بين الدين والفلسفة ، غاية الفلسفة المعرفة ، وغاية الدِّين الإيمان ، مطلب الفلسفة فكرة جافة ترتسم في صورة جامدة ، ومطلب الدين روح وثَّابة وقوة محركة .

ويلاحظ دراز أن الفلسفة تعمل في جانب واحد من جوانب النفس ، بينما الدين يستحوذ على النفس بجملتها ، وأن الفلسفة ملاحظة وتحليل وتركيب ، فهي صناعة تقطع أوصال الحقيقة وتزهق روحها ، ثم تؤلف بينها لتعرضها من جديد في نسق صناعي على مرآة الفطنة ، فتنطبع على سطح النفس قشرة يابسة ، أما الدِّين فهو حداء ونشيد يحمل الحقيقة جملة ، فيعبر بها القشرة السطحية ، لينفذ منها إلى أعماق القلوب وأغوارها ، فتعطيها النفس كليتها وتملكها زمامها .

وهنا يستنبط دراز فرقاً دقيقاً بين الفلسفة والدين: فيلاحظ أنَّ غاية الفلسفة نظرية حتى في قسمها العملي ، وغاية الدِّين عملية ، حتى في جانبه العلمي، فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير ما هما ، وأين هما؟ ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحقِّ الذي تعرفه ، والخير الذي تحدِّده ، أما الدِّين فيعرفنا الحقَّ لا لنعرفه فحسب ، بل لنؤمن به ونحبه ونمجده ، ويعرفنا الواجب لنؤدِّيه ونوفيه، ونكمل نفوسنا بتحقيقه.

وكي يزيد الأمر إيضاحاً قارن بين الآثار العملية الدينية والفلسفية ، وبَيَّنَ دراز أنَّ الدِّين يلفت النظر كي يتعرف الإنسان بخالقه، ويتوجه إليه، ويحبُّه ويُقدِّسه ، على أنَّ غاية الفلسفة مجرد المعرفة التي تربط بين الأسباب والمسببات .

وبين أنَّ العقيدة الدينية تتدفق في الميدان الاجتماعي، فهي تهز صاحبها لتحقيق أهدافها بالنشر والدعوة، بينما الفلسفة لا يعنيها التوسع والانتشار، بل قد يضنُّ بها أصحابها على غيرهم ، فيحتكرونها ، ويستأثرون بها.

٤ـ الأسلوب: [1]

الأسلوب الذي صيغت به العقيدة الإسلامية أسلوب خاص يمتاز بالحيوية والإيقاع ، واللمسة المباشرة والإيحاء ، الإيحاء بالحقائق الكبيرة التي لا تتمثل كلها في العبارة ، ولكن توحي بها العبارة ، كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها، ولا تخاطب الفكر وحده في الكائن البشري.

أما الفلسفة فلها أسلوب آخر ؛ إذ هي تحاول أن تحصر الحقيقة في العبارة، ولما كان نوع الحقيقة التي يتصدى لها يستحيل أن تنحصر في منطوق العبارة ـ فضلاً على أنَّ جوانب أساسية من هذه الحقائق هي بطبيعتها أكبر من المجال الذي يعمل فيه الفكر البشري ـ فإنَّ الفلسفة تنتهي حتماً إلى التعقيد والتخليط والجفاف ، ومن هنا لا يجوز أن تُعرض العقيدة الإسلامية بأسلوب الفلسفة، لأنه يقتلها ويطفئ إشعاعها وإيحاءها ، ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية .

ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف في كل المباحث التي تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب الغريب على طبيعتها ، وفي هذا القالب الذي يضيق عنها ، ومسلك القرآن في بيان العقيدة الإسلامية متسم بالبساطة والوضوح يجعل إدراكها سهلاً ميسراً لكافة مستويات النَّاس على اختلاف مداركهم وفطرهم ، يأخذ كل حسب طاقته من التفكير والاقتناع ، بخلاف تلك الأساليب الفلسفية والكلامية المعقدة المتلئة بالمصطلحات ، إذ لا يدرك محتوياتها إلا القليل من النَّاس .

---

(١) راجع خصائص التصور الإسلامي ، لسيد قطب ص: ١٦ .

٥ـ طريقة الاستدلال:

وفي هذا الجانب يتميَّز القرآن في ما جاء به من الأدلة عن الطريقة الفلسفية الكلامية ، ويمكن أن نوضح هذه الفروق في النقاط التالية:

أ ـ استدل القرآن بالآيات المشهودة (الكونية) على وحدانية الخالق ، وكذلك الفلاسفة والمتكلمون ، ولكنَّ طريقة القرآن مخالفة للطريقة الفلسفية الكلامية ، فالقرآن يستدل بالآيات نفسها التي يستلزم العلم بها العلم بصانعها، كاستلزام العلم بشعاع الشمس العلم بالشمس من غير احتياج إلى إقامة الأقيسة التي أقامها المتكلمون للاستدلال على حدوث العالم .

فالعلم بكون هذه العوالم مخلوقة مربوبة أمر فطري لا يحتاج إلى إقامة الدليل والبرهان ، فالإنسان يعلم بفطرته أنَّ هذا الكون الذي يراه فقير إلى الخالق ، مقهور مربوب ، وهذا لا يحتاج إلى تلك الأقيسة التي أقاموها ، كي نعلم حدوث العالم ، وأن له مُحدثاً .

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] .

ب ـ الأدلة العقلية [2] التي جاء بها القرآن لائقة بجلال الله وكماله ، فلم يستعمل القرآن قياس الشمول وقياس التمثيل الذي تستوي أفراده في حقّ الله تعالى ، لأنه يلزم منهما تسوية الخالق بالمخلوق .

وإنما يستعمل في حقه تعالى قياس الأولى الذي مضمونه أنَّ كلَّ كمال

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) يخطئ كثير من المتكلمين والفلاسفة في ظنّهم أنَّ دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرد، وأنها لم تتعرض للأدلة العقلية ، فالحقُّ أنَّ القرآن بين من الأدلة التي يحتاج إليها في العلم بالله ووحدانيته ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره . ونهاية ما يذكره المتكلمون جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه ، وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله تعالى في كتابه التي قال فيها: ﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ﴾ (سورة الكهف: ٥٤) ، والأمثال المضروبة هي (الأقيسة العقلية) .

وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف المخلوق به ، فالخالق أولى أنْ يتصف به ، لأنَّه هو الذي وهب المخلوق ذلك الكمال ، ولأنَّه لو لم يتصف بذلك الكمال مع إمكان أن يتصف به ، لكان في الممكنات من هو أكمل منه وهو محال، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (١) .

وكلُّ نقص ينزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه.

جـ ـ ونلاحظ أيضاً ان الأدلة العقلية القرآنية تدلُّ على الحقِّ بأبلغ عبارة وأوجزها ، أمَّا الأدلة العقلية الكلامية والفلسفية فكثير منها لا ينهض للاستدلال به ، وضعف الدليل الذي يستدلُّ به على الحقِّ يؤدي إلى كثرة الشك والاضطراب والحيرة ، بل قد يؤدي إلى ردِّ الحق ، إذ يسهل على الخصم بيان عوار الدليل ، فإذا ردَّه ردَّ الحقَّ مع أنَّ الحقَّ قويٌّ في ذاته ، والضعف إنَّما هو في الدليل الموصل إليه ، لأجل ذلك نجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول ، وجزماً بالقول في موضع وبنقيضه في موضع آخر ، بل يكفِّرون بقولٍ ما ، وهم ممن قال به في مكان آخر ، بخلاف أدلة الكتاب والسنة فإنَّ أصحابها مستقرون عليها ، آخذون بها ، لا يتلجلجون ، ولا يضطربون (٢) .

د ـ ونلاحظ أنَّ بعض أدلة المتكلمين يلزم منها لوازم باطلة ، إذ يلزم من بعضها ردُّ الحق الثابت في الكتاب والسنة .

فقد ردوا النصوص التي تدلُّ على أنَّ الله في السماء بدعوى أنَّ الله لا يكون في جهة ، لأنَّ كونه في جهة يُعدُّ تحيُّزاً ، مع أنَّ النصوص صريحة في كونه تعالى في السماء ، وخطؤهم أنَّهم ظنوا أنَّ معنى كونه في السماء: أنَّ السماء تحويه ، وأخطؤوا أيضاً عندما طبقوا المقاييس البشرية على الذات الإلهية .

---

(١) سورة النحل: ٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ، لابن تيمية: ٤/ ٥٠ .

٦ـ الجنى والعطاء:

ومن الفُروق أيضاً أن القرآن يعطي إيماناً مفصّلاً كما قال جندب بن عبدالله « تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن ، فازددنا إيماناً » .

فالقرآن يصف لنا ربنا ، وأن له وجهاً ويداً وسمعاً وبصراً ، ويعدِّد لنا أسماءه وصفاته: فهو الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام، المؤمن، المهيمن ، العزيز الجبار . . . ويعرفنا بأفعاله ومخلوقاته ، ويصف لنا القيامة وأهوالها والجنة والنّار كأننا نراهما .

أما طريقة المتكلمين فإنَّ غاية ما عندهم إيمان مجمل ، لا يعطي علماً وافياً ، ولا تصوراً واضحاً .

لا لقاء:

لا لقاء بين الدِّين والفلسفة فهما منهجان مختلفان: في البداية والنهاية، والطريقة والأسلوب ، وفي التأثير والعطاء ، وقبل ذلك كلّه في المنابع والمصادر .

والإسلام لا يحتاج إلى من يكمله، فقد أكمله العليم الخبير: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾[1]، ولا نحتاج إلى أن نوفِّق بينه وبين الفلسفة، ولا بينه وبين اليهودية والنصرانية، ولا بينه وبين الشيوعية والاشتراكية، فالإسلام حق لا باطل فيه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[2] وغيره إمّا باطل، وإما حق مخلوط بباطل، والإسلام ما جاء لتحكمه أفكار البشر، وإنما جاء ليهيمن على الحياة والأحياء، ويقوِّم المعوجَّ من العقائد والأفكار.

يجب علينا أن نبقي عقيدتنا وشريعتنا متميزة صافية نقية كما يريد ربنا ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[3] وإن خلطها بغيرها يؤدي إلى اللبس الذي عابه الله على أهل الكتاب ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: ٣.
(٢) سورة فصلت: ٤٢.
(٣) سورة البقرة: ٢٥٦ .
(٤) سورة آل عمران: ٧١ .

المطلب الثاني: موقف العلماء من الفلسفة وعلم الكلام

قاوم العلماء الاتجاه الداعي إلى خلط مباحث العقيدة بالفلسفة وعلم الكلام، ذلك الخلط الذي أنشأه الذين يعرفون بفلاسفة الإسلام كابن سينا، وحاربوا الذين تأثروا بهذه الفلسفات .

والعلماء الأعلام قسمان: قسم تنبهوا إلى خطر هذا المسلك منذ الوهلة الأولى ، فقاوموا هذا الاتجاه منذ البداية كالإمام أحمد ، رحمه الله، وكذلك الشافعي الذي يقول: « حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام » .

وقسم خاض فيما خاض فيه المتكلمون ، فأضناهم المسير ، ولم ينتبهوا إلا وشمس العمر تميل إلى الغروب ، فتندَّموا ولات ساعة مندم، ولم يبق لهم سوى التأوه والتحسر ، وسؤال الله أن يتجاوز عنهم ، وأن يحذِّروا مَنْ خلفهم من سلوك الطريق الخاطئ الذي ساروا فيه .

من هؤلاء محمد بن عمر الرازي قال في كتابه أقسام اللذات[1]:

نهاية إقدام العقول عقال	وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أنْ جمعنا فيه قيلَ وقالوا
فكم قد رأينا من رجالٍ ودولة	فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علا شرفاتها	رجال فزالوا والجبال جبال

وقال الرازي: « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً » وعاد إلى الطريقة القرآنية ، وضرب مثلاً بمنهج القرآن في الصفات: « ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[2] ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ

---

(١) الصواعق المرسلة ، لابن القيم: ص:٧ ، وكتاب اعتقادات فرق المسلمين ، للرازي: ص٢٣.
(٢) سورة طه: ٥.

ٱلطَّيِّبُ﴾[1] .

وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[3]، ثم قال: « من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي »[4].

وهذا الشهرستاني يضرب على الوتر نفسه ، ويقرر أنّه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين بعد طول بحث إلا الحيرة والندم حيث يقول:[5]

لعمري لقد طفت المعاهد كلّها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

وهذا الجويني - وهو من الجهابذة الذين اشتغلوا بعلم الكلام - يقول محذراً من الاشتغال به[6]: « يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أنّ الكلام ، يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به » .

وقال عند موته متندماً متحسراً: « لقد خضت البحر الخضم ، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني الله برحمته ، فالويل لابن الجويني ، وها أنذا أموت على عقيدة أمي ، أو قال على عقيدة العجائز» .

وأبو حامد الغزالي - رحمه الله - من هؤلاء الذين أطالوا البحث والتنقيب والتنقل من فرقة إلى فرقة، وقد انتهى في آخر عمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية ، وألف كتابه: (إلجام العوام عن علم الكلام) ، بل حرّم الاشتغال بعلم الكلام إلا في حالات خاصة « الحق أن علم الكلام حرام إلا لشخصين » .

وقد أعرض في آخر عمره عن الاشتغال بعلم الكلام والطرق الكلامية، وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ ، فمات وصحيح البخاري على صدره .

---

(١) سورة فاطر: ١٠ .
(٢) سورة الشورى: ١١.
(٣) سورة طه: ١١٠ .
(٤) الفتوى الحموية الكبرى ، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٧.
(٥) نهاية الإقدام في علم الكلام ، للشهرستاني: ص ٣.
(٦) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية، وانظر الفتوى الحموية: ص٧.

وأبو الحسن الأشعري نشأ معتزلياً ، وبقي كذلك أربعين عاماً ، ثم رجع عن ذلك ، وصرَّح بتضليل المعتزلة ، وبالغ في الرد عليهم [1] .

ولقد نشأ فريق بعد ذلك سار على المنهج السليم ، إلا أنَّه استوعب علوم هؤلاء ، وعرف مقاتلهم ، فكان يردُّ عليهم بالمنهج القرآني ، ويحاربهم بسلاحهم أيضاً مبيناً ما فيه من عوار وضعف ، وقائد هذا الفريق وحامل لوائه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

المطلب الثالث: مقارنة بين صاحب الرأي وصاحب العقيدة

وقبل أن أنهي الكلام في هذا الموضوع أقول: نحن بحاجة إلى رجال عقيدة لا إلى رجال فلسفة ، نحن نريد أقواماً يعالجون داءِ هذه الأمة وبلاءها، ولن يفعل ذلك أصحاب الفلسفة والرأي .

وقد عقد الأستاذ أحمد أمين ـ رحمه الله ـ مقارنة بين صاحب الرأي وصاحب العقيدة وأثر كل منهما في الحياة فقال:

فرق كبير بين أن ترى الرأي وأن تعتقده.

إذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك ، وإذا اعتقدته جرى في دمك ، وسرى في مخ عظامك ، وتغلغل في أعماق قلبك .

ذو الرأي فيلسوف يقول: إني أرى صواباً ما قد يكون في الواقع باطلاً ، وهذا ما قامت الأدلة عليه اليوم ، وقد تقوم الأدلة على عكسه غداً ، وقد أكون مخطئاً فيه ، وقد أكون مصيباً .

أما ذو العقيدة فجازم بات ، لا شك عنده ولا ظن ، عقيدته هي الحق، لا محالة ، وهي الحق غداً ، خرجت عن أن تكون مجالاً للدليل ، وسمت عن الشكوك والظنون .

ذو الرأي فاتر أو بارد ، إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة، وإن لم يتحقق ما رأى ، فلا بأس ، فقد احترز من قبل بأنَّ رأيه صواب يحتمل

---

(١) انظر كتابنا: معتقد الإمام أبي الحسن الأشعري ومنهجه .

الخطأ ، ورأي غيره خطأ يحتمل الصواب ، ذو العقيدة حار متحمس ، لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته .

ذو الرأي سهل أن يتحول وأن يتحوَّر ، هو عند الدليل ، أو عند المصلحة تظهر في شكل دليل ، أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله (لو وضعوا الشمس في يميني والقمرَ في شمالي ، على أن أدَعَ هذا الذي جئتُ به ما تركته) [1] .

الرأي جثة هامدة ، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها، والرأي كهف مظلم لا ينير حتى تلقي عليه العقيدة أشعتها ، والرأي مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض ، والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوام الوضيعة أن تتوالد على سطحه .

والرأي سديم يتكون ، والعقيدة نجم يتألق .

الرأي يخلق المصاعب ، ويضاعف العقبات ، ويصغي لأماني الجسد، ويثير الشبهات ، ويبعث على التردد ، والعقيدة تقتحم الأخطار ، وتزلزل الجبال ، وتلفت وجه الدهر ، وتغير سير التاريخ ، وتنسف الشك والتردد، وتبعث الحزم واليقين ، ولا تسمح إلا لمراد الروح [2].

---

(١) هذا حديث ضعيف رواه الطبري في تاريخه: ٢/٣٢٦، والبيهقي في دلائل النبوة: ٢/١٨٧، من طريق ابن إسحاق ، وسنده منقطع ، انظر السيرة النبوية لابن هشام: ١/٣٣٠ .
(٢) كتاب فيض الخاطر ، لأحمد أمين نقلاً عن كتاب (الإيمان والحياة ، للقرضاوي: ص٢٢).

المبحث الخامس

مناهج العلماء في إثبات العقائد[1]

هل نؤمن بعذاب القبر ، وبالحوض والميزان وأمثال ذلك من الأمور الاعتقادية ؟ وما الذي يجعلنا نؤمن بذلك أو ننفيه ؟

١ ـ يرى علماء السلف الصالح أنَّ كلَّ ما أخبرنا الله به ، أو أخبرنا به رسوله ﷺ ، ووصل إلينا بطريق صحيح ، يجب الإيمان به وتصديقه. وهم لا يفرقون بين الخبر المتواتر وخبر الآحاد[2] ، إذا كان صحيحاً ، بل يثبتون العقائد بهما من غير تفريق .

ويستدلون على ذلك بالأدلة العامة التي تأمرنا بتصديق الله ورسوله فيما أخبرا به، وطاعتهما فيما أمرا به مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[3] وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[4].

٢ـ واحتجت طائفة ممن ضعفت معرفتها بالصحيح والضعيف من أحاديث الرسول ﷺ بالأحاديث الموضوعة والضعيفة[5] في هذا الباب ومن أمثال هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة:

حديث « انتهيت إلى ربي ليلة أسري بي إلى السماء ، فرأيتُ ربي ، بيني وبينه حجاب بارزٌ ، فرأيت كل شيء منه ، حتى رأيت تاجاً مخوصاً من اللؤلؤ » . حديث موضوع[6] .

---

(١) انظر كتابنا (أصل الاعتقاد) فقد حققت فيه القول في هذه المسألة .

(٢) الحديث المتواتر ما رواه جمع غفير يستحيل في العادة اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب من مبدأ السند إلى منتهاه ، والآحاد ما نقص عن درجة التواتر .

(٣) سورة الأحزاب: ٣٦ .

(٤) سورة آل عمران: ٣٢.

(٥) الموضوع: المكذوب أي ما في سنده كذاب ، والضعيف ما لم تتوفر فيه شروط الصحيح.

(٦) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، للشوكاني: ٤٤١ .

حديث: (إنَّ الله يَجلسُ على القَنطرةِ الوسْطى بين الجنة والنار)[1].
ضعيف .

ويجب التحقق من الأحاديث قبل الاحتجاج بها سواء في العقيدة أو الأحكام ، وإلا فإنَّ النتيجة أنْ ننسب إلى دين الله ما ليس منه ، ونقرر أموراً اعتقادية باطلة.

ومثل الذين يثبتون العقائد بالأحاديث الضعيفة والموضوعة أولئك الذين يثبتونها بالمنامات والخرافات والأساطير.

٣ ـ ورفضت طائفة ثالثة الاحتجاج بالأدلة النقلية أي بالنصوص القرآنية والحديثية في إثبات العقائد ، وقد زعموا أنَّ « الأدلة النقلية لا تفيد اليقين ، ولا تحصل الإيمان المطلوب ، ولا تثبت بها عقيدة »[2]، وعللوا عدم إفادتها اليقين « بأنَّ الأدلة النقلية مجال واسع لاحتمالات كثيرة تحول دون هذا الإثبات »[3] .

وهذا قول متهافت لا يحتاج أن يتعب الناظر نفسه في الردّ عليه ، إذ هو مخالف لإجماع الأمة ، وإذا كانت النصوص مجالاً واسعاً للاحتمال فكيف يكون كلام البشر ؟ وكيف لا تثبت العقائد بكلام الله ورسوله ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

٤ ـ وذهب فريق رابع إلى رفض الاحتجاج بأحاديث الآحاد الصحيحة في باب العقائد، فلا يحتجون إلا بالقرآن أو المتواتر من الأحاديث، ولا يثبتون العقيدة بالقرآن والحديث المتواتر إلا إذا كان النصُّ قطعي الدلالة[4]، وإذا لم يكن النص قطعي الدلالة فإنَّه لا يجوز الاحتجاج به عندهم.

---

(١) المصدر السابق: ٤٤٨.
(٢) الإسلام عقيدة وشريعة ، لشلتوت: ص٥٣ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) يعنون بالقطعي الثبوت: القرآن والحديث المتواتر .
وبقطعي الدلالة: أن النص لا يحتمل معنى آخر ، أي لا يحتمل التأويل ، وقد ردوا لذلك النصوص الدالة على رؤية المؤمنين لربهم في يوم القيامة ، أما الأحاديث فهي وإن كانت قطعية الدلالة فقد زعمو أنها أحاديث آحاد ، وأما نصوص القرآن فقالوا: غير قطعية الدلالة وأولوها تأويلاً آخر (انظر إنكار الشيخ شلتوت لرؤية العباد لربهم في كتابه الإسلام عقيدة وشريعة: ص٥٧).

قال بذلك علماء الكلام قديماً ، وتابعهم بعض علماء الأصول ، وقد انتشر هذا القول في أيامنا ، حتى كاد ينسى القول الحقُّ ، ويستغرب من قائله. والعلماء قديماً وحديثاً كانوا ولا زالوا يبينون فساد هذا القول وخطورته، ويكشفون شبهة القائلين به .

توضيح شبهة هؤلاء: [1]

بينا أنَّ شبهة هؤلاء زعمهم أنَّ أدلة العقائد لا بدَّ أن تفيد اليقين ، وأحاديث الآحاد والنصوص القرآنية والأحاديث المتواترة إذا كانت دلالتهما غير قطعية لا تفيد اليقين ، بل هي ظنية ، والظنُّ لايجوز أن يحتج به في هذا المجال لقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [2] ، ولقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [3] ونحو ذلك من الآيات التي يذمُّ الله فيها المشركين لاتباعهم الظن.

واحتجاجهم بهذه الآيات وأمثالها مردود ، لأنَّ الظنَّ في الآيات ليس هو الظنّ الذي عنوه ، فإنّ النصوص التي ردُّوها ورفضوا الاحتجاج بها في مسائل العقائد تفيد الظن الراجح ،والظن الذي ذمه الله في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [4] هو الشك الذي هو الخرص والتخمين ، فقد جاء في « النهاية » و « اللسان » وغيرهما من كتب اللغة « الظن: الشك يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم به » .

هذا هو الظن الذي نعاه الله على المشركين ، ومما يؤيد ذلك قول الله فيهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [5] فجعل الظن هو الخرص الذي هو مجرد الحرز والتخمين ، إذ لو كان الظن المنعي به على المشركين هو الظن الغالب فإنه لا يجوز الأخذ به في الأحكام أيضاً؛ لأنَّ الله أنكر

(١) انظر « الحديث حجة بنفسه » و« وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد والأحكام» ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، وكتابنا: « أصل الاعقاد » .
(٢) سورة النجم: ٢٣.
(٣) سورة النجم: ٢٨.
(٤) سورة النجم: ٢٣ .
(٥) سورة الأنعام: ١١٦.

على المشركين الأخذ بالظنّ إنكاراً مطلقاً، ولم يخصه بالعقيدة دون الأحكام، ولأنّ الله صرح في بعض الآيات أنّ الظنّ الذي أخذه على المشركين يشمل القول به في الأحكام أيضاً ، فاسمع إلى قوله تعالى الصريح في ذلك: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾[1] وهذه عقيدة، ﴿ وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾[2] وهذا حكم، ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[3].

ثم إننا لا نسلم لهم القول إنّ أحاديث الآحاد لا تفيد العلم ، بل قد تفيده، يقول صديق حسن خان: « والخلاف في إفادة خبر الآحاد الظنّ أو العلم تقيد بما إذا لم يضم إليه ما يقويه ، أما إذا انضم إليه ما يقويه أو كان مشهوراً أو مستفيضاً فلا يجري فيه الخلاف المذكور .

ولا نزاع في أنّ خبر الواحد إذا وقع الإجماع على العمل بمقتضاه فإنَّه يفيد العلم ، لأنّ الاجماع عليه قد صيره من المعلوم صدقه ، وهكذا خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول ، فكانوا بين عامل به ومتأول له ، ومن هذا القسم أحاديث صحيحي البخاري ومسلم » .

وقال العلامة السفاريني في « لوامع الأنوار البهية »:

« وخبر الآحاد إن كان مستفيضاً مشهوراً أفاد علماً نظرياً كما نقله العلامة ابن مفلح وغيره عن أبي إسحاق الأسفرايني وابن فورك، وقيل يفيد القطع».

ثم ذكر قولاً إن خبر الآحاد غير المستفيض يفيد الظن لاحتمال السهو والخطأ ، و لكنَّه نقل عن الإمام الموفق (ابن قدامة) وابن حمدان والطوفي وجمع أنَّه يفيد العلم بالقرائن .

قال العلامة علاء الدين عليُّ بن سليمان المرداوي في شرح التحرير: «وهذا أظهر وأصح » وضبط القرائن يكون (بسكون النفس إلى الخبر

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٨ .
(٢) سورة الأنعام: ١٤٨ .
(٣) سورة الأنعام: ١٤٨ .

كسكونها إلى المتواتر أو قريب منه بحيث لا يبقى احتمال عنده ألبتة) .

ونصَّ أيضاً على أنَّ خبر الآحاد غير المستفيض يفيد العلم إذا نقله آحاد الأئمة المتفق عليهم وعلى إمامتهم وضبطهم .

ونقل عن القاضي أبي يعلى: « أنَّ هذا هو المذهب (مذهب الحنابلة)، وقال أبو الخطاب: هذا ظاهر كلام أصحابنا » .

وذكر السفاريني أن هذا القول اختاره ابن الزاعوني والإمام تقي الدين ابن تيمية ، ثم ذكر أن الذي عليه « الأصوليون من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ أنَّ خبر الواحد إذا تلقته الأمَّة بالقبول تصديقاً وعملاً به يوجب العلم » .

ثم ذكر أنَّ المخالفين في ذلك من أتباع الأئمة فرقة قليلة تابعت علماء الكلام ، وذكر أنَّ ممن قال بإفادة خبر الآحاد العلم « أبا إسحق وأبا الطيب، وذكره عبدالوهاب وأمثاله من المالكية والسرخسي وأمثاله من الحنفية » وقال: « وهو الذي عليه أكثر الفقهاء وأهل الحديث والسلف وأكثر الأشعرية وغيرهم» .

وقال ابن الصلاح: « ما أسنده البخاري ومسلم العلم اليقيني النظري واقع به ، خلافاً لقول من نفى ذلك محتجاً بأنَّه لا يفيد في أصله إلا الظن، وإنما تلقته الأمّة بالقبول، لأنه يجب عليهم العمل بالظن، قال: والظنُّ قد يخطئ» .

قال ابن الصلاح: « وقد كنت أميل إلى هذا وأحسبه قوياً ، ثم بان لي أنَّ المذهب الذي اخترناه أولاً هو الصحيح ، لأنَّ ظنَّ من هو معصوم من الخطأ لا يخطئ ، والأمة في إجماعها معصومة من الخطأ » . وابن الصلاح يعني أن الأمة أجمعت على صحة أحاديث البخاري ومسلم .

قال السفاريني: « ولما وقف ابن كثير على اختيار ابن الصلاح من أنَّ ما أسند في الصحيحين مقطوع بصحته ، قال: وأنا مع ابن الصلاح فيما نصَّ عليه وأرشد إليه » .

ثم ذكر أنَّ ابن كثير وقف على كلام لشيخه ابن تيمية مضمونه أنَّه نقل

القطع بالحديث الذي تلقته الأمة بالقبول عن جماعات ، وبعد أن ذكر بعض أسمائهم قال: (أي ابن تيمية) « وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ومذهب السلف عامة » [1].

والصواب من القول أن أحاديث الآحاد الصحيحة تفيد اليقين إذا احتفت بها قرائن ودلائل كما نقلنا ذلك عن جملة من أهل العلم ، فالأحاديث التي وردت في كتب السنة وصححها أهل العلم ولم يطعن في صحتها واحد منهم تفيد اليقين لإجماع الأمة على صحتها ، ومن ذلك ما اتفق عليه صاحبا الصحيح أو ورد في واحد من الصحيحين ، ولم يطعن في صحته واحد من أهل العلم . ومن ذلك أن يكون الحديث مشهوراً أو مستفيضاً أو رواه الأئمة الكبار كمالك عن نافع عن ابن عمر.

خلاصة القول في المسألة: أن علماء أهل السنة يقبلون أحاديث الآحاد الصحيحة في العقائد والأحكام من غير تفريق في ذلك ، يدلك على هذا تخريج أئمة أهل السنة كمالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي والدارمي وغيرهم للأحاديث المثبتة للعقائد في مدوناتهم، والمتواتر منها قليل، ولو لم يرتضوا الاستدلال بها لما أتعبوا أنفسهم في روايتها وضبطها وتدوينها ، ومن قال عنهم خلاف ذلك فإنه قد افترى عليهم، ولا دخل لكون الأحاديث الآحاد تفيد الظن الراجح أو اليقين في المسألة.

فالذين يقولون لا تفيد اليقين يرون الأخذ بها في العقائد إذا صحت ولا تلازم بين إفادتها الظن وردها في باب الاعتقاد .

فابن عبدالبر رحمه الله تعالى مع قوله إنّ أخبار الآحاد لا تفيد اليقين إلا أنه يرى أنه يجب الأخذ بها في العقائد كما يؤخذ بها في الأحكام ، وينسب ذلك إلى جماعة أهل السنة [2]

---

(١) لوامع الأنوار البهية: ص١٧ ، وبهذه النقول الكثيرة التي أثبتناها يتبين لك ما في قول الشيخ شلتوت من التجني حيث يقول: « وهكذا نجد نصوص العلماء متكلمين واصوليين مجتمعة على أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين ، فلا تثبت به العقيدة ، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضروري لا يصح أن ينازع أحد في شيء منه ..» راجع الإسلام عقيدة وشريعة: ص: ٧٥.

(٢) راجع التمهيد ، لابن عبد البر: ٧/١ .

النصوص الدالة على الاحتجاج بخبر الآحاد

وقد وردت نصوص كثيرة تدل على وجوب الأخذ بحديث الآحاد والاحتجاج بها في إثبات العقائد ، منها:

١- قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1] فهذه الآية فيها حثٌّ للقبائل والعشائر وأهل النواحي والأقطار المختلفة من المؤمنين على أن ينفر من كلّ منهم طائفة ليتفقهوا في دينهم ، ثم يرجعوا إلى قومهم فينذروهم ، والطائفة في لغة العرب: تطلق على الواحد فما فوق ، والتفقه في الدين: يشمل العقائد والأحكام ، بل التفقه في العقائد أهم من التفقه في الأحكام ، ولذا أطلق الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على وريقات كتبها في العقائد: (الفقه الأكبر) ، ففي الآية دليل صريح على وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة ، وإلا لما جاز للطائفة أن تنذر قومها.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾[2] وفي القراءة الأخرى (فتثبتوا) ، فإنها تدلُّ على أنَّ من لم يكن فاسقاً بأن كان عدلاً إذا جاء بخبر ما فالحجة قائمة به ، وأنه لا يجب التثبت، بل يؤخذ حالاً .

٣- وقد ورد في السنة ما يوضح قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾[3] ، فقد روى البخاري في صحيحه عن مالك بن الحويرث قال: (أتينا إلى النبي ﷺ ،ونحن شَبَبَة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة ، وكان رسول الله رحيماً رقيقاً ، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا ، أو قد اشتقنا ، سألنا عمن تركنا بعدنا ، فأخبرناه ، قال: ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم ، وعلموهم ، ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي)[4].

---

(١) سورة التوبة: ١٢٢.
(٢) سورة الحجرات: ٦.
(٣) سورة التوبة: ١٢٢.
(٤) صحيح البخاري: ٢/ ١١٠ ، ورقمه: ٦٢٧ ، ورواه مسلم: ١/ ٤٦٥ ورقمه: ٦٧٤ ، واللفظ للبخاري .

فقد أمر كلَّ واحد من هؤلاء الشباب أن يعلم كلٌّ واحد أهله ، والتعليم يعمُّ العقيدة ، بل هي أول ما يدخل في العموم ، فلو لم يكن خبر الآحاد مما تقوم به العقيدة لم يكن لهذا الأمر معنى .

٤ - وفي صحيحي البخاري ومسلم أيضاً: أنَّ أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: « ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام ، قال فأخذ بيد أبي عبيدة » فقال: (هذا أمينُ هذه الأمة)[١] .

فلو لم تقم الحجة بخبر الواحد لم يبعث الرسول ﷺ إليهم أبا عبيدة وحده ، وكذلك يقال في بعثه ﷺ في نوبات مختلفة أو إلى بلاد متفرقة غيره من الصحابة: كعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبي موسى الأشعري ، وأحاديثهم في الصحيحين وفي غيرها .

ولا ريب أن هؤلاء كانوا يعلِّمون العقائد في جملة ما يعلمون ، فلو لم تكن الحجة قائمة بهم عليهم لم يبعثهم رسول الله ﷺ أفراداً .

قال الإمام الشافعي - رحمه الله - في كتابه (الرسالة):

« وهو لا يبعث بأمره ، إلا والحجة للمبعوث إليهم وعليهم قائمة بقبول خبره عن رسول الله ﷺ »[٢] .

---

(١) صحيح مسلم: ١٨٨٨/٤ ، ورقمه: ٢٤١٩ ، والذي في البخاري أنه أرسله إلى أهل نجران ، صحيح البخاري.: ٩٣/٧ ، ورقمه: ٣٧٤٥ ، ٢٣٢/١٣ ، ورقمه: ٧٢٥٤ .
(٢) الرسالة ، للشافعي: ٤١٢ .

الرد على القائلين إن حديث الآحاد لا يؤخذ بها في العقيدة

وقد ردّ العلماء على الذين لا يأخذون بأحاديث الآحاد في العقيدة من وجوه كثيرة منها:

١ـ القول إن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة قول مبتدع حادث لا أصل له في الشريعة ، وكلُّ ما كان كذلك فهو قول مردود .

٢ـ قولهم هذا في ذاته عقيدة (أي إنّ أحاديث الآحاد لا يحتج بها)، وعلى طريقتهم فإن هذه العقيدة تحتاج إلى دليل قطعي ينهى عن الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة ، ولا دليل على ذلك .

٣ـ لو وجد دليل قطعي يدل على أن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة لعلمها الصحابة وصرحوا بها ، وكذلك مَنْ بعدهم من السلف الصالح .

٤ـ هذا القول مخالف للمنهج العلمي الذي كان عليه الصحابة ، فقد كان الواحد منهم يقبل خبر من حدثه عن الرسول ﷺ ويجزم به ، ولا يرد قول أخيه بحجة أن الحديث الذي نقله إنما هو حديث آحاد.

٥ـ الأدلة الدالة على وجوب الأخذ بأدلة الكتاب والسنة تشمل العقائد والأحكام ، فتخصيص هذه الأدلة بالأحكام دون العقائد إذا كانت آحاداً تخصيص من غير مخصص .

٦ـ أمر الله ـ تعالى ـ رسوله بالبلاغ المبين ، ومعلوم أنَّ البلاغ المبين هو الذي تقوم به الحجة على المُبلغ ويحصل به العلم ، فلو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم ، لم يقع به التبليغ فإنَّ الحجة إنَّما تقوم بما يحصل من العلم .

٧ـ يلزم من هذا القول إبطال الأخذ بالأحاديث الآحاد في العقيدة مطلقاً من بعد الصحابة الذين سمعوه منه ﷺ مباشرة ، لأنَ الأحاديث لم تصل للناس قبل تدوينها إلا بطريق الآحاد ، والذين وصلهم الحديث بطريق

التواتر قليل ، بل أقل من القليل ، ثم إنَّ إخبار هؤلاء غيرهم أن الحديث الفلاني متواتر لا يفيد العلم، لأنَّ خبر هذا العالم خبر آحاد.

٨ ـ هذا القول يقتضي ترك العمل بأحاديث الآحاد التي فيها عقيدة وعمل ؛ لأنَّ عدم الأخذ بها في العقائد ردٌّ لها ، فكيف يؤخذ بها في الأحكام؟!

٩ـ لم يتفق الأصوليون على هذا القول ـ كما زعم الشيخ شلتوت ـ وقد نص الإمام مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة وداود بن علي وأصحابه كابن حزم على أن خبر الواحد يفيد العلم، ونص عليه الحسين بن علي الكرابيسي والحارث بن أسد المحاسبي والقاضي أبو يعلى من الحنابلة .

العقائد التي ثبتت بالأحاديث

وقبل أن ننهي القول في هذه المسألة نسوق إليك جملة من العقائد الثابتة بالأحاديث الصحيحة:

١ـ القول بنبوة آدم عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين لم يُنصَّ في القرآن على نبوتهم .

٢ـ أفضلية نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين .

٣ـ شفاعته ﷺ العظمى في المحشر .

٤ـ شفاعته ﷺ لأهل الكبائر من أمته .

٥ـ معجزاته ﷺ كلها ما عدا القرآن ، ومنها معجزة انشقاق القمر ، فإنها مع ذكرها في القرآن تأولوها بما ينافي الأحاديث الصحيحة المصرحة بانشقاق القمر .

٦ـ الأحاديث التي تتحدث عن بدء الخلق وصفة الملائكة والجن ، والجنة والنار ، وأنهما مخلوقتان ، وأن الحجر الأسود من الجنة .

٧- كثير من خصوصياته ﷺ التي جمعها السيوطي في كتاب (الخصائص الكبرى) مثل دخول الجنة ورؤية أهلها ، وما أعِدَّ للمتقين فيها وإسلام قرينه من الجنِّ .

٨ - القطع بأن العشرة المبشرين بالجنَّة من أهل الجنة .

٩- الإيمان بسؤال منكر ونكير في القبر .

١٠- الإيمان بعذاب القبر .

١١- الإيمان بضغطة القبر .

١٢- الإيمان بالميزان ذي الكفتين يوم القيامة.

١٣- الإيمان بالصراط .

١٤- الإيمان بحوضه ﷺ وأنَّ من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً .

١٥- دخول سبعين ألفاً من أمته ﷺ الجنة بغير حساب .

١٦- الإيمان بكل ما صحَّ في الحديث في صفة القيامة والحشر والنشر مما ليس في القرآن .

١٧- الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ، وأنَّ الله تعالى كتب على كلِّ إنسان سعادته أو شقاوته ورزقه وأجله .

١٨- الإيمان بالقلم الذي كتب كلَّ شيء .

١٩- الإيمان بأنَّ أهل الكبائر لا يخلدون في النَّار .

٢٠- الإيمان بأنَّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنَّة .

٢١- الإيمان بأنَّ الله حرَّم على الأرض أنْ تأكل أجساد الأنبياء .

٢٢- الإيمان بأنَّ لله ملائكة سياحين يبلغون النبي ﷺ سلام أمته .

٢٣- الإيمان بمجموع أشراط الساعة كخروج المهدي ، ونزول عيسى وخروج الدجال . . . وغير ذلك .

وليست أدلة هذه العقائد جميعاً أحاديث آحاد ، بل منها ما دليله أحاديث متواترة ، ولكن عدم علم هؤلاء بالسنة المتواترة منها والآحاد جعلهم يردّونها، أو يردون كثيراً منها ، وإلا فإنَّ أحاديث خروج الدجال ، وخروج المهدي ، ونزول عيسى بن مريم أحاديث متواترة كما صرح بذلك علماء الحديث .

والأدهى من ذلك أن تُردَّ العقائد التي وردت في الأحاديث المتواترة ، بل وردت في القرآن بزعم أنَّ دلالة هذه النصوص غير قطعية كما سبق، وقد ذكرنا قول الشيخ شلتوت ، ولذا لم يثبتوا رؤية العباد لربهم في يوم القيامة مع تصريح القرآن بإثباتها ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[1]، وقد تواترت الأحاديث بإثباتها.

وقد حمل أبو الحسن الأشعري على المعتزلة لردهم النصوص من الكتاب والسنة تقليداً لرؤسائهم وأهل الرأي فيهم ، قال رحمه الله تعالى: « أما بعد فإن الزائغين عن الحق من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم ، ومن مضى من أسلافهم ، فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم ينزل الله به سلطاناً ، ولا أوضح به برهاناً، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين ، ولا عن السلف المتقدمين ، وخالفوا روايات الصحابة عليهم السلام عن نبي الله صلوات الله عليه في رؤية الله بالأبصار ، وقد جاءت في ذلك روايات من الجهات المختلفة ، وتواترت بها الآثار ، وتتابعت بها الأخبار ، وأنكروا شفاعة رسول الله ﷺ للمذنبين ، ودفعوا الروايات في ذلك عن المتقدمين ، وجحدوا عذاب القبر ، وأن الكفار في قبورهم يعذبون »[2] .

وقال أبو الحسن في موضع آخر: « وأنكرت المعتزلة الحوض ، وأنكرت المعتزلة عذاب القبر »[3] .

وقال أبو الحسن في مقالات الإسلاميين: « اختلفوا في عذاب القبر ،

---

(١) سورة القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) الإبانة عن أصول الديانة : ص ٦ .
(٣) المصدر السابق: ص ٧٥ .

فمنهم من نفاه ومنهم من أثبته وهم المعتزلة والخوارج »[1].

وقال في مقالاته: « اختلفوا في شفاعة رسول الله ﷺ هل هي لأهل الكبائر ، فأنكرت المعتزلة ذلك وقالت بإبطاله »[2].

وذكر أيضاً في مواضع من مقالاته أن المعتزلة أنكروا العين واليد لله ، كما أنكروا رؤيته بالأبصار ومجيئه يوم القيامة ونزوله إلى السماء الدنيا ، وجزموا بتخليد الفساق في النار ، وغير ذلك مما خالفوا فيه الأحاديث الصحيحة والمتواترة بل نصوص القرآن[3].

فمن نفى هذه العقائد التي صحت بها الأحاديث ، فإنه سائر على درب المعتزلة ، لا على طريق أهل السنة .

وقد رأيت من السابقين واللاحقين من جزم بأن جميع أشراط الساعة أحاديث آحاد ، وردها بسبب ذلك ، وما ظنه منها متواترا لاحقه بالتأويل والتحريف .

حكم من أنكر ما ثبت بخبر الآحاد:

نقل السفاريني القول بكفر من انكر خبر الآحاد عن إسحاق بن راهوية ، والأصح أنّه لا يكفر ، ويبدو أن الذي قال بكفره نظر إلى الأحاديث التي تلقتها الأمة بالقبول ، وأجمعت على صحتها .

وإننا ، وإن لم نقل بكفره ، نقول: لقد سلك هذا الذي ردَّ أحاديث الرسول ﷺ الصحاح في الاحتجاج بها في العقائد مسلكاً بين الخطأ ، ويخشى عليه أن يزيغ بسبب رده لهذه الأحاديث وأن يبتليه الله بالمضلات ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4].

---

(١) مقالات الإسلاميين : ص ٣٤٠ .
(٢) مقالات الإسلاميين : ص ٣٤٠ .
(٣) راجع مقالات الإسلاميين : ص: ١٥٧ ، ٢١٦ ، ١٩٥، ٤٧٤ .
(٤) سورة النور: ٦٣ .

هذا هو المنهج

إنّنا نلتزم في هذه الدراسة التي نقدمها بالكتاب والسنة ؛ ولذلك كان لزاماً علينا أن نعرض العقيدة وفق المنهج الذي عرضه الكتاب والسنة ولا نتجاوز هذا النهج، فهو الطريق الذي أحيا قلوب الأوائل من هذه الأمة.

وهو السبيل الوحيد الذي سيصلح بقية الأمة ، وصدق الإمام مالك - إمام المدينة المنورة وعالمها - إذ يقول: « لن يَصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » .

وقد قدَّمنا تميز القرآن في نهجه عن الفلسفة في إقرار الدِّين والاعتقاد، وهذا التميز يلزمنا بالأخذ به دون سواه .

شبهة تحتاج إلى إيضاح: كيف نخاطب بالقرآن من لا يؤمن به

يقول بعض الذين عندهم حظ من الدِّين: كيف نعرض القرآن على من لا يؤمن بالله ؟ يجب أن نخاطب النَّاس اليوم بمنطق العلم المادي الحديث والأدلة العقلية ، فإذا اقتنعوا بالإسلام خاطبناهم بالقرآن .

ونحن نقول لهؤلاء: بالله عليكم كيف أمر الله رسوله أن ينذر بالقرآن الكفار الذين يكذِّبون بالله وبالقرآن وبالرسول ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾[1] كيف أمره أن يتلو عليهم هذا القرآن ؟ ألم يكن يقرؤه على المعاندين المكذبين فيهزّ نفوسهم ، ويزلزل قلوبهم ؟

ماذا فعلت آيات القرآن بأميَّة بن خلف ، والوليد بن عتبة ، . . . وغيرهم على غلظ كفرهم وتمكن عداوتهم ؟

قد يقال: فالقرآن اليوم يتلى في كل مكان حتى من إذاعة (لندن - وواشنطن) ومع ذلك فإنَّ أبناء الإسلام الذين يقرءون القرآن لا يؤمنون بما جاء به .

والجواب على هؤلاء أنَّ العربي قديماً كان يسمع الآيات تتلى عليه ،

---

(١) سورة الأنعام: ١٩.

فتنسل إلى أعماق نفسه ، لأنّه عربيّ يفقه معاني الآيات ومراميها ، فلا حجاب بينه وبينها .

أمّا اليوم فتقوم بين النّاس والقرآن حواجز وحجب ، بعضها يعود إلى اللغة ، وبعضها إلى شبهات استقرت في الأذهان ، وأصبحت عند النّاس مسلمات .

ولذلك فإنَّ مهمة حامل القرآن اليوم أنْ يقوم بترجمة القرآن إلى اللغة التي يفقهها النّاس ، عليه أن يصل النّاس بالقرآن ، ويصل القرآن بالنّاس، بأن يبين لهم معانيه ومراميه ، ويجدد معاني هذا الكتاب في النفوس ، فتعود مرة أخرى إلى تذوقه واستشعاره . . . ، وتصل معانيه إلى المكذّبين والمنكرين بهذه الطريقة ، فتتحقق الدعوة التي تقوم بها الحجة على كلّ إنسان .

وقد سبق أن بيّنا أنَّ القرآن يحتوي على الأدلة التي تناقش العقول ، وتروي ظمأ القلوب ، وليس هو مجرد أخبار فقط .

دعوة مشبوهة: التقارب بين الأديان

هذا هو السبيل: أن نتبين النهج الذي جاءنا الله به لإقرار الإيمان في النفوس ، ونلتزمه في ذوات أنفسنا ، وفي دعوة الناس ، وفي تربيتهم وفِقْهُ.

ويحاول أعداء الله ، والمخدوعون من أبناء هذه الأمة ، أن يشوهوا هذا السبيل ، وذلك بالدعوة إلى التقارب بين الأديان ، فقد أقيمت مؤتمرات وندوات من أجل ذلك .

وقد أخطأ الذين أمُّوا هذه المؤتمرات والندوات من المسلمين خطأ كبيراً حين رضوا بأن يجعلوا الإسلام موضوعاً للبحث كاليهودية والنصرانية على حدٍّ سواء.

قد نجد لهؤلاء العذر لو ذهبوا إلى هناك يقولون للآخرين كما قال القرآن: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ

شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1] كان عليهم أن يبينوا باطل هؤلاء بالتي هي أحسن، ويعرضوا عليهم الدّين الحقَّ، ويقيموا عليهم الحجة، لا أن يخطبوا ودَّهم، ويجاملوهم في باطلوهم.

ويخطئ الذين يخلطون الإسلام بغيره من الأديان والمذاهب والفلسفات، يزعمون أنهم يوفّقون بين نصوص القرآن وكلام أولئك الأقوام ، ليصلوا إلى مرحلة وسط يلتقي فيها الإسلام بغيره ، وكذبوا في زعمهم ، وضلوا في نهجهم ، فالإسلام دين الله يهيمن على الحياة والأحياء ، ولا يحتاج إلى أن نوفّق بينه وبين غيره ، فغيره فيه الباطل والصالح ، والإسلام صلاح كله ، ومهمتنا أن نُبقي كتاب ربّنا ودينه متميزين ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾[2] حتى يفيء إليه النّاس فيجدوه صافياً غير مخلوط .

وقد ذمَّ الله هذا الصنف من النّاس الذين يريدون مزج الإسلام بغيره والالتقاء في منتصف الطريق بزعم التوفيق ، وأخبر أنَّ هذا فعل المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾[3] .

---

(١) سورة آل عمران: ٦٤ .

(٢) سورة البقرة: ٢٥٦ .

(٣) سورة النساء: ٦١- ٦٢ .

الإيمان بالله

تمهيد: أهمية هذا الأصل:

الأصل الأول من الأصول الاعتقادية هو الإيمان بالله ، وهذا الأصل هو أهمُّ الأصول الاعتقادية والعمليـة ، وعليه مدار الإسلام ، وهو لبُّ القرآن ، ولا نبالغ إذا قلنا: إنَّ القرآن كلَّه حديث عن هذا الإيمان ؛ لأنَّ القرآن إمَّا حديث مباشر عن الله تعالى: ذاته وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، كآية الكرسي ، وسورة الإخلاص .

وإمَّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وترك ما يُعبد من دونه من آلهة باطلة ، وهذا كله تعريف بالله ، ودعوة للقيام بحقِّه ، ونهيٌ عن صرف ذلك لغيره .

وإما أمر بطاعته سبحانه، ونهي عن معصيته، وهذا من لوازم الإيمان.

وإمَّا إخبار عن أهل الإيمان وما فعل بهم في الدُنيا من الكرامة ، وما يثيبهم به في الآخرة ، وهذا جزاء أهل الإيمان بالله .

وإمَّا إخبار عن الكافرين ، وما فعل الله بهم في الدُّنيا من النكال ، وما سيفعل بهم في الآخرة في دار العذاب، وهذا جزاء من أعرض عن الإيمان.

فالقرآن كله حديث عن الإيمان بالله ، يوضح هذا أنَّنا نجد أنَّ ذكر الله قد تكَّرر في القرآن باسم من أسمائه ، أو صفة من صفاته (١٠٠٦٢) مرة أي في الصفحة الواحدة قرابة عشرين مرة في المتوسط .

إننا نستطيع أن نقول: إنَّ الإيمان بالله بالنسبة لبقية الأصول والفروع كأصل الشجرة بالنسبة للسوق والفروع ، فهو أصل الأصول ، وقاعدة الدِّين ، وكلما كان حظ المرء من الإيمان بالله عظيماً كانَ حظه في الإسلام كبيراً .

مسائل الإيمان بالله

مسائل هذا الباب التي لا بدَّ للباحث من عرضها وتمحيصها هي:

أولاً: أدلة وجود الله ـ تعالى ـ وردّ الشبهات التي تثار حول هذا الموضوع .

ثانياً: التعريف بالله ـ سبحانه ـ وهذا يتمُّ في القرآن من خلال طريقين:

١ـ بيان ما في المخلوقات من إبداع وإعـجاز تدل على عظيم قدرة الله وبديع صنعه .

٢ـ دراسة الآيات القرآنية التي تتحدث عن الله حديثاً مباشراً: ذاته، وأسمائه، وصفاته ، وأفعاله .

ثالثا: توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له ، ونبذ ما يعبد من دونه.

رابعاً: نظرة في تاريخ العقيدة الإلهية ، وتحقيق القول في ذلك .

الفصل الأول

أدلة وجود الخالق جلّ وعلا

أولاً: دليل الفطرة

الفطرة السليمة تشهد بوجود الله من غير دليل:

لم يطل القرآن في الاستدلال على وجود الله تعالى ، لأنَّ القرآن يقرّر أنّ الفطر السليمة ، والنفوس التي لم تتقذر بأقذار الشرك ، تُقرّ بوجوده من غير دليل ، وليس كذلك فقط ، بل إنَّ توحيده - سبحانه - أمر فطري بدهي ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[1].

هذه الفطرة هي التي تفسر الظاهرة التي لاحظها الباحثون في تاريخ الأديان ، وهي أنَّ الأمم جميعاً - التي درسوا تاريخها - اتخذت معبودات تتجه إليها وتقدّسها[2].

وقد يقال هنا: لو كان التوجه إلى الله أمراً فطرياً لما عبد النّاس في مختلف العصور آلهة شتى .

والجواب: أنَّ الفطرة تدعو المرء إلى الاتجاه إلى الخالق، لكنَّ الإنسان تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف حينما يتجه إلى المعبود الحق .

---

(١) سورة الروم: ٣٠ .

(٢) حتى الشيوعيون اليوم الذين أرادوا أن يتحرروا من عبادة الآلهة بزعمهم يعبدون مؤسس المذهب، فتراهم يمرون أمام جثته المحنطة في الميدان الأحمر في ذكرى يوم وفاته خاضعين حانين رؤوسهم، لقد جعلوه إلهاً ، وبدلاً من أن يعبدوا خالق البشر عبدوا ميتاً من البشر ، فبعداً لهم .
هذا ما دونته قبل خمس عشرة سنة ، وقبل سنوات هدم القائمون على المذهب الشيوعي مذهبهم ، والقوا جثث قادة المذهب ، كما القوا عقائدهم وأفكارهم .

فمــا يغرسه الآباء في نفوس الأبناء ، وما يلقيه الكتّاب والمعلمون والباحثون في أفكار الناشئة يبدّل هذه الفطرة ويقذرها ، ويلقي عليها غشاوة، فلا تتجه إلى الحقيقة .

وقد نصَّ الرسول ﷺ على صدق هذا الذي قررناه ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه، أو يمجسانه)[1] . ولم يقل يُسلمانِه ، لأنَّ الإسلام مُوافقٌ للفطرة.

وقد يقال: إذا تركنا الطفل من غير أن نُؤثّر في فطرته هل يخرج موحداً عارفاً بربِّه ، فنقول: إذا ترَكَ شياطين الإنس البشر ، ولم يدنّسوا فطرهم ، فإنَّ شياطين الجنِّ لن يتركوهم ، فقد أخذ الشيطان على نفسه العهد بإضلال بني آدم: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[2] .

وأعطي الشيطان القدرة على أن يصل إلى قلب الإنسان ، كما في الحديث الصحيح (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّا) أو قال: (شيئاً)[3] .

والقرآن وصف الشيطان المطلوب الاستعاذة منه بأنَّه ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾[4]، وقد صح أيضاً أنَّ لكل إنسان قريناً من الجنّ يأمره بالشرّ، ويحثه عليه، وفي القرآن ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[5].

ولا يتخلص المرء من هذا إلا بالالتجاء إلى الله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[6].

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ٢٤٥ ، ورقمه: ١٣٨٥ ، ورواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٤٧، ورقمه: ٢٦٥٨ .

(٢) سورة ص: ٨٢ـ ٨٣ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ١٧١٢ . ورقمه: ٢١٧٥ .

(٤) سورة الناس: ٥ .

(٥) سورة ق: ٢٧ .

(٦) سورة الناس: ١ـ ٦ .

وشياطين الجنّ يقومون بدور كبير في إفساد الفطرة وتدنيسها ، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم، فكان مما جاء في خطبته: (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كلُّ مال نحلته [1] عبادي حَلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً) [2] .

المصائب تصفي جوهر الفطرة:

وكثيراً ما تنكشف الحجب عن الفطرة ، فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها عندما تصاب بمصاب أليم ، أو تقع في مازق لا تجد فيه من البشر عوناً ، وتفقد أسباب النجاة ، فكم من ملحد عرف ربَّه وآب إليه عندما أحيط به، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرٍّ نزل به ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3].

وقد سمعنا كيف آب ركاب طائرة ما إلى ربهِّم عندما أصاب طائرتهم خلل ، فأخذت تهتز وتميل ، وتتأرجح في الفضاء ، والطيار لا يملك من أمره شيئاً فضلاً عن الركاب ، هناك اختفى الإلحاد ، وضجَّت الألسنة بالدُّعاء ، ورغبت القلوب إلى ربها بصدق وإخلاص ، ولم يبق للشرك والإلحاد وجود في مثل هذا الموقف الرهيب .

المشركون الذين بعث إليهم الرسول كانوا يقرّون بوجود الخالق:

العرب الذين جابههم الرسول ﷺ كانوا مقرِّين بوجود الله ، وأنَّه الخالق وحده للكون ، كما يقرّون بأنّه وحده الرازق النافع الضارُّ . . . ، ولكنهم كانوا يعبدون غيره معه ، ولا يخلصون دينهم لله وحده .

---

(١) نحلته: منحته .

(٢) صحيح مسلم: ٢١٩٧/٤ ، ورقمه: ٢٨٦٥.

(٣) سورة يونس: ٢٢.

وفي معرض إلزام المشركين بالعبودية لله وحده ، وإخلاص الدِّين له كان يسألهم عن الخالق المالك للسماء والأرض ، فكانوا يعترفون ، ولا ينكرون، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [1].

وفي سورة المؤمنون ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [2] . ومن المعروف أنَّ العرب كانوا يُعظمون الكعبة، ويحجون، ولهم بقية من عبادات يتنسَّكُون بها.

كفر النَّاس ـ اليوم أعظم:

كان حريّاً بنا الا نقف عند أدلة وجود الله كثيراً ؛ لأنَّ الفطرة الإنسانية تشهد بذلك ، ولا يكاد يعرف منكر لوجود الخالق في الماضي إلا النزر اليسير، وهم لا يمثلون في البشرية نسبة تذكر.

إلا أن الانحراف اليوم وصل الدَّرك الأسفل ، فأصبحنا نرى أقواماً يزعمون أن لا خالق ، ويجعلون هذه المقولة مذهباً يقيمون عليه حياتهم، وقامت دول على هذا المذهب تعدُّ بمئات الملايين من البشر .

وانتشرت هذه المقولة في كل مكان ، وألفت فيها كتب ، وأصبح لها فلسفة تدرس ، وحاول أصحابها أن يسموها بالمنهج العلمي ، ويدللوا عليها.

من أجل ذلك كان لا بدَّ أن نتوسع شيئاً ما في الاستدلال على هذه القضية .

---

(١) سورة لقمان: ٢٥ .

(٢) سورة المؤمنون: ٨٤ـ٨٩ .

الدليل الثاني: المخلوق لا بدَّ له من خالق

يحتجُّ القرآن على المكذِّبين المنكرين بحجة لا بدَّ للعقول من الإقرار بها، ولا يجوز في منطق العقل السليم رفضها، يقول تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[1].

يقول لهم أنتم موجودون هذه حقيقة لا تنكرونها ، وكذلك السموات والأرض موجودتان ، ولا شك .

وقد تقرر في العقول أنَّ الموجود لا بدَّ من سبب لوجوده ، وهذا يدركه راعي الإبل في الصحراء ، فيقول: « البعرة تدلُّ على البعير ، والأثر يدلُّ على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، ألا تدل على العليم الخبير » . ويدركه كبار العلماء الباحثين في الحياة والأحياء.

وهذا الذي أشارت إليه الآية هو الذي يعرف عند العلماء باسم: (قانون السببية) . هذا القانون يقول: إنَّ شيئاً من (الممكنات) « لا يحدث بنفسه من غير شيء » ؛ لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده ، « ولا يستقل بإحداث شيء » ؛ لأنَّه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو .

ولنضرب مثالاً نوضح به هذا القانون:

منذ سنوات تكشفتِ الرِّمال في صحراء الربع الخالي إثر عواصف هبت على المنطقة عن بقايا مدينة كانت مطموسة في الرمال ، فأخذ العلماء يبحثون عن محتوياتها ويحاولون أن يحققوا العصر الذي بنيت فيه ، ولم يتبادر إلى ذهن شخص واحد من علماء الآثار أو من غيرهم أن هذه المدينة وجدت بفعل العوامل الطبيعية من الرياح والأمطار والحرارة والبرودة لا بفعل الإنسان.

ولو قال بذلك واحد من النَّاس لعده الناس مخرِّفاً يستحقُّ الشفقة والرحمة، فكيف لو قال شخص ما: إنَّ هذه المدينة تكونت في الهواء من لا شيء في الأزمنة البعيدة ، ثم رست على الأرض ؟ إنَّ هذا القول لا يقلُّ

(١) سورة الطور: ٣٥ـ ٣٦ .

غرابة عن سابقه ، بل يفوقه .

لماذا ؟ لأنَّ العدم لا يوجد شيئاً ، هذا أمر مقرر في بدائه العقول ، ولأنَّ الشيء لا يستطيع أن يوجد نفسه .

والمدينة على النحو الذي نعرفه لا بد لها من موجد، والفعل يشي، ويعرِّف بصانعه ، فلا بدَّ أن تكون المدينة صناعة قوم عقلاء يحسنون البناء والتنسيق .

ولو رأينا إنساناً انتقل من أسفل بناية إلى أعلاها فلا نستنكر ذلك، ولا نستغربه ، لأنَّ الإنسان لديه القدرة على ذلك .

فإذا رأينا حجراً كان في ساحة البناية قد انتقل إلى أعلاها ، فإنَّنا نجزم بأنَّه لم ينتقل بنفسه ، بل لا بدَّ من شخص رفعه ونقله ؛ لأنَّ الحجر ليس لديه خاصة الحركة والصعود .

ومن الغريب أنَّ النَّاس يجزمون بأنَّ المدينة لا يمكن أن توجد من غير موجد ، ولا يمكن أن تبني نفسها ، ويجزمون بأنَّه لا بدَّ للحجر من شخص صعد به إلى أعلى ، ولكن يوجد فيهم من يجيز أن يصنع الكون من غير صانع ، ويوجد من غير موجد ، مع أنَّ بناء الكون أشدّ تعقيداً وأعظم خلقة ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[1]

ولكنَّ المنكرين عندما يواجهون بذلك بمنطق علمي يخاطب العقل ، لا يستطيعون إلا أن يقروا أو يكابروا .

وبهذا الدليل كان علماء الإسلام ولا يزالون يواجهون الجاحدين ، فهذا أحد العلماء يعرض له بعض الزنادقة المنكرين للخالق ، فيقول لهم: ما تقولون في رجل يقول لكم: رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة من الأنفال ، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة ، وهي من بينها تجري مستوية ، ليس لها ملاح يُجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز في العقل ؟ .

قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل .

---

(١) سورة غافر: ٥٧ .

فقال ذلك العالم: يا سبحان الله ، إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدُّنيا على اختلاف أحوالها ، وتغيّر أعمالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها من غير صانع ولا حافظ ؟! فبكوا جميعاً ، وقالوا: صدقت وتابوا .

هذا القانون الذي سلمت به العقول وانقادت له هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [1] وهو دليل برغم العقلاء على التسليم بأنَّ هناك خالقاً معبوداً ، إلا أن الآية صاغته صياغة بليغة مؤثرة ، فلا تكاد الآية تلامس السمع حتى تزلزل النفس وتهزها.

روى البخاري في صحيحه عن جبير بن مطعم قال: « سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴾ كاد قلبي أن يطير »[3].

قال البيهقي[4]: قال أبو سليمان الخطابي: « إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية ، ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة، فاستدركها بلطيف طبعه، واستشف معناها بزكي فهمه . . . » .

واختار الخطابي في معنى ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ [5] « فوجدوا بلا خالق ، وذلك ما لا يجوز أن يكون ، لأنَّ تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الأمر ، فلا بدَّ له من خالق ، فإذ قد أنكروا الإله الخالق ، ولم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم ، أفهم الخالقون لأنفسهم ؟ وذلك في الفساد أكثر، وفي الباطل أشد ، لأنَّ ما لا وجود له كيف يجوز أن يكون موصوفاً بالقدرة، وكيف يخلق ؟ وكيف يتأتى منه الفعل ، وإذا بطل الوجهان معاً قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً ، فليؤمنوا به.

---

(١) سورة الطور: ٣٥ .
(٢) سورة الطور: ٣٥ـ٣٧.
(٣) صحيح البخاري: ٨/٦٠٣ ، ورقمه: ٤٨٥٤ .
(٤) الأسماء والصفات للبيهقي: ١/٣٩١ .
(٥) سورة الطور: ٣٥

ثم قال: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [1] وذلك شيء لا يمكنهم أن يدعوه بوجه فهم منقطعون والحجة قائمة عليهم » .

وهذا الذي قرر الخطابي أن الكفار لا يمكن أن يدعوه فائدة ذكره والسؤال عنه قطع الحجاج والخصام ؛ إذ قد يوجد جاحد مكابر يقول: « أنا خلقت نفسي» كما زعم مثيل له من قبل بأنه يحيي ويميت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [2].

فماذا كان الجواب؟ سؤال آخر أبان عجزه وأكذبه في زعمه الأول ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾[3] فكانت النتيجة: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [4].

وهنا هَبْ شخصاً قال: « أنا خلقت نفسي » فهل يستطيع أن يزعم أنّه خلق السموات والأرض ؟! فإذا كان العدم لا يوجد سماء ولا أرضاً، وإذا كانت السماء والأرض لم توجدا نفسيهما ، وإذا كان هؤلاء لا يستطيعون الادعاء بأنّهم أوجدوا ذلك كله ، فإنّه لا بدَّ لهذا كله من موجد ، وهذا الموجد هو الله سبحانه وتعالى .

موقف العلوم التجريبية من هذا القانون:

إنَّ طاقة البشر ، وطبيعة المخلوق ، أعجز من أن تحصي مراحل الأسباب مرحلة مرحلة ، وتتابع سلسلتها حلقة حلقة ، حتى تشهد بداية العالم ، ولذلك يئست العلوم التجريبية من معرفة أصول الأشياء ، وأعلنت عدولها عن هذه المحاولة ، وكان قصاراها أن تخطو خطوات معدودة إلى الوراء ، تاركة ما بعد ذلك إلى ساحة الغيب التي يستوي في الوقوف دونها العلماء والجهلاء .

---

(١) سورة الطور: ٣٦.
(٢) سورة البقرة: ٢٥٨
(٣) سورة البقرة: ٢٥٨
(٤) سورة البقرة: ٢٥٨ .

لا بدَّ للعقل من الاعتراف:

ولكنَّ هذا اليأس الإنساني من معرفة أطوار الكائنات تفصيلاً في ماضيها ومستقبلها ، يقابله يقين إجمالي ينطوي كلُّ عقل على الاعتراف به طوعاً أو كرهاً ، وهو أنَّه مهما طالت الأسباب الممكنة ، وسواء أفرضت متناهية أو غير متناهية ، فلا بدَّ لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شيء آخر يحمل في نفسه سبب وجوده وبقائه ، بحيث يكون هو الأول الحقيقي الذي ليس قبله شيء ، وإلا لبقيت كلُّ هذه الممكنات في طيِّ الكتمان (إن لم يكن لها مبدأ ذو وجود مستقل).

شبهات حول نشأة الكون

نسمع ونقرأ شبهات قيلت في القديم ، وتقال اليوم ، يحاول أصحابها أن يعللوا بها وجود الكون ، وسنحاول أن نعرض لبعض هذه الشبهات ، ثم نبين ما فيها من باطل .

١ـ القول بالمصادفة

بعد توضيح الدليل القرآني الذي يخاطب العقول ، ويلزمها بالاعتراف بوجود الخالق المعبود ، يبدو القول إنّ هذا الكون خلق مصادفة من غير خالق ليس قولا بعيداً عن الصواب فحسب ، بل قول بعيد عن المعقول يدخل صاحبه في عداد المخرفين الذين فقدوا عقولهم أو كادوا ، فهم يكابرون في الدليل الذي لا يجد العقل بُدّاً من التسليم به .

لقد وجد من يقول: « لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة ، وظلت تضرب على حروفها بلايين السنين ، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبتها قصيدة من قصائد شكسبير ، فكذلك الكون الموجود الآن ، إنما وجد نتيجة لعمليات عمياء ، ظلت تدور في « المادة » لبلايين السنين » .

يقول وحيد الدين خان [1] بعد نقله لهذه الفقرة من كلام (هكسلي)[2]:
« إنَّ أيّ كلام من هذا القبيل لغو مثير بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان، فإنَّ جميع علومنا تجهل - إلى يوم النَّاس هذا - أية مصادفة أنتجت واقعاً عظيماً ذا روح عجيبة ، في روعة الكون » .

وينقل عن عالم آخر إنكاره لهذه المقالة قوله: « إنَّ القول إن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة » .

ويقرر وحيد الدين خان: « أنَّ الرياضيات التي تعطينا نكتة المصادفة ، هي نفسها التي تنفي أيَّ إمكان رياضي في وجود الكون الحالي بفعل قانون المصادفة » .

وخذ هذا المثال الذي نقله وحيد الدين خان عن العالم الأمريكي (كريستي موريسون) يبين فيه استحالة القول بوجود الكون مصادفة:

قال: « لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة ، ثم رميتها في جيبك ، وخلطتها جيداً ، ثم حاولت أن تخرج من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي بحيث تلقي كلَّ درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى ، فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه واحد في المحاولة الأولى هو واحد في العشرة ،وإمكان أن نخرج الدراهم (١، ٢، ٣، ٤) بالترتيب من (١-١٠) بالترتيب واحد في عشرة بلايين»[3].

وعلى ذلك فكم يستغرق بناء هذا الكون لو نشأ بالمصادفة والاتفاق ؟ إنَّ حساب ذلك بالطريقة نفسها يجعل هذا الاحتمال خيالياً يصعب حسابه فضلاً عن تصوره .

---

(١) الإسلام يتحدى: ص٦٦ .
(٢) (هكسلي) هو الكاتب الملحد الذي كتب كتابه المعروف (الإنسان يقوم وحده) ، فسخر الله له عالماً من ملته هو (أ. كريستي موريسون رئيس اكاديمية العلوم بنيويورك وعضو سابق في المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة) ، فسطر كتابه القيم (الإنسان لا يقوم وحده) رداً على (هكسلي) وقد ترجم هذا الكتاب تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) .
(٣) انظر: العلم يدعو إلى الإيمان: ص٥١ .

إنَّ كلَّ ما في الكون يحكي أنّه إيجاد موجد حكيم عليم خبير ، ولكنَّ الإنسان ظلوم جهول ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴾[1].

كيف يمكن أن تتأتى المصادفة في خلق الإنسان وتكوينه، وفي صنع طعامه على هذا النحو المقدَّر الذي تتشارك فيه الأرض والسماء ، وصدق الله في وصفه للإنسان ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾[2] [3].

٢ـ قالوا الطبيعة هي الخالق

وهذه فرية راجت في عصرنا هذا ، راجت حتى على الذين نبغوا في العلوم المادّية ، وعلل كثيرون وجود الأشياء وحدوثها بها ، فقالوا: الطبيعة هي التي تُوجد وتُحدِث.

وهؤلاء نوجه لهم هذا السؤال: ماذا تريدون بالطبيعة ؟ هل تعنون بالطبيعة ذوات الأشياء ؟ أم تريدون بها السنن والقوانين والضوابط التي تحكم الكون؟ أم تريدون بها قوة أخرى وراء هذا الكون أوجدته وأبدعته ؟

إذا قالوا: نعني بالطبيعة الكون نفسه ، فإننا لا نحتاج إلى الردّ عليهم، لأنَّ فساد قولهم معلوم ممّا مضى ، فهذا القول يصبح ترديداً للقول السابق إنّ الشيء يوجد نفسه ، أي إنّهم يقولون الكون خلق الكون ، فالسماء خلقت السماء ، والأرض خلقت الأرض ، والكون خلق الإنسان والحيوان، وقد بيَّنا أنَّ العقل الإنساني يرفض التسليم بأنَّ الشيء يوجد نفسه ، ونزيد الأمر إيضاحاً فنقول: والشيء لا يخلق شيئاً أرقى منه ، فالطبيعة من سماء وأرض ونجوم وشموس وأقمار لا تملك عقلاً ولا سمعاً ولا بصراً ، فكيف تخلق إنساناً سميعاً عليماً بصيراً ! هذا لا يكون .

---

(١) سورة عبس: ١٧ ـ ٢٩ .
(٢) سورة الأحزاب: ٧٢ .
(٣) وسيأتي مزيد بحث لهذه المسألة عند الكلام على الآيات الكونية إن شاء الله تعالى .

فإن قالوا: خلق ذلك كله مصادفة ، قلنا: ثبت لدينا يقيناً أن لا مصادفة في خلق الكون ، وقد تبينا ذلك فيما سبق .

نظرية التولد الذاتي (شبهة ثبت بطلانها):

وكان مما ساعد على انتشار الوثنية الجديدة (القول إنّ الطبيعة هي الخالق) هو ما شاهده العلماء الطبيعيون من تكون (دود) على براز الإنسان أو الحيوان ، وتكوّن بكتريا تأكل الطعام فتفسده ، فقالوا: ها هي ذي حيوانات تتولد من الطبيعة وحدها .

وراجت هذه النظرية التي مكنت للوثن الجديد (الطبيعة) في قلوب الضالين التائهين بعيداً عن هدى الله الحق ، لكنَّ الحق ما لبث أن كَشَفَ باطل هذه النظرية على يد العالم الفرنسي المشهور (باستير) الذي أثبت أنَّ الدود المتكون ، والبكتيريا المتكونة المشار إليها لم تتولد ذاتياً من الطبيعة ، وإنّما من أصول صغيرة سابقة لم تتمكن العين من مشاهدتها، وقام بتقديم الأدلة التي أقنعت العلماء بصدق قوله ، فوضع غذاء وعزله عن الهواء ، وأمات البكتريا بالغليان ، فما تكونت بكتيريا جديدة ، ولم يفسد الطعام ، وهذه النظرية التي قامت عليها صناعة الأغذية المحفوظة (المعلبات) [1] .

الطبيعة هي القوانين التي تحكم الكون:

ويرى فريق آخر أنَّ الطبيعة هي القوانين التي تحكم الكون ، وهذا تفسير الذين يدَّعون العلم والمعرفة من القائلين إنّ الطبيعة هي الخالق ، فهم يقولون: إنَّ هذا الكون يسير على سنن وقوانين تسيِّره وتنظم أموره في كل جزئية ، والأحداث التي تحدث فيه تقع وفق هذه القوانين ، مثله كمثل الساعة التي تسير بدقة وانتظام دهراً طويلاً ، فإنها تسير بذاتها بدون مسيِّر .

وهؤلاء في واقع الأمر لا يجيبون عن السؤال المطروح: من خلق الكون ؟ ولكنهم يكشفون لنا عن الكيفية التي يعمل الكون بها ، هم يكشفون لنا

---

(١) كتاب التوحيد ، للزنداني: ٢/ ٧٤.

كيف تعمل القوانين في الأشياء ، ونحن نريد إجابة عن موجد الكون وموجد القوانين التي تحكمه .

يقول وحيد الدين خان: « كان الإنسان القديم يعرف أنَّ السماء تمطر، لكننا اليوم نعرف كلَّ شيء عن عملية تبخر الماء في البحر ، حتى نزول قطرات الماء على الأرض ، وكلُّ هذه المشاهدات صور للوقائع ، وليست في ذاتها تفسيراً لها ، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين ؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة ، حتى إنَّ العلماء يستنبطون منها قوانين علمية.

إنَّ ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنَّه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه ، فإنَّه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة .

إن الطبيعة لا تفسّر شيئاً (من الكون) وإنَّما هي نفسها بحاجة إلى تفسير . واقرأ هذه المحاورة التي يمكن أن تجرى بين رجل نابه ، وأحد الأطباء الأفذاذ في علمهم:

السائل: ما السبب في احمرار الدم ؟

الطبيب: لأنَّ في الدَّم خلايا حمراء ، حجم كل خلية منها: ١/ ٧٠٠ من البوصة.

السائل: حسناً ، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء ؟

الطبيب: في هذه الخلايا مادة تسمى (الهميوجلوبين) ، وهي مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين في القلب .

السائل: هذا جميل ، ولكن من أين تأتي هذه الخلايا التي تحمل (الهميوجلوبين) ؟

الطبيب: إنها تصنع في كبدك .

السائل: عجيب ! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدَّم والخلايا والكبد وغيرها ، بعضها ببعض ارتباطاً كلياً وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدِّقة الفائقة ؟

الطبيب: هذا ما نسميه بقانون الطبيعة .

السائل: ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا يا سيادة الطبيب ؟

الطبيب: المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية .

السائل: ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائماً إلى نتيجة معلومة ؟ وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور في الهواء ، ويعيش السمك في الماء ، ويوجد إنسان في الدُّنيا ، بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة ؟

الطبيب: لا تسألني عن هذا ، فإنَّ علمي لا يتكلم إلاعما يحدث ، وليس له أن يجيب: لماذا يحدث ؟

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون . إن مثل الكون كمثل آلة تدور تحت غطائها ، لا نعلم عنها إلا أنهَّا تدور « ولكن لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الآلة بدوائر وتروس كثيرة ، يدور بعضها ببعض، ونشاهد حركاتها كلّها . هل معنى هذا أنَّنا قد علمنا خالق هذه الآلة بمجرد مشاهدتنا لما يدور بداخلها؟ كيف يفهم منطقياً أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الآلة جاءت من تلقاء ذاتها، وتقوم بدورها ذاتياً ؟!»[1].

---

(١) الإسلام يتحدى ، لوحيد الدين خان: ٢٩ـ ٣١ ، وقد ضمن كلامه نقولاً عن غيره من علماء الغرب .

الطبيعة قوة:

فإن وجد من يقول إن الطبيعة قوة أوجدت الكون ، وأنها قوة حيَّة سميعة بصيرة حكيمة قادرة . . . فإنَّنا نقول لهم: هذا صواب وحقّ، وخطؤكم أنَّكم سمَّيتم هذه القوة (الطبيعة)، وقد دلتنا هذه القوة المبدعة الخالقة، على الاسم الذي تستحقه وهو (الله)، الله عرّفنا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فعلينا أن نسميه بما سمَّى به نفسه سبحانه وتعالى .

كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم:

هؤلاء الذين نسبوا الخلق إلى الطبيعة لهم سلف قالوا قريباً من قولهم، وهم الدهرية الذين نسبوا الأحداث إلى الدهر ، فقد شاهدوا أنَّ الصغير يكبر ، والكبير يهرم ، والهرم يموت بمرور الزمان ، وتعاقب الليل والنهار، فنسبوا الحياة والموت إلى الدهر ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[1].

أولئك نسبوا الأحداث إلى الزمان ، وهؤلاء إلى ذوات الأشياء فهما صنوان في الضلال .

٣ـ نظرية دارون [2]

حاول أصحاب هذه النظرية أن يعللوا بها وجود الأحياء ، وقد شاعت هذه النظرية، وعمل كثيرون على نشرها بحسن نية ، لظنِّهم أنَّها حقيقة علمية، وعمل آخرون على نشرها بسوء نيه ، لأنَّها وافقت أهواءهم ، فهي تكذب بالأديان التي وصفت خلق الإنسان ، وبذلك يجد الطاعنون في الدِّين دليلاً من العلم يرتكزون عليه ، ويدلِّسون على النَّاس به .

---

(١) سورة الجاثية: ٢٤ .

(٢) كتاب التوحيد ، للزنداني: ٣/ ٨١ .

ماذا تقول هذه النظرية؟

تزعم هذه النظرية أنّ أصل المخلوقات حيوان صغير ، نشأ من الماء ، ثم أخذت البيئة تفرض عليه من التغييرات في تكوينه مّما أدّى إلى نشوء صفات جديدة في هذا الكائن ، أخذت هذه الصفات المكتسبة تورث في الأبناء حتى تحولت مجموع هذه الصفات الصغيرة الناشئة من البيئة عبر ملايين السنين إلى نشوء صفات كثيرة راقية جعلت ذلك المخلوق البدائي مخلوقاً أرقى ، واستمر ذلك النشوء للصفات بفعل البيئة والارتقاء في المخلوقات ، حتى وصل إلى هذه المخلوقات التي انتهت بالإنسان.

أساس النظرية:

١ـ تعتمد النظرية على أساس ما شوهد في زمن « دارون » من الحفريات الأرضية ، فقد وجدوا أنّ الطبقات القديمة تحتوي على كائنات أولية ، وأنّ الطبقات التي تليها تحتوي على كائنات أرقى فأرقى . فقال « دارون »: « إنّ تلك الحيوانات الراقية قد جاءت نتيجة للنشوء والارتقاء من الحيوانات والكائنات الأولى » .

٢ـ وتعتمد أيضاً على ما كان معروفاً في زمن « دارون » من تشابه جميع أجنّة الحيوانات في أدوارها الأولى ، فهو يوحي بأنّ أصل الكائنات واحد ، كما أنّ الجنين واحد ، وحدث التطور على الأرض كما يحدث في أرحام الكائنات الحيّة .

٣ـ كما تعتمد النظريّة على وجود الزائدة الدودية في الإنسان التي هي المساعد في هضم النباتات ، وليس لها الآن عمل في الإنسان مما يوحي بأنّها أثر بقي من القرود لم يتطور؛ لأنها تقوم بدورها في حياة القرود.

شرح « دارون » لعملية التطور وكيف تـمَّت:

١ـ **الانتخاب الطبيعي**: تقوم عوامل الفناء بإهلاك الكائنات الضعيفة الهزيلة، والإبقاء على الكائنات القوية ، وذلك ما يسمّى بزعمهم بقانون «البقاء للأصلح » ، فيبقى الكائن القوي السليم الذي يورث صفاته القويَّة لذريته، وتتجمع الصفات القوية مع مرور الزمن مكوِّنة صفة جديدة في الكائن، وذلك هو « النشوء » الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصفات الناشئة إلى كائن أعلى، وهكذا يستمر التطور، وذلك هو الارتقاء .

٢ـ **الانتخاب الجنسي**: وذلك بوساطة ميل الذكر والأنثى إلى التزوج بالأقوى والأصلح ، فتورث بهذا صفات الأصلح ، وتنعدم صفات الحيوان الضعيف لعدم الميل إلى التزاوج بينه وبين غيره .

٣ـ كلما تكونت صفة جديدة ، ورثت في النسل .

تفنيد الأساس الذي قامت عليه النظرية:

١ـ **علم الحفريات لا يزال ناقصاً**، فلا يدَّعي أحد أنَّه قد أكمل التنقيب في جميع طبقات الأرض وتحت الجبال والبحار ، فلم يجد شيئاً جديداً ينقض المقررات السابقة.

وعلى فرض ثبات مقررات هذا العلم فإنَّ وجود الكائنات الأولى البدائية أولاً ، ثم الأرقى ليس دليلاً على تطور الكائنات الراقية من الكائنات الأدنى، بل هو دليل على ترتيب وجود هذه الكائنات فقط عند ملاءمة البيئة لوجودها على أي صورة كان هذا الوجود ، وإذا كانت الحفريات في زمن « دارون » تقول: إنَّ أقدم عمر للإنسان هو ستمائة ألف سنة ، فإنَّ الاكتشافات الجديدة في علم الحفريات قد قدَّرت أنَّ عمر الإنسان يصل إلى عشرة ملايين من السنين .

أليس هذا أكبر دليل على أنَّ علم الحفريات متغيّر لا يبنى عليه دليل قطعيّ، وأنّه قد ينكشف في الغد من الحقائق عكس ما كنَّا نؤمل ؟

ولقد كتب الدكتور مصطفى شاكر سليم تعليقاً على كتاب الإنسان في المرآة للمؤلف (كلايد كلوكهون) حول إنسان (ياندرتال) الذي يزعم أنصار نظرية (دارون) أنّه أوّل إنسان تطور من القرود أو الغوريلا . فقال الدكتور مصطفى: ويتصف (إنسان ياندرتال) بالصفات الطبيعية الرئيسة الآتية: مخ أكبر حجماً من مخ الإنسان المعاصر ، وجمجمة كبيرة عريضة . إلى أن قال: إلى جانب أنَّ السلسلة التي تغطيها الحفريات مقطعة غير متصلة بما يسمى (الحلقات المفقودة) .

يقول الدكتور (سوريال) في كتابه « تصدُّع مذهب دارون »:

١ـ **إنّ الحلقات المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء** ، وليست بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب ، فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعددة ، ولا بين الحيوانات الرخوية وبين الحيوانات المفصلية ، ولا بين الحيوانات اللافقرية وبين الأسماك والحيوانات البرمائية ، ولا بين الأخير وبين الزحافات والطيور، ولا بين الزواحف وبين الحيوانات الآدمية ، وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها في العصور الجيولوجية .

٢ـ **تشابه أجنة الحيوانات**: ذلك خطأ كبير وقع فيه بعض العلماء، نتيجة لعدم تقدم الآلات المكبِّرة التي تبين التفاصيل الدقيقة التي تختلف بها أجنة الحيوانات بعضها عن بعض في التكوين والتركيب والترتيب ، إلى جانب التزييف الذي قام به واضع صور الأجنَّة المتشابهة العالم الألماني (أرنست هيكل) فإنَّه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنَّه اضطرَّ إلى تكملة الشبه في نحو ثمانية في المئة من صور الأجنَّة لنقص الرسم المنقول.

٣ـ **أما وجود الزائدة الدودية في الإنسان** كعضو أثري للتطور القردي فليس دليلاً قاطعاً على تطور الإنسان من القرد ، بل يكون سبب وجودها هو وراثتها من الإنسان الجدّ الذي كان اعتماده على النباتات ، فخلقت لمساعدته في هضم تلك النباتات ، كما أنَّ العلم قد يكشف أنَّ لها حقيقة لا تزال غائبة عنَّا حتى اليوم .

فالعلم كل يوم إلى ازدياد ، وإذا كانت الخنوثة من صفات الكائنات الأولية الدنيا ، والزوجية من خصائص الكائنات الراقية ، فإنَّ الثدي من أمارات الأنوثة ، ونجد الفيل الذكر له ثدي كما للإنسان ، في حين ذكور ذوات الحافر كالحصان والحمار لا ثدي لها إلا ما يشبه أمهاتها . فكيف بقي أثر الخنوثة في الإنسان ، ولم يبق فيما هو أدنى منه ؟ مع أنَّ (دارون) يزعم أنَّ الإنسان تطوّر مما هو أدنى منه.

تفنيد شرح دارون لعملية التطور:

١ـ يقول: « دارون »: إنَّ هناك ناموساً أو قانوناً يعمل على إفناء الكائنات الحية ، فلا يبقى إلا الأصلح الذي يورث صفاته لأبنائه ، فتتراكم الصفات القوية حتى تكون حيواناً جديداً ، حقاً هناك نظام وناموس وقانون يعمل على إهلاك الكائنات الحيَّة جميعها قويها وضعيفها، لأنَّ الله قدَّر الموت على كلِّ حي ؛ إلا أنَّ نظاماً وناموساً يعمل بمقابلة هذا النظام ذلك هو قانون التكافل على الحياة بين البيئة والكائن ، لأنَّ الله قدَّر الحياة فهيّأ أسبابها، فنجد الشمس والبحار والرياح والأمطار والنباتات والجاذبية كلٌّ هذه وغيرها تتعاون للإبقاء على حياة الإنسان وغيره من الحيوانات .

فالنَّظر إلى عوامل الفناء وغض النظر عن عوامل البقاء يحدث خللاً في التفكير، فإذا كان هناك سنة للهلاك ، فهناك سنة للحياة، ولكلٍّ دورٌ في الحياة، وإذا كانت الظروف الطبيعية: من رياح ورعد وحرارة وماء وعواصف وغيرها قادرة على تشويه الخلق أو تدمير صنعه كطمس عين أو تهديم بناء ، فإنَّه من غير المعقول أن تقدر هذه الظروف الطبيعية الميتة الجامدة والبليدة أن تنشئ عيناً ، لمن لا يملك عيناً ، أو تصلح بناء فيه نقص .

إنَّ العقل يقبل أن تكون الظروف الطبيعية صالحة لإحداث الخراب والهلاك، لكنَّه من غير المعقول أن تكون هذه الظروف صالحة لتفسير الخلق البديع والتصوير والتكوين المنظم المتقن ، إن أي عضو من أعضاء الكائنات الحيَّة قد رسم بإتقان ، وكوّن بنظام ، ورتبت أجزاؤه بحكمة بالغة محيّرة ، ونسق عمله مع غيره في غاية الإبداع ، ومن المحال أن ينسب ذلك الإتقان

والنظام البديع إلى خبط الظروف الطبيعية العشواء .

قال « جمال الدين الأفغاني » في كتابه « الردُّ على الدهريين » بعد نقاش لهذه النظرية: وبعد ذلك فإني سائلهم كيف اطلع كلُّ جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء ؟ وبأية آلة أفهم كلّ جزء منها بقية الأجزاء بما ينويه من مطلبه ؟ وأي (برلمان ، أو سينات) ـ مجلس الشيوخ ـ عقدت لإبداع هذه المكونات العالمية التركيب البديعة التأليف ؟ وأنّى لهذه الأجزاء أن تعلم ـ وهي في بيضة العصفور ـ ضرورة ظهورها في هيئة الطير يأكل الحبوب، فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته في حياته؟.

إنَّ هذا المبدأ الذي أطلقه (دارون) (البقاء للأصلح) قد دمَّر الحياة البشرية، لأنَّه أعطى المسوغ لكلّ ظالم فرداً كان أو حكومة ، لأنَّ الظالم وهو يمارس غضبه وظلمه وحربه ومكره لا يمارس رذائل خلقية، إنَّما هو يمارس قانوناً من قوانين الفطرة كما زعم (دارون)، إنه يمارس قانون (البقاء للأصلح) ، وذلك الزعم هو الذي أعطى حركة الاستعمار كلَّ بشاعتها .

٢ـ أمَّا الانتخاب الطبيعي الذي يكون به الميل في التناسل بين الأفراد القويَّة مما سبب اندثار الأفراد الضعاف ، وبقاء الأقوى ، فليس ذلك دليلاً على حدوث تطور في النوع ، بل يفهم منه بقاء النوع القوي من النوع نفسه واندثار النوع الضعيف .

أمَّا إذا قيل: إنّ تطوراً يحدث على كائن ما فإنَّه يحدث فيه فتوراً جنسياً؛ لأنَّ الألفة بين الذكور والإناث تنقص بقدر التباعد والاختلاف بينهما في الشكل. ذلك ما يقوله (دوبر زانسكي) أشهر المختصين بالجيولوجية النوعية عام ١٩٥٨ م بعد قرن من (دارون) ، فمن قوله في هذا: « المخالفة في الشكل تضعف الميل التناسلي منه ، فالميل إلى التناسل يضعف بين الأشكال والأنواع المختلفة بقدر ذلك الاختلاف . وليس صحيحاً أنَّ الصفات المحسنة في فرد من الأفراد تنقل بوساطة الوراثة .

فمثلاً هذا الحداد القويّ العضلات لا تنتقل قوة عضلاته إلى ذريته ، كما أنَّ العالم الغزير العلم لا ينتقل علمه بالوراثة إلى أبنائه » .

٣ـ أما القول بحدوث نشوء لبعض الخصائص والصفات العارضة ، ثم توريثها في النسل ، فذلك ما يرفضه علم الوراثة الحديث . فكلّ صفة لا تكمن في الناسلة ، ولا تحتويها صبغة من صبغاتها فهي صفة عارضة، لا تنتقل إلى الذرية بالوراثة .

يقول الأستاذ (نبيل جورج) أحد ثقات هذا العلم: « إنَّ الانتخاب الطبيعي لأجل هذا لا يصلح لتعليل مذهب النشوء ، أو مذهب التطور ؛ لأنَّه يعلل زوال غير الصالح ونشأة المزايا الموروثة بين الأفراد ، والقائلون بالطفرة يقصدون أنَّ الحيوان الذي لم يكن له عين تتكون له العين فجأة بوساطة بعض الأشعة .

فقد ثبت لدى المختصين أنَّ الأشعة السينية تغيّر العدد في الناسلات ، لكنَّ أثر الأشعة تغيير لما هو موجود ، لا إنشاء ما ليس له وجود ، فعدد ناسلات القرد غير عدد ناسلات الإنسان ، والأشعة لا تؤثر إلا في الناسلات الموجودة فضلاً من أن تحدث هذه الأشعة التي لا عقل لها ولا إدراك عقلاً للإنسان يتميز به عن القرد وغيره من سائر الحيوانات .

إنَّ الأشعة تؤثر في الناسلات تأثيراً أقرب إلى التشويه منه إلى الإصلاح كما يحدث من الأشعة الذريَّة . وإلى جانب مخالفة علم الوراثة (لنظرية دارون) فإنَّ التجربة تنقضه ، فها هم اليهود والمسلمون من بعدهم يختنون أبناءهم ، ولكن ذلك كله لم يسبب أن وُلد أطفالهم بعد مرور السنين مختونين ، وهكذا فكلما تقدم العلم أثبت بطلان نظرية (دارون) .

النظرية لا يؤيدها الواقع المشاهد:

١ـ لو كانت النظرية حقاً لشاهدنا كثيراً من الحيوانات والإنسان تأتي إلى الوجود عن طريق التطور ، لا عن طريق التناسل فقط . وإذا كان التطور يحتاج إلى زمن طويل فذلك لا يمنع من مشاهدة قرود تتحول إلى آدميين في صورة دفعات متوالية .

٢ـ لو سلمنا أنَّ الظروف الطبيعية والانتخاب الطبيعي ؛ قد طورت قرداً إلى رجل ـ مثلاً ـ فإنّا لن نسلم أبداً بأن هذه الظروف قد قرَّرت أيضاً أن تكون امرأة لذلك الرجل ، ليستمرا في التناسل والبقاء مع الموازنة بينهما.

٣ـ إن القدرة على التكيف التي نشاهدها في المخلوقات كالحرباء التي تتلون بحسب المكان ، هي مقدرة كائنة في تكون المخلوقات ، تولد معها ، وهي عند بعضها وافرة ، وعند بعضها الآخر تكاد تكون معدومة ، وهي عند جميع المخلوقات محدودة لا تتجاوز حدودها ، فالقدرة على التكيف صفة كامنة ، لا صفة متطورة تكونها البيئة كما يزعم أصحاب النظرية ، وإلا كانت البيئة فرضت التكيف على الأحجار والأتربة وغيرها من الجمادات .

٤ـ تمتاز الضفادع على الإنسان بمقدرة على الحياة في البر والماء ، كما تمتاز الطيور عليه بمقدرة الطيران والانتقال السريع وذلك بدون آلة ، كما أنَّ أنف الكلب أشدّ حساسية من أنف الإنسان ، فهل أنف الكلب أكثر رقياً من أنف الإنسان ؟

وهل الضفادع والطيور أرقى من الإنسان في بعض الجوانب ؟

كما أنَّ عين الجمل أو الحصان أو الحمار ترى في النهار وفي المساء على السواء ، في حين تعجز عين الإنسان عن الرؤية في الظلام ، كما أن عين الصقر أشدّ حدة من عين الإنسان . فهل الصقر أو الحمار أرقى من الإنسان؟ وإذا أخذنا الاكتفاء الذاتي أساساً للرقي كما هو بالنسبة لحال الدول فإنَّ النبات يفوق الإنسان وجميع الحيوانات ، لأنَّه يصنع طعامه وطعام غيره دون أن يحتاج لغذاء من غيره .

وإذا أخذنا الضخامة أساساً للرقي ، عندئذ يجب أن يكون الجمل والفيل وحيوانات ما قبل التاريخ الضخمة أرقى من الإنسان .

موقف علماء الطبيعة من النظرية:

١ـ المؤيدون للنظرية وتأييدهم كان أكثره انتصاراً لحرية الفكر الذي كانت الكنيسة تحاربه وتقاومه ، فقد شن علماء الطبيعة حرباً ضد قسس الكنيسة وافكارهم بعد أن نشبت حرب طاحنة بين الفريقين .

٢ـ المعارضون ، وهم المطالبون بدليل محسوس على فعل (الانتخاب الطبيعي) في تحويل الأنواع ، ولا سيما نوع الإنسان ، فالمعترضون عليه طلباً للأدلة الطبيعية لا يقلون عدداً أو اعتراضاً عن المعترضين اللاهوتيين في أوربا .

وهذه بعض آراء العلماء المعارضين كما نقلها الأستاذ إبراهيم حوراني: «إنّ العلماء لم يثبتوا مذهب « دارون » بل نفوه ، وطعنوا فيه ، مع علمهم أنَّه بحث فيه عشرين سنة » . ومنهم العلامة « نشل » ، والعلامة « دلاس » قال ما خلاصته: « إنّ الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان ، ولا بد من القول بخلقه رأساً » .

ومنهم « فرخو » قال: « إنَّه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً ، فلا يمكننا أن نحكم بأنَّ الإنسان سلالة قرد أو غيره من البهائم، ولا يحسن أن نتفوَّه بذلك » .

ومنهم « ميفرت » قال بعد أن نظر في حقائق كثيرة من الأحياء: « إنَّ مذهب « دارون » لا يمكن تأييده ، وإنّه من آراء الصبيان ».

ومنهم العلامة « فون بسكون » قال بعد أن درس هو و« فرخو » تشريح المقابلة بين الإنسان والقرد: « إنَّ الفرق بين الاثنين أصلي وبعيد جداً. . . ».

ومنهم العلامة « أغاسيز » قال في رسالة في أصل الإنسان تليت في ندوة العلم الفيكتورية ، ما خلاصته: إنَّ مذهب (دارون) خطأ على باطل في الواقع ، وأسلوبه ليس من العلم في شيء ، ولا طائل تحته .

ومنهم العلامة « هكسلي » وهو من (اللاأدرية) وصديق (لدارون) قال: إنَّه بموجب ما لنا من البينات لم يثبت قط أن نوعاً من النبات أو

الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعي أو الانتخاب الصناعي .

ومنهم العلامة « تندل » وهو مثل « هيكل » قال: « إنّه لا ريب في أنّ الذين يعتقدون بالارتقاء يجهلون أنَّه نتيجة مقدمات لم يعلم بها ، ومن المحقق عندي أنه لا بدّ من تغيير مذهب (دارون) » .

نظرية لا حقيقة:

لذلك كله فقد أطلق على ما قاله (دارون) بشأن التطور (نظرية التطور)، وهناك فرق كبير لدى العلماء بين النظرية والحقيقة أو القانون. فالنظرية في اصطلاحهم هي ما تحتمل التصديق والتكذيب ، أما الحقيقة أوالقانون فلا يحتمل وجهاً من أوجه الباطل .

لماذا انتشرت إذن ؟

سبب انتشار هذه النظرية هو مجيؤها في وقت أذن الله فيه أن يظهر باطل ذلك الدِّين المحرف المغير (النصرانية) على أيدي جماعة من أبنائه، فكان لتقدم العلوم أثر كبير في كشف زيف ذلك الدين، مما أدّى إلى نشوب معركة ضارية ذهب ضحيتها آلاف من علماء الطبيعة، وفي المعترك الحامي أخذ كل فريق في استخدام كل سلاح ضد خصمه، فانتشرت هذه النظرية سلاحاً أشهره علماء الطبيعة في وجه دينهم ، ثمَّ في وجه كلِّ دين وطئت أقدامهم المستعمرة أرضه ؛ لاعتقادهم بصدق هذه النظرية ، وانتقاماً من ذلك الدِّين الباطل الذي وقف حجر عثرة أمام البحث في ميادين العلوم الطبيعية ، ثم وسيلة لتحطيم أديان الأمم المستعمرة حتى يسهل على المستعمرين السيطرة على هذه الشعوب .

وهكذا فرض التعليم الاستعماري هذه النظرية بعد أن حطم دينها في مناهج الدراسة ، وقدمها في ثوب (علمي) حتى يستطيع أن يقنع الطلاب بصدق هذه النظرية ليقرر ما ألقي في أذهان الطلاب من خلاف بين العلم الذي زيفوه والدِّين ، فيكفر الناس بدينهم .

ويكفي أن يعرف القارئ أنّه بوساطة هذه النظرية انحرف كثير من أبناء الإسلام عن دينهم ، ولذلك فقد حرص الاستعمار على تعليم هذه النظرية لأبناء المسلمين في مدارسنا في الوقت الذي يحرّم فيه القانون الأمريكي تعليم هذه النظرية في المدارس منذ سنة ١٩٣٥م.

ولكن أوربا بعد أن قضت على دينها المحرف عادت لتعلن أنَّ نظرية (دارون) التي استخدمتها في المعركة لدعم موقفها ليست حقيقة علمية ، وإنما هي نظرية كلما تقدمت العلوم كشفت عن باطلها.

القرآن ونظرية دارون

حين يتكلم القرآن في الحقائق الأزلية فعلى الناس أن يصغوا وينصتوا ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾[1].

لأنه من العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً، وما علم الإنسان! إنّه لا شيء بجانب علم الله ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وكيف لا يعلم أمر خلقه وهو الذي خلقهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[3].

وكيف يسمح النّاس لأنفسهم أن يتحدثوا عن أصلهم البعيد وهم لم يشهدوا ذلك الخلق ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾[4].

وما داموا لم يشهدوا، فإنّ صوابهم في هذا المجال قليل ، وخطؤهم كثير.

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠٤ .
(٢) سورة البقرة: ٢١٦ .
(٣) سورة الملك: ١٤ .
(٤) سورة الكهف: ٥١ .

عكس هذه النظرية هو الصواب:

الذي يقرره العليم الخبير خالق الإنسان مخالف تماماً لما قرره هؤلاء الجاهلون ، فالله يخبرنا أنَّه خلق الإنسان خلقاً مستقلاً مكتملاً ، وقد أخبر ملائكته بشأن خلقه قبل أن يوجده ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [1].

وحدثنا عن المادة التي خلقه منها، فقد خلقه من تراب ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [2].

وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك ، والسهل والحزْنُ ، والخَبيثُ والطيبُ) [3] .

والماء عنصر في خلق الإنسان ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [4] ، فهو من ماء وتراب: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ [5].

هذا الطين تحوّل إلى صلصال كالفخار ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [6].

وقد خلقه الله بيديه ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [7] .

وقد خلقه مجوَّفاً منذ البداية ، ففي الحديث عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (لما صَوَّرَ الله آدَمَ فِي الجَنَّةِ تركَهُ مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَتْرُكَهُ ، فَجعَلَ إبليسُ يَطيفُ بِهِ يَنْظرُ ، فلَمَّا رَآهُ أجْوفَ عَرَفَ أنَّه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك) [8].

هذا الطين نفخ الله فيه من روحه ، فدبَّت فيه الحياة ، فأصبح سميعاً

(١) سورة البقرة: ٣٠.
(٢) سورة الحج: ٥ .
(٣) رواه أحمد والترمذي وأبو داود (مشكاة المصابيح: ٣٦/١ . ورقمه: ١٠٠) .
(٤) سورة النور: ٤٥ .
(٥) سورة الأنعام: ٢.
(٦) سورة الرحمن: ١٤ .
(٧) سورة ص: ٧٥ .
(٨) صحيح مسلم: ٢٠١٦/٤ ، ورقمه: ٢٦١١ .

بصيراً متكلماً عاقلاً واعياً ، فقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم حين ينفخ فيه الروح، وتدبُّ فيه الحياة ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1] .

وأخبرنا الله بالمكان الذي أسكنه فيه بعد خلقه ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[2] .

وبمجرد أن تمَّ خلقه أخذ يتكلم ويفقه ما يقال له، ففي القرآن ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾[3].

وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:(لـمَّا خلقَ اللهُ آدَمَ وَنَفَخَ فيه الرُوحَ عَطسَ ، فَقَالَ: الحَمْدُ لله ، فَحَمِدَ اللهَ بإِذْنِه ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَرحَمُكَ اللهُ يَا آدَم ، اذْهَبْ إِلى أولـئكَ المـلائِكـةِ ـ إِلى مَلأٍ مِنْهُمْ جُلوسٌ ـ فَقُلْ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ. قَالوا: عَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهِ..)[4].

هذا الإنسان الأول هو آدم وهو أبو الناس كافة، وخلق الله من آدم زوجه حواء، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[5].

ولم يكن خلق الإنسان ناقصاً ثم اكتمل ، كما يقول أصحاب نظرية التطوّر ؛ بل كان كاملاً ، ثمَّ أخذ يتناقص الخلق ، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: (خلق الله آدَمَ وَطولُهُ: سِتُّونَ ذِرَاعاً)[6] .

---

(١) سورة ص: ٧٢ .
(٢) سورة البقرة: ٣٥ .
(٣) سورة البقرة: ٣١ ـ ٣٣.
(٤) رواه الترمذي: مشكاة المصابيح: ٢/٥٤٢، ورقمه: ٤٦٦٢ . وقال محقق المشكاة: صححه الحاكم ووافقه الذهبي . وهو كما قالا.
(٥) سورة النساء: ١.
(٦) صحيح البخاري: ٦/٣٦٢ ، ورقمه: ٣٣٢٦ ، ورواه مسلم في صحيحه: ٤/٢١٨٣ ، ورقمه: ٢٨٤١ ، واللفظ للبخاري.

ولذلك فالمؤمنون يدخلون الجنّة مكتملين على صورة آدم ، ففي بقية الحديث السابق: (فَكُلُّ مَنْ يَدخُلِ الجنّة عَلى صُورَةِ آدَمَ وطوله ستون ذراعاً)، ثم يقول ﷺ: (فلم يَزَل الخلقُ يَنقُصُ بعده حتّى الآن)[1].

وقد أخبرنا الحق أنه مسخ بعض الضالين من البشر قردة وخنازير ، فالمستوى الراقي من الخلق يمكن أن ينحدر إلى المستوى الأدنى، أمّا أن تُحوّل القرود والخنازير بشراً فهذا لا يوجد إلا عند أصحاب العقول الضعيفة .

هذه لمحة مما حكاه القرآن وأخبرت به الأحاديث عن خلق الإنسان الأول، لم نستقص النصوص من الكتاب والسنّة في ذلك ، وإلا فالقول في ذلك واسع وطويل ، وهو يعطي صورة واضحة لأصل الإنسان ليس فيها غبش ولا خيال ، وهذا الذي يبيّنه الإسلام أصل كريم يعتز الإنسان بالانتساب إليه، أمّا ذلك الإنسان الذي يصوّره أصحاب نظرية التطور ، ذلك القرد الذي ترقى عن فأر أو صرصور فإنّه أصل يخجل الإنسان من الانتساب إليه .

وذلك الإنسان الذي يُدَرّسه علماء التاريخ للأطفال: الإنسان المتوحش الذي لا يفقه الكلام ، ولا يحسن صنع شيء ، الذي يتعلم من الحيوان... فيه الكثير من التجني على أصل الإنسان الكريم .

وبعد:

فقد آن لنا أن نفيق وأن نعود إلى ديننا الذي جاء به كتاب ربنا ، ففيه الخير (فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من ابتغى الهدى من غيره أضله الله ...) .

آن لنا أن نعِفَّ عن نتاج العقول الآسنة المتعفنة في مثل هذه المجالات، أعني المجالات التي قال الله فيها كلمة الفصل ، ولم يترك لأحد فيها قولاً .

يجب أن تتوقف هذه الهزيمة الفكرية التي تجعلنا نسارع إلى قبول كل جديد بدون رويّة وتفكر ، ثم لا نفيق على خطأ ما أخذناه إلا بعد أن يهدمه بنائه.

---

(١) المصدران السابقان ، إلا أن اللفظ هنا لمسلم .

الفصل الثاني

التعريف بالله وربط القلوب به

تمهيد:

ما كان لنا أن نطيل في عرض المسألة الأولى لولا ما أثير حولها من شكوك وشبهات تقتضي من الباحث أن يبين عوارها .

وقد آن لنا أن نبسط القول في المسألة الثانية ، وهي أهم مسائل هذا الباب ، وصلب هذه المباحث .

وقد سبق أن قررنا أن القرآن سلك سبيلين لتقرير هذه الحقيقة الكبيرة:

الأولى: الحديث عن بديع صنع الله في خلقه ، وبيان ما في هذا الكون من إعجاز يشي بعظمة الخالق سبحانه .

الثانية: الحديث المباشر عن الله: ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، ونعمه ومخلوقاته ، وسنحاول ـ إن شاء الله تعالى ـ أن نفصل القول في ذلك، والله المستعان .

المبحث الأول

دلالة الآيات الكونية على خالقها ومبدعها

المطلب الأول: منهج القرآن في الاستدلال بالآيات الكونية

١- ارتياد الكون عبر آيات القرآن

يأخذنا القرآن في جولات وجولات نرتاد آفاق السماء ، ونجول في جنبات الأرض ، ويقف بنا عند زهرات الحقول ، ويصعد بنا إلى النجوم في مداراتها ، وهو في كلٍّ ذلك يفتح أبصارنا وبصائرنا ، فيرينا كيف تعمل قدرة الله وتقديره في المخلوقات ، ويكشف لنا أسرار الخلق والتكوين، ويهدينا إلى الحكمة من الخلق والإيجاد والإنشاء ، ويبين عظيم النعم التي حبانا بها في ذوات أنفسنا وفي الكون من حولنا .

إنه حديث طويل في كتاب الله يطالعك في طوال سوره وقصارها ، وهو حديث مشوق تنصت إليه النفس ، ويلذه السمع ، ويستثير المشاعر والأحاسيس .

ولقد طالعت الكثير مما توصل إليه العلم والعلماء في شتى جوانب الحياة يبينون أسرار الخلق ، ودلالة الخلق على الخالق ، فما وجدت في شيء من ذلك كلّه ما وجدته في القرآن من جمال وصف ، ووفرة علم، واستثارة مشاعر ، وحسن توجيه ، ودقة استنتاج ، وكيف لا يكون كذلك وهو تنزيل الحكيم الحميد !!

فعل الله في الكون:

تعال معي لنقوم بجولة مع الآيات القرآنية ؛ نرتاد هذا الكون ليرينا كيف تعمل قدرة الله في مختلف أرجاء الكون: في الحبّة تلقى في التربة فتنفلق ، وتضرب بجذورها في التربة ، فيخرج من الحبّة الجامدة حياة تتمثل في سوق، وأوراق ، وأزهار تفوح بالشذى ، وثمار يتغذى بها الإنسان والحيوان . وفي الإصباح وهو ينبلج ... وفي سكون الليل.. ومسير الشمس والقمر.. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[1].

وانظر إلى مشهد السحاب كيف يصنعه الله ، والبرد كيف يكوّنه ويصرفه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[2].

ويحدثنا الله عن فعله في الظلّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾[3].

وانظر إلى تصريفه شؤون الحياة والأحياء والليل والنهار: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4].

لا يكتفي القرآن بأن يرينا قدرة الله وهي تعمل في الكون ، وعلمه يحيط

---

(١) سورة الأنعام: ٩٥ ـ ٩٦ .
(٢) سورة النور: ٤٣ .
(٣) سورة الفرقان: ٤٥ـ ٤٦ .
(٤) سورة آل عمران: ٢٦ـ٢٧ .

بالمخلوقات ، وتصريفه للشؤون المختلفة ... ولكنّه ـ مع ذلك ـ يعرفنا بالغاية التي خلق الكون من أجلها .

خلق الله هذه الأرض من أجل الإنسان ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[1] خلقها لنا على نحو يتوافق مع طبيعتنا وتكويننا ويحقق لنا الصلاح، وهذا ما سماه القرآن بالتسخير.

وهو لا يخبرنا بذلك مجرد إخبار ، وإنّما يوقفنا على هذا التسخير الذي جعله الله في الكون، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2]. فالنجوم خلقت لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

والأرض والسماء ، وإنزال الماء من السماء ، والسفن السابحة في البحر، والأنهار الجارية في جنبات الأرض ، والشمس والقمر ، وتعاقب الليل والنهار... كلّ ذلك مخلوق لنا ولخيرنا ولصلاحنا ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾[4].

(١) سورة البقرة: ٢٩.
(٢) سورة لقمان: ٢٠.
(٣) سورة الأنعام: ٩٧.
(٤) سورة إبراهيم: ٣٢ـ ٣٤ .

٢ـ نعم الله في الكون

عرّفنا القرآن بأنَّ الله خلق هذا الكون وسخَّره لنا ، فجعله متوافقاً مع جبلتنا ، وقدَّره تقديراً تصلح به حياة الإنسان ، والقرآن يتخذ من هذا الحديث والبيان سبيلاً ليشكر الإنسان ربَّه ، إذ الإنسان مفطور على حب من أحسن إليه ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾[1] .

ولذلك فقد أفاض القرآن في ذكر النعم التي حباها الله عباده في ذوات أنفسهم ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2]، وفي الكون من حولهم: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾[3].

وخلق لنا الشمس والقمر على نحو يحقق النفع والصلاح ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾[4].

والأنعام من الجمال والأبقار والأغنام، وكذلك الخيل والبغال والحمير خلقها لنا على نحو يفيدنا ويتناسب مع طبائعنا وتكويننا ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[5].

والبحر مخلوق لنا أيضاً ، وفي خلقه على ما هو عليه ما يحقق لنا الشيء الكثير ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى

---

(١) سورة الرحمن: ٦٠ .
(٢) سورة الملك: ٢٣.
(٣) سورة الزخرف: ١٠ـ ١٣.
(٤) سورة يونس: ٥.
(٥) سورة النحل: ٥ـ ٨ .

ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

والنحل خلقه الله ليقوم بذلك العمل الرائع، لينتج لنا ذلك الشراب المختلف الألوان، ليتغذى به البشر، ويكون لهم شفاء ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

التعرف على الله من خلال آياته الكونية سبيل حث عليه القرآن:

حث القرآن عباد الله على النظر في آيات الله الكونية: الأرض، والسماء، وما فيهما وما بينهما، وجعل النظر والتأمل في ذلك من الذكرى التي تنفع المؤمنين.

وقد أعجبني تسمية بعض المعاصرين لهذا المنهج (بقانون السير والنظر) لكثرة حث الآيات القرآنية على ذلك، وقد يكون السير والنظر حسيّان، فيسير المرء بقدميه، وينتقل من بلد لآخر، كما قد يكون النظر بالبصر، وقد يكونان بالفكر والعقل.

وقد جاء الأمر في القرآن أمراً عاماً ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾[3]. وقد يأتي أمراً خاصاً ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾[4]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[5].

---

(١) سورة النحل: ١٤.
(٢) سورة النحل: ٦٨ ـ ٦٩.
(٣) سورة يونس: ١٠١.
(٤) سورة الطارق: ٥.
(٥) سورة عبس: ٢٤.

٣ـ استدلال القرآن بالآيات القرآنية على

استحقاق الخالق الربوبية والألوهية وبطلان ما يعبد من دون الله

يتخذ القرآن من الآيات الكونية مادة يناقش بها المشركين ، ويقيم بها الحجة عليهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(١).

ويبين لهم فساد معتقداتهم في معبوداتهم ، فهي لا تملك صفات الربوبية والألوهية التي تستحق أن تعبد بها، وتتخذ آلهة من دون الله : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٢).

إنَّ الآيات تبين عدم صلاحية الآلهة المدعاة للعبادة ، فالله وحده الخالق للسماء والأرض ، المنزل للماء من السماء ، والمنبت به الحدائق التي تسرّ النفس وتبهج النظر ، وهو الذي جعل الأرض قراراً وسيّر خلالها الأنهار

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠ - ٣٣ .

(٢) سورة النمل: ٥٩ - ٦٤ .

وثبتها بالجبال . . . فهو المعبود الحق ، وغيره لم يفعل شيئاً ، فلا يستحق أن يعبد من دون الله .

وعلينا أن نستخدم هذا النوع من الاستدلال في مواجهة الكفرة والملحدين، فقد استخدمه الرسل من قبل، وأكثروا من الاحتجاج به، فهذا إبراهيم خليل الرحمن يناقش الملحد ، ويقيم عليه الحجة بهذا النوع من الاستدلال بحيث يخرس لسانه ويدهش فكره ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وهذا موسى كليم الله يستخدم الاستدلال نفسه في مواجهة طاغية عصره فرعون ، ولا يزال يأتيه بالدليل في إثر الدليل حتى يعجزه ، فيلجأ إلى التهديد والوعيد: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾[2].

بل إن هذا النوع من الاستدلال طريقة جميع الرسل ، ارجع إلى سورة إبراهيم (آية ٩ ، ١٠) واقرأ ما قالته الأقوام المكذبة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، ثم إجابة الرسل حيث قالوا: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾[3].

فاستدلوا على صدق دعوتهم بأن الله ـ سبحانه ـ فاطر السموات والأرض أي موجدهما وخالقهما .

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٨ .
(٢) سورة الشعراء: ٢٣ - ٢٩ .
(٣) سورة إبراهيم: ١٠ .

الكفر مستنكر مستعجب مع وضوح الأدلة:

ولذلك يسأل القرآن سؤالاً يشي بالعجب من كفر الكافرين مع وضوح الأدلة والبراهين: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1].

ويسأل في آية أخرى ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[2].

إن مقتضى نظر الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله يوجب عليه التوجه إلى خالقه وتعظيمه ، ولذلك كان غريباً كفر الكافرين ، وجحد الجاحدين ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾[3].

٤ـ الذين ينتفعون بآيات الكون هم أولو الألباب

إن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلا للقلوب الذاكرة العابدة ؛ لأن هذه القلوب انكشفت عنها الحجب وتفتحت واتصلت بالكون العجيب ، فالقرآن أقام الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل ، وهذه الوصلة هي التي تجعل للنظر في كتاب الكون والتعرف إليه أثراً في هذا القلب البشري ، وقيمة في الحياة البشرية . هذه هي الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذي يعلم ويعرف ، ولذلك نصّ القرآن على أن الذي يهتدي بآيات الكون هم صنف معين من الناس ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[4].

---

(١) سورج البقرة: ٢٨ .

(٢) سورة الانفطار: ٦- ٨ .

(٣) سورة نوح: ١٣ - ١٨ .

(٤) سورة آل عمران ١٩٠ -١٩١ .

هؤلاء هم الذين ينتفعون بآيات الكون لأنهم لم يقفوا عند حدود المنظر المشهود البادي للعيان ؛ بل نظروا إلى اليد التي تسيره والقدرة التي تصنعه ، إنهم يستخدمون أبصارهم وأسماعهم وعقولهم وأفكارهم على خير وجه في هذا المجال ، مسترشدين بآيات الكتاب التي تعين السمع والبصر والفكر والعقل على التوصل إلى خير ما يمكن للإنسان أن يصل إليه ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

فالآيات تتكشف للذين يتفكرون ويسمعون ويعقلون ؛ أي على وجه الحقيقة المؤدية إلى المطلوب .

أما الكفار فإنهم يشاهدون الحدث ولا يتجاوزونه بعقولهم وأفكارهم إلى صانعه وخالقه، ولا يدركون الحكمة من وراء الخلق ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2].

ولذلك لم ينتفعوا بالآيات الكونية ؛ لأنهم لم ينظروا إليها من خلال المنظار القرآني : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

ولذلك فإن القرآن ينكر على الكافرين والجاحدين تركهم النظر والاعتبار ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة الروم: ٢١ - ٢٤ .
(٢) سورة الروم: ٧ .
(٣) سورة يونس: ١٠١ .
(٤) سورة الأعراف: ١٨٥ .

٥ـ العلوم الحديثة تقطع الوشيجة بين الناس والكون

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: « إن مناهج البحث التي يسمونها «علمية» في هذا الزمان تقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه .

فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون ، وإلا حين تقوم وثيقة بين قلوبهم وايقاعات هذا الكون الكبير ، وكل معرفة بنجم من النجوم ، أو فلك من الأفلاك ، أو خاصة من خواص النبات والحيوان ، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال ، وما فيه من عوالم حية وجامدة ـ إذا كانت هناك عوالم جامدة ـ أو أي شيء واحد جامد في هذا الوجود !

كل معرفة « علمية » يجب أن تستحيل في الحال إلى إيقاع في القلب البشري ، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون ، وإلى تعارف يوثق أواصر الصداقة بين الناس والأشياء والأحياء ، وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموحية المؤثرة في حياة البشر ، هي معرفة ناقصة ، أو علم زائف، أو بحث عقيم .

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح الذي يقرأ بكل لغة ، ويدرك بكل وسيلة ، ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة وساكن الكوخ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور ، كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده ، فيجد فيه زاداً من الحق ، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق ، وهو قائم مفتوح في كل آن ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[1].

ولكن العلم الحديث يطمس هذه التبصرة ، أو يقطع الوشيجة بين القلب البشري والكون الناطق المبين ، لأنه في رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة (المنهج العلمي) ، المنهج الذي يقطع ما بين الكون والخلائق التي تعيش فيه.

والمنهج الإيماني لا ينقص شيئاً من ثمار « المنهج العلمي » في إدراك

---

(١) سورة ق: ٨ .

الحقائق المفردة ، لكنه يزيد ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض ، وردها إلى الحقائق الكبرى ، ووصل القلب البشري بها ، أي وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود ، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر الناس وحياتهم ، لا معلومات جامدة جافة متحيزة في الأذهان لا تفضي لها بشيء من سرّها الجميل ، والمنهج الإيماني هو الذي يجب أن تكون له الكرة في مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التي يهتدى إليها ، بهذا الرباط الوثيق .. »[1] .

٦- دلالة الخلق على صفات الخالق

إذا نظرنا إلى آلة دقيقة الصنع ، بديعة التكوين ، غاية في القوة والمتانة، تقوم بعملها على خير وجه ، فلا بدَّ أن ندرك بلا كثير تفكير أن صانعها يتصف بصفة الحياة والعلم ولديه قدرة وإرادة ... إلى آخر تلك الصفات التي تنبئنا عنها الآلة .

وهذا الكون يشي ويعرّف بكثير من صفات الخالق ، فمن ذلك:

قدرته وعلمه: هذا الكون الهائل الضخم الشاسع الواسع السائر وفق نظام دقيق لا بدَّ أن يكون صانعه قديراً عليماً والله خلق الخلق بهذا التكوين الهائل وهذا النظام الكامل ليعرفنا بقدرته وعلمه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[2] .

ولا بد أن يكون العلم الذي يحكم هذا الكون شاملاً كاملاً ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3] .

وهو حكيم: فالنظر في هذا الكون يشي بأنّه محكم متقن قد وضع كلّ

(١) في ظلال القرآن: تفسير سورة (ق) ، آية (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) .
(٢) سورة الطلاق: ١٢ .
(٣) سورة الأنعام: ٥٩ .

شيء منه في موضعه المناسب ، وخُلق بالمقدار المناسب ، في غاية الجودة والإتقان ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[1] ، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾[2].

ولذلك فإن الناظر المتبصر في خلق الله لا يرى إلا الكمال والإتقان ، ولو بحث عن عيب في الخلق لأعجزه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[3].

صفات أخرى: ما ذكرناه من دلالة الخلق على بعض صفات خالقه أردنا به التمثيل ، لا الحصر والاستقصاء ، وهو تمثيل يفتح الباب للاستدلال والبحث ، وإلا ففي الكون الكثير من الآيات الدالة على عظمة الله وعزته ولطفه ، واستمع إلى الصفات الإلهية التي ذكرها الله في ختام كلّ آية من الآيات التالية ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[4].

---

(١) سورة النمل: ٨٨ .
(٢) سورة السجدة: ٧ .
(٣) سورة الملك ٣ - ٤ .
(٤) سورة الحج: ٦٣ - ٦٥ .

٧ـ الله وحده المستحق للعبادة

الهداية التي يجلبها النظر والتفكر في الآيات الكونية توجه إلى عبادة الله وحده ، فالله وحده هو الخالق المدبر المقيم للسموات والأرض الرازق المحيي المميت . . . ؛ لذلك فهو المستحق للعبادة دون سواه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[2].

وبهذا الطريق ـ كما سبق ـ أثبت القرآن بطلان الآلهة المدعاة وعدم استحقاقها شيئاً من العبادة ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

ولذلك فإنّه يذكّر خلقه بالآيات الكونية وتصريفه الأمور وتدبيره الشؤون ثم يعقب على ذلك في كثير من آي القرآن بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾[4] أي ذلكم الإله الذي يستحق العبادة دون سواه .

استمع إلى هذه الآيات وتأمل التعقيب عليها: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: ٢١ - ٢٢ .
(٢) سورة فاطر: ٣.
(٣) سورة لقمان: ١٠ـ ١١.
(٤) سورة الزمر: ٦ .
(٥) سورة الزمر: ٥ ـ ٦ .

المطلب الثاني: العلماء يبينون عجائب صنع الله في خلقه

وكان العلماء ولا يزالون يبينون عجائب صنع الله في خلقه ، ويعظون أنفسهم بذلك ، كما يعظون غيرهم ، وسننقل طرفاً مما توصل إليه العلماء في هذا المجال في القديم والحديث .

وأحب أن يضع القارئ نصب عينيه وهو يقرأ هذه المقتطفات قول موسى لفرعون: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [1] . فالله أعطى كل شيء خلقه الذي يناسبه ، وهداه لما فيه صلاحه .. وسنرى نماذج من هذا الإعطاء وتلك الهداية .

١ـ تكون الأجسام من الخلايا وانقسامها

أ ـ مم تتكون أجسام الأحياء وكيف ؟

يقول باحث معاصر هو الدكتور يوسف عز الدين مجليا هذا الموضوع: «معظم الحيوانات والنباتات تتكون من عدد هائل من تلك الوحدات الدقيقة الحجم التي نسميها (الخلايا) ، كما يتكون المبنى من مجموعة من الأحجار المرصوصة » .

ب ـ لماذا تنقسم الخلايا دائماً ؟

ويتابع الدكتور يوسف عز الدين كلامه مبيناً السر في انقسام الخلايا فيقول: « وخلايا أجسامنا وأجسام غيرنا من الحيوانات دائمة الانقسام ، وذلك الانقسام قد يكون لنمو الجسم ، أو لتعويض ما يفقد أو يموت من الخلايا لأسباب عديدة . وكلُّ خلية من هذه الخلايا تتكون أساساً من مادة عجيبة نطلق عليها اسم « البروتوبلازم » .

وتوجد بداخل كل خلية محتويات عديدة ذات وظائف محددة ، ومن هذه المحتويات أجسام دقيقة تحمل عوامل وراثية هي التي نطلق عليها اسم «الكروموسومات » .

---

(١) سورة طه: ٥٠.

وعـدد هذه « الكرومـوسـومـات » ثابت في خـلايا كلّ نـوع من أنواع الحيـوانات والنباتات المختلفـة ، فعددها في خـلايا القط ـ مثـلاً ـ يختلف عن عددها في خلايا الكلب أو الفيل أو نبات الجزر أو الفول .

وفي كل خليّة مـن الخـلايا التي يتكون منها جسـم الإنسـان يوجـد سـتـة وأربعون من هذه (الكروموسومات) .

وعندما تنقسم الخلية إلى خليتين داخل أجسامنا فإنّ كلّ خليـة جديدة لا بدّ أن تحـتـوي علـى العـدد نفسـه من (الكرومـوسـومـات) ، وهي ستـة وأربعـون، إذ لو اختل هذا العـدد لما أصبح الإنسان إنسـاناً . والخـلايا كمـا ذكرت دائمـة الانقسام ، يحـدث هذا في جميـع ساعات اليـوم حتى في أثناء نومنا ، ونحن حـتى الآن لا ندرك حقـيقـة القوى المـهيـمنة على هذه العمليـة المذهلة: عملية انقسام الخلايا ، بل يكتفي العلم بوصف الخطوات العملية التي يمكن مـلاحظتـهـا تحت عـدسـات (المـيكروسكوب) العـادي أو عن طريق (الميكروسكوب الألكتروني) الذي يكبر الأشياء تـكبيراً أكثـر بكثير من تكبـير الميكروسكوب العادي » .

جـ ـ لماذا تختلف الخلايا التناسلية عن غيرها ؟

وذكر الدكتور يوسف: « أن جميع الخلايا الناتجة عن عمليات الانقسام في جسم الإنسان لا بدّ أن تحـتوي على ستة وأربعين (كـروموسوماً) فيـما عدا نوعين من الخـلايا ، همـا الخـلايا التناسليـة ، أي الحـيـوان المنوي في الذكـر والبـويضـة في الأنثى ، وعندمـا تنقـسم خـلايا الأنسـجـة لتكوين هذه الخـلايا التناسلية فإنها تنتج خلايا لا تحتوي على الستة والأربعين (كروموسوماً) ، بل تحـتوي علـى نصف هذا العدد ، أي يـصبح في كل خـلية تناسلـية ذكـرية أو أنثوية ثلاثة وعشرون (كروموسوماً) فقط » .

ثم بين لماذا يحـدث ذلك ، فـقـال: « يحـدث هذا لحكمـة بالغـة ولهـدف عظيم، إذ أنّ الخليـة الذكـرية (الحـيـوان المنوي) لا بـدّ أن تندمج مع الخليـة الأنثـوية (البـويضة) لتـكوين أول خليـة في جسم الجنـين ، وهي التي نطلق

عليها اسم (الخلية الملقحة)، حيث ينضم الثلاثة والعشرون (كروموسوماً) التي في الخلية الذكرية إلى الثلاثة والعشرين (كروموسوماً) التي في الخلية الأنثوية لكي يعود عدد (الكروموسومات) في الخلية الجديدة إلى العدد الأصلي ،وهو ستة وأربعون (كروموسوماً).

وهذه الخلية الملقحة التي أصبحت تحتوي على ستة وأربعين (كروموسوماً) توالي انقسامها ، فتصبح خليتين ، ثم أربع خلايا ، ثم ثماني خلايا وهكذا، حتى يتم تكوين الجنين الذي يخرج من رحم أمه ، ويستمر نموه عن طريق انقسام الخلايا حتى يصبح إنساناً كامل النمو في كلّ خلية من خلاياه ستة وأربعون (كروموسوماً) كما هو الحال في خلايا جسد أبيه وأمه وأجداده وجميع أفراد الجنس البشري » .

« إنَّ اختزال عدد (الكروموسومات) إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية بالذات لكي تندمج فيعود العدد الأصلي (للكروموسومات) في الخلايا لا يمكن مطلقاً أن يكون نتيجة مصادفة عمياء ، بل لا بدَّ أن يكون نتيجة تقدير دقيق من قوة عليا تعلم ماذا تفعل .

وهي في الوقت نفسه لا يمكن أن تخضع للتجربة واحتمال الخطأ ، إذ لو حدث خطأ مرة واحدة عند بدء الخلق لقضي على الكائن الحي قبل تكوين الجيل الثاني . أي إنّ هذا الترتيب لا بد أن يكون قد تم منذ تكوين أول جنين ظهر في الوجود ، ألا يكفي هذا وحده دليلاً على وجود قوة عليا مدبرة مقدرة حكيمة ؟ » .

د ـ لماذا لا تنقسم خلايا المخ ؟

أما النوع الآخر من الخلايا التي تخالف بقية خلايا الجسم فهي خلايا الدماغ ، وهي تخالف بقية الخلايا في كونها لا تنقسم ، وعن السر في عدم انقسامها يقول الدكتور يوسف عز الدين:

« لا يمكن أن يكون عن طريق التجربة واحتمال الخطأ والصواب أن الخلايا الوحيدة التي لا تنقسم هي الخلايا العصبية التي يتكون منها المخ وباقي الجهاز العصبي ، لو انقسمت كما يحدث لباقي الخلايا لحدثت كارثة مروعة، إنَّ خلايا المخ في هذه الحالة لن يمكنها الاحتفاظ بشخصية الإنسان ، وسوف تتلاشى جميع معالم الذاكرة في خلال ساعات قلائل .

إنَّ عدد خلايا المخ عند ولادة الإنسان أو أي حيوان آخر لا تزيد عليها خلية واحدة حتى وفاته ، بينما نجد أنَّ الكرات الدموية الحمراء التي تسبح في الدم ، ما هي إلا خلايا تموت ، ويحلُّ محلها خلايا جديدة كلّ نحو مائة يوم . وتتكون الخلايا الحمراء (الكرات الحمراء) في نخاع العظام ، ثم تنطلق لكي تسبح في تيار الدم ؛ لتحل محل الخلايا التي استهلكت » .

هـ ـ السر في تفاوت قوة عضلات الجسم:

ويتحدث الدكتور عن هذا الموضوع فيقول: « أقوى عضلات في جسم الإنسان أو الحيوانات الثديية هي عضلات الرحم عند الأنثى ، تلك التي تدفع الجنين ليخرج من بطن أمه ، إذ لو لم تكن هذه العضلات بهذه القوة منذ بدء خلق الإنسان أو غيره من الحيوانات لما خرج إلى الوجود أول جنين من بطن أمه .

وتلي عضلات الرحم في القوة عضلات القلب والفكين ، فعضلات القلب لا بد أن تكون قوية لتصمد للعمل ليلاً ونهاراً لدفع الدم إلى الأوعية الدموية لمدة قد تطول لأكثر من مائة عام ، وكذلك الحال في عضلات الفكين التي ينبغي أن تظلّ قادرة على دفع الأسنان لينطبق بعضها على بعض لكي تمضغ أطناناً من الطعام طوال حياة الإنسان » .

٢ـ مقاومة الأحياء لعوامل الفناء

ويقرر الدكتور يوسف: « وجود صفة مهمة تشترك فيها جميع الكائنات الحيَّة من أدناها إلى أرقاها ، هذه الصفة هي مقاومة عوامل الفناء ، إذ إنّ خالق جميع هذه الكائنات يريد لها البقاء .

إنَّ (فيروس الأنفلونزا) يتشكل من آنٍ لآخر بأشكال مختلفة ؛ لتصعب مقاومته والقضاء عليه ، والحشرات مع توالي الأجيال تكتسب مناعة ضدَّ المبيدات الكيميائية؛ لكي تقاوم عوامل الفناء وانقراض الجنس.

بل في الإنسان نفسه لوحظ كثرة الإنجاب في فترات الحروب ، كما لوحظ أنَّ أية سيدة تواظب على تناول حبوب منع الحمل مدة طويلة ثم تسهو عن تناولها بعض الأيام ـ فإنَّ النتيجة في معظم الأحيان تكون إنجاب عدة توائم ؛ لتعويض النقص في الذرية الذي حدث في أثناء فترة الامتناع عن الحمل. وإذا استأصل الإنسان إحدى الكليتين لسبب من الأسباب فإنَّ الكلية الباقية يزداد حجمها وتؤدي عمل الكليتين ، وكأن في الجسم عقلاً يدرك به ما حدث من نقص فيسرع لتعويضه .

الله وحده هو الذي زود هذه المخلوقات بهذه القدرة العجيبة على التوازن حتى لا تنقرض وتتعرض للفناء ، كما زود العديد من الحيوانات بوسائل للدفاع عن أنفسها لا يختلف في ذلك الإنسان عن العقرب أو الثعبان أو أم أربعة وأربعين أو غيرها .

لا يمكن أن يكون هذا المبدأ أو القانون الذي يسود جميع الكائنات الحية من صنع مصادفة عمياء تتخبط في الظلام ، إذ إنّ المصادفة لا يمكن أن تتخذ مظهر قانون عام تخضع له جميع الكائنات » .

٣ـ هداية النحل وشيء من عجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم[١] رحمه الله تعالى عن بدائع صنع الله في خلقه ، مبيناً هداية الله للنحل في أمور معاشه: « وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب وذلك أن لها أميراً ومدبراً ، وهو اليعسوب ، وهو أكبر جسماً من جميع النحل ، وأحسن لوناً وشكلاً .

وإناث النحل تلد في إقبال الربيع[٢]، وأكثر أولادها يكنَّ إناثاً ، وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها ، بل إما أن تطرده ، وإما أن تقتله ، إلا طائفة يسيرة منها ، وذلك أن الذكور منها لا تعمل شيئاً ولا تكسب.

والنحل تقسم فرقاً فرقاً، فمنها فرقة تلزم الملك ، ولا تفارقه ، ومنها فرقة تهيئ الشمع وتصنعه، والشمع هو ثفل العسل ، وفيه حلاوة كحلاوة التين ، وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل ، فينظفه النحل ، ويصفيه ، ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها ، وفرقة تبني البيوت، وفرقة تسقي الماء ، وتحمله على متونها ، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل ، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعتها وقتلتها حتى لا تفسد عليهن بقية العمال ، وتعديهن ببطالتها ومهانتها .

وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملك وبيته ، فيُبنى له بيت مربع يشبه السرير والتخت ، فيجلس عليه ، ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص ، لا يفارقنه ، ويجعل النحل بين يديه شيئاً يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه ، ويملأ منه الحوض ، ويكون ذلك طعاماً للملك وخواصه .

ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحال، وتبني بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع ، كأنها قرأت كتاب إقليدس ، حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها ؛ لأنَّ المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة

---

(١) شفاء العليل: ١٠١ ، وما نقلناه عن ابن القيم يدلنا على أن السلف الصالح كانوا يعنون بالتأمل في خلق الله ، ويدلنا على أن ملاحظة العلماء المسلمين بلغت مبلغاً كبيراً ، إلا أنها لم تخل من أخطاء ، فالنحل ليس له ملك بل ملكة .

(٢) الذي يبيض من النحل ملكة النحل فحسب .

والسعة، والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مستديراً كاستدارة الرحى ، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضاً ، حتى يصير طبقاً واحداً محكماً، لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر .

فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله ، فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين: أحداهما: أن لا تكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً . والثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض ، وامتلأت العرصة منها فلا يبقى منها ضائعاً، ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط ؛ فإن المثلثات والمربعات ، وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها ، بل يبقى فيما بينها فروج خالية ضائعة ، وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين ، فهداها ـ سبحانه ـ إلى بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطرة ولا آلة، ولا مثال يحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة .

فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها وتأتيها ذللاً لا تستعصي عليها ، ولا تضل عنها ، وأن تجتني أطيب ما في المراعي وألطفه، وأن تعود إلى بيوتها الخالية ، فتصب فيها شراباً مختلفاً ألوانه، فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصاً تسيح سهلاً وجبلاً ، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار ، فترجع بطاناً .

وجعل ـ سبحانه ـ في أفواهها حرارة منضجة تنضج ما جنته، فتعيده حلاوة ونضجاً ، ثم تمجه في البيوت ، حتى إذا امتلأت ختمتها، وسدت رؤوسها بالشمع المصفى ، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته ، فاتخذت فيه بيوتاً ، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى ،

فإذا برد الهواء ، وأخلف المرعى ، وحيل بينها وبين الكسب ، لزمت بيوتها، واغتذت بما ادخرته من العسل ، وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة وتسيح في المراتع ، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل ، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها .

وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادراً إذا اشتهى التنزه ، فيخرج، ومعه أمراء النحل والخدم ، فيطوفُ في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار ، ثم يعود إلى مكانه .

ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه ، فيغضب ويخرج من الخلية ، ويتباعد عنها ، ويتبعه جميع النحل ، وتبقى الخلية خالية .

فإذا رأى صاحبها ذلك، وخاف أن يأخذ النحل ، ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه ، فيتعرف موضعه الذي صار إليه بالنحل، فيعرفه باجتماع النحل إليه ، فإنها لا تفارقه ، وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقوداً ، وهو إذا خرج غضباً جلس على مكان مرتفع من الشجرة ، وطافت به النحل ، وانضمت إليه ، حتى يصير كالكرة ، فيأخذ صاحب النحل رمحاً أو قصبة طويلة ، ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف ، ويدنيه إلى محل الملك، ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات الطرب فيحركه ، وقد أدنى إليه ذلك الحشيش ، فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك ، فإذا رضي وزال غضبه طفر ووقع على الضغث، وتبعه خدمه وسائر النحل ، فيحمله صاحبه إلى الخلية ، فينزل ويدخلها هو وجنوده ، ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة،ولا تدين لطاعتها، والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسالة ، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا، وإذا فعلت ذلك جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتله خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته .

ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم ، وبينها وبين العسالة حرب ، فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها ، وتقصد هلاكها ، والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها ، فإذا هجمت عليها في بيوتها حاولتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل ، فلا تقدر على الطيران ، ولا يفلت منها إلا كلُّ طويل العمر، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى ، فحملتها وألقتها خارج الخلية .

وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد ، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة ، فالكرام دائماً تطردها وتنفيها عن الخلية ، ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها .

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه ، ولذلك لا تلقي زبلها إلا حين تطير ، وتكره النتن والروائح الخبيثة ، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهاداً من الكبار ، وأقل لسعاً وأجود عسلاً ، ولسعها إذا لسعت أقل ضرراً من لسع الكبار .

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه فقد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها ، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام كان أكثر الحيوان له أعداء ؛ وكان أعداؤه من أقل الحيوان منفعة وبركة، هذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم »[1].

---

(١) شفاء العليل: ص١٠١ .

الباحثون المعاصرون يتحدثون عن عالم النحل [1]

تقدم العلم اليوم ، وبتقدمه تعرفنا على كثير من عجائب الخلق وأسرار الكون ، لقد أكد لنا العلماء ما عرفناه من قبل من أن عالم النحل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: النحلة الملكة، والنحلة الذكر، والنحلة الشغالة.

أما ملكة النحل فهي أم الخلية كلها ، وجميع النحل في الخلية أبناؤها، ويكفي أن تعلم أن الملكة تضع في كل يوم تطلع فيها الشمس ما بين (١٥٠٠) بيضة إلى (٢٠٠٠) بيضة ، بل يزيد العدد إلى (٣٥٠٠) بيضة. ويستمر هذا على امتداد موسم التكاثر الذي يبدأ من إقبال الربيع ، وينتهي بانتهاء الصيف .

وما هذا العدد الهائل من البيض إلا لمواجهة النقص المستمر الذي يصيب خلية النحل ، فالنحلة عمرها قصير ، فهو يتراوح بين خمسة أسابيع وسبعة أسابيع ، ولذلك فإنَّ الخلية تحتاج إلى أجيال جديدة ترفد الخلية بأعداد كبيرة تواجه النقص الذي يلحق بها ، كي تستمرَّ الخلية في القيام بالواجبات التي يحتاج إليها عالم النحل، وحتى تستطيع الدفاع عن نفسها في مواجهة الأعداء والأخطار، ولولا ذلك لانقرضت الخلية وبادت.

ومن بديع صنع الله في ملكة النحل أنها تضع بيضها في البيوت التي تبنيها الشغالة بمقاسات مختلفة ، فالمقاس الكبير يعده النحل لملكة المستقبل، والبيضة التي تضعها الملكة فيه تكون ملكة ، والبيضة التي تضعها الملكة في البيت الأصغر حجماً ومقاسه ربع إنش تصبح نحلة ذكراً ، أما البيضة التي تضعها في البيت الصغير ومقاسه خمس إنش فتنتج نحلة شغالة ، بقي أن نعلم أن الملكة تضع مع بيضة النحلة الشغالة ثلاثة إلى أربعة حيوانات منوية لإخصابها، فتكون نحلة شغالة ، بينما تضع، في بيت النحلة الذكر بيضة غير مخصبة .

ومن عجيب صنع الله في النحلة الملكة أنها لا تُلقَّحُ إلا في الهواء في أثناء طيرانها ،ولذلك سرّ عجيب ، فالنحلة الذكر لا يمكنها تلقيح الملكة وهي

(١) المعلومات التي أوردناها في هذا المبحث مأخوذة من كتاب: « النحلة تسبح الله » ، لمحمد حسن حمصي ، ولكن بتصرف كثير في الصياغة ،والتقديم والتأخير والاختصار .

رابضة على الأرض ، ذلك أن عضو التذكير عندها كامن ، ولا يمكن ظهوره إلا إذا حلقت في الفضاء ، وعند ذلك تمتلئ أكياس موجودة في النحلة الذكر بالهواء ، فتنفتح في أثناء الطيران ، ويؤدي انتفاخها إلى الضغط على عضو التذكير ، فيخرج من مكمنه .

ومن عجائب صنع الله في الملكة العذراء قدرتها على دعوة الذكر لتلقيحها، وذلك بأصوات تصدرها تدعو بها الذكور إليها ، وتخرج من خليتها حائمة حولها مصدرة تلك الأصوات ، وتستقبل الذكور هذه الدعوة لا في الخلية وحدها ، بل في جميع الخلايا المجاورة ، وتنطلق أسراب الذكور خلف الملكة ، وهي تغذ السير منطلقة في الفضاء الرحب، ويفوز بتلقيحها أقوى الذكور وأشدها وأسرعها ، ولكنه يفقد حياته بعد ذلك ، ذلك أنه بعد تلقيحه الملكة يفقد عضو تذكيره ، إذ يبقى عضوه فيها مما يسبب له نزيفاً يفقده حياته .

ويسأل القارئ عن كيفية سماع الذكور لدعوة الملكة ، والجواب: أن الله زود كل نحلة بقرني استشعار ، وهذان القرنان يتألفان من حلقات متصل بعضها ببعض ، عليها عدد كبير من الثقوب ، ويبلغ عدد الحلقات في الذكر اثنتاعشرة حلقة، في حين أن عددها في الشغالة أو الملكة أحدى عشرة حلقة.

وتبلغ عدد ثقوب الحواس الكائنة على قرن الاستشعار عند الذكر (٢٨٠٠) ثقبٍ، وفي الشغالة (٢٤٠٠) ، وفي الملكة (١٦٠٠).

والحقيقة أن قرني الاستشعار في النحلة بمنزلة هوائي الإذاعة يستخدمه لالتقاط الأصوات الصادرة من الملكة ، ولغير ذلك من الأصوات ، كما تستخدمه في الشم والسمع واللمس .

وإذا فقدت النحلة الشغالة أو الذكر أو الملكة قرني الاستشعار فإنها لا تستطيع أن تقوم بدورها ، ففيه يتركز معظم حواسها: السمع والشم واللمس كما سبق .

وتكوين النحلة الذكر يتناسب مع المهمة التي خلق من أجلها ، فهو كبير

قوي ، يأكل كثيراً ، ولا يعمل شيئاً ، فلا يجمع الرحيق ، ولا يصنعه ، ولا يبني ، ولا يحرس ، حتى طعامه ، تضعه النحلة الشغالة في فمه ، كل ما يستطيع القيام به هو تلقيح الملكة ، ولذا فإن النحلة الشغالة بعد انتهاء مهمته تمتنع عن امداده بالغذاء ، وأكثر من هذا تهاجم الشغالة الذكور فتقتلها أو تطردها .

بقي أن نعلم أن عدد الذكور من النحل قليل بالنسبة لتعداد النحل ، فلا يتجاوز عددها في الخلية الواحدة المائتين .

أما النحلة الشغالة فإنها تكون العدد الأكثر في الخلية ، كما أنها العنصر الفعال فيها ، وهي التي تقوم بالأعمال المختلفة ، والمهمات الصعبة .

فهي التي تجني الرحيق ، وتجمع غبار الطلع ، وتصنع العسل ، وتمدّ الملكة بغذائها الخاص ، وتبني الأقراص التي يحفظ فيها العسل ، وتربي فيها الأجيال الجديدة من النحل ، وتحرس الخلية ، وتقوم بتنظيفها ، والمحافظة عليها ، بل تقوم بتهويتها وتدفئتها .

والمهمات في الخلية موزعة في تخصصات وهذه التخصصات ترتبط بعمر النحلة ، فلكل سن من النحل عمل يقوم به ، وكلما امتد العمر بالنحلة فإنها تتحول إلى عمل آخر ، وبذلك تقوم النحلة بعد أن تستكمل عمرها بالمرور على كل الأعمال والمهمات التي تحتاج إليها الخلية ، ويلاحظ أن النحلة تبدأ بالأعمال السهلة التي لا تحتاج إلى جهد كبير ، وتنتهي إلى أشق الأعمال وأصعبها وهي الجولان في الحقول ، وجني الرحيق وغبار الطلع والماء ، ثم صنع العسل وتخزينه ، ونلاحظ أيضاً أنها تتدرج في الوظائف بحسب تكامل الخصائص التي يهبها الله إياها ، فكل مهمة تصير إليها وتعمل فيها تتواءم مع تكامل أجهزتها التي تمكنها من القيام بالدور الجديد والمهمة الجديدة .

فالنحلة الشغالة في يومها الأول والثاني تقوم بمهمة تنظيف البيوت التي خرجت منها أجيال النحل التي تكامل خلقها ، فتنظف هذه البيوت ، وتعدها لأجيال أخرى ، ولا تضع الملكة البيض في هذه البيوت إلا بعد أن

تتفحصها وتجدها نظيفة تماماً .

وفي يومها الثالث والرابع تقوم بدور الحاضنة ليرقات النحل الشغالة والذكور التي يزيد عمرها على ثلاثة أيام ، فتقدم لها ما يسميه العلماء (بخبز النحل) وهو مزيج من العسل وحبوب اللقاح ، تأخذه مما خزنته النحل في العيون السداسية .

وبعد اليوم الخامس حتى اليوم الثاني عشر من عمر النحلة تقوم بتغذية النحلة الملكة بالغذاء الملكي طيلة عمرها ، كما تمدُّ بهذا الغذاء الفاخر صغيرات الشغالة والذكور في يومهن الأول والثاني والثالث ، والنحل يقوم بهذه المهمة في هذه السن (٥ ـ ١٢) لنمو غدد خاصة في هذه الفترة في جانبي البلعوم ، تتمكن بها النحل من صناعة الغذاء الملكي .

وبعد اليوم الثاني عشر تتمكن النحلة من الطيران ، ولكنها لا تذهب بعيداً ، كل ما تفعله أن تتعلم وتتمرن ، ومهمتها الرئيسية من اليوم الثاني عشر إلى اليوم الثامن عشر هو بناء الأقراص الشمعية التي تعد لتخزين العسل، وتربية أجيال النحل الجديدة .

والسبب في تخصصها بهذا الدور في هذه السن هو نمو أربعة أزواج من الغدد الموجودة على حلقات البطن ، ومن هذا الشمع باستخدام النحلة فكيها تقوم النحل في هذه السن ببناء تلك البيوت التي بلغت الغاية في الدقة والاتقان بأبعاد محددة وأشكال هندسية في غاية الروعة والتنظيم .

وفي اليوم التاسع عشر واليوم العشرين تقوم النحلة بتنظيف الخلية وحراستها ، وبعد اليوم العشرين تقوم النحلة بالانطلاق إلى الحقول وجمع الرحيق وغبار الطلع وصنع العسل ، وجلب الماء إلى الخلية ، وهذه المرحلة الأخيرة تمثل الجزء الأكبر من عمر النحلة .

أجيال تذهب من النحل ، وأجيال تأتي ، ويترقى النحل في سلسلة متوالية من الأعمال تضمن القيام بالأعمال كلها باستمرار من غير أن تتخصص طائفة من النحل بعمل طيلة عمرها ، ولكن التخصص يأتي في كل مرحلة من مراحل العمر .

سبحان الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي خلق هذه الكائنات الصغيرة، وعلمها أن تقوم بهذه الأعمال بمثل هذه الدقة والاتقان ، إنه إبداع وإعجاز يدل على العليم الخبير .

ومن الإبداع الإلهي في النحلة هذا التكوين الذي أعطاه الله إياها ، فقد جعل لها الباري سبحانه معدتين ، إحداهما تستعملها لجمع المواد الأولية التي تستخلصها من رحيق الأزهار ، أو تحمل بها الماء ، وتنقله إلى الخلية ، والمعدة الأخرى مخصصة للطعام الذي تهضمه وتتغذى به.

ومن عجب أن النحلة إذ تجمع في معدتها الأولى ما تجنيه من الرحيق، لا تكتفي بنقله ، ولكنها في أثناء حملها له وتوصيله للخلية تقوم بعملية أولية لتحويله إلى العسل ، وذلك بإفراز الخمائر اللازمة لتحقيق ذلك .

والنحلة تحتاج إلى غبار الطلع لأمور مختلفة في الخلية ، وقد زودها خالقها بتجويف خاص لخزن هذه الحبوب في الوجه الخارجي لساق الرجل الخلفية ، تسمى سلة الطلع ، وجعل لها على الوجه الداخلي لرسغ الرجل الخلفية ما يشبه الفرشاة تستعملها الشغالة في تمشيط غبار الطلع وتكتيله تمهيداً لجمعه في سلة الطلع .

ومن العجائب المذهلة التي اكتشفها العلماء في النحلة ، تلك الغدة التي في مؤخرة البطن ، وقد سماها العلماء (غدة ناسانوف) ، وهذه الغدة تفرز رائحة خاصة ، ومن العجيب أن نحل كل خلية يتعارف على رائحة تميز نحلها عن غيره ، وتستطيع النحلة أن تعود إلى بيتها من مكان بعيد تهديها تلك الرائحة المميزة عن رائحة غيرها من النحل ، وبوابو الخلية وحراسها يعرفون النحلة التي تتبع الخلية عن طريق تلك الرائحة المميزة المنبعثة من النحلة.

والعجب أن النحل قادر على التعارف على رائحة جديدة عندما يحصل ما يستدعي ذلك ، فمثلاً عندما تخرج طائفة من النحل لتشكل خلية جديدة ، فإن الخلية الجديدة تتعارف على رائحة جديدة ، وعندما مزج العلماء بطريقة علمية طائفة من النحل مع طائفة أخرى وجدوا أن النحل بعد دمجه تعارف

على رائحة واحدة جديدة تميزه عن غيره .

ومن عجائب هداية النحل أنه يبني جدران البيوت السداسية من الشمع الخالص الذي لا ينفذ منه الهواء ، ولكنه عندما يغلق أبواب البيوت التي تحوي يرقات النحل يخلط الشمع بحبوب اللقاح ، وبهذا يتسرب الهواء من خلال حبوب اللقاح ، فتبقى اليرقات حيّة ، ولو لم يهدها ربها إلى ذلك لماتت اليرقات ، وزال النحل من فوق ظهر البسيطة .

وقد حدثنا ربنا فيما حدثنا عنه من آياته الباهرة التي تستدعي التأمل والتفكر إلى هدايته العجيبة للنحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وقد اهتدى المسلمون للمنافع العظيمة التي في العسل ، ولكن الضالون عن هدى الله لم يكتشفوا ما فيه من المنافع إلا في هذه الأيام ، وقد اكتشف الباحثون حقائق مذهلة ، فوجدوا أن العسل غذاء ودواء ، وهو غذاء من نوع راق ، يحوي على خصائص لا تكاد توجد في غيره، ووجدوا أنه علاج يكاد يصلح لجميع أنواع الأمراض ، ولا يزال العلم يكتشف في كل يوم في العسل نفعاً جديداً .

---

(١) سورة النحل: ٦٨ ـ ٦٩ .

كيف يدل النحل بعضه بعضاً على مكان الغذاء ؟

مما لاحظه العلماء المعاصرون الطريقة التي يدل بها النحل بعضه بعضاً على مكان الغذاء ، يقول الدكتور يوسف عز الدين: « لو اكتشف أحد عمال النحل حقلاً أو كمية من النباتات تعتبر مصدراً للغذاء ، فإنّه يعود للمستعمرة ليخبر باقي العمال عن هذا الكنز الذي اكتشفه ، وذلك عن طريق طقوس رقص عجيبة تفعلها النحلة بطريقة غريزية دون أن تدري لماذا تفعل هذا .

إنها ترقص رقصات غريبة ذات مدلولات معينة ، إذ إن جسمها يصنع في أثناء الرقص زاوية تدل على زاوية الشمس ، وإذا كان الحقل الذي اكتشفه قريباً من المستعمرة فإنّ الرقصة في هذه الحالة تختلف عنها في حالة بعد الحقل مسافة أطول .

ومن هذه الرقصات يفهم النحل أنّ حقلاً من البرسيم أو غيره من النباتات ذات الأزهار التي يحضر النحل غذاءه منها ، يقع على بعد معين، والطريق إليه يقتضي السير بزاوية معينة بالنسبة لمكان الشمس .

فيؤدي بعض العمال الرقصة نفسها ، عند ذلك تطمئن النحلة التي اكتشفت الحقل إلى أنّ باقي النحل قد فهم ما تريد أن تقوله ، فيطير باقي الأفراد ، ويصلون مباشرة إلى ذلك الحقل لإحضار مزيد من الغذاء.

إنّ النحلة المكتشفة قد نقلت إلى النحل الذي في المستعمرة عدداً من المعلومات برقصتها ، ولو حاولنا نحن البشر أن نتوصل إلى ما توصل إليه النحل من فهم لهذه الطلاسم عن طريق رسم بياني لاستغرق منا وقتاً لا يقل عن ثلث ساعة إن كان لدينا إلمام كاف بالعلوم الرياضية ، ولكن النحل يفهم كلّ ذلك في الحال ، ويطير نحو الحقل في خط مستقيم ليحضر ما يلزمه من غذاء .

شيء مذهل لا يمكن تفسيره إلا إذا آمنا بوجود نفحة إلهية أودعها خالق الكون في هذه الكائنات الصغيرة التي لا تملك قدراً من العقل أو قدرة على التفكير تمكنها من القيام بما يلزمها » .

رؤية النحل ما لا نراه من الألوان

ويذكر لنا الدكتور يوسف أن من عجائب النحل رؤيته « لوناً لا نراه نحن البشر ، ولا يمكن أن نتصوره ، وهو اللون فوق البنفسجي الذي نراه نحن أسود ، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية » ، ثم يبين لنا الحكمة من وراء رؤية النحل لذلك اللون فيقول: « والحكمة في ذلك هي أن تلك الأشعة هي الوحيدة القادرة على اختراق السحاب .

والنحل قد يعيش في مناطق يكسوها السحاب معظم شهور السنة ، ورؤية الشمس ضرورية لمعرفة مكان الحقول التي بها الغذاء ، وهنا تكمن الحكمة في رؤية النحل لذلك اللون فوق البنفسجي ، فإنها بذلك يصبح في إمكانها رؤية الشمس من خلال السحب ، فلا يموت النحل جوعاً في حالة اختفاء الشمس خلف الغمام ، حقيقة مذهلة تدلُّ على وجود خالق مدبر ومقدر يعلم ما يصنع ، إذ إن القدرة على رؤية ذلك اللون لا يمكن أن تكون قد اكتسبها النحل مع مرور الزمن ، بل لا بد أن تكون قد وجدت منذ أول لحظة خلق الله فيها النحل ، إذ لو لم توجد من أول الأمر، لانقرض النحل في تلك المناطق منذ أمد بعيد » .

٤ـ هداية النمل وعجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم عن نوع آخر من مخلوقات الله ، ويبين لنا هداية الله لها في معاشها فيقول:

«وهذا النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها ، وإن بعدت عليها الطريق ، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها ، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان.

فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين ؛ لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة ، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوماً ذا شمس فخرجت به ، فنشرته على أبواب بيوتها ،

ثم أعادته إليها ، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله ـ سبحانه ـ في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[1] ، فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته ، ثم أتت بالاسم المبهم ، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم ، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر ، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول ، وهو خشية أن يصيبهم معرّة الجيش ، فيحطمهم سليمان وجنوده ، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك ، وهذا من أعجب الهداية .

وتأمل كيف عظم الله - سبحانه - شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾[2]، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾[3]، فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروفٌ بالنمل كوادي السباع ونحوه ، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم ، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكناً لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾[4]، فجمعت بين اسمه وعينه، وعرفته بهما، وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[5] فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم، ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكاً من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبدالله بن عبدالله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ « نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد »[6]، وفي

---

(١) سورة النمل: ١٨ .
(٢) سورة النمل: ١٧ .
(٣) سورة النمل: ١٨.
(٤) سورة النمل: ١٨.
(٥) سورة النمل: ١٨ .
(٦) عزاه المجد ابن تيمية في المنتقى ص: ٧٥٩ إلى أحمد وأبي داود وابن ماجة بلفظ: نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع: « النملة ، والنحلة ، والهدهد ، والصرد » .

الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة ، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج ، وأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه: أنْ قرصتْك نملة أحرقت أمة من الأمم تُسبحُ! فهلا نملة واحدة !)[1].

وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير ، قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة .

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه ، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه ، قال: (خَرَج نَبيٌ من الأنبياء بالناس يَستَسقُون ، فإذا هم بنملة رافعة قَوائِمها إلى السماء تدعو مُستلقية على ظهرها ، فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم) ولِهذا الأثر عدة طرق ، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره .

وفي مسند الإمام أحمد: (أن سليمان بن داود خرج يستسقي ، فرأى نملة مُستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقولُ: اللهم إنا خلق من خلقك ، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك ، فإما أن تُسقينا وترزقنا ، وإما أن تهلكنا ، فقال ارجعوا فقد سُقيتُمْ بدعوة غَيركم).

ولقد حُدّثت أن نملة خرجت من بيتها ، فصادفت شق جرادة ، فحاولت أن تحمله فلم تطق ، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعتُ ذلك من الأرض ، فطافت في مكانه فلم تجده ، فانصرفوا وتركوها.

قال: فوضعته ، فعادت تحاول حمله فلم تقدر ، فذهبت ، وجاءت بهم، فرفعته ، فطافت فلم تجده فانصرفوا ، قال: فعلت ذلك مراراً ، فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها ، وقطعوها عضواً عضواً ، قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذا النمل فطرها الله ـ سبحانه ـ على قبح الكذب وعقوبة الكذاب .

والنمل من أحرص الحيوان ، ويضرب بحرصه المثل ، ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء

---

(١) صحيح البخاري: ٦/١٥٤ ، ورقمه: ٣٠١٩ ، وانظر: ٦/٣٥٦ ، ورقمه: ٣٣١٨ ، ورواه مسلم: ٤/١٧٥٩ ، ورقمه: ٢٢٤١، والحديث مأخوذ من مجموع الروايات الواردة فيه .

استحضر نملة ، وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة ؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة ، فأمر بإلقائها في قارورة ، وسد فم القارورة ، وجعل معها ثلاث حبات حنطة ، وتركها سنة بعد ما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة ، فوجد حبة ونصف حبة، فقال: أين زعمك ؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات .

فقالت: نعم ، ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح بني جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة ، فاقتصرت على نصف القوت ، واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي ، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية .

ومن حرصها أنها تكدّ طول الصيف ، وتجمع للشتاء علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء ، وتَعَذُّرِ الكسب فيه ، وهي على ضعفها شديدة القوى ، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها ، وتجره إلى بيتها .

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أن لها رائدا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئاً لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه ، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيراً ، ويملأه ماء ، ثم يضع فيه ذلك الشيء ، فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط ، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء ، فتلقي نفسها عليه ، وجربنا نحن ذلك .

وأحمى صانع مرة طوقاً بالنار ورماه على الأرض ليبرد . واتفق أن اشتمل الطوق على نمل ، فتوجه في الجهات ليخرج ، فلحقه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق ، وكان ذلك مركزاً له ، وهو أبعد مكان من المحيط »[1] .

---

(١) شفاء العليل ، لابن القيم: ص١٠٤ .

النمل الأبيض غذاؤه ومساكنه:

يحدثنا الأستاذ يوسف عز الدين: عما كشف العلم من أسرار هذا الكائن: « ومن الغرائز التي وهبها الله لمثل هذه الكائنات الضئيلة ما هو مذهل ، يجعل كل ذي عقل من البشر يخرّ ساجداً للخالق العظيم .

على سبيل المثال ما نراه في مستعمرة نوع من الحشرات نطلق عليه اسم (النمل الأبيض) ، تعيش هذه الحشرات أيضاً في مستعمرات ، إذا زاد أفراد المستعمرة عن الحد المعقول بالنسبة لكمية الغذاء المتاحة ، فإنّ هذه الحشرات تدرك هذه الحقيقة عن طريق الغريزة ، فتبدأ الأفراد في التهام عدد كبير من البيض ، وبذلك يسهم في حلّ مشكلة زيادة أفراد المستعمرة ومشكلة الغذاء، إذ أن التهام البيض يعتبر تغذية ، وفي الوقت نفسه يقلل من عدد الذرية .

إنّ هذه الحشرات لا تدرك لماذا تفعل ذلك ، ولكنّها النفحة الإلهية التي تلهمها لعمل ما لا يمكن أن تدركه من الأشياء التي تعود عليها بالفائدة وتجنبها الفناء .

هذه الحشرات نفسها تتغذى على الأخشاب وتلتهمها بشراهة ، إذ في بعض الأماكن الموبوءة بها قد يتناول أفراد الأسرة طعامهم على منضدة الطعام، ثم يذهبون في الصباح لتناول إفطارهم ، فيجدون تلك المنضدة قد تقوضت أركانها ، وانهارت في خلال ليلة واحدة .

وفي بعض جهات استراليا الموبوءة بتلك الحشرات المدمرة قد يسأل أحد السائحين وهو ناظر من نافذة القطار عن اسم القرية التي رآها على مدى البصر ، فيعتريه الذهول عندما يخبرونه أن تلك القرية لا تضم آدميين ، ولكنها المساكن التي أقامها النمل الأبيض ليعيش بها .

هذه المساكن ترتفع عن سطح الأرض عدة أمتار وتصنعها الحشرات من مادة غريبة، هي خليط من لعابها وبعض المواد الأخرى ، وهي أقوى من الإسمنت المسلح ، ولا يمكن أن تخترقها الحشرات أو يتسرب إليها الماء من خلال جدرانها، وبداخلها أنفاق متشعبة يعيش فيها النمل الأبيض .

وتستخدم هذه الحشرات للتخابر عن بعد نوعاً من الشيفرة تشبه شيفرة التلغراف ، إذ تدق على جدران النفق برأسها عدة دقات فيفهم باقي النمل ما تريد عن طريق تلك الدقات الشفرية ، تفعل ذلك دون أن تدري ماذا تفعل، إذ إنها تفعلها عن طريق الإلهام الإلهي المسمى الغريزة .

ولقد احتار العلماء فترة طويلة من الزمن في تفسير إمكان حياة مثل هذه الحشرات عن طريق الغذاء على الأخشاب ، والخشب لا يحتوي على أية مواد عضوية قابلة للهضم ، وأخيراً اكتشفوا السر .

لقد وجدوا في داخل الجهاز الهضمي لأفراد هذه الحشرات حيوانات دقيقة أولية يتكون جسمها من خلية واحدة ، وهذه الحيوانات الأولية تفرز أجسامها افرازات تحول الخشب إلى مواد غذائية قابلة للهضم هي التي تغذي النمل الأبيض .

ومن العجيب أنّه لم يحدث إطلاقاً أن اكتشفت نملة بيضاء واحدة تخلو أمعاؤها من هذه الحيوانات الأولية ، ولو لم توجد هذه الحيوانات داخل أمعاء النمل الأبيض منذ بدء خلقها لما أمكنها الحياة ، ولانقرضت منذ أول جيل من أجيالها ، هل من الممكن أن يحدث هذا عن طريق المصادفة أم هو شيء مقدر مدبر مرسوم ؟ »

النمل يربي المواشي ويفلح الأرض:

ومن عجائب النمل ما ذكره الدكتور يوسف عز الدين ، فقد ذكر أن النمل استأنس مئات من الأجناس من الحيوانات الأدنى منه شأناً ، بينما لم يستأنس الإنسان سوى نحو عشرين من الحيوانات الوحشية التي سخرها لمنفعته ومتعته ، ولقد عرف النمل الزرع والرعي عن طريق الغريزة .

إنَّ حشرات المن التي يطلق عليها أحياناً اسم (قمل النبات) التي نراها على أوراق بعض النبات يرعاها النمل ليستفيد منها . ففي الربيع الباكر يرسل النمل الرسل لتجمع له بيض هذا المن، فإذا جاؤوا به وضعوه في مستعمراتهم حيث يضعون بيضهم ، ويهتمون ببيض هذه الحشرات كما يهتمون ببيضهم ، فإذا فقس بيض المن وخرجت منه الصغار أطعموها وأكرموها ، وبعد فترة قصيرة يأخذ المن يدر سائلاً حلواً كالعسل كما تدر البقرة اللبن ، ويتولى النمل حلب هذا المن للحصول على هذا السائل وكأنها أبقار .

ولا يعتني النمل بتربية « المواشي » هذه وحدها ، بل يعتني كذلك بالزرع وفلاحة الأرض ، لقد شاهد أحد العلماء في إحدى الغابات قطعة من الأرض قد نما بها أرز قصير من نوع نصف بري ، كانت مساحة القطعة خمسة أقدام طولاً في ثلاثة عرضاً ، وكان طول الأرز نحو ستة «سنتيمترات» ، ويتراءى للناظر إلى هذه البقعة من الأرض أنَّ أحداً لا بد يعتني بها ، فالطينة حول الجذور كانت مشققة ، والأعشاب الغريبة كانت مستأصلة ، والغريب أنَّه لم يكن على مقربة من هذا المكان عود آخر من الأرز ، فهذا الأرز لم ينم من تلقاء نفسه ، وإنَّما زرعه زارع .

ولوحظ أن طوائف النمل تأتي إلى هذا المزروع وتذهب عنه ، فانبطح العالم على الأرض يلاحظ ما يصنعه، ولم يلبث أن عرف أنَّ هذا النمل هو القائم بزراعة الأرز في تلك البقعة من الأرض ، وأنه اتخذ من زراعتها مهنة له ، تشغل كل وقته ، فبعضه كان يشق الأرض ويحرثها، والبعض الآخر كان يزيل الأعشاب الضارة ، فإذا ظهر عود من عشب غريب قام إليه بعض النمل، فيقضمونه ، ثم يحملونه بعيداً عن المزرعة.

نما الأرز حتى بلغ طوله ستين سنتيمتراً ، وكانت حبوب الأرز قد

نضجت، فلما بدأ موسم الحصاد شاهد صفاً من شغالة النمل لا ينقطع متجهاً نحو العيدان ، فيتسلقها إلى ان يصل إلى حبوب الأرز ، فتنزع كل شغالة من النمل حبة من تلك الحبوب ، وتهبط بها سريعاً إلى الأرض، ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض .

بل الأعجب من ذلك انَّ طائفة من النَّمل كانت تتسلق الأعواد ، فتلتقط الحب ، ثم تلقي به ، بينما طائفة أخرى تتلقاه ، وتذهب به إلى المخازن..

ويعيش هذا النوع من النمل عيشة مدنية في بيوت كبيوتنا ذات شقق وطبقات ، أجزاء منها تحت الأرض ، وأجزاء فوق الأرض ، في هذه المدن نجد الخدم والعبيد .

بل الأعجب من ذلك نجد الممرضات اللاتي تعنى بالمرضى ليلاً ونهاراً، ونجد منها من يرفع جثث من يموت من النمل ...

يفعل ذلك النوع من النمل كلَّ هذا بدون تفكير ، إذ يتم بالغريزة التي أودعها الله في أجسامهم الصغيرة .

٥ـ هداية الهدهد وعجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم بأسلوبه السهل الأخاذ عن نوع آخر من مخلوقات الله التي لها في كتاب الله ذِكْر ، الا وهو الهدهد ، متحدثاً عن هداية الله له فيقول:

« وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره ، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أنه قال لنبي الله سليمان، وقد فقده وتوعده ، فلما جاءه بَدَرَه بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة ، وخاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[1] ، وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[2] ، والنبأ هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى

(١) سورة النمل: ٢٢.
(٢) سورة النمل: ٢٢.

معرفته ، ثم وصفه بأنه نبأ يقين ، لا شك فيه ولا ريب ، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر ، وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته ، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج .

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التأكيد، فقال: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾[1]، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجلّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك ، ثم زاد في عظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم ، ثم أخبره بما يدعوه إلى قصدهم ، وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2].

وحذف أداة العطف من هذه الجملة ، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها ، إيذاناً بأنها هي المقصودة ، وما قبلها توطئة لها ، ثم أخبر عن المغوي لهم ، الحامل لهم على ذلك ، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم ، حتى صدهم عن السبيل المستقيم، وهو السجود لله وحده ، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله ـ سبحانه ـ إخراج الخبء في السموات والأرض ، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض ، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض .

قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء إمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض ، وذلك بإلهام مَنْ يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه ، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله » .

---

(١) سورة النمل: ٢٣.
(٢) سورة النمل: ٢٤ .

٦- هداية الحمام وعجائب صنع الله فيه

أما حديث ابن القيم عن الحمام وبدائع صنع الله فيه ، وعجيب هدايته إلى ما هداه إليه فحديث طويل ممتع، يدل على أن التفكير في خلق الله منهج أخذ به أهل العلم أنفسهم تحقيقاً لأمر الله لعباده ، وفي هذا يقول ابن القيم:

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية ، حتى قال الشافعي: أعقل الطير الحمام ، وبُردُ الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب ،وربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد ، فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره ؛ لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها ، وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول .

والقيمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناء عظيماً ، فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت السفاد ، وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها ، والإناث عن ذكورها ، ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها ، ويتعرفون صحة طرقها ومحلها ، ولا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكراً من عرض الحمام فتعتريها الهجنة ، والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها .

والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء بحيث إذا رأوا حماماً ساقطاً لم يخف عليهم حسبها ونسبها وبلدها ، ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة ، وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له .

ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها ، ويقولون: هو أحن إلى بيته لمكان أنثاه ، وهو أشد متناً ، وأقوى بدناً وأحسن اهتداء ، وطائفة منهم يختار لذلك الإناث ، ويقولون: الذكر إذا سافر وبعد عهده حنَّ إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن ، فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها ، فيترك السير ، ومال إلى قضاء وطره منها .

وهدايته على قدر التعليم والتوطين ، والحمام موصوف باليُمْن والإلف

للناس ، ويحب الناس ويحبونه ، ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه ، وإن أساء إليه ، ويعود إليه من مسافات بعيدة ، وربما صد فترك وطنه عشر حجج ، وهو ثابت على الوفاء ، حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه .

والحمام إذا أراد السفاد يلطف للأنثى غاية اللطف ، وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد يقوم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان ، فيعملان منه أفحوصة، وينسجانها نسجاً متداخلاً في الوضع الذي يكون بقدر حيمان الحمامة ، ويجعلان حروفها شاخصة مرتفعة ، لئلا يتدحرج عنها البيض، ويكون حصناً للحاضن ، ثم يتعاودان ذلك المكان ، ويتعاقبان الأفحوص يسخنانه ، ويطيبانه وينفيان طباعه الأول ، ويحدثان فيه طبعاً آخر مشتقاً ومستخرجاً من طباع أبدانهما ورائحتهما ، لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام ، ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة .

ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان ، ووضعت فيه البيض، فإن افزعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته كالمرأة التي تُسقط من الفزع .

فإذا وضعت البيض في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحضن ، حتى إذا بلغ الحضن مداه وانتهت أيامه انصدع عن الفراخ ، فأعاناه على خروجه، فيبدآن أولاً بنفخ الريح في حلقه حتى تتسع حوصلته ، علماً بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء ، فتتسع الحوصلة بعد التحامها ، وتنفتق بعد ارتتاقها .

ثم يعلمان أن الحوصلة وإن كانت قد اتسعت شيئاً فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء، فيزقانه بلعابهما المختلط بالغذاء، وفيه قوى الطعم.

ثم يعلمان أن طبع الحوصلة تضعف عن استمرار الغذاء، وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية، لتكون لها بعض المتانة، فيلقطان من الغيطان الحب اللين الرخو، ويزقانه الفرخ، ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشد.

ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسب قوة الفرخ، وهو يطلب

ذلك منهما ، حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع، ليحتاج إلى اللقط ويعتاده ، وإذا علما أن رئته قد قويت ونمت ، وأنهما إن فطماه فطماً تاماً قوي على اللقط وتبلغ لنفسه ضرباه إذا سألهما الزق، ومنعاه.

ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما، وينسيان ذلك التعطف المتمكن حين يعلمان أنه قد أطاق القيام بالتكسب بنفسه، ثم يبتدآن ابتداء ذلك النظام.

ومن عجيب هداها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس ؛ لئلا يعرض لها من يصدها ، ولا يرد مياههم، بل يرد المياه التي لا يردها الناس .

ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ ، فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، وجلب القوت والزق على الذكر، فإنَّ الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم، والأم هي التي تحبل وتلد وترضع.

ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ: أن رجلاً كان له زوج حمام مقصوص، وزوج طيار ، وللطيار فرخان ، قال: ففتحت لهما في أعلى الغرفة كوة للدخول والخروج وزق فراخهما ، قال: فحبسني السلطان فجأة، فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام ، ولم أشك في موتهما ؛ لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة ، وليس عندهما ما يأكلان ويشربان .

قال: فلما خلي سبيلي ، لم يكن لي هم غيرهما ، ففتحت البيت فوجدت الفراخ قد كبرت ، ووجدت المقصوص على أحسن حال ، فعجبت، فلم ألبث أن جاء الزوج الطيار ، فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ فزقاهما .

فانظر إلى هذه الهداية ، فإن المقصوصين لما شاهدا تلطف الفراخ ، للأبوين وكيف يستطعمانهما إذا اشتد بهما الجوع والعطش ، فعلا كفعل الفرخين ، فأدركتهما رحمة الطيارين ، فزقاهما كما يزقان فرخيهما .

ومن هدايتها أيضاً أنه إذا رأى الناس في الهواء عرف أي صنف يريده، وأي نوع من الأنواع ضده ، فيخالف فعله ليسلم منه ، ومن هدايته أنه في

أول نهوضه يغفل ، ويمر بين النسر والعقاب ، وبين الرخم والبازي ، وبين الغراب والصقر ، فيعرف من يقصده ، ومن لا يقصده ، وإن رأى الشاهين فكأنه يرى السم الناقع ، وتأخذه حيرة كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب ، والحمار عند مشاهدة الأسد .

مزيد من عجائب هداية الله مخلوقاته

ويعرض علينا ابن القيم جملة من عجائب هداية الله في مخلوقاته مما توصل إليه أهل العلم في زمانه، ولاحظوه من الوقائع في عهدهم فمن ذلك:

٧ـ كلبة ترضع طفلاً مات أهله

قال الجاحظ: لما وقع الطاعون الجارف أتى على أهل دار ، فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق منهم أحد ، فعمدوا إلى باب الدار فسدوه ، وكان قد بقي صبي صغير يرضع ، ولم يفطنوا له ، فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعض ورثة القوم ، ففتح الباب ، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعبُ مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار فراعه ذلك ، فلم يلبث أن أقبلت كلبة قد كانت لأهل الدار ، فلما رآها الصبي حبا إليها ، فأمكنته من أطبائها ، فمصها ، وذلك أن الصبي لما اشتد جوعه ورأى جراء الكلبة يرتضعون من أطباء الكلبة حبا إليها ، فعطفت عليه ، فلما سقته مرة أدامت له ذلك ، وأدام هو الطلب .

٨ ـ المكاء يقتل الأفعى

وذكر ابن الاعرابي قال: أكلت حية بيض مكاء ، فجعل المكاء يصوت ويطير على رأسها ، ويدنو منها ، حتى إذا فتحت فاها وهمت به ألقى حسكة ، فأخذت بحلقها حتى ماتت ، وأنشد أبو عمر الشيباني في ذلك قول الأسدي:

إن كنت أبصرتني عيلاً ومصطلماً   فربما قتل المكاء ثعباناً

٩ـ هداية الثعلب وحيله

ومن عجيب هداية الثعلب أنه إذا امتلأ من البـراغيث أخذ صوفة بفمه، ثم عمد إلى مـاء رقيق ، فنزل فيه قليـلاً ، حتى ترتفع البراغيـث إلى الصوفة ، فيلقيها في الماء ويخرج .

ومن عجيب أمره أن ذئبـاً أكل أولاده ، وكان للذئب أولاد وهناك زبية ، فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها، وحـفر فيها سرداباً يخرج منه ، ثم عمد إلى أولاد الذئب فـقتلهم ، وجلس ناحـية ينـتظر الذئب ، فلما أقبل وعرف أنهـا فـعلته هـرب قدامـه ، وهو يتـبعـه ، فـألقى نفـسه في الزبـية، ثم خـرج من السرداب ، فألقى الـذئب نفسه وراءه فلم يجده ، ولم يطق الخـروج ، فقتله أهل الناحية .

ومن عجـيب أمره أن رجـلاً كان مـعه دجـاجتان، فـاختـفى له ، وخطف أحداهما وفر ، ثم أعمل فكره في أخذ الأخرى ، فتراءى لصاحبها من بعيد وفي فمـه شيء شبيه بالـطائر، وأطمعه في استـعادتها بأن تركـه وفر ، فظن الرجل أنها الدجاجة ، فأسرع نحوها ، وخالـفه الثعلب إلى أختها ، فأخذها وذهب .

ومن عجيب أمره أنه أتى إلى جزيرة فيهـا طير ، فأعمل الحيلة كيف يأخذ منها شيئاً فلم يطق ، فذهب وجاء بـضغث من حشيش وألقاه في مجرى الماء الذي نحو الطيـر ففزع منه ، فـلما عرفت أنه حـشيش رجعت إلى أمـاكنها ، فـعاد لـذلك مرة ثانـية ، وثالثـة ، ورابعـة ، حـتى تواظب الطيـر على ذلك وألفته ، فعمد إلى جرزة أكبر من ذلك ، فدخل فيها وعبر إلى الطير ، فلم يشك الطيـر أنه من جنـس ما قـبله ، فلـم تنفـر منه، فـوثب على طائر منهـا وعدا به .

ومن عجيب أمره أنه إذا اشتد به الجـوع انتفخ ، ورمى بنفسه في الصحراء كأنّه جـيفـة ، فتتـداوله الطير ، فـلا يظهر حركـة ولا نفسـاً ، فلا تشك أنه ميت ، حتى إذا نقر بمنقاره ، وثب عليها ، فضمها ضمة الموت .

ومن عجيب أمره أنه إذا أصاب القنفذ ، قلَبَهُ لِظهره لأجل شوكه ، فيجتمع القنفذ حتى يصير كبه شوك ، فيبول الثعلب على بطنه ما بين مغرز عجبه إلى فكيه ، فإذا أصابه البول اعتراه الأسر ، فانبسط، فيسلخه الثعلب من بطنه ، ويأكل مسلوخه .

١٠ـ من عجائب الذئاب

ومن عجيب الذئب أنه عرض لإنسان يريد قتله ، فرأى معه قوساً وسهماً، فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه ، وأقبل نحو الرجل، فجعل الرجل كلما رماه بسهم اتقاه بذلك العظم حتى أعجزه ، وعاين نفاد سهمه، فصادف من استعان به على طرد الذئب .

١١ـ من عجائب القرود

ومن عجيب أمر القرود ما ذكره البخاري في صحيحه ، عن عمرو ابن ميمون الأودي، قال: رأيت في الجاهلية قرداً وقردة زنيا ، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا ، فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطله بنو آدم .

١٢ـ من عجائب البقر

وهذه البقر يضرب ببلادتها المثل ، وقد أخبر النبي ﷺ (أنّ رجلاً بينما هو يسُوق بقرة إذ ركبها فقالت: لم أخلق لهذا) فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم ؟! فقال: (فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر، وما هما ثم).

قال: (وبينما رجل يرعى غنماً له إذ عدا الذئبُ على شاة منها فاستنقذها منه ، فقال الذئب: هذه استنقذتها مني ، فمن لها يوم السبْع يوم لا راعي لها غيري) ، فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم؟! فقال رسول الله ﷺ (إني أومنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثمَّ) .

١٣ـ من عجائب الفئران

ومن عجيب أمر الفئران أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة فنقص وعزَّ عليها الوصول إليه ذهبت ، وحملت في أفواهها ماءً وصبته في الجرة ، حتى يرتفع الزيت فتشربه .

١٤ـ من عجائب الحيوان استخدامه الدواء

والأطباء تزعم أن الحقنة أخذت من طائر طويل المنقار ، إذا تعسر عليه الذرق جاء إلى البحر المالح ، وأخذ بمنقاره منه واحتقن به ، فيخرج الذرق بسرعة .

وهذا ابن عرس والقنفذ إذا أكلا الأفاعي والحيات عمدا إلى الصتر النهري، فأكلاه كالترياق لذلك .

وهذا الثعلب إذا أصابه صدع أو جرح يأتي إلى صبغ معروف ، فيأخذ منه ، ويضعه على جرحه كالمرهم ، والدبُّ إذا أصابه جرح يأتي إلى نبت قد عرفه ، وجهله صاحب الحشائش ، فيتداوى به فيبرأ !

١٥ـ تعلم الإنسان من الحيوان

وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أموراً تنفعه في معاشه وأخلاقه وصناعته وحربه وحزمه وصبره ، وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] قال أبو جعفر الباقر: والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام، حتى جعلهم أضل سبيلاً منها، فمن هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياماً تهرب به من الذر والنمل، لأنها تضعه كقطعة من لحم ، فهي تخاف عليه الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد.

وقال ابن الأعرابي: قيل لشيخ من قريش: مَنْ علمك هذا كله ، وإنما

---

(١) سورة الفرقان: ٤٤.

يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب ؟ قال: علمني الله ما علم الحمامة تقلب بيضها حتى تعطي الوجهين جميعاً نصيبهما من حضانتها ، ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد .

وقيل لآخر: مَنْ علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها؟ قال: مَنْ علم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط ، ثم تصعد ، ثم تسقط مراراً عديدة ، حتى تستمر صاعدة .

وقيل لآخر: مَنْ علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل به ؟ قال: من علم الطير تغدو خماصاً كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها ، لا تسأم ذلك ، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض.

وقيل لآخر: مَنْ علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته ؟ فقال: الذي علم السهر أن ترصد جحر الفارة ، فلا تتحرك ولا تتلوى ، ولا تختلج كأنها ميتة ، حتى إذا برزت لها الفارة وثبت عليها كالأسد .

وقيل لآخر: مَنْ علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم السكون ؟ قال: من علم أبا أيوب صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة ، والمشي والتعب وغلظة الجمّال وضربه، فالثقل والكل على ظهره، ومرارة الجوع والعطش في كبده ، وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه ، ولا يعدل به ذلك عن الصبر .

وقيل لآخر: مَنْ علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل ؟ قال: من علم الديك يصادف الحبة في الأرض ، وهو يحتاج إليها فلا يأكلها ؛ بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلباً حثيثاً ، حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها، وهو مسرور بذلك طيب النفس به ، وإذا وضع له الحب الكثير فرّقه هنا وها هنا، وإن لم يكن هناك دجاج ، لأن طبعه قد ألف البذل والجود ، فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام .

وقيل لآخر: مَنْ علمك هذا التحيل في طلب الرزق ووجوه تحصيله؟ قال: من علم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علمها وعملها، وهي أكثر من أن تذكر .

ومَنْ علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفى أثره ويطلب ، عفى أثر مشيته بِذَنَبِهِ ، ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه، فينفخ في منخريه ، لأن اللبوة تضعه جرواً كالميت ، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك ! .

ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها ، وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع !

ومن علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه، لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة ، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهي عالية، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق، فتأتي ماء وسطاً تضعه فيه يكون كالفراش اللين والوطاء الناعم .

ومن علم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر !

ومَنْ علم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره ، والذكر من الأنثى ، فيقصد الذكر مع علمه بأنَّ عدوه أشد وأبعد وثبة ، ويدع الأنثى على نقصان عدوها ؛ لأنَّه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطاً أو شوطين حقن ببوله، وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن ، وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو، فيقل عدوه، فيدركه الكلب، وأما الأنثى فتحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج ، فيدوم عدوها ! .

ومَنْ علمه أنه إذا كسا الثلج الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف ، فيعلم أن تحته جحر الأرانب ، فينبشه ، ويصطادها علماً منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق !

ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوباً بين عينيه ، فينام بإحداهما ، حتى إذا نعست الأخرى نام بها ، وفتح النائمة ! حتى قال بعض العرب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

ومَنْ علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث ، فلا يبقى عصفور

بجوارها حتى يجيء ، فيطيرون حول الفرخ ، ويحركونه بأفعالهم ، ويحدثون له قوة وهمة وحركة ، حتى يطير معهم !

قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصفور على الحائط ، فأومي بيدي كأني أرميه فلا يطير، وربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً فلا يتحرك ، فإن مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي.

ومن علم « اللبب » وهو صنف من العناكب أن يلطأ بالأرض ، ويجمع نفسه ، فيرى الذبابة أنه لاه عنها ، ثم يثب عليها وثوب الفهد!

ومن علم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة ، وتجعل في أعلاها خيطاً ثم تتعلق به ، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها !

ومن علم الظبي أن لا يدخل كناسه إلا مستدبراً ، ليستقبل بعينه ما يخافه على نفسه وخشفه !

ومن علم السنور إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها بالعود ، ثم يشير إليها بالرجوع ، وإنما يريد أن يدهشها فتزلق فتسقط !

ومن علم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي حيث يرتفع عن مجرى السيل ليسلم من مدق الحافر ومجرى الماء ، ويعمقه ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة ، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً ، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء ، وخرج منه ، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت ، إذا ضل عنه !

ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن ، ثم يظهر!

ومن علم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارى ، لأنَّ سلاحه قد ذهب ، فيسمن لذلك ، فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس والريح ، وأكثر من الحركة ليشتد لحمه ، ويزول السمن المانع له من العدو .

وهذا باب واسع جداً، ويكفي فيه قوله - سبحانه - ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ

﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1].

وجه المماثلة بين الحيوانات وبني الإنسان:

قال ابن عباس في رواية عطاء: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾[2]، ويريد يعرفونني، ويوحدونني، ويسبحونني، ويحمدونني، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[3]، ومثل قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾[4].

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾[5] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[6]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾[7]، ويدل عليه قوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾[8]، وقوله: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾[9]، وقول سليمان ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾[10].

وقال مجاهد: أمم أمثالكم، أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال الزجاج: أمم أمثالكم في أنها تبعث.

وقال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في طلب الغذاء، وابتغاء الرزق، وتوقي المهالك.

---

(١) سورة الأنعام: ٣٨ـ ٣٩.
(٢) سورة الأنعام: ٣٨.
(٣) سورة الإسراء: ٤٤.
(٤) سورة النور: ٤١،
(٥) سورة الحج: ١٨.
(٦) سورة النحل: ٤٩.
(٧) سورة سبأ: ١٠.
(٨) سورة النحل: ٦٨ .
(٩) سورة النمل: ١٨.
(١٠) سورة النمل: ١٦.

وقال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم، فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد ، ومنهم من يعدو عدو الذئب ، ومنهم من ينبح نباح الكلب ، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس ، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي إليها الطعام الطيب عافته ، فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه ، فلذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها ، وإن أخطأ رجل ترواه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة ، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعاً لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة، وعدم من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون منصرفاً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق .

والله ـ سبحانه ـ قد جعل بعض الدواب كسوباً محتالاً ، وبعضها متوكلاً غير محتال ، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته ، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقاً مضموناً وأمراً مقطوعاً ، وبعضها لا يعرف ولده ألبتة ، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه ، وبعضها تضيع ولدها ، وتكفل ولد غيرها ، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها ، وبعضها يدخر ، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكور يعول ولده، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه .

وجعل بعض الحيوانات يتمها من قبل أمهاتها ، وبعضها يتمها من قبل آبائها ، وبعضها لا يلتمس الولد ، وبعضها يستفرغ الهم في طلبه، وبعضها يعرف الإحسان ويشكره، وبعضها ليس ذلك عنده شيئاً ، وبعضها يؤثر على نفسه ، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحداً يدنو منه.

وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم ، وينفر غاية النفار ، وبعضها لا يأكل إلا الطيب ، وبعضها لا يأكل إلا الخبائث ، وبعضها يجمع بين الأمرين .

وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها ، وبعضها يؤذي من لا يؤذيها،

وبعضها حقود لا ينسى الإساءة ، وبعضها لا يذكرها البتة ، وبعضها لا يغضب ، وبعضها يشتد غضبه ، فلا يزال يسترضى حتى يرضى ، وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس ، وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك البتة ، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه ، وبعضها الحسن والقبيح سواء عنده ، وبعضها يقبل التعليم بسرعة، وبعضها مع الطول ، وبعضها لا يقبل ذلك بحال .

وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه ، وعلى إتقان صنعه ، وعجيب تدبيره ، ولطيف حكمته ، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف ، وغوامض الحيل ، وحسن التدبير ، والتأني لما تريده، ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته ، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثاً ، ولم يترك سدى ، وأن له ـ سبحانه ـ في كل مخلوق حكمة باهرة وآية ظاهرة وبرهاناً قاطعاً ، يدل على أنه رب كل شيء ومليكه ، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

١٦ـ هداية الخالق الكائنات لطريقة التكاثر

يقول الدكتور يوسف عز الدين موضحاً هذا الموضوع: « من الأشياء العجيبة التي تشترك فيها جميع الكائنات الحية القدرة على التكاثر ، لتكوين ذرية يكون من شأنها الاستمرار بالحياة، واستمرار بقاء النوع وعدم انقراضه.

وتتم عملية إنجاب الذرية في الكائنات الحيَّة المختلفة بطرق شتى ، ولكنَّها تصل إلى الهدف المنشود . (فالبكتريا) (وهي من النباتات) تتكاثر ، وكذلك تفعل باقي النباتات والحيوانات على اختلاف درجة رقيها . ولا يمكن من وجهة نظر العلوم الرياضية أن تحدث مصادفات يكون من شأنها إيجاد ذكر أو أنثى في آلاف من النباتات والحيوانات لهدف مرسوم ومحدد وهو إنجاب ذرية تبقى بعد الفناء .

ومن الحيوانات والنباتات ما لا يتميز فيها ذكر وأنثى ، ومع ذلك فإنَّها تتكاثر وتنجب ذرية ، فحيوان صغير الحجم أوّلي مثل حيوان (الأميبا) الذي

يعيش في الماء والمكّون جسمه من خلية واحدة يتكاثر بطريقة عجيبة ، إذ إنّ الحيوان الواحد ينقسم إلى قسمين ، وكل قسم يتحول إلى حيوان ، والحيوانات المتكونة من الانقسام تنقسم بدورها إلى حيوانين وهكذا . . . يحدث هذا عندما تكون ظروف الحياة ملائمة وعادية .

أمّا إذا شعر هذا الحيوان بما ينذر بالخطر فإنّه يتحوصل ؛ أي يفرز حول جسمه حوصلة ، وينقسم إلى حيوانين ، بل عشرات الحيوانات داخل الحوصلة ؛ لكي يعوض الوقت الذي قد يضيع هباء داخل الحوصلة إلى حين رجوع الظروف الملائمة لحياته .

ويحدث التكاثر عن طريق الانقسام في حيوانات أوليه عديدة غير (الأميبا) مثل الحيوان المسمى: (البراميسيوم) وهو يعيش في الماء، ويتكاثر أيضاً بالانقسام الثنائي في الظروف الملائمة كما تنقسم (الأميبا) ، ولكنه من آن لآخر يحتاج إلى تجديد نشاطه وحيويته فيلجأ إلى طريقة أخرى للتكاثر بالغة التعقيد يكون من شأنها تجنيد الأنوية (ولكل خلية نواة كما هو معلوم) حيث ينجب كل فرخ في هذه الحالة أربعة أفراد بدلأمن انقسام حيوان إلى حيوانين فقط .

وفي الحيوانات الأرقى من هذه الحيوانات الأولية ، إذا كانت ظروف الحياة تحول دون سهولة التقاء الأنثى بالذكر لإنجاب الذرية ، فإنّ الحيوان في هذه الحالة يصبح أنثى وذكراً في الوقت نفسه ، أي يصبح خنثى حيث يضم جسمه أعضاء التناسل الأنثوية والذكرية جنباً إلى جنب ، فيستطيع بذلك أن ينجب ذريته دون حاجة إلى انتظار فرصة التقاء الجنسين، يحدث هذا مثلاً في الدودة الكبدية التي تعيش في القنوات المرارية لبعض الحيوانات حيث يصعب على أحد الجنسين التنقل والتجول في هذا المكان الضيق للعثور على الجنس الآخر، وفي الوقت نفسه إذا حدث أن التقى حيوانان من هذه الديدان من الممكن أن يلقح أحدهما الآخر حيث يصبح أحدهما وكأنه أنثى، ويصبح الآخر وكأنه ذكر .

إن حدوث ملايين المصادفات في آن واحد لهدف معين مشترك وفي حيوانات مختلفة وبوسائل متباينة شيء لا يقره العلم ، ولا تقره علوم

الرياضيات ، وفي هذه الحالة لا بدّ أن يسلم بوجود قوة خالقة عاملة وراء هذا كله .

ومنذ وجود أول حيوان ثديي على هذه الأرض ، والأنثى مزودة بمصنع لإنتاج اللبن ، وذلك لكي يضمن الصغير الحصول على غذائه بمجرد خروجه من بطن أمه ، ولو لم يوجد هذا الثدي الذي يبرز من جسم الأم منذ أول حيوان ثديي لما أتيحت فرصة النمو والبقاء على قيد الحياة لأول مولود ، أي إنها عملية مدبرة ومقدرة منذ البداية ، ولا تخضع للتجربة والخطأ ، إذ إنها لا تحتمل الخطأ مرة واحدة .

فهل يمكن أن يتصور أيُّ إنسان عاقل أن تزويد الأم بطعام الصغير المولود يأتي نتيجة مصادفة عمياء ؟ ولبن أنثى الحيوانات الثديية ـ علاوة على فائدته الغذائية ـ نجده مزوداً بمواد تحمل للمولود مناعة ضد الأمراض إلى أن يشب عن الطوق ، ويمكن جسمه من الدفاع عن نفسه . وجميع الجهود التي تضافرت لصنع الألبان اللازمة لتغذية الصغار فشلت في صنع الألبان التي تحمل نفس صفات اللبن الذي أمد الله به الأنثى ».

أهمية الغريزة الجنسية:

ويحدثنا الدكتور يوسف عن الغريزة الجنسية وأهميتها وعظيم أثرها فيقول: « ومن الأشياء التي حيرت العلماء كنه الغريزة الجنسية ، تلك الغريزة التي تجعل الذكر ينجذب إلى الأنثى، والأنثى تنجذب إلى الذكر.

والغريزة الجنسية هي أقوى الغرائز ؛ لأنها أهمها بالنسبة لبقاء النوع وعدم انقراضه ، والهدف الرئيسي لبقاء بعض الحيوانات هو إتمام الالتقاء الجنسي ، ثم يموت بعد ذلك .

فالطور الكامل للحشرات المسماة (ذباب مايو) ، لا يزيد عن بضعة أيام، وهي في طورها الكامل هذا لا تتغذى إذ لا توجد بها أجزاء للفم تصلح لتناول الطعام إطلاقاً ، وإنما وظيفتها الرئيسية في هذه الفترة القصيرة من العمر هي التقاء الذكر بالأنثى لإنجاب الذرية ، حيث تموت الأم بعد ذلك مباشرة بعد أن تكون أدَّت رسالتها وكذلك يموت الأب ».

١٧ـ هداية الخالق الحيوان تعويض ما يفقده من أجزاء جسمه

ويتعرض الدكتور يوسف في مقالاته في جريدة الأهرام عما زود الله به مخلوقاته من خاصية تعويض الحيوان عما يفقده من أجزاء جسده فيقول: «ومن الصفات الأخرى المذهلة التي نجدها في جميع الحيوانات والنباتات القدرة على تعويض الأجزاء المفقودة ، وتوجد بدرجات مختلفة في الكائنات الحية .

ففي حيوانات عديدة مثل ذلك الحيوان المسمى « الهيدرا » نجد شيئاً عجيباً يكتفي العلم بوصفه ، ولكنّه لا يستطيع له تفسيراً ، هذا الحيوان يعيش في الماء ، وهو أنبوبي الشكل لا يزيد طوله عن بضعة مليمترات، ذو قاعدة مقفلة وفتحة أمامية تستخدم كفم لدخول الطعام ، وفي الوقت نفسه تستعمل كفتحة « است » تخرج منها الفضلات . وحول تلك الفتحة نجد عدداً من الزوائد المجوفة ، يتصل تجويفها بتجويف الجسم .

إذا قطعنا هذا الحيوان إلى نصفين ، نصف علوي ، ونصف سفلي ، فإننا نجد أنَّ بعض الخلايا في كل نصف تتكاثر بحيث تستكمل الأجزاء الناقصة، فتكون النتيجة تكوين حيوانين يشبهان الحيوان الأصلي ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، إذ إننا لو قطعنا ذلك الحيوان، إلى عدة أجزاء فإنَّ كل جزء ينمو ويعوض جميع الأجزاء المفقودة ، ويصبح حيواناً كامل التكوين .

ويتركب جدار الجسم لهذا الحيوان من طبقتين من الخلايا: طبقة خارجية وطبقة داخلية تحيط بالتجويف الداخلي للجسم ، وفي كل طبقة من الطبقتين توجد أنواع مختلفة من الخلايا لكل نوع منها وظيفة محددة، ومعظم خلايا الطبقة الخارجية وظيفتها الأساسية حماية جسم الحيوان ، أما الطبقة الداخلية فوظيفتها الرئيسة هضم الغذاء الذي يبتلعه الحيوان من خلال فتحة الفم .

ولو قلبنا ذلك الحيوان كما يقلب الجورب ، فإنَّ الخلايا التي كانت خارجية تصبح داخلية ، أي تحيط بتجويف الجسم ، بينما الخلايا التي كانت داخلية تصبح خارجية ، فماذا يحدث في هذه الحالة ؟ لقد وجد العلماء الذين أجروا هذه التجارب أن الخلايا التي أصبحت الآن خارجية تهاجر نحو الداخل ، بينما الخلايا التي أصبحت داخلية تهاجر نحو الخارج لكي يعود

تركيب الحيوان إلى ما كان عليه ، ولو لم يحدث ذلك لمات الحيوان ، إذ إن الخلايا التي تحيط بتجويف الجسم لا بدَّ أن تكون الخلايا الهاضمة ، لتتم عملية هضم المواد الغذائية التي في تجويف الجسم، بينما الخلايا الخارجية لا بدَّ أن تكون الخلايا الوقائية التي تحفظ الجسم وتقيه من التلف .

وإذا قطعنا دودة الأرض إلى جزئين ، فإنَّ كلَّ جزء ينمو ، ويعوض الجزء المفقود .

وفي حيوانات أخرى (كالجمبري ، أو الكابوريا) وغيرهما إذا فقدت إحدى الأرجل فإنَّ رجلاً جديدة تتكون بدلاً من المفقودة .

والبرص إذا استشعر خطراً أو امسكه من ذنبه إنسان أو حيوان فإنه يفصل ذلك الذنب عن جسمه، وينجو من الخطر، وينمو له ذنب جديد.

ونحن إذا جرحنا أنفسنا في أثناء الحلاقة أو لأي سبب آخر ، فإن خلايا جديدة تتكون بدلاً من الخلايا التي أتلفها الجرح ، ولو لم يحدث ذلك لما أصبح في الإمكان إجراء أية عملية جراحية .

وإذا كسرت لنا عظمة فإنَّ خلايا جديدة تتكون ويلتئم الكسر .

لا يمكن أن يحدث هذا نتيجة للمصادفة ، بل لا بدَّ أن يكون نتيجة تدبير يتجه نحو هدف معين ، وهو المحافظة على حياة الفرد ، وتحكمه قوى كامنة في الحيوان لم يتوصل العلم إلى كنهها ، إنها قوى أودعها الله في الحيوان ، والحيوان لا يعلم عنها شيئاً ، ولا يدرك ماذا يفعل » .

١٨ـ اتفاق جميع الأحياء في التنفس وإن اختلفت طرائقه

ويعرض الدكتور يوسف في مقالاته القيمة لهذا الموضوع ، فيقول:

« إن عملية التنفس التي نجدها في جميع الكائنات الحية من أدناها إلى أرقاها عملية عجيبة ، وهي في جميع الحالات ليست سوى عملية أكسدة، أي اتحاد الأكسجين بالمواد الغذائية التي في خلايا الجسم ، ونتيجة لهذه الأكسدة تنطلق الطاقة اللازمة للكائن الحي التي لولاها لما استطاع القيام بأيّ نشاط من أنشطته المختلفة .

تتم هذه الأكسدة في الحيوانات المختلفة بطرق متباينة ، ولكن النتيجة في جميع الأحوال واحدة ، وهي انطلاق الطاقة ، وفي الوقت نفسه يتكون الماء (وثاني أوكسيد الكربون) نتيجة لهذه العملية ، ولذا فالمظهر الواضح لعملية التنفس هو أخذ (الأوكسجين) اللازم (لأكسدة) المواد الغذائية وبإخراج (ثاني أوكسيد الكربون) والماء الناتجين عن هذه العملية .

ففي حيوان بسيط (كالأميبا) حيث يتكون الجسم من خلية واحدة ، تتم عملية التنفس بطريقة غاية في البساطة ، إنَّ هذا الحيوان الذي يشبه قطعة دقيقة من (الجيلاتين) الرخو يعيش في الماء ، ويوجد بالماء المحيط به قدر من (الأوكسجين) المذاب ، هذا (الأوكسجين) الذائب في الماء ينفذ إلى جسم (الأميبا) حيث يؤكسد المواد الغذائية التي في جسمها ، فتنطلق الطاقة اللازمة لحركتها ونموها ، وغيرها من العمليات الضرورية للحياة .

ويتكون (ثاني أوكسيد الكربون) والماء نتيجة لعملية (الأكسدة) ، علاوة على انطلاق الطاقة .

وتتخلص (الأميبا) من الماء الزائد بطريقة تثير الدهشة ، حيث تتجمع قطيرات الماء حتى تتكون فجوة مليئة بالماء ، هذه الفجوة تتحرك نحو حافة جسم الحيوان ، ثم تنفجر ملقية بالماء خارج الجسم ، ثم تعود لتتكون من جديد . . . وهكذا .

أما ثاني (أوكسيد الكربون) فينفذ من داخل الجسم إلى الماء المحيط به .

وتحدث عـملية التنفس في الحشرات عـن طريق فتحات على جـانبي الجسم توصل إلى شبـكة من الأنابيب الدقيقـة تتفـرع داخل جسم الحشـرة إلى أنابيب أصـغر فـأصغـر ، حتى تصـل في النهاية إلى جـميـع الخلايا تقـريباً ، وبهـذا التنظيم يدخل (الأوكـسجين) من الفـتحات الخـارجيـة ، ويصل مبـاشرة إلى خلايا الجسم .

أمّا في الإنسـان وفي عديد من الحـيـوانات الأخرى فـإنّ (الأوكسـجين) يصل إلى أنسـجـة الجسـم عن طريق الخلايـا الدموية الحـمـراء التي تسبح في الدم، ويوجد بداخل هذه الخلايا الدموية المادة المسماة (بالهيموجلوبين).

ومن الخواص الـعجيـبة لهـذه المادة سرعـة اتحادها (بالأوكسـجين ، وثاني أوكسيد الكـربون) والقدرة على الانفصال عنهما بسـهولة . فإذا وصلت هذه الخلايا الدمـوية إلى الرئتين ، فإنها تـتحمل بالأوكسجين ، وتسـير مع الدورة الدموية حتى تصـل إلى الشعيرات الدموية الدقـيقة التي في الأنسجـة، فينفصل الأوكسـجين عنهـا وينفذ إلى الأنسـجة من خـلال الجدران الرقـيقـة للشعـيرات الدموية حـيث يستخـدم (لأكسدة) المواد الغـذائية، وينفـذ إليها من الأنسـجة (ثاني أوكـسيـد الكربون) الناتج من عـمليـة (الأكسـدة) الذي تحمله إلى الرئتين حيث ينفصل عن (الهيـموجلوبين) ، ويتخلص منه الجسم عن طريق الزفير، ثم يتحمل من جديد (بالأوكسجين). . . وهكذا .

ويحدث التنفس بوسائل عـديدة في الحيوانات المختلفة ، ولكن النتـيجة في جميع الحالات واحدة ، وهي وصـول (الأوكسجين) إلى خـلايا الجسم ، والتخلص من (ثاني أوكسيد الكربون) .

وهذا يدل دلالة قاطعة على شيئين:

الأول: انّ هذا التقـدير الدقيق لا بد أن يكون من فـعل خالق مدبر مـقدر إذ إنّه لا يمكن أن يحـدث شيء بطرق مـختلفـة ، ليؤدي لـنتيـجة واحـدة عن طريق المصادفة .

والشيء الثاني: انّ الخـالق واحد أحـد ، إذ إن أسلوب الخلق مـبني على أساس واحد ، ويؤدي إلى نتيجة واحدة لا تتغير » .

١٩ـ حصول الأحياء على الغذاء بطرق مختلفة

ويحدثنا الدكتور يوسف عن هذا الموضوع فيقول: « وجميع الكائنات الحية نباتات وحيوانات لا بدَّ أن تتغذى ، وتتغذى النباتات بطريقة تختلف تمام الاختلاف عن طريقة تغذية الحيوانات ، فالنباتات ثابتة في مكانها ، لا يمكنها أن تتحرك لتحصل على غذائها كما يفعل الحيوان ، ولذا فهي تصنع غذاءها وهي مغروسة في مكانها مستخدمة في ذلك الطاقة الشمسية .

أمّا الحيوان فيحصل على غذائه جاهزاً من مواد نباتية أو حيوانية ، والغذاء الذي يتناوله الحيوان لا بدَّ أن يهضم ليمتصه الجسم ويستفيد منه، وعمليات الهضم عمليات بالغة التعقيد من شأنها تحويل المواد المعقدة التركيب إلى مواد بسيطة التركيب يستطيع الجسم امتصاصها والإفادة منها.

والمواد الغذائية قد تكون دهنية أو بروتينية أو نشوية ... إلخ .

وكل نوع من الغذاء يقوم بهضمه أنزيم معين يؤثر في مادة بعينها ، ولا يؤثر في المواد الأخرى الموجودة معها جنباً إلى جنب ، فأنزيم يؤثر في المواد الدهنية ، ولا يؤثر في المواد البروتينية ، وآخر يؤثر في المواد البروتينية ، ولا يؤثر في المواد الدهنية .

فهل من الممكن أن يحدث كلّ ذلك نتيجة خبط عشواء أو مصادفة عمياء أو نتيجة تجارب عديدة تحتمل الخطأ والصواب ؟

إنَّ أيَّ عقل قادر على التفكير لا بد أن يدرك أن هذا من المستحيل ، كما ترفضه رفضاً باتاً نظرية الاحتمالات في العلوم الرياضية .

ففي حيوان (الأميبا) الدقيق الحجم المكون من خلية واحدة تتم عملية التغذية بطريقة غريبة ، إذ تمتد منه أذرع تلتف حول المادة الغذائية الموجودة حوله في الماء ، والتي قد تكون حيواناً ضئيل الحجم او نباتاً وحيد الخلية أصغر حجماً من الأميبا ، والمواد الغذائية في هذه الحالة قد تكون متحركة إذا كانت حيواناً صغيراً ، وقد تكون ثابتة إذا كانت نباتاً اولياً وحيد الخلية كبعض الطحالب .

ومن العجيب أنَّ حيوان (الأميبا) البسيط التركيب الذي لا يوجد به مخ أو جهاز عصبي يستطيع التفرقة بين المواد الغذائية الثابتة والمواد الغذائية المتحركة، فإذا كان الغذاء حيواناً متحركاً ، فإنَّ أذرع (الأميبا) تمتدُّ في حذر بعيداً عن الحيوان لكي لا يهرب ، أما إذا كان الغذاء ثابتاً غير متحرك ، فإنَّ الأذرع تمتدُّ حوله ملاصقة له بلا احتياط أو احتراس، إن المادة الغذائية في هذه الحالة لن تستطيع الهرب ، فكيف يدرك هذه الأشياء حيوان ضئيل (كالأميبا) لا تكاد تراه العين إلا من خلال عدسات الميكروسكوب لا مخَّ له ولا أعصاب أو عيون أو اية أعضاء للإحساس ! .

فإذا أطبقت الأذرع على المادة الغذائية أصبحت في داخل الجسم محاطة بقطرة ماء ، عند ذلك يبدأ جسم (الأميبا) في إفراز أنزيم هاضم حامض ليقتل الفريسة التي التهمتها (الأميبا) إذا كانت لا تزال على قيد الحياة ، ثم تفرز (أنزيما قلوياً) ، ولذلك حكمة ، إذ إنّ أهم (الأنزيمات) وهو (الأنزيم) الذي يهضم المواد (البروتينية) لا يعمل إلا في وسط قلوي » .

٢٠ـ دوران الدم في جميع أجزاء أجسام الأحياء

ويحدثنا الدكتور يوسف عن الدورة الدموية قائلاً:

« والدورة الدموية في شعب وظائف الحيوانات المختلفة تتم بطرق عديدة ، كما يختلف تركيب القلب في المجموعات المختلفة للحيوانات ، ولكنها تؤدي إلى نتيجة واحدة ، وهي دوران الدم في جميع أجزاء الجسم .

وإذا تأملنا تركيب القلب والجهاز الدوري في الإنسان ، وفي عديد من الحيوانات ، وجدنا أنَّ القلب ـ ذلك العضو الرائع التصميم ـ يتكون من حجرات يُوصل بعضها للبعض الآخر فتحات ذات صمامات ، ووظيفة هذه الصمامات السماح للدم بالمرور في اتجاه واحد ، وتمنع رجوعه في الاتجاه المضاد .

ونجد مثل هذه الصمامات في الأوعية الدموية الكبرى للغرض نفسه .

وشبكة الأوعية الدموية بأوردتها وشرايينها وشعيراتها الدموية تصميم

مذهل، إنَّ الشرايين تتفرع إلى أنابيب أصغر فأصغر ، حتى تصبح شعيرات دموية رقيقة الجدران ، والحكمة من رقة جدران الشعيرات الدموية هي إمكان تبادل غازي (الأوكسجين) من (هيموجلوبين) الكرات الدموية الحمراء ، وينفذ إلى أنسجة الجسم ، وفي الوقت نفسه ينفذ (ثاني أوكسيد الكربون) من الأنسجة إلى الشعيرات الدموية ، فتلتقطه الكرات الحمراء ، ثم تتجمع الشعيرات الدموية لتكوين أوردة تحمل الدم إلى الرئتين ، حيث تتخلص الكرات الدموية من (ثاني أوكسيد الكربون) ، وتلتقط (أوكسجيناً) جديداً وهكذا .

والقلب ينبض نبضات إيقاعية مدى الحياة ، حيث تتمدد بعض حجراته وتنقبض حجرات أخرى دافعاً الدم النقي الحامل (للأوكسجين) في الأوعية الدموية ، ومستقبلاً له بعد دورانه في الجسم محملاً (بثاني أوكسيد الكربون)، ليرسله إلى الرئتين حيث يتحمل (الأوكسجين) ، ويتخلص من (ثاني أوكسيد الكربون) .

ويتجول داخل جسم الإنسان ، وعديد من الحيوانات الأخرى سوائل ذات وظائف محددة مثل الدم (واللمف) . و(اللمف) وسيط بين الدم والأنسجة . وللدم وظائف عديدة ، منها توصيل المواد الغذائية إلى جميع أجزاء الجسم ، وإذا لم يوجد الدم في أجسام بعض الحيوانات كالدودة الكبدية مثلاً ، فإنَّ تركيب الجسم في مثل هذه الحيوانات نجده مصمماً بحيث تتم عملية نقل الأغذية وغيرها بوسائل أخرى .

ويتكون الدم في أجسامنا وأجسام عديد من الحيوانات الأخرى ، من سائل يسبح فيه عدد هائل من الخلايا المختلفة الأشكال والوظائف نطلق عليها أحياناً اسم الكرات الدموية الحمراء ، والكرات الدموية البيضاء .

والكرات الحمراء ـ كما ذكرت ـ ذات وظيفة تنفسية ، أما الكرات البيضاء فمتعددة الأشكال والوظائف ، بعضها ملتهم ، وظيفته التهام أي جرثومة تتسرب إلى جسم الإنسان أو الحيوان ، فتلتهمها بطريقة تشبه التهام الأميبا لغذائها ، ونحن نستنشق من الهواء ملايين الجراثيم طول النهار والليل ،

ولكنّنا لا نمرض كلّ يوم ، لأنّ هذه الخلايا العجيبة السابحة في الدم ، والتي من الممكن أن تخترق تيار الدم وتنفذ إلى الأنسجة في حالة الطوارئ تلتهم هذه الجراثيم وتقضي عليها ، ولا يعترينا المرض إلا إذا ضعفت مقاومة الجسم لأيّ سبب من الأسباب ، أي إذا ازداد عدد الجراثيم عن الحدّ المألوف».

٢١ـ تركيب الحواس في الأحياء

ويبين لنا الدكتور يوسف أن « لمعظم الحيوانات أعضاء للحس كحاسة الأبصار والشم واللمس والسمع ، والتركيب الأساسي للعين يتشابه في جميع الثدييات وغيرها ، وهو تركيب مذهل وشديد التعقيد ، فللعين عدسة تستقبل الضوء ، وفتحة ينفذ الضوء من خلالها ؛ ليخترق العدسة، وتلك الفتحة التي ينفذ منها الضوء في العين تتسع تلقائياً في الضوء الخافت ، وتضيق تلقائياً إذا كان الضوء شديداً ، والحكمة من ذلك واضحة ، ففي حالة الضوء الخافت تحتاج عملية الإبصار إلى كمية كبيرة من الضوء ، أمّا في حالة الضوء الشديد فتكفي كمية قليلة منه لكي تتضح الأشياء المرئية .

والعين ترى الأشياء في ضوء خافت ، ولم يتمكن عقل الإنسان من اختراع آلة تصوير يمكنها التقاط صور المرئيات في مثل هذا الضوء .

وكما أنّ النحل قادر على رؤية الأشعة فوق البنفسجية ، فإنّ البومة في إمكانها رؤية الأشعة تحت الحمراء التي لا نراها ، وهي أشعة حرارية ، ولذا فالبومة تستطيع أن تبصر الفأر في الظلام الدامس عن طريق الأشعة الحرارية تحت الحمراء التي تشع من جسده الدافئ .

وينفذ شعاع الضوء من العدسة ليقع على الشبكية عند قاع العين ، وتتكون الشبكية من تسع طبقات مختلفة ، ولا تزيد في مجموعها عن سمك ورقة رقيقة ، والطبقة التي في أقصي قاع العين تتكون من ملايين من الأعواد والمخروطات منتظمة في تناسب محكم يمكنها أن تميز الألوان. ويتولى العصب البصري نقل هذا الإحساس إلى مركز معين في المخ يترجم الإحساس إلى

صورة مرئية تبصرها العين بوضوح .

وتلك التنظيمات العجيبة للعدسات والأعواد والمخروطات والأعصاب لا بدَّ أن تكون قد حدثت في وقت واحد .. إذ إنه إذا لم توجد جميعها معاً في وقت واحد فإنَّ الإبصار يصبح مستحيلاً ، فكيف استطاعت جميع هذه العوامل أن يُكمّل بعضُها بعضاً في وقت واحد ؟

إن العلوم الرياضية تقول لنا: إن حدوث هذه الأشياء دفعة واحدة عن طريق المصادفة أمر مستحيل ، إن آلة التصوير التلفزيونية ما هي إلا محاكاة بدائية لعملية الإبصار التي تتم عن طريق العين ، بل كل ما ابتكره الذهن البشري من اختراعات ما هو سوى محاكاة بدائية لما هو موجود في الخلق ، وإذا كانت آلة التصوير البسيطة يلزمها فكر وعقل لابتكارها، فهل من المعقول أن تكون العين في الإنسان وغيره من الحيوانات تكونت عن طريق المصادفة ؟

ومن العجيب أنَّ كلّ من هو في حاجة إلى الإبصار من الحيوانات خلق الله له عيوناً يرى بها، ولو أنّ تلك العيون قد تختلف في تركيبها عن عيوننا اختلافاً كبيراً ، ولكنَّها توصل إلى الهدف نفسه وهو الإبصار، فنجد في دودة الأرض مثلاً خلايا في جلدها ذات حساسية للنور والظلام، وهذا هو كلّ ما تحتاج إليه مثل هذه الدودة التي تعيش في الأنفاق من الطين داخل التربة .

وللحشرات عيون تختلف في تركيبها عن عين الإنسان أو القرد أو البقرة أو السلحفاة أو السمكة ، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف إلا أن الحشرات ترى بها الأشياء التي تنظر إليها ، واختلاف الوسائل مع تشابه الهدف لا يمكن أن يأتي عن طريق المصادفة ؛ بل يأتي نتيجة لتخطيط يقصد من ورائه الوصول إلى هدف معين .

ولقد منح الله كلّ كائن حيّ من الحواس والإدراك على قدر حاجته فالذبابة المنزلية مثلاً بحاجة إلى عين ترى بها الغذاء ، وتدرك أيَّ حركة يقصد بها الاعتداء على حياتها ؛ ولذا فقد زودها الخالق كما هي الحال في معظم الحشرات بزوج من العيون المركبة ؛ إذ إنّ كلَّ عين من هذه العيون مكونة من مئات الوحدات المتشابهة المتراصة بعضها بجوار بعض ، كلُّ وحدة

من هذه الوحدات ترى نقطة من الشيء المرئي ، وتتجمع هذه النقط فترى الذبابة الشيء كاملاً ، كما زودها خالقها بنوع آخر إضافي من العيون نسمية العيون البسيطة ، إذ توجد ثلاثة من هذه العيون البسيطة عند قمة رأسها ، وظيفتها إدراك آيّة حركة ،وهذه العيون هي التي تجعل الإمساك بالذبابة يكاد يكون في حكم المستحيل » .

٢٢ـ كيفية تصميم العظام والمفاصل

والعظام في أجسامنا وأجسام عديد من الحيوانات نحركها عند المفاصل، فتنقبض عضلات معينة وتنبسط عضلات أخرى في الوقت نفسه في توافق عجيب ، فتتحرك اليد أو الساق أو الأصبع وغيرها في الاتجاه الذي يرغب فيه الإنسان أو الحيوان ، وتركيب المفاصل مصمم بشكل يسمح بالانزلاق ، فلا يشعر الحيوان بأي احتكاك .

كما أن تصميم الفقرات في العمود الفقري من شأنه تحمل الضغط ، وتجنب الاحتكاك ، وترابط الفقرات مع بعضها ، فهو مصمم تصميماً مذهلاً، ويحيط العمود الفقري بالحبل العصبي لحمايته ، كما تحمي الجمجمة المخ الذي بداخلها ، وتنفذ الأعصاب من الحبل العصبي من خلال ثقوب بالفقرات ، وجميع هذه التصميمات لا بدّ أن تكون قد تكونت في وقت واحد ، إذ لو اختل جانب منها لأصبحت حركة الحيوان غير ممكنة ، فهل من المعقول أن تحدث كل هذه الترتيبات في وقت واحد نتيجة مصادفة ؟

٢٣ـ الحكمة في تجلط الدم

ومن المعروف أنّه إذا حدث جرح في أجسامنا فإنّ الدم الذي يخرج من الأوعية الدموية المجروحة لا يلبث أن يتجلط عند مكان الجرح ، وهذا تصميم مقصود له حكمته إذ إنّ الدم المتجمد يقفل الوعاء الدموي المجروح ، فيوقف بذلك استمرار تدفق الدم من الجرح ، ولو لم يحدث هذا التجلط لظلّ الدّم ينزف حتى الموت .

ومما يدلُّ على أنَّ هذا تدبير مقصود من الخالق لحفظ الكائن الحي أنّنا نجده يحدث بطرق متباينة في الحيوانات المختلفة ، ولكنَّ النتيجة في جميع

الحالات واحدة ، ففي معظم الحشرات إذا جرح جسم حشرة كالصرصار مثلاً ، فإنَّ عدداً من الخلايا يتجمع ، ويكون سدادة تقفل الجرح حتى لا ينزف الدم ، بينما نجد أنَّ الدم يتجلط في بعض الحشرات كما يتجلط دمنا .

والوصول إلى هدف معين بطرق مختلفة .. كما سبق أن ذكرت ... دليل قاطع على وجود خالق يدبر ويقدر بشتى الطرق للتوصل إلى نتيجة معينة يكون من شأنها حفظ الكائن الحي .

٢٤ـ قرنا الاستشعار عند البعوض

ولا يمكن أن يكون عن طريق المصادفة أن قرني استشعار ذكر البعوض به شعيرات أطول من تلك التي في قرني استشعار أنثاه ، وكان الاعتقاد فيما مضى أنَّ هذه الشعيرات الطويلة مظهر من مظاهر الزينة ، لكي يبدو الذكر جميلاً في عين الأنثى ، ولكن اتضح أنَّ هذه الشعيرات التي في قرني استشعار الذكر قادرة على التقاط أصوات خاصة تحدثها أنثى البعوض وهي بعيدة عن الذكر بعداً شاسعاً ، وأصوات الأنثى هذه ذات موجات خاصة تشبه إلى حد كبير موجات الإذاعة .

ويحرك الذكر قرني استشعاره في شتى الاتجاهات كما نحرك نحن هوائي التلفزيون لتصبح الصورة الملتقطة أكثر وضوحاً ، وفي وضع خاص يلتقط قرنا الاستشعار صوت الأنثى واضحاً ، وعن طريق زاوية قرن استشعاره يدرك الذكر غريزياً مكان الأنثى التي تحدث الصوت ، فيطير نحوها بأقصى سرعته حيث يتم التزاوج بينهما .

وهكذا نرى أنَّ البعوض قد منحه خالقه هذه القدرة العجيبة التي تمكنه من إدراك صوت الأنثى البعيدة عنه بعشرات « الأمتار » على الرغم من وجود أصوات أخرى عديدة يموج بها الجو ، ولو لم يحدث ذلك لما تمكن الذكر من العثور على الأنثى بسهولة، ولما تمكن البعوض من البقاء جيلاً بعد جيل.

إنها محطة استقبال إذاعي في قرني استشعاره استخدمها البعوض قبل أن يتمكن الإنسان من التوصل إلى أسرار الإرسال اللاسلكي بملايين السنين ، فهل يمكن أن يحدث مثل هذا عن طريق مصادفة عمياء ؟

٢٥ـ حيوانات تومض في الظلام

ومن الحشرات ما تنبعث من أنثاها أضواء تومض في الظلام ومضات ذات تردد معين يميزها ذكر هذا النوع من الحشرات بالذات ، ولا تختلط عليه مع ومضات ضوئية لحشرات أخرى ذات تردد مختلف . عندما يرى الذكر هذه الومضات التي لا تكاد تدركها عيوننا يطير إلى أنثاه ، فيحدث التزاوج ليستمر بقاء النوع .

إن العلوم الرياضية تثبت أنّ مثل هذا التنظيم والترتيب لا يمكن مطلقاً أن يكون من صنع « طبيعة » لا عقل لها ، بل هو تخطيط من صنع خالق يعلم ماذا يصنع ويرتب ويقدر أروع تقدير لبلوغ هدف معين .

٢٦ـ عملية الهضم في الحيوان

ونحن نعلم أن تقطيع الطعام إلى أجزاء صغيرة أمر ضروري لتسهيل عملية الهضم ، والأسنان ذات تركيب وتنظيم متباين في الحيوانات المختلفة ، ولكنَّها تؤدي الوظيفة نفسها وهي تقطيع الطعام .

وترتيب الأسنان في الإنسان ترتيب مذهل إذ توجد قواطع وأنياب وأضراس مرتبة ترتيباً خاصاً يجعل لكلّ نوع منها وظيفة معينة . ولا توجد أسنان للحيوانات التي لا تحتاج إليها ، كتلك التي تتغذى على السوائل حيث تزود بوسائل خاصة لارتشاف الغذاء السائل وتوصيله إلى القناة الهضمية. وفي أثناء المضغ في الحيوانات ذات الأسنان تفرز الغدد اللعابية إفرازها ليختلط بالغذاء حيث تبدأ عملية هضمه .

وفي المعدة والأمعاء ـ كما ذكرت فيما سبق ـ يفرز الحيوان (أنزيمات) يؤثر كلّ واحد منها في نوع معين من الغذاء ، ولا يؤثر في الأنواع الأخرى .

٢٧ـ تكون الجنين

وعملية تكوين الجنين في أي حيوان عـملية مذهلة ، يكتفي العلم بملاحظة وشرح خطواتها ، ولكنَّه يقف عاجزاً عن مـعرفة كنهها ، والقوى التي تدفع بها نحو هدف محدود هو تكون جنين لحيوان معين .

تبـدأ هذه العملـية بانجـذاب الخليـة الذكرية (الحـيوان المـنوي للذكر) نحـو الخلية الأنثوية (بويضة الأنثى) فتـتكون الخلية الملقحـة ، وتبدأ الخلية الملقـحة بعد ذلك في الانقسام بوساطة قوة عجيبة كامنة فيها ، فتصبح الخلية خليتين ، ثم أربع خلايا ، ثم ثماني خلايا ، وهـكذا .. حتى يصل عدد الخلايا إلى حد معين ، فتصبح على هيئة كـرة جوفاء جدارها مكون من طبقة واحدة من الخلايا ، ثم ينغمد نصف الكرة داخل النصف الآخـر ، فتصبح ذات جدارين خلويين .

وفي معظم الحـيوانات ـ ومنهـا الإنسان ـ تتكون بين الطبـقتين طبـقة خلوية ثالثة ، وتـستمـر الخلايا في الانقـسام ، فـتتكون من كلٍّ طبـقة من الطبـقات الثلاث أعضاء معينة .

فـمن الطبـقـة الخـارجيـة يتكون الجلـد والجهـاز العـصـبي ، وبعض أجـزاء أخـرى، ومن الطـبـقـة الوسطى تتكـون العـضـلات والعظام ، ومن الـطبـقـة الداخلية تتكون بعض أجزاء الجهاز الهضمي ، ويستمر انقسام الخلايا ، حتى يتم تكون الجـنين داخل الرحم في الحـيـوانات الثـدييـة أو داخل البـيـضـة في الحيـوانات التي تبيض ، وعند اكـتمـال تكوين الجنين يلفظ الرحم ذلك الجنين خارج الجسم في الحيوانات الثديية ، ويكسر البيضة ويخرج منها في الحيوانات التي تضع بيضاً .

٢٨ـ تركيب الأذن

وتركيب الأذن في الإنسان وفي عـدد من الحيوانات الأخرى لا يمكن لأي عاقل أن يتـصور حدوثه عـن طريق المصادفة ، فللأذن طبلـة تستقـبل الموجات الصوتيـة فتتـذبذب ، وهذه الذبذبات تؤثر في ثلاث عظام دقيقـة مرتبة ترتيـباً رائعاً . والضـغط على جانبي الطبلة ينبغي أن يـكون متساوياً، ولهـذا الغرض تمتـد أنبـوبة خلف الطبلة توصـل إلى تجويـف الأنف ، ويصل بالجزء الداخلي للأذن عظمـة تشبه القـوقعـة في شكلها ، ووظيفـتهـا تحليل الصوت ، وتمييـز الأنغام المختلفة ، كما أنَّ من وظيـفتها أيضـاً إحداث الاتزان ، إذ لولاها لما استطعنا أن نخطو خطوة واحدة دون أن نترنح ونسقط .

وتنتـقل الذبذبات بعد ذلك عن طريق الأعـصاب إلى مـركز السـمع بالمخ، ليدرك الإنسـان أو الحيوان سماع الأصـوات المختلفة بعضـها عن بعض . هل يمكن أن يحـدث كـل هذا في وقت واحـد عن طريق المصـادفـة ؟ إن نظرية الاحتمالات في العلوم الرياضية تنفي إمكان ذلك نفياً قاطعاً .

٢٩ـ ديدان الفلاريا

وتحدث في الكائنات الحية أشياء عجيبة ، لا تعد ولا تحصى ، تدلّ على وجود قـوة عليا ترتـب وتقدر لاستـمرار بقـاء الكائنات ، أشيـاء لا يمكن أن تحدث عن طريق المصادفة ، منها مثلاً: ما يحدث في دورة حياة الديدان التي تسبب المرض المسمى بمرض الفيل ، وهي التي نسميها ديدان (الفيلاريا) .

تغـيـض هذه الديدان في طورها الكـامل في الأوعـيــة اللمـفـاويـة والغـدد اللمـفـاوية للإنسـان ، وتسـد الأوعـيـة اللمـفـاوية ، فـتـسبب تضـخـم بعض الأعضـاء، وعلى الأخص الساقين أو إحداهمـا ، حيث تصبح سـاق الإنسان في حجم ساق الفيل .

وتتزاوج هذه الديدان في أثناء وجودها داخل الأوعية اللمفاوية للإنسان ،

وتنتج ديداناً صغيرة تنتقل من الأوعية اللمفاوية إلى الأوعية الدموية ، وإذا بقيت هذه الديدان في الأوعية الدموية للإنسان فإنها تعجز عن إتمام دورة حياتها إذ لابد لها من أن تنتقل إلى جسم بعض أنواع البعوض لكي تتم تلك الدورة ، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان، فإذا امتصت البعوضة دم إنسان مصاب فإنهَّا تمتص مع الدَّم عدداً من هذه الديدان الصغيرة التي تنمو داخل جسم البعوض حتى يكتمل نموها، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان إذا حقنتها البعوضة في دمه في أثناء عملية امتصاصها لدم الإنسان الذي تتغذي عليه .

ولقد حاول العلماء الحصول على هذه الديدان من دم المصابين بهذا المرض ولكن جميع محاولاتهم كانت تبوء بالفشل إلى أن حدث شيء عجيب .

في إحدى الليالي كان أحد العلماء ساهراً في معمله حتى ساعة متأخرة من الليل ، فأخذ عينة من دم إنسان مصاب وفحصها تحت الميكروسكوب ، وفوجئ بعدد هائل من هذه الديدان في العينة التي أخذها ، وفي أثناء النهار في اليوم التالي أخذ عينة من المصاب نفسه فلم يجد للديدان أثرا ، احتار في تفسير هذه الظاهرة العجيبة ، لماذا توجد هذه الديدان في عينة الدم إذا أخذها من المصاب ليلاً ، ولا تظهر إذا أخذها نهاراً ؟

واتضح أنّ تلك الديدان الصغيرة تهرب إلى الأوعية الدموية الداخلية في أثناء النهار ، ثم تعود إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد في أثناء الليل ، والحكمة من ذلك هي أنّ البعوض الذي يتغذى على دم الإنسان في هذه الأماكن لا ينشط إلا في أثناء الليل ؛ ولذا فإنَّ الديدان تنتقل إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد ؛ لكي يتمكن البعوض من امتصاصها مع الدم لتتم دورة حياتها داخل جسم البعوضة ، ومن الطبيعي أن هذه الديدان لا تدرك شيئاً ولا تعلم شيئاً عن البعوض التي ستتم دورة حياتها داخل جسمه ؛ بل تفعل هذا عن غريزة ، أي إنّ هناك قوة عليا تملي عليها هذا التصرف لكي تستمر حياتها .

ومن العجيب أنّه في الأماكن التي تنشط أنواع البعوض التي تمتص الدَّم

نهاراً ولا تنشط ليلاً نجد أنَّ الديدان تفعل العكس ، حيث تبقى في الأوعية الدموية الداخلية ليلاً ، وتهاجر إلى الأوعية الدموية نهاراً ، ليتمكن البعوض في هذه الحالة أيضاً من امتصاصها مع الدم ، فهل من الممكن أن يحدث هذا عن طرق المصادفة ؟

٣٠ـ مغناطيسية الأرض

إذا تركنا تركيب الكائنات الحية وما فيه من إعجاز تتيه فيه العقول ، وتأملنا في الكون الرحب وجدنا عجباً ، أولى هذه العجائب المغناطيسية الكامنة في الكرة الأرضيسة ، وهي التي تربطنا بالأرض ، وتمنعنا من أن نتبعثر في الفضاء في أثناء دورانها .

هذه المغناطيسية تختلف عن المغناطيسية التي نجدها في القضيب المغناطيسي. . . ، إننا نعلم أنَّ القضيب المغناطيسي قادر على جذب بعض الأشياء ، ولكنَّه يعجز عن جذب أشياء أخرى كاللحم والورق والزجاج والحجارة والرمل والماء وغيرها . . . ، ولكن مغناطيسية الأرض تجذب كلَّ شيء ، تجذب أجسامنا ، وتجذب الزجاج والرمل والماء والحجارة والورق ، إذ لو لم تجذب الأرض إليها هذه الأشياء لما بقي على سطحها شيء .

٣١ـ أحجام الأجرام السماوية وأبعادها ومداراتها

ولقد ذكر (فردهويل) أستاذ الفلك بجامعة لندن في كتابه (طبيعة الكون) أن من الكواكب ما يبلغ حجماً مذهلاً لا يكاد يتصوره العقل ، إذ تبدو الكرة الأرضية بالنسبة لأحد هذه الكواكب العملاقة كحبة الرمل.

يقول العالم الأمريكي الكبير(كريستي موريسون) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك: «إنَّ وضع الأجرام السماوية ليس مجرد مصادفة عشواء ؛ بل هي موضوعة في الفضاء بحسبان ؛ إذ إن القمر مثلاً لو كان أقرب إلى الأرض بمقدار ربع المسافة التي تفصلنا عنه لأصبح المد والجزر عنيفين حيث يغرق المد جميع أجزاء اليابسة ، فتموت غرقاً جميع حيوانات اليابسة نتيجة لذلك ، كما أن محور الأرض لو لم يكن منحرفاً بمقدار نحو ثلاث وعشرين درجة لترتب على ذلك وجود ليل دائم عند القطبين، وتكوَّن من بخار ماء المحيطات كميات هائلة من الجليد تضغط على القطبين فيتفرطح خط الاستواء، ويقل هطول الأمطار بدرجة تجعل الحياة مستحيلة على الكرة الأرضية .

وتبلغ سرعة دوران الأرض نحو ألف ميل في الساعة ، فلو فرضنا أنها تدور بسرعة مائة ميل في الساعة فقط ، لطال كل من الليل والنهار، وترتب على ذلك أن جميع النباتات والحيوانات تحترق نهاراً من شدة الحرارة، وتتجمد ليلاً من شدة البرد » .

وفي كتاب ضخم للدكتور جود أستاذ الفلسفة بجامعة لندن تناول بالدراسة ضمن ما تناوله شتى احتمالات نشأة الكون ، ونشأة الحياة من الوجهة العلمية والفلسفية ، وخلص من هذه الدراسة المستفيضة إلى أن الكون لا بد أن يكون نشأ نتيجة لعملية خلق رائعة، وصدق الله إذ يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1].

---

(١) سورة فصلت: ٥٣ .

المبحث الثاني
التعرف إلى الله من خلال النصوص
(مباحث الصفات والأسماء)

ذكرنا أن السبيل الثاني الذي يعرفنا بالله هو النصوص القرآنية والحديثية التي تتحدث عن الله حديثاً مباشراً مبينة صفاته وأسماءه وأفعاله .

وهذا السبيل سبيل نيّر مأمون العواقب ؛ لأن التعرف إلى الله من خلال كلامه وكلام رسوله لا يبقي مجالاً للشك والالتباس .

وقد حرصنا على أن نسوق النصوص ذاتها في أكثر الموضوعات ؛ فإنها أقدر على التعبير والتوضيح من نصوص البشر وكلامهم ، كما حرصت على ألا أزيف النصوص بالتأويل والتحريف كما فعل كثير من السابقين كي توافق آراء البشر ومقاييسهم ، والواجب أن يغير البشر من آرائهم ومقاييسهم كي توافق النصوص .

المطلب الأول : مدى إدراك العقل لصفات الله

صفات الله التي جاء بها القرآن وتحدثت عنها السنة النبوية قسمان :

الأول: ما لا يستطيع العقل الإنساني التعرف عليه وإدراكه بنفسه ، أي من غير طريق النصوص كإثبات اليد والوجه لله .

الثاني: ما يمكن أن يستدلّ عليه بالعقل كاتصافه بالقدرة والحكمة ، ونحن لن نستقصي ذكر صفات الله ، ولكن سنذكر جملة منها توضح المراد ، وتحرر المقصود ، وتعطي تصوراً وافياً إن شاء الله تعالى .

المطلب الثاني

جملة من الصفات التي جاءت بها النصوص

١ـ لله ذات

لله ـ سبحانه ـ ذات متصفة بصفات الكمال منزّهة عن صفات النقص، والذي يقرأ حديث القرآن عن الله يعلم علماً قاطعاً بأنّ له ذاتاً ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[1].

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾[2]، وعندما أراد الكفار قتل خبيب أنشد[3].

ولستُ أبالي حين أقتل مسلماً ... على أيِّ شقٍّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلوٍ ممزَّع

وذات الله لا تشبه ذوات المخلوقين، كما أنَّ صفاته لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فالله هو الكمال الذي لا كمال بعده، وكلُّ مخلوق لا بدَّ أن يكون فيه نقص في جانب من الجوانب، أدناها حاجته وفقره إلى غيره.

يقول تعالى نافياً المشابهة بينه وبين خلقه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[4].

٢ـ نفسه سبحانه

لله تعالى نفس تليق بكماله وجلاله ، لا تشبه نفوس المخلوقات ، وقد أخبرنا الله بذلك في محكم كتابه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥ .
(٢) سورة الإخلاص .
(٣) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١٣/ ٣٨١ .
(٤) سورة الشورى: ١١ .

﴿بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

فقد أخبر ـ سبحانه ـ أنَّ له نفساً، وأنَّه كتب على نفسه الرحمة ، ونصَّ الله على ذلك في آية أخرى ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾[2].

وقد فسرَّ الرسول ﷺ شيئاً من هذه الكتابة ، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (لمَّا قضى اللهُ الخلقَ كَتبَ كتاباً ، فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي تسبق غضبي) ، وفي رواية (تغلب غضبي)، متفق عليه[3] ، وإثبات النفس لله منهج الرسل من قبل، فهذا عيسى يقول لرب العزة: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[4] وقال الله لرسوله موسى: ﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ (٤٠) وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾[5].

وقد حذرنا الحقُّ نفسه فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[6].

والله يذكر عباده في عباده الذين يذكرونه في أنفسهم ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة أنَّ الرسول ﷺ قال: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)[7].

وذكر الله يرضي نفس ربنا تبارك وتعالى ، ففي حديث مسلم عن ابن عباس عن جويرية: أنَّ النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح ، وهي في مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى ، وهي جالسة، فقال: (ما زلت على الحال التي فارقتك عليها ؟). قالت نعم.

---

(١) سورة الأنعام: ٥٤.
(٢) سورة الأنعام: ١٢.
(٣) مشكاة المصابيح: ١/٧٢٦ ، ورقمه: ٢٣٦٤ .
(٤) سورة المائدة: ١١٦ .
(٥) سورة طه: ٤٠ ـ ٤١.
(٦) سورة آل عمران: ٣٠.
(٧) مشكاة المصابيح: ١/٦٩٣ ، ورقمه: ٢٢٦٤ .

قال النبي ﷺ: (لقد قلت بعدك أربع كلمات ، ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته)[1].

٣ـ وجه ربنا سبحانه

لله ـ سبحانه ـ وجه لا يشبه وجوه المخلوقين، نصدّق بذلك ونؤمن به؛ لأنّ الله أخبرنا بذلك في كتابه، ونصّ عليه الرسول ﷺ في أحاديثه .

قال تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[2]، يقول ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية: و﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ من نعت الوجه، فلذلك رفع (ذو)[3] .

وقد نفى بعض السابقين إثبات الوجه لله تعالى ، وزعموا أنّ الوصف بقوله: ﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ إنّما هو للرب فالمنعوت بـ ﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ عندهم الربُّ لا الوجه.

وقد ردَّ هذا الزعم الإمام ابن خزيمة، فقال : « هذه دعوى يدَّعيها جاهل بلغة العرب ، لأنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ قال: ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ فذكر الوجه مضموماً في هذا الموضع مرفوعاً ، وذكر الرب بخفض الباء بإضافة الوجه ، ولو كان قوله: ﴿ ذو الجلال والإكرام ﴾ مردوداً إلى ذكر الرب في هذا الموضع لكانت القراءة ذي الجلال والإكرام مخفوضاً. . . »[4].

ومن النصوص التي جاء فيها إثبات الوجه لله قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[5].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/٢٠٩٠ ، ورقمه: ٢٧٢٦ .
(٢) سورة الرحمن: ٢٧ .
(٣) تفسير الطبري: انظر تفسيره آية رقم: ٢٧ من سورة الرحمن .
(٤) التوحيد ، لابن خزيمة: ص: ٢١.
(٥) سورة القصص: ٨٨.

أثر الإيمان بوجه الله تعالى

أ ـ قصد وجه الله بصالح الأعمال

إذا علمنا ما قرره الله فعلينا أن نقصد وجه ربنا بأعمالنا كما أرشد الله إلى ذلك في محكم كتابه ، فالعمل الذي لا يقصد به وجهه باطل: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[1] .

ومن ذلك إنفاق المال ابتغاء وجهه: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[2] .

وقد وصف عباده الصالحين بأنهم يريدون بعملهم وجهه ، ولا شيء غير وجهه ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[3] ، ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[4] ، ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[5] .

وفي الصحيحين من حديث عتبان بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله)[6] .

---

(١) سورة القصص: ٨٨.
(٢) سورة الروم: ٣٩.
(٣) سورة الإنسان: ٩.
(٤) سورة الليل: ١٩ـ ٢٠.
(٥) سورة الكهف: ٢٨ .
(٦) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١/ ٥١٩ ، ورقمه: ٤٢٥ ، وصحيح مسلم: ١/ ٤٥٥ .

ب ـ الاستعاذة بوجهه سبحانه

وقد فعل ذلك الرسول ﷺ فقد روى جابر بن عبدالله أنَّه « لما نزلت هذه الآيـة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾[1]، قال النبي ﷺ: (أعوذ بوجهك) فقال: ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾[2]، فقال النبي ﷺ: (أعوذ بوجهـك)، قال: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾[3] فقال النبي ﷺ: (هذا أيسر)[4].

وعن علي بن أبي طالب: أن رسـول الله ﷺ كان يقـول عند مضجعـه: (اللهم إني أعـوذ بوجهك الكريم ، وبكلمـاتك التامات من شـرِّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها) . رواه أبو داود[5].

جـ ـ إجابة من سألك بوجه الله

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (من استعاذ بالله فأعِيذُوهُ ، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه)[6].

د ـ الطمع في رؤية وجه الله

عن عـمار بن ياسـر أن الرسول ﷺ كـان يدعو فـيقـول: (اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي .

اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة .

وأسألك كلمة الحق والعدل في الغضب والرِّضا .

وأسألك القصد في الفقر والغنى .

---

(١) سورة الأنعام: ٦٥ .
(٢) سورة الأنعام: ٦٥ .
(٣) سورة الأنعام: ٦٥ .
(٤) صحيح البخاري: ١٣/٣٨٨ . ورقمه: ٧٤٠٦ .
(٥) جامع الأصول: ٤/٢٧١ . ورقمه: ٢٢٦٣ ، وإسناده حسن ، كما ذكر محقق جامع الأصول.
(٦) رواه أبو داود في سننه ، انظر صحـيح سنن أبي داود: ٣/٩٦١ ، ورقمـه: ٤٢٦٠ ، وقـال الألباني فيه: حسن صحيح ، والأسماء والصفات ، للبيهقي: ١/٣٠٦.

وأسألك نعيماً لا يبيدُ .
وأسألك قرة عين لا تنقطع .
وأسألك الرضا بعد القضاء .
وأسألك برد العيش بعد الموت .
وأسألك لذة النظر إلى وجهك .
وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة .
اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين) [1] .

وقد فسر النبي ﷺ الزيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [2] بأنها النظر إلى وجه ربنا عزَّ وجلَّ، ونقل القول بذلك عن أبي بكر وحذيفة ثم قال: (الآثار في معنى هذا عن الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ كثيرة) [3] .

وروى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي ﷺ قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ، وتنجنا من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزّ وجل) ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [4][5] .

وقد جاء في الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال: (جنتان من فضة: آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب: آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن) [6] .

---

(١) رواه ابن خزيمة في التوحيد: ص:١٢ ، والنسائي في سننه: انظر صحيح سنن النسائي:١/ ٢٨٠، ورقمه: ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، وإسناده صحيح .
(٢) سورة يونس: ٢٦ .
(٣) الأسماء والصفات ، للبيهقي: ص: ٣٠٨.
(٤) سورة يونس: ٢٦ .
(٥) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦٣ ،ورقمه: ١٨٠ .
(٦) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/ ٤٢٣ ، ورقمه: ٧٤٤٤ ، ورواه أيضاً في: ٨/ ٦٢٣ ، ورقمه: ٤٨٧٨ ، بلفظ مقارب ، ورواه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦٣ ورقمه: ١٨٠ ، ورواه ابن خزيمة بلفظ: (وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى وجه ربهم) ، وقال محقق كتاب التوحيد معلقاً على الحديث: ورواه البيهقي في الأسماء والصفات ص: ٢٢٢.

حجاب وجهه تبارك وتعالى:

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعملُ النهار قبل عمل الليل ، حِجَابُهُ النور (وفي رواية أبي بكر: النار) لو كشفه لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) [1].

وهذا التردد من الراوي في لفظ النُّور والنَّار لا يضرّ ، فإن مثل هذه النَّار الصافية التي كلم الله بها موسى يقال لها: نور ونار كما سمّى الله نار المصباح نوراً ، بخلاف النَّار المظلمة كنار جهنَّم فتلك لا تسمى نوراً.

وهذه الحجب تحجب العباد عن الإدراك ، كما قد يحجب الغمام والسقوف عنهم الشمس والقمر ، فإذا زالت تجلت الشمس والقمر ، وليس المراد أنهَّا تحجب الله عن الرؤية ، فهذا لا يقوله مسلم ، فإنَّ الله لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض ، ولكن يحجب أنواره إلى مخلوقاته. كما قال: (لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) فالبصر يدرك الخلق كلهم ، وأما السبحات فهي محجوبة بحجابه النور أو النَّار .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ١٦١/١ ، ورقمه: ١٧٩ .

٤ـ لله سبحانه يدان

ولله ـ سبحانه وتعالى ـ يدان تليقان بجلاله وكماله ، لا تشبهان شيئاً من أيدي المخلوقين ، قال تعالى: ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾،[1] ، وقال مقرّعاً إبليس حين رفض السجود لآدم: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾[2] .

تمجيد الله بذكر يديه:

وردت أحاديث عديدة فيها تمجيد الرب ـ تبارك وتعالى ـ بذكر يديه، وأن الخير فيهما ، فأهل الجنة يناديهم ربهم فيقول لهم: (يا أهل الجنّة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك)[3] .

وينادي ربنا آدم عليه السلام يوم القيامة ، فيقول آدم مجيبا: (لبّيك وسعديك ، والخير كله في يديك)[4] .

وكان من دعاء الرسول ﷺ إذا قام إلى الصلاة من الليل: (لبيك وسعديك ، والخير في يديك)[5] .

وكان من تلبية ابن عمر: « لبيك وسعديك ، والخير في يديك »[6].

---

(١) سورة المائدة: ٦٤ .

(٢) سورة ص: ٧٥ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/٤٨٧ ، ورقمه: ٧٥١٨.

(٤) رواه البخاري في صحيحه: ١١/٣٨٨ ، ورقمه: ٦٥٣٠ ، وانظر أيضاً: ٦/٣٨٢ . رقم: ٣٣٤٨. ورواه مسلم: ١/٢٠١ . ورقمه: ٢٠١ .

(٥) رواه مسلم: ١/٥٣٤ ، ورقمه: ٧٧١.

(٦) رواه مسلم: ٢/٨٤١ ، ورقمه: ١١٨٤ .

بسط الربِّ يديه:

وهو - سبحانه - كريم يبسط يديه بالعطاء والإنفاق ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [1].

كما أنَّه يبسط يديه بالليل والنهار ليتوب العباد، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إن الله يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها) [2].

الأشياء التي خلقها الرحمن بيده:

لا يعجز الله شيء، فإذا أراد شيئاً خلقه بكلمة (كن)، فيكون كما أراد، إلا أنَّه خلق بيده أشياء مما يدلُّ على تكريمها، ورفع منزلتها، وعناية الله بها، والمخلوقات التي خلقها الله بيده، وذكرها لنا في كتابه أو وردت في سنة رسوله هي:

أ- آدم:

وفي ذلك يقول تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [3]

وفي حديث الشفاعة الطويل: (فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسكنك جنته) متفق عليه [4].

وفي حديث احتجاج آدم وموسى، قال موسى لآدم: (أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من رُوحه) [5].

فأخبر الحقُّ - تبارك وتعالى - أنه خلق آدم بيده، وأخبر الرسول ﷺ أنَّ الناس يستشفعون إلى آدم، ويذكرون أعظم ما فضله الله به، وهو خلق الله

---

(1) سورة المائدة: ٦٤ .
(2) صحيح مسلم: ٤/٢١١٣، ورقمه: ٢٧٦.
(3) سورة ص: ٧٥ .
(4) مشكاة المصابيح: ٣/٦٩ ، ورقمه: ٥٥٧٢ .
(5) رواه مسلم: ٤/٢٠٤٣ ، ورقمه: ٢٦٥٢ .

له بيده ، وكذلك موسى عليه السلام ذكر ما فَضَّلَ اللهُ به آدم ، وهو خلقه بيده ، وذكر هذه الخصوصية تدل على أمر امتاز به آدم عن غيره ، وإلا فلو كانت اليد هنا القدرة فأي فضل لآدم على غيره ، حتى يمتدح بذلك.

ب ـ كتب التوراة بيده:

ورد في بعض روايات حديث المحاجَّة بين آدم وموسى ، أن آدم قال لموسى: (أنت موسى اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك التوراة بيده)[1]. وفي رواية في الصحيحين: (اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده)[2].

جـ ـ كتب بيده كتاباً موضوعاً عنده:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده: غلبت ـ أو قال: سبقت ـ رحمتي غضبي ، فهو عنده فوق العرش).

وفي رواية: (إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق: أن رحمتي سبقت غضبي ، فهو مكتوب عنده فوق العرش)[3] .

ورواه ابن ماجة عن أبي هريرة بلفظ: (كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق : رحمتي سبقت غضبي)[4] .

ورد إثبات كتابة الرحمن الكتاب بيده في كتاب السنة لابن أبي عاصم، ولفظه: (لما قضى الله تعالى الخلق كتب بيده في كتاب عنده: غلبت أو قال سبقت رحمتي غضبي ، فهو عنده فوق العرش) أو كما قال[5] .

---

(١) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨٩١ ، ورقم الحديث: ٣٩٣٤ ، وصحيح سنن ابن ماجة: ١/ ٢٠ ، ورقمه: ٦٥ .

(٢) صحيح البخاري: ١١ ، ورقمه ٦٦١٤، وصحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤٢ ، ورقمه: ٢٦٥٢.

(٣) صحيح البخاري: ١٣/ ٥٢٢ ، ورقمه: ٧٥٥٤ . والحديث في صحيح مسلم: ٤/ ٢١٠٧ ، ورقمه: ٢٧٥١ .

(٤) ابن ماجة . انظر صحيح سنن ابن ماجة : ١/ ٣٧ ، ورقمه:١/ ٣٧، ورقمه: ١٥٦ .

(٥) كتاب السنة ، لابن أبي عاصم: ١/ ٢٧٠ . ورقمه: ٦٠٨ .

د - غرس جنة عدن بيده:

ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (سأل موسى ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجيء بعدما أُدْخل أهل الجنة الجنة، فيُقال له: ادخل الجنة ، فيقول: أي رب ، وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من مُلوك الدنيا ؟ فيقول: رضيتُ ربِّ، فيقول: لك ذلك ، ومِثلهُ ومِثلهُ ومِثلهُ ، فقال في الخامسة: رضيت ربِّ ، فيقولُ: هذا لك ، وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك فيقول: رضيت ربِّ .

قال: ربِّ فأعلاهُم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، قال: ومصداقه في كتاب الله - عزَّ وجلَّ - ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [1][2] . فقد أخبر: أنه غرس جنتهم بيده سبحانه.

عظم يدي الرب سبحانه وتعالى:

جاء في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [3].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (يقبض الله - تبارك وتعالى - الأرض يوم القيامة ، ويَطوي السّماء بيمينِهِ ، ثُمَّ يقُول: أنا الملك ، أين مُلوك الأرض) [4] .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: (يطوي اللهُ - عزَّ وجلَّ - السَموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول: أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين

(١) سورة السجدة: ١٧.
(٢) صحيح مسلم: ١/١٧٦ ، ورقمه: ١٨٩ .
(٣) سورة الزمر: ٦٧ .
(٤) رواه البخاري: ٨/٥٥١ ، ورقمه: ٤٨١٢ ، ورواه مسلم: ٤/٢١٤٨ ، ورقمه: ٢٧٨٧ .

المُتكبرون؟ ثمَّ يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقولُ: أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟) .

وفي لفظ قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: (يأخُذُ الجبار ـ عزَّ وجلَّ ـ سمواته وأرضيه بيديه ، فيقول: أنا الله (ويقبض أصابعه ويبسطها) أنا الملك) ، « حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفلِ شيء منه، حتى إنّي لأقول: أساقطٌ هو برسول الله ﷺ »[1].

كلتا يديه ـ سبحانه ـ يمين:

ورد في رواية في صحيح مسلم: (ثم يطوي الأرضين بشماله) وقد ضعف هذه الرواية البيهقي من ناحية الإسناد فقال: « ذكر الشمال فيه ، تفرد به عمر بن حمزة عن سالم ، وقد روى هذا الحديث نافع وعبيدالله بن مقسم عن ابن عمر ، لم يذكرا فيه الشمال »[2].

وضعفها من ناحية المتن فقال: « وكيف يصحُّ ذلك وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنّهُ سمَّى كلتا يديه يَميناً »[3].

وعن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نُور على يمين الرحمن ـ عزَّ وجلَّ ـ وكلتا يديه يمينٌ ، الذين يعدِلون في حكمهم وأهليهم وما وُلوا)[4].

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢١٤٨ ، ورقمه: ٢٧٨٨ .
(٢) الأسماء والصفات ، للبيهقي: ١/ ٣٢٤.
(٣) المصدر السابق .
(٤) رواه مسلم في صحيحه: ٣/١٤٥٨ ، ورقمه: ١٨٢٧ .

٥ـ أصابع الرحمن

ولله ـ سبحانه ـ أصابع لا تشبه شيئاً من أصابع المخلوقين ، وهي تليق بكماله وجلاله سبحانه وتعالى ، ففي صحيحي البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه: « أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد ، إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ »[1].

وفي لفظ « فضحك رسول الله ﷺ تعجبا وتصديقا »[2].

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع النبي ﷺ قال: (إن قُلوب بني آدم كُلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرِّفه كيف يشاء) ، ثم قال عليه الصلاة والسلام: (اللهم مُصرف القلوب صرف قُلوبنا إلى طاعتِكَ)[3].

---

(١) سورة الزمر: ٦٧ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/٣٩٣، ورقمه: ٧٤١٤ . ورواه مسلم: ٤/٢١٤٧ . ورقمه: ٢٧٨٦ .

(٣) صحيح مسلم: ٤/٢٠٤٥ ، ورقمه: ٢٦٥٥ .

٦ـ ما ذكر في القدم

عنون البيهقي بالعنوان السابق في كتابه (الأسماء والصفات: ٣٤٨) وذكر فيه عدة أحاديث:

١ـ منها الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: (لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد حتى يضع فيها ربُّ العزّة قدمه ، فتقول قط قط وعزتك، ويُزْوَى بعضها إلى بعض) وفي بعض الروايات: (ولا يزال في الجنة فضلٌ حتى يُنْشئ الله لها خلقاً ، فيسكنهم فضل الجنة)[1].

٢ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (تحاجّت الجنة والنار ، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمُتجبرين ، وقالت الجنةُ: فما لي لا يدخُلني إلا ضُعفاء النَّاس وَسقَطهُمُ وَغرُّهُمْ ، قال اللهُ للجنّة: أنت رحْمتي لرحم بكِ من أشاء من عبادي ، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ،ولكُلّ واحدةٍ منكما ملؤُها، فأمَّا النَّار فلا تمتلئ حتى يضع الله ـ تبارك وتعالى ـ رجله ، فتقول قط قط قط ، فهنالك تمتلىء ويُزْوَى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأمَّا الجنةُ فإنَّ الله يُنشئ لها خَلقاً)[2].

٣ـ وعن ابن عباس أنّه قال في الكرسي : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[3]: (موضع القدمين)[4].

---

(١) صحيح البخاري: ٨/ ٥٩٤، ورقمه: ٤٨٤٨، ٤٨٤٩ ، ورواه مسلم: ٤/٢١٨٧، ٢١٨٨ ، ورقمه: ٢٨٤٨ . واللفظ لمسلم.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ٥٩٥ ، ورقمه: ٤٨٥٠ ، ورواه مسلم: ٤/ ٢١٨٦ ، ورقمه: ٢٨٤٦ ، واللفظ لمسلم.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٤) انظر مختصر العلو ، للذهبي ص: ١٠٢ ، وقال فيه محققه الشيخ ناصر الدين الألباني: صحيح موقوف ، وعزاه إلى ابن خزيمة ، في التوحيد: ٧١ـ٧٢ ، والدارمي في الرد على المريسي: ٧١، ٧٣ ـ ٧٤ ، وابن أبي شيبة ، في العرش: ٢/ ١١٤.

٧ـ لله سبحانه ساق

يجب علينا أن نصدق بذلك ولا نكذّبه ، لأنَّه ـ سبحانه ـ قد أخبرنا بذلك ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[1]

وقد ورد في الصحيحين ما يفسر هذه الآية ويوضحها ، فعن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رئاء وسمعة ، فيذهب ليسجد ، فيعود ظهرُهُ طبقاً واحداً)[2].

وينبغي أن ننبه هنا إلى أن إثبات الساق لله كإثبات اليد والسمع والبصر وغيرها من الصفات ، وما ورد عن ابن عباس أنه فسر كشف الساق بمعنى شدة الأمر معارض بما ثبت عن ابن مسعود أن ربنا يكشف عن ساقه[3] .

وما أحسن ما قاله الشوكاني حيث قال : « قد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً ، فليس كمثله شيء »[4].

وقد أورد ابن جرير الطبري وابن كثير تفسير ابن عباس كما أوردا روايات الحديث المفسر للنص القرآني ، ولم يؤولا الحديث بحمله على غير ظاهره مما يدل على أنه لا تعارض عندهما بين الحديث وكلام ابن عباس ، فإن الأمر شديد في يوم القيامة ، ولا ينافي هذا أن يكشف عن ساقه .

---

(١) سورة القلم : ٤٢ .
(٢) رواه البخاري في صحيحه : ٨/ ٦٦٤ ، ورقمه : ٤٤١٩ ، ورواه مسلم : ١/ ١٦٧ ، ورقمه : ١٨٣ ، واللفظ للبخاري .
(٣) فتح القدير للشوكاني : ٥/ ٣١٩ .
(٤) المصدر السابق : ٥/ ٣٢٠ .

٨ـ استواؤه على العرش

العرش أعظم المخلوقات كلها ، وقد نصَّ الله في سبعة مواضع من كتابه على استوائه على العرش بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[1] .

والدليل على أن العرش مخلوق من مخلوقات الله :﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾﴾[2] أي في يوم القيامة ، وقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[3] فقد أخبر أن للعرش حملة وأنهم يستغفرون للمؤمنين ، وهذا ينفي قول من يقول أن العرش هو الملك .

وفي الحديث الذي يرويه البخاري: (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنَّه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تُفجّرُ أنهارُ الجنة)[4] .

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تخيِّروني على موسى ، فإنَّ الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانبي العرش ، فلا أدري أكان موسى فيمن صعق ، فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله)[5] .

وفي رواية في الصحيح عن أبي سعيد الخدري: (فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش)[6] .

فكيف لا يكون العرش خلقا من خلق الله وهو سقف الفردوس ، وكيف يمكن لموسى أن يمسك بقائمة من قوائمه لو كان غير مخلوق !!

وقد أخبر الرسول ﷺ: (أن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتى سبقت غضبي)[7] .

---

(١) سورة طه: ٥ .
(٢) سورة الحاقة: ١٧.
(٣) سورة غافر: ٧.
(٤) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٤ ، ورقمه: ٧٤٢٣ .
(٥) صحيح البخاري: ١١/ ٣٦٧ ، ورقمه: ٦٥١٧ ، ٦٥١٨ ، والحديث في مسلم أيضا: ٤/ ١٨٣٤، ورقمه: ٢٣٧٣ .
(٦) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٥ ، ورقمه: ٧٤٢٧ .
(٧) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٤ ، ورقمه: ٧٤٢٢ .

عظم العرش:

وصف الله العرش بأنه عظيم ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

وقد بين الرسول ﷺ عظمة العرش بوجهين من البيان:

الأول: بإخباره عن عظم الملائكة الذين يحملون العرش ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح إلى الرسول ﷺ: (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله ، من حملة العرش: ما بين شحمة أذنِهِ إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)[2].

والوجه الثاني: بين الرسول عِظمَهُ بأن صوَّر سعة العرش بالنسبة للسموات والأرض ، وصغرهما بالنسبة إليه ، قال ﷺ: (ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي ، كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة)[3].

تمجيد الله نفسه باستوائه على العرش وأنه ربُّ العرش:

وقد امتدح الربُّ نفسه بأنَّه مستو على عرشه، كقوله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[4].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5]، وامتدح نفسه في أكثر من آية بأنه صاحب العرش ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[6] ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ

---

(١) سورة المؤمنون: ٨٦ .

(٢) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨٩٥ ، ورقمه: ٣٩٥٣ .

(٣) أخرجه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن جرير وغيرهم ، وهو صحيح بمجموع طرقه ، انظر كلام الشيخ الألباني على إسناده في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث رقم: ١٠٩ .

(٤) سورة طه: ١-٥ .

(٥) سورة الحديد: ٤.

(٦) سورة البروج: ١٥- ١٦ .

﴿سَبِيلًا﴾[1].

وامتدح نفسه بأنه رب العرش ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[2]، ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3]، ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[4].

ومن شعر عبدالله بن رواحة يمجد ربّه سبحانه وتعالى:

شهدت بأن وعد الله حق وأنَّ النَّار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش ربُّ العالمينا

وتحمله ملائكة كرام ملائكة الإله مسوّمينا

روى هذا الشعر ابن عبد البر في الاستيعاب وقال: رويناه من وجوه صحاح .

معنى استوائه على العرش:

نحن نجهل كيفية استوائه سبحانه ، لأننا نجهل كيفية ذاته ، ولكنّنا نعرف معنى استوى في لغة العرب ، فالعرب عندما يعدون استوى بعلى يقصدون بهذه الكلمة معاني أربعة: استقر ، وعلا ، وارتفع ، وصعد، كما حقق ذلك ابن القيم[5].

وقد نقل أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة أنهم فسروا (استوى على العرش) بمعنى استولى عليه[6] ، فالذي يؤول الاستواء هذا التأويل سلفه في هذا المعتزلة وبئس السلف هم .

أما أهل السنة وأصحاب الحديث فإنهم يثبتون استواءه على العرش ، ولا

---

(١) سورة الإسراء: ٤٢.
(٢) سورة التوبة: ١٢٩ .
(٣) سورة الأنبياء: ٢٢.
(٤) سورة المؤمنون: ٨٦ .
(٥) انظر شرح الواسطية للهراس: ص٨٠.
(٦) مقالات الإسلاميين: ص ١٥٧ ، ٢١١ .

ينفونه ، ولا يكيفونه كما نقل ذلك عنهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله[1] .

وقد نقل لنا أهل اللغة أن العلماء بالعربية الذين لم تتدنس فطرهم بقاذورات الفلسفات الوافدة أبوا أن يفسروا استوى باستولى .

قال داود بن علي الأصبهاني: كنت عند ابن الأعرابي ، فأتاه رجل فقال: ما معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ فقال ابن الأعرابي: هو على عرشه كما أخبر ، فقال: يا أبا عبدالله : إنما معناه استولى فقال ابن الأعرابي: فما يدريك ؟ العرب لا تقول استولى على الشيء حتى يكون له مضاد ، فأيهما غلب فقد استولى عليه ، أما سمعت قول النابغة:

إلا لمثلك أو من أنت سابقه   سبق الجواد إذا استولى على الأمد[2]

وهذا النهج ، وهو معرفة معنى الاستواء وجهل الكيفية والنهي عن البحث فيها هو منهج السلف الصالح، فعندما سئل الإمام مالك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[3] كيف استوى؟

أطرق مالك ، وأخذته الرحضاء ، ثم رفع رأسه فقال: « الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال: كيف ؟ وكيف عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة ، أخرجوه »[4] .

وفي رواية عن مالك أنه قال: « الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »[5] .

وقوله « غير مجهول » أي معلوم ، والمعلوم منه معناه ، فإن له في لغة العرب معنى تفقهه العرب ، وتعيه ، ويمكن للعالم أن يفسره ، ويترجمه ، ولذا فإن كثيرا من الذين حكوا عن الإمام مالك مقالته السابقة ينقلونها عنه

---

(١) مقالات الإسلاميين : ص٢١١ ، ٢٩٠ .

(٢) لسان العرب: ٢/٢٤٩ .

(٣) سورة طه: ٥ .

(٤) رواه البيهقي وصححه الذهبي: انظر مختصر العلو للعلي الغفار ، للذهبي: ص ١٤١ حديث رقم: ١٣١ .

(٥) انظر مختصر العلو: ص ١٤١ ، وحديث رقم: ١٣٢ .

بالمعنى ، فيذكرون أنه قال في الرد على الرجل: «الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة [1]، ولا فرق في الحقيقة بين القول إن الاستواء معلوم ، أو أنه غير مجهول ، فمعناهما واحد » .

يقول القرطبي رحمه الله تعالى :« كان السلف الأول - رضي الله عنهم - لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك ، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله .

ولم ينكر أحد أنه استوى على عرشه حقيقة ، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته.

قال مالك: الاستواء معلوم - يعني في اللغة - والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها . وهذا قدر كاف » [2]

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/٢١٩ .
(٢) تفسير القرطبي: ٢/٢١٩ .

٩- أين الله ؟

أخبرنا - سبحانه - أنَّه في السماء، مستو على عرشه ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [(١)].

وقد أخبر الرسول ﷺ عن ربّه أنّه في السماء ، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: (ألا تامنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباح مساء) [(٢)].

وشهد للجارية بالإيمان عندما أخبرته أن الله في السماء ، ففي صحيح مسلم وسنن أبي داود: أنَّ معاوية بن الحكم السلمي ضرب جارية له لتقصيرها في الحفاظ على أغنامه، ثم ندم فجاء إلى الرسول ﷺ نادماً يستأذنه في إعتاقها ، فطلبها الرسول ﷺ وسألها (أين الله) ؟ قالت: في السماء. قال: (من أنا) قالت: أنت رسول الله ، قال: (اعتقها فإنها مؤمنة) [(٣)].

وقد أرشد الرسول ﷺ المريض أن يدعو لنفسه أو يدعو له أخوه بهذا الدعاء - وفيه النص على أنه تعالى في السماء - (ربنا الله الذي في السماء تقدّس اسمك ، أمرُك في السماء والأرض ، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض ، اغفر لنا حوبنا وخطايانا ، أنت رب الطيبينَ ، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ) [(٤)].

وفي حديث عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[(٥)].

---

(١) سورة الملك: ١٦-١٧.

(٢) صحيح البخاري: ٨/٦٦ ، ورقمه: ٤٣٥١ ، وصحيح مسلم: ٢/٧٤٢، ورقمه: ١٠٦٤ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ١/٣٨٢ ، ورقم الحديث: ٥٣٧ ، ورواه أبو داود في سننه ، انظر صحيح سنن أبي داود: ١/١٧٥ ، ورقمه: ٨٢٣، وانظر: ٣/٦٣٢ ، ورقمه: ٢٨٠٩.

(٤) سنن أبي داود: ٤/١٦ . ورقمه: ٣٨٩٢ .

(٥) رواه الترمذي ، انظر صحيح سنن الترمذي: ٢/١٨٠ ،ورقمه: ١٥٦٩ ، وقال الترمذي فيه: حديث حسن صحيح .

معنى كونه في السماء:

وليس المراد بأنه في السماء أنَّ جرم السماء تحويه - سبحانه وتعالى عن ذلك - بل المراد بالسماء العلو والفوقية، فقد وصف نفسه - سبحانه - بأنّه الأعلى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[1]، وبأنه العلي العظيم: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

وأخبر تعالى أنَّه فوق عباده: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[3]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[4]وفي تمجيد الرسول ﷺ لربّه في دعائه يقول: (وأنت فليس فوقك شيء)[5].

وكانت زينب تفخر على زوجات الرسول ﷺ وتقول: (زوجكن أهاليكن وزوّجني الله من فوق سبع سموات)[6].

ولا يمكن لمسلم يفقه عقيدته حق الفقه أن يظن أنَّ الله في السماء بمعنى أنَّ السماء تحويه، وأنّه في جرم السماء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، كيف والسموات ليس بشيء بالنسبة إليه سبحانه ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[7]، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[8].

---

(١) سورة الأعلى: ١.
(٢) سورة البقرة: ٢٥٥.
(٣) سورة النحل: ٥٠.
(٤) سورة الأنعام: ١٨ .
(٥) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٨٤، ورقمه: ٢٧١٣ .
(٦) صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٩٢، ورقمه: ٢٥٦٦.
(٧) سورة الزمر: ٦٧.
(٨) سورة الأنبياء: ١٠٤.

كثرة الأدلة:

والأدلة من الكتاب والسنة على أنّه تعالى في السماء فوق عباده ظاهر عليهم كثيرة جداً، ويحتاج استقصاؤها إلى صفحات طويلة، ويمكن أن نصنفها على النحو التالي:

١ـ الأدلة الدالة نصاً على أنّه في السماء، وقد ذكرناها.

٢ـ الأدلة الدالة على أنّه مستو على العرش، وقد سبقت.

٣ـ الأدلة الدالة على علوه، وأنه فوق عباده، وقد ذكرنا طرفاً منها.

٤ـ النصوص الدالة على أن بعض مخلوقاته عنده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾[1].

وقال في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

وهي نصوص كثيرة.

٥- النصوص المخبرة برفع بعض الأشياء أو عروجها وصعودها إليه، كالآيات المصرحة برفع عيسى بن مريم ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾[3] والمخبرة بصعود الأعمال إليه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[4]، والنصوص المخبرة بصعود أرواح المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾[5].

فدل النصُّ على أنَّ المؤمنين تفتح لهم، وقد جاءت الأحاديث مفسرة ذلك وموضحة له.

ومن ذلك عروج الملائكة إليه ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠٦.
(٢) سورة آل عمران: ١٦٩.
(٣) سورة النساء: ١٥٨.
(٤) سورة فاطر: ١٠.
(٥) سورة الأعراف: ٤٠.
(٦) سورة المعارج: ٤.

٦- ومنها إخباره بإنزال الملائكة ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾[١] ، وإخباره بإنزال الكتب ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾[٢] .

٧- ومنها رفع الأيدي والأبصار إليه ، وقد وردت أحاديث كثيرة ذكر فيها رفع الرسول ﷺ يديه في الدعاء ، وكلٌّ منْ حزَبه أمرٌ فإنه يرفع يديه إلى العلو يدعو الله .

وكذلك رفع البصر ، فإنه ثبت في الدعاء بعد الوضوء .

٨ ـ ومن ذلك إشارته ﷺ بأصبعه إلى العلو كما في حديث حجة الوداع عندما قالوا: نشهد إنَّك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: (اللهم اشهد، اللهم اشهد) [٣] .

وإن أحببت المزيد من ذكر الأدلة وأقوال سلف الأمة فراجع ما جمعه أهل العلم في مدوناتهم في هذا الموضوع .

علوه ـ سبحانه ـ لا ينافي قربه:

فهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويعلم سرَّه ونجواه ، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته ، ويعلم ما توسوس به النفوس ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزلُ من السماء ، وما يعرج فيها، وهو مع خلقه بعلمه وقدرته ، لا تخفى عليه منهم خافية ، وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، فهو ـ سبحانه ـ القريب في علوِّه ، العلي في دنوِّه ، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

---

(١) سورة النحل: ٢.
(٢) سورة الأنعام: ٩٢.
(٣) رواه أبو داود: ١/٣٥٨ ،ورقمه: ١٩٠٥ ، وأصل الحديث في الصحيحين ، ولكني لم أجد فيهما رفع الرسول ﷺ اصبعه إلى السماء ونكتها إليهم .
نعم في صحيح البخاري أنه رفع رأسه فقال: (اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت) . انظر صحيح البخاري: ٣/ ٥٧٣ ، ورقمه: ١٧٣٩ .

١٠ـ ضحك ربنا سبحانه

وهو ـ سبحانه ـ يضحك متى شاء ، كيف شاء ، نؤمن بذلك ونصدِّقه ، ولا ندري كيفيته ، ولسنا مطالبين بأن ندري .

وقد ثبت في ذلك أخبار صحاح منها:

١ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: (يضحك الله إلى رجُلين يقتل أحدهما الآخر ، يدخلان الجنة ، يُقاتل هذا في سبيل الله فيُقتَلُ ، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد) [(١)].

٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه ، فلم يجد عندهن شيئا .

فقال رسول الله ﷺ: (ألا رجل يضيفه الليلة يرحمه الله) .

فقام رجل من الأنصار ، فقال: أنا يا رسول الله .

فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله لا تدخريه شيئا.

فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية .

قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالي ، فأطفئي السراج ، ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت .

ثمَّ غدا على رسول الله ﷺ فقال: (لقد عجب ـ عزَّ وجلَّ ـ أو ضحك من فلان وفلانة)، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[(٢)(٣)].

٣ـ وفي صحيح البخاري من حديث طويل عن أبي هريرة يرفعه:(ثمَّ يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: ٦/ ٣٩ . ورقمه: ٢٨٢٦ ، ورواه مسلم: ٣/ ١٥٠٤ . ورقمه: ١٨٩٠ ، واللفظ للبخاري .

(٢) سورة الحشر: ٩ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ٦٣١ ، ورقمه: ٤٨٨٩ . ورواه مسلم: ٣/ ١٦٢٥ . ورقمه: ٢٠٥٤ واللفظ للبخاري.

هو آخر أهل النار دخولاً الجنة ، فيقول: أي ربِّ اصرف وجهي عن النار ، فإنَّهُ قد قَشَبَنِي ريحها ، وأحرقني ذكاؤها ، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه .

ثم يقول الله: هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألني غيره ؟ فيقول: لا وعزتك ، لا أسألك غيره ، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف الله وجهه عن النار .

فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول: أي ربِّ قدِّمني إلى باب الجنة ، فيقول الله له: ألسْتَ قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيت أبداً ، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك . فيقول: أي ربِّ ويدعُو الله حتى يقول: هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره ؟ فيقول: لا وعزَّتك لا أسألك غيره ؟ ويُعْطِي ما شاءَ مِنْ عُهودٍ ومواثيق .

فيُقَدِّمه إلى بَاب الجَنَّةِ ، فإذا قَامَ إلى باب الجنة انْفَهَقَتْ لهُ الجنة ، فرأى ما فيها من الحَبْرَةِ والسرور ، فَيَسْكتُ ما شاء الله أن يسكت ، ثمَّ يقول: أي ربِّ أدْخِلني الجنة ، فيقول الله: ألست قد أعطيت عُهُودَكَ ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطِيت . فيقول: ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ، فيقول: أي ربِّ لا أكون أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه ، فإذا ضحك الله منه ، قال: ادخل الجنة) [1].

وفي رواية عند مسلم في حديث عبدالله بن مسعود: أنَّ الله يقول لهذا الرجل: (أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول يا رَبِّ: أتستهزئُ مني وأنت ربُّ العالمين ؟) وضحك رسول الله ﷺ ، فقالوا: مم تضحك يا رسول الله ؟ قال: (من ضحِكِ رَبِّ العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت ربُّ العالمين ؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك ، ولكني على ما أشاء قادر) [2].

---

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤٢٠ ، ورقمه: ٧٤٣٧ .
(٢) رواه مسلم: ١/ ١٧٥ . ورقمه: ١٨٧ .

١١ ، ١٢ـ نزوله ـ سبحانه ـ ومجيئه

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كل ليلة إلى سماء الدُّنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له) [١].

وقد نصَّ القرآن على أنَّ الله يأتي يوم القيامة لفصل القضا﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾[٢] ، ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[٣].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: (يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة ، شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزلُ الله في ظُلَلٍ من الغمامِ من العرش إلى الكُرسي) [٤].

١٣ـ كلام الله

والله ـ سبحانه ـ يتكلم متى شاء كيف يشاء ، لا يشبه كلامه كلام المخلوقين، وقد كلم الله بعض خلقه وكلموه، منهم نبي الله موسى ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[٥] ، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾[٦].

وقد ذكر لنا الله ما دار بينه وبين موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ

---

(١) رواه البخاري: ٣/٢٩ . ورقمه: ١١٤٥ . ورواه مسلم: ١/٥٢١. ورقمه: ٧٥٨ ، واللفظ للبخاري .
(٢) سورة البقرة: ٢١٠ .
(٣) سورة الفجر: ٢١ـ٢٢.
(٤) رواه ابن منده ، وقال الذهبي: إسناده حسن ، وصححه جمع من حفاظ الحديث ونقاده كالحاكم والمنذري والهيثمي .
(٥) سورة النساء: ١٦٤ .
(٦) سورة الأعراف: ١٤٣.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

وكلم الله آدم وحواء ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٞ﴾[2].

ويكلم الله جبريل ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل: إنَّ الله أحبَّ فلاناً فأحببه ، فيُحبهُ جبريل ، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إنَّ الله قد أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض)[3].

وتسمع الملائكة ربهم حين يتكلم ، ففي الصحيح عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ ، قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله ، كأنّه سلسلة على صفوان ، فإذا فزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم ، قالوا: الحقَّ ، وهو العلي الكبير)[4].

وهذا الحديث أورده البخاري تفسيرا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[5].

فقد جعل البخاري هذه الآية بابا، ثم قال: « ولم يقل ماذا خلق ربكم»، وأورد في هذا الباب ما رواه مسروق عن ابن مسعود معلقاً موقوفاً عليه: « إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئا ، فإذا فزع عن قلوبهم ، وسكن الصوت ، عرفوا أنه الحق ، ونادوا: ماذا قال ربكم » .

وأورد حديثاً معلقا يرويه جابر عن عبدالله بن أنيس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يحشر الله العباد فيناديهم بصوت ، يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان)[6].

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٢) سورة الأعراف: ٢٢.
(٣) رواه البخاري: ١٣/٤٦١ ، ورقمه: ٧٤٨٥. ورواه مسلم: ٤/٢٠٣٠ . ورقمه: ٢٦٣٧ ، واللفظ للبخاري.
(٤) رواه البخاري: ١٣/٤٥٣، ورقمه: ٧٤٨١ .
(٥) سورة سبأ: ٢٣ .
(٦) صحيح البخاري: ١٣/٤٥٢ .

وقال البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) معلقاً على هذا الحديث : « في هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق ؛ لأن صوت الله جلَّ ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب، وأن الملائكة يصعقون من صوته»[1] .

ويتكلم الله ـ سبحانه ـ بصوت لا يشبه شيئاً من أصوات الخلق كما في الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله يا آدمُ ، فيقول: لبيك وسعديك. فيُنَادِي بصوت: إنّ الله يأمرك أن تخرج من أمتك بعثاً إلى النار)[2] .

وفي يوم القيامة يكلم الملائكة ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[3] .

ويخاطب الكفرة المكذبين مقرّعاً ومبكتاً ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[4] .

ويسلم على أهل الجنة ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[5] .

ويكلمهم ، فعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة ، فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك ، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون: يا رب ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحل عليكمُ رضواني ، فلا أسخطُ عليكم بعدهُ أبداً)[6] .

---

(١) خلق أفعال العباد : ص١٤٩ .
(٢) رواه البخاري: ١٣/٤٥٣ ، ورقمه: ٧٤٨٣ ، وانظر: ٨/٤٤١. رقم: ٤٧٤١، ورواه مسلم: ١/٢٠١ ، ورقمه: ٢٢٢. واللفظ للبخاري .
(٣) سورة سبأ: ٤٠ ـ ٤١ .
(٤) سورة النمل: ٨٣ ـ ٨٤ .
(٥) سورة يس: ٥٨ .
(٦) رواه البخاري: ١٣/٤٨٧ ، ورقمه: ٧٥١٨ ، ورواه مسلم: ٤/٢١٧٦ ، ورقمه: ٢٨٢٩ ، واللفظ للبخاري.

كلام الله لا يحصى ولا يستقصى:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1].

القرآن كلام الله حقيقة:

والقرآن كلام الله حقيقة لا شك في ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[4].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية[5]: «يقول الله تعالى مخبراً عن عظمته، وكبريائه، وجلاله، وأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[6] فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾[7] أي ولو أنَّ جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداداً، وأمدَّه سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله تعالى الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسَّرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً».

وقال الحسن البصري: «لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مداداً، وقال الله تعالى: كان من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ماء البحر، وتكسَّرت الأقلام» وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[8].

---

(١) سورة الكهف: ١٠٩ .
(٢) سورة التوبة: ٦.
(٣) سورة الفتح: ١٥.
(٤) سورة لقمان: ٢٧.
(٥) تفسير ابن كثير: ٥/ ٣٩٤.
(٦) رواه مسلم: ١/ ٣٥٣، ورقمه: ٤٨٦ .
(٧) سورة لقمان: ٢٧ .
(٨) سورة الإسراء: ٨٥.

١٤ـ محبة الله

جاء في الكتاب والسنة أنَّ الله تعالى يحب أفعالاً معينة ، كما يحب كلاماً معيناً ، ويحبُّ بعض خلقه الذين اتصفوا بصفات خاصة بيَّنها .

وما أخبرنا بذلك إلا لكي نبادر إلى الاتصاف بما يحبُّه من الأخلاق ، والقيام بالأعمال التي يحبها ، والإكثار من ذكر الكلام الذي يحبه ، وبذلك يحبنا سبحانه وتعالى .

والله تعالى يحبُّ المتقين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [١] ، ويحب المحسنين: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٢] ، ويحبّ التوابين والمتطهرين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [٣]، ويحب الصابرين: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [٤]، ويحب العادلين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [٥]، ويحب المتوكلين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [٦]، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [٧].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) [٨] .

وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: (أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله ، والحمدلله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرُّك بأيهن بدأت) [٩] .

وقال ﷺ لأشج عبدالقيس: (إنَّ فيك خصلتين يُحبهما الله ، الحلمُ، والأناةُ) [١٠] .

---

(١) سورة التوبة: ٤.
(٢) سورة آل عمران: ١٣٤.
(٣) سورة البقرة: ٢٢٢.
(٤) سورة آل عمران: ١٤٦ .
(٥) سورة المائدة: ٤٢.
(٦) سورة آل عمران: ١٥٩.
(٧) سورة الصف: ٤.
(٨) رواه البخاري: ٢٠٦/١١ ، ورقمه: ١٤٠٦ ، ورواه مسلم: ٢٠٧٢/٤ . ورقمه: ٢٦٩٤.
(٩) رواه مسلم: ١٦٨٥/٣ . ورقمه: ٢١٣٧ .
(١٠) رواه مسلم في صحيحه: ٤٨/١. ورقمه: ١٧.

وعن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: (من أحبَّ لِقاء الله أحبَّ الله لقاءهُ ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءهُ) [1].

وجماع الأعمال والأخلاق والأقوال التي يحبها الله هو ما جاء به الرسول ﷺ ، وما اتصف به عليه السلام ، ولذا فقد بيَّن الله في آية جامعة أن السبيل إلى محبته هو اتباع الرسول ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [2].

١٥ـ ١٦ ـ كراهة الله وبغضه

هناك أعمال لا يحبها الله ، بل يكرهها ويبغضها ، وكراهيته وبغضه ـ سبحانه ـ حق على وجه يليق بذاته الكريمة، من هذه الأعمال الفساد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ، ولذا فإنَّه ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [4].

وجاء في النصوص أنَّه لا يحب: الكافرين ، والظالمين ، والمسرفين ، والمستكبرين، والمعتدين، والخائنين، والفرحين . ولا يحب كل مختال فخور، وكفَّار أثيم، وخوّان أثيم. وفي القرآن ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [5].

وسبق ذكر الحديث الذي فيه: (ومن كره لِقاء الله كَره الله لقاءهُ) [6].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: (أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ) [7]، وعن البراء بن عازب أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول في الأنصار: (من أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله) [8].

---

(١) ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٦٥ ، ورقمه: ٢٦٨٤.
(٢) سورة آل عمران: ٣١ .
(٣) سورة البقرة: ٢٠٥.
(٤) سورة المائدة: ٦٤ .
(٥) سورة التوبة: ٤٦.
(٦) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٦٥. ورقمه: ٢٦٨٤ .
(٧) رواه البخاري: ١٣/ ١٨٠ . ورقمه: ٧١٨٨ ، ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٥٤ . ورقمه: ٢٦٦٨ .
والألد: شديد الخصومة. والخصم: الحاذق بالخصومة.
(٨) رواه البخاري: ٧/ ١١٣ ، ورقمه: ٣٧٨٣ ، ورواه مسلم: ١/ ٨٥ . ورقمه: ٧٥ .

١٧ـ رؤية الله

لا يُرى الله في الدنيا ، وقد طمع موسى في رؤية الله ، فأخبره ربُّه أنَّه لن يراه في الدُّنيا ، ولا يستطيع ذلك ، بل الجبل القويُّ الصلد لا يطيق ذلك ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ ﴾[1].

وقد اختلف العلماء في رؤية الرسول ﷺ ربَّه حين عُرج به إلى السماء ، والصحيح أنَّه لم ير ربَّه في المعراج، وقد صحَّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت:و(من زعم أنّ محمداً ﷺ رأى ربَّه فقد أعظم على الله الفرية)[2] .

هذا في الدنيا ، أمّا في الآخرة فالأمر مختلف ، فإنَّ العباد يخلقون خلقاً جديداً ، ألا ترى أنّ الشمس تدنو من رؤوس الناس في يوم القيامة حتى لا يكون بينها وبينهم إلا ميل واحد، ومع ذلك فلا يذوبون ولا ينصهرون ! ألا ترى أنَّ الناس بعد البعث والنشور غير قابلين للموت! بل يدخل الكفار النَّار كلما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب،أمَّا الموت فلا.

نعم في يوم القيامة يطيق المؤمنون رؤية ربهم ، بل إنَّ أعظم نعيم يعطاه العباد في الجنَّة هو النظر إلى وجه ربهم العظيم الكريم سبحانه .

هذا النعيم العظيم يحرمه الكفار ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[3] أما الذين اصطفاهم الله وحسَّن وجوههم فلا يحجبون، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾[4] وهؤلاء هم الأبرار ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾[5]، وهذا النظر إلى وجهه الكريم هو الزيادة التي وُعد بها المؤمنون ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣.
(٢) رواه مسلم: ١/ ١٥٩ . ورقمه: ١٧٧.
(٣) سورة المطففين: ١٥.
(٤) سورة القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
(٥) سورة المطففين: ٢٢ـ ٢٣.
(٦) سورة يونس: ٢٦.

وهو المزيد المذكور في هذه الآية: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1].

وقد جاءت الأحاديث المتواترة مصرِّحة بذلك غاية التصريح، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: (هل تُضارُّونَ في رؤية القمر ليلة البدر؟) قالوا: لا يا رسول الله، قال: (هل تُضارُّون في رؤية الشمس ليس دُونها سحابٌ؟) قالوا: لا يا رسول الله، قال: (فإنَّكم ترونه كذلك)[2].

وفي الصحيح عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، قال: (كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: (إنَّكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامّون، فإنْ استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا)[3].

وفي صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إذا دخل أهلُ الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدُون شيئاً أزيدكم؟ يقولون: ألم تُبيضْ وُجُوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنْجِنا مِنَ النَّار)؟ قال: فيكشفُ الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزَّ وجلَّ، ثمَّ تَلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا﴾[4][5].

وفي الصحيحين عن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (جنَّتان من فضة آنيتُهُما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدنٍ)[6].

---

(١) سورة ق: ٣٥.

(٢) رواه البخاري: ١٣/ ٤١٩. ورقمه: ٧٤٣٧، ورواه مسلم: ١/ ١٦٣. ورقمه: ١٨٢. واللفظ لمسلم.

(٣) رواه البخاري: ١٣/ ٤١٩. ورقمه: ٧٤٣٤.

(٤) سورة يونس: ٢٦.

(٥) رواه مسلم: ١/ ١٦٣. ورقمه: ١٨١.

(٦) رواه البخاري: ١٣/ ٤٢٣. ورقمه: ٧٤٤٤. ورواه مسلم: ١/ ١٦٣. ورقمه: ١٨٠.

١٨ـ علم الله

ونعلم أن الله ـ سبحانه ـ متصف بصفة العلم،وقد سمى نفسه ـ سبحانه ـ بعدة أسماء تفيد هذه الصفة ، منها (العليم) ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[١]، ومنها:(الخبير) ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون. ومنها (الحكيم) ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف . ومنها: (الشهيد) ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر . ومعناه أنَّه لا يغيب عنه شيء . ومنها (الحافظ) ويختص بأنَّه لا ينسى ما علم . ومنها (المحصي) ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور ، واشتداد الريح ، وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك عدد أجزاء الحركات في كل ورقة .

علمه تعالى شامل للكليات والجزئيات:

زعم الفلاسفة أنَّ الله يعلم الكليات ، ولا يعلم الجزئيات ، وكذبوا في قولهم ، فعلم الله محيط شامل لا تخفى عليه خافية في الأرض ، ولا في السماء ، يعلم كل حركة في برٍّ أو بحر ، فما من ورقة تسقط من شجرة، أو حبَّة تندثر في الرمال ، أو نبتة صغيرة تشق الأرض ، أو نبتة تيبس أو تموت إلا وعلم الله محيط بها ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[٢].

وهذه الأعداد التي لا حصر لها من الدواب لا يخفى على الله منها شيء ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[٣]، وليس من شيء يصل إلى الأرض، أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا وقد أحاط الله به علماً ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾[٤].

---

(١) سورة الشعراء: ٢٢٠.
(٢) سورة الأنعام: ٥٩.
(٣) سورة هود: ٦.
(٤) سورة سبأ: ٢.

وهذا الإنسان لا يخفى على الله منه شيء ، فعلم الله به محيط يعلم عمله البادي الظاهر، ويعلم ما استكن في أعماق نفسه، ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾[1]، ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾[2]، وهو علم محيط بالجزئيات من أمور الإنسان ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾[3].

وانظر إلى هذا العلم الذي لا تفلت منه الذرة الصغيرة ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[4]..

لقد استوى في علم الله السرُّ والعلانية، والصغير والكبير ، والغيب والشهادة: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾[5].

وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران: ٢٩.
(٢) سورة الأنعام: ٣.
(٣) سورة يونس: ٦١.
(٤) سورة لقمان: ١٦.
(٥) سورة الرعد: ٨ ـ ١٠.
(٦) سورة يونس: ٦١.

١٩ ، ٢٠ ـ حياته وقيوميته سبحانه

وهو حيٌّ حياة أزلية ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [١] وحياته منافية لحياة الأحياء من الخلق فكلهم يموت ويفنى ، ولا يبقى إلا الله سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [٢].

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول: (أعوذ بعزَّتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجنُّ والأنسُ يموتُون)[٣].

ومن كان كذلك فهو الذي يستحق أن يعتمد عليه ويتوكل عليه ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [٤].

وهو قيوم سبحانه، فهو قيوم بنفسه مقيم لغيره ، وجميع المخلوقات مفتقرة إليه، ولا قوام لها بدونه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [٥].

جمعه ـ سبحانه ـ بين هذين الاسمين:

وقد جمع ـ سبحانه ـ في أكثر من آية بين هذين الاسمين ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [٦].

من تمام حياته وقيوميته:

ومن تمام حياته وقيوميته ـ سبحانه ـ أنَّه لا ينام ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [٧] والسنة: أوائل النوم، والسنة والنوم نقص يتنزه الخالق عنهما ، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: (إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النَّهار قبل عمل الليل) [٨].

---

(١) سورة غافر: ٦٥ .
(٢) سورة الرحمن: ٢٦ـ ٢٧.
(٣) رواه البخاري: ١٣/٣٦٨ . ورقمه: ٧٣٨٣.
(٤) سورة الفرقان: ٥٨ .
(٥) سورة الروم: ٢٥.
(٦) سورة آل عمران: ٢ .
(٧) سورة البقرة: ٢٥٥.
(٨) رواه مسلم: ١/١٦٢ . ورقمه: ١٧٩.

تمجيده تعالى بذكر حياته وقيوميته:

وقد مجَّد نفسه ـ سبحانه ـ بوصف نفسه بالحياة والقيومية ، كما سبق في النصوص التي ذكرناها ، وقد كان الرسول ﷺ يمجد ربَّه بذكر هذه الصفات ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: (اللهمَّ لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمدُ ، لك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نُور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض . . .)[1] .

٢١ ، ٢٢ـ سمعه وبصره ـ سبحانه ـ وتعالى

وهاتان الصفتان ثابتتان لله تعالى بنصِّ القرآن ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[3] .

وقال لموسى وهارون: ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[4] .

عظم سمع الله وبصره:

يقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾[5] ، قال ابن جرير: « وذلك في معنى المبالغة في المدح كأنَّه قيل: ما أبصره وأسمعه ، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ، لا يخفى عليه من ذلك شيء »[6] .

وهو يسمع ويرى الصالحين، فيثيبهم ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[7].

---

(١) رواه البخاري: ٣/٣. ورقمه: ١١٢٠ . ورواه مسلم: ١/٥٣٢ . ورقمه: ٧٩٩ . واللفظ للبخاري.
(٢) سورة الشورى: ١١.
(٣) سورة الحج: ٦١ .
(٤) سورة طه: ٤٦.
(٥) سورة الكهف: ٢٦.
(٦) تفسير ابن جرير: ١٥/٢٣٢.
(٧) سورة الشعراء: ٢١٨ـ ٢٢٠.

وهو - سبحانه - يرى الطالحين فيجزيهم ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (1).

تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ مبينة سعة سمع الله: « الحمدلله الذي وسع سمعه الأصوات » (2)، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه في جانب البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (3)(4).

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: كنّا مع النبي ﷺ في سفر ، فكنَّا إذا علونا كبرنا ، فقال: (أربعُوا على أنفسِكُمْ ، فإنَّكُم لا تدْعُونَ أصمَّ ولا غائِباً، تدعون سميعاً بصيراً قريباً)(5).

جهل المشركين بنفاذ سمع الله:

روى البخاري في صحيحه عن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: اجتمع عند البيت (الكعبة) ثقفيان وقرشي ، أو قرشيان وثقفي ، كثيرةٌ الشحم بطونُهم، قليلة فقه قلوبُهم ، فقال أحدهم: أترون أنَّ الله يسمع ما نقول ؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنَّه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله، عزَّ وجلَّ، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (6)(7).

---

(1) سورة آل عمران: ١٨١ .

(2) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً: ١٣/ ٣٧٢: وقال ابن حجر في الفتح: ١٣/ ٣٧٣ .« ووصله أحمد والنسائي وابن ماجة باللفظ المذكور هنا » .

(3) سورة المجادلة: ١ .

(4) هذه التكلمة رواها أحمد والنسائي وابن ماجة ، كما أفاده الحافظ في الفتح: ١٣/ ٣٧٤.

(5) رواه البخاري: ١٣/ ٣٧٢ . ورقمه: ٧٣٨٦ .

(6) سورة فصلت: ٢٢ .

(7) رواه البخاري: ٨/ ٥٦٢ . ورقمه: ٤٨١٧ .

المطلب الثالث

أسماء الله الحسنى[1]

لله تعالى أسماء كلها حسنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[2] منها ما ذكره الله في سورة الحشر ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[3].

١ـ عدد أسمائه

ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من احصاها دخل الجنة ، وإن الله وِترٌ يُحبُّ الوتر)[4].

هذا الحديث يدل على أنَّ لله ـ سبحانه ـ عدداً محدداً من الأسماء وقد نصَّ على أنَّها تسعة وتسعون .

ولكن يشكل على هذا ما رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال:

(ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدُك ، ابن عبدِك، ابن أمتِك ؛ ناصيتي بيدك ، ماض فيَّ حكمك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو علمْتَهُ أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أنْ تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونُورَ صدري ، وجلاء حُزني ، وذهاب همي ، إلا

---

(١) ألفت في أسماء الله وصفاته مؤلفا مستقلاً عنونت له بـ (أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة) فإن شئت التوسع في الموضوع فارجع إليه .

(٢) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٣) سورة الحشر: ٢٢ـ٢٤ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه: ١١/ ٢١٤ . ورقمه: ٦٤١٠ ، ورواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٦٢، ورقمه: ٢٦٧٧، واللفظ لمسلم .

أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحاً) [1].

وجاء في ثناء الرسول على ربه سبحانه (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) [2]. والإشكال في هذا الحديث أنَّه يدلُّ على أنَّ من أسماء الله تعالى أسماء لم ينزلها في كتابه ، بل اختص بها بعض عباده ، أو اختص بها نفسه ، فلم يعرِّفها أحداً من خلقه ، بينما حديث أبي هريرة يدلُّ على أن أسماء الله التسعة والتسعين كلها منزلة معروفة بدلالة قوله (من احصاها) ، فالإحصاء لها لا يمكن ما لم تكن منزلة معروفة معلومة ، ومن هذا ينتج أنَّ ما استأثر الله بعلمه أو اختص به بعض خلقه غير التسعة والتسعين .

والحق الذي ينبغي أن يصار إليه أنَّ عدد الأسماء التي عرَّفنا الله إياها في كتابه ، أو ذكرها رسوله ﷺ ، تسعة وتسعون لا تزيد ، لنصِّ الرسول ﷺ على هذا العدد ، ولقوله: (مَنْ أحصاها) ، وأنَّ ما زاد على هذه التسعة والتسعين فهو مما لا نعرفه ، لأنَّه من مكنون علم الله أو مما اختص الله به بعض خلقه ، وإلا فما فائدة تحديد عدد أسماء الله بتسعة وتسعين ؟!

٢ـ تحديد أسماء الله الحسنى

أخبر الرسول ﷺ أنَّ أسماء الله تعالى المنزلة التي يمكننا معرفتها وإحصاؤها تسعة وتسعون اسماً .

ولم يرد حديث صحيح يسرد هذه الأسماء سرداً لا يترك مجالاً للخلاف في تحديدها ، بل وردت هذه الأسماء متفرقة في كتاب الله وفي سنة الرسول ﷺ ، تذكر الآية الاسم والاسمين أو أكثر ، أو تختم الآية بواحد أو أكثر ، وقد تسرد الآيات جملة من هذه الأسماء .

وقد عني العلماء بجمع أسماء الله من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما

---

(١) رواه أحمد في مسنده: ١/٣٩١ ، وعزاه ابن حجر في فتح الباري إلى أحمد وابن حبان ، فتح الباري: ١١/٢٢٠.

(٢) صحيح مسلم: ١/٣٥٣، ورقمه: ٤٨٦ .

عنوا بتفسيرها وشرحها.

فالقرطبي له كتاب (معاني أسماء الله الحسنى) ، وقد سردها ابن جرير الطبري ، وأبو بكر ابن العربي ، وابن حجر العسقلاني ، وغيرهم . وقد اتفق العلماء في عدّ جملة كبيرة من أسماء الله تعالى ، واختلفوا في جملة قليلة ، فبعضهم عدَّها من أسمائه تعالى ، ومنهم من نازع في ذلك[(١)].

والسبب في هذا الخلاف أن بعض العلماء ظن أنَّ كلَّ ما أطلقه القرآن على الله - سبحانه - يجوز عده اسماً ، ويجوز إطلاقه مجرداً على الله تعالى. فأبو بكر ابن العربي عدَّ في أسمائه: رابع ثلاثة ، وسادس خمسة، أخذاً من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾[(٢)].

كما عدّ في أسمائه الفاعل والزارع أخذاً من قوله: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[(٣)].

ومن قوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾[(٤)].

والحق أن هذه ليست أسماء لله تعالى ، بمعنى أنَّه لا يطلق على الله تعالى رابع ثلاثة ، وسادس خمسة ، والفاعل ، والزارع[(٥)].

وقد ورد في القرآن أفعال أطلقها الله - عزَّ وجلَّ - على نفسه على سبيل الجزاء والعدل والمقابلة ، وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال ، ولكن لا يجوز أن يشتق لله تعالى منها أسماء ، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾[(٦)]، وقوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾[(٧)] وقوله: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[(٨)]، وقوله ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

---

(١) راجع تلخيص الحبير: ٤/ ١٧٢.
(٢) سورة المجادلة: ٧.
(٣) سورة الأنبياء: ١٠٤ .
(٤) سورة الواقعة: ٦٣- ٦٤ .
(٥) معارج القبول: ١/ ٧٧.
(٦) سورة النساء: ١٤٢ .
(٧) سورة آل عمران: ٥٤.
(٨) سورة التوبة: ٦٧ .

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[1].

فلا يطلق على الله مخادع ، ماكر ، ناس ، مستهزئ، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه ، ولا يقال: الله يستهزئ ، ويخادع ، ويمكر ، وينسى ، على سبيل الإطلاق . وقد أخطأ الذين عدوا ذلك من أسمائه الحسنى خطأ كبيراً، لأنّ الخداع والمكر يكون مدحاً ويكون ذماً ، فلا يجوز أن يطلق على الله إلا مقيداً بما يزيل الاحتمال المذموم منه كما ورد مقيداً في الآيات[2] .

ومن أجل ذلك لم يرد في أسمائه تعالى: المتكلم ، المريد ، الفاعل، الصانع ؛ لأنّ مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم . ولو جاز أن يشتق لله من أفعاله أسماء مثل: الماكر ، المخادع ، بحجة إطلاق أفعالها في القرآن على الله لجاز أن يجعل من أسمائه: الداعي ، والآتي ، والجائي، والذاهب، والقادم ، والناسي ، والقاسم ، والساخط ، والغضبان ، واللاعن . . . وغير ذلك من تلك التي أطلق القرآن أفعالها على نفسه .

فالله لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق ، والمجازاة على ذلك تعدّ حسنة من المخلوق فكيف من الخالق ؟ .

ومن أسماء الله تعالى ما لا يُطلق عليه إلا مقترناً بمقابله ، فإنه إذا أطلق وحده أوهم نقصاً ، فمن ذلك: المانع ، الضار ، القابض ، المذل، الخافض، فلا تطلق على الله منفردة ، بل يجب قرنها بما يقابلها، فيقال: المعطي المانع ، الضارُّ النافع ، القابض الباسط ، المعزُّ المذل ، الخافض الرافع .

ومن ذلك المنتقم ، لم يأت في القرآن إلا مضافاً إلى: (ذو) كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾[3] أو مقيداً بالمجرمين: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة: ١٤ـ ١٥ .
(٢) معارج القبول: ١/٧٦ .
(٣) سورة المائدة: ٩٥.
(٤) سورة السجدة: ٢٢.

٣ـ الاسم الأعظم

أخبرنا الرسول ﷺ في أكثر من حديث أنَّ لله اسماً أعظم له مميزات عن بقية أسمائه سبحانه وتعالى ، فمن هذه الأحاديث:

١ـ عن بريدة الأسلمي ، أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللهمَّ إني أسالك بأنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ، فقال: (دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعِي به أجاب) . رواه الترمذي وأبو داود[١] .

٢ـ وعن أنس قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي، فقال: « اللهمَّ إني أسالك بأنَّ لك الحمد ، لا إله إلا أنت الحنان المنان ، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم ، أسالك » فقال النبي ﷺ: (دعا الله باسمِهِ الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئلَ به أعطى) . رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة والدارمي[٢] .

٣ـ وفي سنن ابن ماجه عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: (اسمُ الله الأعظم في سُور من القرآن ثلاث: في (البقرة) ، وَ (آل عمران) وَ (طه) . أخرجه ابن ماجة ، والطحاوي في مشكل الآثار، وابن معين في التاريخ والعلل ، وغيرهم[٣] .

٤ـ وقد ورد تحديد آيتي البقرة وآل عمران اللتين ورد فيهما اسم الله الأعظم ، فقد روى الترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والدارمي عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[٤] وفاتحة

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/٧٠٣ ، ورقمه: ٢٢٨٩ ، وحكم محقق المشكاة على إسناده بالصحة.
(٢) مشكاة المصابيح: ١/٧٠٤ ، ورقمه: ٢٢٩٠ ، وحكم محقق المشكاة على إسناده بالصحة.
(٣) انظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ ناصر الدين الألباني: ٢/٣٨٢ ، ورقمه: ٧٤٦.
(٤) سورة البقرة: ١٦٣.

(آل عمران): ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [1]) [2].

والذي يظهر من المقارنة بين النصوص التي ورد فيها اسم الله الأعظم أنَّه: (الله) ، فهذا الاسم هو الاسم الوحيد الذي يوجد في جميع النصوص التي قال الرسول ﷺ إنَّ اسم الله الأعظم ورد فيها.

ومما يرجح أن (الله) هو الاسم الأعظم أنه تكرر في القرآن الكريم (٢٦٩٧) سبعا وتسعين وستمائة وألفين (حسب إحصاء المعجم المفهرس) وورد بلفظ (اللهم) خمس مرات في حين أنَّ اسماً آخر مما يختص بالله تعالى وهو (الرحمن) لم يرد ذكره إلا سبعاً وخمسين مرة ، ويرجحه أيضاً ما تضمنه هذا الاسم من المعاني العظيمة الكثيرة .

٤ـ وجوب الإيمان بأسمائه

وقد اتفق السلف الصالح على أنه يجب الإيمان بجميع أسماء الله الحسنى، وما دلت عليه من الصفات ، وما ينشأ عنها من الأفعال ، فمثلاً: اسم الله القدير يجب الإيمان بأنَّه سبحانه على كل شيء قدير ، والإيمان بكمال قدرته، والإيمان بأنَّ قدرته نشأت عنها جميع الكائنات.

٥ـ كيف يحصي المسلم أسماء الله الحسنى [3]

ورد في الحديث الترغيب بإحصاء أسماء الله الحسنى ، فقد وعد من أحصاها بدخول الجنة.

واختلف العلماء في معنى قوله ﷺ « من أحصاها » .

قال الخطابي يحتمل وجوهاً:

أحدها: أن يعدَّها حتى يستوفيها بمعنى أن لا يقتصر على بعضها فيدعو الله بها كلها ، ويثني عليه بجميعها ، فيستوجب الموعود عليها من الثواب.

---

(١) سورة آل عمران: ١ـ٢ .

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٠٤ ، ورقمه: ٢٢٩١.

(٣) راجع في هذا الموضوع: معارج القبول: ١/ ٨٤ . وما بعدها.

وهذا الوجه هو الذي اختاره البخاري ، فقد فسَّر الإحصاء بالحفظ ، وذلك لورود رواية أخرى فيها « من حفظها » .

ثانيها: المراد بالإحصاء الإطاقة ، والمعنى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء والعمل بمقتضاها ، وهو أن يعتبر معانيها ، فيلزم نفسه بموجبها، فإذا قال: « الرزّاق » وثق بالرزق ، وكذا سائر الأسماء .

ثالثها: المراد بها الإحاطة بجميع معانيها.

وقيل: أحصاها عمل بها ، فإذا قال « الحكيم » سلم لجميع أوامره وأقداره ، وأنها جميعها على مقتضى الحكمة .

وقال ابن بطال: طريق العمل بها:

١ـ ما يسوغ الاقتداء به كالرحيم والكريم ، فيمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها ، يعني فيما يقوم به .

٢ـ وما كان يختص به نفسه كالجبار والعظيم ، فعلى العبد الإقرار بها ، والخضوع لها ، وعدم التحلي بصفة منها .

٣ـ وما كان فيها معنى الوعد يقف فيه عند الطمع والرغبة .

٤ـ وما كان فيها معنى الوعيد يقف منه عند الخشية والرهبة .

والظاهر أنَّ معنى إحصائها حفظها ، والقيام بعبوديتها كما أنَّ القرآن لا ينفع حفظ ألفاظه من لا يعمل به ، بل جاء في صفة المراق من الدِّين أنهَّم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم[1] .

٦ـ سرد أسماء الله تعالى

ولعلَّ ابن حجر العسقلاني قد قارب الصواب عندما عدَّ تسعة وتسعين اسماً آخذاً إياها من القرآن الكريم ، وبذلك يوافق حديث أبي هريرة في عددها ، ونحن نسوقها كما سردها:

(١) تبين لنا بعد أن توسعنا في دراسة هذا الموضوع في كتابنا (أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة) أن القول الراجح في معنى (احصاها) حفظها .

١ـ الله ٢ـ الرب ٣ـ الإله ٤ـ الواحد ٥ـ الرحمن
٦ـ الرحيم ٧ـ الملك ٨ـ القدوس ٩ـ السلام ١٠ـ المؤمن
١١ـ المهيمن ١٢ـ العزيز ١٣ـ الجبار ١٤ـ المتكبر ١٥ـ الخالق
١٦ـ البارئ ١٧ـ المصور ١٨ـ الأول ١٩ـ الآخر ٢٠ـ الظاهر
٢١ـ الباطن ٢٢ـ الحي ٢٣ـ القيوم ٢٤ـ العليّ ٢٥ـ العظيم
٢٦ـ التواب ٢٧ـ الحليم ٢٨ـ الواسع ٢٩ـ الحكيم ٣٠ـ الشاكر
٣١ـ العليم ٣٢ـ الغني ٣٣ـ الكريم ٣٤ـ العفو ٣٥ـ القدير
٣٦ـ اللطيف ٣٧ـ الخبير ٣٨ـ السميع ٣٩ـ البصير ٤٠ـ المولى
٤١ـ النصير ٤٢ـ القريب ٤٣ـ المجيب ٤٤ـ الرقيب ٤٥ـ الحسيب
٤٦ـ القوي ٤٧ـ الشهيد ٤٨ـ الحميد ٤٩ـ المجيد ٥٠ـ المحيط
٥١ـ الحفيظ ٥٢ـ الحقّ ٥٣ـ المبين ٥٤ـ الغفّار ٥٥ـ القهار
٥٦ـ الخلاق ٥٧ـ الفتاح ٥٨ـ الودود ٥٩ـ الغفور ٦٠ـ الرؤوف
٦١ـ الشكور ٦٢ـ الكبير ٦٣ـ المتعال ٦٤ـ المقيت ٦٥ـ المستعان
٦٦ـ الوهاب ٦٧ـ الحفي ٦٨ـ الوارث ٦٩ـ الولي ٧٠ـ القائم
٧١ـ القادر ٧٢ـ الغالب ٧٣ـ القاهر ٧٤ـ البر ٧٥ـ الحافظ
٧٦ـ الأحد ٧٧ـ الصمد ٧٨ـ المليك ٧٩ـ المقتدر ٨٠ ـ الوكيل
٨١ ـ الهادي ٨٢ ـ الكفيل ٨٣ ـ الكافي ٨٤ ـ الأكرم ٨٥ ـ الأعلى
٨٦ ـ الرزاق ٨٧ ـ ذو القوة المتين ٨٨ ـ غافر الذنب
٨٩ ـ قابل التوب ٩٠ـ شديد العقاب ٩١ـ ذو الطول
٩٢ـ رفيع الدرجات ٩٣ـ سريع الحساب ٩٤ـ فاطر السموات والأرض
٩٥ـ بديع السموات والأرض ٩٦ـ نور السموات والأرض
٩٧ـ مالك الملك ٩٨، ٩٩ ـ ذو الجلال والإكرام

٧ـ خواص أسماء الله الحسنى

ذكر الشيخ حسن البنا في كتابه: (العقائد) [1] ، أن بعض النَّاس يذكر لكلِّ اسم من أسماء الله تعالى خواصَّ وأسراراً تتعلق به على إفاضة فيها أو إيجاز ، وقد يغالي بعض الناس فيتجاوز هذا القدر إلى زعم أن لكل اسم خادماً روحانيّاً يخدم من يواظب على الذكر به .

ويذكر أن بعض النَّاس يدعى أن اسم الله الأعظم سرٌّ من الأسرار ، يمنح لبعض الأفراد، فيفتحون به المغلقات ، ويخرقون بـه العادات ، ويكون لهم به من الخواص ما ليس لغيرهم من الناس.

وهؤلاء الذين أشار إليهم الشيخ قالوا بغير علم ، ونطقوا بأمور لم يات بها نص صحيح من كتاب ربنا ، وسنة رسوله ﷺ ، وما كان كذلك فلا اعتبار له ، ولا حجّة فيه ؛ عملاً بقول الرسول ﷺ: (كُلُّ عملٍ ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ) .

وهذه الأقوال والادعاءات فتحت الباب للخرافة ، فبذلت الجهود وضاعت الساعات في سبل خاطئة ، وحصل من ذلك ضلال كبير .

والفضيلة التي نصَّ عليها الرسول ﷺ لاسم الله الأعظم أنه إذا دعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى .

٨ ـ فائدة العلم بهذه الأسماء

أمّا الفوائد الحقيقية التي يجنيها المسلم من هذه المعرفة بأسماء الله وصفاته فيمكن أن نوجزها في عدة أمور:

١ـ التعرف على الله سبحانه وتعالى،فأسماء الله وصفاته هي أعظم وسيلة تعرفنا بربنا سبحانه وتعالى ، وبدون ذلك سيبقى الإيمان بالله فكرة غامضة لا تعطي ثماراً طيبة ، وقد فصَّلنا القول في صفاته وأسمائه فيما سبق ، ولله الحمد والمنة .

(١) مجموع الرسائل: ٤٤٤ـ٤٤٧، والشيخ البنا رحمه الله ذكر هذا منكراً له .

٢ـ تمجيده والثناء عليه بأسمائه وصفاته ، وتمجيد الله بأسمائه وصفاته أعظم ما نمجد الله به ونثني عليه به ، وهو من أعظم الذكر الذي أمرنا به في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾[1].

٣- دعاؤه بأسمائه وصفاته، كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[2]. وقد أخبر الرسول ﷺ أكثر من مرة أنَّ واحداً من الصحابة دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أجاب.

٤ـ زيادة الإيمان: فكلما علم العبد شيئاً عن الله وصفاته ازداد إيمانه.

٥ـ الشعور بالقوة والثبات؛ لأن العبد يركن إلى القوي القادر الغالب .

٦ـ تعليق القلب بالله ، فالذي يعلم أن الرزق من عند الله يطلب منه الرزق، والذي يعلم أن الله جبار يخاف منه ، والذي يعلم أن الله عليم يراقبه. . . وهكذا .

٧ـ الأجر العظيم الذي نحصله من وراء هذه المعرفة ، فتعلم هذه الأسماء والصفات أشرف ما يمكن أن يدرس ، وتعلمها وتعليمها خير عمل يقام به .

نماذج من تمجيد الرسول عليه السلام لربه وثنائه عليه ودعائه له:

أحب أن نسوق نماذج من الكلام النبوي فيه تمجيد وثناء وحمد الله بأسمائه وصفاته ، ودعاء له بها علاوة على ما تقدم:

١ـ عن أبي هريرة: أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال لرسول الله ﷺ: « مرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال: (قل: اللهم عالمَ الغيب والشهادة ، فاطر السموات والأرض ، ربَّ كلِّ شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر

---

(١) سورة الأحزاب: ٤١.
(٢) سورة الأعراف: ١٨٠ .

الشيطان وشركه) . رواه الترمذي وأبو داود والدارمي [1].

٢ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: (ربَّنا لك الحمدُ ، ملءُ السموات والأرض، ومِلءُ مَا شِئْتَ من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحقُّ ما قال العبدُ، وكُلُّنا لك عبدٌ ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ) [2].

٣ـ عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً ، وقال: (اللهم أنت السلامُ ، ومنكَ السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام) [3].

٤ـ عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: (لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ ، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرشِ العظيم ، لا إله إلا اللهُ ربُّ السموات وربُّ الأرض ، ربُّ العرش الكريم) [4].

٥ـ عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبُّ الكلام إلى الله أربعٌ: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت) وفي وجه آخر: (أفضلُ الكلام: سُبحان الله، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر) [5].

٦ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمنِ: سبحان الله وبِحمدِهِ، سُبْحانَ الله العظيم) [6].

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٣٤ . ورقمه: ٢٣٩٠ .
(٢) رواه مسلم: ١/٣٤٧. ورقمه: ٤٧٧ .
(٣) رواه مسلم: ١/ ٤١٤ . ورقمه: ٥٩٢ .
(٤) صحيح البخاري: ١١/ ١٤٥. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٩٣. ورقمه: ٢٧٣٠.
(٥) رواه مسلم. انظر مشكاة المصابيح: ١/ ٧٠٦ ، ورقمه: ٢٢٩٤.
(٦) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٧٢ ، ورقمه: ٢٦٩٤ .

المطلب الرابع

المنهج الذي تفهم صفات الله في ضوئه [1]

ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - أن القرآن العظيم دلَّ على أن مبحث الصفات يرتكز على ثلاثة أسس ، من جاء بها كلها فقد وافق الصواب ، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي - ﷺ - وأصحابه والسلف الصالح ، ومن أخلَّ بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضلَّ .

وذكر أنَّ كلَّ هذه الأسس الثلاثة يدلُّ عليها القرآن العظيم:

الأساس الأول: تنزيهه - جلَّ وعلا - عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين. وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[2]، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[3] ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[4].

الأساس الثاني: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه ، لأنَّه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾[5] .

والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ لأنَّه لا أعلم بالله بعد الله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقِّه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[6] .

---

(١) راجع: منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله .
(٢) سورة الشورى: ١١.
(٣) سورة الإخلاص: ٤ .
(٤) سورة النحل: ٧٤.
(٥) سورة البقرة: ١٤٠ .
(٦) سورة النجم: ٣-٤.

ضلال الذين أخذوا بأحد هذين الأصلين دون الآخر:

وقد حمل الشيخ - رحمه الله - تعالى على من أخلَّ بأحد هذين الأصلين، وعدّ من نفى عن الله وصفا أثبته لنفسه بأنه متنطع بين يدي رب السموات والأرض ، وعدّ فعل هذا النافي عن الله ما أثبته لنفسه متجرئا على الله جرأة عظيمة .

وعدّ الشيخ هذا ضلالا ليس بعده ضلال ، لأن هذا النافي عمد إلى ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال والجلال،فتقدم هذا الجاهل المسكين بين يدي جبار السموات والأرض قائلا: هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك، ويلزمه من النقص كذا ، فأنا أؤوله وأنفيه ، وآتي ببدله من تلقاء نفسي ، من غير أن يستند فيما ذهب إليه إلى كتاب ولا سنة .

ومثله في الضلال ذلك الذي أثبت الصفات لله - تبارك وتعالى - ولكنه شبه صفات الباري بصفات خلقه .

والمفلح الناجي السائر على الصراط المستقيم هو الذي آمن بهذين الأصلين، ولم يفرق بينهما ، آمن بما أثبته الله لنفسه من الصفات ، ونزهه في الوقت نفسه عن أن تشبه صفاته صفات خلقه ، فهو مؤمن منزه سالم من ورطة التشبيه والتعطيل .

دلت على هذا الأصل آية من كتاب الله :

وقد دلَّ على هذين الأصلين آية من كتاب الله، هي قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [1].

فالحق يثبت في هذه الآية لنفسه السمع والبصر في الوقت الذي يقرر فيه أنه ليس كمثله شيء،وفي هذا إشارة واضحة إلى أنه لا يجوز للخلق أن ينفوا عن الله سمعه وبصره بدعوى أن المخلوقات الحادثة تملك سمعا وأبصارا،

---

(١) سورة الشورى: ١١ .

وأن إثبات السمع والبصر لله يؤدي إلى تشبيه الله بمخلوقاته .

إن المعنى الذي تدل الآية عليه أن الله يتصف بالسمع والبصر ، وسمع الله وبصره لا يشبهه شيء من أسماع المخلوقات وأبصارها ، فسمع الله وبصره يليقان بجلال الله وكماله، وأسماع المخلوقات وأبصارها تناسب حالهم ، فلا تشابه بين صفات الله وصفات المخلوقات.

والأساس الثالث: الذي ترتكز عليه مباحث الصفات ـ كما يقول الشيخ الشنقيطي ـ قطع الأطماع عن إدراك حقيقة الكيفية ، لأنَّ إدراك حقيقة الكيفية مستحيل. وهذا نص الله عليه في سورة (طه) حيث قال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[1] فقوله: (يحيطون) فعل مضارع، والفعل الصناعي الذي يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمر والفعل الماضي ينحلُّ عند النحويين عن (مصدر ، وزمن).

وقد حرَّر علماء البلاغة في بحث الاستعارة التبعية أنَّه ينحلُّ عن (مصدر، وزمن ، ونسبة) فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً ، (فيحيطون) تكمن في مفهومها (الإحاطة) ، فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل ، ويكون معه كالنكرة المبنية على الفتح ، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشري بربِّ السموات والأرض .

فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها ، فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن ربِّ العالمين .

وهذا الذي ذكره الشيخ العلامة من استحالة معرفة كيفية الله أو صفاته منطق سليم ؛ لأنَّ العقل الإنساني مهما بلغ من الذكاء وقوة الإدراك قاصر غاية القصور وعاجز نهاية العجز عن معرفة حقائق الأشياء .

إنّ الإنسان عاجز عن معرفة حقيقة الروح التي تتردد بين جنبيه ، وعاجز عن معرفة حقيقة الضوء الذي هو من أظهر الأشياء ، وعاجز عن إدراك حقيقة المادة ، وحقيقة الذرات التي تتألف منها المادة ، فكيف يطمح إلى معرفة حقيقة الذات والصفات الإلهية ؟

---

(١) سورة طه: ١١٠ .

المنحرفون عن المنهج السليم وأسباب انحرافهم

والانحراف عن المنهج السليم في أسماء الله تعالى وصفاته قد جاء من الإخلال بأصل من الأصول الثلاثة التي ذكرناها ، ونستطيع أن نقسم انحراف الناس قديماً وحديثاً في أسماء الله وصفاته إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: انحراف المشركين:

وانحراف المشركين ، ذكره ابن عباس وابن جريج ، ومجاهد ، فالمشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا ، فاشتقوا اللات من الله ، والعزّى من العزيز ، ومناة من المنان .

ومن إلحادهم تكذيبهم بجملة من أسماء الله تعالى ، كتكذيبهم باسم الرحمن ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [1] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [2].

ويدخل في زمرة هؤلاء الذين يصفون الله بصفات النقص ، كقول خبثاء اليهود ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [3]، وقولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ [4].

ثانياً: انحراف المشبهة:

وهؤلاء أثبتوا لله ما أثبته لنفسه ، ولكنّهم لم ينزهوا الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، فأعملوا من الآية الكريمة ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [5] عجزها، ولم يعملوا صدرها، إذ لو أعملوا صدرها لعلموا أنّ الله لا يشبهه شيء ، ولما اجترؤوا على أن يقولوا قولتهم التي تقشعرُّ لهولها الأبدان، وتضطرب لها القلوب: إنَّ لله يداً وبصراً وسمعاً كيدنا وسمعنا وبصرنا ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

---

(١) سورة الرعد: ٣٠ .
(٢) سورة الفرقان: ٦٠.
(٣) سورة آل عمران: ١٨١ .
(٤) سورة المائدة: ٦٤ .
(٥) سورة الشورى: ١١.

وهؤلاء جعلوا معبودهم كالأصنام ، ولذا قال علماء السلف (المشبه يعبد وثناً) ، وقد كفروا بمقالتهم هذه وخرجوا عن الملّة، ومن هؤلاء داود الجواربي ، وهشام بن الحكم الرافضي ، وهذان الفريقان إلحادهما متقابل: فالأولون من المشركين جعلوا المخلوق بمنزلة الخالق وسووه به ، والمشبهة جعلوا الخالق بمنزلة الأجسام المخلوقة ، وشبهوه بها ، تعالى الله وتقدس عن إفكهم وضلالهم .

ثالثاً: انحراف النفاة وهم ثلاث فرق:

١- فريق نفوا الأسماء وما تدلُّ عليه من المعاني ، ووصفوا الله تعالى بالعدم المحض ، وهؤلاء هم الجهمية ، والحقيقة أنَّ تحريف هؤلاء تكذيب لله كتحريف المشركين .

٢- وفريق أثبتوا ألفاظ أسمائه دون ما تضمنته من صفات الكمال ، فقالوا: رحمن رحيم بلا رحمة ، حكيم بلا حكمة ، قدير بلا قدرة، سميع بلا سمع .. الخ ، وهؤلاء هم المعتزلة .

٣- وفريق ثالث: أثبت سبعاً من صفات المعاني ، وهي: الحياة ، والعلم، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، ونفوا ، ما عداها ، وهؤلاء هم الأشاعرة [١] .

والمكذبون بأسماء الله وصفاته ، والمشبهون صفاته بصفات خلقه ، والنافون لأسمائه وصفاته - ضلالهم واضح ، إذ هم مشاقون لله ورسوله، مكذبون للكتاب والسنة ، وأمرهم معلوم لا يحتاج إلى بيان .

أمَّا الذين يحتاج إلى كشف ما في مقالتهم من زيف ، فهم أهل الكلام الذي يزعمون أنَّهم ينزهون الله تعالى عن مشابهة المخلوقين ، وبهذا ينفون صفات الله تعالى التي وردت في الكتاب والسنة ،بحجة أنَّها توهم التشبيه ، ويلجؤون في سبيل ذلك إلى تأويل هذه الصفات تأويلاً يصرفها عن معانيها الحقة [٢] .

---

(١) لم يذهب أبو الحسن الأشعري رحمه الله هذا المذهب كما سيأتي ذكر معتقده في صفات الباري تبارك وتعالى .

(٢) حاول بعض المعاصرين كالشيخ حسن البنا والشيخ حسن أيوب وغيرهما أن يهونوا من خطيئة

المطلب الخامس

أقسام الصفات عند علماء الكلام

بين الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى - منهج علماء الكلام في تقسيماتهم لصفات الله تعالى ، وبيان ما أثبتوه منها وما نفوه ، وما وقعوا فيه من أخطاء ومغالطات ، ثم بيّن دلالة القرآن على اتصاف الله بهذه الصفات ، وعدم جواز نفيها عن الله بحجة أن المخلوقين يتصفون بها ؛ لأنّ صفات الله لائقة بجلاله وصفات المخلوقين مناسبة لعجزهم .

فقد بيَّن الشيخ أنّ المتكلمين الذين خاضوا في الكلام ، وجاؤوا بأدلة يسمونها أدلة عقلية ، ركبوها في أقيسة منطقية ، قسموا صفات الله إلى ستة أقسام هي:

١- صفة نفسية .	٢- صفة معنى .	٣- صفة معنوية .
٤- صفة فعلية .	٥- صفة سلبية .	٦- صفة جامعة .

أما الصفات الإضافية ، فقد جعلوها أموراً اعتبارية لا وجود لها في الخارج ، وسببوا بذلك إشكالات عظيمة

محاكمة المنهج الكلامي إلى الكتاب والسنة

بين الشيخ الشنقيطي - رحمه الله تعالى - ما جاء في القرآن العظيم من وصف الخالق - جلّ وعلا - بتلك الصفات ، ووصف المخلوقين بتلك الصفات ، وبيان القرآن العظيم أنّ صفة خالق السموات والأرض حق ، وأنّ صفة المخلوقين حقّ ، وأنه لا مناسبة بين صفة الخالق وصفة المخلوق، فصفة الخالق لائقة بذاته ، وصفة المخلوق مناسبة لعجزه وافتقاره ، وبين الصفة والصفة من الفرق كمثل ما بين الذات والذات .

هؤلاء الذين عرفوا باسم (الخلف) ، وأن يقربوا بين وجهة نظر السلف والخلف ، ولكنّ الحقيقة التي يجب أن تدرك أن مذهب الخلف الزاعمين أن ظاهر الصفات غير مراد المؤولين لها مذهب بعيد عن الصواب ولا لقاء بينه وبين مذهب السلف . ولا يشفع لبعض الخلف حسن نيتهم ، فحسن النية لا يجعل الباطل حقاً .

صفات المعاني عند المتكلمين

وبين الشيخ أن صفات المعاني عند علماء الكلام سبع صفات فقط ، وينكرون ما عدا هذه السبع .

وضابط صفة المعنى عند علماء الكلام: ما دلّ على معنى وجودي قائم بالذات .

والصفات السبع التي أثبتوها هي: القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة، والسمع ، والبصر ، والكلام . وأنكر هذه المعاني السبعة المعتزلة ، وأثبتوا أحكامها ، فقالوا: هو قادر بذاته ، سميع بذاته ، عليم بذاته ، حيٌّ بذاته، ولم يثبتوا لله قدرة ، ولا علماً ، ولا حياة، ولا سمعاً ، ولا بصراً ، فراراً من تعدد القديم ، وهو مذهبٌ كل العقلاء يعرفون ضلاله وتناقضه ، وأنه إذا لم يقم بالذات علم استحال أن تقول: هي عالمة بلا علم ، وهو تناقض واضح بأوائل العقول .

ثم أورد الشيخ أدلة صفات المعاني ، وذكر الفرق بين صفات الباري وصفات المخلوق:

١ - وصفوا الله تعالى بالقدرة ، واثنتوا له القدرة ، والله - جلَّ وعلا - يقول في كتابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1] ونحن نقطع أنه تعالى متصف بصفة القدرة على الوجه اللائق بكماله وجلاله .

كذلك وصف بعض المخلوقين بالقدرة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [2] فأسند القدرة لبعض الحوادث ونسبها إليهم.

ونحن نعلم أنَّ كلَّ ما في القرآن حقٌّ ، وأنَّ للمولى - جلَّ وعلا - قدرة حقيقية تليق بكماله وجلاله ، كما أن للمخلوقين قدرة حقيقية مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم ، وبين قدرة الخالق وقدرة المخلوق من المنافاة

(١) سورة البقرة: ٢٠ .
(٢) سورة المائدة: ٣٤ .

والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق، وحسبك بونا بذلك .

٢ ، ٣ - ووصف تبارك وتعالى نفسه بالسمع والبصر في غير ما آية من كتابه، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (١) ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (٢).

ووصف بعض الحوادث بالسمع والبصر، قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (٣) ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ (٤).

ونحن لا نشك أن ما في القرآن حقٌ ، فلله - جلّ وعلا - سمع وبصر حقيقيان لائقان بجلاله وكماله ، كما أن للمخلوق سمعاً وبصراً حقيقيين مناسبين لحاله من فقره وفنائه وعجزه . وبين سمع وبصر الخالق وسمع وبصر المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق .

٤ - ووصف نفسه بالحياة ، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ (٥) ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (٦) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ (٧).

ووصف أيضاً بعض المخلوقين بالحياة، قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ (٨) ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٩) ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ (١٠).

ونحن نقطع بأن لله - جلّ وعلا - صفة حياة حقيقية لائقة بكماله ، وجلاله ، كما أن للمخلوقين حياة مناسبة لحالهم ، وعجزهم وفنائهم وافتقارهم ، وبين صفة الخالق وصفة المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات

---

(١) سورة المجادلة: ١ .
(٢) سورة الشورى: ١١
(٣) سورة الإنسان: ٢ .
(٤) سورة مريم: ٣٨ .
(٥) سورة البقرة: ٢٥٥ .
(٦) سورة غافر: ٦٥ .
(٧) سورة الفرقان: ٥٨ .
(٨) سورة الأنبياء: ٣٠ .
(٩) سورة مريم: ١٥ .
(١٠) سورة الروم: ١٩ .

الخالق وذات المخلوق ، وذلك بون شاسع بين الخالق وخلقه .

٥- ووصف - جلَّ وعلا - نفسه بالإرادة قال: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[١] ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٢].

ووصف بعض المخلوقين بالإرادة قال: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾[٣] ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[٤] ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ ﴾[٥].

ولا شك أن لله إرادة حقيقية لائقة بكماله ، كما أن للمخلوقين إرادة مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم . وبين إرادة الخالق والمخلوق كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق .

٦- ووصف نفسه - جلَّ وعلا - بالعلم، قال: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٦] ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾[٧] ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾[٨].

ووصف بعض المخلوقين بالعلم قال: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾[٩] ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾[١٠].

ولا شك أن للخالق ـ جل وعلا ـ علماً حقيقيّا لائقاً بكماله وجلاله محيطاً بكل شيء . كما أن للمخلوقين علماً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم ، وبين علم الخالق وعلم المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق .

٧ ـ ووصف نفسه ـ جلَّ وعلا ـ بالكلام ، قال: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

---

(١) سورة البروج: ١٦ .
(٢) سورة يس: ٨٢ .
(٣) سورة الأنفال: ٦٧ .
(٤) سورة الأحزاب: ١٣ .
(٥) سورة الصف: ٨ .
(٦) سورة النور: ٣٥ .
(٧) سورة النساء: ١٦٦ .
(٨) سورة الأعراف: ٧ .
(٩) سورة الذاريات: ٢٨ .
(١٠) سورة يوسف: ٦٨ .

تَكۡلِيمٗا﴾[1] ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[2] .

ووصف بعض المخلوقين بالكلام قال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾[3]، ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾[4] . ولا شكّ أن للخالق تعالى كلاماً حقيقياً يليق بكماله وجلاله ، كما أن للمخلوقين كلاماً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم ، وبين كلام الخالق وكلام المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق .

الكلام على الصفات السلبية عند المتكلمين

بين الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ ضابط الصفة السلبية عند المتكلمين فقال: هي الصفة التي دلت على عدم محض . والمراد بها أن تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله ، من غير أن تدل على معنى وجودي قائم بالذات .

والذين قالوا هذا جعلوا الصفات السلبية خمساً لا سادس لها ، وهي عندهم: القدم ، والبقاء ، والمخالفة للخلق ، والوحدانية ، والغنى المطلق الذي يسمونه القيام بالنفس ، الذي يعنون به الاستغناء عن الحيز والمحل .

١ ، ٢ ـ القدم والبقاء:

ونبه الشيخ رحمه الله تعالى إلى أن القدم والبقاء اللذين وصف المتكلمون بهما الله ـ جلّ وعلا ـ زاعمين أنه وصف بهما نفسه هما المرادان بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ .

والقدم عندهم عبارة عن سلب العدم السابق ، إلا أنه عندهم أخص من الأزل ، لأن الأزل عبارة عما لا افتتاح له ، سواء أكان وجودياً كذات الله وصفاته ، أو عدمياً ، والقدم عندهم عبارة عما لا أول له، بشرط أن

---

(١) سورة النساء: ١٦٤ .
(٢) سورة التوبة: ٦ .
(٣) سورة يوسف: ٥٤ .
(٤) سورة يس: ٦٥ .

يكون وجودياً ، كذات الله متصفة بصفات الكمال والجلال .

وبين الشيخ - رحمه الله - أن الله - عزَّ وجلَّ - وصف المخلوقين بالقدم ، قال: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[1] ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[2] ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾[3].

ووصف المخلوقين بالبقاء قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[4]، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[5] ولا شك أن ما وصف به الله من هذه الصفات مخالف لما وصف به الخالق.

وصف الله بالقدم والبقاء لم يرد في الكتاب والسنة:

وبين الشيخ - رحمه الله - تعالى ان الله لم يصف في كتابه نفسه بالقدم ، وبعض السلف كره وصفه بالقدم ؛ لأنه قد يطلق مع سبق العدم، نحو ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[6]، ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[7]، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾[8].

وقد زعم بعضهم أنه جاء فيه حديث ، وبعض العلماء يقول هو يدل على وصفه بهذا ، وبعضهم يقول لم يثبت .

أما الأولية والآخرية التي نص الله عليهما في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ ، فقد وصف المخلوقين أيضاً بالأولية والآخرية ، قال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ﴾[9] . ولا شك ان ما وصف الله به نفسه من ذلك لائق بجلاله وكماله كما أن للمخلوقين اوليه وآخرية مناسبة لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم .

---

(١) سورة يوسف: ٩٥ .
(٢) سورة يس: ٣٩ .
(٣) سورة الشعراء: ٧٦ .
(٤) سورة الصافات: ٧٧ .
(٥) سورة النحل: ٩٦ .
(٦) سورة يس: ٣٩ .
(٧) سورة يوسف: ٩٥ .
(٨) سورة الشعراء: ٧٦ .
(٩) سورة المرسلات: ١٦ - ١٧ .

٣ ، ٤ ـ الوحدانية والغنى بالنفس:

وصف نفسه بأنه واحد ، قال: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [١] ووصف بعض المخلوقين بذلك ، قال: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ [٢]

ووصف نفسه بالغنى ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [٣] ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [٤] ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ [٥] ، ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [٦].

فهذه صفات السلب ، جاء في القرآن وصف الخالق ووصف المخلوق بها. ولا شك أن ما وصف به الخالق منها لائق بكماله وجلاله ، وما وصف به المخلوق مناسب لحاله وعجزه وفنائه وافتقاره .

تحقيق القول في الصفات المعنوية

ثم تكلم الشيخ على ما أسماه علماء الكلام بالصفات السبع المعنوية التي هي كونه تعالى قادراً ومريداً وعالماً وحياً وسميعاً وبصيراً ومتكلماً ، وبين أن حقيقتها هي كيفية الاتصاف بالمعاني السبعة التي ذكرنا .

ومن عدّها من المتكلمين عدها بناء على ثبوت ما يسمونه الحال المعنوية التي يزعمون أنها واسطة ثبوتية ، لا معدومة ولا موجودة .

ولم يرتض الشيخ إثبات هذا النوع من الصفات ، فقال: « والتحقيق أن هذه خرافة وخيال ، وأن العقل الصحيح لا يجعل بين الشيء ونقيضه واسطة ألبتة ، فكل ما ليس بموجود فهو معدوم قطعاً ، وكل ما ليس بمعدوم فهو موجود قطعاً ، ولا واسطة ألبتة ، كما هو معروف عند العقلاء » .

---

(١) سورة البقرة: ١٦٣ .
(٢) سورة الرعد: ٤ .
(٣) سورة إبراهيم: ٨ .
(٤) سورة التغابن: ٦ .
(٥) سورة النساء: ٦ .
(٦) سورة النور: ٣٢ .

صفات الأفعال

ثم تكلم الشيخ على صفات الأفعال ، فقال: وهذه صفات الأفعال جاء في القرآن كثيراً وصف الخالق بها ووصف المخلوق بها ، ولا شك أن ما وصف به الخالق منها مخالف لما وصف به المخلوق ، كالمخالفة التي بين الخالق وذات المخلوق ، ومن هذه الصفات:

١ ـ **الرزق**: وصف الله نفسه ـ جلّ وعلا ـ أنه يرزق خلقه فقال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1] ، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[2] ، ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[3] .

ووصف بعض المخلوقين بصفة الرزق ، قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[4] ، ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾[5] ، ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾[6] .

ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به منه المخلوق ، كمخالفة ذات الله لذات المخلوق .

٢ ـ **العمل**: ووصف نفسه ـ جلّ وعلا ـ بصفة الفعل وهو العمل ، قال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾[7] .

ووصف المخلوقين بصفة الفعل التي هي العمل قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[8] ، ولا شك أن ما وصف به المخلوق مخالف له كمخالفة ذات الخالق ذات المخلوق.

---

(١) سورة الذاريات: ٥٧ – ٥٨ .
(٢) سورة سبأ: ٣٩ .
(٣) سورة الجمعة: ١١ .
(٤) سورة النساء: ٨ .
(٥) سورة النساء : ٥ .
(٦) سورة البقرة: ٢٣٣ .
(٧) سورة يس: ٧١ .
(٨) سورة الطور: ١٦ .

٣- التعليم: وصف نفسه بأنه يعلم خلقه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[1]، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[2]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾[3]

ووصف بعض خلقه بهذه الصفة أيضاً، قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[4]، وجمع المثالين في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾[5].

٤ ـ الإنباء: ووصف نفسه ـ جلَّ وعلا ـ بأنه ينبئ، ووصف المخلوق بأنه ينبىء، وجمع بين الفعل في الأمرين في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[6]. ولا شك أنَّ ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به منه العبد، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

٥- الإيتاء: ووصف نفسه بصفة الفعل الذي هو الإيتاء. قال جلَّ وعلا: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾[7] ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾[8].

ووصف المخلوقين بالفعل الذي هو الإيتاء، قال: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾[9]، ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾[10].

ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به العبد من هذا الفعل كمخالفة ذاته لذاته.

---

(١) سورة الرحمن: ١ - ٤.
(٢) سورة العلق: ٣ - ٥.
(٣) سورة النساء: ١١٣.
(٤) سورة الجمعة: ٢.
(٥) سورة المائدة: ٤.
(٦) سورة التحريم: ٣.
(٧) سورة البقرة: ٢٦٩.
(٨) سورة هود: ٣.
(٩) سورة النساء: ٢٠.
(١٠) سورة النساء: ٤.

الصفات الجامعة

ثم تكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - على الصفات الجامعة ، كالعلو والعظم والكِبَر والملك والكِبْر والجبروت والعزة والقوة وما جرى ذلك من الصفات الجامعة .

١ - ٣: صفات العلو والكبر والعظم:

وصف الله نفسه بالعلو والكبر والعظم فقال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾(١)، وقال في وصف نفسه بالعلو والكبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾(٢)، ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾(٣).

ووصف بعض المخلوقين بالعظم قال: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٤)، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾(٥)، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(٦) ووصف بعض المخلوقين بالعلو قال: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾(٧) ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾(٨). ووصف بعض المخلوقات بالكبر: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(٩)، ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾(١٠).

ولا شك أن ما وصف الله به نفسه من هذه الصفات الجامعة كالعلو والكبر والعظم مناف لما وصف به المخلوق منها ، كمخالفة ذات الخالق - جلَّ وعلا - لذات المخلوق ، فلا مناسبة بين ذات الخالق وذات المخلوق، كما لا مناسبة بين صفة الخالق وصفة المخلوق .

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥ .
(٢) سورة النساء: ٣٤ .
(٣) سورة الرعد: ٩ .
(٤) سورة الشعراء ٦٣ .
(٥) سورة الإسراء: ٤٠ .
(٦) سورة النمل: ٢٣ .
(٧) سورة مريم: ٥٧ .
(٨) سورة مريم: ٥٠ .
(٩) سورة هود: ١١ .
(١٠) سورة الأنبياء: ٦٣ .

٤ ـ صفة الملك:

ووصف نفسه بالملك ، قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾[(١)] ، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾[(٢)].

ووصف بعض المخلوقين بالملك، قال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾[(٣)] ، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾[(٤)] ، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[(٥)]، ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾[(٦)].

ولا شكّ أن لله ـ جلا وعلا ـ ملكاً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله ، كما أن للمخلوقين ملكا مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم .

٥ ، ٦ ـ صفة الجبروت والكبرياء:

ووصف نفسه بأنه جبار متكبر في قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[(٧)] ووصف بعض المخلوقين بأنه جبار متكبر قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[(٨)] ، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[(٩)]، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[(١٠)] ، ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[(١١)].

ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذه الصفات مخالف لما وصف به المخلوق كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق .

---

(١) سورة الجمعة: ١ .
(٢) سورة القمر: ٥٥ .
(٣) سورة يوسف: ٤٣ .
(٤) سورة يوسف: ٥٠ .
(٥) سورة الكهف: ٧٩ .
(٦) سورة آل عمران: ٢٦ .
(٧) سورة الحشر: ٢٣ .
(٨) سورة غافر: ٣٥ .
(٩) سورة الشعراء: ١٣٠ .
(١٠) سورة الزمر: ٦٠ .
(١١) سورة ابراهيم: ١٥ .

٧ ـ صفة العزة:

وصف - جلَّ وعلا - نفسه بالعزة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١]، ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾[٢].

ووصف بعض المخلوقين بالعزة، قال: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾[٣]، ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾[٤]، وجمع المثالين في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥].

ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذا الوصف مناف لما وصف به المخلوق ، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق .

٨ ـ صفة القوة:

ووصف نفسه - جلَّ وعلا - بالقوة، قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[٦]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٧].

ووصف بعض المخلوقين بالقوة، قال: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[٨]، وقال - جلَّ وعلا -: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾[٩].

وجمع بين المثالين في قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[١٠].

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٠ .
(٢) سورة ص: ٩ .
(٣) سورة يوسف: ٥١ .
(٤) سورة ص: ٢٣ .
(٥) سورة المنافقون: ٨ .
(٦) سورة الذاريات: ٥٧ - ٥٨ .
(٧) سورة الحج: ٤٠ .
(٨) سورة هود: ٥٢ .
(٩) سورة الروم: ٥٤ .
(١٠) سورة فصلت: ١٥ .

الصفات التي اختلف فيها المتكلمون

ثم تكلم الشيخ على الصفات التي اختلف فيها المتكلمون ، هل هي صفات فعل أو صفات معنى ؟ والذي حققه الشيخ أنها صفات معان قائمة بذات الله - جلَّ وعلا - ومن هذه الصفات:

١ ، ٢ - **صفة الرأفة والرحمة**: وصف نفسه بأنه رؤوف رحيم، قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] . ووصف بعض المخلوقين بذلك ، فقال في وصف نبينا صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

٣- **صفة الحلم**: وصف نفسه - سبحانه - بالحلم ، قال: ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾[3] ، ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[4] ، ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾[5] .

ووصف بعض المخلوقين بالحلم، قال: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾[6] ، ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[7] .

٤ - **صفة المغفرة**: وصف نفسه - سبحانه - بالمغفرة ، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[8] ، ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾[9] .

ووصف بعض المخلوقين بالمغفرة ، قال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[10] ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ ﴾[11] ، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا

---

(١) سورة النحل: ٧ .
(٢) سورة التوبة: ١٢٨ .
(٣) سورة الحج: ٥٩ .
(٤) سورة البقرة: ٢٣٥ .
(٥) سورة البقرة: ٢٦٣ .
(٦) سورة الصافات: ١٠١ .
(٧) سورة التوبة: ١١٤ .
(٨) سورة البقرة: ١٧٣ .
(٩) سورة البقرة: ٢٨٤ .
(١٠) سورة الشورى: ٤٣ .
(١١) سورة البقرة: ٢٦٣ .

يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾[1].

ولا شك أن ما وصف به خالق السموات والأرض من هذه الصفات حق لائق بكماله وجلاله لا يجوز أن ينفى خوفاً من التشبيه بالخلق ، وأن ما وصف به الخلق من هذه الصفات حق مناسب لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم .

حال النافين لصفات الكمال والجلال

وبعد أن بين الشيخ ما في منهج علماء الكلام من خلل ، وفصل القول في المنهج القرآني الإيماني الذي كشف الحق وأنار الدرب ختم كلامه قائلا:

« وعلى كل حال فلا يجوز للإنسان أن يتنطع إلى وصف أثبته الله - جلَّ وعلا - لنفسه فينفي هذا الوصف عن الله متهجماً على ربّ السموات والأرض ، مدعياً عليه أن هذا الوصف الذي تمدح به نفسه أنه لا يليق به ، وأنه ينفيه عنه ، ويأتيه بالكمال من كيسه الخاص ، فهذا جنون وهوس ، ولا يذهب إليه إلا من طمس الله بصائرهم » .

---

(١) سورة الجاثية: ١٤ .

صفة الاستواء صفة كمال لا صفة نقص

ولبيان عظم جناية علماء الكلام على صفات الباري ضرب الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله ـ مثلا بصفة عظيمة من صفاته هي صفة الاستواء، فقال: فهذه صفة الاستواء التي كثر فيها الخوض، ونفاها كثير من الناس بفلسفة منطقية، وأدلة جدلية أبطلوا بها الحق، وأحقوا بها الباطل، قد تجرأ الآلاف ممن يدعون الإسلام فنفوها عن ربِّ السموات والأرض بأدلة منطقية.

فيقولون مثلاً: لو كان مستوياً على عرشه لكان مشابهاً للخلق، لكنه غير مشابه للخلق، فينتج أنه غير مستو على العرش. وهذه النتيجة باطلة لمخالفتها صريح القرآن.

وبين الشيخ ـ رحمه الله ـ أن صفة الاستواء صفة كمال وجلال، تمدح بها رب السموات والأرض نفسه، والقرينة على أنها صفة كمال وجلال أن الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلا مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله، التي هي منها، ثم استعرض النصوص التي وردت فيها هذه الصفة للتدليل على صحة ما قرره:

١ - أول سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء حسب ترتيب المصحف سورة الأعراف، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

٢ - الموضع الثاني في سورة يونس، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(١) سورة الأعراف: ٥٤.

بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾[1].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا الكمال والجلال ؟

٣ - الموضع الثالث في سورة الرعد، في قوله - جلَّ وعلا -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[2]، فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

٤ - الموضع الرابع في سورة طه: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[3].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

---

(١) سورة يونس: ٣ - ٦ .
(٢) سورة الرعد: ٢ ـ ٤ .
(٣) سورة طه: ١ - ٨ .

٥ - الموضع الخامس في سورة الفرقان في قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[1].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا الكمال والجلال ؟

٦ - الموضع السادس في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الغاية من الجلال والكمال ؟

٧ - الموضع السابع في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[3].

---

(١) سورة الفرقان: ٥٨ - ٥٩ .
(٢) سورة السجدة: ٣ - ٩ .
(٣) سورة الحديد: ٣ - ٤ .

فالشاهد أن هـذه الصفات التي يظن الجاهلون أنهـا صفة نقص ويتهـجمون على رب السموات والأرض بأنه وصف نفسه بصـفة نقص . ثم يسببون عن هذا أن ينفـوها ويؤولوها ، مع أن الله - جلَّ وعـلا - تمدَّح بهـا ، وجعلهـا من صفات الجلال والكمال ، مقرونة بما يبهر من صفات الجلال والكمال ، وهذا يدل على جـهل وهوس من ينـفي بعض صـفـات الله - جلَّ وعـلا - بالتأويل .

المطلب السادس

قواعد مهمة في صفات الله وأسمائه

هناك عدة قواعد مهمة ، ونقاط رئيسة ، نبه إليها العلماء في هذا الباب نسوقها موجزة مختصرة .

القاعدة الأولى: القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر: [1]

بهذه القاعدة نرد على عدة طوائف:

أ ـ الذين يثبتون بعض الصفات وينفون بعضها ، كالذين يثبتون لله الحياة، والعلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والإرادة ، ويجعلونها صفات حقيقية ، ثم ينازعون في محبة الله ورضاه ، وغضبه وكراهيته ، ويجعلون ذلك مجازاً ، أو يفسرونه بالإرادة ، أو يفسرونه بالنعم والعقوبات.

فيقال لهؤلاء: لا فرق بين ما أثبتموه وما نفيتموه ، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر ، فإن كنتم تقولون: حياته وعلمه كحياة المخلوقين وعلمهم، فيلزمكم أن تقولوا في رضاه ومحبته كذلك .

وإن قلتم له حياة وعلم وإرادة تليق به ولا تشبه حياة المخلوقين وعلمهم وإرادتهم ، فيلزمكم أن تقولوا في رضاه ومحبته وغضبه كذلك.

وإن قلتم: إن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام ، فكذلك يقال: الإرادة ميل النفس إلى جلب مصلحة أو دفع مضرة ، فإن قلتم: هذه إرادة مخلوق ، قلنا: هذا غضب مخلوق .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٧/٣ .

ب ـ **الذين يثبتون الأسماء وينفون الصفات** ، فيقولون حي بلا حياة ، عليم بلا علم . . . الخ .

فهؤلاء يقال لهم: لا فرق بين إثبات الأسماء ، وإثبات الصفات ، فإنك إن قلت إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي التشبيه أو التجسيم لأنا لا نجد متصفاً بالصفات إلا وهو جسم ، قلنا: وكذلك في الأسماء ، إذ لا نجد ما هو مسمى بحي وعليم وقدير إلا ما هو جسم ، فانف أسماء الله ، فإن قالوا: هذه الأسماء تليق بكماله وجلاله ، قلنا: وكذلك صفاته .

جـ ـ **الذين ينفون الأسماء والصفات** ، فإنهم بزعمهم ينفون ذلك حتى لا يشبهوا الله بالموجودات ، فيقال لهم: نفيتم علمه وحياته كما نفيتم أنه عليم حي خشية أن تشبهوه بالموجودات ، ولكن يلزم قولكم هذا تشبيه الله بالمعدومات .

القاعدة الثانية [1] : القول في الصفات كالقول في الذات:

فالله ـ سبحانه ـ له ذات لا تشبه ذوات المخلوقين ، وكذلك صفاته وأفعاله لا تشبه ذوات المخلوقين وأفعالهم .

إذ يلزم من أقر بأن الله حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء أن يقول: إن سمعه وبصره وكلامه الثابت في نفس الأمر لا يشابهه سمع المخلوقين ولا بصرهم ولا كلامهم .

فإن قال قائل: أنا أنفي استواء الله خشية من تشبيه الله بخلقه ، فيقال له: انف وجود الله وذاته ، لأنه يلزم من ذلك تشبيه الله بخلقه ، فإن قال: لله وجود يخصه ، وذات تخصه لا تشبه ذوات المخلوقين ، قلنا: وكذلك نزوله واستواؤه .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/ ٢٥ .

القاعدة الثالثة: الاتفاق في الأسماء لا يقتضي التساوي في المسميات:

فإننا نعلم أن ما أخبرنا الله تعالى به مما في الجنة من لبن وعسل وخمر حق، وهذه الحقائق وإن كانت موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا فإنها لا تماثلها، بل بينها وبين ما في الدنيا من المباينة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فالخالق أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، بل قد تسمي في الدنيا عدة أشياء باسم واحد، ويكون لكل واحد حقيقة تخصه، فإننا نقول مثلاً: يد الجمل، ويد المحفظة، ويد الإنسان، واليد في كل لفظة من الألفاظ الثلاثة لها معنى يخصها.

القاعدة الرابعة: لا يوصف الله بالنفي المحض:

أثبت الله سبحانه وتعالى لنفسه أسماء وصفات، ونفى عن نفسه أسماء وصفات.

والإثبات والنفي في أسمائه وصفاته مجمل ومفصل، فالإثبات المجمل يكون بإثبات الثناء المطلق، والحمد المطلق، والمجد المطلق لله تعالى، ونحو ذلك كما يشير إليه قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2].

وأما التفصيل في الإثبات فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت في الكتاب والسنة.

والنفي المجمل يكون بأن ينفي عن الله - عزَّ وجلَّ - كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[3] وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[4].

وأما التفصيل في النفي فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه، فينزه عن الوالد والولد والشريك والصاحبة والند

---

(١) سورة الفاتحة.
(٢) سورة النحل: ٦٠.
(٣) سورة الشورى: ١١.
(٤) سورة مريم: ٦٥.

والجهل والعجز والسنة والنوم والعبث ... الخ .

إلا أن منهج القرآن في النفي أن لا ينفي نفياً محضاً ، فلا ينفي القرآن صفة نقص عن الله إلا إذا كانت متضمنة صفة مدح وكمال ، فلا ينفي نفياً مجرداً، كما تفعل بعض الفرق[1]، فقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾[2]فيه نفي السنة والنوم عن الله تعالى، ونفيهما يتضمن كمال الحياة والقيام، فمن كمال حياته: ألا تأخذه سنة (وهي أوائل النوم) ولا نوم، وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾[3]مستلزم لكمال قدرته وتمامها، إذ المعنى (لا يكرثه ولا يثقله).

ومثل ذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4] فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض.

وكذلك قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[5] فإن نفي اللغوب (وهو التعب والإعياء) دل على كمال القدرة ونهاية القوة. وكذلك قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[6] أي لا تحيط به الأبصار فهو وإن رئي في الآخرة، ولكنه لعظمته - سبحانه - لا تحيط به الأبصار.

وكذلك كل ما نفاه الله عن نفسه ، فإنه يستلزم صفة ثبوتية يمدح الله بها.

ولم يصف الله نفسه بنفي محض لا يستلزم صفة ثبوتية ، وبذلك يتضح أن الذين يتجهون إلى الإكثار من النفي (أو ما يسمونه السلوب) أخطئوا ؛

(١) الجهمية المحضة . انظر مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٩ .
(٢) سورة البقرة: ٢٥٥ .
(٣) سورة البقرة: ٢٥٥ .
(٤) سورة سبأ: ٣.
(٥) سورة ق: ٣٨ .
(٦) سورة الأنعام: ١٠٣ .

لأن النفي ليس فيه مدح ولا كمال ما لم يتضمن إثباتاً ؛ لأن النفي المحض عدم محض ، والعدم المحض ليس بشيء .

وقد أكثر المبتدعون من النفي المحض فقالوا: لا يتكلم ، ولا يرى ، وليس فوق العالم ، وغلا بعضهم فقالوا: ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا مباينا للعالم ، ولا مخالطا له ... إلى آخر هذا الكلام الغث الذي يجعلون الله به عدماً ... تعالى وتقدس .

القاعدة الخامسة: الألفاظ الموهمة حقاً وباطلا[1]:

الصفات التي وردت في الكتاب والسنة حق يجب الإيمان بها ، وإن لم نفقه معناها .

أما ما يطلقه الناس على الله ـ سبحانه ـ مما لم يرد في الكتاب والسنة مما يتنازع فيه الناس فلا نثبته ولا ننفيه حتى نتبين مراد قائله منه .

فمثلاً يقال لمن نفى الجهة: ماذا تعنى بالجهة ؟ إن كنت تعني أن الله في داخل جرم السماء، وأن السماء تحويه ، فلا يجوز أن نقول: إن الله في جهة، وإن كنت تريد أن الله فوق مخلوقاته فوق السموات فهذا حق.

وكذلك التحيز ، إن كان المراد أن الله تحوزه المخلوقات فهذا باطل قطعاً، وإن أراد أنه منحاز عن المخلوقات أي مباين لها فهذا حق .

القاعدة السادسة: التعطيل سببه اعتقاد التشبيه أولا:

وقد وضح هذه القاعدة العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى، وبين أن أصل البلاء وأسه هو تنجس القلب وتلطخه وتدنسه بأقذار التشبيه ، فإذا سمع ذو القلب المتنجس بأقذار التشبيه صفة من صفات الكمال، التي أثنى الله بها على نفسه ، كنزوله إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الأخير ، وكاستوائه على عرشه ، وكمجيئه يوم القيامة ، وغير ذلك من صفات الجلال والكمال ، فإن أول ما يخطر في ذهنه أن هذه الصفة

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/ ٤١ .

تشبه صفة الخلق ، فيكون قلبه متنجساً بأقذار التشبيه ، لا يقدّر الله حق قدره، ولا يعظم الله حق عظمته ، حيث يسبق إلى ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق ، فيكون أولا نجس القلب متقذراً بأقذار التشبيه ، فيدعوه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي صفة الخالق - جلّ وعلا - عنه ، بادعاء أنها تشبه صفات المخلوق ، فيكون أولاً مشبهاً، وثانياً معطلاً ، فصار ابتداء وانتهاءً متهجماً على رب العالمين ، ينفي صفاته عنه بادعاء أن تلك الصفة لا تليق به .

وذكر الشيخ - رحمه الله تعالى - قاعدة أصولية أطبق عليها من يعتد به من أهل العلم . وهي أن النبي ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة ، ولا سيما في العقائد . ولو مشينا على فرضهم الباطل ، أن ظاهر آيات الصفات الكفر ، فالنبي ﷺ لم يؤول الاستواء (بالاستيلاء) ، ولم يؤول شيئاً من هذه التأويلات ، ولو كان المراد بها هذه التأويلات لبادر النبي ﷺ إلى بيانها ؛ لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة.

وبين الشيخ - رحمه الله تعالى - أن الواجب على المسلم إذا سمع وصفاً وصف به خالق السموات والأرض نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ أن يملأ صدره من التعظيم ، ويجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال والشرف والعلو ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين ، فيكون القلب منزّها معظما له جلّ وعلا ، غير متنجس بأقذار التشبيه ، فتكون أرض قلبه قابلة للإيمان والتصديق بصفات الله التي تمدّح بها، وأثنى عليه بها نبيه ﷺ، على غرار قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (1)، والشر كل الشر في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق ، فيضطر المسكين أن ينفي صفة الخالق بهذه الدعوى الكاذبة الخائنة .

---

(1) سورة الشورى : ١١ .

القاعدة السابعة: آيات الصفات ليست من المتشابه:

ذكر الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله ـ أن كثيراً من الناس يطلق على آيات الصفات اسم المتشابه ، وهذا من جهة غلط ، ومن جهة قد يَسُوغ كما بينه الإمام مالك بن أنس بقوله: « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب » .

كذلك يقال في النزول: النزول غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ، واطرده في جميع الصفات ؛ لأن هذه الصفات معروفة عند العرب ، إلا أن ما وصف به خالق السموات والأرض منها أكمل وأجل وأعظم من أن يشبه شيئاً من صفات المخلوقين ، كما أن ذات الخالق ـ جلَّ وعلا ـ حق ، والمخلوقون لهم ذوات ، وذات الخالق ـ جلَّ وعلا ـ أكمل وأنزه وأجل من أن تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين .

القاعدة الثامنة: ليس ظاهر الصفات التشبيه حتى تحتاج إلى تأويل:

المقرر في الأصول أن الكلام إن دل على معنى لا يحتمل غيره فهو المسمى (نصاً) كقوله تعالى: مثلاً ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ ، فإذا كان يحتمل معنيين أو أكثر فلا يخلو من حالتين: إما أن يكون أظهر في أحد الاحتمالين من الآخر ، وإما أن يتساوى بينهما .

فإن كان الاحتمال يتساوى بينهما فهذا الذي يسمى في الاصطلاح: (المجمل) كما لو قلت: (عدا اللصوص البارحة على عين زيد) فإنه يحتمل أن تكون عينه الباصرة عوروها ، أو عينه الجارية غوروها ، أو عينه ذهباً وفضة سرقوها ، فهذا مجمل ، وحكم المجمل أن يتوقف عنه إلا بدليل يدل على التفصيل .

أما إذا كان نصا صريحاً ، فالنص يعمل به ، ولا يعدل عنه إلا بثبوت النسخ .

فإذا كان أظهر في أحد الاحتمالين فهو المسمى بـ (الظاهر)، ومقابله

يسمى (محتملاً مرجوحاً)، والظاهر يجب الحمل عليه إلا لدليل صارف عنه ، كما لو قلت: « رأيت أسداً » فهذا ظاهر في الحيوان المفترس ، محتمل للرجل الشجاع .

وعلى ذلك فهل المتبادر من آيات الصفات من نحو قوله : ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ وما جرى مجرى ذلك هو مشابهة الخلق ، حتى يجب علينا أن نؤول ونصرف اللفظ عن ظاهره ؟ أو ظاهرها المتبادر منها تنزيه رب السموات حتى يجب علينا أن نقره على الظاهر من التنزيه ، والجواب: أن كل وصف أسند إلى رب السموات والأرض ، فظاهره المتبادر منه عند كل مسلم هو التنزيه الكامل عن مشابهة الخلق .

فإقراره على ظاهره هو الحق ، وهو تنزيه رب السموات والأرض عن مشابهة الخلق في شيء من صفاته . فهل ينكر عاقل أن المتبادر للأذهان السليمة أن الخالق ينافي المخلوق في ذاته وسائر صفاته . لا والله لا يعارض في هذا إلا مكابر .

القاعدة التاسعة: حقيقة التأويل: [1]

التـأويل الذي فتن به الخلق ، وضـل به الآلاف من هذه الأمـة يطلق في الاصطلاح مشتركاً بين ثلاثة معان:

١ - يطلق على ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال، وهذا هو معناه في القرآن نحو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[2]، ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾[3]، ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ ﴾[4]؛ أي ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال.

٢ ـ ويطلق التـأويل بمعنى التفسير ، وهذا قول معروف كقول ابن جرير: القول في تأويل قوله تعالى كذا ، أي تفسيره .

٣ ـ أما في اصطلاح الأصوليين فالتأويل: هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل .

وصـرف اللفظ عـن ظاهره المتـبـادر منه له عـند علمـاء الأصـول ثلاث حالات:

أ ـ إما أن يصرفه عن ظاهره المتبـادر منه لدليل صحيح من كتاب أو سنة، وهذا النوع من التأويل صحيح مقبـول لا نزاع فيه . ومثال هذا النوع ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قـال: (الجار أحق بصقـبه)[5] فظاهر هذا الحـديث ثبوت الشفعة للجار .

وحمل هذا الحديث على الشريك المقاسم حمل للفظ على محتمل مرجوح غيـر ظاهر متبـادر ، إلا أن حـديث جـابر الصـحيـح (فإذا وقـعت الحـدود وصـرفت الـطرق فـلا شـفـعـة)[6] دل على أن المراد بالجـار الذي هو أحق

---

(١) ألفت في هذا الموضوع رسالة بعنوان: التأويل خطورته وآثاره .

(٢) سورة النساء: ٥٩ .

(٣) سورة يونس: ٣٩ .

(٤) سورة الأعراف: ٥٣ .

(٥) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة . (منتقى الأخبار: ص: ٤٩٢ . ورقمه: ٣١٧٧) .

(٦) رواه البخاري وأبو داود والترمذي وأحمد . (منتقى الأخبار: ص: ٤٩٢) .

بصقبه خصوص الشريك المقاسم . فهذا النوع من صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل واضح من كتاب وسنة يجب الرجوع إليه ، وهذا تأويل يسمى تأويلاً صحيحاً وتأويلاً قريباً .

ب ـ الثانية هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لشيء يعتقده المجتهد دليلاً ، وهو في نفس الأمر ليس دليلاً ، فهذا يسمى تأويلاً بعيداً ، ويقال له: فاسد . ومثل له بتأويل أبي حنيفة لفظ: (امرأة) في قوله ﷺ: (أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل)[1] قالوا حمل هذا على خصوص المكاتبة تأويل بعيد ، لأنه صرف للفظ عن ظاهره المتبادر منه، لأن (أي) في قوله (أي امرأة) صيغة عموم.

وأكدت صيغة العموم بما المزيدة للتوكيد ، فحمل هذا على صورة نادرة هي المكاتبة حمل للفظ على غير ظاهره من غير دليل .

جـ ـ أما حمل اللفظ على غير ظاهره لا لدليل: فهذا لا يسمى تأويلا في الاصطلاح بل يسمى لعباً ، لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ . ومن هذا تفسير غلاة الروافض قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾[2] قالوا: عائشة.

ومن هذا النوع صرف آيات الصفات عن ظواهرها إلى محتملات ما أنزل الله بها من سلطان ، كقولهم: (استوى) بمعنى : استولى . فهذا لا يدخل في اسم التأويل ، لأنه لا دليل عليه ألبتة . وإنما يسمى في اصطلاح أهل الأصول: لعباً ، لأنه تلاعب بكتاب الله ـ جلّ وعلا ـ من غير دليل ولا مستند . فهذا النوع لا يجوز ؛ لأنه تهجم على كلام رب العالمين ، والقاعدة المعروفة عند علماء السلف أنه لا يجوز صرف شيء من كتاب الله ولا سنة رسوله عن ظاهره المتبادر منه ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد (منتقى الأخبار: ٥٣٩ ، ورقمه: ٣٤٥٢) .
(٢) سورة البقرة: ٦٧ .

المطلب السابع
مذهب أهل السنة والجماعة في صفات الله

لخص ابن تيمية مذهب السلف الصالح في هذا الباب فقال:

« فالأصل في هذا الباب أن يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ نفياً وإثباتاً ، فيثبت لله ما أثبته لنفسه ، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه .

وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل »[1] .

وقد حذرنا الله من الانحراف عن النهج الذي قرره الله في كتابه في أسمائه تعالى وصفاته، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ «وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمة القبر »[2] .

وقال تعالى منزهاً نفسه عما يصفه به الملحدون في أسمائه الضالون المشركون: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3] ، ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[4]، واستثنى من ذلك ما وصفه به عباده المخلصون ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾[5] ، وفي الآية الأخرى سلم على المرسلين لسلامة ما قالوه: ووصفوا الله به ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾[6].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/٣ . وقد قرر عقيدة السلف جمع كبير من العلماء ، منهم الطحاوي ، وقد شرح عقيدته محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي في مؤلف معنون بـ (بشرح العقيدة الطحاوية) ، وأبو الحسن الأشعري في كتابه الجليل (الإبانة عن أصول الديانة) ، والصابوني في كتابه (عقيدة السلف) ، وغيرهم كثير ، ونحن اقتفينا أثرهم ، وسرنا على دربهم ، سائلين الله أن يحشرنا في زمرتهم في يوم الدين .

(٢) معارج القبول: ١/٨٨ .

(٣) سورة الصافات: ١٥٩ .

(٤) سورة الصافات: ١٨٠.

(٥) سورة الصافات: ١٦٠ .

(٦) سورة الصافات: ١٨١ .

عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري في صفات الله

يشغب بعض من لم يرتض مذهب أهل السنة على أهل السنة مدعياً أن مذهب الأشاعرة يخالف هذا الذي قررناه ، ويدعي أن مذهبهم مذهب أهل السنة ، ونحن نورد هنا المذهب الذي حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة وأصحاب الحديث ، ونص في ختامه أنه معتقده قائل به .

عنون لهذا المبحث بقوله: « هذه حكاية جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة » ثم قال: « جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردّون من ذلك شيئاً [1] ، وأن الله سبحانه إلهٌ واحد فرد صمد لا إله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنّة حقٌ ، وأن النار حقٌ ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

وأن الله سبحانه على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [2] ، وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [3] وكما قال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [4] ، وأن له عينين بلا كيف كما قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [5] ، وأنّ له وجهاً كما قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [6] .

وأن أسماء الله لا يقال: إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج ، وأقرّوا أن لله سبحانه علماً كما قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [7] وكما قال: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ [8] .

---

(١) لاحظ كيف جعل صحيح الحديث حجّة في العقائد ؛ لأن كلامه هنا في العقائد لا الأحكام ، فهو لا يفرق بين المتواتر والآحاد ، وفعله في استدلاله على مسائل الاعتقاد في كتبه يدل على صحة ما قررناه .

(٢) سورة طه: ٥ .

(٣) سورة ص: ٧٥ .

(٤) سورة المائدة: ٦٤ .

(٥) سورة القمر : ١٤ .

(٦) سورة الرحمن: ٢٧ .

(٧) سورة النساء : ١٦٦ .

(٨) سورة فاطر: ١١ .

وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة ، وأثبتوا لله القوة كما قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾[1] .

ويقولون إنّ القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام في الوقف واللفظ من قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم ، لا يقال: اللفظ بالقرآن مخلوق ، ولا يقال: غير مخلوق .

ويقولون إنّ الله سبحانه يُرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون ، ولا يراه الكافرون ؛ لأنهم عن الله محجوبون قال عزّ وجلّ : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[2] ، وأن موسى عليه السلام سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا ، وأن الله سبحانه تجلى للجبل فجعله دكاً، فأعلمه بذلك أنه لا يراه في الدنيا ، بل يراه في الآخرة.

ويصدّقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ أن الله سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : (هل من مستغفر) كما جاء الحديث عن رسول الله ﷺ، ويقرون أن الله سبحانه يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[3]، وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[4].

وختم أبو الحسن الأشعري جملة ما حكاه عن أهل السنة وأصحاب الحديث بقوله: « فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول ، وإليه نذهب ، وما توفيقنا إلا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وبه نستعين ، وعليه نتوكل ، وإليه المصير »[5].

وبهذا النقل يتضح لك موافقة معتقد أبي الحسن الأشعري لمعتقد أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله وصفاته[6].

---

(١) سورة فصلت: ١٥ .

(٢) سورة المطففين: ١٥ .

(٣) سورة الفجر: ٢٢ .

(٤) سورة ق: ١٦ .

(٥) راجع مقالات الإسلاميين : ص٢٩٠ ـ ٢٩٧ ، وقد اقتصرنا على نقل ما يتعلق بصفات الله فحسب ، أما بقية معتقد أهل السنة وأهل الحديث الذي رضيه فلم ننقله منه .

(٦) وقد ألفت رسالة لطيفة تبين معتقد أبي الحسن الأشعري ومنهجه.

الفصل الثالث

توحيد الله[1]

المبحث الأول: معناه وأقسامه

الله ـ سبحانه ـ واحد في ذاته، ليس له مثيل ولا نظير، تعالى عن الصاحبة والوالد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[2] وهو سبحانه متصف بصفات الكمال، لا يشبهه شيء من مخلوقاته في صفة من صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3] وهو وحده الخالق المحيي المميت قيوم السموات والأرض، ولا يعد مؤمنا من لم يعلم علماً يقينياً بأن الله متفرد بذلك كله.

لا يكفي التوحيد العلمي، بل لا بدَّ من التوحيد العملي:

إلا أن هذا التوحيد النظري لا يكفي كي يعد المرء مؤمناً، بل لا بد من اتخاذه وحده إلهاً معبوداً بالتوجه إليه بالعبادة دون سواه.

لأن الخالق الرزاق المنعم المتفضل المحيي المميت المتصف بصفات الكمال المنزه عن صفات النقص هو المستحق أن يعبد دون سواه، فغيره مربوب مألوه لا يملك لنفسه ضراً ولانفعاً، فكيف يعبد من دون الله تعالى؟

---

(١) التوحيد الحق: الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه في ذاته وصفاته، ثم عبادته وحده لا شريك له، وقد حرف هذا المفهوم، فزعم قوم أن التوحيد يقتضي نفي صفات الله، لأنه يلزم منه بزعمهم تعدد الواجب، وزعم بعض الصوفية أن التوحيد الذي أشرنا إليه توحيد العامة، أما توحيد الخاصة فهو الذي يثبت بالحقائق، وزعموا أن هناك توحيد خاصة الخاصة، وكل ذلك ضلال.

(٢) سورة الإخلاص: ١ـ ٤.

(٣) سورة الشورى: ١١.

تناقض الذين لا يعبدون الله وحده:

والكفرة من مشركي العرب وكثير غيرهم كانوا يعتقدون بوحدانية الله في الخلق والإيجاد ، وتفرده في الرزق والإحياء والإماتة والملك، ولكنهم يرفضون عبادته وحده دون غيره ، وقصده دون سواه ، وهذا تناقض شنيع، فالمتفرد بالخلق والإيجاد هو المستحق للعبادة والخضوع والتعظيم ، وقد أطال القرآن في مناقشة المشركين وبيان تناقضهم في هذا وبين لهم أن الذي أقروا به من تفرده بالخلق والرزق ... الخ يلزمهم بعبادته وإخلاص الدين له .

المبحث الثاني

كلمة التوحيد: معناها، فضلها، شروطها

(لا إله إلا الله) كلمة التوحيد ، جمعت الإيمان واحتوته، وهذه الكلمة عنوان الإسلام وأساسه .

ومعناها: لا معبود يستحق العبادة إلا الله سبحانه ، وقد أخطأ من فسرها بأنه لا موجود إلا الله ، لأن معنى الإله: المعبود ، فيصبح المعنى بناء على قول هؤلاء ، لا معبود موجود إلا الله ، وهذا غير صحيح ؛ لأنه يلزم منه أنَّ كلَّ معبود بحق أو باطل هو الله ، فيكون ما عبده المشركون من شمس وقمر ونجوم ... الخ هو الله ، فكأنه قيل: ما عبد على هذا التقدير إلا الله، وهذا من أبطل الباطل .

فالمعنى الصحيح المتعين هو ما ذكرناه أولاً: أنه لا معبود يستحق العبادة إلا الله وحده .

وقد جاءَت النصوص دالة على فضل (لا إله إلا الله) ، وعظيم نفعها، وقد سبق ذكر النصوص الدالة على أن من قال: (لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة) . وبهذه الكلمة يعصم العبد ماله ودمه، ويصبح مسلماً .

ولكن ليس المراد بهذه الكلمة مجرد النطق ، فلا تنفع هذه الكلمة قائلها عند ربه إلا بسبعة شروط:

١- العلم بمعناها: قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[1] وقال: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[2].

وفي الصحيح عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)[3].

٢ ـ **اليقين**: بأن يكون القائل مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً ، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا اليقين لا الظن، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾[4] فاشترط في صدق إيمانهم كونهم لم يرتابوا ، أي لم يشكوا ، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيهما فيحجب عن الجنة)[5] .

وفي الصحيح أيضاً أن الرسول ﷺ أرسل أبا هريرة بنعليه قائلاً له: (من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة)[6] فاشترط دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقناً بها قلبه غير شاكّ فيها ، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط .

٣ ـ **القبول لما اقتضته هذه الكلمة** بقلبه ولسانه ، وقد حدثنا القرآن أن الله عذب المكذبين من الأمم الذي رفضوا هذه الكلمة، واستكبروا عنها: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾[7] فجعل الله علة تعذيبهم وسببه هو استكبارهم عن قول لا إله إلا الله، وتكذيبهم من جاء بها.

---

(١) سورة محمد: ١٩ .
(٢) سورة الزخرف: ٨٦ .
(٣) رواه مسلم: ١/٥٥ . ورقمه: ٢٦ .
(٤) سورة الحجرات: ١٥ .
(٥) رواه مسلم: ١/٥٧ . ورقمه: ٢٧ .
(٦) رواه مسلم: ١/٦٠ . ورقمه: ٣١ .
(٧) سورة الصافات: ٣٥ - ٣٦ .

٤- الانقياد لما دلت عليه، قال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾[(1)] وقال: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[(2)]، ومعنى يسلم وجهه أي ينقاد، وهو محسن؛ أي موحد، والعروة الوثقى فسرت (بلا إله إلا الله).

٥ ـ **الصدق**: وهو أن يقولها صادقاً من قلبه ، يواطىء قلبه لسانه ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[(3)] . فهم كاذبون في قولهم ، يبطنون غير ما يعلنون ، وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار)[(4)]، فاشترط في النجاة من النار أن يقولها صدقاً من قلبه .

٦ ـ **الإخلاص**: وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك، قال الله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[(5)] وقال: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[(6)].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: (أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ونفسه)[(7)] .

وفي الصحيح عن عتبان بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: (إن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عزَّ وجلَّ)[(8)] .

---

(١) سورة الزمر: ٥٤ .
(٢) سورة لقمان: ٢٢ .
(٣) سورة البقرة: ٨ ـ ٩ .
(٤) رواه البخاري: ١/٢٢٦ . ورقمه: ١٢٨ .
(٥) سورة الزمر: ٣ .
(٦) سورة البينة: ٥ .
(٧) رواه البخاري: ١/١٩٣ . ورقمه: ٩٩ .
(٨) رواه البخاري: ١/٥١٩ . ورقمه: ٤٢٥ .

٧ ـ المحبة: لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها وبغض ما ناقض ذلك ، قال الله عزَّ وجلَّ :﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1] فأخبر أن عباده المؤمنين اشد حباً له ، وذلك لأنهم لم يتخدوا من دونه أنداداً ، وعلامة حب العبد ربه تقديم محابه ، وإن خالفت هواه ، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه ، وموالاة من والى الله ورسوله ، ومعاداة من عاداه الله ورسوله ، واتباع رسول الله ﷺ واقتفاء أثره وقبول هداه .

إشارة السلف إلى بعض هذه الشروط:

قال الحسن البصري للفرزدق ـ الشاعر المعروف ـ وهو يدفن امرأته: ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة . قال الحسن: نعم العدَّة ، لكن للا إله إلا الله شروطاً ، فإياك وقذف المحصنات.

وقيل للحسن البصري: إن ناساً يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، فقال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال: بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان ، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك ، وإلا لم يفتح لك .

---

(١) سورة البقرة: ١٦٥ .

المبحث الثالث: العبادة

المطلب الأول: تعريف العبادة

التوحيد لا يتحقق إلا بأمرين:

الأول: الشهادة لله بالوحدانية في ذاته وصفاته.

الثاني: قصده وإرادته وحده دون سواه في جميع العبادات.

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فالظاهرة كالتلفظ بالشهادتين والصلاة والصوم، والباطنة كالإيمان بالله وملائكته والكتب والرسل والخوف والرجاء....

المطلب الثاني

العابد هو الذي يتقلب بين الخوف والرجاء

العبادة الحقة هي التي يتقلب صاحبها بين حب الله، والخوف منه والتذلل له، ورجائه والطمع في رحمته.

فالعابد لا حباً ولا خوفاً ولا رجاءً إنما يؤدي حركات جوفاء لا تعني بالنسبة له شيئاً.

والعابد حباً بلا تذلل ولا خوف ولا رجاء كثيراً ما يقع في الذنوب والمعاصي، فيزعم أنه يحب الله ويترك العمل ويتجرأ على الذنوب، وقديماً زعم قوم حب الله من غير عمل فاختبرهم الله بقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] فمن ادعى محبة الله ولم يكن متبعاً رسوله فهو كاذب.

---

(١) سورة آل عمران: ٣١.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: « إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ، ويطير في الهواء فلا تصدقوه حتى تعلموا متابعته لرسول الله » .

وكذلك الرجاء وحده إذا لم يقترن بخوف الله وخشيته فإن صاحبه يتجرأ على معاصي الله، ويأمن مكره: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

وكذلك الخوف إذا لم يقترن بالرجاء فإن العابد يسوء ظنه بالله ، ويقنط من رحمته، وييأس من روحه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

فالعبادة الحقة هي التي يكون صاحبها بين الخوف والرجاء ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[3]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[4] وبين الرغبة والرهبة كما قال تعالى في آل زكريا عليهم السلام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[5].

فالعبد الصالح تارة يمده الرجاء والرغبة ، فيكاد يطير شوقاً إلى الله ، وطوراً يقبضه الخوف والرهبة فيكاد أن يذوب من خشية الله تعالى ، فهو دائب في طلب مرضاة ربه مقبل عليه خائف من عقوباته ، ملتجىء منه إليه، عائذ به منه ، راغب فيما لديه .

---

(١) سورة الأعراف: ٩٩ .
(٢) سورة يوسف: ٨٧ .
(٣) سورة الإسراء: ٥٧ .
(٤) سورة الزمر: ٩ .
(٥) سورة الأنبياء: ٩٠ .

المطلب الثالث: أركان العبادة

للعبادة أركان ثلاثة:

الأول: الإخلاص: بأن يقصد العبد وجه ربه والدار الآخرة ، قال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه) [1] وترك الإخلاص يبطل العبادة .

الثاني: الصدق: ونريد به الصدق في العزيمة ، بأن يبذل العبد جهده في امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، والاستعداد للقائه ، وترك العجز ، وترك التكاسل عن طاعة الله .

الثالث: متابعة الرسول ﷺ ، فلا يعبد الله إلا وفق ما شرعه الله ، وما جاء به الرسول ﷺ، أمَّا أن يعبد الناس ربهم بغير علم فهذه هي البدعة التي حذر منها الرسول ﷺ وذم فاعلها ، وأخبر أن عمله ضلالة. فقال: «كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » . وصاحب البدعة عمله مردود عليه غير مقبول منه .

ففي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » [2] .

لا عبادة إلا بهذه الأركان:

فما لم توجد العزيمة الصادقة لا توجد العبادة ، إذ تصبح العبادة تمنيات وآمالا لا يكاد يهم المرء بفعلها حتى تخبو إرادته وتنحل . وما لم يوجد الإخلاص ومتابعة الرسول ﷺ فإن العبادة لا يقبلها الله تعالى .

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، وهو حديث مشهور تغني شهرته عن تخريجه . وانظر كتابنا « مقاصد المكلفين » ص: ٥١٩ ، فقد ذكرنا فيه طرقه ومخرجيه .

(٢) عزاه ابن الأثير في جامع الأصول: ١/ ٢٨٩ ، ورقمه: ٧٥ إلى البخاري ومسلم وأبي داود .

المطلب الرابع

أنواع العبادات التي لا يجوز أن يقصد بها غير الله

والعبادات التي لا يجوز أن يقصد ويراد بها غير الله أنواع:

الأول: عبادات اعتقادية:

وهذه أساس العبادات كلها ، وهي أن يعتقد العبد أن الله هو الرب الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر ، وبيده النفع والضر ، الذي لا شريك له ، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، وأنه لا معبود بحق غيره .

الثاني: عملية قلبية:

والعبادات القلبية التي لا يجوز أن يقصد بها إلا الله وحده ، وصرفها لغيره شرك كثيرة ، كالخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، والخشوع والخشية، والحب ، والإنابة ، والتوكل والخضوع .

الثالث: قولية:

كالنطق بكلمة التوحيد ؛ إذ لا يكفي اعتقاد معناها ، بل لا بد من النطق بها ، وكالاستعاذة بالله ، والاستعانة والاستغاثة به ، والدعاء له، وتسبيحه، وتمجيده ، وتلاوة القرآن .

الرابع: بدنية:

كالصلاة ، والصوم ، والحج ، والذبح ، والنذر ، وغير ذلك .

الخامس: مالية:

كالزكاة ، وأنواع الصدقات ، والكفارات ، والأضحية ، والنفقة .

المبحث الرابع

ما يضاد التوحيد وينافيه

الذي ينافي التوحيد ويضاده الشرك ، يقال شركته في الأمر إذا صرت له شريكاً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴾[1]؛ أي اجعله شريكي فيه.

الشرك نوعان: وفي مصطلح الشريعة الإسلامية الشرك نوعان:

الأول: الشرك الأكبر:

والمشرك شركاً أكبر هو الذي يجعل مع الله رباً آخر كشرك النصارى الذي جعلوه ثالث ثلاثة ، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة ، وكشرك الصابئة الذين ينسبون الى الكواكب العلوية تدبير أمر العالم ، ومثل هؤلاء كثير من عباد القبور الذين يزعمون بأن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت ، فيقضون الحاجات، ويفرجون الكربات ، وينصرون من دعاهم ، ويحفظون من التجأ إليهم ، ولاذ بحماهم . ومن الشرك الأكبر أن يجعل مع الله إلهاً آخر: ملكاً ، أو رسولاً، أو ولياً ، أو شمساً ، أو قمراً ، أو حجراً، أو بشراً ، يعبد كما يعبد الله ، وذلك بدعائه والاستعانة به ، والذبح له والنذر له ، وغير ذلك من أنواع العبادة .

لا تشترط مساواة الشريك لله حتى يصبح شركاً:

ولا يشترط أن يساوي المشرك في شركه مع الله غيره من كل وجه ، بل يسمى مشركا في الشرع بإثباته شريكاً لله ، ولو جعله دونه في القدرة والعلم مثلا.

فأما حكايته تعالى عن المشركين قولهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾

---

(١) سورة طه: ٣٢ .

﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، فهي التسوية في المحبة والخوف والرجاء والطاعة والانقياد، لا في القدرة على الخلق والإيجاد، لأنهم كانوا يقولون بوحدانيته في الخلق والإيجاد.

خطورة هذا الشرك:

الشرك الأكبر في غاية الخطورة فهو: يحبط العمل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وقال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3].

وصاحبه خالد مخلد في نار جهنم لا يغفر الله له، ولا يدخله الجنّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[4]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[5].

أعظم جريمة وأفظع ظلم:

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: (أن تدعو لله نداً وهو خلقك) متفق عليه[6]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[7]، وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[8].

---

(١) سورة الشعراء: ٩٧ - ٩٨ .
(٢) سورة الأنعام: ٨٨ .
(٣) سورة الزمر: ٦٥ .
(٤) سورة النساء: ٤٨ .
(٥) سورة المائدة: ٧٢ .
(٦) مشكاة المصابيح: ١/٢١، ورقمه: ٤٩ .
(٧) سورة لقمان: ١٣ .
(٨) سورة النساء: ٤٨ .

النوع الثاني: الشرك الأصغر:

والشرك الأصغر كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، وعدم الإخلاص لله تعالى في العبادة، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب المنزلة والجاه تارة، فلله من عمله نصيب، ولغيره منه نصيب، ويتبع هذا النوع الشرك بالله في الألفاظ كالحلف بغير الله، وقول: ما شاء الله وشئت، وما لي إلا الله وأنت.

وقد يكون شركاً أكبر بحسب قائله ومقصده.

وهذا النوع من الشرك: (الشرك الأصغر) وإن كان لا يُخْرِجُ من الملة فإن صاحبه على خطر عظيم، ينقص من أجره شيء كثير، وقد يحبط منه العمل، ففي الصحيحين عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[1].

وفي صحيح مسلم فيما يرويه الرسول ﷺ عن ربه: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[2].

وفي المسند أن الرسول ﷺ قال: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: (الرياء). وزاد البيهقي في شعب الإيمان: (يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً وخيراً)[3].

وفي النهي عن هذا الشرك نزل قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[4].

---

(١) رواه البخاري: ٢٨/٦ . ورقمه: ٢٨١ . ورواه مسلم : ١٥١٢/٣ . ورقمه: ١٩٠٤ .
(٢) رواه مسلم . انظر جامع الأصول: ٥٤٥/٤ . ورقمه: ٢٦٥١ .
(٣) مشكاة المصابيح: ٦٨٧/٢ ، ورقمه: ٥٣٣٤ .
(٤) سورة الكهف: ١١٠ .

الفصل الرابع
نظرة في تاريخ العقيدة

المبحث الأول: هل تطورت العقيدة عبر الزمان

يرى كثير من الباحثين الغربيين أن الإنسان لم يعرف العقيدة على ما يعرفها عليه اليوم مرة واحدة ، ولكنها ترقت ، وتطورت في فترات وقرون متعاقبة.

ولا عجب أن يقول بهذا القول الباطل قوم لم يمنحهم الله كتابه الذي يحكي تاريخ العقيدة بوضوح لا لبس فيه ، إلا أن العجيب أن يذهب هذا المذهب رجال يعدون أنفسهم باحثين مسلمين .

فهذا عباس محمود العقاد يرى في كتابه (الله) [1] ـ وهو كتاب يبحث في نشأة العقيدة الإلهية ـ أن « الإنسان ترقى في العقائد » ، ويرى أن ترقي الإنسان في العقائد موافق تماماً لترقيه في العلوم .

ويقول « كانت عقائد الإنسان الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليس أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليس عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى » .

بل يرى أن تطور العقيدة لدى الإنسان كان أشق من تطور العلوم والصناعات ، يقول في هذا: « وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدّين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات ؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى » .

---

(١) نشرته دار الهلال ـ القاهرة: انظر: ص:١٠ وما بعدها .

ويرى أن الحقيقة الإلهية لم تتجل للناس مرة واحدة ، يقول: «فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدلّ على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال ، كل ما يدلّ عليه أنّ الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد » .

ثم أخذ يستعرض آراء الباحثين في تاريخ العقيدة ، فمنهم من يرى أنّ السبب في نشأة العقيدة هو ضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه من قوى الطبيعة والأحياء . . .، وبعضهم يرى أن العقيدة الدينية حالة مرضية في الآحاد والجماعات، ويرى البعض أن أصل العقيدة الدينية عبادة « الطوطم »، كأن تتخذ بعض القبائل حيواناً (طوطمياً) تزعمه أباً لها . وقد يكون شجراً أو حجراً يقدسونه ، إلى آخر تلك الفروض التي قامت في أذهان الباحثين الغربيين .

ومع الأسف فقد سرت هذه النظرية[1] إلى كثير من الكتَّاب ، واعتنقها جملة من الدارسين[2] ، والذي أوقع هؤلاء في هذا الخطأ أمور:

الأول: أنهم قدَّروا أن الإنسان الأول خلق خلقاً ناقصاً ، غير مؤهل لأن يتلقى الحقائق العظمى كاملة ، بل إن تصوراتهم عن الإنسان الأول تجعله أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان .

الثاني: أنهم ظنوا أن الإنسان اهتدى إلى العقيدة بنفسه بدون معلم يعلمه، ومرشد يوضح له . فما دام الأمر كذلك فلا بد أن يترقى في معرفته بالله كما ترقى في العلوم والصناعات .

الثالث: أنهم عندما بحثوا في الأديان ليتبينوا تاريخها لم يجدوا أمامهم إلا تلك الأديان المحرفة أو الضالة ، فجعلوها ميدان بحثهم ، فأخضعوها للدراسة والتمحيص ، وأنى لهم أن يعرفوا الحقيقة من تلك الأديان التي تمثل انحراف الإنسان في فهم العقيدة .

---

(١) ممن جنح إلى القول بهذه النظرية مصطفى محمود في كتابه (الله) .
(٢) لست أدري أي عقيدة هذه التي تطورت ، أهي العقيدة اليهودية المحرفة ، أم النصرانية المبدلة ، أم عقيدة الفلاسفة . . . إن هذه العقائد لا تمثل إلا انحرافات عقائدية ، ولا تمثل العقيدة السليمة

القرآن وحده يوضح تاريخ العقيدة:

ليس هناك كتاب في الأرض يوضح تاريخ العقيدة بصدق إلا كتاب الله سبحانه وتعالى ، ففيه علم غزير في هذا الموضوع ، وعلم البشر لا يمكن أن يدرك هذا الجانب إدراكاً وافياً لأسباب:

الأول: أن ما نعرفه عن التاريخ قبل خمسة آلاف عام قليل ، أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف عام فيعتبر أقل من القليل ، وما قبل ذلك فيعتبر مجاهيل لا يدري علم التاريخ من شأنها شيئاً ، لذا فإن كثيراً من الحقيقة ضاع بضياع التاريخ الإنساني .

الثاني: أن الحقائق التي ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير ، بل ضاعت في أمواج متلاطمة في محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف ، ومما يدل على ذلك أن كتابة تاريخ حقيقي لشخصية أو جماعة ما في العصر الحديث تعتبر من أشقّ الأمور ، فكيف بتاريخ يمتدُّ إلى فجر البشرية ؟!

الثالث: أن قسماً من التاريخ المتلبس بالعقيدة لم يقع في الأرض ، بل في السماء .

لذا فإن الذي يستطيع أن يمدنا بتاريخ حقيقي لا لبس فيه هو الله - سبحانه وتعالى - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران: ٥ .

المبحث الثاني

تاريخ العقيدة كما يرويه القرآن الكريم

أعلمنا الله سبحانه أنه خلق آدم خلقاً مستقلاً سوياً متكاملاً ، ثم نفخ فيه من روحه ، وأسكنه جنته ، وأباح له أن يأكل هو وزوجته منها كيف شاءا إلا شجرة واحدة ، فأغراه عدوُّه إبليس بالأكل من الشجرة ، فأطاع عدوه ، وعصى ربَّه ، فأهبطه الله من الجنة إلى الأرض ، وقبل الهبوط وعده الله - سبحانه - بأن ينزل عليه وعلى ذريته هداه ، كي يعرف الإنسان بربه ومنهجه وتشريعه ، ووعد المستجيبين بالهداية في الدنيا والسعادة في الأخرى ، وتوعَّد المستكبرين بالمعيشة الضنكة في الدُّنيا وبالشقاء في الآخرة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1] .

وفي سورة طه يقول: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[2] .

الجيل الأول من البشرية كان على التوحيد:

هبط آدم إلى الأرض ، وأنشأ الله من ذريته أمة كانت على التوحيد الخالص كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ، أي على التوحيد والدين الحق فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[3] ، وفي حديث أبي أمامة أن رجلاً سأل الرسول ﷺ قال: يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال: (نعم ،

(١) سورة البقرة: ٣٨ - ٣٩ .
(٢) سورة طه: ١٢٣ - ١٢٦ .
(٣) سورة البقرة: ٢١٣ .

مكلم) قال: قال: فكم بينه وبين نوح ؟ قال (عشرة قرون) رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه . وقال ابن كثير: « هذا على شرط مسلم ، ولم يخرجه »[1] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: (وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام)[2] .

ومقدار القرن مائة سنة ، وعلى ذلك يكون بين آدم ونوح ألف سنة.

وقد تكون المدة بينهما أكثر من ذلك ، إذ قيد ابن عباس هذه القرون العشرة بأنها كانت على الإسلام ، فلا ينفي أن يكون بينهما قرون أخرى على غير الإسلام .

وقد يكون المراد بالقرن الجيل من الناس كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾[3] ، وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[4][5] .

أول انحراف عن العقيدة وأول رسول:

وبعد أن كان الناس أمة واحدة على التوحيد حصل الزيغ والانحراف، وكان أول انحراف حدث هو الغلو في تعظيم الصالحين ، ورفعهم إلى مرتبة الآلهة المعبودة .

ففي صحيح البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[6]. قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا، فلم تعبد ، حتى إذا هلك

---

(١) البداية والنهاية: ١/١٠١ .
(٢) البداية والنهاية: ١/١٠١ .
(٣) سورة الإسراء: ١٧ .
(٤) سورة المؤمنون: ٣١ .
(٥) راجع البداية والنهاية : ١/١٠١ .
(٦) سورة نوح: ٢٣ .

أولئك ، وانتسخ العلم (نُسي ودرس) عبدت »[1] .

فهذا أول انحراف وجد في تاريخ البشرية عن التوحيد ، فأرسل الله إليهم أول رسله نوح عليه السلام مصداقاً لوعده الذي أعطاه لأبي البشر آدم بإرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للبشرية .

والدليل على أن نوحاً كان أول رسول مبعوث حديث الشفاعة الثابت في الصحيح ، وفيه: (أن الناس يأتون بعد آدم نوحاً فيقولون له فيما يقولون: يا نوح ، أنت أول الرسل إلى الأرض ، وسماك الله عبداً شكورا)[2] .

والنصوص التي بين أيدينا من كتاب ربنا تدل دلالة واضحة على أن نوحاً قد دعا إلى التوحيد الخالص، فقد قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[3] ، وقال: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾[4] وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[5] .

والذين استجابوا لدعوته للتوحيد هم ضعفاء الناس ، وتنكر لها السادة والزعماء الذين يظنون في أنفسهم العقل والذكاء حيث استكبروا عن متابعة الحق: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[6] والملأ المذكورون في الآية هم السادة والكبراء، وقالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾[7]؛ أي اتبعوك بدون تأمل عميق، وتفكير ونظر، وهذا الذي رموهم به هو ما يجب أن يمدحوا به ، فإن الحق إذا ظهر لا يحتاج إلى نظر ، بل يجب اتباعه .

وتعجبوا أن يبعث الله رسولاً بشراً فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾[8] ، ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ

---

(١) صحيح البخاري: ٨/٦٦٧ . ورقمه: ٤٩٢٠ .
(٢) رواه مسلم: ١/ ١٨٥ . ورقمه: ١٩٤.
(٣) سورة الأعراف: ٥٩ .
(٤) سورة هود: ٢٦ .
(٥) سورة المؤمنون: ٢٣ .
(٦) سورة الأعراف: ٦٠ .
(٧) سورة هود: ٢٧ .
(٨) سورة هود: ٢٧ .

﴿ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً ﴾[1]، وطلبوا منه أن يطرد الضعفاء والمساكين الذين تابعوه فرفض طلبهم ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾[2].

وقد تطاول الزمان وكثرت المجادلة بينه وبينهم كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾[3] فدعا عليهم: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[4] فأهلكهم الله بالطوفان: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ ﴾[5]، وأنجى نوحاً والمؤمنين برحمة منه، وخلت الأرض من الظالمين، ولم يبق فيها إلا الموحدون، فلما انحرفوا عن التوحيد أرسل الله إليهم رسولاً ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾[6]، فدعاهم إلى توحيد الله ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[7].

وهكذا استمرت رحمة الله وعنايته ببني آدم كلما ضلوا وزاغوا أنزل إليهم هداه يضيء لهم الظلمات: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[8].

هذه هي قصة البشرية الحقيقية صراع طويل بين الحق والباطل، بين الرسل الذين يعرضون الهدى والحق، وبين الضالين المعرضين عن التوحيد المتمسكين بما ألفوا عليه الآباء والأجداد، وبأهوائهم ومعتقداتهم الباطلة: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

---

(١) سورة المؤمنون: ٢٤ .
(٢) سورة هود: ٢٩ .
(٣) سورة العنكبوت: ١٤ .
(٤) سورة نوح: ٢٦ - ٢٧ .
(٥) سورة الفرقان: ٣٧ .
(٦) سورة المؤمنون: ٣١ ـ ٣٢.
(٧) سورة المؤمنون: ٣٢.
(٨) سورة المؤمنون: ٤٤ .

مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[1].

وبالتأمل في دعوة الرسل التي عرضها القرآن تتبين لنا الحقائق التالية:

الأولى: أن الله خلق الإنسان منذ البداية خلقاً سوياً مكتملاً لغاية محددة، هي عبادته، وأنه خلقه مؤهلاً لذلك.

الثانية: أنه عرفه على نفسه منذ البداية، ولم يتركه لفكره يتعرف على ربه بطريق التفكير والتأمل، بل أرسل إليه رسلاً، وقد كان هؤلاء الرسل من الكثرة بحيث إنهم بلغوا البشرية كلها ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾[2].

لذا فإننا لا نعلم أسماء جميع الرسل الذين أرسلهم الله ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾[3].

ومما يدل على ذلك أن الأمم المكذبة في يوم القيامة تقر وتعترف بتبليغ الرسل لها دعوة الله قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾[4].

وما هذا التتابع في إرسال الرسل على مدار التاريخ إلا رحمة من الله بعباده، ووفاء بوعده الذي وعد به آدم أبا البشرية، وإعذارا منه لخلقه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[5] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[6].

الثالثة: دعوة الرسل واحدة، فأصل دعوتهم جميعاً ولبها التوحيد، بتعريف الناس على ربهم ومعبودهم، وبيان الطريقة التي يعبدونه بها.

الرابعة: أن دين الرسل جميعاً الإسلام لا دين لهم سواه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[7] فنوح يقول: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ

---

(١) سورة إبراهيم: ٩ - ١٠.
(٢) سورة فاطر: ٢٤.
(٣) سورة غافر: ٧٨.
(٤) سورة الملك: ٨ - ٩.
(٥) سورة النساء: ١٦٥.
(٦) سورة الإسراء: ١٥.
(٧) سورة آل عمران: ٨٥.

أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (1). وقال الله عن التوراة: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ (2)، وقال موسى لقومه: ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (3)، وأمر الله خليله إبراهيم بالإسلام، فقال: ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (4)، ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (5).

وعندما سأل يعقوب بنيه عن معبودهم من بعده ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (6)، وملكة سبأ قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (7)، ويوسف كان من دعائه: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (8)، والرسول ﷺ يقول: (والأنبياء إخوة العلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد) (9)(10).

وهذا التنوع الذي نراه في الشرائع لا يدل على أن دينهم كان مختلفاً؛ لأن الله قد يشرع أمراً لحكمة، ثم يشرع أمراً آخر في وقت آخر لحكمة أخرى، بل قد يكون هذا في الشريعة الواحدة، كما شرع الله في بداية الأمر الاتجاه إلى بيت المقدس في الصلاة، ثم نسخ ذلك بأن أمر بالتوجه إلى البيت الحرام، فكان الإسلام أولاً التوجه إلى القدس، ثم أصبح التوجه إلى الكعبة، وكذلك شرائع الأنبياء، فالمتأخر ينسخ المتقدم، وأصبحت الشريعة المنزلة على محمد ﷺ هي الشريعة الخاتمة الناسخة لما قبلها من الشرائع.

الخامسة: ليس الترقي في الاعتقاد عبر القرون هو السبب في الشرك

---

(1) سورة يونس: ٧٢.
(2) سوة المائدة: ٤٤.
(3) سورة يونس: ٨٤.
(4) سورة البقرة: ١٣١.
(5) سورة البقرة: ١٣٢.
(6) سورة البقرة: ١٣٣.
(7) سورة النمل: ٤٤.
(8) سورة يوسف: ١٠١.
(9) رواه البخاري: ٦/٤٧٨، ورقمه: ٣٤٤٣.
(10) إخوة العلات هم الاخوة لأب، أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفة، وكذلك الأنبياء دينهم واحد وشرائعهم مختلفة.

واتخاذ معبودات من دون الله كما ذهب إليه (العقاد) والذين تابعهم من الغربيين ، بل سببه انحراف أتباع الرسل عما جاءت به الرسل ، وتركهم ما جاءت به الرسل ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (1) ، واتباعهم الظن والهوى وتركهم الهدى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (2) ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (3) .

وقال في اليهود: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (4) ، وقال في النصارى ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ﴾ (5) ، وقال فيهم مبينا انحرافهم عن التوحيد الذي أمروا به ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (6) .

لذا فإن الرسل يتبرؤون من الذين انحرفوا عن منهجهم ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ ﴾ (7) .

---

(1) سورة طه: ١٢٤ .
(2) سورة النجم: ٢٣ .
(3) سورة المائدة: ٧٧ .
(4) سورة المائدة: ١٣ .
(5) سورة المائدة: ١٤ .
(6) سورة التوبة: ٣١ .
(7) سورة المائدة: ١١٦ - ١١٧ .

الفصل الخامس

تصورات الأمم الضالة للمعبود

لا نريد من وراء هذا البحث في هذا الموضوع أن نؤرخ للجانب المنحرف في العقيدة ، فذلك ليس في مكنة الباحث لكثرة أنواع الانحراف، وما الفائدة من التأريخ للجانب المظلم والكفر ملة واحد ! إنما مرادنا من وراء ذلك أن ندرك شيئاً مما وقعت فيه الأمم ، كي نعلم القيمة العظيمة التي تمتاز بها العقيدة الإسلامية .

إنّ الذين يدركون الباطل ويعرفونه هم أقدر على معرفة الحقّ إذا اعتنقوه ، وإنَّ الذين يتبعون الإسلام ولا يعلمون الجانب المقابل له ، وهو الباطل يخشى عليهم من الانزلاق في طرق الباطل ، وصدق عمر بن الخطاب حيث يقول: « توشك أن تنقض عُرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية » ، ولا شك أنّ الذي يعرف ظلام الليل أقدر على معرفة ضوء النهار ، والصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى .

وقد أدرك هذه الحقيقة سيد قطب حيث يقول: « الإنسان لا يدرك ضرورة هذه الرسالة ، وضرورة هذا الانفكاك عن الضلالات التي كانت البشرية تائهة في ظلماتها ، وضرورة الاستقرار على يقين واضح في أمر العقيدة . . . حتى يطلع على ضخامة ذلك الركام ، وحتى يرتاد ذلك التيه ، من العقائد والتصورات ، والفلسفات والأساطير ، والأفكار والأوهام ، والشعائر والتقاليد ، والأوضاع والأحوال ، التي جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشري في كل مكان ، حتى يدرك حقيقة البلبلة والتخليط والتعقيد التي كانت تتخبط فيها بقايا العقائد السماوية التي دخلها التحريف والتأويل ، والإضافات البشرية إلى المصادر الإلهية والتي التبست بالفلسفات والوثنيات والأساطير » .

ونكتفي بثلاثة نماذج: واحد منها يمثل عقيدة دولة من الدول التي يعدها الناس متمدنة في القديم . والثاني انحراف أهل ديانة سماوية عن الحق . والثالث الوثنية العربية قبل عهد الرسول ﷺ .

المبحث الأول

الرّب عند اليونان[1]

يعد الباحثون اليوناد من الأمم المتحضرة في القديم ، فلننظر إلى عقيدة هذه الأمة الضالة . يزعمون أنَّ « جوبيتر » هو ربّ الأرباب عندهم ، وكانت صورته عندهم أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب المنزهين ، فقد كان حقوداً لدوداً مشغولاً بشهوات الطعام والغرام ، لا يبالي من شؤون الأرباب والمخلوقات إلا ما يعينه على حفظ سلطانه والتمادي في طغيانه ، وكان يغضب على « أسقولاب » إله الطب ، لأنّه يداوي المرضى، فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية .

ويزعمون أنه كان يغضب على « برومثيوس » إله المعرفة والصناعة ، لأنَّه يعلّم الإنسان أن يستخدم النَّار في الصناعة ، وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب ، وقد حكم عليه بالعقاب الدائم ، فلم يقنع بموته ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة ، بل تفنن في اختراع ألوان العذاب له ، فقيَّده إلى جبل سحيق ، وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار ، حتى إذا جنَّ الليل عادت سليمة في بدنه ، لتعود الجوارح إلى نهشها بعد مطلع الشمس . . . ، ولا يزال هكذا دواليك في العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء .

ومما تخيله الشاعر الوثني الفيلسوف « هزيود » عن علة غضب الإله على « برومثيوس »: أنَّه قسم له نصيبه من الطعام في وليمة الأرباب ، فأكثر فيه من العظام ، وأقل فيه من اللحوم والشحوم ، فاعتقد «جوبيتر» أنه تعالى عليه بمعرفته وحكمته وفطنته ، لأنه اشتهر بين الآلهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة لم يشتهر بها الإله الكبير .

وقد اجتهد (هزيود) الشاعر الفيلسوف قصارى اجتهاده في تنزيه

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه .

«جوبيتر » وتصويره للناس في صورة القداسة والعظمة ، تناسب صورة الإله المعبود بعد ارتقاء العبادة شيئاً ما في ديانة اليونان الأقدمين .

ومع ذلك فإن الباحثين اليونانيين يتحدثون عن « جوبيتر » أنَّه كان يخادع زوجته « هيرة » ويرسل إله الغمام لمدارة الشمس في مطلعها حذراً من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار ومفاجأته بين عشيقاته على عرش « الأولمب » .

وحدث مرة أنّها فاجأته وهو يقبل ساقيه « جانيميد » راعي الضأن الجميل الذي لمحه في الخلاء ، فاختطفه ، وصعد به إلى السماء. . . ، فلم يتنصل « جوبيتر » من تهمة الشغف بساقيه ، ومضى يسوغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاه .

هذا نموذج للعقيدة الشركية الضالة صنعتها الخرافة والوهم ، فغدت أساطير. إنَّ الآلهة عند اليونان آلهة متعددة تتصارع وتتقاتل ، ويعذب بعضها بعضاً ، وهي كالبشر تأكل وتشرب ، وتتزوج ، ويخون الإله زوجته ، ويلوط ويبرر خطأه ، فكيف يكون أثر هذه العقيدة في نفوس معتنقيها ؟ وكيف يكون أثرها في سلوكهم أفراداً ومجتمعات ؟ وأي قيم تقرها هذه العقيدة الشركية الضالة المنحرفة ؟

المبحث الثاني

الإله عند اليهود[1]

حفلت ديانة بني إسرائيل - اليهودية - بالتصورات الوثنية وباللوثة القومية على السواء ، فبنو إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام - جاءتهم رسلهم ، وفي أولهم اسرائيل ، بالتوحيد الخالص الذي علمهم إياه أبوهم إبراهيم ، ثم جاءهم نبيهم الأكبر موسى عليه السلام بدعوة التوحيد أيضاً مع الشريعة الموسوية المبنية على أساسه ، ولكنَّهم انحرفوا على مدى الزمن ، وهبطوا في تصوراتهم إلى مستوى الوثنيات، وأثبتوا في كتبهم (المقدسة) وفي صلب التوراة أساطير وتصورات عن الله - سبحانه - لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين الذين لم يتلقوا رسالة سماوية ، ولا كان لهم من عند الله كتاب.

ولقد كانت عقيدة التوحيد التي أنزلها الله على إبراهيم عقيدة خالصة ناصعة شاملة متكاملة واجه بها الوثنية مواجهة حاسمة كما صورها القرآن الكريم ، ووصى بها إبراهيم بنيه كما أوصي بها يعقوب بنيه قبل أن يموت: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[2].

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ، لسيد قطب بتصرف يسير ... ص ١١ .
(٢) سورة الشعراء: ٦٩ - ٨٤ .

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[1].

ومن هذا التوحيد الخالص وهذه العقيدة الناصعة وهذا الاعتقاد في الآخرة انتكس الأحفاد ، وظلوا في انتكاستهم حتى جاءهم موسى عليه السلام بعقيدة التوحيد والتنزيه من جديد ، ولكنهم لم يستقيموا عليها ، بل انحرفوا عنها .

ولقد بدأ انحرافهم وموسى عليه السلام بين أظهرهم ، من ذلك عبادتهم للعجل الذي صنعه لهم السامري من الذهب الذي حملوه معهم من حليّ نساء المصريين ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾[2].

وقبل ذلك طلبوا من موسى ـ عليه السلام ـ أن يقيم لهم صنماً يعبدونه: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[3].

وحكى القرآن الكثير عن انحرافهم وسوء تصورهم لله ـ سبحانه ـ وشركهم ووثنيتهم ، فنسبوا لله الولد ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾[4] ونعتوه - سبحانه - بالبخل والفقر: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾[5]، ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ

---

(١) سورة البقرة: ١٣٠ - ١٣٣ .
(٢) سورة طه: ٨٧ - ٨٨ .
(٣) سورة الأعراف: ١٣٨ .
(٤) سورة التوبة: ٣٠ .
(٥) سورة المائدة: ٦٤ .

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾[1].

ومن لوثة القومية واعتقادهم أنَّ إلههم قومي ، لا يحاسبهم بقانون الأخلاق إلا في سلوك بعضهم مع بعض ، أما الغرباء (غير اليهود) فهو لا يحاسبهم على سلوك معيب بهم .

من هذه اللوثة كان قولهم الذي حكاه القرآن الكريم: ﴿ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[2] ، وقد تضمنت كتبهم المحرفة أوصافاً لإلههم لا ترتفع كثيراً على أوصاف الإغريق في وثنيتهم لآلهتهم .

جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين: « بعد ارتكاب آدم لخطيئة الأكل من الشجرة (وهي كما يقول كاتب الإصحاح شجرة معرفة الخير والشر) وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط الجنة ، فنادى الرب الإله آدم ، وقال له: أين أنت ؟ فقال سمعت صوتك في الجنة ، فخشيتك ، لأني عريان ، فاختبأت ، فقال: من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟ .

وقال الرب الإله: هوذا الانسان صار كواحد منا عارفا الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ، ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ، أو يأكل ويحيا إلى الأبد ، فأخرجه الربُّ الإله من جنة عدن ، ليعمل في الأرض التي أخذ منها ، فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ، ولهيب سيف متقلب لحراسة شجرة الحياة » .

واضح ما في هذه النقول من وصف الله ـ سبحانه ـ بالجهل ، وأنه لا يدري أين آدم حتى عرفه هو ، وأنه كالبشر يتمشى كما يتمشى البشر، وأن

---

(١) سورة آل عمران: ١٨١ .
(٢) سورة آل عمران: ٧٥ .

السبب في إخراج آدم من الجنة ليس هو معصية آدم لربه كما وضحه القرآن، وإنما هو خوف الله تعالى من أن يأكل الإنسان من شجرة الحياة فيكون من الخالدين ! وأن الله لم يُعَرِّف الإنسان الخير والشر ، وإنما علم ذلك عندما أكل من الشجرة ، وكل ذلك كذب وافتراء على الله سبحانه وتعالى .

ويفهم من كلامهم أن حياة الله التي لا آخر لها إنما كانت بسبب أكله من شجرة الحياة ـ سبحانه ـ عما يقولون .

وكما نسبوا إلى الله ـ سبحانه ـ الجهل نسبوا إليه الحزن والندم على فِعْلٍ فعله ، فهم يذكرون أنه حزن على خلق الإنسان لما كثر شرّه وفساده في عهد نوح: « ورأى الربّ أن شرّ الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه أنما هو شرير كل يوم ، فحزن الربّ أنه عمل الإنسان في الأرض ، وتأسف في قلبه ، فقال الربُّ: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأني حزنت أني عملتهم ، وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب .

واستمع إلى هذه الخرافة التي وردت في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين: « بعدما عمرت الأرض بذرية نوح ، وكانت كلّها لساناً واحداً ولغة واحدة ، وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا نعمة في أرض شنعار، وسكنوا هناك ، وقال بعضهم لبعض: هلم نصنع لبناً ونشويه شياً ، فكان لهم اللبن مكان الحجر ، وكان لهم الحجر مكان الطين ، وقالوا: هلم نبني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه في السماء ونصنع اسماً ، لئلا نتبدد على وجه كل الأرض .

فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونها ، وقال الرب: هوذا شعب واحد ، ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل ، والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم ، حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض ، فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض ، فكفوا عن بنيان المدينة ، لذلك دعي اسمها بابل ، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ، ومن هناك بددهم الرب على وجه الأرض».

أي خرافة هذه التي تزوِّر الحقيقة ، وتكاد تمحو معالمها ! ، وأي إله هذا الذي ترسمه هذه الخرافة ؟ هذا الإله الذي يخاف البشر ، ويخاف تكتلهم واجتماعهم ، فإذا به يحاربهم قبل أن تجتمع كلمتهم ، ويصلب عودهم ، ويشتتهم في أقطار الأرض بعد أن يبلبل ألسنتهم .

ونسب اليهود إلى الله فعل الشر ، كما نسبوا إليه الندم على ما فعل، ففي سفر صموئيل الثاني ، الإصحاح الرابع والعشرون: « فجاء الربّ وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد ، فمات من الشعب من دان إلى بئر السبع سبعون ألف رجل ، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها، فندم الرب على الشر . فقال للملاك المهلك الشعب: كفى الآن ، رويدك ».

فإذا تركنا ما حكاه القرآن عن ضلالة اليهود في وصفهم لربهم ، وما في التوراة من تحريف وزيف ونظرنا في (التلمود) وهو الكتاب الذي سطره علماء اليهود وحاخاماتهم ، وله من الأهمية في نظرهم فوق ما للتوراة ، لو نظرنا فيه لهالنا ذلك الضلال الذي وقع فيه اليهود لا في العقيدة فحسب ، بل في شتى مناحي الشريعة .

وسأكتفي بأن أنقل من كتاب « الكنز المرصود في قواعد التلمود » ما يتعلق بالعزة الإلهية ، فمن ذلك أن الله عندهم يحتاج إلى أن يقرأ ويتعلم ، كما أنه يهزل ويلعب سبحانه وتعالى ، فقد ورد في تلمودهم « أن النهار اثنتا عشرة ساعة: في الثلاثة الأولى منها يجلس ويطالع الشريعة ، وفي الثلاثة الثانية يحكم ، وفي الثلاثة الثالثة يطعم العالم ، وفي الثلاثة الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك » .

واسمع ما هو أدهى وأعظم: « أنه لا شغل لله غير تعلمه التلمود مع الملائكة » ، وليس الملائكة فقط ، بل مع (أسمودية) ملك الشياطين في مدرسة السماء .

وما الحوت الذي يلعب معه الرب ؟ إنه حوت كبير جداً يمكن أن يدخل في حلقه سمكة طولها ثلاثمائة فرسخ بدون أن تضايقه ، وبما أن له هذا الحجم فإن الله خاف إذا ما تناسل أن يهلك الدنيا ، ولذا فإنه رأى أن

يحرمه زوجته ، لأنه لو لم يفعل ذلك لامتلأت الدنيا وحوشاً أهلكت من فيها ، ولذلك حبس الله الذكر بقوته الإلهية ، وقتل الأنثى وملحها وأعدها لطعام المؤمنين في الفردوس .

ويضيفون الى هذه الخرافات التي أصبحت عقائد لهم أن: « الله لم يلعب مع الحوت بعد هدم الهيكل ، ولم يمل بعد هدم الهيكل إلى الرقص مع حواء بعدما زينها بملابسها ، وعقص لها شعرها » .

تباً لهم وبعدا ، إنهم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قول الأمم الضالة المشركة ، فإلههم حسب تصورهم لا يختلف عن البشر ، يفكر تفكيرهم ، ويفعل فعلهم ، يلعب ، ويرقص ، ويحزن ، ويبكي، على ماذا ؟ على هدم هيكل اليهود الذي بناه لهم سليمان .

والهيكل يرمز إلى مجد اليهود ، وقد جعلوا الله من ذلك التاريخ الذي هدم فيه الهيكل إلى اليوم يبكي ثلاثة أرباع الليل يزأر كالأسد قائلاً: «تباً لي لأني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي » .

بل يغالون في التحريف والتدجيل ، فيقولون: إن الله تضاءلت ذاته - سبحانه وتعالى - عما يقولون علواً عظيماً - بسبب حزنه على خراب الهيكل « وشغل الله مساحة أربع سموات بعد أن كان ملء السموات والأرض في جميع الأزمان » .

ويصفون العلي المجيد بأنه يحقر نفسه - سبحانه - عندما يمجِّده عباده - ويقصدون بهم اليهود طبعاً - « ولما يسمع الباري - تعالى - تمجيد الناس له، يطرق رأسه ويقول: ما أسعد الملك الذي يمدح ويبجل مع استحقاقه لذلك ، ولكن لا يستحق شيئاً من المدح الأب الذي يترك أولاده في الشقاء » .

قاتلهم الله أنىّ يؤفكون .

ومما افتروه على ربِّ العزة - جلَّ وتقدَّس عما يقولون - أنه يلطم ويبكي، وتتساقط دموعه ، كل ذلك على شقاء اليهود وما حلّ بهم . « يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة ، حتى إنه يلطم ويبكي كل يوم ، فتسقط

من عينه دمعتان في البحر ، فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه ، وتضطرب المياه ، وترتجف الأرض في أغلب الأحيان ، فتحصل الزلازل ».

وينسبون إليه الخطأ والاعتراف بالذنب ، والتكفير عن الذنب ، فيزعمون كذباً وزوراً أن القمر خطأ الله سبحانه، وقال للرب ـ سبحانه ـ عما يقولون: « أخطأت حيث خلقتني أصغر من الشمس ، فأذعن الله لذلك ، واعترف بخطئه ، وقال: اذبحوا لي ذبيحة أكفر بها عن ذنبي ، لأني خلقت القمر أصغر من الشمس » ولا أدري كيف ساغ أن يزعموا أن الله يكفر ، وترى لمن يكفر ؟!

إن العقول التي تفتري هذا الافتراء سخيفة سخافة كبيرة ، وإن العقول التي تؤمن بهذه السخافة وتصدقها لا تقل عنها سخافة ، والحمد لله الذي هدانا للحق والنور المبين .

ومن جملة سخافاتهم التي هي عقائد عندهم « أن الله يستولي عليه الطيش، كما حصل ذلك منه يوم غضب على بني إسرائيل ، وحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية ، ولكنه ندم على ذلك بعد ذهاب الطيش منه ، ولم ينفذ ذلك اليمين ، لأنه فَعَلَ ضد العدالة » .

ولم يقف الأمر عند كونه يحلف، ويحلف جهلاً وطيشاً ، ويظلم ويكفر، بل زعموا أنه يحتاج إلى التكفير عن يمينه ، فقد جاء في تلمودهم « إن الله إذا حلف يميناً غير قانونية احتاج إلى من يحلله من يمينه ، وقد سمع أحد العقلاء من الإسرائيليين أن الله تعالى يقول: من يحللني من اليمين التي أقسمت بها ؟ ولما علم باقي الحاخامات أنه لم يحلله منها اعتبروه حماراً ، لأنه لم يحلل الله من يمينه ، ولذلك نصبوا ملكاً بين السماء والأرض اسمه (مي) لتحليل الله من أيمانه ونذوره عند اللزوم »[1] .

هذه نماذج من العقيدة اليهودية المحرفة المزيفة التي تشكل قاعدة دينهم، وهي لا تقل في انحطاطها عن أساطير الإغريق والوثنيين في آلهتهم .

---

(١) هذا قليل من كثير مما سطرته أيدي اليهود في (تلمودهم) .

المبحث الثالث

انحراف العرب عن التوحيد

كان العرب على دين التوحيد دين أبيهم إبراهيم عليه السلام ، واستمروا على ذلك إلى ما قبل البعثة بأربعمائة سنة حيث ظهر فيهم رئيس مسموع الكلمة مطاع لا يخالف ، فغير دينهم ، ذلك هو عمرو بن عامر الخزاعي .

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبَهُ في النار ، كان أول من سيب السوائب)[1] ، وفي صحيح البخاري أيضاً عن عائشة عن النبي ﷺ قال: (رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قُصْبَهُ ، وهو أول من سيب السوائب)[2] .

فعمرو هذا غيَّر دين العرب بدعوتهم لعبادة الأصنام ، وباستحداث بدع في دين الله تعالى ، أحلَّ فيها وحرَّم بهواه ، ومن ذلك ما ذكره الله في كتابه : ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3][4] .

وتختلف الروايات في الكيفية التي نشر عمرو بها الأصنام في الجزيرة العربية ، فمن قائل إنّ عمراً كان له رئيٌ من الجن هو الذي دله على

---

(١) رواه البخاري: ٨/٢٨٣ . ورقمه: ٤٦٢٣ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٨/٢٨٣ . ورقمه: ٤٦٢٤ .

(٣) سورة المائدة: ١٠٣ .

(٤) البحيرة: الناقة تبحر أذنها ، أي تشق ثم ترسل ، وتكون هذه علامة تعرفها العرب، فلا يركبها أحد ولا يحملون عليها ، يفعلون بها ذلك إذا ولدت خمس بطون آخرها ذكر .
والسائبة: أن ينذر الرجل إذا حدث أمر ما يحبه أن يسيب ناقة وتجعل كالبحيرة في عدم الانتفاع بها .
والوصيلة: كانت العرب إذا ولدت الناقة أنثى لهم ، وإذا ولدت ذكراً لآلهتهم ، وإذا ولدتهما قالوا: وصلت أخاها فيحرم ذبح الذكر .
والحام: الفحل يحمل من ظهره عشرة أبطن، فيحرم ذبحه وظهره، ولا يمنع من مرعى ولا ماء. وهم إنما يفعلون هذا بالأنعام تقرباً بذلك إلى طواغيتهم .

الأصنام التي كانت مدفونة منذ عهد نوح ، وكان قوم نوح يعبدونها ، فاستخرجها عمرو ، ووزعها في العرب ، وقيل: إنه جاء بالأصنام من بلاد الشام ، عندما رآهم يعبدونها فطلب منهم صنماً ، فأعطوه واحداً نصبه بمكة[1] .

والسبب في أن العرب تابعت عمرو بن لحي أنه كان ذا مكانة فيهم، فقد كان سيد خزاعة في حال غلبتها على مكة وعلى البيت بعد أن نفت قبيلة جرهم من مكة ، وكانت العرب قد جعلته رباً ، لا يبتدع بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم ، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة[2] .

ويقال: إن عمراً هذا هو الذي دعا الناس إلى عبادة اللات ، وكان رجلاً يلت السويق للحاج بالطائف على صخرة هناك ، فلما مات زعم عمرو بن لحي أنه لم يمت ، وأنه دخل في الصخرة التي يلت عليها ، وأمرهم بعبادتها.

ومما يذكر عنه أيضاً أنه هو الذي غير التلبية التي كانت تعلن التوحيد لله وحده ، فقد كانت التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك) واستمر الحال حتى كان عمرو بن عامر ، فبينما هو يطوف بالكعبة يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه ، فقال: (لبيك لا شريك لك) ، فقال الشيخ: إلا شريكاً هو لك ، فأنكر هذا عمرو ، فقال: ما هذا ؟ فقال الشيخ: قل تملكه وما ملك ، فإنه لا بأس بهذا ، فقالها عمرو ، فدانت بها العرب .

---

(١) راجع: السيرة النبوية ، لابن هشام : ١/١٢١ .
(٢) البداية والنهاية: ٢/١٨٧ .

بداية الانحراف:

ويذكر لنا ابن إسحاق كيف كانت بداية الانحراف عند العرب من نسل إسماعيل عليه السلام في عبادتهم الأحجار ، فقد كان « أول أمرهم أنهم كانوا يعظمون الحرم ، فلا يرتحلون منه حتى كثروا وضاق بهم ، فأخذوا يرتحلون عنه طالبين السعة والفسح في البلاد ، فكان لا يظعن ظاعن منهم عن الحرم إلى غيره إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له ، فحيث ما نزلوا وضعوه ، فطافوا به كطوافهم بالكعبة، ثم أدى بهم ذلك إلى عبادة هذه الأحجار ، ثم كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة »[1].

وانظر إلى ما صار إليه أمرهم وحالهم: عن أبي رجاء العطاردي قال: «كنا نعبد الحجر في الجاهلية ، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبنا عليه ثم طفنا به » . ومن عجائب أمر الجاهلية أن الرجل منهم كان إذا سافر حمل معه أربعة أحجار ، ثلاثة لقدره والرابع يعبده.

أصنام العرب:

واتخذوا الأصنام والأوثان ، قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: «وكان من أقدم أصنامهم (مناة) ، وكان منصوباً على ساحل البحر الأحمر من ناحية (المشلل) بقديد بين مكة والمدينة ، وكانت العرب جميعاً تعظمه، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ، ويذبحون له ، ويهدون له ، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج ، وبلغ من تعظيم الأوس ومن جاورهم من عرب يثرب له أنهم كانوا يحجون ، فيقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوه فحلقوا عنده رؤوسهم ، وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك .

وكانت (مناة) لهذيل وخزاعة فبعث رسول الله ﷺ علياً عام الفتح

(١) السيرة ، لابن هشام: ١/ ١٢٢ .

فهدمها ، ثم اتخذوا (اللات) بالطائف وهي أحدث من مناة ، وكانت صخرة مربعة ، وكانت سدنتها من ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونها ، وبها كانت تسمى زيد اللات ، وتيم اللات ، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم ، فلم تزل كذلك حتى بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة ، وأبا سفيان بن حرب لما أسلمت ثقيف ، فهدماها وحرقاها بالنار .

غير أن ابن جرير يروي في تفسيره عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾[1] قال: كان اللات يلت السويق للحاج، فمات فعكفوا على قبره ، وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلتُّ السويق للحاج . رواه البخاري بنحوه .

ثم اتخذوا (العزى) وهي أحدث من اللات ، اتخذها ظالم بن سعد بوادي نخلة فوق ذات عرق ، وبنوا عليها بيتاً ، فكانوا يسمعون منها الصوت، قال الكلبي فيما يرويه عن ابن عباس قال: كانت للعزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة .

فلما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فقال: ائت بطن نخلة، فإنك ستجد ثلاث سمرات، فاعضد الأولى ، فأتاها فعضدها ، فلما جاء إليه قال: هل رأيت شيئاً ؟ قال: لا . قال: فاعضد الثانية ، فعضدها، ثم أتى النبي ﷺ قال: هل رأيت شيئاً ؟ قال لا ، قال: فاعضد الثالثة ، فأتاها فاذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تضرب بأنيابها وخلفها سادنها ، فقال خالد:

كفرانك لا سبحانك ، إني رأيت الله قد أهانك .

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حممه ، ثم عضد الشجرة ، وقتل السادن ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال: (تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب) . وكانت العزى لأهل مكة في موضع قريب من عرفات، وكانت شجرة يذبحون عندها ، ويدعون .

---

(١) سورة النجم: ١٩ .

وقال الكلبي في كتابه الأصنام: « وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وأعظمها عندهم (هبل) ، وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، وكانوا إذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أتوه ، فاستقسموا عنده بالقداح .

ومن أصنامهم إساف ونائلة، ويروي بعض الرواة أن رجلاً وامرأة زنيا في البيت الحرام ، فمسخهما الله حجرين ، ووضعتهما قريش عند الكعبة ليتعظ بهما الناس، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها.

ولما فتح الرسول ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً ، فجعل يطعن بقوسه في وجوهها وعيونها ويقول: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1] ، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[2] وهي تتساقط على رؤوسها ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت . أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود بنحوه ولم يذكرا « وهي تتساقط . . . الخ » وعندهما يطعنها بعود كان في يده .

وقد انتشرت عبادة الأصنام حتى إنه كان لكل دار في مكة صنم يعبده أهلها ، فإذا أراد أحدهم السفر فكان أول ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به.

قال ابن إسحاق الكلبي: « وكان (ذو الخلصة) لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب ، وكان مَرْوَةً بيضاء منقوشاً عليها كهيئة التاج، وكان له بيت ، فقال رسول الله ﷺ لجرير بن عبدالله البجلي: (الا تكفيني ذا الخلصة ؟) فسار اليه بأحمس ، فقاتلته خثعم وباهلة ، فظفر بهم، وهدم بيت ذي الخلصة ، وأضرم فيه النار » .

وفي البخاري ومسلم عن جرير بن عبدالله قال: قال لي رسول الله ﷺ (الا تريحني من ذي الخَلصَة)، وكان بيتاً في خثعم يسمى الكعبة اليمانية ، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس إلى ذي الخلصة، وكانوا

---

(١) سورة الإسراء: ٨١ .

(٢) سورة سبأ: ٤٩ .

أصحاب خيل، فقلت: يا رسول الله، إني لا أثبت على الخيل ، فضرب بيده في صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري وقال: (اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً) ، فانطلق إليها فكسرها .

والأصنام التي كانت منتشرة في الجاهلية أكثر من هذا الذي ذكرناه .

ظلمة دامسة عند البعثة:

ولم يكن قبل بعثة الرسول ﷺ من بقايا النور السماوي الذي جاءت به الأنبياء إلا أضواء خافتة لا تكفي للهداية والاستقامة على المنهج الرباني، لضياع ذلك المنهج واختلاطه بذلك الباطل الكثير ، وفي الحديث: (إن الله نظر ـ قبيل البعثة ـ إلى أهل الأرض ، فمقتهم عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب) .

وقد حفظت لنا النصوص التاريخية أن أربعة من عقلاء قريش اعتزلوا قومهم في أحد أعياد قريش عند وثن من الأوثان ، وهم ورقة بن نوفل، وعبيدالله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى ، وزيد بن عمرو بن نفيل .

فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء ، ولقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا ، فإنكم ـ والله ـ ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علماً من أهل الكتاب .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة، فلما قدمها تنصر ، وترك الإسلام حتى هلك نصرانياً.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر ، وحسنت منزلته عنده .

وأما زيد فوقف ، فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق قومه، فاعتزل الأوثان ، واجتنب الميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة ، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبدأ قومه بعيب ما هم عليه .

وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: « أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح (واد غربي مكة) قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي ، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة ، فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد:

إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وإن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ، ويقول: الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له»[1].

قال موسى بن عقبة حدثني سالم بن عبدالله ـ ولا أعلمه يحدث به إلا عن ابن عمر ـ « إن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقي عالماً من اليهود ، فسأله عن دينهم فقال: إني لعلي أن أدين دينكم ، فأخبرني ، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً ، وأنى أستطيعه ! فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً ، قال زيد: وما الحنيف ؟ قال: دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد إلا الله .

فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى ، فذكر مثله . فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله . قال: ما أفر إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولا غضبه شيئاً، وأنى استطيع ، هل تدلني على غيره ؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً . قال: وما الحنيف ؟ قال دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً .

---

(١) رواه البخاري: ٧/١٤٢، ورقمه: ٣٨٢٦ .

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج ، فلما برز رفع يديه، فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم »[1] .

قال: وقال الليث: كتب إليّ هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: « رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش ، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري . وكان يحيي الموءودة . ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها ، أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤونتها»[2] .

ولقد سئل الرسول ﷺ عن زيد هذا فقال: (يُحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى بن مريم) قال ابن كثير إسناده جيد حسن .

وعن عائشة أن الرسول ﷺ قال: (دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين) قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد .

وبعد هذه الظلمة الشديدة أذن الله ببزوغ فجر الإسلام ، فاستنار الناس بنوره ، واهتدوا بهديه فله الحمد والمنة .

---

(١) رواه البخاري: ٧/ ١٤٢ . ورقمه: ٣٨٢٧ .

(٢) رواه البخاري: ٧/ ١٤٣ . ورقمه: ٣٨٢٨ .

أهم المراجع

- الإبانة لأبي الحسن الأشعري. مطبوعات الجامعة الإسلامية . المدينة المنورة .
- الإسلام عقيدة وشريعة لشلتوت. دار الشروق . القاهرة . التاسعة. ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م
- أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة . د . عمر سليمان الأشقر . دار النفائس عمان . الأردن الثانية. ١٣١٤ هـ . ١٩٩٤م
- الأسماء والصفات للبيهقي . طبعة مصورة . بيروت .
- أصل الاعتقاد . د . عمر سليمان الأشقر . دار النفائس . الكويت . الأولى . ١٤١٠هـ . ١٩٩٠ م
- اعتقادات فرق المسلمين للرازي . دار الكتب العلمية . بيروت ١٤٠٢هـ . ١٩٨٢ م
- بداية والنهاية لابن كثير . مكتبة المعارف ، بيروت . الثانية . ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م .
- تأويل خطورته وآثاره . دعمر سليمان الأشقر . دار النفائس . عمان الأردن . الأولى. ١٤١٢ هـ . ١٩٩٢ م .
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن). دار الكتاب العربي. القاهرة. الثانية. ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م .
- تلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني. نشره عبدالله هاشم اليماني. المدينة المنورة. ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.
- توحيد لابن خزيمة . مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة .
- توحيد للزنداني . دار الخير . الأولى . ١٤١١ هـ . ١٩٩٠ م .
- جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير . تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط . نشرته مكتبة الحلواني وآخرون. ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م .
- خلق أفعال العباد . البخاري . دار السلفية . الكويت . الأولى . ١٤٠٥ هـ . ١٩٨٥م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الالباني . المكتب الإسلامي . دمشق . الاولى.
- سيرة النبوية لابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني . مكتبة المنار . الأردن . الأولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨م .
- شرح العقيدة الطحاوية لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي. المكتب الإسلامي. بيروت. ١٣٩١هـ .
- شرح النووي على مسلم . المطبعة المصرية ومكتبتها. القاهرة .
- صحيح البخاري (الجامع الصحيح) بشرحه فتح الباري. المطبعة السلفية ومكتبتها. القاهرة.
- صحيح الجامع الصغير . المكتب الإسلامي . بيروت. الأولى .
- صحيح سنن ابن ماجة للألباني. نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج. الثانية. ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
- صحيح سنن أبي داود . المكتب الإسلامي . بيروت . الأولى . ١٤٠٩هـ . ١٩٨٠م .
- صحيح سنن الترمذي للألباني. نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج. الأولى. ١٣٠٨هـ ١٩٨٨م .
- صحيح سنن النسائي . المكتب الإسلامي . بيروت . الأولى . ١٤٠٩ هـ . ١٩٨٨م .

- صحيح مسلم (الجامع الصحيح). تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. طبعة دار إحياء الكتب العربية. مصر. الأولى. ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. لابن حجر العسقلاني. المكتبة السلفية. القاهرة.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير للشوكاني. دار إحياء التراث. بيروت.
- الفتوى الحموية الكبرى . لشيخ الإسلام ابن تيمية . المكتبة السلفية . القاهرة . الرابعة. ١٤٠١ هـ
- في ظلال القرآن لسيد قطب . طبعة دار الشروق. ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م .
- لسان العرب . ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي . دار لسان العرب . بيروت . الأولى.
- لوامع الأنوار البهية . للسفاريني . طبع دولة قطر .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. (جمع ابن قاسم) طبعته حكومة المملكة العربية السعودية. الأولى. ١٣٨١هـ .
- مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي. المكتب الإسلامي. دمشق. الأولى١٣٨٠هـ.
- معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي . مطبوعات دائرة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية.
- معتقد الإمام أبي الحسن الأشعري . د. عمر سليمان الأشقر . الأولى . دار النفائس عمان . الأردن . ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .
- مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري . دار احياء التراث العربي. بيروت.
- منتقى من أحاديث الأحكام لمجد الدين ابن عبدالسلام ابن تيمية . المطبعة السلفية. القاهرة.
- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات . محمد الأمين الشنقيطي . منشورات الجامعة الإسلامية المدينة المنورة . الثانية ١٣٨٨هـ .
- الأسماء والصفات للبيهقي . طبعة مصورة . بيروت .
- الصواعق المرسلة لابن القيم . مطبعة الإمام. القاهرة .
- مختصر العلو للذهبي. اختصره الألباني. المكتب الإسلامي. الثانية ١٤١٢هـ. ١٩٩١م.
- معجم الوسيط . لإبراهيم أنيس وزملاؤه . دار إحياء التراث العربي . بيروت . الثانية .
- كتاب الله للعقاد . دار الهلال . القاهرة .
- فوائد المجموعة للشوكاني . مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٠هـ . ١٩٦٠م . . القاهرة.
- الرسالة - للشافعي . دار الفكر - بيروت .
- نحلة تسبح الله . لمحمد حسن حمصي . دار الرشيد . دمشق . الثالثة ١٩٧٧ م.
- رد الدارسي على المريسي . للدارمي . دار الكتب العلمية . بيروت .
- شرح العقيدة الواسطية . محمد خليل الهراس . منشورات الجامعة الإسلامية . المدينة المنورة . الرابعة .- إيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام . حققه الشيخ ناصر الدين الألباني . ضمن مجموع بعنوان: من كنوز السنة - رسائل أربع المطبعة العمومية - دمشق .

يُطلبُ هذا الكتابُ في
المملكة العربية السعودية
من

دار الهجرة للنشر والتوزيع

ص.ب ٢٠٥٩٧ الثقبة ٣١٩٥٢ الخبر
تلفون الخبر: ٨٩٨٣٠٠٤ تلفون الرياض ٤٧٩٢٠٥٥



هاتف: ٥٦٩٣٩٤٠ ـ فاكس ٥٦٩٣٩٤١
ص . ب: ٢١١٥١١ عمّان ١١١٢١ الأردن

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة
(٢)

عالم الملائكة الأبرار

تأليف

الدكتور عمر سليمان الأشقر



مكتبة الفلاح

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

مكتبة الفلاح - الكويت

ص.ب ٤٨٤٨ - الكويت - شارع بيروت - عمارة الحساوي
مقابل بريد حولي - تلفون ٥٤٧٧٨٤

عالم الملائكة الأبرار

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد : فالإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد ، لا يتم الإيمان إلا به ، والملائكة عالم من عوالم الغيب التي امتدح الله المؤمنين بها ، تصديقاً لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ .

وقد بَسَطت النصوص من الكتاب والسنة هذا الموضوع وبينت جوانبه ، ومن يطالع هذه النصوص في هذا الجانب يصبح الإيمان بالملائكة عنده واضحاً ، وليس فكرةً غامضة ، وهذا مما يعمق الإيمان ويرسخه ، فإن المعرفة التفصيلية أقوى وأثبت من المعرفة الإجمالية .

وما أطالت النصوص التفصيل والتوضيح في هذا الموضوع إلا لأنَّ العقل الإنساني لا يستطيع التوصل إلى ما يهمه معرفته عن الملائكة بنفسه ، فحواس الإنسان أعجز من أن ترى الملائكة ، وتسمع أحاديثهم ، ولا شك أنَّ هذا العجز في صالح الإنسان ، فلو كان الإنسان يسمع ويرى كل ما يحيط به لما أطاق الحياة ، وحسبنا أن نتصور أنَّ إنساناً تلتقط أذنه ما يلتقطه المذياع من أصوات لنعلم البلاء الذي يحلّ بهذا المسكين الذي لا بدَّ أن يصاب بالذهول والجنون . ولا يظنن أحدٌ أن دراسة هذا الأصل من فضول العلم ، فإن الحقائق التي تسوقها النصوص في هذا الموضوع لها

تأثير كبير في نفي الخرافة والزيف عن العقول في هذا الموضوع فقد انتشر منذ القديم القول بألوهية الملائكة ، أو أنَّ الملائكة بنات الله ، ويرى بعض الفلاسفة أنَّ الملائكة هم الأفلاك التي نراها في الفضاء .

وهذه الحقائق التي جاءت بها النصوص تعمق في نفوسنا الإيمان بالإله المعبود المهيمن على هذا الوجود ، الذي وضع جنوده من الملائكة للقيام على مختلف أمور الكون .

وعلاقة الملائكة بنا تكويناً وإيجاداً ومراقبة ... توحي للإنسان بأهميته وقيمته ، وتنفي من فكره القول بتفاهته وحقارته ، وبذلك يقدر قدر نفسه ويسعى جاهداً لتحقيق الدور العظيم الذي عليه أن يقوم به .

ولو ذهبنا نعدد الآثار الطيبة التي يجنيها المرء من إيمانه بالملائكة ، ودراسة النصوص التي تتحدث عنهم ، لطال القول في هذه المقدمة ، إلا أنني أترك للقارئ أن يعيش مع النصوص ، فتمده ـ حين يتأمل فيها ـ بموحياتها وآثارها .

والله تعالى المسئول أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

عمر سليمان الأشقر

الكويت

٢٠/ ذي القعدة /١٣٧٨ هـ

١٩٧٨/٩/٢٢ م

الفصل الأول

١- صفات الملائكة وقدراتهم



صفاتهم وقدراتهم

سنحاول في هذا الفصل أن نتبين من خلال النصوص الصحيحة صفات الملائكة الخَلْقية والخُلُقية ، ثم نتحدث عن القدرات التي وهبهم الله إياها .

الصفات الخَلْقية وما يتعلق بها

مادة الخلق :

عرفنا الرسول ﷺ في الحديث الذي ترويه عائشة بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ أن المادة التي خلقوا منها هي النور ، فقال ﷺ : (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم) [1] (رواه مسلم في صحيحه) .

ولم يبين لنا الرسول ـ ﷺ ـ أي نور هذا الذي خلقوا منه ، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نخوض في هذا الأمر لمزيد من التحديد ، لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث .

وما روي عن عكرمة أنه قال : (خلقت الملائكة من نور العزة ، وخلق إبليس من نار العزة) .

وما روي عن عبدالله بن عمرو أنه قال : (خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر) لا يجوز الأخذ به ، وعلى فرض صحته عن هؤلاء العلماء الأفاضل فهم غير معصومين ، ولعلهم قد استقوه من الإسرائيليات .

---

(١) بعض الذين ينسبون إلى العلم يردون هذا الحديث وأمثاله زاعمين أنه حديث آحاد ، وأنّ حديث الآحاد لا تثبت به عقيدة ، وقد ناقشت هذا القول وبينت بطلانه في رسالة بعنوان (أصل الاعتقاد) .

(راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٩٧/١) .

واما ما ذكره ولي الله الدهلي في الحجة البالغة (ص ٣٣) من (أنَّ الملأ الأعلى) ثلاثة أقسام : قسم علم الحق أن نظام الخير يتوقف عليهم ، فخلق أجساماً نورية بمنزلة نار موسى فنفخ فيها نفوساً كريمة .

وقسم اتفق حدوث مزاج في البخارات اللطيفة من العناصر استوجب فيضان نفوس شاهقة شديدة الرفض (أي الترك) للألواث البهيمية .

وقسم هم نفوس إنسانية قريبة المأخذ من الملأ الأعلى ما زالت تعمل أعمالاً منجية تفيد اللحوق بهم حتى طرحت عنها جلابيب أبدانها ، فانسلكت في سلكهم وعدّت منهم)

- فلا يوجد دليل صحيح على صحة هذا التقسيم - بهذا التفصيل والتحديد .

متى خلقوا ؟

لا ندري متى خلقوا فالله - سبحانه - لم يخبرنا بذلك . ولكننا نعلم أنَّ خلقهم سابق على خلق آدم أبي البشر ، فقد أخبرنا الله أنَّه أعلم ملائكته أنه سيجعل في الأرض خليفة (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) (سورة البقرة / ٣٠) والمراد بالخليفة آدم عليه السلام ، وأمرهم بالسجود له حين خلقه (فإذا سوَّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) (سورة الحجر / ٢٩) .

عظم خلقهم :

قال الله تعالى في ملائكة النَّار :(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)،(سورة التحريم / ٦) .

وسأكتفي بسوق الأحاديث التي تتحدث عن ملكين كريمين فحسب .

عظم خلق جبريل :

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود قال : رأى رسول الله ـ ﷺ ـ جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سدّ الأفق . يسقط من جناحه التهاويل (الأشياء المختلفة الألوان) من الدر واليواقيت .

قال ابن كثير في هذا الحديث : اسناده جيد (البداية ٤٧/١) .

وفي سنن الترمذي باسناد صحيح أن الرسول ـ ﷺ ـ قال في جبريل : (رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض) .

وقال في وصفه (إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثَـمَّ أمين) ، (سورة التكوير ١٩ ـ ٢١) والمراد بالرسول الكريم هنا جبريل ، وذي العرش : رب العزة سبحانه .

عظم خلقة حَـمَلة العرش :

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (أذن لي أن أحدِّث عن أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام) .

ورواه ابن أبي حاتم وقال : (تخفق الطير) قال محقق مشكاة المصابيح : إسناده صحيح (١٢١/٣) ، وانظر تخريج الشيخ ناصر له في الأحاديث الصحيحة (٧٢/١) .

وروى الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد صحيح عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (أذن لي أن أحدث عن أحد حملة العرش ، رجلاه في الأرض السفلى ، وعلى قرنه العرش ، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام ، يقول (أي الملك) : سبحانك حيث كنت) .

للملائكة أجنحة :

للملائكة أجنحة كما أخبرنا الله تعالى ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، أو أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير)،(سورة فاطر /١) والمعنى أن الله جعلهم أصحاب أجنحة ، بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك .

وقد سبق ذكر الأحاديث التي يخبر فيها الرسول ـ ﷺ ـ أن لجبريل ستمائة جناح .

جمالهم :

خلقهم الله على صور جميلة كريمة كما قال تعالى في جبريل : (علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى) ، (سورة النجم ٦/٥) قال ابن عباس : (ذو مرة) ذو منظر حسن ، وقال قتادة : ذو خلق طويل حسن . وقيل . ذو مرة : ذو قوة ولا منافاة بين القولين فهو قوي وحسن المنظر .

وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال ، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك ، انظر إلى ما قالته النسوة في حقٍّ يوسف الصديق عندما رأينه : (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملكٌ كريمٌ) ، (سورة يوسف/٣١) .

هل بين الملائكة والبشر شبه في الشكل والصورة ؟

روى مسلم في صحيحه والترمذي في سننه عن جابر رضي الله عنه قال : (عرض عليَّ الأنبياء ، فإذا موسى ضرب من الرجال ، كأنَّه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبُكم ، (يعني نفسه) .

ورأيت جبريل ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً (**دحية**) **فهل هذا الشبه** كائن بين صورة جبريل الحقيقية وصورة دحية الكلبي ، أم هو بين الصورة التي يكون بها جبريل عندما يتمثل في **صورة بشر** ؟ ! الأرجح هذا الأخير لما سيأتي أن جبريل كان يتمثل في صورة دحية كثيراً .

تفاوتهم في الخلق والمقدار :

الملائكة ليسوا على درجة واحدة في الخلق والمقدار ، فبعض الملائكة له جناحان وبعضهم له ثلاثة وجبريل له ستمائة جناح ، ولهم عند ربهم مقامات متفاوتة معلومة (وما منَّا إلا له مقام معلوم)،(سورة الصافات /١٦٤) .

وقال في جبريل (إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين) ، (سورة التكوير **١٩ ـ ٢١**) .

أي له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله .

وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر ، ففي صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع : أن جبريل جاء للنبي ـ ﷺ ـ فقال : ما تعدُّون من شهد بدراً فيكم ؟ قلت : خيارنا ، قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة) .

لا يوصفون بالذكورة والأنوثة :

من أسباب ضلال بني آدم في حديثهم عن عوالم الغيب أن بعضهم يحاول إخضاع هذه العوالم لمقاييسه البشرية الدنيوية ، فنرى واحداً من هؤلاء يعجب في مقال له في صحيفة سيارة ، من أن جبريل كان يأتي الرسول ـ ﷺ ـ بعد ثوان من توجيه سؤال إلى الرسول ـ ﷺ ـ يحتاج إلى جواب من الله ، فكيف يأتي بهذه السرعة الخارقة ، والضوء يحتاج إلى ملايين السنوات الضوئية ليصل إلى بعض نجوم السماء .

وما دري هذا المسكين أن مثله كمثل بعوضة تحاول أن تقيس سرعة الطائرة بمقياسها الخاص ، لو تفكر في الأمر لعلم أن عالم الملائكة له مقاييس تختلف تماماً عن مقاييسنا نحن البشر .

ولقد ضل في هذا المجال مشركو العرب الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناثاً ، واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم وأكبر إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله .

وناقشهم القرآن في هاتين القضيتين ، فبيّن أنَّهم ـ فيما ذهبوا إليه ـ لم يعتمدوا على دليل صحيح ، وأن هذا القول قول متهافت ، ومن عجب أنهم ينسبون لله البنات وهم يكرهون البنات ، وعندما يبشر أحدهم بأنَّه رزق بنتاً يظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، وقد يتوارى من الناس خجلاً من سوء ما بُشر به ، وقد يتعدى هذا المأفون طوره فيدس هذه المولودة في التراب ، ومع ذلك كله ينسبون لله الولد ، ويزعمون أنهم إناث وهكذا تنشأ الخرافة وتتفرع في عقول الذين لا يتصلون بالنور الإلهي . استمع إلى الآيات التالية تحكي هذه الخرافة وتناقش أصحابها : (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون ، اصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين)،(سورة الصافات /١٤٩ ـ ١٥٦) .

وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها ، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ ستُكتب شهادتهم ويُسألون) [1] (سورة الزخرف /١٩) .

---

(١) ومن هنا يجب أن يحذر المسلم في أن يتقول في مثل هذه الأمور بلا علم ، فهؤلاء الذين يزعمون أن أصل الإنسان حيوان : قرد ، أو غيره ، يقال لهم نفس القول : (أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون) والله يقول : (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) .

لا يأكلون ولا يشربون :

أشرنا من قبل أنهم لا يوصفون بالذكورة والأنوثة ، وكذلك هم لا يحتاجون إلى طعام البشر وشرابهم ، فقد أخبرنا الله أن الملائكة جاؤوا إبراهيم في صورة بشر فقدَّم لهم الطعام فلم تمتد أيديهم إليه فأوجس منهم خيفـة ، فكشفوا له عن حقيقتهم فزال خوفه واستغرابه : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فراغ (مال) إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف وبشروه بغلام عليم) ، (سورة الذاريات/٢٤ ـ ٢٨).

وفي آية أخرى قال : (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف إنا أُرسلنا إلى قوم لوط) ، (سورة هود /٧٠) .

لا يملّون ولا يتعبون :

والملائكة يقومون بعبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره ، بلا كلل ولا ملل ، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك ، قال تعالى في وصف ملائكته : (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ، (سورة الأنبياء /٢٠) .

ومعنى لا يفترون : لا يضعفون . وفي الآية الأخرى (فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) (سورة فصلت /٣٨) تقول العرب :سئم الشيء : أي ملَّه .

منازلهم :

منازل الملائكة ومساكنها السماء ، كما قال تعالى : (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم) (سورة الشورى /٥) .

وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عنده : (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) ، (سورة فصلت / ٣٨) .

وينزلون إلى الأرض بأمر الله لتنفيذ مهمات نيطت بهم ، ووكلت إليهم (وما نتنزل إلا بأمر ربك)،(سورة مريم /٦٤) .

ويكثر نزولهم في مناسبات خاصة كليلة القدر (ليلة القدر خير من ألف شهر تنزَّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) ، (سورة القدر /٣ ـ ٤).

عددهم :

الملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم (وما يعلم جنود ربك إلا هو)،(سورة المدثر /٣١) .

وإذا أردت أن تعلم كثرتهم فاسمع ما قاله ـ ﷺ ـ في البيت المعمور الذي في السماء السابعة : (فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم) رواه البخاري ومسلم .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (يؤتى بجهنَّم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك) فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك .

وإذا تأملت النصوص الواردة في الملائكة التي تقوم على الإنسان ـ علمت مدى كثرتهم ـ ، فهناك ملك موكل بالنطفة ، وملكان لكتابة أعمال كل إنسان ، وملائكة لحفظه ، وقرين ملكي لهدايته وإرشاده ... (كما سيأتي قريباً) .

أسماؤهم :

للملائكة أسماء ، ونحن لا نعرف من أسماء الملائكة إلا القليل وإليك الآيات التي ورد فيها أسماء بعض الملائكة .

١ ، ٢ ـ جبريل وميكائيل :

قال تعالى : (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله

مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكـال فإنَّ الله عدو للكافرين) ، (سورة البقرة /٩٧ ـ ٩٨) .

وجبريل هو الروح الأمين المذكور في قوله تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) ، (سورة الشعراء /١٩٣ ـ ١٩٤) .

وهو الروح المعني في قوله تعالى : (تنزَّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم) (سورة القدر / ٤) .

وهو الروح الذي أرسله إلى مريم : (فأرسلنا إليها روحنا) ،(سورة مريم / ١٧) .

٣ ـ اسرافيل :

ومن الملائكة إسرافيل الذي ينفخ في الصور ، وجبريل وميكائيل وإسرافيل هم الذين كان يذكرهم الرسول ـ ﷺ ـ في دعائه كلما استيقظ من الليل : (اللهمَّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنَّك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) .

٤ ـ مالك :

ومنهم مالك خازن النار (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون) ، (سورة الزخرف /٧٧)

٥ ـ رضوان :

قال **ابن كثير** : (وخازن الجنَّة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث) (البداية : ١/٥٣) .

٦ ، ٧ ـ منكر ونكير :

ومن الملائكة الذين سماهم الرسول ـ ﷺ ـ : منكر ونكير ، وقد

استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر .

٨ ، ٩ ـ هاروت وماروت :

ومنهم ملكان سماهما الله باسم (هاروت وماروت) قال تعالى : (وما كفر سليمان ولكنَّ الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ...) ، (سورة البقرة /١٠٢) .

ويبدو من سياق الآية أن الله بعثهما فتنة للناس في فترة من الفترات ، وقد نُسجت حولهما في كتب التفسير أساطير كثيرة ، لم يثبت شيء منها في الكتاب والسنة ، فيكتفي في معرفة أمرهما . بما دلت عليه الآية الكريمة .

عزرائيل :

وقد جاء في بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل ولا يوجد في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة تسميته بهذا الاسم (البداية ١/٥٠) .

رقيب وعتيد :

يذكر بعض العلماء أن من الملائكة من اسمه رقيب وعتيد ، استدلالاً بقوله تعالى : (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)،(سورة ق / ١٧ ـ ١٨) .

وما ذكروه غير صحيح ، فالرقيب والعتيد هنا وصف للملكين اللذين يسجلان أعمال العباد ، ومعنى رقيب وعتيد أي ملكان حاضران شاهدان لا يغيبان عن العبد . وليس المراد أنهما اسمان للملكين .

هل تموت الملائكة ؟

الملائكة يموتون كما يموت الإنس والجن ، وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى : (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا

من شاء الله ثمَّ نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) ، (سورة الزمر /٦٨) .

فالملائكة تشملهم الآيـة لأنهم في السمـاء يقـول ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (هذه هي النفخة الثانية ، وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحـيُّ القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ، ويقول : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول :(لله الواحد القهار) .

ومما يدلُّ على أنهم يموتون قوله تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه) (سورة القصص / ٨٨) .

وهل يموت أحد منهم قبل نفخة الصور ؟ هذا ما لا نعلمه ولا نستطيع الخوض فيه لعدم وجود النصوص المثبتة له أو النافية .

الصفات الخُلُقية

الملائكة كرام بررة :

وصف الله الملائكة بأنهم كرام بررة (بأيدي سَفَرَة كرام بررة) ، (سورة عبس : ١٥ ـ ١٦) ، أي القرآن بأيدي سفرة : أي الملائكة لأنَّهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه ، قال البخاري : (سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم)، وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله ـ تعالى ـ وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم ، وقد وصف الله تعالى هؤلاء الملائكة بأنَّهم (كرام بررة) أي خَلْقهم كريم حسن شريف وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد ، روى الإمام أحمد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول

الله ـ ﷺ ـ : (الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأه وهو عليه شاق ، له أجران) ، (وقد أخرجه الجماعة) .

استحياء الملائكة :

من أخلاق الملائكة التي أخبرنا الرسول ـ ﷺ ـ بها : الحياء ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عائشة أن الرسول ـ ﷺ ـ كان مضطجعاً في بيتها كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث ، ثمَّ استأذن عمر فأذن له وهو كذلك ، فتحدث ،. ثمَّ استأذن عثمان فجلس الرسول ـ ﷺ ـ وسوَّى عليه ثيابه ، فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهتش له ، ولم تُبَالِه ، ثمَّ دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثمَّ دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ، فقال : (ألا استحيي من **رجل تستحيي منه الملائكة**) .

قُدراتهم

قدرتهم على التشكل :

أعطى الله الملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم ، فقد أرسل الله جبريل إلى مريم في صورة بشر : (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويّاً ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ، قال :إنَّما أنا رسول ربِّك لأهب لك غلاماً زكيّاً) ، (سورة مريم / ١٦ ـ ١٩) .

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ جاءته الملائكة في صورة بشر ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم ، وقد ذكرنا الآيات التي تتحدث عن ذلك فيما سبق .

وجاءوا إلى لوط في صورة شباب حسان الوجوه ، وضاق لوط بهم

وخشي عليهم من قومه ، فقد كانوا قوم سوء يفعلون السيئات ويأتون الذكران من العالمين (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم ، وضاق بهم ذرعاً ، وقال هذا يوم عصيب) ، (سورة هود/٧٧) .

يقول ابن كثير : (تبدى لهم الملائكة في صورة شباب حسان امتحاناً واختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر) (البداية والنهاية ١/٤٣) .

وقد كان جبريل يأتي الرسول - ﷺ - في صفات متعددة ، فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي (صحابي كان جميل الصورة) وتارة في صورة أعرابي .

وقد شاهده كثير من الصحابة عندما كان يأتي كذلك .

ففي الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منّا أحد ، فجلس إلى رسول الله - ﷺ - ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، وفي الحديث أنه سأله عن الإيمان والإحسان والساعة وأماراتها .

وقد أخبر الرسول - ﷺ - فيما بعد أن السائل جبريل جاء يعلم الصحابة دينهم .

ورأت عائشة الرسول - ﷺ - واضعاً يده على معرفة فرس دحية الكلبي يكلمه فلما سألته عن ذلك ، قال - ﷺ - ذاك جبريل وهو يقرئك السلام . أخرجه أحمد في مسنده وابن سعد في الطبقات بإسناد حسن .

وقد حدثنا الرسول - ﷺ - عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ، وأنه لما هاجر تائباً جاءه الموت في منتصف الطريق إلى الأرض التي هاجر إليها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فحكّموا فيه ملكاً

جاءهم في صورة آدمي ، يقول عليه السلام : (فجاءهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له) ولا بدَّ أنهم حكموه بأمر الله ، فأرسل الله لهم هذا الملك في صورة آدمي . والقصة في صحيح مسلم في باب التوبة .

وسيأتي في قصة الثلاثة الذين ابتلاهم الله من بني اسرائيل الأبرص والأقرع والأعمى ـ وأن الملك تشكل بصورة كل من الأقرع والأبرص والأعمى .

عظم سرعتهم :

أعظم سرعة يعرفها البشر هي سرعة الضوء ، فهو ينطلق بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية الواحدة .

أمّا سرعة الملائكة فهي فوق ذلك ، وهي سرعة لا تقاس بمقاييس البشر ، كان السائل يأتي إلى الرسول ـ ﷺ ـ فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من ربِّ العزة سبحانه وتعالى ، واليوم لو وُجدت المراكب التي تسير بسرعة الضوء فإنها تحتاج إلى (مليار) سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة في آفاق هذا الكون الواسع الشاسع .

علمهم :

والملائكة عندهم علم وفير علّمهم الله إيَّاه ، ولكن ليس عندهم القدرة التي أعطيت للإنسان في التعرف على الأشياء (وعلَّم آدم الأسماء كلَّها ثمَّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) ، (سورة البقرة/٣١-٣٢)

فالإنسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء واكتشاف سنن الكون ، والملائكة يعلمون ذلك بالتلقي المباشر عن الله سبحانه وتعالى .

ولكنَّ الذي علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الإنسان ومن العلم الذي

أعطوه علم الكتابة ، (وإنَّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) (سورة الانفطار/١٠ ـ ١٢) .

وسيأتي إيضاح هذا في مبحث (الملائكة والإنسان) .

اختصام الملأ الأعلى :

والملائكة تتحاور فيما بينها فيما خفي عليها من وحي ربها ، ففي سنن الترمذي ومسند أحمد عن ابن عباس أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة ، فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفيّ ، حتى وجدت بردها بين ثدييّ ، فعلمت ما في السموات ، وما في الأرض ، فقال : يا محمد ! هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم ، في الكفارات والدرجات ، والكفارات : المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، واسباغ الوضوء في المكاره .

قال : صدقت يا محمد ! ومن فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه .

وقال : يا محمد إذا صليت فقل : اللهمَّ إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبَّ المساكين ، وأن تغفر لي ، وترحمني ، وتتوب عليَّ وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون .

والدرجات : إفشاء السلام ، واطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام) . (انظر صحيح الجامع ١/٧٢) .

قال ابن كثير في هذا الحديث : (هذا حديث المنام المشهور ، ومن جعله يقظة فقد غلط ، وهو في السنن من طرق ، وهذا الحديث رواه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي به .

وقال الحسن : صحيح وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن في قوله :(ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ،إنْ يوحى إلي إلا أنَّما أنا نذير مبين) ،(سورة ص /٦٩ ـ ٧٠) .

فإن الاختصام المذكور في الحديث ، قد فسره الرسول ﷺ .

والاختصام المذكور في القرآن فسرته الآيات بعده (إذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . .) الآيات .

فالاختصام المذكور في القرآن كان في شأن آدم ـ عليه السلام ـ وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربّه في تفضيله عليه . (راجع تفسير ابن كثير ٦/٧٣ ـ ٧٤) .

منظمون في كل شؤونهم :

الملائكة منظمون في عبادتهم ، وقد حثنا الرسول ـ ﷺ ـ على الاقتداء بهم في ذلك فقال : (ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها) ؟ قالوا : وكيف يصفون عند ربهم ؟ قال : (يكملون الصف الأول فالأول يتراصون في الصف)،(رواه الجماعة إلا البخاري) ، وقد فضلنا الله على بقية الأمم بأن (جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة) والحديث في صحيح مسلم .

وفي يوم القيامة يأتون صفوفاً منتظمة (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) (سورة الفجر /٢٢) . ويقفون صفوفاً بين يدي الله تعالى : (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) (سورة النبأ /٣٨) والروح جبريل .

وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر ، في صحيح مسلم ومسند أحمد عن

أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ـ ﷺ ـ قال (آتي باب الجنَّة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك) .

ويمكن أن نلاحظ دقة تنفيذهم للأوامر من استعراض حديث الإسراء إذ كان جبريل يستأذن في كل سماء ولا يفتح له إلا بعد الاستفسار .



الفصل الثاني

٢ - عبادة الملائكة



نظرة في طبيعة الملائكة :

الملائكة مطبوعون على طاعة الله ، ليس لديهم القدرة على العصيان (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ، (سورة التحريم /٦) .

فتركهم للمعصية ، وفعلهم للطاعة جبلّة ، لا يكلفهم أدنى مجاهدة ، لأنَّه لا شهوة لهم .

ولعلَّ هذا هو السبب الذي دعا فريقاً من العلماء إلى القول بأن الملائكة ليسوا بمكلفين وأنهم ليسوا بداخلين في الوعد والوعيد (لوامع الأنوار ٤٠٩/٢).

ويمكن أن نقول : إن الملائكة ليسوا بمكلفين بنفس التكاليف التي كلف بها أبناء آدم . أمَّا القول بعدم تكليفهم مطلقاً فهو قول مردود ، فهم مأمورون بالعبادة والطاعة (يخافون ربَّهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) سورة النحل/٥٠). وفي الآية أنهم يخافون ربهم ، والخوف نوع من التكاليف الشرعية ، بل هو من أعلى أنواع العبودية كما قال فيهم: (وهم من خشيته مشفقون) ، (سورة الأنبياء /٢٨) .

مكانة الملائكة :

خير ما يوصف به الملائكة أنهم عباد لله ، ولكنهم عباد مكرمون ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن دعوى المشركين في أن الملائكة ـ بنات الله ـ دعوى باطلة لا نصيب لها من الصحة ، وقد أكذب الله القائلين بهذا القول وبين حقيقة الملائكة ومكانتهم في أكثر من موضع،قال تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ،

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين)،(سورة الأنبياء /٢٦ ـ ٢٩) .

الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية ، قائمون بالخدمة منفذون للتعاليم ، وعلم الله بهم محيط ، لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر ، ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم ، خائفون وجلون ، وعلى احتمال أن بعضهم تعدى طوره فإن الله يعذبه جزاء تمرده .

ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدي ربهم مقترحين ، ولا يعترضون على أمر من أوامره ، بل هم عاملون بأمره ، مسارعون مجيبون (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون)، (سورة الأنبياء/٢٧) وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، فالأمر يحركهم ، والأمر يوقفهم ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ لجبريل : (ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟!) قال : فنزلت : (وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيًا)،(سورة مريم /٦٤) .

نماذج من عبادتهم :

الملائكة عباد الله ، مكلفون بطاعته ، وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة . وسنورد ـ هنا ـ بعض العبادات التي حدثنا الله ، أو رسوله ـ ﷺ ـ أنهم يقومون بها .

التسبيح :

الملائكة يذكرون الله تعالى ، وأعظم ذكرهم التسبيح ، يسبحه تعالى حملة عرشه : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم) (سورة غافر /٧) كما يسبحه عموم ملائكته : (والملائكة يسبحون بحمد ربهم)،(سورة الشورى /٥) .

وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع لا في الليل ولا في النهار (يسبحون الليل والنهار لا يفترون)،(سورة الأنبياء /٢٠) .

ولكثرة تسبيحهم فإنهم هم المسبحون في الحقيقة وحق لهم أن يفخروا بذلك : (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبّحون)،(سورة الصافات/ ١٦٥ ـ ١٦٦) .

وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر ، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر ، قال : سئل رسول الله ـ ﷺ ـ: أي الذكر أفضل ؟ قال : (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده : سبحان الله وبحمده) .

صلاتهم :

سبق ذكر الحديث الذي يحث الرسول ـ ﷺ ـ فيه أصحابه على الاقتداء بالملائكة في الاصطفاف للصلاة : (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟) وعندما سئل عن كيفية اصطفافهم قال : (يتمون الصف الأول فالأول ، ويتراصون في الصف) رواه البخاري .

وفي القرآن عن الملائكة : (وإنا لنحن الصافون) ، (سورة الصافات ١٦٥) وهم يقومون ويركعون ويسجدون ، ففي مشكل الآثار للطحاوي والطبراني في المعجم الكبير عن حكيم بن حزام قال :

(بينما رسول الله ـ ﷺ ـ في أصحابه إذ قال لهم : أتسمعون ما أسمع ؟ قالوا : ما نسمع من شيء ، قال : إني لأسمع أطيط السماء ، وما تلام ان تئط ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم).

قال فيه الألباني (صحيح على شرط مسلم)،(سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ٨٥٢) .

حجّهم :

وللملائكة كعبة في السماء السابعة يحجون إليها ، هذه الكعبة هي التي

أسماها الله تعالى : البيت المعمور ، وأقسم به في سورة الطور (والبيت المعمور)،(آية /٤) .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته السماء السابعة : (ثمَّ رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم) يعني يتعبدون فيه ، ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وَجَد إبراهيمَ الخليل - عليه الصلاة والسلام - مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، لأنَّه باني الكعبة الأرضية ، والجزاء من جنس العمل) . وذكر ابن كثير أن البيت المعمور بحيال الكعبة ، أي فوقها لو وقع لوقع عليها ، وذكر أن في كل سماء بيتاً يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذي في السماء الدنيا يقال له : بيت العزة.

وهذا الذي ذكره ابن كثير من أن البيت المعمور بحيال الكعبة مروي عن علي بن أبي طالب ، أخرج ابن جرير من طريق خالد بن عرعرة أن رجلاً قال لعلي - رضي الله عنه -: ما البيت المعمور ؟ قال : (بيت في السماء يقال له الضُراح وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، ولا يعودون فيه أبداً).

قال فيه الشيخ ناصر الدين **الألباني** :(الأحاديث الصحيحة ٢٣٦/١) ورجاله ثقاة غير خالد بن عرعرة وهو مستور .... ثمَّ ذكر أنَّ له شاهداً مرسلاً صحيحاً عن الرسول - ﷺ - من رواية قتادة ، قال : ذكر لنا أن النبي - ﷺ - قال يوماً لأصحابه : (هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنَّه مسجد في السماء ، تحته الكعبة ، لو خرَّ لخر عليها ...) .

ثم قال المحقق (الألباني) : (وجملة القول أن هذه الزيادة (حيال

الكعبة) ثابتة بمجموع طرقها) .

خوفهم من الله وخشيتهم له :

ولما كانت معرفة الملائكة بربهم كبيرة ، كان تعظيمهم له ، وخشيتهم له ، عظيمة ، قال الله فيهم : (وهم من خشيته مشفقون) ، (سورة الأنبياء /٢٨).

يبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: (إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة ، أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجّداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ـ عليه السلام ـ، فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد ... الحديث) ، (رواه ابن جرير وابن خزيمة والطبراني وابن أبي حاتم واللفظ له).

وفي معجم الطبراني الأوسط باسناد حسن عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (مررت ليلة أُسري بي بالملأ الأعلى ، وجبريل كالحلس البالي من خشية الله تعالى) . (صحيح الجامع ٢٠٦/٥) .

(والحلس : كساء يبسط في أرض البيت) .



الفصل الثالث

٣ - الملائكة والإنسان



الملائكة وآدم

سؤالهم عن الحكمة من خلق الإنسان :

عندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم أعلم ملائكته بمراده ، فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك ؛ لأنهم علموا أنه سيقع من بني آدم إفساد ، وسفك دماء ، وعصيان ، وكفر ، فأخبرهم سبحانه أن من وراء خلقه لآدم حكم لا يعلمونها : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال : إني أعلم ما لا تعلمون) ، (سورة البقرة /٣٠) .

سجودهم له عند خلقه :

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم حين يتمّ خلقه وتنفخ فيه الروح ، (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) ، (سورة ص /٧١ ـ ٧٢) .

وقد استجابوا لأمر الله إلا إبليس : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين) [1] (سورة ص ٧٣ ـ ٧٤) .

---

(١) هذه الآية ظاهرة الدلالة في أن الملائكة جميعاً سجدوا لآدم ، وفي هذا ردٌّ على الذين قالوا بأن الذين سجدوا هم جزء من الملائكة ، أو أنَّهم ملائكة الأرض فحسب ، والأثر الوارد في أنهم ملائكة الأرض والمنسوب إلى ابن عباس فيه نكارة وانقطاع . ويرى ابن تيمية أن الآية نصٌّ لا يحتمل التأويل ولا يجوز مخالفتها .

توجيه الملائكة لآدم :

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ . « خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر ، وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحيَّة ذريتك ، فذهب ، فقال : السلام عليكم . فقالوا : السلام عليك ورحمة الله » قال : « فزادوه ورحمة الله » متفق عليه .

غسل الملائكة آدم عند موته :

عندما توفي آدم لم يعرف أولاده كيف يفعلون به فأعلمتهم الملائكة ، في مستدرك الحاكم ومعجم الطبراني الأوسط ، بإسناد صحيح ، عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ : (لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وتراً ، وألحدوا له ، وقالوا : هذه سنة آدم في ولده) ، (صحيح الجامع ٤٨/٥) .

وقد ثبت في صحاح الأحاديث أن الملائكة غسلت شهيداً من هذه الأمَّة هو حنظلة بن أبي عامر الذى استشهد في معركة أحد ، فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ لأصحابه بعد مقتل حنظلة : (إنَّ صاحبكم تغسله الملائكة ، يعني حنظلة) فسأل الصحابة زوجته ، فقالت : إنَّه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : (لذلك غسلته الملائكة) رواه الحاكم ، والبيهقي في السنن واسناده حسن كما يقول الألباني وقد ذكر الحافظ ابن عساكر بإسناد صحيح أنَّ الأوس افتخروا بأن منهم غسيل الملائكة حنظلة بن الراهب .

(الأحاديث الصحيحة حديث رقم ٣٢٦) .

الملائكة وبني آدم

علاقة الملائكة بذرية آدم علاقة وثيقة ، فهم يقومون عليه عند خلقه ، ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة ، ويأتونه بالوحي من الله ، ويراقبون

أعماله وتصرفاته ، وينزعون روحه إذا جاء أجله . وسنتناول ذلك بشيء من التفصيل والبيان .

دورهم في تكوين الإنسان :

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (إذا مرَّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله تعالى إليها ملكاً ، فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثمَّ قال : أي ربِّ : ذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك) .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : حدثنا رسول الله ـ ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق : (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثمَّ يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثمَّ يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثمَّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح،ويؤمر بأربع كلمات تكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد) .

وفي الصحيحين أيضاً عن أنس بن مالك عن النبي ـ ﷺ ـ قال : (وكل الله تعالى بالرحم ملكاً ، فيقول : (أي ربِّ نطفة ، أي رب عَلَقَة ، أي ربِّ مُضغة ، فإذا أراد أن يقضي خلقها قال : أي ربِّ ذكر أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه) .

حراستهم لابن آدم :

قال تعالى : (سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) ،(سورة الرعد /١٠ ـ ١١) .

وقد بيّن ترجمان القرآن ابن عباس أن المعقبات من الله هم الملائكة جعلهم الله ليحفظوا الإنسان من أمامه ومن ورائه ، فإذا جاء قدر الله الذي قدَّر

أن يصل إليه ـ خلوا عنه .

وقال مجاهد : (ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوام ، فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك وراءك ، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه) .

وقال رجل لعلي بن أبي طالب : إن نفراً من مراد يريدون قتلك ، فقال (أي علي) : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، إن الأجل جنّة حصينة) .

(راجع البداية ١/٥٤) .

والمعقبات المذكورة في آية الرعد هي المرادة بالآية الأخرى (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرِّطون) ، (سورة الأنعام /٦١) فالحفظة الذين يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتي أجله المقدر له .

يبلغون وحي الله إلى رسله وأنبيائه :

وقد أعلمنا الله أن جبريل يكاد يختص بهذه المهمة : (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه) ، (سورة البقرة /٩٧).

وقال : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) ، (سورة الشعراء / ١٩٣ ـ ١٩٤) .

وقد يأتي بالوحي غير جبريل ـ وهذا قليل ـ كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : (بينما جبريل قاعد عند النبي ـ ﷺ ـ سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ، لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطُّ إلا اليوم ، فسلَّم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي

قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته) .

وفي التاريخ لابن عساكر بإسناد صحيح عن حذيفة أن رسول الله - ﷺ - قال : (أتاني ملك فسلم عليَّ - نزل من السماء ، لم ينزل قبلها - فبشرني أنَّ الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنَّة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنَّة) ، (صحيح الجامع ١/٨٠) .

وفي مسند أحمد والترمذي والنسائي عن حذيفة أن الرسول - ﷺ - قال : (أما رأيت العارض الذي عرض لي قبيل ؟ هو ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة ، استأذن ربه - عز وجل - أن يسلم عليَّ ، ويبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنَّة ، وأن فاطمة سيّدة نساء أهل الجنة) ،(صحيح الجامع ١/٤١٩) .

وفي المسند وسنن الترمذي بإسناد صحيح عن أُبي بن كعب أن رسول الله - ﷺ - قال : (أتاني جبريل وميكائيل ، فقعد جبريل عن يميني ، وميكائيل عن يساري ، فقال جبريل : يا محمد : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل استزده ، فقلت زدني ، فقال : اقرأه على ثلاثة أحرف ، فقال ميكائيل استزده فقلت : زدني ، كذلك حتى بلغ سبعة أحرف ، فقال : اقرأه على سبعة أحرف ، كلها شاف كاف) [1] (صحيح الجامع ١/٨٠) .

---

(١) ما بيناه هنا من أن الملائكة سفراء الله إلى خلقه وحملة وحيه إلى رسله يوضح لنا المعنى اللغوي لكلمة (ملك) فالملك : أصله ألَكَ ، والمالكة والمْألكة ، والمأْلَكُ : الرسالة . ومنه اشتق الملائك ، لأنهم رسل الله وقيل : اشتق من (لَ أ ك) والملأكة : الرسالة ، وألكني إلى فلان أي بلغه عني ، والملأك : الملك ، لأنه يبلغ عن الله تعالى . وقال بعض المحققين : الملَك من الملك . قال : والمتولي من الملائكة شيئاً من السياسات يقال له مَلَك ، ومن البشر مَلِك . (راجع بصائر ذوي التمييز ٤/٥٢٤) .

ليس كل من جاءه ملك فهو رسول أو نبي :

ليس كـل من جاءه ملك يعتبر رسولاً أو نبيًّا فهذا وَهْم ، فالله قد أرسل جبريل إلى مريم ، كما أرسله إلى أم إسماعيل عندما نفذ الماء والطعام منها .

ورأى الصحابة جبريل في صورة أعرابي ، وأرسل الله ملكاً إلى ذلك الرجل الذي زار أخاً له في الله يبشره بأن الله يحبه لحبه لأخيه ... وهذا كثير وإنما المراد التنبيه .

كيف كان يأتي الوحي الرسول ـ ﷺ ـ :

سأل الحارث بن هشام ـ رضي الله عنه ـ الرسول ـ ﷺ ـ . فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟

فقال الرسول ـ ﷺ ـ :

« أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس وهو أشدُّه عليَّ ، فَيُفْصَم عنِّي وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول »

فجبريل كان يأتي الرسول ـ ﷺ ـ ويتصل به وهو في حالته الملكية ، وهذه شديدة على الرسول ـ ﷺ ـ ، والحالة الثانية كان جبريل ينتقل من حالته الملكية إلى البشرية ، وهذه أخف على الرسول ـ ﷺ ـ . وقـد رأى الـرسول ـ ﷺ ـ جبريل على صورتـه التي خلقه الله عليها مرتين ، مرة بعد البعثة بثلاث سنوات كما ثبت ذلك في صحيح البخاري أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (بينما أنا أمشي ، إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت ، فقلت : زمِّلوني) والمرة الثانية رآه عندما عرج به إلى السماء ، وهاتان المرتان مذكورتان في سورة النجم : (علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثمَّ دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ،

أفتمارونـه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى) . (سورة النجم /٥ ـ ١٧) .

لا تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي :

لم تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي من الله تعالى ، فقد كان يأتيه في كل عام في رمضان في كل ليلة من لياليه ، فيدارسه القرآن . والحديث صحيح ، أورده البخاري في صحيحه .

إمامته للرسول :

وقـد أم جبريل الرسول ـ ﷺ ـ ، كي يعلمه الصلاة كما يريدها الله تعالى :

في صحيح البخاري أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (نزل جبريل فأمني فصليت معه ، ثمَّ صليت معه ، ثمَّ صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، يحسب بأصابعه خمس مرات) وفي مسند أحمد وسنن النسائي وأبي داود عن ابن عباس ـ أن الرسول ـ ﷺ ـ . قال : (أمني جبريل عند البيت مرتين ، فصلى بي حين زالت الشمس ، وكانت قدر الشراك ، وصلى بي العصر حين كان ظلُّ الشيء مثله ، وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى بي العشاء حين غاب الشفق ، وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم

فلما كان الغد ، صلى بي الظهر حين كان ظل الشيء مثله ، وصلى بي العصر حين كان ظل الشيء مثليه ، وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى بي العشاء إلى ثلث الليل ، وصلى بي الفجر فأسفر . ثمَّ التفت إليَّ وقال : يا محمد : هذا وقت الأنبياء من قبلك ، والوقت ما بين هذين الوقتين) .

ولم يعلمه كيفية الصلاة عملياً وأوقاتها فحسب بل علمه الوضوء ، ففي مسند أحمد ومستدرك الحاكم عن زيد بن حارثة أن الرسول ـ ﷺ ـ

قال : (أتاني جبريل في أول ما أوحى إلي ، فعلمني الوضوء والصلاة ، فلما فرغ من الوضوء ، أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه) .

رقيته للرسول ـ ﷺ ـ:

روى مسلم في صحيحه والترمذي في سننه وغيرهما عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (أتاني جبريل فقال : يا محمد اشتكيت ؟ قلت : نعم ، قال : بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شرّ كل ذي نفس ، وعين حاسد ، بسم الله أرقيك ، والله يشفيك) .

أعمال أخرى :

ومن ذلك أنَّه حارب مع الرسول ـ ﷺ ـ في بدر والخندق ، وصحب الرسول ـ ﷺ ـ في الإسراء وغير ذلك .

تحريك بواعث الخير في نفوس العباد :

وكَّل الله بكل إنسان قريناً من الملائكة ، وقريناً من الجن ، ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة) قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : (وإياي ، ولكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير) ولعلَّ هذا القرين من الملائكة غير الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله ، قيضه الله له ليهديه ويرشده .

وقرين الإنسان من الملائكة وقرينه من الجنّ يتعاوران الإنسان ، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه ، فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأمَّا لمة الشيطان ، فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأمَّا لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنَّه

من الله ، وليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم) ، (سورة البقرة /٢٦٨) قال ابن كثير بعد سوقه لهذا الحديث : (هكذا رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما جميعاً ، عن هناد بن السري . وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، عن أبي يعلى الموصلي ، عن هناد به ، وقال الترمذي حسن غريب وهو حديث أبي الأحوص ، يعني سلام بن سليم ...) .

وانظر إلى الحديث التالي كي تعرف كيف يتسابق القرين الجني والقرين الملكي على توجيه الإنسان ، ذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :(إذا أوى الإنسان إلى فراشه ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : اختم بخير ، ويقول الشيطان : اختم بشر . فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه ـ يعني النوم ـ طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان . افتح بشر ، فإن قال : الحمد لله الذي أحيا نفسي بعدما أماتها ، ولم يمتها في منامها ، الحمد لله الذي يمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه) .

قال محقق كتاب الوابل الصيب معلقاً على هذا الحديث (ورواه بمعناه ابن حبان رقم (٢٣٦٢) « موارد » ، والحاكم (٥٤٨/١) وصححه ووافقه الذهبي ورجاله ثقاة ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٠/١٠) وقال : رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح ، غير إبراهيم الشامي وهو ثقة . نقول وصوابه : ابراهيم بن الحجاج السامي بالسين المهملة) .

وهذه الأحاديث توجهنا إلى الإكثار من الأعمال الخيرة التي تصلح نفوسنا وتقرب الملائكة منَّا ، ففي قرب الملائكة منا خير عظيم ، فقد (كان رسول الله ـ ﷺ ـ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ـ ﷺ ـ أجود بالخير من الريح المرسلة) ، (رواه البخاري عن ابن عباس) .

حفظ أعمال بني آدم :

الملائكة موكلون بحفظ أعمال بني آدم من خير وشرّ ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) (سورة الانفطار / ١٠ ـ ١٢) .

وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين لا يفارقانه يحصيان عليه أعماله وأقواله : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، (سورة ق /١٦ ـ ١٨) .

ومعنى قعيد أي مترصد . ورقيب عتيد : أي مراقب معد لذلك لا يترك كلمة تفلت .

والظاهر أن الملائكة الموكلة بالإنسان تكتب كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال وأقوال لا يتركون شيئاً ؛ لقوله تعالى : (ما يلفظ من قول) .

ولذلك فإن الإنسان يجد كتابه قد حوى كل شيء صدر منه ، ولذلك فإنَّ الكفار ينادون عندما يرون كتاب أعمالهم يوم القيامة قائلين : (يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربُّك أحداً) ،(سورة الكهف /٤٩) .

وفي مسند الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزني ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان

الله ـ تعالى ـ ما يظنّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله ـ عز وجل ـ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله ـ تعالى ـ عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه) فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث .

ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وقال الترمذي حسن صحيح

وذكر ابن كثير في تفسيره عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية (عن اليمين وعن الشمال قعيد)،(سورة ق /١٧) ثم قال : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأمَّا الذي عن يمينك فيحفظ الحسنات ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ السيئات ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى : (وكل إنسان ألزمناه طائرهُ في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً)،(سورة الإسراء /١٣ ـ ١٤) ثم يقول الحسن : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وذكر ابن كثير أيضاً عن ابن عباس في قوله تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)،(سورة ق /١٨) قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنَّه ليكتب قوله : أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت . حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره ؛ وذلك قوله تعالى:(يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)،(سورة الرعد/٣٩) .

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد أنَّه كان يئنّ في مرضه ، فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين ، فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله .

صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات :

في معجم الطبراني الكبير بإسناد حسن عن أبي أمامة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها ، وإلا كتبت واحدة) ، (صحيح الجامع ٢١٢/٢) .

هل تكتب الملائكة أفعال القلوب ؟

استدل شارح الطحاوية على أن الملائكة تكتب أفعال القلوب بقوله تعالى (يعلمون ما تفعلون) ، (سورة الانفطار /١٢) فالآية شاملة للأفعال الظاهرة والباطنة .

واستدلَّ أيضاً بالحديث المتفق عليه ، يقول الرسول ـ ﷺ ـ : (قال الله عز وجل : إذا همَّ عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرا) .

وفي الحديث الآخر المتفق عليه أيضاً : (قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة ، وهو أبصر به ، فقال : ارقُبُوه فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنَّما تركها من جرائي) ، (الطحاوية /٤٣٨) .

شبهة :

قد يقال ألا يتناقض علم الملائكة بإرادة الإنسان وقصده مع قوله تعالى : (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) .

فالجواب : أن هذا ليس من خصائص علم الله تعالى ، فهو وإن خفي عن البشر فلا يعلم واحدهم ما في ضمير أخيه ، فلا يلزم أن يخفى عن الملائكة .

وقد يقال أن الملائكة تعلم بعض ما في الصدور ، وهو الإرادة والقصد ، أمَّا بقية الأمور كالاعتقادات فلا دليل على كونها تعلمها .

دعوة العباد إلى فعل الخير :

في صحيح البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ قال : (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهمَّ اعط ممسكاً تلفاً) .

وذكر ابن حجر في شرحه للحديث رواية أخرى عن أبي الدرداء وفيها (ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبتها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربِّكم ، إن ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا غربت شمسه إلا وبجنبتها ملكان يناديان) فذكر مثل حديث أبي هريرة السابق .

ابتلاء بني آدم :

وقد يرسل الله بعض ملائكته لابتلاء بني آدم واختبارهم ، ففي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع النبي ـ ﷺ ـ يقول : (إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً .

فأتى الأبرص ، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ فقال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قذرني الناس ، فمسحه ، فذهب عنه قذره ، وأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ، أو قال البقر ، فأعطى ناقة عشراء (أي حامل) . فقال : بارك الله لك فيها .

فأتى الأقرع ، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عني الذي قذرني الناس . فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعراً حسناً . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملاً ، وقال : بارك الله لك فيها .

فأتى الأعمى فقال : أيُّ شيء أحب إليك ؟ قال أن يرد الله إليَّ بصري ،

فأبصر الناس . فمسحه فردَّ الله إليه بصره . قال : فأيُّ المال أحب إليك ؟ قال الغنم . فأعطى شاة والداً فأنتج هذا وولَّد هذا .

فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

ثمَّ إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثمَّ بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال ـ بعيراً أتبلَّغ به في سفري ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنَّما ورثت هذا المال كابراً عن كابر . فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع في صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، وردَّ عليه مثل ما ردَّ هذا ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل . انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ، ثمَّ بك ، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك : شاة أتبلَّغ بها في سفري ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إليَّ بصري ، فخذ ما شئت ، ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل ، فقال : أمسك مالك ، فإنَّما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك) .

الملائكة تنزع روح الإنسان :

اختص الله بعض ملائكته بنزع أرواح العباد عندما تنتهي آجالهم التي قدرها الله لهم ، قال تعالى : (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) ، (سورة السجدة /١١) .

والذين يقبضون الأرواح أكثر من ملك (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثمَّ

ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا لـــه الحكم وهو أسرع الحاسبين)،(سورة الأنعام /٦١ ـ ٦٢) .

وتنزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين نزعاً شديداً عنيفاً بلا رفق ولا هوادة (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون)، (سورة الأنعام /٩٣) .

وقال: (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق)،(سورة الأنفال / ٥٠) .

وقال: (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم)،(سورة محمد / ٢٧) .

أمَّا المؤمنون فإن الملائكة تنزع أرواحهم نزعاً رفيقاً .

تبشيرهم المؤمنين عند النزع :

وإذا جاء الموت ونزل بالعبد المؤمن فإن الملائكة تتنزل عليه تبشره وتثبته (إن الذين قالوا ربنا الله ثمَّ استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنَّة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون)،(سورة فصلت /٣٠ ـ ٣١) .

وهي تبشر الكفرة بالنار وغضب الجبار وتقول لهم : (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون)،(سورة الأنعام /٩٣) .

موسى يفقأ عين ملك الموت :

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (جاء ملك الموت إلى موسى بن عمران ، فقال له : أجب ربك ، قال : (فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها) قال :

(فرجع الملك إلى الله ، فقال : إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت ، وقد فقأ عيني) قال : « فردَّ الله إليه عينه ، وقال : ارجع إلى عبدي فقل : الحياةَ تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما توارت يدك من شَعْرة فإنك تعيش بها سنة (وفي البخاري : فله بما غطت يده لكل شعرة سنة) قال : ثمَّ مـه ؟ قال : ثمَّ تموت . قال : فالآن من قريب) .

وملك الموت إنما جاء موسى في صورة إنسان كما في رواية صحيحة في المسند ، وهذا الذي فعله موسى لأنَّ الأنبياء يُـخَـيَّرون قبل أن تقبض أرواحهم بين الدنيا وبين ما عند الله .

وقد يبادر بعض الناس إلى التكذيب بمثل هذه الرواية لأن عقولهم لا تستسيغها ، وقد نسوا أنَّ أول صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب كما ذكر الله ذلك في مطلع سورة البقرة ، فإذا صحَّ الخبر عن الله أو عن رسوله فليس هناك إلا التصديق (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكَّر إلا أولو الألباب) ، (سورة آل عمران /٧) .

سؤالهم العبد في القبر وما يكون منهم في المحشر والجنة والنار :

سيأتي في مبحث الإيمان باليوم الآخر إن شاء الله تعالى . ما يكـون مـن الملائكة نحو العباد بعد الموت من سؤال الملكين للعبد في قبره ، وهذان هما منكر ونكير ، وأن منهم ملائكة ينعّمون العباد في قبورهم ، وآخرون يعذبون الكفرة والمجرمين ، واستقبالهم للمؤمنين في يوم القيامة ، ونفخ إسرافيل في الصور ، وحشرهم الناس للحساب ، وسوقهم الكفرة إلى جهنم ، والمؤمنين إلى الجنة ، وقيامهم على تعذيب الكفار في النار ، وسلامهم على المؤمنين في الجنة .

الملائكة والمؤمنون

تحدثنا في المبحث الماضي عن الدور الذي كلف الله الملائكة القيام

به تجاه بني آدم كلهم مؤمنهم وكافرهم ، فما ذكرناه من تشكيلهم للنطفة ، وحراستهم للعباد ، وتبليغ للوحي ، ومراقبتهم للعباد وكتابة الأعمال ، ونزع الأرواح ، لا تختص بقسم من بني آدم دون قسم ، ولا بمؤمن دون كافر .

وللملائكة بعد ذلك دور مختلف مع المؤمنين والكفار وسنتناول دورهم وموقفهم من كلا الفريقين بالبيان والتوضيح .

محبتهم للمؤمنين :

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل : إن الله قد أحب فلاناً فأحبّه ، فيحبه جبريل . ثم ينادي جبريل في السماء : إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض) .

تسديد المؤمن :

روى الترمذي وابن ماجة أن الرسول - ﷺ - قال :(من سأل القضاء وُكل إلى نفسه ، ومن أجبر عليه ينزل الله عليه ملكاً فيسدده) .

أما كيفية تسديده فالله أعلم به .

ومن هذا الباب ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : (قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفنَّ الليلة بمائة امرأة ، تلد كل امرأة غلاماً يقاتل في سبيل الله .

فقال الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ونسي ، فأطاف بهنَّ ، ولم تلد إلا امرأة منهنَّ نصف إنسان .

قال النبي - ﷺ - لو قال : إن شاء الله لم يحنث وكان أرجى لحاجته) .

فالملك سدد نبي الله سليمان وأرشد إلى الأصوب والأكمل .

صلاتهم على المؤمنين :

أخبرنا الله أنَّ الملائكة تصلي على الرسول ـ ﷺ ـ : (إن الله وملائكته يصلون على النبي)،(سورة الأحزاب /٥٦) وهم يصلون على المؤمنين أيضاً : (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيماً)،(سورة الأحزاب /٤٣) .

والصلاة من الله ـ تعالى ـ ثناؤه على العبد عند ملائكته ، حكاه البخاري عن أبي العالية ، وقال غيره : الصلاة من الله ـ عز وجل ـ الرحمة ، وقد يقال : لا منافاة بين القولين .

وأمَّا الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم ، وهذا ما سنوضحه فيما يأتي .

نماذج من الأعمال التي تصلي الملائكة على صاحبها :

معلّم الناس الخير :

روى الطبراني والترمذي بإسناد صحيح عن أبي أمامة أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (إن الله وملائكته ، حتى النملة من جحرها ، وحتى الحوت في البحر ، ليصلون على معلم الناس الخير)،(صحيح الجامع ١٣٣/٢) .

الذين يؤمون المساجد للصلاة :

في صحيح مسلم (أن الملائكة تصلي على الذي يأتي المسجد للصلاة فتقول : اللهمَّ صلِّ عليه ، اللهمَّ ارحمه ، ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه) .

الذين يصلون في الصف الأول :

في سنن أبي داود وابن ماجة ومسند أحمد عن البراء ـ رضي الله عنه ـ

أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول) (صحيح الجامع ١٣٣/٢) .

وفي سنن الترمذي (إن الله وملائكته يصلون على **الصف المقدم**) (صحيح الجامع ١٣٤/٢) .

الذين يمكثون في مصلاهم بعد الصلاة :

روى أبو داود في سننه والنسائي بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن النبي ـ ﷺ ـ قال : (الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ، ما لم يحدث ، أو يقم : اللهم اغفر له ، اللهمَّ ارحمه)،(صحيح الجامع ٢١/٦) .

الذين يسدُّون الفرج بين الصفوف :

في سنن ابن ماجة ومسند أحمد ومستدرك الحاكم بإسناد حسن عن عائشة أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف ، ومن سدَّ فرجة رفعهُ الله بها درجة)،(صحيح الجامع ١٣٥/٢) .

الذين يتسحرون :

وفي صحيح ابن حبان ومعجم الطبراني الأوسط بإسناد حسن عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إن الله تعالى وملائكته يصلون على المتسحرين)،(صحيح الجامع ١٣٥/٢) .

الذين يصلون على النبي ـ ﷺ ـ :

روى أحمد في مسنده ، والضياء في المختارة عن عامر بن ربيعة باسناد حسن أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (ما من عبد يصلي عليَّ إلا صَلَّتْ عليه الملائكة ، ما دام يصلي عليَّ ، فليقلّ العبد من ذلك أو ليكثر) (صحيح الجامع ١٧٤/٥) .

الذين يعودون المرضى :

روى ابن حبان في صحيحه بإسناد صحيح عن علي أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (ما من امرئ مسلم يعود مسلماً إلا ابتعث الله سبعين ألف ملك ، يصلون عليه في أي ساعات النهار كان ، حتى يمسي ، وأي ساعات الليل كان ، حتى يصبح)،(صحيح الجامع ١٥٩/٥) .

وفي رواية لأبي داود والحاكم (ما من رجل يعود مريضاً ممسياً ، إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح ، ومن أتاه مصبحاً خرج معه سبعون الف ملك ، يستغفرون له حتى يمسي) .

هل لصلاة الملائكة علينا من أثر :

يقول تعالى : (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور)،(سورة الأحزاب /٤٣) .

الآية تفيد أن ذكر الله لنا في الملأ الأعلى ، ودعاء الملائكة للمؤمنين واستغفارهم لهم ،ـ له تأثير في هدايتنا وتخليصنا من الظلمات التي تعني الكفر والشرك والذنوب والمعاصي ، إلى النور الذي يعني وضوح المنهج والسبيل بالتعرف على طريق الحق الذي هو الإسلام ، وتعريفنا بمراد الله منا ، وإعطائنا النور الذي يدلنا على الحق : في الأفعال والأقوال والأشخاص .

التأمين على دعاء المؤمنين :

الملائكة يؤمنون على دعاء المؤمنين ، وبذلك يكون الدعاء أقرب إلى الإجابة ، ففي سنن ابن ماجة عن أبي الدرداء عن النبي ـ ﷺ ـ قال : (دعوة المرء مستجابة لأخيه بظهر الغيب ، عند رأسه ملك يؤمن على دعائه ، كلما دعا له بخير قال : آمين ، ولك بمثله) ولما كان الدعاء المؤمَّن عليه حريّاً بالإجابة فإنه لا ينبغي للمؤمن أن يدعو على نفسه بشر ، ففي صحيح مسلم

عن أم سلمة قالت : (لا تدعو على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون) .

استغفارهم للمؤمنين :

أخبرنا الله أن الملائكة يستغفرون لمن في الأرض (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم)،(سورة الشورى /٥)

وأخبر في آية سورة غافر أن حملة العرش والملائكة الذين حول العرش ينزهون ربهم ويخضعون له ويخصون المؤمنين التائبين بالاستغفار ويدعونه بأن ينجيهم من النار ويدخلهم الجنة ، ويحفظهم من فعل الذنوب والمعاصي : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كلَّ شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنَّك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم)،(سورة غافر /٧ ــ ٩) .

شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم :

ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ــ ﷺ ــ قال : « إن لله ــ تبارك وتعالى ــ ملائكة يطوفون في الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله ــ تعالى ــ تنادوا : هلموا إلى حاجتكم . قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا » .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفَّتهم

الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده) .

وفي مسند الإمام أحمد والسنن عن أبي الدرداء مرفوعاً : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع) أي تتواضع له .

فالأعمال الصالحة ـ كما ترى ـ تقرب الملائكة منا وتقربنا منهم ، ولو استمر العباد في حالة عالية من السمو الروحي لوصلوا إلى درجة مشاهدة الملائكة ومصافحتهم كما في الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ : (لو أنَّكم إذا خرجتم من عندي تكونون على الحال الذي تكونون عليه ، لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة) (صحيح الجامع : ٥٩/٥) .

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة بإسناد صحيح (لو أنَّكم تكونون على كل حال على الحالة التي أنتم عليها عندي ، لصافحتكم الملائكة بأكفّهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا ، لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم) (صحيح الجامع ٦٠/٥) .

تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة :

وهؤلاء الملائكة يسجلون بعض أعمال العباد ، فيسجلون الذين **يؤمون** الجُمَع الأول فالأول . ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر) .

ويسجلون ما يصدر عن العباد من أقوال طيبة ، في صحيح البخاري وغيره عن رفاعة بن رافع الزرقي قال : « كنا يوماً نصلي وراء النبي ـ ﷺ ـ فلما رفع رأسه من الركعة ، قال : « سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه . فلما انصرف ، قال : من المتكلم ؟

قال : أنا . قال : لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها »
فهؤلاء الكتبة من الملائكة غير الملكين اللذين يسجلان صالح أعماله وطالحها بالتأكيد لكونهم بضعة وثلاثين ملكاً .

تعاقب الملائكة فينا :

وهؤلاء الملائكة الذين يطوفون في الطرق يلتمسون الذكر ويشهدون الجمع والجماعات يَتعاقبون فينا فطائفة تأتي ، وطائفة تذهب ، وهم يجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم ، فيقول : كيف تركتم عبادي ؟ فيقـولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون) . ولعل هؤلاء هم الذين يرفعون أعمال العباد إلى ربهم ففي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال : (قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ بأربع كلمات ، فقال : إنَّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار ...) الحديث .

وقد عظم الله شأن صلاة الفجر ؛ لأنَّ الملائكة تشهدها قال : (وقرآن الفجر إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً)،(سورة الإسراء /٧٨).

تنزّلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن :

ومنهم من يتنزَّل من السماء حين يقرأ القرآن ، فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن أُسيد بن حضير بينما هو في ليلة يقرأ في مربده (الجُرْن) إذ جالت (وثبت) فرسه ، فقرأ ، ثم جالت أخرى ، فقرأ ، ثم جالت أيضاً قال أُسيد : فخشيت أن تطأ يحيى فقمت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسي ،

فيها أمثال السرج عرجت في الجوّ حتى ما أراها . فقال : فغدوت على رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي إذ جالت فرسي، فقال رسول الله ـ ﷺ : (اقرأ يا ابن حضير) قال : فقرأت ، ثمَّ جالت أيضاً ، فقال رسول‌الله ـ ﷺ : (اقرأ يا ابن حضير) قال فقرأت ، ثم جالت أيضاً ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : (اقرأ يا ابن حضير) قال : فانصرفت وكان يحيى قريباً منها خشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت في الجوّ حتى ما أراها ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : (تلك الملائكة كانت تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم) ، (رواه البخاري ومسلم) .

يبلغون الرسول ﷺ عن أمته السلام :

روى الامام أحمد والنسائي عن عبد الله بن مسعود ان رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام) .

وفي معجم الطبراني الكبير بإسناد حسن عن عمار بن ياسر أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (إن لله تعالى ملكاً أعطاه سمع العباد ، فليس من أحد يصلي عليَّ إلا بلغنيها ، وإني سألت ربي أن لا يصلي عليَّ عبد صلاة إلا صلى عليه عشر أمثالها) .

تبشيرهم المؤمنين :

فقد حملوا البشرى إلى إبراهيم بأنَّه سيرزق بذرية صالحة (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم) ، (سورة الذاريات / ٢٤ـ٢٨) وبشرت زكريا بيحيى (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أنَّ الله يبشرك بيحيى) ، (سورة آل عمران / ٣٩).

وليس هذا مقصوراً على الأنبياء والمرسلين ، بل قد تبشر المؤمنين ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : (زار رجل أخاً له في قرية أخرى ، فأرصد الله له على مدرجته (طريقه) ملكاً ، فلما أتى عليه ، قال : أين تريد؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله عز وجل ، قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ -: (أتاني جبريل ، فقال : يا رسول الله ! هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه ادام أو طعام أو شراب ، فإذا هي قد أتتك ، فاقرأ عليها السلام ، من ربِّها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيها ولا نصب) . (صحيح الجامع / ٧٦/١) .

الملائكة والرؤيا في المنام :

روى البخاري في صحيحه في باب التهجد عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : (كان الرجل في حياة النبي - ﷺ - إذا رأى رؤيا قصَّها على رسول الله - ﷺ - فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله - ﷺ - ، وكنت غلاماً شاباً ، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله - ﷺ - فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار ، فإذا هي مطوية كطيٍّ البئر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها أناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار ، قال : فلقينا ملك آخر فقال لي : لا ترع) أي لا تخف .

وفي صحيح البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : (قال لي رسول الله - ﷺ -: (أريتك في المنام يجيء بك الملك في سرقه من حرير ، فقال لي : هذه امرأتك فكشفتُ عن وجهك الثوب ، فإذا أنت هي ، فقلت :

إن يك هذا من الله يتمه)

يقاتلون مع المؤمنين ويثبتونهم في حروبهم :

وقد أمدَّ الله المؤمنين بأعداد كثيرة من الملائكة في معركة بدر (إذ تستغيثون ربَّكم فاستجاب لكم أني مُمِدُّكم بألف من الملائكة مردفين) ، (سورة الأنفال / ٩)،(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألنْ يكفيكم أنْ يمدَّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربُّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) ، (سورة آل عمران / ١٢٣-١٢٥) .

وقد قال الرسول - ﷺ - في يوم بدر (هذا جبريل آخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب) رواه البخاري .

وقد بين الله الحكمة والغاية من هذا الإمداد وهو تثبيت المؤمنين والمحاربة معهم وقتال أعداء الله وقتلهم بضرب أعناقهم وأيديهم : (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) (سورة الأنفال/ ١٠) (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنِّي معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) ، (سورة الأنفال/ ١٢) .

وقال في سورة آل عمران (وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ؛ ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) ، (سورة آل عمران / ١٢٦-١٢٧) .

وقد رأى الرسول - ﷺ - الملائكة في يوم بدر ففي صحيح البخاري أن رسول الله - ﷺ - لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق - رضي الله عنه - وهما يدعوان ، أخذت الرسول - ﷺ - سِنَةٌ من النوم ، ثمَّ استيقظ مبتسماً ، فقال: (أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع) .

وقد سمع أحد المقاتلين من المسلمين صوت ضربة للملك يضرب أحد الكفار ، وصوته وهو يزجر فرسه ، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس (بينا رجل من المسلمين يشتدُّ في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم ، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً قال : فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشقَّ وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فقال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة) .

وقد حاربت الملائكة في مواقع أخرى . ففي غزوة الخندق أرسل الله ملائكته (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) ، (سورة الأحزاب / ٩) والمعنى بالجنود التي لم يروها الملائكة ، كما ثبت في الصحاح وفي غيرها أن جبريل جاء الرسول ـ ﷺ ـ بعد رجوع الأحزاب وعلى ثنايا جبريل النقع (الغبار) وكان الرسول ـ ﷺ ـ يغتسل ، فقال للرسول ﷺ : (أوضعتم سلاحكم ، فإنا لم نضع سلاحنا بعد ، فقال : إلى أين ؟ فأشار إلى بني قريظة) .

حمايتهم للرسول ﷺ :

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ، قال : فقيل نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرنَّ وجهه في التراب ، قال : فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يصلي يزعم ليطأ على رقبته . قال فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له ما لك ، فقال:إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً واجنحة . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً) .

ورواه البخاري في صحيحه بأخصر من رواية مسلم هذه في كتاب التفسير .

حمايتهم ونصرتهم لصالحي العباد وتفريج كربهم :

وقد يرسلهم الله لحماية بعض عباده الصالحين من غير الأنبياء والمرسلين ، وقد يكون من هذا ما حصل لرجل ذكر ابن كثير خبره . ففي تفسير ابن كثير عند قوله تعالى : (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ..) ، (سورة النمل ٦٢) قال :

ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي ، قال هذا الرجل : كنت أكاري على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني ، فركب معي ذات مرة رجل فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة ، فقال لي : خذ في هذه فإنها أقرب ، فقلت : لا خيرة لي فيها ، فقال : بل هي أقرب ، فسلكناها ، فانتهينا إلى مكان وعر ، وواد عميق وفيه قتلى كثيرة ، فقال لي : أمسك رأس البغل حتى أنزل ، فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسلَّ سكيناً معه وقصدني ، ففررت من بين يديه وتبعني ، فناشدته الله وقلت : خذ البغل بما عليه ، فقال هو لي ؛ وإنما أريد قتلك ، فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه ، وقلت : إني أريد أن تتركني حتى أصلي ركعتين ، فقال : عجّل ، فقمت أصلي فارتجَّ عليَّ القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد . فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول : هيه ، افرغ ، فأجرى الله على لساني قوله : (أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء) فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخرَّ صريعاً ، فتعلقت بالفارس ، وقلت بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء .

قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً .

ومن ذلك ارسال الله جبريل لإغاثة أم اسماعيل في مكة ففي صحيح البخاري

عن ابن عباس في قصة مهاجرة إبراهيم بابنه اسماعيل وأمّه هاجر إلى أرض مكة ـ وهي قصة طويلة ـ أن أمَّ اسماعيل سعت سعي الإنسان المجهود بين الصفا والمروة سبع مرات تبحث عن الماء ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ، فقالت : (صه) تريد نفسها ثمَّ تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ... فقال لها الملك :(لا تخافي الضَّيعة فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله) .

وفي سنن النسائي بإسناد صحيح أن هذا الملك الذي جاءها هو جبريل (إن جبريل لما ركض زمزم بعقبه جعلت أم اسماعيل تجمع البطحاء ، رحم الله هاجر لو تركتها كانت عينا معينا) ، (صحيح الجامع ١٩٧/٢) .

شهود الملائكة لجنازة الصالحين :

قال الرسول ـ ﷺ ـ في سعد بن معاذ (هذا الذي تحرَّك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لقد ضُمَّ ضمة ، ثمَّ فرِّج عنه) ، رواه النسائي عن ابن عمر باسناد صحيح (صحيح الجامع ٧٢/٦) .

اظلالها للشهيد بأجنحتها :

في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال : لّما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي ، وينهونني ، والنبي ـ ﷺ ـ لا ينهاني ، فجعلت عمتي فاطمة تبكي ، فقال النبي ـ ﷺ ـ: (تبكين أو لا تبكين ، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه) .

وقد عنون له البخاري بقوله (باب ظل الملائكة على الشهيد) .

الملائكة الذين جاءوا بالتابوت :

قال تعالى : (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) ، (سورة البقرة / ٢٤٨) .

والذي يعنينا من هذه الآية ما أخبرنا الله به أن الملائكة جاءت بني إسرائيل في تلك الفترة بتابوت ، تطميناً لهم وتثبيتاً كي يعلموا أن طالوت مختار من الله تعالى ، فيتابعونه ويطيعونه .

حمايتهم للمدينة ومكة من الدجال :

يدخل الدجال عندما يخرج كل بلد إلا مكة والمدينة لحماية الملائكة لهما كما ثبت ذلك في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي من حديث فاطمة بنت قيس من قصة تميم الداري أن الدجال قال : (أنا المسيح الدجال ، وإني يوشك أن يؤذن لي في الخروج ، فأخرج فأسير في الأرض ، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة ، غير مكة وطيبة ، فهما محرمتان عليَّ كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة ، أو أحداً منهما ، استقبلني ملك بيده السيف صلتا يصدني عنها ، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها . قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: وطعن بخصرته في المنبر ـ هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة ، يعني : المدينة) وروى البخاري عن أبي بكرة ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال : (لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال ، لها يومئذ سبعة أبواب ، على كل باب ملكان) .

وفي صحيح البخاري أيضاً عن أبي هريرة أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (على أنقاب المدينة ملائكة ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال) وفيه أيضاً (ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة ، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ، ثمَّ ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات

فيخرج الله كل كافر ومنافق) .

نزول عيسى بصحبة ملكين :

ينزل عيسى بن مريم في آخر الزمان عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين (المهرودتان : ثوبان مصبوغان بورس وزعفران) واضعاً كفيه على أجنحة ملكين . (رواه مسلم في صحيحه والترمذي في سننه) .

الملائكة باسطة اجنحتها على الشام :

عن زيد بن ثابت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (يا طوبى للشام يا طوبى للشام) . قالوا : يا رسول الله وبم ذلك ؟ قال : (تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام) .

قال الشيخ ناصر في تخريج أحاديث فضائل الشام للربعي : (هو احديث صحيح أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك وأحمد في المسند ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وهو كما قالا . وقال المنذري في الترغيب والترهيب : ورواه ابن حبان في صحيحه والطبراني باسناد صحيح) .

ما في موافقة الملائكة من أجر وثواب :

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إذا أمّن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه) وفي صحيح البخاري (إذا قال الإمام آمين فإن الملائكة تقول في السماء، آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه) .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن النبي ـ ﷺ ـ قال : (إذا قال الامام سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهمَّ ربنا ولك الحمد ، فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه) . ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجة .

واجب المؤمن تجاه الملائكة :

الملائكة عباد الله اختارهم واصطفاهم ولهم مكانة عند ربهم ، والمؤمن الذي يعبد الله ويتبع رضوانه لا مناص له من أن يتولى الملائكة بالحب والتوقير ، ويتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إليهم ويؤذيهم ، وفي المبحث التالي نتناول شيئاً من ذلك بالبيان والتوضيح .

البعد عن الذنوب والمعاصي :

أعظم ما يؤذي الملائكة الذنوب والمعاصي والكفر والشرك ، ولذا فإن أعظم ما يهدى للملائكة ويرضيهم أن يخلص المرء دينه لربه ، ويتجنب كل ما يغضبه .

ولذا فإنَّ الملائكة لا تدخل الأماكن والبيوت التي يعصى فيها الله تعالى ، أو التي يوجد فيها ما يكرهه الله ويبغضه ، كالأنصاب والتماثيل والصور ولا تقرب من تلبس بمعصية كالسكران .

قال ابن كثير : (البداية ١/٥٥) ثبت في الحديث المروي في الصحاح والمسانيد والسنن من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : (لا يدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جُنُب) .

وفي رواية عن عاصم بن ضمرة عن علي (ولا بول) وفي رواية رافع عن أبي سعيد مرفوعاً (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو تمثال) وفي رواية ذكوان أبي صالح السماك عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس) ، (ا. هـ من البداية) .

وروى البزار بإسناد صحيح عن بريدة - رضي الله عنه - أن الرسول - ﷺ - قال : (ثلاثة لا تقربهم الملائكة : السكران والمتضمخ بالزعفران ، والجنب) ، (صحيح الجامع ٣/٧٠) .

وفي سنن أبي داود باسناد حسن عن عمار بن ياسر عن الرسول ـ ﷺ ـ (ثلاثة لا تقربهم الملائكة : جيفة الكافر ، والمتضمخ بالخلوق ، والجنب إلا أن يتوضأ) ، (صحيح الجامع ٣/٧٠) . (الخلوق : ضرب من الطيب) .

الملائكة تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم :

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة ، والأقذار والأوساخ روى البخاري ومسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقربنّ مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم) .

وقد بلغ الأمر بالرسول ـ ﷺ ـ أن أمر بالذي جاء إلى المسجد ورائحة الثوم أو البصل تنبعث منه ـ أن يخرج إلى البقيع (وهذا ثابت في صحيح مسلم) .

النهي عن البصق عن اليمين في الصلاة :

نهى الرسول ـ ﷺ ـ عن البصق عن اليمين أثناء الصلاة لأن المصلي إذا قام يصلي يقف عن يمينه ملك ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ قال : (إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق عن أمامه فإنه إنما يناجي الله ما دام في مصلاه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ، وليبصق عن يساره أو تحت قدمه فيدفنها) .

موالاة الملائكة كلهم :

وعلى المسلم أن يحب جميع الملائكة فلا يفرق في ذلك بين ملك وملك ؛ لأنهم جميعاً عباد الله عاملين بأمره تاركين لنهيه ، وهم في هذا وحدة واحدة لا يختلفون ولا يفترقون . وقد زعم اليهود أن لهم أولياء وأعداء من الملائكة ، وزعموا ان جبريل عدو لهم ، وميكائيل ولي لهم ، فأكذبهم الله تعالى ـ في مدعاهم وأخبر أن الملائكة لا يختلفون فيما بينهم فكل من كان عدواً لله أو للملك

فهو عدو لجميع الملائكة (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) ، (سورة البقرة / ٩٧ـ٩٨) .

فأخبر سبحانه أن الملائكة كلهم وحدة واحدة فمن عادى واحداً منهم فقد عادى الله وجميع الملائكة ، امّا تولي بعض الملائكة ومعادة بعض آخر فهي خرافة لا يستسيغها إلا مثل هذا الفكر اليهودي المنحرف ، وهذه المقولة التي حكاها القرآن عن اليهود إنما هي عذر واهٍ عللوا به عدم إيمانهم ، فزعموا أن جبريل عدوهم لأنَّه يأتي بالحرب والدمار ، ولو كان الذي يأتي الرسول - ﷺ - ميكائيل لتابعوه .

وراجع النصوص الواردة في سبب نزول هذه الآية في تفسير ابن كثير وغيره .

الملائكة والكفار والفساق

وضحنا فيما سبق موقف الملائكة من المؤمنين وقد اتضح من خلال ذلك موقفهم من الكفرة ، فهم لا يحبون الكفرة الظالمين المجرمين ، بل يعادونهم ويحاربونهم ، ويزلزلون قلوبهم كما حدث في معركة بدر والأحزاب ، ونزيد الأمر هنا تفصيلاً وايضاحاً بذكر ما لم نذكر هناك .

إنزال العذاب بالكفار :

عندما كان يُكذَّب رسول من الرسل ويصرّ قومه على التكذيب كان الله ينزل في كثير من الأحيان بهم عذابه ، وكان الذي يقوم بالتعذيب أحياناً الملائكة .

اهلاكهم قوم لوط :

جاء الملائكة المأمورون بتعذيب قوم لوط في صورة شبان حسان الوجوه ،

واستضافهم لوط ، ولم يعلم قومه بهم ، فدلت زوجة لوط قومها عليهم ، فجاءوا مسرعين يريدون بهم الفاحشة ، فدافعهم لوط ، وحاورهم ، فأبوا عليه ، فضربهم جبريل بجناحه ، فطمس أعينهم ، وأذهب بصرها ، (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم ، وضاق بهم ذرعاً ، وقال هذا يوم عصيب ، وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات ، قال يا قوم هؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم، فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي ، أليس منكم رجل رشيد ! قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ، وإنّك لتعلم ما نريد ، قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ، قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) ، (سورة هود /٧٧ــ٨١) .

قال ابن كثير (البداية ١/١٩٧) : (وذكروا أن جبريل ــ عليه السلام ــ خرج عليهم ، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم ، حتى قيل غارت بالكلية ، ولم يبق لها محل ولا أثر .. قال تعالى : (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر) ، (سورة القمر / ٣٧) .

وفي الصباح أهلكهم الله تعالى : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد) ، (سورة هود / ٨٢ــ٨٣) .قال ابن كثير في تفسيره : قال مجاهد : (أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم ، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن) وذكر أقوالاً مقاربة لهذا القول ، ولم يورد حديثاً يشهد لهذا .

لعن الكفرة :

قال تعالى: (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ، وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ، والله لا يهدي القوم الظالمين ، أولئك جزاؤهم أن

عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) ، (سورة آل عمران / ٨٦ـ٨٧)
وقال : (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) ، (سورة البقرة / ١٦١) .

ولا تلعن الملائكة الكفرة فحسب بل قد تلعن من فعلوا ذنوباً معينة ومن هؤلاء :

لعن الملائكة المرأة التي لا تستجيب لزوجها :

في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (اذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت ، فبات غضبان لَعَنَتْها الملائكة حتى تصبح) .

لعنهم الذي يشير إلى أخيه بحديدة :

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال أبو القاسم ـ ﷺ ـ : (من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ، وإن كان أخاه لأبيه وأمّه) .

ولعن الملائكة يدل على حرمة هذا الفعل لما فيه من ترويعٍ لأخيه ، ولأنَّ الشيطان قد يطغيه فيقتل أخاه ، خاصة إذا كان السلاح من هذه الأسلحة الحديثة التي قدتنطلق لأقل خطأ أو لمسة غير مقصودة . وكم حدث أمثال هذا .

لعنهم من سبّ أصحاب الرسول ـ ﷺ ـ :

في معجم الطبراني الكبير عن ابن عباس بإسناد حسن أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (من سبّ أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) .

فيا عجباً لأقوام جعلوا سب أصحاب الرسول ـ ﷺ ـ ديناً لهم يتقربون به إلى الله ، مع أن جزاءهم ما ذكره الرسول ـ ﷺ ـ هنا . وهو جزاء رهيب .

لعنهم الذين يحولون دون تنفيذ شرع الله :

في سنن النسائي وأبي داود وابن ماجة باسناد صحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ان رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (من قتل عمداً فَقَود يديه ، فمن حال بينه وبينه فعليه لعنة الله ، والملائكة ، والناس أجمعين) فالذي يحول دون تنفيذ حكم الله في قتل القاتل عمداً بالجاه أو المال ... فعليه هذه اللعنة فكيف بالذي يحول دون تنفيذ الشريعة كلها ؟ !

الذي يؤوي محدثاً :

من الذين تلعنهم الملائكة كما يلعنهم الله الذين يحدثون في دين الله ، بالخروج على أحكامه ، والاعتداء على تشريعه ، أو يؤون من يفعل ذلك ، ويحمونه كما في الحديث الصحيح : (من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) رواه أبو داود والنسائي والحاكم . (صحيح الجامع ٨/٦) .

والحدث في المدينة فيه زيادة في الاجرام فقد ورد عن الرسول ـ ﷺ ـ أنه قال : (المدينة حرام ، ما بين عير إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثاً ، أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله ، والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ، ولا عدلاً) . رواه البخاري ومسلم .

رؤية الملائكة :

لا يستطيع بنو آدم أن يروا الملائكة ، لأن الله لم يعط أبصارهم القدرة على رؤيتهم .

ولم ير الملائكة في صورهم الحقيقة من هذه الأمة إلا الرسول ـ ﷺ ـ ؛ فإنه رأى جبريل مرتين في صورته التي خلقه الله عليها كما سبق ، وقد سبق أن بينا أن البشر يستطيعون رؤية الملائكة إذا تمثل الملائكة في صورة بشر .

طلب الكفار رؤية الملائكة ؟

وقد طلب الكفار رؤية الملائكة للتدليل على صدق الرسول - ﷺ - فأخبرهم الله أن اليوم الذي يرون فيه الملائكة يوم شؤم عليهم ، إذ الكفار يرون الملائكة عندما يحلُّ بهم العذاب ، أو عندما ينزل بالإنسان الموت ويكشف عنه الغطاء : (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعلوا علواً كبيراً ، يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً) ، (سورة الفرقان / ٢١-٢٢) .

لماذا لا يرسل الله رسله من الملائكة :

والله لا يرسل رسله من الملائكة لأن طبيعة الملائكة مخالفة لطبيعة البشر ، فاتصالهم بالملائكة ليس سهلاً ميسوراً ؛ ولذا فإن الرسول - ﷺ - كان يشق عليه مجيء جبريل إليه بصفته الملائكية كما مضى ، وعندما رأى جبريل على صورته فزع وجاء زوجه يقول دثّروني دثّروني . فلما كانت الطبائع مختلفة شاء الله أن يرسل لهم رسولاً من جنسهم ، ولو كان سكان الأرض ملائكة لأنزل إليهم ملكاً رسولاً ، قال تعالى : (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) ، (سورة الإسراء / ٩٥) .

وعلى فرض أن الله اختار رسله إلى عموم البشر من الملائكة ، فإنه لا ينزلهم بصورهم الملائكية ، بل يجعلهم يتمثلون في صفة رجال يلبسون ما يلبس الرجال كي يتمكن الناس من الأخذ عنهم : (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثمَّ لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون) ، (سورة الأنعام / ٨-٩) .

وقد أخبر تعالى أن طلب الكَفَرَة رؤية الملائكة ومجيء رسول من الملائكة إنما هو تعنت وليس طلباً للهداية ، وعلى احتمال حدوثه فإنهم لن يؤمنوا :

(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلَّمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كلَّ شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكنَّ أكثرهم يجهلون) ، (سورة الأنعام / ١١١) .



الفصل الرابع

٤- الملائكة وبقية المخلوقات



في الفصل الماضي بينت العلاقة بين الملائكة وبني آدم ، وليس هذا كل ما وُكل إلى الملائكة ، فإن الملائكة يقومون على مختلف شئون الكون مما نشاهد وما لا نشاهد .

وسأكتفي بذكر بعض ما جاء في ذلك من النصوص .

حملة العرش :

العرش أعظم المخلوقات محيط بالسموات وفوقها ، والرحمن مستوٍ عليه ، ويحمله من الملائكة ثمانية (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية)[1] .

ملك الجبال :

وللجبال ملائكة ، وقد أرسل الله ملك الجبال إلى عبده ورسوله محمد - ﷺ - يستأمره في إهلاك أهل مكة ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة أنها قالت للنبي - ﷺ - : (هل أتى عليك يوم كان أشدُّ من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشدُّ ما لقيت منهم يوم العقبة (مكان بمنى) ، اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب (موضع قرب مكة) فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم علي ، ثمَّ قال : يا محمد ، فقال ذلك فيما

---

(١) سبق أن بيّنا عظيم خلقهم في الفصل الذي تحدثنا فيه عن صفاتهم وقدراتهم .

شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (جبلا مكة أبو قبيس والأحمر وجبلا منى) . فقال النبي – ﷺ – : (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً) .

الموكلون بالقطر والنبات والأرزاق :

يقول ابن كثير في (البداية والنهاية : ٥٠/١) وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الارزاق في هذه الدار ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه ، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جلَّ جلاله . وقد روينا أنه ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض .

ومن الملائكة ما هو موكل بالسحاب ، ففي سنن الترمذي عن ابن عباس أن الرسول – ﷺ – قال : (الرعد ملك من ملائكة الله ، موكل بالسحاب ، معه مخاريق من نار ، يسوق بها السحاب حيث شاء الله) صحيح الجامع (١٨٨/٣) ، وقد يسقي بلاداً دون بلاد ، أو قرية دون أخرى ، وقد يؤمر بأن يسقي زرع رجل واحد دون سواه كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي – ﷺ – قال : (بينا رجل بفلاة من الأرض ، فسمع صوتاً في سحابة يقول : اسق حديقة فلان ؛ فتنحى ذلك السحاب ، فأفرغ ماءه في حرّة ، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله ، فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته ، فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان ، للاسم الذي سمع في السحابة ، فقال له : يا عبد الله لم تسألني عن اسمي ؟ قال : إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان ، لاسمك ، فما تصنع فيها ؟ قال : أمَّا إذ قلت هذا ، فإني أنظر إلى ما يخرج منها ، فأتصدق بثلثه ، وآكل أنا وعيالي ثلثاً ، وأرد فيها ثلثاً) .

وعلى كل فالملائكة موكلون بالسموات والأرض ، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة ، كما قال تعالى : (فالمدبرات أمراً) ، (سورة النازعات / ٥) وقال (فالمقسِّمات أمراً) ، (سورة الذاريات / ٤) ويزعم المكذبون للرسل المنكرون للخالق أن النجوم هي التي تقوم بذلك كله وكذبوا ، فالذي يدبر ذلك كله الملائكة بأمر الله تعالى ، كما قال : (والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً ، فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً) ، (سورة المرسلات / ١ـ٥) .

وقال (والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سبحاً ، فالسابقات سبقاً ، فالمدبرات أمراً) ، (سورة النازعات / ١ـ٥) وقال (والصافّات صفاً ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً) ، (سورة الصافات ١ـ٣) .

فكل هذه الآيات حديث عن الملائكة حال قيامها بتدبير شؤون السموات والأرض .



الفصل الخامس

٥- المفاضلة بين الملائكة والبشر



الخلاف في المسألة قديم :

قال ابن كثير في البداية والنهاية (٥٨/١) : وقد اختلف الناس في تفضيل الملائكة على البشر على أقوال : فأكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين ، والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم ، وأقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص : أنّه حضر مجلساً لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة ، فقال عمر : ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم ، واستدل بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) ، (سورة البينة /٧) ووافقه على ذلك أميّة بن عمرو بن سعيد ، فقال عراك بن مالك : ما أحد أكرم على الله من ملائكته ، هم خدمة دارَيْه ، ورسله إلى أنبيائه ، واستدل بقوله تعالى : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) ، (سورة الأعراف / ٢٠) ، فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي : ما تقول أنت يا أبا حمزة ؟ فقال : قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وجعل من ذريته الأنبياء ، والرسل ومن يزوره الملائكة ، فوافق عمر بن عبد العزيز في الحكم واستدل بغير دليله ، وهذا الذي ذكره ابن كثير من كلام عمر بن عبد العزيز وجلسائه في هذه المسألة يبين خطأ ما قاله تاج الدين الفزاري حيث يقول : (هذه المسألة من بدع علم الكلام ، التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة) (شرح الطحاوية ٣٣٩) بل قد ثبت أن بعض الصحابة تكلموا في شيء من ذلك ،

فهذا عبد الله بن سلام يقول : ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد ، فقيل له : ولا جبريل ولا ميكائيل ؟ فقال للسائل : (أتدري ما جبريل وميكائيل ؟ إنما جبريل وميكائيل خلق مسخر كالشمس والقمر ، وما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد ـ ﷺ ـ) رواه الحاكم في مستدركة وصححه هو والذهبي (راجع شرح الطحاوية بتحقيق الألباني ص : ٣٤٢) .

الأقوال في المسألة :

يذكر شارح الطحاوية أنه ينسب إلى أهل السنة تفضيل صالحي البشر والأنبياء فقط على الملائكة ، وأن المعتزلة يفضلون الملائكة ، وأتباع الأشعري على قولين ، منهم من يفضل الأنبياء والأولياء ، ومنهم من يقف ولا يقطع في ذلك قولاً ، وحكي عن بعضهم ميل إلى تفضيل الملائكة ، وحكي ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفية . وقالت الشيعة : إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة ، ومن الناس من فصّل تفصيلاً آخر ، ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر إن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض ، وذكر أن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ توقف في الجواب عن هذه المسألة ، وإلى التوقف جنح شارح الطحاوية رحمه الله تعالى) ، (شرح العقيدة الطحاوية / ٣٣٨) .
وذكر السفاريني في (لوامع الأنوار ٣٩٨/٢) أنَّ الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ كان يقول : (يخطىء من فضل الملائكة ، وقال : كل مؤمن أفضل من الملائكة) .

موطن النزاع :

لا خلاف في أن الكفرة والمنافقين غير داخلين في المفاضلة ، فهؤلاء أضل من البهائم (أولئك كالأنعام بل هم أضل) ، (سورة الأعراف /١٧٩) .

ولا نعني بالمفاضلة : التفضيل بين حقيقة البشر وحقيقة الملائكة ، وإنّما المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة ، وإن ذهب بعض الناس إلى أن الملائكة أفضل من سائر المؤمنين ، والنزاع عندهم في المفاضلة بين الأنبياء والملائكة .

حجة الذين يفضلون صالحي البشر على الملائكة :

بعد أن حررنا محل النزاع نبين حجة الذين ذهبوا إلى تفضيل البشر .

الدليل الأول : أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم فلولا فضله لما أمروا بالسجود له . (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر) ، (سورة البقرة / ٣٤) .

ورد بعضهم أن السجود كان لله ، وآدم إنما كان قبلة لهم ، ولو كان هذا صحيحاً لقال : اسجدوا إلى آدم ، ولما قال : (اسجدوا لآدم) .

ولو كان المقصود اتخاذ آدم قبلة لما امتنع إبليس من السجود ، ولما زعم أنّه خير من آدم ، فإنَّ القبلة تكون أحجاراً وليس في اتخاذها قبلة تفضيل لها .

صحيح أن سجود الملائكة لآدم كان عبادة لله ، وطاعة له ، وقربة يتقربون بها إليه ، إلا أنه تشريف لآدم وتكريم وتعظيم .

ولم يأت أن آدم سجد للملائكة ، بل لم يؤمر آدم وبنوه بالسجود إلا لله رب العالمين ، لأنّهم ـ والله أعلم ـ أشرف الأنواع وهم صالحو بني آدم ليس فوقهم أحد يحسن السجود له إلا الله رب العالمين .

الدليل الثاني : قوله قصصاً عن إبليس : (أرأيتك هذا الذي كرمت علي) ، (سورة الاسراء / ٦٢) فإن هذا نص في تكريم آدم على إبليس إذ أمر بالسجود له .

الدليل الثالث : أن الله تعالى خلق آدم بيده ، وخلق الملائكة بكلمته .

الدليل الرابع : قوله تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة) ، (سورة البقرة ٣٠) فالخليفة يفضل على من ليس خليفة ، وقد طلبت الملائكة أن يكون الاستخلاف فيهم ، والخليفة منهم حيث قالوا : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) ، (سورة البقرة /٣٠) الآية .. فلولا أن الخلافة درجة عالية أعلى من درجاتهم لما طلبوها وغبطوا صاحبها .

الدليل الخامس : تفضيل بني آدم عليهم بالعلم حين سألهم الله ـ عز وجل ـ عن علم الأسماء فلم يجيبوه ؛ واعترفوا أنهم لا يحسنونها فأنبأهم آدم بذلك ، وقد قال تعالى : (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ، (سورة الزمر / ٩) .

الدليل السادس : ومما يدل على تفضيلهم أن طاعة البشر أشق ، والأشق أفضل ، فإن البشر مجبولون على الشهوة والحرص والغضب والهوى وهي مفقودة في الملك .

الدليل السابع : أن السلف كانوا يحدثون الأحاديث المتضمنة فضل صالحي البشر على الملائكة ، وتروى على رؤوس الناس ، ولو كان هذا منكراً لأنكروه ، فدل على اعتقادهم ذلك .

الدليل الثامن : مباهاة الله بهم الملائكة :

يباهي الله بعباده الملائكة ، اذا أدوا ما أوجبه عليهم وأمرهم به . فإذا صلوا الفريضة باهى بهم الملائكة ففي مسند أحمد وابن ماجه عن عبد الله ابن عمرو أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (أبشروا ، هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء ، يباهي بكم الملائكة ، يقول : انظروا إلى عبادي قد قضوا فريضة ، وهم ينتظرون أخرى) ، (صحيح الجامع ٦٧/١) .

وعن أبي هريرة أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (إن الله يباهي بأهل عرفات

أهل السماء ، فيقول لهم : انظروا إلى عبادي هؤلاء جاؤوني شعثاً غبراً)
اسناده صحيح ، رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي في السنن
(صحيح الجامع ١٤١/٢) .

والذين فضلوا الملائكة احتجوا بمثل حديث (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم) .

واحتجوا بأن بني آدم فيهم النقص والقصور ، وتقع منهم الزلات والهفوات ، واحتجوا بمثل قوله تعالى : (ولا أقول لكم اني ملك) ، (سورة الأنعام ٥٠) وهذا يدل على فضل الملائكة على البشر .

تحقيق القول في ذلك :

وتحقيق القول في ذلك ما ذكره ابن تيمية من أن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ونالوا الزلفى ، وسكنوا الدرجات العلا ، وحياهم الرحمن وخصهم بمزيد قربه ، وتجلى لهم ، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ، وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم .

والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى ، منزهون عمّا يلابسه بنو آدم ، مستغرقون في عبادة الرب ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر .

قال ابن القيم : وبهذا التفصيل يتبين سرّ التفضيل وتتفق أدلة الفريقين ويصالح كل منهم على حقه[1] . والله أعلم بالصواب .

---

(١) ومن أراد مزيد من البحث في هذه المسألة فليرجع إلى (مجموع الفتاوى) ٣٥٠/١١ وإلى (لوامع الأنوار البهية ٣٦٨/٢) وإلى (شرح العقيدة الطحاوية ٣٣٨)

المراجع

١ ـ اغاثة اللهفان : لابن القيم .

٢ ـ البداية والنهاية : لابن كثير .

٣ ـ بصائر ذوي التمييز : للفيروزآبادي .

٤ ـ تخريج أحاديث فضائل الشام : للشيخ ناصر الدين الألباني .

٥ ـ تفسير ابن كثير .

٦ ـ حجة الله البالغة : لولي الله الدهلوي .

٧ ـ شرح العقيدة الطحاوية .

٨ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة : للشيخ ناصر الدين الألباني .

٩ ـ صحيح الجامع الصغير : لناصر الدين الألباني .

١٠ ـ العقيدة في الله : للمؤلف .

١١ ـ لوامع الأنوار البهية (عقيدة السفاريني) .

١٢ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية : جمع ابن قاسم .

١٣ ـ معارج القبول : للشيخ حافظ الحكمي .

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة
(٣)

عالم الجن والشياطين

تأليف
الدكتور عمر سليمان الأشقر



مكتبة الفلاح

الطبعة الرابعة

١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

مكتبة الفلاح ـ الكويت

شارع بيروت مقابل بريد حولي

ص. ب ٤٨٤٨ تلفون : ٢٥٤٧٧٨٤

برقياً : لفاتكو

عالم الجن والشياطين

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله به فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وبعد : فقد يظن بعض الناس أنَّ الكتابة في هذا الموضوع من قبيل الترف العلمي ، ويحبذ هؤلاء أن يمرَّ الإنسان بهذا الموضوع مروراً عابراً ، فلا يأخذ من تفكيره إلا القليل ، وهؤلاء يظنون أن الفائدة المرجوة من وراء هذه الدراسة محدودة ، وأن الجهل به لا يضير .

وأنا لن أذهب بعيداً ، فعالم البشر اليوم يبذلون من المال ما يبني المدن ويشيد الدول ، ويقضي على الفقر في بقاع شاسعة من العالم تضم ألوف الملايين - في البحث عن إمكانية الحياة والأحياء في الكواكب القريبة منا ، وقد قام العلماء في هذا السبيل بجهود جبارة كلفتهم من الوقت والمال الكثير . فما بالكم بعالم من الأحياء العقلاء يعيشون معنا في أرضنا ، ويخالطوننا في مساكننا ، ويأكلون ويشربون معنا ، وقد يفسدون علينا تفكيرنا وقلوبنا ، وقد يدفعوننا إلى أن نحطم أنفسنا بأنفسنا ، وأن يسفك بعضنا دم بعض ، وقد يعبدوننا لأنفسهم أو لأي مخلوق كي يجلبوا لنا غضب ربنا ، فيحل بنا سخطه ، وينزل بنا غضبه ، ثمَّ تكون عاقبة الشاردين عن ربهم ناراً تلظى .

إن المعلومات التي جاءتنا بها النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية الموثقة في هذا الجانب لا تقدر بمال .

فهي تكشف لنا أسرار هذا العالم : عالم الجن ، وتمدنا بفيض من المعلومات

تكشف تفاصيل حياتهم ، كما تخبرنا عما يكنه بعض هؤلاء من عداء تجاه الإنسانية ، وما يقومون به من جهود متلاحقة لا تنقطع لإضلالنا وتدميرنا .

وحسبك دليلاً ينبيك عن أهمية الأمر أن تتتبع الآيات التي تحدثت عن الجن والشياطين لتعلم عظم المساحة التي شغلتها هذه النصوص من كتاب الله .

ومن يطالع هذه النصوص يعلم أن حياة الإنسان ليست إلا صراعاً بينه وبين الشيطان ، الشيطان يريد أن يقضي عليه بأن يوبقه ويهلكه ، والإنسان الذي أمده الله بنوره يجاهد كي يستقيم على صراط ربِّه ، ويقيم غيره على هذا الصراط ، وفي سبيل ذلك لا بدَّ له من أن يصارع هذا العدو في حنايا نفسه ، وخطرات قلبه ، وآماله وأحلامه وتطلعاته ، لا بدَّ له أن يتفحص أهدافه وغاياته القريبة والبعيدة باستمرار كي يتبين مدى قربه وبعده من ربه ، ومدى تخلصه من عدوه الذي يحاول أن يحتنكه ويقوده كما يقود الزارع حماره .

ولقد جمعت النصوص التي تحدثت عن هذا العالم وكلام الأئمة الأعلام عليها وتأملت في ذلك كله فجاء هذا الكتاب في ستة فصول . الفصل الأول تعريف وبيان بهذا العالم : أصلهم ، وخلقهم ، وأسمائهم ، وأصنافهم ، وطعامهم ، وشرابهم ، وزواجهم ، ومساكنهم ، ودوابهم ، وقدراتهم التي وهبهم الله إياها . وستجد في غضون هذا الفصل الأدلة التي تثبت وجودهم ، وترد على المنكرين .

وفي الفصل الثاني بيان الغاية التي خلقوا من أجلها ، وطريقة تبليغهم التعاليم الربانية ، وعموم رسالة محمد ﷺ .

أما الفصل الثالث فهو صلب هذه الرسالة وفيه عدة مباحث :

الأول : أسباب العداء بين الإنسان والشيطان ، والتدليل على قوته وعمقه ، وتحذير الله لنا من هذا العدو .

الثاني : الأهداف القريبة والبعيدة للشيطان .

الثالث : أساليب الشيطان في إضلال الإنسان .

الرابع : قيادته للمعركة ، وجنده فيها .

الخامس: مصائد الشيطان التي يكيد بها الإنسان .

وختمت هذا الفصل بالحديث عن وسوسة الشيطان التي هي سلاحه في إفساد النفوس ، وزرع الفساد في القلوب .

والفصل الرابع تعرضت فيه لعدة قضايا تضِلّ بها الشياطين العباد :

الأولى : تمثل الشياطين وتكليمها لبعض العباد وما ترتب على ذلك من الفساد .

الثانية : تحضير الأرواح ومدى صحة ذلك وعلاقة هذا بالشياطين .

الثالثة : مدى معرفة الجن بعالم الغيب وما ترتب على اعتقاد الناس بأن الجن يعلمون الغيب من فساد .

الرابعة : الجن والأطباق الطائرة .

وفي الفصل الخامس تحديد للأسلحة التي لا بدّ للمسلم أن يتسلح بها وهو يخوض المعركة مع الشيطان .

وفي الفصل السادس والأخير : تحدثت عن الحكمة من خلق الشيطان .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا المؤلف كاتبه وناشره وقارئه وأن يجزل للجميع المثوبة ، وأن يعيذنا من الشيطان ، وأن يتولانا بعونه ورعايته ؛ إنه نعم المولى والنصير وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

عمر سليمان الأشقر

الكويت

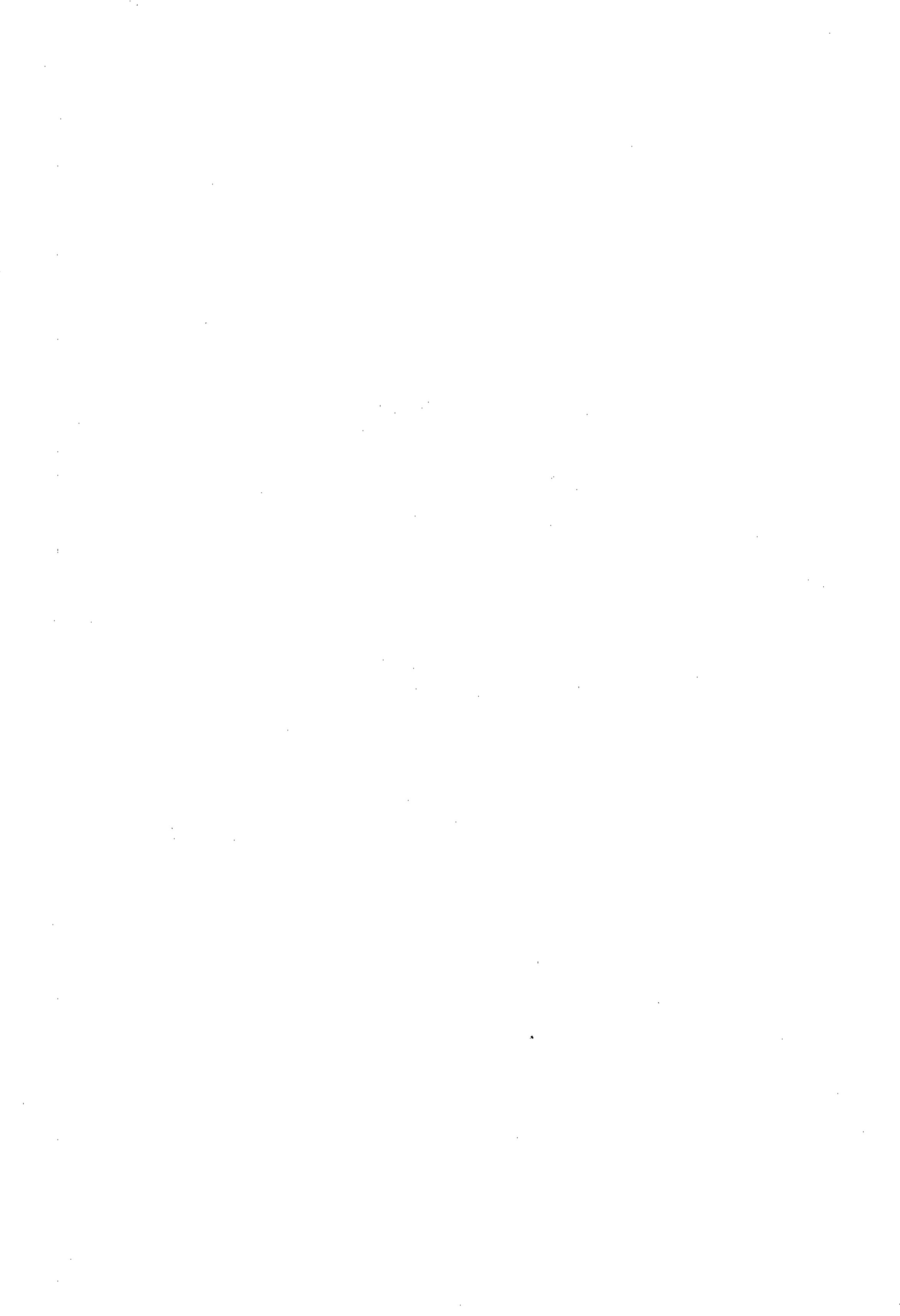
٢٨/شوال/١٣٩٨ هـ

٣٠/سبتمبر/١٩٧٨ م



الفصل الأول

تعريفٌ وبيانٌ



تعريفٌ وبيانٌ

ما الجن ؟

الجن عالم آخر غير عالم الإنسان وعالم الملائكة ، بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك ، ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر ، ويخالفون الإنسان في أمور أهمها أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان .

وسموا جنّاً لاجتنانهم أي استتارهم عن العيون ، (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) « سورة الأعراف / ٢٧ » .

أصلهم :

أخبرنا الله جلَّ وعلا أن الجنَّ قد خُلقوا من النار في قوله : (والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم) « سورة الحجر / ٢٧ » ، وفي سورة الرحمن ، (وخلق الجان من مارج من نار) « آية ١٥ » ، وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن وغير واحد في قوله : (مارج من نار) طرف اللهب ، وفي رواية من خالصه وأحسنه : (البداية والنهاية ١ / ٥٩) وقال النووي في شرحه على مسلم : « المارج اللهب المختلط بسواد النار » .

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

متى خُلقوا ؟

لا شك أن خلق الجن متقدم على خلق الإنسان لقوله تعالى : (ولقد خلقنا

الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم) « سورة الحجر / ٢٦ ـ ٢٧ » فقد نص في الآية أن الجان مخلوق قبل الإنسان ، ويرى بعض السابقين أنهم خلقوا قبل الإنسان بألفي عام وهذا لا دليل عليه من كتاب ولا سنَّة .

أسماء الجن في لغة العرب :

قال ابن عبد البر : الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان على مراتب :

١ ـ فإذا ذكروا الجن خالصاً قالوا جني .

٢ ـ فإذا أرادوا أنه مما يسكن مع الناس ، قالوا : عامر والجمع عمار .

٣ ـ فإن كان مما يعرض للصبيان قالوا : أرواح .

٤ ـ فإن خبث وتعرض قالوا : شيطان .

٥ ـ فإن زاد أمره على ذلك وقوي أمره قالوا : عفريت

أصناف الجن :

يقول الرسول ـ ﷺ ـ في هذا : (الجن ثلاثة أصناف : **فصنف يطير في الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون**) رواه الطبراني ، والحاكم ، والبيهقي في الأسماء والصفات بإسناد صحيح « صحيح الجامع ٣/٨٥ » .

لا مجال للتكذيب بعالم الجن :

أنكرت قلة من الناس وجود الجنِّ إنكاراً كلياً ، وزعم بعض المشركين : أن المراد بالجن أرواح الكواكب « مجموع الفتاوى ٢٤ / ٢٨٠ » .

وزعمت طائفة من الفلاسفة : أن المراد بالجن نوازع الشر في النفس الإنسانية وقواها الخبيثة كما أن المراد بالملائكة نوازع الخير فيهم . « مجموع الفتاوى ٤/٣٤٦ » .

وزعم فريق من المحْدَثين (بفتح الدال المخففة) : أن الجن هم الجراثيم والميكروبات التي كشف عنها العلم الحديث .

وقد ذهب الدكتور محمد البهي (في تفسير سورة الجن) أن المراد بالجن الملائكة ، فالجن والملائكة عنده عالم واحد لا فرق بينهما ؛ ومما استدل به : أن الملائكة مستترون عن الناس ، إلا أنه أدخل في الجن من يتخفى من عالم الإنسان في إيمانه وكفره ، وخيره وشره « تفسير سورة الجن ص ٨ » .

عدم العلم ليس دليلاً :

وغاية ما عند هؤلاء المكذبين أنه لا علم عندهم بوجودهم ، وعدم العلم ليس دليلا [١] ، وقبيح بالعاقل أن ينفي الشيء لعدم علمه بوجوده ، وهذا مما نعاه الله على الكفرة : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) « سورة يونس / ٣٩ » ، وهذه المخترعات الحديثة التي لا يستطيع أحد أن يكابر فيها ، أكان يجوز لإنسان عاش منذ مئات السنين أن ينكر إمكان حصولها لو أخبره صادق بذلك ؟ وهل عدم سماعنا للأصوات التي يعج بها الكون في كل مكان دليل على عدم وجودها حتى إذا اخترعنا (الراديو) واستطاع التقاط ما لا نسمع صدقنا بذلك ؟ !

والصحيح :

والقول الحق أن الجن عالم ثالث غير عالم الملائكة والبشر ، وأنهم مخلوقات عاقلة واعية مدركة ليسوا بأعراض ولا جراثيم ، وأنهم مكلفون مأمورون منهيون .

---

(١) ليس لهم أن يحتجوا بما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه كان ينكر مخاطبة الرسول - ﷺ - للجن وتكليمهم له ، فإن انكاره هنا للمشافهة لا للجن ، ومع ذلك فغير ابن عباس كابن مسعود يثبت مشافهة الرسول - ﷺ - (ومن حفظ حجة على من لم يحفظ) .

الأدلة :

١ ـ التواتر :

يقول ابن تيمية « مجموع الفتاوى ١٩ / ١٠ » : لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن ، ولا في أن الله أرسل محمداً ـ ﷺ ـ إليهم ، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن ، أمّا أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرّون بهم كإقرار المسلمين ، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك . وكما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك ... كالجهمية والمعتزلة ، وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك .

وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواتراً معلوماً بالضرورة ، ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة ، بل مأمورون منهيون ، ليسوا صفات وأعراضا قائمة بالإنسان أو غيره ، كما يزعمه بعض الملاحدة ، فلما كان أمر الجن متواتراً عن الأنبياء تواتراً تعرفه العامة والخاصة لم يمكن طائفة من المنتسبين إلى الرسل الكرام أن تنكرهم .

وقال في ص ١٣ « جميع طوائف المسلمين يقرون بوجود الجن ، وكذلك جمهور الكفار كعامة أهل الكتاب ، وكذلك عامة مشركي العرب وغيرهم من أولاد حام ، وكذلك جمهور الكنعانيين واليونان من أولاد يافث فجماهير الطوائف تقر بوجود الجن » .

٢ ـ النصوص القرآنية والحديثية :

كقوله تعالى :(قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن) « سورة الجن / ١ » وقوله : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رهقا) « سورة الجن / ٦ » .

وهي نصوص كثيرة سيأتي ذكر غالبها في ثنايا هذه الرسالة إن شاء الله .

٣ ـ المشاهدة والرؤية :

كثير من الناس في عصرنا وقبل عصرنا شاهد شيئاً من ذلك ، وإن كان كثير من الذين يشاهدونهم ويسمعونهم لا يعرفون أنهم جنٌّ ، إذ يزعمون أنَّهم أرواح ، أو رجال الغيب ، أو رجال الفضاء ...

وقد حدثنا الثقات في القديم والحديث عن مشاهداتهم . فهذا عالم جليل يدعى الأعمش يقول : تروَّح إلينا جني ، فقلت له : ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال : الأرز ، قال : فأتيناهم به ، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدا ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال : نعم ، فقلت : فما الرافضة فيكم ؟ قالوا : شرنا .

قال ابن كثير بعد سوقه لهذه القصة : عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي ، فقال : هذا إسناد صحيح إلى الأعمش . ثمَّ قال : وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال : سمعت بعض الجن وأنا في منزل لي بالليل ينشد :

قلوب براها الحب حتى تعلقـــت ... مذاهبها في كل غرب وشارق

تهيم بحـب الله ، والله ربهـــا ... معلقة بالله دون الخلائـــق

ا.هـ كلام ابن كثير .

أقول : وقد حدثني كثير من الثقات عن مخاطبتهم للجن ورؤيتهم لهم ، وسيأتي ذكر شيء من ذلك عند حديثنا عن قدرتهم على التشكل بصور مختلفة ؛ إن شاء الله تعالى .

٤ ـ أصلهم الذي خلقوا منه :

أخبر الرسول ـ ﷺ ـ أن الملائكة خلقوا من نور والجن خلقوا من نار ، ففرق بين الأصلين ، وهذا يرد على الذين لا يفرقون بين الجن والملائكة .

رؤية الحمار والكلب للجن :

إذا كنا لا نرى الجن فإن بعض الأحياء يرونهم كالحمار والكلب ، ففي مسند أحمد ، وسنن أبي داود بإسناد صحيح عن جابر مرفوعا : «إذا سمعتم نباح الكلاب ، ونهيق الحمير بالليل ، فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنهنّ يرون ما لا ترون » .

وهذا ليس غريباً فقد تحقق العلماء من قدرة بعض الأحياء على رؤية ما لا نراه ، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية ، ولذلك فإنّه يرى الشمس حال الغيم ، والبومة ترى الفأر في ظلمة الليل البهيم ...

الشيطان والجان

الشيطان الذي حدثنا الله عنه كثيراً في القرآن من عالم الجنّ ، كان يعبد الله في بداية أمره ، وسكن السماء مع الملائكة ، ودخل الجنة ، ثمّ عصى ربه عندما أمره أن يسجد لآدم استكباراً وعلواً وحسداً ، فطرده الله من رحمته .

والشيطان في لغة العرب يطلق على كل عاتٍ متمرد ، وقد أطلق على هذا المخلوق لعتوّه وتمرده على ربّه .

وأطلق عليه لفظ (الطاغوت) (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) (سورة النساء / ٧٦) وهذا الاسم معلوم عند غالبية أمم الأرض بنفس اللفظ كما يذكر العقاد في كتابه (إبليس) وإنما سمي طاغوتاً لتجاوزه حده ، وتمرده على ربه ، وتنصيبه نفسه إلهاً يعبد .

وقد يئس هذا المخلوق من رحمة الله ، ولذا أسماه الله (بإبليس) والبَلَس في لغة العرب من لا خير عنده ، وأُبلس يئس وتحيّر .

ويذكر جمع من علماء السلف أن اسمه قبل أن يعصي (عزازيل) والله أعلم بمدى صحة ذلك .

الشيطان مخلوق :

الذي يطالع ما جاء في القرآن والحديث عن الشيطان يعلم أنه مخلوق يعقل ويدرك ويتحرك و ... وليس كما يقول بعض الذين لا يعلمون : « أنه روح الشر متمثلة في غرائز الإنسان الحيوانية التي تصرفه ، إذا تمكنت من قلبه عن المثل الروحية العليا » (دائرة المعارف الحديثة ص ٣٥٧) .

أصله :

سبق القول بأن الشيطان من الجن ، وقد نازع في هذه المسألـة بعض المتقدمين والمتأخرين ، وحجتهم في ذلك قوله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى ، واستكبر ، وكان من الكافرين) (سورة البقرة / ٣٤) ، وأمثال هذه الآية التي يستثني الله فيها إبليس من الملائكة ، والمستثنى لا يكون إلا من جنس المستثنى منه عادة .

وقد نقلت لنا كتب التفسير والتاريخ أقوال جملة من العلماء ، يذكرون أن إبليس كان من الملائكة ، وأنه كان خازناً للجنة ، أو للسماء الدنيا ، وأنه كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ... إلى آخر تلك الأقوال ، قال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٣٩٧) : (وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما يقطع بكذبه لمخالفته للحقٍّ الذي بأيدينا ، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفَّاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة ، والعلماء ، والسادة ، والأتقياء ، والبررة ، والنجباء من الجهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث ، وحرروا وبينوا صحيحه ، من حسنه ، من ضعيفه ، من منكره ، وموضوعه ، ومتروكه ، ومكذوبه ، وعرفوا الوضاعين ، والكذابين ، والمجهولين ، وغير ذلك من أصناف الرجال ،

كل ذلك صيانة للجناب النبوي ، والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر - ﷺ - أن ينسب إليه كذب ، أو يحدث عنه بما ليس فيه » .

وما احتجوا به من أن الله استثنى إبليس من الملائكة ... ليس دليلا قاطعاً ، لاحتمال أن يكون الاستثناء منقطعاً ؛ بل هو كذلك حقا ، للنص على أنَّه من الجن في قوله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه ..) (سورة الكهف / ٥٠) .

وقد ثبت لدينا بالنص الصحيح أن الجن غير الملائكة والإنس ، فقد أخبر المصطفى - ﷺ - : (أن الملائكة خلقوا من نور ، وأن الجن خلقوا من نار ، وأن آدم خلق من طين) والحديث في صحيح مسلم .

قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين (البداية والنهاية ١ / ٧٩) ، والذي حققه ابن تيمية : أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته ، وليس منهم باعتبار أصله ، ولا باعتبار مثاله) (مجموع الفتاوى ٤ / ٣٤٦) .

هل الشيطان أصل الجن أم واحد منهم ؟

ليس لدينا نصوص صريحة تدلنا على أن الشيطان أصل الجن ، أو واحد منهم ، وإن كان هذا الأخير أظهر لقوله تعالى : (إلا إبليس كان من الجن) (سورة الكهف / ٥٠) .

وابن تيمية يذهب إلى أن الشيطان أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس . (راجع مجموع الفتاوى ٤ / ٢٣٥ ، ٣٤٦) .

طعام الجن وشرابهم :

- الجن والشيطان منهم ، يأكلون ويشربون ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - أمره أن يأتيه بأحجار يستجمر

بها ، وقال له : « ولا تأتيني بعظم ولا بروثة » ولما سأل أبو هريرة الرسول - ﷺ - بعد ذلك عن سر نهيه عن العظم والروثة ، قال : « هما من طعام الجن ، وإنّه أتاني وفد نصيبين - ونعم الجن - فسألوني الزاد ، فدعوت الله لهم : أن لا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طعاما » وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح : « لا تستنجوا بالروث ، ولا بالعظام ، فإنّه زاد إخوانكم من الجن » (صحيح الجامع ٢ / ١٥٤) وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود « أتاني داعي الجن فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن ، قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم لحما ، وكل بعرة علف لدوابكم ، فقال النبي - ﷺ - : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم » [(١)]

وقد أخبرنا الرسول - ﷺ - أن الشيطان يأكل بشماله ، وأمرنا بمخالفته في ذلك ، روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما ؛ أنَّ النبي - ﷺ - قال : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » .

وفي مسند الإمام أحمد « من أكل بشماله أكل معه الشيطان ، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان » .

وفي المسند أيضاً « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله ، قال : أدركتم المبيت ، وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه ، قال : أدركتم المبيت والعشاء » وأخرجه مسلم أيضاً . ففي هذه النصوص دلالة قاطعة على أن الشياطين تأكل وتشرب .

وكما أن الإنس منهيون عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه من اللحوم ،

---

(١) إذا كنّا منهيين عن إفساد طعام الجن فيحرم علينا من باب أولى إفساد طعام الإنس .

فكذلك الجن المؤمنون جعل لهم الرسول ـ ﷺ ـ طعاماً كل عظم ذكر اسم الله عليه ، فلم يبح لهم متروك التسمية ، ويبقى متروك التسمية لكفرة الجن : الشياطين ، فإن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر عليه اسم الله ، ولأجل ذلك ذهب بعض العلماء إلى أن الميتة طعام الشيطان ؛ لأنه لم يذكر اسم الله عليها .

واستنتج ابن القيم من قوله تعالى : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) (سورة المائدة / ٩٠) أن المسكر شراب الشيطان ، فهو يشرب من الشراب الذي عمله أولياؤه بأمره ، وشاركهم في عمله ، فيشاركهم في شربه ، وإثمه وعقوبته .

هل يتزاوج الجن ويتكاثرون ؟

الذي يظهر أن الجن يقع منهم النكاح ، وقد استدل بعض العلماء على ذلك بقوله تعالى في أزواج أهل الجنة (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) (سورة الرحمن / ٥٦) وذكر صاحب (لوامع الأنوار البهية) حديثاً يحتاج إلى نظر في إسناده ، يقول : (إن الجن يتوالدون ، كما يتوالد بنو آدم ، وهم أكثر عدداً) رواه ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة . وسواء أصح هذا الحديث أم لم يصح فإن الآية صريحة في أن الجن يتأتى منهم الطمث وحسبنا هذا دليلاً .

وقد زعم قوم أن الجن لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يتناكحون ، وهذا القول تبطله الأدلة التي سقناها من الكتاب والسنة .

وبعض العلماء ذكر أن الجن أنواع منهم من يأكل ويشرب ومنهم من ليس كذلك ؛ يقول وهب بن منبه « الجنّ أجناس : فأمّا خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يموتون ، ولا يتوالدون ، ومنهم أجناس يأكلون ، ويشربون، ويتوالدون ، ويتناكحون ، ويموتون ، قال : وهي هذه السعالى والغول وأشباه ذلك » . أخرجه ابن جرير (لوامع الأنوار ٢ / ٢٢٢)

وهذا الذي ذكره وهب يحتاج إلى دليل ، ولا دليل . وقد حاول بعض العلماء الخوض في الكيفية التي يأكلون بها ، هل هو مضغ وبلع ، أو تشمم واسترواح ، والبحث في ذلك خطأ لا يجوز لأننا لا نعلم بالكيفية ، ولم يخبرنا الله ورسوله ﷺ .

زواج الإنس من الجن :

لا زلنا نسمع أن فلاناً من الناس تزوج جنية ، أو أن امرأة من الإنس خطبها جني ، وقد ذكر السيوطي آثاراً وأخباراً عن السلف والعلماء تدل على وقوع التناكح بين الإنس والجن . يقول ابن تيمية (المجموع ١٩ / ٣٩) : « وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد وهذا كثير معروف » .

وعلى فرض إمكان وقوعه فقد كرهه جمع من العلماء كالحسن وقتادة والحكم وإسحاق ، والإمام مالك ـ رحمه الله ـ لا يجد دليلاً ينهي عن مناكحة الجن ، غير أنّه لم يستحبه ، وعلل ذلك بقوله : « ولكني أكره إذا وجدت امرأة حامل فقيل من زوجك ؟ قالت : من الجن فيكثر الفساد » .

وذهب قوم إلى المنع من ذلك ، واستدلوا على مذهبهم بأنَّ الله امتن على عباده من الإنس بأنّه جعل لهم أزواجاً من جنسهم : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ؛ لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة) (سورة الروم / ٢١) .

فلو وقع فلا يمكن أن يحدث التآلف والانسجام بين الزوجين لاختلاف الجنس ، فتصبح الحكمة من الزواج لاغية ، إذ لا يتحقق السكن والمودة المشار إليهما في الآية الكريمة .

وعلى كل فهذه مسألة يزعم بعض الناس وقوعها في الحاضر والماضي ، فإذا حدثت فهي شذوذ ـ قلما ـ يسأل فاعلها عن حكم الشرع فيها وقد يكون فاعلها مغلوباً على أمره لا يمكنه أن يتخلص من ذلك .

ومما يدل على إمكان وقوع التناكح بين الإنس والجن أن حور الجنة قال الله فيهن: (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) (سورة الرحمن / ٥٦) فدلت الآية على صلاحيتهن للإنس والجن على حد سواء .

هل تموت الشياطين ؟

لا شك أن الجن ومنهم الشياطين يموتون ، إذ هم داخلون في قوله تعالى : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، فبأيٍّ آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن / ٢٦ - ٢٨) .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أن النبي - ﷺ - كان يقول : « أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت ، الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون » .

أما مقدار أعمارهم فلا نعلمها إلا ما أخبرنا الله عن إبليس اللعين أنه سيبقى حيّاً إلى أن تقوم الساعة : (قال : انظرني إلى يوم يُبعثون ، قال : إنك من المنظرين) . (سورة الأعراف / ١٤ - ١٥) .

أما غيره فلا ندري مقدار أعمارهم ، إلا أنهم أطول أعماراً من الإنس .

ومما يدلّ على أنهم يموتون أن خالد بن الوليد قتل شيطانة العزى ، (الشجرة التي كانت تعبدها العرب) ، وأن صحابياً قتل الجنى الذي تمثل بأفعى ، كما سيأتي بيانه .

مساكن الجن وأماكنهم وأوقات تواجدهم :

الجن يسكنون هذه الأرض التي نعيش فوقها ، ويكثر تواجدهم في الخراب والفلوات ، ومواضع النجاسات كالحمامات والحشوش والمزابل والمقابر ، ولذلك - كما يقول ابن تيمية - يأوي إلى كثير من هذه الأماكن التي هي مأوى الشياطين : الشيوخ الذين تقترن بهم الشياطين ، وقد جاءت الأحاديث التي تنهي عن الصلاة في الحمام ، لأجل ما فيها من نجاسة ، ولأنها

مأوى الشياطين ، وفي المقبرة لأنها ذريعة إلى الشرك ، مع أن المقابر قد تكون مأوى للشياطين .

ويكثر تواجدهم في الأماكن التي يستطيعون أن يفسدوا فيها كالأسواق ، فقد أوصى الرسول - ﷺ - أحد أصحابه قائلا : (لا تكونن إن استطعت أول من تدخل السوق ، ولا آخر من يخرج منها ، فإنها معركة الشيطان ، وبها ينصب رايته) رواه مسلم في صحيحه .

والشياطين تبيت في البيوت التي يسكنها الناس ، وتطردها التسمية ، وذكر الله ، وقراءة القرآن ، خاصة سورة البقرة ، وآية الكرسي منها ، وأخبر الرسول - ﷺ - أن الشياطين تنتشر ، وتكثر بحلول الظلام ، ولذا أمرنا أن نكف صبياننا في هذه الفترة وهو حديث متفق عليه .

والشياطين تهرب من الأذان ولا تطيق سماع صوته ، وفي رمضان تُصَفَّد الشياطين .

من مجالس الشياطين :

تحب الشياطين الجلوس بين الظل والشمس ؛ ولذا نهى الرسول - ﷺ - عن الجلوس بينهما ، وهو حديث صحيح مروي في السنن وغيرها .

دواب الجن :

في حديث ابن مسعود في صحيح مسلم أن الجن سألوا الرسول - ﷺ - الزاد ، فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه ، يقع في أيديكم لحماً ، وكل بعرة علف لدوابكم) .

فأخبر أن لهم دواب ، وأن علف دوابهم بعر دواب الإنس .

حيوانات تصاحبها الشياطين :

من هذه الحيوانات الإبل ، يقول الرسول - ﷺ - : (إن الإبل خلقت

من الشياطين ، وإن وراء كل بعير شيطاناً) رواه سعيد بن منصور في سننه بإسناد مرسل حسن (صحيح الجامع ٢ / ٥٢) ومن أجل ذلك نهى الرسول - ﷺ - عن الصلاة في مبارك الإبل ، ففي مسند احمد ، وسنن أبي داود أن الرسول - ﷺ - قال : (لا تصلوا في مبارك الإبل ، فإنها من الشياطين ، وصلوا في مرابض الغنم فإنها بركة ...) .

وفي سنن ابن ماجة باسناد صحيح : (ولا تصلوا في أعطان الإبل ، فإنها خلقت من الشياطين) .

وهذه الأحاديث ترد على من قال بأنَّ علة النهي عن الصلاة في مبارك الإبل نجاسة أبوالها وروثها ، فالصحيح أن روث وبول ما يؤكل لحمه غير نجس .

قبح صورة الشيطان :

الشيطان قبيح الصورة ، وهذا مستقر في الأذهان ، وقد شبه الله ثمار شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم برؤوس الشياطين ، لما علم من قبح صورهم وأشكالهم ، (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنّه رؤوس الشياطين) (سورة الصافات / ٦٤ - ٦٥) .

وقد كان النصارى في القرون الوسطى يصورون الشيطان على هيئة رجل أسود ذي لحية مدببة ، وحواجب مرفوعة ، وفم ينفث لهبا ، وقرون وأظلاف وذيل (دائرة المعارف الحديثة / ٣٥٧) .

الشيطان له قرنان :

ففي صحيح مسلم عن ابن عمر أن النبي - ﷺ - قال : « لا تَحَرَّوا بصلاتكم طلوع الشمس ، ولا غروبها ، فإنَّها تطلع بين قرني شيطان » . وفي البخاري ومسلم عنه : « إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب ، ولا تَحَيَّنُوا بصلاتكم طلوع الشمس ، ولا غروبها ، فإنَّها تطلع

بين قرني شيطان » .

والمعنى أن طوائف من المشركين كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها عند طلوعها وعند غروبها ، فعند ذلك ينتصب الشيطان في الجهة التي تكون فيها الشمس حتى تكون عبادتهم له .

وقد نهينا عن الصلاة في هذين الوقتين ، والصحيح أن الصلاة في هذين الوقتين جائزة إذا كان لها سبب كتحية المسجد ، ولا تجوز بلا سبب كالنفل المطلق ؛ لقوله ـ ﷺ ـ (لا تَحَيَّنُوا) أي لا تتقصدوا ومما ورد فيه ذكر قرن الشيطان حديث البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يشير إلى المشرق ، فقال : « ها إن الفتنة ههنا ، إن الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان » . والمراد بقوله « حيث يطلع قرن الشيطان » أي جهة الشرق .

قدراتهم :

أعطى الله الجنَّ قدرة لم يعطها للبشر ، وقد حدثنا الله عن بعض قدراتهم ، فمن ذلك **سرعة الحركة والانتقال :**

فقد تعهد عفريت من الجن لنبي الله سليمان بإحضار عرش ملكة اليمن إلى بيت المقدس في مدة لا تتجاوز قيام الرجل من جلوس ، فقال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لَقَوي أمين ، قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربي ...) (سورة النمل / ٣٩ ـ ٤٠) .

سبقهم الإنسان في مجالات الفضاء :

ومنذ القدم كانوا يصعدون إلى أماكن متقدمة في السماء ، فيسترقون أخبار السماء ، ليعلموا بالحَدَث قبل أن يكون ، فلما بعث الرسول ـ ﷺ ـ

زيدت الحراسة في السماء : (وأنّا لمسنا السماء ، فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا ، وأنّا كنّا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) (سورة الجن / ٨ ـ ٩) .

وقد وضح الرسول ـ ﷺ ـ كيفية استراقهم السمع ، فعن أبي هريرة يبلغ به النبي ـ ﷺ ـ « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كالسلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ، فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الذي قاله الحق ، وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومستمعو السمع هكذا ، واحد فوق آخر ، ووصف سفيان بيده ، وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض ، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها الى صاحبه فيحرقه ، وربما لم يدركه حتى يرمي بها الى الذي يليه ، الى الذي هو أسفلْ منه ، حتى يلقوها الى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهي الى الأرض فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مائة كذبة ، فيصدق ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا بكذا وكذا ، فوجدناه حقاً للتي سمعت من السماء» رواه البخاري في صحيحه .

خرافة جاهلية :

وهذا العلم عن السبب الذي من أجله يرمي بشهب السماء قضي على خرافة كان يتناقلها أهل الجاهلية ، فعن عبد الله بن عباس قال : أخبرني رجل من أصحاب النبيّ ـ ﷺ ـ من الأنصار ، أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ـ ﷺ ـ رمي بنجم فاستنار ، فقال لهم رسول الله : « ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . كنا نقول : ولد الليلة رجل عظيم ، ومات رجل عظيم . فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ؛ ولكنّ ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً

سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا ، ثمَّ قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال . قال فيستَخبر بعض أهل السموات بعضاً ؛ حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا . فتخطف الجنُّ السمع ، فيقذفون إلى أوليائهم ، ويرمون به فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يَقْرِفون فيه ويزيدون » رواه مسلم في صحيحه .

علمهم بالإعمار والتصنيع :

أخبرنا الله أنه سخر الجن لنبيِّه سليمان ، فكانوا يقومون له بأعمال كثيرة تحتاج إلى قدرات ، وذكاء ، ومهارات ، (ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات) (سورة سبأ/١٣ - ١٤) .

ولعلهم قد توصلوا منذ القدم إلى اكتشاف مثل (الراديو والتلفزيون) ، فقد ذكر ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١١ / ٣٠٩) أن بعض الشيوخ الذين كان لهم اتصال بالجن أخبره وقال له : « إن الجن يرونه شيئاً براقاً مثل الماء والزجاج ، ويمثلون له فيه ما يطلب منه من الأخبار به ، قال فأخبر الناس به ، ويوصلون إلى كلام من استغاث بي من أصحابي ، فأجيبه فيوصلون جوابي إليه » .

قدرتهم على التشكل :

للجن قدرة على التشكل بأشكال الإنسان والحيوان ، فقد جاء الشيطان المشركين يوم بدر في صورة سراقة بن مالك ، ووعد المشركين بالنصر ، وفيه أنزل : (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني جار لكم) (سورة الأنفال / ٤٨) .

ولكن عندما التقى الجيشان وعاين الملائكة تتنزل من السماء ولى هاربا :

(فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وقال : إني بريء منكم ، إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ...) (سورة الأنفال / ٤٨) وقد جرى مع أبي هريرة قصة طريفة رواها البخاري وغيره ؛ قال أبو هريرة : وكلني رسول الله بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، وقلت : والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، قال : إني محتاج ، وعليّ عيال ، ولي حاجة شديدة ، قال فخليت عنه ، فأصبحت فقال النبي ﷺ : يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة ؟ قال : قلت : يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فخليت سبيله ، قال أما إنه كذبك وسيعود ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود ، فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ؛ قال : دعني ، فإني محتاج ، وعلي عيال ، لا أعود ، فرحمته ، فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك ؟ قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته . فخليت سبيله . قال : أما إنه كذبك وسيعود ، فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ، ثمَّ تعودَ ! قال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت ما هو ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) حتى تختم الآية ، فإنَّك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لي رسول الله ـ ﷺ : ما فعل أسيرك البارحة ؟ قلت يا رسول الله زعم أنّه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله ، قال : ما هي ؟ قلت قال لي : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم ، وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا أحرص شيء على الخير ، قال النبي : أما إنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قال : لا ، قال : ذاك شيطان » فقد تشكل هذا الشيطان في صورة إنسان .

وقد يتشكل في صورة حيوان : جمل ، أو حمار ، أو بقرة ، أو كلب ، أو قط .

خاصة الكلاب السود ، ولذا أخبر الرسول ـ ﷺ ـ أن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة وعلل ذلك بأن (الكلب الأسود شيطان) يقول ابن تيمية : « الكلب الأسود شيطان الكلاب والجن تتصور بصورته كثيراً ، وكذلك بصورة القط الأسود ، لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره ، وفيه قوة الحرارة » .

جنان البيوت :

تتشكل الجان بشكل الحيات وتظهر للناس ، ولذا نهى الرسول ـ ﷺ ـ عن قتل جنان البيوت ، خشية أن يكون هذا المقتول جنياً قد أسلم ، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ بالمدينة نفراً من الجنِّ قد أسلموا ، فمن رأى شيئاً من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثا ، فإن بدا له بعد فليقتله ، فإنّه شيطان » .

وقد قتل أحد الصحابة حيّة من حيات البيوت ، فكان في ذلك هلاكه ، روى مسلم في صحيحه : أن أبا السائب دخل على أبي سعيد الخدري في بيته ، فوجده يصلي ، قال : فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته ، فسمعت تحريكاً في عراجين في ناحية البيت ، فالتفت ، فإذا حيّة ، فوثبت لأقتلها ، فأشار إليّ أن اجلس ، فجلست ، فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار ، فقال : أترى هذا البيت ؟ قلت : نعم . قال : كان فيه فتى منّا حديث عهد بعرس ، قال : فخرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الخندق ، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ـ ﷺ ـ بأنصاف النهار ، فيرجع إلى أهله ، فاستأذنه يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « خذ عليك سلاحك ، فإني أخشى عليك قريظة ، فأخذ الرجل سلاحه ، ثمَّ رجع ، فإذا امرأته بين البابين قائمة ، فأهوى إليها

بالرمح ليطعنها به ، وأصابته غيرة ، فقالت له : اكفف عليك رمحك ، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني ، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش ، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ، ثم خرج ، فركزه في الدار ، فاضطربت عليه ، فما يدري أيهما كان أسرع موتا : الحية أم الفتى ؟ قال : فجئنا إلى رسول الله - ﷺ - فذكرنا ذلك له ، وقلنا ادع الله يحييه لنا ، فقال : « استغفروا لصاحبكم » ، ثمَّ قال : « إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا ، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام ، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه ، فإنّما هو شيطان » .

تنبيهات :

١ - هذا الحكم ، وهو النهي عن قتل هذه الحيوانات خاص بالحيات دون غيرها .

٢ - وليس كل الحيات ، بل الحيات التي نراها في البيوت دون غيرها ، أمّا التي نشاهد خارج البيوت فنحن مأمورون بقتلها .

٣ - إذا رأيت حيات البيوت فنؤذنها أي نأمرها بالخروج ، كأن نقول : أقسمت عليك بالله أن تخرجي من هذا المنزل ، وأن تبعدي عنّا شرّك وإلا قتلناك .

فإن رؤيت بعد ثلاثة أيام قتلت .

٤ - والسبب في قتلها بعد ثلاثة أيام أننا نكون قد تأكدنا أنها ليست جنّاً مسلماً ، لأنها لو كانت كذلك لغادرت المنزل . فإن كانت أفعى حقيقية فهي تستحق القتل ، وإن كانت جنّا كافراً متمرداً فهو يستحق القتل ؛ لأذاه واخافته أهل المنزل .

٥ - يستثنى من جنان البيوت نوع يقتل بدون استئذان ، ففي صحيح البخاري عن أبي لبابة أن الرسول - ﷺ - قال : (لا تقتلوا الجنان ، إلا كلَّ أبتر ذي طفيلتين ؛ فإنه يسقط الولد ، ويذهب البصر فاقتلوه) .

وهل كل الحيات من الجنّ أم بعضها ؟ يقول الرسول ـ ﷺ : « الحيّات مسخ الجنّ صورة ، كما مسخت القردة والخنازير من بني إسرائيل » (رواه الطبراني وأبو الشيخ في العظمة باسناد صحيح) ، (راجع الأحاديث الصحيحة ٣ / ١٠٤) .

الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق :

ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أنس ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ : « إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم » ، وفي الصحيحين عن صفية بنت حي زوج النبي ـ ﷺ ـ قالت : « كان رسول الله ـ ﷺ ـ معتكفاً ، فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ، ثمَّ قمت لأنقلب ، فقام معي ليقلبني (يردني) ، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ، فمرَّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ـ ﷺ ـ أسرعا ، فقال النبي ـ ﷺ ـ على رسلكما إنها صفية بنت حي ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله !! قال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّا ، أو قال: شيئاً » .

ضعفهم وعجزهم :

الجن والشياطين فيهم جوانب قوة ، وجوانب ضعف ، قال تعالى : « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » (سورة النساء / ٧٦) وسنعرض لبعض هذه الجوانب التي عرفنا الله ورسوله بها .

لا سلطان لهم على عباد الله الصالحين :

لم يعط الرب سبحانه ـ الشيطان ـ القدرة على إجبار الناس ، وإكراههم على الضلال والكفر ، (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك

وكيلا) (سورة الإسراء / ٦٥) . (وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو في شك) (سورة سبأ / ٢١) . ومعنى ذلك أن الشيطان ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة ، ولا من جهة القدرة . والشيطان يدرك هذه الحقيقة ، (قال : رب بما اغويتني لأزينَنَّ لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين) (سورة الحجر ٣٩ - ٤٠) .

وإنما يتسلط على العباد الذين يرضون بفكره ، ويتابعوه عن رضا وطواعية : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) (سورة الحجر / ٤٢) . وفي يوم القيامة يقول الشيطان لأتباعه الذين أضلهم وأهلكهم :(وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) (سورة إبراهيم / ٢٢) .

وفي الآية الأخرى : (إنّما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون) (سورة النحل / ١٠٠) .

والسلطان هو تسلطه عليهم بالإغواء والاضلال ، وتمكنه منهم ، بحيث يؤزهم على الكفر والشرك ويزعجهم إليه ، ولا يدعهم يتركونه كما قال تعالى : (ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) (سورة مريم / ٨٣) ، ومعنى تؤزهم : تحركهم وتهيجهم .

وسلطان الشيطان على أوليائه ليس له فيه حجّة وبرهان ، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم ، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم ، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته ، فلما أعطوا بأيديهم ، واستأسروا له سُلِّطَ عليهم عقوبةً لهم . فالله لا يجعل للشيطان على العبد سلطانا ، حتى يجعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به ، فجعل الله حينئذ له عليه تسلطا وقهرا .

وقد يسلط على المؤمنين بسبب ذنوبهم :

ففي الحديث « إن الله - تعالى - مع القاضي ما لم يَجُر ، فإذا جار تبرأ منه ، وألزمه الشيطان » رواه الحاكم ، والبيهقي بإسناد حسن (انظر صحيح الجامع ٢/١٣٠) .

ويروي لنا أبو الفرج ابن الجوزي - رحمه الله - عن الحسن البصري - رحمه الله - قصة طريفة ، وبغض النظر عن مدى صحتها إلا أنها تصور قدرة الإنسان على قهر الشيطان إذا أخلص دينه لله ، وكيف يصرع الشيطان الإنسان ؟ إذا ضل وزاغ ، يقول الحسن : كانت شجرة تعبد من دون الله ، فجاء إليها رجل ، فقال : لأقطعن هذه الشجرة ، فجاء ليقطعها غضباً لله ، فلقيه إبليس في صورة إنسان ، فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله ، قال إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها ؟ قال : لأقطعنها . فقال له الشيطان : هل لك فيما هو خير لك ؟ لا تقطعها ، ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند وسادتك . قال : فمن أين لي ذلك ؟ قال أنالك . فرجع ، فأصبح فوجد دينارين عند وسادته ، ثمَّ أصبح بعد ذلك ، فلم يجد شيئاً . فقام غضباً ليقطعها ، فتمثل له الشيطان في صورته ، وقال : ما تريد ؟ قال : أريد قطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله تعالى . قال : كذبت ، مالك إلى ذلك من سبيل ، فذهب ليقطعها ، فضرب به الأرض ، وخنقه حتى كاد يقتله ، قال : أتدري من أنا ؟ أنا الشيطان ، جئت أول مرة غضباً لله ، فلم يكن لي عليك سبيل ، فخدعتك بالدينارين ، فتركتها ، فلما جئت غضباً للدينارين سلطت عليك) (تلبيس إبليس ٤٣) .

وقد حدثنا الله في كتابه عن شخص آتاه الله آياته ، فعلمها ، وعرفها ، ثمّ إنه ترك ذلك كله ، فسلط الله عليه الشيطان ، فأغواه ، وأضله ، وأصبح عبرة تروى ، وقصة تتناقل (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنَّه أخلد إلى

الأرض ، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) (سورة الأعراف / ١٧٥ ـ ١٧٦) . وواضح أن هذا مثل لمن عرف الحق وكفر به كاليهود الذين يعلمون أن محمداً مرسل من ربه ، ثم هم يكفرون به .

اما هذا الذي عناه الله هنا ، فقال بعضهم : هو بلعام بن باعورا ، كان صالحاً ثم كفر ، وقيل : هو أمية بن أبي الصلت من المتألهين في الجاهلية ، أدرك الرسول ـ ﷺ ـ ولم يؤمن بـه حسدا ، وكان يرجو أن يكون هو النبي المبعوث ، وليس عندنا نص صحيح يعرفنا بالمراد من الآية على وجه التحديد . وهذا الصنف (الذي يؤتي الآيات ثم يكفر) صنف خطر به شَبَه من الشيطان ، لأنَّ الشيطان كفر بعد معرفته الحق ، ولقد تخوف الرسول ـ ﷺ ـ هذا النوع على أمته ، روى الحافظ أبو يعلى عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ـ ﷺ : (إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رئيت بهجته عليه ، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك) قال : قلت يا رسول الله : أيهما أولى بالسيف : الرامي أم المرمي ؟ قال (بل الرامي) قـال ابن كثير : وهذا إسناد جيد (انظر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٥٢) .

خوف الشيطان وهربه من بعض عباد الله :

إذا تمكن العبد في الإسلام ، ورسخ الإيمان في قلبه ، وكان وقَّافاً عند حدود الله فإنَّ الشيطان يفرق منه ، ويفرُّ منه ، كما قال الرسول ـ ﷺ ـ لعمر بن الخطاب : (إن الشيطان ليفرق منك يا عمر) ، رواه أحمد ، والترمذي ، وابن حبان بإسناد صحيح (صحيح الجامع ٢ / ٧٤) . وقال فيه أيضا : « إني لأنظر شياطين الجن والإنس فرُّوا من عمر » ، رواه الترمذي

بإسناد صحيح ، (صحيح الجامع ٢ / ٣٢٩) .

وليس ذلك خاصاً بعمر ، فإن من قوى إيمانه يقهر شيطانه ، ويذله ، كما في الحديث : (إن المؤمن لينصي شيطانه كما ينصي أحدكم بعيره في السفر) ، رواه أحمد ، قال ابن كثير في (البداية ١ / ٧٣) بعد سوقه لهذا الحديث : (ومعنى لينصي شيطانه : ليأخذ بناصيته ، فيغلبه ، ويقهره ، كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه) .

وقد يصل الأمر أن يؤثر المسلم على قرينه الملازم له فيسلم ، أخرج الامام أحمد في مسنده ، ومسلم في صحيحه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة) قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : (وإياي ، ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير) .

وفي رواية ابن عباس عن الامام أحمد باسناد على شرط الصحيح : (ولكن الله أعانني عليه فأسلم) . وفي رواية عائشة عن مسلم (ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم) .

تسخير الجن لسليمان :

سخر الله لنبيه سليمان في جملة ما سخر الجن ، والشياطين ، يعملون له ما يشاء ، ويعذب ويسجن العصاة منهم : (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد) (سورة ص / ٣٦ - ٣٨)

وقال في سورة سبأ : (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات) ، (سورة سبأ ١٢ ـ ١٣) .

وهذا التسخير على هذا النحو استجابة من الله لعبده سليمان عندما دعاه

وقال : (وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) (سورة ص / ٣٥) .
وهذه الدعوة هي التي منعت نبينا محمد - ﷺ - من ربط الجنى الذي جاء بشهاب من نار ، يريد أن يرميه في وجهه ، ففي صحيح مسلم عن أبي الدرداء قال : قام رسول الله - ﷺ - يصلي ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ، ثم قال : (ألعنك بلعنة الله ثلاثا) ، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ! قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً ، لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ، فقال : (إن عدوَّ الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة ، فلم يستأخر ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة) .
وقد تكرر هذا أكثر من مرة ففي صحيح مسلم أيضاً عن أبي هريرة أن الرسول - ﷺ - قال : (إن عفريتاً من الجن جعل يتفلت علي البارحة ليقطع عليَّ الصلاة ، وإن الله أمكنني منه ، فذعته ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون ، أو كلكم ، ثمَّ ذكرت قول أخي سليمان رب اغفر لي ، وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، فرده الله خاسئاً) .

كذب اليهود على سليمان :

يزعم اليهود وأتباعهم الذين يستخدمون الجن بواسطة السحر أن نبي الله سليمان كان يستخدم الجنَّ به ، وقد ذكر غير واحد من علماء السلف أن سليمان لما مات كتبت الشياطين كتب سحر وكفر ، وجعلتها تحت كرسيه ، وقالوا : كان سليمان يستخدم الجن بهذه ، فقال بعضهم : لولا أن هذا حق جائز لما فعله سليمان ، فأنزل الله قوله :(ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) (سورة البقرة / ١٠١) ثم بين أنهم اتبعوا ما كانت تتلوه الشياطين

على عهد ملك سليمان وبرأ سليمان من السحر والكفر : (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ... الآية) (سورة البقرة / ١٠٢) .

عجزهم عن الاتيان بالمعجزات :

لا تستطيع الجن الاتيان بمثل المعجزات التي جاءت بها الرسل تدليلاً على صدق ما جاءت به .

فعندما زعم بعض الكفرة أن القرآن من صنع الشياطين قال تعالى : (وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون) (سورة الشعراء / ٢١٠ ـ ٢١٢) .

وتحدى الله بالقرآن الإنس والجن : (قل : لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (سورة الإسراء / ٨٨) .

لا يتمثلون بالرسول ﷺ في الرؤيا :

والشياطين تعجز عن التمثل في صورة الرسول ـ ﷺ ـ في الرؤيا : ففي الحديث الذي يرويه الترمذي في سننه بإسناد صحيح : (من رآني فإني أنا هو ، فإنه ليس للشيطان أن يتمثل بي) .

وهو في الصحيحين بلفظ : (من رآني فقد رأي الحق ، فإن الشيطان لا يتزيّا بي) ، (الجامع الصحيح ٥ / ٢٩٣) .

والظاهر من الأحاديث أن الشيطان لا يتزيّا بصورة الرسول ـ ﷺ ـ الحقيقية ، ولا يمنعه هذا من التمثل في غير صورة الرسول ـ ﷺ ـ والزعم بأنّه رسول الله .

ولذلكَ فلا يجوز أن يحتج بهذا الحديث على أن كل من رأى الرسول

- ﷺ - في المنام أنّه رآه حقّا ، إلا إذا كانت صفته هي الصفة التي روتها لنا كتب الحديث . وإلا فكثير من الناس يزعم أنّه رآه على صورة مخالفة للصورة المروية في كتب الثقات .

لا يستطيعون أن يتجاوزوا حدوداً معينة في أجواز الفضاء :

قال تعالى: (يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان ، فبأيٍّ آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس ، فلا تنتصران) (سورة الرحمن ٣٣ - ٣٥) .

فمع قدراتهم وسرعة حركتهم لهم مجالات لا يستطيعون أن يتعدوها ، وإلا فإنهم هالكون .

لا يستطيعون فتح باب أغلق وذكر اسم الله عليه :

أخبر بذلك الرسول - ﷺ - حيث يقول : (أجيفوا الأبواب ، واذكروا اسم الله عليها ؛ فإن الشيطان لا يفتح باباً أجيف عليه) رواه أبو داود ، وأحمد ، وابن حبان ، والحاكم ، باسناد صحيح (الجامع الصحيح ١ / ٢٢٩) .

وفي الحديث المتفق عليه : (فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقا ، وأوكُوا قربكم ، واذكروا اسم الله ، وخمروا آنيتكم ، واذكروا اسم الله ، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً ، وأطفئوا مصابيحكم) .

(الجامع الصحيح ١ / ٢٧٠) .

وفي مسند أحمد : (أغلقوا أبوابكم ، وخمروا آنيتكم ، وأوكوا أسقيتكم ، وأطفئوا سرجكم ، فإنَّ الشيطان لا يفتح باباً مغلقا ، ولا يكشف غطاءً ، ولا يحلُّ وكاءً) .

الفصل الثاني

الجن مكلفون



الغَايَة مِن خَلقهِم

خلق الجن للغاية نفسها التي خلق الإنس من أجلها : (وما خَلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون) (سورة الذاريات / ٥٦) .

فالجنُّ على ذلك مكلفون بأوامر ونواهي ، فمن أطاع رضي الله عنه وأدخله الجنة ، ومن عصى وتمرد فله النار ، يدل على ذلك نصوص كثيرة .

ففي يوم القيامة يقول الله مخاطباً كَفَرَة الجن والإنس موبخاً مبكتاً : (يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) (سورة الأنعام / ١٣٠) ففي هذه الآيات دليل على بلوغ شرع الله الجن ، وأنه قد جاءهم من ينذرهم ويبلغهم .

والدليل على أنهم سيعذبون في النار قوله تعالى : (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجنِّ والإنس في النار) (سورة الاعراف / ٣٨) وقال (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس) سورة الأعراف / ١٧٩) . وقال (لأملان جهنّم من الجنة والناس أجمعين) (سورة السجدة / ١٣) والدليل على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة قوله تعالى :(ولمن خاف مقام ربِّه جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن / ٤٦ - ٤٧) .

والخطاب هنا للجن والإنس لأن الحديث في مطلع السورة معهما وفي الآية السابقة امتنان من الله على مؤمني الجن بأنهم سيدخلون الجنة ولولا أنهم ينالون ذلك لما امتن عليهم به . يقول ابن مفلح في كتابه الفروع : (الجن مكلفون في الجملة إجماعاً ، يدخل كافرهم النار إجماعاً ، ويدخل مؤمنهم

الجنة وفاقاً لمالك والشافعي رضي الله عنهما ، لا أنهم يصيرون تراباً كالبهائم ، وإن ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافاً لأبي حنيفة ، والليث بن سعد ومن وافقهما » قال : وظاهر الأول أنهم في الجنة كغيرهم بقدر ثوابهم ، خلافاً لمن قال لا يأكلون ولا يشربون فيها كمجاهد ، أو أنهم في ربض الجنّة ، أي حول الجنة كعمر بن عبد العزيز ، قال ابن حامد في كتابه : « الجن كالإنس في التكليف والعبادات » (لوامع الأنوار ٢ / ٢٢٢ ـ ٢٢٣) .

تكليفهم بحسبهم :

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٤ / ٢٣٣) : « الجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليسوا مماثلين للإنس في الحدّ والحقيقة ؛ فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الحدّ ، لكنهم مشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين » .

شبهة وجوابها :

يورد بعض الناس شبهة فيقولون : أنتم تقررون أن الجن خلقوا من نار ، ثمَّ تقولون إن كافرهم يعذب في نار جهنم ، ومسترق السمع منهم يقذف بشهب من نار ، فكيف تؤثر النار فيهم وقد خلقوا منها ؟

والجواب أنَّ الأصل الذي خلقوا منه النار ، أمّا بعد خلقهم فليسوا كذلك ، إذ أصبحوا خلقاً مخالفاً للنار ، يوضح هذا أن الإنسان خلق من تراب ، ثم بعد إيجاده أصبح مخالفاً للتراب ، ولو ضربت إنساناً بقطعة مشوية من الطين فقد تقتله ولو رميته بالتراب لآذاه ، ولو دفنته فيه فإنه يختنق ، فمع أنه من تراب إلا أن التراب يؤذيه ، فكذلك الجن .

لا نسب بين الجن ورب العزة :

هذا الذي ذكرناه من أن الجن خلق من خلق الله ، وعباد من جملة عباده ،

خلقهم لطاعته ، وكلفهم بشرعته ، يقضي على الخرافات التي تنشأ عن الانحراف في التصور ، وعن ضمور العلم وكثرة الجهل ، فمن ذلك ما شاع عند اليهود ومشركي العرب ، من أن الله ـ تعالى وتقدس ـ خطب من سروات الجنّ وتزوج منهم ، وكان الملائكة ثمرة هذا الزواج ، وقد حكى الله هذه الخرافة وبين بطلانها (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين) (سورة الصافات ١٥٨ ـ ١٦٠) قال ابن كثير عند تفسير هذه الآيات : (قال مجاهد : قال المشركون : الملائكة بنات الله ـ تعالى عما يقولون ـ فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فمن أمهاتهنَّ ؟ قالوا : بنات سروات الجنِّ ، وبمثل قول مجاهد قال قتادة وابن زيد . . . وقال العوفي عن ابن عباس : « زعم أعداء الله أنّه ـ تبارك وتعالى ـ هو وإبليس أخوان تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » .

كيف يبلّغون وحي الله إليهم ؟

بما أنهم مكلفون فلا بدَّ أن يبلغهم الله وحيه ويقيم عليهم الحجة ، فكيف حصل ذلك ؟ هل لهم رسل منهم كما للبشر رسل منهم ، أم أن رسلهم هم رسل البشر ؟ .

إن قوله تعالى : (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ... ؟) (سورة الأنعام / ١٣٠) يَدلُّ على أن الله أرسل إليهم رسلاً ، ولكنها لم تصرح بأن هؤلاء الرسل من الجِن أو من الإنس ؛ لأن قوله (منكم) يحتمل كلا الأمرين ؛ فقد يكون المراد أن رسل كل جنس منهم ، وقد يراد أن رسل الإنس والجن من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهم الإنس. وقد اختلف العلماء في ذلك على قولين ، الأول : أن للجن رسلا منهم ، وممن قال بهذا القول الضحاك ، وقال ابن الجوزي : وهو ظاهر الكلام. وقال ابن حزم لم يبعث إلى الجن نبي من الإنس البتَّة قبل محمد ﷺ .

الثاني : أن رسل الجن من الإنس قال السيوطي في (لقط المرجان) : (جمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أنَّه لم يكن من الجن قط رسول ولا نبي كذا روي عن ابن عباس ومجاهد والكلبي وأبي عبيد) .

(لوامع الأنوار ٢ / ٢٢٣ ـ ٢٢٤)

ومما يرجح أن رسل الإنس هم رسل الجن قول الجن عند سماع القرآن : (إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) (سورة الأحقاف / ٣٠) ولكنه ليس نصاً في المسألة .

وهذه المسألة لا يبنى عليها عمل ، وليس فيها نص قاطع ، ولذلك لا ينبغي أن نطيل فيها أكثر من ذلك .

عموم رسالة محمد ـ ﷺ ـ الإنس والجن :

محمد ـ ﷺ ـ مرسل إلى الجنِّ والإنس ، يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١٩ / ٩):(وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين ، وسائر طوائف المسلمين : أهل السنة والجماعة ، وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين) يدل على ذلك تحدي القرآن الجن والإنس .

(قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (سورة الاسراء/٨٨) . وقد سارع فريق من الجن إلى الإيمان عندما استمعوا القرآن (قل أوحي إليَّ أنّه استمع نفر من الجنّ ، فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجباً ، يهدي إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً . . .) (سورة الجن/١ ـ ٢) .

وهؤلاء الذين استمعوا القرآن وآمنوا هم المذكورون في سورة الأحقاف : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنِّ يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا : يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ،

يا قومنا أجيبوا داعي الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين) (سورة الأحقاف / ٢٩ ـ ٣٢) استمعوا للقرآن ، وآمنوا به ، ورجعوا دعاة يدعون قومهم إلى التوحيد والإيمان ، ويبشرونهم وينذرونهم .

وقصة هؤلاء الذين استمعوا للرسول ـ ﷺ ـ يرويها البخاري ومسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : « انطلق رسول الله ـ ﷺ ـ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء .. ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن ـ قالوا : استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا : يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به .

وأنزل الله على نبيّه (قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن) (سورة الجن / ١) وإنما أوحي إليه قول الجن .

وفود الجن :

تلك كانت بداية معرفة الجنّ برسالة محمد ﷺ ، استمعوا لقراءة القرآن بدون علم الرسول ﷺ ، فآمن فريق منهم وانطلقوا دعاة هداة .

ثمّ جاءت وفود الجنّ بعد ذلك تتلقى العلم من الرسول ﷺ ،

وأعطاهم الرسول ـ ﷺ ـ من وقته ، وعلمهم مما علمه الله ، وقرأ عليهم القرآن ، وبلغهم خبر السماء ... وكان ذلك في مكة قبل الهجرة ؛ روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن علقمة قال : قلت لعبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هل صحب رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة الجنِّ منكم أحد ؟ فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكنّا فقدناه ذات ليلة بمكة ، فقلنا : اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان وجه الصبح ـ أو قال ـ في السحر إذا نحن به يجيء من قبل حراء ، فقلنا يا رسول الله ، فذكروا له الذي كانوا فيه ، فقال : « إنَّه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم » قال : فانطلق ، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وفي رواية عن الطبري عن ابن مسعود : « بتُّ الليلة أقرأ على الجنِّ واقفاً بالحجون » .

ومما قرأه عليهم ـ ﷺ ـ سورة الرحمن ، يقول ﷺ : « لقد قرأتها (يعني سورة الرحمن) على الجنِّ ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » رواه البزار والحاكم وابن جرير بإسناد صحيح (الجامع الصحيح ١ / ٣٠) .

ولم تكن تلك الليلة هي الليلة الوحيدة بل تكرر لقاؤه ـ ﷺ ـ بالجنّ بعد ذلك ، وقد ساق ابن كثير في تفسير سورة الأحقاف ـ الأحاديث التي وردت بشأن اجتماعه ﷺ بالجن ، وفي بعضها أن ابن مسعود كان قريباً من الرسول ـ ﷺ ـ في إحدى تلك الليالي .

ـ وقد ورد في بعض الروايات في صحيح البخاري أن بعض الجن الذين أتوه كانوا من ناحية من نواحي اليمن من مكان يسمى (نصيبين) ، فقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « أتاني وفد نصيبين ـ ونعم الجن ـ فسألوني الزاد ، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طعاماً » .

دعوتهم للإنس :

وفي بعض الأحاديث الصحاح أنَّ بعض الجن كان له دور في هداية الإنس ، ففي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب سأل رجلا كان كاهناً في الجاهلية عن أعجب ما جاءته به جنيته . قال : « بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع فقالت :

ألم تــر الجــنَّ وإبْلاسهـــا ويَأْسهـــا بعــد إنْكاسهـــا
ولحقوها بالقلاص وأحْلاسها[1]

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ صدق ، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل ، فذبحه ، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : يا جليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله ، قال : فوثب القوم ، فقلت : لا أبرح حتى أعلم علم ما وراء هذا ، ثم نادى : يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله ، فقمت فما نشبنا أن قيل هذا نبي » .

قال ابن كثير في تفسير سورة الأحقاف بعد أن ساق هذا الحديث : « هذا سياق البخاري ، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب بنحوه ، ثم قال : وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر ـ رضي الله عنه ـ بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح ، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضي الله عنه ، وسائر الروايات تدل على أن الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه ، والله أعلم ، ثم قال : وهذا الرجل (الكاهن) هو سواد بن قارب » .

أمرهم بالخير وشهادتهم للمسلم :

سيأتي الحديث الذي يخبر فيه الرسول ـ ﷺ ـ بأن قرينه من الجن أسلم

---

(١) الإبلاس : اليأس ، والحزن ، والانكسار . والأنكاس : الضعف ، والهوان ؛ والقلاص : جمع قلوص ، وهي الناقة الشابة ، والحلس : ما يوضع فوق ظهر الدابة كالسرج .

فلا يأمره إلا بخير .

وقد قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه لأبي صعصعة الأنصاري : (إني أراك تحب البادية والغنم ، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنّه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة) ، قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ (رواه البخاري) . فقد أخبر أن الجن يشهدون يوم القيامة لمن يسمعون صوت أذانه .

مراتبهم في الصلاح والفساد :

وهم في هذا طوائف : فنهم الكامل في الاستقامة والطيبة وعمل الخير ، ومنهم من هو دون ذلك ، ومنهم البله المغفلون ، ومنهم الكفرة ، وهم الكثرة الكاثرة ، يقول الله سبحانه في حكايته عن الجن الذين استمعوا إلى القرآن : (وأنا منّا الصالحون ومنّا دون ذلك كنّا طرائق قِدَدا) (سورة الجن / ١١) ، أي منهم الكاملون في الصلاح ؛ ومنهم أقل صلاحاً ، فهم مذاهب مختلفة كما هو حال البشر .

ويقول الله عنهم : (وأنا منا المسلمون ، ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ، وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطبـاً) (سورة الجن ١٤ ـ ١٥) ، أي أن منهم المسلمين ، والظالمين أنفسهم بالكفر ، فمن أسلم منهم فقد قصد الهدى بعمله ، ومن ظلم نفسه فهو حطب جهنم .

طبيعة الشيطان :

أعطى الله الجن القدرة على الإيمان والكفر ، ولذلك كان الشيطان عابداً مع الملائكة ثم كفر .

فلما تحول إلى الكفر ورضي به أصبح محباً للشر طالباً له ، يتلذذ بفعله والدعوة إليه ، ويحرص عليه بمقتضى خبث نفسه ، وإن كان موجباً لعذابه .

(قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين) . (سورة ص/ ٨٢ ، ٨٣) .

وهذا يكون في الإنسان ، فالإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهي ما يضره ، ويلتذ به ، بل يعشق ذلك عشقاً يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله ، وحسبك أن تتأمل في حال شارب الخمر والدخان ، فإن هذين يقتلان شاربيهما ، ويفتكان بهما ، ولا يستطيعان منهما خلاصاً إلا بشق الأنفس .

هل يسلم الشيطان ؟

يظهر من الحديث[1] أن الشيطان يمكن أن يسلم بدليل أن شيطان الرسول ـ ﷺ ـ أسلم ، إلا أن بعض العلماء يرفض ذلك ويقول الشيطان لا يكون مؤمناً ، منهم شارح الطحاوية (ص ٤٣٩) ووجه قوله : (فأسلم) أي فانقاد واستسلم .

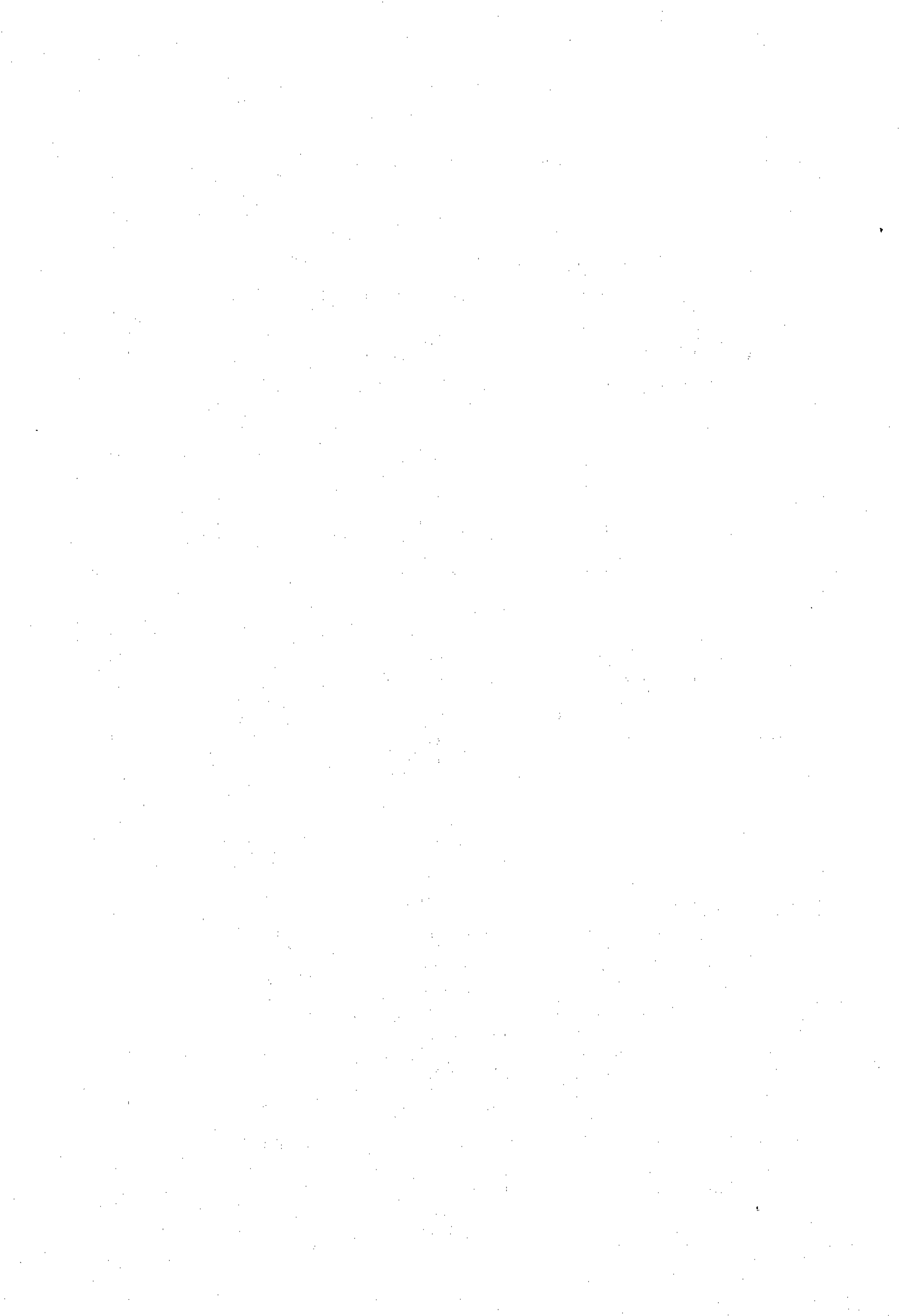
وبعض العلماء يرى أن الرواية (فأسلمُ) برفع الميم ، أي فأنا أسلمُ منه ، ومع أن شارح الطحاوية يرى أنّ رواية الرفع تحريف للفظ إلا أن النووي في شرحه على مسلم قال : « هما روايتان مشهورتان » وعزى إلى الخطابي أنّه رجح رواية الضم .

وممن يرى أن الشيطان يمكن أن يسلم ابن حبان ، قال معلقاً على الحديث : (في هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ـ ﷺ ـ أسلم حتى أنّه لم يكن يأمره إلا بخير ، إلا أنّه كان يسلم منه وإن كان كافراً) .

وما ذهب إليه شارح الطحاوية من أنَّ الشيطان لا يكون إلا كافراً فيه نظر ، فإن كان يرى أن الشيطان لا يطلق إلا على كافر الجن فهذا صحيح ، وإن كان يرى أن الشيطان لا يمكن أن يتحول إلى الإسلام فهو بعيد جدّاً ، والحديث حجّة عليه .

---

(١) سيأتي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يخبر فيه أن الله أعانه على شيطانه فأسلم فلا يأمره إلا بخير ، انظر ص (٦٥)



الفَصلُ الثَالِث

العداء بين الانسان والشيطان



أسباب العداء وتاريخه وشدّة هذا العداء :

العداء بين الإنسان والشيطان عداء بعيد الجذور ، يعود تاريخه إلى اليوم الذي شكل الله فيه آدم قبل أن ينفخ فيه الروح ، فأخذ الشيطان يطيف به ، ويقول : لئن سلطت عليَّ لأعصينك ، ولئن سلطت عليك لأهلكنك .

ففي صحيح مسلم عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال : « لما صوَّر الله آدم في الجنة ، تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يُطيف به ، ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتماسك » .

فلما نفخ الله في آدم الروح ، وأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وكان إبليس يتعبد الله مع ملائكة السماء فشمله الأمر ، ولكنه تعاظم في نفسه واستكبر ، وأبى السجود لآدم : (قال أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين)

لقد فتح أبونا آدم عينيه ، فإذا به يجد أعظم تكريم ، يجد الملائكة ساجدين له ، ولكنَّه يجد عدواً رهيباً يتهدده وذريته بالهلاك والإضلال .

وطرد الله الشيطان من جنة الخلد بسبب استكباره ، وحصل على وعد من الله بإبقائه حيّا إلى يوم القيامة : (قال فأنظرني إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين) (سورة الأعراف / ١٤ ـ ١٥) وقد قطع اللعين على نفسه عهداً بإضلال بني آدم والكيد لهم : (قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم ، ثمَّ لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين) (سورة الأعراف / ١٦ ـ ١٧) . وقوله هذا يصور مدى الجهد الذي يبذله لإضلال ابن آدم ، فهو يأتيه من كل طريق ممكن ، عن اليمين والشمال ، ومن الأمام والخلف ، أي من جميع الجهات قال الزمخشري :

في تفسير هذه الآية : « ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب ، وهذا مثل لوسوسته إليهم ، وتسويله لهم ما أمكنه وقدر عليه ، كقوله : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجِلك) . (سورة الإسراء / ٦٤) .

تحذير الله لنا من الشيطان :

وقد أطال القرآن في تحذيرنا من الشيطان لعظيم فتنته ، ومهارته في الإضلال ، ودأبه وحرصه على ذلك . قال تعالى : (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ...) (سورة الأعراف / ٢٧) .

وقال : (إن الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدواً) (سورة فاطر / ٦) وقال : (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً) (سورة النساء / ١١٩) .

وعداوة الشيطان لا تحول ولا تزول ؛ لأنَّه يرى أنَّ طرده ولعنه وإخراجه من الجنة كان بسبب أبينا آدم ، فلا بدَّ أن ينتقم من آدم وذريته من بعده : (قال : أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته ، إلا قليلاً) (سورة الإسراء / ٦٢) .

وأرباب السلوك وعلماء الأخلاق اعتنوا بذكر النفس وعيوبها وآفاتها وقصَّروا في التعرف على عدوهم اللدود ، مع أنّ الله حذرنا منه كثيراً ، وأمرنا بالاستعاذة منه ، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد ، وإنّما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله ﷺ : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا » .

أهداف الشيطان

الهدف البعيد :

هناك هدف وحيد يسعى الشيطان لتحقيقه في نهاية الأمر ، هو أن يلقي الإنسان في الجحيم ، ويحرمه من الجنّة ، (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) (سورة فاطر / ٦)

الأهداف القريبة

ذلك هو هدف الشيطان البعيد ، أمّا الأهداف القريبة فهي :

١ ـ إيقاع العباد في الشرك والكفر :

وذلك بدعوتهم إلى عبادة غير الله والكفر بالله وشريعته : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر ، قال : إني بريء منك) (سورة الحشر / ١٦) .

وروى مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار أن النبي ـ ﷺ ـ خطب ذات يوم ، فقال في خطبته : (يا أيها الناس ، إن الله تعالى أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علّمني في يومي هذا ، إن كل مامنحته عبدي فهو له حلال . وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، فأتتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً) .

٢ ـ إذا لم يستطع تكفيرهم فيوقعهم في الذنوب :

فإذا لم يستطع إيقاعهم في الشرك والكفر ، فإنه لا ييئس ، ويرضى بما دون ذلك من إيقاعهم في الذنوب والمعاصي ، وغرس العداوة والبغضاء في صفوفهم ، ففي سنن الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن (ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً ، ولكن ستكون له طاعة في بعض ما

تحقرون من أعمالكم ، فيرضى بها) . وفي صحيح البخاري وغيره : « إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم » . أي بإيقاع العداوة والبغضاء بينهم ، وإغراء بعضهم ببعض ، كما قال تعالى : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟) . (سورة المائدة / ٩١)

وهو يأمر بكل شر (إنما يأمُركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) ، (سورة البقرة / ١٦٩) .

وخلاصة الأمر فكل عبادة محبوبة لله فهي بغيضة إلى الشيطان ، وكل معصية مكروهة للرحمن فهي محبوبة للشيطان .

٣ ـ صدّه العباد عن طاعة الله :

وهو لا يكتفي بدعوة الناس إلى الكفر والذنوب والمعاصي بل يصدهم عن فعل الخير ، فلا يترك سبيلاً من سبل الخير يسلكه عبد من عباد الله إلا قعد فيه ، يصدُّهم ويميل بهم ، ففي الحديث : (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ؟ ! فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة ، فقال : تهاجر وتدع أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول ، (الطول: الحبل الطويل ، يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره ، والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ، ويرعى ولا يذهب لوجهه) . فعصاه فهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال : تجاهد فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ ! فعصاه فجاهد ، فمن فعل ذلك كان حقّا على الله أن يدخله الجنّة ، ومن قتل كان حقّا على الله أن يدخله الجنّة ،

وإن غرق كان حقّا على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقصته دابته كان حقّا على الله أن يدخله الجنة) .

رواه أحمد والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح (صحيح الجامع ٢ / ٧٢)
ومصداق ذلك في كتاب الله ما حكاه الله عن الشيطان أنه قال لرب العزة :
(فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم ، ثمَّ لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد اكثرهم شاكرين) (سورة الأعراف / ١٦ ، ١٧) .

وقوله (لأقعدن لهم صراطك) : أي على صراطك ، فهو منصوب بنزع الخافض أو هو منصوب بفعل مضمر ، أي لألزمنّ صراطك ، أو لأرصدَنّه ، أو لأعوجنه .

وعبارات السلف في تفسير الصراط متقاربة ، فقد فسره ابن عباس بأنه الدين الواضح ، وابن مسعود بأنه كتاب الله ، وقال جابر : هو الإسلام ، وقال مجاهد : هو الحق .

فالشيطان لا يدع سبيلاً من سبل الخير إلا قعد فيه يصد الناس عنه .

٤ ـ إفساد الطاعات :

إذا لم يستطع الشيطان أن يصدهم عن الطاعات ، فإنه يجتهد في افساد العبادة والطاعة ، كي يحرمهم الأجر والثواب ، فقد جاء أحد الصحابة إلى الرسول ـ ﷺ ـ يقول له : إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي ، يلبسها عليَّ .

فقال رسول الله ﷺ : « ذلك شيطان يقال له : خِنْزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه . واتفل على يسارك ثلاثا » . قال : ففعلت ذلك ، فأذهبه الله عني رواه مسلم في صحيحه .

فإذا دخل العبد في صلاته أجلب عليه الشيطان يوسوس له ويشغله عن

طاعة الله ويذكره بأمور الدنيا ، ففي صحيح مسلم ـ أن الرسول ﷺ ـ قال : « إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ، أحال له ضراط ، حتى لا يسمع صوته ، فاذا سكت رجع فوسوس ، فإذا سمع الاقامة ، ذهب حتى لا يسمع صوته ، فإذا سكت رجع فوسوس » رواه مسلم .

وفي رواية : « فإذا قضى التثويب أقبل ، حتى يخطر بين المرء ونفسه ، يقول له : اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر من قبل حتى يظلّ الرجل ما يدري كم صلى » رواه البخاري ومسلم .

كل مخالفة للرحمن فهي طاعة للشيطان :

يقول تعالى : (إن يدعون من دونه إلا اناثاً ، وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ، لعنه الله ، وقال : لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً) . (سورة النساء ۱۱۷ ـ ۱۱۸) . فكل من عبد غير الله من صنم أو وثن أو شمس وقمر أو هوى أو إنسان أو مبدأ فهو عابد للشيطان ، رضي أم أبى ؛ لأن الشيطان هو الآمر بذلك والمرغب فيه ، ولذلك فإن عباد الملائكة يعبدون الشيطان في الحقيقة (ويوم يحشرهم جميعاً ، ثم يَقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) (سورة سبأ / ٤٠ ـ ٤١) يعني أن الملائكة لم تأمرهم بذلك ، وإنما أمرتهم بذلك الجن ، ليكونوا عابدين للشياطين الذين يتمثلون لهم ، كما يكون للأصنام شياطين .

الخلاصة :

والشيء الذي نخلص إليه أن الشيطان يأمر بكل شرٍّ ، ويحث عليه ، وينهي عن كلِّ خير ، ويخوف منه ؛ كي يرتكب الأول ، ويترك الثاني . كما قال تعالى : (الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً) . (سورة البقرة / ٢٦٨) . وتخويفه إيانا الفقر بأن يقول :

إن أنفقتم أموالكم افتقرتم ، والفحشاء التي يأمرنا بها : هي كل فعلة فاحشة خبيثة من البخل والزنا وغير ذلك .

٥ ـ الايذاء البدني والنفسي :

كما يهدف الشيطان إلى إضلال الإنسان بالكفر والذنوب ، فإنه يهدف إلى ايذاء المسلم في بدنه ونفسه ، ونحن نسوق بعض ما نعرفه من هذا الإيذاء

أ ـ مهاجمة الرسول ﷺ :

سيأتي الحديث الذي يخبر فيه الرسول ـ ﷺ ـ بمهاجمة الشيطان له ، ومجيء الشيطان بشهاب من نار ليرميه في وجه الرسول ﷺ .

ب ـ الحلم من الشيطان .

للشيطان القدرة أن يري الإنسان في منامه أحلاماً تزعجه وتضايقه بهدف إحزانه وإيلامه .

فقد أخبر الرسول ـ ﷺ ـ أن الرؤى التي يراها المرء في منامه ثلاثة : رؤيا من الرحمن ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا حديث نفس (صحيح الجامع ٣ / ١٨٤ ، ١٨٥) وفي صحيح البخاري أن الرسول ﷺ قال : (إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها ، فإنما هي من الله ، فليحمد الله عليها ، وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هي من الشيطان ، فليستعذ بالله ، ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره) .

جـ ـ إحراق المنازل بالنار :

وذلك بواسطة بعض الحيوانات التي يغريها بذلك ، ففي سنن أبي داود وصحيح ابن حبان بإسناد صحيح أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « إذا نمتم فأطفئوا سُرُجكم ، فإن الشيطان يدلُّ مثل هذه (الفأرة) على هذا (السراج) فيحرقكم » .

د ـ تخبط الشيطان للإنسان عند الموت :

وقد كان الرسول ـ ﷺ ـ يستعيذ من ذلك فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من التردي ، والهدم ، والغرق ، والحرق ، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً ، وأعوذ بك من الموت لديغاً » رواه النسائي والحاكم بإسناد صحيح ، (صحيح الجامع ١ / ٤٠٥) .

هـ ـ إيذاؤه الوليد حين يولد :

يقول الرسول ـ ﷺ ـ : « كل بني آدم يمسُّه الشيطان يوم ولدته أمُّه إلا مريم وابنها » ، رواه مسلم ، (صحيح الجامع ٤ / ١٧١) . وفي صحيح البخاري : « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ، ذهب يطعن ، فطعن في الحجاب » . وفي البخاري أيضاً : « ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان ، غير مريم وابنها » . والسبب في حماية مريم وابنها من الشيطان استجابة الله دعاء أم مريم حين ولدتها : « وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » (سورة آل عمران / ٣٦) .

فلما كانت صادقة في طلبها استجاب الله لها فأجار مريم وابنها من الشيطان الرجيم ، وممن أجاره الله أيضاً عمار بن ياسر ، ففي صحيح البخاري أن أبا الدرداء قال : أفيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ، قال المغيرة : الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه يعني عماراً .

و ـ مرض الطاعون من الجن :

أخبر الرسول ـ ﷺ ـ أن « فناء أمته بالطعن والطاعون ؛ وخز أعدائكم من الجنّ ، وفي كل شهادة » ، رواه أحمد والطبراني باسناد صحيح (صحيح الجامع ٤ / ٩٠) .

وفي مستدرك الحاكم « الطاعون وخز أعدائكم من الجن ، وهو لكم شهادة » .

ولعلَّ ما أصاب نبيّ الله أيوب كان بسبب الجن كما قال : « واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه أنّي مسَّني الشيطان بِنُصْبٍ وعذاب » ، (سورة ص / ٤١) .

ز ـ بعض الأمراض الأخرى :

قال ﷺ للمرأة المستحاضة : « إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان » ، رواه الأربعة باسناد حسن (صحيح الجامع ٣ / ١٩٦) .

ح ـ مشاركته لبني آدم في طعامهم وشرابهم ومساكنهم :

ومن الأذى الذي يجلبه الشيطان للإنسان أنه يعتدي على طعامه وشرابه فيشركه فيهما ، ويشركه في المبيت في منزله ، يكون ذلك منه إذا خالف العبد هدى الرحمن ، أو غفل عن ذكره ، أمّا إذا كان ملتزماً بالهدى الذي هدانا الله إليه ، لا يغفل عن ذكر الله ، فإن الشيطان لا يجد سبيلاً إلى أموالنا وبيوتنا . فالشيطان لا يستحل الطعام إلا إذا تناول منه أحد بدون أن يسمي ، فإذا ذكر اسم الله عليه ، فإنَّه يحرم على الشيطان ، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة ، قال : كنا إذا حضرنا مع النبي ـ ﷺ ـ طعاماً لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ـ ﷺ ـ فيضع يده ، وإنّا حضرنا معه مرة طعاماً . فجاءت جارية كأنها تدفع ، فذهبت لتضع يدها في الطعام ، فأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ بيدها ، ثم جاء أعرابي كأنما يدفع فأخذ بيده . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن الشيطان ليستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه ، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها ، فأخذت بيدها ، فجاء بهذا الأعرابي ليستحل به ، فأخذت بيده ، والذي نفسي بيده إن يده في يدي مع يدها » .

وقد أمرنا الرسول ـ ﷺ ـ أن نحفظ أموالنا من الشيطان وذلك بإغلاق

الأبواب ، وتخمير الآنية ، وذكر اسم الله ؛ فإن ذلك حرز لها من الشيطان ، يقول ﷺ : « أغلقوا الأبواب ، واذكروا اسم الله ، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، وأوكوا قربكم ، واذكروا اسم الله ، وخمروا آنيتكم ، واذكروا اسم الله ، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً ، واطفئوا مصابيحكم » رواه مسلم .

ويأكل الشيطان ويشرب مع الإنسان إذا أكل أو شرب بشماله ، وكذلك إذا شرب واقفاً ، ففي مسند أحمد عن عائشة عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « من أكل بشماله أكل معه الشيطان ، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان » .

وفي المسند أيضاً عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ رأى رجلا يشرب قائماً ، فقال له : « قه » ، قال : لم ؟ قال : « أيسرك أن يشرب معك الهر ؟ » قال : لا ، قال : « فإنه قد شرب معك من هو شرٌّ منه الشيطان » .

وكي تطرد الشياطين من المنزل لا تنسى أن تذكر اسم الله عند دخول المنزل ، وقد أرشدنا الرسول ـ ﷺ ـ لذلك ، حيث يقول : « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء هنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال : أدركتم المبيت ، وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء) .

ط ـ مس الشيطان للإنسان (الصرع) :

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٢٤ / ٢٧٦) : « دخول الجن في بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة ، قال الله تعالى : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) ، (سورة البقرة / ٢٧٥) وفي الصحيح عن النبي ـ ﷺ ـ : (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) .

وقال عبد الله بن الامام أحمد بن حنبل : « قلت لأبي : إن أقواماً يقولون :

إن الجن لا يدخل في بدن المصروع ، فقال : يا بني يكذبون ، هذا يتكلم على لسانه » .

يقول ابن تيمية : « هذا الذي قاله مشهور ، فإنّه يصرع الرجل فيتكلم بلسان لا يعرف معناه ، ويُضْرب على بدنه ضرباً عظيماً لو ضرب به جمل لأثر به أثراً عظيماً ، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب ، ولا بالكلام الذي يقوله ، وقد يَجُرُّ المصروع ، وغير المصروع ، ويجر البساط الذي يجلس عليه ، ويحول الآلات ... ويجري غير ذلك من الأمور من شاهدها أفادته علماً ضرورياً ، بأن الناطق على لسان الإنس ، والمحرك لهذه الأجسام جنس آخر غير الإنسان . »

ويقول رحمه الله : « وليس في أئمة المسلمين من ينكر دخول الجن في بدن المصروع وغيره ، ومن أنكر ذلك وادعى أن الشرع يكذب ذلك ، فقد كذب على الشرع ، وليس في الأدلة الشرعية ما ينفي ذلك » .

وذكر في (ج ١٩ / ١٢) أن ممن أنكر دخول الجن بدن المصروع طائفة من المعتزلة كالجبائي وأبي بكر الرازي .

وسنحاول أن نلقي مزيداً من الضوء على هذا الموضوع في الفصل الخامس .

قائد المعركة

إبليس هو الذي يخطط للمعركة مع بني الإنسان ويقودها ، ومن قاعدته يرسل البعوث والسرايا في الاتجاهات المختلفة ، ويعقد مجالس يناقش جنوده وجيوشه فيما صنعته ، ويثني على الذين أحسنوا وأجادوا في الاضلال وفتنة الناس . روى الامام مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه عن النبي – ﷺ – قال : « إن الشيطان يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : ما زلت

بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً ، ويجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، قال : فيقربه ويدنيه ، ويقول : نعم أنتْ » .

وفي مسند الامام أحمد قال الرسول - ﷺ - لابن صائد (وكان يشك - ﷺ - أنّه الدجال) : « ما ترى » ؟ قال : أرى عرشاً على البحر حوله الحيات ، فقال رسول الله - ﷺ - : « صدق ذاك عرش إبليس » .

والشيطان له خبرة طويلة مديدة في مجال الاضلال ، ولذلك فإنّه يجيد وضع خططه ، ونصب مصياده وأحابيله ، فهو لم يزل حيّا يضل الناس منذ وجد الإنسان إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة : « قال : رب ، فأنظرني إلى يوم يبعثون ، قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » (سورة الحجر / ٣٦ - ٣٨) وهو دؤوب على القيام بالشر الذي نذر نفسه له ، لا يكل ولا يمل ، ففي الحديث : « إن الشيطان قال : وعزتك وجلالك لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » رواه أحمد والحاكم بإسناد حسن (صحيح الجامع ٢/ ٧٢) .

الجنود :

وله فريقان من الجنود : فريق من الجان ، وفريق من بني الإنسان .

جنوده من الجن :

الشيطان له جنود وأعوان من الجن ، وقد سبق ذكر حديث ارساله سراياه ، وفي القرآن : « واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورَجِلك ... » (سورة الاسراء / ٦٤) فله جنود يهاجمون راكبين راجلين ، يرسلهم على العباد يحركونهم إلى الشر تحريكاً (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّا) (سورة مريم / ٨٣) .

لكل إنسان قرين :

كل إنسان يلازمه شيطان لا يفارقه كما في حديث عائشة عند مسلم قالت : « خرج النبي - ﷺ - من عندي ليلا ، فغرت عليه ، فجاء ، فرأى ما أصنع ، فقال ما لك يا عائشة : أغرت ؟ قلت : وما لي لا يغار مثلي على مثلك ؟ فقال : أقد جاءك شيطانك ؟ قلت : يا رسول الله ، أو معي شيطان ؟ قال : نعم ، قلت : ومع كل إنسان شيطان ؟ قال : نعم ، قلت: ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم » .

وروى مسلم والامام أحمد عن عبدالله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياي لكن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » .

وفي القرآن (ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) ، (سورة الزخرف / ٣٦) كما قال في الآية الأخرى : (وقيضنا لهم قرناء ، فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) (سورة فصلت / ٢٥) .

أولياؤه من الإنس :

الشيطان العدو الأول للإنسان الذي يسعى في إهلاكه ، ومع ذلك فإن غالبية البشر اتخذوه وليّا ، يسيرون على خطاه ، ويرضون بفكره ، وما أقبح هذا بالإنسان العاقل أن يتخذ عدوه وليّا (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا) (سورة الكهف / ٥٠) .

ولقد خسروا باتخاذه ولياً خسراناً مبيناً : « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً » (سورة النساء / ١١٩) خسروا لأن الشيطان سيدسّي نفوسهم ويفسدها ، ويحرمهم من نعمة الهداية ، ويرمي بهم في الضلالات والشبهات (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم

من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (سورة البقرة / ٢٥٧) وخسروا لأنه سيقودهم إلى النار في يوم القيامة ، (إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) (سورة فاطر / ٦) ، وهؤلاء أولياء الشيطان يتخذهم الشيطان مطية وجنوداً ينفذ بهم مخططاته وأهدافه .

كيده وخذلانه لأوليائه :

يتولى كثير من الناس الشيطان ، ولكنه يكيد لهم ويوردهم الموارد التي فيها هلاكهم وعطبهم ، ويتخلى عنهم ويسلمهم ويقف يشمت بهم ، ويضحك منهم ، فيأمرهم بالقتل والسرقة والزنا ويدلّ عليهم ويفضحهم ، فعل ذلك بالمشركين في معركة بدر عندما جاءهم في صورة سراقة بن مالك ووعدهم بالنصر والغلب (وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) (سورة الأنفال / ٤٨) فلما رأى عدو الله الملائكة نزلت لنصرة المؤمنين ، ولى هارباً وأسلمهم ، كما قال حسان بن ثابت :

دلّاهم بغُرُور ثمَّ أسلمهم ... إن الخبيث لمن والاه غرّارُ

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها ، وأمره بالزنا ثم بقتلها ، ثمَّ دل أهلها عليه ، وكشف أمره لهم ، ثمَّ أمره بالسجود له ، فلما فعل فرَّ عنه وتركه ، كما سيأتي بيانه .

وفي يوم القيامة يقول لأوليائه بعد دخوله ودخولهم النار : (إني كفرت بما أشركتمون من قبل) (سورة ابراهيم / ٢٢) فأوردهم شرَّ الموارد ثمَّ تبرأ منهم كل البراءة .

وستأتي قصة ذلك الذي يدعي أنّه عالم روحاني ، وكيف تخلت عنه الشياطين بعد أن بلغ مبلغاً كبيراً من الشهرة ، فأصبح حائراً ذليلا لا يدري ما يفعل .

الشيطان يجند أولياءَه لخدمته ومحاربة المؤمنين :

الناس فريقان : أولياء للرحمن ، وأولياء للشيطان . وأولياء الشيطان هم الكَفَرَة على اختلاف مللهم ونحلهم (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) (سورة الاعراف / ٢٧) .

والشيطان يسخِّر هؤلاء لتضليل المؤمنين بما يلقونه من الشبه والشكوك (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن اطعمتوهم إنكم لمشركون) (سورة الأنعام / ١٢١) .

وما هذه الشبهات التي يقوم بها المستشرقون والصليبيون واليهود والملحدون إلا من هذا القبيل .

ويدفعهم لإيذاء المؤمنين نفسياً (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا) ، (سورة المجادلة / ١٠) . فقد كان يدفع المشركين للتناجي حين وجود المسلمين على مقربة منهم فيظن المسلم أنهم يتآمرون عليه ...

بل يدفعهم إلى حرب المسلمين وقتالهم (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (سورة النساء / ٧٦) .

وهو دائماً يخوف المؤمنين أولياءه (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (سورة آل عمران / ١٧٥) وأولياؤه جمع كبير (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ، فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) (سورة سبأ / ٢٠) .

أساليب الشيطان في إضلال الإنسان :

لا يأتي الشيطان إلى الإنسان ويقول له : اترك هذه الأمور الخيرة ، وافعل هذه الأمور السيئة ؛ كي تشقى في دنياك وأخراك ؛ لأنه لو فعل ذلك

فلن يطيعه أحد ، ولكنه يسلك سبلاً كثيرة يغرر بها بعباد الله .

١ - تزيين الباطل :

هذا هو السبيل الذي كان الشيطان ولا يزال يسلكه لاضلال العباد ، فهو يظهر الباطل في صورة الحق ، والحق في صورة الباطل ، ولا يزال بالإنسان يحسن له الباطل ، ويكرهه بالحق ، حتى يندفع إلى فعل المنكرات ويعرض عن الحق ، كما قال اللعين لرب العزة : (رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) (سورة الحجر / ٣٩ - ٤٠) .

يقول ابن القيم في هذا الصدد : « ومن مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده ، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله ، فيزين له الفعل الذي يضره حتى يخيل إليه أنّه أنفع الأشياء ، وينفر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له ، حتى يخيل له أنه يضره ، فلا إله إلا الله ، كم فتن بهذا السحر من انسان ! وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان ! وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة ، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة ! وكم بهرج من الزيوف على الناقدين ، وكم روج من الزغل على العارفين ! فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة ، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك ، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك ، وزين لهم عبادة الأصنام ، وقطيعة الأرحام ، ووأد البنات ، ونكاح الأمهات ، ووعدهم بالفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان ، وأبرز لهم الشرك في أعظم صورة التعظيم ، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس ، وحسن الخلق معهم ، والعمل بقوله (عليكم أنفسكم) (سورة المائدة / ١٠٥) والإعراض عما جاء به الرسول - ﷺ - في قالب التقليد ، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم ، والنفاق والإدهان في دين الله في قالب

العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس » (اغاثة اللهفان ١ / ١٣٠) ، وبهذا السبيل كاد إبليس اللعين آدم عليه السلام إذ زين له الأكل من الشجرة التي حرمها الله عليه ، فما زال بـه يزعم له أن هذه هي شجرة الخلد وأن الأكل منها يجعله خالداً في الجنة أو ملكاً من الملائكة حتى أطاعه ، فخرج من الجنة .

وانظر إلى أولياء الشيطان اليوم كيف يستخدمون هذا السبيل في اضلال العباد .

فهذه الدعوات إلى الشيوعية والاشتراكية .. يزعمون أنها هي المذاهب التي تخلص البشرية من الحيرة والقلق والضياع والجوع ... وهذه الدعوات التي تدعو إلى خروج المرأة كاسية عارية باسم الحرية ، وتدعو إلى هذا التمثيل السخيف الذي تداس فيه الأعراض والأخلاق وتنتهك فيه الحرمات باسم الفن .

وتلك الأفكار المسمومة التي تدعو إلى ايداع المال في البنوك بالربا لتحقيق الأرباح باسم التنمية والربح الوفير ، وتلك الدعوات التي تزعم أن التمسك بالدين رجعية وجمود وتأخر ، والتي تسم دعاة الإسلام بالجنون والعمالة لدول الشرق والغرب ... الخ .

كل ذلك امتداد لسبيل الشيطان الذي كاد به آدم منذ عهد بعيد ، وهو تزيين الباطل وتحسينه ، وتقبيح الحق وتكريه الناس به ، (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم) (سورة النحل / ٦٣) .

وهو والله سبيل خطر لأن الإنسان إذا زين له الباطل حتى رآه حسناً فإنه يندفع بكل قواه لتحقيق ما يراه حقاً وإن كان فيه هلاكه (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً) (سورة الكهف / ١٠٣ ، ١٠٤) .

وهؤلاء يندفعون لصدّ النّاس عن دين الله ومحاربة أولياء الله ، وهم

يظنون أنفسهم على الحق والهدى ، (وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) (سورة الزخرف / ٣٧)

وهذا هو السبب الذي من أجله آثر الكفار الدنيا وأعرضوا عن الآخرة كما قال تعالى : (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) (سورة فصلت / ٢٥) . فالقرناء هم الشياطين ، زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروها ، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة ، وزينوا لهم ذلك حتى أنكروا البعث والحساب والجنّة والنار .

تسمية الأمور المحرمة بأسماء محببة :

ومن تغرير الشيطان بالإنسان وتزيينه الباطل أن يسمى الأمور المحرمة التي هي معصية لله بأسماء محببة للنفوس خداعاً للإنسان وتزويراً للحقيقة ، كما سمي الشجرة المحرمة بشجرة الخلد كي يزين لآدم الأكل منها (قال يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) .

يقول ابن القيم : « ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر : أم الأفراح ، وسموا أخاها بلقمة الراحة ، وسموا الربا بالمعاملة ، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية .. » .

واليوم يسمون الربا الفائدة ، والرقص والغناء والتمثيل والتماثيل فنا .

٢ ـ الإفراط والتفريط :

يقول ابن القيم في هذه المسألة : « وما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان : إمّا تقصير وتفريط ، وإمّا افراط وغلوٌّ ، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين ، فإنّه يأتي إلى قلب العبد فيشامّه ، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطة ، فثبطه وأقعده ، وضربه بالكسل والتواني والفتور ، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك ، حتى

ربما ترك العبد المأمور جملة .

وإن وجد عنده حذراً وجدًّا ، وتشميراً ونهضة ، وأيس أن يأخذه من هذا الباب ، أمره بالاجتهاد الزائد ، وسوّل له أن هذا لا يكفيك ، وهمتك فوق هذا ، وينبغي لك أن تزيد على العاملين ، وأن لا ترقد إذا رقدوا ، ولا تفطر إذا أفطروا ، وأن لا تفتر إذا فتروا ، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات ، فاغسل أنت سبعا ، وإذا توضأ للصلاة ، فاغتسل أنت لها ، ونحو ذلك من الافراط والتعدي ، فيحمله على الغلوّ والمجاوزة ، وتعدي الصراط المستقيم ، كما يحمل الأول على التقصير دونه وألا يقربه ، ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم : هذا بألا يقربه ولا يدنو منه ، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه ، وقد فتن بهذا أكثر الخلق ، ولا ينجى من ذلك إلا علم راسخ ، وإيمان وقوة على محاربته ولزوم الوسط والله المستعان » (الوابل الصيب ص ١٩) .

٣ ـ تثبيطه العباد عن العمل ورميهم بالتسويف والكسل :

وله في ذلك أساليب وطرق ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « يعقد الشيطانُ على قافية رأس أحدكم (القافية : مؤخر الرأس) إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

وفي البخاري ومسلم : (إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ ، فليستنثر ثلاثا ، فإنَّ الشيطان يبيت على خيشومه) .

وسئل الرسول ـ ﷺ ـ عن رجل نام ليلة حتى أصبح ، فقال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه » رواه البخاري .

وهذا الذي ذكرناه تكسيل وتثبيط من الشيطان بفعله ، وقد يثبط الإنسان بالوسوسة وسبيله في ذلك أن يحبب للإنسان الكسل ويسوف العمل ويسند الأمر إلى طول الأمل ، يقول ابن الجوزي في هذا : «كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حب الإسلام ، فلا يزال إبليس يثبطه ، ويقول : لا تعجل وتمهل في النظر ، فيسوفه حتى يموت على كفره ، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة فيعجل له غرضه من الشهوات ، ويمنيه الانابة كما قال الشاعر :

لا تعجل الذنـــب لمـــا تشتهـــي   وتأمـــل التوبـــة مـــن قابـــل

وكم من عازم على الجدّ سوفه ! وكم ساع إلى مقام فضيلة ثبطه ! فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه ، فقال : استرح ساعة ، أو انتبه العابد في الليل يصلي ، فقال له : عليك وقت ، ولا يزال يحبب الكسل ، ويسوف العمل ، ويسند الأمر إلى طول الأمل.

فينبغي للحازم أن يعمل على الحزم ، والحزم تدارك الوقت ، وترك التسويف ، والاعراض عن الأمل ، فإنَّ المخوف لا يؤمن ، والفوات لا يبعث ، وسبب كل تقصير ، أو ميل إلى شرّ طول الأمل ، فإنَّ الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشرِّ ، والاقبال على الخير ، إلا أنَّه يعد نفسه بذلك ، ولا ريب أنَّه من أمَّل أن يمشي بالنهار سار سيراً فاتراً . ومن أمَّل أن يصبح عمل في الليل عملا ضعيفاً ، ومن صور الموت عاجلاً جدَّ ... ، وقال بعض السلف : أنذركم (سوف) ، فإنها أكبر جنود إبليس ، ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل ، كمثل قوم في سفر فدخلوا قرية ، فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره ، وجلس متأهباً للرحيل ، وقال المفرط : سأتأهب فربما أقمنا شهراً ، فضرب بوق الرحيل في الحال ، فاغتبط المحترز (المتوفي الحازم) وتحير الأسف المفرط ، فهذا مثل الناس في الدنيا منهم المستعد المستيقظ ، فإذا جاء ملك الموت لم يندم ، ومنهم المغرور المسوف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة ، فإذا كان في الطبع حب التواني

وطول الأمل ، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى ما في الطبع صعبت المجاهدة ، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب ، وأن عدوه لا يفتر عنه ، فإن فتر في الظاهر بطَّن له مكيدة وأقام له كميناً » (تلبيس إبليس / ٤٥٨) .

٤ ـ الوعد والتمنية :

وهو يعد الناس بالمواعيد الكاذبة ويعللهم بالأماني المعسولة ؛ كي يوقعهم في وهدة الضلال : (يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) (سورة النساء / ١٢٠) .

يعد الكفرة في قتالهم المؤمنين بالنصر والتمكين والعزة والغلبة ، ثمَّ يتخلى عنهم ويولي هارباً : (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم) (سورة الأنفال / ٤٨) .

ويعد الأغنياء الكفرة بالثروة والمال في الآخرة بعد الدنيا ، فيقول قائلهم : (ولئن رددت إلى ربِّي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً) (سورة الكهف / ٣٦) ، فيدمر الله جنته في الدنيا فيعلم أنّه كان مغروراً مخدوعا .

ويشغل الإنسان بالأماني المعسولة التي لا وجود لها في واقع الحياة ، فيصده عن العمل الجاد المثمر ، ويرضى بالتخيل والتمني وهو لا يفعل شيئاً .

٥ ـ اظهار النصح للإنسان :

يدعو الشيطان المرء إلى المعصية يزعم أنه ينصح له ويريد خيره ، وقد أقسم لأبينا على أنه ناصح له (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) (سورة الأعراف / ٢١) .

وقد روى وهب بن منبه هذه القصة الطريفة عن أهل الكتاب [1] . نسوقها لنعلم أسلوباً من أساليب الشيطان في اضلاله العباد ، وكي نحذر نصحه ، ونخالفه فيما يدعونا إليه .

يقول وهب : « إن عابداً كان في بني اسرائيل ، وكان من أعبد أهل زمانه ، وكان في زمانه ثلاثة اخوة لهم أخت ، وكانت بكراً ليس لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم ، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ، ولا من يأمنون عليها ، ولا عند من يضعونها ، قال : فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل ، وكان ثقة في أنفسهم ، فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده ، فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم ، فأبى ذلك عليهم ، وتعوذ بالله منهم ومن أختهم ، قال : فلم يزالوا به حتى أطاعهم . فقال : أنزلوها في بيت حذاء صومعتي . قال : فأنزلوها في ذلك البيت . ثم انطلقوا وتركوها ، فمكث في جوار ذلك العابد زماناً ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه ويصعد إلى الصومعة ، ثمَّ يأمرها فتخرج من بيتها ، فتأخذ ما وضع لها من الطعام ، قال : فتلطف له الشيطان ، فلم يزل يرغبه في الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً ، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها ، فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم أجراً .

قال فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ، ووضعه على باب بيتها ولم يكلمها ، قال : فلبث على هذه الحالة زماناً ، ثمَّ جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه ، وقال لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك . فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثمَّ وضعه في بيتها ، فلبث على ذلك زماناً .

---

(١) هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لا تصدق ولا تكذب ويجوز التحديث بها يقول الرسول ﷺ : « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » .

ثم جاءه إبليس فرغّبه في الخير وحضه عليه ، فقال : لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة ، فلم يزل به حتى حدثها زماناً يطلع إليها من فوق صومعته .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك ، فقال : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها ، وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها . فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه ، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها . فلبثا زماناً يتحدثان .

ثمَّ جاءه إبليس فرغبه في الأجر والثواب فيما يصنع بها ، وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثمَّ جلست قريباً من بيتها فحدثتها كان آنس لها . فلم يزل به حتى فعل . فلبثا زماناً على ذلك . ثم جاءه إبليس ، فقال : لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك ، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله ، فإذا مضى النهار صعد صومعته .

ثمَّ أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها . فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها ، فأحبلها فولدت له غلاماً ، فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء اخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع ؟ لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك ، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة اخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل ، فقال له : أتراها تكتم اخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها ، خذها واذبحها وادفنها مع ابنها ، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها ، وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوى عليهما ، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، حتى أقبل إخوتها من الغزو ، فجاؤوا فسألوه عنها فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها . وقال : كانت خير امرأة ، وهذا قبرها ، فانظروا إليه . فأتى إخوتها القبر . فبكوا أختهم وترحموا

عليها فأقاموا على قبرها أياما ، ثمَّ انصرفوا إلى أهاليهم . فلما جنَّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم ، جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر ، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم ، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها فأكذبه الشيطان . وقال : لم يصدقكم أمر أختكم إنه قد أحبل اختكم وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم ، وألقاهما في حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله ، فانطلقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعاً . وأتى الأوسط في منامه فقال مثل ذلك . ثمَّ أتى أصغرهم ، فقال له مثل ذلك . فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم ، فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم : لقد رأيت الليلة عجباً ، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى .

فقال كبيرهم : هذا حلم ليس بشيء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم ، قال أصغرهم : والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فأنظر فيه . قال : فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم ، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة ، كما قيل لهم ، فسألوا عنها العابد فصدَّق قول إبليس فيما صنع بهما . فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدّم ليصلب ، فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان ، فقال له : قد علمت أني أنا صاحبك الذي فتنتك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها ، فإن أنت أطعتني اليوم ، وكفرت بالله الذي خلقك وصوّرك خلصتك مما أنت فيه ، فكفر العابد ، فلما كفر بالله تعالى ، خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه .

(انظر تلبيس إبليس / ٣٩)

وهذه القصة يرويها المفسرون عند قوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك) (سورة الحشر / ١٦)

ويذكرون أن المعنيَّ بالإنسان هذا العابد وأمثاله . والله أعلم .

٦ ـ التدرج في الاضلال :

ومن القصة السابقة نعلم اسلوباً من أساليب الشيطان في الاضلال ، وهو أن يسير بالإنسان خطوة خطوة ، لا يكل ولا يملّ ، كلما روّضه على معصية ما ، قاده إلى معصية أكبر منها ، حتى يوصله إلى المعصية الكبرى فيوبقه ويهلكه ، وتلك سنة الله في عباده أنهم إذا زاغوا سلط عليهم الشيطان ، وأزاغ قلوبهم (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (سورة الصف / ٥) .

٧ ـ انساؤه العبد ما فيه خيره وصلاحه :

ومن ذلك ما فعله بآدم فما زال يوسوس له حتى أنساه ما أمره به ربُّه (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً) (سورة طه/١١٥) وقال صاحب موسى لموسى : (فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) (سورة الكهف / ٦٣) .

ونهى الله رسوله أن يجلس هو أو واحد من أصحابه في المجالس التي يستهزأ فيها بآيات الله ولكن الشيطان قد ينسي الإنسان مراد ربّه منه فيجالس هؤلاء المستهزئين (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإمّا ينسينَّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) (سورة الانعام / ٦٨) .

وطلب نبيّ الله يوسف إلى السجين الذي ظنَّ بأنه سينجو من القتل ويعود لخدمة الملك أن يذكره عند مليكه فأنسى الشيطان هذا الإنسان أن يذكر لملكه نبي الله يوسف فيمكث يوسف في السجن بضع سنين (وقال للذي ظن أنّه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) (سورة يوسف / ٤٢) .

وإذا تمكَّن الشيطان من الإنسان تمكناً كلياً فإنه ينسيه الله بالكلية (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) (سورة المجادلة / ١٩) والمراد بهؤلاء المنافقون ، كما تدل عليه الآية السابقة لهذه الآية . وسبيل التذكر هو ذكر الله لأنه يطرد الشيطان (واذكر ربك إذا نسيت) (سورة الكهف / ٢٤) .

٨ ـ تخويف المؤمنين أولياءَه :

ومن وسائله أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ، ولا ينهونهم عن المنكر ، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان ، وقد أخبرنا سبحانه عنه بهذا فقال :

(إنَّما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (سورة آل عمران / ١٧٥) .

والمعنى : يخوفكم بأوليائه ، قال قتادة : « يعظمهم في صدوركم ، ولهذا قال فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان ، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم » .

٩ ـ دخوله إلى النفس من الباب الذي تحبه وتهواه :

يقول ابن القيم في هذا الموضوع (اغاثة اللهفان ١ / ١٣٢) « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ، ويسألها عمّا تحبه وتؤثره ، فإذا عرفه استعان بها على العبد ، ودخل عليه من هذا الباب ، وكذلك علَّم اخوانه وأولياءه ، من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه ، فإنّه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود ، وهو عن طريق مقصده مصدود » .

ومن ههنا دخل الشيطان على آدم وحواء كما قال تعالى : ﴿ وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ (سورة الأعراف / ٢٠) يقول ابن القيم « فشام عدو الله الأبوين ، فأحسَّ منهما ايناساً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم فعلم أنّه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب ، فقاسمهما بالله إنّه لهما لمن الناصحين ، وقال : ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ . (سورة الاعراف/٢٠) .

١٠ ـ إلقاء الشبهات :

ومن أساليبه في اضلال العباد زعزعة العقيدة بما يلقيه من شكوك وشبهات ، وقد حذرنا الرسول ـ ﷺ ـ من بعض هذه الشبهات التي يلقيها ، ففي حديث البخاري ومسلم : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته » . ولم يسلم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من شبهاته وشكوكه ، وجاء بعضهم إلى الرسول ـ ﷺ ـ يَشْكون ما يعانونه من شكوكه ووساوسه ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى النبي ـ ﷺ ـ فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! قال : « أوَقَد وجدتموه ؟ » قالوا : نعم . قال : « ذلك صريح الإيمان » .

ومراد الرسول ـ ﷺ ـ بقوله « ذلك صريح الإيمان » أي دفع وسوسة الشيطان وكراهيتهم واستعظامهم لها .

وانظر إلى شدة ما كان يعانيه الصحابة من شكوكه ، روى أبو داود في سننه عن ابن عباس : أن النبي ـ ﷺ ـ جاءه رجل ، فقال : « إني أحدث نفسي بالشيء لأن أكون حممة أحبَّ إليّ من أتكلم به . قال : الحمد لله الذي ردّ أمره إلى الوسوسة » ومن جملة ما يلقيه في النفوس مشككاً ما حدثنا الله عنه في قوله :﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى

الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ، وليعلم الذين اوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قُلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » (سورة الحج / ٥٢ ـ ٥٤) .

والمراد بالتمني هنا حديث النفس ، والمراد أن النبي ـ ﷺ ـ كان إذا حدث نفسه ألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيلة ، فيقول : لو سألت الله ـ عز وجل ـ أن يغنِّمك ليتسع المسلمون ، أو يتمنى إيمان الناس جميعاً ... . فينسخ الله ما يلقيه الشيطان بوسواسه في أمنية النبي ـ ﷺ ـ وذلك بتنبيهه إلى الحق ، وتوجيهه إلى مراد الله ... وما قيل من أن مراد الآية أن الشيطان يدخل في القرآن ما ليس منه ففيه بعد ، ويرده أن الرسول ـ ﷺ ـ معصوم في التبليغ .

يقول شقيق (أحد العلماء الأعلام) : مبيناً لبعض الشبهات التي يقذفها الشيطان في نفس الإنسان : « ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد : من بين يدي ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، فيقول : لا تخف فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ : (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمَّ اهتدى) (سورة طه / ٨٢) وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه ، فأقرأ : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) ، (سورة هود / ٦) ومن قبل يميني ، يأتيني من قبل النساء ، فأقرأ : (والعاقبة للمتقين) (سورة الأعراف / ١٢٨) .

ومن قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات ، فأقرأ (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) (سورة سبأ / ٥٤) .

١١ - ١٤ - الخمر والميسر والأنصاب والأزلام :

قال تعالى : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) (سورة المائدة / ٩٠ ـ ٩١) والخمر كل ما يسكر ، والميسر القمار ، والأنصاب كل ما نصب يعبد من دون الله : من حجر ، أو شجر ، أو وثن ، أو قبر ، أو علم .

والأزلام : القداح كانوا يستقسمون بها الأمور ، أي يطلبون بها علم ما قسم لهم .

وهذه قد تكون أقداحاً أو سهاماً أو حصيات أو غير ذلك ، يكون مكتوباً على واحد منها أمرني ربي ، وعلى الآخر نهاني ربي ، فإذا شاء أحدهم زواجاً أو سفراً أو نحو ذلك أدخل يده في الشيء الذي فيه هذه القداح أو السهام ، فإن خرج الذي فيه الأمر بالفعل فعل وإن خرج الآخر ترك .

فالشيطان يحض الناس على هذه الأربع لأنها ضلال في نفسها ، وتؤدي إلى نتائج وخيمة ، وآثار سيئة ، فالخمر تفقد شاربِها عقله فإذا فقد عقله فعل الموبقات وارتكب المحرمات وترك الطاعات وآذى عباد الله ، ذكر ابن كثير في تفسيره عن عثمان بن عفان قال : « اجتنبوا الخمر ، فإنها أمُّ الخبائث ، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة غويّة ، فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة ، فدخل معها فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه ، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر ، فقالت : إني والله ما دعوتك لشهادة ولكن دعوتك لتقع عليّ ، أو تقتل هذا الغلام ، أو تشرب هذا الخمر ، فسقته كأساً ، فقال : زيدوني ، فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس ، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه » . رواه البيهقي ، وصحح ابن كثير اسناده .

وروى مسلم وأصحاب السنن أن رجلاً من الأنصار صنع طعاماً لبعض الصحابة ، ثمَّ سقاهم خمراً قبل أن ينزل تحريمها ، فلما سكروا تفاخروا ، فتعاركوا ، وأصاب سعد بن أبي وقاص من هذا العراك أذى ، فقد ضربه أحدهم بلحى بعير ، فأصاب أنفه ، فأثر فيه أثراً صاحبه طيلة حياته . وتقدم أحدُ الصحابة يصلي بالناس وهو سكران قبل نزول تحريم الخمر فقرأ : (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون) فأنزل الله : (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) ، (سورة النساء / ٤٣) .

وقد رأينا الرجل الذي بلغ من الكبر عِتِيًا عندما يشرب الخمر يتصرف تصرفات المجانين ، ويضحك منه الكبار والصغار ، ويفترش الطريق تدوسه الناس بأقدامها .

والميسر مرض خطير كالخمر إذا تأصل في نفس الإنسان صعب الشفاء منه ، وهو سبيل لضياع الوقت والمال ، والميسر ينشىء الأحقاد ، ويدفع إلى الحرام .

والشيطان يدعو إلى إقامة النصب كي تتخذ بعد ذلك آلهة تُعبد من دون الله ، وقد انتشرت عبادة الأنصاب قديماً وحديثاً والشياطين تلازم هذه الأصنام ، وتخاطب عبادها في بعض الأحيان ، وتريهم بعض الأمور التي تجعل عابديها يثقون بها ، فيقصدونها بالحاجات ، ويدعونها في الكربات ، ويستنصرون بها في الحروب ، ويقدمون لها الذبائح والهدايا ، ويرقصون حولها ويطربون ، ويقيمون لها الأعياد والاحتفالات ، وقد أضل بهذا الكثير كما قال إبراهيم داعياً ربه : (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) (سورة إبراهيم / ٣٥-٣٦) ولا تزال عبادة القبور منتشرة بين المسلمين ، يقصدونها بالدعاء والألطاف والذبائح ... وانتشرت بدعة جديدة اليوم - يضحك بها الشيطان على بني الإنسان - تلك هي نصب الجندي المجهول ، يزعمون أنه رمز الجندي المقاتل ، ويكرمونه بالهدايا

والورود والتعظيم ، وكلما زار البلاد زعيم جاء هذا النصب وقدم له هدية ، وكل هذا من عبادة الأنصاب التي هي من عمل الشيطان .

الاستقسام بالأزلام :

الأمور المستقبلية من مكنون علم الله ، ولذلك شرع لنا الرسول ـ ﷺ ـ الاستخارة إذا أردنا سفراً أو زواجاً أو غير ذلك ، نرجو من الله أن يختار لنا خير الأمور .

وأبطل الاستقسام بالأزلام فإن السهام والقداح لا تعلم أين الخير ولا تدريه ، فاستشارتها خلل في العقل ، وقصور في العلم ، ومثل ذلك زجر الطير كان من يريد سفراً إذا خرج من بيته ومرّ بطائر زجره ، فإن تيامن كان سفراً ميموناً ، وإن مرّ عن شماله كان سفراً مشئوماً ... ، وكل ذلك من الضلال .

١٥ ـ السحر :

ومما يضل به الشياطين أبناء آدم السحر ، فهم يعلمونهم هذا العلم الذي يضر ولا ينفع ، ويكون هذا العلم سبيلا للتفريق بين المرء وزوجه ، والتفريق بين الزوجين يعتبره الشيطان من أعظم الأعمال التي يقوم بها جنوده كما سبق .

قال تعالى : (وما كفر سليمان ، ولكنَّ الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة ، من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) ، (سورة البقرة / ١٠٢) .

هل للسحر حقيقة ؟

اختلف العلماء في ذلك فمن قائل : انّه تخييل لا حقيقة له ، (فإذا حبالهم

وعصيّهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) (سورة طه / ٦٦) ومن قائل أن له حقيقة كما دلت عليه آية البقرة ، والصحيح أنّه نوعان : نوع هو تخييل يعتمد على الحيل العلمية وخفة الحركة ، ونوع له حقيقة يفرق به بين المرء وزوجه ، ويؤذي به ..

سحر اليهود للرسول ﷺ :

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

« سَحَر رسولَ الله ﷺ يهوديٌّ من يهود بني زُرَيق ، يقال لـه لبيد ابن الأعصم . حتى كان رسول الله ﷺ ، يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله .

حتى إذا كان ذات يوم ، دعا رسول الله ﷺ ، ثم دعا ، ثم دعا ـ أي دعا ربه مرات ـ ثم قال :

يا عائشة أَشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ؟

(أي أجابني فيما طلبت).

جاءني رجلان ، فقعد أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجليّ .

فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي ، أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي :

ما وجع الرجل ؟

قال : مطبوب (أي مسحور)

قال : مَن طبّه ؟

قال : لبيد بن الأعصم .

قال : في أي شيء ؟

قال : في مُشط ومُشاطة ـ أي شعر سقط عند التسريح ـ وجُفّ طلعةِ

ذكر (أي غشاء الطلع)

قال : فأين هو ؟

قال : في بئر ذي أرَوان .

قالت : فأتاها رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه ، ثم قال :

يا عائشة ، والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين .

فقلت : يا رسول الله ، أفلا أحرقته ؟

قال : لا ، أمّا أنا فقد عافاني الله ، وكرهت أن أثير على الناس شراً ، فأمرت بها فدُفنت » . (رواه البخاري ومسلم) .

ولا يقال : إن السحر فيه ﷺ يوجب لبَساً في النبوة والرسالة ، لأن أثر السحر لم يتجاوز ظاهر الجسم الشريف ، فلم يصل إلى القلب والعقل . فهو كسائر الأمراض التي قد تعرض له ، والتشريع محفوظ بحفظ الله تعالى :

قال الله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له الحافظون) . (سورة الحجر / ٩) .

١٦ ـ ضعف الإنسان :

في الإنسان نقاط ضعف كثيرة ، هي في الحقيقة أمراض ، والشيطان يعمق هذه الأمراض في نفس الإنسان ، بل تصبح مداخله إلى النفس الإنسانية ومن هذه الأمراض : الضعف ، واليأس ، والقنوط ، والبطر ، والفرح ، والعجب ، والفخر ، والظلم ، والبغي ، والجحود ، والكنود ، والعجلة ، والطيش ، والسفه ، والبخل ، والشح ، والحرص ، والجدل ، والمراء ، والشك ، والريبة ، والجهل ، والغفلة ، واللدد في الخصومة ، والغرور ، والادعاء الكاذب ، والهلع ، والجزع ، والمنع ، والتمرد ، والطغيان ،

وتجاوز الحدود ، وحب المال ، والافتتان بالدنيا ، .. فالإسلام يدعو إلى اصلاح النفس ، والتخلص من أمراضها ، وهذا يحتاج إلى جهد يبذل ، ويحتاج إلى صبر على مشقات الطريق ، أمّا اتباع الهوى وما تمليه النفس الأمارة بالسوء فإنه سهل ميسور ، فالأول مثله مثل من يصعد بصخرة إلى أعلى الجبل ، ومثل الثاني كمن يدحرج صخرة من أعلى الجبل إلى أسفله ، ولذلك كانت الاستجابة للشيطان كثيرة ، وَوَجد دعاة الحق صعوبة وأي صعوبة في الدعوة إلى الله تعالى .

ونحن نسوق إليك بعض كلام السلف لنوضح كيف يستغل الشيطان نقاط الضعف في الإنسان :

ـ حكى المعتمر بن سليمان عن أبيه أنه قال : (ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينبعث في قلب ابن آدم عند الحزن والفرح ، فإذا ذكر الله خنس) (تفسير القرآن / ابن كثير ٧ / ٤٢٣) وقال وهب بن منبه : « قال راهب للشيطان وقد بدا له : أي أخلاق ابن آدم أعون لك عليهم؟ قال : الحدة (صفة تعتري الإنسان كالغضب) إن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة » (تلبيس إبليس / ٤٢) ويذكر ابن الجوزي أيضاً عن ابن عمر أن نوحاً سأل الشيطان عن الخصال التي يهلك بها الناس ، فقال : « الحسد والحرص » وليس بعيداً عنّا ما فعله الشيطان بيوسف واخوته وكيف أوغر صدور الاخوة على أخيهم ، وقد قال يوسف : (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو ، من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) (سورة يوسف / ١٠٠) .

١٧ ـ النساء وحب الدنيا :

وقد أخبرنا الرسول ـ ﷺ ـ أنه ما ترك بعده فتنة أشد على الرجال من النساء ، ولذلك أمرت المرأة بستر جسدها كله إلا الوجه والكفين ، وأمر

الرجال بغض أبصارهم . ونهى الرسول - ﷺ - عن الخلوة بالمرأة ، وأخبر أنه ما خلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما . وفي سنن النسائي باسناد صحيح (المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان) .

ونحن اليوم نشاهد عظم فتنة خروج غالب النساء كما وصفهن الرسول - ﷺ - كاسيات عاريات ، وقامت مؤسسات في الشرق والغرب تستخدم جيوشاً من النساء والرجال لترويج الفاحشة بالصورة المرئية ، والقصة الخليعة ، والأفلام التي تحكي الفاحشة وتدعو لها !...

أما حب الدنيا فهو رأس كل خطيئة ، وما سفكت الدماء وهتكت الأعراض ، وغصبت الأموال ، وقطعت الأرحام ، ... إلا لأجل حيازة الدنيا ، والصراع على حطامها الفاني ، وحرصاً على متعها الزائلة .

١٨ - الغناء والموسيقى :

الغناء والموسيقى طريقان يفسد الشيطان بهما القلوب ، ويخرب النفوس ، يقول ابن القيم : (ومن مكايد عدو الله ومصايده التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين : سماع المكاء والتصدية ، والغناء بالآلات المحرمة الذي يصد القلوب بها عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان ، فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن ، وهو رقية اللواط والزنى ، كاد به الشيطان النفوس المبطلة ، وحسنه لها مكراً وغروراً ، وأوحى لها الشبه الباطلة على حسنه ، فقبلت وحيه ، واتخذت لأجله القرآن مهجوراً ...) (اغاثة اللهفان ٢٤٢/١) ومن عجب أن بعض الناس الذين يدَّعون التعبد يتخذون الغناء والرقص والتمايل طريقاً للتعبد ويتركون السماع الرحماني ، ويذهبون إلى السماع الشيطاني ، وقد عدَّ ابن القيم في (الاغاثة ٢٥٦/١) لهذا السماع بضعة عشر اسماً : اللهو ، واللغو ، والباطل ، والزور ، والمكاء ، والتصدية ، ورقية الزنا ، وقرآن

الشيطان ، ومنبت النفاق في القلب ، والصوت الأحمق ، والصوت الفاجر ، وصوت الشيطان ، ومزمور الشيطان ، والسمود .

وأطال النفس في بيان تحريمه وما فيه من زور وبهتان فراجعه إن شئت .

١٩ ـ تهاون المسلمين في تحقيق ما أمروا به :

إذا التزم المسلم بإسلامه فإن الشيطان لا يجد سبيلاً لاضلاله والعبث به ، فإذا تهاون وتكاسل في بعض الأمور فإن الشيطان يجد فرصة ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) (سورة البقرة / ٢٠٨) فالدخول في الإسلام في كل الأمور هو الذي يخلص من الشيطان ، فمثلاً إذا كانت صفوف المصلين مرصوصة فإن الشياطين لا تستطيع أن تتخلل المصلين فإذا تُركت فُرجٌ بين الصفوف فإنَّ الشياطين تتراقص بين صفوف المصلين ففي الحديث «أقيموا صفوفكم ، لا تتخللكم الشياطين كأنّها أولاد الحذف . قيل يا رسول الله : وما أولاد الحذف؟ قيل جُرْد «بأرض اليمن» رواه أحمد والحاكم باسناد صحيح (صحيح الجامع ٣٨٤/١) وفي الحديث الآخر «أقيموا صفوفكم ، وتراصوا ، فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشياطين بين صفوفكم كأنها غنم عُفْر» رواه أبو داود الطيالسي باسناد صحيح (صحيح الجامع ٣٨٤/١) .

كيف يصل الشيطان الى نفس الانسان :

الوسوسة :

الشيطان يستطيع أن يصل إلى فكر الإنسان وقلبه ، بطريقة لا ندركها ولا نعرفها ، يساعده على ذلك طبيعته التي خلق عليها ، وهذا الذي نسميه بالوسوسة ، وقد أخبرنا الله بذلك إذ سماه (الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس) (سورة الناس / ٤ ـ ٥) قال ابن كثير في تفسيره :

(الواسواس الخناس) الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خنس .

وقد ثبت في صحيح البخاري أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .

وبهذه الوسوسة أضل آدم وأغراه بالأكل من الشجرة : (فوسوس إليه الشيطان ، قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) (سورة طه / ١٢٠) .

وقد تتمثل الشياطين في صورة بشر ، وقد يحدثون الإنسان ويُسْمِعونه ويأمرونه وينهونه بمرادهم .. كما سيأتي بيانه .

الفصل الرابع

تمثُّل الشياطين
تحضير الأرواح
الجنّ وعلم الغيب
الجنّ والأطباق الطّائرة



تمثل الشياطين

أحياناً تأتي الشياطين الإنسان لا بطريق الوسوسة ، بل تتراءى له في صورة إنسان ، وقد يسمع الصوت ولا يرى الجسم ، وقد تتشكل بصور غريبة .. وهي أحياناً تأتي الناس وتعرفهم بأنها من الجن ، وفي بعض الأحيان تكذب في قولها فتزعم أنها من الملائكة ، وأحياناً تسمي نفسها برجال الغيب ، أو تدعي أنها من عالم الأرواح ...

وهي في كل ذلك تحدث بعض الناس ، وتخبرهم بالكلام المباشر ، أو بواسطة شخص منهم يسمى الوسيط تتلبس وتتحدث على لسانه ، وقد تكون الإجابة بواسطة الكتابة ...

وقد تقوم بأكثر من ذلك فتحمل الإنسان وتطير به في الهواء وتنقله من مكان إلى مكان ، وقد تأتي له بأشياء يطلبها ، ولكنها لا تفعل هذا إلا بالضالين الذين يكفرون بالله رب الأرض والسموات ، أو يفعلون المنكرات والموبقات ... وقد يتظاهر هؤلاء بالصلاح والتقوى ، ولكنهم في حقيقة أمرهم من أضل الناس وأفسقهم ، وقد ذكر القدامى والمحدثون من هذا شيئاً كثيراً لا مجال لتكذيبه والطعن فيه لبلوغه مبلغ التواتر .

فمن ذلك ما ذكره ابن تيمية عن الحلاج قال : (وكان صاحب سيمياء وشياطين تخدمه أحياناً ، كانوا معه (بعض أتباعه) على جبل أبي قبيس ، فطلبوا منه حلاوة ، فذهب إلى مكان قريب وجاء بصحن حلوى ، فكشفوا الأمر فوجدوا ذلك قد سرق من دكان حلاوى باليمن ، حمله شيطان تلك البقعة) .

قال : « ومثل هذا يحدث كثيراً لغير الحلاج ممن له حال شيطاني ، ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء في زماننا وغير زماننا ، مثل شخص هو الآن (في زمن ابن تيمية) بدمشق ، كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق ، فيجيء من الهواء إلى طاقة البيت الذي فيه الناس فيدخل وهم يرونه ، ويجيء بالليل إلى باب الصغير (باب من أبواب دمشق الستة التي كانت يومئذ) ، فيعبر منه هو ورفيقه وهو من أفجر الناس .

وآخر كان بالشوبك (قلعة حصينة في أطراف الشام) من قرية يقال لها الشاهدة يطير في الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه ، وكان شيطان يحمله ، وكان يقطع الطريق .

وأكثرهم شيوخ الشرِّ ، يقال لأحدهم (البَوْشى أبي المجيب) ينصبون له خركاه في ليلة مظلمة ، ويصنعون خبزاً على سبيل القربات ، فلا يذكرون الله ولا يكون عندهم من يذكر الله ولا كتاب فيه ذكر الله ، ثم يصعد ذلك البَوْشى في الهواء وهم يرونه ويسمعون خطابه للشيطان وخطاب الشيطان له . ومن ضحك أو سرق من الخبز ضربه الدف ولا يرون من يضرب به .

ثم إن الشيطان يخبرهم ببعض ما يسألونه عنه ، ويأمرهم بأن يقربوا له بقراً وخيلاً وغير ذلك ، وأن يخنقوها خنقاً ولا يذكرون اسم الله عليها ، فإذا فعلوا قضى حاجتهم» .

ويذكر ابن تيمية أيضاً عن « شيخ أخبره نفسه أنه كان يزني بالنساء ويتلوط الصبيان ، وكان يقول : يأتيني كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوان ، فيقول لي : فلان ابن فلان نذر لك نذراً وغداً نأتيك به ، وانا قضيت حاجته لأجلك ، فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر ، ويكاشفه هذا الشيخ الكافر» .

ويذكر عن هذا الشيخ أنه قال : « وكنت إذا طلب مني تغيير مثل (اللاَّذن)

(صمغ يستعمل عطراً ودواء) أقول حتى أغيب عن عقلي ، وإذا باللاذن في يدي أو في فمي ، وأنا لا أدري من وضعه .

قال : وكنت أمشي وبين يدي عمود أسود عليه نور .

قال : فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلي ويصوم ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود ، وذهب التغيير فلا يأتي بلاذن ولا غيره .

ويحكى عن شيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس ، فيأتي أهل ذلك المصروع إلى الشيخ يطلبون إبراءه ، فيرسل إلى أتباعه فيفارقون ذلك المصروع ، ويعطون ذلك الشيخ دراهم كثيرة ، وكان أحياناً تأتيه الجن بدراهم وطعام تسرقه من الناس ، حتى أن بعض الناس كان له تين في كوارة ، فيطلب الشيخ من شياطينه تيناً فيحضرونه له ، فيطلب أصحاب الكوارة التين فوجدوه قد ذهب .

ويذكر عن آخر أنه كان مشتغلاً بالعلم فجاءته الشياطين أغوته ، وقالوا له : نحن نسقط عنك الصلاة ، ونحضر لك ما تريد ، فكانوا يأتونه بالحلوى أو الفاكهة ، حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه ، وأعطى أهل الحلاوة ثمن حلاوتهم التي أكلها ذلك المفتون بالشيطان » (جامع الرسائل لابن تيمية / ص ١٩٠ ـ ١٩٤)

وبين بعض طرق الشيطان في الاغواء ، فقال في (مجموع الفتاوي ٣٠٠/١١) : « أنا أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع ، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها ، وأعرف من يخاطبهم الشجر والحجر وتقول هنيئاً لك يا ولي الله ، فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك ، واعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول : خذني حتى يأكلني الفقراء ، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنسان ويخاطبه بذلك ، ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس ،

وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة ، أو تمرُّ به أنوار ، أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه ، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله » .

ويقول رحمه الله : « وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له : أنا من أمر الله ، ويعده بأنه المهدي الذي بشر به الرسول - ﷺ - ويظهر له الخوارق ، مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد في الهواء ، فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً أو شمالاً ذهب حيث أراد ، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر ، وتحمله إلى مكة وتأتي به ، وتأتيه بأشخاص في صور جميلة وتقول له هؤلاء الملائكة الكروبيون جاءوا لزيارتك ، فيقول في نفسه : كيف تصوروا بصور المردان ؟ ! فيرفع رأسه فيجدهم بلحى ، ويقول له : علامة أنك المهدي أنَّك تنبت في جسدك شامة ، فتنبت ويراها وغير ذلك ، وكله من مكر الشيطان » .

وبين رحمه الله (٤١/١٩) « أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم زهد وعبادة على غير الوجه الشرعي ولهم أحياناً مكاشفات وتأثيرات يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التي نهى عن الصلاة فيها ، لأنَّ الشياطين تتنزل عليهم بها وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب الكهان ، وكما كانت تدخل في الأصنام وتكلم عابدي الأصنام ، وتعينهم في بعض المطالب كما تعين السحرة ، وكما تعين عباد الأصنام وعباد الشمس والقمر والكواكب إذا عبدوها بالعبادات التي يظنون أنها تناسبها ، من تسبيح لها ولباس وبخور وغير ذلك ؛ فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب ، وقد تقضي بعض حوائجهم » .

الذين تخدمهم الشياطين يتقربون إليها بالمعاصي :

هؤلاء الذين يزعمون الولاية والحقيقة أن الشياطين تخدمهم - لا بدَّ أن

يتقربوا إلى الشياطين بما تحبه من الكفر والشرك كي يقضوا بعض أغراضه ، ويذكر ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٣٥/١٩) أن كثيراً من هؤلاء يكتبون كلام الله بالنجاسة ، وقد يقلبون حروف كلام الله عز وجل ، إمّا حروف الفاتحة ، وإمّا حروف قل هو الله أحد ، وإمّا غيرهما - ويذكر أنهم قد يكتبون كلام الله بالدم أو بغيره من النجاسات ، وقد يكتبون غير ذلك مما يرضاه الشيطان ، أو يتكلمون بذلك .

فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين أعانتهم على بعض أغراضهم : إمّا تغوير ماء من المياه ، وإمّا أن يحمل في الهواء إلى بعض الأمكنة ، وإمّا أن يأتيه بمال من أموال بعض الناس ، كما تسرقه الشياطين من أموال الخائنين ومن لم يذكر اسم الله عليه وتأتي به ، وإما غير ذلك .

رجال الغيب :

يذكر شارح الطحاوية : « أن من الشياطين ما يسميه الناس رجال الغيب ، وأن بعض الناس يخاطبونهم ، وتحصل لهؤلاء خوارق يزعمون بها أنهم أولياء الله ، وأن بعض هؤلاء يعين المشركين على المسلمين ، ويقول إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين ، لكون المسلمين عصوا » .

ويعقب شارح الطحاوية على ذلك قائلاً : « هؤلاء في الحقيقة اخوان المشركين وذكر أن الناس من **أهل العلم في رجال الغيب ثلاثة أحزاب :**

١ - حزب يكذبون بوجود رجال الغيب ، ولكن قد عاينهم الناس ، وثبت عمن عاينهم أو حدثه الثقات بما رأوه ، وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم .

٢ - وحزب عرفوهم ، ورجعوا إلى القَدَر ، واعتقدوا أن ثمَّ في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء .

٣ - وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا وليّاً خارجا عن دائرة الرسول ، فقالوا :

يكون الرسول هو محمداً للطائفتين. **فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه.**

ثم قال **مبيناً حقيقة هؤلاء وأتباعهم**: والحقُّ أن هؤلاء من أتباع الشياطين وأن رجال الغيب هم الجن، ويسمون رجالاً، كما قال تعالى: «وأنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقاً» (سورة الجن/ ٦) وإلا فالإنس يؤنسون، أي يشهدون ويرون، وإنما يحتجب الإنس أحياناً، لا يكون دائم الاحتجاب عن أبصار الإنس، ومن ظنهم من الإنس فمن غلطه وجهله.

ثم بين السبب في الاختلاف فيهم وفي افتراق هذه الأحزاب الثلاثة: هو عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن وبين أنه يجب عرض أفعال الناس وأقوالهم وحالهم على الكتاب والسنة فما وافقهما كان صالحاً وما خالفهما كان غالطاً، ومهما فعل الإنسان وتبدى من حاله لا يكون مؤمناً ولا ولياً لله ـ وإن طار في الهواء ومشى على الماء ما لم يكن ملتزماً بالكتاب والسنة (شرح العقيدة الطحاوية ٥٧١ ـ ٥٧٢) فلا بدّ أن يكون عند العبد الميزان الذي يفرق به بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان والصالحين والطالحين وإلا ضّل وزاغ، وظن اعداءَ الله أولياءه، هذا الميزان هو الكتاب والسنة فإذا كان العبد ملتزماً بهما فنعم، وإلا فإنَّه ليس على شيء ولو رأيناه يحيي الأموات ويحول المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة. يقول ابن تيمية: (ومن لم يميز بين الأحوال الرحمانية والنفسانية اشتبه عليه الحق بالباطل، ومن لم ينوّر الله قلبه بحقائق الإيمان واتباع القرآن لم يعرف طريق المحق من المبطل، والتبس عليه الأمر والحال، كما التبس على الناس حال مسيلمة صاحب اليمامة وغيره من الكذابين في زعمهم أنهم أنبياء وإنما هم كذابون» (جامع الرسائل ص ١٩٧).

وقد ألف ابن تيمية كتاباً عظيماً إذا عرفته تبين لك الفارق الكبير بين

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، بحيث لا يشتبه عليك بعد ذلك أمر أولياء الشيطان ، وقد أسماه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

حكم استخدام الجن :

الذي يظهر أن الله استجاب لسليمان ووهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فإذا حصل طاعة من الجن لأحد من الإنس فلا يكون على سبيل التسخير ، وإنما برضى الجني ، وهل يجوز ذلك ؟ يقول ابن تيمية في (مجموع الفتاوى ٣٠٧/١١) :

الجن مع الإنس على أحوال :

فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ، ويأمر الإنس بذلك ، فهذا من أفضل أولياء الله تعالى ، وهو في ذلك من خلفاء الرسول ـ ﷺ ـ ونوابه .

ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له ، وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حرّم عليهم ويستعملهم في مباحات له ، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك ، وهذا إذا قدّر أنه من أولياء الله فغايته أن يكون في عموم أولياء الله مثل النبي الملك مع العبد الرسول : كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما في الشرك ، وإمّا في قتل معصوم الدم أو في العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك من الظلم ، وإما في فاحشة كجلب من يطلب منه الفاحشة ، فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ، ثمّ إن استعان بهم على الكفر فهو كافر ، وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاص : إما فاسق ، واما مذنب غير فاسق .

وإن لم يكن تام العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات مثل أن يستعين بهم على الحج ، أو يطيروا به عند السماع البدعي ، أو أن يحملوه إلى عرفات ، ولا يحج الحج الشرعي الذي أمره الله به ورسوله ، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة ، ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به » .

تحضير الأرواح

انتشر في عصرنا القول بتحضير الأرواح ، وصدّق بهذه الفِرية كثير من الذين يعدّهم الناس عقلاء وعلماء .

وتحضير الأرواح المزعوم سبيله ليس واحداً ، فمنه ما هو كذب صراح يستعمل فيه الإيحاء النفسي والمؤثرات المختلفة ، والحيل العلمية ، ومنه ما هو استخدام للجن والشياطين .

وقد كشف الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين في كتابه (الروحية الحديثة) كثيراً من خداع هؤلاء وتزويرهم للحقيقة ، فهم لا يجرون تجاربهم كلها إلا في ضوء أحمر خافت هو أقرب إلى الظلام ، وظواهر التجسيد والصوت المباشر ونقل الأجسام وتحريكها تجري في الظلام الدامس ، ولا يستطيع المراقب أن يتبين مواضع الجالسين ولا مصدر الصوت ، ولا يستطيع كذلك أن يميِّز شيئاً من تفاصيل المكان كجدرانه أو أبوابه أو نوافذه .

وتكلم الدكتور محمد عن (الخباء) وهو حجرة جانبية معزولة عن الحاضرين أو جزء من الحجرة التي يجلسون فيها تفصل بحجاب كثيف ، وهذا المكان المنفصل معدٌّ لجلوس الوسيط الذي تجري على يديه ظواهر التجسد المزعوم . ومن هذا المكان المحجوب بستار يضاف إلى حجاب الظلام السابق تخرج الأرواح المزعومة متجسدة ، وإليه تعود بعد قليل ، ولا يسمح للحاضرين بلمس الأشباح .

ويرى الدكتور أن الروحيين لا يَعْدِمُون في مثل هذا الجو المظلم قوالب علمية يصبون فيها حيلهم .

والتدليس على الناس بالحيل طريقة قديمة معروفة يضلُّ بها شياطين الإنس عباد الله ، يطلبون الوجاهة عند الناس ، كما يطلبون مالهم ، فقد ذكر ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٤٥٨/١١) عن فرقة في عصره كانت تسمى (البطائحية) أنهم كانوا يدعون علم الغيب والمكاشفة ، كما يدعون أنهم يَرَوْن ويُرُون الناس رجال الغيب ، ثمَّ كشف شيئاً من دجلهم ، فقد كانوا يرسلون بعض النساء إلى بعض البيوت يستخبرون عن أحوال أهلها الباطنة ، ثمَّ يكاشفون صاحب البيت بما علموه زاعمين أن هذا من الأمور التي اختصوا بالاطلاع عليها .

ووعدوا رجلاً ـ كانوا يمنونه بالملك ـ أن يروه رجال الغيب ، فصنعوا خشباً طوالا ، وجعلوا عليها من يمشي كهيئة الذي يلعب بأكر الزجاج ، فجعلوا يمشون على جبل المزة ، وذلك المخدوع ينظر من بعيد فيرى قوماً يطوفون على الجبل ، وهم يرتفعون عن الأرض ، وأخذوا منه مالا كثيراً ثمَّ انكشف له أمرهم .

ودلسوا على آخر كان يدعى (قفجق) إذ أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم ، وأوهموه أن الموتى تتكلم ، وأتوا به إلى مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته ، وقالوا أنه طلب منه جملة من المال ، فقال (قفجق) : الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزائني ليس فيها هذا كله ، وتقرب قفجق وجذب الشعر فانقلع الجلد الذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز .

وقد بين الدكتور محمد محمد حسين أن الوسيط ـ وهو شخص يزعم الروحيون أن فيه استعداداً فطرياً يؤهله لأن يكون أداة يجرى عن طريقها التواصل ـ غالباً ما يكون دجالاً كبيراً ، وغشاشاً مدلساً ، وبيَّن كيف أن كثيراً من هؤلاء الوسطاء لا يكون على خلق ولا دين ، بل إن الروحانيين لا

يشترطون في الوسيط شيئاً من ذلك ، وقد ذكر حادثة جرت معه شخصياً تبين له بعد تحقيق منه في الموضوع أن الوسيط كان دجّالاً كاذباً .

وبين كيف أن بعض الحضور يكونون متواطئين مع المحضرين وكيف يحترس في انتقاء الذين يسمح لهم بحضور مثل هذه الجلسات ، وكيف يعللون فشلهم إذا وجد في الحضور بعض الأذكياء النبهاء .

استخدام الجن والشياطين :

أفاض الدكتور محمد محمد حسين في الكشف عن الطريق الأول الذي يزعم الروحانيون أنهم يحضرون به الأرواح ، وهو طريق الدجل والكذب واستعمال المؤثرات النفسية والحيل العلمية .

وأشار مجرد اشارة إلى الطريق الثاني وهو استخدام الجن والشياطين وأرى أن غالبية الدعوات التي يزعم فيها تحضير الأرواح هي من هذا القبيل .

تحضير الأرواح دعوة قديمة :

وبناء على ذلك فهذه الدعوى ليست جديدة بل هي قديمة وقديمة جداً ، وقد نقلنا فيما سبق كيف كان بعض الناس يتصلون بالجن ، بل حفظت لنا كتب الثقات أن بعض الناس كانوا يزعمون أن أرواح الموتى تعود إلى الحياة بعد الموت ، يقول ابن تيمية : « ومن هؤلاء (أي أهل الحال الشيطاني من الكفرة والمشركين والسحرة ونحوهم) من إذا مات لهم ميت يعتقدون أنه يجيء بعد الموت يكلمهم ويقضي ديونه ويرد ودائعه ويوصيهم بوصايا ، فإنهم تأتيهم تلك الصورة التي كانت في الحياة ، وهو شيطان تمثل في صورته فيظنونه إياه » (جامع الرسائل ص ١٩٤/١٩٥) .

تجربة معاصر :

هذه تجربة حصلت مع الكاتب أحمد عز الدين البيانوني ذكرها في كتاب

الإيمان بالملائكة حرصت على نقلها بنصها يقول في هذا الموضوع :

لقد شغل « استحضار الأرواح » المزعوم أفكار الناس في الشرق والغرب ، فكُتبت فيه مقالات ، بلغات مختلفات ، نُشرت في مجلات عربية وغير عربية ، وأُلّفت فيه مؤلفات ، وبحث فيه باحثون ، وجرّبه مجرّبون ، اهتدى بعد ذلك العقلاء منهم إلى أنه كذب وبهتان ، ودعوة إلى كفر وطغيان .

إن استحضار الأرواح ، الذي يزعمه الزاعمون ، كذبٌ ودجل وخداع ، وما الأرواح المزعومة إلا شياطين تتلاعب بالانسان وتخادعه .

وليس في استطاعة أحد ، أن يستحضر روح أحد ؛ فالأرواح بعد أن تفارق الأجساد ، تصير إلى عالم البرزخ .

ثم هي إما في نعيم أو في عذاب ، وهي في شغل شاغل ، عما يدّعيه مستحضرو الأرواح .

وقد دُعيتُ أنا إلى ذلك ، من قبل هذه الأرواح ، وجرّبته بنفسي تجربة طويلة ، وظهر لي انه كذب ودجل وخداع ، على أيدي شياطين تتلاعب ، غرضهم من ذلك تضليل الناس وخداعهم ، وموالاة من يواليهم ...

بدء التجربة :

عرفت منذ أكثر من عشر سنوات تقريباً ، رجلاً يزعم أنه يستخدم الجن في أمور صالحة في خدمة الانسان ، وذلك بواسطة وسيط من البشر .

ويزعم أنه توصّل إلى ذلك بتلاوات وأذكار طويلة ، قضي فيها زمناً طويلاً ، دلّه عليها بعض من يزعم أنه على معرفة بهذا العلم !

جاءني الوسيط ذات يوم يبلغني دعوة فلانٍ وفلانة من الجن ، لحديث هام ، لي فيه شأن عظيم .

فذهبت في الموعد المحدد ، متوكلاً على الله تعالى فرحاً بذلك ، لأطّلع

في هذه التجر به على جديد .

كيف بدأت المخادعة ؟

من أول أساليب الخداع التي سُلكتْ معي ، أن طريقة الاستحضار ، استغفار وتهليل وأذكار ، مما يجعل الانسان لأول وهلة ، يظن أنه يتحدث مع أرواح علوية صادقة طاهرة .

دخلت بيت الوسيط ، وخلونا معاً في غرفة ، وجلس هو على فراش ، وبدأنا ـ بدلالته طبعاً نستغفر ونهلل ـ حتى أخذتْه إغفاءة ، فأضجعتُه أنا على فراشه ، وسجيَّته بغطاء كما علّمني أن أفعل ، وإذا بصوت خافت ، يسلّم صاحبه عليّ ، ويظهر حفاوته بي وحبه ، ويعرفني بنفسه ، أنه مخلوق ، يزعم أنه ليس من الملائكة ، ولا من الجن ، ولكنه خلق آخر ، من نوع آخر ، وُجد بقوله تعالى : « كن » فكان .

وهذا على زعمه أن الجن ، لا يصدرون إلا عن أمره ، وأن بينه وبين الله تعالى في تلقّي الأوامر أربعة وسائط فقط ، خامسهم جبريل عليه السلام .

وأخذ يثني عليَّ ، ويقول : إنهم سيقطعون كل علاقة لهم بالبشر ، وسيكتفون بلقائي ، لأني على زعمهم صاحب الخصوصية في هذا العصر ، وموضع العناية من الله تعالى ، وأن الله تعالى ، هو الذي اختارني لذلك .

ووعدني بوعود رائعة ، فيها العجب العجاب .

واستسلمت لهذه التجربة الجديدة ، والدعوة الخادعة ، متوكلاً على الله عز وجل ، سائلاً الله تعالى أن يعصمني من الزلل ، وأن يهديني إلى الحق المبين ، مستضيئاً بنور العلم ، سالكاً سبيل الاستقامة والحمد لله تعالى .

ولما انقضى اللقاء الأول ، دعاني إلى لقاء آخر ، في موعد آخر ، ثم دلني هو نفسه ، على تلاوة خاصة لايقاظ الوسيط من غَيْبته .

وكان ذلك ، وجلس الوسيط ، وعرك عينيه ، كأنه انتبه من نوم عميق ،

ولا علم له بشيء مما جرى .

ورجعت في الموعد المحدد أيضاً ، وتمَّ بيننا لقاء بعد لقاء مدة طويلة ، وفي كل لقاء ، تتجدد الوعود الحسنة ، ويوصف لي المستقبل الرائع ، الذي ينتظرني ، والنفع العظيم الذي تلقاه الأمة على يدي .

تطور الموضوع :

وتطور الأمر ، فأخذ كثير من الأرواح يزورني في كل لقاء ، بمقدمات من الأذكار ، وبغير مقدمات ، فقد أكون مع الوسيط على طعام ، أو على تناول كأس من الشاي ، فتأخذه الاغفاءة المعهودة ، فيميل رأسه إلى الأمام ، وتلتصق ذقنه بصدره ، ويحدثني الزائر الذي يزعم أنه من الملائكة ، أو من الجن ، أو من الصحابة ، أو من الأولياء ، حديثاً يغلب عليه طابع الاحترام والاجلال ، والتبرك بزيارتي ، وتبشيري بالمستقبل الزاهر المبارك ، ثم ينصرف ، ويجيء غيره وغيره ...

من هم الزائرون ؟

زارني فيما زعموا أفراد من الملائكة ، وأفراد من الجن ، وأبو هريرة رضي الله عنه من الصحابة ، وطائفة من الأولياء ، أمثال أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، وطائفة من أهل العلم والفضل ، المشهود لهم بالعلم والولاية ، أمثال الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالى ، وبعض من أدركتهم من أهل العلم والفضل ، ثم أدركتهم الوفاة ، ومنهم والدي رحمه الله تعالى .

وبشّروني بزيارة والدي إياي ، في وقت عيّنوه ، وانتظرت الموعد بلهف ، ولما كان الموعد المنتظر ، كلفوني أن أقرأ سورة « الواقعة » جهراً ، فقرأتها ، ولما فرغت من قراءتها ، قالوا :

سيحضر والدك بعد لحظات ، فاسمع ما يقول ، ولا تسأله عن شيء ! ! !

بدء انتباهي :

وبعد دقائق جاءني جاءٍ يزعم أنه أبي ، فسلم عليّ ، وأظهر سروره بلقائي ، وفرحه بي على صلتي بهذه بالأرواح ، وأوصاني أن أعتني بالوسيط وأهله ! وأن أرعاه رعاية عطف وإحسان ، إذ لا مورد له من المال إلا من هذا الطريق .

وختم حديثه بالصلوات الابراهيمية ، وأنا أعلم أنه رحمه الله تعالى ، كان شديد الولع بالصلاة على النبي ﷺ ولا سيما الابراهيمية .

وكان من العجب أن لهجة المتحدث شبيهة لحدٍ ما بلهجة الوالد .

ثم سلم وانصرف .

وأخذت أتساءل في نفسي : لم أوصوني أن لا أسأله عن شيء ؟ !

في الأمر سر ولا شك ! . .

السر الخفي الذي انكشف لي آنذاك ، أنه ليس بوالدي ، ولكنه قرينه من الجن ، الذي صحبه مدة حياته ، فجاءني يمثّل لي صوته ، ويتشبّه بخصوصية من خصوصياته .

أوصوني أن لا أسأله عن شيء ، لأن القرين من الجن ، مهما عرف من شأن والدي وحفظ من أحواله ، فلن يستطيع أن يحفظ كل جزئية يعرفها الولد من أبيه ، فحذروا أن أسأله عن شيء من ذلك ، فلا يجيبني ، فيُفتضح الأمر .

ثم سلكوا معي في لقائي مع الآخرين ، أن لا يعرّفوني بأسمائهم إلا عند انصرافهم ، فيقول أحدهم : أنا فلان ، ويسلّم ، وينصرف على الفور .

وفي ذلك من السر ما ذكرت : فلو أخبرني واحد منهم عن نفسه ، وهو مشهود له بالعلم ، فبحثت معه في إشكال علمي ، لعجز عن الجواب ،

وانكشف الأمر .

وقد أتاني آتٍ مرة يناقشني في إباحة كشف وجه المرأة ، وأنه ليس بعورة . فرددت عليه ، وردَّ عليَّ رداً ليس فيه رائحة العلم ، واحتدم الجدال بيننا .

فقلت له : وماذا تجيب عن أقوال الفقهاء الذين قالوا :

إن وجه المرأة عورة ، أو يجب ستره خشية الفتنة ؟

وانتهى الجدال إلى غير جدوى ، ثم أخبرني أنه هو الشيخ أحمد الترمانيني ، وانصرف .

فانكشف لي أنه الكذب لا شك فيه ، لأن الشيخ المذكور من كبار فقهاء الشافعية، والسادة الشافعية يقولون :

المرأة كلها عورة ، ولو عجوزاً شمطاء .

فلو أنه كان هو الشيخ المذكور ، وانكشف له من العلم جديد وهو في عالم البرزخ ، لأخبرني بذلك ، وأرشدني إلى دليله .

ولكنه الكذب والخداع ، وإرادة التضليل . وأبى الله تعالى ـ والحمد لله ـ إلا هداي ، وثباتي على الحق والهدى .

فكشفُ المرأة وجهها ولا سيما في هذا الزمان الفاسد والمجتمع المريض ، أمرٌ لا يُقره ذو عقل ودين .

انكشاف الحقيقة !

ولم تزل تنكشف لي الحقيقة على وجهها مرة بعد مرة ، وفي تجربة بعد تجربة ، حتى تحقق عندي أن الأمر كله كذب وبهتان ، ودجل وطغيان ، لا أساس له من تقوى ، ولا قائمة له على دين :

فالوسيط الذي يعتنون بشأنه ، ويوصون بحسن رعايته وإكرامه تارك صلاة ، ولا يأمرونه بها .

وهو يحلق لحيته ، ولا يأمرونه باطلاقها .

ثم هو يأكل أموال الناس بالباطل ، وبالوعود الخادعة ، ولا مورد له إلا من هذا الطريق الخبيث .

جاءني رجل بعدما عرف صلتي بهذا الوسيط ، يشكو إليّ أنه خدعه ، فأخذ منه ثلاثمئة ليرة سورية ، وهو فقير وفي أشد الحاجة إليها .

فألزمت الوسيط بردها إليه ، فاستجاب لذلك حرصاً منه ومن شياطينه على بقاء صلتي بهم .

والوسيط وأسرته تقوم حياتهم على الكذب في أكثر شؤونهم .

الخاتمة :

وقد حاولتْ هذه الأرواح بعدما انكشف لي أمرها أن تسلك معي مسلك التهديد ، فلم يزلزل ذلك من قلبي شيئاً ، والحمد لله تعالى .

وقد كنت كتبت في هذه المدة الطويلة مما حدثوني به ما ملأ دفترين كبيرين ، جمعت فيهما أكثر ما حدثوني به .

ولما ظهر الباطل ظهوراً لا يحتمل التأويل ، قطعت الصلة بهم ، وحكمت عليهم بما حكمت ، وأحرقت الدفترين اللذين امتلآ بالكذب والخداع .

فهذه الأرواح التي تدعي انها أرواح رجال من الصحابة والأولياء والصالحين ، كلها شياطين ، لا ينبغي لمؤمن عاقل أن ينخدع بها .

وجميع الصور التي اعتادها مستحضرو الارواح كذب وباطل .

سواء في ذلك طريقة الوسيط التي ذكرتها وجربتها ، وطريقة المنضدة والفناجين ، التي ذكرها لي بعض من جرّبها ، ووصل إلى النتيجة التي وصلت إليها .

ومن عجيب الأمر أني قرأت بعد ذلك كتباً مؤلفةً في هذا الموضوع ،

فإذا بالمجرّبين العاقلين وصلوا إلى مثل ما وصلت إليه ، وحكموا على تلك الأرواح ، أنها قرناء بني آدم من الجن ، كما هداني الله تعالى إلى ذلك من قبل ، والحمد لله .

وقد أديت بكلمتي هذه النصح الواجب ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

خطر هذه الدعوات :

هذه الدعوات التي تزعم أن بامكانها تحضير الأرواح اتخذها شياطين الجن والإنس سبيلاً لافساد الدين ، فهذه الأرواح التي تُحضّر وهي في الحقيقة شياطين تتكلم بكلام يحطم الدين وينسفه ، وتقرُّ مبادىء ومثلا جديدة تعارض الحق كل المعارضة ، ففي واحدة من هذه الجلسات زعمت الروح (الشيطان) على لسان الوسيطة أن جبريل قد حضر هذه الجلسة ولما كان الحضور لا يعرفون جبريل قالت : (ألا تعرفون جبريل الذي كان ينزل بالقرآن على محمد ؟ ! إنه يبارك هذا الاجتماع) وينقل الدكتور محمد محمد حسين عن مجلة (عالم الروح) من مقال لها بعنوان (حديث الروح الكبير هوايت هوك) ما يأتي : (يجب أن نتحد في هذه الحركة . في هذا الدين الجديد . يجب أن تسودنا المحبة . ويجب أن تكون لنا قدرة على الاحتمال والتفاهم .. رسالتي (الروح المتحدث هنا أي الشيطان) أن أواسي المحروم ، وأساعد الإنسانعلى تحرره في نفسه من الله تعالى : (وصدق فهذه رسالته أي يجعله يكفر بالله) الإنسان إله مكسو بعناصر الأرض (هكذا ينفخ في الإنسان ويكذب عليه ليضله) وهو لن يدرك ما في مقدوره هو ما لم يحس بجزئه الملائكي الإلّهي ... الروحية ستكون أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله) .

وينقل عن هذه المجلة أيضاً تعريفاً بالمنظمة التي أسست لهذه الغاية (إن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالم الروحي طريقة جديدة للحياة ، ويعطوننا فكرة جديدة عن الله ومشيئته ،

إنهم سوف يأتون لنا بالسلام والطمأنينة الروحية وبسعادة النفس والقلب. سوف يحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد وبين العقائد والأديان (هكذا) ... ان العضوية في هذه المنظمة بدون نظر للوطن أو اللون أو الدين أو المذهب السياسي).

وتزعم الأرواح أنها رسل مرسلة من عند الله، فالدكتور يذكر أن محمد فريد وجدي نقل عن هذه الأرواح (أي الشياطين) قولها «نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون قبلنا، غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم، فإلهنا هو إلههم، إلا أن إلهنا أظهر من إلههم وأقل في صفات بشرية وأكثر صفات إلهية ... لا تخضع لأيّ عقيدة مذهبية. ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لا تستند إلى العقل».

وهم يزعمون أن الرسل والأنبياء ما هم إلا وسطاء على درجة عالية من الوساطة، وأن المعجزات التي جرت على أيديهم ليست إلا ظواهر روحية كالظواهر التي تحدث في حجرة تحضير الأرواح، ويزعمون أنهم يستطيعون أن يعيدوا احداث كل ما نسب للمسيح من أرواح وقد قامت بعض الصحف بحملة دعائية كبيرة زعمت أن أحد محضري الأرواح في أمريكا يستطيع أن يقوم بمثل معجزات المسيح فهو يعيد البصر إلى الأعمى والنطق إلى الأبكم والحركة للمشلول، بقي أن تعلم أن هذا الطبيب المزعوم طفل في العاشرة من عمره يدعى (ميشيل)، وعندما يأتيه المريض يضع أنامله عليه ويتمتم ببعض الأدعية والكلمات فتحدث المعجزة. ويقولون إن هذا الطفل ورث الموهبة الروحانية عن والده، وهو لا يتقاضى شيئاً من المال عمّا يقوم به من أعمال. (راجع ملحق جريدة القبس الكويتية ١٧/١٠/١٩٧٧) ووراثة هذا الطفل لهذه الأعمال من أبيه تذكرنا بقصة تروى في بعض نواحي فلسطين، يقول الرواة إن أحد الرجال الذين كانوا يظهرون الصلاح والتقى، كان يفعل عجباً، فقد كان ـ في ذلك الوقت الذي لم تظهر فيه الطائرة والسيارة ـ

ينطلق إلى الحج في ليلة عرفة فيشهد ذلك اليوم مع الحجيج ويسلمهم رسائل من أقاربهم وذويهم ، ويأخذ منهم رسائل إلى أقاربهم ويعود في الليلة الأخرى ، وكان كثير من الناس يعتقد فيه الصلاح والخير ، رغم أنه ما كان يقوم بمناسك الحج ولا يمكث في منى المدة المقررة ولا يرمي الجمـرات، ثمَّ شاء الله أن يكشف باطله ويظهر أمره للناس ، فعندما جاءه الموت استدعى ابنه الأكبر وأخبره أن جملاً سيأتيه ليلة عرفة ويحمله إلى عرفات في كل عام ، ولما جاء الجمل وركبه الابن وسار مسافة وقف وتحدث إلى الابن وأخبره أنه شيطان وأن أباه كان يعبده ويسجد له ، وفي مقابل ذلك يخدمه مثل هذه الخدمات ، ولما رفض الابن السجود له واستعاذ بالله منه تركه في الصحراء وقدر الله له الرجوع وكشف حقيقة أبيه الكافر .

وقد أشار إلى هذه القصة البيانوني في كتابه الملائكة بأخصر مما أثبتناه هنا .

هل يمكن استحضار الأرواح ؟

لقد وضعت مجلة (سينتفيك أمريكان) جائزة مالية ضخمة لمن يقيم الحجة على صدق الظواهر الروحية ولا تزال الجائزة قائمة لم يظفر بها أحد رغم انتشار الروحيين ونفوذهم وبراعتهم في أمريكا . وقد ضم إلى هذه الجائزة جائزة أخرى تبرع بها الساحر الامريكي دننجر للغرض نفسه ولم يظفر بها أحد أيضاً .

ولكن ما موقف الإسلام من امكان احضار روح المتوفي ؟ إن التأمل في النصوص التي وردت في هذا تجعل الباحث يعتقد جازماً أن ذلك مستحيل ، فقد أخبرنا الله تعالى أن الروح من عالم الغيب الذي لا سبيل إلى إدراكه (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) (سورة الإسراء ٨٥) .

وأخبر أنه يتوفى الأنفس وأنه يمسك النفوس عند الموت (الله يتوفى

الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) (سورة الزمر / ٤٢) وقد وكل الله بالأنفس ملائكة يعذبونها إن كانت شقية كافرة ، وينعمونها إن كانت صالحة تقية .

وقد بين لنا الرسول - ﷺ - كيف يقبض ملك الموت الأرواح وما يفعل بها بعد ذلك .

والأرواح إذ كانت مُمْسَكة عند ربها موكل بها حَفَظَةٌ أقوياء مهرة ، فلا يمكن أن تتفلت منهم وتهرب لتأتي إلى هؤلاء الذين يتلاعبون بعقول العباد .

وبعض هؤلاء يزعم أنه حضَّر روح عبد من عبيد الله الصالحين من الأنبياء والشهداء ، فكيف يتركون جنان الخلد إلى حجرة التحضير المظلمة ، فقد أخبرنا الله أن الشهداء أحياء عند ربهم (ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ..) (سورة آل عمران / ١٦٩) وقد بين الرسول - ﷺ - (أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة ، تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها وتأوي إلى قناديل معلقة في سقف عرش الرحمن) فكيف يزعم دجالو العصر أنهم يحضرون أرواح هؤلاء ؟ كيف ؟ (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) .

شبهة وجوابها :

يقولون فكيف تعللون معرفة الأرواح بأخلاق وأعمال الرجل الذي تزعم أنها كانت تسكنه ؟ .

قلنا هذا الذي يزعم أنه روح إنما هو شيطان ، ولعلَّ هذا الشيطان هو القرين الذي كان يلازم الإنسان ، وقد ذكرنا النصوص التي تدل على أن لكل إنسان شيطاناً ، فهذا القرين الملازم للإنسان يعلم عنه الكثير من أخلاقه وعاداته وصفاته ويعرف أقاربه وأصدقاءه .

فعندما يختبر ما أسهل أن يجيب لأنّه على علم ودراية فإن قيل كيف تفسرون الاجابات العلمية التي قد يحصل عليها من الأرواح . نقول : سبق أن بيَّنا أن الشياطين والجن لديهم القدرات العلمية التي تمكنهم من الإجابة والإفادة .

ولكنها إفادة تحمل في طياتها الاضلال العظيم ، فهم لا يفيدوننا إلا بمقدار كي نثق بهم ثم يوجهوننا الوجهة الضالة السيئة التي توبقنا في دنيانا وأخرانا .

تخلي الشياطين عن أتباعها :

هؤلاء الذين يُدعون (الروحانيون) ويزعمون أنهم يحضرون الأرواح ويعالجون بها كاذبون ، وما هذه الأرواح إلا شياطين ، وقد تتخلى الشياطين عن هؤلاء فتذلهم وتخذهم ، نشرت جريدة القبس الكويتية في ملحقها بتاريخ ٧٨/٦/١٢ مقالاً جاء فيه : بريطانيا بأسرها تتحدث هذه الأيام عن العالم الروحاني (بيتر غودوين) الذي كان يتمتع بمواهب (روحانية) خارقة ، يستطيع بواسطتها أن يشفي المرضى من الأمراض المستعصية ويكشف الأشياء المفقودة ، ويسخر الأرواح لخدمة الإنسان .

وكان بيتر غودوين يتمتع بمقدرة فريدة يستطيع بواسطتها التواجد في أكثر من مكان في وقت واحد ، فقد كان يشاهده اصدقاؤه في لندن مثلاً ، ويشاهده آخرون في نفس اللحظة في ليفربول ، وآخرون في مانشستر بينما يؤكد فريق رابع انه لم يكن في هذا المكان ولا ذاك ، وانما كان يجلس في منزله بين زوجته وأولاده .

واحياناً ، كانت اجساده الاثيرية المختلفة تتجمع في مكان واحد ، فيكون جالساً بين اضدقائه مثلاً ، وفجأة .. تدخل عليهم جميعاً شخصيته الأخرى .. وتشاركهم الجلسة .. وتأتي شخصيته الثالثة ، والرابعة والخامسة

بعدها ، ويصبح بيتر غودوين عبارة عن خمس شخصيات تجالس الحضور ، وتتحدث اليهم ، أو تتحدث مع بعضها البعض .. بينما يكون الجميع مبهورين .. وفجأة خسر بيتر غودوين كل شيء وتحول إلى انسان عادي ، ولم يعد بقادر على شفاء المرضى ، ولا اكتشاف الاشياء المفقودة ولا كشف المستقبل ، ولا تسخير الأرواح لخدمة الناس .

وقد بدأت مأساة غودوين في السنة الماضية عندما حاول استغلال المواهب التي منحها الله له لتحقيق مكاسب مادية .. وهو ينظر الآن الى الماضي القريب ويقول: إن ما حدث لي ، لم يكن في الحسبان ، فقد غضبت الأرواح مني ، وسلبتني بركاتها .

بداية القصة :

والقصة أن بيتر غودوين حاول في السنة الماضية أن يقيم مراكز للعلاج الروحي في طول بريطانيا وعرضها ، وان ينشيء مركزاً في كل مدينة كبيرة في بريطانيا ، ولذلك نشر اعلاناً في صحيفة بونماوت المسائية ، يطلب فيه متدربين للابحاث الروحية ، بدوام كامل أو بنصف دوام ، المشروع يحقق دخلاً يعادل ٤٠ ـ ٥٠ جنيها في الأسبوع .

وبعد ان نشر بيتر غودوين اعلانه بدأت الطلبات تنهال عليه ، ومن بين الذين استجابوا للطلب كاتب في التاسعة والعشرين من عمره اسمه روبين لاسي،وامرأة في الخامسة والستين من عمرها اسمها جين بارتليت ورجل في الثلاثين اسمه ارتر جفري.ولكن ، ما ان بدأ بيتر غودوين باجراء المقابلات ، حتى بدأت متاعبه ، يقول روبين لاسي :

« فوجئت عندما حضرنا للمقابلة ان بيتر غودوين نفسه غير موجود ، وان التي تجري المقابلة لنا امرأة خمسينية يساعدها شاب وامرأة صغيرة السن ، فاتنة الجمال .. ووزعت علينا اسئلة وطلب منا الإجابة عليها ، ومن بين الأسئلة :

هل شاهدت ارواحاً في حياتك ؟ هل تؤمن بنتائج الأرواح ؟ هل تتناول المخدرات ؟ هل سبق أن زرت مستشفى للامراض العصبية ؟ وقالت لنا المرأة الخمسينية أن بيتر غودوين سيقيم مركزاً روحياً في كل مدينة في بريطانيا وانه سيدربنا على العلاج الروحي بحيث نصبح قادرين على العمل في هذه المراكز ، ثم يرسل الزبائن الينا ، على أن نتقاضى خمسة جنيهات استرلينية عن الجلسة الواحدة ، ونعالج ما يعادل ٤٠ شخصاً في الأسبوع .. بشرط أن يقتطع بيتر غودوين لنفسه نصف أول خمسة آلاف جنيه استرليني والنصف الباقي لنا .. وقد اصيب معظمنا بخيبة الأمل من ذلك وتعالت صيحات الاحتجاج ضد ذلك ، من الاشخاص الذين تقدموا بطلبات وغادر معظمنا الغرفة دون أن يكمل تعبئة الطلبات .

ماذا يقول شهود عيان ؟

ومع ذلك ، فقد تم اختيار البعض وسمح لهم بمقابلة بيتر غودوين في غرفة أخرى ، وقد دامت مقابلة الشخص الأول ٢٠ دقيقة ، بدأت تتقلص ، وعندما جاء دور الشخص الأخير استمرت المقابلة خمس دقائق وفي النهاية تم اختيار بضعة اشخاص ، على ان يتولى بيتر غودوين تدريبهم ..

ومن الاشخاص الذين تم اختيارهم جين بارتليت ، وهي مهندسة ديكور متقاعدة ، وزوجها ارثر بارتليت .. تقول جين :

« لم استوعب شيئاً مما علمه بيتر غودوين لي ، كان دائماً بادي الاضطراب اثناء التدريب ، وفي الآونة الأخيرة ، صار يلجأ الى تسجيل محاضراته على اشرطة تسجيل ، ويتحدث فيها عن آفاق الانسان في الحياة ، وطلب منا مرة أن نصنع تماثيل من الطين تشبه الانسان ، وعلمنا قراءة بعض التعاويذ عليها ، ولكن كل ذلك لم يجد شيئاً .. وزودنا بيتر غودوين بملاحظات لم نفهم منها شيئاً » .

اما ارثر جفري ، وزوجته انجيلا ، فقد كانا من ضمن الأشخاص الذين تم اختيارهم ؛ تقول انجيلا :

« في البداية ، احسسنا بأن الجو العلمي هو السائد في الدروس والمحاضرات ، ولكن غودوين كان دائم الاضطراب ، وبدأ يفقد تأثيره شيئاً فشيئاً ، وبعد بضعة أيام اصبح مجرد انسان عادي ، مثلنا ، لا يتمتع بأية مقدرة خارقة ، وقد لمسنا ذلك لأنه لم يعد يمارس اعاجيبه أمامنا ، بل أصبح يسجل محاضراته على شريط تسجيل ونسمعها نحن من الشريط دون أن نراه ، ولذلك امتنعنا جميعاً عن حضور المحاضرات وتوقفنا عن دفع المصاريف التي كنا ندفعها له ، بمعدل عشرة جنيهات استرلينية للدرس الواحد » .

ومن مكتبه في باسنكسشوك في هانز ، قال بيتر غودوين الرجل الذي خسر ثقة الأرواح به : « كانت خطتي تقضي أن أنمي قوى تلاميذي الروحية ، ثم أمنحهم شهادة تثبت ذلك لكي يتمكنوا من ممارسة عملهم ، فيستفيدوا بذلك ويفيدوا ، واستفيد ، وعلى الرغم من أنني تلقيت عدة رسائل روحية بأن لا استغل المواهب التي منحنى الله إياها للكسب المادي إلا أنني لم استمع ، فكانت النتيجة أن بدأت مقدرتي تتلاشى إلى أن اختفت تماماً . أمّا كيف حدث ذلك ، فإنني لا أعرف حتى الآن » .

تعليقنا على هذه الحادثة :

١ ـ ما زعمه هذا الرجل من أنه كان يحضر الأرواح لا دليل عليه ، ومما يدل على أنه كان يحضر الشياطين أنّه أمر أتباعه بصنع تماثيل وقراءة تعاويذ معينة وهذا ما يرضي الشيطان ويغضب الرحمن .

٢ ـ إذا قلنا إن هذه الأرواح شياطين تحل لنا ظاهرة وجود (بيتر) في أكثر من مكان في وقت واحد ، لأن الشياطين لديها القدرة على التشكل بشكل الإنسان .

وهذا كان يحدث في الماضي ولا يزال يحدث فإبليس جاء المشركين في غزوة بدر في صورة سراقة بن مالك ويحكي ابن تيمية من هذا شيئاً كثيراً ، وأنا أسوق شيئاً من كلامه ليتبين للقارىء أن هذا موجود من قديم ، يقول ابن تيمية عن نفسه : « إن طائفة من أصحابي ذكروا أنهم استغاثوا بي في شدائد أصابتهم ، أحدهم كان خائفاً من الأرمن ، والآخر كان خائفاً من التتر ، فذكر كل منهم أنه لما استغاث بي رآني في الهواء وقد دفعت عنه عدوه ، فأخبرتهم (المخبر ابن تيمية) أني لم اشعر بهذا ، ولا دفعت عنكم شيئاً ، وإنما هذا شيطان تمثَّل لأحدكم فأغواه لما أشرك بالله تعالى » .

يقول : « وهكذا جرى لأكثر من واحد من أصحابنا المشايخ مع أصحابهم ، يستغيث أحدهم بالشيخ فيرى الشيخ قد جاء وقضى حاجته ، ويقول ذلك الشيخ : إني لم أعلم بهذا ، فيتبين أنَّ ذلك كان شيطاناً » .

ويقول أيضاً : « وقد قلت لبعض أصحابنا لما ذكر لي أنه استغاث باثنين كان يعتقدهما وأنهما أتيناه في الهواء ، وقالا له : طيب قلبك ، نحن ندفع هؤلاء عنك ونفعل ونصنع .

قلت له : فهل كان من ذلك شيء ؟ فقال : لا . فكان هذا مما دله على أنهما شيطانان ، فإن الشياطين وإن كانوا يخبرون الإنسان بقضية أو قصة فيها صدق فإنهم يكذبون أضعاف ذلك ، كما كانت الجن يخبرون الكهان » .

٣ ـ ان شياطين بيتر تخلت عنه كما كانت تتخلى الشياطين التي تتصور بصورة الشيوخ عمن وعدتهم الحماية والنصر ، وكما تخلى الشيطان عن الراهب بعد أن وعده بالنصر وفي ذلك إذلال لهذا الذي كان بالأمس موضع احترام الناس وتقديرهم .

٤ ـ زعم (بيتر) أن هذه الأرواح تأييد من الله كذب لا دليل عليه .

الجنّ وعلم الغيب

شاع لدى كثير من الناس أن الجن يعلمون الغيب ، ومردة الجنّ يحاولون أن يؤكدوا هذا الفهم الخاطىء عند البشر ، وقد أبان الله للناس كذب هذه الدعوى عندما قبض روح نبيّه سليمان ـ وكان قد سخر له الجنّ يعملون بين يديه بأمره ـ وأبقى جسده منتصباً ، واستمرّ الجن يعملون ، وهم لا يدرون بأمر وفاته ، حتى أكلت دابة الأرض عصاه المتكيء عليها ، فسقط ، فتبين للناس كذبهم في دعواهم أنهم يعلمون الغيب : (فلما قضينا عليه الموت ، ما دلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خرَّ تبينت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) (سورة سبأ /١٤) .

وقد سبق القول كيف أنهم كانوا يسترقون خبر السماء ، وكيف زيد في حراسة السماء بعد بعثة الرسول ﷺ ، فقلَّما يستطيع الجن استراق السمع بعد ذلك .

العرّافون والكهان :

وبذلك يعلم عظم الخطأ الذي يقع فيه عوام الناس باعتقادهم أن بعض البشر كالعرافين والكهان يعلمون الغيب ، فتراهم يذهبون إليهم يسألونهم عن أمور حدثت من سرقات وجنايات ، وأمور لم تحدث مما سيكون لهم ولأبنائهم ، ولقد خاب السائل والمسئول ، فالغيب علمه عند الله ، لا يظهر الله عليه إلا من شاء من عباده الصالحين : (عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً) (سورة الجن /٢٦ ـ ٢٨) .

والاعتقاد بأنَّ فلاناً يعلم الغيب اعتقاد آثم ضال يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة التي تجعل علم الغيب لله وحده .

أمّا إذا تعدى الأمر إلى استفتاء أدعياء الغيب فإن الجريمة تصبح من العظم بمكان ، ففي صحيح مسلم ومسند أحمد عن بعض أزواج النبي - ﷺ - عن النبي - ﷺ - قال : (من أتى عرافاً فسأله عن شيء ، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) .

وتصديق هؤلاء كفر كما في المسند عن أبي هريرة أن النبي - ﷺ - قال : (من أتى عرافاً أو كاهناً ، فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد) .

قال شارح العقيدة الطحاوية : (والمنجم يدخل في اسم (العراف) عند بعض العلماء ، وعند بعضهم هو في معناه - ثم قال - فإذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالمسئول ؟) ومراده إذا كان السائل لا تقبل له صلاة أربعين يوماً ، وإذا كان الذي يصدق الكاهن والعراف يكفر بالمنزل على الرسول - ﷺ - فكيف يكون حكم الكاهن والعراف ؟

سؤال العرافين والكهنة على وجه الامتحان :

يرى ابن تيمية أن سؤال الكهنة بقصد امتحان حالهم ، واختبار باطنهم ، ليميز صدقهم من كذبهم - جائز ، واستدل بحديث الصحيحين : « أنَّ النبي - ﷺ - سأل ابن صياد ، فقال : ما يأتيك ؟ فقال : يأتيني صادق وكاذب . قال : ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على الماء ، قال : فإني قد خبأت لك خبيئاً ، قال : الدخ ، الدخ . قال : اخسأ ، فلن تعدو قدرك ، فإنما أنت من إخوان الكهان » . فأنت ترى أن الرسول - ﷺ - سأل هذا الدعيّ ليكشف أمره ويبين للناس حاله .

المنجمون :

وصناعة التنجيم التي مضمونها : الأحكام والتأثير ، وهو **الاستدلال** على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمريح بين القرى الفلكية والفوايل الأرضية : صناعة محرمة بالكتاب والسنة ؛ بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين ، قال تعالى : (ولا يفلح الساحر حيث أتى) ، (طه : ٦٩) .

وقال تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) (سورة النساء / ٥١) قال عمر بن الخطاب : الجبت السحر . (شرح العقيدة الطحاوية ٥٦٨) .

شبهة :

قد يزعم قائل أن العرافين والكهنة والمنجمين يصدقون أحياناً ، والجواب : أن صدقهم في كثير من الأحيان يكون من باب التلبيس على الناس ، فإنهم يقولون للناس كلاماً عاماً يحتمل وجوهاً من التفسير ، فإذا حدث الأمر فإنّه يفسره لهم تفسيراً يوافق ما قال .

وصدقهم في الأمور الجزئية إمّا أنه يرجع إلى الفراسة والتنبؤ ، وإمّا أن تكون هذه الكلمة الصادقة مما خطفه الجن من خبر السماء . ففي الصحيحين ومسند أحمد عن عائشة ، قالت : سئل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الكهان ؟ فقال (ليسوا بشيء) . فقالوا : يا رسول الله ، إنهم يحدثون بالشيء يكون حقّا ! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى ، فيقرها في أذن وليه ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة) . وإذا كانت القضية التي صدق فيها من الأمور التي حدثت كمعرفته بالسارق ، أو معرفته باسم الشخص الذي يقدم عليه لأول مرة وأسماء أبنائه وأسرته ، فهذا قد يكون بحيلة ما ، كالذي يضع شخصاً ليسأل الناس وتكون عنده وسيلة لاستماع أقوالهم قبل أن يمثلوا بين يديه ، أو يكون هذا من فعل الشياطين ، وعلم

الشياطين بالأمور التي حدثت ووقعت ليس بالأمر المستغرب .

الكهنة رسل الشيطان :

يقول ابن القيم (الإغاثة ٢٧١/١) : (الكهنة رسل الشيطان ؛ لأن المشركين يهرعون إليهم ، ويفزعون إليهم في أمورهم العظام ، ويصدقونهم ، ويتحاكمون إليهم ، ويرضون بحكمهم ، كما يفعل أتباع الرسل بالرسل ، فإنَّهم يعتقدون أنهم يعلمون الغيب ، ويخبرون عن المغيبات التي لا يعرفها غيرهم ، فهم عند المشركين بهم بمنزلة الرسل ، فالكهنة رسل الشيطان حقيقة ، أرسلهم إلى حزبه من المشركين وشبَّههم بالرسل الصادقين ، حتى استجاب لهم حزبه ، ومثل رسل الله بهم لينفر عنهم ، ويجعل رسله هم الصادقين العالمين بالغيب ، ولما كان بين النوعين أعظم التضاد قال رسول الله - ﷺ - : (من أتى كاهناً ، فصدَّقه بما يقول ، فقد كفر بما أُنزل على محمد) .

فإن الناس قسمان : أتباع الكهنة ، وأتباع الرسل ، فلا يجتمع في العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء ، بل يبعد عن الرسول - ﷺ - بقدر قربه من الكاهن ، ويكذب الرسول بقدر تصديقه للكاهن .

أقول : ومن يدرس تواريخ الأمم يعلم أن الكهان والسحرة كانوا يقومون مقام الرسل ، ولكنهم رسل الشيطان . فالسحرة والكهنة كانت لهم الكلمة المسموعة في أقوامهم ، يحلون ويحرمون ، ويأخذون المال ، ويأمرون بأنواع من العبادة والطقوس ترضي الشياطين ، ويأمرون بقطيعة الأرحام ، وانتهاك الأعراض ، وقد بين شيئاً من ذلك العقاد في كتابة (إبليس) .

واجب الأمة نحو هؤلاء :

ما يدعيه المنجمون ، والعرافون ، والسحرة ، ضلال كبير ومنكر لا يستهان به ، وعلى الذين أعطاهم الله دينه ، وعلمهم كتابه وسنة نبيه أن ينكروا هذا الضلال بالقول ، ويوضحوا هذا الباطل بالحجة والبرهان ، وعلى الذين

في يدهم السلطة أن يأخذوا على يد هؤلاء الذين يدَّعون الغيب من العرافين والكهنة وضاربي الرمل والحصى ، والناظرين في اليد (والفنجان) ، وعليهم أن يمنعوا نشر خز عبلاتهم في الصحف والمجلات ، ويعاقبوا من يتظاهر ببضاعته وضلالاته في الطرقات ، وقد ذم الله بني اسرائيل لتركهم التناهي عن المنكر : (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون) .

وفي السنن عن النبي ـ ﷺ ـ برواية الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : (إن النَّاس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه) .

الجنّ والأطباق الطّائرة

كثر الحديث في هذه الأيام عن الأطباق الطائرة ، فلا يكاد يمرُّ أسبوع إلا ونسمع أن شخصاً أو عدة أشخاص رأوا طبقاً طائراً ، رأوه في الجوّ محلقاً ، أو على الأرض جاثماً ، أو رأوا مخلوقات مخالفة لشكل الإنسان تخرج منه ، ووصل الأمر إلى الادعاء بأن بعض هذه المخلوقات طلبت إلى بعض الناس مصاحبتها إلى الطبق وأجرت فحوصاً عليه .

ولا يدعى هذه الدعوى أناس مغمورون فحسب بل يزعم ذلك رجال بارزون أمثال رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، فإنه يعتقد أنه لمح شيئاً طائراً لم يتعرف على ماهيته في سماء ولاية جورجيا عام ١٩٧٣ .

وهو يبدي اهتماماً خاصاً بالمخلوقات الأخرى التي بدأت تغزو الأرض فقد أمضى الرئيس الأمريكي (كما نشرت الصحف) أمسية يناقش أحد العلماء المقتنعين بأن الإنسان ليس المخلوق الوحيد في الكون ، وكان يرافق الرئيس كارتر (فرانك برس) مستشاره للشئون العلمية وبعد ذلك شاهد كارتر داخل المرصد القومي أفلاماً توجز آخر ما توصلت إليه الأبحاث حول المخلوقات التي تعيش خارج نطاق الأرض ، وقام بعرض هذه الأفلام

(كارل ساجان) مدير معمل الدراسات الكونية بجامعة (كورنل) الذي ترجع إليه دائماً وكالة الفضاء الأمريكية في الأمور المتعلقة بالمخلوقات التي تعيش خارج نطاق كوكب الأرض . (راجع جريدة السياسة الكويتية العدد (٣٣٩٩) ٧٧/١٢/٥) .

وينسب ملحق الهدف الكويتية الصادر بتاريخ ٧٨/٣/٢٣ إلى الرئيس الصيني الأسبق (ماوتسي تنغ) أنه كان يؤمن بوجود مخلوقات غيرنا في الكواكب الأخرى .

ويذكر كاتب المقال أن حوالي ٦١ ٪ من الشعب الأمريكي مقتنعون بذلك وتزعم الصحف الأمريكية أن قرابة نصف مليون أمريكي شاهدوا هذه الأطباق ، وبعض هؤلاء استطاع أن يتصل بهم اتصالاً مباشراً .

وقد قام المخرج السينمائي الأمريكي (ستيفن سبيلبرغ) (فيلماً) سينمائياً بعنوان (مواجهة من النوع الثالث) بلغت تكاليفه اثنان وعشرون مليوناً من الدولارات الأمريكية .

وقد وضع الفيلم بعد تجميع المعلومات من الذين شاهدوا الأطباق الطائرة أو اتصلوا بها .

وقد عرض الفيلم لأول مرة في البيت الأبيض وكان الرئيس الامريكي أول مشاهديه .

وبعد خروج هذا الفيلم اقتنعت وكالة الفضاء الأمريكية بضرورة البحث في هذا المجال وخصصت مليون دولار لابحاث عام ١٩٧٩ ، وقد أطلقت على المشروع السري اسم (سيتي) ويتلخص في اطلاق أجهزة خاصة للفضاء الخارجي للبحث عن رسائل لاسلكية قادمة من كواكب أخرى .

ويمكننا بعد هذا العرض أن نقرر ما يأتي :

١ ـ لا مجال للتكذيب بوجود مخلوقات غريبة غير الإنسان ، إذ تواترت

الرؤية من عشرات الألوف بل مئات الألوف ، وقد تابعت ما قيل في هذا الموضوع فترة طويلة ، فكنت أجد مقالاً كل أسبوع تقريباً أو أكثر أو أقل حول رؤية جماعة أو شخص لشيء من هذا [1] .

٢ ـ أن الناس احتاروا في تفسير حقيقة هذه الأطباق ، وحقيقة المخلوقات التي تستخدمها ، خاصة وأن سرعة هذه الأطباق خيالية تفوق سرعة أي مركبة اخترعها الإنسان .

٣ ـ أنا أجزم بأن هذه المخلوقات هي من عالم الجن الذي يسكن أرضنا هذه ، والذي تحدثنا عنه فيما سبق ، وبينا ما لديه من قدرات وامكانات تفوق قدرة البشر ، ولقد أعطي سرعة تفوق سرعة الصوت والضوء ، كما أعطي القدرة على التشكل ، وهو يستطيع أن يتراءى للإنسان في صور وأشكال مختلفة .

وبذلك يتبين لنا فضل الله علينا إذ عرفنا بهذه الحقائق ، خاصة ونحن نشعر بالحيرة والقلق لدى الذين لا يعلمون ما علمناه ، وبذلك نوفر طاقاتنا العقلية وقدراتنا العلمية وأموالنا ؛ كي نوجهها وجهة نافعة .

وقد يتساءل بعضنا عن السرّ في ظهور هذه الأطباق في أيامنا هذه وعدم ظهورها في العصور الخالية ، فالجواب أن الجنَّ يلبسون لكل عصر لبوسه ، وهذا العصر عصر التقدم العلمي ، ولذلك فإنَّهم يضللون البشر بالطريقة التي تثير انتباههم ، وتشدُّ نفوسهم ، والناس اليوم يتطلعون إلى معرفة شيء عن الفضاء الواسع وعن امكانية وجود مخلوقات فيه غيرهم .

---

(١) وآخر ذلك ما حدث في الكويت فقد قرر أكثر من شخص أنه رأى طبقاً طائراً ، وقد نشرت الصحف الكويتية النبأ في حينه .

الفصل الخامس

أسلحة المؤمن في حربه مع الشيطان



أسلحة المؤمن في حربه مع الشيطان

أولاً ـ الحذر والحيطة :

هذا العدو الخبيث الماكر حريص على ضلال بني آدم وقد علمنا أهدافه ووسائله في الاضلال ، فبمقدار علمك بهذا العدو : أهدافه ووسائله ، والسبل التي يضلنا بها تكون نجاتنا منه ، أما إذا كان الإنسان غافلاً عن هذه الأمور فإن عدوه يأسره ويوجهه الوجهة التي يريد . وقد صور ابن الجوزي هذا الصراع بين الإنسان والشيطان تصويراً بديعاً حيث يقول : « واعلم أن القلب كالحصن ، وعلى ذلك الحصن سور ، وللسور أبواب وفيه ثلم (الثلمة في السور الموضوع المتهدم منه) وساكنه العقل ، والملائكة تتردد على ذلك الحصن ، وإلى جانبه ربض « الربض المكان الذي يُؤْوي إليه » فيه الهوى، والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع ، والحرب قائم بين أهل الحصن وأهل الربض ، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم ، فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وكل بحفظه وجميع الثلم ، ألَا يفتر عن الحراسة لحظة ، فإن العدو لا يفتر . قال رجل للحسن البصري : أينام إبليس ؟ قال : لو نام لوجدنا راحة .

وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان وفيه مرآة صقيلة يتراءى فيها صور كل ما يمرُّ به ، فأول ما يفعل الشيطان في الربضين إكثار الدخان فتسودّ حيطان الحصن ، وتصدأ المرآة ، وكمال الفكر برد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرآة ، وللعدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن ، فيكر عليه الحارس فيخرج ، وربما دخل فعاث وربما أقام لغفلة الحراس ، وربما

ركدت الريح الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة فيمر الشيطان ولا يدرى به ، وربما جرح الحارس لغفلته وأسر واستخدم وأقيم يستنبط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته ، وربما صار كالفقيه في الشر ، (تلبيس إبليس /٤٩) .

ثانياً ـ الالتزام بالكتاب والسنَّة :

أعظم سبيل للحماية من الشيطان هو الالتزام بالكتاب والسنة علماً وعملاً ، فالكتاب والسنة جاءا بالصراط المستقيم ، والشيطان يجاهد كي يخرجنا عن هذا الصراط قال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) (سورة الأنعام / ١٥٣) وقد شرح الرسول ـ ﷺ ـ هذه الآية وبينها فقد « خط ـ ﷺ ـ خطاً بيده ، ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيماً » وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه والنسائي) .

فاتباع ما جاءنا من عند الله من عقائد وأعمال وأقوال وعبادات وتشريعات وترك كل ما نهى عنه يجعل العبد في حرز من الشيطان ، ولذلك قال سبحانه وتعالى: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) (سورة البقرة / ٢٠٨) والسلم هو الإسلام وقيل طاعة الله وفسره مقاتل بأنه العمل بجميع الأعمال ووجوه البر ، وعلى ذلك فقد أمرهم بالعمل بجميع شعب الايمان وشرائع الإسلام ما استطاعوا ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، فالذي يدخل في الإسلام مبتعد عن الشيطان وخطواته ، والذي يترك شيئاً من الإسلام فقد اتبع بعض خطوات الشيطان ، ولذلك كان تحليل ما حرّم الله ، وتحريم ما أحل الله ، أو الأكل من المحرمات والخبائث

كل ذلك من اتباع خطوات الشيطان التي نهينا عنها (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) ، (سورة البقرة /١٦٨) .

إن الالتزام بالكتاب والسنة قولاً وعملاً يطرد الشيطان ويغيظه أعظم اغاظة ، روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وابن ماجة في سننه عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إذا قرأ ابنُ آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي ، يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنّة ، وأُمرت بالسجود فعصيت فلي النار » .

ثالثاً ـ الالتجاء إلى الله والاحتماء به :

خير سبيل للاحتماء من الشيطان وجنده هو الالتجاء إلى الله والاحتماء بجنابه والاستعاذة به من الشيطان ، فإنه عليه قادر ، فإذا أجار عبده فأنى يخلص الشيطان إليه ، قال تعالى : (خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين ، **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) (سورة الأعراف / ١٩٩ ـ ٢٠٠).**

وقد أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ بالاستعاذة بالله من همزات الشياطين وحضورهم (وقل ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون) (سورة المؤمنون / ٩٧ ، ٩٨) . وهمزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم فالله يأمرنا بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا احساناً ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم .

يقول ابن كثير في تفسيره (١/٢٨): « والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شرّ كل ذي شرّ ... ، ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم ، لا يضرني في ديني ودنياي

أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه » .

وقد كان ـ ﷺ ـ يكثر من الاستعاذة بربه من الشيطان بصيغ مختلفة فكان يقول بعد دعاء الاستفتاح في الصلاة : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » روى ذلك أصحاب السنن الأربعة ، وقد فسر همز الشيطان بالموتة وهي الخنق ، والنفخ بالكبر ، والنفث بالشعر .

الاستعاذة عند دخول الخلاء :

وكان إذا دخل الخلاء يستعيذ من الشياطين ذكورهم وإناثهم كما في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان النبي ـ ﷺ ـ إذا دخل الخلاء قال : « اللهمَّ إني أعوذ بك من الخبث والخبائث » .

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود بإسناد صحيح عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « إن هذه الحشوش محتضرة ، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : أعوذ بالله من الخبث والخبائث » .

الاستعاذة عند الغضب :

واستب رجلان عند النبي ـ ﷺ ـ فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى يخيل إلى (إلى رواي الحديث) أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه ، فقال النبي ـ ﷺ ـ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب » فقالوا : ما هي يا رسول الله ؟ قال : يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم » رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد وهذا لفظ أحمد .

وقد علم الرسول ـ ﷺ ـ أحد أصحابه أن يقول : « اللهمّ فاطر السموات

والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، لا إله إلا أنت ، ربَّ كل شيء ومليكه ، أعوذ بك من شرِّ نفسي ، ومن شرِّ الشيطان وشركه ، وأن اقترف على نفسي سوءاً ، أو أجره إلى مسلم » رواه الترمذي بإسناد صحيح (صحيح الجامع ٥٦/٦) .

الاستعاذة عند الجماع :

وحثنا على الاستعاذة حين يأتي الرجل أهله بأن يقول : « بسم الله اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه لو قضى بينهما ولد من ذلك لم يضره الشيطان أبداً » متفق عليه . وإذا نزل المرء واديا أو منزلاً فعليه أن يستعيذ بالله لا كما كان يفعل أهل الجاهلية يستعيذون بالجن والشياطين ، فيقول قائلهم : أعوذ بزعيم هذا الوادي من سفهاء قومه ، فكانت العاقبة أن استكبرت الجن وآذتهم كما حكى الله عنهم ذلك في سورة الجن (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) (سورة الجن /٦) أي الجن زادت الإنس رهقاً ، أما المسلم فانظر إلام أرشده الرسول - ﷺ - حيث يقول : « لو أن أحدكم إذا نزل منزلاً قال : أعوذ بكلمات الله التامة من شرِّ ما خلق ، لم يضره في ذلك المنزل شيء ، حتى يرتحل منه » . رواه ابن ماجه باسناد صحيح .

التعوذ بالله من الشيطان عند سماع نهيق الحمار :

يقول الرسول - ﷺ - : « إذا نهق الحمار فتعوَّذوا بالله من الشيطان الرجيم » رواه الطبراني في معجمه الكبير باسناد صحيح (راجع صحيح الجامع ٢٨٦/١) وقد سبق أن الحمار إذا نهق بالليل فيكون قد رأى شيطاناً .

التعوذ حين قراءة القرآن :

قال تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) (سورة النحل ٩٨-٩٩)

وقد بين ابن القيم الحكمة في الاستعاذة بالله من الشيطان حين قراءة القرآن ، (اغاثة اللهفان ١/١٠٩) فقال :

« ١ ـ إن القرآن شفاء لما في الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة ، فهو دواء لما أمره الشيطان فيها ، فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلي منه القلب ليصادف الداء محلاً خالياً ، فيتمكن منه ، ويؤثر فيه ، كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خاليـــــاً فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجح فيه .

٢ ـ ومنها أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب ، كما أنَّ الماء مادة النبات ، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً ، فكلما أحسَّ بنبات الخير من القلب سعى في افساده واحراقه ، فأمر أن يستعيذ بالله ـ عز وجل ـ منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن . والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن ، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها .

٣ ـ ومنها أن الملائكة تدنو من قارىء القرآن وتستمع لقراءته ، كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها المصابيح ، فقال عليه الصلاة والسلام : تلك الملائكة والشيطان ضد الملك وعدوه . فأمر القارىء أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته ، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين .

٤ ـ ومنها أن الشيطان يجلب على القارىء بخيله ورجِله ، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن ، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلِّم به سبحانه ، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن ، فلا يكمل

انتفاع القارىء به ، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

٥ ـ ومنها أن القارىء يناجي الله تعالى بكلامه ، والله أشدُّ أذناً للقارىء الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته ، والشيطان إنَّما قراءته الشعر والغناء ، فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته .

٦ ـ ومنها : أن الله سبحانه أخبر أنّه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، والسلف كلهم على أن المعنى : إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته ... فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام فكيف بغيرهم . ولهذا يغلِّط القارىء تارة ، ويخلط عليه القراءة ، ويشوشها عليه ، فيخبط عليه لسانه ، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه ، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارىء هذا أو هذا ، وربَّما جمعها له .

٧ ـ ومنها أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه ، فهو يشتدُّ عليه حينئذ ليقطعه عنه » .

تعويذ الأبناء والأهل :

وقد كان الرسول ـ ﷺ ـ يعوذ الحسن والحسين فيقول : « اعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كلِّ عين لامة ، ثم يقول : هكذا كان أبي إبراهيم ـ ﷺ ـ يعوذ إسماعيل واسحق » (أخرجاه في الصحيحين) . قال أبو بكر بن الأنباري : « الهامة واحد الهوام ، ويقال هي كل نسمة تهم بسوء ، واللامة الملمة وإنما قال لامة ليوافق لفظ هامة فيكون أخف على اللسان » (تلبيس إبليس ٤٧) .

خير ما يتعوذ به المتعوذون :

وخير ما يتعوذ به المتعوذون سورتا الفلق والناس ، فعن عقبة بن عامر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين : (قل أعوذ

برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) » رواه النسائي .

فقه عظيم :

حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : « ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال هذا يطول . أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع ، قال : أكابده جهدي وأرده . هذا أمر يطول ولكن استعن بصاحب الغنم يكفّه عنك » (تلبيس إبليس/ ٤٨) وهذا فقه عظيم من هذا العالم الجليل فإن الاحتماء بالله والالتجاء إليه هو السبيل القوي الذي يطرد الشيطان ويبعده ، وهذا ما فعلت أم مريم إذ قالت:(وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) (سورة آل عمران / ٣٦) .

شبهة :

يقول بعض الناس إننا نستعيذ بالله ومع ذلك فإننا نحس بالشيطان يوسوس لنا ويحرضنا على الشر ويشغلنا في صلاتنا .

والجواب أن الاستعاذة كالسيف في يد المقاتل ، فإن كانت يده قوية أصاب من عدوه مقتلاً ، وإلا فانه قد لا يؤثر فيه ، ولو كان السيف صقيلاً حديداً .

وكذلك الاستعاذة إذا كانت من تقي ورع كانت ناراً تحرق الشيطان وإذا كانت من مخلط ضعيف الإيمان فلا تؤثر في العدو تأثيراً قوياً . قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله : (واعلم أن مثل إبليس مع المتقي والمخلط كرجل جالس بين يديه طعام ولحم فرَّ به كلب ، فقال له اخسأ ، فذهب . فرَّ بآخر بين يديه طعام ولحم فكلّما أخسأه (طرده) لم يبرح . فالأول مثل المتقي يمرُّ به الشيطان فيكفيه في طرده الذكر . والثاني مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه نعوذ بالله من الشيطان) . (تلبيس إبليس / ٤٨) .

فعلى المسلم الذي يريد النجاة من الشيطان وأحابيله أن يشتغل بتقوية إيمانه

والاحتماء بالله ربه والالتجاء إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

رابعاً ـ الاشتغال بذكر الله :

ذكر الله من أعظم ما ينجي العبد من الشيطان وسيأتي ذكر الحديث الذي يأمر فيه نبي الله يحيى بني اسرائيل بخمس خصال ، ومن هذه « وآمركم أن تذكروا الله تعالى ، فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدوّ في أثَره سراعاً ، حتى إذا أتى إلى حصن حصين ، فاحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله » يقول ابن القيم في (الوابل الصيب ص ٦٠) : فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى ، وأن لا يزال لهجاً بذكره ، فإنَّه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة ، فهو يرصده ، فإذا غفل وثب عليه وافترسه ، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله وتصاغر ، وانقمع ، حتى يكون كالوصع (طائر أصغر من العصفور) وكالذباب ، ولهذا سمي (الوسواس الخناس) ، أي : يوسوس في الصدور ، فإذا ذكر الله خنس ، أي كف وانقبض . وقال ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله تعالى خنس .

ويقول ابن القيم (ص ١٤٤) : « الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه ، فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظاً ، وأحاطوا به ، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشرِّ والأذى ، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عز وجل » .

ثم ساق رحمه الله حديث عبد الرحمن بن سمرة ، قال : خرج علينا رسولُ الله ﷺ يوماً ، وكُنَّا في صُفَّةٍ بالمدينة ، فقام علينا وقال : « إِنِّي رأَيْتُ البارحَةَ عَجَباً : رأَيتُ رجلاً من أُمَّتي أَتاه مَلَك الموت ليَقْبِضَ رُوحَهُ ، فجاءه بِرُّه بوالِدَيْه ، فردَّ مَلَك الموت عنه ، ورأيت رجلاً قد بُسط عليه عذاب

القبر ، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيتُ رجُلاً من أُمَّتي قد احْتَوَشَتْه الشَّياطين ، فجاءه ذِكْر الله عز وجل ، فطرد الشيطان عنه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب ، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيتُ رجلاً من أُمَّتي يلتهب ـ وفي رواية : يلهث ـ عَطَشاً ، كلَّما دنا من حوضٍ مُنِعَ وطُرِدَ ، فجاءه صيام شهرِ رمضانَ ، فَأَسْقَاهُ وأَرْوَاهُ ، ورأيتُ رجلاً من أُمَّتي ، ورأيت النَّبيِّين جُلوساً حِلَقاً حِلَقاً ، كلما دنا إلى حَلْقَةٍ طُـرِدَ ، فجاءه غُسْلُهُ من الجنابة ، فأخذ بيده ، فأقعده إلى جنبي ، ورأيتُ رجلاً من أمتي بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن يساره ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، وهو متحيِّر فيها ، فجاءه حجُّه وعُمرتُه ، فاستخرجاه من الظلمة ، وأدخلاه في النور ، ورأيت رجلاً من أُمَّتي يتَّقي بيده وهَجَ النار وشرره ، فجاءته صدقته ، فصارت سُتْرَةً بينه وبين النار ، وظلَّلَتْ على رأسه ، ورأيتُ رجلاً من أمتي يكلِّم المؤمنين ولا يكلِّمونه ، فجاءته صِلَتُهُ لِرَحِمِهِ فقالت : يا معشر المسلمين ، إنه كان وَصُولاً لرَحِمِهِ فكلِّمُوه ، فكلمه المؤمنون وصافَحوه وصافَحَهُم ، ورأيتُ رجلاً من أمَّتي قد احْتَوَشَتْه الزَّبانِيَةُ ، فجاءه أمره بالمعروف ونَهْيُه عن المنكر ، فاسْتَنقَذَه من أيديهم ، وأدخله في ملائكة الرحمة ، ورأيتُ رجلاً من أمتي جاثِياً على رُكْبَتَيْه ، وبينه وبين الله عز وجل حجاب ، فجاءه حُسْنُ خُلُقِهِ ، فأخذ بيده ، فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله عز وجل ، فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتي خَفَّ ميزانه ، فجاءه أفراطه[1] فَثَقَّلُوا ميزانه ، ورأيتُ رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم ، فجاءه رجاؤه في الله عز وجل ، فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي قد أهوى في النار ، فجاءته دمعتُه التي بكى من خشية الله عز وجل ، فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلاً من

(١) جمع فرط ، والمراد به : من مات له من الأطفال .

أمتي قائماً على الصراط يُرعد كما ترعد السَّعَفَة في ريح عاصف ، فجاءه حُسْنُ ظَنِّهِ بالله عز وجل ، فسَكَّن رِعْدَتَهُ ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي يَزْحَفُ على الصراط ، ويحبو أحياناً ، ويتعلق أحياناً ، فجاءته صلاته عليَّ فأقامته على قدميه ، وأنقذته ، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلِّقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ، ففتحت له الأبواب ، وأدخلته الجنة » . رواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب « الترغيب في الخصال المنجية ، والترهيب من الخلال المردية » وبنى كتابه عليه وجعله شرحاً له ، وقال : هذا حديث حسن جداً ، رواه عن سعيد بن المسيب : عمرو بن آزر ، وعلي بن زيد بن جدعان ، وهلال أبو جبلة . وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يعظِّم شأن هذا الحديث ، وبلغني عنه أنه كان يقول : شواهد الصحة عليه . والمقصود منه قوله ﷺ : « ورأيت رجلاً من امتي قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله عز وجل ، فطرد الشيطان عنه » فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعري .

وقوله فيه : « وآمَرَكُم بذكر الله عز وجل ، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو ، فانطلقوا في طلبه سِراعاً ، وانطلق حتى أتى حصناً حَصِيناً ، فأحرز نفسه فيه » .

فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه إلا بذكر الله عز وجل ، وفي الترمذي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ بسْم اللهِ ، توكَّلْتُ على الله ، لا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله ، يقال له : كُفِيتَ وهُدِيتَ وَوُقِيتَ ، وتَنَحَّى عنه الشيطان ، فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدِيَ وكُفِي ووُقِي » ؟ رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال : حديث حسن .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « مَنْ قال في يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، كانت

له حِرْزاً من الشيطان حتى يمسي » . وذكر سفيان عن أبي الزبير ، عن عبد الله ابن ضمرة ، عن كعب قال : إذا خرج الرجل من بيته فقال : بِسْمِ اللهِ ، قال المَلَكُ : هُديتَ ، وإذا قال : توكَّلْتُ على الله ، قال المَلَكُ : كُفيت ، وإذا قال : لاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ قال المَلَكُ : حُفِظْتَ . فيقول الشياطين بعضهم لبعض : ارجعوا ، ليس لكم عليه سَبيل ، كيف لكم بمن كُفي وهُدي وحفظ ؟ .

وقال أبو خلاد المصري : من دخل في الإسلام ، دخل في حصن ، ومن دخل المسجد ، فقد دخل في حصنين ، ومن جلس في حلقة يذكر الله عز وجل فيها ، فقد دخل في ثلاثة حصون .

وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه من حديث أبي عمران الجوني ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : إذا وضع العبد جَنْبَه على فراشه ، فقال : بسم الله ، وقرأ فاتحة الكتاب ، أَمِنَ من شرِّ الجنِّ والإنسِ ومن كل شيء » ذكره السيوطي في « الجامع الكبير » ونسبه للبزار والديلمي . قال الهيثمي في « المجمع » : وفيه غسان بن عبيد ، وهو ضعيف ، ووثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح (محقق الوابل الصيب) .

وفي « صحيح البخاري » ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة قال : ولأَّني رسول الله ﷺ زكاةَ رمضانَ أن احتفظ بها ، فأتاني آتٍ ، فجعل يَحْثُو الطَّعام ، فأخذته ، فقال : دعني فإني لا أعود ... فذكر الحديث ، وقال : فقال في الثالثة : أعلِّمك كلمات ينفعك الله بهن ، إذا أوَيْتَ إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي من أولها إلى آخرها ، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخلى سبيله ، فأصبح ، فأخبر النبي ﷺ بقوله ، فقال : « صَدَقَكَ ، وهو كذوب » .

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذَا أوى الإنْسانُ إلىٰ فِرَاشِه ، ابْتَدَرَهُ مَلَكٌ وشَيْطَانٌ ،

فيقول المَلَكُ : اختم بخير ، ويقول الشيطان : اختم بشر . فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه ـ يعني النوم ـ طرد المَلَكُ الشيطان وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان : افتح بشر ، فإن قال : الحمد لله الذي أحيا نفسي بعد موتها ولم يمتها في منامها ، الحمد لله الذي يمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه[1] ، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه »[2] .

وفي « الصحيحين » : من حديث سالم بن أبي الجعد ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أَمَا إِنَّ أَحَدَكُم إِذَا أَتَىٰ أَهْلَهُ قالَ : بِسْمِ اللهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ ، وجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فيولد بينهما ولد [3] لاَ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَداً » [4] .

وذكر الحافظ أبو موسى ، عن الحسن بن علي قال : أنا ضامنٌ لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يَعْصِمَهُ اللهُ تعالى مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ ظَالِم ، ومن كُلِّ

---

(١) الذي في « موارد الظمآن » و « مجمع الزوائد » بدل هذه الجملة الأخيرة من الحديث : طرد الملك ... الخ : « فإن وقع عن سريره دخل الجنة . والذي في « مستدرك الحاكم » : « فإن خرق دابة مات شهيداً ، وإن قام فصلى صلى في الفضائل » . محقق الوابل الصيب .

(٢) ورواه بمعناه ابن حبان رقم ٢٣٦٢ « موارد » ، والحاكم ٥٤٨/١ وصححه ووافقه الذهبي ورجاله ثقات ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٢٠/١٠ وقال : رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح ، غير إبراهيم بن الحجاج الشامي ، وهو ثقة . نقول : وصوابه : إبراهيم بن الحجاج السامي ، بالسين المهملة . (محقق الوابل الصيب) .

(٣) كذا في النسخ المطبوعة : فيولد بينهما ولد . وليس في « الصحيحين » بهذا اللفظ ، وقد رواه المصنف بالمعنى . وفي بعض روايات البخاري : فإن كان بينهما ولد . وفي « الصحيحين » : « فإنه إن يقدر بينهما ولد ، لم يضره الشيطان أبداً » . (محقق الوابل الصيب) .

(٤) رواه البخاري ٣٢١/١٣ في التوحيد ، باب السؤال بأسماء الله تعالى ، وفي بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ، وفي الدعوات ، باب الدعاء للمتزوج ، ومسلم رقم ١٤٣٤ في النكاح ، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع . (محقق الوابل الصيب) .

شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ، ومِنْ كلٍّ سَبُعٍ ضَارٍ ، ومن كلِّ لِصٍّ عادٍ : آيةَ الكرسي ، وثلاثَ آيات من الأعراف (إنَّ رَبَّكُم اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ ...) [الأعراف : ٥٤ ـ ٥٧] ، وعشراً من الصَّافَّاتِ [١ ـ ١٠] ، وثلاثَ آياتٍ من الرَّحْمٰن (يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ...) [الرحمن : ٣٣ ـ ٣٤] ، وخاتمة سُورَةِ الحَشْرِ : (لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا [القرآن]) [الحشر : ٢١ ـ ٢٤] .

وقال محمد بن أبان : بينما رجل يصلي في المسجد ، إذا هو بشيء إلى جنبه ، فجفل منه ، فقال : ليس عليك مني بأس ، إنما جئتك في الله تعالى ، ائت عروة فسله : ما الذي يتعوذه ؟ ـ يعني من إبليس الأباليس ـ . قال : قُلْ آمنتُ باللهِ العظيم وحدَه ، وكفرتُ بالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ، واعْتَصَمْتُ بالعُرْوَةِ الوُثْقى لا انْفِصَام لها ، والله سميع عليم ، حسبيَ الله وكفى ، سمع الله لمن دَعا ، ليس وراءَ اللهِ منتهى .

وقال بشر بن منصور : عن وهيب بن الورد قال : خرج رجلٌ إلى الجبّانَةِ بعد ساعة من الليل ، قال : فَسَمِعْتُ حِسًّا ـ أو صوتاً ـ شديداً ، وجِيءَ بسريرٍ حتى وضع ، وجاء شيء حتى جلس عليه ، قال : واجتمعت إليه جنوده ، ثم صرخ فقال : من لي بعروة بن الزبير ؟ فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء الله عز وجل من الأصوات ، فقال واحد : أنا أكفيكه . قال : فتوجه نحو المدينة وأنا ناظِرٌ ، ثم أوشك الرجعة ، فقال : لا سبيل إلى عُرْوَةَ ، وقال : ويلكم وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى ، فلا نخلص اليه معهن ، قال الرجل : فلما أصبحتُ ، قلت لأهلي : جَهِّزُوني ، فأتيتُ المدينة ، فسألت عنه حتى دُلِلْتُ عليه ، فإذا شيخ كبير ، فقلت : أشيئاً تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ؟ فأبى أن يخبرني ، فأخبرته بما رأيت وما سمعت ، فقال : ما أدري ، غير أني أقول إذا أصبحت : آمنت بالله العظيم ، وكفرتُ بالجِبْتِ والطَّاغُوتِ ، واستَمْسَكْتُ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى الَّتِي لا انْفِصَامَ لها ، والله سَمِيعٌ عليم . إذا أصبحتُ قلت ثلاثَ مرَّات ، وإذا أمسيْتُ قلت ثلاث مرات .

وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال : قال جبريل للنبيِّ ﷺ : إنَّ عِفريتاً من الجن يَكيدُك ، فإذا أَويْت إلى فِرَاشِكَ فقل : أَعُوذُ بكلماتِ اللهِ التَّامَّات التي لا يُجَاوِزُهُنَّ برٌّ ولا فاجِرٌ ، من شَرِّ ما ينزل من السَّماء وما يَعْرُجْ فيها ، ومن شَرِّ ما ذَرأ من الأرْضِ وما يخرجُ منها ، ومن شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ والنَّهار ، ومن شَرِّ طوارقِ الليل والنهار ، إلاّ طارِقاً يطرق بخير يا رحمن[1]

وقد ثبت في « الصحيح » أن الشيطان يهرب من الأذان .

قال سهيل بن أبي صالح : أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعي غلام ـ أو صاحب ـ لنا ، فنادى منادٍ من حائط باسمه ، فأشرف الذي معي على الحائط ، فلم ير شيئاً ، فذكرت ذلك لأبي ، فقال : لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ، ولكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة ، فإني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنَّ الشَّيْطَانَ إذَا نُودِي بالصلاة ، وَلَّى وله حُصَاصٌ » .

وفي رواية : « إذا سمع النِّدَاءَ وَلَّى وله ضُراطٌ ، حتى لا يسمع التَّأْذينَ ... » الحديث [2] .

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي رجاء ، عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ : « اسْتَكْثِروا من لا إلَهَ إلاَّ اللهُ والاستغفار ،

---

(١) وإسناده منقطع ، ورواه مالك في « الموطأ » ٢/٩٥١ و ٩٥٢ في كتاب الشعر ، باب ما يؤمر به من التعوذ عن يحيى بن سعيد مرسلاً . قال الزرقاني في « شرح الموطأ » : ووصله النسائي من طريق محمد بن جعفر ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة ، عن ابن عباس السلمي ، عن ابن مسعود . قال الزرقاني : قال حمزة الكناني الحافظ : هذا ليس بمحفوظ ، والصواب مرسل . وقال السيوطي : وأخرجه البيهقي في « الأسماء والصفات » من طريق داود ابن عبد الرحمن العطار ، عن يحيى بن سعيد ، قال : سمعت رجلاً من أهل الشام يحدث عن ابن مسعود قال : لما كان ليلة الجن أقبل عفريت في يده شعلة ... فذكره . انتهى . قال الزرقاني : وفيه نظر ، لأن ليلة الجن هي ليلة استماعهم القرآن ، وهي غير ليلة الاسراء ، فهما حديثان وإن اتحد لفظ الاستعاذة فيهما . (محقق الوابل الصيب) .

(٢) رواه البخاري ٢/٦٩ و ٧٠ في الأذان ، باب فضل التأذين ، ومسلم رقم ٣٨٩ في الصلاة ، باب فضل الآذان وهرب الشيطان عند سماعه . (محقق الوابل الصيب) .

فإنَّ الشَّيطانَ قال : قد أهْلَكْتُهُم بالذُّنوب ، وأهْلَكُوني بقول : لا إله إلاَّ الله والاسْتِغفَار ، فلما رأيتُ ذلك منهم ، أهْلَكْتُهُم بالأهْواء حتى يَحْسَبُونَ أنهم مُهْتَدُون ، فلا يَسْتَغْفِرُون »(١) .

وذكر أيضاً عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة قال : بينا رجل مسافر ، إذْ مرَّ برَجُل نائم ، ورأى عنده شيطانين ، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه : اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه ، فلما دنا منه رجع إلى صاحبه فقال : لقد نام على آية ما لنا إليه سبيل ، فذهب إلى النائم ، فلما دنا منه رجع قال : صدقت ، فذهب ، ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين ، فقال : أخبرني على أي آية نمت ؟ قال : على هذه الآية : ﴿إن ربَّكُم اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيام ثُمَّ اسْتَوى على العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُه حَثِيثاً والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بأَمْرِهِ ، أَلاَ لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم : كنت أرى في داري ...(١) فقيل : يا أبا النضر تحوَّل عن جوارنا ، قال : فاشْتَدَّ ذلكَ عليَّ ، فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس ، والمحاربي ، وأبي أسامة ، فكتب إليَّ المحاربي : إن بئراً بالمدينة كان يقطع رشاؤها ، فنزل بهم ركب ، فشكَوْا ذلك إليهم ، فدعوا بدَلْوٍ من ماء ، ثم تكلموا بهذا الكلام ، فصبُّوه في البئر ، فخرجت نار من البئر ، فطفئت على رأس البئر ، قال أبو النضر : فأخذت تَوْراً من ماء ، ثم تكلَّمت فيه بهذا الكلام ، ثم تتبَّعت به زوايا الدار ، فرشَشْتُه ، فصاحوا بي : أحْرَقْتَنَا ، نحن نتحول عنك . وهو : بسم الله ، أمسينا بالله الذي ليس منه شيء ممتنع ، وبعِزَّةِ اللهِ التي لا ترام ولا تضام ، وبسلطان الله المنيع نحتجب ،

---

(١) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ونسبه لأبي يعلى . وقال الهيثمي : وفيه عثمان بن مطر ، وهو ضعيف . (محقق الوابل الصيب) .

(٢) سقط شيء من الكلام . والمفهوم بالقرينة أنه كلم من كان يراهم ، فقيل له : يا أبا النضر الخ .

وبأسمائه الحسنى كلِّها عائذ من الأبالسة ، ومن شرٍّ شياطين الإنس والجن ، ومن شر كل معلن أو مسر ، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار ، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار ، ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شرٍّ إبليس وجنوده ، ومن شر كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها إنَّ ربي على صراط مستقيم ، أعوذ بالله : بما استعاذ به موسى ، وعيسى ، وإبراهيم الذي وفى ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ، ومن شر ما يبغي . أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، (بسم الله الرحمنٰ الرحيم : والصَّافَّاتِ صَفّاً ، فالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ، فالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ، إنَّ إلٰهكُم لواحِدٌ ، رَبُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ومَا بَيْنَهُما وربُّ المَشَارِقِ ، إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بزينَةٍ الكَوَاكِبِ ، وحِفْظَاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ، لا يَسَّمَّعُونَ إلىٰ المَلإَ الأَعْلىٰ ويُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ، إلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) [الصافات : ١ ـ ١٠] .

فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ لذلك العبد : يحرز نفسه من الشيطان بذكر الله تعالى .

وأحب أن أختم هذا الموضوع بحديث لم يذكره ابن القيم ، وهذا الحديث يدل على أن ذكر الله في كلٍّ أمر من الأمور يذل الشيطان ويصغر أمره ويرده خائباً خاسئاً ، روى الإمام أحمد أن تميمة سمع أحد الصحابة يحدث أنه كان رديف رسول الله ـ ﷺ ـ قال : عثر بالنبي ـ ﷺ ـ حماره ، فقلت تعس الشيطان ، فقال النبي ـ ﷺ ـ : « لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم ، وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب » قال ابن كثير في (البداية ١/٦٥) تفرد به أحمد واسناده جيد .

خامساً ـ لزوم جماعة المسلمين :

ومما يبعد المسلم عن الوقوع في أحابيل الشيطان أن يعيش في ديار الإسلام ،

ويختار لنفسه الفئة الصالحة التي تعينه على الحق وتحضّه عليه ، وتنهاه عن السيئات ، وتذكره بالخيرات ، فإن في الاتحاد والتجمع قوة وأي قوة ، يقول الرسول ـ ﷺ ـ : (من أراد منكم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح . ورجاله ثقات والحديث صحيح وله طرق ، والجماعة جماعة المسلمين ، وإمام المسلمين ولا قيمة للجماعة في الإسلام ما لم تلتزم بالحق : الكتاب والسنة ، ففي الحديث « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو ، لا تقام فيهم الصلاة ، إلا استحوذ عليهم الشيطان ، فعليكم بالجماعة ، فإنما تأكل الذئب من الغنم القاصية » اسناده حسن . رواه أبو داود والنسائي وغيرهما .

وروى أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال : « ألا أن رسول الله ـ ﷺ ـ قام فينا فقال : (ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنَّة وهي الجماعة) ، رواه أبو داود باسناد جيد .

سادساً ـ كشف مخططات الشيطان ومصائده[1] :

على المسلم أن يتعرف على سبله ووسائله في الاضلال ويكشف ذلك للناس ، وقد فعل ذلك القرآن ، وقام بهذه المهمة الرسول ـ ﷺ ـ خير قيام ، فالقرآن عرفنا الأسلوب الذي أغوى الشيطان بـه آدم . والرسول ـ ﷺ ـ كان يعرف الصحابة كيف يسترق الشيطان السمع ويلقي بالكلمة التي سمع في أذن الكاهن أو الساحر ومعها مائة كذبة ، يبين ذلك لهم كي لا ينخدعوا بأمثال

(١) إذا رغبت في الوقوف على تفاصيل مخططات الشيطان ومكائده ومصائده ، وكيف ألبس على الناس دينهم في العقائد والعبادات والمعاملات ، وكيف تلاعب باليهود والنصارى والمجوس وعباد الأوثان ـ فلا غنى لك عن قراءة كتابين :

الأول : تلبيس إبليس لابن الجوزي .

والثاني : إغاثة اللهفان لابن القيم .

هؤلاء ، وبين لهم كيف يوسوس لهم ويشغلهم في صلاتهم وعبادتهم ، وكيف يحاول الشيطان أن يوهمهم بأنَّ وضوءهم قد فسد والأمر ليس كذلك ، وكيف يفرق بين المرء وزوجه ، وكيف يوسوس للمرء فيقول له من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك .

سابعاً ـ مخالفة الشيطان :

يأتي الشيطان في صورة ناصح حريص على الإنسان كما سبق ، فعلى المرء أن يخالف ما يأمر به ، ويقول له : لو كنت ناصحاً أحداً لنصحت نفسك ، فقد أوقعت نفسك في النار ، وجلبت لها غضب الجبار ، فكيف ينصح غيره من لا ينصح نفسه ، يقول الحارث بن قيس: (إذا أتاك الشيطان وأنت تصلي فقال إنك ترائي فزدها طولاً) (تلبيس إبليس /٣٨) وهذا فقه منه رحمه الله . وإذا علمنا أن أمرا ما يحبه الشيطان ويتصف به فعلينا أن نخالفه ، فمثلاً الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويأخذ بشماله لذا وجبت علينا مخالفته ، يقول الرسول ـ ﷺ ـ : (ليأكل أحدكم بيمينه ، وليشرب بيمينه ، وليأخذ بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله ، ويعطي بشماله ، ويأخذ بشماله) رواه ابن ماجة باسناد صحيح (صحيح الجامع ٨١/٥) .

والشيطان يشاركنا في الشرب إذا شربنا ونحن وقوف ولذا أرشدنا الرسول ـ ﷺ ـ إلى الشرب ونحن جلوس .

ورغبنا الرسول ـ ﷺ ـ في القيلولة معللاً ذلك بأن الشياطين لا تقيل (قيلوا فإن الشياطين لا تقيل) رواه أبو نعيم في الطب بإسناد حسن (صحيح الجامع ١٤٧/٤) .

وحذرنا القرآن من الإسراف وقد عدّ المبذرين إخوان الشياطين ، وما ذلك إلا لأنَّ الشياطين تحبُّ إضاعة المال وإنفاقه في غير وجهه .

ومن الإسراف الإكثار من الأثاث والفراش التي لا لزوم له ، يقول

ـ ﷺ ـ : « فراش للرجل ، وفراش لامرأته ، وفراش للضيف ، والرابع للشيطان » رواه أبو داود والنسائي وأحمد بإسناد صحيح (صحيح الجامع ٨/٤) .

ومن هذا المنطلق أمرنا الرسول ـ ﷺ ـ بأن نميط الأذى عن اللقمة التي تسقط من أحدنا ، ولا نتركها للشيطان ، يقول ـ ﷺ ـ : « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه ، فإذا سقطت اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ، ثمَّ ليأكلها ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلعق أصابعه ، فإنَّه لا يدري في أي طعامه البركة » رواه مسلم في صحيحه (صحيح الجامع ٧٥/٢) .

مراكب الشياطين وبيوت الشياطين :

هذه المراكب الجمال والخيل والحمير في القديم ، والسيارات وأمثالها في الحديث جعلت لمنفعة بني الإنسان ، فإذا كان صاحبها غير شاغل لها كلها ومرَّ على قوم يحتاجون إلى الانتقال إلى المكان المنطلق إليه صاحب المراكب فعليه أن يسمح لهم باستخدامها وإلا كانت مراكب للشياطين ، ففي الحديث « تكون إبل للشياطين . وبيوت للشياطين ، فأمّا إبل الشياطين ، فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بجنيبات معه قد أسمنها فلا يعلو بعيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله ، وأمّا بيوت الشياطين فلم أرها » رواه أبو داود بإسناد صحيح (راجع الأحاديث الصحيحة ١٤٨/١) .

ولعلَّ بيوت الشياطين المعنية في الحديث هي هذه السيارات التي يمرّ أصحابها بأولى الحاجة فلا يركبونهم .

وهذه الخيول والدواب التي يقامر عليها ويراهن عليها تعدّ من مراكب الشياطين يقول الرسول ـ ﷺ ـ : « الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للإنسان ، فأما فرس الرحمن ؛ فالذي يربط في سبيل الله ، فعلفه وروثه وبوله في ميزانه ، وأمّا فرس الشيطان فالذي يقامر أو

يراهن عليه ، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها ، فهي ستر من الفقر » رواه أحمد بإسناد صحيح . (صحيح الجامع ١٣٧/٣) .

العجلة من الشيطان :

من الصفات التي يحبها الشيطان العجلة لما توقع الإنسان به من أخطاء ، يقول الرسول ـ ﷺ ـ « التأني من الرحمن والعجلة من الشيطان » رواه البيهقي في شعب الإيمان باسناد حسن (صحيح الجامع ٥٧/٣) فعلينا أن نخالف الشيطان في ذلك ونتبع ما يرضي الرحمن ، ولذلك قال الرسول ـ ﷺ ـ لأحد اصحابه .« إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة » .

التثاؤب :

ومما يحبه الشيطان من الإنسان التثاؤب ولذا أمرنا الرسول ـ ﷺ ـ بكظمه ما استطعنا ، يقول ـ ﷺ ـ (التثاؤب من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا قال : ها ، ضحك منه الشيطان) متفق عليه . وذلك لأن التثاؤب علامة الكسل ، والشيطان يعجبه ويفرحه من الإنسان كسله وفتوره ؛ إذ بذلك يقل عمله وبذله الذي يرفعه عند ربه .

ثامناً ـ التوبة والاستغفار :

ومما يواجه به العبد كيد الشيطان أن يسارع بالتوبة والأوبة إلى الله إذا أغواه الشيطان ، وهذا دأب عباد الله الصالحين قال تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) (سورة الاعراف/ ٢٠١) .

وقد فسر الطائف بالهمّ بالذنب أو إصابة الذنب ، وقوله : (تذكروا) أي عقاب الله وجزيل ثوابه ، ووعده ووعيده ، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب . (فإذا هم مبصرون) قد استقاموا وصحوا

مما كانوا فيه . وهذا يدل على أن الشيطان يكاد يجعل الإنسان في عماية لا يرى الحق ولا يبصره بما يلقيه عليه من غشاوة وما يغشى به القلب من الشبهات والشكوك .

وأخبرنا الرسول - ﷺ - أن الشيطان قال لرب العزة « وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الربُّ : وعزتي وجلالي لا أزال اغفر لهم ما استغفروني » رواه احمد في مسنده والحاكم في مستدركه (صحيح الجامع ٢/٧٢) .

هذه حال عباد الله الرجوع من قريب والتوبة والإنابة إلى الله ولهم في ذلك أسوة في أبيهم آدم ، فإنه لما أكل من الشجرة تلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، توجه آدم وزوجه إلى الله قائلين: (ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (سورة الأعراف /٢٣) .

أمّا أولياء الشيطان فقد قال الله فيهم : (واخوانهم يمدونهم في الغيّ ثم لا يقصرون) (سورة الأعراف /٢٠٢) .

والمراد بإخوانهم هنا : اخوان الشياطين من الإنس كقوله : (إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين) (سورة الإسراء /٢٧) وهم أتباعهم والمستمعون لهم ، القابلون لأوامرهم ، يمدونهم في الغيّ : أي بالتزيين والتحسين للذنوب والمعاصي ، بلا كلل ولا ملل . كقوله : (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) (سورة مريم /٨٣) .

تاسعاً - أزل اللبس والغموض الذي يدخل الشيطان منه إلى النفوس :

لا تقف مواقف الشبهة ، وإذا حدث ذلك فوضح للناس حالك حتى لا تدع للشيطان فرصة الوسوسة في صدور المسلمين ، ولك أسوة في رسول الله - ﷺ - في هذا ، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن صفية بنت حيي زوج النبي - ﷺ - قالت: « كان رسول الله - ﷺ - معتكفاً فأتيته

أزوره ليلاً فحدثته ، ثم قمت لأنقلب ، فقام معي ليَقْلبني - (ليردني إلى منزلي) وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد - فمرَّ رجلان من الأنصار ، فلمّا رأيا رسول الله - ﷺ - أسرعا ، فقال رسول الله - ﷺ - : « على رسلكما إنها صفية بنت حيي » ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله ! ! قال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً أو قال شيئاً » .

قال الخطابي : « في هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الإنسان من كل أمر من المكروه مما تجري به الظنون ، ويخطر بالقلوب ، وأن يطلب السلامة من الناس باظهار البراءة من الريب .

ويحكى في هذا عن الشافعي - رضي الله عنه - أنه قال : « خاف النبي - ﷺ - أن يقع في قلوبهما شيء من أمره فيكفرا ، وإنما قاله - ﷺ - شفقة منه عليهما لا على نفسه » (تلبيس ابليس /٤٦) ومما أرشدنا الله إليه القول الحسن مع الآخرين حتى لا يدخل الشيطان بيننا وبين إخواننا فيوقع العداوة والبغضاء ، قال تعالى : (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزع بينهم) (سورة الإسراء /٥٣) وهذا أمر تساهل فيه بعض الناس فتراهم يقولون الكلام الموهم والذي يحتمل وجوهاً عدة بعضها سيء ، وقد يرمي أحدهم أخاه بألفاظ يكرهها ويناديه بألقاب يمقتها فيكون ذلك مدخلاً للشيطان فيفرق بينهم ويحل العداء محل الوفاق والألفة .

علاج الصرع

تحدثنا في ما مضى أن الشيطان قد يصيب الإنسان وهو ما نسميه الصرع أو مس الجن ، وهنا سنحاول أن نبين أسباب الصرع وعلاجه :

أسباب الصرع :

بين ابن تيمية (المجموع ٣٩/١٩) « أن صرع الجن للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق كما يتفق للإنس مع الإنس .... ، وقد يكون - وهو

الأكثر ـ عن بغض ومجازاة ، مثل أن يؤذيهم بعض الإنس ، أو يظنوا أنهم يتعمدون أذاهم إما ببول على بعضهم ، وإمّا بصب ماء حار ، واما بقتل بعضهم ، وإن كان الإنس لا يعرف ذلك ، وفي الجن جهل وظلم فيعاقبونه بأكثر مما يستحقه ، وقد يكون عن عبث منهم وشرّ بمثل سفهاء الإنس » .

واجبنا تجاه هؤلاء :

ذكرنا أن الجن عباد مأمورون متعبدون بالشريعة ، فإذا استطاع المسلم أن يصل إلى مخاطبتهم ، كما يحدث مع الجني الذي يصرع الإنسان وجب القيام بذلك .

فإذا كان صرع الجني للإنس من الباب الأول (عن شهوة وهوى) فهو من الفواحش التي حرمها الله تعالى على الإنس والجن ، ولو كانت برضا الطرف الآخر ، فكيف مع كراهته ، فإنّه فاحشة وظلم . فيخاطب الجن بذلك ويعرفون أن هذا فاحشة محرمة ، أو فاحشة وعدوان لتقوم الحجة عليهم بذلك ، ويعلموا أنه يحكم فيهم بحكم الله ورسوله الذي أرسله إلى جميع الثقلين : الإنس والجن .

وما كان من الثاني (إيذاء بعض الإنس لهم) ، فإن كان الإنس لم يعلم فيخاطبون بأن هذا لم يعلم ، ومن لم يتعمد الأذى لا يستحق العقوبة ، وإن كان قد فعل ذلك في داره وملكه عرفوا بأن الدار ملكه فله أن يتصرف فيها بما يجوز ، وأنتم ليس لكم أن تمكثوا في ملك الإنس بغير إذنهم ، بل لكم ما ليس من مساكن الإنس كالخراب والفلوات ...

ويقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٤٢/١٩) : « والمقصود أن الجن إذا اعتدوا على الإنس أخبروا بحكم الله ورسوله ، وأقيمت عليهم الحجة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، كما يفعل بالإنس ؛ لأن الله يقول : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، (سورة الاسراء / ١٥) وقال :

(يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا) ؟ (سورة الانعام /١٣٠) .

النهي عن قتل حيات البيوت :

يقول ابن تيمية : « ولهذا نهى النبي - ﷺ - عن قتل حيات البيوت حتى تؤذن ثلاثاً وقد سبق ذكر النصوص المبينة لذلك ، وقد ساق ابن تيمية تلك النصوص ، ثمَّ بين السبب الذي من أجله نهى عن قتل جنان البيوت فقال : (وذلك أن قتل الجن بغير حق لا يجوز ، كما لا يجوز قتل الإنس بلا حق ، والظلم محرم في كل حال ، فلا يحلُّ لأحد أن يظلم أحداً ولو كان كافراً ، بل قال تعالى : (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) (سورة المائدة /٨) فإذا كانت حيات البيوت قد تكون جنّا فتؤذن ثلاثاً ، فإن ذهبت وإلا قتلت ، فإنها إن كانت حية قتلت ، وإن كانت جنية فقد أصرت على العدوان بظهورها للإنس في صورة حية تفزعهم بذلك ، والعادي هو الصائل الذي يجوز دفعه بما يدفع ضرره ولو كان قتلاً ، وأما قتلهم بدون سبب يبيح ذلك فلا يجوز » .

سب الجان وضربهم :

وذكر ابن تيمية أن واجب المؤمن نصرة أخيه المظلوم وهذا المصروع مظلوم ، ولكن النصرة تكون بالعدل كما أمر الله ، فإذا لم يرتدع الجني بالأمر والنهي والبيان ، فإنّه يجوز نهره وسبه وتهديده ولعنه ، كما فعل الرسول - ﷺ - مع الشيطان عندما جاء بشهاب ليرميه في وجه الرسول - ﷺ - ، فقال عليه السلام : (أعوذ بالله منك ، ألعنك بلعنة الله - ثلاثاً) .

وذكر أنه قد يحتاج في إبراء المصروع ودفع الجني عنه إلى الضرب ، فيضرب ضرباً كثيراً جدّاً ، والضرب إنما يقع على الجني ولا يحسه المصروع ، حتى يفيق المصروع ويخبر أنه لم يحس شيئاً من ذلك ، ولا يؤثر في بدنه ،

ويكون قد ضرب بعصا قوية على رجليه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ضربة أو أكثر أو أقل، بحيث لو كان على الإنسي لقتله، وإنما هو على الجني، والجني يصيح ويصرخ، ويحدث الحاضرين بأمور متعددة، ويذكر ابن تيمية أنه فعل هذا وجربه مرات كثيرة يطول وصفها بحضرة كثيرين.

الاستعانة على الجان بالذكر وقراءة القرآن :

وخير ما يستعان به على الجني الذي يصرع الإنسان ذكر الله وقراءة القرآن، ومن أعظم ذلك قراءة آية الكرسي، «فإن من قرأها لن يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح». كما صح الحديث بذلك وهو في صحيح البخاري.

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١٩/٥٥) : «ومع هذا فقد جرب المجربون الذين لا يحصون كثرة أن لها من التأثير في دفع الشياطين وابطال أحوالهم ما لا ينضبط من كثرته وقوته، فإن لها تأثيراً عظيماً في دفع الشياطين عن نفس الإنسان وعن المصروع وعمن تعينه الشياطين، مثل أهل الظلم والغضب وأهل الشهوة والطرب، وأرباب سماع المكاء والتصدية، إذا قرئت عليهم بصدق دفعت الشياطين، وبطلت الأمور التي يخيلها الشيطان، ويبطل ما عند اخوان الشياطين من مكاشفة شيطانية وتصرف شيطاني، إذ كانت الشياطين يوحون إلى أوليائهم بأمور يظنها الجهال من كرامات أولياء الله المتقين، وإنَّما هي من تلبيسات الشياطين على أوليائهم المغضوب عليهم والضالين».

طرد الرسول ـ ﷺ ـ للجن من بدن المصروع :

فعل ذلك الرسول ـ ﷺ ـ أكثر من مرة. ففي سنن أبي داود ومسند الامام أحمد عن أم أبان بنت الوازع بن زارع بن عامر العبدي، عن أبيها، أن جدها الزارع انطلق إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فانطلق معه بابن له مجنون، أو ابن أخت له ـ قال جدي : فلما قدمنا على رسول الله ـ ﷺ ـ قلت إن

معـي ابناً لي أو ابـن اخت لي ـ مجنون ، أتيتـك به تدعـو الله له ، قال : (أئتني به) ، قال : فانطلقت به إليه وهو في الركاب ، فاطلقت عنه ، وألقيت عنه ثياب السفر ، وألبسته ثوبين حسنين ، وأخذت بيده حتى انتهت به إلى النبي ـ ﷺ ـ ، فقال : « أدنه مني ، اجعل ظهره مما يليني» قال بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله ، فجعل يضرب ظهره حتى رأيت بياض إبطيه ، ويقول : « أخرج عدو الله ، اخرج عدو الله » ، فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول . ثم أقعده رسول الله ـ ﷺ ـ بين يديه ، فدعا له بماء فمسح وجهه ودعا له ، فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة رسول الله ـ ﷺ ـ يفضل عليه .

وفي المسند أيضاً عن يعلى بن مرة قال : رأيت من رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثاً ما رآها أحد قبلي ، ولا يراها أحد بعدي ، لقد خرجت معه في سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبي لها ، فقالت يا رسول الله : هذا الصبي أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء ، يؤخذ في اليوم لا أدري كم مرة ، قال : « ناولينيه » ، فرفعته إليه ، فجعله بينه وبين واسطة الرحل ، ثم فغر (فاه) ، فنفث فيه ثلاثاً ، وقال : « بسم الله ، أنا عبد الله ، اخسأ عدو الله » ، ثمَّ ناولها إياه ، فقال : « القينا في الرجعة في هذا المكان ، فأخبرينا ما فعل » ، قال : فذهبنا ورجعنا فوجدناها في ذلك المكان معها ثلاث شياه ، فقال : « ما فعل صبيك ؟ » فقالت : والذي بعثك بالحق ما حسسنا منه شيئاً حتى الساعة ، فاجترر هذه الغنم ، قال « انزل خذ منها واحدة ورد البقية » .

فقد أخرج الرسول ـ ﷺ ـ الجني بالأمر والنهر واللعن ، ولكن هذه لا تكفي وحدها ، فإنَّ لقوة الإيمان وثبات اليقين وحسن الصلة بالله أثر كبير في هذا ، يدلك على ذلك الواقعة التالية :

الامام أحمد يأمر الجني بالخروج فيستجيب :

روي أنَّ الامام أحمد كان جالساً في مسجده ، إذ جاءه صاحب له من

قبل الخليفة المتوكل ، فقال :

إن في بيت أمير المؤمنين جارية بها صرع ، وقد أرسلني إليك ، لتدعو الله لها بالعافية :

فأعطاه الامام أحمد نعلين من الخشب ، وقال :

اذهب إلى دار أمير المؤمنين ، واجلس عند رأس الجارية ، وقل للجني : قال لك أحمد : أيما أحبُّ إليك : تخرج من هذه الجارية ، أو تصفع بهذا النعل سبعين ؟

فذهب الرجل ومعه النعل إلى الجارية ، وجلس عند رأسها ، وقال كما قال له الإمام أحمد .

فقال المارد على لسان الجارية :

السمع والطاعة لأحمد ، لو أمرنا أن نخرج من العراق لخرجنا منه ، إنّه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء .

ثمَّ خرج من الجارية ، فهدأت ، ورزقت أولاداً .

فلما مات الإمام ، عاد لها المارد ، فاستدعى لها الأمير صاحباً من أصحاب أحمد ، فحضر ، ومعه ذلك النعل ، وقال للمارد : اخرج وإلا ضربتك بهذه النعل .

فقال المارد : لا أطيعك ولا أخرج ، أما أحمد بن حنبل ، فقد أطاع الله فأمرنا بطاعته .

ما ينبغي أن يكون عليه المعالج :

وينبغي للمعالج أن يكون قوي الإيمان بالله معتمداً عليه ، واثقاً بتأثير الذكر وقراءة القرآن ، وكلما قوي ايمانه وتوكله قوي تأثيره ، فربما كان أقوى من الجني فأخرجه ، وربما كان الجني أقوى فلا يخرج ، وربما كان

المخرج للجني ضعيفاً فتتقصد الجن ايذاءه ، فعليه بكثرة الدعاء والاستعانة عليهم بالله ، وقراءة القرآن خاصة آية الكرسي .

الرقى والتعاويذ :

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : (مجموع الفتاوى ٢٧٧/٢٤) « وأما معالجة المصروع بالرقى ، والتعويذات فهذا على وجهين :

فإن كانت الرقى والتعاويذ مما يعرف معناها ، ومما يجوز في دين الإسلام أن يتكلم به الرجل ، داعياً الله ، ذاكراً له ، ومخاطباً لخلقه ، ونحو ذلك ، فإنه يجوز أن يرقى بها المصروع ، ويعوذ ، فإنّه قد ثبت في الصحيح عن النبي - ﷺ - : « أنّه أذن في الرقى ما لم تكن شركاً » وقال : «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » .

وإن كان في ذلك كلمات محرمة ، مثل أن يكون فيها شرك ، أو كانت مجهولة المعنى ، يحتمل أن يكون فيها كفر ، فليس لأحد أن يرقى بها ولا يعزم ، ولا يقسم ، وإن كان الجني قد ينصرف عن المصروع بها ، فإنما حرمه الله ورسوله ضرره أكثر من نفعه ..

وذكر في موضع آخر (مجموع الفتاوى ٤٦/١٩) أن أرباب العزائم الشركية كثيراً ما يعجزون عن دفع الجني ، وكثيراً ما تسخر منهم الجن إذا طلبوا منهم قتل الجني الصارع للإنس أو حبسه ، فيخيلوا إليهم أنهم قتلوه أو حبسوه ويكون ذلك تخييلاً وكذباً .

استرضاء الجن :

وبعض الناس يحاولون استرضاء الجني الذي يصرع الإنسان بالذبح له ، وهذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، وروى أنه نهى عن ذبائح الجن .

وقد يزعم بعض الناس أن هذا من باب التداوي بالحرام ، وهذا خطأ

كبير ، فالصواب أن الله لم يجعل الشفاء في شيء من المحرمات ، وعلى القول بجواز التداوي بالمحرمات كالميتة والخمر ، فلا يجوز أن يستدل بذلك على الذبح للجني ؛ لأن التداوي بالمحرمات فيه نزاع لبعض العلماء ، أمّا التداوي بالشرك والكفر فلا خلاف بين العلماء في تحريمه ، ولا يجوز التداوي به باتفاق .

حقيقة الصِرَاع

في ختام هذا الفصل احب أن اثبت فصلاً هامّاً من كلام ابن القيم صوّر فيه ـ رحمه الله ـ حقيقة الصراع وطبيعته ، يقول ابن القيم ما ملخصه (الوابل الصيب /٢١) : « اختار الله الإنسان من بين خلقه فكرمه واصطفاه وجعله محلاً للإيمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والرجاء ، وابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة ، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه » .

ثم يقول ابن القيم ما نصه : (فهو أي لشيطان) يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه ، فتميل نفسه معه ، لأنه يدخل عليها بما تحب ، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد : ثلاثة مسلطون آمرون ، فيبعثون الجوارح في قضاء وطرهم ، والجوارح آلة منقادة ، فلا يمكنها إلا الانبعاث ، فهذا شأن هذه الثلاثة ، وشأن الجوارح ، فلا تزال الجوارح في طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا . هذا مقتضى حال العبد ، فاقتضت رحمة ربّه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر ، وأمدّه بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه ، فأرسل إليه رسوله ، وأنزل عليه كتابه ، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان ، فإذا أمره الشيطان بأمر ، أمره الملك بأمر ربّه ، وبين له ما في طاعة العدو من الهلاك ، فهذا يلم به مرة ، وهذا مرة ، والمنصور من نصره الله عز وجل ، والمحفوظ من حفظه الله تعالى . وجعل له مقابل نفسه الأمّارة نفساً مطمئنة ، إذا أمرته النفس الأمّارة بالسوء ، نهته عنه النفس المطمئنة ،

وإذا نهته الأمّارة عن الخير ، أمرته به النفس المطمئنة . فهو يطيع هذه مرة ، وهذه مرة ، وهو الغالب عليه منهما ، وربما انقهرت احداهما بالكلية قهراً لا تقوم معه أبداً .

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نوراً وبصيرة ، وعقلاً يرده عن الذهاب مع الهوى ، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور : الحذر الحذر ، فإن المهالك والمتالف بين يديك ، وأنت صيد الحرامية ، وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل .

فهو يطيع الناصح مرة ، فيبين له رشده ونصحه ، ويمشي خلف دليل الهوى مرة ، فيقطع عليه الطريق ، ويؤخذ ماله ، وتسلب ثيابه ، فيقول : ترى من أين أتيت ، والعجب أنه يعلم من أين أتى ، ويعرف الطريق التي قطعت عليه ، وأخذ فيها ، ويأبى إلا سلوكها ، لأنَّ دليله تمكن منه ، وتحكم فيه ، وقوي عليه ، ولو أضعفه بالمخالفة له ، وزجره إذا دعاه ، ومحاربته إذا أراد أخذه ، لم يتمكن منه ، ولكن هو مكنه من نفسه ، وهو أعطاه يده ، فهو بمنزلة الرجل يضع يده في يد عدوه ، فيباشره ثمَّ يسومه سوء العذاب ، فهو يستغيث فلا يغاث ، فهكذا يستأسر للشيطان والهوى ولنفسه الأمارة ، ثم يطلب الخلاص ، فيعجز عنه ، فلما أن بلى العبد بما بلى به ، أعين بالعساكر والعدد والحصون ، وقيل : قاتل عدوك وجاهده ، فهذه الجنود خذ منها ما شئت ، وهذه الحصون تحصن بأي حصن شئت منها ، ورابط إلى الموت ، فالأمر قريب ، ومدة المرابطة يسيرة جدّاً ، فكأنك بالملك الأعظم وقد أرسل إليك رسله ، فنقلوك إلى داره ، واسترحت من هذا الجهاد ، وفرق بينك وبين عدوك ، وأطلقت في دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت ، وسجن عدوك في أصعب الحبوس وأنت تراه .

فالسجن الذي كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله وأغلقت عليه أبوابه ، وأيس من الروح والفرج ، وأنت فيما اشتهت نفسك ، وقرَّت عينك ،

جزاءً على صبرك في تلك المدة اليسيرة ، ولزومك الثغر للرباط ، وما كانت الا ساعة ثمَّ انقضت ، وكأنَّ الشدة لم تكن . فإن ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه ، فليتدبر قوله عز وجل : (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) (سورة الأحقاف /٣٥) وقوله عز وجل : (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) (سورة النازعات /٤٦) وقوله عز وجل : (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين قال : إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون) (سورة المؤمنون /١١٢ ــ ١١٤) وقوله تعالى : (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرقاً ، يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً ، نحن أعلم بما يقولون ، إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً) (سورة طه / ١٠٢ ــ ١٠٤) وخطب النبي ـ ﷺ ـ أصحابه يوماً ، فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال ، وذلك عند الغروب قال : (إنَّه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه (رواه أحمد في المسند ، والترمذي في سننه ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح) فليتأمل العاقل الناصح لنفسه هذا الحديث ، وليعلم أي شيء حصل له من هذا الوقت الذي قد بقي من الدنيا بأسرها ، ليعلم أنه في غرور وأضغاث أحلام ، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوي شيئاً ، ولو طلب اللهَ تعالى والدارَ الآخرة لأعطاه ذلك الحظ هنيئاً موفوراً وأكمل منه ، كما في بعض الآثار :

ابن آدم ، بع الدنيا بالآخرة تربحهما جميعاً ، ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرهما جميعاً .

وقال بعض السلف : ابن آدم ، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج . فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة ، وكنت من نصيب الدنيا على خطر ، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظاماً .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول في خطبته : أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى . وإن لكم معاداً يجمعكم الله عز وجل فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، فخاب وشقي عبد أخرجه الله عز وجل من رحمته التي وسعت كل شيء ، وجنته التي عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله تعالى واتقى ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباقٍ ، وشقاوة بسعادة ، ألا ترون أنكم في أصلاب الهالكين ، وسيخلفه بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم تشيِّعون غادياً رائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسَّد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟ .

والمقصود أن الله عز وجل قد أمد العبد في هذه المدة اليسيرة بالجنود ، والعدد ، والامداد ، وبين له بماذا يحرز نفسه من عدوه ، وبماذا يَفْتَكُّ نفسه إذا أسر . وقد روى الإمام أحمد رضي الله عنه ، والترمذي ، من حديث الحارث الأشعري ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أمَرَ يحيى بن زكريا ﷺ بخمسٍ كلماتٍ : أن يعمل بها ، ويأمرَ بني إسرائيلَ أن يعمَلُوا بها ، وأنه كادَ أن يُبطىء بها ، فقال له عيسى عليه السلام : إنَّ الله تعالى أمركَ بخمسِ كلماتٍ لتعملَ بها ، وتأمر بني إسرائيلَ أن يعمَلُوا بها ، فإما أن تأمرهم ، وإما أن آمُرَهُم ، فقال يحيي : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي وأعذب ، فجمع يحيي الناس في بيت المقدس ، فامتلأ المسجد ، وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله تبارك وتعالى أمرني بخمس كلمات أن أعْمَلَهُن ، وآمُركُم أن تعمَلُوا بهن .

وخامس هذه الخمسة التي أمرهم بها الذكر (وآمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى) قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

ومما أمرهم به في الحديث الصلاة : « وآمركم بالصلاة ، فاذا صليتم ، فلا تلتفتوا فان الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت » الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان . أحدهما : التفات القلب عن الله عز وجل إلى غير الله تعالى . والثاني : التفات البصر . وكلاهما منهي عنه . ولا يزال الله مقبلاً على عبده ما دام العبد مقبلاً على صلاته ، فاذا التفت بقلبه أو بصره ، أعرض الله تعالى عنه . وقد سئل رسول الله ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال : « اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ ٱلْعَبْدِ »[1] وفي أثر : يقول الله تعالى : « إلى خير مني ، إلى خير مني » ؟ ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه ، مثل رجل قد استدعاه السلطان ، فأوقفه بين يديه ، وأقبل يناديه ويخاطبه ، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالاً ، وقد انصرف قلبه عن السلطان ، فلا يفهم ما يخاطبه به ، لأن قلبه ليس حاضراً معه ، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان ؟ أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه ؟ فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه ، فامتلأ قلبه من هيبته ، وذلت عنقه له ، واستحى من ربه تعالى أن يقبل على غيره ، أو يلتفت عنه . وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض قال حسان ابن عطية : ان الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة ،وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض ، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله عز وجل ، والآخر ساهٍ غافل . فاذا أقبل العبد على مخلوق مثله ، وبينه وبينه حجاب ، لم يكن إقبالاً ولا تقريباً ، فما الظن بالخالق عز وجل ؟

وإذا أقبل على الخالق عز وجل ، وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٦/٧ و١٠٦ . والبخاري ١٩٤/٢ في « الأذان » باب الالتفات في الصلاة . وأبو داود رقم ٩١٠ في الصلاة باب الالتفات في الصلاة . والترمذي رقم ٥٩٠ في الصلاة باب ما جاء في الالتفات في الصلاة . والنسائي ٨/٣ في السهو باب التشديد في الالتفات في الصلاة من حديث عائشة رضي الله عنها (محقق الوابل الصيب) .

والنفس مشغوفة بها ، ملأى منها ، فكيف يكون ذلك إقبالاً وقد ألهته الوساوس والأفكار ، وذهبت به كل مذهب؟ والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه ، فانه قد قام في أعظم مقام ، وأقربه وأغيظه للشيطان ، وأشده عليه ، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه ، بل لا يزال به يعده ويمنّيه وينسيه ، ويجلب عليه بخيله ورجِله حتى يهوِّن عليه شأن الصلاة ، فيتهاون بها فيتركها . فان عجز عن ذلك منه ، وعصاه العبد ، وقام في ذلك المقام ، أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه ، ويحول بينه وبين قلبه ، فيذكِّره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها ، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة ، وأيس منها ، فيذكره إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها ، ويأخذه عن الله عز وجل ، فيقوم فيها بلا قلب ، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه عز وجل الحاضر بقلبه في صلاته ؛ فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه ، وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة ، فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها ، وأكمل خشوعها ، ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه . فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه ، وأحس بأثقال قد وضعت عنه . فوجد نشاطاً وراحة وروحاً ، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها ، لأنها قرة عينيه ونعيم روحه ، وجنة قلبه ، ومستراحه في الدنيا ، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها ، فيستريح بها ، لا منها ، فالمحبون يقولون : نصلي فنستريح بصلاتنا ، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم : « يَا بلالُ أَرِحْنَا بالصَّلَاةِ » ، ولم يقل : أرحنا منها ، وقال ﷺ : « جُعِلَتْ قُرَّة عَيْنِي في ٱلصَّلاَةِ » فمن جعلت قرة عينه في الصلاة ، كيف تقر عينه ﷺ بدونها ، وكيف يطيق الصبر عنها ؟....

وقد روي أن العبد إذا قام يصلي قال الله عز وجل : ارفعوا الحجب ، فإذا التفت قال : أرخوها ، وقد فسر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله عز وجل إلى غيره ، فإذا التفت إلى غيره ، أرخى الحجاب بينه وبين العبد ،

فدخل الشيطان ، وعرض عليه أمور الدنيا ، وأراه إياها في صورة المرآة ، وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت ، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله تعالى وبين ذلك القلب ، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب ، فإن فر إلى الله تعالى وأحضر قلبه فر الشيطان ، فإن التفت حضر الشيطان ، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة .

كيف يجعل المصلي قلبه حاضراً في الصلاة ؟

وإنما يقوي العبد على حضوره في الصلاة واشتغاله فيها بربه عز وجل إذا قهر شهوته وهواه ، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة ، وأسره الهوى ، ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكن فيه ، كيف يخلص من الوساوس والأفكار ؟ !

والقلوب ثلاثة :

قلب خالٍ من الإيمان وجميع الخير ، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه ، لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً ، وتحكَّم فيه بما يريد ، وتمكَّن منه غاية التمكن .

القلب الثاني : قلب قد استنار بنور الإيمان ، وأوقد فيه مصباحه ، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية ، فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع ، فالحرب دول وسجال .

وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة ، فمنهم مَن أوقات غلبته لعدوه أكثر ، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر ، ومنهم من هو تارة وتارة .

القلب الثالث : قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان ، وانقشعت عنه حجب الشهوات ، وأقلعت عنه تلك الظلمات ، فلنوره في صدره إشراق ، ولذلك الاشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به ، فهو كالسماء التي حرست بالنجوم ، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق وليست السماء

بأعظم حرمة من المؤمن ، وحراسة الله تعالى له أتم من حراسة السماء ، والسماء متعبَّد الملائكة ، ومستقرُّ الوحي ، وفيها أنوار الطاعات ، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان ، وفيه أنوارها ، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو ، فلا ينال منه شيئاً إلا خطفة ، وقد مثل ذلك بمثال حسن .

وهو ثلاثة بيوت :

بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره .

وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره ، وليس جواهر الملك وذخائره .

وبيت خال صفر لا شيء فيه ، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت ، فمن أيِّها يسرق ؟

فإن قلت : من البيت الخالي ، كان محالاً ، لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يسرق ، ولهذا قيل لابن عباس رضي الله عنهما : إن اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها ، فقال : وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب ؟

وإن قلت : يسرق من بيت الملك ، كان ذلك كالمستحيل الممتنع ، فإن عليه من الحرس واليزَك[1] ما لا يستطيع اللص الدنو منه ، كيف وحارسه الملك بنفسه ، وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله ؟ فلم يبق للِّص إلا البيت الثالث ، فهو الذي يشن عليه الغارات .

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل ، ولينزله على القلوب ، فانها على منواله .

فقلب خلا من الخير كله ، وهو قلب الكافر والمنافق ، فذلك بيت الشيطان ، قد أحرزه لنفسه واستوطنه واتخذه سكناً ومستقراً ، فأي شيء يسرق منه وفيه

(١) يزك ويسك (بالتركية) : بمعنى المنع والخطر والزجر .

خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه ؟ .

وقلب قد امتلأ من جلال الله عز وجل وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه ، فأَيُّ شيطان يجترىء على هذا القلب ؟ وإن أراد سرقة شيء منه ، فماذا يسرق ، وغايته أن يظفر في الأحايين منه بخطفة ونهب يحصل له على غرة من العبد وغفلة لا بد له منها ، إذ هو بشر ، وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع .

وقد ذكر عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى أنه قال : في بعض الكتب الإلهية : « لست أسكن البيوت ، ولا تَسعني ، وأيُّ شيء يَسعني والسموات حشو كرسيِّ ؟ ولكن أنا في قلب الوادع التارك لكل شيء سواي » وهذا معنى الأثر الآخر « ما وسعتني سمواتي ولا أرضي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن[1] » . وقلب فيه توحيد الله تعالى ومعرفته ومحبته والإيمان به والتصديق بوعده ، وفيه شهوات النفس وأخلاقها ودواعي الهوى والطبع .

وقلب بين هذين الداعيين . فمرة يميل بقلبه داعي الايمان والمعرفة والمحبة لله تعالى وإرادته وحده ، ومرة يميل بقلبه داعي الشيطان والهوى والطباع ، فهذا القلب للشيطان فيه مطمع ، وله منه منازلات ووقائع ، ويعطي الله النصر من يشاء (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) (سورة آل عمران /١٢٦) وهذا لا يتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه ، فيدخل إليه الشيطان ، فيجد سلاحه عنده فيأخذه ويقاتله به ، فإن أسلحته هي الشهوات والشبهات والخيالات والأماني الكاذبة ، وهي في القلب ، فيدخل الشيطان فيجدها

(١) قال السخاوي في « المقاصد الحسنة » ذكره الغزالي في « الاحياء » بلفظ : قال الله : لم يسعني ، وذكره بلفظ : ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع ، قال السخاوي : وقال العراقي : لم أر له أصلاً ، وكذا قال ابن تيمية : هو مذكور في الاسرائيليات ، وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ ، ونقل عن ابن الزركشي أن بعض أهل العلم قال : إنه حديث باطل ، وهو من وضع الملاحدة ، ونقله عنه العجلوني في « كشف الخفاء » وأقره عليه . (محقق الوابل الصيب) .

عتيدة فيأخذها ويصول بها على القلب ، فإن كان عند العبد عدة عتيدة من الإيمان تقاوم تلك العدة وتزيد عليها ، انتصف من الشيطان ، وإلا فالدولة لعدوه عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . فإذا أذن العبد لعدوه ، وفتح له باب بيته وأدخله عليه ومكنه من السلاح يقاتله به فهو الملوم .

فَنَفْسَكَ لم ولا تَلُم المطايا ... ومُت كمداً فليس لك اعتذارُ

الفصل السادس

الحكمة من خلق الشيطان



الحكمة من خلق الشيطان

الشيطان منبع الشرور والآلام ، فهو القائد إلى الهلاك الدنيوي والأخروي ، ورافع الراية في كل وقت ومكان ، يدعو الناس إلى الكفران ، ومعصية الرحمن . فهل في خلقه من حكمة ؟ وما هذه الحكمة ؟

أجاب عن هذا السؤال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه (شفاء العليل ص ٣٢٢) فقال :

(في خلق إبليس وجنوده من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله)

١ ـ ما يترتب على مجاهدة الشيطان وأعوانه من اكمال مراتب العبودية :

فمنها أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته في الله ، واغاظته واغاظة أوليائه ، والاستعاذة به منه ، واللجوء إليه أن يعيذهم من شرِّه وكيده ، فيترتب على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه ... والموقوف على الشيء لا يحصل بدونه .

٢ ـ خوف العباد من الذنوب :

ومنها خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعدما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه ، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبليسية يكون أقوى وأتم ، ولا ريب ان الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للربِّ تعالى ، وخضوع آخر ، وخوف آخر ، كما هو المشاهد من حال عبيد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الاهانة التي بلغت منه كل مبلغ ، وهم يشاهدونه فلا ريب

أن خوفهم وحذرهم يكون أشد .

٣ ـ جعله الله عبرة لمن اعتبر :

ومنها أن الله جعله عبرة لمن خالف أمره ، وتكبَّر عن طاعته ، وأصرَّ على معصيته ، كما جعل ذنب أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهيه ، أو عصى أمره ، ثمَّ تاب وندم ، ورجع إلى ربه ، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب ، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه ، وهذا الأب عبرة إن تاب ورجع إلى ربِّه فلله كم في ضمن ذلك من الحكم الباهرة ، والآيات الظاهرة .

٤ ـ جعله فتنة واختباراً لعباده :

ومنها أنّه محك امتحن الله به خلقه ؛ ليتبين به خبيثهم من طيبهم ، فإنَّه سبحانه خلق النوع الإنساني من الأرض ، وفيها السهل والحزن ، والطيب والخبيث ، فلا بدَّ أن يظهر ما كان في مادتهم ، كما في الحديث الذي رواه الترمذي مرفوعاً : (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على مثل ذلك ، منهم الطيب والخبيث والسهل والحزن وغير ذلك ، فما كان في المادة الأصلية فهو كائن في المخلوق منها ، فاقتضت الحكمة الإلهية اخراجه وظهوره ، فلا بدَّ إذاً من سبب يظهر ذلك ، وكان إبليس محكاً يميز به الطيب من الخبيث كما جعل أنبياءه ورسله محكاً لذلك التمييز ، قال تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) (سورة آل عمران /١٧٩) فأرسل رسله إلى المكلفين ، وفيهم الطيب والخبيث ، فانضاف الطيب إلى الطيب ، والخبيث إلى الخبيث .

واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم في دار الامتحان ، فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم ، وجعل لهؤلاء داراً ولهؤلاء داراً على حدة حكمة بالغة ، وقدرة باهرة .

٥ ـ اظهار كمال قدرته سبحانه بخلق الأضداد :

ومن هذه الحكم أن يظهر كمال قدرته في خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين ، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه ، فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض ، والضياء والظلام ، والجنَّة والنار ، والماء والنار ، والحر والبرد ، والطيب والخبيث .

٦ ـ الضد يظهر حسنه الضد :

ومن هذه الحكم أن خَلْق أحد الضدين من كمال حسن ضده ، فإنَّ الضد إنما يظهر حسنه بضده ، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل ، ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى .

٧ ـ والابتلاء به سبيل إلى تحقيق الشكر :

ومن هذه الحكم أنه سبحانه ، يحبُّ أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه ، ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده ، وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن ليحصل لهم بدونه ، فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها وبين شكره بعد أن ابتلى بعدوه ، ثمَّ اجتباه ربُّه وتاب عليه وقبله .

٨ ـ في خلق إبليس قيام سوق العبودية :

ومنها أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها ـ أحب العبودية إلى الله سبحانه ، وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله ، وتقديم محبته على كل ما سواه ، فالجهاد ذروة سنام العبودية ، وأحبها إلى الربِّ سبحانه ، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصي حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله .

٩ ـ وترتب على ذلك ظهور آياته وعجائب قدرته :

ومن هذه الحكم أن في خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعه ما وجوده أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه ، كظهور آية الطوفان ، والعصا ، واليد ، وفلق البحر ، وإلقاء الخليل في النار ، وأضعاف أضعاف ذلك من آياته ، وبراهين قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، فلم يكن بُدٌّ من وجود الأسباب التي يترتب عليها ذلك .

١٠ ـ الخلق من النار آية :

ومن هذه الحكم أن المادة النارية فيها الاحراق والعلو والفساد ، وفيها الاشراق والاضاءة والنور ، فأخرج منها ـ سبحانه ـ هذا وهذا ، كما أنَّ المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث ، والسهل والحزن ، والأحمر والأسود والأبيض ، فأخرج منها ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة ، وآية دالة على أنه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

١١ ـ ظهور متعلقات أسمائه :

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل المنتقم ، وهذه الأسماء تستدعي متعلقات يظهر فيها أحكامها ، كأسماء الاحسان والرزق والرحمة ونحوها ، ولا بدَّ من ظهور متعلقات هذه وهذه .

١٢ ـ ظهور آثار تمام ملكه وعموم تصرفه :

ومن هذه الحكم أنه سبحانه الملك التام الملك ، ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالثواب والعقاب والإكرام والاهانة والعدل والفضل والاعزاز والاذلال ، فلا بدَّ من وجود من يتعلق به أحد النوعين كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر .

١٣ ـ وجود إبليس من تمام حكمته تعالى :

ومن هذه الحكم أن من اسمائه الحكيم ، والحكمة من صفاته ـ سبحانه ـ وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي لا يليق به سواه ، فاقتضت خلق المتضادات ، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص ، وهل تتم الحكمة إلا بذلك ، فوجود هذا النوع من تمام الحكمة كما أنه من كمال القدرة .

١٤ ـ حمده تعالى على منعه وخفضه :

ومنها أن حمده ـ سبحانه ـ تام كامل من جميع الوجوه ، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه ورفعه وانتقامه واهانته ، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعه واكرامه ، فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا ، وهو يحمد نفسه على ذلك كله ، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأولياؤه ، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم ، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه ، فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة ، كما له عليه الحمد التام ، فلا يجوز تعطيل حمده كما لا يجوز تعطيل حكمته .

١٥ ـ وبخلقه يظهر الله لعباده حلمه وصبره :

ومنها أنه ـ سبحانه ـ يحب أن يظهر لعباده حلمه ، وصبره ، وأناته ، وسعة رحمته ، وجوده ، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به ، ويضاده في حكمه ، ويجتهد في مخالفته ، ويسعى في مساخطه ، بل يشبهه سبحانه وتعالى ، وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات ، ويرزقه ، ويعافيه ، ويمكن له من أسباب ما يلتذ به من أصناف النعم ، ويجيب دعاءه ، ويكشف عنه السوء ، ويعامله من بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفر وشركه واساءته ، فلله كم في ذلك من حكمة وحمد .

ويتحبب إلى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته ، كما في الصحيح عنه

- ﷺ - أنه قال : لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ، يجعلون له الولد وهو يرزقهم .

وفي الصحيح عنه - ﷺ - فيما يروي عن ربه : (شتمني ابن آدم ، وما ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم ، وما ينبغي له ذلك ، أمّا كذبه إياي ، فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤاً أحد ، وأمّا تكذيبه إياي ، فقوله : لن يعيدني كما بداني ، وليس بأول الخلق بأهون عليه من اعادته ، وهو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب له يرزق الشاتم المكذب ، ويعافيه ، ويدفع عنه ، ويدعوه إلى جنته ، ويقبل توبته إذا تاب إليه ، ويبدله بسيئاته حسنات ، ويلطف به في جميع أحواله ، ويؤهله لارسال رسله ، ويأمرهم أن يلينوا له القول ، ويرفقوا به ، قال الفضيل بن عياض : (ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل - جلَّ جلاله - من أعظم مني جوداً ، الخلائق لي عاصون ، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم ، كأنهم لم يعصوني ، وأتولى حفظهم ، كأنهم لم يذنبوا ، أجود بالفضل على العاصي ، وأتفضل على المسيء .

من ذا الذي دعاني فلم ألبـــه ؟ ومن ذا الذي سألني فلم أعطه ؟

أنا الجواد ، ومني الجود ، أنا الكريم ومني الكرم ، ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألني ، وأعطيه ما لم يسألني ، ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني ، فأين عني يهرب الخلق ، وأين عن بابي ينتحي العاصون ؟

وفي أثر إلهي : (إني والإنس والجن في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري ، وارزق ويشكر سواي) .

وفي أثر حسن : (ابن آدم ما أنصفتني : خيري إليك نازل ، وشرّك إلي صاعد ، كم أتحبب إليك بالنعم ، وأنا غني عنك ، وكم تتبغض إلي بالمعاصي وأنت فقير إلي ، ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بعمل قبيح) .

وفي الحديث الصحيح (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم) .

خلق الله خلقه بحيث يظهر فيهم احكام اسمائه وصفاته وآثارها :

فالله سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقاً يظهر فيهم أحكامها وآثارها . فالمحبة للعفو خلق من يحسن العفو عنه ، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ويصبر عليه ولا يعاجله ، بل يكون يحب أمانه وإمهاله .

ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته .

ولمحبته للجود والإحسان والبر خلق من يعامله بالاساءة والعصيان ، وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والاحسان فلولا خلق من يجري على أيديهم أنواع المعاصي والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها ، فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ، ذو الحكمة البالغة ، والنعم السابغة الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته ، وله في كل شيء حكمة باهرة كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات .

وبعد : فقد ترتب على خلق هذا اللعين حكم كثيرة وحصلت محبوبات لله وافرة :

فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب المسخوط له من محبوب له تبارك وتعالى ، يتصل في حبه ما حصل به من مكروه ، والحكيم الباهر الحكمة هو الذي يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذي يبغضه ويسخطه إذا كان طريقاً إلى حصول ذلك المحبوب . ووجود الملزوم بدون لازمه محال ، فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من الشرور والمعاصي ما حصل ، فكم حصل بسبب وجوده ، ووجود جنوده من طاعة هي أحب إلى الله وأرضى له من جهاد في سبيله ، ومخالفة هوى النفس وشهوتها له ، ويحتمل المشاق والمكاره في محبته ومرضاته ، وأحبُّ شيء للحبيب أن

يرى محبه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته .

من أجلك قد جعلت خدي أرضا   للشامت والحسود حتى ترضى

ومن أثر إلهي (بغيتي ما يتحمل المتحملون من أجلي) فلله ما أحب إليه احتمال محبيه أذى أعدائه لهم فيه ، وفي مرضاته ، وما أنفع ذلك الأذى لهم وما أحمدهم لعاقبته ، وماذا ينالون به من كرامة حبيبهم وقربه قرة عيونهم به ، ولكن حرام على منكري محبة الرب تعالى أن يشموا لذلك رائحة أو يدخلوا من هذا الباب أو يذوقوا من هذا الشراب .

قل للعيون العمـــي للشمس أعين   سواك يراها في مغيب ومطلع
وسامح بؤساً لم يؤهـــل لحبهـــم   فما يحسن التخصيص في كل موضع

فإن أغضب هذا المخلوق ربه فقد أرضاه فيه أنبياؤه ورسله وأولياؤه ، وذلك الرضا أعظم من ذلك الغضب ، وإن أسخطه ما يجري على يديه من المعاصي والمخالفات فإنّه سبحانه أشدّ فرحاً بتوبة عبده من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه إذا وجدها في المفاوت المهلكات ، وإن أغضبه ما جرى على أنبيائه ورسله من هذا العدو اللعين فقد سرّه وأرضاه ما جرى على أيديهم من حربه ومعصيته ومراغمته وكبته وغيظه ، وهذا الرضاء أعظم عنده وأبرّ لديه من فوات ذلك المكروه المستلزم لفوات هذا المرضي المحبوب .

وإن اسخطه أكل آدم من الشجرة فقد أرضاه توبته وإنابته وخضوعه وتذلله بين يديه وانكساره له .

وإن أغضبه اخراج اعدائه لرسوله ـ ﷺ ـ من حرمه وبلدته ذلك الخروج ، فقد أرضاه أعظم الرضا دخوله إليها ذلك الدخول .

وإن أسخطه قتلهم أوليائه وأحبابه وتمزيق لحومهم واراقة دمائهم فقد أرضاه نيلهم الحياة التي لا أطيب منها ولا أنعم ولا ألذَّ في قربه وجواره .

وإن أسخطه معاصي عباده فقد أرضاه شهود ملائكته وأنبيائه ورسله

وأوليائه سعة مغفرته وعفوه وبرّه وكرمه وجوده والثناء عليه بذلك وحمده وتمجيده بهذه الأوصاف التي حمده بها وأثنى عليه بها أحب إليه وأرضى له من فوات تلك المعاصي وفوات هذه المحبوبات .

واعلم أن الحمد هو الأصل الجامع لذلك كله ، فهو عقد نظام الخلق والأمر ، والرب تعالى له الحمد كلُّه بجميع وجوهه واعتباراته وتصاريفه ، فما خلق شيئاً ولا حكم بشيء إلا وله فيه الحمد فوصل حمده إلى حيث وصل خلقه وأمره حمداً حقيقياً يتضمن محبته والرضا به وعنه والثناء عليه والاقرار بحكمته البالغة في كل ما خلقه وأمر به ، فتعطيل حكمته غير تعطيل حمده .. فكما أنه لا يكون إلا حميداً فلا يكون إلا حكيماً ، فحمده وحكمته كعلمه وقدرته ، وحياته من لوازم ذاته ولا يجوز تعطيل شيء من صفاته وأسمائه ومقتضياتها وآثارها ، فإن ذلك يستلزم النقص الذي يناقض كماله وكبريائه وعظمته

ولأنه يحب سبحانه أن يكون ملاذاً ومعاذاً لأوليائه :

وفي هذا يقول ابن القيم : كما أن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء أنه يجود ويعطي ويمنح ، فمنها أن يعيذ وينصر ويغيث فكما يحب أن يلوذ به اللائذون يحب أن يعوذ به العائذون ، وكمال الملوك أن يلوذ بهم أولياؤهم ويعوذوا بهم كما قال أحمد بن حسين الكندي في ممدوحه :

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

ولو قال ذلك في ربِّه وفاطره لكان أسعد به من مخلوق مثله .

والمقصود أن ملك الملوك يحب أن يلوذ به مماليكه وأن يعوذوا به كما أمر رسوله أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم في غير موضع من كتابه ، وبذلك يظهر تمام نعمته على عبده إذا أعاذه وأجاره من عدوه ، فلم يكن اعاذته

واجارته منه بأدنى النعمتين والله تعالى يحب أن يكمل نعمته على عباده المؤمنين ويريهم نصره لهم على عدوهم وحمايتهم منه وظفرهم به ، فيا لها من نعمة كمل بها سرورهم ونعيمهم ، وعدل أظهره في أعدائه وخصمائه .

وما منهما إلا له فيه حكمـــــة   يقصر عن إدراكها كل باحث

الحكمة في بقاء إبليس إلى آخر الدهر :

أجاب ابن القيم رحمه الله عن ذلك في (شفاء العليل ص ٣٢٧) ووضحه .

امتحان العباد :

فمما ذكره رحمه الله تعالى : أنه سبحانه جعله محكاً ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث ووليّه من عدوه ، ولذا اقتضت حكمته ابقاءه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه ولو أماته لفات ذلك الغرض . كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر ولو أهلكهم البتة لتعطلت الحكم الكثيرة في ابقائهم فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر اقتضت امتحان أولاده من بعده به ، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه ، وينحاز إليه من وافقه وولاه .

وأبقاه مجازاة له على صالح عمله السابق :

ومنها أنه لما سبق حلمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة وقد سبق له طاعة وعبادة جزاه بها في الدنيا بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر فإنه سبحانه لا يظلم أحداً حسنة عملها ، فأمّا المؤمن فيجزيه بحسناته في الدنيا وفي الآخرة ، وأمّا الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل في الدنيا فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شيء كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي - ﷺ - .

أملي له ليزداد إثماً :

وبقاؤه إلى يوم القيامة لم يكن كرامة في حقه ، فإنّه لو مات كان خيراً له

وأخف لعذابه وأقل لشرِّه ، ولكن لما غلظ ذنبه بالاصرار على المعصية ومخاصمة من ينبغي التسليم لحكمه والقدح في حكمته والحلف على اقتطاع عباده وصدهم عن عبوديته كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأبقي في الدنيا وأملي له ليزداد هذا إثماً على إثم ذلك الذنب فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره ، فيكون رأس أهل الشرِّ في العقوبة كما كان رأسهم في الشرِّ والكفر . ولما كان مادة كل شرٍّ فعنه تنشأ جوزي في النار مثل فعله ، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ فيه ثمَّ يسري منه إلى أتباعه عدلاً ظاهراً وحكمة بالغة .

وأبقاه ليتولى المجرمين :

ومن حكم ابقائه إلى يوم الدين أنّه قال في مخاصمته لربِّه (أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن اخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلاً) (سورة الاسراء / ٦٢) وعلم الله سبحانه أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره ، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث أبقاه له ، وقال له بلسان القدر هؤلاء أصحابك وأولياؤك فاجلس في انتظارهم وكلما مرَّ بك واحد منهم فشأنك به فلو صلح لي ما ملكتك منه فإني اتولى الصالحين ، وهم الذين يصلحون لي وانت ولي المجرمين من الذيــن غنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي ، قال تعالى : (إنّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنّما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) (سورة النحل / ٩٩ ـ ١٠٠) .

فأمّا إماتة الأنبياء والمرسلين فلم يكن ذلك لهوانهم عليه ولكن ليصلوا إلى محل كرامته ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم وأتباعهم وليحيى الرسل بعدهم ، يرى رسولاً بعد رسول ، فإماتتهم أصلح لهم وللأمَّة ، أمّا هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور ولا سيما وقد خيرهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللحاق به ، وأمّا الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم في حياتهم خاصة بل أطاعوهم بعد مماتهم كما أطاعوهم في حياتهم وإن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم ،

والله هو الحي الذي لا يموت ، فكم في اماتتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمة . هذا وهم بشر ولم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقة قابلة للدوام بل جعلهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضاً فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف ولضاقت بهم الأرض ، فالموت كمال لكل مؤمن ، ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا ولا هناء لأهلها بها ، فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة .

إلى أي مدى نجح الشيطان في اهلاك بني آدم ؟

عندما رفض الشيطان السجود لآدم وطرده الله من رحمته وجنته وغضب عليه ولعنه ، أخذ على نفسه العهد أمام ربِّ العزة بأن يضلنا ويغوينا ، ويعبدنا لنفسه (لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم...) (سورة النساء / ١١٨ ـ ١١٩) .

(قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً) (سورة الإسراء /٦٢) .

فإلى أي مدى حقق الشيطان مراده من بني الإنسان ؟

إن المسرِّح نظره في تاريخ البشرية يهوله ما يرى من ضلال الناس وكيف كذبوا الرسل والكتب وكفروا بالله ربهم وأشركوا به مخلوقاته كما قال تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (سورة يوسف / ١٠٣) ولذا حق عليهم غضب الله وانتقامه (ثمَّ أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون) (سورة المؤمنون /٤٤) .

وفي الحاضر حيثما نظرنا أبصرنا أولياء الشيطان تعج بهم الحياة ، يرفعون رايته وينادون بمبادئه ، ويعذبون أولياء الله ، ويدلنا على مدى تحقيق الشيطان لمراده أن الله يأمر آدم يوم القيامة أن يخرج من ذريته بعث النار ، فلما يستفسر

عن مقدار هذا البعث يقول له : تسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، وفي رواية تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنَّة .

وبذلك يصدق ظنه في هذه الذرية التي لم تعتبر بما جرى لأبيها ، ولا بما جرى لأسلافها ، ويبقى هذا اللعين يقودها إلى هلاكها ، بل أحياناً تسابقه إلى الجحيم .

وما أقبح أن يصدق ظن العدو في عدوه (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) (سورة سبأ / ٢٠) قبيح بالإنسان أن يتحقق فيه ظن الشيطان فيطيع هذا العدو ويعصي ربَّه الرحمن ، ولقد بلغ الأمر حدّاً لا يوصف ولا يتصور ، فهذه طائفة في العراق وفي جهات أخرى تطلق على نفسها : عباد الشيطان ، وبعض الكتاب نراهم يحلفون (بحق الشيطان) فما أعجب أمرهم !

لا تفكر بكثرة الهالكين :

حريٌّ بالعاقل اللبيب أن لا يغتر بكثرة الهالكين ، فالكثرة ليس لها اعتبار في ميزان الله ، إنما الاعتبار بالحقّ ولو قَلَّ عدد متبعيه .

فكن من اتباع الحق الذين رضوا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، الذين عرفوا الشيطان وأتباع الشيطان فحاربوهم بالبغض القلبي ، وبالكلمة من اللسان ، وبالكتابة باليد ، وبالعمل بالحق وبمحاربتهم بالحجة والبرهان والسيف والسنان ، وقبل ذلك بالالتجاء إلى الرحمن والتمسك بدينه .

(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم) (سورة البقرة / ٢٠٨-٢٠٩) نسأل الله أن يجعلنا بمنه وكرمه من الذين دخلوا في السلم دخولاً كلياً وصلى وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبة وسلم .

المـراجع

١ ـ اغاثة اللهفان ـ لابن القيم .

٢ ـ الإيمان بالملائكة ـ لأحمد عز الدين البيانوني .

٣ ـ البداية والنهاية ـ لابن كثير .

٤ ـ تفسير ابن كثير .

٥ ـ تلبيس إبليس ـ لابن الجوزي .

٦ ـ جامع الرسائل ـ لابن تيمية .

٧ ـ دائرة المعارف الحديثة ـ لأحمد عطية .

٨ ـ الروحية الحديثة ـ لمحمد محمد حسين .

٩ ـ شرح العقيدة الطحاوية .

١٠ ـ شفاء العليل ـ لابن القيم .

١١ ـ صحيح الجامع ـ لناصر الدين الألباني .

١٢ ـ العقائد الإسلامية ـ لسيد سابق .

١٣ ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ـ لابن تيمية .

١٤ ـ لوامع الأنوار البهية (عقيدة السفاريني) .

١٥ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ جمع ابن قاسم .

١٦ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب ـ لابن القيم .

١٧ ـ جريدة القبس الكويتية .

١٨ ـ جريدة الوطن الكويتية .



العقيدة في ضوء الكتاب والسنة
(٤)

الرسل والرسالات

تأليف

الدكتور عمر سليمان الأشقر

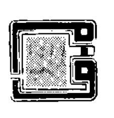




الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

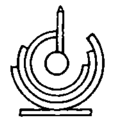
الطبعة الثالثة
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

الطبعة الرابعة
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م



مكتبة الفلاح - الكويت
للنشر والتوزيع

شارع بيروت مقابل بريد حولي القديم
تلفون: ٢٦٤٧٧٨٤
ص.ب: ٤٨٤٨ الصفاة الرمز البريدي 13049الكويت
برقيا: لغاتكو



دار النفائس
للنشر والتوزيع - الكويت

النقرة - شارع موسى بن نصير
قرب دوار الفارابي - هاتف ٢٦٢٩٥٨٣
ص.ب : ٦٦٠٩ حولي 32041 الكويت

الرسل والرسالات



تمهيد

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ، قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾[١] .

الحمد لله الذي أنزل إلينا كتابا فيه نبأ ما قبلنا ، وخبر ما بعدنا ، وحكم ما بيننا ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أُجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم[٢] .

وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد « أرسله الله بالهدى ودين الحقِّ بين يديِّ الساعة بشيراً ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ، فختم به الرسالة ، وهدى به من الضلالة ، وعلّم به من الجهالة ، وفتح برسالته أعينا عميا ، وآذانا صمّا ، وقلوبا غلفا ، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها ، وتألفت به القلوب بعد شتاتها ، فأقام به الملة العوجاء ، وأوضح به المحجّة البيضاء ، وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع ذكره ، وجعل الذلّة والصغار على من خالف

---

(١) سورة الكهف/١ ـ ٢ .

(٢) هذا حديث يرويه الترمذي في سننه وإسناده ضعيف ومعناه حسن وجميل ، ولم نذكره في المتن على أنه حديث منسوب إلى الرسول ﷺ .

أمره ، أرسله - ﷺ - على حين فترة من الرسل ، ودروس من الكتب ، حين حُرِّف الكلم ، وبُدِّلت الشرائع ، وأستند كلٌّ قوم إلى ظُلَم آرائهم ، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم ، فهدى الله به الخلائق ، وأوضح به الطرائق ، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وأبصر به من العمى ، وأرشد به من الغيّ ، وجعله قسيم الجنّة والنار ، وفرَّق به ما بين الأبرار والفجار ، وجعل الهدى والفلاح في اتباعه ، وموافقته ، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته ، وامتحن به الخلائق في قبورهم ، فهم في القبور عنه مسؤولون ، وبه ممتحنون »[1].وأصلي على آله الأطهار ، وصحبه الأخيار ، أبرّ هذه الأمّة قلوبا ، وأفضلها علما ، وأقلها تكلفا ، وعلى من سلك سبيلهم ، واستنار بنور الإسلام ، واستمسك بهدي القرآن ، وتابع الرسول الخاتم ، وبعد :

فهذا هو الجزء الرابع من سلسلة « العقيدة في ضوء الكتاب والسنة » وهو كالكتب التي سبقته ، جاء ليجلي العقيدة في ضوء المصادر الأصلية ، بعيدا عن التعقيد والجفاف والمصطلحات الفلسفية والكلامية .

ومباحث الرسل والرسالات متداخلة تداخلا كبيراً ولذا رأيت أن يصدر هذان الأصلان في جزء واحد ، ومن أجل هذا التداخل طال الباب الأوّل الذي يبحث في الرسل ، وضمر الباب الثاني الذي يبحث في الرسالات ، وما ذلك إلّا لأنّ مباحث الرسل تضمنت كثيرا من مباحث الرسالات .

وقد اشتمل الباب الأوّل على ثمانية فصول ، في الفصل الأوّل عرَّفت النبيّ والرسول و بينت الفرق بينهما ، ووجوب الإيمان بالأنبياء والرسل ، وكفر من زعم الإيمان بالله وكفر بالرسل ، أو فرق بين الرسل ، كما بينت عدد الرسل ، وأسماء الرسل والأنبياء الذين ذكروا في الكتاب والسنة .

وفي الفصل الثاني بينت مدى حاجتنا إلى الرسل والرسالات ، وعدم استغناء

---

(١) هذا الكلام الطيب من كلام العالم الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله انظر (لوامع الأنوار البهية ٢/٢٦٢) .

الإنسان بعقله عن وحي الله وشرعه .

وفي الفصل الثالث توسعت في بيان وظائف الرسل ومهماتهم .

وفي الفصل الرابع بينت الطريق الذي يعلم الله به أنبياءه ورسله وهو الوحي ، وبينت مقامات الوحي ، وصفة مجيء ملك الوحي إلى الرسول .

وذكرت صفات الرسل في الفصل الخامس ، وبينت أن الأنبياء بشر ، وبينت مقتضى هذه البشرية ، كما دللت على أنَّ الأنبياء حازوا الكمال البشريّ . وفي الختام ذكرت الأمور التي تفرد بها الرسل عن سائر البشر .

وفي الفصل السادس تحدثت بشيء من التفصيل عن عصمة الرسل ، وبينت الأمور التي هي محل للعصمة ، والأمور التي لم يعصموا منها ، وذكرت آراء بعض الفرق المخالفة ووجهة نظرها ، وبطلان قولها .

وقد طال الحديث في الفصل السابع عن دلائل النبوة ، فقد ذكرت آيات الرسل السابقين ، وتوسعت شيئا ما في ذكر آيات نبينا محمد ﷺ ، وتحدثت عن بشارات الأنبياء برسولنا محمد ﷺ ، وسقت طرفا منها ، وبينت أن من أدلة صدق الرسل أحوال الرسل ، ودعوة الرسل ، فإنَّ النظر في هذين لا بدَّ أن يهدي إلى الحق من أوتي بصيرة ورغبة في الهداية ، والدليل الخامس الذي ذكرته هو تأييد الله لرسله وأنبيائه .

والفصل الثامن خصصته لبيان فضل الأنبياء وتفاضلهم ، فالأنبياء أفضل الخلق ، ثمَّ هم متفاضلون فيما بينهم ، وقد ضلَّ أقوام فضلوا غير الأنبياء على الأنبياء فخالفوا اجماع المسلمين ، وقد بينت فساد قولهم .

والباب الثاني جعلته للرسالات السماوية ، ويقع في فصلين .

الفصل الأول : في الإيمان بالرسالات ، بينت فيه وجوب الإيمان بها كلّها ، وكيف يكون هذا الإيمان .

وقارنت ـ في الفصل الثاني ـ بين الرسالات السماوية وذلك لبيان الأمور الآتية :

أولا : مصدر هذه الرسالات والغاية من إنزالها .
ثانيا : العموم والخصوص فيها .
ثالثا : حفظها من التغيير والتبديل .
رابعا : مواضع الاتفاق والاختلاف في هذه الرسالات .
خامسا : الطول والقصر ووقت النزول .

وفي نهاية الباب بينت موقف الرسالة الخاتمة من الرسالات السابقة .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يبارك لنا في أوقاتنا وأعمالنا ، وأن يجعل عملنا خالصا لوجهه ، وأن يعصمنا من الزلل في القول والعمل ، وأن ينفع بهذا الكتاب عباده ، إنه سميع قريب مجيب ، وصلى الله على عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم .

د . عمر سليمان الأشقر

الكويت

٢ من ربيع الأول ١٤٠١ هـ

٨ من يناير ١٩٨١ م

الباب الأوّل

الرّسُلُ وَالأنبياءُ



الفصل الأول

تَعَرِيفٌ وَبَيَانٌ



تعريف النبي[1]

النبي ـ في لغة العرب ـ مشتقّ من النبأ وهو الخبر ، قال تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ؟ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ « سورة النبأ/١ ، ٢ » .

وإنّما سمّي النبيُّ نبيّا لأنَّه مُخْبِرٌ مُخْبَر ، فهو مُخْبَر أي أنَّ الله أخبره ، وأوحى إليه ، ﴿قَالَتْ :مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ؟ قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ « سورة التحريم/٣ » ، وهو مخبِر عن الله تعالى أمره ووحيه ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ « سورة الحجر/٤٩ » ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ « سورة الحجر/٥١ » . وقيل النبوة مشتّقة من النَّبوة ، وهي ما ارتفع من الأرض ، وتطلق العرب لفظ النبيّ على علم من أعلام الأرض التي يهتدى بها ، والمناسبة بين لفظ النبي والمعنى اللغوي ، أنَّ النبيَّ ذو رفعة وقدر عظيم في الدنيا والآخرة ، فالأنبياء هم أشرف الخلق ، وهم الأعلام التي يهتدي بها الناس فتصلح دنياهم وأخراهم .

تعريف الرسول[2]

الإرسال في اللغة التوجيه ، فإذا بعثت شخصا في مهمة فهو رسولك ، قال تعالى حاكيا قول ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ « سورة النمل/٣٥ » وقديريدون بالرسول ذلك الشخص الذي يتابع

---

(١) راجع في هذه المسألة : لسان العرب ٥٦١/٣ ، ٥٧٣ ، بصائر ذوي التمييز ١٤/٥ ، لوامع الأنوار البهيّة ٤٩/١ ، ٢٦٥/٢ .

(٢) راجع في هذه المسألة : لسان العرب (١١٦٦/٢ ـ ١١٦٧) ، المصباح المنير ص ٢٢٦ .

أخبار الذي بعثه ، أخذاً من قول العرب : « جاءَت الإبلُ رَسَلاً » أي متتابعة .

وعلى ذلك فالرُّسل إنّما سمّوا بذلك لأنَّهم وُجّهوا من قبل الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ « سورة المؤمنون/٤٤ » ، وهم مبعوثون برسالة معيَّنة مكلَّفون بحملها وتبليغها ومتابعتها .

الفرق بين الرسول والنبيّ

لا يصحُّ قول من ذهب إلى أنه لا فرق بين الرسول والنبيّ ، ويدلُّ على بطلان هذا القول ما ورد في عدة الأنبياء والرسل ، فقد ذكر الرسول ـ ﷺ ـ أنَّ عِدَّة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبيّ ، وعدَّة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً[١] ، ويدلّ على الفرق أيضا ما ورد في كتاب الله من عطف النبيِّ على الرسول ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إلاّ إذَا تَمَنَّىَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ « سورة الحج/٥٢ » ووصف بعض رسله بالنبوة والرسالة مما يدلُّ على أنَّ الرسالة أمر زائد على النبوة ، كقوله في حقِّ موسى عليه السلام : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾« سورة مريم/٥١ » .

والشائع عند العلماء أنَّ الرسول أعمُّ من النبي ، فالرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، والنبيُّ من أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ ، وعلى ذلك فكلُّ رسول نبيٌّ ، وليس كل نبيّ رسولا[٢] .

وهذا الذي ذكروه هنا بعيد لأمور : **الأوّل** : أن الله نصَّ على أنّه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ . .﴾ ، فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ فالإرسال يقتضي من النبيّ البلاغ .

الثاني : أنَّ ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى ، والله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس ، ثمَّ يموت هذا العلم بموته .

---

(١) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١٦٧) ، لوامع الأنوار البهية (١/٤٩) .

الثالث : قول الرسول ﷺ « عرضت عليَّ الأمم فرأيت النبيَّ ومعه الرهط ، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان ، والنبيَّ وليس معه أحد . . »[1] .

فدلّ هذا على أنَّ الأنبياء مأمورون بالبلاغ وأنَّهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم .

والتعريف المختار أنَّ « الرسول من أوحي إليه بشرع جديد ، والنبيُّ هو المبعوث لتقرير شرع من قبله »[2] .

وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما مات نبيٌّ قام نبيٌّ ، كما ثبت في الحديث[3] ، وأنبياء بني إسرائيل كلّهم مبعوثون بشريعة موسى : التوراة ، وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحي الله إليهم ، ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا** . .﴾ « سورة البقرة/٢٤٦ » فالنبي كما يظهر من الآية يوحى إليه شيء يوجب على قومه أمرا ، وهذا لا يكون إلا مع وجوب التبليغ .

واعتبر في هذا بحال داود وسليمان وزكريا ويحيى فهؤلاء جميعا أنبياء ، وقد كانوا يقومون بسياسة بني إسرائيل ، والحكم بينهم وابلاغهم الحق ، والله أعلم بالصواب .

الإيمان بالأنبياء والرسل من أصول الإيمان

الإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان ، قال تعالى : ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ**

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

(٢) تفسير الآلوسي (١٥٧/١٧) .

(٣) البخاري في صحيحه ، انظر فتح الباري (٤٩٥/٦) .

مُسْلِمُونَ﴾ . « سورة آل عمران/٨٤ » .

ومن لم يؤمن بالرسل فقد ضلَّ وخسر ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾ « سورة النساء/١٣٦ » .

الصلة بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل والرسالات

الذين يزعمون أنَّهم مؤمنون بالله ولكنَّهم يكفرون بالرسل والكتب هؤلاء لا يقدرون الله حقَّ قدره ، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شيء﴾ « سورة الأنعام/٩١ » . فالذين يقدرون الله حقَّ قدره ، ويعلمون صفاته التي اتصف بها من العلم والحكمة والرحمة لا بدَّ أن يوقنوا بأنَّه أرسل الرسل وأنزل الكتب لأن هذا مقتضى صفاته ، فهو لم يخلق الخلق عبثا ، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾« سورة القيامة/٣٦ » .

ومن كفر بالرسل وهو يزعم أنَّه يؤمن بالله فهو عند الله كافر لا ينفعه إيمانه ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ ورُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ « سورة النساء/١٥٠ ـ ١٥١ » .

فقد نصَّت الآية على كفر من زعم الإيمان بالله وكفر بالرسل ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾ ، يقول القرطبي في هذه الآية : « نصّ سبحانه على أنَّ التفريق بين الله ورسله كفر ، وإنّما كان كفراً لأنَّ الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه على ألسنة الرسل ، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم ، ولم يقبلوها منهم ، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها ، فكان كجحدالصانع سبحانه ، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية ، وكذلك التفريق بين الله ورسله »[1] .

---

(١) تفسير القرطبي (٦/٥) .

الأنبياء والرسل جمّ غفير

اقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ في الأمم قبل هذه الأمّة أن يرسل في كلّ منها نذيراً ، ولم يرسل رسولاً للبشرية كلّها إلاّ محمدا ﷺ ، واقتضى عدله ألاّ يعذب أحدا من الخلق إلاّ بعد أن تقوم عليه الحجّة : ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ « سورة الإسراء/١٥ » . من هنا كثر الأنبياء والرسل في تاريخ البشريّة كثرة هائلة ، قال تعالى : ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيْهَا نَذِيرٌ**﴾ « سورة فاطر/٢٤ » .

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بعدّة الأنبياء والمرسلين ، فعن أبي ذرّ قال : قلت : يا رسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : ثلاثمائة وبضعة عشر جمّاً غفيرا » وفي رواية أبي أمامة ،قال أبوذر: قلت: يا رسول الله ، كم وفاء عدة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرُّسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيرا « رواه أحمد في مسنده »[١] .

من الأنبياء والرسل من لم يقصصهم الله علينا

وهذا العدد الكبير للأنبياء والرسل يدلنا على أنَّ الذين نعرف أسماءهم من الرسل والأنبياء قليل ، وأنَّ هناك أعداد كثيرة لا نعرفها ، وقد صرَّح القرآن بذلك في أكثر من موضع ، قال تعالى : ﴿**وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، ورُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ**﴾ «سورة النساء/ ١٦٤»، وقال : ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**﴾ « سورة غافر/٧٨ » .

فالذين أخبرنا الله بأسمائهم في كتابه أو أخبرنا بهم رسوله ـ ﷺ ـ لا يجوز أنّ نكذّبَ بهم ، ومع ذلك فنؤمن أنَّ لله رسلا وأنبياء لا نعلمهم .

---

(١) مشكاة المصابيح ١٢٢/٣ ، وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني : إسناده صحيح .

الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن

ذكر الله في كتابه خمسة وعشرين نبياً ورسولا ، فذكر في مواضع متفرقة آدم وهودا وصالحاً وشعيبا وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ومحمد .

قال تعالى : ﴿إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ . .﴾ « سورة آل عمران /٣٣ » ، وقال : ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخاهُمْ هُوداً﴾ « سورة هود/ ٥٠ » ، ﴿وَإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ « سورة هود/ ٦١ » ﴿وَإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ « سورة هود/٨٤ » ، ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ « سورة الأنبياء/٨٥ » ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . .﴾ « سورة الفتح/٢٩ » .

وذكر ثمانية عشر منهم في موضع واحد ـ في سورة الأنعام ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْراهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلّاً هَدَيْنَا ، وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً ، وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ . « سورة الأنعام/٨٣ ـ ٨٦ » .

أربعة من العرب :

من هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب ، فقد جاء في حديث أبي ذر في ذكر الأنبياء والمرسلين : « منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر »[١] .

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل العرب العاربة ، وأمّا العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل[٢] ، وهود وصالح كانا من العرب العاربة .

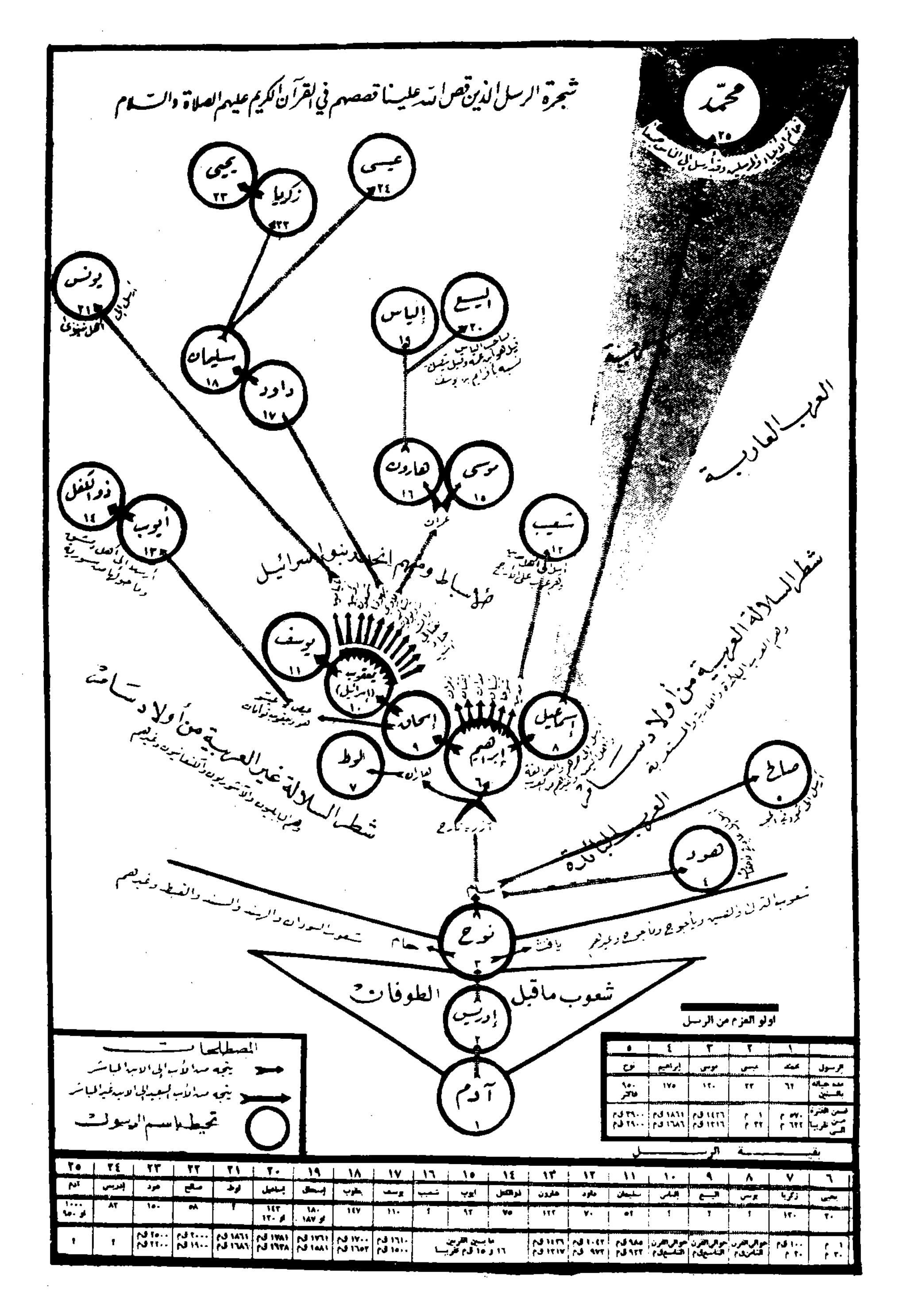
---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ، البداية والنهاية (١/١٢٠) .
(٢) البداية والنهاية (١/١١٩ ـ ١٢٠) .

الأسباط

الأنبياء الذين سبق ذكرهم مذكورون في القرآن بأسمائهم ، وهناك بعض الأنبياء أشار القرآن إلى نبوتهم ولكننا لا نعرف أسماءَهم ، وهم الأسباط ، والأسباط هم أولاد يعقوب ، وقد كانوا إثني عشر رجلا عرّفنا القرآن بواحد منهم وهو يوسف والباقي وعددهم أحد عشر رجلا لم يعرفنا الله بأسمائهم ولكنّه أخبرنا بأنّه أوحى إليهم ، قال تعالى : **﴿قُولُوا آمَنَّا باللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِل إلى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَق ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ﴾** « سورة البقرة/١٣٦ » .

وقال : **﴿أَمْ تَقُولُونَ إنَّ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصارَى . .﴾** « سورة البقرة/ ١٤٠ » .



أولو العزم من الرسل

	١	٢	٣	٤	٥
الرسول	محمد	عيسى	موسى	إبراهيم	نوح
مدة حياته بالسنين	٦٢	٣٣	١٢٠	١٧٥	٩٥٠ فأكثر
من الفترة من تقريبا الى	٥٧٠ م ٦٣٢ م	١ م ٣٣ م	١٤٣٦ ق م ١٣١٦ ق م	١٨٦١ ق م ١٦٨٦ ق م	٣٩٠٠ ق م ٢٩٠٠ ق م

بقية الرسل

٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥
يحيى	زكريا	يونس	اليسع	إلياس	سليمان	داود	هارون	ذو الكفل	أيوب
٣٠	١٢٠	؟	؟	؟	٥٢	٧٠	١٢٢	٧٥	٩٢
١ م ٣٠ م	١٠٠ ق م ٢٠ م	حوالي القرن الثامن ق م	حوالي القرن التاسع ق م	حوالي القرن التاسع ق م	٩٨٥ ق م ٩٣٢ ق م	١٠٤٢ ق م ٩٧٢ ق م	١٤٣٦ ق م ١٣١٧ ق م	ما بين القرنين ١٦ و ١٥ ق م تقريبا	

١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
شعيب	يوسف	يعقوب	إسحاق	إسماعيل	لوط	صالح	هود	إدريس	آدم
؟	١١٠	١٤٧	١٨٠ أو ١٨٧	١٤٣ أو ١٣٠	؟	٥٨	١٥٠	٨٢	١٠٠٠ أو ٩٥٠
	١٦١٠ ق م ١٥٠٠ ق م	١٧٠٠ ق م ١٦٥٢ ق م	١٧٦١ ق م ١٥٨١ ق م	١٧٨١ ق م ١٦٣٨ ق م	١٨٦١ ق م ١٦٨٦ ق م	٢٠٠٠ ق م ١٩٠٠ ق م	٢٥٠٠ ق م ٢٢٠٠ ق م	؟	؟

هذه الشجرة مأخوذة من كتاب العقيدة الاسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن حبنكه .

أنبياء عرفناهم من السنّة

هناك أنبياء عرفناهم من السنة ، ولم ينصّ القرآن على أسمائهم ، وهم :

شيث :

يقول ابن كثير : « وكان نبيّا بنصّ الحديث الذي رواه ابن حبّان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعا أنّه أنزل عليه خمسون صحيفة »[1] .

يوشع بن نون :

روى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « غزا نبيٌّ من الأنبياء ، فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبنى بها ، ولما يبن ، ولا آخر قد بنى بنيانا ولم يرفع سقفها ، ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها ، فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر ، أو قريبا من ذلك ، فقال للشمس : أنت مأمورة ، وأنا مأمور ، اللهمَّ احبسها عليَّ شيئا »[2] .

والدليل على أنَّ هذا النبيّ هو يوشع قوله ﷺ : « إنَّ الشمس لم تحبس إلّا ليوشع ليالي سار الى بيت المقدس »[3] .

صالحون مشكوك في نبوتهم

ذو القرنين :

ذكر الله خبر ذي القرنين في آخر سورة الكهف ، ومما أخبر الله به أنه خاطبه ﴿ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا** ﴾ « سورة الكهف/٨٦ » .

---

(١) البداية والنهاية (١/٩٩) .

(٢) رواه أحمد ومسلم (انظر البداية والنهاية ٣٢٣/١) .

(٣) قال ابن كثير في البداية والنهاية : (١/٣٢٣) انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري .

فهل كان هذا الخطاب بواسطة نبيّ كان معه ، أو كان هو نبيّا ؟ جزم الفخر الرازي بنبوته[1] ، وقال ابن حجر « وهذا مرويٌّ عن عبد الله بن عمرو وعليه ظاهر القرآن »[2] ومن الذين نفوا نبوته عليٌّ بن أبي طالب[3] .

تبع :

ورد ذكر تبع في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ **أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ «سورة الدخان/٣٧ » وقال : ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ، وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ، وأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ** ﴾ « سورة ق/١٢ - ١٤ » فهل كان نبيّا مرسلا إلى قومه فكذبوه فأهلكهم الله ؟ الله أعلم بذلك .

الأفضل التوقف في أمر ذي القرنين وتُبّع :

والأفضل أن يتوقف في اثبات النبوة لهذين ، لأنّه صحّ عن الرسول ﷺ أنه قال : « ما أدري أتُبّع نبيّا أم لا ، وما أدري ذا القرنين نبيا أم لا »[4] . فإذا كان الرسول ﷺ لا يدري فنحن أحرى بأن لا ندري .

الخضر

الخضر هو العبد الصالح الذي رحل إليه موسى ليطلب منه علما ، وقد حدثنا الله خبرهما في سعورة الكهف .

وسياق القصة يدلّ على نبوته من وجوه[5] :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ،

---

(١) فتح الباري ٣٨٢/٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) هذا الأثر أخرجه الحاكم عن علي وقال سنده صحيح انظر فتح الباري (٣٨٢/٦) .

(٤) رواه الحاكم والبيهقي (انظر صحيح الجامع الصغير (١٢١/٥) .

(٥) ذكر هذه الوجوه ابن كثير في البداية والنهاية (٣٢٦/١) .

وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ « سورة الكهف/٦٥ » ، والأظهر أنَّ هذه الرحمة هي رحمة النبوة ، وهذا العلم هو ما يوحى إليه به من قبل الوحي .

الثاني : قول موسى له : ﴿ هَلْ اتَّبِعُكَ عَلَى أنْ تعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ؟ قَالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ، قَالَ سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَاللّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ، قَالَ : فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ « سورة الكهف/٦٦ ـ ٧٠ » فلو كان غير نبيّ لم يكن معصوما ، ولم يكن لموسى وهو نبيٌّ عظيم ، ورسول كريم ، واجب العصمة ـ كبير رغبة ، ولا عظيم طلبة في علم وَليّ غير واجب العصمة ، ولما عزم على الذهاب إليه ، والتفتيش عليه ، ولو أنَّه يمضي حقبا من الزمان ، قيل ثمانين سنة ، ثمَّ لما اجتمع به ، تواضع له ، وعظّمه ، واتبعه في صورة مستفيد منه ، دلّ على أنه نبيٌّ مثله ، يوحى إليه كما يوحى إليه ، وقد خصّ من العلوم اللدنيّة والأسرار النبويَّة بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم ، نبيّ بني إسرائيل الكريم .

الثالث : أنّ الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام ، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام ، وهذا دليل مستقلٌ على نبَّوته ، وبرهان ظاهر على عصمته[1] ، لأنَّ الولي لا يجوز له الاقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده ، لأنَّ خاطره ليس بواجب العصمة ، إذ يجوز الخطأ عليه بالاتفاق ، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم علما منه بأنّه إذا بلغ يكفر ، ويحمل أبويه على الكفر لشدّة محبتهما له ، فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته دلّ ذلك على نبوته وأنّه مؤيد من الله بعصمته .

---

(١) ضلَّ أقوام من هذه الأمّة إذ ينتهكون الحرمات ، ويرتكبون المنهيات ، فإذا أنكر عليهم منكر ، قالوا : حقيقة الأمر الخافية غير المظهرة البائنة ، ويحتجون على ذلك بقصّة الخضر ، وإفساده للسفينة ، وقتله للغلام ، وهذا ضلال كبير ، يفتح باب الشرّ ولا يستطاع اغلاقه بعد ذلك ، والقول بنبوَّة الخضر يغلق هذا الباب ، ثمَّ ليس لأحد من هذه الأمّة أن يخالف الشريعة الاسلامية ، فالحلال ما أحلّه الله ، والحرام ما حرّمه الله ، فمن رام خلاف الشريعة عوقب معاقبة المخالف ، وإن زعم ما زعم .

الرابع : أنّه لمّا فسّر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى ، ووضح له عن حقيقة أمره وجلاّه ، قال بعد ذلك كلّه : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُه عَنْ أَمْرِي﴾ « سورة الكهف/٨٢ » يعني ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل أمرت به ، وأوحى إليّ فيه[1] .

الكفر برسول واحد كفر بجميع الرسل

والكفر برسول واحد كفر بجميع الرسل ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ « سورة الشعراء/١٠٥ » ، وقال : ﴿ كَذَّبَتْ عادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ « سورة الشعراء/١٢٣ » وقال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ « سورة الشعراء/١٤١ » ، وقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ « سورة الشعراء/١٦٠ » ، ومن المعروف أنَّ كلَّ أمَّةٍ كذَّبت رسولها ، إلاّ أن التكذيب برسول واحد يعدّ تكذيباً بالرسل كلّهم ، ذلك أنَّ الرسل حملة رسالة واحدة ،

---

(١) ذهب جمع كثير من العلماء إلى أنَّ الخضر حيّ لم يمت ، وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة ، وقد فتح القول بحياته بابا للخرافة والدجل ، فأخذ كثير من الناس يزعم أنّهم قابلوا الخضر ، وأنّه وصّاهم بوصايا ، وأمرهم بأوامر ، ويروون في ذلك حكايات غريبة ، وأخبارا يأباها العقل السليم .

وقد ذهب إلى تضعيف هذه الأخبار جمع من كبار المحدثين منهم البخاريُّ ، وابن دحية ، وابن كثير ، وابن حجر العسقلاني ، وأقوى ما يردُّ به على هؤلاء القائلين بحياته أنّه لم يصح في ذلك حديث ، وأنّه لو كان حيّا لكان فرض عليه أن يأتي إلى الرسول ﷺ ويتابعه وينصره ، فقد أخذ الله العهد على الأنبياء من قبل بالإيمان بمحمد ونصرته إذا أدركهم زمانه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ : أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ اصْرِي ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ « سورة آل عمران/٨١ » وقد أخبر الرسول ﷺ أنّه لو كان موسى حيّا ما وسعه إلا اتباعه ، وقد سأل إبراهيم الحربى أحمد بن حنبل عن تعمير الخضر والياس وأنهما باقيان يريان ويروى عنهما ، فقال أحمد : من أحال على غائب لم ينصف منه ، وما ألقى هذا إلا الشيطان . (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤/٣٣٧) .

وسئل البخاري عن الخضر والياس : هل هما في الأحياء ؟ فقال : كيف يكون هذا وقد قال النبيُّ ﷺ : « لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو على وجه الأرض أحد » (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤/٣٣٧) .

وقد أطال جماعة من محققي العلماء في إيراد الأدلة المبطلة لهذه الخرافة منهم ابن كثير في البداية والنهاية « ١/٣٢٦ » والشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان « ٤/١٨٤ » وقد ألف ابن حجر العسقلاني رسالة في ذلك سمّاها : الزهر النضر في نبأ الخضر ، وهي مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيريّة ٢/١٩٥ .

ودعاة دين واحد ، ومرسلهم واحد ، فهم وحدة يبشر المتقدم منهم بالمتأخر ، ويصدق المتأخر المتقدم .

ومن هنا كان الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض كفرا بهم جميعا ، وقد وسم الله من هذا حاله بالكفر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ ، وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ « سورة النساء/١٥٠ ـ ١٥١ » وقد أمرنا الله بعدم التفريق بين الرسل والإيمان بهم جميعا ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ « سورة البقرة/١٣٦ » ومن سار على هذا النهج فقد اهتدى ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ « سورة البقرة/١٣٧ » والذي يخالفه فقد ضلَّ وغوى ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ « سورة البقرة/١٣٧ » .

وقد مدح الله رسول هذه الأمّة والمؤمنين الذين تابعوه لايمانهم ولعدم تفريقهم بين الرسل ، قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ « سورة البقرة/٢٨٥ » .

ووعد الذين لم يفرقوا بين الرسل بالمثوبة والأجر الكريم ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ « سورة النساء/١٥٢ » .

وقد ذمّ الله أهل الكتاب لايمانهم ببعض الرسل وكفرهم ببعض ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا : نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ ﴾ « سورة البقرة/٩١ » .

فاليهود لا يؤمنون بعيسى ولا بمحمد ، والنصارى لا يؤمنون بمحمد ﷺ .

لا نثبت النبوة لأحد إلّا بدليل

يذكر علماء التفسير والسير أسماء كثير من الأنبياء نقلا عن بني إسرائيل ، أو اعتمادا على أقوال لم تثبت صحتها ، فإن خالفت هذه النقول شيئا مما ثبت عندنا من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ رفضناها ، كقول الذين قالوا : « إنَّ الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية المذكورة قصتهم في سورة يس كانوا من أتباع عيسى ، وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيين بعد عيسى »[1] .

نردّ هذا كلّه ، لأنَّه ثبت في الحديث الصحيح أنّه ليس بين عيسى بن مريم وبين رسولنا صلوات الله وسلامه عليهما نبيٌّ[2]، فالرسل المذكورون في آية سورة يس إمّا رسل بعثوا قبل عيسى وهذا هو الراجح ، أو هم - كما يقول بعض المفسرين - مبعثون من قبل عيسى وهذا بعيد ، لأن الله أخبر أنّه مرسلهم ، والرسول عند الاطلاق ينصرف إلى الاصطلاح المعروف ، وما ورد من أنَّ خالد بن سنان نبي عربي ضيعه قومه فهو حديث لا يصحُّ ، وهو مخالف لحديث صحيح أخبر الرسول ﷺ فيه أنَّ عدد الأنبياء الذين من العرب أربعة[3] .

أما ما ورد عن بني إسرائيل من أخبار بتسمية بعض الأنبياء مما لا دليل عليه من الكتاب والسنة فلا نكـذِّبـه ولا نصدّق به لأنَّ خبرهم يحتمل الصدق والكذب .

---

(١) فتح الباري « ٦/٤٨٩ »

(٢) حديث صحيح رواه البخاري وغيره انظر فتح الباري (٤/٤٧٧) .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه .

الفصل الثاني

حَاجَةُ البَشَرِيَّةِ إِلى الرُّسُلِ وَالرِّسَالَاتِ



حَاجَةُ البَشَرِيَّةِ إلى الرّسُلِ وَالرّسَالاَت

تمهيد

إذا كان الناس في القديم يجادلون الرسل ، ويرفضون علومهم ، ويعرضون عنهم ـ فإن البشر اليوم في القرن العشرين حيث بلغت البشريّة ذروة التقدم المادي ، فغاصت في أعماق البحار ، وانطلقت بعيدا في أجواز الفضاء ، وفجرت الذرة ، وكشفت كثيرًا من القوى الكونية الكامنة في هذا الوجود ـ أشدُّ جدالاً للرسل ، وأكثر رفضاً لعلومهم ، وأعظم إعراضًا عنهم ، وحال البشر اليوم من الرسل وتعاليمهم كحال الحمر المُستنفرة حين ترى الأسد فتفرّ منه لا تلوي على شيء ، قال تعالى : ﴿ **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرةٌ ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ** ﴾ « سورة المدثر/٤٩ ـ ٥١ » .

يأبى البشر اليوم ـ أكثر من قبل ـ التسليم للرسل وتعاليمهم اغترارا بعلومهم ، واستكبارا عن متابعة رجال عاشوا في عصور متقدمة على عصورهم ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ! فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللّهُ وَاللّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ « سورة التغابن/٦ » .

واليوم ينفخ شياطين الإنس في عقول البشر يدعونهم إلى التمرد على الله وعلى شريعة الله ، ورفض تعاليم الرسل ، بحجة أنَّ في شريعة الله حجرا على عقولهم ، ووقفا لركب الحياة ، وتجميدا للحضارة والرقيّ ، وقد أقامت الدول اليوم نظمها وقوانينها وتشريعاتها على رفض تعاليم الرسل ، بل إنَّ بعض الدول تضع الإلحاد مبدأً دستوريا ، وهو الذي يسمى بالعلمانية ، وكثير من الدول التي

تتحكم في رقاب المسلمين تسير على هذا النهج ، وقد ترضى عوامّ الناس بأن تضع مادة في دستورها تقول : دين الدولة الإسلام ، ثمَّ تهدم هذه المادة بالموادّ السابقة واللاحقة ، والتشريعات التي تحكم العباد .

فهل صحيح أنَّ البشرية بلغت ـ اليوم ـ مبلغا يجعلها تستغني عن الرسل وتعاليم الرسل ؟ وهل أصبحت البشرية اليوم قادرة على أن تقود نفسها بعيدا عن منهج الرسل ؟

يكفي في الاجابة أن ننظر في حال تلك الدول التي نسميها متقدمة متحضرة كأمريكا وبريطانيا وفرنسا وروسيا والصين ـ لنعلم مدى الشقاء الذي يغشاهم ، نحن لا ننكر انَّهم بلغوا في التقدّم المادي شأوا بعيدا ، ولكنَّهم في الجانب الآخر الذي جاء الرسل وجاءَت تعاليمهم لاصلاحه انحدروا انحدارا بعيدا ، لا ينكر أحد أنَّ الهموم والأوجاع النفسية والعقد النفسية ـ اليوم ـ سمة العالم المتحضر ، الإنسان في العالم المتحضر اليوم فقد إنسانيته ، خسر نفسه ، ولذلك فإن الشباب هناك يتمردون ، يتمردون على القيم والأخلاق والأوضاع والقوانين ، أخذوا يرفضون حياتهم التي يعيشونها ، وأخذوا يتبعون كلّ ناعق من الشرق أو الغرب يلوّح لهم بفلسفة أو دروشة أو طريق يظنون فيه هناءَهم ، لقد تحوّل عالم الغرب إلى عالم تنخر الجريمة عظامه ، وتقوده الانحرافات والضياع ، لقد زلزلت الفضائح أركان الدول الكبرى ، والخافي أعظم وأكثر من البادي ، إنَّ الذين يسمّون ـ اليوم ـ بالعالم المتحضر يخربون بيوتهم بأيديهم ، حضارتهم تقتلهم ، حضارتهم تفرز سموما تسري فيهم فتقتل الأفراد ، وتفرق المجتمعات ، الذين نسميهم اليوم بالعالم المتحضر كالطائر الجبّار الذي يريد أن يحلق في أجواز الفضاء بجناح واحد .

إننا بحاجة الى الرسل وتعاليمهم لصلاح قلوبنا ، وإنارة نفوسنا ، وهداية عقولنا . .

نحن بحاجة إلى الرسل كي نعرف وجهتنا في الحياة ، وعلاقتنا بالحياة وخالق الحياة .

نحن بحاجة الى الرسل كيلا ننحرف أو نزيغ فنقع في المستنقع الآسن

كلام قيّم لابن القيم

يقول ابن القيم مبينا حاجة العباد إلى الرسل وتعاليمهم :

« ومن ههنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ، وما جاء به ، وتصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلاّ على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلاّ من جهتهم ، ولا ينال رضا الله ألبتة إلاّ على أيديهم ، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلاّ هديهم وما جاءوا به ، فهم الميزان الراجح ، الذي على أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال ، وبمتابعتهم يتميز أهل الضلال ، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها ، والروح إلى حياتها ، فأيّ ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير ، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك ، وصار كالحوت إذا فارق الماء ، ووضع في المقلاة ، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاءه به الرسول كهذه الحال ، بل أعظم ، ولكن لا يحسُّ بهذا إلاّ قلبٌ حيٌّ ، وما لجرح بميت إيلام ، وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدى النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه وأحبَّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه ، والناس في هذا بين مستقلٍّ ، ومستكثر ، ومحروم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو فضل عظيم »[1] .

ابن تيمية يبين الحاجة إلى الرسل والرسالات

ومن جلى هذه المسألة وبينها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٥)

قال : « الرسالة ضرورية للعباد ، لا بدَّ لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأيُّ صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة ، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة ، وهو من الأموات ، قال الله تعالى : ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ ﴾ « سورة الأنعام/ ١٢٢ » فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان ، وجعل له نورا يمشي به في الناس ، وأمّا الكافر فميت القلب في الظلمات ».

وبين رحمة الله تعالى : «أن الله سمّى رسالته روحاً، والروح إذا عدم فقدت الحياة ، قال الله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ « سورة الشورى/٥٢ » فذكر هنا أصلين ، وهما : الروح ، والنور ، فالروح الحياة ، والنور النور»، وبين رحمة الله تعالى : « أن الله يضرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونورا لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض ، وبالنّار التي يحصل بها النّور ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ، ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ « سورة الرعد/١٧ » .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله معقبا على الآية : « فشبه العلم بالماء المنزل من السماء ؛ لأنّ به حياة القلوب ، كما أنَّ بالماء حياة الأبدان ، وشبّه القلوب بالأودية ، لأنّها محلّ العلم ، كما أنَّ الأودية محلّ الماء ، فقلب يسع علما كثيرا ، وواد يسع ماءً كثيرا ، وقلب يسع علما قليلا ، وواد يسع ماءً قليلا ، وأخبر تعالى أنّه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء ، وأنّه يذهب جفاءً ، أي : يرمى به ، ويخفى ، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر ،

وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات ، ثمَّ تذهب جفاءً ، ويستقر فيها الايمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس ، وقال : ﴿ وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ فهذا المثل الآخر وهو الناري ، فالأوَّل للحياة ، والثاني للضياء . وبين رحمه الله أن لهذين المثالين نظيرا « وهما المثالان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذي اسْتَوْقَدَ ناراً ، فَلَمّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ ، صُمٌ بُكْمٌ عُمْي فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ، أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيه ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذانِهِم من الصواعق حَذَرَ المَوْتِ ، واللّهُ مُحيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ « سورة البقرة١٧ ـ ١٩ » .

وبعد أن بيَّن الشيخ رحمه الله وصف المؤمن ، قال : « وأمّا الكافر ففي ظلمات الكفر والشرك غير حيّ ، وإن كانت حياته حياة بهيمية ، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها الإيمان ، وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، فإنَّ الله سبحانه ـ جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ، وبعثوا جميعا بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه ، وبيان حالهم بعد الوصول إليه » .

ثم بيَّن رحمه الله هذه الأصول التي أشار إليها هنا فقال : « فالأصل الأول يتضمن اثبات الصفات والتوحيد والقدر ، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه ، وهي القصص التي قصّها الله على عباده والأمثال التي ضربها لهم .

والأصل الثاني يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة ، وبيان ما يحبّه الله وما يكرهه . والأصل الثالث يتضمن الإيمان باليوم الآخر ، والجنّة والنار ؛ والثواب والعقاب .

ثم بيَّن أنَّ « على هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر ، والسعادة والفلاح موقوفة عليها ، ولا سبيل إلى معرفتها إلاّ من جهة الرسل ، فإنَّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها ، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث

الجملة ، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه ، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض ، وتنزيل الدواء عليه »[1] .

مقارنة بين حاجة الأبدان إلى علم الطب والأرواح والأبدان لعلوم الرسل

عقد ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم « مفتاح دار السعادة » مقارنة بيَّن فيها أنَّ حاجة الناس إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع شدَّة حاجة الناس إليه لصلاح أبدانهم ، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من العلوم ، قال : « حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية ، فوق حاجتهم إلى كلِّ شيء ، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها ، ألا ترى أنَّ أكثر العالم يعيشون بغير طبيب ، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة ، وأمَّا أهل البدو كلّهم ، وأهل الكفور كلّهم ، وعامّة بني آدم ـ لا يحتاجون إلى طبيب ، وهم أصحُّ أبدانا ، وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب ، ولعلّ أعمارهم متقاربة ، وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم ، وأجتناب ما يضرهم ، وجعل لكلٍّ قوم عادة وعرفا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء ، حتى أنَّ كثيرا من أصول الطب إنّما أخذت من عوائد الناس ، وعرفهم وتجاربهم .

وأمّا الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختياريّة ، فمبناها على الوحي المحض ، والحاجة إلى التنفس فضلا عن الطعام ، والشراب ، لأنَّ غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن ، وتعطل الروح عنه ، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح ، والقلب جملة ، وهلاك الأبد ، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت ، فليس النَّاس قطّ إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ والقيام به ، والدعوة إليه . والصبر عليه ، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه ، وليس للعالم صلاح بدون

---

(١) النصوص السابقة من هذا المبحث منقولة من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٩/٩٣ ـ ٩٦ .

ذلك البتة ، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلّا بالعبور على هذا الجسم »[١] .

هل يمكن أن يستغني العقل عن الوحي

يزعم الناس في عالم اليوم أنّه يمكنهم الاستغناء عن الرسل والرسالات بالعقول التي وهبهم الله إياها ، ولذلك نراهم يسنُّون القوانين ، ويحلُّون ويحرِّمون ، ويخططون ويوجهون ، ومستندهم في ذلك كلّه أنَّ عقولهم تستحسن ذلك أو تقبحه ، وترضى به أو ترفضه ، وهؤلاء لهم سلف قالوا مثل مقالتهم هذه « فالبراهمة ـ وهم طائفة من المجوس ـ زعموا أنَّ إرسال الرسل عبث ، لا يليق بالحكيم ، لاغناء العقل عن الرسل ، لأنَّ ما جاءت به الرسل إن كان موافقاً للعقل حسناً عنده فهو يفعله ، وإن لم يأت به ، وإن كان مخالفا قبيحا ـ فإن احتاج إليه فعله وإلّا تركه »[٢] .

ولا يجوز في مجال الحجاج والنزاع أن يبادر المسلم إلى انكار قدرة العقل على إدراك الحسن والقبح ، « فإنّ الله قد فطر عباده على الفرق بين الحسن والقبيح ، وركب في عقولهم إدراك ذلك ، والتمييز بين النوعين ، كما فطرهم على الفرق بين النافع والضار والملائم لهم والمنافر ، وركب في حواسهم إدراك ذلك ، والتمييز بين أنواعه .

والفطرة الأولى (وهي فطرته العباد على الفرق بين الحسن والقبيح) هي خاصة الإنسان التي تميز بها عن غيره من الحيوانات ، وأما الفطرة الثانية (وهي فطرته للعباد على الفرق بين النافع والضار . .) فمشتركة بين أصناف الحيوان »[٣] والذي ينبغي أن ينازع **فيه** أمور :

الأول : أنَّ هناك أموراً هي مصلحة للانسان لا يستطيع الإنسان إدراكها

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٢)
(٢) لوامع الأنوار البهية ٢/٢٥٦
(٣) مفتاح دار السعادة ٢/١١٦ .

بمجرد عقله ، لأنها غير داخلة في مجال العقل ودائرته ، « فمن أين للعقل معرفة الله ـ تعالى ـ بأسمائه وصفاته . . ؟ ، ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده ؟ ومن أين له معرفة تفاصيل محبته ، ورضاه ، وسخطه ، وكراهيته ؟ ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه ، وما أعدَّ لأوليائه ، وما أعدَّ لأعدائه ، ومقادير الثواب والعقاب ، وكيفيتهما ، ودرجاتهما ؟ ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يظهر الله عليه أحدا من خلقه إلاّ من ارتضاه من رسله إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل ، وبلغته عن الله ، وليس في العقل طريق إلى معرفته »[1] .

الثاني : أن الذي يدرك العقل حسنه أو قبحه يدركه على سبيل الاجمال ، ولا يستطيع أن يدرك تفاصيل ما جاء به الشرع ، وإن أُدركت التفاصيل فهو إدراك لبعض الجزئيات وليس إدراكا كليّا شاملا « فالعقل يدرك حسن العدل ، وأما كون هذا الفعل المعين عدلا أو ظلما فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كلِّ فعل وعقد »[2] .

الثالث : أن العقول قد تحار في الفعل الواحد ، فقد يكون الفعل مشتملا على مصلحة ومفسدة ، ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أم مصلحته ، فيتوقف العقل في ذلك ، فتأتي الشرائع ببيان ذلك ، وتأمر براجح المصلحة ، وتنهى عن راجح المفسدة ، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره ، والعقل لا يدرك ذلك ، وتأتي الشرائع ببيانه ، فتأمر به من هو مصلحة له ، وتنهى عنه من حيث هو مفسدة في حقّه ، وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر ، وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدي إليها العقل ، فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة ، والمفسدة الراجحة »[3] .

وفي هذا يقول ابن تيمية : « الانبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته ، ولم

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/١١٧ .
(٢) مفتاح دار السعادة ٢/١١٧ .
(٣) مفتاح دار السعادة ٢/١١٧ .

يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه ، فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول»[1] .

الرابع : ما يتوصل إليه العقل وإن كان صحيحا فإنه ليس إلا فرضيات ، قد تجرفها الآراء المتناقضة ، والمذاهب الملحدة .

ولو استطاعت البقاء فإنها ـ في غيبة الوحي ـ ستكون تخمينات شتى ، يلتبس فيها الحق بالباطل .

بطلان قول البراهمة

والبراهمة الذين يزعمون أنَّ العقل يغني عن الوحي لا نحتاج إلى إيراد الحجج لابطال قولهم ، وكل ما نفعله أن نوجه الأنظار إلى ما قادتهم إليه عقولهم التي زعموا أنهم يستغنون بها عن الوحي ، هذا زعيم من زعمائهم في القرن العشرين يقول مفاخرا :[2] « عندما أرى البقرة لا أجدني أرى حيوانا، لأني أعبد البقرة ، وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع » . ولقد قاده عقله إلى تفضيل أمّه البقرة على أمّه التي ولدته : « وأمّي البقرة تفضل أمّي الحقيقية من عدّة وجوه ، فالأمّ الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منّا خدمات طول العمر نظير هذا ، ولكنَّ أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائما ، ولا تطلب منّا شيئا مقابل ذلك سوى الطعام العادي . . . » ومضى عابد البقر يقارن بين أمّه البقرة وأمّه الحقيقية موردا الحجج والبراهين على أفضلية أمّه البقرة على أمّه الحقيقية إلى أن قال : « إنَّ ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والاجلال ، وأنا أعدّ نفسي واحدا من هؤلاء الملايين » .

وقد قرأت منذ مدة في مجلة العربي التي تصدر في الكويت عن معبد فخم مكسوّ بالرخام الأبيض ترسل إليه الهدايا والألطاف ـ من شتى أنحاء الهند ، بقي

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣١٢/٢ .

(٢) هو زعيم الهند غاندي ، انظر أقواله هذه في كتاب مقارنة الأديان ٣٢/٤ (نظرات في النبوة ص ٢٧)

أن تعلم أنَّ الآلهة التي تقدم لها القرابين وترسل لها النذور في ذلك المعبد الفخم إنّما هي الفئران .

هذه بعض الترهات التي هدتهم إليها عقولهم التي زعموا أنَّ فيها غنية عن الوحي الإلهي .

مجالات العقل

إن الذين يريدون أن يستغنوا عن الوحي بالعقل يظلمون العقل ظلما كبيرا ، ويبددون طاقة العقل في غير مجالها ، « إن للعقل اختصاصه وميدانه وطاقته ، فإذا اشتغل خارج اختصاصه جانبه الصواب ، وحالفه الشطط والتخبط ، وإذا أجري في غير ميدانه كبا وتعثر ، وإذا كلف فوق طاقته كان نصيبه العجز والكلال .

إن العالم المادي المحسوس أو عالم الطبيعة هو ميدان العقل الفسيح الذي يصول فيه ويجول ، فيستخرج مكنوناته ، ويربط بين أسبابه وعلله ، ومقدماته ونتائجه ، فيكشف ويخترع ، ويتبحّر في العلوم النافعة في مختلف ميادين الحياة ، وتسير عجلة التقدم البشري إلى أمام .

أما إذا كلف النظر خارج اختصاصه أعني ما وراء الطبيعة فإنه يرجع بعد طول البحث والعناء بما لا يروي غليلا ولا يشفي عليلا ، بل يرجع بسخافات وشطحات »[1] .

موقع العقل من الوحي

يزعم كثير من الناس أنَّ الوحي يلغي العقل ويطمس نوره ، ويورثه البلادة والخمول ، وهذا زعم كاذب ، ليس له من الصحة نصيب ، فالوحي الإلهي وجّه العقول إلى النظر في الكون والتدبر فيه ، وحث الإنسان على استعمار هذه الارض ، واستثمارها ، وفي مجال العلوم المنزلة من الله وظيفة العقل أن ينظر فيها

---

(١) نظرات في النبوة ص ١٧ .

ليستوثق من صحة نسبتها إلى الله تعالى ، فإن تبين له صحة ذلك فعليه أن يستوعب وحي الله إليه ، ويستخدم العقل الذي وهبه الله إياه في فهم وتدبر الوحي ، ثم يجتهد في التطبيق والتنفيذ .

والوحي مع العقل كنور الشمس أو الضوء مع العين ، فإذا حجب الوحي عن العقل لم ينتفع الإنسان بعقله ، كما أنَّ المبصر لا ينتفع بعينيه إذا عاش في ظلمة ، فإذا أشرقت الشمس وانتشر ضوءها انتفع بناظريه ، وكذلك أصحاب العقول إذا أشرق الوحي على عقولهم وقلوبهم أبصرت واهتدت ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾.« سورة الحج/٤٦ » .



الفصل الثالث

وَظَائِفُ الرُّسُلِ وَمُهِمَّاتُهُم



وَظائِفُ الرُّسُلِ وَمُهِمَّاتُهُم

لقد بين لنا القرآن الكريم والسنة النبوية مهمّة الرسل ووظائفهم ، وسنحاول أن نبين ذلك فيما يأتي .

(١) البلاغ المبين

الرسل سفراء الله إلى عباده ، وحملة وحيه ، ومهمتهم الأولى هي ابلاغ هذه الأمانة التي تحملوها إلى عباد الله ﴿**يَأَيُّهَا الرسُول بَلّغْ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ « سورة المائدة/٦٧ » ، والبلاغ يحتاج إلى الشجاعة وعدم خشية الناس وهو يبلغهم ما يخالف معتقداتهم ، ويأمرهم بما يستنكرونه ، وينهاهم عمّا ألفوه ، ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إلاَّ اللهَ**﴾ . « سورة الأحزاب/٣٩ » .

والبلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصان ولا زيادة ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ**﴾ « سورة العنكبوت/ ٣٩ » ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا**﴾ « سورة البقرة/١٥١ » . فإذا كان الموحى به ليس نصّا يتلى فيكون البلاغ ببيان الأوامر والنواهي والمعاني والعلوم التي أوحاها الله من غير تبديل ولا تغيير .

ومن البلاغ أن يوضح الرسول الوحي الذي أنزله الله لعباده ، لأنّه أقدر من غيره على التعرف على معانيه ومراميه ، وأعرف من غيره بمراد الله من وحيه ، وفي ذلك يقول الله لرسوله ﷺ : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ « سورة النحل/٤٤ » .

والبيان من الرسول للوحي الإلهي قد يكون بالقول ، فقد بين الرسول - ﷺ - أمورا كثيرة استشكلها أصحابه ، كما بين المراد من الظلم في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ « سورة الأنعام/٨٢» بين الرسول - ﷺ - أن المراد به الشرك ، لا ظلم النفس بالذنوب .

وكما بيَّن الرسول - ﷺ - الآيات المجملة في الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك بقوله .

وكما يكون البيان بالقول يكون بالفعل ، فقد كانت أفعال الرسول - ﷺ - في الصلاة والصدقة والحج وغير ذلك بيانا لكثير من النصوص القرآنية .

وعندما يتولى الناس ، ويعرضون عن دعوة الرسل ، فإن الرسل لا يملكون غير البلاغ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغ﴾ « سورة آل عمران/ ٢٠ » .

(٢) الدّعــوةُ إلىٰ الله

لا تقف مهمّة الرسل عند بيان الحقِّ وإبلاغه ، بل عليهم دعوة الناس إلى الأخذ بدعوتهم ، والاستجابة لها ، وتحقيقها في أنفسهم اعتقادا وقولا وعملا ، وهم في ذلك ينطلقون من منطلق واحد ، فهم يقولون للناس أنتم عباد الله ، والله ربكم وإلهكم ، والله أرسلنا لنعرفكم كيف تعبدونه ، ولأننا رسل الله مبعوثون من عنده فيجب عليكم أن تطيعَونا وتتبعونا ، ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أنِ اعْبُدُوا الله واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ « سورة النحل/٣٦ » . ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلَّا نُوحِي إلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إلاّ أنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ « سورة الأنبياء/٢٥ » . وكل رسول قال لقومه :﴿**اتَّقُوا اللّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾ « سورة الشعراء/١٠٨ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٧٩ » . وقد بذل الرسل في سبيل دعـوة الناس إلى الله جهودا عظيمة ، وحسبك في هذا أن تقرأ سورة نوح لترى الجهد الذي بذله على مدار تسعمائة وخمسين عاما ، فقد دعاهم ليلا ونهارا ، سرّا وعلانية ، واستعمل أساليب الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، وحاول أن يفتح عقولهم ، وأن يوجهها إلى ما في الكون من آيات ، ولكنهم أعرضوا ، ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ، واتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُه إلاَّ خَسَاراً**﴾ « سورة نوح/٢١ » .

مثال يوضح دور الرسل

وقد ضربت الملائكة للرسول ﷺ مثلا توضح دوره وتبين وظيفته ، ففي الحديث « إني رأيتُ في المنام كأنَّ جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجليَّ ،

يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك ، كمثل ملك اتخذ دارا ، ثمَّ بنى فيها بيتا ، ثمَّ جعل فيها مائدة ، ثمَّ بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنّة ، وأنت يا محمد رسول ، من أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنّة ، ومن دخل الجنّة أكل ما فيها » رواه البخاري والترمذي[1] .

(١) صحيح الجامع (٣١٩/٢)

(٣) التَبشِير وَالإِنذَار

ودعوة الرسل إلى الله تقترن دائما بالتبشير والانذار ، ولأنَّ ارتباط الدعوة إلى الله بالتبشير والإنذار وثيق جدا فقد قصر القرآن مهمة الرسل عليهما في بعض آياته ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ « سورة الكهف/٥٦ » وقد ضرب الرسول - ﷺ - لنفسه مثلا في هذا ، فقال : « مثلي ومثل ما بعثني الله به ، كمثل رجل أتى قوما ، فقال : يا قوم ، إني رأيت الجيش بعينيَّ ، وإني أنا النذير العُريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلجوا ، وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذَّبته طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذّب بما جئت به من الحق » متفق عليه[١] .

وتبشير الرسل وانذارهم دنيوي وأخروي ، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة ، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ « سورة النحل/٩٧ » . ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَاي فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ « سورة طـه/١٢٣ » ، ويعدونهم بالعزّ والتمكين والأمن ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ « سورة النور/٥٥ » .

---

(١) صحيح الجامع (٥/٢٠٥)

ويخوّفون العصاة بالشقاء الدنيوي ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ « سورة طـه/١٢٤ » ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ « سورة فصلت/١٣ » وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ « سورة النساء/١٣ » .

ويخوفون المجرمينَ والعصاة عذاب الله في الآخرة ، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا ، ولَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ « سورة النساء/١٤ » .

ومن يطالع دعوات الرسل يجد أنَّ دعوتهم قد اصطبغت بالتبشير والإنذار ، ويبدو أنَّ التبشير والانذار على النحو الذي جاءَت به الرسل هو مفتاح النفس الإنسانية ، فالنفس الإنسانية مطبوعة على طلب الخير لذاتها ، ودفع الشرّ عنها ، فإذا بصّر الرسل النفوس بالخير العظيم الذي يحصِّلونه من وراء الإيمان والأعمال الصالحة فإن النفوس تشتاق إلى تحصيل ذلك الخير ، وعندما تُبيَّن لها الأضرار العظيمة التي تصيب الإنسان من وراء الكفر والضلال فإنَّ النفوس تهرب من هذه الأعمال ، ونعيم الله المبشربه نعيم يستعذبه القلب ، وتلذُّه النفس ، ويهيم به الخيال ، اسمع الى قوله تعالى يصف نعيم المؤمنين في جنات النعيم ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ ، وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ، وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ، إلاَّ قِيلاً سلاَماً سَلاَماً ، وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ، ومَاءٍ مَسْكُوبٍ ، وَفَاكِهَةٍ كَثِيرةٍ ، لا مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ، وَفُرُشٍ مَرْفُوعةٍ ، إنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إنْشَاءً ، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ، عُرُباً أَتْرَاباً ، لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ « سورة الواقعة/١٥ ـ ٣٨ » .

وانظر الى عذاب الكفرة في دار الشقاء ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ، إنَّهُمْ كَانُوا

قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ « سورة الواقعة/ ٤١ - ٤٥ » ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ « سورة الواقعة/٥١ - ٥٦ » .

وحسبك أن تطالع كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري وتقرأ منه على اخوانك ومن تدعوهم إلى الله ، ثمَّ انظر اثر هذا في نفسك وفي نفوس السامعين .

إن بعض الذين لم يفقهوا دعوة الإسلام يعيبون على دعاة الإسلام أخذهم بالانذار والتبشير ، ويقولون فلان واعظ ، ويعيبون عليهم عدم فلسفتهم للأمور التي يدعون إليها ، ويطالبون الدعاة بالكف عن طريقة الوعظ وتخويف النَّاس وترغيبهم ، وهؤلاء بحاجة إلى أن يراجعوا أنفسهم ، وينظروا في موقفهم هذا ، في ضوء نصوص القرآن وأحاديث الرسول التي تبين اسلوب الدعوة ، وتوضيح مهمة الرسل الكرام .

(٤) إصلاحُ النّفوسِ وتزكيتُها

الله رحيم بعباده ، ومن رحمته أن يحيي نفوسهم بوحيه ، وينيرها بنوره ، **﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾** « سورة الشورى/٥٢ » .

والله يخرج الناس بهذا الوحي الإلهي من الظلمات إلى النور ، ظلمات الكفر والشرك والجهل إلى نور الإسلام والحق **﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ﴾** « سورة البقرة/٢٥٧ » ، وقد أرسل اللّهُ رسلَه بهديه ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ﴾** « سورة إبراهيم/٥ » وبدون هذا النور تعمى القلوب **﴿فَإِنَّها لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾** « سورة الحج/٤٦ » وعماها ضلالها عن الحق ، وتركها لما ينفعها واقبالها على ما يضرها **﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُهُم وَلاَ يَضُرُّهُم﴾** « سورة الفرقان/٥٥ » .

واخراج الرسل الناس من الظلمات الى النور لا يتحقق إلاّ بتعليمهم تعالِيمَ ربهم وتزكية نفوسهم بتعريفهم بربهم وأسمائه وصفاته وتعريفهم بملائكته وكتبه ورسله وتعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم ، ودلالتهم على السبيل التي توصلهم إلى محبته ، وتعريفهم بعبادته **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِم ، ويُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾** « سورة الجمعة/٢ » **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾** « سورة البقرة/١٢٩ » .

(٥) تقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة

كان الناس في أول الخلق على الفطرة السليمة ، يعبدون الله وحده ، ولا يشركون به أحدا ، فلمّا تفرقوا واختلفوا أرسل الله الرسل ليعيدوا الناس إلى جادة الصواب، وينتشلوهم من الضلال، ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ « سورة البقرة/٢١٣ » .

أي كان الناس أمّة واحدة على التوحيد والإيمان وعبادة الله فاختلفوا فأرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين .

وقد كان كلُّ رسول يدعو قومه إلى الصراط المستقيم ويبينه لهم ويهديهم إليه ، وهذا أمر متفق عليه بين الرسل جميعا ، ثمّ كُلُّ رسول يقوم الانحراف الحادث في عصره ومصره ، فالانحراف عن الصراط المستقيم لا يحصره ضابط وهو يتمثل في أشكال مختلفة ، وكلُّ رسول يعنى بتقويم الانحراف الموجود في عصره ، فنوح أنكر على قومه عبادة الأصنام ، وكذلك إبراهيم ، وهود أنكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبّر فيها ، وصالح أنكر عليهم الافساد في الأرض واتباع المفسدين ، ولوط حارب جريمة اللواط التي استشرت في قومه ، وشعيب قاوم في قومه جريمة التطفيف في المكيال والميزان ، وهكذا ، فكل هذه الجرائم وغيرها التي ارتكبتها الأمم خروج عن الصراط المستقيم وانحراف عنه ، والرّسل يبينون هذا الصراط ويحاربون الخروج عليه بأيِّ شكل من الأشكال كان .

(٦) إقامة الحجة

لا أحد أحبّ إليه العذر من الله تعالى ، فالله جلّ وعلاَ أرسل الرسل وأنزل الكتب كي لا يبقى للناس حجّة في يوم القيامة ، ﴿رُسُلاً مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّه حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ « سورة النساء/١٦٥ » ولو لم يرسل الله الرسل إلى الناس لجاءوا يوم القيامة يخاصمون الله ـ جلَّ وعلا ـ ويقولون : كيف تعذبنا وتدخلنا النّار ، وأنت لم ترسل إلينا من يبلغنا مرادك منّا ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ، فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ « سورة طـه/١٣٤ » أي لو أهلكهم الله بعذاب جزاء كفرهم قبل أن يرسل إليهم رسولا لقالوا : هلا أرسلت إلينا رسولا كي نعرف مرادك ونتبع آياتك ونسير على النهج الذي تريد ؟

وفي يوم القيامة عندما يجمع الله الأوّلين والآخرين يأتي الله لكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنّه بلغها رسالة ربّه ، وأقام عليها الحجّة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً ، يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ، وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾ « سورة النساء/٤١ ـ ٤٢ » .

وقال في آية أخرى : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاَءِ﴾ « سورة النحل/٨٩ » .

ولذلك فإنّ الذين يرفضون اتّباع الرّسل ، ويعرضون عن هديهم ـ لا يملكون إلاّ الاعتراف بظلمهم إذا وقع بهم العذاب في الدنيا ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ

قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ، وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ، فَلَمَّا أَحسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ، لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ « سورة الأنبياء/١١ ـ ١٥ » .

وفي يوم القيامة عندما يساقون إلى المصير الرهيب ، وقبل أن يلقوا في الجحيم يسألون عن ذنبهم فيعترفون ، ﴿تَكَادُ تَميَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيْهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خزَنَتُها : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله من شَّيْءٍ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ، وَقَالُوا : لَوْكُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَاكُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ « سورة الملك/٨ ـ ١١ » .

وعندما يضجّون في النَّار بعد أن يُحيط بهم العذاب من كل جانب وينادون ويصرخون تقول لهم خزنة النار : ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ قَالُوا بَلَى ، قَالُوا : فَادْعُوا ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاّ فِي ضَلاَلٍ﴾ « سورة المؤمن/٥٠ » .

(٧) سِيَاسَةُ الأُمَّة

الذين يستجيبون للرسل يُكَوِّنون جماعة وأمّة ، وهؤلاء يحتاجون إلى من يسوسهم ويقودهم ويدبر أمورهم ، والرُّسل يقومون بهذه المهمة في حال حياتهم ، فهم يحكمون بين الناس بحكم الله **﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾** « سورة المائدة/٤٨ » .

ونادى ربُّ العزة داود قائلا : **﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾** « سورة ص/٢٦ » وأنبياء بني إسرائيل كانوا يسوسون أمتهم بالتوراة ، وفي الحديث «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلّما هلك نبيٌّ قام نبيٌّ**» رواه البخاري ومسلم واحمد وابن ماجة[١] وقال الله عن التوراة **﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾** « سورة المائدة/٤٤ » .

فالرسل يحكمون بين الناس ، ويقودون الأمّة في السلم والحرب ، ويلون شؤون القضاء ، ويقومون على رعاية مصالح النَّاس ، وهم في كلّ ذلك عاملون بطاعة الله ، وطاعتهم في ذلك كلّه طاعة لله **﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾** « سورة النساء/٨٠ » .

ولن يصل العبد إلى نيل رضوان الله ومحبته إلا بهذه الطاعة **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ**

---

(١) صحيح الجامع الصغير (١٩٠/٤) .

تُحِبُّونَ اللَّهُ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ « سورة آل عمران/٣١ » .

ولذا فإنَّ شعار المسلم الذي يعلنه دائما السمع والطاعة **﴿إنَّما كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إذَا دُعُوا إلَى اللَّه وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أن يَقُولُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا﴾** ، « سورة النور/٥١ » .



الفصل الرابع

الوَحيُ

النبوة منحة إلهية[1]

النبوة منحة إلهية ، لا تنال بمجرد التشهي والرغبة ، ولا تنال بالمجاهدة والمعاناة ، وقد كَذَب الفلاسفة الذين زعموا أنَّ النبوة تنال بمجرد الكسب بالجدّ والاجتهاد ، وتكلّف أنواع العبادات ، واقتحام أشقّ الطاعات ، والدأب في تهذيب النفوس ، وتنقية الخواطر ، وتطهير الأخلاق ، ورياضة النفس والبدن[2] .

وقد بيّن الله في أكثر من آية أنَّ النبوة نعمة ربانية إلهية ، قال تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا** ﴾ « سورة مريم /٥٨ » وحكى الله قول يعقوب لابنه يوسف : ﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّك** ﴾ « سورة يوسف/٦ » ، وقال الله لموسى : ﴿ **إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلَامِي** ﴾ « سورة الاعراف/١٤٤ » ، وقد طمع أميّة بن أبي الصلط في أن يكون نبيّ هذه الأمّة ، وقال الكثير من الشعر متوجها به إلى الله ، وداعيا إليه ، ولكنّه لم يحصل على مراده ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ « سورة الأنعام/١٢٤ » ، ولذلك عندما اقْتُرِحَ أن يُخْتَار لأمر النبوة

---

(١) ذهبت المعتزلة إلى أن ارسال الرسل وانزال الكتب واجب على الله تعالى ، والحقُّ أن ذلك تفضل من الله تعالى على عباده ، ورحمة بهم ، والقول بالوجوب يتجه إذا قلنا أوجبه هو تعالى على نفسه « انظر لوامع الأنوار البهية ٢/٢٥٦ ، ٢٥٨) .

(٢) لوامع الأنوار البهيّة (٢/٢٦٧) .

والرسالة أحد الرجلين العظيمين في مكة والطائف عروة بن مسعود الثقفي أو الوليد بن المغيرة ، أنكر الله ذلك القول ، وبين أنَّ هذا مستنكر ، فهو الإله العظيم الذي قسم بينهم أرزاقهم في الدنيا ، أفيجوز لهم أن يتدخلوا في تحديد المستحقِّ لرحمة النبوة والرسالة ؟ ﴿ **وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٌ ؟ ! أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ! نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . .** ﴾ « سورة الزخرف/ ٣١ ـ ٣٢ » وسنبين في هذا الفصل الطريق الذي يصبح به الذين اختارهم الله أنبياء .

طريق إعلام الله أنبياءه ورسله

سمّى الله هذا الطريق وحيا ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِه ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاودَ زَبُوراً ﴾ « سورة النساء/١٦٣ » .

والوحي : الإعلام الخفيّ السريع مهما اختلفت أسبابه[١] ، فقد يكون بالإلهام كوحي الله إلى الحواريين : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ « سورة المائدة/١١١ » وكوحي الله لأمّ موسى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ « سورة القصص/٧ » ويأتي بمعنى الايماء والاشارة ، فقد سمَّى القرآن إشارة زكريا إلى قومه وحيا ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ « سورة مريم/١١ » .

وأكثر ما وردت كلمة « وحي » في القرآن الكريم بمعنى إخبار واعلام الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، بطريقة سرّية خفيّة ، غير معتادة للبشر .

---

(١) راجع فتح الباري ٩/١ ، المصباح المنير ٦٥١ ، ٦٥٢ .

مقامات وحي الله الى رسله

قال الله تعالى مبيِّنا هذه المقامات : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّه عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ « سورة الشورى/ ٥١ » .

فالمقامات ثلاثة :

الأولى : الإلقاء في روع النبيّ الموحى إليه ، بحيث لا يمتري النبيّ في أنّ هذا الذي ألقى في قلبه من الله تعالى ، كما جاء في صحيح ابن حبّان عن رسول الله ﷺ أنّه قال : « إنَّ روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب »[١] وذهب ابن الجوزي إلى أن المراد بالوحي في قوله ﴿ إلّا وحيا ﴾الوحي في المنام[٢] .

رؤيا الأنبياء

وهذا الذي فسَّر به ابن الجوزي المقام الأوّل داخل في الوحي بلا شكّ ، فإنّ رؤ يا الأنبياء حقٌّ ، ولذلك فإنَّ خليل الرحمن إبراهيم بادر إلى ذبح ولده عندما رأى في المنام أنّه يذبحه ، وعدّ هذه الرؤ يا أمرا إلهيا ، ، قال تعالى في إبراهيم وابنه اسماعيل : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ، قَالَ : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦/٢١٥) تفسير الآية (٥١) من سورة الشورى .
(٢) زاد المسير (٧/٢٩٧) .

أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرْ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ « سورة الصافات/١٠٢ ـ ١٠٥ » .

وفي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : « أوّل ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤ يا الصالحة في النوم ، وكان لا يرى رؤ يا إلا جاءت مثل فلق الصبح »[١] .

المقام الثاني : تكليم الله لرسله من وراء حجاب :

وذلك كما كلّم الله تعالى موسى عليه السلام ، وذكر الله ذلك في أكثر من موضع في كتابه ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ « سورة الأعراف/١٤٣ » ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوى ، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ، إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ « سورة طه/١١ ـ ١٤ » وممن كلّمه الله آدم عليه السلام ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِم . . . . ﴾ « سورة البقرة/٣٣ » وكلّم الله عبده ورسوله محمدا ﷺ عندما عرج به إلى السماء .

المقام الثالث : الوحي إلى الرسول بواسطة الملك :

وهذا هو الذي عناه الله ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ « سورة الشورى/٥١ » وهذا الرسول هو جبريل ، وقد يكون غيره وذلك في أحوال قليلة[٢] .

---

(١) جامع الأصول ١٢/٣٧ .

(٢) راجع في هذا كتابنا : عالم الملائكة ص ٤٠ .

صفة مجيء الملك إلى الرسول

بالتأمل في النصوص في هذا الموضوع نجد أنّ للملك ثلاثة أحوال[1] :

الأول : أن يراه الرسول ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها ، ولم يحدث هذا لرسولنا ﷺ إلا مرتين .

الثاني : أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس ، فيذهب عنه وقد وعى عنه الرسول ﷺ ما قال .

الثالث : أن يتمثل له الملك رجلا فيكلّمه ويخاطبه ويعي عنه قوله ، وهذه أخف الأحوال على الرسول ﷺ ، وقد حدث هذا من جبريل في اللقاء الأول عندما فجأه في غار حراء .

بشائر الوحي

كان الرسول ﷺ قبل معاينته للملك ، يرى ضوءاً ، ويسمع صوتا ، ولكنه لا يرى الملك الذي يحدث الضوء ، ولا يرى مخاطبه والهاتف به ، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : « مكث رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة سنة ،

---

(١) راجع : المصدر السابق .

يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً ، وثمان سنين يوحى إليه ، وأقام بالمدينة عشرا »[1] .

قال النووي : « يسمع الصوت ويرى الضوء » ، قال القاضي : « أي صوت الهاتف من الملائكة ، ويرى الضوء أي نور الملائكة ، ونور آيات الله ، حتى رأى الملك بعينيه ، وشافهه بوحي الله »[2] .

أثر الملك في الرسول

من المزاعم التي يدعيها المكذبون بالرسل أن ما كان يصيب الرسول ﷺ إنّما هو نوع من الصرع ، أو اتصال من الشياطين به ، وكذبوا في دعواهم ، فالأمران مختلفان ، فالذي يصيبه الصرع يصفرُّ لونه ، ويخفُّ وزنه ، ويفقد اتزانه ، وكذلك الذي يصيبه الشيطان ، وقد يتكلم الشيطان على لسانه ، ويخاطب الحاضرين ، وعندما يفيق من غيبوبته لا يدري ولا يذكر شيئا ممّا خاطب به الشيطان الحاضرين على لسانه ، أمّا الرسول ﷺ فإنَّ اتصال الملك به نماء في جسده ، واشراق في وجهه ، ثمَّ إن الجالسين لا يسمعون كلاما ، إنما يسمعون دويّا كدويّ النحل عند رأسه[3] ، ويقوم الرسول ﷺ بعد ذلك وقد وعى كلّ ما أخبر به الملك ، فيكون هو الذي يخبر أصحابه بما أوحي إليه .

فقد أخبرتنا عائشة ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ أنَّ الرسول ﷺ كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا[4] .

وأخبرتنا أنَّ ناقته ـ عندما كان يوحى إليه وهو فوقها ـ فيضرب حزامها وتكاد

---

(١) انظر النووي على مسلم (١٠٤/١٥) . وهذا الذي ذكره ابن عباس خلاف المحفوظ في مقدار المدة التي كان يوحى إليه فيها بمكة ، فالمحفوظ انه أوحي اليه في سنّ الأربعين وهاجر وعمره ثلاث وخمسون سنة ، فتكون المدة ثلاث عشرة سنة .

(٢) النووي على مسلم ١٠٤/١٥ .

(٣) رواه الترمذي (انظر جامع الأصول ٤١/١٢) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب بدو الوحي (انظر فتح الباري ١٨/١) .

تبرك به من ثقله فوقها[1] ويذكر أحد الصحابة أنَّ فخذه كانت تحت فخذ النبي ﷺ فأنزل إليه ، فكادت فخذ النبي ﷺ حين الإنزال إليه تـرض فخـذ الصحابي[2] .
وهذا يعلى بن أميّة يحدثنا عن مشاهدة تنزّل الوحي على الرسول ﷺ وقد كان يتمنى قبل ذلك أن يراه في تلك الحال ، قال : « فأدخلت فإذا هو محمّر الوجه ، يغطُّ كذلك ساعة ، ثمَّ سُرِّي عنه »[3] .

(١) أشار الى هذا البيهقي في الدلائل عن عائشة (انظر فتح الباري ١/ ٢١) .
(٢) رواه البخاري ، صلاة ١٢ ، جهاد ٣١ ، والنسائي جهاد ٤ وأحمد (٥/ ١٨٤) .
(٣) حديث يعلى في البخاري وغيره انظر صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن (فتح الباري ٩/ ٩) .

الفصل الخامس

صِفَاتُ الرُّسُل



صِفَاتُ الرُّسُل

البشريّة

شاءت حكمة العليم الخبير أن يكون الرسل الذين يرسلهم إلى البشر من البشر أنفسهم ، ﴿ **قُلْ إنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** ﴾ « سورة الكهف/١١٠ » .

أهلية البشر لتحمّل الرسالة

الذين يستعظمون ويستبعدون اختيار الله بعض البشر لتحمّل الرسالة لا يقدرون الإنسان قدره ، فالإنسان مؤهل لتحمّل الأمانة العظمى ، أمانة الله التي أشفقت السموات والارض والجبال من حملها ، ﴿ **إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ (سورة الأحزاب/٧٢) .

والذين استعظموا اختيار الله البشر رسلاً نظروا إلى المظهر الخارجي للإنسان ، نظروا إليه على أنه جسد يأكل ويشرب وينام ، ويمشي في الأرض لتلبية حاجاته ﴿ **وَقَالُوا : مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشي فِي الأَسْوَاقِ** ﴾ « سورة الفرقان/٧ » ولم ينظروا إلى جوهر الإنسان ، وهو تلك الروح التي هي نفخة من روح الله ، ﴿ **فَإذَا سَوَّيْتُه ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ « سورة الحجر/٢٩ » . وبهذه الروح تميز الإنسان ، وصار إنسانا ، واستخلف في الأرض ، وقد أودعه الله الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التي ميزته ، فلا عجب أن يختار الله واحدا من هذا الجنس ، صاحب استعداد للتلقي ، فيوحي إليه ما يهدي به إخوانه إلى الطريق كلّما غام عليهم الطريق ، وما

يقدم به إليهم العون كلّما كانوا بحاجة إلى العون[1] ﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ « سورة إبراهيم/١١ » .

ثمَّ إنّ الرسل يُعدّون إعدادا خاصّا لتحمُّل النبوّة والرسالة ويصنعون صنعا فريدا ﴿ **واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** ﴾ (سورة طه /٤١ » ، واعتبر هذا بحال نبينا محمد ﷺ ، كيف رعاه الله وحاطه بعنايته على الرغم من يتمه وفقره ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى** ﴾ « سورة الضحى/٦ ـ ٨ » وقد زكّاه وطهّره وأذهب عنه رجس الشيطان وأخرج منه حظَّ الشيطان مذ كان صغيرا ، فعن أنس أنَّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه ، فشقَّ عن قلبه ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظُّ الشيطان منك ، ثمَّ غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثمَّ لأمه ، وأعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه[2] ، يعني ظئره ، فقالوا : إنَّ محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللّون ، قال أنس : فكنت أرى أثر المخيط في صدره » رواه مسلم[3] .

وحدث قريب من هذا عندما جاءه جبريل يهيئه للرحلة الكبرى للعروج به إلى السموات العلا ، ففي حديث الإسراء : « فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدري ، ثمَّ غسله بماء زمزم ، ثمَّ جاء بطست ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغها في صدري ، ثمَّ أطبقه » متفق عليه[4] .

لِمَ لَمْ يكن الرسل ملائكة ؟

لقد كثر اعتراض أعداء الرسل على بعثة الرسل من البشر ، وكان هذا الأمر من أعظم ما صدَّ الناس عن الإيمان ، ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى**

---

(١) في ظلال القرآن ١٩/٢٥٥٢ .

(٢) أمّه من الرضاع وهي حليمة السعدية .

(٣) مشكاة المصابيح (٣/١٥٢) .

(٤) صحيح الجامع الصغير (٤/٨١) .

إلاّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَسُولاً ﴾ « سورة الإسراء/٩٤ » وعدوا اتباع الرسل بسبب كونهم بشرا فيما جاءوا به من عقائد وشرائع أمرا قبيحا ، وعدُّوه خسرانا مبينا ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ « سورة المؤمنون/٣٤ » ، ﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ ؟ إِنّا إِذا لَفي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ « سورة القمر/٢٤ » وقد اقترح أعداء الرسل أن يكون الرسل الذين يبعثون إليهم من الملائكة يعاينونهم ويشاهدونهم ، أو على الأقل يبعث مع الرسول البشري رسولا من الملائكة ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لقاءَنا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ « سورة الفرقان/ ٢١ » . « وَقَالُوا : مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ، لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ ملك فَيَكُون معهُ نَذِيراً ﴾ « سورة الفرقان/٧ » .

وعندما نتأمّل النصوص القرآنية يمكننا أن نردّ على هذه الشبهة من وجوه :

الأول : أن الله اختارهم بشرا لا ملائكة لأنّه أعظم في الابتلاء والاختبار ، ففي الحديث القدسي الذي يرويه مسلم في صحيحه : « إنّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك »[1] .

الثاني : أن في هذا إكراما لمن سبقت لهم منه الحسنى ، فإن اختيار الله لبعض عباده ليكونوا رسلا تكريم وتفضيل ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا . . . ﴾ « سورة مريم/٥٨ » .

الثالث : أنّ البشر أقدر على القيادة والتوجيه ، وهم الذين يصلحون قدوة وأسوة ، يقول المرحوم سيد قطب في هذا : « وإنها لحكمة تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر ، واحد من البشر يحسّ بإحساسهم ، ويتذوق مواجدهم ، ويعاني تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم ، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم . . . ، ومن ثمَّ يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو في

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري ص : ٢٨٣ .

قوتهم واستعلائهم ، ويسير بهم خطوة خطوة ، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ، لأنّه في النهاية واحد منهم ، يرتاد بهم الطريق إلى الله ، بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق .

وهم من جانبهم يجدون فيه القدرة الممكنة ، لأنّه بشر مثلهم ، يتسامى بهم رويدا رويدا ، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أنّ الله قد فرضها عليهم ، وأرادها منهم ، فيكون بشخصه ترجمة حيّة للعقيدة التي يحملها إليهم ، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم ، ينقلونها سطرا سطرا ، ويحققونها معنى معنى ، وهم يرونها بينهم ، فتهفوا نفوسهم إلى تقليدها ، لأنها ممثلة في إنسان »[1] .

الرابع : صعوبة رؤ ية الملائكة ، فالكفار عندما يقترحون رؤ ية الملائكة ، وأن يكون الرسل إليهم ملائكة ـ لا يدركون طبيعة الملائكة ، ولا يعلمون مدى المشقة والعناء الذي سيلحق بهم من جراء ذلك .

فالاتصال بالملائكة ورؤ يتهم أمر ليس بسهل ، فالرسول ـ ﷺ ـ مع كونه أفضل الخلق ، وهو على جانب عظيم من القوة الجسمية والنفسية عندما رأى جبريل على صورته أصابه هول عظيم ورجع إلى منزله يرجف فؤ اده ، وقد كان ﷺ يعاني من اتصال الوحي به شدّة ، ولذلك قال في الردّ عليهم ﴿ **يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ** ﴾ ، « سورة الفرقان/٢٢ » ، ذلك أنّ الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت أو حين نزول العذاب ، فلو قدّر أنّهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم .

فكان إرسال الرسل من البشر ضروريا كي يتمكنوا من مخاطبتهم ، والفقه عنهم ، والفهم منهم ، ولو بعث الله رسله إليهم من الملائكة لما أمكنهم ذلك . ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ؟ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا** ﴾ « سورة

---

(١) في ظلال القرآن ١٩/٢٥٥٣ .

الإسراء/٩٤/٩٥ » فلو كان سكان الأرض ملائكة لأرسل الله إليهم رسولا من جنسهم ، أما وأن الذين يسكنون الأرض بشر فرحمة الله وحكمته تقتضي أن يكون رسولهم من جنسهم ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ على الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ « سورة آل عمران/١٦٤ » .

واذا كان البشر لا يستطيعون رؤية الملائكة والتلقي عنهم بيسر وسهولة فيقتضي هذا ـ لو شاء الله أن يرسل مَلكا رسولا إلى البشر ـ أن يجعله رجلا ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ « سورة الأنعام/٩ » فالله يخبر أنه « لو بعث رسولا ملكياً ، لكان على هيئة رجل ، ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس الأمر عليهم »[١] .

والتباس الأمر عليهم بسبب كونه في صورة رجل ، فلا يستطيعون أن يتحققوا من كونه ملكا ، وإذا كان الأمر كذلك فلا فائدة من إرسال الرسل من الملائكة على هذا النحو ، بل إرسالهم من الملائكة على هذا النحو لا يحقق الغرض المطلوب ، لكون الرسول الملك لا يستطيع أن يحس بإحساس البشر وعواطفهم وانفعالاتهم وإن تشكل بأشكالهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٩/٣ .

مقتضى بشريّة الأنبياء والرسل

ومقتضى كونهم بشرا أن يتصفوا بالصفات التي لا تنفكُّ عنها البشريّة ، فمن ذلك كونهم جسدا يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب ، ويحدثون كما يحدث البشر ، لأنَّ ذلك من لوازم الطعام والشراب ، **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ، وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾** « سورة الأنبياء/٧ ـ ٨ » .

ومن ذلك أنهم ولدوا كما ولد البشر ، لهم آباء وأمهات ، وأعمام وعمات ، وأخوال وخالات ، يتزوجون ويولد لهم ، **﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾** « سورة الرعد/٣٨ » .

ويصيبهم ما يصيب البشر من أعراض ، فهم ينامون ويقومون ، ويصحون ويمرضون ، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر وهو الموت ، فقد جاء في ذكر إبراهيم خليل الرحمن لربّه : **﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾** « سورة الشعراء/ ٧٩ ـ ٨١ » . وقال الله لعبده ورسوله محمد ﷺ: **﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾** « سورة الزمر/ ٣٠ » وقال مبينا أنَّ هذه سنته في الرسل كلهم : **﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾** « سورة آل عمران/ ١٤٤ » وقد جاء في وصف الرسول ﷺ: «كان بشرا من البشر :يفلي ثوبه ويحلب شاته ،ويخدم نفسه »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب المفرد ، وإسناد أحمد صحيح على شرط مسلم (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث رقم ٦٧١) .

وقد صحّ أنَّ الرسول ﷺ قال لأمّ سليم : « يا أم سليم ، أما تعلمين أني اشترطت على ربّي ، فقلت : إنّما أنا بشر ؛ أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأيّما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل ، أن يجعلها طهورا وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة »[1].

تعرض الأنبياء للبلاء

ومن مقتضى بشرية الرسل أنّهم يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر ، فقد يسجنون كما سجن يوسف ﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ « سورة يوسف/٣٣ » وذكر الله أنه ﴿ **لَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ « سورة يوسف/٤٢ » وقد يصيبهم قومهم بالأذى وقد يدمونهم ، كما أصابوا الرسول ﷺ في معركة أحد فأدموه ، وكسروا رباعيته ، وقد يخرجونهم من ديارهم كما هاجر إبراهيم من العراق الى الشام ، وكما هاجر نبينا محمد ﷺ من مكة إلى المدينة ، وقد يقتلونهم ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ** ﴾ « سورة البقرة/٨٧ » وقد يصابون بالأمراض ، كما ابتلى الله نبيّه أيوب فصبر ، وقد صحَّ عن الرسول ﷺ : « أنَّ نبيَّ الله أيوب لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلاّ رجلين من إخوانه . . »[2] . وكان من ابتلائه أن ذهب أهله وماله ، وكان ذا مال وولد كثير ، ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ** ﴾ «سورة الأنبياء/٨٣ ـ ٨٤ »

والأنبياء لا يصابون بالبلاء فحسب ، بل هم أشدُّ الناس بلاءً ، فعن الصعب ابن سعد عن أبيه قال : قلت لرسول الله ﷺ : أيُّ الناس أشدُّ بلاءً ؟ قال : الأنبياء ، ثمَّ الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتدّ بلاؤه ، وإن كان في دينه رقّة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ٨٤) .

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده ، وأبو نعيم في الحلية ، والضياء في المختارة ، وابن حبان في صحيحه (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ١٧) .

حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة »[1] .

ودخل أبو سعيد الخدري على الرسول ﷺ وهو يوعك ، فوضع يده على الرسول ﷺ ، فوجد حرّه بين يديه فوق اللحاف ، فقال : يا رسول الله ، ما أشدها عليك ! قال : « إنا كذلك ، يضعف علينا البلاء ، ويضعف لنا الأجر » ، قلت : يا رسول الله ، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً ؟ قال : « الأنبياء ، ثمَّ الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر ، حتى ما يجد إلا العباءَة التي يحويها ، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء »[2][3] .

اشتغال الأنبياء بأعمال البشر

ومن مقتضى بشريتهم أنهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر ، فمن ذلك اشتغال الرسول ﷺ بالتجارة ، قبل البعثة ، ومن ذلك رعي الأنبياء للغنم ، فقد روى جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : « كنّا مع رسول الله ﷺ نجني الكباث[4] ، وأنَّ رسول الله ﷺ قال : « عليكم بالأسود منه فإنّه أطيبه » ، قالوا : أكنت ترعى الغنم ؟ قال : « وهل من نبي إلا وقد رعاها » رواه البخاري في صحيحه[5] ، ومن الأنبياء الذين نصَّ القرآن على أنّهم رعوا الغنم نبيّ الله موسى عليه السلام ، فقد عمل في ذلك عدّة سنوات ، فقال له العبد الصالح : ﴿ إِني أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ احْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فِمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللّهُمِنَ الصَّالِحينَ ، قَالَ ذَلِكَ بَيْني وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوانَ عَلَيَّ ،

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وأحمد ، وابن ماجة وغيرهم (سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ١٤٣) .

(٢) اخرجه ابن ماجة ، وابن سعد والحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال الشيخ ناصر وهو كما قالا (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ١٤٤) .

(٣) إذا كان هذا حال الأنبياء فينبغي للصالحين أن يعتبروا بذلك ولا يظنون بالله غير الحقّ إذا أصابهم البلاء ، وعلى الذين يرمون الصالحين بالتهم الباطلة لأنّهم أصيبوا بالبلاء أن يقصروا عن غيهم .

(٤) الكباث : ثمر الأراك ، ويقال ذلك للنضيج منه .

(٥) انظر فتح البارى (٤٣٨/٦) .

﴿ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ « سورة القصص/٢٧ ـ ٢٨ » قال ابن حجر : والذي قاله الأئمة أن الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع ، وتعتاد قلوبهم بالخلوة ، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم[1].

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام ، فقد كان حدّادا يصنع الدروع ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ « سورة الأنبياء/ ٨٠ » ، كان حدادا ، وفي نفس الوقت كان ملكا ، وكان يأكل مما تصنعه يداه .

ونبيّ الله زكريا كان يعمل نجّارا[2] .

ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية والملائكية

ومقتضى كونهم بشرا أنهم ليسوا بآلهة ، وليس فيهم من صفات الألوهّية شيء ، ولذلك فإنّ الرسل يتبرءون من الحول والطول ويعتصمون بالله الواحد الأحد ، ولا يدعون شيئا من صفات الله تعالى ، قال تعالى مبينا براءة عيسى مما نسب إليه : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُه فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ، وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّك أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ « سورة المائدة/١١٦ ـ ١١٧ » .

هذه مقالة عيسى في الموقف الجامع في يوم الحشر الأكبر ، وهي مقولة صدق تنفي تلك الأكاذيب والترهات التي وصف بها النصارى عبد الله ورسوله عيسى فطائفة قالت : الله هو المسيح بن مريم حلَّ في بطن مريم ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ « سورة المائدة/٧٢ » وأخرى قالت هو ثالث

---

(١) فتح الباري (٦/٤٣٩) .

(٢) ثبت ذلك في حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه (انظر مشكاة المصابيح ٣/١١٧) .

ثلاثة ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾« سورة المائدة/٧٣ » وطائفة ثالثة قالوا هو ابن الله تعالى الله عما يقولون علوّا كبيرا ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً . . ﴾ « سورة مريم/٨٨ ـ ٨٩ » لقد غلا النصارى في عيسى غلوّاً عظيما ، وهم بمقالتهم الغالية هذه يَسبُّون الله أعظم سبّ وأقبحه ، فهم يزعمون : « أنّ ربَّ العالمين نزل عن كرسي عظمته ، فالتحم ببطن أنثى ، وأقام هناك مدةً من الزمان ، بين دم الطمث في ظلمات الأحشاء ، تحت ملتقى الأعكان ، ثمَّ خرج صبيا رضيعا يشبُّ شيئا فشيئا ، ويبكي ، ويأكل ، ويشرب ، ويبول ، ويتقلب مع الصبيان ، ثمَّ أودع المكتب بين صبيان اليهود ، يتعلم ما ينبغي للإنسان ، هذا وقد قطعت منه القلفة حين الختان ، ثمَّ جعل اليهود يطردونه من مكان إلى مكان ، ثمَّ قبضوا عليه وأحلوه أصناف الذلّ والهوان ، فعقدوا على رأسه من الشوك تاجا من أقبح التيجان ، وأركبوه قصبة ليس لها لجام ولا عنان ، ثمَّ ساقوه إلى خشبة الصلب مصفوعا مبصوقا في وجهه ، وهم خلفه وأمامه وعن شمائله والأيمان ، ثمَّ أركبوه ذلك المركب الذي تقشعرُّ منه القلوب مع الأبدان ، ثمَّ شدّت بالحبال يده مع الرجلان ، ثمَّ خالطهما تلك المسامير ، التي تكسر العظام ، وتمزق اللحمان ، وهو يستغيث ، ويقول : ارحموني ، فلا يرحمه منهم إنسان ، هذا وهو مدبر العالم العلوي والسفلي ، الذي يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن ، ثمَّ مات ودفن في التراب تحت صم الجنادل والصوّان ، ثمَّ قام من القبر وصعد الى عرشه وملكه بعد أن كان ما كان »[1].

فأيّ سبّ أعظم من هذا السبّ الذي نسبوه إلى الباري جل وعلا ! وأي ضلال أعظم من هذا الضلال ! .

الكمال البشري

لا شكَّ أن البشر يتفاوتون فيما بينهم تفاوتا كبيرا في الخَلْق والخُلُق ، والمواهب ، فمن البشر القبيح والجميل وبين ذلك ، ومنهم الأعمى والأعور

---

(١) هداية الحيارى (انظر الجامع الفريد ص ٤٧٩) .

والمبصر بعينيه ، والمبصرون يتفاوتون في جمال عيونهم وفي قوة ابصارهم ، ومنهم الأصم والسميع وبين ذلك ، ومنهم ساقط المروءة ومنهم ذو المروءة والهمة العالية .

ولا شكَّ أنَّ الأنبياء والرسل يمثلون الكمال الانساني في أرقى صوره ، ذلك أنَّ الله اختارهم واصطفاهم لنفسه ، فلا بدَّ أن يختار أطهر البشر قلوبا ، وأزكاهم أخلاقا ، وأجودهم قريحة ، ﴿ **اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ « سورة الأنعام / ١٢٤ » .

الكمال في الخلقة الظاهرة

لقد حذرنا الله تعالى من ايذاء الرسول ـ ﷺ ـ كما آذى بنو اسرائيل موسى ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهَا** . . ﴾ « سورة الأحزاب / ٦٩ » .

وقد بين لنا رسولنا ﷺ أن ايذاء بني إسرائيل لموسى كان باتهامهم إياه بعيب خلقي في جسده ، ففي صحيح البخاري[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ موسى كان رجلاً حييًا ستّيرا لا يرى من جلده شيء استحياءً منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلاّ من عيب بجلده[2] : إمّا برص ، وإمّا أدرة[3] ، وإمّا آفة ، وإنَّ الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوما وحده ، فوضع ثيابه على الحجر ، ثمَّ اغتسل ، فلمّا فرغ ، أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإنَّ الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه عريانا أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فوالله إنَّ بالحجر لندْبًا من أثر ضربه ، ثلاثا أو أربعا أو خمسا ، فذلك قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ، فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً** ﴾ « سورة الأحزاب / ٦٩ » .

---

(١) رواه البخاري انظر فتح البارى (٦/٤٣٧) .

(٢) هذا يوحى بأن اغتسال بني إسرائيل عراة كان جائزاً في شريعتهم .

(٣) الأدرة بضم الهمزة وسكون الدال .

قال ابن حجر العسقلاني معقبا على الحديث : « وفيه أن الأنبياء في خَلقهم وخُلقهم ، على غاية الكمال ، وأن من نسب نبيًا إلى نقص في خلقته فقد آذاه ، ويخشى على فاعله الكفر »[١].

الصور الظاهرة مختلفة

ليس معنى كون الرسل أكمل الناس أجساما أنهم على صفة واحدة وصورة واحدة ، فالكمال الذي يدهش ويعجب متنوع وذلك من بديع صنع الواحد الأحد وكمال قدرته .

وقد وصف لنا الرسول - ﷺ - بعض الأنبياء والرسل ، يقول ﷺ : « ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجل ضَرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة »[٢] .

وقال في عيسى : « ليس بيني وبينه نبيٌّ ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، ينزل بين ممصرتين ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل »[٣] .

وقد وصف لنا الصحابة رسولنا - ﷺ - فمن ذلك قولهم : « كان أحسن الناس . . ربعة ، إلى الطول ما هو، بعيد ما بين المنكبين ، أسيل الخدين ، شديد سواد الشعر ، أكحل العينين ، أهدب الأشفار ، إذا وطىء بقدمه وطىء بكلها ، ليس له أخمص ، إذا وضع رداءَه عن منكبيه فكأنّه سبيكة فضة »[٤] .

الكمال في الأخلاق

لقد بلغ الأنبياء في هذا مبلغا عظيما ، وقد استحقوا أن يثني عليهم ربّ الكائنات فقد أثنى الله على خليله إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

---

(١) فتح البارى ٦/٤٣٨ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه (انظر فتح الباري ٦/٤٢٨) وشنوءه حيّ من اليمن ،

(٣) رواه أبو داود وأحمد (انظر صحيح الجامع ٥/٩٠) . وقوله « ممصرتين » الممصرة من الثياب التي فيها صفرة خفيفة . راجع لسان العرب (٣/٤٩٣) مادة مصر .

(٤) رواه البيهقي انظر صحيح الجامع (٤/١٩٩)

أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ ، « سورة هود/٧٥ » .

وقالت ابنة العبد الصالح تصف موسى : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ « سورة القصص/٢٦ » .

واثنى الله على إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد ، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ « سورة مريم/٥٤ » .

وأثنى الله ـ جلَّ جلاله ، وتقدست أسماؤه ـ على خلق نبينا محمد ـ ﷺ ـ ثناءً عطرا ، فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ « سورة القلم/٤ » .

فقد وصف الله ـ سبحانه ـ خلق نبينا محمد ـ ﷺ ـ بأنّه عظيم ، وأكّد ذلك بثلاثة مؤكدات : أكدَّ ذلك بالإقسام عليه بنون والقلم وما يسطرون ، وتصديره بإنَّ ، وادخال اللام على الخبر .

ومن خلقه الكريم ـ ﷺ ـ الذي نوه الله به ما جبله عليه من الرحمة والرأفة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ « سورة التوبة/١٢٨ » .

وقد كان لهذه الأخلاق أثر كبير في هداية الناس وتربيتهم ، هذا صفوان بن أميّة يقول : لقد أعطاني رسول الله ـ ﷺ ـ ما أعطاني وإنه لأبغض خلق الله إليّ فما زال يعطيني حتى إنّه من أحبِّ الناس إليّ « رواه مسلم في صحيحه » .

وفي صحيح مسلم أنَّ رجلا سأل الرسول ﷺ فأعطاه قطيعا من الغنم بين جبلـــين ، فجاء الرجل قومه وقال لهم : أسلموا فإنَّ محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

ولو لم يتصف الرسل بهذا الكمال الذي حباهم الله به لما انقاد الناس لهم ، ذلك أن الناس لا ينقادون عن رضا وطواعية لمن كثرت نقائصه ، وقلت فضائله

خير الناس نسبا

الرسل ذوو أنساب كريمة ، فجميع الرسل بعد نوح من ذريته ، وجميع الرسل بعد إبراهيم من ذرية إبراهيم ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابِ . .﴾ « سورة الحديد/٢٦ » .

ولذلك فإنَّ الله ـ سبحانه ـ يصطفي لرسالته من كان خيار قومه في النسب ، وفي الحديث الذي يرويه البخاريُّ ، يقول الرسول ﷺ : « بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا ، حتى كنت من القرن الذي كنت منه »[١] .

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي عن الرسول ، ﷺ : قال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إنَّ الله ـ تعالى ـ خلق الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة ، ثمَّ جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثمَّ جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا ، فأنا خيركم بيتا ، وخيركم نفساً »[٢] .

وفي صحيح مسلم وسنن النسائي : « إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى من كنانة قريش ، واصطفى من قريش بني هاشم » .

أحرار بعيدون عن الرق

ومن صفات الكمال أنَّ الأنبياء لا يكونون أرقاء يقول السفاريني في هذا : « الرقٍّ وصف نقص لا يليق بمقام النبوة ، والنبي يكون داعيا للناس آناء الليل وأطراف النهار ، والرقيق لا يتيسر له ذلك ، وأيضا الرقيّة وصف نقص يأنف الناس ويستنكفون من اتباع من اتصف بها ، وأن يكون إماما لهم وقدوة ، وهي أثر الكفر ، والأنبياء منزهون عن ذلك »[٣][٤] .

---

(١) رواه البخاري (فتح الباري ٥٦٦/٦)

(٢) رواه احمد والترمذي (صحيح الجامع ٢٢/٢)

(٣) لوامع الأنوار البهية ص ٢٦٥/٢ .

(٤) قد يعترض على هذا بأنّ رسول الله يوسف باعه الذين استنقذوه من البئر وبذلك أصبح عبدا ، والاجابة على ذلك أنَّ العبودية هنا كانت نوعا من الابتلاء والاّ فهو حرٌّ وقع عليه الظلم ، ولم تستمر هذه العبودية طويلا ، وأبدله الله بها ملكا .

المواهب والقدرات

الأنبياء أعطوا العقول الراجحة ، والذكاء الفذ ، واللسان المبين ، والبديهة الحاضرة ، وغير ذلك من المواهب والقدرات التي لا بدَّ منها لتحمل الرسالة ثم ابلاغها ومتابعة الذين تقبلوها بالتوجيه والتربية .

لقد كان الرسول - ﷺ - يحفظ ما يلقى إليه ولا ينسى منه كلمة ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى**﴾ « سورة الأعلى/٦ » .

وقد كانوا يعرضون دين الله للمعارضين ويفحمونهم في معرض الحجاج ، وفي هذا المجال أسكت إبراهيم خصمه ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ « سورة البقرة/ ٢٥٨ » وقال الله معقبا على محاججة إبراهيم لقومه : ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**﴾ « سورة الأنعام/٨٣ » .

وموسى كان يجيب فرعون على البديهة حتى انقطع ، فانتقل إلى التهديد بالقوة . ﴿**قَالَ فِرْعَونُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِين ؟ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ! قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِين ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ، قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾ « سورة الشعراء/ ٢٣ - ٢٩ » .

تحقيق العبودية

بينا الكمال الذي حبا الله به رسله في صورهم الظاهرة ، وأخلاقهم الباطنة ، والمواهب والسجايا التي أعطاهم إياها في ذوات أنفسهم ، وهناك نوع آخر من الكمال وفق الله رسله وأنبياءه لتحصيله ، وهو تحقيق العبودية لله في أنفسهم .

فكلّما كان الإنسان أكثر تحقيقا للعبوديّة لله تعالى ، كلَّما كان أكثر رقيًا في سلّم الكمال الإنساني ، وكلما ابتعد عن تحقيق العبودية لله كلما هبط وانحدر .

والرسل حازوا السبق في هذا الميدان ، فقد كانت حياتهم انطلاقة جادة في

تحقيق هذه العبودية ، وهذا خاتم الرسل وسيد المرسلين يثني عليه ربّه في أشرف المقامات بالعبودية ، فيصفه بها في مقام الوحي ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ « سورة النجم/ ١٠ » وفي مقام إنزال الكتاب ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ « سورة الفرقان/ ١ » وفي مقام الدعوة ﴿وأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ « سورة الجن/ ١٩ » وفي مقام الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ . .﴾ « سورة الإسراء/ ١ » وبهذه العبودية التامّة استحق صلوات الله وسلامه عليه التقديم على الناس في الدنيا والآخرة ، ولذلك فإنّ المسيح عليه السلام يقول للناس إذا طلبوا منه الشفاعة بعد طلبها من الرسل من قبله ـ يقول . « اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » متفق عليه[١] .

واليك صورة من صور هذه العبودية ترويها لنا أمّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت رضي الله عنها وعن أبيها : « قلت يا رسول الله ، كُلْ ـ جعلني الله فداك ـ متكئا ، فإنّه أهون عليك ، فأحنى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض ، وقال : بل آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » رواه البغوي في شرح السنة ، وابن سعد ، والامام أحمد في الزهد[٢] .

الذكورة

ومن الكمال الذي حباهم به أنه اختار جميع الرسل الذين أرسلهم من الرجال ، ولم يبعث الله رسولا من النساء يدلُّ على ذلك صيغة الحصر التي وردت في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إلاّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ « سورة الأنبياء/ ٧ » .

الحكمة من كون الرسل رجالا

كان الرسل من الرجال دون النساء لحكم يقتضيها المقام فمن ذلك :

(١) تخريج الطحاوية انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٧ .

(٢) انظر صحيح الجامع الصغير (١٢٢/١)

١ ـ أنَّ الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة ، ومخاطبة الرجال والنساء ، ومقابلة الناس في السرّ والعلانية ، والتنقل في فجاج الأرض ، ومواجهة المكذبين ومحاجتهم ومخاصمتهم ، واعداد الجيوش وقيادتها ، والاصطلاء بنارها ، وكل هذا يناسب الرجال دون النساء .

٢ ـ الرسالة تقتضي قوامة الرسول على من يتابعه ، فهو في أتباعه الآمر الناهي ، وهو فيهم الحاكم والقاضي ، ولو كانت الموكلة بذلك امرأة لم يتمّ ذلك على الوجه الأكمل ، ولاستنكف أقوام من الاتباع والطاعة .

٣ ـ الذكورة أكمل كما بينا آنفا ، ولذلك جعل الله القوامة للرجال على النساء ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ « سورة النساء/٣٤ » وأخبر الرسول ـ ﷺ ـ أنَّ النساء ناقصات عقل ودين .

٤ ـ المرأة يطرأ عليها ما يعطلها عن كثير من الوظائف والمهمات ، كالحيض والحمل والولادة والنفاس ، وتصاحب ذلك اضطرابات نفسية وآلام وأوجاع ، عدا ما يتطلبه الوليد من عناية ، وكل ذلك مانع من القيام بأعباء الرسالة وتكاليفها .

نُبوَّة النِّسَاء

ذهب بعض العلماء[1] إلى أنَّ الله أنعم على بعض النساء بالنبوة ، فمن هؤلاء أبو الحسن الأشعري والقرطبي وابن حزم[2] .

والذين يقولون بنبوة النساء متفقون على نبوة مريم ، ومنهم من ينسب النبوة إلى غيرها ويعدّون من النساء النبيات : حواء وسارة وأمّ موسى وهاجر وآسية .

وهؤلاء عندما اعترض عليهم بالآية التي تحصر الرسالة في الرجال دون النساء ، قالوا نحن لا نخالف في ذلك ، فالرسالة للرجال ، أمّا النبوة فلا يشملها النصُّ القرآني ، وليس في نبوة النساء تلك المحذورات التي عددتموها فيما لو كان من النساء رسول ، لأنَّ النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ، يعمل بها ، ولا يحتاج إلى أن يبلغها إلى الآخرين .

أدلتهم :

وحجّة هؤلاء أن القرآن أخبر بأن الله تعالى أوحى إلى بعض النساء ، فمن ذلك أنه أوحى إلى أمّ موسى : **﴿وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إنّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** « سورة القصص/٧ » وأرسل جبريل إلى مريم فخاطبها **﴿فَأَرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنَا**

---

(١) يزعم اليهود أن مريم أخت موسى وهارون كانت نبيّة (لوامع الأنوار البهيّة ٢/٢٦٦)

(٢) انظر فتح الباري ٦/٤٤٧ - ٤٤٨ ، ٦/٤٧٣ ، وانظر لوامع الأنوار البهية ٢/٢٦٦ .

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ، قَالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً . . . ﴾ « سورة مريم/١٧ ـ ١٨ » وخاطبتها الملائكة قائلة : ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . . . ﴾« سورة آل عمران/٤٢، ٤٣»

فأبو الحسن الأشعري يرى أنَّ كلَّ من جاءَه الملك عن الله ـ تعالى ـ بحكم من أمر أو نهي أو باعلام فهو نبي[١] ، وقد تحقق في أمِّ موسى ومريم شيء من هذا ، وفي غيرهما أيضا ، فقد تحقق في حواء وسارة وهاجر وآسية بنصّ القرآن .

واستدلوا أيضا باصطفاء الله لمريم على العالمين ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ « سورة آل عمران/٤٢ » وبقوله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران »[٢] .

قالوا : الذي يبلغ مرتبة الكمال هم الأنبياء .

الردّ عليهم

وهذا الذي ذكروه لا ينهض لاثبات نبوة النساء ، والردُّ عليهم من وجوه :

الأوّل : أننا لا نسلّم لهم أنَّ النبيّ غير مأمور بالتبليغ والتوجيه ومخالطة الناس ، والذي اخترناه أن لا فرق بين النبيِّ والرسول في هذا ، وأنَّ الفرق واقع في كون النبي مرسل بتشريع رسول سابق .

وإذا كان الأمر كذلك فالمحذورات التي قيلت في ارسال رسول من النساء قائمة في بعث نبي من النساء ، وهي محذورات كثيرة تجعل المرأة لا تستطيع القيام بحقّ النبوة .

الثاني : قد يكون وحي الله إلى هؤلاء النسوة أم موسى وآسية . . إنّما وقع مناما ، فقد علمنا أنّ من الوحي ما يكون مناما ، وهذا يقع لغير الأنبياء .

---

(١) فتح الباري ٤٤٧/٦ .

(٢) حديث متفق عليه (انظر مشكاة المصابيح ١١٨/٣)

الثالث : لا نسلم لهم قولهم أن كل من خاطبته الملائكة فهو نبي ، ففي الحديث أن الله أرسل ملكا لرجل يزور أخا له في الله في قرية أخرى ، فسأله عن سبب زيارته له ، فلمّا أخبره أنه يحبّه في الله ، أعلمه أنَّ الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبّه ، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة ، وقد جاء جبريل يعلم الصحابة أمر دينهم بسؤال الرسول - ﷺ - والصحابة يشاهدونه ويسمعونه [1] .

الرابع : أنَّ الرسول - ﷺ - توقف في نبوة ذي القرنين مع اخبار القرآن بأنَّ الله أوحى إليه ﴿قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ، وإمّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيْهِمْ حُسْنا﴾ « سورة الكهف/٨٦ » .

الخامس : لا حجّة لهم في النصوص الدالة على اصطفاء الله لمريم ، فالله قد صرح بأنّه اصطفى غير الأنبياء : ﴿ثمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِن عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ « سورة فاطر/٣٢ » واصطفى آل ابراهيم وآل عمران على العالمين ، ومن آلهمَا من ليس بنبيٍّ جزما ﴿إنّ اللّه اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعَالَمِين﴾ « سورة آل عمران/٣٣ » .

السادس : لا يلزم من لفظ الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به النبوة ، لأنّه يطلق لتمام الشيء ، وتناهيه في بابه ، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع الفضائل التي للنساء ، وعلى ذلك فالكمال هنا كمال غير الأنبياء .

السابع : ورد في بعض الأحاديث النصّ على أن خديجة من الكاملات[2] وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة .

الثامن : ورد في بعض الأحاديث أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلاّ ما كان من مريم ابنة عمران[3] ، وهذا يبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية ،

---

(١) ارجع في هذه النصوص والنصوص المشابهة لها إلى الجزء الثاني من هذه السلسلة « عالم الملائكة الأبرار » .
(٢) الحديث أخرجه ابن مردويه ، انظر البداية والنهاية (٢/ ٦١)
(٣) رواه أحمد وأسناده جيد ، فتح الباري (٦/ ٤٧٧)

لأنَّ فاطمة ليست بنبيّة جزما ؛ وقد نصَّ الحديث على أنها أفضل من غيرها ، فلو كانت أم موسى وآسية نبيتان لكانتا أفضل من فاطمة .

التاسع : وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والاخبار بفضلها ، قال تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعامَ﴾ « سورة المائدة/٧٥ » ، فلو كان هناك وصفا أعلى من ذلك لوصفها به ، ولم يأت في نصّ قرآني ولا في حديث نبويّ صحيح اخبار بنبوة واحدة من النساء .

وقد نقل القاضي عياض عن جمهور الفقهاء أنّ مريم ليست بنبيّة ، وذكر النووي في الأذكار عن إمام الحرمين أنَّه نقل الاجماع على أنَّ مريم ليست نبيّة[١] ، ونسبه في « شرح المهذب » لجماعة ، وجاء عن الحسن البصري : ليس في النساء نبيّة ولا في الجنّ[٢] .

---

(١) الاجماع لا يتم بعد معرفة من خالف في ذلك من العلماء إلا أن يكون إجماعا سابقا على هذا الخلاف .

(٢) فتح الباري ٦/٤٧١ ، ٤٧٣ .

أمور تفرد بها الأنبياء دون البشر

١ ـ الوحي

خصّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم ، قال تعالى : ﴿قُلْ إنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إلَيَّ أَنَّما إلَهُكُمْ إلَهٌ وَاحِدٌ﴾ . « سورة الكهف/ ١١٠ » .

وهذا الوحي يقتضي عدة أمور يفارقون بها الناس ، فمن ذلك تكليم الله بعضهم واتصالهم ببعض الملائكة ، وتعريف الله لهم شيئا من الغيوب الماضية أو الآتية ، واطلاع الله لهم على شيء من عالم الغيب .

فمن ذلك الإسراء بالرسول ﷺ إلى بيت المقدس والعروج به إلى السموات العلا ، ورؤ يته للملائكة والأنبياء ، واطلاعه على الجنّة والنار ، ومن ذلك رؤ يته للمعذبين في قبورهم وسماعه تعذيبهم ، وفي الحديث : « لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر »[1].

٢ ـ العصمة

وقد خصصنا لهذا الأمر فصلا مستقلاّ .

٣ ـ الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم

ومما اختصهم الله تعالى به أنّ أعينهم تنام وقلوبهم لا تنام ، فعن أنس في حديث الإسراء : « والنبيُّ نائمة عيناه ، ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي (صحيح الجامع الصغير ٥/٧٥)

ولا تنام قلوبهم » رواه البخاري في صحيحه[1] ، وهذا وإن كان من قول أنس إلا أن مثله لا يقال من قبل الرأي كما يقول ابن حجر[2] ، وقد ورد هذا من قول الرسول ﷺ ، فقد صحّ عنه أنّه قال : « إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » ، وقال ﷺ عن نفسه : « إنَّ عيني تنامان ولا ينام قلبي »[3] .

٤ ـ تخيير الأنبياء عند الموت

مما تفرد به الأنبياء أنَّهم يخيَّرون بين الدنيا والآخرة ، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « ما من نبي يمرض إلاّ خيّر بين الدنيا والآخرة»[4] ،وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحّة شديدة ، فسمعته يقول : « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين » فعلمت أنّه خير . رواه البخاريّ في صحيحه[5] .

وقد سبق أن أوردنا حديث تخيير ملك الموت لموسى وضرب موسى لملك الموت وقلع عينه[6]

٥ ـ لا يقبر نبي إلا حيث يموت

ممّا خصَّ الله به الأنبياء بعد موتهم أمور :

الأوّل : أنّه لا يقبر نبيٌّ إلاّ في الموضع الذي مات فيه ، ففي الحديث : « لم يقبر نبيٌّ إلا حيث يموت»[7] ولهذا فإنّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ دفنوا الرسول ـ ﷺ ـ في حجرة عائشة حيث قبض .

---

(١) انظر فتح الباري ٦/٥٧٩ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) رواه ابن سعد وابن حبان (انظر صحيح الجامع الصغير ٣/٥٥)

(٤) رواه البخاري ومسلم (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/٣١٦)

(٥) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٨/٢٥٥

(٦) انظر كتابنا عالم الملائكة من هذه السلسلة .

(٧) رواه الامام أحمد في مسنده بإسناد صحيح (انظر صحيح الجامع الصغير ٥/٤٦)

٦ ـ لا تأكل الأرض أجسادهم

ومن إكرام الله لأنبيائه ورسله أنَّ الأرض لا تأكل أجسادهم ، فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى ، ففي الحديث « إنَّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »[١] .

ويذكر أهل التاريخ قصة فيها عجب وغرابة ، روى ابن كثير في البداية والنهاية[٢] عن يونس بن بكير قال: لما فتحنا تسْتر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريرا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ، فدعا له كعبا فنسخه بالعربية ، فأنا أوّل رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا .

فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم ، وما هو كائن بعد .

قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلّها ، لنعميه على الناس فلا ينبشونه[٣] .

قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون .

قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال .

قلت : مذكم وجدتموه ؟ قال : قد مات منذ ثلاثمائة سنة .

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره (انظر فتح الباري ٦/٤٨٨)

(٢) البداية والنهاية (٢/٤٠) .

(٣) وهذا يدلّ على فقه المسلمين في ذلك الوقت ، فإنّ اكرام الميت دفنه ، سواء أكان نبيا أم غير نبي ، وحفرهم القبور الكثيرة لتعميةً أمره على الناس حتى لا ينبشوا قبره وفي ذلك إيذاء لهذا النبي الكريم ، وقد يتخذون قبره عيدا ، ويقيمون عليه مسجدا ويقصدونه بالدعاء والتبّرك كما يفعل كثير من الذين ضلوا عن سواء الصراط في كثير من ديار الإسلام .

قلت : ما تغير منه شيء ؟ قال : لا إلاّ شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا يبليها الأرض ، ولا تأكلها السباع .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية .

ويبدو أن هذا من أنبياء بني إسرائيل ، وقد ظنَّ الصحابة أنّه دانيال ، لأنّ دانيال أخذه ملك الفرس ، فأقام عنده مسجونا ، ويبدو أنَّ تقدير الذين وجدوه لم يكن صوابا ، فإنَّ دانيال كان قبل الإسلام بثمانمائة سنة ، فإن كان تقديرهم صوابا فليس بنبيّ لأنّه لا نبيّ بين عيسى ورسولنا محمد عليهما الصلاة والسلام ، فيكون عبدا صالحا ليس بنبي ، وكونه نبيّا أرجح ، لأنّ الذين تحفظ أجسادهم هم الأنبياء دون غيرهم ، ويرجح هذا أيضا ذلك الكتاب الذي وجد عند رأسه ، لا شكّ أنه كتاب نبيّ ، فالأمور الغيبيّة التي تضمنها لا تكون إلا وحيا سماويّا ، وترجيحنا لكونه من بني إسرائيل لأمرين :

الأول : ظن الصحابة أنّه دانيال ، ويكونون قد علموا ذلك من قرائن لم تذكر .

والثاني : الكتاب الذي وجد عند رأسه ، ويبدو أنه كان مكتوبا بالعبرانية ، لأنَّ الذي ترجمه هو أبيّ بن كعب ، وقد كان قبل إسلامه يهوديا .

٧ ـ أحياء في قبورهم

صحَّ عن النبيّ ﷺ أنّ « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون »[١] ، وروي أيضاً أنَّ الرسول ـ ﷺ ـ قال : « مررت على موسى ليلة أسري به عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره »[٢] .

وروى مسلم عن أبي هريرة في قصة الإسراء : « وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي . . . ، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي »[٣]

---

(١) رواه الجماعة عن أنس (انظر صحيح الجامع ٢/٤١٤)

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل حديث رقم (١٦٤١) وانظر شرح النووي على مسلم (١٥/١٣٣)

(٣) انظر فتح الباري ٦/٤٨٧ .

الفصل السادس

عِصْمَةُ الرُّسُل



عصمة الرسل

هل الرسل معصومون عن الخطأ والمعصية ، وهل هي عصمة عامّة شاملة ؟ هذا ما سنحاول بيانه .

العصمة في التحمّل وفي التبليغ

اتفقت الأمّة على أنَّ الرسل معصومون في تحمّل الرسالة[1] ، فلا ينسون شيئا مما أوحاه الله إليهم إلاّ شيئا قد نُسخ ، وقد تكفل الله لرسوله - ﷺ - بأن يقرئه فلا ينسى شيئا مما أوحاه إليه ، إلا شيئا أراد الله أن ينسيه إيّاه : ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ « سورة الأعلى/ ٦ » وتكفل له بأن يجمعه في صدره : ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴾ « سورة القيامة/١٦ - ١٨ » وهم معصومون في التبليغ ، فالرسل لا يكتمون شيئا ممّا أوحاه الله إليهم ، ذلك أن الكتمان خيانة ، والرسل يستحيل أن يكونوا كذلك ، قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ « سورة المائدة/ ٦٧ » ولو حدث شيء من الكتمان أو التغيير لما أوحاه الله فإن عقاب الله يحلّ بذلك الكاتم المغيّر ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِين** ﴾ « سورة الحاقة/ ٤٤ - ٤٦ »

---

(١) نقل الاجماع على العصمة في هذا أكثر من واحد انظر : مجموع الفتاوى ١٠/٢٩١ ، ولوامع الأنوار البهيّة (٢/٣٠٤) .

ومن العصمة ألاَّ ينسوا شيئا مما أوحاه الله إليهم ، وبذلك لا يضيع شيء من الوحي ، وعدم النسيان في التبليغ داخل في قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ « سورة الأعلى/٦ » ومما يدل على عصمته في التبليغ قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ « سورة النجم/ ٣ - ٤ »

أمور لا تنافي العصمة

الأعراض البشريّة الجبلّية لا تنافي العصمة ، فإبراهيم عليه السلام أوجس في نفسه خيفة عندما رأى أيدي ضيوفه لا تمتد إلى الطعام الذي قدمه لهم ، ولم يكن يعلم أنّهم ملائكة تشكلوا في صور البشر ﴿ **فَلَمّا رأى أَيْدِيَهُم لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا : لاَ تَخَفْ ، إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ** ﴾ « سورة هود/ ٧٠ » .

وموسى وعد الخضر بأن يصبر في صحبته له ، فلا يسأله عن أمر يفعله العبد الصالح حتى يحدث له منه ذكرا ، ولكنه لم يتمالك نفسه ، إذ رأى تصرفات غريبة ، فكان في كل مرّة يسأل أو يعترض أو يوجه[1] ، وفي كل مرّة يذكّره العبد الصالح ويقول له : ﴿ **أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً** ﴾ « سورة الكهف/ ٧٥ » وعندما كشف له عن سرّ أفعاله ، قال له : ﴿ **ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْه صَبْراً** ﴾ « سورة الكهف/٨٢ » .

وغضب موسى غضبا شديدا ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وألقى الألواح وفي نسختها هدى ـ عندما عاد إلى قومه بعد أن تمّ ميقات ربه ، فوجدهم يعبدون العجل ، ﴿ **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفَا ، قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ، وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ، وَلاَ تَجْعَلْنِي**

---

(١) كانت المرة الأولى من موسى نسيانا ، أمّا الثانية والثالثة فكان متعمدا .

مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ « سورة الأعراف/ ١٥٠ » وفي الحديث : « ليس الخبر كالمعاينة ، إنَّ الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل ، فلم يلق الألواح ، فلمّا عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت »[١] .

نسيان آدم وجحوده

ومن ذلك نسيان آدم عليه السلام وجحوده فعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « **لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من** ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كلٍّ منهم وبيصا من نور ، ثمَّ عرضهم على آدم ، فقال أي ربِّ مَنْ هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلا منهم **فأعجبه ما بين عينيه ، فقال : أي ربِّ من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر** الامم من ذريتك ، يقال له داود ، قال : ربِّ وكم عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : أي ربِّ زده من عمري أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم ، جاءَه ملك الموت ، قال : أولم يبق من عمري أربعون سنة ، قال : أولم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم ، فجحدت ذريته ، ونسي آدم ، فنسيت ذريته ، وخطىء آدم ، فخطئت ذريته »[٢] .

نبي يحرق قرية النمل

ومن ذلك ما وقع من نبي من الانبياء فقد غضب إذ قرصته نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فعاتبه الله على ذلك ، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ : « نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة ، فلدغته نملة ، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ، ثمَّ أمر ببيتها فأحرق بالنار ، فأوحى الله إليه : فهلّا نملة واحدة » . رواه البخاري وأبو داود والنسائي[٣] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الأوسط ، بإسناد صحيح (انظر صحيح الجامع الصغير ٥/ ٨٧) .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم (البداية والنهاية ١/ ٨٧) .

(٣) صحيح الجامع ٥/ ٢٨ .

صلاة نبيّنا الظهر ركعتين نسيانا

ومن ذلك نسيان الرسول ـ ﷺ ـ في غير البلاغ وفي غير أمور التشريع ، فمن ذلك ما رواه ابن سيرين عن أبي هريرة قال : « صلى بنا رسول الله ﷺ ، إحدى صلاتي العشيّ [1] ، فصلّى ركعتين ، ثمَّ سلَّم ، فقام إلى خشبة معروضة في المسجد فاتكأ عليها كأنّه غضبان ، ووضع يده اليمنى على اليسرى ، وشبّك بين أصابعه ، ووضع خدّه الأيمن على ظهر كفّه اليسرى ، وخرجت السرعان من أبواب المسجد ، فقالوا : قصرت الصلاة ، وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يكلماه ، وفي القوم رجل يقال له ذو اليدين ، فقال : يا رسول الله ، أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ فقال : لم أنس ، ولم تقصر ، فقال : أكما يقول ذو اليدين ؟ فقالوا : نعم . فتقدم فصلّى ما ترك ، ثمَّ سلَّم ، ثمَّ كَبَّر ، وسجد مثل سجوده أو أطول ، ثمَّ رفع رأسه وكبّر ، وسجد مثل سجوده أو أطول ، ثمَّ رفع رأسه وكبّر ، فربما سألوه ، ثمَّ سلَّم ، فيقول : أنبئت أنَّ عمران بن حصين ، قال : ثمَّ سلَّم » متفق عليه ، وليس لمسلم فيه وضع اليد على اليد ولا التشبيك .

وفي رواية ، قال : « بينما أنا أصلّي مع النبي ـ ﷺ ـ صلاة الظهر سلّم من ركعتين ، فقام رجل من بني سليم ، فقال : يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت » وساق الحديث ، رواه أحمد ومسلم .

وهذا يدلُّ على أن القصة كانت بحضرته وبعد اسلامه .

وفي رواية متفق عليها لما قال : « لم أنس ولم تقصر ، قال : بلى ، قد نسيت » ، وهذا يدلُّ على أن ذا اليدين تكلّم بعدما علم عدم النسخ كلاما ليس بجواب سؤال [2] .

وقد صرح الرسول ﷺ بطروء النسيان عليه كعادة البشر ، ففي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « ولكنّـي إنّما أنا بشر ، أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت

---

(١) قال الأزهري : العشى عند العرب ما بين زوال الشمس وغروبها ، فيكون المراد بهما الظهر أو العصر ، (نيل الأوطار ٣/١١٥) ، وقد حصل الجزم بأنها الظهر في إحدى الروايات .

(٢) نص الحديث برواياته كما نقلناها مأخوذة من منتقي الأخبار للمجد ابن تيمية انظر شرحه نيل الأوطار ٣/١١٤ .

فذكروني »[1] قال هذا بعد نسيانه في احدى الصلوات .

أمّا الحديث الذي يروى بلفظ : « إني لا أنسى ، ولكن أنسَّى لأسنّ » فلا يجوز أن يعارض به الحديث السابق ، لأنَّ هذا الحديث ـ كما يقول ابن حجر ـ لا أصل له ، فإنّه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث الشديد[2] .

قد يخطئون في إصابة الحق في القضاء

الأنبياء والرسل يجتهدون في حكم ما يعرض عليهم من وقائع ، ويحكمون وفق ما يبدو لهم ، فهم لا يعلمون الغيب ، وقد يخطئون في إصابة الحق ، فمن ذلك عدم اصابة نبي الله داود في الحكم ، وتوفيق الله لابنه سليمان في تلك المسألة .

فعن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول : « كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاءَ الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت لصاحبتها : إنّما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنَّما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا به على سليمان بن داود ، فأخبرتاه ، فقال : إئتوني بالسكين أشقّه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصغرى »[3] .

وقد وضح الرسول ـ ﷺ ـ هذه القضية وجلاّها ، فقد روت أمُّ سلمة زوج النبي ﷺ « أنَّ النبي ـ ﷺ ـ سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم ، فقال : إنّما أنا بشر ، وإنَّه يأتيني الخصم ، فلعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأحسب أنه صادق ، فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها »[4] .

---

(١) رواه الجماعة إلاّ الترمذي (نيل الأوطار ١٢٥/٣) .

(٢) نيل الأوطار ١١٧/٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى : « ووهبنا لداود سليمان » انظر فتح الباري ٤٥٨/٦ .

(٤) رواه البخاري ، كتاب المظالم ، باب إثم من خاصم في الباطل ، (انظر فتح الباري ١٠٧/٥) .

الذين ينفون عن الرسل والأنبياء هذه الأعراض مخالفون للنصوص:

ذهبت الشيعة الامامية الإثنا عشرية[1] إلى أن العصمة تقتضي ألّا يقع من الأنبياء سهو ولا نسيان ولا خطأ ، ولا خوف ولا غير ذلك من الأعراض البشريّة ، وقد سقنا لك النصوص من الكتاب والسنة الدالة على خلاف ذلك ، وهي نصوص لا تقبل تحويلا ولا تأويلا ، فعليك بالكتاب والسنة ففيهما الهداية .

---

(١) انظر عقائد الامامية لمحمد رضا المظفر ص ٧٩ .

العصمة من الذنوب

القبائح التي نسبها اليهود إلى الأنبياء والرسل[1]

ينسب اليهود إلى الأنبياء والمرسلين أعمالا قبيحة ، فمن ذلك :

١ ـ أن نبيّ الله هارون صنع عجلا ، وعبده مع بني إسرائيل ، إصحاح (٣٢) عدد (١) من سفر الخروج .

وقد بيّن ضلالهم هذا القرآن عندما حدثنا أنَّ الذي صنع لهم عجلا جسدا له خوار هو السامريّ ، وأن هارون قد أنكر عليهم إنكارا شديدا .

٢ ـ أن إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قدّم امرأته سارة إلى فرعون حتى ينال الخير بسببها . إصحاح (١٢) عدد (١٤) من سفر التكوين .

وقد كذبوا على خليل الرحمن وقد قص علينا الرسول ـ ﷺ ـ قصة إبراهيم هذه عند دخوله لمصر ، وفيها أن ملك مصر كان طاغية ، وكان إذا وجد امرأة جميلة ذات زوج قتل زوجها وحازها لنفسه ، فلما سئل إبراهيم عنها قال هي أخته ، يعني أخته في الإسلام ، وأخبر الرسول ﷺ أنَّ الله حفظ سارة عندما ذهبت إلى الطاغية ، فلم يمسها بأذى .

٣ ـ ومن ذلك أن لوطا عليه السلام شرب خمرا حتى سكر ، ثمَّ قام على ابنتيه فزنى بهما الواحدة بعد الأخرى . . سفر التكوين ، إصحاح (١٩) عدد

---

(١) النصوص المذكورة هنا مأخوذة بواسطة كتاب « محمد نبي الإسلام » ص ١٤٥ .

(٣٠) . ومعاذ الله أن يفعل لوط ذلك ، وهو الذي دعا إلى الفضيلة طيلة عمره ، وحارب الرذيلة ، ولكنّه الحقد اليهودي يمتد إلى الكملة من البشر ، فلعنة الله على الظالمين .

٤ ـ وأن يعقوب عليه السلام سرق مواش من حميّه ، وخرج بأهله خلسة دون أن يُعْلمه . . . سفر التكوين إصحاح (٣١) عدد (١٧) .

٥ ـ وأن راوبين زنى بزوجة أبيه يعقوب ، وأن يعقوب عليه السلام ، علم بهذا الفعل القبيح وسكت . . . سفر التكوين ، إصحاح (٣٥) عدد (٣٢) .

٦ ـ وأن داود عليه السلام زنى بزوجة رجل من قواد جيشه ، ثمَّ دبّر حيلة لقتل الرجل ، فقتل ، وبعدئذ أخذ داود الزوجة وضمها إلى نسائه ، فولدت له سليمان . . سفر صموئيل الثاني إصحاح (١١) عدد (١) .

٧ ـ وأن سليمان ارتدَّ في آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها المعابد . . . سفر الملوك الأول ، إصحاح (١١) عدد (٥) .

هذه بعض المخازي والقبائح والكبائر التي نسبتها هذه الأمّة الغضبية إلى أنبياء الله الأطهار ، وحاشاهم مما وصفوهم به ، ولكنها النفوس المريضة تنسب إلى خيرة الله من خلقه القبائح ليسهل عليهم تبرير ذنوبهم ومعايبهم عندما ينكر عليهم منكر ، ويعترض معترض .

النصارى ينسبون القبائح إلى الأنبياء

والنصارى ليسوا بأفضل من اليهود في هذا فقد نسبوا إلى الأنبياء والرسل القبائح ، وذلك بتصديقهم بالتوراة المحرفة المغيرة الموجودة اليوم والتي فيها ما ذكرنا ، بالاضافة إلى ما في الانجيل المحرف ؛ ومما فيه :

١ ـ ورد في إنجيل (متىّ) أن عيسى من نسل سليمان بن داود وأن جدهم فارض الذي هو من نسل الزنى من يهوذا بن يعقوب . . إصحاح متى الأول ، عدد (١٠) .

٢ ـ وفي إنجيل يوحنّا إصحاح (٢) عدد (٤) أن يسوع أهان أمّه في وسط جمع من الناس ، فأين هذا مما وصفه به القرآن ﴿ وبرًّا بِوَالِدَتِي﴾ « سورة مريم /٣٢ » .

٣ ـ وأن يسوع شهد بأن جميع الأنبياء الذين قاموا في بني اسرائيل هم سراق ولصوص . . انجيل يوحنّا ، اصحاح (١٠) عدد (٨) .

هذا غيض من فيض مما تطفح به تلك الأناجيل المحرفة من وصف للأنبياء والرسل بما هم بريئون منه[١] ، إن الأنبياء والرسل أزكى الناس وأطهرهم وأفضلهم ، ووالله إن هؤلاء لضالون فيما وصفوا به أنبياء الله الأبرار الأطهار .

موقف الأمة الإسلامية من عصمة الأنبياء من الذنوب

الأمّة الإسلامية مجمعة على أن مثل هذه الذنوب التي نسبها اليهود والنصارى إلى أنبياء الله كالزنى والسرقة والمخادعة وصناعة الأصنام وعبادتها . . . لا يمكن أن تقع من أحد من الأنبياء والرسل بحال من الأحوال ، وأنهم معصومون من ذلك .

(١) راجع لمزيد من الأمثلة كتاب « محمد نبي الإسلام » ص ١٤٦ .

العصمة من الصغائر

وقد ذهب أكثر علماء الإسلام إلى أن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر ، وقال ابن تيمية : « القول بأنَّ الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام ، وجميع الطوائف ، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام ، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أنَّ هذا قول أكثر الأشعرية ، وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلّا ما يوافق هذا القول . . »[1] .

الأدلة :

وقد استدل جماهير العلماء على دعواهم بأدلة :

١ ـ معصية آدم بأكله من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الأكل منها ، ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ، فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ، فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** ﴾ « سورة طه/١١٦ ـ ١٢١ » .

والآية في غاية الوضوح والدلالة على المراد ، فقد صرحت بعصيان آدم ربّه .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ٤/٣١٩ .

٢ ـ ونوح دعا ربّه في ابنه الكافر ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ : رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ « سورة هود/٤٥ » فلامه ربّه على مقالته هذه ، وأعلمه أنّه ليس من أهله ، وأن هذا منه عمل غير صالح ﴿ قَالَ يَا نُوحُ ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ « سورة هود/٤٦ » فاستغفر ربّه من ذنبه وتاب وأناب ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ « سورة هود/٤٧ » .

والآية صريحة في كون ما وقع منه كان ذنبا يحتاج إلى مغفرة ﴿ وإلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي . . ﴾ .

٣ ـ وموسى أراد نصرة الذي من شيعته فوكز خصمه القبطي فقضى عليه ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ « سورة القصص/١٥ ـ ١٦ » ، فقد اعترف موسى بظلمه لنفسه ، وطلب من الله أن يغفر له ، وأخبر الله بأنّه غفر له .

٤ ـ وداود عليه السلام تسّرع في الحكم قبل سماع قول الخصم الثاني ، فأسرع إلى التوبة فغفر الله له ذنبه ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ، وَخَرَّ رَاكِعاً ، وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ « سورة ص/٢٤ ـ ٢٥ » .

٥ ـ ونبينا محمد ﷺ عاتبه ربّه في أمور ﴿ يَـأَيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، واللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ « سورة التحريم/١ » نزلت بسبب تحريم الرسول ـ ﷺ ـ العسل على نفسه ، أو تحريم مارية القبطية .

وعاتبه ربّه بسبب عبوسه في وجه الأعمى ابن أم مكتوم ، وانشغاله عنه بطواغيت الكفر يدعوهم إلى الله ، والاقبال على الأعمى الراغب فيما عند الله هو الذي كان ينبغي أن يكون من الرسول ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . . ﴾ « سورة عبس/١ ـ ٤ » .

وقبل الرَّسول ـ ﷺ ـ من أسرى بدر الفدية فأنزل الله تعالى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ « سورة الأنفال/٦٨ » .

هذه أمثلة اكتفينا بذكرها عن غيرها ، وإلّا فقد ورد في القرآن مغاضبة يونس لقومه ، وخروجه من قومه من غير إذن من ربّه ، وما صنعه أولاد يعقوب بأخيهم يوسف في إلقائه في غيابة الجبِّ ، ثمَّ أوحى الله إليهم وجعلهم أنبياء .

القائلون بعصمة الأنبياء من الصغائر

يستعظم بعض الباحثين أن ينسب إلى الأنبياء صغائر الذنوب[١] التي أخبرت نصوص الكتاب والسنة بوقوعها منهم ، ويذهب هؤلاء إلى تهويل الأمر ، ويزعمون أنَّ القول بوقوع مثل هذا منهم فيه طعن بالرسل والأنبياء ، ثمَّ يتمحلون في تأويل النصوص ، وهو تأويل يصل إلى درجة تحريف آيات الكتاب كما يقول ابن تيمية[٢] ، وكان الأحرى بهم تفهم الأمر على حقيقته ، وتقديس نصوص الكتاب والسنة ، واستمداد العقيدة في هذا الأمر وفي كلّ أمر من القرآن وأحاديث الرسول ، وبذلك نحكمها في كل أمر وهذا هو الذي أمرنا به ، أمّا هذا التأويل والتحريف بعد تصريح الكتاب بوقوع مثل ذلك منهم فإنّه تحكيم للهوى ، ونعوذ بالله من ذلك .

وقد انتشرت هذه التأويلات عند الكتاب المحدثين ، وهي تأويلات فاسدة من جنس تأويلات الباطنية والجهمية ، كما يقول ابن تيمية[٣] .

شبهتان [٤]

الذين منعوا من وقوع الصغائر من الأنبياء أوردوا شبهتين :

الأولى : أن الله أمر باتباع الرسل والتأسي بهم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ « سورة الأحزاب / ٢١ » وهذا شأن كل رسول ، والأمر باتباع الرسول

(١) الشيعة الامامية الإثني عشرية مجمعون على عدم وقوع صغائر الذنوب من الأنبياء والأئمة ، راجع عقائد الامامية لمحمد رضا ص ٨٠ ، ٩٥ وعقائد الامامية الإثني عشرية لإبراهيم الموسوي الزنجاني ص ١٥٧ .

(٢) مجموع الفتاوي (١٠/٣١٣) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) ممن أشبع الكلام على هاتين الشبهتين والاجابة عليهما شيخ الإسلام ابن تيمية ، انظر مجموع الفتاوي ١٠/٢٩٣ - ٣١٣ ، ١٥/١٥٠ .

يستلزم ان تكون اعتقاداته وأفعاله وأقواله جميعها طاعات لا محالة ، لأنه لو جاز أن يقع من الرسول معصية لله تعالى لحصل تناقض في واقع الحال ، إذ يقتضي أن يجتمع في هذه المعصية التي وقعت من الرسول الأمر باتباعها وفعلها من حيث كوننا مأمورين بالتأسي بالرسول ﷺ ، والنهي عن موافقتها من حيث كونها معصية منهي عنها ، وهذا تناقض ، فلا يمكن أن يأمر الله عبدا بشيء في حال أنه ينهاه عنه .

وقولهم هذا يكون صحيحا ، لو بقيت معصية الرسول خافية غير ظاهرة ، بحيث تختلط علينا الطاعة بالمعصية ، أمّا وأنَّ الله ينبه رسله وأنبياءَه إلى ما وقع منهم من مخالفات ويوفقهم إلى التوبة منها ، من غير تأخير فإنَّ ما أوردوه لا يصلح دليلا ، بل يكون التأسي بهم في هذا منصبا على الاسراع في التوبة عند وقوع المعصية وعدم التسويف في هذا ، تأسيا بالرسل والأنبياء الكرام في مبادرتهم بالتوبة من غير تأخير .

الثانية : أنَّ هؤلاء توهموا أن الذنوب تنافي الكمال ، وأنها تكون نقصا وإن تاب التائب منها ، وهذا غير صحيح ، فإنَّ التوبة تغفر الحوبة ، ولا تنافي الكمال ، ولا يتوجه الى صاحبها اللوم ، بل إنَّ العبد في كثير من الأحيان يكون بعد توبته من معصيته خيرا منه قبل وقوع المعصية ، وذلك لما يكون في قلبه من الندم والخوف والخشية من الله تعالى ، ولما يجهد به نفسه من الاستغفار والدعاء ، ولما يقوم به من صالح الأعمال يرجو بذلك أن تمحو الصالحات السيئات ، وقد قال بعض السلف : « كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة» ، وقال آخر : « لو لم تكن التوبة أحبَّ الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه » .

وقد ثبت في الصحاح أن الله أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضلته ناقته بأرض فلاة وعليها طعامه وشرابه ، فنام نومة فقام فوجد راحلته فوق رأسه فقال : اللَّهم أنت عبدي وأنا ربّك ، أخطأ من شدّة الفرح .

وفي الكتاب الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

« سورة البقرة/٢٢٢ » وقال تعالى مبينا مثوبة التائبين ﴿ **إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** . . ﴾ « سورة الفرقان/ ٧٠ » .

وفي يوم القيامة يلقي الله على العبد ستره ثم يقرره بذنوبه الصغيرة ، حتى إذا ظن العبد أنّه قد هلك ، قال الله له : فإني قد أبدلتك بها حسنات ، وعند ذلك يطلب العبد رؤ ية الذنوب الكبار التي كان مشفقا منها أن تظهر ، ومعلوم أن حاله هذا مع التبديل أعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبديل .

ومعلوم أنه لم يقع ذنب من نبي إلا وقد سارع إلى التوبة والاستغفار ، يدلنا على هذا أن القرآن لم يذكر ذنوب الأنبياء إلا مقرونة بالتوبة والاستغفار ، فآدم وزوجه عصيا فبادرا بالتوبة قائلين ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ « سورة الأعراف/٢٣ » وما كادت ضربة موسى تسقط القبطي قتيلا حتى سارع طالبا الغفران والرحمة قائلا : ﴿ **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي** ﴾ « سورة القصص/١٦ » . وداود ما كاد يشعر بخطيئته حتى خرّ راكعا مستغفرا ﴿ **فاستغفر ربّه وخرّ راكعا وأناب** ﴾ « سورة ص/٢٤ » .

فالأنبياء لا يقرون على الذنب ، ولا يؤخرون التوبة ، فالله عصمهم من ذلك ، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها .

وبذلك انهارت هاتان الشبهتان ، ولم يثبتا في مجال الحجاج والنقاش ، وحسبنا بالأدلة الواضحة البينة التي تهدي للتي هي أقوم .

المعصية دليل البشرية

الرسل والأنبياء بشر من البشر ، عصمهم الله في تحمل الرسالة وتبليغها ، فلا ينسون شيئا ، ولا ينقصون شيئا ، وبذلك يصل الوحي الذي أنزله الله إلى الذين أرسلوا إليهم كاملا وافيا ، كما أراده الله جلَّ وعلا ، وهذه العصمة لا تلازمهم في كلّ أمورهم فقد تقع منهم المخالفة الصغيرة ، بحكم كونهم بشرا ، ولكنَّ رحمة الله تتداركهم ، فينبههم الله إلى خطئهم ، ويوفقهم للتوبة والأوبة إليه .

يقول الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر : « إنَّ الوحي لا يلازم الأنبياء في كلِّ عمل يصدر عنهم ، وفي كلِّ قول يبدر منهم ، فهم عرضة للخطأ ، يمتازون عن سائر البشر بأنَّ الله لا يقرّهم على الخطأ بعد صدوره ، ويعاتبهم عليه أحياناً »[1] .

تكريم الأنبياء وتوقيرهم

هذه الصغائر التي تقع من الأنبياء لا يجوز أن تتخذ سبيلا للطعن فيهم ، والإزراء عليهم ، فهي أمور صغيرة ومعدودة غفرها الله لهم ، وتجاوز عنها ، وطهرهم منها ، وعلى المسلم أن يأخذ العبرة والعظة لنفسه من هذه ، فإذا كان الرسل الكرام الذين اختارهم الله واصطفاهم عاتبهم الله ولامهم على أمور كهذه - فإنَّه يجب أن نكون على حذر وتخوف من ذنوبنا وآثامنا ، وعلينا أن نتأسى بالرسل والأنبياء في المسارعة الى التوبة والأوبة الى الله ، وكثرة التوجه إليه واستغفاره .

---

(١) حياة محمد لهيكل ، انظر مقدمة الكتاب بقلم الشيخ المراغي ص ١١ .

العصمة لغير الأنبياء

أهل السنة والجماعة لا ينسبون العصمة لغير الأنبياء والمرسلين ، حتى أفضل هذه الأمّة بعد نبيها محمد - ﷺ - الصحابة - رضوان الله عليهم - وفيهم أبو بكر وعمر ليسوا بمعصومين ، وقد قال الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق في أوّل خطبة يخطبها بعد توليه الخلافة : « أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أخطأت فقوموني » ، وعندما اعترضت امرأة على عمر بن الخطاب وجاءت بالدليل قال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

عصمة المعزّ الفاطمي

يزعم أتباع « المعز معد بن تميم » وهو الذي يسميه بعض الناس : المعزّ لدين الله الفاطمي - أنّه معصوم هو وأولاده عن الذنوب والأخطاء .

وهذا الزعم زعم باطل أرادوا به اضلال الناس بتنصيب هذا الطاغية في مقام النبوة لتكون كلمته دينا يتبع ، وإلاّ فإن هذا الذي يسمونه المعزّ ، وأولئك الذين كانوا يسمّون بالفاطميين ليسوا من سلالة فاطمة ، وإنما هم من سلالة عبيد الله القداح ، كانوا يقولون بمثل هذه العصمة لأئمتهم ونحوهم ، مع كونهم كما قال فيهم أبو حامد الغزالي في كتابه الذي صنعه في الردّ عليهم - قال : « ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المحض[1] » .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ٣٢٠/٤ .

عصمة الأئمة

يزعم الشيعة أن أئمتهم الاثني عشر معصومون عن الخطأ ، والعصمة التي ينسبونها لهم هي العصمة التي ينسبونها للأنبياء ، يقول أحد مُقَدَّمي الشيعة المعاصرين مبينا مفهوم عصمة الأئمة عندهم : « الأئمة لا نتصور فيهم السهو أو الغفلة ، ونعتقد فيهم الاحاطة بكلّ ما فيه مصلحة للمسلمين[1] » وينقل إبراهيم الموسوي الزنجاني عن الصدوق قوله : « اعتقادنا في الأنبياء والرسل والأئمة والملائكة أنهم معصومون مطهّرون من كلّ دنس ، وأنهم لا يذنبون ذنبا لا صغيرا ولا كبيرا ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »[2] وهو يكفِّر الذين لا يقولون بعصمة الأئمة ، يقول بعد كلامه السابق مباشرة : « ومن نفى عنهم العصمة في شيء من أحوالهم فقد جهَّلهم ، ومن جهلهم فهو كافر »[3] ، ثمَّ قال : « واعتقادنا فيهم أنهم معصومون موصوفون بالكمال والتمام والعلم من أوائل أمورهم وأواخرها لا يوصفون في شيء من أحوالهم بنقص ولا عصيان »[4] .

وقال المجلسي : « أصحابنا الإمامية أجمعوا على عصمة الأنبياء والأئمة من الذنوب الصغيرة والكبيرة عمدا وخطأً ونسيانا ، قبل النبوة والامامة وبعدهما ، بل من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله تعالى ، ولم يخالف في ذلك إلا الصدوق محمد ابن بابويه وشيخه ابن الوليد ، فإنهما جوزا الإسهاء من الله تعالى لا السهو الذي يكون من الشيطان في غير ما يتعلق بالتبليغ وبيان الاحكام »[5] ، وعصمة الأئمة عندهم مسألة اعتقادية رئيسة ، ولذا فإنهم يكفرون مخالفيهم فيها ، ويترتب عليها أمور كثيرة منها : أنَّ الكلام المنسوب إلى الأئمة يعتبرونه دليلا شرعيا كالقرآن والسنة ، ولذا فإن التشريع لم ينته عندهم بوفاة الرسول ـ ﷺ ـ بل هو مستمّر إلى حين غيبة إمامهم الثاني عشر ، بل يرون أنّه يمكن أن يتلقوا رسائل من الامام

---

(١) الحكومة الإسلامية للخميني ص ٩١ .

(٢) عقائد الإمامية الإثني عشرية ص ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) بحار الأنوار للمولى محمد باقر المجلسي (٢٥/٣٥٠ ـ ٣٥١) (انظر الامامة للسالوس ص ٢١) .

الغائب بواسطة نوّابه .

ومن ذلك أنهم أحقّ بالخلافة من غيرهم ، فهم أحقّ من أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة .

سر العصمة[1]

الأنبياء والرسل معصومون بالوحي ، ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ، إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحى ﴾ « سورة النجم/٣ ـ ٤ » . فما سر عصمة الأئمة ؟ يقول علماء الشيعة الإمامية : إنَّ الله جعل في الأئمة أرواحا يسددهم بها ، فقد عنون الكليني في كتابه أصول الكافي لهذا الموضوع بقوله : « باب فيه ذكر الأرواح التي في الأئمة » (١/٢٧١ ـ ٢٧٢) و « باب الروح التي يسدد الله بها الأئمة » (١/٢٧٣ ـ ٢٧٤) ، وفي هذا الباب ستة أخبار منها عن أبي عبد الله قال في الروح الذي في هذه الآية ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَينا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا ﴾ « سورة الشورى/٥٢ » : خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أعظم من جبريل وميكائيل ، كان مع رسول الله ـ ﷺ ـ يخبره ، ويسدده ، وهو مع الأئمة من بعد .

وفي الباب الأسبق ذكر عن الامام الصادق أن روح القدس خاصة بالأنبياء ، فإذاقبض النبي انتقل روح القدس فصار مع الامام ، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو ، والامام يرى به[2] ، وفي الحاشية فسّر الرؤ ية بقوله : يعني ما غاب عنه في أقطار الارض ، وما في عنان السماء ، وبالجملة ما دون العرش إلى ما تحت الثرى .

وفي كتاب بحار الأنوار للمولى محمد باقر المجلسي (٢٥/٤٧ ـ ٩٩) « باب الأرواح التي فيهم »« أي في الأئمة » وأنهم مؤ يدون بروح القدس وقال ابن بابوية القمي في « رسالة للصدوق في الاعتقادات » (ص ١٠٨ ـ ١٠٩) . . « اعتقادنا

---

(١) النقول المثبتة هنا بمصادرها أخذناها من كتاب الامامة عند الجمهور والفرق المختلفة د . على أحمد السالوس (ص ٢٠) .

(٢) انظر عقائد الامامية الإثني عشرية لإبراهيم الموسوي الزنجاني ص ١٦١ .

في الأخبار الصحيحة عن الأئمة أنها موافقة لكتاب الله ، متفقة المعاني ، غير مختلفة ، لأنها مأخوذة من طريق الوحي عن الله سبحانه » ، وهذا القمي صاحب كتاب « فقيه من لا يحضره الفقيه » أحد كتب الحديث الأربعة المعتمدة عند الجعفرية يقول : « ويرى علماء الشيعة أنَّ النبيَّ إذا لم يوص فإنّه ناقص النبوة والرسالة ، وأنّه قد ضيع أمته »[1] .

ومما يدلُّ على بطلان مدعاهم في الأئمة أنَّ المعصوم يجب اتباعه من غير دليل ، ومخالفة غير المعصوم جائزة ، بل تكون واجبة إذا علمنا أنّه خالف النصَّ ، وقد أمرنا الله بطاعته وطاعة رسوله ، وغير رسوله يطاع إن أمر بطاعة رسوله ، فإن تنازعنا رددنا الأمر إلى كتاب الله وسنة رسوله : ﴿ **يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ « سورة النساء/ ٥٩ » فلو كان الأئمة معصومين لكان أوجب الردّ إلى الله وإلى الرسول والأئمة ، فدلَّ عدم ايجاب الردّ إليهم حال التنازع على عدم عصمتهم .

وقد كان عليّ وابناه وغيرهم يخالف بعضهم بعضا في العلم والفتيا ، كما يخالف سائر أهل العلم بعضهم بعضا ، ولو كانوا معصومين لكان مخالفة المعصوم للمعصوم ممتنعة ، ولقد كان الحسن في أمر القتال يخالف أباه ، ويكره كثيرا مما يفعله ، ويرجع علي في آخر الأمر إلى رأيه ، وتبين له في آخر الأمر أنّه لو فعل غير الذي فعله لكان الصواب ، وله فتاوى رجع ببعضها عن بعض ، والمعصوم لا يكون له قولان متناقضان ، إلا أن يكون أحدهما ناسخا للآخر . وقد وصى الحسن أخاه الحسين بأن لا يطيع أهل العراق ، ولا يطلب هذا الأمر ، ولو كان معصوما لما جاز للحسين مخالفته[2] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١ .

(٢) راجع مجموع الفتاوى ٣٥/١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

الفصل السابع

دَلائِلُ النُّبُوَّةِ



دَلائِلُ النُّبُوَّةِ

تمهيد

الأنبياء الذين ابتعثهم الله إلى عباده يقولون للناس : نحن مرسلون من عند الله ، وعليكم أن تصدقونا فيما نخبركم به ، كما يجب عليكم أن تطيعونا بفعل ما نأمركم به ، وترك ما ننهاكم عنه ، وقد أخبر الله في سورة الشعراء أنَّ نوحاً خاطب قومه قائلاً : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ « سورة الشعراء /١٠٦ ـ ١٠٨ » . وبهذا القول نفسه خاطب رسل الله : هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، أقوامهم ، بل هي مقالة ودعوة كل رسول لقومه .

فإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ أن يقيم الله الدلائل والحجج والبراهين المبينة ، صدق الرسل في دعواهم أنهم رسل الله ؛ كي تقوم الحجّة على الناس ، ولا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ « سورة الحديد/٢٥ » أي بالدلائل والآيات البينات التي تدلُّ على صدقهم .

تنوع الدلائل

أفراد الأدلة الدالة على صدق كل رسول كثيرة متنوعة ، وقد عدّ الذين ألّفُوا في دلائل نبوة نبينا محمد ـ أدلة صدقه فنافت على الألف عند بعضهم ، ويمكننا أن نقسم هذه الأدلة إلى أقسام ، يضمُّ كل قسم منها مجموعة متشابهة ، وقد أرجعنا أفراد الأدلة إلى خمسة أمور :

الأول : الآيات والمعجزات التي يجريها الله تصديقا لرسله .

الثاني : بشارة الأنبياء السابقين بالأنبياء اللاحقين .
الثالث : النظر في أحوال الأنبياء .
الرابع : النظر في دعوة الرسل .
الخامس : نصر الله وتأييده لهم .

وسنتناول كلَّ واحد من هذه الخمسة بشيء من الإيضاح والتفصيل .

اوّلا : الآياتُ وَالمعُجـزات

الآية ـ في لغة العرب ـ العلامة الدالة على الشيء ؛ والمراد بها هنا : ما يجريه الله على أيدي رسله وأنبيائه من أمور خارقة للسنن الكونية المعتادة التي لا قدرة للبشر على الإتيان بمثلها ، كتحويل العصا إلى أفعى تتحرك وتسعى ، فتكون هذه الآية الخارقة للسنة الكونية المعتادة دليلا غير قابل للنقض والإبطال ، يدلُّ على صدقهم فيما جاءوا به .

تعريف الآية والمعجزة

تتابع العلماء على تسمية هذه الآيات بالمعجزات ، والمعجزة ـ في اللغة ـ اسم فاعل مأخوذ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير[1] .

ويعرّف الفخر الرازي المعجزة في العرف : بأنّها أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم عن المعارضة[2] .

ويعرفها ابن حمدان الحنبلي بأنّها ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدي ابتداءً بحيث لا يقدر أحدٌ على مثلها ، ولا على ما يقاربها[3] .

---

(١) بصائر ذوي التمييز ١/٦٥

(٢) لوامع الأنوار البهية ٢/٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

(٣) المصدر السابق .

وعلى ذلك فإنّ الأمور التالية لا تعدّ من باب المعجزات :

١ ـ الخوارق التي تعطى للأنبياء وليس مقصودا بها التحدي ، كنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ ، وتكثيره الطعام القليل ، وتسبيح الحصا في كفّه ، وإتيان الشجر إليه ، وحنين الجذع إليه ، وما أشبه ذلك .

٢ ـ الخوارق التي أعطاها الله لغير الأنبياء ويسميها المتأخرون كرامات .

والذين فرقوا هذا التفريق هم العلماء المتأخرون ، أمّا المعجزة في اللغة وفي عرف العلماء المتقدمين كالامام أحمد فإنّها تشمل ذلك كله[١] .

وقد أطلقنا عليها اسم « الآية » كما جاء بذلك القرآن الكريم ، وهو اسم شاملٌ لكل ما أعطاه الله لأنبيائه للدلالة على صدقهم سواءً أقصد به التحدي أم لم يقصد .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ١١/٣١١ ، ولوامع الأنوار البهية ٢/٢٩٠ .

أنواع الآيات

إذا استقرأنا الآيات والمعجزات التي أعطاها الله لرسله وأنبيائه نجدها تندرج تحت ثلاثة أمور : العلم ، والقدرة ، والغنى[1] .

فالإخبار بالمغيبات الماضية والآتية ، كإخبار عيسى قومه بما يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم ، وإخبار رسولنا ـ ﷺ ـ بأخبار الأمم السابقة ، وإخباره بالفتن وأشراط الساعة التي ستأتي في المستقبل ـ كل ذلك من باب العلم .

وتحويل العصا أفعى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، وشقّ القمر وما أشبه هذا ـ من باب القدرة .

وعصمة الله لرسوله ﷺ من الناس ، وحمايته له ممن أراد به سوءاً ، ومواصلته للصيام مع عدم تأثير ذلك على حيويته ونشاطه من باب الغنى .

وهذه الأمور الثلاثة : العلم ، والقدرة ، والغنى ، التي ترجع إليها المعجزات لا ينبغي أن تكون على وجه الكمال إلاّ لله تعالى ، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ بالبراءة من دعوى هذه الأمور ﴿ **قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ** ﴾ « سورة الأنعام/ ٥٠ » .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ١١/٣١٢ ـ ٣١٣ .

فالرسول ﷺ يبرأ من دعوى علم الغيب ، وملك خزائن الأرض ، ومن كونه ملكا مستغنيا عن الطعام والشراب والمال . والرسل ينالون من هذه الثلاثة المخالفة للعادة المطردة ، أو لعادة أغلب الناس بقدر ما يعطيهم الله تعالى ، فيعلمون من الله ما علمهم إيّاه ، ويقدرون على ما أقدرهم عليه ، ويستغنون بما أغناهم به .

أمثلة من آيات الرسل

١ ـ آية نبي الله صالح

دعا صالح قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا الله ﴾ « سورة النمل /٤٥ » فكذبوه وطلبوا منه آية تدلّ على صدقه ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ « سورة الشعراء/ ١٥٣ ـ ١٥٤ » .

يقول ابن كثير : « ذكر المفسرون أنَّ ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم ، فجاءَهم رسول الله صالح ، فدعاهم إلى الله ، وذكّرهم ، وحذّرهم ، ووعظهم ، وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقة ، من صفتها كيت وكيت ، وذكروا أوصافا سموها ، ونعتوها ، وتعنتوا فيها ، وأن تكون عشراء طويلة ، من صفتها كذا وكذا ، فقال لهم نبيهم صالح عليه السلام : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئت به ، وتصدقوني بما أرسلت به ؟ قالوا : نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثمَّ قام إلى مصلاه فصلّى لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما قدّر له ، ثمَّ دعا ربَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عزَّ وجلَّ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه الذي طلبوا ، أو على الصفة التي نعتوا ، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما ، ومنظرا هائلا ، وقدرة باهرة ، ودليلا قاطعا ، وبرهانا ساطعا ، فآمن كثير منهم ، واستمرَّ أكثرهم على كفرهم [١] وقد ذكر الله استجابته

---

(١) البداية والنهاية ١/١٣٤ .

لطلبهم الآية ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ ، « سورة الشعراء/١٥٥ » ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ، فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ « سورة الأعراف/٧٣ » ، وقد أخبر الله أنها كانت آية واضحة بينة لا خفاء فيها ، ولذا سماها مبصرة ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ « سورة الاسراء/ ٥٩ » .

٢ ـ معجزة إبراهيم عليه السلام

حطّم إبراهيم آلهة قومه التي كانوا يعبدونها ، فأشعلوا له النار ، ورموه فيها ، فأمر الله ـ جلّ وعلا ـ النَّار ألاّ تصيبه بأذى ﴿ **قَالُوا : حَرِّقُوهُ ، وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فاعِلينَ ، قُلْنَا : يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إبْرَاهِيمَ ، وَأرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأخْسَرِينَ** ﴾ . « سورة الأنبياء/٦٨ ـ ٧٠ » .

ومن الآيات التي أجراها على يد إبراهيم إحياء الموتى ، وقد قَصّ الله علينا خبر ذلك : ﴿ **وَإذْ قَالَ إبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيَاً** ﴾ « سورة البقرة/ ٢٦٠ » .

فأمره بذبح هذه الطيور ، ثم تقطيعها ، وتفريقها على عدة جبال ، ثمَّ دعاها فلبت النداء ، واجتمعت الأجزاء المتفرقة ، والتحمت كما كانت من قبل ، ودبت فيها الحياة ، وطارت محلقة في الفضاء فسبحان الله ما أعظم شأنه ، وأجلَّ قدرته .

٣ ـ آيات نبي الله موسى عليه السلام

أعطى الله موسى تسع آيات بينات ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ « سورة الإسراء/ ١٠١ » .

١ ـ وأعظم هذه الآيات وأكبَرها العصا التي كانت تتحول إلى حيَّة عظيمة عندما يلقيها على الأرض ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ قَال : هِيَ عَصَايَ ، أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ، وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ، وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ، قَال : أَلْقِهَا يَا مُوسَى ، فَأَلْقَاهَا ، فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ ، تَسْعَى ، قَالَ : خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى** ﴾ « سورة طه/١٧ ـ ٢١ » .

وكان من شأن هذه العصا أن ابتلعت عشرات من الحبال والعصيّ التي جاء بها سحرة فرعون ليغالبوا موسى ، ﴿ **قَالُوا : يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ، قَالَ : بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا : لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** ﴾ . « سورة طه/٦٥ ـ ٦٩ » .

وعندما عاين السحرة ما فعلته حيَّة موسى ، علموا أنَّ هذا ليس من صنع البشر ، إنّما هو من صنع الله خالق البشر ، فلم يتمالكوا أن خروا أمام الجموع ساجدين لله ربِّ العالمين ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** ﴾ . « سورة طه/٧٠ » .

٢ ـ ومن الآيات التي أرسل بها موسى ما ذكره الله في قوله : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ « سورة طه/٢٢ » ، كان يدخل يده في جيبه (درع قميصه) ، ثمَّ ينزعها ، فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء ، أي من غير برص ، ولا بهق .

وذكر الله سبع آيات في سورة الأعراف ، فقد ذكر الله أنه أصابهم :

٣ ـ بالسنين ، وهي ما أصابهم من الجدب والقحط ، بسبب قلة مياه النيل ، وانحباس المطر عن أرض مصر .

٤ ـ نقص الثمرات ذلك أن الأرض تمنع خيرها ، وما يخرج يصاب بالآفات والجوائح .

٥ ـ الطوفان الذي يتلف المزارع ويهدم المدن والقرى .

٦ ـ الجراد الذي لا يدع خضراء ولا يابسة .

٧ ـ القمّل ، حشرة تؤذي الناس في أجسادهم .

٨ ـ الضفادع التي نغصت عليهم عيشتهم لكثرتها .

٩ ـ الدم الذي يصيب طعامهم وشرابهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ، فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا : لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ،وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ، فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ « سورة الأعراف/١٣٠ ـ ١٣٣ » .

آيات أخرى :

هذه الآيات التسع التي أرسل بها موسى إلى فرعون ، وإلاّ فالآيات التي أجراها الله على يد موسى أكثر من ذلك ، فمن ذلك ضرب موسى البحر بعصاه وانفلاقه ، ومن هذا ضربه الحجر فينفلق عن اثنتي عشرة عينا ، وإنزال المن والسلوى على بني إسرائيل في صحراء سيناء ، وغير ذلك من الآيات .

٤ ـ معجزات نبي الله عيسى عليه السلام

من معجزاته التي أخبرنا الله بها أنّه كان يصنع من الطين ما يشبه الطيور ثمَّ ينفخ فيها فتصبح طيورا بإذن الله وقدرته ، ويمسح الأكمه فيبرأ بإذن الله ، ويمسح الأبرص فيذهب الله عنه برصه ، ويمرُّ على الموتى فيناديهم فيحييهم الله تعالى ، وقد حكى القرآن لنا هذا في قوله تعالى مخاطبا عيسى : ﴿ **وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ، فَتَنْفُخُ فِيهَا ، فَتَكُون طَيْراً بِإِذْنِي ، وَتُبْرِىءُ الْأَكْمَهَ والْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي** ﴾ « سورة المائدة/ ١١٠ » .

ومن آياته تلك المائدة التي أنزلها الله من السماء عندما طلب الحواريون من عيسى إنزالها ، وكانت على الحال التي طلبها عيسى عيداً لأولهم وآخرهم ﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوارِيّونَ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ ، هَـلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ : اتَّقُوا اللّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ، وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ، قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ : اللَّهُمَّ رَبَّنَا ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ، وَآيَةً مِنْكَ ، وَارْزُقْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ، قَالَ اللّهُ : إِنّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ ، فَإِنّي أُعذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ « سورة المائدة/١١٢ ـ ١١٥ » .

٥ ـ آيات خاتم الأنبياء والمرسلين
صلوات الله وسلامه عليه

أجرى الله على يد نبيينا محمد ـ ﷺ ـ معجزات باهرات ، وآيات مبصرات ، إذا نظر فيها مريد الحقّ ، دلّته على أنها شهادة صادقة من الله لرسولهﷺ ، وقد عدّها بعض العلماء فنافت على ألف معجزة ، وقد ألفت فيها مؤلفات ، وتناولها علماء التوحيد والتفسير والحديث والتاريخ بالشرح والبيان .

الآية العظمى

وأعظم الآيات التي أعطيها رسولنا ﷺ ، بل أعظم آيات الرسل كلهّم ـ القرآن الكريم ، والكتاب المبين ، وهو آية تخاطب النفوس والعقول ، آية باقية دائمة الى يوم الدين ، لا يطرأ عليها التغيير ولا التبديل ﴿ وَإنّه لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه ، تَنْزِيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ « سورة فصلت / ٤١ ـ ٤٢ » .

وقد تحدى الله بهذا الكتاب فصحاء العرب ، وقد كانت الفصاحة والبلاغة وجودة القول هي بضاعة العرب التي نبغت بها ، وقد عادى العرب دعوة الإسلام ورسول الإسلام ، وكان مقتل هذه الدعوى أن يعارض فصحاؤ هم هذا الكتاب ، ويأتوا بشيء من مثله ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ﴿ وإنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعوا شُهَدَاءَكُمْ مِن دُونِ اللهِ إن كُنْتُمْ صَادِقِين ، فإنْ لم تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ « سورة البقرة/٢٣ ـ ٢٤ » .

نمط فريد من المعجزات

شاء الله تعالى أن تكون معجزة محمد ﷺ نمطا مخالفا لمعجزات الرسل ، وكان الله قادرا على أن ينزل معجزة حِسيّة تذهل من يَراها : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لها خاضِعِينَ ﴾ « سورة الشعراء/٤ » . فلو شاء الله تعالى لأنزل من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالا ، ولا انصرافا عن الإيمان ، ويصور خضوعهم لهذه الآية في صورة حسيّة : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ « سورة الشعراء/٤ » ملويّة محنيّة ، حتى لكأنَّ هذه هيئة لهم لا تفارقهم ، فهم عليها مقيمون . ولكنه - سبحانه - شاء أن يجعل معجزة هذه الرسالة الأخيرة آية غير قاهرة ، لقد جعل آيتها القرآن ، منهاج حياة كاملة ، معجزا في كلّ ناحية :

معجزا في بنائه التعبيري ، وتنسيقه الفني ، باستقامته على خصائص واحدة ، في مستوى واحد ، لا يختلف ولا يتفاوت ، ولا تتخلف خصائصه ، كما هي الحال في أعمال البشر ، إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد ، المتغير الحالات ، بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد ، ومستوى واحد ، ثابت لا يتخلف ، يدلّ على مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال .

معجزا في بنائه الفكري ، وتناسق أجزائه وتكاملها ، فلا فلتة فيه ولا مصادفة ، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل ، وتحيط بالحياة البشرية ، وتستوعبها ، وتلبيها وتدفعها ، دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهج الشامل الضخم مع جزئية أخرى ، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية ، إذ تقصر عن تلبيتها . . وكلها مشدودة إلى محور واحد ، في اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة ، ولا بد أن تكون هناك خبرة مطلقة ، غير مقيدة بقيود الزمان والمكان ، هي التي أحاطت به هذه الاحاطة ، ونظمته هذا التنظيم .

معجزا في يسر مداخله الى القلوب والنفوس ، ولمس مفاتيحها ، وفتح

مغاليقها ، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها ، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين ، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات ، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة .

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة - ولم يشاء أن ينزل آية قاهرة مادّية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم - ذلك أنَّ هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة إلى الامم كلّها ، وللأجيال كلّها ، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان ، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب ، لكلٍّ أمّة ولكل جيل ، والخوارق القاهرة لا تلوي إلّا أعناق من يشاهدونها ، ثمَّ تبقى بعد ذلك قصّة تروى ، لا واقعا يشهد . . فأمّا القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا كتاب مفتوح ومنهج مرسوم ، يستمدُّ منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم - لو هدوا إلى اتخاذه إمامهم - ويلبي حاجاتهم كاملة ، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل ، وأفق أعلى ، ومصير أمثل ، وسيجد فيه من بعدنا كثيرا مما لم نجده نحن ، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ، ويبقى رصيده لا ينفد ، بل يتجدد[1] .

---

(١) راجع في ظلال القرآن ١٩/٢٥٨٤ .

الإسراء والمعراج

من الآيات البينات والمعجزات الخارقات إسراء الله بنبيّه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث جمع الله له الأنبياء فصلّى بهم إماما ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنا . .** ﴾ « سورة الإسراء/١ » ، ومن هناك عرج به إلى السموات العلا ، وهناك رأى من آيات ربّه الكبرى ، رأى جبريل على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها ، وصعد به إلى سدرة المنتهى ، وجاوز السبع الطباق وكلّمه الرحمن وقربه ﴿**أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ، وَلَقَدْ رآه نَزْلَة أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى ، عِنْدها جَنَّةُ الْمأْوَى ، إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، لَقَدْ رَأَى مِن آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرى**﴾ « سورة النجم/١٢ ـ ١٨ » .

وقد استعظمت قريش دعوى رسول الله ـ ﷺ ـ فقد كانت القوافل تمضي الأسابيع في الذهاب الى بيت المقدس والعودة منها ، فكيف يتسنى لرجل أن يمضي ويعود في جزء من ليلة ! ذلك أمر عجيب ، وهو حقّاً عجيب ، ولكن العجب يتلاشى إذا علمنا أنَّ الذي أسرى به هو الله تعالى ، والله على كلّ شيء قدير .

انشقاق القمر

ومن معجزاته ﷺ انشقاق القمر ، فقد سأل أهل مكة الرسول - ﷺ - آية ، فانشق القمر شقين ، حتى رأوا حراء بينهما ، وقد كان القمر عند انشقاقه بدرا .

وقد سجّل الله ذكر هذه الآية في كتابه ، فقال : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ، وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ ﴾« سورة القمر/١ - ٢ » .

وينقل ابن كثير اجماع المسلمين على وقوع هذه الآية ، كما يذكر أنّه قد وردت الأحاديث بذكر انشقاق القمر متواترة من طرق متعددة تفيد القطع[١] .

وقد شاهد هذه المعجزة الناس في أنحاء الجزيرة العربية ، فإنَّ أهل مكة لم يصدقوا ، وقالوا : سحرنا محمد ، ثمَّ استدركوا قائلين : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإنَّ محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلَّهم ، وفي اليوم التالي سألوا من وفد إليهم ، من خارج مكّة ، فأخبروا أنَّهم قد رأوه .

وقد شاهد الناس انشقاقه في خارج الجزيرة العربية ، يقول ابن كثير : « شوهد انشقاقه في كثير من بقاع الارض ، ويقال : إنّه أرخ ذلك في بعض بلاد الهند ، وبنى بناء في تلك الليلة ، وأرخ بليلة انشقاق القمر »[٢] .

---

(١) البداية والنهاية ١١٨/٣ .

(٢) البداية والنهاية ١٢٠/٣ .

قد يقال « إن انشقاق القمر ليس شيئا مستحيلا ، فالعلم قد شاهد انشقاق مذنب بروكس » شقين سنة ١٨٨٩ م ، وكذلك انقسام مذنب « بيلا » إلى جزئين سنة ١٨٤٦ م ، كما ذكر الفلكي « سبنسر جونز » في فصل المذنبات والشهب من كتاب « عوالم بلا نهاية »[١] .

وفي الاجابة يقال : « الفرق بين انشقاق القمر وانشقاق هذين المذنبين أنهما لم يلتئما بعد الانشقاق ، والقمر التأم ، وهو الفرق المنتظر بين الظاهرة الفلكية في الفطرة والمعجزة الفلكية على يد رسول ، لأنَّ المعجزة مؤقتة تزول بزوال وقتها وتحقق الغرض منها ، ولو استمرت لكانت ظاهرة طبيعية صرفة ، ولخرجت عن دائرة المعجزات »[٢].

---

(١) المصدر السابق ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ١٣١ .

تكثيره الطعام صلوات الله وسلامه عليه

وقد وقع هذا منه ﷺ أكثر من مرة ، فمن ذلك ما رواه أنس ، قال : قال أبو طلحة لأمِّ سليم ، لقد سمعت صوت رسول الله ـ ﷺ ـ ضعيفا ، أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شيء ؟ فقالت : نعم ، فأخرجت أقراصا من شعير ، ثمَّ أخرجت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه ، ثمَّ دسته تحت يدي ، ولاثتني[1] ببعضه ، ثمَّ أرسلتني إلى رسول الله ﷺ ، فذهبت به ، فوجدت رسول الله ـ ﷺ ـ في المسجد والناس معه ، فقمت عليهم ، فقال لي رسول الله ﷺ : « أرسلك أبو طلحة » ؟ قلت : نعم ، قال : « بطعام » ؟ قلت : نعم ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لمن معه : « قوموا » فانطلق ، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة ، فأخبرته ، فقال أبو طلحة : يا أمَّ سليم ، قد جاء رسول الله ـ ﷺ ـ بالنّاس ، وليس عندنا ما نطعمهم ، فقالت : الله ورسوله أعلم .

فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ ، فأقبل رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله ﷺ : « هلمي يا أمَّ سليم ، ما عندك » ؟ فأتت بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله ﷺ ، ففت ، وعصرت أم سليم عكة ، فأدَمَتْهُ ، ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيه ما شاء الله أن يقول ، ثمَّ قال : « ائذن لعشرة » ، فأذن لهم ، فأكلوا ، حتى شبعوا ، ثمَّ قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم ، فأكلوا ، حتى شبعوا ، ثمَّ خرجوا ، ثمَّ قال : « ائذن لعشرة » ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ،

(١) لاثتني : أي لفت عليّ بعض الخمار عمامة .

ثمّ خرجوا ، ثمّ قال : « ائذن لعشرة » فأكل القوم كلهم ، وشبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا » متفق عليه[1] .

خبر جابر بن عبد الله :

ومن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله قال : انكفأت إلى امرأتي [في يوم الخندق] فقلت : هل عندك شيء ! فإني رأيت بالنبيّ ﷺ خمصا « جوعا » شديدا ، فأخرجت جرابا فيه صاع من شعير ، ولنا بهمة داجن « سمينة » فذبحتها ، وطحنت الشعير ، حتى جعلنا اللحم في البرمة ، (القدر) ثم جئت النبي - ﷺ - فساررته ، فقلت : يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا ، وطحنت صاعا من شعير ، فتعال أنت ونفر معك ، فصاح النبيُّ ﷺ : « يا أهل الخندق ، إنَّ جابرا صنع سُورا « طعاماً » فحي هلا بكم » .

فقال رسول الله ﷺ : « لا تنزلنَّ برمتكم ، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء ، وجاء ، فأخرجت له عجينا ، فبصق فيه ، وبارك (دعا بالبركة فيه) ثمَّ عمد إلى برمتنا ، فبصق ، وبارك ، ثمَّ قال : ادعي خابزة ، فلتخبز معك ، واقدحي « اغرفي » من برمتكم ، ولا تنزلوها ، وهم ألف ، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغِطّ « تفور وتغلي » كما هي ، وإنَّ عجيننا ليخبز كما هو » متفق عليه[2] .

---

(١) مشكاة المصابيح (٣/١٨٢) .
(٢) مشكاة المصابيح (٣/١٦٨) .

تكثيره الماء ونبعه من بين أصابعه الشريفة

وقد وقع من هذا شيء كثير من الرسول ﷺ ، نذكر طرفا منه ، فمن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله ، قال عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله ﷺ بين يديه رَكوة (ظرف للماء) فتوضأ منها ، ثمَّ أقبل الناس نحوه ، قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ به ، ونشرب إلا ما في ركوتك ، فوضع النبي - ﷺ - يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، قال : فشربنا ، وتوضأنا . قيل لجابر : كم كنتم ؟ قال لو كنّا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة » متفق عليه[1] .

ومن ذلك تكثيره ماء بئر الحديبية في يوم الحديبية ، فقد روى البراء بن عازب قال : كنّـا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائةِ يوم الحديبية ، والحديبية بئر ، فنزحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ النبيّ ﷺ ، فأتاها . فجلس على شفيرها (طرفها) ، ثمَّ دعا بإناء من ماء ، فتوضأ ، ثمَّ مضمض ، ودعا ، ثمَّ صبّه ، فيها ، ثم قال : « دعوها ساعة » ، فأرووا أنفسهم وركابهم ، حتى ارتحلوا » رواه البخاري[2] .

وعن عبد الله بن مسعود قال : كنّا نعدُّ الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفاً ، كنّا مع النبيّ ﷺ في سفر فقلَّ الماء فقال : « اطلبوا فضلة من ماءٍ » فجاءوا بإناء فيه قليل من الماء ، فأدخل يده في الإناء ، ثمَّ قال : « حيَّ على الطَّهور المبارك ، والبركة من الله » ولقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ، ولقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يأكل » رواه البخاري .

---

(١) انظر مشكاة المصابيح (٣/١٧٠) .

(٢) مشكاة المصابيح (٣/١٧٠) .

كف الأعداء عنه

فمن ذلك استجابة الله دعاء نبيه ـ ﷺ ـ عندما كان مهاجرا ، وأدركه سراقة بن مالك ، فارتطمت بسراقة فرسه إلى بطنها في أرض صلبة ، فقال سراقة : إني أراكما قد دعوتما عليَّ ، فادعوا لي ، فالله لكما أن أردّ عنكما الطلب ، فدعا له النبي ـ ﷺ ـ فنجا ، فجعل لا يلقى أحدا إلّا قال : كفيتم ، ما ههنا ، فلا يلقى أحدا إلّا ردّه . متفق عليه[1] .

وفي معركة حنين انهزم المسلمون وثبت الرسول ـ ﷺ ـ وقلّة من المؤمنين أولئك الذين بايعوا تحت الشجرة ، فلّما حمى الوطيس ، أخذ صلوات الله وسلامه عليه حصيات ، فرمى بهنَّ وجوه الكفار ، ثمَّ قال : « انهزموا وربَّ محمد » يقول العباس راوي الحديث : فوالله ما هو إلّا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حدّهم كليلا ، وأمرهم مدبرا . رواه مسلم[2] .

وفي رواية سلمة بن الأكوع ، قال : غزونا مع رسول الله ﷺحنيناً ، فولّى صحابة رسول الله ﷺ ، فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ، ثمَّ قبض قبضة من تراب الأرض ، ثمَّ استقبل به وجوههم ، فقال : « شاهت الوجوه » ، فما خلق الله منهم إنسانا إلّا ملأ الله عينيه ترابا بتلك القبضة ، فولوا مدبرين ، فهزمهم الله ، وقسم رسول ـ ﷺ ـ غنائمهم بين المسلمين » رواه مسلم[3] .

---

(١) مشكاة المصابيح (٣/١٦٦) .

(٢) مشكاة المصابيح (٣/١٧٢) .

(٣) المصدر السابق .

ومن ذلك أن أبا جهل حلف باللات والعزى أنه لو رأى الرسول ﷺ يصلي في المسجد حيث مجامع قريش أن يطأ على رقبته ، أو ليعفرن وجهه في التراب ، فلما رأى الرسول - ﷺ - ساجدا ، أراد أن يفعل ما أقسم عليه ، فلما اقترب منه « مافجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه ، فقيل له : مالك ؟ فقال : إنَّ بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة » .

فقال رسول الله ﷺ : « لو دنا مني لأختطفته الملائكة عضوا عضوا » رواه مسلم[1] .

(١) جامع الأصول (١٢/٩٤) .

اجابة دعوته[1]

اهتداء أم أبي هريرة بدعوة الرسول ﷺ :

عن أبي هريرة قال : كنت أدعو أميَّ إلى الإسلام وهي مشركة ، فدعوتها يوما ، فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول الله - ﷺ - وأنا أبكي ، قلت : يا رسول الله ادع الله أن يهدي أمَّ أبي هريرة ، فقال : « اللهمَّ اهد أم أبي هريرة » فخرجت مستبشرا بدعوة النبي - ﷺ - فلمّا صرت على الباب فإذا هو مجاف[2]،فسمعت أمّي خشف قدمي ، فقالت : مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة[3] الماء ، فاغتسلت ، فلبست درعها ، وعجلت عن خمارها ، ففتحت الباب ، ثمَّ قالت : يا أبا هريرة : أشهد أنْ لا إله إلاّ الله ، وأشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله ، فرجعت إلى رسول الله ، وأنا أبكي من الفرح ، فحمد الله وقال خيراً[4] .

---

(١) انظر هذه النصوص في كتاب معجزات المصطفى لخير الدين وانلي ص ٦١ .

(٢) مردود .

(٣) تحريك .

(٤) رواه مسلم .

أصبح بدعوته فارسا :

عن جرير بن عبد الله قال : قالَ لي رسول الله ﷺ « ألا تريحني[1] من ذي الخَلَصةِ[2] ؟ » فقلتُ : بلى . وكنتُ لا أثبت على الخيلِ فذكرتُ ذلكَ للنبيِّ ﷺ ، فضربَ يدَه على صدري حتى رأيتُ أثرَ يدهِ في صدري وقال : « اللهمَّ ثبْته واجعلْه هادياً مهديّاً » قال : فما وقعتُ عن فرسي بعدُ ، فانطلقَ في مائةٍ وخمسين فارساً من أحمس[3] فحرَقَها[4] بالنارِ وكسرَها[5] .

وعن أنس قال : أصابتِ الناسَ سنةٌ على عهدِ رسولِ الله ﷺ فبينا النبيُّ ﷺ يخطبُ في يومِ الجمعةِ قام أعرابيٌّ فقالَ : يا رسولَ الله هلَكَ المالُ ، وجاعَ العيالُ فادعُ اللّهَ لنا . فرفعَ يديْهِ وما نرى في السماءِ قَزَعةً[6] فوالذي نفسي بيدهِ ما وضعَها حتى ثارَ السحابُ أمثالَ الجبالِ ، ثم لم ينزلْ عن منبرهِ حتى رأيتُ المطرَ يتحادَرُ على لحيتهِ ، فمُطِرْنا يومَنا ذلك ، ومن الغدِ ، ومن بعدِ الغدِ حتى الجمعةِ الأخرى ، وقامَ ذلكَ الأعرابي ـ أو غيرهُ ـ فقالَ : يا رسولَ الله تهدَّمَ البناء وغرقَ المالُ فادعُ الله لنا . فرفعَ يديْه فقال : «اللهم حواليْنا ولا علينا » فما يُشيرُ الى ناحيةٍ من السحاب إلا انجابت وصارتْ المدينةُ[7] مثلَ الجوبةِ[8] وسال وادي قناة شهراً ولم يجيءْ أحدٌ من ناحيةٍ إلا حدّثَ بالجَوْدِ .

وفي رواية قال :« اللهم حوالَيْنا ولا علينا اللهمَ على الآكامِ والظِرابِ[9] وبطونِ الأوديةِ ومنابتِ الشجرِ » قال : فأقلعتْ وخرجنا نمشي في الشمسِ[10].

---

(١) تخلصني .

(٢) بيت لطاغية خثعم وكان يدعى كعبة اليمامة .

(٣) اي من قوم قريش . والاحمس الشجاع .

(٤) اي كعبة اليمامة

(٥) متفق عليه .

(٦) قطعة من السحاب .

(٧) اي جوها .

(٨) الفرجة في السحاب .

(٩) الروابي

(١٠)متفق عليه .

أصابت الدعوة يد مستكبر

وعن سلمة بن الأكوع أنَّ رجلاً أكلَ عندَ رسولِ الله ﷺ بشمالهِ فقال : « كُل بيمينك » قال : لا أستطيعُ . قال : « لا استَطعْتَ » ما مَنَعه إلا الكبْرُ . قالَ[1] : فما رفعَها إلى فيهِ[2] .

بركة دعوة الرسول ﷺ تصيب بعير جابر :

وعن جابرٍ قال : غزوتُ مع رسولِ الله ﷺ وأنا على ناضحٍ[3] قد أعيَى ، فلا يكادُ يسيرُ فتلاحَقَ[4] بيَ النبيُّ ﷺ فقال : « ما لبعيرِكَ ؟ » قلتُ قد عَيي ، فتخلفَ رسولُ الله ﷺ فزجرَه فدعا له ، فما زال بينَ يدي الابلِ قدّامها يسيرُ . فقال لي : « كيف تَرى بعيركَ ؟ » قلتُ : بخيرٍ قد أصابتْه بركتُك . قال : « أفتبيعنيه بوقيةٍ ؟ » فبعتُه على أنَّ لي فقارَ ظهرِه[5] إلى المدينةِ . فلما قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ غدوتُ عليه بالبعيرِ فأعطاني ثمنَه وردَّه عليّ[6] .

---

(١) اي سلمة .

(٢) رواه مسلم

(٣) بعير يستقي عليه .

(٤) لحق

(٥) اي ركوب ظهره .

(٦) متفق عليه .

إبراء المرضى[1]

إبراؤه من كسرت رجله :

عن البراء قال : بعثَ النبيُّ ﷺ رهْطاً إلى أبي رافعٍ[2] فدخل عليه عبدُ الله بنُ عتيكٍ بيتَه ليلاً وهو نائمٌ فقتلَه فقالَ عبدُ الله بنُ عتيك : فوضعتُ السيفَ في بطنهِ حتى أخذَ في ظهرِه فعرفتُ أني قتلتُهُ فرجعتُ أفتحُ الأبوابَ حتى انهيتُ إلى درجةٍ فوضعتُ رجلي فوقعتْ في ليلة مقمرةٍ فانكسرتْ ساقي ، فعصبتُها بعمامةٍ فانطلقتُ إلى أصحابي فانتهيتُ إلى النبيِّ ﷺ فحدثتهُ فقالَ : ابسطْ رجلَكَ فبسطتُ رجلي فمسَحها فكأنما لم أشتكِها قَطُّ[3] .

إبراؤه عين علي بن أبي طالب :

وعن سهلِ بن سعدٍ أن رسولَ الله ﷺ قالَ يومَ خيبر : لأُعطينَ هذه الراية غداً رجلاً يفتحُ الله على يديْه ، يحبُّ اللهَ ورسولَه ويحبُّه الله ورسولُهُ » فلما أصبحَ الناسُ غَدوا على رسولِ الله ﷺ كلُّهم يرجو أنْ يُعطاها فقال : « أَين عليُّ بنُ أبي طالبٍ ؟ » فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيهْ ، قال : « فأرسلوا إليه » فأُتيَ به فَبصقَ رسول الله في عينيه فَبَرَأَ حتى كأنْ لم يكنْ بهِ وجعٌ ، فأعطاهُ الرايةَ فقال عليٌّ : يا رسولَ الله أقاتلُهم حتى يكونوا مثلَنا ؟ قال : « انفُذْ على رسلك[4] حتى

---

(١) راجع معجزات المصطفى لخير الدين وائلي .

(٢) اليهودي وكان أعدى أعداء رسول الله ﷺ وقد نبذ عهده وتعرض له بالهجاء .

(٣) رواه البخاري .

(٤) اي امضِ على رفقك ولينك .

تنزلَ بساحتِهم ثم ادعُهم إلى الاسلامِ وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه ، فوالله لأنْ يهديَ اللّهُ بكَ رجلًا واحداً خيرٌ لك منْ أنْ يكونَ لكَ حمرُ النَّعَمِ (١) .

ساق سلمة بن الأكوع :

وعن يزيد بن أبي عبيدٍ قال : رأيتُ أثرَ ضربةٍ في ساقِ سلمةَ بـنِ الأكوعِ فقلتُ : يا أبا مسلمٍ ما هذه الضربةُ ؟ قال : ضربةٌ أصابتني يومَ خيبر فقالَ الناسُ : أصيبَ سلمةُ فأتيتُ النبيَّ ﷺ فنفثَ فيه ثلاثَ نفثاتٍ فما اشتكيتُها حتى الساعةِ (٢) .

إخراجه الجن من المصروع :

وعن يعلى بن مرة الثقفي قال :

سرْنا مع رسولِ الله ﷺ فمررنا بماءٍ فأتتهُ امرأةٌ بابنٍ لها به جنةٌ فأخذَ النبيُّ ﷺ بمنخرِهِ ثم قال : « اخرجْ فإني محمدٌ رسولُ اللّهِ » ثم سرْنا فلما رجعنا مررْنا بذلك الماء فسألَها عن الصبيِّ فقالتْ : والذي بعثَك بالحقِّ ما رأيْنا منه ريْباً بعدكَ (٣) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه في شرح السنة ورواه الامام أحمد في مسنده (٤/١٧٢) بسند صحيح كما في المشكاة (٣/١٨٨) بتحقيق شيخنا محمد ناصر الدين الألباني .

إخباره بالأمور الغيبية

فمن ذلك إخباره عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وإخباره عن الملائكة وصفاتهم ، واخباره عن عالم الجن ، وعن الجنّة والنار ، ومن ذلك اخباره عن الحوادث التي وقعت ، كما أخبر عن آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والرسل ، وما جرى بينهم وبين أقوامهم ، وهو حديث فيه تفصيل وبيان ، ومثل هذا لا يتأتى من رجل أميّ لم يكن كاتبا ولا قارئا ، ولم يخالط الذين درسوا تاريخ الأمم وعرفوا أخبارها ، ثمّ هو يأتي بأخبار لم يبلغها علم الأمم ، وأخبار يكتمها علماء أهل الكتاب ، ويصحح لهم كثيرا مما عندهم ، وكل ذلك دليل على أنّه إنما جاء بهذه العلوم من العليم الخبير ، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ « سورة هود/ ٤٩ » .

وقد أشار القرآن إلى هذا الدليل في عدة مواضع ، فمن ذلك قوله في سياق قصة مريم ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ « سورة آل عمران/ ٤٤ » .

وفي سياق قصة موسى ، قال : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ « سورة القصص/ ٤٦ » .

وقد كان يخبر الأخبار المغيبة التي وقعت في حينها ، فقد أخبر باستشهاد قادة المسلمين الثلاثة في معركة مؤتة وباستلام خالد بن الوليد الراية من بعدهم في

اليوم الذي وقع فيه الحدث ، رواه البخاري[1] .

وعندما توفي النجاشي أخبر بوفاته في نفس اليوم ، وكذلك عندما توفي كسرى .

ومن ذلك اخباره بالغيوب المستقبلية ، وبعض هذه الأخبار كان يقع ويتحقق في الحال أو بعد فترة وجيزه .

فمن ذلك أنّه أخبر بالمواضع التي سيصرع فيها صناديد الكفر قبل وقوع معركة بدر ، عن أنس رضي الله عنه ، قال : « فندب رسول الله ﷺ الناس ، فانطلقوا حتى نزلوا بدرا ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض ههنا وههنا ، قال : فما ماط (أي ما بعد ، وما تجاوز) أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ ، رواه مسلم[2] .

ومن هذه الغيوب التي أخبر بها ما وقع بعد وفاته ، فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » رواه البخاري ومسلم والترمذي[3] . وقد وقع الأمر كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه .

وقد أكثر الرسول - ﷺ - من الإخبار مما سيقع في مقبل الزمان ، قال حذيفة ابن اليمان : قام فينا رسول الله ﷺ مقاما ، فما ترك شيئا يكون من قيامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدّثه ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابي هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته ، فأراه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه » رواه البخاري ومسلم وأبو داود[4].

ومن ذلك ما أخبر به من الفتن وأشراط الساعة وغير ذلك ، وقد تكفلت بذكرها كتب الحديث .

---

(١) مشكاة المصابيح (١٧٢/١)
(٢) مشكاة المصابيح (١٦٧/٣)
(٣) جامع الأصول (٥٩/١٢)
(٤) جامع الأصول (٦٣/١٢)

حنين الجذع

في صحيح البخاري وغيره « كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه ، فحنّ الجذع ، فأتاه فمسح عليه » وفي رواية عند البخاري أيضا « فلما وضع المنبر : سمعنا للجذع مثل صوت العشار ، حتى نزل رسول الله ﷺ فوضع يده عليه »[1] .

---

(١) جامع الأصول (٦٨/١٢)

انقياد الشجر وتسليمه وكلامه[1]

عن جابر قال : سرْنا مع رسولِ اللهِ ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيحَ [2]، فذهبَ رسولُ الله ﷺ يقضي حاجتَه فلم ير شيئاً يستَتِرُ به ، وإذا شجرتين[3] بشاطِىءِ الوادي فانطلقَ رسولُ الله ﷺ إلى إحداهما فأخذَ بغصنٍ من أغصانِها فقال : « انقادي عليَّ بإذنِ اللهِ » فانقادتْ معه كالبعيرِ المخشوشِ [4] الذي يصانعُ قائدَه ، حتى أَتى الشجرةَ الأُخرى فأخذَ بغصنٍ من أغصانِها فقال : « انقادي عليَّ بإذنِ الله » فانقادتْ معه كذلك ، حتى إذا كان بالمنصَفِ[5] مما بينهما قالَ : « التئما عليَّ بإذن الله » فالتأَمتا ، فجلستُ أحدثُ نفسي فحانتْ مني لفتةٌ فإذا برسولِ الله ﷺ مقبلاً ، وإذا بالشجرتينِ قد افترقتا فقامت كل واحدةٍ منهما على ساقٍ[6] .

وعن يَعلى بن مُرةَ الثقفيِّ قال :

سرْنا مع رسولِ الله ﷺ حتى نزلنا منزلاً فنامَ النبيُّ ﷺ فجاءتْ شجرةٌ تشقُّ الأرضَ حتى غشيتْه ثم رجعتْ إلى مكانِها ، فلما استيقظَ رسولُ الله ﷺ ذكرتُ له

---

(١) من كتاب معجزات المصطفى ص ٨٤ .

(٢) واسع

(٣) اي فوجد شجرتين .

(٤) هو الذي في أنفه الخشاش وهو عويدة تجعل في أنف البعير ليكون أسرع انقيادا .

(٥) الموضع الوسط

(٦) رواه مسلم .

فقال : هي شجرةٌ استأذنتْ ربَّها في أنْ تسلِّمَ على رسولِ الله ﷺ فأُذِنَ لها[1].

وعن أنس قال : جاءَ جبريلُ إلى النبي ﷺ وهو جالسٌ حزينٌ قد تخضَّبَ بالدم من فعلِ أهلِ مكةَ فقال يا رسولَ اللهِ هل تحبُّ أن نريكَ آيةً ؟ قال : نعمْ . فنظرَ إلى شجرةٍ من ورائِه فقال : ادعُ بها . فدعا بها فجاءتْ فقامتْ بين يديْه فقال : مرْها فلترجعْ فأمرها فرجعَتْ . فقالَ رسول الله ﷺ : « حسبي حسبي »[2].

وعن ابن عباس قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقالَ : بمَ أعرفُ انكَ نبيٌّ ؟ قال : « إن دعوتُ هذا العذَقَ[3] من هذه النخلةِ يشهدُ أني رسولُ الله » . فدعاه رسولُ الله ﷺ فجعلَ ينزلُ من النخلةِ حتى سقطَ إلى النبي ﷺ ثم قال : « ارجعْ » فعادَ ، فأسلم الأعرابي[4] .

وعن حق بنِ عبد الرحمن قال سمعتُ أبي قال : سألتُ مسروقاً: مَنْ آذن[5] النبيَّ ﷺ بالجنِّ ليلةَ استمعوا القرآن قال : حدثني أبوكَ - يعني عَبد الله بن مسعود - أنه قال : آذَنتْ بهم شجرةٌ[6].

وعن ابنِ عمرَ قال : كنا مع النبيِّ ﷺ في سفرٍ فأقبلَ أعرابيٌّ فلما دنا قالَ له رسولُ الله ﷺ : تشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ؟ قالَ : ومنْ يشهدُ على ما تقولُ ؟ قال : هذه السَّلَمةُ[7] فدعاها رسولُ اللهِ ﷺ وهو بشاطيءِ الوادي فأقبلَتْ تخدُّ[8] الأرض حتى قامت بين يديْه فاستشهدَها ثلاثاً فشهدَت ثلاثاً أنه كما قال ثم رجعتْ إلى منبتها[9] .

---

(١) رواه في شرح السنة ورواه أيضاً أحمد وسنده ضعيف لكن له شاهد من حديث جابر رواه الدارمي (١/ ١٠) فالقصة صحيحة كما قال شيخنا الألباني في التعليق على المشكاة (١٨٨/٣)

(٢) رواه الدارمي وإسناده صحيح كما في المشكاة (١٨٨/٣)

(٣) العنقود .

(٤) رواه الترمذي وصححه .

(٥) اي اعلم .

(٦) متفق عليه .

(٧) شجرة من أشجار البادية .

(٨) تشق .

(٩) رواه الدارمي واسناده صحيح كما قال شيخنا محمد ناصر الدين الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح (١٨٩/٣) .

تسليم الحجر

عن جابر بن سَمُرَةَ قالَ قالَ رسولُ الله ﷺ :

إني لأعرفُ حجراً بمكةَ كانَ يسلمُ عليَّ قبلَ أنْ أبعثَ إني لأعرفُهُ الآنَ[1] .

شكوى البعير

عن يعلى بن مرة الثقفي قال :

« بينا نحنُ نسيرُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ إذ مررْنا ببعيرٍ يُسْنَى[2] عليه ، فلما رآهُ البعيرُ جَرْجَرَ[3] فوضعَ جرانَه[4] فوقفَ عليه النبيُّ ﷺ فقال أين صاحبُ هذا البعير ؟ فجاءه فقال : « بِعْنِيهِ » فقال بل نَهبُهُ لكَ يا رسولَ اللهِ ، وإنهُ لأهلِ بيتٍ ما لَهُمْ معيشةٌ غيرُهُ .

قال : أما إذ ذكرتَ هذا من أمره ، فانَّهُ شكا كِثْرَةَ العملِ وقلةَ العلفِ ، فأحسنوا إليه[5] .

وعن عبد اللهِ بن جعفرٍ قال : أردفني رسولُ اللهِ ﷺ خلفَه ذاتَ يومٍ فأسرَّ إليَّ حديثاً لا أُحدثُ به أحداً من الناس ، وكانَ أحبَّ ما استترَ به رسولُ اللهِ ﷺ لحاجتِهِ[6] هدفٌ او حائشُ[7] نخلٍ . فدخلَ حائطاً لرجلٍ من الأنصارِ فإذا جملٌ فلما رأى النبيَّ ﷺ حنَّ وذرفتْ عيناه فأتاهُ النبيُّ ﷺ فمسَحَ سراته[8] الى سنامِهِ

---

(١) رواه مسلم والترمذي .

(٢) اي يستقى عليه

(٣) صاح وردد صوته في حلقه .

(٤) مقدم عنقه وقيل باطن عنقه .

(٥) رواه في شرح السنة ورواه احمد وسنده ضعيف لكن له شاهد من حديث جابر رواه الدارمي (١٠/١) فالقصة صحيحة كما قال شيخنا الالباني في المشكاة (١٨٨/٣) .

(٦) كجدار وشجرة .

(٧) اشجار مجتمعة .

(٨) السراة : الظهر .

وذفراهُ[1] . فَسَكَنَ فقالَ : مَنْ ربُّ هذا الجمَلِ ؟ لمن هذا الجملُ ؟ فجاءه فتىً من الأنصارِ فقال : لي يا رسولَ اللهِ . فقال : أفلا تتقي اللهَ في هذه البهيمةِ التي ملَّكَكَ اللهُ إياها ؟ فإنه شكا إليَّ أنَّكَ تُجيعُهُ وتُدئِبُهُ[2] .

---

(١) عظم خلف الأذن .

(٢) اي تتعبه والحديث رواه ابو داود والحاكم واحمد وابن عساكر واللفظ له واسناده صحيح على شرط مسلم فقد اخرجه بهذا الاسناد دون قصة الجمل (وراجع الاحاديث الصحيحة لشيخنا الألباني ١/٢٨) .

الخوارق من غير الأنبياء

كرامات الأولياء

من أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات[1] الأولياء ، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات ، وأنواع القدرة والتأثيرات[2] .

وقد أنكر طوائف من المسلمين كرامات الأولياء ، ومن هؤلاء المعتزلة وحجتهم في دعواهم أنَّ خرق العادة لو صحَّ من غير الأنبياء لالتبس النبيّ بالوليّ ، ولم تكن المعجزة دليلاً على صدق الأنبياء[3].

وقولهم هذا مردود ، لأنَّ من كرامات الأولياء ما حدّث به القرآن ، وصحَّ ذكره في الأحاديث الصحيحة ، وتواتر النقل به ، والنّاس يشاهدون شيئا منه في كل عصر ومصر .

والشبهة التي جاؤوا بها إنّما تصحُّ إذا كان الولي يأتي بالخارق ويدَّعي النبوة ، وهذا لا يقع ، ولو ادّعى النبوة لم يكن وليّاً بل كان متنبئا كذابا[4]، وقد أنكر الإمام أحمد على الذين نفوا كرامات الأنبياء ، ولم يصدقوا بها ، وضلَّلهم[5] .

---

(١) يعرف علماء التوحيد الكرامة بأنها أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ، ولا هو مقدمة لها ، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته ، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح ، علم بها ذلك العبد أم لم يعلم (لوامع الأنوار البهية ٢/٣٩٣) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/١٥٦ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٦٣

(٤) المصدر السابق .

(٥) لوامع الأنوار البهية ٢/٣٩٣ .

حكمة اعطاء الكرامة للولي

يعطي الله بعض عباده أمورا خارقة للعادة إكراما لهم لصلاحهم وقوة إيمانهم ، وقديكون ذلك سدّا لحاجتهم ، كالحاجة للطعام والشراب والأمن ، وقد يعطيهم ذلك لنصرة دينه ، ورفعة كلمته ، احقاقا للحق وابطالا للباطل[1].

فمن ذلك ما حدثنا به القرآن الكريم من شأن مريم ، فقد كان يوجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ، قَالَ : يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ « سورة آل عمران/٣٧ » .

ومن ذلك ما جرى لأصحاب الكهف حيث ضرب الله على آذانهم في الكهف ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا ، وحفظ الله أجسادهم تلك الدهور المتطاولة على النحو الذي حدثنا عنه في سورة الكهف .

ومن ذلك ما وقع لصحابة رسول الله ﷺ .

نور في العصا

فمن هؤلاء أسيد بن حُضير ، وعباد بن بشر تحدَّثا عند النبيِّ ﷺ في حاجة لهما ، حتى ذهب من الليل ساعة ، في ليلة شديدة مظلمة ، ثمَّ خرجا من عند رسول الله ينقلبان ، وبيد كل واحد منهما عصيّة ، فأضاءَت عصى أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها ، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءَت للآخر عصاه ، فمشى كلّ واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله . رواه البخاري[2] .

---

(١) كثير من أهل الكلام لا يثبتون خوارق العادة إلا للأنبياء ، ولا يثبتونها لأحد غيرهم (شرح الطحاوية ص ١٥٨) .

(٢) مشكاة المصابيح (١٩٧/٣)

وهذا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يأتي معه بثلاثة أضياف من أهل الصفَّة ، وقد كان الرسول ﷺ قد أمر المسلمين أن يضيّفوا هؤلاء ، وتركهم أبو بكر في منزله كي يضيفهم أهله ، وذهب هو إلى الرسول ﷺ ، وجاء في ساعة متأخرة ، فقالت له امرأته : ما حبسك عن أضيافك ؟ قال : أو ما عشيتهم ؟ قالت : أبوْا حتى تجيء ، فغضب ، وقال : والله لا أطعمه أبدا ، فحلفت المرأة أن لا تطعمه ، وحلف الأضياف أن لا يطعموه ، قال أبو بكر هذا من الشيطان ، فدعا بالطعام ، فأكل وأكلوا ، فجعلوا لا يرفعون لقمة الا ربت أسفلها أكثر منها ، فقال لامرأته : يا أخت بني فراس ! ما هذا ؟ قالت : وقرة عيني إنّها الآن لأكثر منها قبل ذلك بثلاث مرار ، فأكلوا ، وبعث بها إلى النبي ﷺ ، فذكر أنَّه أكل منها . متفق عليه[1] .

فقد كان هذا إكراما من الله لأبي بكر لفضله ، ولأنَّه لم يشتط في غضبه إذ حلف أن لا يأكل من الطعام ، وراغم الشيطان ، فأكرمه الله بذلك .

سفينة والأسد

وهذا سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ جيش المسلمين بأرض الروم أو أسر ، فانطلق هاربا يلتمس الجيش ، فإذا هو بالأسد ، فقال : يا أبا الحارث (كنية للأسد) أنا مولى رسول الله ﷺ ،كان من أمري كيت وكيت ، فأقبل الأسد له بصبصة (أي تحريك بالذنب) حتى قام إلى جنبه ، كلَّما سمع صوتا أهوى إليه ، ثمَّ أقبل يمشي إلى جنبه حتى بلغ الجيش ، ثم رجع الأسد[2] .

---

(١) مشكاة المصابيح (١٩٨/٣)

(٢) قال التبريزي في مشكاة المصابيح : رواه في شرح السنة ، وقال المحقق : ورواه الحاكم بنحوه ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي وهو كما قالا (مشكاة المصابيح ١٩٩/٣)

صرخة في المدينة تدوّي في الشام :

وهذا عمر بن الخطاب يبعث جيشا ، ويؤمر عليهم رجلا يدعى سارية ، وبينما عمر يخطب ، فجعل يصيح يا ساري الجبل ، فقدم رسول من الجيش ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد لقينا عدونا فهزمونا ، فإذا بصائح يصيح : يا ساري الجبل ، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل ، فهزمهم الله تعالى[1] .

(١) قال التبريزي : رواه البيهقي في دلائل النبوة وقال محقق المشكاة : ورواه ابن عساكر باسناد حسن نحوه .

جملة من كرامات الأولياء

وقد ذكر ابن تيمية جملة من هذه الكرامات غير ما تقدم نسوق إليك بعضها[1] :

فمن ذلك أن خبيب بن عدي كان أسيرا عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى ، وكان يؤتى بعنب يأكله ، وليس بمكة عنبة .

وأم أيمن خرجت مهاجرة ، وليس معها زاد ولا ماء ، فكادت تموت من العطش ، فلما كان وقت الفطر ، وكانت صائمة سمعت حسّا على رأسها فرفعته ، فإذا دلو معلق ، فشربت منه ، حتى رويت ، وما عطشت بقية عمرها .

والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبرَّ قسمه ، وكان الحرب إذا اشتدَّ على المسلمين في الجهاد يقولون : يا براء ، أقسم على ربّك ، فيقول : يا ربّ ، أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم ، فيهزم العدو ، فلما كان يوم القادسية ، قال : أقسمت عليك يا ربّ لما منحتنا أكتافهم ، وجعلتني أوّل شهيد ، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيدا .

وخالد بن الوليد حاصر حصنا منيعا ، فقالوا : لا نسلم حتى تشرب السمّ فشربه فلم يضره .

ولما عذبت « الزبيرة » على الإسلام في الله ، فأبت إلّا الإسلام ، وذهب

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٢٧٦ - ٢٨١ .

بصرها ، قال المشركون : أصاب بصرها اللات والعزى ، قالت : كلا والله ، فردَّ الله عليها بصرها .

وتغيب الحسن البصري عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله ـ عز وجل ـ فلم يروه ، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتا . ولما مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفانا لم تكن معه قبل ، ووجدوا له قبرا محفورا فيه لحد في صخرة ، فدفنوه فيه ، بعد أن كفنوه في تلك الأثواب .

الاستقامة أعظم كرامة

ليست الكرامة دليلا على تفضيل هذا المعطى على غيره ، فقد يعطي الله الكرامة ضعيف الإيمان لتقوية إيمانه ، ومحتاجا لسدّ حاجته ، ويكون الذي لم يعط مثل ذلك أكمل إيمانا وأعظم ولاية ، وهو لذلك مستغن عن مثل ما أعطي غيره ، ولذلك كانت الأمور الخارقة في التابعين أكثر منها في الصحابة ، وعلى هذا فلا ينبغي أن يشغل المرء نفسه بالتطلع إلى الكرامة ، ولا ينبغي له أن يحزن إذا لم يعطها ، وقد صدق أبو علي الجوزجاني وبرّ حين قال : « كن طالبا للاستقامة ، لا طالبا للكرامة ، فإنَّ نفسك منجبلة على طلب الكرامة ، وربّك يطلب منك الاستقامة ، قال بعض من فهم قوله : وهذا أصل عظيم كبير في الباب ، وسرّ غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب »[١] .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٣٢٠)

الخوارق والأحوال الشيطانية[1]

ضلَّ كثير من النّاس عندما ظنّوا أنَّ كلَّ من جرت على يديه خوارق العادات فهو من أولياء الله الصالحين ، فبعض الناس يطيرون في الهواء ويمشون على الماء ، ونحو ذلك ، وهم من أفجر خلق الله ، بل قد يدَّعون النبوة ، مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان ، وادعى النبوة ، وقد أظهر أمورا خارقة للعادة ، فقد كانوا يضعون القيود في رجليه فيخرجها ، ويضرب بالسلاح فلا يؤثر فيه ، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده ، وكان يُري الناس رجالا وركبانا على خيل في الهواء ، ويقول : هي الملائكة ، وهذا وأمثاله من فعل الشياطين ، ولذلك إذا حضر بعض الصالحين هذه الأحوال الشيطانية وذكر الله وقرأ آية الكرسي أو شيئا من القرآن بطلت أحوالهم هذه ، فهذا الحارث الدمشقي الكذاب لما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه طاعن بالرمح ، فلم ينفذ فيه ، فقال له عبد الملك : إنّك لم تسمّ الله ، فسمّى الله ، فطعنه فقتله[2] . والمسيح الدجال تجري على يديه أمور خارقة للعادة تذهل من يرآها وهو مع ذلك يدعى الألوهية .

فالخوارق ليست دليلا على أن صاحبها ولي لله تعالى ، فالكرامة سببها الإيمان والتقوى والاستقامة على طاعة الله تعالى ، فإذا كانت الخارقة بسبب الكفر والشرك والطغيان والظلم والفسق فهي من الأحوال الشيطانية ، لا من الكرامات الرحمانية .

---

(١) ارجع في هذا المبحث إلى كتابنا : عالم الجن والشياطين .

(٢) راجع مجموع فتاوى شيح الإسلام (١١/٢٨٤ ـ ٢٨٥)

ثانياً : بشارات الأمم السابقة

قال تعالى : ﴿**أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ « سورة الشعراء/١٩٧ » فالآية تَبين أنَّ من الآيات البينات الدالة على صدق الرسول ﷺ ، وصدق ما جاء به ـ علم بني إسرائيل بذلك ، وهو علم مسجل محفوظ مكتوب في كتبهم التي يتداولونها ، كما قال تعالى : ﴿**وَإِنَّه لَفِي زُبُرِ الأَوّلِينَ**﴾ « سورة الشعراء/١٩٦ » .

القرآن يتحدث عن بشارات الأنبياء السابقين بنبينا محمد ﷺ

القرآن المنزل إلينا من ربنا العليم الخبير يحدثنا أن ذكر محمد وأمته موجود في الكتب السماوية السابقة ، وأنَّ الأنبياء السابقين بشروا به ، وقد فهم جمع من المفسرين من قوله تعالى : ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُم رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكم لتؤْمِنُنَّ به ، وَلَتَنْصُرُنَّه ، قَالَ أأقْرَرْتُمْ ، وأَخَذْتُم عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أقْرَرْنا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنا مَعَكُمْ مِن الشَاهِدِين**﴾ « سورة آل عمران/٨١ » ـ **أنَّ الله أخذ العهد والميثاق على** كلِّ نبيٍّ لئن بُعث محمد ﷺ في حياته ليؤمنن به ويترك شرعه لشرعه ، وعلى ذلك فإن ذكره موجود عند كل الأنبياء السابقين .

دعوة إبراهيم

عن العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنَّه قال : « إني عند الله مكتوب خاتم النبيين ، وإنَّ آدم لمنجدل في طينته ، وسأخبركم بأوّل أمري ، دعوةُ إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤ يا أمّي التي رأت حين وضعتني ، وقد خرج لها نور أضاء لها منه قصور الشام» « رواه في شرح السنة »[1] .

وقد أخبرنا الله أنَّ خليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل كانا يبنيان البيت الحرام ويدعوان ، ومن دعائهما ما قصه علينا في سورة البقرة **﴿وإذ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ الْبيتِ وإِسْمَاعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْن لَكَ ، وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أمّة مُسْلِمَةً لك ، وَأرِنا مَنَاسِكَنا ، وَتُبْ عَلَيْنَا إنّكَ أنْتَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ ، رَبّنَا وَابْعَثْ فيهم رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ وَيُزَكّيهِمْ إنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** « سورة البقرة/١٢٧ ـ ١٢٩ » .

وقد استجاب الله دعاء خليله إبراهيم وابنه نبيّ الله اسماعيل ، وكان محمد ﷺ هو تأويل تلك الاستجابة . ولا تزال التوراة الموجودة اليوم ـ على الرغم من تحريفها ـ تحمل شيئا من هذه البشارة ، فنجد فيها أنَّ الله استجاب دعاء إبراهيم في اسماعيل ، فقد ورد في التوراة في سفر التكوين في الإصحاح السابع عشر فقرة (٢٠) : « وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره ، وأكثره

---

(١) مشكاة المصابيح للتبريزي ١٢٧/٣ وقال الشيخ ناصر الدين الألباني : حديث صحيح

كثيرا جدّا ، اثني عشر رئيسا يلد ، وأجعله أمّة عظيمة كثيرة » .

وهذا النصُّ ورد في التوراة السامرية بألفاظ قريبة جدّا مما أثبتناه هنا ، والترجمة الحرفية للتوراة العبرانية لهذا النصّ : « وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأكثره « بمأد مأد »[1] وقد ذكر ابن القيم أنَّ بعض نسخ التوراة القديمة أوردت النص كما أثبتناه هنا .

ودلالة هذه البشارة على نبينا محمد ﷺ من وجوه :

الأول : أنَّ الأمّة العظيمة عند الله لا بدَّ أن تكون مسلمة ، ولم توجد هذه الأمة من نسل إسماعيل إلاّ بعد بعثة الرسول وانتشار المسلمين في المشارق والمغارب .

الثاني : النصّ العبراني « مأد مأد » صريح في اسم الرسول ﷺ فالمترجمون ترجموه « جدّا جدّا أو كثيرا كثيرا » والصواب هو : محمد ، لأنها تلفظ بالعبراني « مؤدمؤد » واللفظ العبراني قريب من العربي .

الثالث : قوله اثني عشر رئيسا يلد ، هذا موافق لأخبار الرسول ﷺ أنه سيلي أمر هذه الأمة اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش .

---

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص ٢٥٠ ، محمد نبي الإسلام ص ٣ .

بشارة موسى

لقد جاء بني إسرائيل الخبر اليقين بالنبيّ الأميّ ، على يد نبي الله موسى منذ أمد بعيد ، جاءَهم الخبر اليقين ببعثته ، وبصفاته ، ونهج رسالته ، وبخصائص ملته ، فهو النبي الأميّ ، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ، يضع عن من يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم ، فيرفعها عنهم النبيُّ الأميّ حين يؤمنون به ، وأتباع هذا النبي يتقون ربَّهم ، ويخرجون زكاة أموالهم ويؤمنون بآيات الله . . وجاءَهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأميّ ، ويعظمونه ويوقرونه وينصرونه ويؤيدونه ويتبعون النور الذي أنزل معه « أولئك هم المفلحون » .

قال تعالى : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، والَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ « سورة الأعراف/١٥٦ ـ ١٥٧ » .

بقية هذه البشارة في التوراة

وقد بقى من هذه البشارة بقية في التوراة ، ففي سفر التثنية الاصحاح (١٨)

فقرة ١٨ ـ ١٩ قال الله لموسى : « أقيم لهم « أي لبني إسرائيل » نبيًا من وسط إخوتهم مثلك ، واجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكلّ ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه » ودلالة هذه البشارة على رسولنا ﷺ بيّنه ، ذلك أنّه من بني إسماعيل وهم إخوة بني إسرائيل فجدهم هو إسحاق ، واسماعيل وإسحاق أخوان ، ثمَّ هو أوسط العرب نسبا ، وقوله مثلك أي صاحب شريعة مثل موسى ، ومحمد ﷺ هو الذي جعل الله كلامه في فمه حيث كان أميًا لا يقرأ من الصحف ، ولكنَّ الله يوحي إليه كلامه فيحفظه ويرتله ، وهو الرسول المرسل إلى الناس كافّة ، وبنو إسرائيل مطالبون باتباعه وترك شريعتهم لشريعته ، ومن لم يفعل فإنَّ الله معذبه « ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه » . ومما يعرفنا أنَّ هذه البشارة هي بقية البشارة العظيمة التي أوحى الله بها إلى موسى ، وأخبرنا بها القرآن الكريم ، أن هذه البشارة وردت في موقف معين عندما اختار موسى من قومه سبعين رجلا لميقات الله فأخذتهم الرجفة ، وذلك بسبب طلبهم رؤ ية الله جلَّ وعلا ، فدعا موسى ربّه وتوسل إليه ، فبعثهم الله من بعد موتهم ،قال الله بعد توسل موسى ودعائه ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِين يَتَّقُون . . ﴾ الآيات .

وإذا رجعت إلى التوارة في سفر الخروج تجد أنَّ هذه البشارة إنما أوحى الله بها إلى موسى بعد ذهابه لميقات الله ، وتتحدث التوراة عن شيء قريب من الرجفة « وكل الشعب سمع الأصوات وصوت البوق ، ونظروا الشهب والجبل دخانا ونظر كل القوم وتشردوا ووقفوا من بعد . . » سفر الخروج الإصحاح (٢٠) من التوراة السامرية .

بشارة عيسى

وأخبرنا الله - سبحانه - أنَّ عيسى بشر برسولنا محمد - ﷺ - : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ « سورة الصف/٦ » .

وأحمد من أسماء نبينا محمد ﷺ كما ثبت في صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ لي أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » ورواه مسلم نحوه[١] .

مثلان في التوراة والإنجيل

ضرب الله في التوراة والإنجيل مثلين لرسولنا محمد ﷺ ولأصحابه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ، فَآزَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ ، فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ « سورة الفتح/٢٩ » .

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/٦٤٦ .

بشائر التوراة

التوراة التي بين أيدي الناس اليوم محرَّفة مغيرة يدلك على ذلك هذا الاختلاف الذي تجده في أمور كثيرة بين نسخها وطبعاتها ، فهناك ثلاث نسخ للتوراة : العبرانية ، واليونانية ، والسامريّة ، وكلٌّ قوم يدَّعون أن نسختهم هي الصحيحة ، وهناك فروق واضحة بين طبعات التوراة وترجماتها . وقد أدى هذا التحريف إلى ذهاب كثير من البشارات أو طمس معالمها ، ومع ذلك فقد بقي من هذه البشارات شيء كثير ، ولا تخفى هذه البشارات على من يتأملها ، ويعرضها على سيرة رسول الله - ﷺ - متجردا من الهوى .

ذكر الرسول ﷺ باسمه في التوراة

لقد صرح بعض هذه البشارات باسم محمد ﷺ وقد اطلع بعض علماء المسلمين على هذه النصوص ، ولكنَّ التحريف المستمّر لهذا الكتاب أتى على هذه النصوص ، فمن ذلك ما ورد في سفر أشعيا[1]: « إني جعلت أمرك محمدا ، يا محمد يا قدوس الربّ ، اسمك موجود من الأبد » وقوله إن اسم محمد موجود من الأبد موافق لقول الرسول ﷺ : « كنت نبيّا وإن آدم لمنجدل في طينته »[2] .

وفي التوراة العبرانية في الاصحاح الثالث من سفر حبقوق[3] : « وامتلأت

---

(١) الجواب الصحيح ٣/٣٢٦ :

(٢) محمد نبي الإسلام ص ١٨ .

(٣) الجواب الصحيح ٣/٣١٣ .

الأرض من تحميد أحمد ، ملك بيمينه رقاب الأمم » .

وفي النسخة المطبوعة في لندن قديما سنة ١٨٤٨ ، والأخرى المطبوعة في بيروت سنة ١٨٨٤ ، والنسخ القديمة تجد في سفر حبقوق النص في غاية الصراحة والوضوح[1] : « لقد أضاءَت السماء من بهاء محمد ، امتلأت الأرض من حمده ، . . زجرك في الأنهار ، واحتدام صوتك في البحار ، يا محمد أدن ، لقد رأتك الجبال فارتاعت » .

ذكر الرسول ﷺ بأمر يتعلق به

وفي بعض الأحيان يذكر مكان مبعثه ، ففي سفر التثنية الاصحاح الثالث والثلاثون : « أقبل الربّ من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتجلى من جبل فاران » وسيناء هي الموضع الذي كلّم الله فيه موسى ، وساعير الموضع الذي أوحى الله فيه لعيسى ، وفاران هي جبال مكة ، حيث أوحى الله لمحمد ﷺ ، وكون جبال فاران هي مكة ، دلت عليه نصوص من التوراة . وقد جمع الله هذه الأماكن المقدسة في قوله : ﴿ والتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وطُورِ سِينِينَ ، وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ « سورة التين /١ - ٣ » .

وذكرت التوراة مكان الوحي إليه ففي سفر أشعيا الإصحاح (٢١) « وحي من جهة بلاد العرب في الوعر » . وقد كان بدء الوحي في بلاد العرب في الوعر في غار حراء .

وفي هذا الموضع من التوراة حديث عن هجرة الرسول ﷺ وإشارة إلى الجهة التي هاجر إليها « هاتوا ماءً لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء ، وافوا الهارب بخبزة ، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب » وتيماء من أعمال المدينة المنورة ، وإذا نظرت في النص ظهر لك بوضوح أنه يتحدث عن هجرة الرسول ﷺ .

وتكملة النص السابق يقول : « فإنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة

---

(١) محمد نبي الإسلام ص ١٨ .

الأجير يفنى كل مجد قيدار ، وبقية قسى أبطال بني قيدار تقلّ ، لأنَّ الربَّ إله إسرائيل قد تكلم » .

وهذا النص يتحدث عن معركة بدر ، فإنّه بعد سنة كسنة الأجير من الهجرة كانت وقعة بدر ، وفنى مجد قيدار ، وقيدار من أولاد إسماعيل ، وأبناؤه أهل مكة ، وقد قلت قسى أبناء قيدار بعد غزوة بدر .

اشارة التوراة إلى معلم من معالم مهاجر الرسول

وأشارت بعض نصوص التوراة الى مكان هجرة الرسول ﷺ ، ففي سفر أشعيا الاصحاح (٤٢) « لترفع البريّة ومدنها صوتها ، الديار التي سكنها قيدار ، لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا ليعطوا الربَّ مجدا . . »

وقيدار أحد أبناء اسماعيل كما جاء في سفر التكوين إصحاح (٢٥) عدد (١٣) .

وسالع جبل سلع في المدينة المنورة .

والترنم والهتاف ذلك الأذان الذي كان ولا يزال يشقُّ أجواز الفضاء كلّ يوم خمس مرات ، وذلك التكبير والتحميد في الأعياد وفي أطراف النهار وآناء الليل كانت تهتف به الأفواه الطاهرة من أهل المدينة الطيبة الرابضة بجانب سلع .

اشارة التوراة إلى أمور جرت على يديه ﷺ

وقد تذكر النصوص انتشار دعوته وبعض ما يكون من الرسول ﷺ ، ففي سفر حبقوق الاصحاح الثالث : « الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبال فاران ، سلاه جلاله غطى السموات والأرض ، امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور ، له من يده ، وشعاع ، وهناك استنار قدرته ، قدامه ذهب الوبا ، وعند رجليه خرجت الحمّى ، وقف وقاس الأرض ، نظر ، فرجفت الأمم ، ودكت الجبال الدهريّة ، وخسفت آكام القدم » .

ففي هذه البشارة اخبار بالنصر العظيم الذي حازه الرسول ﷺ وأتباعه ،

وإخبار بانتشار دعوته في شتى بقاع الأرض ، وبأن الجبال الدهريّة وهي الدول القويّة ذات المجد القديم ستدك ، وآكام القدم وهي الدول الأقل ستخسف ، وقد تحقق ذلك كلّه ، وأشارت هذه البشارة إلى أمرين يدركهما من كان عليما بسيرة الرسول ﷺ وأخباره ، وهما : لمعان كالنور له من يده ، وذهاب الوبا من قدامه ، وخروج الحمّى من عند رجليه .

اللمعان والنور الذي شعَّ من يده

يقول النصّ : « وكان لمعان كالنور ، له من يده ، وشعاع ، وهناك استنار قدرته » ثم يقول : « وقف وقاس الأرض نظر ، فرجفت الأمم . . » والذي يبدو لي أنَّ هذا النص يتحدث عن حادثة بعينها ، وهي ما وقع منه ﷺ في غزوة الخندق ، عندما أعجزت صخرة الصحابة أثناء حفر الخندق ، فجاء الرسول ﷺ فضربها ضربة عظيمة أسقطت ثلثها وخرج منها نور فكبر الرسول ﷺ فكبر أصحابه ، ثمَّ الثانية فالثالثة ، وقد أخبر الرسول ـ ﷺ ـ أنه رأى بالنور الأول قصور الشام ، وبالنور الثاني قصور فارس ، وبالنور الثالث ابواب صنعاء .

روى النسائي وأحمد بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال : لما كان حين أمرنا رسول الله ـ ﷺ ـ بِحفر الخندق ، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك إلى النبيِّ ﷺ ، فجاء فأخذ المعول فقال : « باسم الله » ، فضرب ضربة فكسر ثلثها ، وقال: « الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة » ، ثمَّ ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنّي لأبصر قصر المدائن أبيض ، ثمَّ ضرب الثالثة ، وقال : باسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال : « الله أكبر » أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة[1] » .

وفي رواية الطبراني : « فضرب الصخرة وبرق منها برقة فكبّر وكبّر

---

(١) فتح الباري ٣٩٧/٧ .

المسلمون » ، وفيه « إن البرقة الأولى أضاءت لها قصور الشام ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم . . »[1] .

تأمل النص الذي أوردناه مرة أخرى « لمعان كالنور له من يده ، وشعاع وهناك استنار قدرته . . وقف وقاس الأرض نظر . . » .

وتأمل في الأحاديث التي أوردناها أليست هذه الواقعة تأويل لتلك البشارة ؟

ذهاب الوبا وخروج الحمى

تقول هذه البشارة : « قدامه ذهب الوبا ، وعند رجليه خرجت الحمّى»، وهذه - والله - بشارة صريحة لا تحتمل تأويلا ، فالمدينة قبل مجيء الرسول - ﷺ - كانت معروفة بالحمّى ، وفي الحديث عن ابن عباس أنّ الرسول ﷺ وأصحابه عندما قدموا مكة للعمرة - وهي العمرة المعروفة بعمرة القضاء - قال المشركون : « إنّه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمّى يثرب » رواه البخاري[2] .

وقد أصابت هذه الحمّى صحابة الرسول ﷺ أوّل قدومهم المدينة ، فدعا رسول الله ﷺ ربّه كي يذهب الحمّى .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة ، وُعك أبو بكر وبلال . قالت : فدخلت عليهما[3] ، فقلت : يا أبت كيف تَجِدُكَ ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمّى يقول :

كلُّ امرىء مُصبَّح في أهلِهِ ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمّى يرفع رَأْسَه ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة ... بوادٍ وحولي اذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مِجَنَّة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل

---

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر فتح الباري ٤٦٩/٣ .

(٣) دخولها على بلال كان قبل نزول آية الحجاب .

قالت عائشة : فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « اللهمَّ حبب إلينا المدينة كحبنا مكّة أو أشدّ ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدِّها ، وانقل حمّاها فاجعلها في الجحفة » رواه البخاري[1] ، وزاد البخاري في آخر كتاب الحج : « ثم يقول بلال : اللهم العن عتبة بن ربيعةوشيبةبن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا إلى أرض الوباء »[2] .

إذن كانت يثرب موبوأة بالحمى ، لا يكاد يدخلها أحد إلاّ أصابته .

وقد استجاب الله لنبيّه -ﷺ- فنقل عنها الحمى ، وصححها ، ومنع عن المدينة الطاعون ، ففي الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺقال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل عليه السلام بالحمّى والطاعون ، فأمسكت الحمّى بالمدينة ، وأرسلت الطاعون إلى الشام »[3] . وإمساكه الحمّى بالمدينة لعله كان في بداية الأمر ، ثمَّ أمر بإرسالها إلى الجحفة ، أو ان المراد بامساكها بالمدينة المنطقة التي فيها المدينة ، ذلك أن الجحفة تقع قرب المدينة . وعلى كلّ فالبشارة واضحة وقعت كما أخبرت التوراة .

---

(١) انظر فتح الباري ٢٦٢/٧ .

(٢) فتح الباري ٢٦٣/٧ .

(٣) مسند الامام أحمد (٨١/٥) .

بشارات جامعة

وفي بعض الأحيان تكون البشارات جامعة تذكر صفات الرسول ﷺ ووحي الله إليه ، وأخبار أمته ، وما ينزل اليه عليهم من نصره ، وامدادهم بالملائكة ، وشيئاً مما يعطيه الله لرسوله كالعروج به إلى السماء ونحو ذلك ، فمن ذلك ما ورد في بشائر دانيال .

قال دانيال[1] يهدد اليهود ويصف لهم أمة محمد ﷺ : « إنّ الله يظهرهم عليكم ، وباعث فيهم نبيّا ، ومنزل عليهم كتابا ، ومملكهم رقابكم ، يقهرونكم ويذلونكم بالحقّ ، ويخرج رجال قيدار في جماعات الشعوب ، معهم الملائكة على خيل بيض ، فيحيطون بكم ، وتكون عاقبتكم النار ، نعوذ بالله من النار »

وقيدار ابن اسماعيل ، وقد انتشروا في الأرض واستولوا على الشام والجزيرة ومصر والعراق ، وقد تواترت الآثار أن الملائكة كانت تنزل على الخيل البيض كما نزلت يوم بدر والأحزاب ، وقال دانيال مصرحا باسم محمد ﷺ : « ستنزع في قسيّك اغراقا ، وترتوي السهام بأمرك يا محمد » .

وقال دانيال أيضا : « سألت الله وتضرعت إليه أن يبيّن لي ما يكون من بني إسرائيل ، وهل يتوب عليهم ، ويردّ إليهم ملكهم ، ويبعث فيهم الأنبياء ، أو يجعل ذلك في غيرهم ؟ فظهر لي الملك في صورة شاب حسن الوجه ، فقال :

---

(١) انظر الجواب الصحيح (٣/٣٣١ ، ٤ /٣) .

السلام عليك يا دانيال ، إن الله يقول : إنَّ بني إسرائيل أغضبوني وتمردوا عليّ ، وعبدوا من دوني آلهة أخرى ، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل ، ومن بعد الصدق إلى الكذب ، فصلَّت عليهم بخت نصّر ، فقتل رجالهم ، وسبى ذراريهم ، وهدم مساجدهم ، وحرق كتبهم ، وكذلك فعل من بعده بهم ، وأنا غير راض عنهم ، ولا مقيلهم عثرات ، فلا يزالون في سخطي حتى أبعث مسيحي ابن العذراء البتول ، وأختم ذلك عليهم باللعن والسخط ، فلا يزالون ملعونين ، عليهم الذلة والمسكنة حتى أبعث نبيّ بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر ، وأرسلت إليها ملاكي وبشرها ، وأوحي إلى ذلك النبي ، وأعلمه الأسماء ، وأزينه بالتقوى ، وأجعل البرَّ شعاره ، والتقوى ضميره ، والصدق قوله ، والوفاء طبيعته ، والقصد سيرته ، والرشد سنته ، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب ، وناسخ لبعض ما فيها ، أسرى به إلي ، وأرقيه من سماء إلى سماء ، حتى يعلو ، فأدنيه ، وأسلِّم عليه ، وأوحي إليه ، ثمَّ أردّه إلى عبادي بالسرور والغبطة ، حافظا لما استودع ، صادقا فيماأخبر، يدعو الى توحيدي باللين من القول والموعظة الحسنة ، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ، رؤوف بمن والاه ، رحيم بمن عاداه ، فيدعو قومه الى توحيدي وعبادتي ، ويخبرهم بما رأى من آياتي ، فيكذبونه ، ويؤذونه » .

يقول ابن تيمية : « ثمَّ سرد دانيال قصة رسول الله ﷺ بما أملاه عليه الملك حتى وصل آخر امته بالنفخة ، وانقضاء الدنيا » .

ثم قال : « وهذه البشارة الآن عند اليهود والنصارى يقرءونها ، ويقولون : لم يظهر صاحبها بعد » .

بشارات من الانجيل

وفي انجيل متى الإصحاح (١١) عدد (١٤) « وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي ، من له أذنان للسمع فليسمع » .

وقد أخبرنا الرسول ـ ﷺ ـ أنه ليس بينه وبين عيسى نبي ، فيكون ايلياء الذي بشر به عيس هو محمدا ﷺ . وايليا بحساب الجمل الذي أغرمت به اليهود يساوي محمدا .

وفي انجيل يوحنا إصحاح (١٤) عدد (١٥) « إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم الى الأبد ، وفي اللغات الاجنبية « فيعطيكم باركليتوس » ليمكث معكم إلى الأبد » والمعنى الحرفي لكلمة « باركليتوس » اليونانيّة هو أحمد ، وهو من أسماء الرسول ﷺ[١] .

وفي اصحاح يوحنا (١٥) عدد (٢٦) « ومتى جاء المعزى الذي أرسله أنا إليكم من الآب روح الحقّ الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي » ويشهد لي لأن النبي محمد ﷺ شهد للمسيح بالنبوة والرسالة ، وروح الحقّ كناية عن الرسول محمد ﷺ ، والمعاني الواردة في هذه الترجمة الحديثة ليست دقيقة ، لأن أصلها باليونانية وهي اللغة التي ترجمت منها هذه الأناجيل ـ مكتوبة « بيركليتوس » وفي التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ ، سنة ١٨٣١ ، سنة ١٨٤٤ ، في لندن تجدها « فارقليط » وهي أقرب الى العبارة اليونانية المشار اليها[٢] ، أمّا ترجمتها

---

(١) محمد نبي الإسلام ص ٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٨ .

في الطبعات الحديثة إلى المعزى فهو من التحريف الذي ذم الله أهل الكتاب به ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ « سورة النساء/ ٤٦ » . ويلاحظ أن هناك جملة ساقطة قبل الجملة الواردة في عدد (٢٦) من هذا الاصحاح سقطت من الطبعات الحديثة ، لكنَّها ورادة صراحة في الطبعات القديمة للإنجيل ، ونص هذه الجملة : « فلو قد جاء المنحمنا الذي يرسله الله إليكم » ومعنى المنحمنا الحرفي باللغة السريانية محمد[1][2]

(١) المصدر السابق ص ٣٩ .

(٢) وقد استقصى شيخ الإسلام فأورد تلك الروايات التي بشر بها عيسى بالنبيِّ ﷺ وبين وجه الاستدلال بها انظر الجواب الصحيح (٤/٦) .

بشارة أخرى من الإنجيل[1]

جاء في (إنجيل متى) في الإصحاح الحادي والعشرين :

« ٤٢ قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب : الحجر الذي رفضه البناؤون هوذا قد صار رأس الزاوية . من قِبَل الرب كان هذا هو عجيب في أعيننا .

٤٣ لذلك أقول لكم أنَّ ملكوت الله يُنزع منكم ويعطى لأمة تعمل اثماره .

٤٤ ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه » .

وهذا الحجر إنما هو سيدنا محمد ، جاء في (صحيحي البخاري ومسلم) عن أبي هريرة وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

قال ابن القيم[2] : « وتأمل قوله [المسيح] في البشارة الأخرى : ألم تر إلى الحجر الذي أخره البناؤون صار رأساً للزاوية ، كيف تجده مطابقاً لقول النبي ﷺ : مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأتمها إلا موضع لبنة

---

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص ٢٩٧ .

(٢) هداية الحيارى ٣٨١ - ٣٨٢ .

منها فجعل الناس يطوفون بها ويعجبون منها ويقولون : هلاّ وضعت تلك اللبنة فكنت أنا تلك اللبنة .

وتأمل قول المسيح في هذه البشارة : إن ذلك عجيب في أعيننا . وتأمل قوله فيها : « إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى آخر » كيف تجده مطابقاً لقوله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ « سورة الأنبياء/ ١٠٥ » وقوله : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ** ﴾ « سورة النور/٥٥ » .

ونحو هذا النص ما جاء في « إنجيل متى » في الإصحاح الثامن :

« ١١ وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السموات وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » .

وهذه بشارة تشير إلى ظهور أمة الإسلام التي تأتي من المشارق والمغارب وتكون مرضية عند الله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

جاء في (الفارق) : « أيها المسيحي إذا أنصفت تحكم بأن هؤلاء الذين سيأتون من مشارق الأرض ومغاربها هم الأمة المحمدية لأنكم مخاطبون حاضرون إذ ذاك والمسيح سلام الله عليه يخبر عن قوم سيأتون في مستقبل الزمن وقد أخرجكم بقوله : « وأما بنو الملكوت »[١] .

ونحو ذلك ما جاء في (إنجيل يوحنا) في الإصحاح الرابع :

« ٢٠ ـ ٢٤ قال لها يسوع : يا امرأة صدقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون لله » .

وهذا النصّ يشير إلى ظهور الدين الجديد وإنّه سيتحول مركزه عن أورشليم

---

(١) الفارق ٥٤ .

ويشير إلى تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة ، قبلة أصحاب الدين الجديد ويصدقه قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ . « البقرة/ ١٤٤ » .

فقد كان المسلمون أول الأمر يتجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس ثم نزلت الآية بوجوب اتجاههم إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة .

من إنجيل لوقا[1]

ذكر صاحب كتاب (الإنجيل والصليب) أنه جاء في (إنجيل لوقا) ٢ : ١٤
« الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض إسلام وللناس أحمد » .

ولكن المترجمين ترجموها في الإنجيل هكذا :

« الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالنّاس المسرة » .
ومؤلف الكتاب يرى أنّ الترجمة الصحيحة ما ذكره هو .

يقول المؤلف أنّ ثمة كلمتين وردتا في اللغة الأصلية لم يدرك أحد ما تحتويان عليه من المعاني تماماً فلم تترجم هاتان الكلمتان كما يجب في الترجمة القديمة من السريانية .

هاتان الكلمتان هما :
أيريني ـ التي يترجمونها : السلامة .

و : أيودكيا ـ التي يترجمونها : حسن الرضا .

فالأولى من الكلمتين اللتين هما موضوع بحثنا الآن هي (أيريني) فقد ترجمت بكلمات (سلامة) (مسالمة) (سلام) .

والمؤلف يرى أن ترجمتها الصحيحة (إسلام) فيقول في ص ٤٠ : « ومن

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص ٣٠٠ .

المعلوم أن لفظ (إسلام) يفيد معاني واسعة جداً ويشتمل على ما تشتمل عليه ألفاظ (السلم ، السلام) (الصلح ، المسالمة) (الأمن ، الراحة) . . . . وتتضمن معنى زائداً وتأويلا آخر أكثر وأعم وأشمل وأقوى مادة ومعنى ، ولكن قول الملائكة « على الأرض سلام » لا يصح أن يكون بمعنى الصلح العام والمسالمة ، لأنَّ جميع الكائنات وعلى الأخص الحيَّة منها ولا سيما النوع البشري الموجود على كرة الأرض دارنا الصغيرة هي بمقتضى السنن الطبيعية والنواميس الاجتماعية خاضعة للوقائع والفجائع الوخيمة كالاختلافات والمحاربات والمنازعات . . . ، فمن المحال أن يعيش الناس على وجه الأرض بالصلح والمسالمة » .

ثم يستشهد بقول المسيح « ما جئت لألقي سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً » (متى ١٠ : ٣٤) .

ويستشهد بقول آخر للمسيح : « جئت لألقي ناراً على الأرض ، فماذا أريد لو اضطرمت ؟ أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض ؟ كلا أقول لكم بل انقساماً » (لوقا ١٢ : ٤٩ ـ ٥٣) .

وعلى هذا فالترجمة لا تنطبق ورسالة المسيح وأقواله والصواب « وعلى الأرض إسلام » . (انظر البحث من ص ٣٨ ـ ٤٤) .

كما يرى أن (أيادوكيا) بمعنى (أحمد) لا (المسرة أو حسن الرضا) كما يترجمها القسس وذلك، لأنه لا يقال في اليونانية لحسن الرضا (ايودوكيا) بل يقال (ثليما) .

ويقول أن كلمة (دوكوته) هي بمعنى (الحمد ، الاشتهاء ، الشوق ، الرغبة ، بيان الفكر) . وها هي ذي الصفات المشتقة من هذا الفعل (دوكسا) وهي (حمد ، محمود ، ممدوح ، نفيس ، مشتهى ، مرغوب ، مجيد) .

واستشهد بأمثلة كثيرة من اليونانية لذلك . وقال : أنهم يترجمون (محمديتو) في (أشعيا ٦٤ : ١١) بـ (اندوكساهيمون) ويترجمون الصفات

منهـا (محمـد ، أحمـد ، أمجـد ، ممـدوح ، محتشم ، ذو الشـوكـة) بـ (ايندكسوس) .

واستدل بهذا التحقيق النفيس أن الترجمة الحقيقية الصحيحة لما ذكره لوقا هي (أحمد ، محمد) لا (المسرة) فتكون الترجمة الصحيحة لعبارة الإنجيل :

« الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض إسلام وللناس أحمد »[1] .

---

(١) انظر كتاب (الإنجيل والصليب) للأب عبد الأحد داود ٣٤ ـ ٥٣ .

بشارات إنجيل برنابا

هذا الإنجيل ملىء بالبشارات الصريحة بالرسول المصطفى المختار ، ومما ورد فيه (ص ١٦١) : « قال الله اصبر يا محمد . . . » (ص ١٦٢) « إن اسمه المبارك محمد . . » (ص ١٦٢) : « يا الله أرسل لنا رسولك ، يا محمد تعال سريعا لخلاص العالم » .

رأي في إنجيل برنابا

لا شكَّ أن هذا الإنجيل من الأناجيل التي كانت معروفة قديما ، وقد ورد ذكره في كتب القرن الثاني والثالث للميلاد ، ثمَّ لم يرد له ذكر بعد ذلك ، إلى أن عثر على نسخة منه في أوائل القرن الثامن عشر الهجري ، ولا تزال هذه النسخة في مكتبة بلاط (فيناّ) .

وعندما نشر هذا الكتاب أحدث ضجّة كبرى ـ في ذلك الوقت ـ في أوروبا في نوادي العلم والدين ، وقد طبعت ترجمة هذا الكتاب مرتين باللغة العربية ، الطبعة الثانية نشرتها دار القلم بالكويت .

وقد اطلعت على هذا الكتاب وأمعنت النظر فيه ، وقد تبين لي فيه رأي لم أجد أحدا قد تنبه إليه ، تبين لي أن هذا الكتاب وإن كان له أصل فقد لعبت فيه يد مسلم ، فأدخلت فيه ما ليس منه ، والذي جعلني أذهب هذا المذهب ليست تلك التعليقات العربية التي وجدت على هامش النسخة الأصلية الموجودة في

(فينّا) ، وإنّما تلك المبالغات التي وصف بها الإنجيل الرسول ﷺ ، نحن نصدّق أن يبشر الإنجيل بالرسول ـ ﷺ ـ ولكننا نستبعد كل البعد أن يكون قد شاع بين أهل الكتاب تلك الخرافات التي شاعت بين المسلمين بعد بعثة الرسول ﷺ ، ونسبوها للرسول ﷺ ، فنجد في الإنجيل هذا أنَّ الله أعطى رسوله محمد ﷺ كل شيء ، وخلق من أجله كل شيء ، وجعله قبل كل شيء ، انظر ص (٩١ ، ٩٣ ، ١١٠) ، وفي ص (١١١) يقول حاكيا كلام الرسول ﷺ : « يا رب أُذكر أنك لما خلقتني قلت إنّك أردت أن تخلق العالم والجنة والملائكة ـ والناس حبّا فيّ ليمجدوك بي أنا عبدك » .

وفي ص (١٦١) ، اصبر يا محمد لأجلك أريد أن أخلق الجنّة والعالم وجمّا غفيرا من الخلائق التي أهبها لك . . » .

وفي ص (٢٦٦) ، « هذا هو الذي لأجله خلق الله كلَّ شيءٍ » .

وفي ص (١٥٢) يقول : « ولذلك لما خلق الله قبلَ كلِّ شيء رسوله » .

هذه الأقوال بدون شكّ غير صحيحة ، وهي تناقض الحقّ الذي بين أيدينا ، فالله خلق البشر والملائكة والجنَّ لعبادته « وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون » . «سورة الذاريات/ ٥٦».

وأول المخلوقات القلم كما في الحديث « أول ما خلق الله القلم » وهذه الأقوال التي فيها غلو شاعت بين المسلمين وصاغوها أحاديث نسبوها إلى الرسول ﷺ ، ومن هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة حديث « لولاك لما خلقت الأفلاك » (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة حديث رقم ٢٨٢) وحديث « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » « حديث رقم ٣٠٢ ، ٣٠٣ » وحديث : « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث » « كتاب الفوائد المجموعة للشوكاني ص ٣٢٦ » .

وحديث : « لقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك علي ومنزلتك عندي ، ولولاك يا محمد ما خلقت الدنيا » (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث

الضعيفة والموضوعة ص ٣٢٥) .

وفي هذا المصدر ص ٣٣٧ حديث يقول : « خلقني الله من نوره وخلق أبا بكر من نوري » .

وإذا أنت قارنت بين ما نقلته عن إنجيل برنابا وهذه الاحاديث الضعيفة والموضوعة أدركت أن الذي أدخل هذه الأوصاف كانِ من هذا النوع الذي عشعشت أمثال هذه الأحاديث المكذوبة في ذهنه .

وهناك أمور أخرى منسوبة إلى الرسول ﷺ زورا ، لأنها تخالف الحقّ الذي في أيدينا ، فمن ذلك ما ورد (ص ٢٠٩) من « أن الجحيم ترتعد لحضور الرسول عليه السلام ، فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة اقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم » فهذا مخالف لصريح القرآن ﴿ لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴾ .

ومن ذلك نقل هذا الكتاب عن عيسى قوله في (ص ٩٢) « لست أهلا أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله » ويقول قريبا من هذا في ص (٩٦) و ص (١٦٠) ، ومثل هذا بعيد أن يصدر عن رسول من أولي العزم من الرسل .

ومع ذلك فقد وصف الكتاب الرسول ﷺ بأمور فيها تحقير له ، ففي ص (١٠٨) يصف الرسول ﷺ بأنّه سيكون كالمخبول ، وفي ص (١٠٥) يقول : أن الله سيجرد رسوله محمد في يوم القيامة من الذاكرة .

بشارات من الأسفار العالمية الأخرى[1]

ألّف « مولانا عبد الحق قديارتي » كتابا باللغة الانجليزية وسماه :

« محمد في الأسفار العالمية » واستفاد في مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الاوروبية ، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والانجيل بل عمم البحث في كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له في بعض أقواله توفيقات تضارع اقوى ما ورد من نظائرها في شواهد المتدينين كافة . . .

يقول الاستاذ عبد الحق أن اسم الرسول العربي « أحمد » مكتوبة بلفظه العربي في السامافيدا Samavida من كتب البراهمة وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ونصها ان « أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » . . . وفي مواضع كثيرة من كتب البراهمة يرى المؤلف أن النبي محمداً مذكور بوصفه الذي يعني الحمد الكثير والسمعة البعيدة ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا Sushrava الذي ورد في كتاب أثارفا فيدا Atharpha vida وكذلك صنع بكتب زرادشت التي اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زند افستا Zend Avesta نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشيانت Soeshyant » ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبو لهب Angra Mainyu ويدعو إلى إله واحد لم يكن له

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص ٢٠٤ .

كفواً أحد « هيج جيز باونمار » وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة « جز آخاز وانباز ودشمن ومانند ويار وبدر ومادر وزن وفرزند وحاي سوي وتن آسا وتناني ورنك وبوي است » .

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الإسلام : أحد صمد ليس كمثله شيء . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية تنبىء عن دعوة الحق التي يجيء بها النبي الموعود وفيها اشارة الى البادية العربية ويترجم نبذة منها إلى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف « ان أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة ابراهيم التي تطهرت من الأصنام ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم وان نبيهم ليكونن فصيحاً يتحدث بالمعجزات »[1].

(١) ص ٤٧ من كتاب Mohammed in World Scriptures نقلاً من كتاب (مطلع النور) للاستاذ عباس محمود العقاد ١٤ ـ ١٧ .

شيوع هذه البشارات قبل البعثة

لقد كانت هذه البشارات منتشرة قبل البعثة النبويّة ، فلم يكن أهل الكتاب يكتمونها في ذلك الوقت ، بل كانوا يذيعونها ، ويزعمون أنهم سيتابعون صاحبها عندما يبعث ، وقد حفظ لنا المسلمون بعض هذه البشارات ، ونقل لنا الأنصار من أهل المدينة أحاديث اليهود قبل البعثة عن هذه البشارات ، وقد تعرف بعض أهل الكتاب على الرسول ﷺ في صغره ، وانتفع بعض أهل الكتاب بهذه البشارات وآمنوا .

صفة رسولنا ﷺ في التوراة

روى البخاري في صحيحه عن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، قلت : أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة ، قال : أجل ، والله إنّه لموصوف ببعض صفته في القرآن ، ﴿ **يَـأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً** ﴾ « سورة الأحزاب/٤٥ » وحرزا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سمّيتك المتوكل ، ليس بفظّ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب في الأسواق (الصخب : الصياح) ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلاّ الله ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صمّا ، وقلوبا غلفا[١] .

---

(١) رواه البخاري (مشكاة المصابيح ١٢٥/٣) .

وروى الدارمي عن عطاء عن ابن سلام نحوه[1] وعن كعب وهو من علماء اليهود الذين آمنوا بالنبي ﷺ ، قال : « نجد مكتوبا في التوراة محمد رسول الله عبدي المختار ، لا فظٌ ولا غليظ ، ولا سخّاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة ، وهجرته بطيبة ، وملكه بالشام ، وأمته الحمّادون ، يحمدون الله في السراء والضراء ، يحمدون الله في كلّ منزلة ، ويكبرونه على كل شرف ، رعاة للشمس ، يصلُّون الصلاة إذا جاء وقتها ، يتأزرون على أنصافهم ، ويتوضئون على أطرافهم ، مناديهم ينادي في جوّ السماء ، صفهم في القتال ، وصفهم في الصلاة سواء ، لهم بالليل دويٌّ كدويّ النحل » قال التبريزي هذا لفظ المصابيح ورواه الدارمي مع تغيير[2] يسير

أين هذه البشارة في التوراة

وهذه البشارة ليست موجودة في التوراة المنتشرة اليوم بين اليهود والنصارى ، فإن كان المراد بالتوراة التوراة المعينه فتكون هذه البشارة مما اخفته يهود ، وقد تكون مخفية عندهم مما لا يطلع عليه إلّا أحبارهم[3] ، إلّا أنه قد تطلق التوراة ولا يراد بها توراة موسى ، بل يراد بها الكتب المنزلة من عند الله ، وقد يطلق على

---

(١) مشكاة المصابيح ٣/١٢٥ .

(٢) مشكاة المصابيح ٣/١٢٩ .

(٣) الذي يظهر لنا أنّه كان حتى عهد الرسول ﷺ نسخ غير محرفة من التوراة والإنجيل بدلالة قوله تعالى : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ﴾ ، « سورة المائدة/٤٧ » وقوله : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ﴾ « سورة المائدة/٤٣ » وقوله : ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حتى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ « سورة المائدة/٦٨ » .

فقد كانت هناك نسخ كثيرة محرفة وبعض النسخ لم يصبها التحريف ، ولكن اليهود كانوا يخفونها ، ولعلّ بعضا من هذه النسخ لا تزال إلى يومنا يخفيها بعض علماء اليهود والنصارى ، ويذكر صاحب كتاب « محمد نبي الإسلام » ص (٤٦) نقلا عن مجلة « الأيكونومست » البريطانية أنَّ أوّل عمل يؤديه المرشح لوظيفة في (الكوريا) أي الإدارية المركزية للكنيسة الكاثوليكية هو أن يقسم اليمين المقدسة على كتمان كل شيء يصل إلى علمه أو يقع تحت بصره ، من معلومات خصوصا عن ثروة الكنيسة ومواردها إلى جانب ما يملكه الفاتيكان من تحف وثروة فنية تعتبر من أثمن الثروات في العالم . ولا شك أن عبارة ثروة فنية تشمل مكتبة الفاتيكان الضخمة بما تحويه من كتب في الديانة المسيحية لو تركت للبحث العلمي الحر لألقت أضواءً لامعة على حقبة مجهولة من تاريخ المسيحية في قرونها الأولى المظلمة .

الكتب المنزلة اسم القرآن ، كما في الحديث الصحيح « خفّف على داود القرآن ، فكان ما بين أن يسرج دابته إلى أن يركبها يقرأ القرآن » والمراد به قرآنه وهو الزبور . وجاء في بعض البشارات عن هذه الأمة « أناجيلهم في صدورهم » فسمى القرآن إنجيلا ، وعلى ذلك فهذه البشارة موجودة عندهم في نبوة أشعيا ، فقد جاء فيها : « عبدي الذي سرّت به نفسي ، أنزل عليه وحيي ، فيظهر في الأمم عدلي ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يسمع صوته في الأسواق ، يفتح العيون العور ، والآذان الصمّ ، ويحيي القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطي أحدا ، يحمدالله حمدا جديدا ، يأتي من أقصى الأرض ، وتفرح البريّة وسكانها ، يهللون على كلِّ شرف ، ويكبرونه على كلّ رابية ، لا يضعف ، ولا يغلب ، ولا يميل إلى الهوى مشقح ، ولا يذلّ الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة ، بل يقوّي الصديقين ، وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذي لا ينطفي ، أثر سلطانه على كتفيه »[1] .

---

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/٢٨١) .

خبر ابن الهيبان

ومما حفظته لنا كتب السنة عن علماء اليهود قبل الإسلام أن رجلا من اليهود كان يدعى ابن الهيبان قدم المدينة ونزل في يهود بني قريظة قبل الإسلام بسنين ، قال راوي القصة : ما رأينا رجلا قط لا يصلي الخمس أفضل منه ، فأقام عندنا إذا قحط عنا المطر قلنا له : اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تقدموا بين مخرجكم صدقة ، فنقول له : كم ؟ فيقول : صاعاً من تمر ، أو مدّين من شعير ، قال : فنخرجها ، ثمَّ يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا ، فيستسقي لنا ، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ويسقي ، وقد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثا .

قال : ثمَّ حضرته الوفاة عندنا ، فلمّا عرف أنّه ميت قال : يا معشر يهود ، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال : قلنا : الله أعلم .

قال : فإنّي إنّما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظلَّ زمانه ، هذه البلدة مهاجره ، فكنت أرجو أن يبعثه الله ، فأتبعه ، وقد أظلّكم زمانه فلا تسبقنّ إليه يا معشر يهود ، فإنّه يبعث بسفك الدماء ، وسبي الذراري ، فيمن خالفه ، فلا يمنعنكم ذلك منه ، وقد انتفع بوصية ابن الهيبان مجموعة من شباب يهود بني قريظة ، وهم ثعلبة بن سعيه ، وأسيد بن سعيه ، وأسد بن عبيد ، فإنّ الرسول ﷺ ـ لما حاصر بني قريظة ـ قال هؤلاء الفتية وكانوا شبابا أحداثا : يا بني قريظة ،

والله إنّه للنبي الذي عهد إليكم ابن الهيبان ، قالوا : ليس به ، قالوا : بلى ، إنّه لهو صفته ، فنزلوا ، فأسلموا فأحرزوا دماءَهم وأموالهم ورحالهم[1] .

فلما جاءَهم ما عرفوا كفروا به

وروى أبو نعيم في دلائل النبوة باسناده عن محمد بن سلمة ، قال : لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهودي واحد ، يقال له : يوشع ، فسمعته يقول - وإني لغلام في إزار - قد أظلَّكُم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت ، ثمَّ أشار بيده إلى بيت الله ، فمن أدركه فليصدّقْه ، فبعث رسول الله فأسلمنا وهو بين أظهرنا ، لم يسلم حسدا وبغيا[2] .

انتفاع عبد الله بن سلام بعلمه

وقد كان عبد الله بن سلام سيد اليهود وأعلمهم وابن سيدهم وأعلمهم ، قال : لما سمعت برسول الله وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نتوكف له ، (نتوكف : ننتظر) فكنت بقباء مسرّا صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله - ﷺ - المدينة ، فلمّا قدم نزل بقباء في بني عمرو بن عوف ، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرت ، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري : لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت ، قال : قلت لها : أي عمّة ، والله هو أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه بعث بما بعث به .

قال : فقالت : يا ابن أخي أهو الذي كنّا نخبر أنّه يبعث مع الساعة ؟ قال : قلت :نعم . قالت : فذاك إذاً[3] . .

وقد ذكر البخاري قصة مجيء عبد الله بن سلام إلى الرسول ﷺ واسلامه وطلبه من الرسول ﷺ أن يرسل إلى اليهود ويسألهم عنه قبل أن يعلموا بإسلامه ،

---

(١) البداية والنهاية ٣١٠/١ .

(٢) البداية والنهاية ٣٠٩/٢ .

(٣) ابن اسحاق في السيرة (البداية ٢١١/٣)

فلما جاءوا قال لهم الرسول ﷺ : « يا معشر يهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلاّ هو إنّكم لتعلمون أنّي رسول الله حقّا ، وأنّي جئتكم بحقٍّ ، فأسلموا » قالوا ما نعلمه ، قال : « فأي رجل عبد الله بن سلام فيكم » ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : « أفرأيتم إنْ أسلم ، قالوا : حاش لله ما كان ليسلم ، قال : « يا ابن سلام ، اخرج عليهم » ، فخرج ، فقال : يا معشر يهود ، اتقوا الله الذي لا إله إلاّ هو ، إنّكم لتعلمون أنّه رسول الله ، وأنّه جاء بالحقّ . فقالوا : كذبت . فأخرجهم رسول الله ﷺ[1] .

شهادة غلام يهودي

وروى أنس بن مالك أنَّ غلاما يهوديا كان يخدم النبيَّ ﷺ ، فمرض ، فأتاه رسول الله ﷺ يعوده ، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا يهودي أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجد في التوراة صفتي ومخرجي ؟ قال : لا .

قال الفتى : بلى والله يا رسول الله ، إنّا لنجد في التوراة نعتك ومخرجك ، وإنّي أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله » رواه البيهقي بإسناد صحيح[2] .

---

(١) البداية ٣/٢١١ .

(٢) الجواب الصحيح (٣/٢٨٧) .

فراسة راهب

وقد تعرف على الرسول ﷺ أحد الرهبان وهو صغير ، عندما كان في تجارة مع عمّه أبي طالب إلى الشام ، روى أبو موسى قال : خرج أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه النبيّ ﷺ في أشياخ من قريش ، فلمّا أشرفوا على الراهب هبطوا ، فحلّوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ، قال : فهم يحلّون رحالهم ، فجعل يتخللهم الراهب ، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ ، قال : هذا سيّد العالمين ، هذا رسول ربِّ العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين .

فقال له أشياخ من قريش : ما علمك ؟ فقال : إنّكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلاّ خَر ساجدا ، ولا يسجدان إلاّ لنبيّ ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، ثمَّ رجع فصنع لهم طعاما ، فلمّا أتاهم به ، وكان هو في رعية الإبل ، فقال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظلّه ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة ، فلمّا جلس مال فيء الشجرة عليه ، فقال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه[1] .

---

(١) الحديث رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . (انظر مشكاة المصابيح ١٨٧/٣) وقال الشيخ ناصر في تعليقه على الحديث في المشكاة : رجاله ثقات ، والحديث صحيح كما بينته في مقال نشرته في « مجلة التمدن الإسلامي » .

معرفة علماء اليهود بموعد خروج النبي ﷺ

عندما اقترب موعد خروج المصطفى ﷺ علم أهل الكتاب بذلك بأمارات كانت عندهم ، وروى أبو زرعة بإسناد صحيح عن أسامة بن زيد عن أبيه زيد بن حارثة أن الرسول ﷺ التقى بزيد بن عمرو بن نفيل قبل البعثة ، وكان مما أخبر به زيد الرسول ﷺ أنه رحل في طلب الدين الحق دين التوحيد فقال له حبر في الشام : إنك لتسأل عن دين ما نعلم عليه أحدا يعبد الله به إلاّ شيخ بالجزيرة .

قال فخرجت : فقدمت عليه ، فأخبرته بالذي خرجت له ، فقال : إن كلّ من رأيت في ضلالة ، ممّن أنت ؟

قلت : أنا من أهل بيت الله ، ومن أهل الشوك والقرظ .

فقال : إنه قد خرج في بلدك نبيّ ، أو خارج ، قد خرج نجمه ، فارجع فصدقه واتبعه ، فرجعت فلم أحسّ شيئا بعد[1] .

كان زيد يحدّث بهذا الرسول ﷺ قبل بعثته ، ولم يكن يعلم أنَّ الذي يحدثه هو الرسول الذي ظهر نجمه ، ومات زيد قبل البعثة بسنوات .

وقد سبق ذكر خبر ابن الهيبان ، الذي خرج من الشام إلى المدينة ، فقد قال لليهود عندما حضرته الوفاة : « إنّما أخرجني توقع خروج نبيّ قد أظلّ زمانه ، هذه البلاد مهاجره » .

وفي صحيح البخاري أن هرقل كان حزّاءً ينظر في النجوم ، فنظر فقال : إن ملك الختان قد ظهر .

---

(١) الجواب الصحيح ٣/٢٨٥ .

ثالثاً : النَظَر في أحوال الأنبياء

إذا شئت أن تسبر غور إنسان ، وتتعرف على صدقه وأمانته ، فإنّك تنظر في قسمات وجهه ، وتحصي عليه أفعاله وأقواله ، وتراقب حركاته وسكناته ، والذين يستغلق عليك أن تصل في شأنهم إلى الهقين هم أولئك الذين لا تقابلهم إلا مقابلة سريعة ، أو أولئك الذين يخفون أنفسهم ، ويتكلفون في أقوالهم وأفعالهم فلا يظهرون على طبيعتهم .

والأنبياء والرسل كانوا يخالطون أقوامهم ، ويجالسونهم ويعاشرونهم ، ويعاملونهم في أمور شتى ، وبذلك يتسنى للناس أن يدرسوهم عن كثب ، ويتعرفوا إليهم عن قرب ، ولقد كانت قريش تسمي رسول الله - ﷺ - قبل بعثته بالأمين ، وذلك لصدقه وأمانته ، وعندما قال لهم الرسول - ﷺ - في مطلع الدعوة : لو أخبرتكم أنَّ وراء هذا الوادي خيلا تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا « رواه البخاري » وقد أرشد القرآن إلى هذا النوع من الاستدلال ﴿ **قُلْ لَوْ شَاء اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرَاً مِنْ قَبْلِهِ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ « سورة يونس /١٦ » .

يقول لهم لقد مكثت فيكم زمنا ليس باليسير قبل أن أخبركم بأنني نبي ، فكيف كانت سيرتي فيكم ؟ وكيف كان صدقي إيَّاكم ؟ أفأترك الكذب على الناس ، وأكذب على ربّ الناس ، (**أفلا تعقلون**) ؟ الا تعملون عقولكم لتهديكم إلى الحق ؟ !

إن المعدن الجيد يدلُّ على نفسه بنفسه ، والفاكهة الصالحة يدلُّ على صلاحها لونها وشكلها ورائحتها وطعمها ، والمصباح الرائع ضوءه يهدي إليه ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ . « سورة النور/٣٥ » .

بعض الناس لم يحتج إلى برهان ودليل ليستدل بذلك على صدق الرسول ﷺ ، لأنَّ شخصه وحياته وسيرته هي أعظم دليل ، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق ، فإنَّ الرسول ـ ﷺ ـ عندما دعاه لم يتردد . ونظر عبد الله بن سلام في وجه الرسول ﷺ نظرة واحدة ، ولكنَّها كانت كافية لتدلّه على أنَّ هذا وجه صادق ليس بكاذب ، قدم الرسول ـ ﷺ ـ المدينة ، وخرج عبد الله بن سلام عالم اليهود مع الخارجين ينظر في وجه الرسول ـ ﷺ ـ قال : « فلما رأيت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذّاب »[1] .

وخديجة التي عرفت الرسول زوجا وخالطته عن قرب قبل أن تعرفه نبيّا رسولا ، لم تتردد في أنَّ الله لن يخزيـه أبدا ، ولن يصيبه ضير ، ذلك أنَّ سنة الله في أمثال الرسول ﷺ أن يكرّموا ويشرّفوا ، ولذلك قالت له عندما جاءَها قائلا : لقد خشيت على نفسي وذلك بعد أن فجأه الوحي في غار حراء قالت : « كلاّ والله لا يخزيك الله أبدا ، إنّك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[2] .

هرقل وأبو سفيان

وقد أعمل هرقل ملك الروم عقله وفكره وعلمه بأحوال الرسل وصفاتهم ، فاهتدى إلى أنَّ محمدا مرسل من ربّه ، ولكنه لم يؤمن ضنّا بملكه .

أرسل الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض في عصره يدعوهم إلى الإسلام ، وكان هرقل ملك الروم من هؤلاء الذين أرسل إليهم ، فلما جاءَه كتاب الرسول ﷺ

---

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي في سننه وقال حديث صحيح وابن ماجه في سننه (البداية والنهاية ٣/ ٢١٠) .
(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ١/ ٢٢) .

طلب من كان هناك من العرب ، وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام ، وسألهم عن أحوال النبيّ ﷺ ، فسأل أبا سفيان ، وأمر الباقين إن كذب أن يكذبوه ، فصاروا بسكوتهم موافقين له في الأخبار .

وإليك الحوار الذي جرى بينهما يحكيه أبو سفيان .

« كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟
قلت : هو فينا ذو نسب .
قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟
قلت : لا .
قال : فهل كان من آبائه مِنْ مَلِك ؟
قلت : لا .
قال : فأشراف النّاس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟
فقلت : بل ضعفاؤهم .
قال : أيزيدون أم ينقصون ؟
قلت : بل يزيدون .
قال : فهل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟
قلت : لا .
قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟
قلت : لا .
قال : فهل يغدر ؟
قلت : لا ، ونحن في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها ، قال : ولم تمكنّي كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة .
قال : فهل قاتلتموه ؟
قلت : نعم .
قال : فكيف الحرب بينكم وبينه ؟
قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منّا وننال منه .
قال : فماذا يأمركم ؟

قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق ، والعفاف والصلة .

فقال للترجمان :

قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنّه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه مَلِك قلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنّه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله .

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤ هم ؟ فذكرت أن ضعفاؤ هم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ .

وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فإن كان ما تقول حقّا فسيملك موضع قدميَّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظنُّ أنّه منكم ، فلو أعلم أنّي أخلص إليه لتجشمت لقاءَه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه[1] .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الوحي انظر فتح الباري ٣١/١ .

زهدهم في المتاع الدنيوي

ومما يدلُّ على صدق الرسل من خلال التأمل في سيرتهم ، أنَّ الرسل أزهد النّاس في متاع الدنيا وعرضها الزائل ، وبهرجها الكاذب ، لا يطالبون النّاس الذين يدعونهم أجرا ولا مالا ، فهم يبذلون لهم الخير لا ينتظرون منهم جزاءً ولا شكورا ، هذا أوّل الرسل يقول لقومه : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَـالاً إنْ أَجْرِيَ إلاّ عَلَى اللّهِ ﴾ « سورة هود/٢٩ » .

وهذا آخر الرسل يأمره الله بمثل ذلك : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إلاّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ « سورة الفرقان /٥٧ » .

وقص الله علينا في سورة الشعراء طرفاً من قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وكلّ منهم يقول لقومه : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ من أَجْرٍ ، إنْ أَجْرِيَ إلاّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ .

رَابعَاً : دَعوَةُ الـرّسُلِ

النظر في دعوة الرسل مجال خصب يدلنا على مدى صدقهم ، فقد جاءَت الرسل بمنهج متكامل لإصلاح الإنسان ، ولإصلاح المجتمع الإنساني ، ودين كهذا يقول الذين جاؤوا به إنّه منزل من عند الله لا بدَّ أن يكون في غاية الكمال ، خاليا من النقائص والعيوب،لا يتعارض مع فطرة الإنسان، وسنن الكون، وقد وجهنا القرآن إلى هذا النوع من الاستـدلال ، فقال : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ « سورة النساء/ ٨٢ » .

فكونه وحدة متكاملة يصدق بعضه بعضا ، لاتناقض فيه ولا اختلاف ـ دليل واضح على صدق الذي جاء به .

والنظر في المقاصد التي تـدعو إليها الرسل ، والفضائل والقيم التي يُنادون بها كلٌ ذلك من أعظم الأدلة على صدقهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ « سورة الإسراء/ ٩ » .

ولقد ألَّف العلماء مؤلفات في بيان كمال هذا الدين وشموله وبيان حكمة التشريع ، وبيان القواعد والأسس التي تجعل هذا الدين بناء محكما ، يردد النّاس النظر فيه فلا يجدون فيه عيبا ولا نقصا .

وقد ميز الله البشر بالعقل ، وأودع عقولهم إدراك قبح القبيح ، وإدراك حسن الحسن ، إلّا أنَّ رحمته جلَّ وعلا اقتضت ألّا يعذب خلقه على تركهم الحسن وفعلهم القبيح ما لم يقم عليهم الحجّة بإرسال الرسل .

وقد سئل اعرابيٌّ : بم عرفت أنَّ محمدا رسول الله ؟ فقال : ما أمر بشيء فقال العقل : ليته ينهى عنه ، ولا نهى عن شيء ، فقال العقل : ليته أمر به[1] .

وهذا الذي استدل به الأعرابي في غاية الجودة ، فإن الرسل جاءَت من عند الله بعلوم وشرائع يعلم العاقل المنصف عند التأمل فيها أنّه لا يمكن أن تكون آراء البشر ولا أفكارهم .

دعوة نبينا محمد ﷺ

والناظر في دعوة نبينا محمد ﷺ يكون مكابرا أعظم المكابرة إن لم يعتبر ولم يؤمن ، فنبينا عليه السلام جاء بهذا القرآن الذي عجزت الإنس والجنُّ عن الاتيان بمثله ، وقد حوى من الاخبار الماضية والآتية ، والعلوم المختلفة مايخضع المنصف ، ويجعله يسبح بحمد الله طويلا .

هذا الكتاب وتلك العلوم تصل إلينا على يد رجل أميّ ، لم يمسك بالقلم يوما ، ولم يكن يقرأ ما سطره العلماء والكتاب من قبل ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكِ ، إذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ « سورة العنكبوت/٤٨ » ليس أمرا عاديا أن يتحول رجل أميّ بين عشية وضحاها إلى معلم بشريّة ، يبذل العلم للناس ، ويقوّم علوم السابقين ، ويبين ما فيها من تحريف وتغيير .

لقد كان هذا الدليل يجول في نفوس أهل مكة ، فهم يعرفون محمدا ﷺ قبل أن يـأتيهم بما أتاهم به ، ويعلمون أميته ، ولذلك لم يكن منهم إلا التمحل وجحود الحقّ بعد معرفته ﴿**فإنَّهم لاَ يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ**﴾ « سورة الأنعام/٣٣ » لقد وصلت بهم السفاهة إلى الزعم بأنَّ الذي يأتي محمدا ﷺ بهذا العلم حداد رومي كان بمكة ، وإنه لفرية مضحكة ﴿**لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾ « سورة النحل/١٠٣ » .

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/٦ ـ ٧

خامسًا : تأييد الله لرسله ونصرته لهم

ومما يدلنا على صدق الأنبياء والمرسلين نصرة الله لهم وحفظه إياهم ، فإنّه يستحيل على الله تعالى أن يتقول عليه متقول ، فيدعي أنّه مرسل من عند الله وهو كاذب في دعواه ، ثمَّ بعد ذلك يؤيده الله وينصره ، ويرسل الملائكة لتثبيته وحمايته ، لو فعل هذا ملك من ملوك الأرض ، فادعى مدع أنّه مرسل من قبله كذبا وزورا ، وعلم بذلك الملك المفترى عليه ، فإنّه سيلاحقه ، وإذا ظفر به فسيوقع به أشدَّ العذاب ، فكيف يليق بخالق الكون العليم الحكيم أن يرى ويسمع رجلا يكذب عليه ويزعم أنّه رسوله ، ويحلل باسمه ويحرم ، ويشرع الشرائع ، ويضرب الرقاب ، ويزعم أنه يفعل ذلك بأمر الله وبرضاه ومشيئته ، ثم يؤيده الله وينصره ، ولا يوقع به عقابه وعذابه ؟ هذا لا يكون ابدا ، وإن وقع مثل هذا من كاذب مارق وظهر أمره ، وقويت شوكته يوما ، فلن يطول ذلك ، ولا بدَّ أن يكشف الله أمره ، ويهتك ستره ، ويسلط عليه من يقهره ، ويجعله عبرة لغيره ، كما فعل الله بمسيلمة وسجاح والأسود العنسي من قبل[1] .

وقد أشار الله تعالى لهذا النوع من الاستدلال فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ « سورة النحل/١١٦ » فحكم عليهم بعدم الفلاح ، وقال : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ

---

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٥ ـ ١٦٧ وقد استدل بشيء قريب من هذا ابن القيم في كتابه هداية الحيارى انظر الجامع (ص ٥٦٢)

﴿الْوَتِينَ﴾ « سورة الحاقة/ ٤٤ ـ ٤٦ » والمعنى أنَّ الرسول ﷺ لـو تقوَّل على الله ما لم يقله الله لأهلكه الله .

وهذا الدليل ذو تأثير كبير على نفوس الناس ، فإن العرب لمّا رأت انتصار الإسلام صدقت وآمنت ودخلت في دين الله أفواجا **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً﴾** « سورة النصر/١ ـ ٢ » .

شبهة

وما يذكره بعض المكذبين برسالة محمد ﷺ من أنَّ النصر تمَّ لفرعون ونمرود وجنكيزخان وغيرهم من الملوك الكفرة في القديم والحديث ، جوابه ظاهر ، فإن هؤلاء لم يدع أحد منهم النبوة ، وأن الله أمره أن يدعو إلى عبادته وطاعته ، ومن أطاعه دخل الجنّة ، ومن عصاه دخل النار بخلاف من ادعى أن الله أرسله ، ثمَّ يؤيده الله وينصره ، وينصر أتباعه ويجعل العاقبة لهم فـإنّه لا يكون إلاّ رسولا صادقا ، فلو كان كاذبا فلا بدَّ أن ينتقم الله منه ، ويقطع دابره ، واعتبر في هذا بحال مسيلمة والأسود العنسي وسجاح ، واعتبر هذا بحال المسيح الدجال ، فإنّه يفتري على الله الكذب ويدعي الألوهية ، فيكشف الله ستره ، ويظهر أمره لمن كان عنده بصيرة ، فهو رجل أعور ، مكتوب بين عينيه كافر ، وإنّما يلتبس أمره على من لم يرزق نور الإيمان .



الفصل الثامن

فَضلُ الأنبياءِ وَتَفاضُلُهُم



فضل الأنبياء على غيرهم

خلق الله الخلق وفاضل بينهم : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ « سورة القصص/٦٨ » وقد اختار من أرضه مكة ، فجعلها مقرَّ بيته العتيق الذي من دخله كان آمنا ، وجعل أفئدة الناس تهوى إليه ، وأوجب على الناس الحج إليه من استطاع إليه سبيلا ، وحرّم صيده وقطع شجره ، وجعل الأعمال الصالحة فيه مضاعفة ، وجعل إرادة الظلم فيه مستحقّة العذاب الأليم ، ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ « سورة الحج/٢٥ » واختار من الشهور شهر رمضان ، ومن الليالي ليلة القدر ، ومن الأيام يوم عرفة ، ومن أيام الأسبوع يوم الجمعة ، وفاضل الله بين الملائكة فاختار منهم الملائكة الذين يحملون رسالته إلى رسله وأنبيائه ، واصطفى الله من بني آدم الأنبياء ، فالأنبياء أفضل البشر ، وأفضل الأنبياء الرسل ، ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ « سورة الحج/٧٥ » .

وقد أجمعت الأمّة على تفضيل الأنبياء[1] على غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحين .

ويدلُّ على تفضيلهم قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٢١/١١ .

وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ « سورة الأنعام/٨٣ ـ ٨٦ » .

وقد أخبر الرسول ﷺ أنّه « ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر » .

ويؤخذ من الحديث أن الأنبياء والمرسلين أفضل الخلق ، وأنَّ أفضل رجل بعدهم أبو بكر الصديق .

وقريب من هذا الحديث قول الرسول ﷺ في أبي بكر وعمر « هذان سيدا كهول أهل الجنّة من الأولين والآخرين ، إلاّ النبيين والمرسلين » وقد رتب الله عباده السعداء الذين أنعم عليهم أربع مراتب ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ « سورة النساء/٦٩ » .

فأول هذه المراتب وأعلاها الأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء ، ثم الصالحون .

لا مجال للمصادفة

قد يظنّ ظانٌّ أنَّ للمصادفة هنا محلاّ ، وأن من الأنبياء من أصابته النبوة وهو لا يستحقها ، معاذ الله ، ولكنَّ الله العليم الحكيم الخبير نظر في معادن العباد وقلوبهم واختار منهم واصطفى الأفضل الأكمل ، وصدق الله إذ يقول : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ « سورة الأنعام/١٢٤ » .

إنَّ حكمة الله وعلمه قاضيان بأن لا تمنح النبوة والرسالة إلاّ للمستعدّ لها والقادر على حملها[١]، وإذا تأملت في سيرة أنبياء الله ورسله رأيتهم أبرَّ الناس

(١) المهتدون بهدى الكتاب والسنة يرون أنَّ الرسل أفضل الخلق وأكملهم ، وقد اختارهم العليم الخبير كي يكونوا سفراءه إلى خلقه ،وينبغي أن نفرق بين ما جبلهم الله عليه من الفضائل والمزايا ،وبين ما أوحاه إليهم ،فالذي =

قلوبا ، وأعمقهم علما ، وأحضرهم بديهة ، وأشدّهم تحملا ، وأرقهم طباعا ، . . . فلا عجب أن يختارهم الله ليكونوا أمناء وحيه ، والعاملين على اقامة دينه ، فهم القمم السامقة التي تعجز النفوس عن أن تبلغ مداها .

= أوحى إليهم به لم يكن لهم به علم ،وليس لذكائهم وفطنتهم من شيء فيه ،ولذلك قال الله لرسوله :﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾ « سورة الشورى/٥٢ » وهذا يردّ على ذلك الصنف من الذين يزعمون أنهم يعظمون الرسول ﷺ ، ويصفونه بالعبقريّة ، ثمّ ينسبون كلّ شيء إلى عبقريته ، حتى العلوم التي جاء بها ، وهذه خدعة ماكرة ، يريدون من ورائها إنكار الوحي ، ونسبة هذه العلوم الإلهية الربانيّة إلى العبقرية المحمديّة ، ونحن في الردّ عليهم لا نشتط فننكر مزايا الرسول وفضله ، ولكننا نبطل باطلهم ، ونثبت الجانب الحقّ فيه ، وهو أنّ محمدا ليس عبقريا فقط ، بل هو مع ذلك رسول ربّ العالمين .

تفضيل الأئمة على الأنبياء

وقد خالفت في هذه المسألة التي أجمعت عليها الأمّة طوائف من الذين ينتسبون إلى الإسلام ، فمن هؤلاء الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، يقول عالم من علمائهم البارزين المعاصرين[1] في هذا الموضوع : « إن من ضرورات مذهبنا أنّ لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل »[2] وقال أيضا « ورد عنهم (أي الأئمة) : إنّ لنا مع الله حالات ، لا يسعها ملك مقرب ، ولا نبيٌّ مرسل ، ومثل هذه المنزلة موجودة لفاطمة الزهراء »[3] [4].

---

(١) هو الخميني الذي فجرّ الثورة في إيران .

(٢) انظر كتاب الحكومة الإسلامية للخميني ص ٥٢ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) غلا الخميني في الأئمة غلوا عظيما فقد رفعهم فوق مرتبة البشر ، وعدهم في مرتبة الآلهة ، يقول في كتاب الحكومة الإسلامية ص ٥٢ : « إن للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات الكون » ولا أفهم من هذه الخلافة التكوينيّة التي تخضع لها جميع ذرات الكون إلا تلك التي حدثنا الله بها عن نفسه ﴿إنّما أمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ « سورة يس/٨٢ » . ويقول في الكتاب السابق أيضا : « والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارا ، فجعلهم الله بعرشه محدقين ، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله » تأمل كيف وصفهم بأنهم كانوا موجودين قبل خلق العالم ، وكان وجودهم نورا ، وكانوا محدقين بالعرش ، وكل ذلك من الغلو الشديد المخالف لصريح الكتاب والسنة .

وبعد اعداد هذا البحث وقبل دفعه الى المطبعة طالعتنا وكالات الأنباء والصحف بكلام للخميني لا يقلّ خطورة عن الكلام الذي أثبتناه من كتابه ، قاله بمناسبة ميلاد المهدي الغائب الذي تزعم الشيعة اختفاءه منذ أكثر من ألف عام ويزعمون بقاءه حيّا وأنّه سيعود مرة أخرى ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما .

وفي كلامه هذا يزعم أن الأنبياء والرسل جميعا وفيهم محمد ﷺ لم ينجحوا في اصلاح البشريّة وتنفيذ العدالة وأن الذي سينجح في ذلك هو المهدي المنتظر ، وأنه الشخص الوحيد في العالم الذي سيحقق ذلك . =

قال الألوسي رحمه الله في « مختصر التحفة ص ١٠٠ » مبينا قول الشيعة في هذه المسألة : « أجمع الإمامية على أن الأمير أفضل من غير أولي العزم من الرسل والأنبياء ، وليس بأفضل من خاتم النبيين عليه وعليهم السلام ، وأما غيره من سائر أولي العزم فقد توقف فيه بعضهم كابن المطهر الحلي وغيره ، ويعتقد بعضهم أنه مساوٍ لهم ، وهذا مخالف لما ورد عن الأئمة ، فقد روى الكليني عن هشام الأحول عن زيد بن علي أن الأنبياء أفضل من الأئمة ، وأن من قال غير ذلك فهو ضال ، وروى ابن بابويه عن الصادق ما ينصّ على أن الأنبياء أحبُّ إلى الله من عليٍّ » .

وقد ردّ الألوسي ـ رحمه الله ـ قولهم بنصوص الكتاب وبالمعقول وبتضعيف النصوص التي اعتمدوا عليها لضعف رجالها ، ولكونها معارضة للنصوص الأخرى الموجودة في كتبهم . وهي ردود شافية لمن أراد معرفة الحقّ واتباعه فارجع إليه .

وقد ترددت هذه الأقوال المفضلة للأئمة على الأنبياء في كتب الشيعة كثيرًا ، فقد ذكر علي موسى البهبهاني في كتابه مصباح الهداية في اثبات الولاية[1] « ص

= يقول في كلامه الذي نشرته بنصه صحيفة الرأي العام الكويتيّة بتاريخ (١٩٨٠/٦/٣٠) « الأنبياء جميعا جاؤ وا من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم كلّه ، **لكنهم لم ينجحوا ، وحتى ان النبيَّ محمدا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء الذي جاء لإصلاح البشريّة وتنفيذ العدالة لم ينجح في ذلك في عهده . . . وأن الشخص الذي سينجح في ذلك ويرسي قواعد العدالة في جميع أنحاء العالم ويقوم الانحرافات هو المهدي المنتظر** » .

لا والله ما ذلك بحق وليس بصدق ، فإنّ أحدا لم ينجح نجاح محمد ﷺ في تحقيق العدالة ، ولن يأتي أحد بعده يحقق ما حققه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . ويؤكد الخميني هذا المعنى فيقول : « لا يوجد في العالم أحد سوى المهدي من أجل تنفيذ العدالة بمعناها الحقيقي . . » ويقول : « إنَّ الامام المهدي عليه السلام سيعمل على نشر العدالة في جميع انحاء العالم وسينجح فيما فشل في تحقيقه الأنبياء والأولياء بسبب العراقيل التي كانت في طريقهم . . . » ومن هنا يرى الخميني أن عيد المهدي هو أكبر أعياد المسلمين « إن عيد المهدي هو أكبر عيد للبشرية بأجمعها » وهذا يعني أنه أعظم من عيد الفطر والأضحى ، وقد فضله على عيد مولد المصطفى ﷺ من جهة : « إن هذا العيد الذي هو عيد كبير بالنسبة للمسلمين يعتبر أكبر من عيد ميلاد النبي عليه السلام من جهة واحدة ، ويقول : « إن عيده هو عيد جميع أبناء البشريّة ، لأنّه سيهدي جميع أبناء البشر » .

وختم كلامه مفضلا إياه على غيره : « إني لا أتمكن من تسميته بالزعيم لأنّه أكبر وأعظم وأرفع من ذلك ، ولا أتمكن من تسميته بالرجل الأوّل لأنه لا يوجد أحد بعده ، وليس له ثان ولذلك لا اتمكن من التعبير عنه بأيِّ كلام سوى المهدي المنتظر الموعود » إننا لا نستغرب مثل هذا الكلام بعد ما قرأناه في كتاب الحكومة الإسلامية . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) هذه النقول أخذناها بمصادرها من كتاب الامامة للدكتور علي أحمد السالوس ص ١٩ .

٦١ - ٦٢ » أن الأمامة مرتبة فوق النبوة .

ولذلك فقد حكموا بكفر من أنكر إمامة أئمتهم أو إمامة واحد منهم ، قال ابن بابويه القمي الملقب عندهم بالصدوق :

« اعتقادنا فيمن جحد إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من بعده أنّه كمن جحد نبوة جميع الأنبياء ، واعتقادنا فيمن أَقَرَّ بأمير المؤمنين وأنكر واحدا من بعده من الأئمة أنّه بمنزلة من أقرَّ بجميع الأنبياء وأنكر نبوّة نبينا محمد » « رسالته في الاعتقادات ص ١٠٣ »

وقال المفيد : « اتفقت الإمامية على أنَّ من أنْكر إمامة أحد من الأئمة ، وجحد ما أوجبه الله تعالى له من فرض الطاعة ، فهو كافر ضال مستحق للخلود في النار » بحار الأنوار للمجلسى « ٣٩٠/٢٣ » والمجلسى ذكر قول المفيد لتأييد رأيه .

ويرى بعضهم أنَّ إنكار الإمامة شر من إنكار النبوة ، يقول العلامة الحلي الملقب عند الجعفرية بالعلامة : « الإمامة لطف عام ، والنبوة لطف خاص ، لإمكان خلو الزمان من نبي حي بخلاف الإمام ، وإنكار اللطف العام شرٌّ من انكار اللطف الخاص » « كتاب الألفين في إمامة أمير المؤمنين للحسن بن يوسف المطهر الحلي ٣/١ » ، وعقب أحد علمائهم على هذا بأنّه « نعم ما قال » وأضاف : « وإلى هذا أشار الصدوق بقوله عن منكر الامامة هو شرّ الثلاثة ، فعنه أنه قال : الناصبي شرّ من اليهودي ، قيل : وكيف ذلك يا ابن رسول الله ؟ فقال : إن اليهودي منع لطف النبوة وهو خاص ، والناصبي منع لطف الإمامة وهو عام » « انظر حاشية ص ٤٣ من كتاب النافع يوم الحشر لجمال الدين المقداد بن عبد الله السيوري » .

خاتم الأولياء وخاتم الأنبياء(١)

وزعم بعض المتصوفة أنَّ الولاية أفضل من النبوة ، وزعم هؤلاء أنَّ خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، ومن هؤلاء الذين زعموا هذا الزعم الباطل الحكيم الترمذي ، وابن عربي القائل بوحدة الوجود ، وهؤلاء كذبوا فيما ذهبوا إليه ، فلم يرد في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ أنَّ هناك خاتما للأولياء ، ولم يرد أنَّه أفضل من غيره من الأولياء فضلا عن أن يكون خيرهم ، ولم يتكلم في هذه المسألة أحد من الذين لهم باع في العلم ممن يقتدى ويتأسى بهم .

وأصل غلطهم أنَّهم نظروا فوجدوا أنَّ محمدا - ﷺ - خاتم الرسل ، وأفضل الرسل ، فقالوا : هو أفضلهم لأنّه آخرهم ، وهذا فاسد فالتأخر والتقدم ليس عليه مدار التفضيل ، ولذلك كان إبراهيم متقدما وهو أفضل من موسى ، وإبراهيم وموسى متقدمان وهما أفضل من عيسى ، وصحَّ عن الرسول - ﷺ - أنَّ أفضل هذه الأمة صحابته الذين كانوا معه ، ولو أنَّ المسلم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه ، وثبت عنه أنه قال : « خير القرون قرني ثمَّ الذين يلونهم ، ثمَّ الذين يلونهم » .

وفي العلوم قد ينبغ المتقدم نبوغا لا يدرك شأوه المتأخر واعتبر في هذا بسيبويه في علم النحو ، وقد يكون هذا في العلوم المترقية التي يكمل المتأخر فيها

(١) راجع في هذه المسألة : لوامع الأنوار البهية ٢/ ٣٠٠ ، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/ ٢٢٢ ، ١١/ ٢٢١ ، ٣٦٣ .

المتقدم صحيحا ، أمّا في النبوة والرسالة فالأمر مختلف ، إذ النبوة وعلومها هبة إلهية ، ومنحة ربانية ، لا تنال بالكسب والمجاهدة ، وقد فتحت هذه المقالة باب شرّ ، فأصبح كلّ من ظنَّ في نفسه خيرا ، وكلّ من أراد بهذه الأمّة شرا يزعم أنّه خاتم الأولياء ، وأنّه يأخذ علومه عن الله من غير واسطة ، وهذا ضلال كبير ، فليس لأحد من هذه الأمة أن يزعم أنّه أفضل من أحد من الأنبياء ، وليس لأحد يزعم الصلاح أن يتعبد الله بطريقة تخالف طريقة الرسول ﷺ .

تفاضل الأنبياء والرسل

أخبرنا الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ أنّه فضّل بعض النبيين على بعض ، كما قال جلّ وعلا : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَآتَيْنَا دَاودَ زَبُوراً﴾ « سورة الإِسراء/٥٥ »

وقد أجمعت الأمّة على أنَّ الرسل أفضل من الأنبياء ، والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم كما قال تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمَ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ « سورة البقرة/ ٢٥٣ » .

أولو العزم من الرسل هم أفضل الرسل

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة : محمد ﷺ ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل ، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ « سورة الأحقاف/٣٥ » ، وقد ذكرهم الله في كتابه في أكثر من موضع ، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ « سورة الشورى/١٣ » .

وفي قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ، وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾ . « سورة الأحزاب/٧ » .

بم يتفاضل الأنبياء والرسل ؟

الذي يتأمل في الآيتين اللتين أخبرتا بتفاضل الأنبياء والرسل يجد أن الله فَضّل مَنْ فَضّل منهم باعطائه خيرا لم يعطه غيره ، أو برفع درجته فوق درجة غيره ، أو باجتهاده في عبادة الله والدعوة إليه ، وقيامه بالأمر الذي وكل إليه .

فداود عليه السلام فضله الله بإعطائه الزبور ، ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ « سورة الإسراء/٥٥ » ، واعطى الله موسى التوراة ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ « سورة البقرة/٥٣ » والكتاب هو التوراة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدَىً وَنُورٌ﴾ « سورة المائدة/٤٤ » وأعطى عيسى الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدَىً وَنُورٌ﴾ « سورة المائدة/٤٦ » .

وقد اختص الله آدم بأنّه « أبو البشر ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له » .

وفضل نوحاً بأنّه « أوّل الرسل إلى أهل الأرض ، وسمّاه الله عبدا شكوراً » .

وفضل إبراهيم باتخاذه خليلا ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ « سورة النساء/١٢٥ » وجعله للناس اماما ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ « سورة البقرة/١٢٤ »

وفضل الله موسى برسالاته وبكلامه ، ﴿إني اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي

---

(١) الأنبياء والرسل يتفاوتون في الفضل كما بينا هنا بتفضيل الله لهم وبما أعطاهم إياه من خير ، وبعض الناس ينسبون إلى الأنبياء والرسل أمورا يظنون انهم يعظمونهم بها فيخرجون عن دائرة الصدق والعدل ، فمن ذلك دعاء كثير من المسلمين للرسول ﷺ قائلين : « يا أوّل خلق الله ، يا نور عرش الله » وهذا القول جمع أنواعا من الضلال ، منها دعاء الرسول ﷺ ونداءه ، وهذا لا ينبغي إلاّ لله فهو المدعو دون سواه .

ومنها الادعاء بأن الرسول ﷺ خلق من نور ، وأنه أوّل خلق الله ، وهذا لا برهان عليه إلاّ أحاديث باطلة لم يصح إسنادها ، فأوّل ما خلق الله القلم الذي كتب مقادير كلّ شيء ، والرسول ﷺ مخلوق مما خلق منه البشر ، وكونه مخلوقاً مما خلق منه البشر وانه في آخر الخلق لا يضيره ، فالمخلوقات لا تتفاضل باعتبار ما خلقت منه فقط ، فقد يخلق المؤمن من كافر ، والكافر من مؤمن ، كابن نوح منه ، وإبراهيم من آزر ، وآدم خلقه الله من طين ، فلما سوّاه ، ونفخ فيه من روحه ـ أسجد له ملائكته وفضله عليهم بتعليمه أسماء كلّ شيء ، وبخلقه إياه بيده .

وَبِكَلامِي﴾ « سورة الأعراف/١٤٤ » واصطنعه لنفسه ﴿واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ « سورة طه/٤١ » .

وفضل عيسى بأنّه رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكان يكلّم الناس في المهد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ « سورة النساء/١٧١ » .

ويتفاضل الأنبياء من جهة أخرى ، فالنبيّ قد يكون نبيّاً لا غير ، وقد يكون نبيّا ملكا ، وقد يكون عبدا رسولاً ، « فالنبي الذي كُذِّب ، ولم يتبع ، ولم يطع ، هذا **نبيٌّ وليس بملك، أمّا الذي صدق،واتبع ، وأطيع ، فإن كان لا يأمر إلاّ بما أمره** الله به فهو عبد نبي ليس **بملك** ، وإن كان يأمر بما يريده مباحا له فهو نبي ملك ، كما قال الله لسليمان : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ « سورة ص/٣٩ » .

فالنبيّ الملك هنا قسيم العبد الرسول ، كما قيل للنبيّ ﷺ : « اختر إمّا عبداً رسولا ، وإمّا نبيا ملكا » وحال العبد الرسول أكمل من حال النبيّ الملك ، كما هو حال نبينا محمد ﷺ ، فإنّه كان عبدا رسولا ، مؤيدا مطاعا متبوعا ، وبذلك يكون له مثل أجر من اتبعه ، وينتفع به الخلق ، ويرحموا به ، ويرحم بهم ، ولم يختر ان يكون ملكا ، لئلا ينقص ، لما في ذلك من الاستمتاع بالرياسة والمال ، عن نصيبه في الآخرة .

فالعبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك ، ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى بن مريم أفضل عند الله من داود وسليمان ويوسف »[1] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام .

فضل الرسول الخاتم محمد ﷺ

عندما يبعث الله الأوّلين والآخرين في يوم الدين يكون رسولنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه سيّد ولد آدم ، بيده لواء الحمد ، والأنبياء والمرسلون في ذلك اليوم تحت لوائه ، يقول الرسول ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبيٍّ يومئذٍ آدم فمن سواه إلاّ تحت لوائي ، وأنا أوّل شافع ، وأوّل مشفَّع ، ولا فخر » رواه أحمد والترمذي وابن ماجة[1] .

وعندما يشتدُّ الكرب بالنّاس في ذلك اليوم يستشفع النّاس بالرسل العظام ليشفعوا إلى الله ليقضي بين عباده فيتدافعها الرسل ، كلٌّ واحد يقول اذهبوا إلى غيري حتى إذا أتوا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال : « اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر » .

هذا فضله في ذلك اليوم العظيم ، وما ذلك إلاّ لما حباه الله به من عظيم الصفات ، وكريم الأخلاق ، والمجاهدة في الله ، والقيام بأمره ، وقد فضله الله في نفسه ودعوته وأمته بفضائل ، فمن ذلك أنّه اتخذه خليلا كما اتخذ الله إبراهيم خليلا ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه وأبو عوانة « إنّ الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا »[2] ، وآتاه القرآن العظيم الذي لم يعط أحد من

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٢/٢١)

(٢) تحقيق الطحاوية . انظر شرح الطحاوية ص ١٧٥ .

الأنبياء والرسل مثله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ « سورة الحجر/٨٧ » .

وخصّه الله دون غيره بستٍّ لم يعطها أحد من الأنبياء قبله ، ففي الحديث : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلّت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت الى الخلق كافّة ، وختم بي النبيون » رواه مسلم والترمذي[1] .

يخبر الرسول ﷺ بأنَّ الله فضله على غيره بست ، أوتي جوامع الكلم ، وذلك بأن يجمع في القول الوجيز المعاني الكثيرة .

ونصر بالرعب ، وذلك بما يلقيه الله في قلوب أعدائه من الخوف من رسوله وأتباع رسوله ﷺ .

وأحلّت له الغنائم ، وكانت غنائم من قبلنا من الرسل وأتباعهم تجمع ثمَّ تنزل نار من السماء تحرقها .

وجعلت له ولأمّته الأرض مسجدا وطهورا ، فحيثما أدركت رجلا من هذه الأمّة الصلاة فبإمكانه أن يتوضأ فإن لم يجد يتيمم ، ثمّ يصلي في مسجد مقام ، أو في منزل أو في الصحراء .

وأرسل إلى النّاس كافّة عربهم وعجمهم أبيضهم وأصفرهم وأحمرهم[2] ، من كان في وقت بعثته ومن يأتي من بعده حتى تقوم الساعة : ﴿يَأَيها النَّاسُ إنّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ جَمِيعَاً﴾ « سورة الأعراف/١٥٨ » .

---

(١) صحيح الجامع (٢١/٢) .

(٢) يزعم (نهرو) في كتابه لمحات من تاريخ العالم أنَّ محمدا مرسل إلى العرب خاصّة ، وهذا الزعم قال به طوائف من النصارى في القديم والحديث ، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه الجواب الصحيح ، في الردّ على شبهات رجل نصراني ، واحدى تلك الشبهات التي أطال شيخ الإسلام في الرد عليها زعم ذلك النصراني أن محمدا مرسل إلى العرب دون سائر الأمم ، ويكفي في الردّ على هذه الفرية أن نبين لهؤلاء تناقضهم ، فإن اقرارهم بكونه نبيًا مرسلا يقتضي تصديقه فيما أخبر ، وقد أخبر ببعثته إلى الناس كافة ، فاذا آمنوا بأنه نبيٌّ مرسل ، ثمَّ كذبوه ، وقالوا : أنت مرسل إلى العرب وحدهم ، فقد تناقضوا تناقضا بينا ، ووضح أنّ مرادهم تبرير كفرهم به .

وأرسله إلى الجنّ كما أرسله إلى الإنس ، وقد رجع وفد الجنّ بعد استماع القرآن ، والإيمان بما نزل من الحق . داعين قومهم إلى الإيمان : ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ « سورة الأحقاف/ ٣١ ـ ٣٢ » .

والفضيلة السادسة أنّه خاتم الأنبياء فلا نبيّ بعده ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ « سورة الأحزاب/ ٤٠ » .

وإذا كان رسولنا خاتم الأنبياء فهو خاتم المرسلين ، ذلك أنَّ كل نبيّ رسول .

ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين أنّه لا يبعث رسول من بعده يغير شرعه[1] ، ويبطل شيئا من دينه ، أمّا نزول عيسى آخر الزمان فهو حقٌّ وصدق ـ كما أخبر المصطفى ﷺ ـ ولكنه لا ينزل ليحكم بشريعة التوراة والانجيل ، بل يحكم بالقرآن ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويؤذن بالصلاة .

---

(١) ظهر بعد بعثة الرسول ﷺ مجموعة من أدعياء النبوة ، كمسيلمة والأسود العنسي وسجاح ، ولا يزال يظهر بين الفينة والفينة دعي من أمثال هؤلاء ، وقد ظهر في القرن الماضي علي محمد الشيرازي (ولد سنة ١٨١٩ م) ولقب بالباب ، وأتباعه يدعون البابية ، وادعى النبوة حينا والألوهية حينا ، وسار على نهجه تلميذه الذي لقب (ببهاء الله) وأتباعه يدعون البهائية ، ومن هؤلاء الأدعياء ميرزا غلام أحمد القادياني ، وله اتباع منتشرون في الهند والمانيا وانكلترا وأمريكيا ، ولهم فيها مساجد يضلون بها المسلمين ، وكانوا يسمون بالقاديانية ، وهم يسمّون اليوم ـ أنفسهم بالأحمدية امعانا في تضليل عباد الله .

وآخر هؤلاء الأدعياء رجل ظهر في السودان يدعى أنّه نبيّ وقد تكفل الله بفضح كل من ادعى هذه الدعوى وهتك ستره . ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ « سورة يونس/ ٦٩ » .

النصوص التي تنهى عن التفضيل بين الأنبياء

وردت أحاديث تنهى المسلمين عن تفضيل بعض النبيين على بعض ، فمن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري عن الرسول ﷺ ، قال : « لا تخيروا بين الأنبياء »[1] وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تفضلوا بين الأنبياء[2] » . أي لا تقولوا فلان خير من فلان ، ولا فلان أفضل من فلان ، يقال خيّر فلان بين فلان وفلان ، وفضل بينهما ، إذا قال ذلك .

فهذه الأحاديث لا تعارض النصوص القرآنية التي تدلُّ على أنَّ الله فضَّل بعض الأنبياء على بعض، وبعض المرسلين على بعض ، وينبغي أن يحمل النهي الذي ورد في الأحاديث على النهي عن التفضيل إذا كان على وجه الحميّة والعصبيّةوالانتقاص ، أو كان هذا التفضيل يؤدي إلى خصومة أو فتنة[3] ، يدلنا على هذا سبب الحديث ، ففي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : « استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمدا ﷺ على العالمين - في قسم يقسم به - فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم عند ذلك يده ، فلطم اليهودي ، فذهب اليهودي عند ذلك إلى النبي ﷺ ، فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم ، فقال : لا تخيّروني على موسى ، فإنَّ الناس يصعقون ، فأكون

---

(١) متفق عليه مشكاة المصابيح (١١٤/٣)

(٢) أخرجه البخاري مشكاة المصابيح (١١٤/٣)

(٣) راجع شرح الصحاوية ص ١٧٠ .

أوّل من يفيق ، فإذا أنا بموسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي ، أو كان مِمَّن استثنى الله »[1] .

وفي رواية عند البخاري : « لا تفضلوني على الأنبياء » ، وفي رواية « لا تخيروا بين الأنبياء » .

قال ابن حجر في هذه المسألة : « قال العلماء في نهيه عن التفضيل بين الأنبياء : إنَّما نهى عن ذلك من يقوله برأيه ، لا من يقوله بدليل ، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول ، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع ، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة »[2] .

ونقل عن بعض أهل العلم أنه قال : « الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنّما هي في مجادلة أهل الكتاب وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة ، لأنَّ المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر فيفضي إلى الكفر ، فأمّا إذا كان التخيير مستندا إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل في النهي »[3] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب وفاة موسى وذكره بعد ، انظر فتح الباري (٦/٤٤١)

(٢) فتح الباري (٦/٤٤٦)

(٣) المصدر السابق ، ولمزيد من البحث راجع تفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبي عند تفسيرهما الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .

الباب الثاني

الرِّسالاتُ السَّماوِيَّة



الفصل الأول

الإيمانُ بالرّسالاتِ



وجوب التصديق بالرسالات

من أصول الإيمان التصديق الجازم بالرسالات التي أنزلها الله إلى عباده بواسطة رسله وأنبيائه ، والتصديق بأنهم بلّغوها للناس ، قال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ﴾ « سورة الأعراف/١٤٤ » .

وقد أثنى الله على رسله الذين يبلغون رسالاته ولا تأخذهم في الله لومة لائم ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ ﴾ « سورة الأحزاب/٣٩ » .

وقد كان هلاك الأمم بسبب التكذيب برسالات الله ، انظر إلى موقف صالح بعد أن حلَّ الهلاك بقومه : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ « سورة الأعراف/٧٩ » وموقف شعيب بعد هلاك قومه ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، وَقَالَ : يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آسى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ . ﴾ « سورة الأعراف/٩٣ » .

الايمان بالرسالات كلها

والذي أوحاه الله لرسله قد يكون نزل من السماء مكتوبا كالتوراة التي أنزلت على موسى ، قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ « سورة الأعراف/١٤٥ »

وقد يكون كتابا ولكنه أنزل إلى الرسول بالتلاوة والمشافهة كالقرآن ﴿ **وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً** ﴾ « سورة الإسراء/١٠٦ » .

والمنزل من السماء قد يجمعه كتاب كصحف ابراهيم والكتب المنزلة على موسى وداود وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد يكون وحيا يلقى الى الرسول أو النبيّ ، وليس بكتاب ، وذلك كالوحي المنزل إلى اسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط والموحى به إلى نبينا من غير القرآن .

ويجب الإيمان بالوحي المنزل كلّه ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ « سورة البقرة/١٣٦ »

وقال الله لرسوله ﴿ **وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ** ﴾ « سورة الشورى/١٥.» وقال للمؤمنين : ﴿ **يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ** ﴾ « سورة النساء/١٣٦ » . فما أعلمنا الله به تفصيلا كالكتب التي ذكرها وهي صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى والقرآن المنزل على محمد ﷺ ، وكتكليم الله لموسى ، وإيحاء الله إلى صالح وهود وشعيب ، ووحي الله إلى رسوله محمد ﷺ من غير القرآن وقد تضمنته كتب السّنة ـ نؤمن به تفصيلا كما أخبر الله تعالى ، ونؤمن بأنَّ هناك كتبا ووحيا غير ذلك لم يعلمنا الله سبحانه بها .

كيف يكون الإيمان بالرسالات

ونحن نؤمن بما جاء في الكتب السماوية السابقة . وأنَّ الانقياد لها ، والحكم بها كان واجبا على الأمم التي نزلت اليها الكتب ونؤمن بأنَّ الكتب السماوية يصدق بعضها بعضا ، ولا يكذّب بعضها بعضا ، فالإنجيل مصدق للتوراة ، قال الله في الانجيل ﴿ **مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ** ﴾ « سورة المائدة/٤٨ » .

ومن أنكر شيئا مما أنزله الله فهو كافر ﴿ **وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ « سورة النساء/١٣٦ » وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ « سورة الأعراف/٤٠ » .

ونصدق بنسخ الشريعة اللاحقة للشريعة السابقة كليا أو جزئيا ، فقد أحل الله لآدم تزويج بناته من بنيه ثمَّ نسخ هذا ، ومما كان مباحا ليعقوب أن يجمع الرجل بين اختين في الزواج وفعله يعقوب ، ثمَّ نسخ ، والإنجيل أحلَّ بعض ما حرّم في التوراة ﴿ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ « سورة آل عمران/٥٠ » .

والقرآن نسخ الكثير مما في التوراة والإنجيل ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ « سورة الأعراف/١٥٧ » .

القرآن لا يكفي فيه مجرد التصديق .

الإيمان بالكتب السماوية السابقة تصديق جازم بها ، ومجرد التصديق لا يكفي في القرآن ، فلا بدَّ مع التصديق من الأخذ به والعمل بما أمر به وترك ما نهى عنه ﴿ المص ، كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ، لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ « سورة الأعراف/١ ـ ٣ » .

فالقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يصلنا بالله بعد بعثة الرسول ﷺ ، يقول الرسول ﷺ مخاطبا أصحابه : « أبشروا ، فإنَّ هذا القرآن بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتسمكوا به ، فإنّكم لن تهلكوا ، ولن تضلّوا بعده أبدا » رواه الطبراني في الكبير[١] .

(١) حديث صحيح ، صحيح الجامع (٦٦/١) .

فالقرآن هو العصمة من الضلال والهلاك لمن تمسك به ، وقد أكثر الرسول ﷺ من حثّ الأمّة على التمسك بهذا الكتاب ، ففي احدى خطبه قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس ! فإنّما أنا بشر ، يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ، ومن أخطأه ضلّ ، فخذوا بكتاب الله تعالى ، واستمسكوا به ، وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » رواه مسلم وأحمد[1] .

والفتن التي تمرُّ بالمسلم وتعصف بالأمة لا سبيل للخلاص منها إلا بالأخذ بهذا الكتاب ، وما أجمل هذا الوصف لكتاب الله ! « كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا تنقضي عجائبه ، ولاتشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم »[2] .

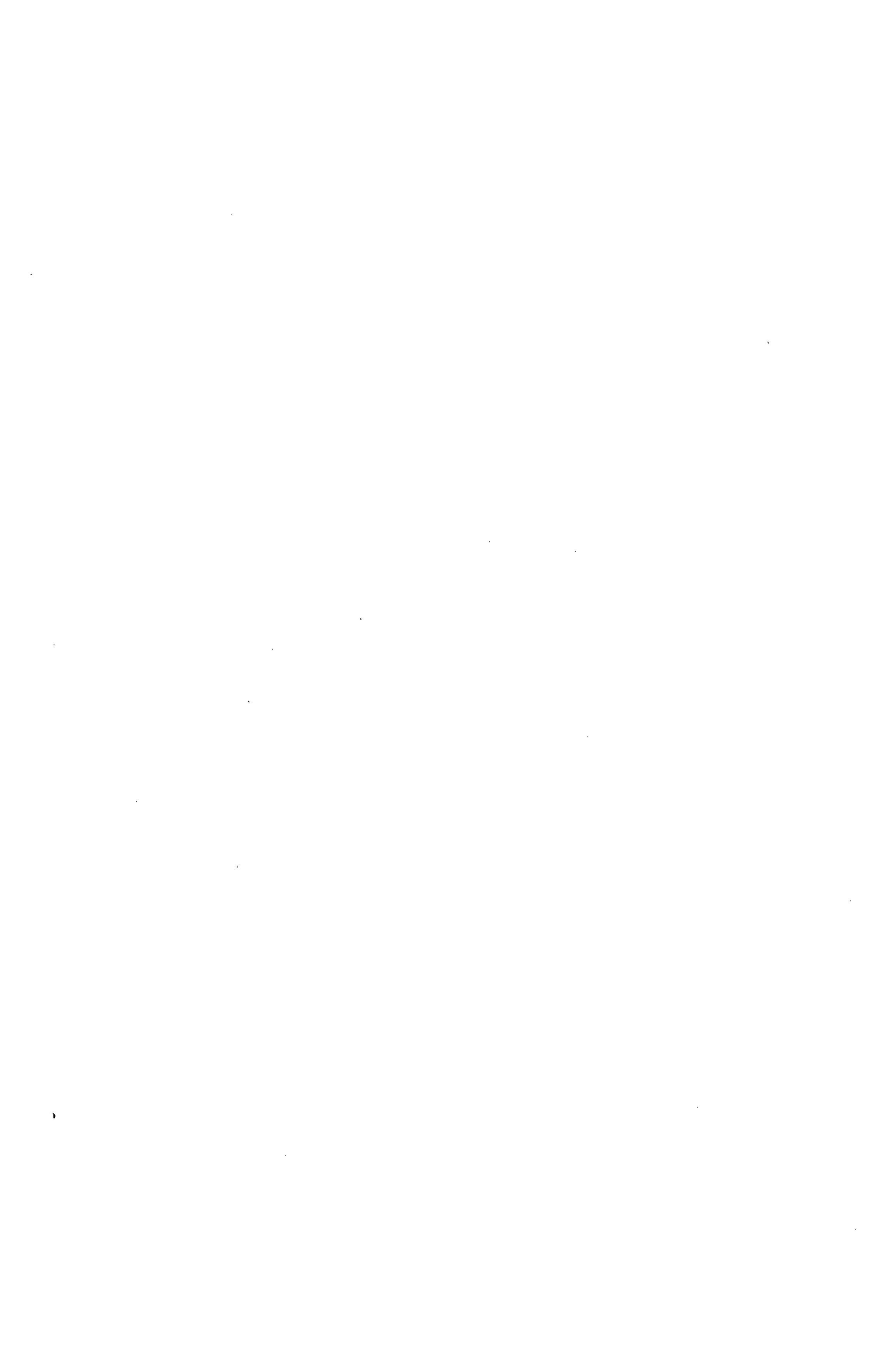
---

(١) صحيح الجامع (١/٤٢٦) .

(٢) هذا حديث رواه الترمذي وغيره قال الشيخ ناصر فيه (شرح الطحاوية ص ٦٨) : هذا حديث جميل المعنى . ولكن اسناده ضعيف ، فيه الحارث الأعور ، وهو لين ، بل اتهمه بعض الأئمة بالكذب . ولعل أصله موقوف على عليّ فأخطأ الحارث فرفعه إلى النبي ﷺ .

الفصل الثاني

مُقَارَنةٌ بَيْنَ الرّسَالاتِ



أولاً : مَصدرُهَا وَالغَايَةُ مِن إنزَالِهَا

الكتب السماوية مصدرها واحد ﴿ **الم الله لا إله إلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدَىً لِلنَّاسِ ، وَأَنْزَلَ الفرُقانَ** ﴾ « سورة آل عمران / ١ ـ ٤ » والكتب السماوية كلّها أنزلت لغاية واحدة وهدف واحد ، أنزلت لتكون منهج حياة للبشر الذين يعيشون في هذه الأرض . تقودهم بما فيها من تعاليم وتوجيهات وهداية ، أنزلت لتكون روحا ونورا تحيي نفوسهم وتنيرها ، وتكشف ظلماتها وظلمات الحياة .

وقد عرض القرآن الكريم في موضع واحد الهدف الذي أنزل الله من أجله التوراة والإنجيل والقرآن ، وهي أعظم الكتب المنزلة من عند الله ، قال تعالى : ﴿ **إنا أنزَلْنَا التَّوْرَاة فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيّونَ وَٱلْأَحبَارُ بِمَا استُحفِظُواْ مِن كِتَابِ ٱلله وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ، فَلَا تَخْشَوْاْ ٱلنَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ، وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱلله فَأولئك هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ، وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ، وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ، وَٱلْأنفَ بالأنفِ ، وَالأُذُنَ بالأذنِ ، وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ ، وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱلله فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ، وَقَفَّينَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيَسى بن مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوراةِ ، وآتَيْنَاه الإنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَوراة وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلّمُتَّقِينَ ، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ، وَمَن لمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ، وَأَنْزَلْنَا إلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحقّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَاب وَمُهَيْمِناً**

عَلَيْهِ ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ، وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ، وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ، أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ « سورة المائدة/٤٤ ـ ٥٠ » .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات الكريمة[١] : « لقد جاء كلّ دين من عند الله ليكون منهج حياة ، منهج حياة واقعيّة ، جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها ، ولم يجيء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير ، ولا ليكون مجرد شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل والمحراب . فهذه وتلك ـ على ضرورتهما للحياة البشريّة وأهميتها في تربية الضمير البشري ـ لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ، ما لم يقم على أساسها منهج ونظام وشريعة تطبق عمليا في حياة الناس ، ويؤخذ بها بحكم القانون والسلطان ، ويؤاخذ الناس على مخالفتها ، ويؤخذون بالعقوبات .

والحياة البشرية لا تستقيم إلّا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد ؛ يملك السلطان على الضمائر والسرائر ، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك ، ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا ، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة .

فأما حين تتوزع السلطة ، وتتعدد مصادر التلقي . . حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطات لغيره في الأنظمة والشرائع . . وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا . . حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين ، وبين اتجاهين مختلفين ، وبين منهجين

---

(١) انظر الجزء السادس من ظلال القرآن ص ٨٩٥ .

مختلفين . . وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلَّا اللّٰهُ لَفَسَدَتَا ﴾ « سورة الأنبياء/٢٢ » . ﴿ ولَو اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ « سورة المؤمنون/٧١ » . . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الذِينِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ « سورة الجاثية/١٨ » .

من أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة . وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى ، أو لأمة من الأمم ، أو للبشريّة كافّة في جميع أجيالها ، فقد جاء ومعه شريعة معينة لحكم واقع الحياة ، إلى جانب العقيدة التي تنشىء التصور الصحيح للحياة ، إلى جانب الشعائر التعبدية التي تربط القلوب بالله . . وكانت هذه الجوانب الثلاثة هي قوام دين الله . حيثما جاء دين من عند الله . لأنَّ الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة .

وفي القرآن الكريم شواهد شتى على احتواء الديانات الأولى ، التي ربما جاءت لقرية من القرى ، أو لقبيلة من القبائل على هذا التكامل ، في الصورة المناسبة للمرحلة التي تمر بها القرية أو القبيلة . . وهنا يعرض هذا التكامل في الديانات الثلاث الكبرى . . اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام . .

ويبدأ بالتوراة في هذه الآيات التي نحن بصددها في هذه الفقرة :

﴿ إنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيها هُدَىً وَنُورٌ ﴾ :

فالتوراة ـ كما أنزلها الله ـ كتاب الله الذي جاء لهداية بني إسرائيل ، وإنارة طريقهم إلى الله . وطريقهم في الحياة . . وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد . وتحمل شعائر تعبدية شتى ، وتحمل كذلك شريعة :

﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ، لِلَّذِينَ هَادُوا ، والرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ، بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ .

أنزل الله التوراة لا لتكون هدى ونوراً للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات فحسب . ولكن كذلك لتكون هدى ونوراً بما فيها من شريعة تحكم

الحياة الواقعية وفق منهج الله ، وتحفظ هذه الحياة في إطار هذا المنهج . ويحكم بها النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله ؛ فليس لهم في أنفسهم شيء ؛ إنما هي كلها لله ؛ وليست لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى في خصيصة من خصائص الألوهية - وهذا هو الإسلام في معناه الأصيل - يحكمون بها للذين هادوا - فهي شريعتهم الخاصة نزلت لهم في حدودهم هذه وبصفتهم هذه - كما يحكم بها لهم الربانيون والأحبار ، وهم قضاتهم وعلماؤهم . وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة على كتاب الله ، وكلفوا أن يكونوا عليه شهداء ، فيؤدوا له الشهادة في أنفسهم ، بصياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته ، كما يؤدوا له الشهادة في قومهم بإقامة شريعته بينهم . . »

وبدون الرسالة السماوية سيبقى البشر مختلفون تائهون لا يتفقون على سبيل ، ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ ، لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾ « سورة البقرة/٢١٣ » .

ثانيًا : الرّسالةُ العَامّةُ والرّسَالَةُ الخَاصّةُ

الرسالات السماوية السابقة أنزلت لأقوام بأعيانهم ، والرسالة الخاتمة التي أنزلت على خاتم الأنبياء والرسل رسالة عامّة للبشرية كلِّها ، وهذا يقتضي أن تمتاز هذه الرسالة عن غيرها من الرسالات بما يجعلها صالحة لكلّ زمان ومكان ، وقد جعلها الله كذلك ، وأنزل على رسوله ﷺ قبيل وفاته ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً** ﴾ « سورة المائدة/٣ » .

وقد بيّن سيد قطب ـ رحمه الله ـ هذا المعنى وجلاه في تفسيره لهذه الآية ، قال : «إنَّ المؤمن يقف أمام إكمال هذا الدين، يستعرض موكب الإيمان، وموكب الرسالات ، وموكب الرسل ، منذ فجر البشرية ، ومنذ أوّل رسول ـ آدم عليه السلام ـ إلى هذه الرسالة الأخيرة ، رسالة النبيّ الأميّ إلى البشر أجمعين . . فماذا يرى ؟ يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل ، موكب الهدى والنور ، ويرى معالم الطريق على طول الطريق ، ولكنه يجد كل رسول ـ قبل خاتم النبيين ـ إنما أرسل إلى قومه ، ويرى كلّ رسالة ، قبل الرسالة الأخيرة ـ إنَّما جاءَت لمرحلة من الزمان . . رسالة خاصة ، لمجموعة خاصة ، في بيئة خاصة . . ومن ثمَّ كانت تلك كلّ الرسالات محكومة بظروفها هذه ، متكيفة بهذه الظروف ، كلّها تدعو إلى إله واحد ـ فهذا هو التوحيد ـ وكلها تدعو إلى عـبودية واحدة لهذا الإله الواحد ـ فهذا هو الإسلام ـ ولكن لكلّ منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف .

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالته الى البشر أرسل إلى الناس كافة رسولا خاتم

النبيين برسالة « للإنسان » لا لمجموعة من الأناس في بيئة خاصة ، في زمان خاص ، في ظروف خاصة . . رسالة تخاطب « الإنسان » من وراء الظروف والبيئات والأزمنة ، لأنّها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ، ولا تتحور ، ولا ينالها التغيير : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ التِّي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيها ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ « سورة الروم/ ٣٠ » ، وفصّلٍ في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة « الإنسان » من جميع أطرافها ، وفي كلّ جوانب نشاطها ، وتضع لها المبادىء الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان ، وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان . . وكذلك كانت الشريعة بمبادئها الكلّية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة « الإنسان » منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان ، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات ، لـكي تستمر ، وتنمو ، وتتطور ، وتتجدد ، حول هذا المحور وداخل هذا الإطار »[1] .

وهذا المعنى ـ وهوكمال الرسالة وشمولها ـ أشار اليه القرآن في غير موضع كقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْء ﴾ « سورة النحل/ ٨٩ » وقال جلّ وعلا : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ « سورة الأنعام/٣٨ » .

لقد جمعت الشريعة الخاتمة محاسن الرسالات السابقة ، وفاقتها كمالا وجلالا ، يقول الحسن البصري رضي الله عنه : « أنزل الله مائة وأربعة كتب ، أودع علومها أربعة : التوراة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان (القرآن) ثمَّ أودع علوم الثلاثة الفرقان »[2].

---

(١) في ظلال القرآن ٤٨٢/٦ .

(٢) الإكليل للسيوطي (أضواء البيان ٣٣٦/٣) .

ثالثاً : حفظ الرسالات

لما كانت الرسالات السابقة مرهونة بوقت وزمان فإنها لا تخلد ولا تبقى ، ولم يتكفل الله بحفظها ، وقد وكل حفظها إلى علماء تلك الأمة التي أنزلت عليها ، فالتوراة وكل حفظها إلى الربانيين والأحبار ، ﴿ والرَّبَّانِيّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ الله ، وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ « سورة المائدة/٤٤ » .

ولم يطق الربانيون والأحبار حفظ كتابهم ، وخان بعضهم الأمانة فغيروا وبدلوا وحرفوا ، وحسبك أن تطالع التوراة لترى ما فيها من تغيير وتبديل ، لا في الفروع ، بل في الأصول ، فقد نسبوا إلى الله ما يقشعر الجلد لسماعه ، ونسبوا إلى الرسل ما يترفع الرعاع عن نسبته إليهم[١] .

أمّا هذه الرسالة الخاتمة فقد تكفل هو بحفظها ، ولم يكل حفظها إلى البشر ،

---

(١) بينا شيئا من افتراءات اليهود على الله في الجزء الأول من هذه السلسلة ، وبينا شيئا من افتراءاتهم على الرسل في الباب السابق « الرسل » وسأورد هنا مثالا واحدا من تحريف اليهود ، وهذا التحريف جعل التوراة متناقضة ، النصّ الأصلي في التوراة هو « خذ ابنك وحيدك الذي تحبه واذبحه » ، هذا الابن هو إسماعيل ، ولكن اليهود كبر عليهم أن يذهب إسماعيل وأبناؤه وهم العرب بهذا الفضل ، فأقحموا في النص كلمة « إسحق » لينسبوا الفضل لأنفسهم ، فأصبح النصّ في التوراة ـ المحرفة ـ التي بين أيديهم اليوم « خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق واذبحه » سفر التكوين ، الإصحاح الثاني ، فقرة (٢) . ولكن هذا الذي حرّف النصّ هنا لم ينتبه إلى التناقض الذي أوجده مع نصوص أخرى في التوراة ، فقد ورد في التوراة أن إسماعيل ولد لإبراهيم وعمر إبراهيم ست وثمانون سنة ، انظر الاصحاح السادس عشر من سفر التكوين ، وعلى ذلك يكون إسماعيل هو ولده وحيده ، أما إسحق فتقول التوراة أنه ولد « وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحق » الاصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين فقرة (٥) . أرأيت كيف فضح الله مكرهم وكيدهم وأظهر تحريفهم وتبديلهم ، وقد ذكرت شيئا من هذا التحريف في أدلة صدق الرسل « البشارات » .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ « سورة الحجر/٩ » .

وانظر اليوم في هذا العالم شرقه وغربه لترى العدد الهائل الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب[١]، بحيث لو شاء ملحد أو يهودي أو صليبي تغيير حرف منه فإنَّ صبياً صغيرا ، أو ربّة بيت ، أو عجوزا لا يبصر طريقه ـ يستطيعون الردّ عليه وبيان خطئه ، وافترائه ، ناهيك عن العلماء الذين حفظوه وفقهوا معانيه ، وتشبعوا بعلومه . .

وانظر إلى تاريخ هذا الكتاب وكم نال من عناية ورعاية في تدوينه وتفسيره وإعرابه وقصصه واخباره وأحكامه .

ما كان ذلك ليكون لولا ذلك الحفظ الإلهي الرباني ، وسيبقى هذا الكتاب إلى أن يأذن الله بزوال هذا الكون ودماره .

---

(١) كان من أسباب هذا الحفظ تيسير الله لتلاوة القرآن وحفظه ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ « سورة القمر/٢٢ » .

رابعًا : مواضعُ الاتفاقِ والاختلافِ في الرّسَالاتِ السَماويّة

الدين الواحد

الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعا منزلة من عند الله العليم الحكيم الخبير ، ولذلك فإنها تمثل صراطا واحدا يسلكه السابق واللاحق ، ومن خلال استعراضنا لدعوة الرسل التي أشار إليها القرآن نجد أنَّ الدِّين الذّي دعت إليه الرسل جميعا واحد هو الإسلام ، ﴿ **إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ** ﴾ « سورة آل عمران/١٩ » ، والإسلام في لغة القرآن ليس اسما لدين خاص ، وإنما هو اسم للدّين المشترك الذي هتف به كلّ الأنبياء ، فنوح يقول لقومه : ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ « سورة يونس/٧٢ » ، والإسلام هو الدِّين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ « سورة البقرة/١٣١ » ويوصي كُلٌّ من إبراهيم ويعقوب أبناءَه قائلا : ﴿ **فَلاَ تُمُوتُنَّ إلاّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ** ﴾ « سورة البقرة/١٣٢ » وأبناء يعقوب يجيبون أباهم : ﴿ **نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ « سورة البقرة/١٣٣ » وموسى يقول لقومه : ﴿ **يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ** ﴾ « سورة يونس/٨٤ » والحواريون يقولون لعيسى : ﴿ **آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ « سورة آل عمران/٥٢ » وحين سمع فريق من أهل الكتاب القرآن ﴿ **قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّه الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ** ﴾ « سورة القصص/٥٣ » .

فالإسلام شعار عام كان يدور على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمديّة .

كيف يتحقق الإسلام

الإسلام هو الطاعة والانقياد والاستسلام لله تعالى ، بفعل ما يأمر به ، وترك ما ينهى عنه ، ولذلك فإنّ الإسلام في عهد نوح يكون باتباع ما جاء به نوح ، والإسلام في عهد موسى يكون باتباع شريعة موسى ، والإسلام في عهد عيسى يكون باتباع الانجيل ، والإسلام في عهد محمد ﷺ يكون بالتزام ما جاء به الرسول الكريمﷺ .

لبُّ دعوات الرسل

ولبُّ دعوات الرسل وجوهر الرسالات السماوية هو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ ما يعبد من دونه ، وقد عرض القرآن هذه القضية وأكدها في مواضع متعددة ، مرة يذكر دعوة الرسل فنوح يقول لقومه ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلـهٍ غيره ﴾ « سورة الأعراف / ٥٩ » ، وإبراهيم قال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ « سورة العنكبوت/١٦ » وهود قال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ « سورة الأعراف/٦٥ » ، وصالح قال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ « سورة الأعراف/٧٣ » .

ومرة ينص على أنّه أرسل الرسل جميعا بهذه المهمة الواحدة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاّ نُوحِي إلَيْهِ أَنّه لاَ إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ « سورة الأنبياء/٢٥ » . ومرة يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم في سلك واحد ، ويجعل منهم أمة واحدة لها إله واحد ﴿ إنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ « سورة الأنبياء/٩٢ » ، ومرة يجعل الاستجابة لله وتحقيق العبودية له هي الدين والملّة ويجعل من رفضها يحكم على نفسه بالسفه والضلال ، ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ « سورة البقرة/ ١٣٠ » ، وملة إبراهيم عليه السلام حددها بقوله : ﴿ إنّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ « سورة الأنعام/٧٩ » .

ومرة يبين أنها وصية الرسل والأنبياء لمن بعـدهـم ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ

يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً . . ﴾[1]« سورة البقرة/١٣٣ » .

ومرة ينص على وحدة الدين الذي شرعه للرسل العظام : ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ « سورة الشورى/١٣ » .

الرسالات السابقة تبين الأسباب الموجبة لعبادة الله

ولم تكتف الرسالات السابقة بالدعوة الى عبادة الله وحده ، بل بينت الأسباب التي تجعل هذه الدعوى هي الحق الذي لا محيص عنه ، وذلك بذكر خصائص الألوهية ، وبالحديث عن نعم الله تعالى التي أنعم بها على عباده ، وبتوجيه الأنظار والعقول للنظر في ملكوت السموات والأرض ، فنوح يقول لقومه : ﴿ **مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَواتٍ طِبَاقاً ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ، وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ، وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ، وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً** ﴾ « سورة نوح/١٣ ـ ٢٠ » .

وهذا المعنى يتردد في صحف إبراهيم وموسى ، وقد ورد فيهما كما أخبرنا القرآن ﴿ **وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ، وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى ، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ، وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى** ﴾ « سورة النجم/٤٢ ـ ٥٢ » .

---

(١) ثبت في السنة أن نوحا أوصى ولده بمثل ذلك ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ نبيّ الله نوحا ـ ﷺ ـ لما حضرته الوفاة ، قال لابنه : إني قاص عليك الوصية : آمرك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين ، آمرك بلا إله إلّا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفّه ، ووضعت لا إله إلّا الله في كفّه رجحت بهنّ لا إله إلّا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كنّ حلقة مبهمة (مغلقة) ، قصمتهنّ (كسرتهنّ) لا إله إلّا الله ، وسبحان الله وبحمده ، فإنّها صلاة كلّ شيء ، وبها يرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكبر » رواه البخاري في الأدب المفرد ص ٥٤٨ ، وأحمد ١٦٩/٢ ، ١٧٠ ، ٢٢٥ ، والبيهقي في الأسماء (٧٩ هندية) (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ١٣٤) .

المبادىء الخالدة

مسائل العقيدة

وليست الدعوة إلى عبادة الله وحده هي القضية الوحيدة التي اتفقت فيها الرسالات ، فأماكن الاتفاق كثيرة ، فمن ذلك أمور الاعتقاد التي تشكل تصورا واحدا وأساسا واحدا لدى جميع الرسل وأتباعهم ، فأوّل الرسل نوح ذكّر قومه بالبعث والنشور فمما قاله لقومه : ﴿ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتَا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيْهَا ، وَيُخْرِجُكُم إِخْرَاجاً ﴾ « سورة نوح/١٧ ـ ١٨ » . وأعلمهم بالملائكة والجنّ ، ولذلك قال الكفار من قومه : ﴿ مَا هَذَا إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوَ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلاّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ « سورة المؤمنون/٢٤ ـ ٢٥ » والايمان باليوم الآخر واضح في دعوة إبراهيم ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، قَالَ : وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ، ثُمَّ اضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . . ﴾ « سورة البقرة/١٢٦ » ، وفي دعوة موسى أشدُّ وضوحا ، ولذلك نرى السحرة عندما يخرون سجّدا يقولون لفرعون : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لنا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيْهَا وَلاَ يَحْيَى ، وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ « سورة طه/٧٣ ـ ٧٦ » .

وجاء في صحف إبراهيم وموسى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ « سورة الأعلى/١٦ ـ ١٧ » وكل الرسل والأنبياء انذروا أممهم

المسيح الدجال ، ففي الحديث الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « ما بعث الله من نبيّ إلاّ أنذر أمته الدجال ، أنذره نوح والنبيون من بعده » رواه البخاري في صحيحه[1] .

القواعد العامة

والكتب السماوية تقرر القواعد العامّة التي لا بدَّ أن تعيها البشرية في مختلف العصور كقاعدة الثواب والعقاب ، وهي أنَّ الإنسان يحاسب بعمله ، فيعاقب بذنوبه وأوزاره ، ولا يؤاخذ بجريرة غيره ، ويثاب بسعيه ، وليس له سعي غيره **﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ، وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلاَّ تزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلإنسان إلاَّ مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزاءَ الأَوْفَى ﴾** « سورة النجم/٣٦ ـ ٤١ »

ومن ذلك أن الفلاح الحقيقي يتحقق بتزكية النفس بمنهج الله والعبودية له ، وايثار الآجل على العاجل : **﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّه فَصَلَّى ، بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾** « سورة الأعلى/١٤ ـ ١٩ » .

ومن ذلك أنَّ الذي يستحق وراثة الأرض هم الصالحون **﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرَ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾** « سورة الأنبياء/١٠٥ » .

وقد سأل أبو ذر رضي الله عنه الرسول ﷺ عن محتويات صحف إبراهيم وصحف موسى ففي الحديث الذي يرويه ابن حبان والحاكم عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟

قال : « كانت أمثالاً كلّها : أيها المسلط (أي الحاكم النافذ السلطان) المبتلى (المختبر) المغرور ، إنّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ،

---

(١) صحيح الجامع (١٣٣/٥) وانظر فتح الباري (٣٧٠/٦) .

ولكني بعثتك لتردَّ عني دعوة المظلوم ، فإنِّي لا أردها وإن كانت من كافر .

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ساعات : ساعة يناجي فيها ربّه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله عزوجل ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب .

وعلى العاقل ألّا يكون ظاعنا (مرتحلا) إلّا لثلاث : تزود لمعاد ، أو لمعاش ، أو لذة في غير محرّم .

وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شانه ، حافظا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله ، قلَّ كلامه إلّا فيما يعنيه .

قلت : يا رسول الله : فما كانت صحف موسى ؟

قال : كانت عبرا (عظات) كلّها :

عجبت لمن أيقن بالموت ثمّ هو يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار ، ثمَّ هو يضحك ، عجبت لمن أيقن بالقدر ، ثمَّ هو ينصب ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ، ثمَّ اطمأنَّ إليها ، عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل » .

والقرآن يخبرنا أنَّ الرسل جميعا حملوا ميزان العدل والقسط ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ « سورة الحديد/ ٢٥ » وأنهم أمروا بأن يكسبوا رزقهم بالحلال ﴿ **يَـأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً** ﴾ « سورة المؤمنون/ ٥١ » وكثير من العبادات التي نقوم بها كانت معروفة عند الرسل السابقين وأتباعهم ، ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ** ﴾ « سورة الأنبياء/ ٧٣ » . وإسماعيل عليه السلام ﴿ **كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ . .** ﴾ « سورة مريم/ ٥٥ » وقال الله لموسى عليه السلام ﴿ **فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾ « سورة طه/ ١٤ » ، وقال عيسى ﴿ **وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً** ﴾ « سورة مريم/ ٣١ » . والصوم مفروض على من قبلنا كما هو مفروض علينا ﴿ **يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ « سورة البقرة/ ١٨٣ » .

والحج فرضه إبراهيم عليه السلام ، فقد أمره الله بعد بناء الكعبة فنادى

بالحج ، ﴿ وأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ يَأْتُوكَ رِجَالاً . . ﴾[1] « سورة الحج/٢٧ » ، وقد كان لكلّ أمة مناسكها وعبادتها ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ « سورة الحج/٣٤ » ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ « سورة الحج/٦٧ » .

ومما اتفقت فيه الرسالات أنّها بينت المنكر والباطل ودعت إلى محاربته وازالته ، سواءً أكان عبادة أوثان ، أو استعلاء في الأرض ، أو انحرافا عن الفطرة كفعل قوم لوط ، أو عدوانا على البشر وأحوالهم بقطع الطريق والتطفيف بالميزان .

(١) كان من هدى الأنبياء بعد ذلك الحج الى البيت العتيق فقد حج البيت موسى ويونس ، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال سرنا مع رسول ﷺ بين مكة والمدينة ، فمررنا بواد ، فقال : « أيُّ واد هذا ؟ » فقالوا : وادي الأزرق . قال : « كأني أنظر إلى موسى » فذكر من لونه وشعره شيئا ، « واضعا أصبعيه في أذنيه ، له جؤار الى الله بالتلبية ، مارّا بهذا الوادي » . قال : ثمَّ سرنا حتى أتينا على ثنيّة (الثنيّة : الطريق بين الجبلين) . فقال : « أيّ ثنيّة هذه » ؟ فقالوا هرش أو لفت ـ فقال : « كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء ، عليه جبة صوف ، خطام ناقته خُلْبة (الخطام الزمام ، والخُلبة : ليفة نخل) مارّا بهذا الوادي ملبيا » . (انظر مشكاة المصابيح ١١٦/٣) .

اختلاف الشرائع

إذا كان الدين الذي جاءت به الرسل واحدا وهو الإسلام فإن شرائع الأنبياء مختلفة ، فشريعة عيسى تخالف شريعة موسى في بعض الأمور ، وشريعة محمد ﷺ تخالف شريعة موسى وعيسى في أمور ، قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ « سورة المائدة /٤٨ » والشرعة هي الشريعة وهي السنة ، والمنهاج الطريق والسبيل . وليس معنى ذلك أن الشرائع تختلف اختلافا كليّا ، فالناظر في الشرائع يجد أنها متفقة في المسائل الأساسية ، وقد سبق ذكر النصوص التي تتحدث عن تشريع الله للأمم السابقة الصلاة والزكاة والحج ، وأخذ الطعام من حلّه وغير ذلك ، والاختلاف بينها إنّما يكون في بعض التفاصيل .

فأعداد الصلوات وشروطها وأركانها ومقادير الزكاة ومواضع النسك ونحو ذلك قد تختلف من شريعة إلى شريعة ، وقد يحلّ الله أمرا في شريعة لحكمة ، ويحرمه في شريعة أخرى لحكمة .

ونضرب لهذا ثلاثة أمثلة :

الأول : الصوم : فقد كان الصائم يفطر بغروب الشمس ، ويباح له الطعام والشراب والنكاح إلى طلوع الفجر ما لم ينم ، فإن نام قبل الفجر حرم عليه ذلك كله إلى غروب الشمس من اليوم الثاني ، فخفف الله عن هذه الأمة وأحله من الغروب إلى الفجر سواءً أنام أم لم ينم . قال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ . عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ

أَنْفُسَكُمْ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ . . ﴾
« سورة البقرة /١٨٧ »

الثاني : ستر العورة حال الاغتسال لم يكن واجبا عند بني إسرائيل ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم « كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ، ينظر بعضهم إلى بعض ، وكان موسى يغتسل وحده »(١) .

الثالث : « الأمور المحرمة ، فمما أحلّه الله لآدم تزويج بناته من بنيه ، ثمَّ حرّم الله هذا بعد ذلك ، وكان التسري على الزوجة مباحا في شريعة إبراهيم ، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة ، وقد حرّم الله مثل هذا في التوراة على بني إسرائيل ، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغا ، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين ، ثمَّ حرّم عليهم في التوراة ، وحرّم يعقوب على نفسه لحوم الإبل وألبان الإبل »(٢) ، والسبب في ذلك كما ثبت في الحديث « أن إسرائيل (يعقوب) مرض مرضا شديدا ، وطال سقمه ، فنذر لله لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها »(٣) ، وهذا الذي حرمه إسرائيل حرّمه الله على بني إسرائيل وحُرّم في التوراة **﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾** « سورة آل عمران /٩٣ »

ومما حرّمه الله على اليهود ما قصه علينا في سورة الأنعام **﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾** « سورة الأنعام/١٤٦ » .

فقد حرّم الله عليهم كلَّ ذي ظفر وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٤/١٦٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٧٣ .
(٣) رواه أحمد في مسنده (تفسير ابن كثير ٢/٧١ .

الأصابع كالإبل والنعام والوز والبط ، وحرّم عليهم شحوم البقر والغنم إلاّ الشحم الذي على ظهور البقر والغنم ، أو ما حملت الحوايا وهو ما تحوي في البطن وهي المباعر والمرابض ، أو ما اختلط بعظم .

وهذا التحريم لم يكن سببه خبث المحرّم إنما سببه التزام من أبيهم يعقوب في بعض المحرمات فألزم أبناءه من بعده بمثل ذلك ، وبعض المحرمات سببه ظلم بني إسرائيل ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ « سورة الأنعام /١٤٦ » وقال : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً ﴾ « سورة النساء/ ١٦٠ » .

ثمَّ جاء عيسى فأحلَّ لبني إسرائيل بعض ما حرّم عليهم ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ « سورة آل عمران / ٥٠ » ، وجاءت الشريعة الخاتمة لتكون القاعدة إحلال الطيبات وتحريم الخبائث .

الأنبياء إخوة لعلاّت

وقد ضرب الرسول ـ ﷺ ـ مثلا لاتفاق الرسل في الدين الواحد واختلافهم في الشرائع ، فقال : « الأنبياء إخوة من علاّت ، أمهاتهم شتّى ، ودينهم واحد »[1] .

قال ابن حجر « الأنبياء أولاد علاّت ، وفي رواية عبد الرحمن المذكورة « أي في صحيح البخاري » : « والأنبياء إخوة لعلاّت » والعلاّت بفتح المهملة : الضرائر ، وأولاد العلات الإخوة من الأب ، وأمهاتهم شتى ، ومعنى الحديث : أنَّ أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع »[2] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود (صحيح الجامع ٢ /١٤) .
(٢) فتح الباري ٦/٤٨٩ .

خامسًا : الطول والقصر ووقت النزول

القرآن الكريم أطول الكتب السماوية وأشملها ففي الحديث : « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفضّلت بالمفصّل » رواه الطبراني في الكبير[1] .

والكتب السماوية المعروفة لنا كلّها أنزلت في شهر رمضان ، فقد جاء في الحديث : « أنزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من شهر رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين - من رمضان ، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان ، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » رواه الطبراني [2] .

(١) صحيح الجامع الصغير (١/ ٣٥٠) وقال المحقق : اسناده صحيح .
(٢) صحيح الجامع الصغير ٢٨/٢ وقال الشيخ ناصر الدين الألباني : اسناده حسن .

موقف الرسالة الخاتمة من الرسالات السابقة

بين الله هذا في جزء من آية في كتابه ، قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ « سورة المائدة/٤٨ » .

وكون القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب تحقق من وجوه :

الأول : أن الكتب السماوية المتقدمة تضمنت ذكر هذا القرآن ومدحه ، والإخبار بأنَّ الله سينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فكان نزوله على الصفة التي أخبرت بها الكتب السابقة تصديقا لتلك الكتب ، مما زادها صدقا عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله ، وصدقوا رسل الله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ « سورة الإسراء/١٠٧ » أي إن كان ما وعدنا الله في كتبه المتقدمة وعلى ألسنة رسله من إنزال القرآن وبعثة محمد لمفعولا ، أي لكائنا لا محالة ولا بدّ[١] .

الثاني : أن القرآن جاء بأمور صدق فيها الكتب السماوية السابقة ، بموافقته لها ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً ، وَمَا جعلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ﴾ « سورة المدثّر/٣١ » واستيقان الذين أوتوا الكتاب إنّما يكون بسبب علمهم بهذا من كتبهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٥٨٦ بشيء من التصرف .

الثالث : أنَّ القرآن أخبر بإنزال الكتب السماوية ، وأنّها من عند الله ، وأمر بالإيمان بها كما سبق بيانه .

والمهيمن في لغة العرب تطلق ويراد بها القائم على الشيء[1] ، وهو اسم من أسماء الله تعالى ، ذلك أنَّ الله تعالى قائم على شئون خلقه ، تصريفا وتدبيرا ورعاية .

والقرآن قائم على الكتب السماوية التي أنزلت من قبل يأمر بالإيمان بها ، ويبين ما فيها من حق ، وينفي التحريف والتغيير الذي طرأ عليها ، وهو حاكم على تلك الكتب لأنّه الرسالة الإلهية الأخيرة التي يجب المصير إليها والرجوع إليها والتحاكم إليها وكل ما خالفها مما جاء في الرسالات السابقة فهو إمّا محرّف مغيَّر ، وإمّا منسوخ .

يقول ابن كثير رحمه الله ـ تعالى ـ بعد أن ذكر أقوال السلف في معنى كلمة مهيمن : « وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإنَّ اسم المهيمن يتضمن هذا كلّه ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كلِّ كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها »[2]. وهذا يقتضي أن يجعل هذا الكتاب هو المرجع الأول والأخير في التعرف على الدين الذي يريده الله تعالى ولا يجوز أن نحاكم القرآن إلى الكتب السماوية السابقة كما يفعل الضالون من اليهود والنصارى ﴿ **وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ « سورة فصلت/٤١ ـ ٤٢ » .

عدم حاجة الشريعة الخاتمة إلى غيرها :

الشريعة الإلهية الخاتمة لا تحتاج إلى شريعة سابقة عليها ، ولا إلى شريعة

---

(١) لسان العرب ٨٣٣/٣ مادة (همن) .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٨٧/٢ .

لاحقة لها ، بخلاف شريعة المسيح فقد أحال المسيح أتباعه في أكثر الشريعة على التوراة ، وجاء المسيح فكملها ، ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح كالتوراة والزبور ، وكان الأمم من قبلنا محتاجين إلى محدَّثين ، بخلاف أمّة محمد ﷺ ، فإنَّ الله أغناهم به ، فلم يحتاجوا معه إلى نبيّ ولا محدّث[1] .

(١) راجع في هذا البحث مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١١/٢٢٤ .

المراجع

١ - الإسلام في عصر العلم لمحمد أحمد الغمراوي - طبعة دار الكتب الحديثة - القاهرة .

٢ - أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي - مؤسسة المدني - القاهرة الطبعة الأولى .

٣ - أعلام النبوة للماوردي - نشر مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .

٤ - الامامة عند الجمهور - د . علي أحمد السالوس - مكتبة ابن تيمية - الكويت .

٥ - انجيل برنابا - طبعة دار القلم بالكويت .

٦ - البداية والنهاية لابن كثير - مكتبة المعارف - بيروت - الطبعة الثانية

٧ - بصائر ذوي التمييزللفيروز آبادي - لجنة احياء التراث الإسلامي - القاهرة .

٨ - تفسير ابن كثير - طبعة دار الأندلس - بيروت .

٩ - تفسير الألوسي - طبعة المطبعة المنيرية .

١٠ - تفسير القرطبي - دار الكتاب العربي - بيروت .

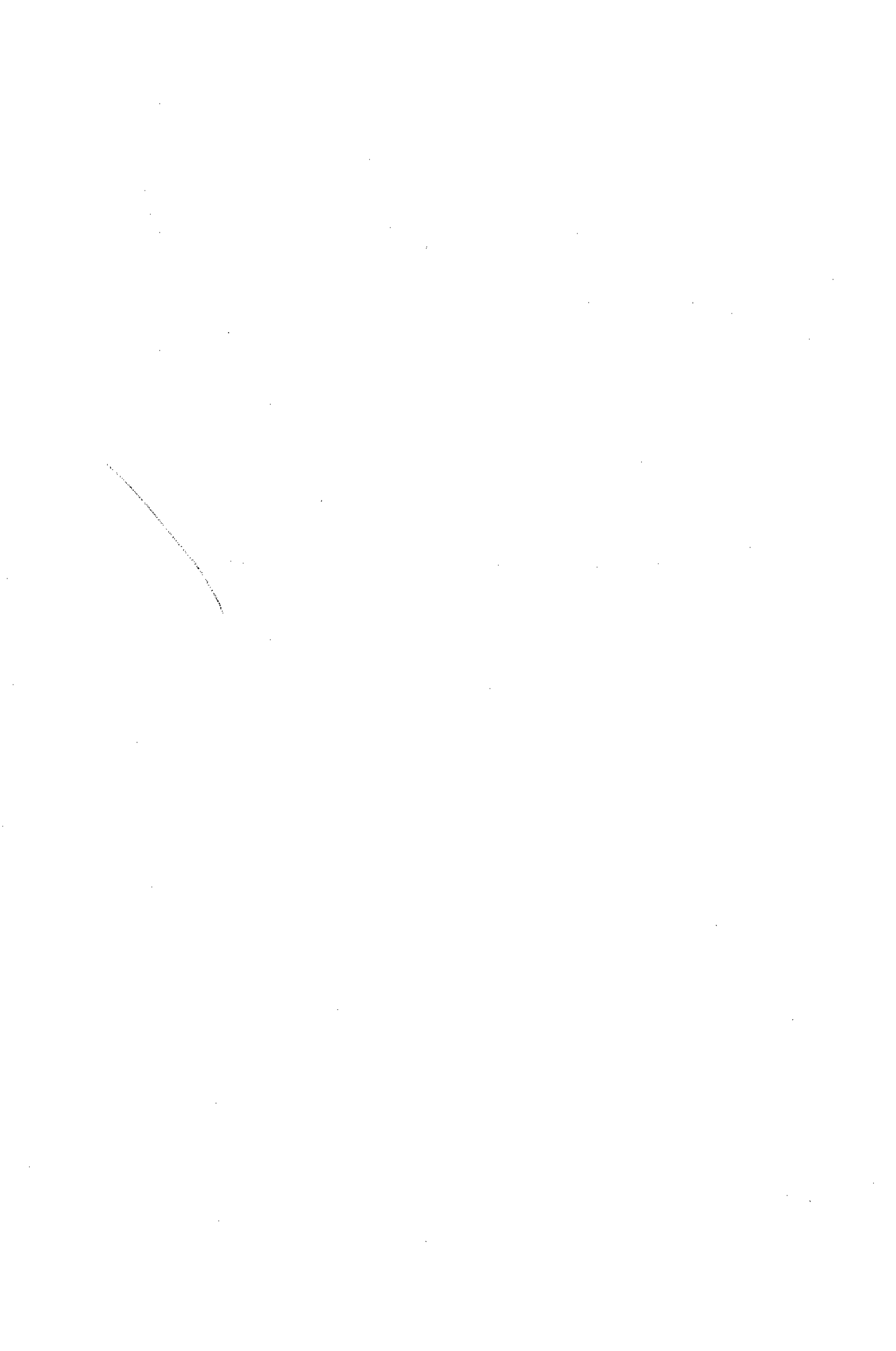
١١ - التوراة السامرية - طبع دار الأنصار بالقاهرة .

١٢ - جامع الأصول لابن الأثير - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - الطبعة الأولى .

١٣ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - لابن تيمية - طبع مؤسسة المدني - القاهرة .

١٤ ـ الحكومة الإسلامية للخميني ـ نشر الحركة الإسلامية في إيران ـ وطبع مطبعة الخليج في الكويت .
١٥ ـ حياة محمد ـ لمحمد حسنين هيكل ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة .
١٦ ـ زاد المسير لابن الجوزي ـ طبعة المكتب الإسلامي ـ بيروت .
١٧ ـ زاد المعاد لابن القيم ـ المطبعة المصرية ومكتبها ـ القاهرة .
١٨ ـ الزهر النضر في نبأ الخضر لابن حجر ـ طبعة المنيرية .
١٩ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ طبع المكتب الإسلامي ـ الأولى .
٢٠ ـ شرح العقيدة الطحاوية لمحمد بن أبي العزّ الحنفي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الرابعة .
٢١ ـ صحيح البخاري ـ متن فتح الباري ـ السلفية ـ القاهرة .
٢٢ ـ صحيح الجامع الصغير ـ للشيخ ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت الطبعة الأولى .
٢٣ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ـ المطبعة المصرية ـ القاهرة .
٢٤ ـ صحيح مسلم ـ متن النووي على مسلم .
٢٥ ـ عالم الجن والشياطين للمؤلف ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت .
٢٦ ـ عالم الملائكة الأبرار للمؤلف ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت .
٢٧ ـ عقائد الامامية لمحمد رضا ـ دار الغدير ـ بيروت .
٢٨ ـ عقائد الامامية الاثنى عشرية لابراهيم الموسوي الزنجاني ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت .
٢٩ ـ العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حبنكه ـ الطبعة الأولى ـ دمشق .
٣٠ ـ العقيدة في الله ـ للمؤلف ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت .
٣١ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ـ طبع السلفية .
٣٢ ـ في ظلال القرآن لسيد قطب ـ طبعة دار الشروق .
٣٣ ـ لسان العرب لابن منظور إعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي ، دار لسان العرب ـ بيروت ـ الأولى .

٣٤ ـ لوامع الأنوار البهية للسفاريني ـ طبع على نفقة حكومة قطر .
٣٥ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ـ جمع ابن قاسم ـ طبع الرياض ـ الطبعة الأولى .
٣٦ ـ مجموعة الرسائل المنيرية ـ طبعة مصورة ببيروت .
٣٧ ـ محمد نبي الإسلام .
٣٨ ـ مختصر التحفة ـ الأثنى عشرية ـ لمحمودشكري الألوسي ـ طبع المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ ١٣٨٧ .
٣٩ ـ مختصر صحيح مسلم ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت .
٤٠ ـ مسند الامام أحمد ـ تصوير المكتب الإسلامي ـ بيروت .
٤١ ـ مشكاة المصابيح ـ للتبريزي ـ طبعة المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ الأولى .
٤٢ ـ المصباح المنير للفيومي ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة .
٤٣ ـ معجزات المصطفى لخير الدين وانلي ـ مؤسسة ومكتبة الخافقين ـ دمشق .
٤٤ ـ مفتاح دار السعادة لابن القيم ـ طبعة صبيح ـ القاهرة .
٤٥ ـ الملل والنحل للشهرستاني ـ دار المعارف ـ بيروت .
٤٦ ـ نبوة محمد من الشك إلى اليقين ـ د . فاضل السامرئي . مكتبة القدس بغداد .
٤٧ ـ نظرات في النبوة لصلاح الدين مجيد ـ مكتبة القدس ـ بغداد .
٤٨ ـ نيل الأوطار للشوكاني ـ طبعة الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية .
٤٩ ـ هداية الحياري لابن القيم ـ ضمن مجموع بعنوان : الجامع الفريد ـ نشر دار الافتاء ـ الرياض .



العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

- ٥ -

اليوم الآخر

١

القيامة الصغرى

وعلامات القيامة الكبرى

تأليف

الدكتور عمر سليمان الأشقر



دار النفائس



مكتبة الفلاح

٢٥٣ و ٢١٤
عمر

عمر سليمان الأشقر

اليوم الآخر : القيامة الصغرى . عمر سليمان الأشقر
ط ٣ . عمان : (د . ن) ١٩٩١
(٣٠٣) ص
ر . أ . ١٩٩٠/١٠/٧٠٤
١ ـ الإيمان باليوم الآخر أ ـ العنوان

تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية ـ عمان

القيامة الصغرى

وعلامات القيامة الكبرى

الطبعة الرابعة
١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار النفائس

الأردن - عمّان - العبدلي - مقابل جوهرة القدس
هاتف ٦٩٣٩٤٠ - ص.ب ٢١١٥١١ - فاكس ٦٩٣٩٤١

مكتبة الفلاح

الكويت - شارع بيروت - مقابل بريد حولي القديم
تلفون: ٢٦٤٧٧٨٤ - ص.ب: ٤٨٤٨ الصفاة
الرمز البريدي: ١٣٠٤٩ الكويت - برقياً: لاغالكو

مقدمة الكتاب

الحمد لله واهب الحياة وسالبها ، المقيم الأجساد بالأرواح وقابضها ، الذي خلقنا من تراب وإليه يُصَيِّرنا ، ومن التراب عندما يشاء يقيمنا ويبعثنا .

وأصلي وأسلم على المصطفى المختار الذي أطال الحديث عن الموت وشدته ، والقيامة وأهوالها وأحوالها ، والنار وعذابها ، والجنة ونعيمها ، فنبَّه العباد من غفلتهم ، وخلصهم من حيرتهم ، ووجههم الوجه الصحيحة .

وأصلي وأسلم على آله الأطهار وصحبه الأبرار ومن اتبعوهم بإحسان الذين سكنوا الدنيا بقلوب معلقة بالآخرة ، فكانوا لتلك الدار الباقية يعملون ، ولنيلها يبذلون ، ومازال هذا حالهم حتى لقوا ربهم ، فرضوان الله عليهم وبعد : فإننا جئنا الحياة بإرادة واهب الحياة ومبدعها ، ونمضي من الحياة عندما يريد واهب الأمانة سلبها وقبضها ، أقوام يأتون ، وآخرون يرحلون ، مثلهم في ذلك مثل أمواج البحر المتلاحقة كلما انكسرت على الشط موجة تبعتها أخرى ، ومثلهم كمثل النهر المتدفق ، تراه دائما يجري ، ولكن الماء الذي تراه أمامك الآن غير الماء الذي رأيته قبل لحظة من الزمان ، ومثلهم كمثل خمائل الزرع الدائمة الخضرة ، كلما يبس منها شيء نبت غيره ، ومثلهم كمثل لوحة مضاءة بمئات الألوف من الشموع ، تراها مضاءة دائما ، ولكننا عندما ننعم النظر فيها نعلم السر في ديمومة إضاءتها ، ذلك أن ما يحترق منها يخلفه غيره ، بل قد يضاء على صفحتها أكثر مما يحترق منها .

ولكن هذا الامتداد الإنساني المتلاحق سيتوقف يوما ، سيأتي اليوم الذي ينتهي فيه الوجود الإنساني كله ، بل سَيُدَمَّر فيه الكون كله ، فتنطفىء نجوم الليل جميعا ، وتتوقف أمواج البحر ، وييبس الزرع كله ، وتجف مياه الأنهار والعيون .

ولكن هذا الفناء ليس هو النهاية ، بل هو مرحلة في الأطوار التي يمر الانسان بها ، وسيأتي يوم نعود جميعا فيه إلى الحياة ، لنحاسب على ما قدمنا وعملنا .

إن الإيمان بالرجعة إلى الحياة ، ثم الخلود بعد ذلك ضروري لتقويم مسار الإنسان ، فالإنسان مركوز في أعماق نفسه حب الخلود والبقاء ، ولذا فإن إبليس أغرى آدم بالأكل من الشجرة المحرم عليه الأكل منها مدعياً أن الأكل منها يمنحه وزوجه الخلود ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ .

والكفر بالبعث والنشور يحدث شقوة للنفوس البشرية ، كما يحدث انحرافاً في مسيرة البشر في الحياة .

إن بعض الذين يرفضون فكرة الرجعة إلى الحياة يبدؤون بالنواح الحزين على حياتهم التي تتلاشى وتتناقص في كل لحظة تمضي ، وقد يسلمهم هذا إلى العزلة والألم حتى يوافيهم الموت ، وإن كانوا كتابا أو شعراء فإنهم يسجلون مشاعرهم الحزينة التي يندبون بها حياتهم في مقالات أو كتب أو أشعار تجسم شقوتهم وحيرتهم وألمهم ، لتكون سلوى لمن كان على مثل ما كانوا عليه ، ولكنها في الحقيقة داء يضاف إلى الداء ، فيزيد المريض مرضاً ، ولا يجلب له الشفاء . وبعض الذين يكفرون بالبعث والنشور يسارعون إلى اقتناص الملذات والشهوات كأنما هم في صراع مع الزمن يخشون أن تمضي أيامهم ولما يشبعوا من مباهج الحياة .

إن فترة وجودنا القصيرة في هذه الدنيا ذات قيمة كبيرة في مسارنا فيما بعد حياتنا هذه ، وإن طريق السعادة الأبدي الذي يوصل إلى الخلود في دار الخلود مرهون بتحقيقنا الرقي الحقيقي في أنفسنا وفي الآخرين ، وهذا الرقي الذي يُصَفِّي أرواحنا ، ويُقَوِّم أعمالنا ، ويهذب أخلاقنا ، له منهج أصيل واضح بين فيما جاءتنا به الرسل الكرام ، وما تضمنته الكتب السماوية .

ولما كان الارتباط بين حياتنا هذه وحياتنا الأخرى وثيقا ، إذ كانت هذه الحياة بمثابة الحرث والزرع ، وكانت تلك بمثابة الجنى والحصاد ، كان لابد للإنسان من أن يعلم عن حياته الآخرة ما يدعوه للاستعداد لها ، وإقامة حياته الدنيا على النمط الذي يحقق له في الآخرة خيرا وفضلا .

ولما كانت الحياة الأخرى غيب لا يستطيع أصحاب العقول الثاقبة ، والقلوب المبصرة اختراق حجبها فضلا عمن هم دونهم ، فإن الله تولى إخبارهم عن مسارهم في رحلتهم بعد الحياة ، وعن مصيرهم المحتوم ، ومزج الحديث عن الحياة الأخرى بالحديث عن هذه الحياة مزجا يجعلهما متداخلتين ، تحقيقا لاصلاح النفوس وتقويمها ، في عالم تدأب فيه مخلوقات كثيرة بشرية وجنيَّة على العمل لاضلال العباد وإبعادهم عن جادة الصواب .

والعلوم التي عرَّفنا الله بها عن اليوم الغائب المستور الذي سنلقاه فيه لا تصلح فيه الإشارات والرموز ، بل لابدَّ من حديث واضح مفصل ، يرى فيه الانسان ما يجعله يقف على اليقين ، فلا يخالطه ريب ، ولا ينازعه شك ، ومن طالع ما دوناه في كتابنا هذا عن اليوم الآخر فإنه سيرى الكم الهائل من نصوص الكتاب والسنة الصحيحة ، وهي نصوص تعطي صورة مفصلة لكثير من الأمور التي تكون بعد الموت وفي المعاد .

والمعاد غيب ، ولكنه غيب صادق ، ولا يكون كذلك إلا إذ صحت نسبة الخبر إلى الله أو إلى رسوله ﷺ ، ولذلك أعرضت في هذا المؤلف عن الأخبار التي لم يصح إسنادها إلى الرسول ﷺ ، كما أعرضت عن منهج الذين يرفضون الاحتجاج بما صح من الأحاديث إذا كانت آحاداً .

ورفضت أيضاً اتباع نهج المؤوِّلين المحرفين للنصوص ، أولئك الذين أقاموا من عقولهم حكما يقاضون إليه النصوص ، فقلبوا الميزان ، فأصبح الحاكم عندهم

محكوما ، فضلوا وأضلوا ، ووصل الحال ببعضهم إلى تكذيب كثير مما يجري في الآخرة مما صحت به الأخبار ، وعمدتهم في ذلك مقاييس عقلية ، لو دققوا النظر فيها لتبين لهم فسادها ، ولو تعمقوا في علوم الآخرة لبان لهم أن الآخرة غير الدنيا ، وإن مقاييس وموازين الآخرة مخالفة لما عليه الحال في الدنيا .

لقد طال البحث في بيان هذا الأصل الاعتقادي العظيم ، ولذا احتجنا إلى أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم منها يصدر في كتاب :

القسم الأول : موضوعه القيامة الصغرى وأشراط القيامة الكبرى .

القسم الثاني : القيامة الكبرى .

القسم الثالث : الجنة والنار .

وهذا هو الكتاب الأول ، وهو يتكون من بابين كما يدل عليه عنوانه ، الباب الأول يبحث في القيامة الصغرى ، ونعني بها الموت ، فهو في الموت وأهواله وسكراته ، والقبر وفتنته ، ونعيمه وعذابه ، ثم في الروح ومصيرها في البرزخ .

والباب الثاني في علامات الساعة ، وعلامات الساعة الدالة على قرب وقوعها كثيرة ، ومن هذه العلامات ما هو كبير ، ومنها ما هو صغير ، والعلامات الصغرى منه ما وقع ومضى ، ومنها ما لم يقع بعد ، والعلامات الكبرى لم تقع بعد ، وهذا الباب حديث عن ذلك كله .

وفي الختام أسأله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يجعله خالصا لوجهه ، وصلى الله عليه وسلم على عبده ورسوله محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

د ـ عمر سليمان الأشقر

الكويت في السادس من رمضان ١٤٠٦

١٩٨٦/٥/١٤

الباب الأول

القيامة الصغرى



الفصل الأول

تعريف وبيان

يطلق على المرحلة التي يمر بها الإنسان بعد هذه الحياة الدنيا عدة أسماء ، منها : القيامة الصغرى ، والبرزخ ، والموت .

وسنعرض لهذه الثلاثة بشيء من التفصيل فيما يأتي .

المبحث الأول

تعريف القيامة الصغرى

القيامة الصغرى هي الموت ، فكل من مات فقد قامت قيامته ، وحان حينه ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة قالت : كان رجال من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسألونه عن الساعة ، فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول : « إن يعش هذا ، لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم »[1] .

قال ابن كثير : « والمراد انخرام قرنهم ، ودخولهم في عالم الآخرة ، فإن كل من مات فقد دخل في حكم الآخرة ، وبعض الناس يقول : من مات فقد قامت قيامته ، وهذا الكلام بهذا المعنى صحيح »[2] .

وقد أشار ابن كثير إلى أن هذا القول يقوله الفلاسفة ، ويريدون به معنى

---

(١) مشكاة المصابيح : (٣/٤٨) .

(٢) النهاية لابن كثير : (١/٢٤) .

فاسدا . فإن الملاحدة يريدون أن الموت هو القيامة ولا قيامة بعدها . يقول ابن كثير : « وقد يقول هذا بعض الملاحدة ، ويشيرون به إلى شيء آخر من الباطل ، فأمّا الساعة العظمى ، وهي وقت اجتماع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فهذا ما استأثر الله بعلم وقته »[1] .

وتسمى القيامة الصغرى أيضا بالمعاد الأول ، كما تسمى بالبرزخ .

يقول ابن القيم : « الموت بعث ومعاد أول » ، فإن الله جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزي فيهما الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . فالبعث الأول : مفارقة الروح للبدن، ومصيرها إلى دار الجزاء الأول »[2] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الروح ، لابن القيم : ص ١٠٣ .

المبحث الثاني

البرزخ

البرزخ في كلام العرب الحاجز بين الشيئين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾[1] ، أي حاجزا والبرزخ في الشريعة : الدار التي تعقب الموت إلى البعث . قال تعالى :﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[2] . قال مجاهد : هو مابين الموت والبعث ، وقيل للشعبي : مات فلان ، قال : ليس هو في دار الدنيا ، ولا في الآخرة[3] .

وقال ابن القيم : « عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه ، وهو ما بين الدنيا والآخرة، قال تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[4] وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة » .

---

(١) سورة الفرقان : ٥٣ .

(٢) سورة المؤمنون : ١٠٠ .

(٣) تذكرة القرطبي : ١٧٧ .

(٤) سورة المؤمنون : ١٠٠ .

المبحث الثالث

الموت

المطلب الأول

الموت في اللغة والاصطلاح

الحياة والموت متناقضان تناقض النور والظلام والبرودة والحرارة ، ولذا فإن معاجم اللغة العربية تُعرِّف كل واحد منهما بأنه نقيض الآخر ، ففي تعريف الحياة تقول : « الحياة نقيض الموت ، والحي من كلِّ شيء : نقيض الموت ، والجمع أحياء »[1] ، وفي تعريف الموت تقول : « الموت والمَوَتان ضد الحياة »[2] ، وأصل الموت في لغة العرب : السكون ، وكل ما سكن فقد مات[3] ، فتراهم يقولون : « ماتت النار موتا : إذا برد رمادها ، فلم يبق من الجمر شيء ، ومات الحر والبرد إذا باخ ، وماتت الريح : ركدت وسكنت ، وماتت الخمر : سكن غليانها ، والموت مالا روح فيه »[4] .

وإذا كان السكون أصل الموت في لغتنا ، فإن الحركة أصل الحياة ، ففي لسان العرب : « الحي كل متكلم ناطق ، والحي من النبات ما كان طريا يهتز »[5] ، والحياة الإنسانية تتحقق بنفخ الروح في جسد الجنين في رحم أمّه ، والموت « انقطاع تعلق الروح بالبدن ، ومفارقته وحيلولة بينهما ، وتبدل حال ، وانتقال من دار إلى دار »[6] .

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور : (٧٧٤/١) .

(٢) لسان العرب : (٥٤٧/٣) .

(٣) لسان العرب : (٥٤٧/٣) .

(٤) لسان العرب : (٥٤٧/٣) .

(٥) لسان العرب : (٧٧٣/١) .

(٦) التذكرة للقرطبي : ٤ .

المطلب الثاني

الوفاة الكبرى والوفاة الصغرى

النوم شبيه المـوت ، ولذلك يسميه علماؤنا بالوفاة الصغرى، فالنوم وفاة، والقيام من النوم بعث ونشور﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾[1]وفي النوم تقبض أرواح العباد ، ومن شاء الحق أن يمسك روحه في حال نومه أمسكها ، ومن شاء بقاءها ردها إلى الأجل الذي حدده الحق ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[2] . « فقد أخبر الحق أنّ كلا من النفسين الممسكة والمرسلة توفيتا وفاة النوم ، وأمّا التي توفيت وفاة الموت فتلك قسم ثالث ، وهي التي قدمها بقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[3] . . . فإن الله ذكر توفيتين: توفى الموت ، وتوفى النوم ، وذكر إمساك المتوفاه ، وإرسال الأخرى .

ومعلوم أنه يمسك كل ميتة سواء ماتت في النوم أو قبل ذلك ، ويرسل من لم تمت ، وقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[4] يتناول ما ماتت في اليقظة وما ماتت في النوم ، فلما ذكر التوفيتين ذكر أنه يمسكها في إحدى التوفيتين ويرسلها في الأخرى ، وهذا ظاهر اللفظ بلا تكلف »[5] .

---

(١) سورة الأنعام : ٦٠ .

(٢) سورة الزمر : ٤٢ .

(٣) سورة الزمر : ٤٢ .

(٤) سورة الزمر : ٤٢ .

(٥) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤٥٢/٥) .

المطلب الثالث

الموت حتم لازم

الموت حتم لازم لا مناص منه لكل حي من المخلوقات ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(1)، وقال : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾(2) . وقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾(3) .

ولو نجا أحد من الموت لنجا منه خيرة الله من خلقه محمد ﷺ ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾(4) ، وقد واسى الله رسوله بأن الموت سنته في خلقه ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾(5) .

والموت حق على الإنس والجن ، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لايموت ، والإنس والجن يموتون » .

---

(1) سورة القصص : 88 .
(2) سورة الرحمن : 27 .
(3) سورة آل عمران : 185 .
(4) سورة الزمر : 30 .
(5) سورة الأنبياء : 34 .

المطلب الرابع
للموت أجل محدد

للموت وقت يأتي فيه ، فلا يستطيع أحد أن يتجاوز الأجل الذي ضربه الله ، وقد قدر الله آجال العباد ، وجرى بذلك القلم في اللوح المحفوظ ، وكتبته الملائكة الكرام والمرء في بطن أمه ، فلا يتأخر المرء عما كتب له ولا يتقدم ، وكل إنسان مات أو قتل أو غرق أو سقط من طائرة أو سيارة أو احترق أو غير ذلك من الأسباب ، فإنه قد مات بأجله الذي قدره الله وأمضاه ، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾[1] ، وقال : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3] وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ﴾[4] ، وقال : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾[5] .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال : قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ ، ورضي الله عنها : « اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية » .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٥ .

(٢) سورة النساء : ٧٧ .

(٣) سورة الأعراف : ٣٤ .

(٤) سورة الجمعة : ٨ .

(٥) سورة الواقعة : ٦٠ .

قال : فقال النبي ﷺ : « لقد سألت الله لآجل مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة . لن يعجل شيء قبل أجله ، ولن يؤخر الله شيئا بعد أجله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذكُ من عذاب النار ، وعذاب في القبر كان خيرا وأفضل »[1] .

المطلب الخامس
وقت الموت مجهول لنا

لا علم للعباد بالوقت الذي يحضر فيه الموت ، وينزل بهم ، فإن علم ذلك لله وحده ، وهو واحد من مفاتح الغيب التي استأثر الله بعلمها ، قال تعالى : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2]، وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[3] .

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[4][5] وقد روى أحمد والترمذي وغيرهما عن جماعة من الصحابة قالوا : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ـ أو قال : بها ـ حاجة » .

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر من صحيحه ، وأحمد في المسند : (١/ ٣٩٠ ، ٤١٣ ، ٤٤٥) .

(٢) سورة الأنعام : ٥٩ .

(٣) سورة لقمان : ٣٤ .

(٤) سورة لقمان : ٣٤ .

(٥) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء وفي كتاب التفسير .

الفصل الثاني

الاحتضار

المبحث الأول

حضور ملائكة الموت

إذا حان الأجل وشارفت حياة الإنسان على المغيب أرسل الله رسل الموت لسل الروح المدبِّرة للجسد والمحركة له ، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[1] ، وملائكة الموت تأتي المؤمن في صورة حسنة جميلة ، وتأتي الكافر والمنافق في صورة مخيفة ، ففي حديث البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنّة ، وحنوط[2] من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدَّ بصره ، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام ، حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة (وفي رواية : المطمئنة) اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها . . .

---

(١) سورة الأنعام : ٦١ .

(٢) بفتح الحاء ، ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة .

وإن العبد الكافر (وفي رواية الفاجر) إذا كان في انقطاع من الآخرة، وإقبال من الدنيا ، نزل إليه من السماء ملائكة [غلاظ شداد] سود الوجوه ، معهم المسوح[1] [من النار] فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثمَّ يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب . قال : فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود [الكثير الشعب] من الصوف المبلول ، [فتقطع معها العروق والعصب][2] » .

وما يحدث للميت حال موته لا نشاهده ولا نراه ، وإن كنا نرى آثاره ، وقد حدثنا ربنا تبارك وتعالى عن حال المحتضر فقال : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[3] :والمتحدَّث عنه في الآية الروح عندما تبلغ الحلقوم في حال الاحتضار ، ومَنْ حوله ينظرون إلى ما يعانيه من سكرات الموت ، وإن كانوا لا يرون ملائكة الرحمن التي تسل روحه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[4] كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[5] .

---

(١) جمع المسح ، بكسر الميم، هو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفا ، وقهرا للبدن .

(٢) جمع الشيخ ناصر الدين الألباني جميع روايات هذا الحديث ، وساقه سياقا واحدا ضاما إليه جميع الزوائد والفوائد التي وردت في جميع طرقه الثابتة في كتابه القيم : (أحكام الجنائز : ص ٥٩) ، وقد عزاه الشيخ إلى أبي داود (٢ / ٢٨١) والحاكم (١ /٣٧-٤٠) والطيالسي (رقم ٧٥٣) وأحمد(٤ /٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦) والسياق له ، والآجري في الشريعة (٣٦٧ - ٣٧٠) وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي ، وهو كما قالا ، وصححه ابن القيم في اعلام الموقعين (١ /٢١٤) وتهذيب السنن (٤ /٣٣٧) ، ونقل فيه تصحيحه عن أبي نعيم وغيره » .

(٣) سورة الواقعة : ٨٣ - ٨٥ .

(٤) سورة الواقعة : ٨٥ .

(٥) سورة الأنعام : ٦١ .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[1] والتي تبلغ التراقي هي الروح ، والتراقي جمع ترقوه وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق .

وقد صرح الحديث بأن ملك الموت يبشر المؤمن بالمغفرة من الله والرضوان ، ويبشر الكافر أو الفاجر بسخط الله وغضبه ، وهذا قد صرحت به نصوص كثيرة في كتاب الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[2] .

وهذا التنزُّل ـ كما قال طائفة من أئمة التفسير منهم مجاهد والسدى ـ إنما يكون حالة الاحتضار[3] ، ولا شك أن الإنسان في حالة الاحتضار يكون في موقف صعب ، يخاف فيه من المستقبل الآتي ، كما يخاف على من خلَّف بعده ، فتأتي الملائكة لتؤمنه مما يخاف ويحزن ، وتُطَمْئِنُ قلبه ، وتقول له : لا تخف من المستقبل الآتي في البرزخ والآخرة ، ولا تحزن على ما خلفت من أهل وولد أو دَيْن ، وتبشره بالبشرى العظيمة ، ﴿ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[4] ، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[5] ، وما دام العبد قد تولى الله وحده ،

---

(١) سورة القيامة : ٢٦ ـ ٣٠ .
(٢) سورة فصلت : ٣٠ ـ ٣٢ .
(٣) تفسير ابن كثير : (١٧٤/٦) .
(٤) سورة فصلت : ٣٠ .
(٥) سورة فصلت : ٣٢ .

فإن الله يتولاه دائما ، وخاصة في المواقف الصعبة ، ومن أشقها هذا الموقف ، ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾[1].

أما الكفرة الفجرة فإن الملائكة تتنزل عليهم بنقيض ذلك ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[2] ، وقد نزلت هذه الآية كما أخرج البخاري عن ابن عباس في فريق أسلم ولكنه لم يهاجر فأدركه الموت ، أو قتل في صفوف الأعداء[3] ، فإن الملائكة تقرِّع هؤلاء في حال الاحتضار وتوبخهم ، وتبشرهم بالنار .

وقد حدثنا ربنا عن توفي الملائكة للكفرة في معركة بدر ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۞ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[4] .

قال ابن كثير في تفسير الآيات : «ولو ترى يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمرا عظيما فظيعا منكرا ، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون ذوقوا عذاب الحريق »[5] .

وقد أشار المفسر المدقق العلامة ابن كثير إلى أن هذا وإن كان في وقعة بدر ، ولكنه عام في حق كل كافر ، ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر ، بل قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ . . ﴾[6] .

---

(١) سورة فصلت : ٣١ .

(٢) سورة النساء : ٩٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٢/٣٦٩) .

(٤) سورة الأنفال : ٥٠ ـ ٥١ .

(٥) تفسير ابن كثير : (٣/٣٣٥) .

(٦) تفسير ابن كثير : (٣/٣٣٥) .

وهذا الذي قاله ابن كثير صحيح يدل عليه أكثر من آية في كتاب الله تعالى ، كقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) ﴾[1] ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾[3] .

---

(١) سورة الأعراف : ٣٧ .

(٢) سورة النحل : ٢٨ .

(٣) سورة محمد : ٢٥ ـ ٢٧ .

المبحث الثاني

سكرات الموت

للموت سكرات يلاقيها كل إنسان حين الاحتضار ، كما قال تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[١] ، وسكرات الموت كرباته وغمراته ، قال الراغب في مفرداته : « السكر حالة تعرض بين المرء وعقله ، وأكثر ما تستعمل في الشراب المسكر ، ويطلق في الغضب والعشق والألم والنعاس والغشى الناشيء عن الألم وهو المراد هنا »[٢] وقد عانى الرسول ﷺ من هذه السكرات ، ففي مرض موته صلوات الله وسلامه عليه كان بين يديه ركوة أو علبة فيهاماء، فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ، ويقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات »[٣] ، وتقول عائشة رضي الله عنها في مرض رسول الله ﷺ : « ما رأيت الوجع على أحد أشدَّ منه على رسول الله ﷺ»[٤]وقد دخلت عائشة رضي الله عنها على أبيها أبي بكر رضي الله عنه في مرض موته ، فلما ثقل عليه ، تمثلت بقول الشاعر :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

---

(١) سورة ق : ١٩ .

(٢) فتح الباري : (٣٦٢/١١) .

(٣) هذا الحديث أخرجه البخاري عن عائشة في كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت ، فتح الباري : (٣٦١/١١) .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، انظر جامع الأصول : (٦٩/١١) .

فكشف عن وجهه ، وقال رضي الله عنه ، ليس كذلك ، ولكن قولي : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[1][2]» .

ولا شك أن الكافر والفاجر يعانيان من الموت أكثر مما يعاني منه المؤمن ، فقد سقنا طرفا من حديث البراء بن عازب وفيه : أن روح الفاجر والكافر تفرق في جسده عندما يقول لها ملك الموت : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، وأنه ينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول ، فتقطع معها العروق والعصب ، ووصف لنا القرآن الكريم الشدة التي يعاني منها الكفرة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[3] .

وهذا الذي وصفته الآية يحدث ـ كما يقول ابن كثير ـ إذا بشر ملائكة العذاب الكافر بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن ، فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾[4] ، وقد فسر ابن كثير بسط الملائكة أيديهم في قوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾[5] بالضرب ، ومعنى الآية هنا

---

(١) سورة ق : ١٩ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا ، وقد قال ابن كثير في تفسيره (٦/٤٠١) بعد سياقه له : لهذا الأثر طرق كثيرة .

(٣) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٤) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٥) سورة الأنعام : ٩٣ .

كمعناها في قوله ﴿ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ ﴾[2]وقد يُحدِّث العقلاء في حال الاحتضار عما يعانونه من شدة الموت وسكراته ، وممن حدَّث بهذا عمرو بن العاص ؛ فعندما حضرته الوفاة ، قال له ابنه : يا أبتاه ! إنك لتقول : يا ليتني ألقى رجلا عاقلا لبيبا عند نزول الموت حتى يصف لي ما يجد ، وأنت ذلك الرجل ، فصف لي ، فقال : يا بني ، والله كأن جنبي في تخت ، وكأني أتنفس من سمّ إبرة ، وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي ، ثم أنشأ يقول :

ليتني كنت قبل ما قد بدالي في تلال الجبال أرعى الوعولا[3]

الذي يخفف عنه سكرات الموت

أخبرنا الرسول ﷺ أن الشهيد الذي يسقط في المعركة تخفف عنه سكرات الموت ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة » رواه الترمذي والنسائي والدارمي ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب[4] .

---

(١) سورة المائدة : ٢٨ .

(٢) سورة الممتحنة : ٢ .

(٣) التذكرة ، للقرطبي : ص ١٩ .

(٤) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥٨) ورقم الحديث : (٣٨٣٦) ، وقال محقق المشكاة : إسناده حسن .

المبحث الثالث

تمني الإنسان الرجعة عند الاحتضار

إذا نزل الموت بالإنسان تمنى العودة إلى الدنيا ، فإن كان كافرا لعله يسلم ، وإن كان عاصيا فلعله يتوب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[1] ،والإيمان لا يقبل إذا حضر الموت ، والتوبة لا تنفع إذا غرغر العبد ، ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[2] ، وقد ساق الحافظ ابن كثير من الأحاديث ما يدل على أن الله يقبل توبة العبد إذا حضره الموت مالم يصل إلى درجة الغرغرة « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » رواه الترمذي وابن ماجة[3] ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ، ولكن شرط التوبة الإخلاص والصدق ، وقد لايتمكن المرء من التوبة في تلك الأهوال ، فعلى المرء أن يسارع بالتوبة قبل حلول الأجل :

قدم لنفسك توبة مرجوة قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النفوس فإنها ذخر وغنم للمنيب المحسن

---

(١) سورة المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) سورة النساء : (١٧ - ١٨) .

(٣) تفسير ابن كثير : (٣/٢٢٤) .

المبحث الرابع

فرح المؤمن بلقاء ربه

إذا جاءت ملائكة الرحمن العبد المؤمن بالبشرى من الله ظهر عليه الفرح والسرور ، أما الكافر والفاجر فإنه يظهر عليه الضيق والحزن والتعب ، ومن ثمَّ فإن العبد المؤمن في حال الاحتضار يشتاق إلى لقاء الله ، والعبد الكافر أو الفاجر يكره لقاء الله تعالى ، فقد روى أنس بن مالك عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، قالت عائشة أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت ، قال : ليس كذلك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيء أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله ، وكره الله لقاءه »[1] ولذلك فإن العبد الصالح يطالب حامليه بالإسراع به إلى القبر شوقا منه إلى النعيم ، بينما العبد الطالح ينادي بالويل من المصير الذاهب إليه، ففي صحيح البخاري وسنن النسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني ، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها ياويلها أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلّا الإنسان ، ولو سمع الإنسان لصعق »[2] .

---

(١) رواه البخاري : كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، انظر فتح الباري (٣٥٧/١١) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، قول الميت وهو على الجنازة : قدموني ، فتح الباري : (٣/١٨٤) ، ورواه النسائي كتاب الجنائز ، باب السرعة في الجنازة : (٤١/٤) .

المبحث الخامس

حضور الشيطان عند الموت

إذا حضر الموت كان الشيطان حريصا على الإنسان حتى لا يفلت منه ، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه ، حتى يحضره عند طعامه ، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة ، فليمط ما كان بها من أذى ، ثم ليأكلها ، ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة » ، وقد ذكر علماؤنا أن الشيطان يأتي الإنسان في تلك اللحظات الحرجة في صورة أبيه أو أمّه أو غيرهم ممن هو شفيق عليه ناصح له ، ويدعوه إلى اتباع اليهودية أو النصرانية أو غيرها من المبادئ المعارضة للإسلام ، فهناك يزيغ الله من كتبت له الشقاوة[1] ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[2] وقد حدث عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل قال : حضرت وفاة أبي أحمد ، وبيدي خرقة لأشدَّ لحييه ، فكان يغرق ، ثم يفيق ، ويقول بيده : لا بعد ، لا بعد ، فعل هذا مرارا ، فقلت له : يا أبت أي شيء يبدو منك ؟ فقال : إن الشيطان قائم بحذائي عاض على أنامله ، يقول : يا أحمد فتني ، وأنا أقول : لابعد ، لابعد ، حتى أموت[3] .

---

(١) انظر تذكرة القرطبي : ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران : ٨ .

(٣) تذكرة القرطبي : ٣٤ .

وقال القرطبي : سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي ، يقول : حضرت أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد القرطبي بقرطبة ، وقد احتضر ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فكان يقول : لا لا ، فلما أفاق ، ذكرنا له ذلك ، فقال : أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي ، يقول أحدهما : مت يهوديا فإنه خير الأديان ، والآخر يقول : مت نصرانيا فإنه خير الأديان ، فكنت أقول لهما : لالا . . . »[1] .

ولكن هذا ليس لازما لكل أحد كما يقول ابن تيمية ، بل من الناس من تعرض عليه الأديان قبل موته ، ومنهم من لا تعرض عليه ، وقد وقع ذلك لأقوام ، وهذا كله من فتنة المحيا والممات التي أمرنا أن نستعيذ بها في صلاتنا[2] ، وقد ذكر الشيخ ابن تيمية أن الشيطان أحرص ما يكون على إغواء الإنسان وقت موته ، لأنه وقت الحاجة ، واستدل بالحديث الذي في الصحيح : « الأعمال بخواتيمها » ، وقال ﷺ : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخلها » ، ولهذا روي : « أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت ، يقول لأعوانه : دونكم هذا فإنه إن فاتكم لن تظفروا به أبدا »[3] .

(١) التذكرة للقرطبي : ٣٤ .

(٢) مجموع الفتاوي : (٤/ ٢٥٥) .

(٣) مجموع الفتاوي : (٤/ ٢٥٦) .

المبحث السادس

أسباب سوء الخاتمة

بعض الذين يظهرون الإسلام ويعملون به يختم لهم والعياذ بالله بخاتمة سيئة ، وقد تبدو تلك الخاتمة من بعض من حضرهم الموت ، وقد تحدث صديق حسن خان عن سوء الخاتمة فقال : « وله أسباب يجب على المؤمن أن يحترز عنها »[1] ، ثم ذكر هذه الأسباب فقال :

١ ـ منها الفساد في الاعتقاد : وإن كان مع كمال الزهد والصلاح ، فإن كان له فساد في اعتقاده مع كونه قاطعاً به متيقناً له غير ظان أنه أخطأ فيه قد ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده من الاعتقادات الحقة مثل هذا الاعتقاد باطل لا أصل له إن لم يكن عنده فرق بين اعتقاد واعتقاد ، فيكون انكشاف بطلان بعض اعتقاداته سبباً لزوال بقية اعتقاداته ، فإن خروج روحه في هذه الحالة قبل أن يتدارك ويعود إلى أصل الإيمان يختم له بالسوء ويخرج من الدنيا بغير إيمان ، فيكون من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[2] وقال في آية أخرى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3] .

فإن كل من اعتقد شيئاً على خلاف ماهو عليه إما نظراً برأيه وعقله أو أخذاً

(١) يقظة أولي الاعتبار : ٢١١ .

(٢) سورة الزمر : ٤٧ .

(٣) سورة الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٤ .

ممن هذا حاله فهو واقع في هذا الخطر ، ولا ينفعه الزهد والصلاح ، وإنما ينفعه الاعتقاد الصحيح المطابق لكتاب الله وسنة رسوله ، لأن العقائد الدينية لا يعتد بها إلا ما أخذت منها .

٢ ـ ومنها الإصرار على المعاصي ، فإن من له إصرار عليها يحصل في قلبه إلفها، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره عند موته ، فإن كان ميله إلى الطاعات أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر الطاعات ، وإن كان ميله إلى المعاصي أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر المعاصي ، فربما يغلب عليه حين نزول الموت به قبل التوبة شهوة ومعصية من المعاصي فيتقيد قلبه بها وتصير حجابا بينه وبين ربه ، وسبباً لشقاوته في آخر حياته لقوله ﷺ : « المعاصي بريد الكفر » .

والذي لم يرتكب ذنباً أصلا ، أو ارتكب وتاب فهو بعيد عن هذا الخطر ، وأما الذي ارتكب ذنوباً كثيرة حتى كانت أكثر من طاعاته ولم يتب عنها . بل كان مصراً عليها ، فهذا الخطر في حقه عظيم جداً إذ قد يكون غلبة الإلف بها سبباً لأن يتمثل في قلبه صورتها ، ويقع منه ميل إليها وتقبض روحه عليها فيكون سبباً لسوء خاتمته .

ويعرف ذلك بمثال ، وهو أن الإنسان لاشك أنه يرى في منامه من لأحوال التي ألفها طول عمره ، حتى أن الذي قضى عمره في العلم يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء ، والذي قضى عمره في الخياطة يرى من الأحوال المتعلقة بالخياطة والخياط ، إذ لا يحضر في حال النوم إلا ما حصل له مناسبة مع قلبه لطول الألف. والموت وإن كان فوق النوم لكن سكراته وما يتقدمه من الغشى قريب من النوم ، فطول الإلف بالمعاصي يقتضي تذكرها عند الموت وعودها في القلب وتمثلها فيه وميل النفس إليها ، وإن قبض روحه في تلك الحالة يختم له بالسوء » .

قال الذهبي في الكبائر : « قال مجاهد : ما من ميت يموت إلا مُثِّل له جلساؤه الذين كان يجالسهم ، فاحتضر رجل ممن كان يلعب بالشطرنج ، فقيل له : قل : لا إله إلا الله . فقال : شاهك . ثم مات . فغلب على لسانه ما كان يعتاده حال حياته في اللعب ، فقال عوض كلمة التوحيد : شاهك .

وهذا كما جاء في إنسان آخر ممن كان يجالس شراب الخمر أنه حين حضره الموت ، فجاءه إنسان يلقنه الشهادة ، فقال له : اشرب واسقني . ثم مات ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »[1] .

٣ ـ **ومنها العدول عن الاستقامة** :[2] فإن من كان مستقيما في ابتدائه ثم تغير عن حاله وخرج مما كان عليه في ابتدائه يكون سبباً لسوء خاتمته ، كإبليس الذي كان في ابتدائه رئيس الملائكة ومعلمهم وأشدهم اجتهاداً في العبادة، ثم لما أمر بالسجود لآدم أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وكبلعام بن باعور الذي آتاه الله آياته فانسلخ بإخلاده إلى الدنيا ، واتبع هواه وكان من الغاوين ، وكبرصيصا العابد الذي قال له الشيطان اكفر ، فلما كفر ، قال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ، فإن الشيطان أغراه على الكفر ، فلما كفر تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك ، كما قال تعالى :

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3] .

٤ ـ **ومنها ضعف الإيمان** : فإن كان في إيمانه ضعف يضعف حب الله تعالى فيه ، ويقوى حب الدنيا في قلبه ، ويستولي عليه بحيث لا يبقى فيه موضع لحب الله

---

(١) الكبائر للذهبي : ص ٩١ .

(٢) يقظة أولي الاعتبار : ص ٢١٢ .

(٣) سورة الحشر : ١٧ .

تعالى ، إلا من حيث حديث النفس بحيث لا يظهر له أثره في مخالفة النفس ، ولا يؤثر في الكف عن المعاصي ، ولا في الحث على الطاعات ، فينهمك في الشهوات وارتكاب السيئات ، فتتراكم ظلمات الذنوب على القلب ، فلا تزال تطفي مافيه من نور الإيمان مع ضعفه ، فإذا جاءت سكرات الموت يزداد حب الله ضعفا في قلبه لما يرى أنه يفارق الدنيا ، وهي محبوبة له ، وحبها غالب عليه لايريد تركها ، ويتألم من فراقها ، ويرى ذلك منه الله تعالى ، فيخشى أن يحصل في باطنه بغضه تعالى بدل الحب ، وينقلب ذلك الحب الضعيف بغضا ، فإن خروج روحه في اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة يختم له بالسوء ويهلك هلاكاً مؤبداً .

والسبب المفضي إلى هذه الخاتمة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح بها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى ، وهو الداء العضال الذي قد عم أكثر الخلق ، فإن من يغلب على قلبه عند الموت أمر من أمور الدنيا يتمثل ذلك الأمر في قلبه ، ويستغرقه ، حتى لا يبقى لغيره متسع ، فإن خرج روحه في تلك الحالة يكون رأس قلبه منكوساً إلى الدنيا ، ووجهه مصروفاً إليها ، ويحصل بينه وبين ربه حجاب .

حكى أن سليمان بن عبدالملك لما دخل المدينة حاجا قال : هل بها رجل أدرك عدة من الصحابة ؟ قالوا نعم ، أبو حازم ، فأرسل إليه، فلما أتاه قال : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ قال: إنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب ، قال : صدقت ، ثم قال : ليت شعري مالنا عند الله تعالى ؟ قال : اعرض عملك على كتاب الله ، قال فأين أجده ؟ قال في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[1] .

---

(١) سورة الانفطار : ١٣ ـ ١٤ .

قال : فأين رحمة الله ؟ قال : رحمة الله قريب من المحسنين .

قال : يا ليت شعري كيف العرض على الله تعالى غداً ؟ قال أما المحسن فكالغائب الذي يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه ، فبكى سليمان حتى علا صوته وأشتد بكاؤه ثم قال : أوصني ، قال إياك أن يراك الله تعالى حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك » .

ونقل صديق حسن خان عن الغزالي في «الاحياء» أن سوء الخاتمة على رتبتين : إحداهما أعظم من الأخرى ، **فأما الرتبة العظيمة الهائلة فهي أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود** ، فتقبض الروح على تلك الحالة فتكون حجاباً بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد .

والثانية : وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا أو شهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره ، فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا ، فالأمر مخطر، لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة يمحو عَنِ القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت ، فإن كان إيمانه في القوة إلى حد مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب ، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار ، ولكن لو لم يكن إلا مثقال حبة فلابد وأن يخرجه من النار ، ولو بعد آلاف السنين ، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به إما تقليداً وإما نظراً بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر ، والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر ، بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق على وفق الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، والبُلْهُ بمعزل عن هذا الخطر[١] .

---

(١) يقظة أولي الاعتبار : ص ٢١٦ .

المبحث السابع

تخيير الأنبياء عند الموت

عندما يحضر الأنبياء الموت فإن الله يريهم ماهم عنده من الثواب الجزيل والأجر العظيم ، ثم يخيرون بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى ذلك المقام الكريم ، ولاشك أن كل رسول يفضل النعيم المقيم ، وقد حدث هذا لرسولنا ﷺ ، خُيِّر فاختار ؛ ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح : « إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنّة ثم يخيّر ، فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ، ثم أفاق ، فأشخص بصره إلى السقف ثم قال : اللهمَّ الرفيق الأعلى ، قلت : إذن لا يختارنا ، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به ، قالت : « فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النبي ﷺ قوله :اللهم في الرفيق الأعلى »[1] وجاء في إحدى رواياته[2] : « فسمعت النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه : وأخذته بُحَّةٌ يقول : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[3] قالت فظننت أنه خيِّر يومئذ .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله ، فتح الباري : (٣٥٧/١١) ، وقد أخرجه أيضا مسلم في صحيحه ، ومالك في موطئه ، والترمذي في سننه ، وقد ساق روايات الحديث عن عائشة ابن الأثير في جامع الأصول : (٦٧/١١) .

(٢) وهي عند جميعهم .

(٣) سورة النساء : ٦٩ .

الفصل الثالث

رحلة الروح إلى السماء بعد نزعها

عن أبي هريرة عند مسلم قال : « إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان ـ يصعدانها » قال حماد[1] « فذكر من طيب ريحها ، وذكر المسك » قال : « ويقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه ، فينطلق به إلى ربه عز وجل ، ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل » .

قال : « وإن الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حماد وذكر من نتنها ، وذكر لعنا ـ ويقول أهل السماء : روح خبيثة من قبل الأرض ، قال : فيقال : انطلقوا به آخر الأجل »[2] .

وقد ذكر الرسول ﷺ في حديث البراء التكريم الذي يكون لروح العبد الصالح بعد خروجها من جسده ، حيث تصلي ملائكة الله على تلك الروح الطيبة ، وتفتح لها أبواب السماء ، وتجعل في كفن من الجنة وحنوط من الجنّة ، وتخرج منها روائح طيبة عطرة تفوق رائحة المسك ، ثم تأخذها الملائكة في رحلة علويّة كريمة ، وتفتح لها أبواب السماء ، أما الروح الخبيثة ، فتلعنها ملائكة السماء

---

(١) أحد رواة حديث أبي هريرة عند مسلم .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت ، (٤/٢٢٠٢) حديث رقم : (٢٨٧٢) .

عند خروجها ، وتغلق أبواب السماء دونها ، ويدعو كل فريق من ملائكة الرحمن على باب ألا تعرج من قبلهم ، وتجعل تلك الروح الخبيثة في حنوط من النار وكفن من النار ، وتفوح منها الروائح الخبيثة التي تؤذي ملائكة الرحمن ، ويعرج بها إلى السماء فلا تفتح لها أبواب السماء ، فتلقى روحه من شاهق ، ففي حديث البراء بن عازب الذي يصف الرسول ﷺ فيه رحلة الإنسان من الموت إلى البرزخ قال : « حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وفتحت له أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج من قبلهم ، فإذا أخذها (يعني ملك الموت) لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، [فذلك قوله تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾][1] ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها ، فلا يمرون - يعني - بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان - بأحسن أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح لهم ، فيشيعه من كل سماء مقربوها ، إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[2] ،فيكتب كتابه في عليين ، ثم يقال : أعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . . » .

وتحدث الرسول ﷺ عن الروح الخبيثة التي نزعت من العبد الكافر أو الفاجر ، فقال عنها بعد نزعها : « [فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل

---

(١) سورة الأنعام : ٦١ .

(٢) سورة المطففين : ١٩ - ٢١ .

ملك في السماء ، وتغلق أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم] ، فيأخذها ، فإذا أخذها ، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[1] ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى [ثم يقول : أعيدوا عبدي إلى الأرض ، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فتطرح روحه من السماء ، طرحا [حتى تقع في جسده] ، ثم قرأ : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[2] ، فتعاد روحه إلى جسده . »[3] .

وروى ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحا ، قال : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، وربّ غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقول : فلان ، فيقال : مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير

(١) سورة الأعراف : ٤٠ .
(٢) سورة الحج : ٣١ .
(٣) حديث صحيح ، سبق تخريجه ص : ٢٠ .

غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تبارك وتعالى[1] ، فإذا كان الرجل السوء : قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغسّاق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال ، من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : لا مرحبا بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنها لا تفتح لك أبواب ، فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر . . . »[2] .

---

(١) ليس المراد أن السماء تحوي الله وتحصره ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل الله فوق سماواته بائن من خلقه ، وقد قال الحق في كرسيه ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ سورة البقرة : ٢٥٥ . وأخبر الرسول ﷺ أن السموات في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ سورة طه : ٧١ وقوله : ﴿ فسيحوا في الأرض ﴾ سورة براءة : ٢ ليس المراد أنهم في جوف النخل ، وجوف الأرض ، بل معنى ذلك أنه تبارك وتعالى فوق السموات وعليها ، وهذا الحديث مثل قوله تبارك وتعالى : ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ سورة الملك / ١٦ أي في العلو ، ومثل قول الرسول ﷺ للجارية « أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال عليه السلام : أعتقها فإنها مؤمنة » والحديث رواه مسلم في صحيحه .

(٢) رواه ابن ماجة في سننه وقد صححه الشيخ ناصر في صحيح الجامع الصغير : (٢/ - ١٦٩) .

الفصل الرابع
القبر

المبحث الأول
هول القبر وفظاعته

روى هانىء مولى عثمان بن عفان ، قال : كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى ، حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشدُّ منه ، قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : ما رأيت منظرا قط إلّا القبر أفظع منه »[1] أخرجه الترمذي[2] ، ولما كان مابعد القبر أيسر منه لمن نجا فإن العبد المؤمن إذا رأى في قبره ما أعد الله له من نعيم يقول : « رب عجل قيام الساعة ، كيما أرجع إلى أهلي ومالي »[3] والعبد الكافر الفاجر إذا رأى ما أعدّ الله له من العذاب الشديد فإنه يقول

---

(١) أفظع : الفظيع : الشديد الشنيع .

(٢) رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، انظر مشكاة المصابيح : (٤٨/١) وجامع الأصول : (١٦٤/١١) ، وقال الشيخ ناصر في تعليقه على المشكاة : « وسنده حسن » ، وانظر صحيح الجامع الصغير : (٨٥/٢) .

(٣) هذه قطعة من حديث البراء ، وقد سبق تخريجه في ص : ٢٠ .

على الرغم مما هو فيه من عذاب : « رب لا تقم الساعة »[1] ، لأن الآتي أشدُّ وأفظع .

ظلمة القبر

ماتت امرأة كانت تَقُمُّ المسجد في عهد الرسول ﷺ ، ففقدها الرسول ﷺ ، فأخبروه أنها ماتت من الليل ، ودفنوها ، وكرهوا إيقاظه ، فطلب من أصحابه أن يدلوه على قبرها ، فجاء إلى قبرها فصلى عليها ، ثمَّ قال : « إن هذه القبور مليئة ظلمة على أهلها ، وإن الله عز وجل منورها لهم بصلاتي عليهم » رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة والبيهقي وأحمد[2] .

---

(١) هذه قطعة من حديث البراء ، انظر تخريجه في ص ٢٠

(٢) أحكام الجنائز : ص ٨٧ .

المبحث الثاني
ضمة القبر

عندما يوضع الميت في القبر فإنه يضمه ضمة لا ينجو منها أحد كبيرا كان أو صغيرا، صالحا أو طالحا، فقد جاء في الأحاديث أن القبر ضم سعد بن معاذ، وهو الذي تحرك لموته العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، ففي سنن النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، لقد ضم ضمة، ثمَّ فرج عنه»[1] وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عمر أيضا أن الرسول ﷺ قال: «إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجيا منها نجا سعد بن معاذ» رواه أحمد في مسنده[2] وفي مسندي الطبراني الكبير والأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الرسول ﷺ قال: «لو نجا أحد من ضمة القبر، لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضمَّ ضمَّة، ثم روخي عنه»[3]. ومما يدل على أن ضمة القبر لازمة لكل إنسان أن الصبيان لا ينجون منها، ففي مسند الطبراني الكبير عن أبي أيوب الأنصاري بإسناد صحيح وهو في مسنده الأوسط، وفي الكامل لابن عدي عن أنس أن الرسول ﷺ قال: «لو أفلت أحد من ضمة القبر لنجا هذا الصبي»[4].

---

(١) رواه النسائي، في كتاب الجنائز، باب ضمة القبر وضغطته، (١٠٠/٤)، وقال الشيخ ناصر الدين الألباني في مشكاة المصابيح، (٤٩/١): وسنده صحيح على شرط مسلم.

(٢) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع (٢٣٦/٢) إسناده صحيح.

(٣) قال في صحيح الجامع (٧١/٥) إسناد صحيح.

(٤) صحيح الجامع: (٥٦/٥).

المبحث الثالث
فتنة القبر

المطلب الأول
كيف تكون فتنته

إذا وضع العبد في قبره جاءته ملائكة على صورة منكرة، ففي سنن الترمذي « إذا قبر الميت ـ أو قال : أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر ، وللآخر : النكير ، فيقولان ، ماكنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ماكان يقول ، هو عبدالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . . وإن كان منافقا قال : سمعت الناس يقولون قولا ، فقلت مثله ، لا أدري . . . »[1] .

وجاء في الحديث الذي يرويه البراء بن عازب عن الرسول ﷺ : « فيأتيه ملكان [شديدا الانتهار] فـ[ينتهرانه ، و] يجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن ، فذلك حين يقول الله عز وجل : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2]، فيقول : ربي

(١) رواه الترمذي ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، (٣/٣٨٣) وقال الترمذي : حديث حسن غريب ، وقال محقق الكتاب الشيخ أحمد شاكر : لم يخرجه من أصحاب الكتب الستة سوى الترمذي ، وقد رمز له الشيخ ناصر الدين الألباني بالحسن في صحيح الجامع الصغير : (١/٢٥٩) ، وأورده في سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم (١٣٩١) .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٧ .

الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ﷺ ، فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي » وقال في العبد الكافر أو الفاجر : « ويأتيه ملكان [شديدا الانتهار ، فينتهرانه ، و] يجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه ، هاه لا أدري ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول هاه ، هاه لا أدري ، فيقولان : فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فلا يهتدي لاسمه ، فيقال : محمد ، فيقول : هاه ، هاه ، لا أدري ، [سمعت الناس يقولون ذاك ، قال : فيقولان : لا دريت [ولا تلوت][1] فينادي منادي أن كذب عبدي][2] .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم ، إذا انصرفوا : أتاه ملكان ، فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ، محمد ؟ فأمّا المؤمن ، فيقول : أشهد أنه عبدالله ورسوله . . . وأما الكافر أو المنافق ، وفي رواية : وأما الكافر والمنافق ـ فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس فيه ، فيقال : لا دريت ، ولا تليت . . . » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي[3] .

ولم يكن الرسول ﷺ يعلم في أول الأمر أن هذه الأمة تفتن في قبورها ، ثم أوحى الله له بهذا العلم ، فقد حدَّث عروة بن الزبير عن خالته عائشة ، قالت : دخل عليَّ رسول ﷺ ، وعندي امرأة من اليهود ، وهي تقول : هل شعرت أنكم تفتنون في القبور ؟ قالت : فارتاع رسول الله ﷺ ، وقال : « إنَّما تفتن اليهود » ، قالت عائشة : فلبثنا ليالي ، ثم قال رسول الله ﷺ : « هل شعرت أنه أوحي إلي

---

(١) أي لا دريت ولا تبعت الناس بأن تقول شيئا يقولونه .
(٢) حديث صحيح ، وسبق تخريجه في ص ٢٠ .
(٣) جامع الأصول : (١١/١٧٣) .

تفتنون في القبور » قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ ، بعد : يستعيذ من عذاب القبر(١) .

المطلب الثاني
هل يفتن الكافر في قبره

دلت الأحاديث التي سقناها على أن الكفار يفتنون في قبورهم ، وقد خالف في ذلك الحكيم الترمذي وابن عبد البر والسيوطي(٢) ، واحتج الحكيم الترمذي على عدم السؤال بأن الأمم الماضية إن رفضت الاستجابة لرسلها عوجلت بالعذاب ، بخلاف هذه الأمة ، فقد أمسك عنها العذاب ، وبعث الرسول ﷺ بالسيف ، فمن دخل في الإسلام مخافة القتل ، ثم نافق عذب في قبره ، وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإن الله لم يهلك مكذبي الأمم بعد نزول التوراة(٣) ، واحتج ابن عبدالبر بقوله عليه السلام في الحديث الصحيح : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، ومنهم من يرويه . تسأل(٤) ، والأحاديث الصحيحة ترد هذا الفهم ، وتدل على أن هذا ليس خاصا بالمؤمنين ، وليس خاصا بهذه الأمة .

وقد ذهب إلى أن السؤال عام عبدالحق الإشبيلي ، وابن القيم ، والقرطبي ، والسفاريني وغيرهم(٥) .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر ، حديث رقم (٥٨٤) ، (١/٤١٠) .

(٢) لوامع الأنوار البهية : (٢/١٠) .

(٣) انظر لوامع الأنوار البهية للسفاريني : (٢/١٠) .

(٤) لوامع الأنوار البهية للسفاريني : (٢/١٠) ، وتذكرة القرطبي : (١٤٧) .

(٥) لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/١٠) ، وتذكرة القرطبي : (١٤٧) .

المطلب الثالث
هل يفتن غير المكلفين

الفتنة عامة لجميع المكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم[1] ، وإلا الشهداء والمرابطين ونحوهم ممن جاءت النصوص دالة على نجاتهم من الفتنة كما سيأتي بيانه .

واختلف في غير المكلفين من الصبيان والمجانين ، فذهب جمع من العلماء إلى أنهم لا يفتنون منهم القاضي أبو يعلي وابن عقيل ، ووجهة نظر هؤلاء أن المحنة تكون لمن كلف ، أما من رفع عنه القلم فلا يدخل في المحنة ، إذ لا معنى لسؤاله عن شيء لم يكلف به .

وقال آخرون : بل يفتنون ، وهذا قول أبي الحكيم الهمداني ، وأبي الحسن ابن عبدوس ، ونقله عن أصحاب الشافعي ، وقد روى مالك وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ صلى على طفل ، فقال : « اللهُمّ قه عذاب القبر وفتنة القبر » ، وهذا القول موافق لقول من قال : إنهم يمتحنون في الآخرة ، وأنهم مكلفون يوم القيامة ، كما هو قول أكثر أهل العلم وأهل السنة من أهل الحديث والكلام ، وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة واختاره ، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد[2] .

---

(١) مجموع الفتاوي : (٢٥٧/٤) .

(٢) راجع مجموع الفتاوي ، لشيخ الإسلام ابن تيمية : (٢٥٧/٤ ، ٢٧٧) .

المبحث الرابع
عذاب القبر ونعيمه

المطلب الأول
أحاديث عذاب القبر ونعيمه متواترة

يقول شارح الطحاوية : « وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ، ولا نتكلم في كيفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول بل إن الشرع قد يأتي بما تحار فيه العقول ، فإن عودة الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا[1] » .

وقال في موضع آخر : « واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه ، قبر أولم يقبر ، أكلته السباع أو احترق حتى صار رمادا ونسف في الهواء ، أو صلب أو غرق في البحر ، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك ، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير »[2] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : (٤٥٠) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : (٤٥١) .

وأنكرت الملاحدة ومن تمذهب بمذهب الفلاسفة من الإسلاميين عذاب القبر ، وقالوا : ليس له حقيقة ، واحتجوا لذلك بأنهم يفتحون القبور فلا يرون شيئا مما أخبرت به النصوص[1] .

وأنكره أيضا الخوارج وبعض المعتزلة كضرار بن عمرو وبشر المريسى ، وخالفهم جميع أهل السنة ، وأكثر المعتزلة[2] .

وهؤلاء كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وقد ظن هؤلاء أن أبصارهم يمكن أن ترى كل شيء ، وأن أسماعهم يمكن أن تسمع كل شيء ، ونحن اليوم نعلم من أسرار الكون ماكانت أسماعنا وأبصارنا عاجزة عن سماعه ورؤيته ، ومن آمن بالله صدّق خبره .

وقد وردت إشارات في القرآن تدل على عذاب القبر ، وقد ترجم البخاري في كتاب الجنائز لعذاب القبر ، فقال : باب ما جاء في عذاب القبر ، وساق في الترجمة قوله تعالى : ﴿ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾[4] . وقوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[5] .

والآية الأولى التي ساقها البخاري إنما هي في تعذيب الملائكة الكفار في حال الاحتضار كما سبق بيانه ، والآية الثانية تدل على أن هناك عذابين سيصيبان

(١) انظر تذكرة القرطبي : (١٢٥) .
(٢) فتح الباري : (٢٣٣/٣) .
(٣) سورة الأنعام : ٩٣ .
(٤) سورة التوبة : ١٠١ .
(٥) سورة غافر : ٤٥ .

المنافقين قبل عذاب يوم القيامة ، العذاب الأول ما يصيبهم الله به في الدنيا إمّا بعقاب من عنده وإما بأيدي المؤمنين ، والعذاب الثاني عذاب القبر ، قال الحسن البصري : « سنعذبهم مرتين : عذاب الدنيا ، وعذاب القبر »[1] ، وقال الطبري : «والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والأخرى تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع أو السبي أو القتل والإذلال أو غير ذلك »[2] .

والآية الثالثة حجّة واضحة لأهل السنة الذين أثبتوا عذاب القبر ، فإن الحق تبارك وتعالى قرر أن آل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا ، وهذا قبل يوم القيامة ، لأنه قال بعد ذلك : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[3] ، قال القرطبي : « الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ ، وهو حجّة في تثبيت عذاب القبر »[4] .

ومن الإشارات القرآنية الواضحة الدالة على فتنة القبر وعذابه قوله تبارك وتعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[5] ففي الحديث الذي يرويه البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[6] ، وفي رواية أخرى : وزاد ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[7] نزلت في عذاب القبر »[8] .

(١) فتح الباري : (٣/٢٣٣) .
(٢) فتح الباري : (٣/٢٣٣) .
(٣) سورة غافر : ٤٦
(٤) فتح الباري : (١١/٢٣٣) .
(٥) سورة إبراهيم : ٢٧ .
(٦) سورة إبراهيم : ٢٧ .
(٧) سورة إبراهيم : ٢٧ .
(٨) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، فتح الباري : (٣/٢٣١) .

وقد روت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها «أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة الرسول ﷺ عن عذاب القبر، فقال: نعم، عذاب القبر. قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى إلّا تعوذ من عذاب القبر» زاد غندر: «عذاب القبر حق» رواه البخاري[1].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «دخلت عليَّ عجوزان من عُجُز يهود المدينة، فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتهما، ولم أنعم[2] أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله! إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليَّ، فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فقال: «صدقتا، إنهم يعذبون عذابا تسمعه البهائم» قالت: فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر»[3]. ولعظم هذا الأمر وخطورته كان الرسول ﷺ يعلمه لأصحابه، بل وخطب فيهم مرة به، ففي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: قالت: «قام رسول الله ﷺ خطيباً فذكر فتنة القبر التي يفتن فيها المرء فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة» رواه البخاري[4] والنسائي، وزاد النسائي: «حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ، فلما سكنت ضجتهم، قلت لرجل قريب مني: أي بارك الله لك، ماذا قال رسول الله ﷺ آخر قوله؟ قال: قد أوحى إلي: أنكم تفتنون في القبور قريبا من فتنة الدجال»[5].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، فتح الباري: (٣/٢٣١).
(٢) (لم أنعم) أي لم تطب نفسي أن أصدقهما.
(٣) صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر: (١/٤١١).
(٤) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، فتح الباري: (٣/٢٣٢).
(٥) رواه النسائي، انظر جامع الأصول: (١١/١٧٠).

سماع الرسول ﷺ أصوات المعذبين

وقد أعطى الله رسوله القدرة على سماع المعذبين في قبورهم ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : « بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار ، على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به[1] ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ، فقال : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ فقال رجل : أنا ، قال : فمتى مات هؤلاء ؟ قال : ماتوا في الإشراك ، فقال : إن هذه الأمّة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا[2] ، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه »[3] وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن النسائي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس ، فسمع صوتا ، فقال : يهود تعذب في قبورها »[4] .

ويدل على سماع الرسول ﷺ للمعذبين في قبورهم الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس وفيه أن الرسول ﷺ مرّ بقبرين ، فقال « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير . . . » الحديث ، وسيأتي ذكره بتمامه إن شاء الله .

---

(١) حادت به : أي مالت عن الطريق ونفرت .
(٢) لا تدافنوا : أي مخافة أن لا تدافنوا .
(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، (٤/٢١٩٩) .
(٤) جامع الأصول : (١١/١٧٢) .

سماع غير الرسول ﷺ أصوات المعذبين

لم يزل بعض الناس يتحدثون عن سماعهم أو رؤيتهم للمعذبين في قبورهم ، ومن هؤلاء ثقات أعلام لا مطعن في دينهم وأمانتهم ، يقول ابن تيمية في ذلك : « قد يكشف لكثير من أبناء زماننا يقظة ومناماً ، ويعلمون ذلك ويتحققونه ، وعندنا من ذلك أمور كثيرة »[١] .

وقال في موضع آخر في معرض رده على المكذبين بعذاب القبر : « وإذا عرف أن النائم يكون نائما وتقعد روحه وتقوم وتمشي ، وتذهب وتتكلم وتفعل أفعالا وأمورا بباطن بدنه مع روحه ، ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب ، مع أن جسده مضطجع ، وعينيه مغمضة ، وفمه مطبق ، وأعضاؤه ساكنة ، وقد يتحرك لقوة الحركة الداخلة ، وقد يقوم ويمشي ويتكلم ويصيح ، لقوة الأمر في باطنه ، كان هذا مما يعتبر به أمر الميت في قبره ، فإن روحه تقعد ، وتجلس ، وتسأل ، وتنعم، وتعذب، وتصيح وذلك متصل ببدنه، مع كونه مضطجعا في قبره، وقد يقوى ذلك حتى يظهر ذلك في بدنه ، وقد يرى خارجا من قبره ، والعذاب عليه ، وملائكة العذاب موكلة به ، فيتحرك بدنه ، ويمشي ويخرج من قبره ، وقد سمع غير واحد أصوات المعذبين في قبورهم ، وقد شوهد من يخرج من قبره وهو معذب ، ومن يقعد بدنه أيضا إذا قوي الأمر ، لكن ليس هذا لازما في حق كل ميت ، كما أن قعود بدن النائم لما يراه ، ليس لازما لكل نائم ؛ بل هو بحسب قوة الأمر[٢] » .

---

(١) مجموع الفتاوي : (٢٤/٣٧٦) .

(٢) مجموع الفتاوي : (٥/٥٢٥) .

المطلب الثاني

صفة نعيم القبر وعذابه

ذكر الرسول ﷺ في حديث البراء بن عازب أن الملائكة تسأل العبد المؤمن في قبره فيحسن الإجابة وعند ذاك « ينادي مناد في السماء : أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنّة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره ، قال : ويأتيه [وفي رواية : يمثل له] رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، [أبشر برضوان من الله ، وجنات فيها نعيم مقيم] هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : [وأنت فبشرك بخير] من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح [فوالله ما علمتك إلا كنت سريعا في طاعة الله ، بطيئا في معصية الله ، فجزاك الله خيرا] ، ثم يفتح له باب من الجنّة ، وباب من النار ، فيقال : هذا منزلك لو عصيت الله ، أبدلك الله به هذا ، فإذا رأى مافي الجنّة ، قال : رب عجل قيام الساعة ، كيما أرجع إلى أهلي ومالي ، [فيقال له اسكن] » .

وذكر صلوات الله عليه وسلامه أن العبد الكافر[1] أو الفاجر بعد أن يسيء الإجابة « ينادي منادي في السماء أن كذب ، فافرشوا له من النار ، وافتحوا له بابا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه في قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه (وفي رواية : ويمثل له) رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : [وأنت فبشرك الله بالشرّ] ، من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر ،

(١) هذا اللفظ ومثله كثير في الأحاديث يرد على ابن عبدالبر والسيوطي والحكيم الترمذي ومن ذهب مذهبهم من القائلين بأن عذاب القبر لعصاة المؤمنين دون الكفار .

فيقول : أنا عملك الخبيث ، [فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئا عن طاعة الله ، سريعا إلى معصية الله] ، [فجزاك الله شرّا ، ثم يقيض الله له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة ، لو ضرب بها جبل كان ترابا ، فيضربه حتى يصير بها ترابا ، ثم يعيده كما كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، ثم يفتح له باب من النار ، ويمهد من فرش النار] ، فيقول : رب لا تقم الساعة »[1] .

وفي حديث أنس أن العبد المؤمن إذا أجاب الإجابة الصادقة في قبره ، « يقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، قال النبي ﷺ : فيراهما جميعا ، قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره » وذكر في حديث أنس أن الكافر والمنافق بعد أن يجيب في قبره تلك الإجابة الكاذبة ، يقال له : « لا دريت ، ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » أخرجه البخاري ومسلم ولفظ الحديث للبخاري ، ولمسلم : « إن العبد إذا وضع في قبره ، ثم ذكر نحوا مما تقدم إلى قوله : وذكر لنا : أنه يفسح فيه سبعين ذراعا ، ويملأ عليه خضرا إلى يوم تبعثون » ، وفي رواية لأبي داود أن العبد المؤمن بعد أن يسأل ويجيب ، « ينطلق به إلى بيت كان له في النار ، فيقال له : هذا كان لك ، ولكن الله عصمك ، فأبدلك به بيتا في الجنّة ، فيراه ، فيقول : دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي ، فيقال له : اسكن »[2] .

وهذا الذي أشارت إليه الأحاديث من أنَّ كل إنسان يعرض عليه مقعده بعد أن يسأل في قبره مستمر طيلة بقائه في القبر ، وقد صرح بذلك الرسول ﷺ ، ففي

---

(١) حديث صحيح ، سبق تخريجه في ص ٢٠ .

(٢) انظر هذه الروايات في جامع الأصول : (١٧٣/١١) .

الحديث الذي يرويه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، « أن النبي ﷺ قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »[1] .

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ أخبر أن الملكين يقولان للعبد المؤمن بعد أن يجيب الإجابة السديدة : « قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ، ثم ينور له فيه ، ثم يقال له : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » . وأنهما يقولان للمنافق : « قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض : التئمي عليه ، فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه ، فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك »[2] .

المطلب الثالث

هل يعذب المسلمون في قبورهم

قال القرطبي : « قال أبو محمد عبدالحق : اعلم أن عذاب القبر ليس مختصا بالكافرين ، ولا موقوفا على المنافقين ، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين ، وكل على حاله من عمله ، وما استوجبه من خطيئته وزلله »[3] ، والأدلة على أن المؤمن قد يعذب في قبره بسبب ذنوبه كثيره، وسيأتي ذكر طائفة منها في المبحث التالي .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الميت يعرض عليه مقعده في الغداة والعشى ، فتح الباري : (٢٤٣/٣) ، ورواه مسلم في كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار ، (٢١٩٩/٤) حديث رقم (٢٨٦٦) .

(٢) حديث حسن رواه الترمذي في سننه . كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر : (٣٨٣/٣) ، حديث رقم : (١٠٧١) .

(٣) تذكرة القرطبي : ١٤٦ .

المطلب الرابع
أسباب عذاب القبر

« الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين : مجمل ومفصّل ، أمّا المجمل فأنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم معاصيه »[1] .

أما المفصل فإن النصوص ذكرت منه الكثير ، وسنشير إلى ما اطلعنا على ذكره في الأحاديث :

١ ، ٢ ـ عدم الاستتار من البول والنميمة :

روى البخاريُّ ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « مرّ النبي ﷺ على قبرين ، فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال : بلى ، أمّا أحدهما فكان يسعى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ، ثم قال : ثم أخذ عودا رطبا فكسره باثنتين ، ثم غرز كل واحد منهما على قبر ، ثمَّ قال : لعله يخفف عنهما ، مالم ييبسا »[2] .

وروى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : « دخلت عليَّ امرأة من اليهود ، فقالت : إن عذاب القبر من البول ، فقلت : كذبت ، فقالت : بلى ، إنا لنقرض منه الجلد والثوب ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ، وقد ارتفعت أصواتنا ، فقال : ما هذا ؟ فأخبرته بما قالت فقال : صدقت . قالت : فما صلى

---

(١) لوامع الأنوار البهية : (١٧/٢) .

(٢) رواه البخاري واللفظ له في كتاب الجنائز ، باب عذاب القبر من الغيبة والبول ، فتح الباري : (٢٤٢/٣) ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على نجاسة البول ، (١/ ٢٤٠) ، حديث رقم (٢٩٢) ، ورواه النسائي : (١٠٦/٤) .

بعد يومئذ إلا قال دبر كل صلاة : ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أعذني من حرّ النار وعذاب القبر »[1] .

وهذا الذي أشار إليه الحديث من أن بني إسرائيل كانوا يقرضون من البول الجلد والثوب ـ هو من الدين الذي شرعه الله لهم ، ولذلك لما نهاهم من نهاهم عن فعل ذلك عذب في قبره بسبب نهيه ، ففي حديث عبدالرحمن بن حسنة أن رسول الله ﷺ ، قال : « ألم تعلموا ما لقي صاحب بني إسرائيل ، كانوا إذا أصابهم البول قطعوا ما أصابه البول منهم ، فنهاهم عن ذلك ، فعذب في قبره »[2] .

وقد أخبر الرسول ﷺ أن عامة عذاب القبر من البول ، فقد روى أنس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : « تنزهوا من البول ، فإن عامة عذاب القبر منه » ، ورواه ابن عباس بلفظ « عامة عذاب القبر من البول فتنزهوا منه » ورواه أبو هريرة بلفظ « أكثر عذاب القبر من البول »[3] .

٣ ـ الغلول :

ومن الذنوب التي يعذب صاحبها في القبر الغلول ، وقد صح في ذلك أكثر من حديث ، فعن أبي هريرة ، قال : أهدى رجل لرسول الله ﷺ غلاما يقال له :

---

(١) رواه النسائي في سننه ، انظر جامع الأصول : (١١/١٦٧) .
(٢) عزاه في صحيح الجامع (١/٤١٦) إلى أبي داود والترمذي ، وابن ماجة وابن حبان والحاكم .
(٣) وقد خرجه الشيخ ناصر في « إرواء الغليل » ، وقال : صحيح ، وعزا رواية أنس إلى الدارقطني ورواية ابن عباس إلى الدار قطني والحاكم والبزار والطبراني ورواية أبي هريرة إلى ابن أبي شيبة وابن ماجة والآجري والحاكم وأحمد ، انظر إرواء الغليل : (١/٣١١) ، حديث رقم (٢٨٠) .

مِدْعم ، فبينما مدعم يحط رحلا لرسول الله ﷺ إذ أصابه سهم عائر[1] ، فقتله ، فقال الناس . هنيئا له الجنّة ، فقال الرسول ﷺ : « كلا ، والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم ، لتشتعل عليه نارا » ، فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبي ﷺ ، فقال : « شراك من نار أو شراكين من نار » متفق عليه[2] .

وعن عبدالله بن عمرو ، قال : كان على ثقل[3] النبي ﷺ رجل يقال له كركرة ، فمات ، فقال رسول الله ﷺ : «هو في النار» فذهبوا ينظرون فوجدوا عباءَة قد غلّها » رواه البخاري[4] .

٤ ـ ٧ ـ الكذب ، هجر القرآن ، الزنا ، الربا :

أرى الله رسوله ﷺ أنواعا مما يعذب به بعض العصاة ، ففي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال : « كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : من رأى منكم الليلة رؤيا ؟قال : فإن رأى أحد قصها ، فيقول ما شاء الله » .

فسألنا يوماً فقال : هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا : لا قال : لكني رأيت الليلة رجلين أتياني ، فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة ، فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد ـ قال بعض أصحابنا عن موسى : كلوب من حديد يدخله في شدقه ـ حتى يبلغ قفاه ، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ،

---

(١) عائر : لا يدري من رماه .

(٢) مشكاة المصابيح : (٤٠١/٢) .

(٣) الثقل : المتاع المحمول على الدابة .

(٤) مشكاة المصابيح : (٤٠٢/٢) .

ويلتئم شدقه هذا ، فيعود فيصنع مثله .

قلت : ماهذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة ، فيشدخ به رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر ، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو ، فعاد إليه فضربه .

قلت : من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته نارا ، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا ، فإذا خمدت رجعوا فيها ، وفيها رجال ونساء عراة .

فقلت : من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم ، فيه رجل قائم ، على وسط النهر رجل بين يديه حجارة - قال يزيد ووهب بن جرير عن جرير بن حازم : وعلى شط النهر رجل - فأقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان .

فقلت : ماهذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة ، وفي أصلها شيخ وصبيان ، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها ، فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني دارا لم أر قط أحسن منها ، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان ، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل ، فيها شيوخ وشباب .

قلت : طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت . قالا : نعم . أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة . والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن ، فنام عنه

بالليل ولم يعمل فيه بالنهار ، يفعل به إلى يوم القيامة . والذي رأيته في الثقب فهم الزناة . والذي رأيته في النهر آكلوا الربا . والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام والصبيان حوله أولاد الناس . والذي يوقد النار مالك خازن النار . والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين وأما هذه الدار فدار الشهداء . وأنا جبريل ، وهذا ميكائيل . فارفع رأسك . فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب ، قالا : ذاك منزلك . قلت : دعاني أدخل منزلي . قالا : إنه بقي لك عمر لم تستكمله ، فلو استكملت أتيت منزلك »[1] .

حبس المدين في قبره بدينه

ومما يضر الميت في قبره ما عليه من دين ، فعن سعد بن الأطول رضي الله عنه : « أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم ، وترك عيالا ، قال : فأردت أن أنفقها على عياله ، قال : فقال لي نبي الله ﷺ : « إن أخاك محبوس بدينه ، [فاذهب] فاقض عنه ، [فذهبت فقضيت عنه ، ثم جئت] ، قلت : يارسول الله ، قد قضيت عنه إلّا دينارين ادعتهما امرأة ، وليست لها بَيِّنَه ، قال : أعطها فإنها محقة ، (وفي رواية صادقة)[2] » .

فقد أخبر الرسول ﷺ أن ذلك الصحابي محبوس بسبب دينه ، ويمكن أن يُفَسَّر هذا الحبس الحديث الآخر حيث قال الرسول ﷺ : « إنه مأسور بدينه عن الجنة » ، ففي الحديث الذي يرويه سمرة بن جندب « أن النبي ﷺ صلى على

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز . فتح الباري : (٣/٢٥١) .

(٢) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (ص : ١٥) : أخرجه ابن ماجة : (٢/٨٢) ، وأحمد : (٤/١٣٦ ، ٥/٧) ، والبيهقي : (١٠/١٤٢) ، وأحد إسناديه صحيح ، والآخر مثل إسناده عند ابن ماجة ، وصححه البوصيري في : (الزوائد) ، وسياق الحديث والرواية الثانية للبيهقي ، وهي والزيادات لأحمد في رواية .

جنازة،(وفي رواية صلى الصبح) ، فلما انصرف قال : أههنا من آل فلان أحد ؟ [فسكت القوم ، وكان إذا ابتدأهم بشيء سكتوا] ، فقال ذلك مرارا ، [ثلاث لا يجيبه أحد] ، [فقال رجل : هو ذا] ، قال : فقام رجل يجر إزاره من مؤخر الناس ، [فقال له النبي ﷺ : ما منعك في المرتين الأوليين أن تكون أجبتني ؟] أما إني لم أنوِّه باسمك إلا لخير ، إن فلانا ـ لرجل منهم ـ مأسور بدينه [عن الجنة ، فإن شئتم فافدوه ، وإن شئتم فأسلموه إلى عذاب الله] ، فلو رأيت أهله ومن يتحرَّون أمره قاموا فقضوا عنه ، [حتى ماأحد يطلبه بشيء] »[1] .

عذاب الميت ببكاء الحي

عندما طُعِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه صهيب يبكي ، يقول : واأخاه ، واصاحباه ، فقال عمر رضي الله عنه : يا صهيب أتبكي عليَّ وقد قال رسول الله ﷺ : « إن الميت يُعَذَّب ببعض بكاء أهله عليه »[2] .

وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها أن يكون الرسول ﷺ قد قال هذا الحديث ، ففي صحيح البخاري أن ابن عباس ذكر لعائشة ما قاله عمر بعد وفاته ، فقالت : رحم الله عمر ، والله ما حدَّث رسول الله ﷺ أن الله لَيعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليزيد الكافر عذابا

---

(١) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (ص ١٥) : أخرجه أبو داود (٢ / ٨٤) ، والنسائي (٢ / ٢٣٣) ، والحاكم (٢ / ٢٥ ، ٢٦) ، والبيهقي (٦ / ٤ / ٧٦)والطيالسي في مسنده (رقم ٨٩١ ، ٨٩٢) وكذا أحمد (٥ / ١١ ، ١٣ ، ٢٠) بعضهم عن الشعبي عن سمرة ، وبعضهم أدخل بينهما سمعان بن مُشَنَّج ، وهو على الوجه الأول صحيح على شرط الشيخين ، كما قال الحاكم ووافقه الذهبي ، وعلى الوجه الثاني صحيح فقط ، وقد ذكر الشيخ هناك من أخرج الروايات والزيادات .

(٢) الحديث رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب قول النبي ﷺ : « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه » فتح الباري : (٣ / ١٥١) ، ورواه مسلم أيضا ، انظر جامع الأصول : (١١ / ٩٢) .

ببكاء أهله عليه ، حسبكم القرآن ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1][2] ، وقد أوّلت عائشة رضي الله عنها هذا الحديث أكثر من تأويل ، ورَدَ ذلك عنها في الصحاح والسنن[3] .

وهاهنا أمران : الأول هل قال الرسول ﷺ هذا الحديث ؟ قال القرطبي : « إنكار عائشة ذلك ، وحكمها على الراوي بالتخطئة أو النسيان أو على أنه سمع بعضا ، ولم يسمع بعضا بعيد ، لأن الرواة لهذا المعنى من الصحابة كثيرون، وهم جازمون ، فلا وجه للنفي مع إمكان حمله على محمل صحيح »[4] .

الثاني : كيف يعذب ببكاء أهله عليه وليس ذلك من فعله ، والله يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[5] .

للعلماء في ذلك أجوبة أحسنها ما قاله البخاري في ترجمة الباب الذي وضع الحديث تحته ، قال رحمه الله تعالى : « باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض ما ينح عليه إذا كان النوح من سنته » لقول الله تعالى : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا ﴾[6] ، وقال النبي ﷺ « كلكم راع ومسئول عن رعيته » ، فإذا لم يكن من سنته فهو كما قالت عائشة رضي الله عنها ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[7][8] وممن ذهب هذا المذهب الترمذي رحمه الله ، فإنه روى حديث عمر رضي الله عنه بلفظ

---

(١) سورة فاطر : ١٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، انظر فتح الباري : (١٥١/٣) .

(٣) إذا شئت الاطلاع على هذه التأويلات ارجع إلى فتح الباري : (١٥٢/٣) .

(٤) فتح الباري : (١٥٤/٣) .

(٥) سورة فاطر : ١٨ .

(٦) سورة التحريم : ٦ .

(٧) سورة فاطر : ١٨ .

(٨) انظر فتح الباري : (١٥٠/٣) .

« الميت يعذب ببكاء أهله عليه » ثم قال : « قال أبو عيسى (هو الترمذي) : حديث عمر حديث حسن صحيح ، وقد كره قوم من أهل العلم البكاء على الميت ، قالوا : الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، وذهبوا إلى هذا الحديث ، وقال ابن المبارك : أرجو إن كان ينهاهم في حياته ، أن لا يكون عليه من ذلك شيء »[1] .

وهذا الفقه للحديث هو مذهب القرطبي رضي الله عنه ، فإنه قال: « قال بعض العلماء أو أكثرهم : إنما يعذب الميت ببكاء الحي إذا كان البكاء من سنة الميت واختياره ، كما قال :

إذا أنا مت فانعيني بما أنا أهله وشقي عليَّ الجيب يا ابنة معبد

وكذلك إذا وصى به[2] .

وقد كان النواح ولطم الخدود وشق الجيوب من شأن أهل الجاهلية ، « وكانوا يوصون أهاليهم بالبكاء والنوح عليهم ، وإشاعة النعي في الأحياء ، وكان ذلك مشهورا من مذاهبهم ، وموجودا في أشعارهم كثيرا ، فالميت تلزمه العقوبة في ذلك لما تقدم إليهم في وقت حياته » كذا قال ابن الأثير[3] .

وينبغي أن ينبه هنا إلى لفظ البخاري ، فقد جاء فيه : « يعذب ببعض بكاء أهله عليه » ، ولا يعذب بكل البكاء ، فالبكاء الذي تدمع فيه العين ، ولا شق ، ولا لطم ، ولا شق معه لا يؤاخذ صاحبه به ، وقد جاءَت في ذلك نصوص كثيرة .

وقد تعرض العلامة ابن تيمية للمسألة وضعف مذهب البخاري والقرطبي وابن عبدالبر ومن سلك مسلكهم في فقه الأحاديث التي أخبرت أن الميت يعذب

---

(١) سنن الترمذي : (٣٢٦/٣) .

(٢) التذكرة ، للقرطبي : (١٠٢) .

(٣) جامع الأصول ، لابن الأثير : (١٠٢) .

ببكاء الحي ، فقد قال رحمه الله تعالى بعدأن ذكر النصوص الواردة في ذلك : « وقد أنكر ذلك طوائف من السلف والخلف ، واعتقدوا أن ذلك من باب تعذيب الإنسان بذنب غيره ، فهو مخالف لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] ، ثم تنوعت طرقهم في تلك الأحاديث الصحيحة .

فمنهم من غلَّط الرواة لها ، كعمر بن الخطاب وغيره ، وهذه طريقة عائشة والشافعي وغيرهما . ومنهم من حمل ذلك على ما إذا أوصى به فيعذب على إيصائه ، وهو قول طائفة ، كالمزني ، وغيره .

ومنهم من حمل ذلك على ماإذا كان عادتهم ، فيعذب على ترك النهي عن المنكر ، وهو اختيار طائفة منهم جدى أبو البركات ، وكل هذه الأقوال ضعيفة جداً[2] » وقد رد قول الذين ردوا هذه الأحاديث بنوع من التأويل ، فقال : « والأحاديث الصحيحة الصريحة التي يرويها مثل عمر بن الخطاب ، وابنه عبدالله ، وأبو موسى الأشعري وغيرهم ، لا ترد بمثل هذا ، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لها مثل هذا نظائر ، ترد الحديث بنوع من التأويل والاجتهاد لاعتقادها بطلان معناه ، ولا يكون الأمر كذلك ، ومن تدبر هذا الباب وجد هذا الحديث الصحيح الصريح الذي يرويه الثقة لا يرده أحد بمثل هذا إلا كان مخطئاً[3] » .

ثم بين رحمه الله تعالى أن عائشة وقعت في مثل ما فرت منه ، قال : « وعائشة رضي الله عنها روت عن النبي ﷺ لفظين - وهي الصادقة فيما نقلته - فروت عن

---

(1) سورة فاطر : ١٨ .

(2) مجموع الفتاوي (٢٤ / ٣٧٠) .

(3) المصدر السابق : (٢٤ / ٣٧٠) .

النبي ﷺ قوله : « إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه » ، وهذا موافق لحديث عمر ، فإنه إذا جاز أن يزيده عذابا ببكاء أهله ، جاز أن يعذب غيره ابتداء ببكاء أهله ، ولهذا رد الشافعي في «مختلف الحديث» هذا الحديث نظراً إلى المعنى، وقال الأشبه روايتها الأخرى : « إنهم يبكون عليه ، وإنه ليعذب في قبره »[1] .

ورد قول الذين ظنوا أن الحديث يفيد معاقبة الإنسان بذنب غيره ، فقال : « والذين أقروا هذا الحديث على مقتضاه ، ظن بعضهم أن هذا من باب عقوبة الإنسان بذنب غيره ، وأن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، واعتقد هؤلاء أن الإنسان يعاقب بذنب غيره ، فجوزوا أن يدخل أولاد الكفار النار بذنوب آبائهم »[2] وبعد أن أطال النفس في هذه المسألة : مسألة دخول أولاد الكفار النار بذنوب آبائهم ، وأن هذا ليس بصواب من القول، وأن الحق أن الله لا يعذب إلا من عصاه ، وأن الذين لم يبتلوا يمتحنون في عرصات القيامة ، قال : « وأما تعذيب الميت : فهو لم يقل : إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه ، بل قال : « يعذب » ، والعذاب أعمُّ من العقاب ، فإن العذاب هو الألم ، وليس كل من تألم بسبب كان ذلك عقابا له على ذلك السبب ، فإن النبي ﷺ قال : « السفر قطعة من العذاب ، يَمْنَعُ أحدكم طعامه وشرابه » ، فسمى السفر عذابا ، وليس هو عقابا .

والإنسان يعذب بالأمور المكروهة التي يشعر بها ، مثل الأصوات الهائلة ، والأرواح الخبيثة ، والصور القبيحة ، فهو يتعذب بسماع هذا وشمّ هذا ، ورؤية هذا، ولم يكن ذلك عملا له عوقب عليه ، فكيف ينكر أن يعذب الميت بالنياحة ، وإن لم تكن النياحة عملا له ، يعاقب عليه ؟

---

(١) مجموع الفتاوي : (٢٤/ ٣٧١) .
(٢) المصدر السابق .

والإنسان في قبره يعذب بكلام بعض الناس ، ويتألم برؤية بعضهم ، وبسماع كلامه ، ولهذا أفتى القاضي أبو يعلى بأن الموتى إذا عمل عندهم المعاصي فإنهم يتألمون بها ، كما جاءت بذلك الآثار ، فتعذبهم بعمل المعاصي عند قبورهم كتعذيبهم بنياحة من ينوح عليهم ، ثم النياحة سبب العذاب[1] » .

وهذا الفقه الذي صار إليه الشيخ العلامة جاءت بعض الأحاديث دالة عليه ، فعن النعمان بن بشير ، قال : « أغمي على عبدالله بن رواحة رضي الله عنه ، فجعلت أخته عمرة تبكي : واجبلاه ، واكذا ، واكذا ، تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئا إلا قيل لي ، أنت كذلك ؟! فلما مات لم تبك عليه »[2] ؛ بل إن هذا المعنى ورد صريحا في الحديث الذي يرويه أبو موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « ما من ميت يموت ، فيقوم باكيه ، فيقول : واجبلاه ! واسيِّداه ! أو نحو ذلك ، إلاّ وكل به ملكان يلهزانه : أهكذا كنت » رواه الترمذي . وقال هذا حديث حسن غريب[3] ، وقال الحافظ في التلخيص بعد سياقه لهذا الحديث : « ورواه الحاكم وصححه ، وشاهده في الصحيح عن النعمان بن بشير[4] » .

وينبغي أن ينبه هنا أنه ليس كل ميت يناح عليه يعذب بالنياح عليه ، فقد يندفع حكم السبب بما يعارضه ـ كما يقول ابن تيمية ـ كما يكون في بعض الناس من القوة ما يدفع ضرر الأصوات الهائلة ، والأرواح والصور الخبيثة . ثم ذكر أن أحاديث الوعيد يذكر فيها السبب ، وقد يتخلف موجبه لموانع تدفع ذلك ، إما بتوبة مقبولة ، وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بشفاعة شفيع

---

(١) مجموع الفتاوي : (٢٤/٣٧٤) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الجنائز ، باب ماجاء في كراهية البكاء على الميت ، (٣/٣٢٦) . حديث رقم : (١٠٠٣) .

(٤) تلخيص الحبير لابن حجر : ٢/١٤٠ ، حديث رقم (٨٠٦) .

مطاع ، وإما بفضل الله ورحمته ومغفرته . وبين في الختام أن ما يصيب الميت المؤمن من عذاب في قبره بما نيح عليه يكفر الله به عن سيئاته[1] .

المطلب الخامس
المنجيات من فتنة القبر وعذابه

الذي ينجي المرء من عذاب القبر أن يكون مستعدا للموت ، مشمّرا له ، حتى إذا فاجأه الموت لم يعض أصبع الندم ، ومن الاستعداد للموت الإسراع في التوبة ، وقضاء الحقوق ، والإكثار من الأعمال الصالحة ، فإن الإيمان والصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد وبر الوالدين وصلة الأرحام وذكر الله عز وجل وغيرها من صالح الأعمال تحفظ العبد المؤمن ، وبها يجعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل همٍّ مخرجا .

وقد حدثنا الرسول ﷺ أن الأعمال الصالحة تحرس الإنسان في قبره ، يقول ابن تيمية : « في الحديث المشهور حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، رواه أبو حاتم في صحيحه ، وقد رواه الأئمة قال : «إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن يساره ، وكان فعل الخيرات من الصدق والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه ، فيؤتى من عند رأسه ، فتقول الصلاة : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى عن يساره ، فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى

(١) مجموع الفتاوي : (٤/ ٣٧٥) .

الناس : ما قبلي مدخل ، فيقال له : اجلس ، فيجلس ، قد مثلت له الشمس وقد دنت للغروب ، فيقال له : ماهذا الرجل الذي كان فيكم ، ما تقول فيه ؟ فيقول : دعوني ، حتى أصلي ، فيقولون : إنك ستفعل ، أخبرناعما نسألك عنه ، فقال : عمَّ تسألوني ؟ فيقولون : ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم ، ما تشهد به ؟ فيقول : أشهد أنه رسول الله ، وأنّه جاء بالحق من عند الله ، فيقال على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله تعالى، ثم يفتح له باب من أبواب الجنّة ، فيقال له : ذلك مقَعدك منها ، وما أعدَّ الله لك فيها ، فيزداد غبطة وسرورا ، ثمَّ يفتح له باب من أبواب النار ، فيقال : ذلك مقعدك منها ، وما أعدَّ الله لك فيها ، [لو عصيت الله] ، فيزداد غبطة وسرورا ؛ ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ، وينور له فيه ، ويعاد جسده كما بدىء ، وتجعل نسمته في نسم الطيب ، وهي طير تعلق في شجر الجنة » .

وفي لفظ : « وهو طير يعلق في شجر الجنّة » قال أبو هريرة : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[1]، وفي لفظ : « ثم يعاد الجسد إلى ما بدىء منه » .

الاستعاذة بالله من فتنة القبر وعذاب القبر

لما كانت فتنة القبر وعذاب القبر من الأهوال الكبار ، والشدائد العظيمة فإن الرسول ﷺ كان يستعيذ من ذلك في صلاته وفي غير الصلاة ، وكان يأمر أصحابه بذلك .

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٧ .

ففي حديث عائشة التي ذكرت فيه أمر اليهودية التي قالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت الرسول ﷺ عن عذاب القبر ؟ فقال : نعم ، عذاب القبر ، قالت فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلّا تعوذ من عذاب القبر ، زاد غندر : « عذاب القبر حق »[1] .

وعن أنس أن الرسول ﷺ كان يدعو فيقول : « اللهمَّ إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات »[2] .

وعن عائشة أن الرسول ﷺ كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم ، ومن فتنة القبر ، وعذاب القبر . . »[3] .

وكان الرسول ﷺ يقول لأصحابه : « تعوذوا بالله من عذاب القبر » فيقولون : « نعوذ بالله من عذاب القبر »[4] .

وكان يقول لهم : « استجيروا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق »[5] وكـان يأمرهم أن يستعيذوا من أربع فيقول : « استعيذوا بالله من عذاب القبر ، استعيذوا بالله من جهنم ، استعيذوا بالله من فتنة المسيح الدجال ، استعيذوا بالله من فتنة المحيا والممات »[6]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، والسياق له ، باب عذاب القبر ، فتح الباري : (١٣/٢٣٢) ورواه مسلم ، كتاب المساجد ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر : (١/٤١٠) .

(٢) قال الشيخ ناصر في صحيح الجامع (١/٤٠٦) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم .

(٣) عزاه في صحيح الجامع (١/٤٠٧) إلى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة .

(٤) رواه مسلم ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه : (٤/٢١٩٩)

(٥) رواه الطبراني بإسناد صحيح ، انظر صحيح الجامع : (١/٣١٧)

(٦) عزاه في صحيح الجامع (١/٣٢٠) إلى الترمذي والنسائي .

وكان يأمرهم بالاستعاذة في الصلاة بعد التشهد من عذاب القبر ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع . يقول : اللهمَّ إني أعوذ بك من عذاب جهنّم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شرّ فتنة المسيح الدجال »[1] .

وعن ابن عباس أن الرسول كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن « اللهمَّ إنا نعوذ بك من عذاب جهنّم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات »[2] .

المطلب السادس
الذين يعصمون من فتنة القبر وعذابه

بعض المؤمنين من الذين قاموا بأعمال جليلة ، أو أصيبوا بمصائب كبيرة يأمنون فتنة القبر وعذابه ، فمن هؤلاء :

١ ــ **الشهيد** : فقد روى المقدام بن معدي كرب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعه ، ويرى مقعده في الجنّة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ؛ الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقربائه » رواه الترمذي وابن ماجه[3] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، (٤١٢/١) حديث رقم : (٥٨٨) .

(٢) رواه مسلم ، كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ به في الصلاة : (٤١٢/١) ، حديث رقم (٥٩٠) .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣٥٨/٢) ، وإسناده صحيح كما قال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني .

وروى النسائي في سننه عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رجلا قال : يا رسول الله ! ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة »[١] .

٢ ـ الذي مات مرابطا[٢] في سبيل الله ، فقد روى فضالة بن عبيد ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله ؟ فإنّه ينمي له عمله يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر » رواه الترمذي وأبو داود[٣] .

٣ ـ الذي يموت يوم الجمعة ، ففي الحديث عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ ، قال : « ما من مسلم يموت يوم الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر » رواه أحمد والترمذي ، والحديث صحيح بمجموع طرقه أو حسن[٤] .

٤ ـ الذي يموت بداء البطن ، وقد ثبت في حديث يرويه عبدالله بن يسار ، قال : « كنت جالسا وسليمان بن صرد وخالد بن عرفطه ، فذكروا أن رجلا توفي ؛ مات ببطنه ، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته ، فقال أحدهما للآخر : ألم يقل رسول الله ﷺ : من يقتله بطنه فلن يعذب في قبره » ؟ فقال الآخر : بلى ، وفي رواية : صدقت[٥] .

---

(١) وسنده صحيح ، انظر أحكام الجنائز للشيخ ناصر الدين الألباني : (٣٦) وصحيح الجامع : (٤/١٦٤) .

(٢) الرباط : هو الملازمة في سبيل الله مأخوذة من ربط الخيل، ثم سمى كل ملازم لثغرمن ثغور المسلمين مرابطا فارسا كان أو راجلا ، واللفظة مأخوذة من الرباط .

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥٥) ، وإسناده صحيح كما قال محقق المشكاة .

(٤) رواه أحمد ، والترمذي ، والحديث بمجموع طرقه صحيح أو حسن ، أحكام الجنائز (٣٥) .

(٥) قال الشيخ ناصر في أحكام الجنائز : أخرجه النسائي : والترمذي وحسنه ، وابن حبان في صحيحه ، والطيالسي ، وأحمد ، وسنده صحيح ، (أحكام الجنائز ص ٣٨) .

المبحث الخامس

عظة الموت

المطلب الأول

الموت أعظم واعظ

سقنا إليك طرفا من النصوص التي تحدث عن الموت وسكراته ، والقبر وأهواله ، والعاقل من اعتبر ، فإن الموت أكبر واعظ ، وقد قيل لبعض الزهاد : ما أبلغ العظات ؟ قال : النظر إلى الأموات[1] ، وقد أحسن القرطبي في وصف الموت حيث يقول : « اعلم أن الموت هو الخطب الأفظع ، والأمر الأشنع ، والكأس الذي طعمها أكره وأبشع ، وأنه الأهذم للذات ، والأقطع للراحات ، والأجلب للكريهات ، فإن أمرا يقطع أوصالك ، ويفرق أعضاءك ، ويهدم أركانك ، لهو الأمر الفظيع ، والخطب الجسيم ، وإن يومه لهو اليوم العظيم »[2] .

المطلب الثاني

التفكر في الموت

كما أن الحياة آية من آيات الله فالموت كذلك آية أخرى تضاد الحياة ، ولكنها لا تقل عنها عجبا ، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3]

---

(١) التذكرة للقرطبي : ٩٩ .

(٢) التذكرة للقرطبي : ٢٤ .

(٣) سورة البقرة : ٢٨

والتفكر في هذه الآية تفكر في خلق من خلق الله وعجائبه الدال على عظيم قدرة الله ، وعجيب أمره ، يروى أن أعرابيا كان يسير على جمل له ، فخر ميتا ، فنزل الأعرابي عنه ، وجعل يطوف به ، ويتفكر فيه ، ويقول : مالك لا تقوم ؟ مالك لا تنبعث ؟

هذه أعضاؤك كاملة ، وجوارحك سالمة . ما شأنك ؟ ما الذي كان يحملك ؟ ما الذي كان يبعثك ؟ما الذي صرعك ؟ ما الذي عن الحركة منعك ؟

ثم انصرف متفكرا في شأنه ، متعجبا من أمره[1] .

وأُنْشِدَ في بعض الشجعان مات حتف أنفه[2] :

جاءته من قبل المنون إشارة	فهوى صريعا لليدين وللفم
ورمى بمحكم درعه وبرمحه	وامتد ملقى كالفتيق الأعظم
لا يستجيب لصارخ إن يدعه	أبدا ولا يرجى لخطب معظم
ذهبت بسالته ومرَّ مراره	لما رأى حبل المنية يرتمى
ياويحه من فارس ما باله	ذهبت مرارته ولما يُكْلَم
هذي يداه وهذه أعضاؤه	ما منه عضو غدا بمثلم
هيهات ما حبل الردى محتاجه	للمشرفي ولا اللسان اللهذم
هي ويحكم أمر الإله وحكمه	والله يقضي بالقضاء المحكم

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٤

(٢) التذكرة للقرطبي : ص ٥

المطلب الثالث

نماذج من عظات الواعظين

وعظ الله رسوله بالموت فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[1] وفي الحديث الذي يرويه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم في مستدركه ، وغيرهم عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، عش ما شئت ، فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس »[2] .

وقد سقنا كثيرا من النصوص التي وعظنا الله ورسوله فيها بالموت، وقد كان هذا دأب الصالحين يعظون أنفسهم بالموت ، ويعظون الناس به ، يقول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : « ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » رواه البخاري في ترجمة باب : الأمل وطوله[3] .

ومن عظات العلماء ماجاء في تذكرة القرطبي : «تفكر يا مغرور في الموت وسكرته ، وصعوبة كأسه ومرارته ، فيا للموت من وعد ما أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله ، كفى بالموت مفزعا للقلوب ، ومبكيا للعيون ، ومفرقا للجماعات ، وهادما للذات ، وقاطعا للأمنيات .

---

(١) سورة الزمر : ٣٠

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، (٢/ ٥٠٥) ، ورقم الحديث : (٨٣١)

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/ ٦٥٩) ، ورقم الحديث (٥٢١٥) .

فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك ، وانتقالك من موضعك ، إذا نقلت من سعة إلى ضيق ، وخانك الصاحب والرفيق ، وهجرك الأخ والصديق ، وأخذت من فراشك وغطائك إلى غرر ، وغطوك من بعد لين لحافها بتراب ومدر ، فيا جامع المال ، والمجتهد في البنيان ، ليس لك من مالك والله إلا الأكفان ، بل هي للخراب والذهاب ، وجسمك للترائب والمثاب .

فأين الذي جمعته من المال ؟ فهل أنقذك من الأهوال ، كلا بل تركته لمن لا يحمدك ، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك »[1] .

ونقل القرطبي رحمه الله عن يزيد الرقاشي أنه كان يقول لنفسه : « ويحك يا يزيد من ذا يصلي عنك بعد الموت ؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ، من ذا يرضي عنك ربك بعد الموت ؟

ثم يقول : « ياأيها الناس ، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم ؟ مَنْ القبر طالبه ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر ، كيف يكون حاله ؟ »[2] .

وقال القرطبي رحمه الله في موضع آخر : « مَثِّلْ نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات ، ونزل بك الأنين والغمرات ، فمن قائل يقول : إن فلانا قد أوصى ، وماله قد أحصى ، ومن قائل يقول : إن فلانا ثقل لسانه ، فلا يعرف جيرانه ، ولا يكلم إخوانه ، فكأني أنظر إليك تسمع الخطاب ، ولا تقدر على رد الجواب . فَخَيِّلْ لنفسك ، يا ابن آدم إذا أخذت لفراشك إلى لوح مغسلك ، فغسلك الغاسل ، وألبست الأكفان ، وأوحش منك الأهل والجيران ، وبكت

---

(١) التذكرة : ص ٩

(٢) التذكرة : ص ٩

عليك الأصحاب والإخوان ، وقال الغاسل : أين زوجة فلان تحالله ، وأين اليتامى ترككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبدا ، وانشدوا :

ألا أيها المغرور مالك تلعب تؤمل آمالا وموتك أقرب
وتعلم أن الحرص بحر مبعد سفينته الدنيا فإياك تعطب
وتعلم أن الموت ينقض مسرعا عليك يقينا طعمه ليس يعذب
كأنك توصي واليتامى تراهم وأمهم الثكلى تنوح وتندب
تغص بحزن ثم تلطم وجهها يراها رجال بعدما هي تحجب
وأقبل بالأكفان نحوك قاصد ويحثى عليك الترب والعين تسكب[1]

ومن عظات الصحابي الجليل أبي الدرداء قوله : « أضحكني ثلاث ، وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل ليس بمغفول عنه ، وضاحك بملء فيه ، وهو لا يدري أأرضى الله أم أسخطه .

وأبكاني فراق الأحبة محمد ﷺ وحزبه ،وهول المطلع عند غمرات الموت ، والوقوف بين يدي الله ، يوم تبدو السريرة علانية ، ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار »[2] .

وقال أبو الدرداء أو أبو ذر : « تلدون للموت ، وتعمرون للخراب ، وتحرصون على ما يفنى ، وتذرون ما يبقى »[3] .

وقال القرطبي في تذكرته واعظا ناصحا :

« يا هذا ، أين الذي جمعته من الأموال ، وأعددته للشدائد والأهوال ، لقد

---

(١) التذكرة : ص ٢١

(٢) التذكرة : ص ٨٧

(٣) كتاب الزهد والرقائق ، لابن المبارك : ص ٨٨

أصبحت كفك منه عند الموت خالية صفرا ، وبدلت بعد غناك وعزك ذلا وفقرا ، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره ، ويا من سلب من أهله ودياره ؟

ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد ، وأقل اهتمامك لحمل الزاد إلى سفرك البعيد ، وموقفك الصعب الشديد ، أوما علمت يا مغرور أن لابدَّ من الارتحال إلى يوم شديد الأهوال ، وليس ينفعك ثمَّ قيل ولا قال ، بل يعد عليك بين يدي الملك الديان ما بطشت اليدان ومشت القدمان ، ونطق به اللسان ، وعملت الجوارح والأركان ، فإن رحمك الله فإلى الجنة ، وإن كانت الأخرى فإلى النيران .

يا غافلا عن هذه الأحوال إلى كم هذه الغفلة والتوان ؟ أتحسب أن الأمر صغيرا ، وتزعم أن الخطب يسيرا ؟ وتظن أن سينفعك حالك إذا آن ارتحالك ، أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك ، أو يغني عنك ندمك إذا زلت بك قدمك ، أو يعطف عليك معشرك حين يضمك محشرك ، كلا والله ساء ما تتوهم ، ولابدَّ أن ستعلم لا بالكفاف تقنع ، ولا من الحرام تشبع ولا للعظات تسمع، ولا بالوعيد ترتدع ، دأبك أن تتقلب مع الأهواء ، وتخبط خبط العشواء ، يعجبك التكاثر بما لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . يا نائما في غفلة ، وفي خبطة يقظان ، إلى كم هذه الغفلة والتوان ، أتزعم أن ستترك سدى، وأن لا تحاسب غدا ، أم تحسب أن الموت يقبل الرشا ؟ أم تميز بين الأسد والرشا ؟

كلا والله ، لن يدفع عنك الموت مال ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبول إلا العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى ، وحقق ما ادعى ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الفائز من ارعوى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، فانتبه من هذه الرقدة ، واجعل العمل الصالح لك عدة ، ولا تتمنَّ منازل الأبرار وأنت مقيم على الأوزار ، عامل بعمل الفجار ، وراقب الله في الخلوات ، ولا يغرنك الأمل ، فتزهد عن العمل . . وأنشدوا :

تـزود من معاشـك للمعـاد وقـم للـه واعمـل خيـر زاد
ولا تجمـع من الدنيـا كثيرا فـإن المـال يجمـع للنفـاد
أترضـى أن تكـون رفيق قـوم لهـم زاد وأنـت بغيـر زاد
وقال آخر :
إذا أنـت لـم ترحل بزاد من التقـى ولاقيـت بعد المـوت من قد تـزودا
ندمـت على أن لا تكـون مثلـه وأنـك لم ترصـد كما كـان أرصدا[1]

المطلب الرابع

نماذج من عظات الشعراء

وقد أكثر الشعراء من ذكر الموت والوعظ به فمن ذلك قول الشاعر :

لا شـيء مما تـرى تبقـى بشاشته يبقـى الإلـه ويفنى المـال والولـد
لم تغـن عن هرمـز يومـا خزائنـه والخلـد قد حاولـت عـاد فمـا خلدوا
ولا سـليمان إذ تجـري الريـاح له والإنـس والجـن فيمـا بينها تـرد
أين الملـوك التي كانـت لعزتـها من كـل أوب إليهـا وافـد يفـد
حـوض هنالـك مـورود بلا كـذب لابـد من ورده يومـا كمـا وردوا

وقال الآخر :
مشـيناها خطـا كتبـت علينـا ومـن كتبـت عليـه خطا مشـاها
وأرزاق لنـا متفـرقـات فمـن لم تأتـه منـا أتاهـا
ومن كتبـت منيتـه بـأرض فليـس يمـوت في أرض سـواهـا

(١) تذكرة القرطبي : ٩١ .

وقال آخر :

وإذا وليت قوما ليلة ... فاعلم بأنك بعدها مسئول

وإذا حملت إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمول

وقال آخر :

تزود من الدنيا فإنك لا تدري ... إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

فكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد أخذت أرواحهم ليلة القدر

وكم من صغار يرجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أرواحهم ظلمة القبر

وكم من سليم مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

وكم من فتى يمسي ويصبح لاهيا ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

وكم من ساكن عند الصباح بقصره ... وعند المسا قد كان من ساكن القبر

فكن مخلصا واعمل الخير دائما ... لعلك تحظى بالمثوبة والأجر

وداوم على تقوى الإله فإنها ... أمان من الأهوال في موقف الحشر

وقال الآخر :

هب الدنيا تساق إليك عفوا ... أليس مصير ذاك إلى انتقال

وما دنياك إلا مثل فيء ... أظلك ثم آذن بالزوال

وقال آخر :

يا مقيما قد حان منه رحيل ... بعد ذاك الرحيل يوم عصيب

إن للموت سكرة فارتقبها ... لا يداويك إن أتتك طبيب

كم تواني حتى تصير رهينا ... ثم تأتيك دعوة فتجيب

وتذكر يوما تحاسب فيه ... إن من يذكر الممات ينيب

ليس من ساعة من الدهر إلا ... للمنايا عليك رقيب

كل يوم ترميك بسهم ... إن تخطى يوما فسوف تصيب

وقال آخر :

الموت في كل يوم ينشر الكفنا ... ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها ... وإن توشحت من أثوابها الحسنا
أين الأحبة والجيران ما فعلوا ... أين الذين همو كانوا لنا سكنا
سقاهم الموت كأسا غير صافية ... فصيرتهم لأطباق الثرى رهنا

وقال آخر :

قدم لنفسك توبة مرجوة ... قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النفوس فإنها ... ذخر وغنم للمنيب المحسن

المطلب الخامس
أثر تذكر الموت في إصلاح النفوس

إن لتذكر الموت أثر كبير في إصلاح النفوس وتهذيبها ، ذلك أن النفوس تؤثر الدنيا وملذاتها ، وتطمع في البقاء المديد في هذه الحياة ، وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصي ، وقد تقصر في الطاعات ، فإذا كان الموت دائما على بال العبد ، فإنه يصغر الدنيا في عينه ، ويجعله يسعى في إصلاح نفسه وتقويم المعوج من أمره ، فقد روى البيهقي في شعب الإيمان ، وابن حبّان في صحيحه والبزار في مسنده بإسناد حسن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت ، فإنه لم يذكره في ضيق من العيش إلا وسعه عليه ، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها »[1] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (١/٣٨٨) ، ورقم الحديث : (١٢٢٢)

ويذكر ابن المبارك أن صالحا المرى كان يقول: «إن ذكر الموت إذا فارقني ساعة فسد على قلبي»[1] .

وقال الدقاق : «من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوجل بثلاثة : تسويف التوبة ، وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل في العبادة»[2] .

وقال القرطبي : «اعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية ، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية»[3] ويروى أن امرأة شكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة في قلبها ، فقالت لها : اكثري من ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت ذلك فرق قلبها»[4] .

وقال القرطبي : قال العلماء : تذكر الموت يردع عن المعاصي ، ويلين القلب القاسي ، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب[5] .

وقال القرطبي أيضا : قال العلماء ـ رحمهم الله ـ ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور ، وخاصة إن كانت قاسية ، فعلى أصحابها أن يعالجوها بثلاثة أمور :
أحدها : الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يلين القلوب .
الثاني : ذكر الموت ، فيكثر من ذكر هاذم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وميتم البنين والبنات .

---

(١) الزهد والرقائق ، لابن المبارك : ص (٨٨)
(٢) تذكرة القرطبي : ص ٩
(٣) تذكرة القرطبي : ص ٨
(٤) التذكرة : ص ١٢
(٥) التذكرة : ص ١٢

الثالث : مشاهدة المحتضرين ، فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته ، وتأمل صورته بعد مماته ، مما يقطع عن النفوس لذاتها ، ويطرد عن القلوب مسراتها ، ويمسح الأجفان من النوم ، ، والأبدان من الراحة ، ويبعث على العمل ، ويزيد في الاجتهاد والتعب[١] .

وذكر عن الحسن البصري أنه دخل على مريض يعوده ، فوجده في سكرات الموت ، فنظر إلى كربه ، وشدة ما نزل به ، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم ، فقالوا له : الطعام يرحمكم الله ، فقال : يا أهلاه ، عليكم بطعامكم وشرابكم ، فوالله رأيت مصرعا لا أزال أعمل له حتى ألقاه .[٢]

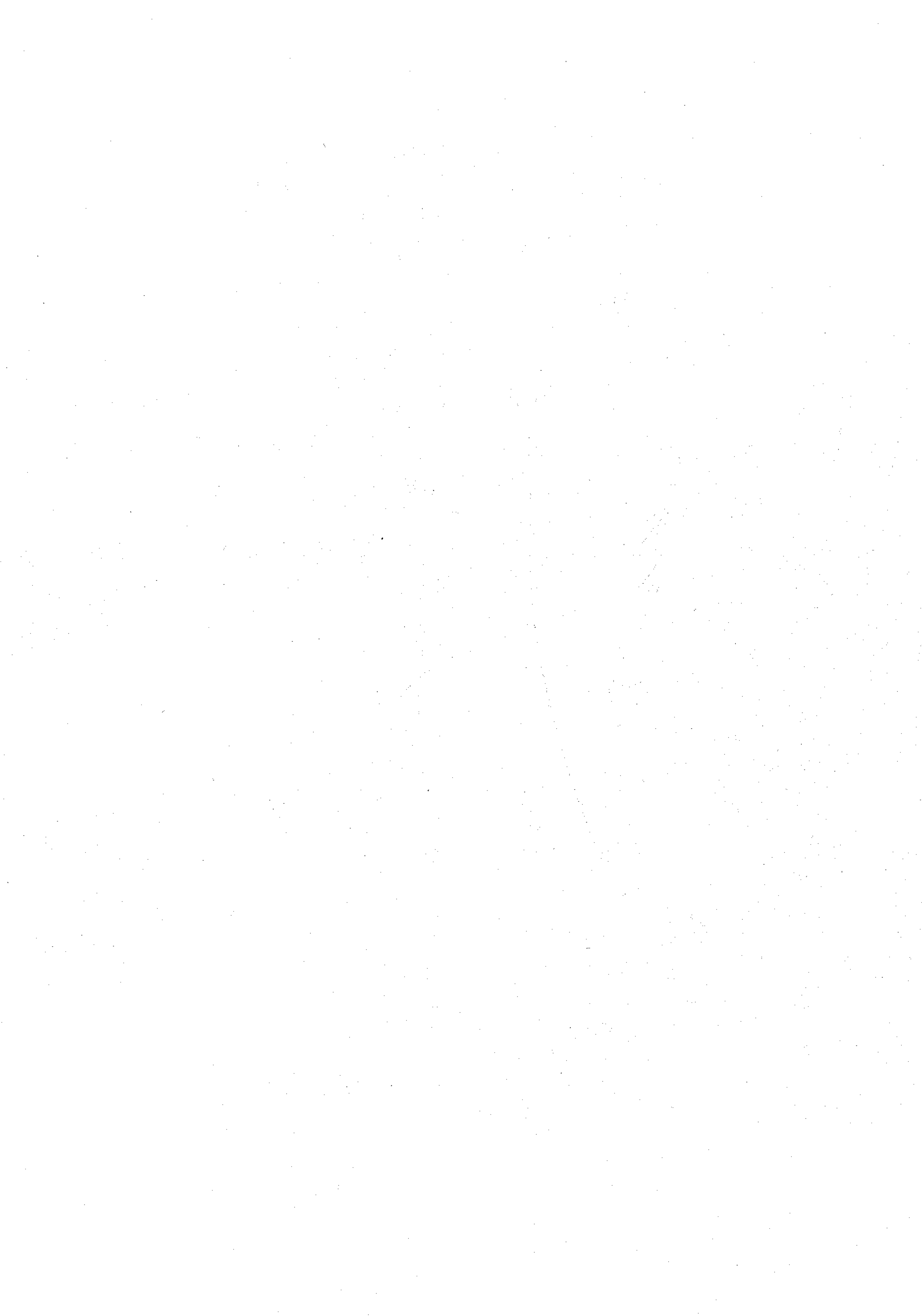
وقال أبوالدرداء : « من أكثر ذكر الموت قل فرحه ، وقل حسده »[٣] .

---

(١) تذكرة القرطبي : ص ١٢

(٢) تذكرة القرطبي : ص ١٢

(٣) كتاب الزهد لابن المبارك : انظر آخر الكتاب : زوائد كتاب الزهد ، راويه نعيم بن حماد : ص ٣٧



الفصل الخامس
الروح والنفس

المبحث الأول
تعريف وبيان

لابدَّ للباحث في أمر الإنسان بعد موته من إعطاء فكرة عن الروح التي تنعم أو تعذب بعد موتها ، ما هي ؟ وهل لها كيفية تعلم ؟ وهل هي جزء من البدن ، أم شيء آخر غير البدن ؟ فإن كانت غيره فأين مسكنها فيه ؟ وهل هي مخلوقة ؟ وهل هي واحدة في الإنسان أم متعددة ؟ وهل تموت الأرواح ، وكيف موتها ؟ وأين مستقرها في البرزخ ، وهل تعلم الأرواح شيئا عما يجري في الدنيا من البرزخ ؟

يقول ابن تيميه : « والروح المدبرة للبدن التي تفارقه بالموت هي الروح المنفوخة فيه ، وهي النفس التي تفارقه بالموت »[1] ، وقد أخطأ الذين فرقوا بين الروح والنفس واعتقدوا أنهما أمران مختلفان ، ومن تأمل فيما سقناه في بحثنا من نصوص علم أن النفس هي التي تقبضها الملائكة ، وتصعد بها إلى السماء ، وتعود بها إلى الجسد ، وتسأل ، وتنعم وتعذب ، وهي الروح أيضا التي إذا خرجت من الجسد تبعها البصر كما ثبت في الأحاديث .

---

(١) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : ٣٦/٢ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية : ٤٤٥ .

وهذا المخلوق الذي تكون به الحياة ، وتفقد الحياة بفقده يسمى روحا ونفسا ، ولا يمنع هذا أن تطلق كل من الروح والنفس اطلاقات أخرى ، يقول ابن تيمية : « لفظ الروح والنفس يعبر بهما عن عدة معان : فيراد بالروح الهواء الخارج من البدن والهواء الداخل فيه ، ويراد بالروح البخار الخارج من تجويف القلب من سويداه الساري في العروق ، وهو الذي تسميه الأطباء الروح ، ويسمى الروح الحيواني ، فهذان المعنيان غير الروح التي تفارق بالموت التي هي النفس ، ويراد بنفس الشيء ذاته وعينه ، وقد يراد بلفظ النفس الدم الذي يكون في الحيوان ، كقول الفقهاء : « ماله نفس سائلة ، وما ليس له نفس سائلة » فهذان المعنيان بالنفس ليسا هما معنى الروح »[1] .

وتطلق الروح أيضا على جبرائيل ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾[2] ، وتطلق على القرآن ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[3] .

ويلاحظ شارح الطحاوية أن الروح والنفس وإن أطلقا على تلك اللطيفة الربانية ، إلا أن « غالب ما يسمى نفسا إذا كانت الروح متصلة بالبدن ، وأمّا إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها »[4] .

ويقول ابن تيمية في هذا : « لكن تسمى نفسا باعتبار تدبيره للبدن، وتسمى روحا باعتبار لطفه ، ولهذا يسمى الريح روحا ، وقال النبي ﷺ : « الريح من روح الله »[5] أي من الروح التي خلقها الله[6] .

---

(١) المصدر السابق : (٢/٣٩)

(٢) سورة الشعراء : (١٩٣)

(٣) سورة الشوري : (٥٢) .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ص (٤٤٤)

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود والحاكم .

(٦) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٢/٣٧)

المبحث الثاني

هل للروح كيفية تعلم ؟

لما كانت الروح مخلوقة من جنس لا نظير له في عالم الموجودات فإننا لا نستطيع أن نعرف صفاتها ، فقد عرفنا الله أنها تصعد وتهبط ، وتسمع وتبصر وتتكلم إلى غير ذلك ، إلا أنَّ هذه الصفات مخالفة لصفات الأجسام المعروفة ، فليس صعودها وهبوطها وسمعها وبصرها وقيامها وقعودها من جنس ما نعرفه ونعلمه ، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الروح يصعد بها إلى السموات العلى ، ثم تعاد إلى القبر ، ساعة من الزمن ، وقد أخبرنا أنها تنعم أو تعذب في القبر ، ولا شك أن هذا النعيم على نحو مخالف لما نعلمه ونعرفه .

المبحث الثالث

استقلال الروح عن البدن

« يرى فريق من أهل الكلام المبتدع المحدث من الجهمية والمعتزلة أنَّ الروح جزء من أجزاء البدن ، أو صفة من صفاته ، كقول بعضهم : إنَّها النفس أو الريح التي تردد في البدن ، وقول بعضهم ؛ إنها الحياة أو المزاج أو نفس البدن »[1] .

« والفلاسفة المشاؤون يقرون بأن النفس تبقى إذا فارقت البدن ، لكن يصفون النفس بصفات باطلة فيدعون أنها إذا فارقت البدن كانت عقلا ، والعقل عندهم مجرد عن المادة وعلائق المادة ، والمادة عندهم هي الجسم ، والعقل عندهم قائم بنفسه لا يوصف بحركة ولا سكون ولا يتجدد له أحوال البتة »[2] .

وقد تخبط هؤلاء وهؤلاء في مقالاتهم في الروح ، فأهل الكلام المبتدع المذموم الذين قالوا : إنَّ الروح هي الحياة أو المزاج أو نفس البدن أنكر كثير منهم عذاب القبر ، فليس هناك روح تنعم أو تعذب بعد الموت في البرزخ . ورفضوا النصوص التي أثبتت ذلك .

والفلاسفة الذين زعموا أن الروح إذا فارقت البدن تصبح عقلا ، قالوا : « إذا فارقت البدن لا يتجدد لها حال من الأحوال لا علوم ولا تصورات ، ولا سمع ولا بصر ، ولا إرادات ، ولا فرح ولا سرور ، ولا غير ذلك مما قد يتجدد ويحدث ،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (٣/٣١) ، رسالة العقل والروح لابن تيمية ، انظر مجموعة الرسائل المنيرية : (٢/٢١) .

(٢) مجموعة الرسائل المنيرية ، رسالة العقل والروح : (٢/٢١)

بل تبقى عندهم على حال واحدة أزلا وأبدا ، كما يزعمونه في العقل والنفس »[1] .

وفريق من الفلاسفة يصفونها بما يصفون به واجب الوجود عندهم ، وهي أمور لا يتصف بها إلا ممتنع الوجود ، فيقولون لا هي داخل البدن ولا خارجه ، ولا مباينه له ، ولا مداخلة له ، ولا متحركة ولا ساكنة ، ولا تصعد ولا تهبط ، ولا هي جسم ولا عرض »[2] .

والسبب الذي أوقع كلا الفريقين في هذا الخطأ أنهم اعتمدوا على عقولهم وما وضعوه من مقاييس في البحث في أمر غيبي ، فالفريق الأول أنكر وجود روح مستقلة عن البدن ، وهذا تكذيب للنصوص المتواترة ، وإنكار لأمر معلوم من الدين بالضرورة ، والفلاسفة المشاؤون ومن سلك سبيلهم أثبتوا وجود الروح مستقلة عن البدن ، ولكن لما كانت هذه الروح «ليست من جنس هذا البدن ، ولا جنس العناصر والمولدات منها ، بل هي جنس آخر مخالف لهذه الأجناس »[3] صعب عليهم تعريفها وتصورها ، وضاقت تعبيراتهم ومقاييسهم عن حدها وتصورها، وقد هدى الله الذين استجابوا لله ورسوله، وآمنوا بما أخبرهم به، فعلموا أن « الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ، ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف ، بقي هذا الجسم اللطيف متشابكا بهذه الأعضاء ، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة والإرادة ، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها ، وخرجت عن

---

(١) المصدر السابق : (٢٢/٢)

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : (٣١/٣)

(٣) المصدر السابق : (٣٢/٣)

قبول تلك الآثار فارق الروح البدن ، وانفصل إلى عالم الأرواح »[1] .

وقد سقنا في تضاعيف بحثنا كثيرا من الأدلة التي تثبت أن الروح شيء مستقل عن البدن ، كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾[2] ، وقوله ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾[3] ، وقوله ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾[4] وقوله : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[5] ، وقوله : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾[6] ، فالذي يمسك ، وتتوفاه الملائكة ، ويبلغ الحلقوم ، ويبلغ التراقي ، والذي يساق ـ لابدَّ أن يكون شيئا حقيقيا مخالفا للجسد .

وقد سقنا الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ أنَّ ملك الموت يقبض الروح ، وأنَّ الملائكة تضع تلك الروح في كفن من الجنة أو النار بحسب فلاحها أو فسادها ، وأنَّه يذهب بها في رحلة علوية سماوية ، حيث تفتح لها أبواب السماء إن كانت صالحة ، وتغلق دونها إن كانت طالحة ، وأنها تعاد إلى الجسد ، وتسأل

---

(١) هذا تعريف ابن القيم للروح في كتابه :الروح ، وقد نقله عنه السفاريني في لوامع الأنوار البهية : (٢/ ٢٩) ، وعزاه إليه ، وذكره بنصه شارح الطحاوية من غير عزو ، انظر شرح الطحاوية : ص (٤٣٣) ، وقد قال ابن القيم بعد سياقه لهذا التعريف : « وهذا القول هو الصواب في المسألة ، وهو الذي لا يصح غيره ، وكل الأقوال سواه باطلة ، وعليه دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ، وذكر مائة وخمسة عشر دليلا فأجاد وأفاد وزيف كلام ابن سينا وابن حزم وأمثالهما .

(٢) سورة الزمر : ٤٢

(٣) سورة الأنفال : ٥٠

(٤) سورة الأنعام · ٩٣ .

(٥) سورة القيامة : ٢٦ ـ ٣٠ .

(٦) سورة الواقعة : ٨٣ ـ ٨٤

وتعذب أو تنعم ، وأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، وأرواح المؤمنين طير يعلق شجر الجنة ، وأن الروح إذا قبض تبعه البصر ، إلى غير ذلك من النصوص الدالة في مجموعها دلالة قاطعة على أن الأرواح شيء آخر غير الأبدان ، وأنها تبقى بعد مفارقة البدن .

المبحث الرابع

مسكن الروح في الجسد

الروح تسري في بدن الإنسان كله ، يقول ابن تيمية : « لا اختصاص للروح بشيء من الجسد ، بل هي سارية في الجسد كما تسري الحياة التي هي عرض في جميع الجسد ، فإن الحياة مشروطة بالروح ، فإذا كانت الروح في الجسد كان فيه حياة ، وإذا فارقته الروح فارقته الحياة . »[1] .

---

(١) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٢/٤٧) .

المَبحث الخامِس
الرُّوح مخلوقة

ذهب فريق من الفلاسفة إلى أن الروح غير مخلوقة بل هي قديمة أزلية ، ولكنها ليست من ذات الرب ، ومقالتهم في الروح هي مقالتهم في العقول والنفوس الملكية ، ويزعم من دخل من أهل الملل فيهم أنها هي الملائكة .

وذهب صنف آخر من زنادقة هذه الأمّة وضلالها من المتكلمة والمتصوفة والمحدثة إلى أن الروح من ذات الله ، وهؤلاء ـ كما يقول ابن تيمية ـ أشرُّ قولا من أولئك ، وهؤلاء جعلوا الآدمي نصفين : نصف لاهوت ، وهو روحه ، ونصف ناسوت وهو جسده : نصفه رب ونصفه عبد[1] .

والحق الذي لا ينبغي أن يخالف فيه أن الروح مخلوقة مبتدعة ، ويدل على ذلك أمور :

١ ـ الإجماع :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « روح الآدمي مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماعَ العلماء على أنها مخلوقة غيرُ واحد من أئمة المسلمين ، مثل محمد بن نصر المروزي ، الإمام المشهور ، الذي هو أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف ، أو من أعلمهم .

وكذلك أبو محمد بن قتيبة ، قال في « كتاب اللقط » لما تكلم على خلق

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٢٢/٤) .

الروح ، قال : النسم الأرواح ، قال : وأجمع الناس أن الله خالق الجثة وباريء النسمة ، أي الروح .

وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة : سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة أو غير مخلوقة ، قال : هذا مما لايشك فيه من وفق للصواب ، إلى أن قال : والروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ ، وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة .

وصنف الحافظ أبو عبدالله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً في (الروح والنفس) وذكر فيه من الأحاديث والآثار شيئاً كثيرا ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره ، والشيخ أبو يعقوب الخراز ، وأبو يعقوب النهرجوري ، والقاضي أبو يعلي ، وغيرهم ، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار ، واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في عيسى بن مريم ، لاسيما في روح غيره كما ذكره أحمد في كتابه في « الرد على الزنادقة والجهمية »[1] .

٢ ـ الكتاب والسنة :

الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على خلقها كثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[2] ، يقول شارح الطحاوية عقب استدلاله بهذه الآية : « فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما »[3] ومن ذلك قوله تعالى : ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾[4] ، وقوله جلَّ وعلا لزكريا : ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢١٦) .

(٢) سورة الرعد : ١٦ ، وسورة الزمر : ٦٢ .

(٣) شرح الطحاوية : ص (٤٤٢) .

(٤) سورة الانسان : ١ .

﴿قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[1] ، والإنسان اسم لروح الإنسان وبدنه ، وخطاب الله لزكريا لروحه وبدنه ، يقول ابن تيمية : « الإنسان عبارة عن البدن والروح معا ، بل هو بالروح أخص منه بالبدن ، وإنما البدن مطية للروح ، كما قال أبو الدرداء : إنما بدني مطيتي ، فإن رفقت بها بلغتني ، وإن لم أرفق بها لم تبلغني ، وقد رواه ابن منده وغيره عن ابن عباس ، قال لاتزال الخصومة يوم القيامة بين الخلق حتى تختصم الروح والبدن ، فتقول الروح للبدن : أنت عملت السيئات ، فيقول البدن للروح ، أنت أمرتني ، فيبعث الله ملكا يقضي بينهما ؛ فيقول : إنما مثلكما كمثل مقعد وأعمى دخلا بستانا ، فرأى المقعد فيه ثمرا معلقا ؛ فقال للأعمى : إني أرى ثمرا ولكن لا أستطيع النهوض إليه ، وقال الأعمى : لكني أستطيع النهوض إليه ، ولكني لا أراه ، فقال المقعد : تعال فاحملني حتى أقطفه ، فحمله وجعل يأمره فيسير به إلى حيث يشاء فقطع الثمرة ، قال الملك : فعلى أيهما العقوبة ؟ قالا : عليهما جميعا ، قال : فكذلك أنتما »[2] .

٣ ــ ذكرنا في بحثنا هذا كثيرا من النصوص عن النبي ﷺ أن الأرواح تقبض ، وتوضع في كفن وحنوط تأتي بهما الملائكة ، ويصعد بها ، وتنعم وتعذب ، وتمسك في النوم ، وترسل ، وكل هذا شأن المخلوق المحدث .

٤ ــ لو لم تكن مخلوقة مربوبة لما أقرت بالربوبية ، وقد قال الله للأرواح حين أخذ الميثاق على العباد وهم في عالم الذر ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، وذلك ما قرره الحق في قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ...﴾[3] ، وما دام هو ربهم فإنهم مربون مخلوقون .

---

(١) سورة مريم : ٩ .

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٢٢/٤) .

(٣) سورة الأعراف : ١٧٢ .

٥ ـ لو لم تكن الأرواح مخلوقة فإن النصارى لا لوم عليهم في عبادتهم عيسى ، ولا في قولهم إنه ابن الله ، أو هو الله .

٦ ـ لو كانت الروح غير مخلوقة فإنها لاتدخل النار ولا تعذب ، ولا تحجب عن الله ، ولا تغيب في البدن ، ولا يملكها ملك الموت ، ولما كانت صورة توصف ، ولم تحاسب ولم تعذب ، ولم تتعبد ولم تخف ، ولم تَرج ، ولأن أرواح المؤمنين تتلألأ ، وأرواح الكفار سود مثل الفحم[1] .

---

(١) الأدلة الثلاثة الأخيرة استدل بها أبو سعيد الخراز ، أحد أكابر المشايخ الأئمة من أقران الجنيد فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، انظر مجموع الفتاوي (٤/ ٢٢٠) .

المبحث السادس

شبهات الذين زعموا أن الروح غير مخلوقة

الذين قالوا إن الروح غير مخلوقة احتجوا بمثل قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[1] ، والجواب عن هذا من وجوه :

الأول : أن الروح هنا ليست روح الآدمي ، وإنما هو اسم ملك ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾[2] ، وقال : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾[3] ، وقال : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾[4] ، وهذا قول معروف مشهور عند علماء السلف في تفسير الآية .

الثاني : وإذا قلنا إن المراد بالروح هنا روح الآدمي - كما هو قول جمع من علماء السلف في الآية - فليس فيها ما يدل على أن الروح غير مخلوقة ، وأنها جزء من ذات الله تعالى كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب ، بل المراد أنها تنسب إلى الله لأنها بأمره تكونت ، أو لأنها بكلمته كانت ، والأمر في القرآن يذكر ويراد به المصدر تارة ، ويراد به المفعول تارة أخرى وهو المأمور به ، كقوله تعالى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[5] ، أي المأمور به ، ويمكن أن يقال أيضا :أن لفظه (من) في قوله :

---

(1) سورة الإسراء : ٨٥ .

(٢) سورة النبأ : ٣٨

(٣) سورة المعارج : ٤

(٤) سورة القدر : ٤

(٥)سورة النحل : ١ .

(من أمر ربي) لإبتداء الغاية ، ومعلوم أن (من) تأتي لبيان الجنس ، كقولهم : باب من حديد ، وتأتي لإبتداء الغاية ، كقولهم : خرجت من مكة ، فقوله :(من أمر ربي) ليس نصا في أن الروح بعض الأمر ومن جنسه ، بل هي لابتداء الغاية إذ كونت بالأمر ، وصدرت عنه ، وهذا معنى جواب الإمام أحمد في قوله : وروح منه حيث قال : (وروح منه) يقول من أمره كان الروح ، كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[1]، ونظير هذا أيضا قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[2] .

فإذا كانت المسخرات والنعم من الله ، ولم تكن بعض ذاته ، بل منه صدرت ، لم يجب أن يكون معنى قوله في المسيح : روح منه ، أنها بعض ذاته[3] .

الشبهة الثانية : قوله تعالى في آدم ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[4] ، وقوله في عيسى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾[5] ، قالوا : فقد أضاف الله الروح إلى نفسه ، وقد أجاب عن هذه الشبهة شارح الطحاوية فقال : « ينبغي أن يعلم أن المضاف إليه الله تعالى نوعان : صفات لاتقوم بأنفسها ، كالعلم والقدرة ، والكلام والسمع والبصر ، فهذه إضافة صفة إلى موصوف بها ، فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له ، وكذا وجهه ويده سبحانه .

والثاني : إضافة أعيان منفصلة عنه ، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح كقوله : ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾[6] وقوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

(٢) سورة النحل : ٥٣ .

(٣) للتوسع في هذا المبحث راجع : مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٢٦ ـ ٢٣٥) .

(٤) سورة الحجر : ٢٩ .

(٥) سورة الأنبياء : ٩١ .

(٦) سورة الشمس : ١٣ .

عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[1] وقوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ . . ﴾[2] فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ، لكن إضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا ، يتميز بها المضاف إلى غيره »[3] .

---

(١) سورة الفرقان : ١ .

(٢) سورة الحج : ٢٦ .

(٣) شرح الطحاوية : ص ٤٤٢ ، وراجع رسالة الروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٢/ ٣٨) .

المبحث السابع

أنواع النفوس

أخبرنا الحق أن النفوس ثلاثة أنواع : النفس الأمارة بالسوء ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[1] ، والنفس اللوامة ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[2] ، والنفس المطمئنة ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[3] ، وليس المراد أن لكل إنسان ثلاثة نفوس ، وإنما المراد أن هذه صفات وأحوال لذات واحدة ، فإذا غلب على النفس هواها بفعلها للذنوب والمعاصي فهي النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة هي التي تذنب وتتوب ، سميت لوامة ، لأنها تلوم صاحبها على الذنوب ، ولأنها تتلوم أي تتردد بين فعل الخير والشر ، والنفس المطمئنة هي التي تحب الخير والحسنات وتريدها ، وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك ، وقد صار ذلك لها خلقا وعادة وملكة[4] .

وقال شارح الطحاوية بعد أن ذكر أنواع النفوس : « والتحقيق : أنها نفس واحدة ، لها صفات ، فهي أمارة بالسوء ، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة ، تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها ، وتلوم بين الفعل والترك ، فإذا قوى الإيمان صارت مطمئنة »[5] .

---

(١) سورة يوسف : ٥٣ .

(٢) سورة القيامة : ٢ .

(٣) سورة الفجر : ٢٧ .

(٤) راجع رسالة العقل والروح لابن تيمية ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٢/ ٤١) .

(٥) شرح الطحاوية : ص ٤٤٥ .

المبحث الثامن
هل تموت النفوس

يقول ابن تيمية : « والأرواح مخلوقة بلاشك ، وهي لا تعدم ولا تفنى ، ولكن موتها بمفارقة الأبدان ، وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى الأبدان »[١] . وقد تعرض شارح الطحاوية لهذه المسألة ، فقال : « واختلف الناس هل تموت الروح أم لا ؟ فقالت طائفة : تموت لأنها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت ، . . . وإذا كانت الملائكة تموت ، فالنفوس البشرية أولى بالموت ، وقال آخرون ، لاتموت الأرواح ، فإنها خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان ، قالوا : وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ، والصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها ، فإن أريد بموتها هذا القدر ، فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية فهي لاتموت بهذا الاعتبار ، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب ، . . . وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢]، وتلك الموتة هي مفارقة الروح الجسد »[٣] .

---

(١) مجموع الفتاوي : (٤/٢٧٩) .
(٢) سورة الدخان : ٥٦ .
(٣) شرح الطحاوية : ص (٤٤٦) .

المبحث التاسع

مستقر الأرواح في البرزخ

أرواح العباد في البرزخ متفاوتة في منازلها ، وقد استقرأنا النصوص الواردة في ذلك فأفادتنا التقسيم التالي :

أولا : أرواح الأنبياء ، وهذه تكون في خير المنازل في أعلى عليين ، في الرفيق الأعلى ، وقد سمعت السيدة عائشة الرسول ﷺ في آخر لحظات حياته يقول : « اللهمَّ الرفيق الأعلى »(1) .

الثاني : أرواح الشهداء ، وهؤلاء أحياء عند ربهم يرزقون ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(2) ، وقد سأل مسروق عبدالله بن مسعود عن هذه الآية ، فقال : « إنا قد سألنا عن ذلك ، فقال : « أرواحهم في أجواف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنّة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل » رواه مسلم في صحيحه(3) . وهذه أرواح بعض الشهداء لاكل الشهداء ، لأن منهم من تحبس روحه عن دخول الجنّة لدين عليه ، كما في المسند عن عبدالله بن جحش أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، مالي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال : « الجنّة » ، فلما وّلى ، قال : « إلا الدين ، سارني به جبريل آنفا »(4) .

---

(1) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله ، فتح الباري : (11/357) .

(2) سورة آل عمران : 169 .

(3) مشكاة المصابيح : (2/351) ، وللحديث تتمة .

(4) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية : ص 445 « صحيح » ، وقد سقنا من قبل أكثر من حديث في هذا المعنى .

الثالث : أرواح المؤمنين الصالحين : تكون طيورا تعلق شجر الجنّة ، ففي الحديث الذي يرويه عبدالرحمن بن كعب بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما نسمة المسلم طير يعلق في شجر الجنّة ، حتى يرجعها الله إلى جسده إلى يوم القيامة » رواه أحمد[1] .

والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء ، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنّة ، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش ، أما أرواح المؤمنين فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة ولا ينتقل في أرجائها . وكون أرواح المؤمنين طيرا يعلق شجر الجنّة لايشكل عليه الحديث الآخر الذي يرويه أبو هريرة عن الرسول ﷺ ، وفيه أن الملائكة تقبض روح العبد المؤمن، وترقى به إلى السماء ، فتقول الملائكة : « ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ، فيأتون به أرواح المؤمنين ، فلهم أشدُّ فرحا من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ ماذا فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه ، فإنه كان في غم الدنيا ، فيقول : قدمات ، أما أتاكم ؟ قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية »[2] ، فإن روح المؤمن تلتقي بأرواح المؤمنين في الجنّة .

الرابع : أرواح العصاة : سبق أن أوردت النصوص التي تبين ما يلاقيه العصاة من العذاب ، فمن ذلك أن الذي يكذب الكذبة تبلغ الآفاق يعذب بكلوب من حديد يدخل في شدقه حتى يبلغ قفاه ، والذي نام عن الصلاة المكتوبة يشدخ رأسه بصخرة ، والزناة والزواني يعذبون في ثقب مثل التنور ضيق أعلاه

---

(١) أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/ ٧٣٠) ، حديث رقم (٩٩٥) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ورواه ابن ماجه في سننه ، ومالك في موطئه، والنسائي بلفظ :«إن أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر ، تعلق بشجر الجنة» .

(٢) رواه النسائي ، كتاب الجنائز ، باب ما يلقى المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه : (٤/ ٨) .

وأسفله واسع ، توقد النار من تحته ، والمرابي يسبح في بحر من دم ، وعلى الشط من يلقمه حجارة[1] . وقد ذكرنا الأحاديث التي تتحدث عن عذاب الذي لم يكن يستنزه من بوله ، والذي يمشي بالنميمة بين الناس ، والذي غلَّ من الغنمية ونحو ذلك .

الخامس : أرواح الكفار : في حديث أبي هريرة عند النسائي بعد وصف حال المؤمن إلى أن يبلغ مستقره في الجنة ، ذكر حال الكافر ، وما يلاقيه عند النزع ، وبعد أن تقبض روحه « تخرج منه كأنتن ريح ، حتى يأتون به باب الأرض ، فيقولون : ما أنتن هذه الريح ، حتى يأتون به أرواح الكفار »[2] .

---

(١) سبق أن سقنا هذا الحديث بطوله ، والحديث رواه البخاري في صحيحه .

(٢) رواه النسائي ، كتاب الجنائز ، باب ما يلقى المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه ، (٨/٤) .

المَبحَث العَاشر

إشكال وجوابه

قد يقال : سقت من النصوص ما يدل على أن الأرواح تعاد إلى الإبدان ، ثم تُسأل ، وبعد ذلك ينعم المؤمن ، ويعذب الكافر ، فكيف تقول بعد ذلك إن نسم المؤمنين في الجنة ، ونسم الكفار في النار ؟

حاول ابن حزم أن يضعف الأحاديث التي تذكر إعادة الروح إلى البدن في القبر ، ولكن ليس الأمر كذلك ، فإن ما ضعفه ابن حزم وهو حديث زاذان عن البراء حديث صحيح ، وهناك أحاديث كثيرة صحيحة متواترة تدل على عود الروح إلى البدن كما يقول ابن تيمية[1] ، وفي التوفيق بين النصوص يقول ابن تيمية : «وأرواح المؤمنين في الجنّة ، وإن كانت مع ذلك قد تعاد إلى البدن ، كما أنها قد تكون في البدن ، ويعرج بها إلى السماء كما في حال النوم ، أما كونها في الجنّة ففيه أحاديث عامّة ، وقد نص على ذلك أحمد وغيره من العلماء ، واحتجوا بالأحاديث المأثورة العامة وأحاديث خاصة في النوم وغيره »[2] ثم ذكر بعض هذه الأحاديث التي سقناها من قبل ، وأورد حديث أبي هريرة الذي رواه ابن حبان وغيره ، والذي يذكر فيه أن المؤمن يرى بعد السؤال مقعده من الجنة ، ومقعده من النار لو كان كافرا ، قال : « ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ، وينور له فيه ، ويعاد جسده كما بدىء ، وتجعل نسمته في نسم طيب ، وهي طير تعلق في شجر الجنّة » ، وفي لفظ « وهو طير يعلق في شجر الجنّة » ، وفي لفظ : « ثم يعاد جسده

---

(١) مجموع الفتاوي : (٤٤٦/٥) .

(٢) المرجع السابق : (٤٤٧/٥) .

إلى ما بديء منه »[1] فالروح - كما يدل عليه الحديث تعاد إلى الجسد بعد الرحلة إلى السماء ، ثم تسأل ، ثم تكون طيرا يعلق شجر الجنة إلى أن يبعث العباد ، ومع كونها في الجنّة فإنه يبقى لها تعلق بالجسد ، كحال الإنسان في النوم ، فإنها تجول في ملكوت السموات والأرض ، مع أن لها تعلق بالجسد ، وفقه هذا مبني على معرفة أن الروح مخالفة للأجساد وللمعهود من حال المخلوقات الدنيوية ، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أن مستقر أرواح المؤمنين الجنّة : « ومع ذلك تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى ، وهي في تلك[2] اللحظة بمنزلة نزول الملك ، وظهور الشعاع في الأرض وانتباه النائم »[3] .

---

(١) انظر مجموع الفتاوي : (٥/٤٤٨) .

(٢) في الأصل : وذلك في اللحظة .

(٣) مجموع الفتاوي : (٢٤/٣٦٥) .

المبحث الحادي عشر
هل العذاب في البرزخ على الروح أم على البدن أم على كليهما

الفرق الإسلامية في هذا الموضوع على أقوال :

الأول : مذهب أهل السنة والجماعة أنه للروح منفصلة عن الجسد ، ومتصلة به ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن ، وتعذب متصلة بالبدن ، والبدن متصل بها ، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين ، كما يكون للروح منفردة عن البدن » .

الثاني : قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين ينكرون النعيم والعذاب في البرزخ مطلقا ، والسر في ذلك أنهم ينكرون وجود روح مستقلة عن الجسد ، فالروح عندهم هي الحياة ، ولا تبقى الروح في نظرهم بعد الموت[1] ، فلا نعيم ولا عذاب حتى يبعث الله العباد ، قال بذلك بعض المعتزلة والأشاعرة كالقاضي أبي بكر ، وهذا قول باطل لاشك في بطلانه خالفه أبو المعالي الجويني ، وقد نقل غير واحد من أهل السنة الإجماع على أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة .

الثالث :قول الفلاسفة الذين يرون أنّ النعيم والعذاب على الروح وحدها ،

---

(١) هؤلاء وإن أنكروا عذاب القبر إلا أنهم يثبتون معاد الأبدان .

وأن البدن لاينعم ولا يعذب[1] ، وقد قال بهذا القول من أهل السنة ابن ميسرة ، وابن حزم .

الرابع : قول من قال من علماء الكلام أن الذي ينعم ويعذب في القبر البدن وحده ، وقال بذلك طائفة من أهل الحديث منهم ابن الزاعوني[2] .

---

(١) وهؤلاء وإن أثبتوا عذابا ونعيما للروح بعد فراقها للبدن إلا أنهم ينكرون المعاد .

(٢) راجع في هذه المسألة مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : (٤/٢٦٢ ، ٢٨٢) .

المبحث الثاني عشر

هل يعلم الإنسان شيئاً عن أحوال الدنيا بعد موته

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الميت يسمع قرع نعال أصحابه، بعد وضعه في قبره ، فعن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم . . »[1] ووقف الرسول ﷺ بعد ثلاثة أيام من معركة بدر على قتلى بدر من المشركين فنادى رجالا منهم ، فقال : « يا أبا جهل بن هشام ، يا أميّة بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا » فقال عمر بن الخطاب : « يارسول الله ! كيف يسمعوا أني يجيبوا وقد جيفوا »[2] قال : « والذي نفسي بيده ! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا ثم أمر بهم فسحبوا ، فألقوا في قليب بدر »[3] .

وقد ساق ابن تيمية جملة من الأحاديث التي تدل على أن الموتى يسمعون ، ثم قال : « فهذه النصوص وأمثالها تُبين أن الميت يسمع في الجملة كلام الحي ، ولا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/٢٢٠٣) حديث رقم (٢٨٧٤) .

(٢) اي أنتنوا ، وصاروا جيفا .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، ورواه مسلم في كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/٢٢٠٠) . حديث رقم (٢٨٧٠) ورواه أبو داود والنسائي أيضا ، انظر جامع الأصول : (١١/١٨٠) .

يجب أن يكون السمع له دائما ، بل قد يسمع في حال دون حال ، كما قد يعرض للحي ، فإنه يسمع أحيانا خطاب من يخاطبه ، وقد لا يسمع لعارض يعرض له »[1] . وقد أجاب شيخ الإسلام على إشكال من يقول : إن الله نفى السماع عن الميت في قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[2] ، وكيف تزعمون أن الموتى يسمعون ؟ فقال : « وهذا السمع سمع إدراك ، ليس يترتب عليه جزاء ، ولا هو السمع المنفي بقوله : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[3] ، فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال ، فإن الله جعل الكافر كالميت الذي لا يستجيب لمن دعاه ، وكالبهائم التي تسمع الصوت ، ولا تفقه المعنى ، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى ، فإنه لا يمكنه إجابة الداعي ، ولا امتثال ما أمر به ، ونهى عنه ، فلا ينتفع بالأمر والنهي ، وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهي ، وإن سمع الخطاب ، وفهم المعنى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾[4]»[5] وقد جاءت النصوص دالة أيضا على أن الميت مع سماعه يتكلم ، فإن منكرا ونكيرا يسألونه ، فالمؤمن يوفق للجواب الحق ، والكافر والمنافق يضل عن الجواب ، ويتكلم أيضا في غير سؤال منكر ونكير ، وكل هذا مخالف لما عهده أهل الدنيا من كلام ، فإن الذي يسأل ويتكلم الروح ، وهي التي تجيب وتقعد وتعذب وتنعم ، وإن كان لها نوع اتصال بالجسد ، وقد سبق القول أن بعض الناس قد يسمعون الكلمة من الميت ، وأن الرسول ﷺ كان يسمع من هذا شيئا كثيرا .

---

(١) مجموع الفتاوي : ٣٦٤/٥ .

(٢) سورة النمل : ٨٠ .

(٣) سورة النمل : ٨٠

(٤) سورة الأنفال : ٢٣ .

(٥) مجموع الفتاوي : (٣٦٤/٥) .

البَابُ الثَانِي

أشراط الساعة



الفصل الأول

وقت الساعة

المبحث الأول

الساعة آتية لاريب فيها

الإيمان بيوم القيامة أصل من الأصول ، لايتم الإيمان إلا به ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[1] ، ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2] .

وقد ساق القرآن ضروبا متنوعة من الأساليب البيانية الراقية كي يؤكد وقوعها في نفوس العباد : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[3] . ففي بعض المواضع يكون الحديث عنها خبرا مجردا ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[4] ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾[5] .

ومرة يؤكد وقوعها « بإن » كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾[6] ، ومرة

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .

(٢) سورة النساء : ١٦١ .

(٣) سورة الرعد : ٢ .

(٤) سورة الروم : ١١ .

(٥) سورة النور : ٦٤ .

(٦) سورة طه : ١٥ .

« بإن » واللام ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[1] . ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2] . وفي بعض المواضع ينفي الريب والشك عن وقوعها ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3] .

وفي بعضَ الآيات يقسم الحق على أنها آتية واقعة مرة بنفسه ، ومرة بمخلوقاته العظيمة ، فمن إقسامه بنفسه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[4] ، ومن إقسامة بالعظيم من مخلوقاته قوله : ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[5] ، وقوله : ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[6]. وفي بعض المواضع يأمر رسوله في مجال الحجاج والخصام بالإقسام بربه مؤكدا وقوعها ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[7] ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[8] وفي بعض الآيات يخبر بأنها حق ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[9] ومن تتبع طريقة القرآن في تأكيد الإخبار بها تحصل عنده أنواع كثيرة ، وقد ذكرنا طائفة منها[10].

---

(١) سورة الحجر : ٨٥ .

(٢) سورة العنكبوت : ٥ .

(٣) سورة غافر : ٥٩ .

(٤) سورة النساء : ٨٧ .

(٥) سورة الذاريات : ١ - ٦ .

(٦) سورة الطور : ١ - ٨ .

(٧) سورة يونس : ٥٣ .

(٨) سورة سبأ : ٣ .

(٩) سورة لقمان : ٣٣ .

(١٠) قد يجتمع في الآية أكثر من مؤكد ، وإذا تأملت النصوص التي سقناها ظهر لك هذا وتبين .

المبحث الثاني

الساعة قريبة

أعلن رب العزة لعباده في كتابه المنزل منذ أربعة عشر قرنا أن الساعة قد اقتربت ، وآن أوان وقوعها ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[1] ، وانشقاق القمر إحدى الأمارات الدالة على قرب وقوعها ، ولما كانت الساعة قد اقتربت قربا عظيما فإن القرآن يصور أنها أتت وحضرت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[2] .

ولو كان البشر يوقنون بما أنزل الله بقلب مبصر ، وعقل حاضر مدرك لهالهم الأمر ، وملك عليهم نفوسهم ، ولذلك كان حالهم عجبا ، الخطر قريب قريب ، ومع ذلك فإنهم غافلون عن الهول الذي يكاد يطبق عليهم ، ويحيط بهم ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾[3] ، ولذا فإنه قد كثر في القرآن تحذير العباد من الساعة ، والأمر بالاستعداد لها ، وعبر عنها بالغد ، وهو اليوم التالي لليوم الذي تعيش فيه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[4] .

قد يقال : كيف يكون قريبا ما مضى على الإخبار بقرب وقوعه ألف وأربعمائة عام ؟ والجواب أنه قريب في علم الله وتقديره ، وإن كانت المقاييس البشرية تراه بعيدا ، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾[5] .

---

(١) سورة القمر : ١ .

(٢) سورة النحل : ١ .

(٣) سورة الأنبياء : ١ - ٣ .

(٤) سورة الحشر : ١٨ .

(٥) سورة المعارج : ٦ - ٧.

والأمر الذي ينبغي أن ينتبه إليه أن الباقي من الدنيا قليل بالنسبة لما مضى منها ، فإنك إذا وضعت لمن لك عليه دين أجلاطويلا ، كأن تؤجله خمسين عاما مثلا ، فإذا انقضى من الخمسين خمسة وأربعون ، فيكون موعد السداد قد اقترب بالنسبة لما مضى من الموعد المضروب . والأحاديث النبوية الشريفة تشير إلى هذه الحقيقة التي بيناها هنا ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس » وفي لفظ : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » .

إن الحديث يمثل الوجود الإنساني بيوم من أيام الدنيا ، إبتدأ وجود الأمة الإسلامية فيه عند العصر ، فيكون الماضي من عمر الوجود الإنساني بنسبة ما مضى من ذلك اليوم من الفجر إلى العصر ، ويكون الباقي من عمر الزمن حتى تقوم الساعة كما بين العصر والمغرب ، ذلك أن النصوص صريحة الدلالة على أننا آخر الأمم وجودا ، وأن نهاية وجود هذه الأمة يتحقق بقيام الساعة .

وجاء في حديث آخر يرويه البخاري ومسلم عن سهل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويشير بأصبعيه فيمدهما » ، ورواه مسلم عن سهل بلفظ : « سمعت رسول الله ﷺ يشير بإصبعه التي تلي الإبهام والوسطى وهو يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا »[1] .

والمعنى أننا لو قدرنا عمر الزمن بالأصبع الوسطى ، فإن ما بقي منه عند

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين » فتح الباري : (١١/٣٤٧) ، ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب قرب الساعة : (٤/٢٤٦٨) ورقمه : (٢٩٥٠) ، وقد رواه البخاري ومسلم أيضا عن أنس رضي الله عنه

مبعث الرسول ﷺ يكون بمقدار ما تزيد الوسطى عن السبابة ، وما مضى منه بمقدار السبابة من الأصبع الوسطى ، قد يكون الباقي في حس البشر طويلا ، لأن إدراكهم محدود ، ونظرتهم قاصرة ، ولكنه في ميزان الله قريب وقصير ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[1] ، ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[2] وروى الإمام أحمد عن عتبة بن غزوان قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، قال : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم ، وولت حذاء ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لازوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم . . . » انفرد به مسلم[3] .

(١) سورة النحل : ١ .

(٢) سورة النحل : ٧٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٦/٤٦٨) .

المبحث الثالث

لا يعلم أحد وقت الساعة المعين

سئل الرسول ﷺ عن الساعة ، فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » وكان السائل جبريل متمثلا في صورة بشر ، فإذا كان أعلى الملائكة منزلة ، وهو جبريل ، وأعلى البشر منزلة وهو محمد ﷺ لا يعلمان متى تكون ـ فأَحْرِ بأن لا يعرف أحد غيرهما وقت وقوعها .

وقد صرح القرآن أن وقت وقوعها من خصائص علم الله ، ولذا فإنه لم يطلع أحدا على وقت وقوعها ، لاملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا ، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] ، وقال في الآية الأخرى : ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[2] ، وقال في سورة النازعات : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[3] وهذه الآيات واضحة الدلالة على أن معرفة الوقت الذي تكون فيه الساعة لا يعرفه إلا رب العزة ، وأنها تأتي بغته ، وأن الرسول ﷺ لا يدري متى هي والساعة إحدى مفاتح الغيب الخمسة التي هي من مكنونات علم

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٧ .

(٢) سورة الأحزاب : ٦٣ .

(٣) سورة النازعات : ٤٢ ـ ٤٤ .

الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[1] ، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾[2] الآية »[3] .

---

(١) سورة لقمان : ٣٤ .

(٢) سورة لقمان : ٣٤ .

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب : ٣٧ .

المبحث الرابع

الحكمة من وراء إخفاء وقت وقوعها

قد يتساءل البشر قائلين : ما الحكمة من وراء إخفاء الوقت الذي تحل فيه الساعة ، وتقوم فيه القيامة ؟ والجواب أن إخفاءها له تعلق بصلاح النفس الإنسانية ، فوقوعها غيب ، والأمر العظيم الذي يستيقن المرء وقوعه ، ولكنه لا يدري متى يفجؤه، ويحل فيه بساحه ـ يجعل المرء مترقبا له باستمرار ، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى : « والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر ، وفي تكوينهم النفسي ، فلا بدَّ من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه ، ولو كان كل شيء مكشوفا لهم وهم بهذه الفطرة ـ لوقف نشاطهم ، وأسنت حياتهم ، فوراء المجهول يجرون ، فيحذرون ، ويأملون ، ويجربون ، ويتعلمون . ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد يحفظهم من الشرود ، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم ، وعلى استعداد دائم ، ذلك لمن صحت فطرته واستقام ، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ، فيسقط ومصيره إلى الردى »[1] .

---

(١) اليوم الأخر في ظلال القرآن ، جمع واعداد أحمد فائز : ص ٩٨ .

المبحث الخامس
لا يجوز الاشتغال في تحديد وقتها

تساءل الناس عن وقت الساعة كثيرا ، ووجهوا أسئلتهم للرسول ﷺ ، وجاء الجواب من منزل الكتاب ، إن الساعة غيب ، ومعرفة الزمن الذي تقع فيه من خصائص علم الله ، ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[1]. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾[2]

إن هذا العلم لم يطلع الله عليه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولذلك قال الرسول ﷺ لجبريل حينما سأله عن الساعة « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » .

فبالحث في هذا الأمر ، والزعم أن الساعة ستقع في عام بعينة تَقَوُّل على الله بغير علم ، والخائضون في ذلك مخالفون للمنهج القرآني النبوي الذي وجه الناس إلى ترك البحث في هذا الموضوع ، ودعاهم إلى الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح .

والذين يبحثون في هذا المجال يظنون أنه يمكنهم أن يعلموا مالم يعلمه الرسول ﷺ وجبريل عليه السلام ، وكفى بذلك واعظا ورادعا لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد ، ونحن نقول لهم : ينبغي أن يسعكم ما وسع الرسول

---

(١) سورة الأحزاب : ٦٣ .

(٢) سورة النازعات : ٤٢ ـ ٤٥ .

ﷺ وأصحابه وأئمة هذه الأمة على مدار التاريخ ، ولو كان في معرفة الوقت صلاح وخير للبشر ، لأخبر الله به البشر ، ولكنه حجب ذلك عنهم ، وفي ذلك صلاحهم .

وينبغي للاحقين أن يتعظوا بحال السابقين ، فبعض السابقين خاض في هذا الأمر ، وحدد للساعة أو بعض أشراطها القريبة من وقوعها أجلا ، وجاء الأجل الذي ضربه ، ولم يحدث شيء من ذلك ، لا الساعة ولا أشراطها المحددة ، فمن هؤلاء الطبري رحمه الله وغفر له ، فإنه استظهر من بعض النصوص أن فناء الدنيا يكون بعد خمسمائة عام من البعثة المحمدية[1] ، وها هو قد مرّ قرابة ألف عام على الأجل الذي ضربه ، ولم يصدق ظنه .

ومن هؤلاء العلامة السيوطي عفا الله عنه ، فإنه استظهر في جزء سماه « الكشف » أن الساعة ستقوم على رأس المائة الخامسة بعد الألف من البعثة النبوية[2] ، وها قد مضى على الموعد الذي حدده بضع سنين ، ولم تقع الساعة ، بل لم يقع كثير من أشراطها .

وجمع السهيلي الحروف المقطعة في أوائل السور ، وحذف المكرر منها ، وأخذ عددها بحساب الجمل ، وحدد بناء على ذلك أجلا لا يبلغ بضع مئات من السنين[3] .

وقد تَقَوَّل كثير من الناس في هذا وخبطوا خبطا لا دليل عليه ، وإنما هي ظنون وتخرصات ، وآخر ما أطلعت عليه في ذلك ما كتبه دكتور بهائي مدعيا أن

---

(١) المقدمة لابن خلدون : ص ٥٩٠ .

(٢) لوامع الأنوار البهية : (٢/٦٦) .

(٣) المقدمة لابن خلدون : ص ٥٩١ .

الساعة ستقع في عام (١٧١٠) ، وقد زعم أنه استقى ذلك من الأرقام العددية للحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن ، ونحن نقول : إن هذا النهج قد ثبت خطؤه ، وقد اعتمد بعض من سبق على هذا النهج ، وحددوا أجلا غير أجله ، فوافقوه في النهج ، وخالفوه في تحديد الأجل ، وثبت كذب ما ذهبوا إليه .

وقد تعرض الشيخ العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأجزل له المثوبة للذين بحثوا في هذا الأمر وخاضوا فيه ، وحددوا في ذلك أجلا ، فقال : « ومن تكلم في وقتها المعين مثل الذي صنف كتابا «سماه» « الدر المنظم في معرفة الأعظم » وذكر فيه عشر دلالات بين فيها وقتها ، والذين تكلموا على ذلك من حروف المعجم ، والذي تكلم في « عنقاء مُغْرب »[1] ، وأمثال هؤلاء ، فإنهم وإن كان لهم صورة عظيمة عند أتباعهم ، فغالبهم كاذبون مفترون[2] ، وقد تبين لديهم من وجوه كثيرة أنهم يتكلمون بغير علم ، وإن ادعوا في ذلك الكشف ومعرفة الأسرار ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3][4] . ولا شك أن دعوى معرفة وقتها المحدد قول بلا علم .

(١) ابن عربي القائل بوحدة الوجود .

(٢) قال الشيخ : « غالبهم » لأن بعض الذي بحثوا في ذلك أخطؤوا ، ولم يقصدوا التضليل ، أمثال الطبري والسيوطي رحمهما الله .

(٣) سورة الأعراف : ٣٣ .

(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٤٢/٤) .

المبحث السادس
إشكالات تتعلق بتحديد وقت الساعة

بينا فيما سبق أن وقت القيامة غيب لا يعلمه إلا الله ، ولكن يشكل على هذا أحاديث ظن بعض الناس أنها تحدد موعدها ، وهذه الأحاديث بعضها غير صحيح فلا يلتفت إليها ، ولا يجوز أن تعارض بها النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة ، ومنها أحاديث صحيحة ، ولكن دلالتها على تحديد يوم القيامة غير صريحة .

فمن الأحاديث الباطلة المكذوبة المخالفة لصريح القرآن ـ كما يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى ـ حديث مقدار الدنيا « وأنها سبعة آلاف سنة ، ونحن في الألف السابعة » .

يقول ابن القيم : « وهذا من أبين الكذب ، لأنه لو كان صحيحا لكان كل أحد عالما أنه قد بقي من وقتنا هذا مئتان وواحد وخمسون سنة (أي في الوقت الذي كان يكتب فيه الشيخ ابن القيم مؤلفه) والله تعالى يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[1][2] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٧ .

(٢) المنار المنيف ، لابن القيم : ص ٨٠ .

أقول : ومما يدل على كذب هذا الحديث قطعا أن الألف السابعة هذه مضت وانقضت منذ أربعمائة سنة ، وكثير من أشراط الساعة لم يقع بعد .

ومن الأحاديث الصحيحة التي لا تدل على تحديد يوم القيامة ما رواه مسلم عن جابر بن عبدالله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قبل أن يموت بشهر : « تسألوني عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة وهي حيَّة يومئذ »[١] .

وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء في آخر حياته ، فلما سلَّم قال : « أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد »[٢] . إن التأمل في هذين الحديثين يدل دلالة واضحة على أن الرسول ﷺ لم يرد في أقواله هذه قيام الساعة ، وإنما أراد انقضاء القرن الذي هو فيه ، أي أنه بعد مائة عام يموت كل من كان حيًّا عندما قال الرسول ﷺ ما قال ، وقد فقه هذا المعنى ابن عمر رضي الله عنه ، وفقَّه الناس به عندما ذهبوا مذاهب شتى في فهم معنى قول الرسول ﷺ ، ففي سنن الترمذي وسنن أبي داود بعد سياق عبدالله بن عمر لحديث الرسول ﷺ السابق ، قال : « فوهل الناس[٣] في مقالة الرسول ﷺ تلك ، فيما يتحدثونه بهذه الأحاديث : نحو مائة سنة ، وإنما قال رسول الله ﷺ : « لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد ، يريد بذلك : أن ينخرم القرن »[٤] .

وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم عن عائشة ، قالت : « كان الأعراب

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٨٧) ، ورقم الحديث : (٧٨٩٠) ومعنى : نفس منفوسة : أي مولودة .
(٢) جامع الأصول : (١٠/٣٨٨) ، ورقم الحديث : (٧٨٩١) .
(٣) الوهل : الفزع ، أو ذهاب الفكر مذاهب بعيدة عن المراد .
(٤) صحيح الجامع : (١٠/٣٨٨) ، ورقم الحديث : (٧٨٩١) .

إذا قدموا على رسول الله ﷺ ، سألوه عن الساعة ، متى الساعة ؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم ، فيقول : إن يعش هذا ، إن يدركه الهرم ، حتى قامت عليكم الساعة » قال هشام : يعني موتهم[1] .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، « أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة ، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزدشنوأة ، فقال : إن عُمِّر هذا الغلام ، لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة ، قال أنس : وذلك الغلام من أترابي يومئذ »[2] . ومراد الرسول ﷺ في هذين الحديثين ساعة المخاطبين، كما فسر ذلك هشام أحد رواة الحديث الأول : يعني موتهم ، فإنَّ ساعة كل إنسان موته ، وهذا الجواب من الرسول ﷺ يعرف بجواب الحكيم ، فإنه أرشدهم إلى الاستعداد للموت والتأهب له ، والموت قريب .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٨٩) . ورقمه (٧٨٩٢) .
(٢) جامع الأصول : (١٠/٣٨٩) ورقمه (٧٨٩٣) .

المَبحَث السَابع

تعريف الأشراط والآيات

إذا كان الله قد أخفى وقت وقوع الساعة عن عباده ، فإنه أعلمهم بأمارات وعلامات تدل على قرب وقوعها .

وقد سمي القرآن هذه الأمارات بأشراط الساعة ، قال تعالى : ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[1] .

و « الشَرَط » بفتحتين : العلامة ، وأشراطها : علاماتها[2] . وفي فتح الباري : « المراد بالأشراط : العلامات التي يعقبها قيام الساعة »[3] .

وقد أطلق بعض العلماء على هذه الأشراط اسم : « الآيات » .

و « الآيات » هي الأمارات الدالة على الشيء ، كالأمارات التي تنصب في الصحراء دالة على الطريق ، أو العلامات التي ترفع على شواطيء البحر ، تهدي السفن التي تمخض عباب الماء ، أو تلك التي توضع قريبا من المدن لتدل المسافر على قرب وصوله إلى الديار التي وضعت بقربها .

يقول الطيبي : « الآيات : إمارات للساعة ، إما على قربها ، وإما على حصولها . فمن الأول : الدجال ، ونزول عيسى ، ويأجوج ومأجوج ، والخسف . ومن الثاني : الدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والنار التي تحشر الناس »[4] .

---

(١) سورة محمد : ١٨ .

(٢) مختار الصحاح : ٣٢٤ .

(٣) فتح الباري : (١٣/ ٧٩) .

(٤) فتح الباري : (١١/ ٣٥٢) .

المبحث الثامن

فائدة البحث في الأشراط والمغيبات المستقبلة

قد يقول قائل : لقد أتعبتم أنفسكم في النظر في أمور فائدتها قليلة ، والأولى بكم أن تهتموا بأمور المسلمين ومشكلاتهم ، بدلا من قضاء الأوقات الطوال في البحث عما يجري في مقبل الأزمان من الوقائع والحادثات . وقالوا : إنكم تهربون من الواقع الذي تعيشون فيه إلى عالم آخر تأملون أن تعيشوا فيه ، أو تخشوا أن يأتي عليكم ، وهذا هروب من مواجهة الحقائق والصعاب ونحن نقول لهم : ليس لنا خيار في دراسة الغيوب المستقبلة أو إهمالها ، فالأمر ليس لنا ، فالإطلاع على هذه الغيوب والتصديق بها من صميم الدين الذي جاء به رسولنا ﷺ ، أخبر ببعض منها القرآن ، وبعضها جاءت به السنة النبوية ، وَعَلِمَ ذلك كله الصحابة ، وشغلوا به أنفسهم ، واهتموا به اهتماما كبيرا ، وكان الإيمان بالغيب أول صفة مدح الله بها المتقين المهتدين الفائزين ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾[1] صحيح إن كثيرا من المسلمين شغلوا أنفسهم بالأخبار الغيبية التي لم يقم عليها دليل من الكتاب والسنة ، وأغرق في ذلك بعض الذين نسبوا إلى العلم ، ولكن الاشتغال بالنصوص الصحيحة هو جزء من هذا الدين الذي أنزله العليم الخبير .

ويمكننا أن نلوم الذين قعد بهم العمل من المسلمين انتظاراً لحدوث الواقعات التي أخبر بها الرسول ﷺ ؛ كالذين يتركون الجهاد انتظارا لخروج المهدي ، ولكن هذا

(١) سورة البقرة : ١ ـ ٣ .

خطأ يحتاج إلى تقويم ، ولا يوجب ترك النصوص الصحيحة ، فإن سلفنا الصالح مع إيمانهم بالغيب الصادق ، لم يقعدوا عن الجهاد ولم يتركوا العمل .

ويمكن أن يوجَّه لوم شديد للذين ينزلون ما أخبر به الرسول ﷺ من الغيوب على غير وقائعها ، فيحمِّلون النصوص مالا تحتمل ، ويدَّعون دعاوي يضلون بها العباد ، كالذين ادعوا المهدية على مدار التاريخ ، إلا أن هذا خطأ هؤلاء ، والخطأ يقوَّم ، ولا يدفعنا هذا الخطأ إلى انكار ما صحت به النصوص ، فالحق حق ، والباطل باطل ، ولا ندفع الباطل بإنكار الحق . والذين ينكرون علينا اشتغالنا بهذه النصوص الصحيحة في هذا الجانب نُوَجِّه أنظارهم إلى الجهود الهائلة التي يبذلها العلماء المعاصرون للكشف عن الغيب المجهول في الماضي البعيد ، والغيب المجهول في الحادثات المقبلة ، والغيب المجهول في الفضاء الذي يحيط بنا ، ولذلك نراهم يبحثون في آثار الماضيين ، وما أبقوه من كتابات وصنائع وخرائب ، ونراهم يهتمون بما يقوله المتنبئون والكهان والعرافون ، وما يقوله هؤلاء كذب لاتكاد تجد فيه للحقيقة مكان ، ونراهم يصنعون المناظر المكبرة ، والمراصد الهائلة ، بل ويرسلون الأقمار الصناعية لريادة الفضاء ، كي يعلموا ما لا يعلمون ، فإذا كان هذا هو حال البشر، يرغبون دائما في التعرف على ما لا يعرفون، ومعرفة الماضي والآتي ، ومعرفة الكون من حولهم ، أفلا يكون الاطلاع على حقائق الأمور من الجهة التي لا تكذب أبدا أولى وأحرى !! إن المعلومات التي جاءت بها النصوص في هذا المجال معلومات قيمة لا تقدر بثمن، ولكن البشرية تكابر كثيرا عندما ترفض الأخذ بخبر الوحي الصادق ، وتخسر كثيرا عندما تعرض عن هذه العلوم الطيبة ، ثم إن أقواما يريدوننا أن نبتعد عن دراسة هذا المجال من خلال نصوص الوحي ، بينما - هم - يلهثون وراء الأخبار التي يأتيهم بها علماء الغرب في هذا المجال ، وإن كان فيها خلط كثير ، وكذب كثير .

ويمكننا أن نوجز الفوائد التي نحصل عليها من وراء دراسة الأخبار التي تحدث بأشراط الساعة والمغيبات المستقبلة في الأمور التالية :

١ ـ الإيمان بهذه الأخبار ـ إذا تحققنا صدقها ـ هو من الإيمان بالله ، والإيمان برسوله ، إذ كيف نؤمن بالله ورسوله ثم لانصدق بخبرهما !! ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[1] .

٢ ـ وقوع تلك المغيبات على النحو الذي حدثت به الأخبار يثبت الإيمان ويقويه ، فالمسلمون في كل عصر يشاهدون وقوع أحداث مطابقة لما أخبرت به النصوص الصادقة ، فقد شاهد الصحابة انتصار الروم على الفرس، ثم انتصر المسلمون على الفرس والروم ، وظهر الإسلام على جميع الأديان ، وشاهدوا فرقة الأمة في العام الذي حدده الرسول ﷺ ، وشاهدوا كثيرا من الأحداث على النحو الذي أخبرت به النصوص ، وكذلك الحال في كل عصر ، يشاهد المسلمون وقائع وأحداثاً جاءت بها الأخبار ، ولاشك أن هذا له أثر كبير في تثبيت المؤمن على إيمانه ، وقد يكون ذلك مدخلا لدعوة الآخرين إلى هذا الحق الذي جاءنا من ربنا .

٣ ـ تثبيت الإيمان بيوم القيامة ، فالقيامة وأهوالها من الغيب الذي أخبرنا به الله ورسوله ، والإيمان بها إحدى دعائم الإيمان ، ووقوع الوقائع في الدنيا على النحو الذي جاءت به النصوص دليل واضح بَيِّنٌ على صدق كل الأخبار ومنها أخبار الساعة . فالكل من عند الله تبارك وتعالى .

٤ ـ بعث الله رسوله دالا على الخير محذرا من الشر ،وقد دل الرسول ﷺ أصحابه على المنهج الأمثل الذي ينبغي أن يسلكوه في الوقائع التي وقعت في عصره .

---

(١) سورة البقرة : ٢ ، ٣ .

وفي إخباره بالمغيبات المقبلة توجيه للذين جاؤوا من بعده من أمته كيف يتصرفون حيال الأحداث التي قد يخفى عليهم وجه الحق فيها ، فعن عبدالله ابن عمرو بن العاص ، قال : « كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلنا منزلا ، فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشرة ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجيء فتنة ، فيرقق بعضها بعضا ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ، ثم تنكشف ، وتجيء الفتنة ، فيقول المؤمن : هذه ، هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماما ، فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعه ما استطاع ، فإن جاء الآخر ينازعه ، فاضربوا عنق الآخر » رواه مسلم والسياق له والنسائي وابن ماجة وأحمد[1] .

ومن هذه التوجيهات التي كان لها أثر كبير في توجيه المسلمين إلى الحق تبشيره عثمان رضي الله عنه بالجنة على بلوى تصيبه ، وإخباره بأن عمارا تقتله الفئة الباغية ، وأمره أبا ذر بأن يعتزل الفتنة ، وأن لا يقاتل ولو قتل . ويمكن أن يستفاد هذا المعنى من حديث حذيفة حيث كان يسأل الرسول ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه ، بينما أصحابه كانوا يسألون الرسول ﷺ عن الخير ، ومن هذا نهى الرسول ﷺ المسلمين عن أخذ شيء من جبل الذهب الذي ينحسر عنه الفرات في آخر الزمان ، وإخبارهم عن حقيقة الدجال ، وبيان ما يأتي به

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : حديث رقم (٢٤١) .

من الشبهات ، وغير ذلك من الكائنات التي يبصر الرسول ﷺ أمته بالتصرف الأمثل حيالها .

٥ ـ قد تمر بالمسلمين وقائع في مقبل الأيام تحتاج إلى بيان الحكم الشرعي فيها ، ولو ترك المسلمون إلى اجتهادهم ـ فإنهم قد يختلفون ، وقد لا يهتدون إلى الصواب ، بل قد يكون بيان الحكم الشرعي في تلك الأحداث واجب لا بدَّ منه ، وعدم البيان يكون نقصا تنزه الشريعة عنه . فمن ذلك أن الرسول ﷺ أخبر أن الدجال يمكث في الأرض أربعين يوما ، يوم من أيامه كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كأسبوع ، وبقية أيامه كأيامنا ، وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن تلك الأيام الطويلة أتكفي في الواحد منها صلاة يوم ، قال الرسول ﷺ : لا ، اقدروا له قدره ، ولو وكل العباد إلى اجتهادهم لأقتصروا على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غير هذه الأيام . وأخبر الرسول ﷺ أن عيسى بعد نزوله لا يقبل الجزية من اليهود والنصارى ، ولا يقبل منهم إلا الإيمان ، وهذا البيان من الرسول ﷺ ضروري ، لأن عيسى يحكم بهذا الشرع ، وهذا الشرع فيه قبول الجزية ممن بذلها إلى حين نزول عيسى بن مريم وحين ذاك توضع الجزية ، ويقتل كل من رفض الإيمان ، ولو بذل الجزية .

٦ ـ التطلع إلى ما يحدث في المستقبل أمر فطري فالإنسان يجد في نفسه رغبة شديدة في معرفة الوقائع والكائنات التي قد تحدث للجنس الإنساني ، أو تحدث للأمة التي هو منها ، أو قد تحدث له ، ولذلك فإن الزعماء والرؤساء بل والأفراد يلجؤون في معرفة ذلك إلى السحرة والكهان والمنجمين ، فجاءهم الله بالحق الذي يغني ويكفي ويشفي في هذا الجانب ، وقد تعرض ابن خلدون لهذه الفائدة في مقدمة تاريخه ، فقال :

« اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوُّف إلى عواقب أمورهم . وعلم ما يحدث لهم من حياة وموتٍ وخيرٍ وشرٍ ، سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا ، ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها ، والتطلع إلى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها . ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام . والأخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة . ولقد نجد في المدن صنفا من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه ، فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه . فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها ، وكثير من ضعفاء العقول ، يستكشفون عواقب أمرهم ، في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك ، مابين خط في الرمل ويسمونه المنجم ، وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب ، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل وهو من المنكرات الفاشية في الأمصار ، لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك ، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده في نومٍ أو ولاية .

وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلع إليه الأمراء والملوك في آماد دولتهم ، ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه . وكل أمةٍ من الأمم يوجد لهم كلامٌ من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها ، وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ، ومدة بقاء الدولة ، وعدد الملوك فيها ، والتعرض لأسمائهم ، ويسمى مثل ذلك الحدثان .

وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون إليهم في ذلك وقد أخبروا بماسيكون للعرب من الملك والدولة ، كما وقع لشق ، وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة ابن‌نصر من ملوك اليمن ، أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ، ثم رجوعها إليهم ، ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك . وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبذان حين

بعث إليه كسرى بها مع عبدالمسيح ، وأخبرهم بظهور دولة العرب . وكذا كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يِفْرَنْ ، ويقال من غمرة ، وله كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم وفيها حدثان كثير ، ومعظمه فيما يكون لزناته من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجبل ، وهم يزعمون تارة أنه ولي ، وتارة أنه كاهن ، وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبيا ، لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير . والله أعلم »[1] .

---

(١) المقدمة لابن خلدون : ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨ .

المبحث التاسع

أقسام علامات الساعة

وردت أحاديث كثيرة عدد فيها الرسول ﷺ جملة من أشراط الساعة ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ؛ ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال ، فيفيض حتى يُهِمَّ رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه ، فيقول الذي يعرضه عليه : لا أرب لي به ، وحتى يتطاول الناس في البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ، ورآها الناس آمنوا أجمعين ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً »[1].

وفي صحيح البخاري عن عوف بن مالك رضي الله عنه ، قال : « أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة أدم ، فقال : اعدد ستا بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كقُعَاص الغنم[2] ، ثم

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن ، حديث رقم (٧١٢٠) ، فتح الباري : (٨١/١٣) ، وقد رواه مسلم في صحيحه مفرقاً ، وقد جمع رواياته ابن الأثير في جامع الأصول : (٤٠٤/١٠) ، ورقم الحديث : (٧٩٢٠) .

(٢) الموتان بضم الميم : موت يقع في الماشية فيهلكها ، و (القُعاص) داء يأخذ الغنم ، لا يلبثها أن تموت .

استفاضة المال ، حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر ، فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية[1] ، تحت كل غاية إثنا عشر ألفا »[2] .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أشراط السّاعة الفُحش ، والتَفَحُّش ، وقطيعة الرحم ، وتخوين الأمين ، وإئتمان الخائن » رواه البزار ، ورواه الطبراني في الأوسط عن أنس ، ورواه أحمد والبزار عن ابن عمرو[3] . وعن عبدالله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد ، لا يصلي فيه ركعتين ، وأن لا يسلم الرجل إلا على من يعرف »[4] رواه الطبراني .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد » رواه أبو داود ، وأحمد في مسنده ، والدارمي ، وابن خزيمة[5] .

وهذه الأشراط التي ذكرها الرسول ﷺ في هذه الأحاديث وفي أحاديث أخرى كثيرة قسمها أهل العلم إلى قسمين :

---

(١) الغاية : الراية .
(٢) رواه البخاري في صحيحه ، انظر جامع الأصول : (٤١١/١٠) ، رقم الحديث : (٧٩٢٧) .
(٣) صحيح الجامع الصغير : ٢١٣/٥ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق .

علامات صغرى ، وعلامات كبرى .

والعلامات الصـغرى يمكن تقسيمها إلى قسمين : قسم وقع ، وقسم لم يقع بعد .

والذي وقع قد يكون مضى وانقضى ، وقد يكون ظهوره ليس مرة واحدة ، بل يبدو شيئا فشيئا ، وقد يتكرر وقوعه وحصوله ، وقد يقع منه في المستقبل أكثر مما وقع في الماضي .

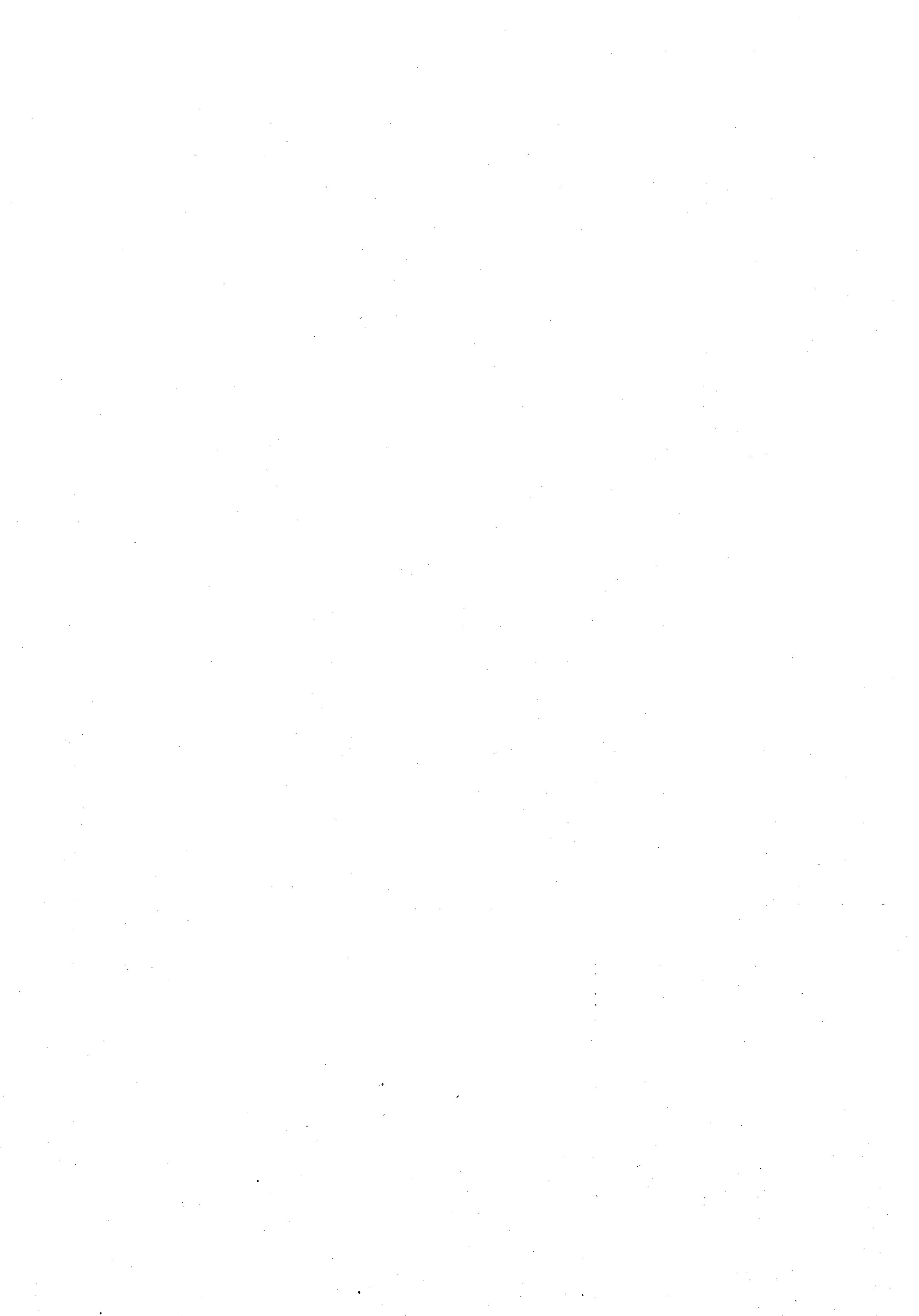
ولذلك سنعقد لعلامات الساعة أربعة فصول :

الأول : العلامات الصغرى التي وقعت وانقضت .

الثاني : العلامات الصغرى التي وقعت ، ولاتزال مستمرة ، وقد يتكرر وقوعها .

الثالث : العلامات الصغرى التي لم تقع بعد .

الرابع : العلامات الكبرى .



الفصل الثاني
علامات الساعة التي وقعت

ونعني بها العلامات التي وقعت وانقضت ولن يتكرر وقوعها ، وهي كثيرة وسنذكر بعضا منها .

المبحث الأول
بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ووفاته

من أشراط الساعة بعثة الرسول ﷺ ووفاته ، ففي الحديث عند البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال : « رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا ، الوسطى والتي تلي الإبهام . وقال : بعثت أنا والساعة كهاتين » .

وفي رواية قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويشير بأصبعيه ، يمدهما »[١] وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، كفضل إحداهما على الأخرى ، وضم السبابة والوسطى »[٢] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٨٤) .
(٢) جامع الأصول : (١٠/٣٨٤) .

وفي كتب السيرة أن اليهود كانوا يحدثون عن الرسول ﷺ أنه يبعث مع الساعة .

وقد مضى قريبا حديث عوف بن مالك عند البخاري الذي قال له الرسول ﷺ فيه : « اعدد ستا بين يدي الساعة : موتي » .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح عن أبي جبيرة عن رسول الله ﷺ قال : « بعثت في نسم الساعة »[1] .

« ونسم الساعة » كما يقول ابن الأثير : هو من النسيم أول هبوب الريح الضعيفة . أي بعثت في أول أشراط الساعة وضعف مجيئها .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٤٦٧) . ورقم الحديث : ٨٠٨ .

المبحث الثاني

انشقاق القمر

اتفق العلماء على أن القمر قد انشق في عهد الرسول ﷺ ، وأن انشقاقه إحدى المعجزات الباهرات[1] ، وقد صرح القرآن بهذا في قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[2] .

قال النووي : « قال القاضي : انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا ﷺ ، وقد رواها عدة من الصحابة رضي الله عنهم ، مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها ، قال الزجاج : وقد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين المخالفي الملة ، وذلك لما أعمى الله قلبه ، ولا إنكار للعقل فيها ، لأن القمر مخلوق لله تعالى يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه ويكوّره في آخر أمره . . »[3] .

وقد ساق ابن كثير الأحاديث الواردة في انشقاق القمر في تفسير سورة القمر ، وهي أحاديث صحيحة كثيرة[4] ، وقد ساقها مسلم في صحيحه ، ومنها حديث أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر

---

(١) تفسير ابن كثير : (٦/٤٦٩) .

(٢) سورة القمر : ١ ، ٢ .

(٣) شرح النووي على مسلم : (١٧/١٤٣) .

(٤) تفسير ابن كثير : (٦/٤٦٩) .

مرتين[1] ، ومنها حديث عبدالله بن مسعود قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ بشقين ، فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا ، اشهدوا » وفي رواية أخرى عنه ، قال : « بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين ، فكانت فلقة وراء الجبل ، وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله ﷺ : اشهدوا »[2] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، باب انشقاق القمر ، (٤/٢١٥٩) ، حديث رقم (٢٨٠٢) .
(٢) رواه مسلم ، باب انشقاق القمر ، (٤/٢١٥٨) ، ورقم الحديث (٢٨٠٠) .

المبحث الثالث

نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة ، حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى »[1] .

وهذه الآية العظيمة التي أخبر الصادق المصدوق بوقوعها في مقبل الزمان وقعت على الصورة التي أخبر بها الرسول ﷺ ، وقد كان خروجها في سنة (٦٥٤) للهجرة النبوية .

وقد تحدث العلامة المؤرخ ابن كثير في أحداث سنة (٦٥٤) عن هذه النار فقال :

فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى ، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه ، وقد بسط القول في ذلك الشيخ الإمام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه « الذيل وشرحه » ، واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار

---

(١) الحديث رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب خروج النار ، فتح الباري :(١٣/ ٧٨)، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، حديث رقم (٢٩٠٢) (٤/ ٢٢٢٧) ، وبصرى كما يقول النووي (النووي على مسلم : (١٨/ ٣٠) : « مدينة معروفة بالشام ، وهي مدينة حوران ، بينها وبين دمشق ثلاث مراحل » وقد ذكر المؤرخون أن الأمر وقع كما أخبر الرسول ﷺ فقد أضاءت أعناق الإبل ببصرى ، وكان طلبة العلم يقرؤون على ضوئها في كثير من البلاد النائية عن المدينة .

التي شوهدت معاينة ، وكيفية خروجها وأمرها . وملخص ما أورده أبو شامة[1] أنه قال : وجاء إلى دمشق كتب من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخر من هذه السنة ، وكتبت الكتب في خامس رجب ، والنار بحالها ، ووصلت الكتب إلينا في عاشر شعبان ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ورد إلى مدينة دمشق في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله ﷺ ، فيها شرح أمر عظيم حدث بها تصديق لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة . قال قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى » فأخبرني من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب . قال وكنا في بيوتنا تلك الليالي ، وكأن في دار كل واحد منا سراج ، ولم يكن لها حر ولفح على عظمها ، إنما كانت آية من آيات الله عز وجل » .

قال أبو شامة : وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها :

« لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دوى عظيم ، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب ، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور ، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا ، وهي نار عظيمة إشعالها أكثر من ثلاث منارات ، وقد سالت أودية بالنار إلى وادي شظا مسيل الماء ، وقدسدت مسيل شظا وما عاد يسيل ، والله لقد طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسيل نيرانا ، وقد سدت الحرة

---

(١) كان أبو شامة معاصرا لخروجها .

طريق الحاج العراقي ، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة ، فوقفت بعدما أشفقنا أن تجيء إلينا ، ورجعت تسيل في الشرق ، فخرج من وسطها سهود وجبال نيران تأكل الحجارة ، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ (١) .

وقد أكلت الأرض ، وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار في زيادة ما تغيرت ، وقد عادت إلى الحرار في قريظة طريق عير الحاج العراقي إلى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج . وأما أم النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر ، والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من عند قريظة ، وقد زادت وما عاد الناس يدرون أي شيء يتم بعد ذلك ، والله يجعل العاقبة إلى خير ، فما أقدر أصف هذه النار » .

قال أبو شامة : « وفي كتاب آخر :ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ووقع في شرق المدينة المشرَّفة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم : انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد ، ثم وقفت وعادت إلى الساعة ، ولا ندري ماذا نفعل، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم تعالى ، وهذه دلائل القيامة » .

قال « وفي كتاب آخر : لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة ، سنة أربع وخمسين وستمائة وقع بالمدينة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة ، أقام على هذه الحالة يومين ، فلما كانت ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذي كنا نسمعه زلازل ، فلما كان يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست

---

(١) سورة المرسلات : ٣٢ ـ ٣٣ .

الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول الله ﷺ ، وهي برأى العين من المدينة ، نشاهدها وهي ترمي بشرر كالقصر ، كما قال الله تعالى : وهي بموضع يقال له أجيلين . وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربع فراسخ ، وعرضه أربعة أميال ، وعمقه قامة ونصف ، وهي تجري على وجه الأرض ويخرج منها أمهاد وجبال صغار ، وتسير على وجه الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك . فإذا جمد صار أسود ، وقبل الجمود لونه أحمر ، وقد حصل بسبب هذه النار إقلاع عن المعاصي ، والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات ، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها » .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ، « ومن كتاب شمس الدين بن سنان بن عبدالوهاب بن نميلة الحسيني قاضي المدينة إلى بعض أصحابه : لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة بالثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها ، وباتت باقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات ، والله لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله ﷺ اضطرب لها المنبر إلى أن أوجسنا منه إذ سمعنا صوتا للحديد الذي فيه ، واضطربت قناديل الحرم الشريف ، وتمت الزلزلة إلى يوم الجمعة ضحى ، ولها دوى مثل دوى الرعد القاصف ، ثم طلع يوم الجمعة في طريق الحرة في رأس أجيلين نار عظيمة مثل المدينة العظيمة ، وما بانت لنا إلا ليلة السبت ، وأشفقنا منها وخفنا خوفا عظيما ، وطلعت إلى الأمير كلمته وقلت له : قد أحاط بنا العذاب ، ارجع إلى الله تعالى ، فأعتق كل مماليكه ، ورد على جماعة أموالهم ، فلما فعل ذلك قلت اهبط الساعة معنا إلى النبي ﷺ ، فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعهم والنسوان وأولادهم ، وما بقي أحد لا في النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي ﷺ ، ثم سال منها نهر من نار ، وأخذ في وادي أجيلين وسد الطريق ، ثم طلع إلى بحرة الحاج وهو بحر نار يجري ، وفوقه جمر يسير إلى أن

قطعت الوادي وادي الشظا ، وما عاد يجيء في الوادي سيل قط لأنها حصرته نحو قامتين وثلث علوها .

والله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدرة والمدينة قد تاب جميع أهلها ، ولا بقي يسمع فيها رباب ولا دف ولا شرب ، وتمت النار تسيل إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج ، وجاء في الوادي إلينا منها يسير ، وخفنا أنه يجيئنا فاجتمع الناس ودخلوا على النبي ﷺ وتابوا عنده جميعهم ليلة الجمعة ، وأما قتيرها الذي مما يلينا فقد طفيء بقدرة الله ، وأنها إلى الساعة وما نقصت إلا ترى مثل الجمال حجارة ، ولها دوى ، ما يدعنا نرقد ، ولا نأكل ، ولا نشرب ،وما أقدر أصف لك عظمها ولا مافيها من الأهوال .

وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها ، وما أصبح يقدر يصفها من عظمها ، وكتب الكتاب يوم خامس رجب ، وهي على حالها ، والناس منها خائفون ، والشمس والقمر من يوم ما طلعت ما يطلعان إلا كاسفين ، فنسأل الله العافية » .

قال أبو شامة : وبان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان ، وكنا حيارى من ذلك إيش هو ؟ إلى أن جاءنا هذا الخبر عن هذه النار .

قلت : وكان أبو شامة قد أرخ قبل مجيء الكتب بأمر هذه النار ، فقال : وفيها في ليلة الإثنين السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل ، وكان شديد الحمرة ثم انجلى ، وكسفت الشمس ، وفي غده احمرت وقت طلوعها وغروبها ، وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور ، والله على كل شيء قدير ، ثم قال : واتضح بذلك ما صوره الشافعي من اجتماع الكسوف والعيد ، واستبعده أهل النجامة .

ثم قال أبو شامة : « ومن كتاب آخر من بعض بني الفاشاني بالمدينة يقول فيه : وصل إلينا في جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم ، حتى طفح الماء من أعلى أسوار بغداد إليها ، وغرق كثير منها ، ودخل الماء دار الخلافة وسط البلد ، وانهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون داراً ، وانهدم مخزن الخليفة ، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير ، وأشرف الناس على الهلاك ، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلدة ، وتخترق أزقة بغداد .

قال وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم : لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة ومن قبلها بيومين ، عاد الناس يسمعون صوتا مثل صوت الرعد ، فانزعج لها الناس كلهم ، وانتبهوا من مراقدهم وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى، وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه ، وتمت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح ، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها وليلة الجمعة ، وصبح يوم الجمعة ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض ، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم ، وأشفق الناس من ذنوبهم ، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر .

ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض ، فارتاع لها الناس روعة عظيمة ، ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض ، فيصل إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة ، ثم ظهرت النار لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها القلعة ، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي وإلى الحجرة الشريفة ، واستجار الناس بها وأحاطوا بالحجرة ، وكشفوا رؤوسهم، وأقروا بذنوبهم ، وابتهلوا إلى الله تعالى ، واستجاروا بنبيه عليه الصلاة والسلام ، وأتى

الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل ، وخرج النساء من البيوت والصبيان ، واجتمعوا كلهم وأخلصوا إلى الله ، وغطت حمرة النار السماء كلها ، حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر ، وبقيت السماء كالعلقة ، وأيقن الناس بالهلاك أو العذاب ، وبات الناس تلك الليلة بين مصل وتال للقرآن وراكع وساجد ، وداع إلى الله عز وجل ، ومتنصل من ذنوبه ومستغفر وتائب ، ولزمت النار مكانها وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها .

وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه ، فطرح المكس وأعتق مماليكه كلهم وعبيده ، ورد علينا كل مالنا تحت يده ، وعلى غيرنا ، وبقيت تلك النار على حالها تلتهب التهابا ، وهي كالجبل العظيم ارتفاعا ، وكالمدينة عرضا ، يخرج منها حصى يصعد في السماء ، ويهوي فيها ، ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد . وبقيت كذلك أياما ثم سالت سيلاناً إلى وادي أجلين تنحدر مع الوادي إلى الشظا ، حتى لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج ، والحجارة معها تتحرك وتسير حتى كادت تقارب حرة العريض ، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عادت ترمي بحجارة خلفها وأمامها ، حتى بنت لها جبلين وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياما ، ثم إنها عظمت وسناءها إلى الآن ، وهي تتقد كأعظم ما يكون ، ولها كل يوم صوت عظيم في آخر الليل إلى ضحوة ، ولها عجائب ماأقدر أن أشرحها لك على الكمال ، وإنما هذا طرف يكفي والشمس والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن . وكتب هذا الكتاب ولهاشهر وهي في مكانها ما تتقدم ولا تتأخر » .

وقد قال فيها بعضهم أبياتاً :

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا * لقد أحاطت بنا يا ربُ بأساء
نشكو إليكَ خطوباً لا نطيقُ لها * حملاً ونحن بها حقاً أحقاءَ

زلازل تخشعُ الصُم الصلابُ لها * وكيف يقوى على الزلزالِ شماءُ
أقامَ سبعاً يرج الأرض فانصدعت * عن منظرٍ منه عينُ الشمسِ عشواءُ
بحرٌ من النارِ تجري فوقهُ سفنٌ * من الهضابِ لها في الأرضِ أرساءُ
كأنما فوقُه الأجبال طافيةٌ * موجٌ عليه لفرط البهج وعثاءُ
ترمى لها شرراً كالقصرِ طائشةً * كأنها ديمةٌ تنصب هطلاءُ
تنشقُ منها قلوبُ الصخرِ إن زفرت * رعباً وترعدُ مثلُ السعفِ أضواءُ
منها تكاثف في الجوِ الدخانَ إلى * أن عادت الشمسُ منه وهي دهماءُ
قد أثرت سفعةٌ في البدرِ لفحتها * فليلةُ التم بعدَ النورِ ليلاءُ
تحدث النيراتُ السبعُ ألسنها * بما يلاقي بها تحتَ الثرى الماءُ
وقد أحاطَ لظاها بالبروجِ إلى * أن كادَ يلحقها بالأرض إهواءُ
فيالها آيةٌ من معجزاتِ رسو * لِ الله يعقلها القومُ الألباءُ
فباسمكَ الأعظمِ المكنونِ إن عظمتْ * منا الذنوبُ وساءَ القلبُ أسواءُ
فاسمح وهب وتفضل وامحُ واعفُ وجدْ * واصفحْ فكل لفرطِ الجهلِ خطاءُ
فقومُ يونسَ لما آمنوا كشفَ الـ * ـعذابَ عنهم وعمَّ القَوم نعماءُ
ونحنُ أمةُ هذا المصطفى ولنا * منهُ إلى عفوكَ المرجوِ دعاءُ
هذا الرسولُ الذي لولاهُ ما سلكت * محجةٌ في سبيلِ الله بيضاءُ
فارحم وصلِّ على المختارِ ما خطبت * على علا منبرِ الأوراقِ ورقاءُ

قلت : والحديث الوارد في أمر هذه النار مخرج في الصحيحين من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى » وهذا لفظ البخاري .

وقد وقع هذا في هذه السنة ـ أعني سنة أربع وخمسين وستمائة ـ كما ذكرنا ، وقد أخبرني قاضي القضاة صدر الدين علي بن أبي القاسم التميمي الحنفي الحاكم بدمشق في بعض الأيام في المذاكرة ، وجرى ذكر هذا الحديث وما كان من أمر هذه النار في هذه السنة فقال : سمعت رجلا من الأعراب يخبر والدي ببصرى في تلك الليالي أنهم رأوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت في أرض الحجاز .

قلت : وكان مولده في سنة ثنتين وأربعين وستمائة ، وكان والده مدرساً للحنفية ببصرى ، وكذلك كان جده ، وهو قد درس بها أيضاً ثم انتقل إلى دمشق فدرس بالصادرية وبالمعدمية ، ثم ولي قضاء القضاة الحنفية ، وكان مشكور السيرة في الأحكام ، وقد كان عمره حين وقعت هذه النار بالحجاز ثنتا عشرة سنة ، ومثله ممن يضبط ما يسمع من الخبر أن الأعرابي أخبر والده في تلك الليالي ، وصلوات الله وسلامه على نبيه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

ومما نظمه بعض الشعراء في هذه النار الحجازية وغرق بغداد قوله :

سبحان من أصبحت مشيئته * جاريةً في الورى بمقدارِ
أغرق بغدادَ بالمياهِ كما * أحرقَ أرضَ الحجازِ بالنارِ

قال أبو شامة : والصواب أن يقال :

في سنةٍ أغرق العراقَ وقد * أحرقَ أرضَ الحجازَ بالنارِ

وقال ابن الساعي في تاريخ سنة أربع وخمسين وستمائة : في يوم الجمعة ثامن عشر رجب ـ يعني من هذه السنة ـ كنت جالساً بين يدي الوزير فورد عليه كتاب من مدينة الرسول ﷺ ، صحبة قاصد يعرف بقيماز العلوي الحسني المدني ، فناوله الكتاب فقرأه وهو يتضمن أن مدينة الرسول ﷺ زلزلت يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة حتى ارتج القبر الشريف النبوي ، وسمع صرير الحديد ، وتحركت

السلاسل ، وظهرت نار على مسيرة أربع فراسخ من المدينة ، وكانت ترمي بزبد كأنه رؤوس الجبال ، ودامت خمسة عشر يوما .

قال القاصد : وجئت ولم تنقطع بعد ، بل كانت على حالها ، وسأله إلى أي الجهات ترمي ؟ فقال : إلى جهة الشرق ، واجتزت عليها أنا ونجابة اليمن ورمينا فيها سعفة فلم تحرقها ، بل كانت تحرق الحجارة وتذيبها . وأخرج قيماز المذكور شيئا من الصخر المحترق وهو كالفحم لونا وخفة .

قال وذكر في الكتاب وكان بخط قاضي المدينة أنهم لما زلزلوا دخلوا الحرم وكشفوا رؤوسهم واستغفروا ،وأن نائب المدينة أعتق جميع مماليكه ، وخرج من جميع المظالم ، ولم يزالوا مستغفرين حتى سكنت الزلزلة ، إلا أن النار التي ظهرت لم تنقطع . وجاء القاصد المذكور ولها خمسة عشر يوما وإلى الآن .

قال ابن الساعي : وقرأت بخط العدل محمود بن يوسف الأمعاني شيخ حرم المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، يقول : إن هذه النار التي ظهرت بالحجاز آية عظيمة ، وإشارة صحيحة دالة على اقتراب الساعة ، فالسعيد من انتهز الفرصة قبل الموت ، وتدارك أمره بإصلاح حاله مع الله عز وجل قبل الموت . وهذه النار في أرض ذات حجر لاشجر فيها ولا نبت ، وهي تأكل بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله ، وهي تحرق الحجارة وتذيبها ، حتى تعود كالطين المبلول ، ثم يضربه الهواء حتى يعود كخبث الحديد الذي يخرج من الكير ، فالله يجعلها عبرة للمسلمين ورحمة للعالمين ، بمحمد وآله الطاهرين . انتهى ما ذكره ابن كثير[1] .

ومن العلماء الكبار الذين كانوا أحياء عند خروج هذه النار الإمام النووي

---

(١) البداية والنهاية : (١٣/١٨٧ ـ ١٩٢) .

رحمه الله تعالى ، وقد ذكرها في شرحه لصحيح مسلم فقال : « وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة ، وكانت نـاراً عظيمة جدّا من جنب المدينة الشرقي ، وراء الحرّة ، تواتر العلم بخروجها عند جميع الشام وسائر البلدان ، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة »[1] . وواضح من وصف المشاهدين لهذه النار أنها كانت بركانا هائلا ، صاحبه زلازل عظيمة ، والشاهد أن هذه النار خرجت على النحو الذي أخبرنا بـه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٢٨) .

المبحث الرابع
توقف الجزية والخراج

كانت الجزية التي يدفعها أهل الذمة في الدولة الإسلامية ، والخراج الذي يدفعه من يستغل الأراضي التي فتحت في الدولة الإسلامية من أهم مصادر بيت مال المسلمين ، وقد أخبر الرسول ﷺ بأن ذلك سيتوقف ، وسيفقد المسلمون بسبب ذلك موردا إسلاميا هاما، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مدها ودينارها ، ومنعت مصر إردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم » ، شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه[1] .

والقفيز والمد والإردب مكاييل لأهل ذلك الزمان في تلك البلاد ، وبعضها لايزال معروفا إلى أيامنا ، والدرهم والدينار أسماء للعملات المعروفة في ذلك الوقت ، ومنع تلك البلاد للمذكورات في الحديث بسبب استيلاء الكفار على تلك الديار في بعض الأزمنة ، فقد استولى الروم ، ثم التتار على كثير من البلاد الإسلامية ، وفي عصرنا احتل الكفار ديار الإسلام ، وأذهبوا دولة الخلافة الإسلامية ، وأبعدوا الشريعة الإسلامية عن الحكم . قال النووي في تعليقه على الحديث :« الأشهر في معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان ، فيمنعون حصول ذلك للمسلمين ، وقد روى مسلم هذا بعد ذاك بورقات عن جابر

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، (٤/ ٢٢٢٠) ورقم الحديث (٢٨٩٦) .

قال : « يوشك أن لا يجيء إليهم قفيز ولا درهم ، قلنا من أين ذلك ؟ قال من قبل العجم ، يمنعون ذاك»، وذكر في منع الروم ذلك بالشام مثله ، وهذا قد وجد في زماننا في العراق ، وهو الآن موجود ، وقيل لأنهم يرتدون آخر الزمان ، فيمنعون مالديهم من الزكاة وغيرها ، وقيل معناه أن الكفار الذين عليهم الجزية تقوى شوكتهم في آخر الزمان ، فيمتنعون مما كانوا يؤدونه من الجزية والخراج ، وغير ذلك»[1]، وكل هذه التعليلات لسبب منع تلك الإيرادات لخزينة الدولة الإسلامية التي ذكرها النووي وجدت ، علاوة على انهيار الدولة الإسلامية التي كانت تقيم اقتصادها على الشريعة الإسلامية فإلى الله المشتكى .

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٢٠) .





الفصل الثالث

العلامات التي وقعت، وهي مستمرة، أو وقعت مرة ويمكن أن يتكرر وقوعها

المبحث الأول

الفتوحات والحروب

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وقد سار حملة هذا الدين مشرقين ومغربين يفتحون البلاد وينشرون الإسلام ، وقد هزموا الدول الكبرى في ذلك الزمان ، وأزالوها من الوجود ، ولم يزل هذا دأب المسلمين على مرّ العصور ، وسيبقى إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال .

وقد كان الرسول ﷺ يخبر الصحابة بما سيكون من الفتوحات والانتصارات التي سيجريها الله على أيديهم أو على أيدي من بعدهم ، قال لهم ذلك في الوقت الذي كانوا فيه مستضعفين في مكة ، أو محاصرين في المدينة يعيشون في خوف مستمر من اجتياح الأعداء ، فقد روى لنا البخاري عن خباب بن الأرت قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ ـ وهو متوسد بُردَة له في ظل الكعبة ، قلنا له : ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ، وما يصده ذلك عن

دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب[1] ، وما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[2] .

لقد كان الأمن منعدما في الجزيرة العربية ، وكان القانون السائد فيها شريعة الغاب ، وقد كثر في الأحاديث الإخبار باستتباب الأمن في الجزيرة بسبب ظهور الإسلام فيها ، كما أخبرنا الرسول ﷺ أن الإسلام سيتعدى حدود الجزيرة العربية ، وأنه سيعصف بالدول الكبرى في ذلك الوقت ، مثل ملك كسرى وقيصر ، ففي صحيح مسلم عن نافع بن عتبة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ، ثمَّ فارس فيفتحها الله ، ثمَّ تغزون الروم ، فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله »[3] وروى البخاري عن عدي بن حاتم ، قال : « بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثمَّ أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدي ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد أنبئت عنها ، قال : فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحدا إلا الله ، قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دعار طيء الذي قد سعَّروا البلاد ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفّه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله

---

(١) هكذا ورد في النص ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وقد ورد الحديث في صحيح البخاري في موضع آخر بلفظ (مادون عظامه من لحم أو عصب) ، كتاب المناقب ، فتح الباري : (١٦٥/٧) ، وهو الصواب .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المناقب ، حديث رقم : (٣٦١٢) فتح الباري (٦١٩/٦) .

(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال ، (٢٢٢٥/٤) ، حديث رقم (٢٩٠٠) .

منه ، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه ترجمان ، يترجم له ، فيقولن : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى ، فيقول : ألم أعطك مالا وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ،وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم . قال عدي : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد شقّ تمرة فكلمة طيبة ، قال عدي : « فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ ، يخرج ملء كفه . . . »[١] .

وقد أخبر الرسول ﷺ في حديث آخر أن المسلمين سيزيلون ملك كسرى وقيصر ، وسينفقون كنوزهما في سبيل الله ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله »[٢] .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض »[٣] وقد وقع الأمر كما أخبر الرسول ﷺ ، فقد بلغ ملك هذه الأمة بمقدار ما جمع له من الأرض ، وكان معظم امتداد ملك هذه الأمة في جهتي الشرق والغرب ، وأما في جهة الشمال والجنوب فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المناقب ، حديث رقم (٣٥٩٥) فتح الباري : (٦/٦١٠) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، حديث رقم (٣٦١٨) ، فتح الباري : (٦/٦٢٥) .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، (٤/٢٢١٥) ، ورقمه (٢٨٨٩) .

وأخبرنا رسولنا ﷺ أننا سنغزو الهند ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه ثوبان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار : عصابة تغزو الهند ، وعصابة تكون مع عيسى بن مريم عليه السلام »[1] .

وبشرنا الرسول ﷺ بفتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، كما أخبرنا بفتح روما مقر الفاتيكان ، ففي الحديث الصحيح عن أبي قبيل قال : كنا عند عبدالله بن عمرو بن العاص ، وسئل أي المدينتين تفتح أولا : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبدالله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتابا ، قال : فقال عبدالله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله : أي المدينتين تفتح أولا أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : مدينة هرقل تفتح أولا ، يعني القسطنطينية »[2] .

وقد فتحت فارس والروم وزال ملك كسرى وقيصر ، وغزا المسلمون الهند ، وفتحوا القسطنطينية ، وسيكون للمسلمين في مقبل الزمان ملك عظيم ينتشر فيه الإسلام ويذل الشرك ، وتفتح روما مصداقا لحديث الرسول ﷺ القائل : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولايترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل به الكفر »[3] .

---

(١) الحديث أخرجه النسائي ، وأحمد وغيرهما ، وإسناده قوي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني : (٤/ ٥٧٠) حديث رقم (١٩٣٤) .

(٢) رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٨) حديث رقم : (٤) .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه ، وابن عروبة في المنتقى من الطبقات ، وأورده الشيخ ناصر الدين في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/ ٧) ، حديث رقم : (٣) .

وقد أخبر الرسول ﷺ بأننا سنقاتل الترك ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما ينتعلون نعال الشعر ، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المُطْرقة » .

وفي رواية لهما عن أبي هريرة : « لاتقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك ، صغار الأعين حمر الوجوه ، ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر » واللفظ للبخاري[1] .

وقد وقع الأمر كما أخبر الرسول ﷺ فقد قاتل المسلمون الترك أكثر من مرة ، يقول النووي في التتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامي : « وقد وجدوا في زماننا أي الترك الذين تحدث عنهم الرسول ﷺ هكذا .... بجميع صفاتهم التي ذكرها ﷺ : صغار الأعين ، حمر الوجوه ، ذلف الأنوف ، عراض الوجوه ، كأن وجوههم المجان المطرقة ، ينتعلون الشعر ، فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا ، وقاتلهم المسلمون مرات ، وقتالهم الآن ، ونسأل الله الكريم إحسان العاقبة للمسلمين في أمرهم ، وأمر غيرهم ، وسائر أحوالهم ، وإدامة اللطف بهم والحماية ، وصلى الله وسلم على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى »[2] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد ، باب كتاب الترك ، وفتح الباري (١٠٣/٦) . ورواه مسلم في كتاب الفتن ، (٢٢٣٣/٤) حديث رقم (٢٩١٢) .

(والمجان) جمع مجن ، وهو الترس ، و (المطرقة) : هي التي ألبست العقب وأطرقت به طاقة فوق طاقة ، قالوا : ومعناه تشبيه وجوه الترك في عرضها وتلون وجناتها بالترسة المطرقة ، والمراد (بذلف الأنوف) : أي فطس الأنوف . قصارها مع الانبطاح ، وقيل : هو غلظ في أرنبة الأنف ، وقيل تطامن فيها ، وكله متقارب .

(٢) شرح النووي على مسلم : (٣٨/١٨) ، وواضح تأثر النووي بنبوأة الرسول ﷺ ، لأنه كان يشرح الحديث والمعركة مستعرة بين المسلمين وهؤلاء الذين تحدث الرسول عن قتال المسلمين لهم ، وقد رأى وصفهم بأم عيني رأسه .

المبحث الثاني

خروج الدجالين أدعياء النبوة

أخبر الرسول ﷺ أنه سيخرج في هذه الأمة دجالون يدعون النبوة ، وقد أخبر الرسول ﷺ أن عددهم قريب من ثلاثين ، وحددهم في بعض الأحاديث بسبعة وعشرين ، والمراد بأدعياء النبوة هؤلاء الذين يثيرون فتنة ويتبعهم الناس ، ويغترون بباطلهم ، أمّا الذين ادعوها ولم يأبه الناس لهم فكثير .

ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كل يزعم أنه رسول الله »[1] .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان ، قال : قال رسول الله ﷺ : « وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم الأنبياء ، لا نبي بعدي »[2] .

وفي مسند أحمد ، ومشكل الآثار للطحاوي ، ومعجم الطبراني الكبير والأوسط بإسناد صحيح عن حذيفة عن النبي ﷺ ، قال : « في أمتي كذابون ، ودجالون سبعة وعشرون ، منهم أربعة نسوة ، وإني خاتم النبيين ، لا نبي بعدي »[3] وقد خرج من هؤلاء عدد كبير في الماضي ، ففي عهد الصحابة خرج مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسي ، وسجاح الكاهنة ، وفي عصر التابعين خرج المختار

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، فتح الباري : (١٣/٨١) .

(٢) ورواه مسلم في صحيحه ، انظر جامع الأصول : (١٠/٤٠٤) .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٦٥٤) ، ورقمه (١٩٩٩) .

الثقفي مدعيا النبوة ، ومنذ أكثر من قرن قام حسين بن علي بن الميرزا عباس في إيران مدعيا النبوة[1] ، ولقب ببهاء الله وأتباعه البهائية ، وآخر من سمعنا عنه دعوى النبوة محمود محمد طه السوداني الذي أضل كثيرا من الناس بكتاباته ومقالاته ، وقد أعدم في طليعة هذا العام[2] ، أعدمته حكومة السودان بسبب ضلاله وكفره وردته ، فلعنة الله على الظالمين . إلا أن الدجال الكبير هو ذلك الذي يخرج آخر الزمان ، وينزل الله عيسى بن مريم للقضاء على فتنته .

---

(١) ولد بطهران في عام ١٢٣٣ هـ وتوفي في عكا بفلسطين عام ١٣٠٩ هـ .
(٢) عام ١٩٨٥م .

المبحث الثالث
الفتن

المطلب الأول
التحذير من الفتن

الإنسان الصالح هو المسلم المستقيم على الدين الذي أنزله تبارك وتعالى ، والأمة الصالحة هي الأمة التي تأخذ هذا الدين وتستقيم عليه ، ثمَّ إن الفرد المسلم ، والأمة المسلمة كلهم يبتلى بشتى أنواع البلاء ، وقد يثور البلاء من داخل الأمة بسبب الأهواء والفرقة والخصام ، وقد يتمثل في عدو حاقد على هذه الأمة يجتاحها ويستذلها ، وقد يصل البلاء النابع من الفرقة والخصام إلى حدّ أن يسل بعضها على بعض السيوف ، فتزهق الأرواح ، وتسيل الدماء ، وتنتهك الحرمات ، وتسلب الأموال ، وقد أطلع الله رسوله عليه السلام على كثير من البلايا والفتن التي ستبتلى بها الأمة الإسلامية في مقبل الزمان ، ولذلك فإن الرسول ﷺ أطال في تحديث الصحابة عن تلك الفتن ، وبيان المخرج منها ، يقول أبو زيد عمرو بن أخطب ، صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر ، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ، ثمَّ صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثمَّ صعد المنبر ، فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن ، فأعلمنا أحفظنا »[1] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة ، (٤/٢٢١٧) ورقمه : (٢٨٩٢) .

ولعل هذا المقام هو الذي ذكره حذيفة بن اليمان ، فقد ثبت عنه أنه قال : « قام فينا رسول الله ﷺ مقاما ، ما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة ، إلاّ حدّث به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابي هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل قد غاب عنه ، ثمَّ إذا رآه عرفه »[1] .

وبعض هذه الفتن شديدة مظلمة ومنها خفيف ، ففي حديث حذيفة في صحيح مسلم عن الفتن : « منهن (أي من الفتن) ثلاث لا يكدن يذرن شيئا ، ومنهن فتن كرياح الصيف ، منها صغار ، ومنها كبار »[2] .

ويبلغ من شدة هذه الفتن أن تخرج المسلم عن دينه ، ففي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح المرء مؤمنا ، ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع أحدكم دينه بعرض قليل من الدنيا » رواه أحمد ومسلم والترمذي[3] .

وفي حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ، ويصبح كافرا ، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا » أخرجه الترمذي في سننه ، وقال : حديث حسن صحيح[4] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة : (٢٢١٦/٤) ، ورقمه : (٢٨٩١) .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٤/٣) .

(٤) جامع الأصول : (٣٨٣/١٠) .

ويبلغ ثقل هذه الفتن وشدتها على المسلم أن يتمنى الموت ويرجوه كي يتخلص من البلاء ، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لاتقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني كنت مكانه » ، روه البخاري ومسلم[1] ، وفي رواية عندمسلم :« والذي نفسي بيده ، لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ، ويقول : يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدِّين إلا البلاء »[2] .

وإن من أعظم الأسباب التي توقع في الفتن والبلاء قلة العلم ، وكثرة الجهل ، وترك الإسلام ، وارتكاب الذنوب والمعاصي ، وانتهاك الحرمات ، فعن عبدالله بن مسعود وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة أياما ينزل فيها الجهل ، ويرفع العلم ، ويكثر الهرج ،والهرج :القتل » أخرجه البخاري ومسلم[3] .

وعن أنس ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويكثر الجهل ، ويكثر الزنا ، ويكثر شرب الخمر ، ويقل الرجال ، ويكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » وفي رواية : « يقل العلم ، ويظهر الجهل » متفق عليه[4] .

والسبب في قلة الرجال وكثرة النساء كما جاء ذلك مبينا في بعض الأحاديث - الحروب التي تقع في ذلك الزمان ، وقد كثر في الأحاديث إخبار الرسول ﷺ بكثرة

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور ، فتح الباري : (٧٥/١٣) ورواه مسلم كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل . . . (٢٢٣١/٤) .

(٢) صحيح مسلم ، في الكتاب والباب الذي سبق ذكره .

(٣) جامع الأصول : (٤٠٨/١١) ورقمه (٧٩٢٤) .

(٤) مشكاة المصابيح : ٢١/٣ .

القتل في آخر الزمان ، وليس المراد به قتل المسلمين للكفار ، وإنما هو قتل بعض المسلمين لبعض ، وفي كثير من الأحيان لا تعرف أسباب ذلك القتل ولا أهدافه ، ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال : « إن بين يدي الساعة الهرج ، قالوا : وما الهرج ؟ قال : القتل ، إنه ليس بقتلكم المشركين ، ولكن قتل بعضكم بعضا ، [حتى يقتل الرجل جاره ، ويقتل أخاه ، ويقتل عمّه ، ويقتل ابن عمّه] ، قالوا : ومعنا عقولنا يومئذ ؟ قال : إنه لتنزع عقول أهل ذلك الزمان ، ويخلف له هباء من الناس ؟ يحسب أكثرهم أنهم على شيء ، وليسوا على شيء »(١) .

وروى أبو هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده ، ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل ، ولا يدري المقتول على أي شيء قتل »(٢) .

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة) للشيخ ناصر الدين الألباني : (٢٤٨/٤) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل . . . (٢٢٣١/٢) ، ورقمه : (٢٩٠٨) .

المطلب الثاني
نماذج من الفتن

أولا : مقتل الخليفة الراشد عثمان وافتراق الأمة

من أعظم الفتن التي أخبر بها الرسول ﷺ تلك الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان وفرقة الأمة الإسلامية ، ومن ثمّ جعل بأسها بينها ، فقد سل بعضها السيوف على بعض ، وسالت الدماء الطاهرة الطيبة من الفريقين المسلمين المتخاصمين ، وأصدق وصف لتلك الفتنة أنها كانت تموج كموج البحر ، ففي حديث حذيفه أنه كان جالسا عند عمر بن الخطاب ، إذا قال : « أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة ؟ قال حذيفة : فتنة الرجل في أهله وماله وولده يكفرها الصلاة والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال ليس عن هذا اسألك ، ولكن التي تموج كموج البحر ، فقال : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها بابا مغلقا ، قال عمر : أيكسر أم يفتح ؟ قال : بل يكسر ، قال عمر : إذن لا يغلق أبدا ، قلت : أجل . قلنا لحذيفة : أكان عمر يعلم الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم أن دون غد ليلة ، وذلك أني حدثته حديثا ليس بالأغاليط ، فهبنا أن نسأله عن الباب ، فأمرنا مسروقا فسأله ، فقال : من الباب ؟ قال : عمر »[1] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، فتح الباري : (٤٨/١٣) . ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، (٢٢١٨/٤) واللفظ للبخاري .

وقد حدد الرسول ﷺ العام الذي تقع فيه الفتنة ، ففي حديث عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « تدور رحى الإسلام بعد خمس وثلاثين ، فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يقم لهم دينهم ـ يقم لهم سبعين عاما ، قلت : (وفي رواية قال عمر : يا نبي الله) : مما بقي ، أومما مضى ؟ قال : مما مضى »[1] . وقد سماها رحى الإسلام تشبيها للحرب بالرحى ، لأنها تطحن المقاتلين ، كما يطحن الرحى الحب ، وأشار الرسول ﷺ في بقية الحديث إلى مدة حكم بني أمية ، فقد كانت مدته سبعين عاما .

وقد صرح في بعض الروايات بما يكون من حال الأمة في تلك الفتنة ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، وتكون بينهما مقتلة عظيمة ، ودعواهما واحدة »[2] .

ثانيا : فتنة الخوارج

من آثار الفتن الفرقة والاختلاف ، وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن خروج أقوام في آخر الزمان ، لهم دور كبير في فرقة الأمة الإسلامية ، إذ يدعي هؤلاء العلم ، ويجهدون أنفسهم في العبادة ، ويدعون إلى كتاب الله ، ولكنهم جهلاء ، أحكامهم جائرة ، وآراؤهم قاصرة ، يسفكون دماء مخالفيهم من المسلمين ، ويجهّلون الصحابة والعلماء ، ففي الحديث المتفق عليه عن علي بن أبي طالب قال : قال

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود ، والطحاوي في مشكل الآثار ، والحاكم ، وأحمد وغيرهم ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني ، (٧٠٣/٢) ، حديث رقم (٩٧٦) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب المناقب ، حديث رقم (٣٦٠٨ ، ٣٦٠٩) فتح الباري (٥١٦/٦) ورواه مسلم ، كتاب الفتنه ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، (٢٢١٤/٤) واللفظ لمسلم .

رسول الله ﷺ : « سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من قول خير البريّة ، يقرؤون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة ، فإذا لقيتوهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »(١) .

وفي سنن أبي داود وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم ومسند أحمدعن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « سيكون في أمتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القيل ، ويسيئون الفعل ، يقرؤون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرميّة ، لا يرجعون حتى يرتد السهم إلى فُوقه ، هم شرار الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم وقتلوه ، يدعون إلى كتاب الله ، وليسوا منه في شيء ، من قاتلهم كان أولى بالله منهم ، سيماهم التحالق »(٢) .

وقد خرجت هذه الفرقة في عهد الصحابة ، وكفرت الصحابة ، واستباحت دماء المسلمين ، وأحدثت في الأمة بلاء كبيرا .

---

(١) صحيح الجامع : (٢١٣/٣) .

(٢) صحيح الجامع : (٢١٧/٣) .

المطلب الثالث

كيفية الخلاص من الفتن

اجتهد كثير من الصحابة في التعرف على الفتن التي ستعصف بالأمة وتبين طريق النجاة والخلاص منها ، من هؤلاء بل في مقدمتهم حذيفة بن اليمان فقد صح عنه أنه قال : « إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة ، فيما بيني وبين الساعة »[1] .

وقد كان حذيفة يكثر من سؤال الرسول ﷺ عن الفتن حتى لا يقع فيها ، ففي صحيح البخاري عن حذيفة قال : « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشرّ ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم . قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال : نعم ، وفيه دخن ، قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم قذفوه فيها . قلت : يا رسول الله : صفهم لنا . قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك »[2] .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن ، باب إخبار الرسول ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة : (٢٢١٦/٤) ، ورقمه (٢٨٩١) .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن ، باب كيف يكون الأمر إذا لم تكن جماعة ، فتح الباري (٣٥/١٣) .

وفي حديث العرباض بن سارية أمر الرسول ﷺ بالتمسك بالإسلام ، وطاعة الإمام ، والتزام سنة الرسول ﷺ وسنة خلفائه الراشدين المهديين من بعده ، فقد روى عبدالرحمن بن عمرو السلمي أنه سمع العرباض بن سارية يقول : « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقلنا : يا رسول الله ، إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ قال : « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ، ومن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة خلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وعليكم بالطاعة ، وإن عبدا حبشيا ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف ، حيثما قيد ينقاد »[1] .

كيف يتصرف المسلم في الحروب التي تثور بين المسلمين

أرشد الرسول ﷺ أمته إلى كيفية التصرف في مثل هذه الفتن التي تثور بين المسلمين ، حيث يخفى الحق ، وتضطرب الأمور ، فقد دعا الرسول ﷺ إلى اجتناب الصراع والقتال في مثل هذه الحال ، والاعتزال في مكان ناء ، يرعى الرجل الغنم في قمم الجبال ، أو يجاهد الأعداء على حدود الدولة المسلمة ، فإن وصلت إليه سيوف المتحاربين ، فقد أمر بأن يمتنع عن الدفاع عن نفسه ، ولو كان في هذا هلاكه ، فقد روى لنا أبو بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستكون فتن ، ألا ثمَّ ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من الماشي فيها ، والماشي خير من الساعي إليها ، ألا فإذا نزلت أو وقعت ، فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كان

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه ابن ماجة ، والترمذي ، وأحمد ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني (٢/٦٤٧) ، حديث رقم (٩٣٧) .

له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كان له أرض فليلحق بأرضه . قال : فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : يعمد إلى سيفه فيدق على حدّه بحجر ، ثم لينج إن استطاع النجاء ، اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت ؟ فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين ، أو إلى إحدى الفئتين ؟ فضربني رجل بسيفه ، أو يجيء سهم فيقتلني ؟ قال : يبوء بإثمه وإثمك ، ويكون من أصحاب النار[1] » .

وعن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن » رواه البخاري[2] .

وفي حديث أبي هريرة عن الحاكم أن رسول الله ﷺ قال : « أظلتكم فتن كقطع الليل المظلم ، أنجى الناس منها صاحب شاهقة ، يأكل من رسل غنمه ، أو رجل من وراء الدروب ، آخذ بعنان فرسه ، يأكل من فيء رمحه »[3] .

وقد بين الرسول ﷺ لأبي ذر كيف يتصرف في الفتنة ، فقال له : « أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء[4] ، كيف تصنع ؟ اقعد في بيتك ، وأغلق عليك بابك ، قال : فإن لم أترك ؟ قال : فأت من كنت معه ، فكن فيهم . قال : فآخذ سلاحي ؟ قال : إذا تشاركهم فيما هم فيه ، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق من طرف ردائك على وجهك ، كي يبوء

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب نزول الفتن : (٢٢١٢/٤) ، ورقمه (٢٨٨٧) .

(٢) رواه البخاري ، باب التعرب في الفتنة ، فتح الباري : (٤٠/١٣) .

(٣) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٦٦/٣) (٦٤٢/٤) .

(٤) حجارة الزيت : موضع في المدينة المنورة .

بإثمه وإثمك ، ويكون من أصحاب النار »[1] .

وقد احتج بالأحاديث التي سقناها وما أشبهها من لم ير القتال في الفتنة من الصحابة ، « وهم كل من ترك القتال مع علي بن أبي طالب في حروبه ، كسعد بن أبي وقاص ، وعبدالله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأبي بكرة ، وغيرهم ، وقالوا : يجب الكف حتى لو أراد أحد قتله لم يدفعه عن نفسه ، ومنهم من قال : لا يدخل في الفتنة ، فإن أراد أحد قتله دفع عن نفسه ، وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نصر الحق وقتال الباغين ، وحمل هؤلاء الأحاديث الواردة في ذلك على من ضعف على القتال ، أو قصر نظره عن معرفة صاحب الحق »[2] .

وقال الطبري : « الفتنة أصلها الابتلاء ، وإنكار المنكر واجب على من قدر عليه ، فمن أعان المحق أصاب ، ومن أعان المخطىء أخطأ ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها »[3] .

ولا شك أن تبين الحق والصواب في مثل هذه الظروف التي تقع فيها الفتن ، وتظهر فيها الأهواء صعب جدّاً ، والأقرب إلى السلامة هو البعد والاعتزال ، كيلا يصيب المسلم دما حراما ، ولا يؤذي مسلما ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) حديث صحيح ، رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم ، انظر صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٥٨) .

(٢) فتح الباري : (١٣/٣٣) .

(٣) فتح الباري : (١٣/٣١) .

المطلب الرابع
/ بؤرة الفتن ومصدرها

أخبرنا الرسول ﷺ بالجهة التي تهب منها رياح الفتن على الديار الإسلامية ، ففي صحيحي البخاري ومسلم وموطأ مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رأس الكفر نحو المشرق ، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل ، الفدادين أهل الوبر ، والسكينة في أهل الغنم »[1].

وعن عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قام إلى جنب المنبر ، فقال : « الفتنة هاهنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان ، أو قال : قرن الشمس » . رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية لمسلم عن عائشة : « رأس الكفر ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان »[2] ، وفي حديث آخر عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهمَّ بارك لنا في شامنا ، اللهمَّ بارك لنا في يمننا ، قالوا يا رسول الله : وفي نجدنا ؟ فأظنه قال في الثالثة : هناك الزلازل والفتن ، وبها يطلع قرن الشيطان »[3] .

وأصل النجد ما ارتفع من الأرض ، وقال الخطابي : نجد من جهة المشرق ، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ، ونواحيها وهي مشرق أهل المدينة ،

(١) جامع الأصول : (١٠/٦١) ، ورقم الحديث : (٧٥٢٨) .
(٢) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ « الفتنة من قبل الشرق » فتح الباري : (١٣/٤٥) ومسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب الفتنة من المشرق (٤/٢٢٢٩) حديث رقم (٢٩٠٥) .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ : الفتنة من قبل المشرق ، فتح الباري : (١٣/٤٥) .

وأصل النجد ما ارتفع من الأرض ، وهو خلاف الغَوْر ، فإنه ما انخفض منها ، وتهامة كلها من الغور ، ومكة من تهامة[1] .

ولا شك أن العراق في جهة المشرق ، وأنها تعد بالنسبة للمدينة نجدا ، وهذا ما فقهه سالم بن عبدالله بن عمر ، فعندما كان أهل العراق يرتكبون العظائم ويسألون عن التوافه من الأمور ، قال لهم سالم : « يا أهل العراق ، ماأَسْأَلَكُمْ عن الصغيرة ، وأركبكم للكبيرة ، سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الفتنة تجيء من ههنا » وأومأ بيده نحو المشرق : « من حيث يطلع قرنا الشيطان » ، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض[2] .

ومن استقرأ التاريخ علم أنَّ الفتن كانت تهب على الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي من جهة الشرق ، فمنها ثارت الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد عثمان ، ومنها خرجت فرقة الحرورية المارقة : الخوارج ، وبقيت رياح الخوارج تعصف بالأمة في العهد الأموي ، وبها قامت ثورة الزنج في عام ٢٥٥ هـ بالبصرة ، وفي عام ٢٧٨ هـ انبعثت منها حركة القرامطة ؛ ومن اطلع على ما أحدثه الزنج والقرامطة في الأمة الإسلامية يذهل مما ارتكبوه من فظائع .

ومن الشرق هبت رياح التتار ، وسيبقى الأمر كذلك إلى أن تأتي رايات الدجال من خراسان كما أخبر الرسول ﷺ .

ولا تعارض هذه الأحاديث ـ التي تحدد البؤرة التي تنبعث منها الفتن على الأمّة الإسلامية ـ حديث الرسول ﷺ الذي يرويه عنه أسامة بن زيد رضي الله عنهما ،

---

(١) فتح الباري : (٤٧/١٣) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب الفتنة من المشرق ، (٢٢٢٩/٤) حديث رقم (٢٩٠٥) .

قال : « أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة ، فقال : هل ترون ما أرى ؟ قالوا: لا . قال : فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر »[1] رواه البخاري[2] .

يقول ابن حجر في شرح الحديث : « اختصت المدينة بذلك لأن قتل عثمان رضي الله عنه كان بها ، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك ، فالقتال بالجمل وبصفين كان بسبب مقتل عثمان ، والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفين ، وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولد عن شيء من ذلك ، أو عن شيء تولد عنه ، ثم إن قتل عثمان كان أشدَّ أسبابه الطعن على أمرائه ، ثم عليه بتوليه لهم ، وأول ما نشأ ذلك من العراق ، وهي من جهة المشرق ، فلامنافاة بين حديث الباب ، وبين الحديث الآتي أن الفتنة من جهة المشرق »[3] .

---

(١) أشار الرسول ﷺ في هذا الحديث إلى كثرة الفتن وعمومها للناس لا تختص بها طائفة دون أخرى ، كما يعم المطر النواحي التي ينزل فيها ، ومن قرأ التاريخ وما جرى بعد مقتل عثمان ومقتل الحسين علم صدق مقالة الرسول ﷺ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ « ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب» فتح الباري (١١/١٣) ، ورواه مسلم (٢٢١١/٤) واللفظ للبخاري .

(٣) فتح الباري : (١٣/١٣) .

المبحث الرابع

إسناد الأمر إلى غير أهله

وضع الرجل المناسب في المكان المناسب أحد القواعد الهامة التي لا تصلح حياة البشر بدونها ، ولذلك فإن الفترات التي تولَّى فيها الحكم أصحاب الكفاءات العالية من أصحاب الصلاح والتقى فترات مضيئة مشرقة في تاريخ الأمة الإسلامية ، وأكبر مقتل يفسد نظام الحياة أن يتولى الحكم والولايات والمناصب أقوام غير أكفاء يقودون الحياة بأهوائهم ، ويترك الأخيار القادرون على تسيير الأمور على النحو الأمثل والأفضل .

وقد أخبر الرسول ﷺ أن من أشراط الساعة أن يوسد الأمر إلى من لا يستحقه ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « بينما رسول الله ﷺ في مجلس ـ يحدث القوم ، إذ جاءه أعرابي ، فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله ﷺ في حديثه ، فقال بعض القوم : سمع ما قاله ، فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه : قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال : ها أناذا يا رسول الله ، قال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[1] .

وروى الطحاوي في « مشكل الآثار » عن رسول الله ﷺ : « يوشك أن يغلب على الدنيا لكع ، ابن لكع ، وأفضل الناس مؤمن بين كريمين »[2] .

---

(١) جامع الأصول : (٣٩٦/١٠) ، حديث رقم (٧٩٠٤) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٩/٤) ورقم الحديث (١٥٠٥) وفي إسناد الحديث المرفوع ضعف . إلا أن له طريقا صحيحة موقوفة . والموقوف له حكم المرفوع في مثل هذا .

ومن نظر في تاريخ الأمة الإسلامية علم أن هذا المرض الذي أشار إليه الرسول ﷺ هو أحد البلايا الكبار التي أصابت المسلمين إصابات كبيرة ، لقد تولى أمر هذه الأمة رجال مستبدون ، لا يطيقون سماع رأي مخالف لما يرونه ، ففي الحديث عن معاوية أن الرسول ﷺ قال : « ستكون أئمة من بعدي ، يقولون فلا يرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما تقاحم القردة » رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وأبو يعلى[1] .

وبعض هؤلاء الحكام تشغلهم الشهوات والمتع عن رعاية أمور المسلمين ، وبعضهم لا يعرف الحق ، فإذا به يحمل الناس على مالا يعرفون ، وينتشر بينهم البدع والمنكرات ، كما في الحديث الذي يرويه عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ : « ستكون أمراء تشغلهم أشياء ، يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فاجعلوا صلاتكم معهم تطوعا »[2] رواه أبو داود وأحمد وابن ماجة بإسناد صحيح .

وفي حديث أم سلمة عند مسلم وأبي داود : « ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره برىء ، ومن أنكر سلم ، ولكن من رضي وتابع لم يبرأ »[3] .

وفي مسند أحمد ومعجم الطبراني وسنن ابن ماجة عن ابن مسعود عن الرسول ﷺ قال : « سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ، ويحدثون البدع ، قال ابن مسعود : فكيف أصنع ؟ قال : تسألني ياابن أم عبد كيف تصنع ؟ لا طاعة لمن عصى الله »[4] .

ونلاحظ أن الرسول ﷺ لم يأذن بالخروج على عصاة الحكام ، لما يترتب على

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٩٨/٤) ، ورقمه : (١٧٩٠) .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢٠٥/٣) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق : (٢١٦/٣) .

الخروج عليهم من الفتن وسفك الدماء ، هذا إذا كانوا آخذين بشريعة الله على وجه العموم .

ففي سنن النسائي ومسند ابن حبان بإسناد صحيح عن عرفجه « ستكون بعدي هنات وهنات ، فمن رأيتموه فارق الجماعة ، أو يريد أن يفرق أمر أمّة محمد كائنا من كان فاقتلوه ، فإن يد الله مع الجماعة ، وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض »[1] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣/٢٠٦) .

المبحث الخامس

فساد المسلمين

إنما يتحقق للأمة الرقي والسؤدد بمقدار ما يكون فيها من أفراد صالحين يتمثلون في أنفسهم القيم الفاضلة ، والأخلاق الحميدة ، ساعين إلى إقامة العدل في عالم الواقع ، وتقويم المعوج ، وإصلاح الفاسد ، وهؤلاء هم الذين حملوا الأمانة التي أبت السموات والأرض حملها ، وأشفقت من ذلك ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1] .

والأمانة ما أئتمن الله عليه العباد من الإيمان والتكاليف ، ومن ذلك أداء ما للعباد من مال وحقوق ، وقد أخبر الرسول ﷺ أن هذه الأمانة سترفع ، وهذا الرفع تدريجي ، ففي زمن حذيفة لاحظ شيئا منه ، ولكنه في زمننا هذا كثير ، وسيأتي زمان يكون أكثر مما نحن فيه ، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه ، قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر « حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن ، وعلموا من السنة ، ثمَّ حدثنا عن رفع الأمانة ، قال : ينام الرجل النومة ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظلُّ أثرها مثل الوَكْت ، ثم ينام النومة ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل المَجْل دحرجته على رجلك ، فنفط ، فتراه منتبرا ، وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون ، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلا

---

(١) سورة الأحزاب : ٧٢ .

أمينا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، ومافي قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » يقول حذيفة : « ولقد أتى عليَّ زمان ، وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلما ليردنه عليَّ دينه ، ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه عليَّ ساعيه ، وأما اليوم فماكنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا »[1] .

ومراد الرسول ﷺ أنها نزلت في جذر قلوب الرجال أي في أصلها وأعماقها ، ثم إن الأمانة تنزع ويبقى أثرها فحسب ، والوَكْت : هو اللون الباهت الذي يخلف اللون الأصلي ، ومراده بالمَجْل : هو أثر التنقيط والنفط الذي تحدثه النار إذا دحرجته على رجل الإنسان كما في الحديث .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة : (١/١٢٦) ، ورقمه : (١٤٣) .

المبحث السادس
ولادة الأمة ربتها، وتطاول الحفاة العراة رعاة الشاة في البنيان

روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجيء جبريل إلى الرسول ﷺ في صورة رجل يلبس الملابس البيضاء الناصعة ، له شعر شديد السواد ، وسأل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وأجابه الرسول ﷺ ، ثم سأله عن الساعة ، فقال الرسول ﷺ : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان »[1] .

وروى ابن عباس إجابة الرسول ﷺ عن السؤال بقوله : « إذا رأيت الأمة ولدت ربتها أو ربها ، ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون في البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس ، فذلك من معالم الساعة وأشراطها » .

قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة ؟ قال : العرب[2] .

قال ابن رجب في تعليقه على الحديث : « مضمون ما ذكر من أشراط الساعة في هذا الحديث يرجع إلى أن الأمور توسد إلى غير أهلها ، كما قال النبي ﷺ لمن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، انظر جامع العلوم والحكم : ص ٢١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣١٨ ـ ٣١٩) ، وقال الشيخ ناصر فيه بعد أن ذكر إسناده : وهذا إسناد لا بأس فيه في الشواهد ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، (٣/٣٣٢) ، حديث رقم : (١٣٤٥) .

سأله عن الساعة : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » ، فإذا صار الحفاة العراة رعاء الشاة وهم أهل الجهل والجفاء رؤوس الناس وأصحاب الثروة والأموال حتى يتطاولوا في البنيان فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا . . »[١] .

والمراد بقوله : « أن تلد الأَمَةُ ربتها»، أي سيدتها ومالكتها ، قال العلماء هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها ، لأن مال الإنسان صائر إلى ولده ، وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين ، إما بتصريح أبيه له بالإذن ، وإمّا بما يعلمه بقرينة الحال أو عرف الاستعمال ، وقيل معناه أن يلدن الملوك فتكون أمه من جملة رعيته وهو سيدها ، وسيد غيرها من رعيته[٢] ، وكل هذا وقع ، فقد كثر تسري الأحرار من الإماء بملك اليمين ، ومن المعلوم شرعا أن الأبناء الذين يأتون من السراري يكونون أحرارا ، وبذلك ولدت الأمة ربتها ، وقد وصل بعض هؤلاء إلى الملك .

---

(١) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب : ص ٣٩ .
(٢) شرح النووي على مسلم : (١٥٨/١) .

المبحث السابع
تداعي الأمم على الأمة الإسلامية

من علامات الساعة تكالب أمم الكفر على هذه الأمة ، ففي الحديث عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ، فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[1] .

وقد وقع هذا عبر التاريخ أكثر من مرة ، عندما تداعت الأمم الصليبية إلى غزو هذه الأمة ، ومرة أخرى عند اجتياح التتار العالم الإسلامي ، ولكنَّ هذه النبوءة تحققت في القرن الأخير بصورة أوضح فقد اتفق الصليبيون واليهود والملاحدة على هدم الخلافة الإسلامية ، ثم جزؤوا الديار التي كانت تحكمها ، وتقاسموا ديار المسلمين فيما بينهم ، وأعطوا فلسطين لليهود ، وأصبح المسلمون أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام ، ولا تزال قوى الشر إلى اليوم متداعية لتدمير هذه الأمة وامتصاص خيراتها ، ونهب ثرواتها ، وإذلال رجالها ، والأمة الإسلامية خانعة ذليلة ، لم تغن عنها كثرتها ، غثاء كغثاء السيل ، وعلتها كما أخبر الرسول ﷺ : الوهن حب الدنيا ، وكراهية الموت .

---

(١) الحديث بمجموع طرقه صحيح ، كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني ، وقد عزاه إلى أبي داود ، والروياني ، وابن عساكر ، وأحمد في مسنده ، وأبو نعيم في « الحلية » وغيرهم « سلسلة الأحاديث الصحيحة » :(٢/٦٨٤) ، حديث رقم (٩٥٨) .

السر في هذا التداعي

إن اعتصام هذه الأمة بدينها ووحدتها حاجز يقف دون مطامع أعدائها ، فمهما كان مكر الأعداء وقوتهم فإنهم لن ينالوا من هذه الأمة نيلا إذا كانت متحـدة ، وفي الحديث الذي يرويه ثوبان أن الرسول ﷺ قال : « وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامّة ، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ، يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، أو قال من بين أقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبي بعضهم بعضا »[1] وواضح من الحديث أن وحدة الأمة عصمة لها من أعدائها ، فإذا أصبح بأسها بينها ، ووقعت الفرقة والاختصام فيما بينها سلط الله عليها أعداءها ، وتلك نتيجة حتمية لأن قوتها في هذه الحال لا تتجه إلى الأعداء ، بل إلى نفسها فتدمر نفسها بنفسها ، مما يطمع أعداءها فيها .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، (٢/٢٢١٥) حديث رقم ٢٢٨٩ والمراد بالبيضة : أي جماعتهم وأصلهم ، والبيضة أيضا : العز والملك . والمراد بقوله : (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي لا أهلكهم بقحط يعمهم ، بل إن وقع قحط يكون في ناحية يسيرة ، بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام .

المبحث الثامن

الخسف والقذف والمسخ الذي يعاقب الله به أقواماً من هذه الأمة

يقع في هذه الأمّة من أنواع البلاء الخسف والقذف والمسخ بسبب تعاطيها للذنوب والمعاصي واستعلان ذلك فيها ، كشرب الخمر ولبس الرجال الحرير ، وتعاطي الزنا ، وأكل الربا ، ونحو ذلك من الفساد الذي يصل درجة استحلال الحرام .

ففي معجم الطبراني الكبير بإسناد صحيح عن سهل بن سعد أن الرسول ﷺ قال : « سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ ، إذا ظهرت المعازف والقينات ، واستحلت الخمر »[1] .

ورواه ابن ماجة عن عبدالله بلفظ « بين يدي الساعة مسخ ؛ وخسف ، وقذف » ولهذا الحديث شواهد كثيرة تشهد بصحته ، منها حديث عائشة عند الترمذي : « يكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف ، قالت : قلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم : إذا ظهر الخبث » .

ومنها حديث عمران ، وهو قريب من حديث عائشة إلا أنه قال : « فقال رجل من المسلمين : يا رسول الله ومتى ذلك ؟ قال : إذا ظهرت القينات

---

(١) ورواه الطبراني أيضا في معجمه « الكبير والأوسط » عن أبي سعيد ، ورواه الترمذي عن عمران بن حصين ، انظر « صحيح الجامع الصغير » : (٣/٣١٦) حديث رقم (٣٥٥٩) .

والمعازف ، وشربت الخمور » أخرجه الترمذي[1] .

وروى أبو نعيم في أخبار أصبهان بإسناده إلى ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليبيتن أقوام من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو ، فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير »[2] .

وروى البخاري تعليقا عن أبي عامر أو أبي مالك أن النبي ﷺ ، قال : « ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ، ولينزلن أقوام إلى جنب علم ، يروح عليهم بسارحة لهم ، يأتيهم لحاجة ، فيقولون : ارجع إلينا غدا ، فيبيتهم الله ، ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة » وقد وصل الحديث الطبراني والبيهقي وابن عساكر وغيرهم ، وإسناده صحيح وقد أخطأ ابن حزم في تضعيفه للحديث[3] .

ومن الخسوف الكبيرة التي تكون قرب قيام الساعة ، الخسف بجيش كامل في آخر الزمان ، كما في الحديث الذي يرويه أحمد والحميدي عن بقيرة امرأة القعقاع بن أبي حدرد الأسلمي ، قالت :سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول : « يا هؤلاء ، إذا سمعتم بجيش قد خسف به قريبا ، فقد أظلت الساعة »[4] .

ولعل هذا الجيش الذي يخسف به قرب المدينة ، ويدل على هذا قوله : « قريبا » .

---

(١) انظر الكلام على روايات الحديث في : سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٩٣/٤) حديث رقم (١٧٨٧).

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١٣٥/٤) ، حديث رقم (١٦٠٤) .

(٣) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١٣٩/١) ، حديث رقم : (٩١) .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٤٠/٣) ورقم الحديث : ١٣٥٥ .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ ببعض المواضع التي يقع فيها الخسف والقذف والمسخ ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « يا أنس ، إن الناس يمصرون أمصارا . فإن مصرا يقال له : البصرة ، فإن أنت مررت بها أو دخلتها ، فإياك وسباخها وكلأها ونخيلها وسوقها وباب أمرائها ، وعليك بضواحيها ، فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف ، وقوم يبيتون ويصبحون قردة وخنازير »[1] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٣/١٩) . ورقم الحديث : ٥٤٣٣ .

المَبحث التَاسِع
استفاضة المال

من علامات الساعة كثرة المال ، حتى أن الرجل يعطى المائة دينار من الذهب فيراها قليلة ، ويبحث صاحب المال عن رجل فقير يقبل منه صدقة ماله فلا يجد ، فقد قال الرسول ﷺ لعوف بن مالك ، وكان آن ذاك في غزوة خيبر : « اعدد ستا بين يدي الساعة » فذكرها ، ومنها : « استفاضة المال ، حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا »[١] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال ، فيفيض حتى يهمّ رب المال من يقبل منه صدقة ، ويدعى إليه الرجل ، فيقول : لا أرب لي فيه »[٢] .

والمراد بقوله : « يهم رب المال » : أي يحزنه ، لأنه لا يجد المحتاج الذي يبذل له المال ، وقوله : « لا أرب لي فيه » أي لا حاجة لي به .

وروى حارثة بن وهب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تَصدّقوا ، فيوشك الرجل يمشي بصدقته، فيقول الذي أعطيها : لو جئتنا بالأمس قبلتها ، فأمّا الآن ، فلا حاجة لي بها ، فلا يجد من يقبلها[٣] » .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد ، باب ما يحذر من الغدر ، انظر جامع الأصول : (٤١٢/١٠) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، حديث رقم (١٠١٢) (٧٠١/٢) .

(٣) المصدر السابق ، حديث رقم (١٠١١)(٧٠٠/٢)،ورواه البخاري : كتاب الفتن ، فتح الباري : (٨١/١١) ، واللفظ لمسلم .

ويبدو أن هذا يقع في أكثر من زمان ، فقد وقع في عصر عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، فقد أخرج يعقوب بن سفيان في تاريخه من طريق عمر بن أسيد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب ، قال : « لا والله ما مات عمر بن عبدالعزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر من يضعه فيهم ، فلا يجد فيرجع به ، قد أغنى عمر بن عبدالعزيز الناس »[1] ، وسيأتي عند ذكر المهدي إيراد الأحاديث التي تذكر أنه سيكون خليفة يحثو المال حثوا ، وسيأتي عند ذكر عيسى ذكر الأحاديث التي تذكر استفاضة المال في وقته ، حتى لا يقبله أحد .

(١) فتح الباري : (١٣/ ٨٣) .

المبحث العاشر

تسليم الخاصة، وفشو التجارة، وقطع الأرحام

روى أحمد في مسنده بإسناد صحيح ، عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة ، وفشو التجارة، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة ، وقطع الأرحام ، وشهادة الزور ، وكتمان شهادة الحق ، وظهور القلم »[1] .

ومراده بتسليم الخاصة أن لا يسلم المسلم إلا على من يعرفه ، كما في الحديث الآخر الذي يرويه أحمد في مسنده عن عبدالله بن مسعود أيضا ، عن النبي ﷺ قال : « إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية على المعرفة » وفي رواية : « أن يسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة »[2] . وهذا الذي أخبرنا به الرسول ﷺ قد وقع كله من قبل ، وهو ظاهر مشاهد في زماننا ، وهو في كثرة باطراد وازدياد ، والله المستعان .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/ ٢٥٠) ، ورقم الحديث : ٦٤٧ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/ ٢٥٢) ، ورقم الحديث : ٦٤٨ .

المبحث الحادي عشر
اختلال المقاييس

أخبرنا الرسول ﷺ أن المقاييس التي يُقَوَّم بها الرجال تختل قبل قيام الساعة ، فيقبل قول الكذبة ويصدق ، ويرد على الصادق خبره ، ويؤتمن الخونة على الأموال والأعراض ، ويخوّن الأمناء ويتهمون ، ويتكلم التافهون من الرجال في القضايا التي تهم عامة الناس ، فلا يقدمون إلا الآراء الفجة ، ولا يهدون إلا للأمور المعوجة ، فقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سيأتي على الناس سنوات خداعات ، يُصَدَّق فيها الكاذب ، ويكذَّب فيها الصادق ، ويؤتمن فيها الخائن ، ويخوَّن فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة » .

قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « الرجل التافة ، يتكلم في أمر العامة »[1] .

ومن تأمل في أحوال عالمنا اليوم وجد أننا نعيش هذا العصر الذي أخبر الرسول ﷺ عنه ، فالكذبة من الكفار والمشركين الذين يملكون وكالات الأنباء والإذاعات ومن على طريقهم يصدَّقون ، وأهل الصدق والعدل يكذَّبون ، والأمة الإسلامية تضع أموالها في أيدي الخونة الكفرة ، ويؤتمنون على ذلك ، ويخون المسلمون ولا يؤتمنون على شيء من ذلك ، وقد تكلم في شؤون العالم التافهون من الرجال ، وقادوه قيادة هوجاء توشك أن تدمر البشرية جمعاء .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٥٠٨) . ورقم الحديث : ١٨٨٧ .

المبحث الثاني عشر

شرطة آخر الزمان الذين يجلدون الناس

يكثر الظلم في آخر الزمان ، حتى أن الرجال الذين يوكل إليهم القيام على الأمن وردع الظالمين يفسدون، فإذا بهم يتحولون إلى ظلمة يجلدون ظهور العباد بسياطهم ، وهذا كثير مشاهد في ديار الإسلام اليوم .

روى أحمد والحاكم والطبراني في « الكبير » بإسناد صحيح عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقر ، يغدون في سخط الله ، ويروحون في غضبه »[1] .

وخبر هؤلاء ومصيرهم مذكور في صحيح مسلم ، فقد روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . ونساء كاسيات عاريات ، مميلات ، مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة . ولا يجدن ريحها . وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا »[2] .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٥١٧/٤) ورقم الحديث : ١٨٩٣ .

(٢) صحيح مسلم : (١٦٨٠/٤) . ورقم الحديث : (٢١٢٨) .

الفصل الرابع
العلامات التي لم تقع بعد

المبحث الأول
عودة جزيرة العرب جنات وأنهارا

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، حتى يخرج الرجل زكاة ماله ، فلا يجد أحداً يقبلها ، وحتى تعود أرض العرب جنات وأنهارا » رواه مسلم[١] .

وعودتها جنات وأنهارا إمّا بسبب ما يقوم أهلها به من حفر الآبار ، وزراعة الأرض ونحو ذلك مما هو حاصل في زماننا ، وإمّا بسبب تغير المناخ ، فيتحول مناخها الحار إلى جو لطيف جميل ، ويفجر خالقها فيها من الأنهار والعيون ما يحول جدبها خصبا ، ويحيل سهولها الجرداء إلى سهول مخضرة فيحاء ، وهذا هو الأظهر ، فإنه يحكي حالة ترجع فيها الجزيرة إلى ما كانت عليه من قبل .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢١/٣) حديث رقم : (٥٤٤٠) .

المبحث الثاني

انتفاخ الأهلة

من الأدلة على اقتراب الساعة أن يرى الهلال عند بدو ظهوره كبيرا حتى يقال ساعة خروجه إنه لليلتين أو ثلاثة ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة »[1] ، وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قَبلا ، فيقال : لليلتين وأن تتخذ المساجد طرقا ، وأن يظهر موت الفجأة »[2] .

---

(١) أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥/٢١٣) ، حديث رقم (٥٧٧٤) ، وقال صحيح الإسناد ، وعزاه إلى الطبراني في معجمه الكبير ، وأخرجه غيره من كتب السنة عن أبي هريرة .

(٢) عزاه في صحيح الجامع (٥/٢١٤) حديث رقم (٥٧٧٥) إلى الطبراني في الأوسط ، وقال : إسناده حسن .

المبحث الثالث

تكليم السباع والجماد الإنس

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري ، قال : « عدا الذئب على شاة ، فأخذها ، فطلبه الراعي ، فانتزعها منه ، فأقعى على ذنبه ، قال : ألا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إليّ ، فقال : يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس ، فقال الذئب ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد ﷺ بيثرب ، يخبر الناس بأنباء ماقد سبق . قال : فأقبل الراعي يسوق غنمه ، حتى دخل المدينة ، فزواها إلى زاوية من زواياها ، ثم أتى رسول ﷺ ، فأخبره ، فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة ، ثم خرج ، فقال للراعي : أخبرهم ، فأخبرهم ، فقال رسول الله ﷺ : صدق ، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ، ويكلم الرجل عذبة سوطه ، وشراك نعله ، ويخبره فخذه بما حدّث أهله بعده »(١) .

وقد يكون هذا الذي يخبر عنه الرسول ﷺ شيئا خارقا للعادة خارجا عن المألوف ، كما تشهد على الإنسان أعضاؤه يوم القيامة ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾(٢) ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ

---

(١) إسناده صحيح ، وأخرجه ابن حبان والحاكم مفرقا ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وأخرج الترمذي منه قوله : « والذي نفسي بيده . . » وقال : حديث حسن ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني ، حديث رقم (١٢٢) .

(٢) سورة يس : ٦٥ .

شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[1] ، أو هو إخبار عمّا يصل إليه البشر من علوم ومخترعات ، يستطيعون بها فقه لغة الحيوان ، وينطقون بها الجماد كما هو الحال في المخترعات الجديدة (الراديو) ، و(التلفاز) .

---

(1) سورة فصلت : ٢١ .

المبحث الرابع

انحسار الفرات عن جبل من ذهب

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب ، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا » ، وفي رواية « يحسر عن جبل من ذهب » .

وفي رواية عند مسلم : « لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو »[1] .

ورواه مسلم عن أبي بن كعب بلفظ : « يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب فإذا سمع به الناس ساروا إليه ، فيقول من عنده : لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله ، قال : فيقتتلون عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون »[2] .

ومعنى انحساره : انكشافه لذهاب مائة ، كما يقول النووي[3] ، وقد يكون ذلك بسبب تحول مجراه ، فإن هذا الكنز أو هذا الجبل مطمور بالتراب وهو غير

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب خروج النار ، فتح الباري : (٧٨/١٣) ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب : ٢٢١٩/٤ ، حديث رقم : (٢٨٩٤) .

(٢) انظر صحيح مسلم : (٢٢٢٠/٤) حديث رقم : (٢٢٩٥) .

(٣) شرح النووي على مسلم : (٩/١٨) .

معروف ، فإذا ما تحول مجرى النهر لسبب من الأسباب ومرّ قريبا من هذا الجبل كشفه ، والله أعلم بالصواب .

والسبب في نهي الرسول ﷺ من حضره عن الأخذ منه لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والاقتتال وسفك الدماء .

المبحث الخامس

إخراج الأرض كنوزها المخبوأة

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل ، فيقول : في هذا قتلت ! ويجيء القاطع ، فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق ، فيقول : في هذا قطعت يدي ! ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً »[1] .

وهذه آية من آيات الله ، حيث يأمر الحقُّ الأرض أن تخرج كنوزها المخبوأة في جوفها ، وقد سمى الرسول ﷺ تلك الكنوز (بأفلاذ الكبد) ، وأصل الفلذ « القطعة من كبد البعير ، وقال غيره : هي القطعة من اللحم ، ومعنى الحديث : التشبيه ، أي تخرج مافي جوفها من القطع المدفونة فيها ، والأسطوان جمع أسطوانة ، وهي السارية والعمود ، وشبهه بالأسطوان لعظمته وكثرته[2] » .

وعندما يرى الناس كثرة الذهب والفضة يزهدون فيه ، ويألمون لأنهم ارتكبوا الذنوب والمعاصي في سبيل الحصول على هذا العرض التافه .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ، حديث رقم (١٠١٣) ٢/٧٠١ .

(٢) شرح النووي على مسلم : (١٨/٩٨) .

المبحث السادس

محاصرة المسلمين إلى المدينة

من أشراط الساعة أن يهزم المسلمون ، وينحسر ظلهم ، ويحيط بهم أعداؤهم ويحاصرونهم في المدينة المنورة .

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك المسلمون أن يحاصروا إلى المدينة ، حتى يكون أبعد مسالحهم سلاح »[١] .

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود والحاكم ، صحيح الجامع : (٦/٣٦٣) ورقم الحديث : (٨٠٣٣) .

المَبْحَث السَّابِع

إحراز الجهجاه الملك

الجهجاه رجل من قحطان سيصير إليه الملك ، وهو شديد القوة والبطش ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية لمسلم : « لا تذهب الأيام والليالي ، حتى يملك رجل يقال له الجهجاه »[1] .

ويحتمل أن يكون هذا الذي في الرواية الأخيرة غير الأول ، فقد صح في سنن الترمذي عن أبي هريرة أن هذا الجهجاه من الموالي ، ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « لا يذهب الليل والنهار حتى يملك رجل من الموالي يقال له جهجاه »[2] .

والمراد بكونه يسوق الناس بعصاه أنه يغلب الناس فينقادون له ويطيعونه ، والتعبير بالسوق بالعصا للدلالة على غلظته وشدته ، وأصل الجهجاه الصيَّاح ، وهي صفة تناسب العصا كما يقول ابن حجر[3] ، وهل يسوق هذا الرجل الناس إلى الخير أم الشرّ ؟ ليس عندنا بيان من الرسول ﷺ بذلك .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب تغير الزمان ، فتح الباري : (٧٦/١٣) .
(٢) انظر صحيح الجامع الصغير : (٢٣٠/٦) حديث رقم : (٧٥٦١) .
(٣) فتح الباري : (٧٨/١٣) .

المبحث الثامن

فتنة الأحلاس، وفتنة الدهماء، وفتنة الدهيماء

عن عبد الله بن عمر قال : كنا عند رسول الله ﷺ قعودا نذكر الفتن ، فأكثر من ذكرها ، حتى ذكر فتنة الأحلاس ، فقال قائل : وما فتنة الأحلاس ؟ قال : هي فتنة هرب وحَرَب ، ثمَّ فتنة السراء ، دخلها أو دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي ، يزعم أنه مني ، وليس مني ، وإنما وليي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كَوَرِك على ضِلَع ، ثم فتنة الدهيماء ، لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته ، فإذا قيل انقطعت تمادت ، يصبح الرجل فيها مؤمنا ، ويمسي كافرا ، حتى يصير الناس إلى فسطاطين : فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، إذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من اليوم أو غد »[1] .

والأحلاس جمع حلس ، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب ، شبهت بـه الفتنة لملازمتها للناس حين تنزل بهم كما يلازم الحلس ظهر البعير ، وقد قال الخطابي : يحتمل أن تكون هذه الفتنة شبهت بالأحلاس لسواد لونها وظلمتها . والحـرب بفتح الراء : ذهاب المال والأهل ، يقال : حَرِب الرجل فهو حريب فلان إذا سلب ماله وأهله .

والسراء النعمة التي تسر الناس من وفرة المال والعافية ، وأضيفت الفتنة إليها لأن النعمة سببها ، إذ أن الإنسان يرتكب الآثام والمعاصي بسبب ما يتوفر له

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود والحاكم وأحمد ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني (٢/٧٠٢) ، حديث رقم (٩٧٤) .

من الخير .

وقوله : (كورك على ضلع) هذا مثل للأمر الذي لا يستقيم ولا يثبت ، لأن الورك لا يتركب على الضلع ولا يستقيم معه .

والدهيياء : الداهية التي تدهم الناس بشرها .

المبحث التاسع

خروج المهدي

المطلب الأول

النصوص المعرِّفة بالمهدي

ثبت في الأحاديث الصحيحة أنَّ الله تبارك وتعالى يبعث في آخر الزمان خليفة يكون حكما عدلا ، يلي أمر هذه الأمة من آل بيت الرسول ﷺ من سلالة فاطمة ، يوافق اسمه اسم الرسول ﷺ ، واسم أبيه اسم أبي الرسول ﷺ ، وقد وصفته الأحاديث بأنه أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض عدلا ، بعد أن ملئت جورا وظلما ، ومن الأحاديث التي وردت في هذا :

١ ـ عن عبدالله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي » رواه الترمذي وأبو داود ، وفي روايه لأبي داود : قال : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم ، حتى يبعث الله فيه رجلا مني ـ أو من أهل بيتي ـ يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما »[١] .

٢ ـ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « المهدي من عترتي من ولد فاطمة » رواه أبو داود وابن ماجة والحاكم[٢] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢٤/٣) ، وقال محقق المشكاة : إسناده حسن ورمز لرواية أبي داود بالصحة في صحيح الجامع الصغير (٧٠/٦) حديث رقم (٥١٨٠) .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢٢/٦) وقال الشيخ ناصر فيه : صحيح .

٣ ــ عن عليّ رضي الله عنه ، قال : قال الرسول ﷺ : « المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة » رواه أحمد وابن ماجة[١] .

٤ ــ عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « لو لم يبق من الدهر إلا يوم ، لبعث الله رجلا من أهل بيتي ، يملؤها عدلاً ، كما ملئت جورا » رواه أحمد وأبو داود[٢].

٥ ــ عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « المهدي مني ، أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما ، يملك سبع سنين » رواه أبو داود[٣] .

٦ ــ عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لتملأن الأرض جورا وظلما ، فإذا ملئت جورا وظلما ، بعث الله رجلا مني ، اسمه اسمي ، فيملؤها قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلماً» أخرجه البزار وابن عدي في الكامل ، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ، والحاكم ، ورواه الإمام أحمد ، وابن حبان والحاكم ، وأبو نعيم في الحليةعن أبي سعيد يرفعه بلفظ: « لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلما وجورا وعدوانا ، ثم يخرج رجل من عترتي ، أو من أهل بيتي يملؤها قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما » ، وقد قال الحاكم في إسناد هذه الرواية : « صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبي ، وأشار أبو نعيم إلى تصحيحه .

وروى هذا الحديث الحاكم أيضا عن أبي سعيد مرفوعا بلفظ : « يخرج في

---

(١) صحيح الجامع : (٢٢/٦) ، وقال فيه الشيخ ناصر الدين الألباني : صحيح .

(٢) وهو حديث صحيح ، انظر صحيح الجامع الصغير : (٧١/٥) ، حديث رقم (٥١٨١) .

(٣) مشكاة المصابيح : (٢٤/٣) حديث رقم (٥٤٥٤) ، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة .

أمتي المهدي ، يسقيه الله الغيث ، وتخرج الأرض نباتها ، ويعطى المال صحاحا ، وتكثر الماشية ، وتعظم الأمة ، يعيش سبعا أو ثمانيا يعني حججا » ، وصححه الحاكم والذهبي وابن خلدون .

ورواه أصحاب السنن وكذا الطبراني في الأوسط الكبير ، وصححه الترمذي والحاكم وابن حبان ، ولفظه عند أبي داود : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا مني ، أو من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض عدلا . . . » الحديث[1] .

المطلب الثاني
مرتبة أحاديث المهدي من الصحة

قال فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله ما ملخصه : « أمر المهدي معلوم ، والأحاديث فيه مستفيضة ، بل متواترة متعاضدة ، وقد حكى غير واحد من أهل العلم تواترها ، وتواترها تواتر معنوي ، لكثرة طرقها ، واختلاف مخارجها وصحابتها ورواتها وألفاظها ، فهي بحق تدل على أن هذا الشخص الموعود به أمره ثابت وخروجه حق ، وهو محمد بن عبدالله العلوي الحسني من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وهذا الإمام من رحمة الله عز وجل بالأمة في آخر الزمان ، يخرج فيقيم العدل والحق ، ويمنع الظلم والجور ، وينشر الله به لواء الخير على الأمة عدلا وهداية وتوفيقا وإرشادا للناس .

---

(١) لخصت هذا التحقيق القيم من كلام الشيخ ناصر الدين الألباني حفظه الله ، وإن شئت أن تتطلع على تمام كلامه فيه فارجع إلى سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٣٨) ، حديث رقم : (١٥٢٩) . وانظر أيضا سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٣٣٦) ، حديث رقم : (٧١١) .

وقد اطلعت على كثير من أحاديثه فرأيتها كما قال الشوكاني وغيره ، وكما قال ابن القيم وغيره : فيها الصحيح ، وفيها الحسن ، وفيها الضعيف المنجبر ، وفيها أخبار موضوعة ، ويكفينا من ذلك ما استقام سنده ، سواء كان صحيحا لذاته أو لغيره ، وسواء كان حسنا لذاته أو لغيره ، وهكذا الأحاديث الضعيفة إذا انجبرت وشدَّ بعضها بعضا ، فإنها حجة عند أهل العلم . . . ؛ والحق أن الجمهور من أهل العلم - بل هو كالاتفاق - على ثبوت أمر المهدي ، وأنه حق ، وأنه سيخرج في آخر الزمان ، أمّا من شذ عن أهل العلم في هذا الباب فلا يلتفت إلى كلامه في ذلك »[1] .

وقد أحصى فضيلة الشيخ عبدالمحسن بن حمد العباد عدد الصحابة الذين رووا أحاديث المهدي فبلغوا ستة وعشرين صحابيا ، وأحصى كتب السنة التي أخرجت هذه الأحاديث ، فبلغت ستة وثلاثين كتابا فقد أخرجه أصحاب السنن الأربعة ، وأحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه وغيرهم[2] .

وقد جمع هذه الأحاديث كثير من العلماء في مؤلفات خاصة ، وبينوا طرقها وتكلموا على أسانيدها ، منهم أبو بكر بن أبي خيثمة زهير بن حرب على ما ذكره ابن خلدون ، ومنهم الحافظ أبو نعيم ، ولخص الحافظ السيوطي ما أورده أبو نعيم في كتابه « العرف الوردي في أخبار المهدي » وزاد عليه ، وهو مطبوع في ضمن كتابه الحاوي للفتاوي ، ومنهم الحافظ ابن كثير أفرد في ذكر المهدي جزءا على حده كما

---

(١) كلام الشيخ مثبت في كتاب : الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لعبد المحسن بن حمد العباد ، ص ١٥٧ .

(٢) عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر لعبد المحسن بن حمد العباد وهو مطبوع مع الكتاب السابق ذكره : ص ١٦٦ - ١٦٨ .

نص عليه في كتابه الفتن والملاحم ، ومنهم ابن حجر المكي ألف كتابا سماه : « القول المختصر في علامات المهدي المنتظر » ، ومنهم المتقي الهندي صاحب كنز العمال ، وملا علي قاري ، وسمى مؤلفه « المشرب الوردي في مذهب المهدي » ، ومنهم مرعي بن يوسف الحنبلي ، والصنعاني وغيرهم[1] .

وقد نص على صحة أحاديث المهدي جمع كبير من نقاد الحديث وأئمته منهم : الحاكم ، والذهبي ، وأبو نعيم ، وابن العربي المالكي ، والقرطبي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، والحافظ ابن حجر العسقلاني ، والسيوطي ، وغيرهم[2] ، ولذلك لا يلتفت لمن ضعف هذه الأحاديث أو كذب بها ، ممن ليس من فرسان هذا العلم .

المطلب الثالث
عقائد الفرق الإسلامية في المهدي

١ ـ أما عقيدة أهل السنة والجماعة فهي موافقة لما سقناه من الأحاديث الصحيحة ، وأن المهدي حاكم صالح راشد يبعثه الله مجددا لهذا الدين ، ويعلي الله هذا الدين على يديه .

يقول ابن خلدون : « اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار ، أنه لا بدَّ في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ، ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويستولي على الممالك الإسلامية ، ويسمى بالمهدي ، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط

(١) المصدر السابق : ص ١٦٨ .

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/ ٤٠-٤١) .

الساعة الثابتة في الصحيح على أثره ، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال ، أو ينزل معه فيساعده على قتله ، ويأتم بالمهدي في صلاته »[1] .

٢ ـ عقيدة الشيعة الإمامية الذين يعتقدون أن المهدي هو آخر أئمتهم ، وهو الإمام الثاني عشر المدعو بمحمد بن الحسن العسكري وهو عندهم من ولد الحسين بن علي ، لا من ولد الحسن ، وهم يعتقدون أنه دخل سرداب سامراء منذ أكثر من ألف ومائة سنة وعمره خمس سنوات ، ويعتقدون أنه حاضر في الأمصار ، غائب عن الأبصار ، وهو المهدي الذي ينتظرون عودته ، وكلامهم هذا لم يقم عليه دليل ولا برهان من عقل أو نقل ، وهو مخالف لسنة الله في البشر ، ومخالف لمنطق العقول ، ثم ما الداعي للغيبة إذا كان حيًا ، بل كان الواجب عليه أن يخرج ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

٣ ـ المكذبون بوجود المهدي ، وهؤلاء أفراد من الذين ينسبون لأهل السنة ، ليس لهم باع طويل في تحقيق النصوص ، والكشف عن الأسانيد ، وقد دحض شبهاتهم كثير من أهل العلم في مؤلفات مستقلة ، وآخرها فيما اطلعنا عليه ما كتبه فضيلة الشيخ العلامة عبدالمحسن العباد في كتابه : « الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي »[2] . وما كتبه فضيلة الشيخ حمود بن عبدالله بن حمد التويجري ، كتب مجلدا بعنوان « الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر »[3] .

---

(١) المقدمة ، لابن خلدون : ص ٥٥٥ ، ويحسن أن ننبه هنا أن ابن خلدون ضعف أكثر الأحاديث الدالة على وجوده ، ولم يصب فيما ذهب إليه ، ولكن لا يجوز أن يقال إن ابن خلدون لا يقول بوجود المهدي ، فإنه صحح بعض هذه الأحاديث ، فقد قال بعد سياقه للأحاديث ومناقشته لها ص ٥٧٤ « وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه » وهذا القليل كاف لإثبات القول به .

(٢) مطبوع ، طبعته مطابع الرشيد في المدينة المنورة .

(٣) مطبوع ، نشرته الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ السعودية .

٤ ـ رجال من الحكام الماضين ادعوا المهدية أو ادعاها لهم أقوام ، وبعض هؤلاء رجال صالحون لقب الواحد منهم بالمهدي ، لا على أنه ذلك المهدي الذي أخبر عنه الرسول ﷺ ، بل تفاؤلا بأن يكون من الأئمة المهديين ، الذين يقولون بالحق ، وبه يحكمون ، ومن هؤلاء المهدي الخليفة العباسي . وبعض الذين ادعوا المهدية من الحكام أو ادعيت لهم أقوام فجرة ، مثل الملحد عبيدالله بن ميمون القداح المولود عام ٢٥٩ هـ والمتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، وكان جده يهوديا ينسب إلى بيت مجوسي ، انتسب زورا وكذبا إلى بيت رسول الله ﷺ ، وادعى أنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ، وملك وتغلب ، واستفحل أمره ، واستولت ذريته على بلاد المغرب ، ومصر ، والحجاز ، والشام ، واشتدت غربة الإسلام ومحنته ومصيبته بهم ، وكانوا يدعون الألوهية ، ويدعون أن للشريعة باطنا وظاهرا .

وهم ملوك الرافضة القرامطة الباطنية أعداء الدين ، تستروا بالرفض والانتساب كذبا لأهل البيت ، ودانوا بدين الإلحاد وروجوه ، ولم يزل أمرهم ظاهرا إلى أن أنقذ الله الأمة منهم بصلاح الدين الأيوبي ، فاستنقذ الأمة منهم وأبادهم . ومن هؤلاء مهدي المغاربة محمد بن تومرت ولد سنة ٤٨٥ هـ وتوفي سنة ٥٢٤ هـ ، وهو رجل كذاب ظالم متغلب ، وكان قد ادعى أنه المهدي الموعود ، كان يودع طائفة من أصحابه القبور ، ويأمرهم بإخبار الناس أنه المهدي ، ثم يردم عليهم القبور في الليل ، وهم أحياء ، حتى لا يكشف أمره[١] .

٣ ـ مهدي الفرقة المدعوة بالكيسانية ، وهم يزعمون أن المهدي هو محمد بن الحنفية وأنه حي مقيم بجبل رضوى ، وأنه بين أسدين يحفظانه ، وعنده عينان

---

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم : ص ١٥٣ .

نضاختان تجريان بماء وعسل ، فزعموا أنه دخل إليه ومعه أربعون من أصحابه ، ولم يوقف لهم على خبر ، قالوا : وهم أحياء يرزقون ، ويقولون أنه يعود بعد الغيبة ، ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، قالوا : وإنما عوقب بهذا الحبس لخروجه إلى عبدالملك بن مروان ، وقيل إلى يزيد بن معاوية ، وإلى هذا الاعتقاد أشار كثير عزة بقوله :

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

وكان السيد الحميري على هذا المذهب ، وهو القائل :

ألا قل للإمام فدتك نفسي أطلت بذلك الجبل المقاما[1]

فما أصغر عقول هؤلاء ، وما أقل فهومهم ، يصدقون مالم يقم عليه دليل من عقل ولا نقل .

المطلب الرابع
وقت خروجه

يقول فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله : « قال ابن كثير في الفتن والملاحم : أظنه يكون عند نزول المسيح ، والحديث الذي رواه الحارث بن أبي أسامة يرشد إلى هذا[2] ، ويدل عليه ، لأنه قال أميرهم المهدي ، فهو يرشد إلى أنه يكون عند نزول عيسى بن مريم ، كما يرشد إليه بعض روايات مسلم ، وبعض

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني : (٢/ ٨٥) .

(٢) نص حديث جابر : «ينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم المهدي : تعال صل بنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة » ، قال ابن القيم بعد أن أورده في المنار المنيف : وهذا إسناد جيد .

الروايات الأخرى ، ولكن ليست بالصريحة ، فهذا هو الأقوم والأظهر ، ولكنه ليس بالأمر القطعي[1] » .

روى مسلم في صحيحه عن ثلاثة من أمهات المؤمنين : أم سلمة ، وحفصة ، وعائشة ، أن الرسول ﷺ أخبر أن جيشا يقصد عائذا يعوذ بالبيت فيخسف الله بذلك الجيش في بيداء من الأرض ، ففي رواية أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « يعوذ عائذ بالبيت ، فيبعث إليه بعث ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم ، فقلت : يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارها ، قال : يخسف به معهم ، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته »[2] .

وفي رواية حفصة قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : « ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه ، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأوسطهم ، وينادي أولهم آخرهم ، ثم يخسف بهم ، فلا يبقى إلا الشريد ، الذي يخبر عنهم » ، وفي رواية : « سيعوذ بهذا البيت قوم ليست لهم منعة ولا عدد ، ولا عدّة ، . . . » الحديث[3] .

وفي رواية عائشة أن النبي ﷺ عبث في منامه ، قالت : فقلنا : يا رسول الله : صنعت في منامك شيئا لم تكن تفعله ، فقال : العجب أن ناسا من أمتي يؤمون البيت برجل من قريش ، قد لجأ بالبيت ، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم ، فقلنا : يا رسول الله ، إن الطريق قد يجمع الناس ، قال : نعم ، فيهم

---

(١) الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي : ص ١٦٠ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٠٨) حديث رقم (٢٨٨٢) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٠٩) حديث رقم (٢٨٨٣) ,

المستبصر والمجبور وابن السبيل ، يهلكون مهلكا واحدا ، ويصدرون مصادر شتى »[1] .

فهل هذاالخارج العائذ بالبيت الذي يؤيده الله بنصره، والذي يهلك الله من يقصده بالأذى هو المهدي الذي سبق ذكره في الأحاديث ؟ ليس عندنا ما يدل على ذلك صراحة ، حسب ما نعلم ، والله أعلم بالصواب .

المطلب الخامس
هل المهدي هو الخليفة الذي يحثو المال حثوا

وقد ورد في الأحاديث ذكر خليفة يكثر الخير في زمانه حتى إنه يحثو المال حثوا ، ولا يعده عدّاً ، فهل هو المهدي أو غيره ؟ الله أعلم بحقيقة ذلك .

روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثوا »[2] .

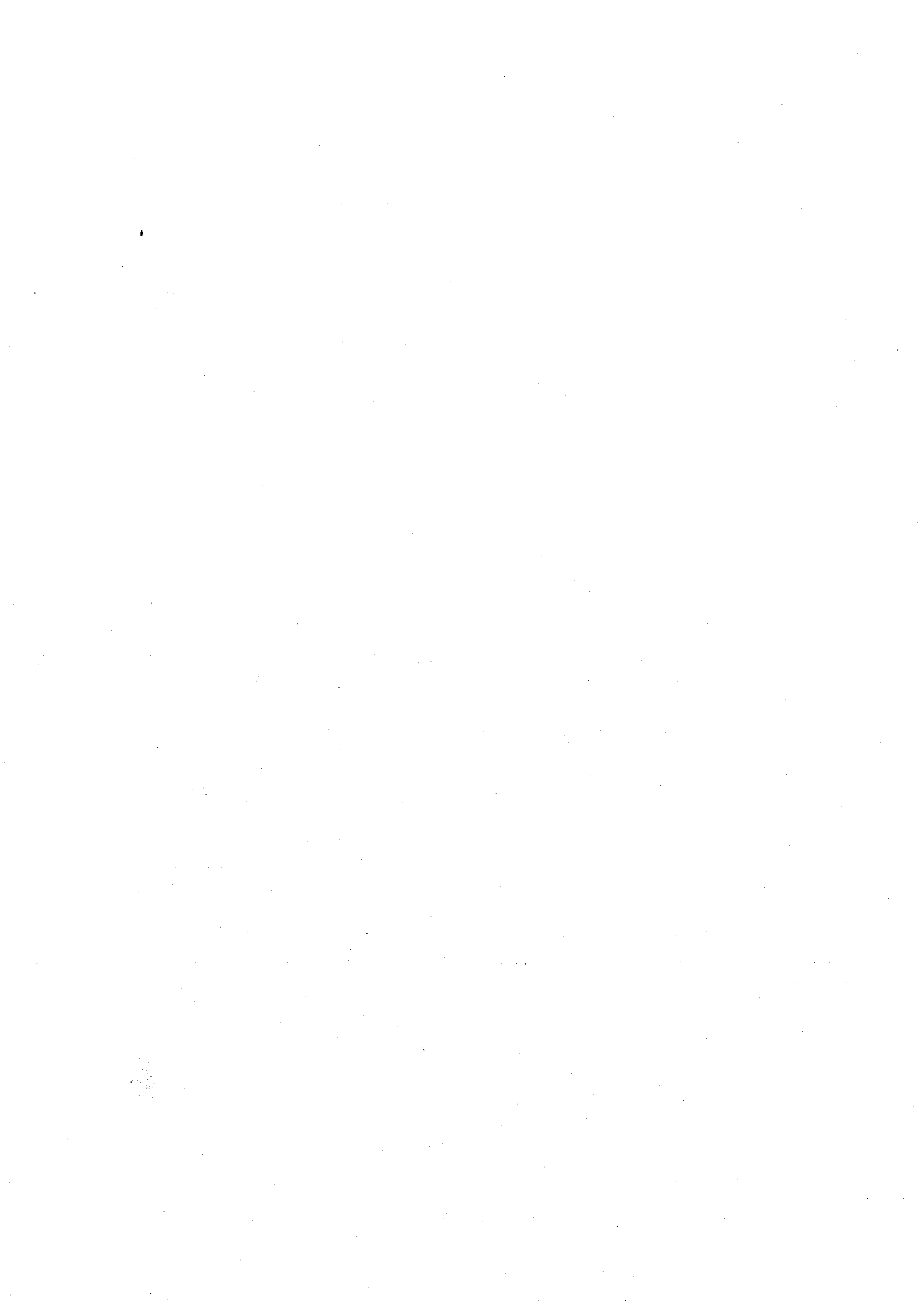
ورواه عن أبي سعيد أيضا ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من خلفائكم خليفة يحثو المال حثيا ، لا يعده عدّاً »[3] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢١٠) حديث رقم (٢٨٨٤) .
وقد ورد الحديث السابق الذي روته أمهات المؤمنين بألفاظ متقاربة في كثير من كتب السنة كمسند أحمد ، ومسند أبي يعلى ، ومستدرك الحاكم . وابن ماجة والترمذي ، والطبراني في الأوسط وغيرهم .

(٢) رواه مسلم في صحيحه : (٤/ ٢٢٣٤) ، حديث رقم (٢٩١٣) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه : (٤/ ٢٢٣٥) ، حديث رقم : (٢٩١٤) .



الفصل الخامس
العلامات الكبرى

تمهيد : ترتيب العلامات الكبرى حسب وقوعها :

هناك علامات كبرى تدل على قرب قيام الساعة ، فإذا ظهرت كانت الساعة على إثرها ، ففي صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر[1] ، فقال : « ماتذاكرون » ؟ قالوا : نذكر الساعة . قال : « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات » .

فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »[2] .

والآيات الكبرى متتابعة في وقوعها ، لا يكاد يفصل بينها فاصل زمني ، وهي تشبه في تتابعها إذا وقعت العقد إذا انقطع سلكه الذي ينتظم حباته ، فإن الحبة

---

(١) اطلاعه عليهم لأنه كان في غرفة فوقهم ، جاء ذلك مبينا في رواية أخرى في صحيح مسلم .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، (٤/٢٢٢٥) ، حديث رقم : (٢٩٠١) ، وعزاه في جامع الأصول إلى أبي داود والترمذي أيضا .

الأولى تسقط فتتبعها بقية الحبات بلا تأخير ، روى الحاكم بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الأمارات خرزات منظومات في سلك ، فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضا »[1] .

وقد أخبر الرسول ﷺ أن وقوع الحرب الكبرى بين المسلمين والروم وهي التي سماها الملحمة ستكون أولا ، ثم يفتح المسلمون القسطنطينية، ثم يخرج الدجال ، روى معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال » رواه أبو داود[2] .

ومراد الرسول ﷺ أن هذه الأحداث تقع متتابعة متوالية ، وسيظهر للقارىء وهو يتابع كتابنا هذا كيف أن المسلمين في ذلك الزمان يشتبكون مع الروم في معركة كبرى ، هي التي سماها الرسول ﷺ بالملحمة ، وبعد انتصارهم عليهم يفتحون القسطنطينية ، ثم يخرج الدجال .

وبعد خروج الدجال ينزل عيسى ويقتل الدجال ، ثم يخرج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى ، ويهلكهم الله في زمنه ، والترتيب إلى هنا واضح ظاهر .

أما بقية الآيات فإن ترتيبها ليس واضحا تماما ، نعم ، خروج الشمس من مغربها ،وخروج دابة الأرض ، وخروج النار التي تحشر الناس ، تكون بالتأكيد بعد خروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج ، ولكن أيها يسبق الآخر ،أعني طلوع الشمس من المغرب ، وخروج الدابة ، وحشر النار للناس .

---

(١) وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي وقال الألباني : وهو كما قالا . سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٦١/٤) ، ورقم الحديث : (١٧٦٢) .

(٢) مشكاة المصابيح : (١٧/٣) ، ورقم الحديث : (٥٤٢٥) ، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة .

إن الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة صريح في أن خروج النار التي تحشر الناس من اليمن هي آخر الآيات ، فقد ذكر الرسول ﷺ الآيات العشر الكبرى ، وقال في الآية العاشرة وهي النار : « وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »[1] .

وتبقى ست آيات : طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة ، والدخان ، والخسوف الثلاثة : الخسف الذي بالمشرق ، والآخر الذي بالمغرب ، والثالث الذي بجزيرة العرب ، أما طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، فتكونان بعد نزول عيسى وقتله الدجال ، وإهلاك يأجوج ومأجوج في عهده ، وبعد فساد الناس ودروس الإسلام وقبل خروج النار التي تحشر الناس ، ولكن أيهما أسبق : خروج الشمس ، أم خروج الدابة ؟ ذلك مالا نستطيع الجزم به بسبب عدم جزم الرسول ﷺ بذلك ، ففي حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على إثرها قريبا »[2] .

ولا يجوز الاستدلال بهذا الحديث على أن طلوع الشمس يكون قبل خروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج ، لقوله : أول الآيات خروجا طلوع الشمس . . . « فالـذي يترجح من الأخبار أنَّ خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض ، وينتهي ذلك بموت عيسى بن مريم ، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، (٤/٢٢٢٥) ، ورقمه : (٢٩٠١) .
(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب في خروج الدجال ، (٤/٢٢٦٠) ، ورقم الحديث (٢٩٤١) .

بتغير أحوال العالم العلوي ، وينتهي ذلك بقيام الساعة ، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب »[1] .

« قال الحاكم أبو عبدالله : الذي يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة ، ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذي يقرب منه »[2] .

أما بقية الآيات ، وهي الخسوف الثلاثة، والدخان - فإننا لا ندري ما ترتيبها في الآيات العظام ، فلم نر من النصوص الصحيحة ما يحدد ذلك ، فالله أعلم بحقيقته

---

(١) فتح الباري : (١١/ ٣٥٣) .
(٢) فتح الباري : (١١/٣٥٣) .

المبحث الأول

الدخان

من الآيات الكبرى التي تقع قبيل الساعة الدخان ، قال تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]، ومما يدل دلالة صريحة على أن الدخان من العلامات الكبرى ما رواه مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري ، قال : اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قلنا : نذكر الساعة ، قال : « إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم »[2] .

وابن مسعود رضي الله عنه يرى أن هذه الآية مضت وانقضت ، فقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق ، قال : كنا عند عبدالله جلوسا ، وهو مضطجع بيننا ، فأتاه رجل فقال : يا أبا عبدالرحمن إن قاصًا يقص عند أبواب كنده ، ويزعم أن آية الدخان تجيء ، فتأخذ بأنفاس الكفار . ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام ، فقال عبدالله ، وجلس وهو غضبان : يا أيها الناس ، اتقوا الله ، من علم منكم شيئا ، فليقل بما يعلم ، ومن لم يعلم ، فليقل : الله أعلم ، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله قال لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ

---

(١) سورة الدخان : ٩ ، ١٠ .

(٢) رواه مسلم : (٤/٢٢٢٥) حديث رقم : (٢٩٠١) .

﴿ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[1] .

إن رسول الله لما رأى من الناس إدبارا ، فقال : « اللهمّ سبع كسبع يوسف » قال :فأخذتهم سنة حصّت[2] كل شيء ، حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع ، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان ، فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد ، إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم ،قال الله عز وجلّ:﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3] إلى قوله : ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[4] قال : أفيكشف عذاب الآخرة ؟ ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾[5] فالبطشة الكبرى يوم بدر ، وقد مضت آية الدخان ، والبطشة ، واللزام ، وآية الروم[6][7] . فابن مسعود يرى أنها قد مضت وانقضت ، واستدل على ذلك بأن العذاب الذي يقع بالكافرين في الآخرة لا يكشف عنهم ، والآية تنص أن الله رافع عنهم العذاب قليلا ، وذهب مذهب ابن مسعود جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، وعطية العوفي ، وهو اختيار ابن جرير[8] .

وقد رجح ابن كثير أن آية الدخان لم تأت بعد ، وأورد في ذلك حديث أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم أنذركم ثلاثا : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة،ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه».

(١) سورة ص : ٨٦ .

(٢) السنة القحط ، وحصّت : استأصلت .

(٣) سورة الدخان : ١٠ ـ ١١ ـ

(٤) سورة الدخان : ١٥ .

(٥) سورة الدخان : ١٦ .

(٦) آية اللزام يشير بها إلى قوله تعالى : ﴿ فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ .

وآية الروم يريد بها قوله تعالى : ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ .

(٧) رواه مسلم : (٢١٥٧/٤) ، حديث رقم (٢٧٩٨) ، وقال ابن كثير في تفسيره (٢٤٦/٦) هذا الحديث مخرج في الصحيحين ، ورواه أحمد وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيريهما .

(٨) تفسير ابن كثير : (٢٤٧/٦) .

والثانية : الدابة . والثالثة : الدجال » رواه ابن جرير . ورواه الطبراني وإسناده جيد ، وذكر ابن كثير أن القول بأن آية الدخان لم تأت بعد هو قول علي بن أبي طالب ، وأبي سعيد الخدري ، وابن عباس والحسن البصري [1] ، واستدل ابن كثير على ما ذهب إليه بأمور :

١ ـ الأحاديث الصحيحة والحسنة الواردة في الموضوع الدالة على أن الآية لم تأت بعد .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] أي بين واضح يراه كل أحد ، وليس خيالا كما ذهب إليه ابن مسعود .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ يغشى الناس ﴾ ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين ، لما قيل فيه ﴿ يغشى الناس ﴾ [3] .

وقال النووي في شرحه على مسلم عند قوله ﷺ : « لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان . . » : « هذا الحديث يؤيد قول من قال : إن الدخان يأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام ، وأنه لم يأت بعد ، وإنما يكون قريبا من قيام الساعة ، وقد سبق في كتاب بدء الخلق قول من قال هذا ، وإنكار ابن مسعود عليه ، وأنه إنما هو عبارة عما نال قريشا من القحط ، حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان ، وقد وافق ابن مسعود جماعة ، وقال بالقول الآخر حذيفة وابن عمر والحسن ، ورواه حذيفة عن النبي ﷺ ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوما ، ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار » [4] .

---

(١) تفسير ابن كثير : (٦/٢٤٨) .

(٢) سورة الدخان : ١٠ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٦/٢٤٧) .

(٤) شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٢٧) .

المبحث الثاني

فتنة الدجال

المطلب الأول

فتنته أعظم فتنة في تاريخ البشر

فتنة الدجال تقع في آخر الزمان ، وهي إحدى أشراط الساعة الكبرى ، وفتنته من أعظم الفتن التي تمر على البشرية عبر تاريخها ، ففي صحيح مسلم عن أبي الدهماء وأبي قتادة ، قالوا : كنا نمرّ على هشام بن عامر ، نأتي عمران بن حصين ، فقال ذات يوم : إنكم لتجاوزوني إلى رجال ، ما كانوا بأحضر إلى رسول الله ﷺ مني ، ولا أعلم بحديثه مني ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال » ، وفي رواية : « أمر أكبر من الدجال »[1] . من أجل ذلك فإن جميع الأنبياء حذروا أقوامهم من فتنته ، ولكن رسولنا ﷺ كان أكثر تحذيرا لأمته منه .

ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : قام رسول الله ﷺ في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثمّ ذكر الدجال ، فقال :

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب في بقية من أحاديث الدجال ، (٤/٢٢٦٦) ، حديث رقم : (٢٩٤٦) .

« إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا أنذره قومه ،ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه ، إنه أعور وإن الله ليس بأعور »[1] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، وإن بين عينيه مكتوب كافر »[2] .

وفي سنن الترمذي وسنن أبي داود عن عبدالله بن عمر ، أن الرسول ﷺ ، قال في الدجال : « إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا أنذره قومه ، ولقد أنذره نوح قومه ، ولكني سأقول فيه قولا لم يقله نبي لقومه : تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور »[3] .

وفي سنن ابن ماجة وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ ، قال : « يا أيها الناس ، إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض ، منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم فتنة من الدجال ، وإن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا حذر أمته من الدجال ، وأنا آخر الأنبياء ، وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة »[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/ ٩٠) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (٩١/١٣) ، ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال وصفة ما معه : (٢٢٤٨/٤) ، حديث رقم : (٢٩٣٣) .
(٣) أنظر جامع الأصول : (٣٥٦/١٠) ، حديث رقم : (٢٨٤٨) ، والسياق للترمذي .
(٤) صحيح الجامع الصغير (٢٧٣/٦) ، ورقمه (٧٧٥٢) وإسناده صحيح .

المطلب الثاني

السر في تسميته بالمسيح الدجال

يقول ابن الأثير : « سمي الدجال مسيحا ، لأن عينه الواحدة ممسوحة ، والمسيح : الذي أحد شقي وجهه ممسوح، لاعين له ولا حاجب ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، بخلاف المسيح عيسى بن مريم ، فإنه فعيل بمعنى فاعل ، سمي به ، لأنه كان يمسح المريض فيبرأ بإذن الله ، والدجال الكذاب »[1] وسمي دجالا - كما يقول ابن حجر - « لأنه يغطي الحق بباطله ، ويقال : دجل البعير بالقطران إذا غطاه ، والإناء بالذهب إذا طلاه . . ، وقال ابن دريد : سمي الدجال ، لأنه يغطي الحق بالكذب ، وقيل لضربه نواحي الأرض ، . . . وقيل : بل قيل ذلك ، لأنه يغطي الأرض »[2] .

المطلب الثالث

حال المسلمين في العصر الذي يخرج فيه الدجال

قبيل خروج الدجال يكون للمسلمين شأن كبير ، وقوة عظيمة ، ويبدو أن خروجه إنما هو للقضاء على تلك القوة ، ففي ذلك الوقت يصالح المسلمون الروم ، ويغزون جميعا عدوا مشتركا فينصرون عليه ، ثمّ تثور الحرب بين المسلمين والصليبيين ، ففي سنن أبي داود عن ذي مخبر ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستصالحون الروم صلحا آمنا ، فتغزون أنتم وهم عدوا من ورائكم ، فتنصرون وتغنمون وتسلمون ، ثم ترجعون ، حتى تنزلوا بمرج ذي تلول ، فيرفع

---

(١) جامع الأصول ، لابن الأثير : (٤/٢٠٤) ، وانظر « لسان العرب » مادة : مسح .

(٢) فتح الباري : (١١/٩١) .

رجل من أهل النصرانية الصليب ، فيقول : غلب الصليب ، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه ، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة ، وزاد بعضهم : « فيثور المسلمون إلى أسلحتهم ، فيقتتلون فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة »[1] .

فأنت ترى قوة المسلمين في ذلك الوقت ، حيث أنهم يغزون وينصرون ويغنمون ويرجعون سالمين وترى إلى أي مدى هم متمسكون بدينهم ، فإن ذلك الصليبي عندما يرفع الصليب زاعما أن الانتصار الذي شارك المسلمون في تحقيقه كان للصليب ، يقوم مسلم غيور على دينه فيدق ذلك الصليب ويكسره ، وتثور العصابة التي تكون في ذلك الموقع من المسلمين إلى سلاحهم ، ويقاتلون الروم ـ على الرغم من قلتهم في ذلك الموقع ، ويشهد الرسول ﷺ لهم بأنهم شهداء ، وأن الله أكرمهم بذلك ، ويكون غدر الروم ذلك ، وما جرى بعده سببا في وقوع الملحمة .

الملحمة وفتح القسطنطينية

والملحمة معركة كبيرة هائلة تقع بين المسلمين والصليبيين[2] ، وسببها هو السبب الذي أشار إليه الحديث السابق ، وقد جاء أكثر من حديث يصف هذه المعركة وهولها ، وكيف يكون صبر المسلمين فيها ، ثم يكون النصر لهم على

---

(١) مشكاة المصابيح : (١٨/٣) ، حديث رقم : (٥٤٢٨) ، وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني : إسناده صحيح .

(٢) تدل الأحاديث النبوية أن الروم يكونون في آخر الزمان أكثر الناس عددا ، ففي مسند أحمد وصحيح مسلم عن المستورد أن الرسول ﷺ قال : « تقوم الساعة والروم أكثر عددا » صحيح الجامع الصغير : (٥١/٣) .

أعدائهم ، ويلاحظ أنه يكون في صفوف المسلمين أعداد كبيرة من النصارى الذين أسلموا وحسن إسلامهم ، ففي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق ، أو بدابق[1] ، فيخرج لهم جيش من المدينة ، من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا ، والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم ، فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا ، ويقتل ثلث أفضل الشهداء عند الله ، ويفتتح الثلث ، لا يفتنون أبدا ، فيفتتحون قسطنطينية[2] ، فبينما هم يقتسمون الغنائم ، قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح قد خلفكم في أهليكم ، فيخرجون وذلك باطل ، فإذا جاؤوا الشأم خرج ، فبينما هم يعدُّون للقتال ، يسوون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم ﷺ فَأَمَّهم ، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه في حربته »[3] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ في حديث آخر عن هول تلك المعركة ،وعن الفدائية التي تكون في صفوف المسلمين ، حتى أن مجموعات من المسلمين يتبايعون على القتال حتى النصر أو الموت ثلاثة أيام متوالية ، ويبدو أن أعداد المسلمين في تلك الأيام قليلة ، بدليل أن المسلمين ينتصرون عندما يصلهم المدد من بقية أهل الإسلام ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود ، قال : « إن الساعة لاتقوم ، حتى لا يقسم ميراث ، ولا يفرح بغنيمة ، ثـمَّ قال بيده هكذا (ونحاها

---

(١) موضعان بالشام قرب حلب .

(٢) هذا فتح آخر غير الذي تمَّ على يد محمد الفاتح .

(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية ، (٤/٢٢٢١) رقم الحديث : (٢٨٩٧) .

نحو الشام) ، فقال : عدو يجمعون لأهل الإسلام ، ويجمع لهم أهل الإسلام[1] ، قلت : الروم تعني[2] ؟ قال : نعم ، وتكون عند ذاكم القتال رَدَّةٌ شديدة ، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفنى الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت ، لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون ، حتى يحجز بينهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفني الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت ، لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون حتى يمسوا ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفنى الشرطة ، فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام ، فيجعل الله الدبرة عليهم ، فيقتلون مقتله ـ إما قال : لا يرى مثلها ، وإما قال : لم ير مثلها ـ حتى إن الطائر ليمر ، بجنباتهم ، فما يخلفهم حتى يخرّ ميتا ، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة ، فلا يجد منه بقي إلا الرجل الواحد ، فبأي غنيمة يفرح ؟ أو أي ميراث يقاسم ؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك ، فجاءهم الصريخ ، إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم ، فيرفضون مافي أيديهم ، ويقبلون ، فيبعثون عشرة فوارس طليعة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف أسماءهم ، وأسماء آبائهم ، وألوان خيولهم ، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ »[3] .

وفتح القسطنطينية المذكور في حديث الملحمة الذي سقناه أولا جاء عنه شيء من التفصيل في حديث مسلم الذي يرويه أبو هريرة أيضا ، قال : قال النبي ﷺ :

---

(١) أي للحرب والقتال ، وهذا إنما يكون بعد غدر الروم المشار إليه في الحديث السابق .

(٢) القائل هو راوي الحديث عن عبدالله بن مسعود ، وهو يُسير بن جابر .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب إقبال الروم في كثرة القتل ، (٤/٢٢٢٣) ورقمه : (٢٨٩٩) .

« سمعتم بمدينة جانب منها في البر ، وجانب منها في البحر[١] قالوا : نعم ، يا رسول الله ، قال : لاتقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا من بني إسحاق[٢] فإذا جاؤوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح ، ولم يرموا بسهم ، قالوا : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، فيسقط أحد جانبيها » .

قال ثور[٣] : لا أعلمه إلا قال : « الذي في البحر ، ثم يقولون الثانية : لا إله إلا الله والله أكبر ، فيسقط جانبها الآخر ، ثم يقولون الثالثة : لا إله إلا الله والله أكبر ، فيفرج لهم ، فيدخلوها ، فيغنموا ، فبينما هم يقتسمون الغنائم ، إذ جاءهم الصريخ ، فقال : إن الدجال قد خرج ، فيتركون كل شيء ويرجعون »[٤] .

---

(١) ذهب العلماء إلى أن هذه المدينة هي القسطنطينية ، وإن لم يسمها الرسول ﷺ ، وقد خطر ببالي أن هذه المدينة قد تكون البندقية في إيطاليا ، فإن جزءا كبيرا من بيوتها مبني في داخل البحر ، وجزء في البر ، وقد نظرت إلى المدينتين خلال زيارتي لكل واحدة منها فرأيت البندقية أقرب إلى المراد بالحديث والله أعلم .

(٢) يقول النووي في شرحه على مسلم (١٨/٤٤) : قال القاضي : كذا هو في جميع أصول صحيح مسلم من بني إسحاق ، قال : قال بعضهم المعروف المحفوظ من بني إسماعيل وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه لأنه إنما أراد العرب . . » ، أقول وليس في هذا اشكال إن شاء الله تعالى ، فإن هذا الدين للناس جميعا ، والله يعطي ملكه من يشاء ، فقد غزا محمد الفاتح القسطنطينية بعد النووي بأكثر من ثلاثمائة سنة ، وكان جنوده أكثرهم من غير العرب ، فلا يستبعد أن يحصل مثل هذا مرة أخرى ، وفي حديث الملحمة السابق ما يدل عليه ، فإن الروم يقولون للمسلمين : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا .

(٣) هو ثور بن زيد الدِّيلي ، أحد رواة الحديث .

(٤) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، (٤/٢٢٣٨) ، ورقمه : (٢٩٢٠) .

المطلب الرابع
القحط والمجاعة قبل خروج الدجال

يبتلي الناس قبيل خروج الدجال بلاءً شديدا ، فتمنع السماء القطر ، وتحبس الأرض النبات ، ففي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة أن الرسول ﷺ قال : « إن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد ، يصيب الناس فيها جوع شديد ، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها ، ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها ، ثمَّ يأمر السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها ، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها ، ثمَّ يأمر السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله ، فلا تقطر قطرة ، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله ، فلا تنبت خضراء ، فلا يبقى ذات ظلف ، إلا هلكت إلا ما شاء الله قيل : فما يُعيش الناس في ذلك الزمان ؟ قال : التهليل ، والتكبير ، والتحميد ، ويجزيء ذلك عليهم مجزأة الطعام »[1] .

المطلب الخامس
صفات الدجال وعلاماته

يدعي الدجال الربوبية ، ويأتي من الأعمال الخارقة ما يروّج به باطله ، حتى أن الرجل يأتيه ظانًّا أن أمره لن يخفى عليه ، وأن باطله لن يروج عليه ، فعندما يرى ما عنده من مخاريق يتبعه ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فوالله إن الرجل

---

(١) صحيح الجامع : (٦/٢٧٧) ورقمه : (٧٧٥٢) .

ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه ، مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات »[1] .

ومن نظر في أمر الدجال نظر معتبر علم يقينا أنه مبطل ، وأن صفات الربوبية غير متحققة فيه ، فهو بشر مسكين عاجز على الرغم مما يجري على يديه ، يأكل ويشرب وينام ، ويتبول ويتغوط ، ومن كان هذا حاله كيف يكون إلها معبودا ، وربا للكائنات وهو محتاج إليها !!

ومع وضوح ذلك فإن رسول الله ﷺ أخبرنا شيئا كثيرا عن صفاته وأحواله كي يعرفه المؤمنون الذين يخرج في عصرهم ، وكي يستطيعوا مواجهته ولا يغتروا بباطله .

صفات عامة

وصفه الرسول ﷺ وصفا يبرز شخصيته ويحدد معالم جسمه ، ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر أن الرسول ﷺ رأى الدجال في الرؤيا ، وجاء في وصفه له : « رجل جسيم ، أحمر ، جعد الرأس ، أعور العين ، كأن عينه عنبة طافية ، . . . أقرب الناس به شبها ابن قطن من خزاعة »[2] .

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا ، إن المسيح الدجال رجل قصير ، أفحج ، جعد ، أعور ، مطموس العين ، ليست

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٥٤) ، ورقم الحديث : (٧٨٤٦) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/٩٠) .

بناتئة ولا حجراء ، فإن ألبس عليكم ، فاعلموا أن ربكم ليس بأعور ، وأنكم لن تروا ربكم »[1] .

وفي صحيح ابن حبان ، ومسند أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الدجال أعور ، هجان أزهر (وفي رواية : أقمر) ، كأن رأسه أصلة ، أشبه الناس بعبد العزي بن قطن ، فإمّا هَلَكَ الهُلَّك ، فإن ربكم ليس بأعور »[2] .

عور الدجال

ركز الرسول ﷺ على وصف عيني الدجال ، لأن الدجال مهما تخلص من شيء من صفاته ، فإنه لايستطيع أن يتخلص من عينيه ، والعينان ظاهرتان بارزتان يراهما كل أحد ، وبهما صفات واضحة لا تخفى ، فقد أشارت الأحاديث السابقة إلى عيوب في عينيه ، أوضحها أنه أعور ، وقد جاء في بعض الأحاديث أن العين العوراء هي اليمنى ، وجاء في أحاديث أخرى أنها اليسرى ، وكونها اليمنى أرجح ، فأحاديثها مما اتفق على إخراجه البخاري ومسلم ، وشبه الرسول ﷺ تلك العين بالعنبة الطافئة ، وفي حديث آخر وصف عينه اليمنى بكونها عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخاعة في حائط مجصص » .

---

(1) صحيح الجامع الصغير : (٢/٣١٨) ، ورقمه (٢٤٥٥) ، والأفحج الذي به فحج وهي طريقة في المشي معروفة ، سببها عيب في الخلقة ، إما إعوجاج في الساقين ، أو تباعدفي الفخذين ، أو غير ذلك ، وقوله (مطموس العين) ممسوحها كما جاء مبينا في أحاديث أخرى ، و(الحجراء) : الغائرة .

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/١٩٠) ورقم الحديث : (١١٩٣) ، وقال الشيخ ناصر فيه : « صحيح على شرط مسلم » ، و(الهجـان) : الأبيـض ، بمعناه الأزهر ، وهذا لا ينافي كونه أحمر ، فإن الأبيض يشرب بالحمرة ، فيوصف بهذا وهذا ، و (الأقمر) الذي لونه لون الحمار الأقمر أي الأبيض ، و (أصله) هي الحية العظيمة الضخمة . و (الهلك) جمع هالك أي فإن هلك بسببه كثير من الجهلة الضالون . . . فإن ربكم ليس بأعور .

ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ قال عن الدجال : « أعور العين اليمنى ، كأنها عنبة طافية »[1] .

وفي حديث أبي سعيد عند أحمد : « وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى ، كأنها نخاعة في حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري »[2] .

وهي مع ذلك ممسوحة كما سبق بيانه ، ففي صحيح مسلم : « الدجال ممسوح العين »[3] .

وقد وجه النووي الروايات توجيها آخر ، فهو يرى أن جميع الروايات التي وصفت عينيه كلتاهما بالعور روايات صحيحة ، فالعور معناه في اللغة : العيب ، وعينا الدجال معيبتان كلتاهما ، فقد ورد أن العوراء هي اليمنى ، وورد أن العوراء هي اليسرى ، وورد أن إحداهما طافئة بالهمز أي لا ضوء فيها ، وورد أن الأخرى طافية بلا همزة ، أي ظاهرة ناتئة ، فعيناه على ما حققه النووي إحداهما لا يرى بها لذهاب نورها وهذه ممسوحة غير ناتئة ولا غائرة ، والأخرى لم يذهب نورها ولكنها معيبة بعيب آخر وهو ظهورها وبروزها[4] ، وقد جاء في إحدى الروايات عند مسلم أن العين التي ذهب ضوؤها وهي الممسوحة عليها ظفرة غليظة ، « إن الدجال ممسوح العين ، عليها ظفرة غليظة »[5] ، والظفرة الغليظة جلدة تغشى البصر ، وقال الأصمعي : لحمة تنبت عند المآقي .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/ ٩٠) ، ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، (٤/ ٢٢٤٧) .
(٢) فتح الباري : (١٣/ ٩٨) .
(٣) صحيح مسلم : كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/ ٢٢٤٨) ، ورقمه (٢٩٣٣) .
(٤) راجع شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٦١) .
(٥) صحيح مسلم ، كتاب الفتن : (٤/ ٢٢٤٩) ، ورقم الحديث : (٢٩٣٤) .

وقد وصف لنا الرسول ﷺ عينه التي يرى بها ، فقال : « الدجال عينه خضراء كالزجاجة » رواه أحمد وأبو نعيم بإسناد صحيح[1] .

مكتوب بين عينيه كافر

وهناك علامة أعلم الله بها الدجال يعرفها فيه المؤمنون دون غيرهم ممن طمس الله بصائرهم ، وهذه العلامة كتابة بين عينيه نصها « ك ف ر » أو « كافر » ففي صحيح البخاري عن أنس عن النبي ﷺ ، قال : « ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، وإن بين عينيه مكتوب كافر »[2] .

وفي صحيح مسلم مثل رواية البخاري ، إلا أنه قال : « مكتوب بين عينيه » : « ك ف ر »[3] وفي صحيح ابن خزيمة وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي أمامة : « وأنه مكتوب بين عينيه : كافر ، يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب »[4] وفي صحيح مسلم : « إنه مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه من كره عمله ، أو يقرؤه كل مؤمن »[5] .

« والصحيح الذي عليه المحققون ـ كما يقول النووي رحمه الله تعالى ـ أن هذه الكتابة على ظاهرها ، وأنها كتابة حقيقة جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله ، ويظهرها الله تعالى لكل مسلم كاتب

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٤٧٧) ورقم الحديث (١٨٦٣) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/٩٠) .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، (٤/٢٢٤٨) ، ورقم الحديث (٢٩٣٣) .
(٤) صحيح الجامع : (٦/٢٧٤) ورقمه : (٧٧٥٢) .
(٥) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر ابن صياد ، (٤/٢٢٤٥) .

وغير كاتب ، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته ، ولا امتناع في ذلك ، وذكر القاضي عياض فيه خلافا ، منهم من قال هي كتابة حقيقة كما ذكرنا ، ومنهم من قال : هي مجاز ، وإشارة إلى سمات الحدوث عليه ، واحتج بقوله يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب وهذا مذهب ضعيف »[1] .

ليس له عقب

أخبر الرسول ﷺ أن الدجال « عقيم لا يولد له » رواه مسلم في صحيحه[2] .

المطلب السادس
بطلان دعواه الربوبية

إذا كانت تلك صفات الدجال ، وهي صفات بها نقص كبير ، فكيف يصح لهذا المخلوق الضعيف دعوى الربوبية ، إنه يدعي أنه رب ا لناس ، ورب الناس لا يرى في الدنيا ، يقول ﷺ : « تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت »[3] ، ثم هو غير سويّ الخلقة ، فيه عيوب لا تخفى ، منها عوره ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : « إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور ، وأشار بيده إلى عينيه ـ وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية »[4].

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/٦٠) .

(٢) صحيح مسلم : (٤/٢٢٤٢ ـ ٢٢٤٣) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، (٤/٢٢٤٥) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ فتح الباري : (١٣/٣٨٩) .

ومن صفاته المعيبة في الأحاديث أنه أفحج ، والفحج « تباعد مابين الساقين » ، أو الفخذين ، وقيل تداني صدور القدمين ، مع تباعد العقبين ، وقيل هو الذي في رجله اعوجاج »[1] .

وصدق ابن العربي في قوله : «في اختلاف صفات الدجال بما ذكر من النقص بيان أنه لا يدفع النقص عن نفسه كيف كان ، وأنه محكوم عليه في نفسه »[2] . ومراده أنه لو كان ربا لأزال النقص الذي في نفسه ، فعدم إزالته دليل على أنه مربوب مقهور لايستطيع أن يتخلص من عيوبه .

وتركيز الرسول ﷺ على كونه أعور « لكون العور أثر محسوس يدركه العالم والعامي ، ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية »[3] ، وإلا فإن أصحاب العلم يمكن أن يدركوا أمره ، ويصلوا إلى حقيقة دعواه .

المطلب السابع
إمكانات الدجال التي تسبب الفتنة

يدعي الدجال الألوهية ، ويعطى من الإمكانات أمورا مذهلة تفتن الناس فتنة عظيمة ، ومن ذلك .

ـ سرعة انتقاله في الأرض :

ففي حديث النواس بن سمعان في صحيح مسلم أن النبي ﷺ سئل عن

---

(١) فتح الباري : (١٣/٩٧) .
(٢) فتح الباري : (١٣/٩٨) .
(٣) فتح الباري : (١٣/٩٦) .

إسراع الدجال في الأرض ، فقال : « كالغيث استدبرته الريح . . »[1] وقد أخبر الرسول ﷺ أنه سيجول في أقطار الأرض ولا يترك بلدا إلا دخله إلا مكة والمدينة ، ففي حديث أنس في الصحيحين « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة »[2] .

وفي حديث أبي أمامة عند ابن ماجة وابن خزيمة والحاكم : « وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه ، وظهر عليه ، إلا مكة والمدينة ، لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلته »[3] .

٢ ـ جنته وناره :

ومما يفتن الدجال به الخلق أن معه ما يشبه الجنة والنار ، أو معه ما يشبه نهرا من ماء ، ونهرا من نار ، وواقع الأمر ليس كما يبدو للناس ، فإن الذي يرونه ناراً إنما هو ماء بارد ، وحقيقة الذي يرونه ماء بارداً نار .

ففي صحيح مسلم عن حذيفة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « معه (أي الدجال) جنّة ونار ، فناره جنةٌ ، وجنته نار »[4] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن حذيفة أيضا عن النبي ﷺ قال في الدجال : « إن معه ماءً ونارا ، فناره ماء بارد ، وماؤه نار » زاد في رواية مسلم : « فلا تهلكوا »[5] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٢٢٥٢/٤) ، ورقمه (٢٩٣٧) .
(٢) صحيح الجامع الصغير ، (٩٩/٥) ، ورقم الحديث (٥٣٠٩) .
(٣) صحيح الجامع الصغير ، (٢٧٥/٦) ، ورقمه : (٧٧٥٢) .
(٤) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، (٢٢٤٨/٤) ورقم الحديث (٢٩٣٤) .
(٥) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (٩٠/١٣) ، ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، (٢٢٤٩/٤) ورقم الحديث (٢٩٣٤) .

وفي رواية عند مسلم في صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « لأنا أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران يجريان ، أحدهما : رأى العين ماء أبيض ، والآخر : رأى العين نار تأجج ، فإمّا أدركنّ أحد ، فليأت الذي يراه نارا وليغمض ، ثم ليطأطيء رأسه فيشرب منه ، فإنّه ماء بارد »[1] .

وفي رواية أخرى في صحيح مسلم عن حذيفة أيضا : « إن الدجال يخرج ، وإن معه ماءً ونارا ، فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق ، وأمّا الذي يراه الناس نارا ، فماء بارد عذب ، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه نارا ، فإنه ماء عذب طيب »[2] .

وواضح من النصوص أن الناس لا يدركون مامع الدجال حقيقة ، وأن ما يرونه لايمثل الحقيقة بل يخالفها ، ولذلك فقد جاء في بعض الأحاديث في صحيح مسلم : « وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار ، فالتي يقول : إنها الجنة هي النار »[3].

٣ ـ استعانته بالشياطين :

لاشك أن للدجال استعانة بالشياطين ، ومن المعلوم أن الشياطين لاتخدم إلا من يكون في غاية الإفك والضلال ، والعبودية لغير الله ، ففي سنن ابن ماجة وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « وإن من فتنته أن يقول للأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك ،

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الفتن ؛ باب ذكر الدجال ، (٤/٢٢٤٩) ، ورقم الحديث : (٢٩٣٤) .
(٢) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، (٤/٢٢٥٠) (٢٩٣٥) .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، حديث رقم : (٢٩٣٦) .

أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطان في صورة أبيه وأمّه ، فيقولان : يا بني اتبعه ، فإنه ربك »[1] .

٤ ـ استجابة الجماد والحيوان لأمره :

ومن فتنته التي يمتحن الله بها عباده أنه يأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، ويدعو البهائم فتتبعه ، ويأمر الخرائب أن تخرج كنوزها المدفونة فتستجيب ، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان ، أن النبي ﷺ ، قال : « فيأتي على القوم فيدعوهم ، فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم ، أطول ما كانت ذرا ، وأسبغه ضروعا ، وأمده خواصر ، ثمّ يأتي القوم ، فيدعوهم ، فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ، ليس بأمرهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل »[2] .

٥ ـ قتله ذلك الشاب ثم إحياؤه إياه :

ومن فتنته أنه يقتل ذلك المؤمن فيما يظهر للناس ثم يدعي أنه أحياه ، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثا طويلا عن الدجال ، فكان فيما يحدثنا أنه قال : « يأتي الدجال ـ وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة ـ فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة ، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ، أو من خيار الناس ، فيقول : أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه ، فيقول الدجال ، أرأيتم إن قتلت هذا ثمّ أحييته ، هل تشكون في

(١) صحيح الجامع الصغير ، (٢٧٤/٦) ، ورقمه (٧٧٥٢) .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٢٢٥٢/٤) ، ورقمه (٢٩٣٧) ويعاسيب النحل ، هي ذكور النحل ، وقيل جماعة النحل .

الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ، ثم يحييه ، فيقول : والله ما كنت فيك أشدَّ بصيرة مني اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله ، فلا يسلط عليه »[1] .

ورواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أيضا بلفظ « يخرج الدجال ، فيتوجه قبله رجل من المؤمنين ، فتلقاه المسالح[2] : مسالح الدجال ، فيقولون له : أين تعمد ؟ فيقول : أعمد إلى هذا الذي خرج . قال : فيقول له : أوما تؤمن بربنا ؟ فيقول : ما بربنا خفاء ، فيقولون : اقتلوه ، فيقول بعضهم لبعض : أليس قدنهاكم أن تقتلوا أحدا دونه ؟ قال : فينطلقون به إلى الدجال ، فإذا رآه المؤمن ، قال : يا أيها الناس ، هذا المسيح الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ . قال : فيأمر به الدجال فيشبح[3] ، فيقول : خذوه وشجوه ، فيوسع ظهره وبطنه ضربا ، قال : فيقول : أوما تؤمن بي ؟ قال : فيقول : أنت المسيح الكذاب ، قال : فيؤمر به فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه . قال : ثم يمشي الدجال بين القطعتين ، ثم يقول له : قم ، فيستوي قائما ، قال : ثم يقول له : أتؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة . قال : ثم يقول : يا أيها الناس ، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس . قال : فيأخذه الدجال ليذبحه ، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً ، فلا يستطيع إليه سبيلا . قال: فيأخذ بيديه ورجليه ، فيقذف به ، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار ، وإنما ألقى في الجنة . قال : فقال رسول الله ﷺ : « هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين »[4] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب : لا يدخل الدجال المدينة ، فتح الباري : (١٣/١٠١).ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب صفة الدجال ، (٤/٢٢٥٦) ورقم الحديث : (٢٩٣٨) ولفظ الحديث للبخاري .

(٢) هم المراقبون والخفراء الذين يحملون السلاح في مراكز المراقبة .

(٣) يمد على بطنه .

(٤) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب في صفة الدجال ، (٤/٢٢٥٦) ، ورقم الحديث : (٢٩٣٨) .

المطلب الثامن
مكان خروجه

يخرج الدجال من المشرق ، من بلاد فارسية يقال لها : خراسان ، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي وابن ماجة والحاكم وأحمد والضياء في المختارة ، عن أبي بكر الصديق قال : حدثنا رسول الله ﷺ : « إن الدجال يخرج من أرض بالشرق ، يقال لها : خراسان ، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرَّقة »[1] .

ولكن ظهور أمره للمسلمين يكون عندما يصل إلى مكان بين العراق والشام ، ففي حديث في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان يرفعه : « إنه خارج خلة بين الشام والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالا ، يا عباد الله فاثبتوا »[2] والخلة مابين البلدين ، كما يقول النووي .

المطلب التاسع
مدة مكثه في الأرض

سأل الصحابة الرسول ﷺ عن المدة التي يمكثها الدجال في الأرض ، فقالوا : « وما لبثه في الأرض » قال : أربعون يوما ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم . قلنا : يا رسول الله : فذاك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره » أخرجه مسلم في

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/١٢٢) ورقم الحديث (١٥٩١) ، وقال الشيخ ناصر : وقال الحاكم صحيح الأسناد ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/٢٢٥٢) حديث رقم (٢٩٣٧) .

صحيحه وأبو داود في سننه ، عن النواس بن سمعان[1] .

وأجابة الرسول ﷺ عن سؤال الصحابة : هل تكفيهم خمس صلوات في الأيام التي هي كسنة أو كشهر أو أسبوع تدل على أن اليوم يطول حقيقة حتى يصبح سنة ، أو شهرا أو أسبوعا ، وليس مجازا .

المطلب العاشر
أتباع الدجال

المسيح الدجال الأعور الكذاب هو الملك الذي ينتظر اليهود خروجه ، ليحكموا العالم في عهده ، ففي مسند أحمد عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه ، أن الرسول ﷺ قال : « أكثر اتباع الدجال اليهود والنساء »[2] . وفي حديث أنس بن مالك الذي رواه مسلم في صحيحه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا ، عليهم الطيالسة »[3] .

ويذكر أبو نعيم أن إحدى القرى التابعة لمدينة أصبهان كانت تدعى : (اليهودية) ، لأنها كانت تختص بسكنى اليهود ، ولم تزل كذلك إلى زمن أيوب بن زياد أمير مصر في زمن المهدي بن المنصور العباسي ، فسكنها المسلمون ، وبقيت لليهود منها قطعة[4] .

---

(١) جامع الأصول : ٣٤٥/١٠ ، رقم الحديث : (٧٨٣٩) ، وهو في مسلم في كتاب الفتن : (٢٢٥٢/٤) ورقم الحديث (٢١٣٧) .
(٢) مسند أحمد : (٢١٦/٤ ـ ٢١٧) .
(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب في بقية من أحاديث الدجال ، (٢٢٦٦/٤) ورقم الحديث (٢٩٤٤) ، والطيالسة جمع طيلسان ، والطيلسان أعجمي معرب ، وهو ثوب يلبس على الكتف ، يحيط بالبدن ، ينسج للبس ، خال من التفصيل والخياطة .
(٤) لوامع الأنوار البهية : (١٠٧/٢) .

واسم الدجال عند اليهود المسيح بن داود ، وهم يزعمون أنه يخرج آخر الزمان ، فيبلغ سلطانه البر والبحر ، وتسير معه الأنهار ، وهم يزعمون أنَّه آية من آيات الله ، يرد إليهم الملك[1] ، وقد كذبوا في زعمهم ، بل هو مسيح الضلالة الكذاب ، وأمّا مسيح الهدى عيسى بن مريم فإنه يقتل الدجال مسيح الضلالة كما يقتل أتباعه من اليهود .

المطلب الحادي عشر
حماية المدينة ومكة من الدجال

يقصد الدجال المدينة المنورة فلا يستطيع دخولها ، ذلك أن الله حمى مكة والمدينة من الدجال والطاعون ، ووكل حفظها إلى ملائكته ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة يرفعه : « على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال »[2] ، وروى البخاري أيضا عن أنس يرفعه : « لا يدخل المدينة رعب المسيح ، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان »[3] .

وفي سنن الترمذي ، ومسند أحمد عن أبي هريرة « يأتي المسيح من قبل المشرق ، وهمته المدينة ، حتى إذا جاء دُبُر أحد تلقته الملائكة ، فضربت وجهه قبل الشام ، هنالك يهلك ، هنالك يهلك » وقال الترمذي : حديث صحيح[4] .

---

(١) لوامع الأنوار البهية : (١١٢/٢) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لايدخل الدجال المدينة . فتح الباري : (١٠١/١٣) .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : فتح الباري : (٩٠/١٣) .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٧٢/٤) ، ورقمه (١٧٧١) ، وقال المحقق : وإسناده على شرط مسلم ، وقد أخرجه مسلم مفرقا في موضعين .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة ، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة حافين ، تحرسها ، فينزل بالسبخة[1] ، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق »[2] .

وفي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ : « وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه ، إلا مكة والمدينة ، لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف ، صلته ، حتى ينزل عند الضريب الأحمر ، عند منقطع السبخة ، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، فلا يبقى فيها منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، فتنفي الخبيث منها ، كما ينفي الكير خبث الحديد ، ويدعى ذلك اليوم الخلاص ، قيل فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم يومئذ قليل . . . »[3] .

المطلب الثاني عشر
طريق النجاة منه

سبق أن بينا أن المسلمين قبيل خروج الدجال تكون لهم قوة كبيرة ، ويخوضون حروبا هائلة ، يخرجون منها منتصرين ، فيأتي الدجال للقضاء على القوة الإسلامية التي تكون قد هزمت أقوى دولة في ذلك الوقت وهم الروم ، ويكون المسلمون قد استعادوا القسطنطينية ، وفتحوها ، ويصرخ الشيطان بهم أن الدجال

---

(١) السبخة:الأرض الرملية التي لا تنبت لملوحتها ، وبعض أراضي المدينة كذلك .
(٢) صحيح الجامع : (٥/٩٩) ، ورقمه (٥٣٠٦) .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٧٥) ورقمه : (٧٧٥٢) .

قد خلفهم في ذراريهم ، فيتركون الغنائم ، ويعودون إلى ديارهم ، ثم يخرج الدجال ، فلا يضع المسلمون سلاحهم ، ولذلك فإن عيسى عندما ينزل يجد المسلمين « يعدون العدة للقتال ، ويسوون الصفوف »[1] . ولاشك أنَّ على كل مسلم في ذلك الحين أن ينضم إلى القوة الإسلامية الحاملة لراية الجهاد في سبيل الله ، وأن يثبت على الحق مهما اشتد البلاء ، وهذا ما أوصانا به رسولنا ﷺ ، وهو يحدثنا عن خروج الدجال ، حيث يقول : « إنه خارج خَلَّة بين الشام والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالا ، يا عباد الله اثبتوا »[2] .

ولا يجوز للمسلم أن يأتيه وإن كان واثقا من نفسه ، فإن معه من الشبهات ما يزلزل الإيمان ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه ، مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات »[3] .

ولابأس على الذين لا يطيقون مقاومته أن يفروا من طريقه ، وهذا ما يفعله كثير من الناس في ذلك الزمان ، ففي صحيح مسلم عن أم شريك ، قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : « ليفرَّن الناس من الدجال في الجبال »[4] . فإن اضطر المؤمن إلى مواجهته ، فعليه أن يقوم بالأمر ، ويصدع بالحق ، ويحسن الحجاج ، ففي الحديث : « إن يخرج وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم » وقد ترك رسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم ، (٤/٢٢٢١) ورقم الحديث : (٢٨٩٧) .

(٢) رواه مسلم ، (٢/٢٢٥٢) رقم الحديث : (٢٩٣٧) .

(٣) جامع الأصول : (١٠/٣٥٤) ورقم الحديث : (٧٨٤٦) .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب في بقية أحاديث الدجال ، (٤/٢٢٦٦) ، ورقم الحديث : (٢٩٤٤) .

من العلم ما يشكف عن بصيرتنا فيه ، فهو جسم مرئي ، يأكل ويشرب ، والله لا يرى في الدنيا ، والله منزه عن الطعام والشراب ، وهو معيب العين ، كما في الحديث « إنه شاب قطط ، عينه طافئة ، كأني مشبهه بعبد العزي بن قطن »[1] ، ومن كان كذلك فإن دعواه الألوهية والربوبية كذب وافتراء ولاشك ، وقد أمر الرسول ﷺ من أدركه أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف « فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف »[2] ، وفي حديث أبي أمامة : « وإن من فتنته أن معه جنّة ونارا ، فناره جنّة ، وجنته نار ، فمن ابتلى بناره فليستغث بالله ، وليقرأ فواتح الكهف . . . »[3] وقد جاء في الأحاديث الصحيحة « من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال »[4] وجاء في بعضها من أول سورة الكهف ، وفي بعضها من آخر سورة الكهف .

وقد يقال : لم كانت قراءة فواتح سورة الكهف ، وخواتمها أمانا من الدجال ؟

قال بعضهم : لأن الله أخبر في طليعة هذه السورة أن الله أمّن أولئك الفتية من الجبار الطاغية الذي يريد إهلاكهم ، فناسب أن من قرأ هذه الآيات وحاله كحالهم أن ينجيه كما أنجاهم .

وقيل : لأن في أولها من العجائب والآيات التي تثبت قلب من قرأها بحيث لا يفتن بالدجال ، ولا يستغرب ما جاء به الدجال ، ولم يلهه ذلك ، ولم يؤثر فيه .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/٢٢٥٢) ورقم الحديث (٢٩٣٧) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) رواه ابن ماجة والترمذي والحاكم بإسناد صحيح ، صحيح الجامع : (٦/٦٧٤) ، ورقمه (٧٧٥٢) .

(٤) النهاية لابن كثير : (١/١٥٤) وبعض هذه في السنن ، وبعضها في الصحاح .

ومما يعصم المسلم من الدجال أن يلجأ إلى أحد الحرمين الشريفين مكة أو المدينة ، فإن الدجال محرم عليه دخولها .

وقد ذكر لنا الرسول ﷺ كيف واجه ذلك الرجل الصالح الدجال ، وصدع في وجهه بالحق ، وكيف أنه لم يلن له بالقول ، كما سبق ذكر الأحاديث التي تكشف حقيقة ما معه مما يشبه الجنة والنار .

ومما ينجي العبد من الدجال الالتجاء إلى الله والاحتماء به منه ومن فتنته ، وقد جاءت النصوص النبوية آمرة المسلم بالاستعاذة بالله من فتنته ، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: « سمعت رسول الله ﷺ يستعيذ في صلاته من فتنة الدجال »[1] .

وكان الرسول ﷺ يتعوذ دائما بعد التشهد من فتنة الدجال ، فيقول : « اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال »[2] .

المطلب الثالث عشر
هلاكه والقضاء على فتنته
وإهلاك أتباعه من اليهود

سبق أن سقنا الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة بتمامه ، وفيه في آخره أن هلاك الدجال يكون على يد عيسى بن مريم عليه السلام « فبينما

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/ ٩٠) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب التعوذ بالله من عذاب القبر ، ورواه مسلم في صحيحه ، في باب ما يستعاذ منه في الصلاة .

هم (أي الجيوش الإسلامية) يعدُّون للقتال ، يسوّون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم ﷺ فأمهم ، فإذا رآه عدوّ الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه »[1] .

وفي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة بإسناد صحيح عن النبي ﷺ قال : « وإمامهم (أي إمام المسلمين الذين يعدون العدة لقتال الدجال) رجل صالح ، فبينا إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح ، فرجع ذلك الإمام ينكص ، يمشي القهقرى ليتقدم عيسى ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدم فصَلِّ ، فإنها لك أقيمت ، فيصلي بهم إمامهم ، فإذا انصرف[2] ، قال عيسى : افتحوا الباب ، فيفتحون ووراءه الدجال ، معه سبعون ألف يهودي ، كلهم ذو سيف محلى وساج ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فينطلق هاربا ، . . فيدركه عند باب لد[3] الشرقي ، فيقتله ، فيهزم الله اليهود ، فلا يبقى شيء مما خلق الله عز وجل يتواقى به اليهودي ، إلا أنطق الله ذلك الشيء ، لا حجر ، ولا شجر ، ولا حائط ، ولا دابة ـ إلا الغرقدة ، فإنها من شجرهم لا تنطق ـ إلا قال : يا عبدالله المسلم ، هذا يهودي ، فتعال فاقتله »[4] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبيء اليهودي من وراء الحجر

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية ، (٢٢٢١/٤) ورقم الحديث (٢٨٩٧) .
(٢) قال الشيخ ناصر في تعليقه على (صحيح الجامع : (٢٧٥/٦) : « فيه اختصار ، تقديره : فإذا انصرف إلى بيت المقدس ، والمسلمون فيه محصورون قال . . . كما يدل عليه بعض الأحاديث الأخرى . . . » .
(٣) (اللد) مدينة معروفة بفلسطين ، قرب مدينة الرملة .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٢٧٦/٦) ورقمه : (٧٧٥٢) .

والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبدالله ، هذا يهودي خلفي ، فتعال فاقتله ، إلّا الغرقد[1] ، فإنّه من شجر اليهود »[2] .

المطلب الرابع عشر
عقيدة أهل السنة في الدجال

قال النووي في شرحه لمسلم : « قال القاضي : هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده ، وأنه شخص ابتلى الله به عباده ، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله ، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه ، وجنته وناره ، ونهريه ، وإتباع كنوز الأرض له ، وأمره السماء أن تمطر ، فتمطر ، والأرض أن تنبت فتنبت ، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك ، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ، ولا غيره ، ويبطل أمره ، ويقتله عيسى ﷺ ، ويثبت الله الذين آمنوا . هذا مذهب أهل السنة ، وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافا لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة ، وخلافا للبخاري المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود ، ولكن الذي يدعى مخارف وخيالات ، لا حقائق لها ، وزعموا أنه لو كان حقا لم يوثق

---

(١) قال النووي في شرحه على مسلم (١٨/٤٥) : الغرقد : نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس ، وهناك يكون قتل اليهود ، وقال أبو حنيفة الدينوري : إذا عظمت العوسجة صارت غرقدة .

(٢) حديث قتال المسلمين اليهود رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب قتال اليهود فتح الباري : (٦/١٠٣) ومسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم (٢٩٢٢) ٤/٢٢٣٩ ، وقد روياه عن أبي هريرة وابن عمر من أكثر من طريق ، واللفظ الذي أثبتناه لفظ مسلم .

بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة ، فيكون ما معه كالتصديق له ، وإنما يدعي الإلهية ، وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ، ووجود دلائل الحدوث فيه ، ونقص صورته ، وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه ، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه ، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفا من أذاه لأن فتنته عظيمة تدهش العقول ، وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأرض ،فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ، ودلائل الحدوث فيه والنقص ، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة[١] » .

المطلب الخامس عشر
ابن صياد والدجال

ابن صياد رجل من يهود المدينة ، اسمه صاف ، كان شبيها بالدجال في كثير من صفاته ، وكان الرسول ﷺ مشككا في أمره ، وقد حاول الرسول ﷺ أكثر من مرة كشف أمره ومعرفة حقيقته ، وهذا يدلنا على أنه لم يوح في أمره شيء ، فقد روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قِبَلَ ابن صياد حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أطم[٢] بني مغالة ، وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم ، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده . ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد : « أتشهد أني رسول الله ؟» فنظر إليه ابن صياد ، فقال : أشهد أنك رسول الأميين . فقال ابن

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٥٨) .
(٢) الأطم : الحصن .

صياد لرسول الله ﷺ : « أتشهد أني رسول الله ؟ فرفضه رسول الله ﷺ ، وقال : « آمنت بالله وبرسله »[1] .

ثم قال له رسول الله ﷺ : « ماذا ترى ؟ » قال ابن صياد : يأتيني صادق وكاذب ، فقال له رسول الله ﷺ : « خلط عليك الأمر » .

ثم قال له رسول الله ﷺ : « إني قد خبأت لك خبيئا » ، فقال ابن صياد : هو الدخ ، فقال له رسول الله ﷺ : « اخسأ فلن تعدو قدرك » ، فقال عمر بن الخطاب : ذرني يا رسول الله ، أضرب عنقه ، فقال له رسول الله ﷺ : « إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإن لا يكنه فلا خير لك في قتله »[2] . وقد خرج إليه الرسول ﷺ مرة أخرى ، كما روى مسلم في صحيحه عقب الحديث السابق عن سالم بن عبدالله قال : سمعت عبدالله بن عمر يقول : انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ ، وأبي بن كعب الأنصاري إلى النخل التي فيها ابن صائد ، حتى إذا دخل رسول الله ﷺ النخل ، طفق يتقي بجذوع النخل ، وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئا[3] ، قبل أن يراه ابن صياد ، فرآه رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراش في قطيفة ، له فيها زمزمة[4] ، فرأت أم صائد رسول الله ﷺ ، وهو يتقي بجذوع النخل ، فقالت لابن صائد : يا صاف (وهو اسم ابن صياد) هذا محمد ، فثار ابن صياد ، فقال رسول الله ﷺ : « لو تركته لبيَّن »[5]

---

(١) قد يقال : كيف يدعي النبوة ، ويتركه الرسول ﷺ : فيجاب : لأنه قد كان بين الرسول ﷺ وبين اليهود عهد في تلك الأيام .

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٤٤) ورقمه (٢٩٣٠) .

(٣) أي يستغفله ليسمع منه شيئا يعرف به حقيقته .

(٤) القطيفة : كساء مخمل ، والزمزمة : صوت خفي لايكاد يفهم .
أي نهض من مضجعه .

(٥) رواه مسلم في صحيحه : (٤/٢٢٤٤) ورقمه (٢٩٣١) .

قال النووي في شرحه على مسلم في ابن صياد : « قال العلماء : وقصته مشكلة ، وأمره مشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره ، ولاشك في أنه دجال من الدجاجلة ، قال العلماء : وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ، ولا غيره ، وإنما أوحي إليه بصفات الدجال ، وكان في ابن صياد قرائن محتملة ، فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره ، ولهذا قال لعمر : « إن يكن هو فلن تستطيع قتله »[1] ، وقد كان عمر بن الخطاب يجزم بأن ابن صائد هو الدجال ، وكذلك عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، فقد روى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عمر أنه كان يقول : والله ما أشك أن ابن صائد هو المسيح الدجال[2] .

وقد نقل النووي عن البيهقي قوله : « ليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبي ﷺ لقول عمر ، فيحتمل أنه ﷺ كان كالمتوقف في أمره ، ثم جاءه البيان أنه غيره كما صرح به في حديث تميم »[3] .

وقد مكث ابن صائد بعد الرسول مدة من الزمان ، وادعى أنه أسلم ، ولكن الناس لم يثقوا بإسلامه ، وبقوا يتشككون في أمره ، هذا ابن عمر ـ كما يروي مسلم في صحيحه ـ يلقى ابن صائد مرتين ، فيقول لبعض من معه : هل تحدثون أنه هو؟ قال : لا ، والله . قال : قلت : كذبتني ، والله ، لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالا وولدا ، فكذلك هو زعموا اليوم ، قال ابن عمر : فتحدثنا ، ثم فارقته ، ثم لقيه ابن عمر لقية أخرى ، وقد نفرت عينه[4] ،

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/٤٦) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) شرح النووي على مسلم : (١٨/٤٨) .

(٤) نفرت ، ورمت ، ونتأت .

قال : فقلت : متى فعلت عينك ما أرى ؟ قال : لا أدري . قال : قلت : لا تدري وهي في رأسك ؟ قال : إن شاء الله خلقها في عصاك هذه ، قال فنخر كأشد نخير حمار[1] سمعت ، قال : فزعم أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت ، وأما أنا ، فوالله ما شعرت . وفي رواية أخرى في مسلم أن ابن عمر قال له قولا أغضبه ، فانتفخ حتى ملأ السِّكة[2] ، فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها ، فقالت له : رحمك الله ، ما أردت من ابن صائد ؟ أما علمت أن رسول الله ﷺ قال : « إنما يخرج من غضبة يغضبها »[3] .

ويروي مسلم أيضا عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا حجّاجا أو عمارا ومعنا ابن صائد ، قال فنزلنا منزلا ، فتفرق الناس ، وبقيت أنا وهو ، فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه ، قال : وجاء بمتاعه فوضعه مع متاعي ، فقلت : إن الحرّ شديد ، فلو وضعته تحت تلك الشجرة ، قال : ففعل ، قال : فرفعت لنا غنم ، فانطلق فجاء بعسّ[4] ، فقال : اشرب أبا سعيد . فقلت : إن الحر شديد ، واللبن حار . مابي إلاَّ أني أكره أن أشرب عن يده ـ أو قال آخذ عن يده ـ فقال[5] : أبا سعيد ، لقد هممت أن آخذ حبلا فأعلقه بشجرة ، ثم أختنق مما يقول لي الناس ، يا أبا سعيد ، من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار ، ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ : « هو كافر » وأنا مسلم ؟ أوليس قد قال رسول الله ﷺ : « هو

---

(١) النخير : صوت الأنف .

(٢) أي : الطريق .

(٣) صحيح مسلم : (٢٢٤٧/٤) ورقمه : (٢٩٣٢) .

(٤) القدح الكبير .

(٥) اي ابن صياد .

عقيم لا يولد له » وقد تركت ولدى بالمدينة ؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل المدينة ولا مكة » ، وقد أقبلت من المدينة ، وأنا أريد مكة ؟ »[1] .

ولكن هذه الأدلة التي ساقها ابن صياد اهتزت وفقدت تأثيرها في نفس أبي سعيد بعد أن تابع ابن صياد كلامه قائلا : « أما والله إني لأعلم الآن حيث هو ، وأعرف أباه وأمه» .قال : « وقيل له : أيسرك أنك ذاك الرجل ؟ فقال : لو عرض علي لما كرهت »[2] .

المطلب السادس عشر
الدجال في خبر تميم الداري

روى مسلم في صحيحه عن فاطمة بنت قيس ، أخت الضحاك بن قيس أنها سمعت منادي رسول الله ﷺ ينادي : الصلاة جامعة ، فخرجت إلى المسجد ، قالت : فصليت مع رسول الله ، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته ، جلس على المنبر وهو يضحك ، فقال : « ليلزم كل إنسان مصلاه » ، ثم قال : « أتدرون لم جمعتكم ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « إني ، والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ، ولكن جمعتكم ، لأن تميما الداري ، كان رجلا نصرانيا ، فجاء ، فبايع وأسلم . وحدثني حديثا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال » .

« حدثني ؛ أنه ركب في سفينة بحرية ، مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام ،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه : (٤/٢٢٤٢) ، ورقمه : (٢٤٢٧) .
(٢) المصدر السابق .

فلعب بهم الموج شهرا في البحر ، ثم أرفؤوا[1] إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس ، فجلسوا في أقرب السفينة[2] ، فدخلوا الجزيرة ، فلقيتهم دابة أهلب[3] كثير الشعر ، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر . فقالوا : ويلك ، ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة ، قالوا : وما الجساسة . قالت : أيها القوم ، انظروا إلى هذا الرجل في الدير ، فإنه إلى خبركم بالأشواق ، قال : لماسمت لنا رجلا فرقنا منها أن تكون شيطانة، قال : فانطلقنا سراعا ، حتى دخلنا الدير ، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقا ، وأشده وثاقا ، مجموعة يداه إلى عنقه ، مابين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد ، قلنا : ويلك ما أنت ؟ قال : قد قدرتم على خبري ، فأخبروني ما أنتم ؟ قالوا : نحن أناس من العرب ، ركبنا في سفينة بحرية ، فصادفنا البحر حين اغتلم[4] ، فلعب بنا الموج شهرا ، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه ، فجلسنا في أقربها ، فدخلنا الجزيرة ، فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر ، لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا : ويلك ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة ، قلنا : وما الجساسة ؟ قالت : اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير ، فإنه إلى خبركم بالأشواق ، فأقبلنا إليك سراعا ، وفزعنا منها ، ولم نأمن أن تكون شيطانة .

قال : فأخبروني عن نخل بيسان[5] ، قلنا عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : أسألكم عن نخلها ، هل يثمر ؟ قلنا : نعم . قال : أما إنه يوشك أن لا يثمر .قال : أخبروني عن بحيرة طبرية[6] . قلنا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل فيها ماء ؟ قالوا : هي كثيرة الماء . قال : أما إن ماءها يوشك أن يذهب .

---

(١) التجؤوا إليه .

(٢) أَقْرُب : جمع قارب .

(٣) أهلب : كثير الشعر غليظه .

(٤) اغتلم : هاج وجاوز حده المعتاد .

(٥) بيسان :إحدى مدن فلسطين .

(٦) بحيرة عذبة الماء في فلسطين .

قال : أخبروني عن عين زغر[1] . قالوا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل في العين ماء ؟ وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له : نعم ، هي كثيرة الماء ، وأهلها يزرعون من مائها . قال أخبروني عن نبي الأميين ما فعل ؟ قالوا : قد خرج من مكة ونزل يثرب . قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : كيف صنع بهم ؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه ، قال لهم : قد كان ذلك ؟ قلنا : نعم . قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه ، وإني مخبركم عني . إني أنا المسيح ، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج ، فأخرج فأسير في الأرض ، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة ، إلا مكة وطيبة[2] ، فهما محرمتان على كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدا منهما ، استقبلني ملك بيده السيف صلتا[3] ، يصدني عنها ، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها .

قالت : قال رسول الله ﷺ ، وطعن بمخصرتـه في المنبر : « هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة » يعني المدينة ، « ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟» فقال الناس نعم ، « فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت حدثتكم عنه وعن المدينة ومكة ، ألا أنه في بحر الشام أو بحر اليمن ، لابل من قبل المشرق ، ما هو[4] مـن قبل المشرق ، ما هو من قبل المشرق ما هو » . ، وأومأ بيده إلى المشرق ، قالت : فحفظت هذا من رسول الله ﷺ[5] .

---

(١) بلدة في الجانب القبلي من الشام .

(٢) المدينة .

(٣) أي : مسلولا .

(٤) قال النووي : قال القاضي : لفظة : (ماهو) زائدة ، صلة للكلام ، ليست بنافية ، والمراد إثبات أنه في جهة المشرق .

(٥) رواه مسلم في صحيحه : (٤/٢٢٦١) ورقم الحديث : ٢٩٤٢ .

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن ابن صياد لم يكن الدجال الأكبر ، وأن الدجال الأكبر محبوس في بعض جزائر البحور ، ولعله ـ كما يقول بعض أهل العلم ـ شيطان من الشياطين الذين حبسهم نبي الله سليمان ، إذ يبعد وجود بشر على قيد الحياة هذه الفترة الطويلة ، والله أعلم بالصواب .

المَبحث الثالث

نزول عيسى بن مريم

أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن اليهود لم يقتلوا رسوله عيسى بن مريم ، وإن ادعوا هذه الدعوى ، وصدقها النصارى ، والحقيقة أن عيسى لم يقتل ، ولكن الله ألقى شبهه على غيره ، أمّا هو فقد رفعه الله إلى السماء ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾[١] .

وأشار الحق في كتابه إلى أن عيسى سينزل في آخر الزمان ، وأن نزوله سيكون علامة دالة على قرب وقوع الساعة ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾[٢] ، كما أخبر أن أهل الكتاب في ذلك الزمان سيؤمنون به ، ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾[٣] .

وقد جاء تفصيل هذه النصوص في السنة النبوية ، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه عندما تشتد فتنة الدجال ، ويضيق الأمر بالمؤمنين في ذلك الزمان ، ينزل الله عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، وينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، فقد روى الطبراني في معجمه الكبير عن أوس بن أوس ، قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة النساء : ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٢) سورة الزخرف : ٦١ .

(٣) سورة النساء : ١٥٩ .

« ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق »[1] . وقد وصف لنا الرسول ﷺ حاله عند نزوله ،ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس بيني وبين عيسى نبي ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، ينزل بين ممصرتين ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل »[2] .

المطلب الأول
وقت نزوله

ويكون نزوله في وقت اصطف فيه المقاتلون المسلمون لصلاة الفجر ، وتقدم إمامهم للصلاة ، فيرجع ذلك الإمام طالبا من عيسى أن يتقدم فيؤمهم ، فيأبى ، ففي الحديث « وإمامهم (أي إمام الجيش الإسلامي) رجل صالح ، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح ، فرجع ذلك الإمام ينكص ، يمشي القهقري ليتقدم عيسى ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدم فصلِّ ، فإنها لك أقيمت ، فيصلي بهم إمامهم »[3] .

ويكون هذا في حال إعداد المسلمين لحرب الدجال ، ففي حديث أبي هريرة عند مسلم : « فبينما هم يعدون للقتال ، يسوّون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ،

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٦١/٦) ورقمه : (٨٠٢٥) ، وإسناده صحيح كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٩٠/٥) ورقم الحديث : (٥٢٦٥) .

(٣) رواه ابن ماجة ، وابن خزيمة ، والحاكم ، وإسناده صحيح ، انظر صحيح الجامع الصغير : (٦ / ٢٧٧) .

فينزل عيسى بن مريم ، فأمهم » ، ولفظه في كتاب الإيمان : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وأمكم »[1] . وليس المراد هنا في هذا الحديث أن عيسى أمهم في الصلاة ، فالحديث الأول يدل على رفض عيسى للتقدم ، وأنه قدم الإمام الذي أقيمت له الصلاة ، ومثله حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذا نزل بن مريم فيكم وإمامكم منكم »[2] وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم ، تعال صلِّ لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة »[3] .

المطلب الثاني
بم يحكم عيسى بعد نزوله ؟

النصوص السابقة صريحة في أن الإمام هو واحد من هذه الأمة ، أمّا رواية « فأمّكم » أو « أمهم » أي عيسى فليس المراد بها أنه أمهم في الصلاة ، بل المراد أنه حكَّم فيهم كتاب الله تبارك وتعالى ، أي أمهم بكتاب الله عز وجل ، ففي حديث

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية : (٢٢٢١/٤) ، حديث رقم : (٢٨٩٧) ، ورواه في كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى بن مريم : (١٣٦/١) ورقمه (١٥٥) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى بن مريم ، فتح الباري : (٤٩١/٦) ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان : (١٣٦/١٥) ، ورقم الحديث : (١٥٥) .

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ، (١٣٧/٤) ورقمه : (١٥٦) .

أبي هريرة عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمّكم منكم » وقد قال أحد رواة الحديث وهو ابن أبي ذئب للوليد بن مسلم[1] : « تدري ما أمّكم منكم » ؟ قال : تخبرني ، قال : فأمّكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنّة نبيكم ﷺ[2] .

والسبب في عدم تقدم عيسى بن مريم للإمامة هو الدلالة على أنه جاء تابعا لهذا النبي ﷺ ، حاكما بالقرآن لا بالإنجيل ، فإن شريعة القرآن ناسخة للشرائع قبلها ، وقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنو بمحمد ﷺ ويتابعوه إذا بعث وهم أحياء : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[3] ، فعيسى ينزل تابعا لرسولنا ﷺ محكما لشريعة القران ، ولذلك فإنه يصلى خلف ذلك الرجل الصالح ، وهذا فخر لهذه الأمة وأي فخر ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه أبو سعيد عن النبي ﷺ ، قال : « منا الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه » رواه أبو نعيم في كتاب المهدي[4] .

يقول النووي في رده على المكذبين بنزول عيسى الزاعمين أن نزوله لو كان حقا فإنه يكون مناقضا لقوله عليه السلام « لا نبي بعدي » ، وأنه يكون بذلك ناسخا لشرع الرسول ﷺ : « هذا استدلال فاسد ، لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أنه ينزل نبيا بشرع ينسخ شرعنا ، ولا في هذه الأحاديث ، ولا في

---

(١) هو رواي الحديث عن ابن أبي ذئب .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى : (١٣٧/٤) ، ورقمه : (١٥٦) .

(٣) سورة آل عمران : ٨١ - ٨٢ .

(٤) صحيح الجامع الصغير : (٢١٩/٥) ، حديث رقم : (٥٧٩٦) .

غيرها شيء من هذا ، . . . بل صح أنه ينزل حكما مقسطا . . . يحكُم شرعنا ، ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس »[1] .

المطلب الثالث
قضاء عيسى على الدجال

وأول عمل يقوم به عيسى هو مواجهة الدجال ، فبعد نزول عيسى يتوجه إلى بيت المقدس حيث يكون الدجال محاصرا عصابة المسلمين ، فيأمرهم عيسى بفتح الباب ، ففي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « فإذا انصرف ، قال عيسى : افتحوا الباب ، فيفتحون ووراءه الدجال ، معه سبعون ألف يهودي ، كلهم ذو سيف محلى وساج ، فإذا نظر إليه الدجّال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هاربا . . . ، فيدركه عند باب لد الشرقي ، فيقتله ، فيهزم الله اليهود . . »[2]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ أخبر عن نزول عيسى وصلاته بالمؤمنين ثم قال : « فإذا رآه عدو الله ، ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه في حربته »[3] .

والسر في ذوبان الدجّال أن الله أعطى لِنَفَسِ عيسى رائحة خاصة إذا وجدها الكافر مات منها ، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ في حديث طويل ومما قاله فيه : « فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم ، فينزل

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/٧٦) .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٧٥) ورقمه : (٧٧٥٢) .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية : (٤/٢٢٢١) ، ورقمه : (٢٨٩٧) .

عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين[1] ، واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان[2] كاللؤلؤ . فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة »[3] ، والسرّ في عدم ترك عيسى الدجال حتى يموت بنفسه ـ هو إنهاء أسطورة هذا المخلوق وفتنته ، فإن الناس إذا شاهدوا قتله وموته استيقنوا أنه عبد ضعيف مغلوب على أمره ، وأن دعواه كانت زوراً وكذباً .

المطلب الرابع
مهمة عيسى بعد القضاء على الدجال وإهلاك يأجوج ومأجوج

يقضي عيسى على الدجال وفتنته ، ويخرج يأجوج ومأجوج في زمانه ـ كما سيأتي بيانه ـ فيفسدون في الأرض إفسادا عظيما ، فيدعو عيسى ربه ، فيستجيب له ، ويصبحون موتى ، لا يبقى منهم أحد ، وعند ذلك يتفرغ عيسى للمهمة الكبرى التي أنزل من أجلها ، وهي تحكيم شريعة الإسلام ، والقضاء على المبادىء الضالة ، والأديان المحرفة ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل

---

(١) أي ثوبان مصبوغان بورس ثم زعفران .
(٢) الجمان حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار ، والمراد يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/٢٢٥٣) ، ورقمه : (٢٩٣٧) .

فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها »[1][2] .

وفي رواية عند مسلم عن أبي هريرة : « والله لينزلن ابن مريم حكما عدلا ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص ، فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليَدْعَوُنَّ إلى المال فلا يقبله أحد »[3] وفي صحيح مسلم في كتاب الفتن عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل الذي فيه ذكر الدجال ونزول عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وفي ختامه ذكر الرسول ﷺ دعاء عيسى ربه عندما يشتد عليهم الأمر ، فيستجيب الله ، ويهلك يأجوج ومأجوج ، ثم يقول : « ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[4] ، ونتنهم ،فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله عليهم طيرا كأعناق البخت[5] ، فتحملهم ، فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل مطرا ، لا يُكَنُّ منه بيت مدر[6] ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة[7]، ثم يقال للأرض : أنبتي

---

(١) إنما تكون السجدة أحب إلى أحدهم من الدنيا لكثرة رغبتهم في الخير بسبب اليقين الذي يحل في قلوبهم لرؤيتهم عيسى ، وما قبله من الآيات ، وإيقانهم بقرب الساعة .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى بن مريم ، فتح الباري : (٦/ ٤٦٠) ورواه البخاري في موضعين آخرين : الأول في كتاب المظالم ، باب كسر الصليب ، فتح الباري : (٥/ ١٢١) والثاني : في كتاب البيوع ، باب قتل الخنزير ، فتح الباري : (٤/ ٤١٤) . ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ، (٤/ ١٣٥) ، ورقمه (١٥٥) .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ، (٤/ ٣٥) ، ورقمه (١٥٥) .

(٤) أي دسمهم .

(٥) البخت : الجمال الخراسانية ، أعناقها طويلة .

(٦) بيت المدر : الطين الصلب .

(٧) الزلقة : المرآة ، أي تكون الأرض في صفائها ونقائها كالمرآة .

ثمرتك ، وردي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة[1] من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك في الرسل[2] ، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس[3] ، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ[4] من الناس »[5] .

المطلب الخامس
ما يستخلص من النصوص الواردة في شأن عيسى

١ ـ أن عيسى عليه السلام نازل لا محالة في آخر الزمان والنصوص في ذلك متواترة عن الرسول ﷺ[6] ، فالتكذيب بنزوله تكذيب للرسول ﷺ في خبره ، وخبر الرسول ﷺ صدق لا كذب فيه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى نزول عيسى ابن مريم في أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾[7] .

ولذلك فإن أبا هريرة لما أورد حديث نزول عيسى حكما عدلا . . .[8]

---

(١) العصابة : الجماعة .

(٢) الرسل : اللبن .

(٣) اللقحة : القريبة العهد بولادة وقيل : الناقة الحلوب . والفئام : الجماعة الكثيرة .

(٤) الفخذ : الجماعة من الأقارب ، وهم دون البطن ، والبطن دون القبيلة .

(٥) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/٢٢٥٤) ، ورقمة : (٢٩٣٧) .

(٦) وقد حمَّل الرسول ﷺ الذين يدركون عيسى أن يبلغوه عنه السلام ، ففي سنن النسائي بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من أدرك منكم عيسى بن مريم ، فليقرئه مني السلام » .

(٧) سورة النساء : ١٥٩ .

(٨) والحديث في صحيح البخاري وصحيح مسلم كما سبق بيانه .

قال في آخره : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وإن من أهل الكتاب . . ﴾ الآية[1] .

٢ ـ **أن عيسى يأتي ليحكِّم شريعة القرآن :**

وقد سبق أن بينا هذه المسألة ، والأدلة عليها .

٣ ـ **أنه يقضي على جميع الأديان ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام :**

ولذلك فإنه يكسر الصليب ، وهو رمز النصرانية المحرفة، ويقتل الخنزير الذي حرمه الإسلام ، ويضع الجزية ، فلا يقبل من اليهود والنصارى الجزية ، ولا يقبل منهم إلا الإسلام ، ففي حديث أبي هريرة عند أبي داود بإسناد صحيح يرفعه : « فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام »[2] .

وعدم قبول الجزية لا يعد نسخا ، فإن الرسول ﷺ أخبر أن الجزية تقبل إلى أن ينزل عيسى ، وبعد ذلك لا تقبل ، يقول النووي : « (ويضع الجزية) : الصواب أنه لا يقبلها ، ولا يقبل من الكفار إلا الإسلام ، ومن بذل منهم الجزية لم يكف عنه بها ، بل لا يقبل إلا الإسلام ، أو القتل ، هكذا قال الإمام أبو سليمان الخطابي وغيره من العلماء . . . فعلى هذا قد يقال : هذا خلاف حكم الشرع اليوم ، فإن الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها ، ولم يجز قتله ، ولا إكراهه على الإسلام ، وجوابه : أن هذا الحكم ليس بمستمر إلى يوم القيامة ، بل هو مقيد بما قبل عيسى ، عليه السلام ، وقد أخبرنا

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٢٢٦/٥) ، ورقمه : (٥٨٧٧) .

(٢) صحيح الجامع : (٩٠/٥) ، ورقمه : (٥٢٦٥) .

النبي ﷺ في هذه الأحاديث الصحيحة بنسخه ، وليس عيسى هو الناسخ ، بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ ، فإن عيسى يحكم بشرعنا »[1] .

٤ ـ عموم الرخاء ، وسيادة السلام والأمن في ذلك الزمان :

أخبرت النصوص التي سقناها عن تلك البركة العظيمة التي توجد في ذلك الوقت ، والأمن العظيم الذي يكرم الله به العباد في تلك الأيام ، وكيف ترفع الشحناء والتباغض بين الناس ، ويجتمع البشر على كلمة الله تبارك وتعالى ، ومن النصوص التي تحدثت عن هذا حديث أبي أمامة عند ابن ماجة ، وابن خزيمة ، والحاكم بإسناد صحيح ، قال : قال رسول الله ﷺ : « فيكون عيسى بن مريم في أمتي حكما عدلا ، وإماما مقسطا ، يدق الصليب ، ويذبح الخنزير ، ويضع الجزية ، ويترك الصدقة ، فلا يسعى على شاة ولا بعير[2] ، وترفع الشحناء والتباغض ، وتنزع حُمَةُ كلِّ ذات حمة[3] ، حتى يدخل الوليد يده في الحيّة ، فلا تضره ، وتضرُّ الوليدة الأسد ، فلا يضرها ، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها ، وتملأ الأرض من السلم ، كما يملأ الإناء من الماء ، وتكون الكلمة واحدة ، فلا يعبد إلا الله ، وتضع الحرب أوزارها ، وتسلب قريش ملكها ، وتكون الأرض كفاثور الفضة ، تنبت نباتها بعهد آدم ، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب ، فيشبعهم ، ويجتمع النفر على الرمانة ، فتشبعهم ، ويكون الثور بكذا وكذا من المال ، ويكون الفرس بدريهمات . . »[4] .

---

(١) شرح النووي على مسلم : (٢/١٩٠) .
(٢) أي لعدم الحاجة إلى السعي ، وطلب الرزق .
(٣) مثل سم الأفعى ، والعقرب .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٧٦) ورقمه : (٧٧٥٢) .

المطلب السادس
طيب العيش بعد المسيح

إن الحالة التي وصفتها النصوص عن الحياة في تلك الفترة حالة فذة في تاريخ الإنسانية ، حيث يعيش الناس في خير وأمن وسلام ، وفي بحبوحة من العيش ، ولذلك فإنهم يغبطـون على ما يكونون فيه من نعيم ، وفي الحديث : « طوبى لعيش بعد المسيح ، يؤذن للسماء في القطر ، ويؤذن للأرض في النبات ، حتى لو بذرت حبك على الصفا لنبت ، وحتى يمر الرجل على الأسد فلا يضره ، ويطأ على الحيّة فلا تضره ، ولا تشاحَّ ، ولا تحاسدَ ، ولا تباغض »[1] .

المطلب السابع
بقاء عيسى في الأرض

مدة بقاء عيسى في الأرض أربعون عاما ، كما ثبت ذلك في حديث صحيح في سنن أبي داود عن أبي هريرة : « فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثمَّ يتوفى ، ويصلي عليه المسلمون »[2] .

وهو في ذلك مقيم لحكم الإسلام ، مصلٍ إلى قبلة المسلمين ، وقد ذكرنا الأحاديث المفصحة عن صلاته وراء ذلك الرجل الصالح عند نزوله ، كما ثبت أنه يحج البيت العتيق ، ففي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي هريرة ، قال : قال

---

(١) حديث صحيح ، رواه أبو بكر الأنباري ، والديلمي ، والضياء عن أبي هريرة ، سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٥٥٩) ، ورقمه : (١٩٢٦) .
(٢) صحيح الجامع : (٥/٩٠) ، ورقمه : (٥٢٦٥) .

رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليهلنَّ ابن مريم بفج الروحاء ،حاجاً ومعتمرا ، أو ليثنينهما »[1] .

والروحاء مكان بين المدينة ووادي الصفراء في طريق مكة على نحو أربعين ميلا من المدينة أو ستة وثلاثين أو ثلاثين[2] .

المطلب الثامن
فضل الذين يصحبون عيسى عليه السلام

في مسند أحمد وسنن النسائي عن ثوبان ، عن النبي ﷺ ، قال : « عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار ، عصابة تغزو الهند ، وعصابة تكون مع عيسى بن مريم »[3] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٦/١٠٠) ، ورقمه (٦٩٥٥) .
(٢) لوامع الأنوار البهية : (٢/١١٣) .
(٣) صحيح الجامع : (٤/٣٥) ، ورقمه : (٣٩٠٠) .

المبحث الرابع

خروج يأجوج ومأجوج

ذكر الحق تبارك وتعالى في سورة الكهف أن ذا القرنين في تطوافه في الأرض بلغ بين السدين، فوجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا، فاشتكوا له من الضرر الذي يلحق بهم من يأجوج ومأجوج، وطلبوا منه أن يقيم بينهم وبينهم سدّا يمنع عنهم فسادهم، فاستجاب لطلبهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [1]

ويأجوج ومأجوج أمتان كثيرتا العدد، وهما من ذرية آدم عليه السلام ثبت في الصحيحين « أن الله تعالى يقول[2] : ياآدم ، فيقول لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار ؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنّة، فحينئذ يشيب الصغير،

---

(١) سورة الكهف : ٩٣ ـ ٩٩ .

(٢) في يوم القيامة .

وتضع كل ذات حمل حملها ، فقال : إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه ، يأجوج ومأجوج » ، قال ابن كثير بعد سياقه لهذا الحديث : « وقد حكى النووي في شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج قد خلقوا من منى خرج من آدم ، فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء » وقد رد ابن كثير هذا القول وأنكره قائلا : « وهذا قول غريب جدا ، ثم لا دليل عليه لا من عقل ، ولا من نقل ، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المفتعلة »[1] .

وقد أخبر الحق تبارك وتعالى أن السدّ الذي أقامه ذو القرنين مانعهم من الخروج ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾[2] ، وأخبر أن ذلك مستمر إلى آخر الزمان عندما يأتي وعد الله ، ويأذن لهم بالخروج ، وعند ذلك يدك السد ، ويخرجون على الناس ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾[3]، وعندذلك يخرجون أفواجا أفواجا كموج البحر، ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾[4] وذلك قرب قيام القيامة والنفخ في الصور ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ . ﴾[5] وقد أخبر الحق في موضع آخر عن نقبهم السد وخروجهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا . . ﴾[6] ، وهذا كائن في آخر الزمان ، وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[7] ، أي يسرعون في الإفساد في الأرض ، والحدب هو المرتفع في الأرض ، وهذه صفتهم حال خروجهم .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/٤٢٣ .
(٢) سورة الكهف : ٩٧ .
(٣) سورة الكهف : ٩٨ .
(٤) سورة الكهف : ٩٩ .
(٥) سورة الكهف : ٩٩ .
(٦) سورة الأنبياء : ٩٦ـ٩٧ .
(٧) سورة الأنبياء : ٩٦ .

وقد أخبر الرسول ﷺ أنه فتح من ردم يأجوج ومأجوج في عصره فتحة صغيرة كالحلقة التي تكون من الإبهام والتي تليها ، ففي صحيح البخاري عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعا ، يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرّ قد اقترب ، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بأصبعيه : الإبهام والتي تليها ، قالت زينب : فقلت يا رسول الله ، أنهلك ، وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث »[1] .

وخروجهم يقع بعد نزول عيسى بن مريم وهزيمته للدجال ، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه (أي من الدجال) ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنّة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى ، إني قد أخرجت عبادا لي ، لا يدان لأحد بقتالهم[2] ، فحرز عبادي إلى الطور[3] ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية[4] ، فيشربون مافيها ، ويمر آخرهم ، فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم[5] ، فيصبحون فرسى[6] كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب يأجوج ومأجوج ، فتح الباري : (١٣/١٠٦) .

(٢) أي لا قدرة ولا طاقة .

(٣) أي أصعد بهم إلى الجبل ، كي يكونوا في حرز ومأمن .

(٤) هي بحيرة كبيرة في فلسطين ، ماؤها عذب .

(٥) دود يكون في أنوف الأبل والغنم ، وفي الأحاديث الأخرى دود كأمثال النغف .

(٦) جمع فريس ، كقتيل وقتلى وزنا ومعنى .

موضع شبر إلا ملأه زهمهم[1] ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل طيرا كأعناق البخت[2] ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرا ، لايكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة »[3][4] .

وقال مسلم أيضا بعد سياقه للحديث السابق : حدثنا على بن حُجْر السعدي ، حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر ، والوليد بن مسلم ، قال ابنُ حُجر : دخل حديث أحدهما في حديث الآخر عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر ، بهذا الإسناد (إسناد الحديث السابق) نحو ما ذكرنا ، وزاد بعد قوله : « لقد كان بهذه مرة ماء »، « ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر[5] ، وهو جبل بيت المقدس ، فيقولون : لقد قتلنا من في الأرض ، هلمَّ فلنقتل من في السماء ، فيرمون بنشابهم[6] إلى السماء ، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دما » .

وفي رواية ابن حجر : « فإني قد أنزلت عبادا لي ، لا يدي لأحد بقتالهم »[7] والسبب في أنه لايستطيع أحد الوقوف في وجههم لكثرتهم، يدلك على كثرتهم أن المسلمين يوقدون من أسلحتهم بعد هلاكهم سبع سنين ، ففي سنن الترمذي بإسناد مسلم في الرواية السابقة : « سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ونشابهم

---

(١) دسمهم .
(٢) هي جمال طوال الأعناق .
(٣) المدر : الطين الصلب . والزلقة : المرآة .
(٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن : باب ذكر الدجال ، (٤/٢٢٥٤) ، ورقمة : (٢٩٣٧) .
(٥) الخمر : هو الشجر الكثير الملتف الذي يخمر من تحته ، أي يستره ، وقد فسر في الحديث أنه بيت المقدس لكثرة شجره .
(٦) النشاب : هي السهام .
(٧) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/٢٥٥٥) ، ورقمه (٢٩٣٧) .

وأسلحتهم وأتّرستهم سبع سنين » ، ورواه ابن ماجة في سننه[1] .

وهذه الأحاديث وأحاديث مشابهة كثيرة تدل على أن هذه الحضارة الهائلة التي اخترعت هذه القوة الهائلة من القنابل والصواريخ ستتلاشى وتزول ، وأغلب الظن أنها ستدمر نفسها بنفسها ، وأن البشرية ستعود مرة اخرى إلى القتال على الخيول واستعمال الرماح والقسي ونحو ذلك ، والله أعلم .

وفي السنن للترمذي وابن ماجة ، وصحيح ابن حبان ، ومستدرك الحاكم ، ومسند أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فسنحفره غدا ، فيعيده الله أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فسنحفره غدا إن شاء الله تعالى ، واستثنوا ، فيعودون إليه ، وهو كهيئته يوم تركوه ، فيحفرونه ، ويخرجون على الناس ، فينشفون الماء ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع عليها الدم الذي اجفظ[2] ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض ، وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفا في أقفائهم[3] ، فيقتلون بها ، قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن ، وتشكر شكرا من لحومهم »[4] .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٥٧٩) ، ورقمه : (١٩٤٠) .

(٢) اجفظّ : أي امتلأ ، أي ترجع ممتلئة دما .

(٣) المراد بأقفائهم أي في مؤخر رقابهم كما صرح به في الحديث الآخر الذي مرّ قبله .

(٤) وإسناده صحيح ، قال فيه الحاكم « صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبي ، وقال الألباني : وهو كما قالا ، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/٣١٣) ورقمه (١٧٣٥) .

وفي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن حبان ، ومستدرك الحاكم ، ومسند أحمد عن أبي سعيد الخدري ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يفتح يأجوج ومأجوج ، يخرجون على الناس كما قال الله عز وجل : ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[1] ، فيغشون الأرض ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض ، حتى أن بعضهم ليمر بالنهر ، فيشربون مافيه حتى يتركوه يبسا ، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر ، فيقول : قد كان هنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد في حصن أو مدينة ، قال قائلهم ، هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ، بقي أهل السماء . قال : ثم يهز أحدهم حربته ، ثم يرمي بها إلى السماء ، فترجع مخضبة دما للبلاء والفتنة ، فبينما هم على ذلك ، إذ بعث الله دوداً في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقهم ، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري نفسه ، فينظر ما فعل هذا العدو ، قال : فيتجرد منهم محتسبا لنفسه ، قد أظنها على أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتى ، بعضهم على بعض ، فينادي : يا معشر المسلمين : ألا أبشروا ، فإن الله قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويسرحون مواشيهم ، فما يكون لها رعى إلا لحومهم ، فتشكر عنه كأحسن ما تشكر عن شيء من النبات أصابته قط »[2] وهذه النصوص دالة على كثرة يأجوج ومأجوج بحيث لا يستطيع أحد أن يقف في وجوههم .

---

(١) سورة الأنبياء : ٩٦ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٠٢/٤) ، ورقم الحديث : (١٧٩٣) ، وقد ذكر الشيخ ناصر الدين أن الحاكم قال فيه : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، إلا أن الشيخ لم يرتض هذا ، لأن ابن إسحاق أحد رواة الحديث ، لم يخرج له مسلم إلا في المتابعات ، فالحديث حسن .

المبحث الخامس

دروس الإسلام ورفع القرآن وفناء الأخيار

بعد ذلك الانتشار العظيم للإسلام الذي يعم المشارق والمغارب ، يضعف الإسلام مرة أخرى ، ويترعرع الشرّ ، ويرفع هذا الدين العظيم ، ويرفع القرآن ، ويذهب العلم ، ويقبض الله من كان في نفسه بقية من إيمان ، فلا يبقى بعد ذلك إلّا شرار الخلق ، وعليهم تقوم الساعة .

أخرج ابن ماجة والحاكم عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب ، حتى لا يدرى ما صيام ، ولا صلاة ، ولانسك ، ولا صدقة ، وليسرى على كتاب الله في ليلة ، فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس : الشيخ الكبير والعجوز ، يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة « لا إله إلا الله » فنحن نقولها »[١] .

وهذه البقية الباقية التي لا تعرف من الإسلام إلا كلمة التوحيد تفنى وتبيد ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتقوم الساعة إلا على شرار الخلق »[٢] .

وفي حديث آخر بين لنا الرسول ﷺ كيف تذهب بقية الصالحين في آخر

---

(١) قال الحاكم فيه : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وقال البوصيري ، إسناده صحيح ، رجاله ثقات . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، حديث رقم (٨٧) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب قرب الساعة ، (٤/٢٢٦٨) ، حديث رقم (٢٩٤٩) .

الزمان ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إن الله يبعث ريحا من اليمن ، ألين من الحرير ، فلا تدع أحدا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته » .

وفي رواية « مثقال ذرة »[1]

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى لايقال في الأرض : الله الله »[2] .

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان يرفعه : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن ، وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة »[3] .

وروى البخاري بإسناده إلى مرداس الأسلمي رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « يذهب الصالحون الأول فالأول ، وتبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر ، لا يباليهم الله بالة »[4] .

ومن دروس الإسلام في تلك الأيام أن تنقطع عبادة الحج ، فلا حج ولا عمرة ، ففي مسند أبي يعلي ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي سعيد رضي

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، حديث رقم (٧٩١٥) ، وانظر جامع الأصول : (١٠/٤١٠) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، مشكاة المصابيح (٣/٥٠) حديث رقم (٥٥١٦) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، ورقم الحديث : (٢٩٣٧) . والمراد بتهارج الحمر ، أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير ، ولا يكترثون لذلك ، والمرج بإسكان الراء الجماع ، يقال هرج زوجته أي جامعها ، شرح النووي على مسلم (١٨/٧٠) ، أقول . وهذا حال الناس اليوم في كثير من المجتمعات الغربية ، يتهارجون تهارج الحمر في نواديهم التي تسمى نوادي العراة ، وعلى شواطيء البحار ، وفي الغابات والحدائق .

(٤) رواه البخاري ، انظر النهاية لابن كثير : (١/١٨٦) .

الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت »[1] ولا شك أن هذا إنما يكون بعد انبعاث الريح الطيبة وقبضها الصالحين ، أمّا قبل ذلك فإن عبادة البيت مستمرة ، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج »[2] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٦/١٧٤) ، ورقمه : (٧٢٩٦) .

(٢) رواه البخاري ، انظر النهاية لابن كثير : (١/١٨٦) .

المبحث السادس

عودة البشرية إلى الجاهلية وعبادة الأوثان

فإذا درس الإسلام ، ورفع القرآن ، وقبضت الريح كل من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ـ عادت البشرية إلى جاهليتها الأولى أو أشدّ ، فتطيع الشيطان ، وتعبد الأوثان .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عما يكون بعد موت المسيح عليه السلام في آخر الزمان ، ففي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم : « ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو كان أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه ، حتى تقبضه ، قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس في خفة الطير ، وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : ما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارة أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور . . . » الحديث[١] .

ومن الأوثان التي تعبد (ذو الخلصة) طاغية دوس واللات والعزىٰ ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لاتقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة » وذو الخلصة : الصنم الذي كانت

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب خروج الدجال ، (٤/٢٢٥٨) ، ورقمه (٢٩٤٠) .

تعبده دوس في الجاهلية[1] .

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، إنْ كنت لأظنّ حين أنزل الله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[2] أن ذلك تامّا ، قال:إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحا طيبة ، فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، فيبقى من لاخير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم »[3] .

وفي هذا الزمن يتدنى المستوى الأخـلاقي تدنيـاً هائـلا ، فقد أخرج البزار في مسنده ، وابن حبان في صحيحه عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتقوم الساعة حتى يتسافدوا في الطريق تسافد الحمير ، قلت : إن ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، ليكونن » وللحديث شاهد عند الحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعا : « والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق ، فيكون خيارهم يومئذٍ من يقول : هلاّ واريتها وراء هذا الحائط »[4] .

---

(1) رواه البخاري ، في كتاب الفتن ، باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان ، فتح الباري : (١٣/ ٧٦) . ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة ، (٤/ ٢٢٣٠) ، ورقم الحديث : (٢٩٠٦) ، والسياق للبخاري ، والتعريف بذي الخلصة مثبت في الصحيحين .

(2) سورة التوبة : ٣٣ .

(3) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة ، (٤/ ٢٢٣٠) . ورقمه (٢٩٠٦) .

(4) سلسلة الأحاديث الصحيحة : ١/ ٢٤٥ .

وله شاهد آخر من حديث النواس بن سمعان في حديثه الطويل في الدجال ويأجوج ومأجوج ، وفي آخره : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن ، وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون تهارج الحمر[1] ، فعليهم تقوم الساعة » رواه مسلم وأحمد والحاكم .

(١) أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما تفعل الحمير ، وبمعناه : (يتسافدون) .

المبحث السابع
هدم الكعبة على يد ذي السويقتين

ولعل هذا الزمان هو الذي يهدم فيه ذو السويقتين الكعبة ، ففي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده من طرق عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يبايع لرجل مابين الركن والمقام ، ولن يستحل البيت إلا أهله ، فإذا استحلوه فلا يسأل عن هلكة العرب ، ثم تأتي الحبشة فيخربونه خرابا لا يعمر بعده أبدا ، وهم الذين يستخرجون كنزه »[1] .

وروى الإمام أحمد في المسند أيضا عن عبدالله بن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « يخرب الكعبة ذو السويقتين في الحبشة ، ويسلبها حليها ، ويجردها من كسوتها ، ولكأني أنظر إليه أصيلعا أفيدعا ، يضرب بمسحاته ومعوله »[2] .

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « كأني أنظر إليه أسود أفحج ، ينقضها حجرا حجرا ، يعني الكعبة »[3] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة »[4] . وإنما سمي ذوالسويقتين لصغر ساقيه ، فالسويقتان تصغير ساقي الإنسان لرقتهما وهي صفة سوق السودان غالبا .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/٢٤٥) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/١١٩) . ورقم الحديث : ٥٧٩ .

(٣) قال ابن كثير في النهاية : (١/١٨٧) إسناده قوي .

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن : (٤/٢٢٣٢) ، حديث رقم (٢٩٠٩) : شرح النووي على مسلم : (١٨/٣٥) .

وقد يقال كيف يهدمها وقد جعل الله مكة حرما آمنا ؟ الجواب : أن معناه آمنا إلى قرب يوم القيامة وخراب الدنيا . هكذا قال النووي . وهذا صحيح إذا كان الهدم في هذا الوقت ، وإلا فإن الأمر حكم شرعي ألزم الله به عباده ، فإذا تمرد متمرد وانتهك حرمة الحرم فقد يمنعه الله كما فعل بأبرهة ، وقد لا يمنعه لحكمة يعلمها كما فعل القرامطة الذين اجتاحوا الحرم وفعلوا عنده الأفاعيل ، وكما سيفعل هذا الخبيث ذو السويقتين .

---

(١) المصدر السابق .

المبحث الثامن

طلوع الشمس من مغربها

من الآيات البينات الدالة على وقوع الساعة طلوع الشمس من مغربها ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعين ، فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا »[1] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، فتح الباري : (١١/٣٥٢) ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان : (١/٣٧) ، ورقم الحديث : (١٥٧) .

المبحث التاسع
خروج الدابة

وهذه الدابة آية من آيات الله تخرج في آخر الزمان ، عندما يكثر الشر ، ويعم الفساد ، ويكون الخير قلة في ذلك الزمان ، وهذه الدابة هي التي ذكرها الحق في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[1] .

ولا شك أن هذه الدابة مخالفة لمعهود البشر من الدواب ، ومن ذلك أنها تخاطب الناس وتكلمهم ، وقد ذكرنا جملة من الأحاديث التي عدَّ فيها الرسول ﷺ من أشراط الساعة العظام ـ خروج الدابّة .

وروى الإمام أحمد في مسنده ، والبخاري في الكبير ، والبغوي في «حديث علي بن الجعد » ، وأبو نعيم في أخبار أصبهان بإسناد صحيح عن أبي أمامة يرفعه إلى النبي ﷺ ، قال : « تخرج الدابة ، فتسم الناس على خراطيمهم ، ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير ، فيقول : ممن اشتريته ؟ فيقول : اشتريته من أحد المخطمين »[2] .

---

(١) سورة النمل : ٨٢ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣١/١) ، ورقمه : (٣٢٢) .

المبحث العاشر

النار التي تحشر الناس

وآخر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة نار تخرج من قعر عدن ، تحشر الناس إلى محشرهم . وقد سبق أن ذكرنا الأحاديث التي عدد فيها الرسول ﷺ أشراط الساعة ، وذكر أنها عشر ، قال : « وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »[1] .

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أن عبدالله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة (أي مهاجرا) فأتاه يسأله عن أشياء ، فقال : إني سائلك عن ثلاث : ما أول أشراط الساعة ؟ فقال الرسول ﷺ : « أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب »[2] . وفي سنن الترمذي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ستخرج نار من حضرموت قبل القيامة تحشر الناس ، قالوا : يارسول الله فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام » ، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح[3] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن كيفية حشر النار للناس ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب الآيات التي تكون قبل الساعة ، (٢٢٢٥/٤) ورقمه (٢٩٠١) .

(٢) إن شئت أن تتطلع على بقية المسائل وإجابة الرسول ﷺ عليها فارجع إلى صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، فتح الباري : (٢٧٢/٧) .

(٣) جامع الأصول : (٣٦٨/١٠) ورقم الحديث (٧٨٨٨) ، وانظر صحيح الجامع الصغير (٢٠٣/٣) ورقم الحديث : (٣٦٠٣) .

راهبين ، وإثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، ويحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا »[1] وروى أحمد في مسنده ، والترمذي في سننه ، والحاكم في مستدركه بإسناد صحيح عن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تحشرون رجالا وركبانا ، وتجرون على وجوهكم ها هنا ، وأومأ بيده نحو الشام »[2] .

وآخر من تحشرهم النار راعيان من مزينة ، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يتركون المدينة على خير ما كانت ، لا يغشاها إلا العوافي (يريد عوافي السباع والطير)، وآخر من يحشر راعيان من مزينة ، ينعقان بغنمها ، فيجدانها وحشا ، حتى إذا بلغاثنية الوداع خرّا على وجهها »[3] . والأرض التي تحشر النار الناس إليها هي بلاد الشام ، ففي كتاب فضائل الشام للربعي عن أبي ذر بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال : « الشام أرض المحشر والمنشر » ورواه أحمد في مسنده وابن ماجة في سننه والربعي في فضائل الشام عن ميمونة بنت سعد[4] .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا الحشر يكون في الآخرة ، وعزا القرطبي القول بذلك إلى الحليمي وأبي حامد الغزالي[5] .

وذهب الخطابي والطيبي والقاضي عياض والقرطبي وابن كثير وابن حجر إلى

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب الحشر ، فتح الباري : (٣٧٧/٣) .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢٧٢/٢) ورقمه : ٢٢٩٨ .
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٠٢/٢) ، ورقمه : ٦٨٣ .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٢٣٢/٣) ، ورقمه : ٣٦٢٠ .
(٥) التذكرة للقرطبي : ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ، فتح الباري : (٣٧٩/١١) .

أن هذا الحشر يكون في آخر عمر الدنيا ، حين تخرج النار من قعر عدن ، وتحشر الناس إلى بلاد الشام[1] .

يقول ابن كثير في هذه الأحاديث « فهذه السياقات تدل على أن هذا الحشر ، هو حشر الموجودين في آخر الدنيا ، من أقطار محلة الحشر ، وهي أرض الشام ، وأنهم يكونون على أصناف ثلاثة :

فقسم يحشرون طاعمين كاسين راكبين ، وقسم يمشون تارة ويركبون أخرى ، وهم يعتقبون على البعير الواحد ، كما تقدم في الصحيحين: « اثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وعشرة على بعير » ، يعني يعتقبونه من قلة الظهر ، كما تقدم ، كما جاء مفسرا في الحديث الآخر ، وتحشر بقيتهم النار ، وهي التي تخرج من قعر عدن ، فتحيط بالناس من ورائهم ، وتسوقهم من كل جانب ، إلى أرض المحشر ، ومن تخلف منهم أكلته .

وهذا كله مما يدل على أن هذا في آخر الدنيا ، حيث الأكل والشرب ، والركوب على الظهر المستوي وغيره ، وحيث يهلك المتخلفون منهم بالنار .

ولو كان هذا بعد نفخة البعث ، لم يبق موت ولا ظهر يسرى ، ولا أكل ولا شرب ، ولا لبس في العرصات . والعجب كل العجب أن الحافظ أبا بكر البيهقي بعد روايته لأكثر هذه الأحاديث ، حمل هذا الركوب على أنه يوم القيامة ، وصحح ذلك ، وضعف ما قلناه ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾[2] .

---

(١) فتح الباري : (١١/٣٨٩ - ٣٨٠) ، التذكرة : ص ٢٠٠ .

(٢) سورة مريم : ٨٥ .

وكيف يصحح ما ادعاه في تفسير الآية بالحديث ، وفيه : « إن منهم اثنين على بعير ، وعشرة على بعير » ، وقد جاء التصريح فيه بقلة الظهر ؟ هذا لا يلتئم مع هذا ، والله أعلم . تلك نجائب من الجنة يركبها المؤمنون من العرصات إلى الجنات ، على غير هذه الصفة ، كما سيأتي تقرير ذلك في موضعه »[1] .

(١) النهاية لابن كثير : (١/ ٢٥٩) .

المراجـــع
مرتبة حسب حروف المعجـــم

١ ـ أحكام الجنائز وبدعها ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشره المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م .

٢ ـ إرواء الغليل ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشره المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

٣ ـ البداية والنهاية ، لابن كثير . طبعة مكتبة المعارف ـ بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٧ .

٤ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، للقرطبي . طبعة المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة .

٥ ـ تفسير ابن كثير . طبعة دار الأندلس ـ بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦ م .

٦ ـ تلخيص الحبير ، لابن حجر . طبعة شركة الطباعة الفنية المتحدة . القاهرة .

٧ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ، لابن الأثير . تحقيق عبد القادر الأرناؤوط . نشر مكتبة الحلواني ومكتبة الملاح . الطبعة الأولى . ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .

٨ ـ جامع العلوم والحكم ، لابن رجب . طبعة دار المعرفة ـ بيروت .

٩ ـ الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدى ـ لعبد المحسن ابن حمد العباد . الطبعة الأولى . مطابع دار الرشيد المدينة المنورة .

١٠ ـ الروح ، لابن القيم . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

١١ ـ الزهد والرقائق ، لابن المبارك . طبع مؤسسة الرسالة . بيروت .

١٢ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشر المكتب الإسلامي ـ بيروت . الطبعة الأولى .

١٣ ـ سنن الترمذي . طبعة مصطفى البابي الحلبي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر . الطبعة الأولى .

١٤ ـ سنن النسائي . طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة . الطبعة الأولى : ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٢ م .

١٥ ـ شرح العقيدة الطحاوية ، لمحمد بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي . نشر المكتب الإسلامي ـ بيروت . الطبعة الرابعة ـ ١٣٩١ هـ .

١٦ ـ شرح النووي على مسلم ، للنووي . طبعة المكتبة العصرية ـ القاهرة .

١٧ ـ صحيح البخاري . اعتمدنا على متن فتح الباري . الطبعة السلفية . القاهرة . الطبعة الأولى .

١٨ ـ صحيح الجامع الصغير ، للسيوطي . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نشره المكتب الإسلامي ـ بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م .

١٩ ـ صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي . طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ بيروت . الطبعة الثانية ـ ١٩٧٢ .

٢٠ ـ العقل والروح ، لابن تيمية . رسالة مطبوعة ضمن « مجموعة الرسائل المنيرية » .

٢١ ـ عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، لعبد المحسن بن حمد العباد . الطبعة الأولى . مطابع الرشيد ـ المدينة المنورة .

٢٢ ـ فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني . طبعة المكتبة السلفية ـ القاهرة . الطبعة الأولى .

٢٣ ـ الكبائر ، للذهبي . طبعة المكتبة الثقافية ـ بيروت .

٢٤ ـ لسان العرب ، لابن منظور . ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي . دار لسان العرب .

٢٥ ـ لوامع الأنوار البهية ، للسفاريني . طبعة دولة قطر . الطبعة الأولى .

٢٦ ـ مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع ابن قاسم . طبعة دولة المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى .

٢٧ ـ مختار الصحاح . طبعة دار المعارف ـ مصر .

٢٨ ـ مسند الإمام أحمد . طبعة المكتب الإسلامي ـ بيروت .

٢٩ ـ مشكاة المصابيح ، للخطيب التبريزي . طبعة المكتب الإسلامي ـ بدمشق . الطبعة الأولى : ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .

٣٠ ـ المقدمة ، لابن خلدون . الطبعة الثانية . طبعة مكتبة المدرسة ، ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت : ١٩٧٩ .

٣١ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، لابن القيم . طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية ـ حلب . الطبعة الأولى : ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .

٣٢ ـ نهاية البداية والنهاية ، لابن كثير . نشر مكتبة النصر الحديثة ـ الرياض . الطبعة الأولى : ١٩٦٨ .

٣٣ ـ يقظة أولى الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار ، لصديق حسن خان . طبعة دار الأنصار ـ القاهرة . الطبعة الأولى : ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٩ م .

٣٤ ـ اليوم الآخر في ظلال القرآن ، جمع وإعداد أحمد فائز ـ طبعة مؤسسة الرسالة ـ دمشق ـ الطبعة السابعة : ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م .

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية ـ عمان
١٩٩٠/١٠/٧٢٦

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ـ العقيدة في الله	الطبعة الخامسة
٢ ـ عالم الملائكة الأبرار	الطبعة الرابعة
٣ ـ عالم الجن والشياطين	الطبعة الرابعة
٤ ـ معالم الشخصية الإسلامية	الطبعة الرابعة
٥ ـ الرسل والرسالات	الطبعة الرابعة
٦ ـ المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم	الطبعة الثالثة
٧ ـ الصوم في ضوء الكتاب والسنة	الطبعة الثالثة
٨ ـ أصل الاعتقاد	الطبعة الثالثة
٩ ـ مواقف ذات عبر	الطبعة الثانية
١٠ ـ مقاصد المكلفين « النيات في العبادات »	الطبعة الأولى
١١ ـ القياس بين مؤيديه ومعارضيه	الطبعة الأولى
١٢ ـ ثلاث شعائر	الطبعة الثالثة
١٣ ـ جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة	الطبعة الثانية
١٤ ـ خصائص الشريعة الاسلامية	الطبعة الأولى
١٥ ـ تاريخ الفقه الإسلامي	الطبعة الأولى
١٦ ـ الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية	الطبعة الثانية
١٧ ـ نحو ثقافة إسلامية أصيلة	الطبعة الأولى
١٨ ـ سلسلة محاضرات إسلامية	الطبعة الأولى
١٩ ـ القيامة الصغرى وأشراط القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢٠ ـ القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢١ ـ الجنة والنار	الطبعة الأولى

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

٥

اليوم الآخر

٢

القيامة الكبرى

الدكتور عمر سليمان الأشقر



دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ٥





تأليف

الدكتور عمر سليمان الأشقر



دار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

٢٥٣ و ٢١٤
عمر

عمر سليمان الأشقر

اليوم الآخر . القيامة الكبرى . عمر سليمان الأشقر

ط ٤ . عمان : (د . ن) ١٩٩٠

(٢٨٧) ص

ر . أ . ١٩٩٠/١٠/٧٠٢

١ ـ الإيمان باليوم الآخر . أ ـ العنوان

تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية ـ عمان

الطبعة السادسة

١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م



دار النفائس

للنشـــر والتوزيـــع

الاردن ـ عمان ـ العبدلي ـ مقابل جوهرة القدس

هاتف : ٤٠ ٣٩ ٦٩ ـ فاكس : ٤١ ٣٩ ٦٩ ـ ص .ب : ٢١١٥١١



مقـدمـة

الحمد لله الذي لا يعجزه شيء ، فهو القادر على كل شيء ، أحاط بمخلوقاته علماً ، وقهرهم عزة وحكماً ، أنشأ عباده من عدم ، وإلى العدم يصيِّرهم ، ثم يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى إذا شاء بعثهم وإعادتهم .

وأصلي وأسلم على عبده المصطفى ، ورسوله المجتبى ، صاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

فهذا هو الكتاب الثاني الذي نتحدث فيه عن اليوم الآخر ، وموضوعه القيامة الكبرى .

وهو يشتمل على أربعة عشر فصلاً ، يسبقها تمهيد .

أما التمهيد فللتعريف بالقيامة .

والفصل الأول ذكرت فيه أسماء يوم القيامة وعرفت أشهر هذه الأسماء ، وبينت السر في كثرة أسماء ذلك اليوم .

والفصل الثاني مخصص للتعريف بالدَّمار الذي يحل بالجنس البشري عندما ينفخ في الصور فيفني الله الأحياء ، وقد أَوْردت فيه النصوص التي تعرف بالصور ، وبالملك النافخ فيه ، واليوم الذي يكون فيه النفخ ، وعدد المرات التي ينفخ فيها في الصور ، والذين لا يصعقون عندما يصعق الخلائق .

والفصل الثالث في صفة البعث والنشور وحال العباد فيه .

والفصل الرابع مخصص لبيان صفة الأرض التي يكون الحشر عليها .

والفصل الخامس سقت فيه الأدلة الدالة على البعث ، ورددت فيه على المكذِّبين به .

أما الفصل السادس فإنَّه حديث عن القيامة عند الأنبياء ، وبيان أنهم جميعا ذكروها وتحدثوا عنها . وفي هذا الفصل مبحث عن القيامة في كتب أهل الكتاب اليوم .

والفصل السابع مخصص للحديث عن أهوال يوم القيامة ، واستعراض النصوص المتحدثة عن دكِّ الأرض ، ونسف الجبال ، وتفجير البحار وتسجيرها ، وموران السماء وانفطارها ، وتكوير الشمس ، وانخساف القمر ، وتناثر النجوم .

والفصل الثامن معقود لبيان أحوال الناس في ذلك اليوم والناس فيه ثلاثة أصناف :

الكفار المشركون ، والعصاة المذنبون ، والأتقياء الصالحون .

فالكفار بينت ذلتهم وتخاصمهم ، وإحباط أعمالهم .

والعصاة ذكرت بعض الذنوب التي يعاقبون عليها في الموقف العظيم .

والأتقياء ذكرت أمنهم في يوم الفزع الأكبر ، كما ذكرت بعضا من الأعمال التي يستحق أصحابها بها الأمن والنجاة .

والفصل التاسع حديث عن الشفاعة العظمى والمقام المحمود الذين ينفرد به الرسول ﷺ من بين البشر ، حيث يشفع عند ربه ليخلص العباد مما هم فيه من أهوال المحشر ، فيفصل الله بين العباد ، ثم يساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

والفصل العاشر في الحساب والجزاء ، وهو فصل طويل ، تحدثت فيه عن معنى الحساب ، ومشهده، والذين يسألون في ذلك اليوم ، والقواعد التي يكون الحساب على أساسها ، والأمور التي يكون عنها السؤال ، وأول ما يحاسب عليه العبد من أعماله .

وبينت في هذا الفصل أنواع الحساب الثلاثة : المناقشة ، والعرض ، والمعاتبة .

والفصل الحادي عشر عرضت فيه ما يكون من اقتصاص المظالم بين الخلق ، وكيف يتحقق هذا الاقتصاص .

وعقدت الفصل الثاني عشر للتعريف بالميزان ، وبيان عقيدة أهل السنة فيه ، وذكر الأمور التي توزن فيه ، والأعمال التي تثقل في الوزن .

وأوردت في الفصل الثالث عشر الأحاديث التي تتحدث عن حوض المصطفى ﷺ ، وسعته ، وحلاوة مائه وصفائه ، والذين يشربون منه ، والذين يطردون عنه .

والفصل الرابع عشر حديث عن مشهد الحشر إلى الجنة والنار ، وفيه مبحث للحديث عن الصراط ، وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة فيه .

أسأل الله تعالى أن يجعلنا في ذلك اليوم من الفائزين الناجين ، وأن يتجاوز عن زلاتنا ، ويغفر لنا ذنوبنا ، ويعلي درجاتنا ، ويظلنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إنه سميع قريب مجيب ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

الدكتور عمر سليمان الأشقر

الكويت

١٨ / من رمضان / ١٤٠٦

١٩٨٦/٥/٢٦

تمهيد

التعريف بالقيامة الكبرى

سيأتي يوم يبيد الحيّ القيوم فيه الحياة والأحياء ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[1] ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[2]، ثم يأتي وقت يعيد الله العباد ويبعثهم ، فيوقفهم بين يديه ويحاسبهم على ما قدموه من أعمال ، وسيلاقي العباد في هذا اليوم شيئا عظيما من الأهوال ، ولا ينجو من تلك الأهوال إلا من أَعدَّ لذلك اليوم عدَّته من الإيمان والعمل الصالح ، ويساق العباد في ختام ذلك اليوم إلى دار القرار : الجنة أو النار .

هذا اليوم هو يوم القيامــة .

---

(١) سورة الرحمن : ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) سورة القصص : ٨٨ .



الفَصْل الأوَّل

أسماء يوم القيامة

سمى الله ذلك اليوم الذي يحل فيه الدمار بهذا العالم ، ثم يعقبه فيه البعث والنشور للجزاء والحساب بأسماء كثيرة ، وقد اعتنى جمع من أهل العلم بذكر هذه الأسماء ، وقد عدَّها الغزالي والقرطبي فبلغت خمسين اسما كما يقول ابن حجر العسقلاني[1] .

وقد ساق القرطبي هذه الأسماء مفسِّرا لها ، ولكنه أخذ تفسيرها من كتاب « سراج المريدين » لابن العربي ، وربما زاد عليه شيئا ما في الشرح والتفسير[2] .

وقد عدَّها بعضهم من غير تفسير ، منهم ابن نجاح في كتابه « سبل الخيرات » ، وأبو حامد الغزالي في « الإحياء » ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار »[3] .

وسنقتصر في هذا البحث على ذكر أشهر هذه الأسماء ، مع تعريف كل اسم تعريفا مختصرا .

---

(١) فتح الباري : (١١/٣٩٦) .

(٢) التذكرة للقرطبي : ٢٣٣ .

(٣) التذكرة : ٢٣٢ .

أشهر أسماء ذلك اليوم

١ ـ يوم القيامة : ورد هذا الاسم في سبعين آية من آيات الكتاب ، كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾(١) ، وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾(٣) .

والقيامة في اللغة مصدر قام يقوم ، ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب وسميت بذلك لما يقوم فيها من الأمور العظام التي بينتها النصوص . ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين .

٢ ـ اليوم الآخر : كقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾(٤) وقال : ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾(٥) وقال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾(٦) .

وأحيانا يسميه بالآخرة أو الدار الآخرة ، كقوله : ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(٧) . وقوله : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾(٨) . وقوله : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا

---

(١) سورة النساء : ٨٧ .

(٢) سورة الإسراء : ٩٧ .

(٣) سورة الشورى : ٤٥ .

(٤) سورة البقرة : ١٧٧ .

(٥) سورة البقرة : ٢٣٢ .

(٦) سورة التوبة : ١٨ .

(٧) سورة البقرة : ١٣٠ .

(٨) سورة النساء : ٧٤ .

لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

وسمى ذلك اليوم باليوم الآخر ، لأنه اليوم الذي لا يوم بعده .

٣ ـ الساعة : قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾[3] وقال : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾[4] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[5] .

قال القرطبي : « والساعة كلمة يعبر بها في العربية عن جزء من الزمان غير محدود ، وفي العرف على جزء من أربعة وعشرين جزءاً من يوم وليلة ، اللذين هما أصل الأزمنة . . . وحقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه ، وهو المسمى بالآن ، وسميت به القيامة إما لقربها ، فإن كل آت قريب . وإما أن تكون سميت بها تنبيها على مافيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود . وقيل : إنما سميت بالساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة . . . »[6] .

٤ ـ يوم البعث : قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ . . ﴾[7] ، وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾[8] .

---

(١) سورة القصص : ٨٣ .
(٢) سورة العنكبوت : ٦٤ .
(٣) سورة الحجر : ٨٥ .
(٤) سورة طه : ١٥ .
(٥) سورة الحج : ١ .
(٦) التذكرة للقرطبي : ٢١٦ .
(٧) سورة الحج : ٥ .
(٨) سورة الروم : ٥٦ .

قال ابن منظور : « البعث : الإحياء من الله تعالى للموتى . وبعث الموتى نشرهم ليوم البعث »[1] .

٥ ـ يوم الخروج : قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾[2] وقال : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾[3] . وقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[4] .

سمي بذلك لأن العباد يخرجون فيه من قبورهم عندما ينفخ في الصور .

٦ ـ القارعة : قال تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾[5] ، وقال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾[6] .

قال القرطبي : « سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها . يقال : قد أصابتهم قوارع الدهر ، أي أهواله وشدائده ، قالت الخنساء :

تعرفني الدهر نهشا وحزا   وأوجعني الدهر قرعا وغمزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها »[7] .

٧ ـ يوم الفصل : قال تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾[8] . وقال : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾[9] . وقال : ﴿ إِنَّ يَوْمَ

---

(١) لسان العرب : مادة : (ب ع ث) (١/ ٢٣٠) .
(٢) سورة ق : ٤٢ .
(٣) سورة المعارج : ٤٣ .
(٤) سورة الروم : ٢٥ .
(٥) سورة القارعة : ١-٣ .
(٦) سورة الحاقة : ٨ .
(٧) التذكرة للقرطبي : ٢٠٩ .
(٨) سورة الصافات : ٢١ .
(٩) سورة المرسلات : ٣٨ .

﴿ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴾[1] .

سمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون ، وفيما كانوا فيه يختصمون ، قال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[2] .

٨ ــ **يوم الدين** : قال تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾[3]. وقال : ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾[4] .

والدين في لغة العرب : الجزاء والحساب . قال الشاعر :

حصادك يوما ما زرعت وإنما　　　يدان الفتى يوما كما هو دائن

سمي بذلك لأن الله يجزي العباد ويحاسبهم في ذلك اليوم .

٩ ــ **الصاخة** : قال تعالى : ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾[5] .

قال القرطبي : « قال عكرمة : الصاخّة النفخة الأولى » والطامّة النفخة الثانية . قال الطبري : أحسبه من صخّ فلان فلانا إذا أصمّه . قال ابن العربي : الصاخّة التي تورث الصمم ، وإنها المسمعة ، وهذا من بديع الفصاحة حتى لقد قال بعض أحداث الأسنان حديثي الأزمان :

أصمَّ بك الناعي وإن كنت أسمعا

---

(١) سورة النبأ : ١٧ .

(٢) سورة السجدة : ٢٥ .

(٣) سورة الانفطار : ١٤ ـ ١٩ .

(٤) سورة الصافات : ٢٠ .

(٥) سورة عبس : ٣٣ .

وقال آخر :

أصمّني سيرهم أيام فرقتهم فهل سمعتم بسير يورث الصمما

ولعمر الله إن صيحة القيامة مسمعة ، تصم عن الدنيا ، وتسمع أمور الآخرة »[1] . وقال ابن كثير : « قال البغوي : الصاخّة يعني صيحة يوم القيامة ، سميت بذلك لأنها تصخُّ الأسماع ، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها »[2] .

١٠ ـ الطامة الكبرى : قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[3] .

سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع ، كما قال تعالى : ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[4] .

قال القرطبي « الطامّة الغالبة . من قولك طمَّ الشيء إذا علا وغلب . ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء . قال الحسن : الطامّة : النفخة الثانية . وقيل : حين يسار أهل النار إلى النار »[5] .

١١ ـ يوم الحسرة : قال تعالى : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[6] .

سمى بذلك لشدة تحسر العباد في ذلك اليوم وتندمهم . أما الكفار فلعدم إيمانهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا

---

(١) تذكرة القرطبي : ٢٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير (٢١٧/٧) .

(٣) سورة النازعات : ٣٤ .

(٤) سورة القمر : ٤٦ .

(٥) تذكرة القرطبي : ٢٢٧ .

(٦) سورة مريم : ٣٩ .

فيهَا ﴾[1] ، واستمع إلى تحسر الكفار عندما يحل بهم العذاب : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

وتبلغ الحسرة ذروتها بأهل الكفر عندما يتبرأ السادة والأتباع من متبوعيهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[3] .

ويتحسر المؤمنون في ذلك اليوم بسبب عدم استزادتهم من أعمال البر والتقوى .

١٢ ـ الغاشية : قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾[4] ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بأفزاعها وتغمّهم . ومن معانيها أن الكفار تغشاهم النار وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾[5] . وقال ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[6] .

١٣ ـ يوم الخلود : قال تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾[7] .

سمى ذلك اليوم بيوم الخلود لأن الناس يصيرون إلى دار الخلد ، فالكفار

---

(١) سورةالأنعام : ٣١ .

(٢) سورة الزمر : ٥٦ ـ ٥٨ .

(٣) سورة البقرة : ١٦٧ .

(٤) سورة الغاشية : ١ .

(٥) سورة العنكبوت : ٥٥ .

(٦) سورة الأعراف : ٤١ .

(٧) سورة ق : ٣٤ .

مخلدون في النار ، والمؤمنون مخلدون في الجنان ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[1] وقال : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[2] .

١٤ ـ يوم الحساب : قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[3] . وقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[4] .

سمى ذلك اليوم بيوم الحساب ، لأن الله يحاسب فيه عباده ، قال القرطبي :

« معنى الحساب أن الله يعدِّد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة ، ويعدِّد عليهم نعمه ، ثم يقابل البعض بالبعض ، فما يشفُّ منها على الآخر حكم للمشفوف بحكمه الذي عينه للخير بالخير ، وللشرِّ بالشرِّ ، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « ما منكم أحد إلا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان » .

١٥ ـ الواقعة : قال تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾[5] ، قال ابن كثير : « سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها »[6] . وأصل وقع في لغة العرب كان ووجد .

---

(١) سورة البقرة : ٣٩ .
(٢) سورة آل عمران : ١٠٧ .
(٣) سورة ص : ٢٦ .
(٤) سورة غافر : ٢٧ .
(٥) سورة الواقعة : ١ .
(٦) تفسير ابن كثير : ٦/٥٠٧ .

١٦ ـ يوم الوعيد : قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾[١] ، لأنه اليوم الذي أوعد به عباده . وحقيقة الوعيد هو الخبر عن العقوبة عند المخالفة .

١٧ ـ يوم الآزفة : قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾[٢] سميت بذلك لاقترابها ، كما قال تعالى : ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾[٣] . والساعة قريبة جدا . وكل آت فهو قريب وإن بعد مداه . والساعة بعد ظهور علاماتها أكثر قربا .

١٨ ـ يوم الجمع : قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[٤] سميت بذلك، لأن الله يجمع فيه الناس جميعا ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾[٥] .

١٩ ـ الحاقة : قال تعالى : ﴿ ٱلْحَاقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴾[٦] سميت بذلك ـ كما يقول ابن كثير ـ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد[٧] .

قال البخاري في صحيحه : « هي الحاقة لأن فيها الثواب وحواق الأمور . الحقة والحاقة واحد » . وقال ابن حجر في شرحه لكلام البخاري : « هذا أخذه من كلام الفراء . قال في معاني القرآن : الحاقّة : القيامة . سميت بذلك لأن فيها الثواب وحواقّ الأمور . ثم قال : الحقّة والحاقة

---

(١) سورة ق : ٢٠ .

(٢) سورة المؤمن : ١٨ .

(٣) سورة النجم : ٥٧ ـ ٥٨ .

(٤) سورة الشورى : ٧ .

(٥) سورة هود : ١٠٣ .

(٦) سورة الحاقة : ١ ـ ٢ .

(٧) تفسير ابن كثير : (٧/٩٩) .

كلاهما بمعنى واحد . قال الطبري : سميت الحاقة لأن تَحق فيها . وهي كقولهم : ليلُ قائم . وقال غيره : سميت الحاقة لأنها أحقت لقوم الجنة ولقوم النار . وقيل لأنها تحاقق الكفار الذين خالفوا الأنبياء . يقال : حاققته فحققته : أي خاصمته فخصمته . وقيل : لأنها حق لا شك فيه »[1] .

٢٠ ـ يوم التلاق : قال تعالى : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾[2] .

قال ابن كثير : « قال ابن عباس : يلتقي فيه آدم وآخر ولده . وقال ابن زيد : يلتقي فيه العباد . وقال قتادة والسدى وبلال بن سعد وسفيان بن عيينه : يلتقي فيه أهل الأرض والسماء ، والخالق والخلق ، وقال ميمون بن مهران : يلتقي فيه الظالم والمظلوم . وقد يقال إن يوم التلاق يشمل هذا كله ، ويشمل أن كل عامل سيلقى ماعمله من خير وشر كما قاله آخرون »[3] .

٢١ ـ يوم التناد : قال تعالى حاكيا نصيحة مؤمن آل فرعون قومه : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾[4] سمي بذلك لكثرة مايحصل من نداء في ذلك اليوم ، فكل إنسان يدعى باسمه للحساب والجزاء ، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار ، وأصحاب النار ينادون أصحاب الجنة ، وأهل الأعراف ينادون هؤلاء وهؤلاء .

٢٢ ـ يوم التغابن : قال تعالى : ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾[5] .

---

(١) فتح الباري : (١١/٣٩٥) .
(٢) سورة المؤمن : ١٥ .
(٣) تفسير ابن كثير : ٦/١٣٠ .
(٤) سورة المؤمن : ٣٢ .
(٥) سورة التغابن : ٩ .

سمي بذلك لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار ، إذ يدخل هؤلاء الجنة ، فيأخذون ما أعد الله لهم ، ويرثون نصيب الكفار من الجنة .

هذه هي أشهر أسماء يوم القيامة ، وقد أورد بعض العلماء أسماءً أخرى غير ما ذكرناه ، وهذه الأسماء أخذوها بطريق الاشتقاق بما ورد منصوصاً ، فقد سموه بيوم الصدر أخذا من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾[1] ، ويوم الجدال أخذا من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾[2] .

وسموه بأسماء الأوصاف التي وصف الله بها ذلك اليوم ، فقالوا من أسمائه : يوم عسير ، ويوم عظيم ، ويوم مشهود ، ويوم عبوس قمطرير ، ويوم عقيم .

ومن الأسماء التي ذكروها غير ما تقدم : يوم المآب ، يوم العرض ، يوم الخافضة الرافعة ، يوم القصاص ، يوم الجزاء ، يوم النفخة ، يوم الزلزلة ، يوم الراجفة ، يوم الناقور ، يوم التفرق ، يوم الصدع ، يوم البعثرة ، يوم الندامة ، يوم الفرار .

ومنها أيضا : يوم تبلى السرائر ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعا ، يوم تشخص فيه الأبصار ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، يوم لا ينطقون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يوم لا يكتمون الله حديثا ، يوم لا مردّ له من الله ، يوم لا بيع فيه ولا خلال ، يوم لا ريب فيه .

وقد يضيف إليها بعض أهل العلم أسماء أخرى ، وقد يسمى الاسم بما يقاربه ويماثله ، قال القرطبي : « ولا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكر بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام والتضايق واختلاف الأقدام ، والخزي ،

---

(١) سورة الزلزلة : ٦ .

(٢) سورة النحل : ١١١ .

والهوان ، والذل ، والافتقار ، والصغار ، والانكسار ، ويوم الميقات ، والمرصاد ، إلى غير ذلك من الأسماء »[1] .

السر في كثرة أسمائه

يقول القرطبي : « وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته ، وكثرت أسماؤه ، وهذا مهيع كلام العرب ، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه ، وتأكد نفعه لديهم وموقعه ، جمعوا له خمسمائة اسم ، وله نظائر .

فالقيامة لما عظم أمرها ، وكثرت أهوالها ، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ، ووصفها بأوصاف كثيرة[2] .

---

(١) التذكرة : ٢٣٣ .

(٢) التذكرة : ٢١٤ .

الفصل الثاني
إفناء الأحياء

المبحث الأول
النفخ في الصور

هذا الكون العجيب الغريب الذي نعيش فيه ، يعجُّ بالحياة والأحياء الذين نشاهدهم والذين لا نشاهدهم ، وهم فيه في حركة دائبة لا تهدأ ولا تتوقف ، وسيبقى حاله كذلك إلى أن يأتي اليوم الذي يهلك الله فيه جميع الأحياء إلا من يشاء ، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[1] ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[2] .

وعندما يأتي ذلك اليوم ينفخ في الصور ، فتُنْهي هذه النفخة الحياة في الأرض والسماء ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾[3] .

وهي نفخةهائلة مدمرة يسمعها المرء فلا يستطيع أن يوصي بشيء ، ولا يقدر على العودة إلى أهله وخلانه ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة الرحمن : ٢٦ .

(٢) سورة القصص : ٨٨ .

(٣) سورة الزمر : ٦٨ .

(٤) سورة يس : ٤٨ .

وفي الحديث : « ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلاّ أصغى ليتا ، ورفع ليتا[1] ، قال : وأوّل من يسمعه رجل يلوط حوض إبله . قال : فيصعق ويصعق الناس »[2] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن سرعة هلاك العباد حين تقوم الساعة ، فقال : « ولتقومَّن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنَّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومنَّ الساعة وهو يليط حوضه ، فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها »[3] .

---

(١) أصغى : أمال : والليت : صفحة العنق .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب خروج الدجال : (٤/٢٢٥٩) ورقمه : ٢٩٤٠ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب . . . تصدقوا ، فتح الباري : (٨٢/١٣) عن أبي هريرة . ورواه في كتاب الرقاق ، فتح الباري (٣٥٢/١١) .

المبحث الثاني
الصور الذي ينفخ فيه

الصور في لغة العرب القَرْن ، وقد سئل الرسول ﷺ عن الصور ، ففسره بماتعرفه العرب من كلامها ، ففي سنن الترمذي وسنن أبي داود ، وسنن ابن حبان ، ومسند أحمد ، ومستدرك الحاكم ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : « ما الصور ؟ قال : الصور قرن ينفخ فيه »[1] قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، وقال الترمذي فيه : حديث حسن صحيح .

وذكر عن الحسن البصري أنه قرأ (الصُورَ) ، جمع صورة ، وتأوله على أن المراد النفخ في الأجساد لتعاد إليها الأرواح .

ونقل عن أبي عبيدة والكلبي أن (الصُّوْر) بسكون الواو جمع صورة ، كما يقال : سور المدينة جمع سورة ، والصوف جمع صوفه ، وبسر جمع بسرة .
وقالوا : المراد النفخ في الصور وهي الأجساد ، لتعاد فيها الأرواح وما ذكروه خطأ من وجوه :

الأول : أن القراءة التي نسبت إلى الحسن البصري لا تصح نسبتها إلى الأئمة الذين يحتج بقراءتهم .

الثاني : أن (صورة) تجمع على (صُوَر) ، ولا تجمع على (صُوْر) كما ادعى

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٦٨/٣) ، ورقمه : ١٠٨٠ .

أبو عبيدة والكلبي ، قال تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[1] ، ولم يعرف عن أحد من القراء أنه قرأها : فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ

الثالث : أن الكلمات التي ذكروها ليست بجموع وإنما هي أسماء جموع يفرق بينها وبين واحدتها بالتاء .

الرابع : أن هذا القول خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة ، فالذي عليه أهل السنة والجماعة أن الصور بوق ينفخ فيه .

الخامس : أن هذا القول مخالف لتفسير الرسول ﷺ ، حيث فسره بالبوق ، ومخالف للأحاديث الكثيرة الدالة على هذا المعنى .

السادس : أن الله تعالى قال : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[2] ، فقد أخبر الحق أنه ينفخ في الصور مرتين ، ولو كان المراد بالصور النفخ في الصُوَر التي هي الأبدان لما صح أن يقال : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾[2]، لأن الأجساد تنفخ فيها الأرواح عند البعث مرةواحدة[3] .

وما ذكره بعض أهل العلم من أن الصور من ياقوته أو من نور فلا نعلم في ذلك حديثا صحيحا ، والله أعلم .

---

(١) سورة غافر : ٦٤ .

(٢) سورة الزمر : ٦٨ .

(٣) راجع في هذه المسألة : تذكرة القرطبي : ١٨٢ ، ١٨٥ . فتح الباري (٣٦٧/١١) . لسان العرب : (٤٩٣/٢) .

المبحث الثالث

النفخ في الصور

قال ابن حجر العسقلاني : « اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عليه السلام ، ونقل فيه الحليمي الإجماع ، ووقع التصريح به في حدث وهب بن منبه ، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي ، وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه ، وكذا في حديث الصور الطويل »[1] .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن صاحب الصور مستعد دائما للنفخ فيه منذ أن خلقه الله تعالى ، ففي مستدرك الحاكم عن أبي هريرة رضي اللهعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن طَرْف صاحب الصور منذ وُكِّل به مستعد ينظر نحو العرش ، مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طَرْفه ، كأن عينيه كوكبان دُرّيان » قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي[2] .

وفي هذا الزمان الذي اقتربت فيه الساعة ، أصبح إسرافيل أكثر استعدادا وتهيؤا للنفخ في الصور ، فقد روى ابن المبارك في الزهد ، والترمذي في سننه ، وأبو نعيم في الحلية ، وأبو يعلى في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرك ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم ، وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر أن

---

(١) فتح الباري (١١/٣٦٨) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/٦٥) ، ورقمه (١٠٧٨) .

ينفخ ، فينفخ . قال المسلمون : فكيف نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، توكلنا على الله ربنا » وقال الترمذي : حديث حسن ، وقد ذكر الشيخ ناصر رواته من الصحابة وطرقه ومتابعاته وشواهده في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » بما يدلُّ على صحته[1] .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/٦٦) ، ورقمه : (١٠٧٩) .

المبحث الرابع

اليوم الذي يكون فيه النفخة

تقوم الساعة في يوم الجمعة ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنّة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة »[1] .

وفي حديث آخر أخبر الرسول ﷺ أن الساعة تقوم في يوم الجمعة ، وفيها يبعث العباد أيضا ، فعن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصَّعْقَة ، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليّ » رواه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة ، والدارمي ، والبيهقي في « الدعوات الكبير »[2] . وفي « مسند الطبراني الأوسط » ، و« الحلية » لأبي نعيم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عرضت عليَّ الأيام ، فعرض عليَّ فيها يوم الجمعة ، فإذا هي كمرآة بيضاء في وسطها نكتة سوداء ، فقلت : ماهذه ؟ قيل : الساعة »[3] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (١/٤٢٧) ، ورقمه : (١٣٥٦) .

(٢) مشكاة المصابيح : (١/٤٣٠) ، ورقمه : (١٣٦١) ، وقال ـ محقق المشكاة في إسناده عند أبي داود : صحيح ، وصححه جماعة .

(٣) رمز الشيخ ناصر للحديث بالصحة في صحيح الجامع : (٤/٣١) ، ورقمه (٣٨٩٥) وأورد طرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/٥٦٨) ، ورقمه (١٩٣٠) .

ولما كانت الساعة تقع في هذا اليوم فإن المخلوقات في كل يوم جمعةٍ تكون مشفقة خائفة إلا الإنس والجنّ ، ففي موطأ الإمام مالك ، وسنن أبي داود ، وسنن الترمذي والنسائي ، ومسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه هبط ، وفيه تيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، ومامن دابة إلا وهي مصيخة[1] ، يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس ، شفقا من الساعة ، إلا الجن والإنس »[2] .

---

(١) منتظرة قيام الساعة .

(٢) مشكاة المصابيح : (١/٤٢٨) ورقية (١٣٥٩) وعزاه محقق المشكاة إلى الموطأ والترمذي . وقال الترمذي فيه : حسن صحيح .

المبحث الخامس
كم مرة ينفخ الصور ؟

الذي يظهر أن إسرافيل ينفخ في الصور مرتين ، الأولى يحصل بها الصعق ، والثانية يحصل بها البعث ، قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[1] .

وقد سمى القرآن النفخة الأولى بالراجفة ، والنفخة الثانية بالرادفة ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾[2] .

وفي موضع آخر سمى الأولى بالصيحة ، وصرَّح بالنفخ بالصور في الثانية ، قال تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾[3] .

وقد جاءت الأحاديث النبوية مصرحة بالنفختين ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما بين النفختين أربعون » . قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوما ؟ قال : أبيت . قال : أربعون شهرا ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ؟ قال أبيت »[4] .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الزمر : ٦٨ .

(٢) سورة النازعات : ٦ ـ ٧ .

(٣) سورة يس : ٤٩ ـ ٥١ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الزمر ، فتح الباري : (٥٥١/١١) . ورواه مسلم في صحيحه (٢٢٧٠/٤) ، ورقمه : ٢٩٥٥ .

يقول : « ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ، ورفع ليتا[1] ، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال : فيصعق ، ويصعق الناس ، ثم يرسل الله ـ أو قال : ينزل الله مطرا ، كأنه الطلّ ، أو الظلُّ ، (نعمان[2] الشاك) فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »[3] .

وأخرج البيهقي بسند قويّ عن ابن مسعود موقوفا : « ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض ، فينفخ فيه ، والصور قرن ، فلا يبقى خلق في السموات ولا في الأرض إلا مات إلا من شاء ربك ، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون »[4] .

وروى أوس بن أوس الثقفي عن الرسول ﷺ قال : « إن أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه الصعقة وفيه النفخة »[5] ، وقد أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم[6] .

وقد رجح هذا الذي دلت عليه هذه الآيات والأحاديث التي سقناها جمع من أهل العلم ، منهم القرطبي[7] ، وابن حجر العسقلاني[8] .

وذهب جمع من أهل العلم إلى أنها ثلاث نفخات ، وهي نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث .

---

(١) الليت : صفحة العنق ، وإصغاؤه : إمالته .
(٢) هو نعمان بن سالم أحد رواة هذا الحديث .
(٣) رواه مسلم : (٢٢٥٨/٤) ، ورقمه : ٢٩٤٠ .
(٤) فتح الباري : (٣٧٠/١١) .
(٥) فتح الباري : (٣٧٠/١١) .
(٦) فتح الباري : (٣٧٠/١١) .
(٧) التذكرة للقرطبي : ١٨٣ ، ١٨٤ .
(٨) فتح الباري : (٣٦٩/١١) .

ومن ذهب هذا المذهب ابن العربي[1] ، وابن تيمية[2] ، وابن كثير[3] ، والسفاريني[4] . وحجة من ذهب هذا المذهب أن الله ذكر نفخة الفزع في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[5] .

كما احتجوا ببعض الأحاديث التي نصت على أن النفخات ثلاث ، كحديث الصور ، وهو حديث طويل ، أخرجه الطبري ، وفيه : « ثم ينفخ في الصور ثلاث نفخات ، نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام لرب العالمين »[6] . حديث ضعيف

أما استدلالهم بالآية التي تذكر نفخة الفزع فليست الآية صريحة على أن هذه نفخة ثالثة ، إذ لا يلزم من ذكر الحقِّ تبارك وتعالى للفزع الذي يصيب من في السموات والأرض عند النفخ في الصور أن تجعل هذه نفخة مستقلة ، فالنفخة الأولى تفزع الأحياء قبل صعقهم ، والنفخة الثانية تفزع الناس عند بعثهم .

يقول ابن حجر رحمه الله تعالى : « ولا يلزم من مغايرة الصعق الفزع أن لا يحصلا معا من النفخة الأولى »[7] ، وجاء في تذكرة القرطبي : « ونفخة الفزع هي نفخة الصعق ، لأن الأمرين لازمين لها ، أي فزعوا فزعا ماتوا منه »[8] .

أما حديث الصور فهو حديث ضعيف مضطرب كما يقول الحجة في علم

---

(١) فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٦٠) .
(٢) فتح الباري (١١/٣٦٩) ، تذكرة القرطبي : ص ١٨٤ .
(٣) النهاية لابن كثير : (١/٢٥٣) .
(٤) لوامع الأنوار البهية : (٢/١٦١) .
(٥) سورة النمل : (٨٧) .
(٦) فتح الباري : (١١/٣٦٩) .
(٧) فتح الباري : (١١/٣٦٩) .
(٨) تذكرة القرطبي : ١٨٤ .

الحديث ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى ، ونقل تضعيفه عن البيهقي[1] .

وذهب ابن حزم رحمه الله تعالى إلى « أن نفخات يوم القيامة أربع : الأولى نفخة إماتة ، والثانية نفخة إحياء ، يقوم بها كل ميت ، وينشرون من القبور ، ويجمعون للحساب .

والثالثة : نفخة فزع وصعق ، يفيقون منها كالمغشى عليه ، لا يموت منها أحد . والرابعة : نفخة إفاقة من ذلك الغشى »[2] .

قال ابن حجر بعد أن حكى مقالة ابن حزم : « هذا الذي ذكره من كون الثنتين أربعا ليس بواضح ، بل هما نفختان فقط ، ووقع التغاير في كل واحد منهما باعتبار من يستمعها ، فالأولى يموت فيها كل من كان حيا ، ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله . والثانية : يعيش بها من مات ، ويفيق بها من غشي عليه ، والله أعلم »[3] .

---

(١) فتح الباري : (١١/٣٦٩) .

(٢) فتح الباري : (٦/٤٤٦) .

(٣) فتح الباري : (٦/٤٤٦) .

المبحث السادس
الذين لا يصعقون عند النفخ في الصور

أخبرنا الباري جلَّ وعلا أن بعض من في السموات ومن في الأرض لا يصعقون عندما يصعق من في السموات ومن في الأرض ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[(1)] .

وقد اختلف العلماء في تعيين الذين عناهم الحق بالاستثناء في قوله : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ .

١ ـ فذهب ابن حزم إلى أنهم جميع الملائكة ، لأن الملائكة في اعتقاده أرواح لا أرواح فيها ، فلا يموتون أصلاً[(2)] .

وهذا الذي ذهب إليه من أن الملائكة لا يموتون لا يُسَلَّم له ، فالملائكة خلق من خلق الله تبارك وتعالى ، وهم عبيد مربوبون مقهورون ، خلقهم ، وهو قادر على إماتتهم وإحيائهم ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه ، وعن غير واحد من الصحابة أنه قال : « إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة منه مثل الغشى » ، وفي رواية : « إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا » فأخبر في هذا الحديث أنهم يصعقون صعق الغشي ، فإذا جاز عليهم صعق الغشي ، جاز عليهم صعق الموت »[(3)] .

---

(١) سورة الزمر : ٦٨ .

(٢) فتح الباري : (٦/٣٧١) .

(٣) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٦٠) .

٢ ـ وذهب مقاتل وغيره إلى أنهم جبرائيل ومَيكائيل وإسرافيل وملك الموت[١] .
وأضاف إليه بعض أهل العلم جملة العرش[٢] .
وصحة هذا متوقف على أحاديث رووها ، وأهل العلم بالحديث لا يصححون مثلها[٣] .

٣ ـ وذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أن المراد بهم الذين في الجنة من الحور العين والولدان ، وأضاف إليهم أبو إسحق بن شاقلا من الحنابلة ، والضحاك بن مزاحم خزان الجنة والنار ومافيها من الحيات والعقارب[٤] .

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : « وأما الاستثناء فهو متناول لما في الجنة من الحور العين ، فإن الجنة ليس فيها موت »[٥] .

٤ ـ وقد جنح أبو العباس القرطبي صاحب « المفهم إلى شرح مسلم » إلى أن المراد بهم الأموات كلهم ، لكونهم لا إحساس لهم ، فلا يصعقون[٦] .

وما ذهب إليه أبو العباس صحيح إذا فسرنا الصعق بالموت ، فإن الإنسان يموت مرة واحدة ، قال تعالى : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[٧] .

وقد عقد ابن القيم في كتابه : « الروح » فصلا بيّن فيه أن أهل العلم قد اختلفوا في موت الأرواح عند النفخ في الصور .

---

(١) الروح لابن القيم : ص ٥٠ ، وفتح الباري : (٦/٣٧١) .
(٢) فتح الباري : (٦/٣٧١) .
(٣) راجع فتح الباري : (٦/٣٧١) .
(٤) الروح لابن القيم : ص ٥٠ ، وفتح الباري : (٦/٣٧١) .
(٥) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٦١) .
(٦) فتح الباري : (٦/٣٧٠) .
(٧) سورة الدخان : ٥٦ .

والذي رجحه ابن القيم أن موت الأرواح هو مفارقتها للأجساد ، وخروجها منها ، وردَّ قول الذين قالوا بفناء الأرواح وزوالها ، لأن النصوص دلت على أن الأرواح تبقى في البرزخ معذَّبة أو منعمة [1] .

أما إذا فسرنا الصعق بالغشى ، فإن الأرواح تصعق بهذا المعنى ولا تكون داخلة فيمن استثنى الله تبارك وتعالى ، فإن الإنسان قد يسمع أو يرى ما يفزعه ، فيصعق ، كما وقع لموسى عندما رأى الجبل قد زال من مكانه ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [2] .

وقد جاء هذا المعنى صريحا في بعض النصوص ، ففي حديث أبي هريرة ، عن البخاري قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله » [3] .

ورواه البخاري أيضا عن أبي هريرة بلفظ « إني أَول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش ، فلا أدري ، أكذلك كان ، أم بعد النفخة » [4] .

ورواه في موضع ثالث بلفظ : « فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن أفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله » [5] .

---

(١) الروح ، لابن القيم : ص ٤٩ .
(٢) سورة الأعراف : ١٤٣ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب وفاة موسى ، فتح الباري : (٦/٤٤١) .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الزمر ، فتح الباري : (٨/٥٥١) .
(٥) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب النفخ في الصور ، فتح الباري : (١١/٣٦٧) .

وهذا الحديث صريح في أن الموتى يصعقون ، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو سيد المرسلين يصعق ، فغيره أولى بالصعق .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يصعق صعق غشى هم الشهداء دون غيرهم من الأموات ، وأضاف إليهم آخرون من الأنبياء .

والسر في قصر هذا على الشهداء والأنبياء ـ كما يقول شيخ القرطبي : أحمد ابن عمر ـ « أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء في الدنيا ، وإذاكان هذا حال الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأن النبي ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس ، وفي السماء ، وخصوصا بموسى ، وقد أخبرنا النبي ﷺ أن الله تبارك وتعالى يردُّ عليه روحه ، حتى يرد السلام على كل من يسلم عليه ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم ، وإن كانوا موجودين أحياء . . . وإذاتقرر أنهم أحياء ، فإذانفخ في الصور نفخة الصعق ، صعق كل من في السموات ومن في الأرض ، إلا من شاء الله »[1] .

وذهب إلى أن الشهداء والأنبياء يصعقون صعق غشى البيهقي فقال في صعق الأنبياء : « ووجهه عندي أنهم أحياء عند ربهم كالشهداء ، فإذانفخ في الصور النفخة الأولى صعقوا ، ثم لا يكون ذلك موتا في جميع معانيه ، إلا في ذهاب الاستشعار ، وقد جوز النبي ﷺ أن يكون موسى ممن استثنى الله ، فإن كان منهم فإنه لا يذهب استشعاره في تلك الحالة بسبب ما وقع في صعقة الطور »[2] .

---

(١) تذكرة القرطبي : ١٦٩ .

(٢) فتح الباري : (٣٧١/١١) .

وبناء على هذا الفقه يكون الأنبياء والشهداء من الذين يصعقون ، ولا يكونون داخلين في الاستثناء ، وقد نقل عن ابن عباس وأبي هريرة وسعيد بن جبير أن الأنبياء والشهداء من الذين استثناهم الله[1] ، وعزاه ابن حجر إلى البيهقي[2] ، فإن كان المراد استثناؤهم من الموت فإن هذا حق ، وإن كان المراد استثناؤهم من الصعق الذي يصيب الأموات كما دل عليه حديث موسى فالأمر ليس كذلك .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأولى بالمسلم التوقف في تعيين الذين استثناهم الله ، لأنه لم يصح في ذلك نص يدل على المراد .

قال القرطبي صاحب التذكرة : « قال شيخنا أبو العباس : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح ، والكل محتمل »[3]

وقال ابن تيمية : « وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين ، فإن الجنة ليس فيها موت ، ومتناول لغيرهم ، ولا يمكن الجزم بكل ما استثناه الله ، فإن الله أطلق في كتابه . . . والنبي ﷺ قد توقف في موسى ، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا ؟

فإذا كان النبي ﷺ لم يُخْبَر بكل من استثنى الله ، لم يمكننا نحن أن نجزم بذلك ، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء ، وأمثال ذلك مما لم يخبر الله به ، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر ، والله أعلم »[4] .

---

(١) الروح لابن القيم : ٥٠ .
(٢) فتح الباري : (١١/٣٧١) .
(٣) التذكرة : ص ١٦٧ .
(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٦١) .

ونقل القرطبي عن الحليمي أنه أبى أن يكون المستثنون هم حملة العرش أو جبرائيل وميكائيل وملك الموت ، أو الولدان والحور العين في الجنة ، أو موسى ، ثم بيَّن سرّ إنكاره لهذا فقال : « أما الأول ، فإن حملة العرش ليسوا من سكان السموات ولا الأرض ، لأن العرش فوق السموات كلها ، فكيف يكون حملته في السموات .

وأما جبرائيل وميكائيل وملك الموت فمن الصافين المسبحين حول العرش ، وإذاكان العرش فوق السموات ، لم يكن الاصطفاف حوله في السموات . وكذلك القول الثاني لأن الولدان والحور العين في الجنان ، والجنان وإن كان بعضها أرفع من بعض ، فإن جميعها فوق السموات ودون العرش ، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء ، فلا شك أنها بمعزل عما خلق الله تعالى للفناء ، وصَرْفَه إلى موسى لا وجه له ، لأنه قد مات بالحقيقة ، فلا يموت عند نفخ الصور ثانية »[1] .

ورد قول الذين قالوا المستثنون هم الأموات « لأن الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله في الجملة ، فأما من لا يمكن دخوله في الجملة فيها ، فلا معنى لاستثنائه منها ، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليسوا بفرض أن يصعقوا فلا وجه لاستثنائهم »[2] .

والذي اختاره أن الغشية التي تصيب موسى ليست هي الصعقة التي تهلك الناس وتميتهم ، وإنما هي صعقة تصيب الناس في الموقف بعد البعث ، على أحد الاحتمالين عنده .

ونقل القرطبي عن شيخه أحمد بن عمر أنه ذهب هذا المذهب ، قال

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ١٦٨ .

(٢) التذكرة : ص ١٦٨ .

القرطبي : « قال شيخنا أحمد بن عمر : وظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن ذلك إنماهو بعد النفخة الثانية نفخة البعث ، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخةالصعق ، ولما كان هذا قال بعض العلماء ، يحتمل أن يكون موسى عليه السلام ممن لم يمت من الأنبياء ، وهذا باطل ، بماتقدم من ذكر موته .

وقال القاضي عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشر ، حين تنشق السموات والأرض فتستقل الأحاديث والآيات والله أعلم »[1] .

وقد جزم ابن القيم رحمه الله تعالى بأن الصعقة التي تحدَّث عنها الرسول ﷺ ، هي صعقة تكون بعد البعث ، وهي المرادة بقوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾[2] [3] والله أعلم بالصواب .

---

(١) التذكرة : ص ١٦٨ .

(٢) سورة الطور : ٤٥ .

(٣) الروح : ص ٥٢ .



الفصل الثالث
البعث والنشور

المبحث الأول
التعريف بالبعث والنشور

المراد بالبعث المعاد الجسماني ، وإحياء العباد في يومي المعاد ، والنشور مرادف للبعث في المعنى ، يقال : نشر الميت نشورا إذا عاش بعد الموت ، وأنشره الله أحياه . فإذا شاء الحق تبارك وتعالى إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد ، ويقوم الناس لرب العالمين ، ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(١) .

وقد حدثنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن مشهد البعث العجيب الغريب فقال : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾(٢) .

وقد جاءت الأحاديث مخبرة بأنه يسبق النفخة الثانية في الصور نزول ماء من

---

(١) سورة الزمر : ٦٨ .

(٢) سورة يس : ٥١ .

السماء ، فتنبت منه أجساد العباد ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا .

قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال : فيصعق ، ويصعق الناس . ثم يرسل الله ـ أو قال : ينزل الله ـ مطرا كأنه الطَّلُّ أو الظِّلُّ ، (نعمان أحد رواة الحديث هو الشاك) فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »[1] .

وإنبات الأجساد من التراب بعد إنزال الله ذلك الماء الذي ينبتها يماثل إنبات النبات من الأرض إذا نزل عليها الماء من السماء في الدنيا ، ولذا فإن الله قد أكثر في كتابه من ضرب المثل للبعث والنشور بإحياء الأرض بالنبات غبّ نزول الغيث ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2] . وقال في موضع آخر : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[3] .

ولاحظ في كلا الموضعين قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ، ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ ، فإنهما يدلان على المماثلة والمشابهة بين إعادة الأجسام بإنباتها من التراب بعد إنزال الماء قبيل النفخ في الصور ، وبين إنبات النبات بعد نزول الماء من السماء . ونحن نعلم أن النبات يتكون من بذور صغيرة ، تكون في الأرض ساكنة

---

(١) صحيح مسلم : (٤/٢٢٥٩) ، ورقمه : ٢٩٤٠ .
(٢) سورة الأعراف : ٥٦ .
(٣) سورة فاطر : ٩ .

هامدة ، فإذا نزل عليها الماء تحركت الحياة فيها ، وضربت بجذورها في الأرض ، وبسقت بسوقها إلى السماء ، فإذا هي نبتة مكتملة خضراء .

والإنسان يتكون في اليوم الآخر من عظم صغير ، عندما يصيبه الماء ينمو نمو البقل ، هذا العظم هو عجب الذنب ، وهو عظم الصلب المستدير الذي في أصل العجز ، وأصل الذنب . ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون ، ثم ينزل من السماء ماء ، فينبتون كما ينبت البقل ، وليس في الإنسان شيء إلا بَلِي ، إلا عظم واحد ، وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة » .

ولمسلم طرف في عجب الذنب ، قال : « إن في الإنسان عَظْما لا تأكله الأرض أبدا ، فيه يركب يوم القيامة ، قالوا : أي عَظْم هو يارسول الله ؟ قال : عجب الذنب » .

وفي رواية له وللموطأ وأبي داود والنسائي قال : قال رسول الله ﷺ : « كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ، منه خلق ، وفيه يركب »[1] .

وقد دلت النصوص الصحيحة أن أجساد الأنبياء لا يصيبها البلى والفناء الذي يصيب أجساد العباد ، ففي الحديث الذي يرويه أبو داود ، وصححه ابن خزيمة وغيره : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »[2] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٤٢١) ، ورقمه : ٧٩٤١ .

(٢) انظر فتح الباري : (٦/٤٨٨) .

المبحث الثاني
البعث خلق جديد

يعيد الله العباد أنفسهم ، ولكنهم يخلقون خلقا مختلفا شيئا ما عما كانوا عليه في الحياة الدنيا ، فمن ذلك أنهم لا يموتون مهما أصابهم البلاء ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[1] ، وفي الحديث الذي يرويه الحاكم بإسناد صحيح عن عمرو بن ميمون الأودي قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : « يابني أود، إني رسول رسول الله ﷺ تعلمون المعاد إلى الله ، ثم إلى الجنة أو النار ، وإقامة لا ظعن فيه ، وخلود لا موت ، في أجساد لا تموت » ورواه الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » بنحوه[2] .

ومن ذلك إبصار العباد مالم يكونوا يبصرون ، فإنهم يبصرون في ذلك اليوم الملائكة والجن ، وماالله به عليم ، ومن ذلك أن أهل الجنة لا يبصقون ولا يتغوطون ولا يتبولون .

وهذا لا يعني أن الذين يبعثون في يوم الدين خلق آخر غير الخلق الذي كانوا في الدنيا ، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : « النشأتان نوعان تحت جنس : يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه ، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر ، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ ، وجعله مثله أيضا .

فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو ، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله ، وهكذا كل ما أعيد ، فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ والمعاد . . »[3] .

---

(١) سورة ابراهيم : ١٧ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٢٣١) ورقم الحديث : ١٦٦٨ .

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (١٧/٢٥٣) وقد أطال الشيخ رحمه الله تعالى في بيان المعنى الذي نقلناه عنه . فارجع إليه إن شئت المزيد من الإيضاح والبيان .

المبحث الثالث

أول من تنشق عنه الأرض

أول من يبعث وتنشق عنه الأرض هو نبينا محمد ﷺ ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع .. وأول مشفع »[1] .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « استب رجل من المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمد على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم عند ذلك يده ، فلطم اليهودي ، فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم ، فقال : لا تُخَيِّروني على موسى ، فإنَّ الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق ، أو كان ممن استثنى الله عز وجل » .

وفي رواية لهما « . . . فإنه ينفخ في الصور ، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يبعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فلا أدري : أحوسب بصعقة الطور ، أم بعث قبلي ؟ »[2] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ (١٧٨٢/٤) ورقمه : ٢٢٧٨ .
(٢) جامع الأصول : (٥١٣/٨) ، ورقمه (٦٣٠٨) .

المبحث الرابع
حشر الخلائق جميعاً إلى الموقف العظيم

سمى الله يوم الدين بيوم الجمع ، لأن الله يجمع العباد فيه جميعا ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾[١] ، ويستوي في هذا الجمع الأولون والآخرون، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[٢].

وقدرة الله تحيط بالعباد ، فالله لا يعجزه شيء ، وحيثما هلك العباد فإن الله قادر على الإتيان بهم ، إن هلكوا في أجواز الفضاء ، أو غاروا في أعماق الأرض ، وإن أكلتهم الطيور الجارحة أوالحيوانات المفترسة ، أو أسماك البحار ، أو غيبوا في قبورهم في الأرض ، كل ذلك عند الله سواء ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٣] .

وكما أن قدرة الله محيطة بعباده تأتي بهم حيثما كانوا ، فكذلك علمه محيط بهم ، فلا ينسى منهم أحد ، ولا يضلُّ منهم أحد ، ولا يشذُّ منهم أحد ، لقَد أحصاهم خالقهم تبارك وتعالى ، وعدَّهم عدّا ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾[٤] ، ﴿ وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[٥] .

---

(١) سورة هود : ١٠٣ .

(٢) سورة الواقعة : ٥٠ .

(٣) سورة البقرة : ١٤٨ .

(٤) سورة مريم : ٩٣ - ٩٥ .

(٥) سورة الكهف : ٤٨ .

وهذه النصوص بعمومها تدل على حشر الخلق جميعا الإنس والجن والملائكة ، ولا حرج على من فقه منها أن الحشر يتناول البهائم أيضا .

وقد اختلف أهل العلم في حشر البهائم ، فذهب ابن تيمية رحمه الله ـ إلى أن ذلك كائن .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « وأما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه ، كما دلَّ عليه الكتاب والسنة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾[3] ، وحرف « إذا » إنما يكون لما يأتي لا محالة[4] .

وحكى القرطبي خلاف أهل العلم في حشر البهائم ورجح أن ذلك كائن للأخبار الصحيحة في ذلك ، قال القرطبي : « واختلف الناس في حشر البهائم ، وفي قصاص بعضها من بعض ، فروي عن ابن عباس أن حشر البهائم موتها ، وقاله الضحاك . وروي عن ابن عباس في رواية أخرى أن البهائم تحشر وتبعث ، وقاله أبو ذر وأبو هريرة وعمرو بن العاص ، والحسن البصري وغيرهم ، وهو

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٢) سورة التكوير : ٥ .

(٣) سورة الشورى : ٢٩ .

(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٤٨/٤) .

الصحيح ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[1] .

قال أبو هريرة : يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة : البهائم ، والطير ، والدواب ، وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كوني ترابا ، فذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾[2] ونحوه »[3] .

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٢) سورة النبأ : ٤٠ .

(٣) تذكرة القرطبي : ٢٧٣ .

المبحث الخامس
صفة حشر العباد

يحشر العباد حفاة عراة غرلا أي غير مختونين ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ : قال : « إنكم محشورون حفاة عراة غرلا » ثم قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[1][2] .

وعندما سمعت عائشة الرسول ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا » قالت : يا رسول الله ، الرجال والنساء جميعا ، ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض »متفق عليه[3] .

وقد جاء في بعض النصوص أن كل إنسان يبعث في ثيابه التي مات فيها ، فقد روى أبو داود وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد ، فلبسها ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها » وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وقال الشيخ ناصر الدين فيه : وهوكما قالا[4] .

وقد وفّق البيهقي بين هذا الحديث وسابقه بثلاثة أوجه :

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

(٢) مشكاة المصابيح : (٣/٧٥) ، ورقم الحديث : ٥٥٣٥ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣/٥٧) ، ورقم الحديث : ٥٥٣٦ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٢٣٤) ، ورقم الحديث : ١٦٧١ .

الأول : أنها تبلى بعد قيامهم من قبورهم ، فإذا وافَوْا الموقف يكونون عراة ، ثم يلبسون من ثياب الجنة .

الثاني : أنه إذا كسي الأنبياء ثم الصديقون ، ثم من بعدهم على مراتبهم فتكون كسوة كل إنسان من جنس ما يموت فيه ، ثم إذا دخلوا الجنة لبسوا من ثياب الجنة .

الثالث : أن المراد بالثياب هاهنا الأعمال ، أي يبعث في أعماله التي مات فيها من خير أو شر ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[2] .

واستشهد البيهقي على هذا الجواب الأخير بحديث الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث كل عبد على ما مات عليه »[3] .

وحديث جابر هذا رواه مسلم في صحيحه[4] ، ولا يفقه منه أن العبد يبعث في ثيابه التي كُفِّنِ فيها أو مات فيها ، وإنما يبعث على الحال التي مات عليها من الإيمان والكفر ، واليقين والشك ، كما يبعث على العمل الذي كان يعمله عند موته يدلُّ على هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله بقوم عذابا ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم »[5] .

---

(١) سورة الأعراف : ٢٦ .

(٢) سورة المدثر : ٤ .

(٣) النهاية لابن كثير : (١/٢٨٨) .

(٤) رواه مسلم : (٤/٢٢٠٦) . وقم الحديث : ٢٨٧٨ .

(٥) صحيح مسلم (٢/٢٢٠٦) ورقم الحديث : ٢٨٧٩ .

فالذي يموت وهو محرم يبعث يوم القيامة ملبيا ، ففي صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد عن عبدالله بن عباس قال : إن رجلا كان مع النبي ﷺ فوقصته[1] ناقته وهو محرم فمات ، فقال رسول الله ﷺ : « اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه في ثوبيه ، ولاتُمِسُّوه بطيب ، ولا تخمروا رأسه[2] ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا »[3] .

والشهيد يبعث يوم القيامةوجرحه يثعب اللون لون الدم والريح ريح المسك .

ومن هنا استحب تلقين الميت لا إله إلاّ الله ، لعله يموت على التوحيد ، ثم يبعث يوم القيامةناطقا بهذه الكلمة الطيبة .

---

(١) أي أسقطته فكسرت عنقه .

(٢) أي لا تغطّوا رأسه .

(٣) مشكاة المصابيح : (١/ ٥٢٠) ، ورقم الحديث : ١٦٣٧ .

المبحث السادس
كسوة العباد في يوم المعاد

ذكرنا فيما سبق أن الله يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، كما صحت بذلك الأحاديث ، ثم يكسى العباد ، فالصالحون يكسون الثياب الكريمة ، والطالحون يسربلون بسرابيل القطران ، ودروع الجرب ، ونحوها من الملابس المنكرة الفظيعة .

وأول من يكسى من عباد الله نبيّ الله إبراهيم خليل الرحمن ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل »(١) .

قال ابن حجر : « وأخرج البيهقي من طريق ابن عباس نحو حديث الباب وزاد : « وأول من يكسى من الجنة إبراهيم ، يكسى حلة من الجنة ، ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش ، ثم يؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر »(٢) .

وذكر العلماء أن تقديم إبراهيم على غيره بالكسوة في يوم القيامة ، لأنه لم يكن في الأولين والآخرين أخوف لله منه ، فتعجل له الكسوة أمانا له ليطمئن قلبه ،

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب الحشر ، فتح الباري : (١١/٣٧٧) ، ورواه أيضا في كتاب الأنبياء ، انظر فتح الباري : (٦/٣٨٧) .
(٢) فتح الباري : (١١/٣٨٤) .

ويحتمل لأنه ـ كما جاء في الحديث ـ أول من لبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر وحفظا لفرجه من أن يماسَّ مصلاه ، ففعل ما أمر به ، فجزى بذلك أن يكون أول من يستر يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا ثيابه على أعين الناس ، كمن يفعل بمن يراد قتله ، فجزي بكسوته في يوم القيامة أول الناس على رؤوس الأشهاد ، وهذا أحسنها »[1] .

(١) تذكرة القرطبي : ٢٠٩ .



الفصل الرابع

أرض المحشر

الأرض التي يحشر العباد عليها في يوم القيامة أرض أخرى غير هذه الأرض ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1] . وقد حدثنا الرسول ﷺ عن صفة هذه الأرض الجديدة التي يكون عليها الحشر ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي » قال سهل أو غيره : « ليس فيها معلم لأحد »[2] .

قال الخطابي : العفر : بياض ليس بناصع . وقال عياض : العفر بياض يضرب إلى حمرة قليلا . وقال ابن فارس : معنى عفراء خالصة البياض[3] .

والنَقِيّ : بفتح النون وكسر القاف ، أي الدقيق النَقِيّ من الغش والنخال[4] .

والمعْلم : العلامة التي يهتدى بها إلى الطريق ، كالجبل والصخرة ، أو ما

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٨ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب يقبض الله الأرض ، فتح الباري : (٣٧٢/١١) . ومسلم في كتاب صفات المنافقين ، باب البعث والنشور . (٢١٥/٤) ورقم الحديث : ٢٧٩٠ والسياق للبخاري .

(٣) فتح الباري : (٣٧٥/١١) .

(٤) المصدر السابق .

يضعه الناس دالا على الطرقات ، أو على قسمة الأراضي .

وقد جاءت نصوص كثيرة عن عدة من الصحابة تفيد معنى الحديث الذي سقناه هنا ورواه صاحبا الصحيح ، فقد أخرج عبد بن حميد والطبري في تفاسيرهم والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عمرو بن ميمون عن عبدالله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[1] الآية . قال : تبدل الأرض أرضا كأنها الفضة لم يسفك عليها دم حرام ، ولم يعمل عليها خطيئة ، ورجاله رجال الصحيح ، وهو موقوف ، وأخرجه البيهقي من وجه آخر مرفوع . وقال : الموقوف أصح[2] .

وأخرجه الطبري والحاكم من طريق عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود بلفظ « أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة » ورجاله موثقون أيضا[3] .

وعند عبد بن حميد من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة قال : بلغنا أن هذه الأرض يعني أرض الدنيا تطوى ، وإلى جنبها أخرى يحشر الناس منها إليها . وفي حديث الصور الطويل : « تبدَّل الأرض غير الأرض والسموات ، فيبسطها ويسطحها ، ويمدّها مدَّ الأديم العكاظي ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة ، فإذا هم في هذه الأرض المبدَّلة ، في مثل مواضعهم من الأولى ، ما كان في بطنها كان في بطنها ، وما كان على ظهرها كان على ظهرها[4] .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يبدَّل من الأرض إنما هو صفاتها فحسب ، فمن ذلك حديث عبدالله بن عمرو الموقوف عليه ، قال : « إذا كان يوم

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٨ .
(٢) فتح الباري : (١١/٣٧٥) .
(٣) فتح الباري : (١١/٣٧٥) .
(٤) فتح الباري : (١١/٣٧٥) .

القيامة مُدَّت الأرض مدّ الأديم ، وحشر الخلائق » . ومن ذلك حديث جابر رفعه : « تمدُّ الأرض مدّ الأديم ، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه ». ورجاله ثقات ، إلا أنه اختلف على الزهري في صحابيه[1] .

ومنها حديث ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[2] ، قال : « يزاد فيها ، وينقص منها ، ويذهب آكامها وجبالها ، وأوديتها ، وشجرها ، وتمدّ مدَّ الأديم العكاظى[3] » .

الوقت الذي تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات

أفادنا الرسول ﷺ أن الوقت الذي يتم فيه هذا التبديل هو وقت مرور الناس على الصراط أو قبل ذلك بقليل ، ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾[4] ، فأين يكون الناس يا رسول الله ؟ فقال : على الصراط »[5] .

وفي صحيح مسلم أيضا عن ثوبان أن حَبْرَاً من أحبار اليهود سأل الرسول ﷺ فقال : أين يكون الناس يوم تبَدَّل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هم في الظلمة دون الجسر »[6] ، والمراد بالجسر الصراط .

---

(١) فتح الباري : (٣٧٦/١١) .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٨ .

(٣) فتح الباري (٣٧٦/١١) .

(٤) سورة ابراهيم : ٨٤ .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين ، باب البعث والنشور ، (٢١٥٠/٤) ورقمه (٢٧٩١) .

(٦) صحيح مسلم ، كتاب الحيض ، باب بيان صفة منى الرجل والمرأة ، (٢٥٢/١) ، ورقمه (٣١٥) .

الفصل الخامس

المكذبون بالبعث والأدلة على أنه كائن

المبحث الأول

المكذبون بالبعث والنشور

كذَّب كثير من الناس قديما وحديثا بالبعث والنشور ، وبعض الذين قالوا بإثباته صَوَّرُوه على غير الصورة التي أخبرت بها الرسل .

وقد ذكر القرآن قول المكذبين وذمهم وكفرهم وتهدَّدهم وتوعدهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُل كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[3] . والنصوص في ذلك كثيرة .

---

(١) سورة الرعد : ٥ .

(٢) سورة الأنعام : ٢٩ .

(٣) سورة الإسراء : ٤٩ ـ ٥١ .

وقد تعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لبيان أنواع المكذبين بالبعث والنشور من اليهود والنصارى والصابئة والفلاسفة ومنافقي هذه الأمة فقال :

« الذين كفروا من اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح في الجنة ، ويزعمون أن أهل الجنّة إنّما يتمتعون بالأصوات المطربة والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح ، وهم يقرُّون مع ذلك بِحشر الأجساد مع الأرواح ونعيمها وعذابها .

وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرون بحشر الأرواح فقط ، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط ، وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية ، فلا يقرّون لا بمعاد الأرواح ، ولا الأجساد ، وقد بيّن الله تعالى في كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد ، ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك ، بيانا تاما غاية التمام والكمال .

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرِّون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرِّفون الكلام عن مواضعه ، ويقولون هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحاني ، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة ، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام ، وطائفة ممن ضاهوهم : من كاتب ، أو متطبب ، أو متكلم ، أو متصوف ، كأصحاب رسائل « إخوان الصفا » وغيرهم ، أو منافق ، وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان »[1] .

وذكر رحمه الله تعالى في موضع آخر « أن باطنية الفلاسفة يفسرون ما وعد

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٣١٣/٤ بتصرف يسير .

الناس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم ، لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها ، ويتألم بها[1] » .

وحقيقة قول هؤلاء أن الله لم يكن صادقا في إخباره عن حقائق مافي المعاد ، وكذلك رسوله ﷺ ، ولذلك سمى شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الصنف من المتفلسفة المخالف لما عليه المسلمون في أمر المعاد (بأهل التخييل) ، وقال فيهم : « فأهل التخييل » هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم ، من متكلم ومتصوف ومتفقه ، فإنهم يقولن : إن ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور ، لا أنه بينٌ به الحق ، ولا هدى الخلق ، ولا أوضح الحقائق »[2]

ويمكننا أن نصنف المكذبين بالبعث والنشور إلى ثلاثة أصناف :

الأول : الملاحدة الذين أنكروا وجود الخالق ، ومن هؤلاء كثير من الفلاسفة الدهرية الطبائعية ، ومنهم الشيوعيون في عصرنا . وهؤلاء ينكرون صدور الخلق عن خالق ، فهم منكرون للنشأة الأولى والثانية ، ومنكرون لوجود الخالق أصلا .

ولا يحسن مناقشة هؤلاء في أمر المعاد ، بل يناقشون في وجود الخالق ووحدانيته أولا ثم يأتي إثبات المعاد بعد ذلك ، لأن الإيمان بالمعاد فرع الإيمان بالله .

الثاني : الذين يعترفون بوجودالخالق ، ولكنهم يكذبون بالبعث والنشور ، ومن هؤلاء العرب الذين قال الله فيهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) مجموع الفتاوي : ١٣/ ٢٣٨ .
(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/ ٣١ .

وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[1] وهم القائلون فيما حكاه الله عنهم : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2] .

وهؤلاء يدّعون أنهم يؤمنون بالله ، ولكنّهم يَدَّعون أن قدرة الله عاجزة عن إحيائهم بعد إماتتهم ، وهؤلاء هم الذين ضرب الله لهم الأمثال ، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور ، وأنه لا يعجزه شيء . ومن هؤلاء طائفة من اليهود يُسَمَّون بالصادوقيين ، يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بتوراة موسى ، وهم يُكَذِّبون بالبعث والنشور والجنة والنار .

الثالث : الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاءت بها الشرائع السماوية .

---

(١) سورة لقمان : ٢٥ .

(٢) سورة النمل : ٦٧ ـ ٦٨ .

المبحث الثاني
أدلة البعث والنشور

الإيمان بالمعاد دلَّ عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والقرآن كله من فاتحته إلى خاتمته مملوء بذكر أحوال اليوم الآخر ، وتفاصيل مافيه ، وتقرير ذلك بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد ، وكما ذكر القرآن الأدلة عليه ، رد على منكريه ، وبيَّن كذبهم وافتراءَهم .

والفطرة السليمة تدلُّ عليه وتهدي إليه ، ولا صحة لما يزعمه الضالون من أن العقول تنفي وقوع البعث والنشور ، فإنَّ العقول لا تمنع وقوعه ، والأنبياء لا يأتون بما تحيل العقول وقوعه ، وإن جاؤوا بما يحيِّر العقول ، ولذلك قال علماؤنا : الشرائع تأتي بمحارات العقول ، لا بمحالات العقول .

وسنذكر الأدلة المثبتة للبعث والنشور التي استخلصناها من الكتاب الكريم .

أولاً : إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة :

أعظم الأدلة الدالة على وقوع المعاد إخبار الحق تبارك وتعالى بذلك ، فمن آمن بالله ، وصدَّق برسوله الذي أرسل ، وكتابه الذي أنزل فلا مناص له من الإيمان بماأخبرنا به من البعث والنشور ، والجزاء والحساب ، والجنَّة والنار .

وقد نوَّع الحقُّ تبارك وتعالى أساليب الإخبار ليكون أوقع في النفوس وآكد في القلوب .

١ ــ ففي بعض المواضع يخبرنا بوقوع ذلك اليوم إخباراً مؤكدا « بإن » ، أو « بإنَّ واللام » كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[1]. وقوله :﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[2] . وقوله : ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾[3] . وقوله : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾[4] .

٢ ــ وفي مواضع أخرى يقسم الله تعالى على وقوعه ومجيئه كقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[5] . ويقسم على تحقق ذلك بما شاء من مخلوقاته كقوله : ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[6]، وقوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[7] .

٣ ــ وفي بعض المواضع يأمر رسوله بالإقسام على وقوع البعث وتحققه ، وذلك في معرض الردّ على المكذبين به المنكرين له ، كقوله : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[8]. وقوله : ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾[9] . وقوله:﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾[10].

٤ ــ وفي مواضع أخرى يذمُّ المكذبين بالمعاد ، كقوله : ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

---

(١) سورة طه : ١٥ .
(٢) سورة الحجر : ٨٥ .
(٣) سورة الأنعام : ١٣٤ .
(٤) سورة المرسلات : ٧ .
(٥) سورة النساء : ٨٦ .
(٦) سورة الذاريات : ١ ـ ٦ .
(٧) سورة الطور : ١ ـ ٨ .
(٨) سورة سبأ : ٣ .
(٩) سورة يونس : ٥٣ .
(١٠) سورة التغابن : ٧ .

بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[1] . وقوله : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾[2] . وقوله : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾[3] .

٥ ـ وأحيانا يمدح المؤمنين بالمعاد ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[4] . وقوله : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[5] . وقوله : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[6] .

٦ ـ وأحيانا يخبر أنه وعد صادق ، وخبر لازم ، وأجل لا شك فيه ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾[7] . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾[8] ، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾[9] . ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾[10] .

---

(١) سورة يونس : ٤٥ .
(٢) سورة الشورى : ١٨ .
(٣) سورة النمل : ٦٦ .
(٤) سورة آل عمران : ٧ ـ ٩ .
(٥) سورة البقرة : ١ ـ ٥ .
(٦) سورة البقرة : ١٧٧ .
(٧) سورةهود : ١٠٣ .
(٨) سورة لقمان : ٣١ .
(٩) سورة سبأ ٢٩ ـ ٣٠ .
(١٠) سورة الزخرف : ٨٣ .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾[1] .

٧ ــ وفي بعض الأحيان يخبر عن مجيئه واقترابه كقوله ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾[2] وقوله ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[3] ، وقوله ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[4] .

٨ ــ وفي مواضع أخرى يمدح نفسه تبارك وتعالى بإعادة الخلق بعد موتهم ، ويذم الآلهة التي يعبدها المشركون بعدم قدرتها على الخلق وإعادته كقوله : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[5] . وقوله : ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[6] .

٩ ــ وبيَّن في مواضع أخرى أن هذا الخلق وذاك البعث الذي يعجز العباد ويذهلهم سهل يسير عليه ، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[7] وقال : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[8] .

ثانياً : الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى :

استدلَّ القرآن على الخلق الثاني بالخلق الأول ، فنحن نشاهد في كلِّ يوم حياة جديدة تخلق : أطفال يولدون ، وطيور تخرج من بيضها ، وحيوانات تلدها

---

(١) سورة الذاريات : ٥ .
(٢) سورة المعارج : ٦ ـ ٧ .
(٣) سورة النحل : ١ .
(٤) سورةالقمر : ١ .
(٥) سورة الفرقان : ٣ .
(٦) سورة النمل : ٦٤ .
(٧) سورة لقمان : ٢٨ .
(٨) سورة القيامة : ٣ ـ ٤ .

أمهاتها ، وأسماك تملأ البحر والنهر ، يرى الإنسان ذلك كله بأم عينيه ، ثم ينكر أن يقع مثل ذلك مرةأخرى بعد أن يبيد الله هذه الحياة .

إن الذين يطلبون دليلا على البعث بعد الموت يغفلون عن أن خلقهم على هذا النحو أعظم دليل ، فالقادر على خلقهم ، قادر على إعادة خلقهم ، وقد أكثر القرآن من الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى ، وتذكير العباد المستبعدين لذلك بهذه الحقيقة ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾[1] .

ويذكرنا القرآن في موضع آخر بالخلق الأول للإنسان ، فأبونا آدم خلقه الله من تراب ، فالقادر على جعل التراب بشراً سويّاً ، لا يعجزه أن يعيده بشراً سويّا مرة أخرى بعد موته ، ويُذَكِّرُ أيضا بخلقنا نحن ـ ذرية آدم ـ فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين ، تحوّل هذا الماء فأصبح نطفة ، ثم صارت النطفة علقة ، ثم تحولت إلى مضغة . . . إلى أن نفخ فيها الروح ، وجعلها إنسانا سويّا . فالقادر على هذا الخلق المشاهد المعلوم ، قادر على إعادة الخلق ، وإحياء الموتى . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[2] .

---

(١) سورة مريم : ٦٦ ـ ٦٧ .

(٢) سورة الحج : ٥ ـ ٧ .

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض ، والنظر في كيفية بدأ الخلق ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] .

وقال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2] .

ثالثا : القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه :

قبيح في نظر البشر أن يُرْمى بالعجز عن حمل الشيء الحقير مَنْ يستطيع حمل العظيم ، ومِثْله إذا غلب إنسان رجلا شديد البأس قويا لا يقال له : إنك لا تستطيع أن تصرع هذا الهزيل الضعيف ، ومن استطاع أن يبني قصرا لا يعجزه بناء بيت صغير .

ولله المثل الأعلى ، فإن من جملة خلقه ماهو أعظم من خلق الناس ، فكيف يقال للذي خلق السموات والأرض أنت لا تستطيع أن تخلق مادونها قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾[3] .

وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ

---

(١) سورة العنكبوت : ١٩ .

(٢) سورة الروم : ٢٧ .

(٣) سورة الإسراء : ٩٨ ـ ٩٩ .

مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(1) . وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(2) . وقال : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾(3) .

قال ابن تيمية بعد أن ساق هذه النصوص : « فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم ، والقدرة عليه أبلغ ـ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك »(4) .

وقال شارح الطحاوية : « أخبر تعالى أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما ، يحيى عظاما قد صارت رميما ، فيردها إلى حالتها الأولى »(5) .

رابعا : قدرته تبارك وتعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال :

الذين يكذبون بالبعث يرون هلاك العباد ، ثم فناءَهم في التراب ، فيظنون أن إعادتهم بعد ذلك مستحيلة ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(6) . والمراد بالضلال في الأرض تحلل أجسادهم ، ثم اختلاطها بتراب الأرض ، تقول : ضلَّ السمن في الطعام إذا ذاب وانماع فيه .

---

(1) سورة يس : ٨١ .
(2) سورة الأحقاف : ٣٣ .
(3) سورة غافر : ٥٧ .
(4) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٣/٢٩٩ .
(5) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٤٦١ .
(6) سورة السجدة : ١٠ .

وقد بين الحق تبارك و تعالى في أكثر من موضع أن من تمام ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال ، ولذا فإنه يميت ويحيي ، ويخلق ويفني ، ويخرج الحي من الميت ، والميت من الحي ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾(١) . من الحبة الجامدة الصماء يُخْرِج نبتة غضّة خضراء تزهر وتثمر ، ثم تعطي هذه النبتة الحيّة حبوبا جامدة ميتة ، ومن الطيور الحيّة يخرج البيض الميت ، ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المغردة التي تنطلق في أجواز الفضاء .

إن تقليب العباد : موت فحياة ، ثم موت فحياة ، دليل عظيم على قدرة الله تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٢) .

الأدلة الثلاثة الأخيرة في موضع واحد في كتاب الله :

وقد ذكر الحق تبارك وتعالى الأدلة الثلاثة السابقة في موضع واحد في كتابه في معرض الرد على مكذبي البعث فقال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الأنعام : ٩٥ ـ ٩٦ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨ .

(٣) سورة يس : ٧٨ ـ ٨٣ .

والذي ضرب المثل أحد ملاحدة العرب ، وكتب السنة تذكر أن هذا الكافر الملحد جاء بعظم بالي ، ثم فتّه ، ثم نفخه ، ثم قال للرسول ﷺ : « يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ » . فأنزل الحق تبارك وتعالى هذه الآيات معيِّراهذا الكافر بجهله وضلاله ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾[1] ، فإنه لو كان لبيبا عاقلا لم يسأل هذا السؤال ، لأن وجوده وخلقه في هذه الحياة يجيب على السؤال ، وقد وضّح النص هذا المعنى الذي أجمله في البداية فقال : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[2] .

١ ــ « فاحتج بالإبداء على الإعادة ، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى ، إذ كل عاقل يعلم ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه . وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز .

ولما كان الخلق يَستَلزم قدرةالخالق على المخلوق ، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[3] . فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ، ومواده وصورته ، فكذلك الثاني ، فإذا كان تام العلم ، كامل القدرة ، كيف يتعذر عليه أن يحيي العَظْم وهي رميم ؟ »[4] .

٢ ــ « ثمَّ أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر ، يتضمن جوابا عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة ، والحياة لابدَّ أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث ، ففيه الدليل والجواب معا ، فقال : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا

---

(١) سورة يس : ٧٨ .

(٢) سورة يس : ٧٩ .

(٣) سورة يس : ٧٩ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ص :٤٦ .

﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[1] فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر ، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة ، فالذي يخرج الشيء من ضدّه ، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا يستعصي عليه ، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه ، من إحياء العظام وهي رميم .

٣ ـ ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم ، على الأيسر الأصغر ، فإن كل عاقل يعلم أنَّ من قدر على العظيم الجليل فهو قادر على ما دونه بكثير أقدرُ وأقدرُ ، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل وقية أشدُّ اقتدارا ، فقال : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾[2] فأخبر أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتها ، وعظم شأنها ، وكبر أجسامها ، وسعتها ، وعجيب خلقها ، أقدر عليه أن يحيي عظاما قد صارت رميما ، فيردّها إلى حالتها الأولى »[3] .

٤ ـ ثم أكدَّ تبارك وتعالى ذلك وبينه ببيان آخر ، وهو أن فعله ليس بمنزلة غيره ، الذي يفعل بالآلات والكلفة ، والنصب والمشقة ، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل ، بل لابدَّ معه من آلة ومعين ، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكوِّنه نفس إرادته ، وقوله للمكوَّن : (كُنْ) ، فإذا هو كائن كما شاءَه وأراده ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[4]. ثم ختم هذه الحجّة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده ، فيتصرف فيه بفعله وقوله ، ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[5][6] .

---

(١) سورة يس : ٨٠ .
(٢) سورة يس : ٨١ .
(٣) شرح العقيدة الطحاوية : ٤٦٠ .
(٤) سورة يس : ٨٢ .
(٥) سورة يس : ٨٣ .
(٦) راجع شرح العقيدة الطحاوية : ص ٤٦١ .

خامسا : إحياء بعض الأموات في هذه الحياة :

شاهد بعض البشر في فترات مختلفة من التاريخ عودة الحياة إلى الجثث الهامدة ، والعظام البالية ، بل شاهدوا الحياة تدب في بعض الجماد ، وقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن شيء من هذه المعجزات الباهرة ، فمن ذلك أن قوم موسى قالوا له : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[1] فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، ثم بعثهم بعد موتهم ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2] .

وقتل بنو إسرائيل قتيلا واتهم كل قبيل القبيل الآخر بقتله ، فأمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة ، فذبحوها بعد أن تعنتوا في طلب صفاتها ، ثم أمرهم نبيهم بعد ذبحها أن يضربوا القتيل بجزء منها ، فأحياه الله وهم ينظرون ، فأخبر عمن قتله ، ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[3] .

وأخبرنا عن الذين فرُّوا من ديارهم وهم ألوف خشية الموت ، فأماتهم الله ثم أحياهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[4]

وحدثنا عن الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، فتعجب من إحياء الله لها بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، فلما سئل كم لبثت ظنَّ أنه لم يلبث إلا يوما أو بعض يوم ، وبعد إحيائه أحيا الله له حماره وهو ينظر إلى قدرة الله كيف

---

(١) سورة البقرة : ٥٥ .

(٢) سورة البقرة : ٥٥ - ٥٦ .

(٣) سورة البقرة : ٧٣ .

(٤) سورة البقرة : ٢٤٣ .

تعيد الخلق : العظام تتشكل وتتكون أولا ثم تكسى باللحم ، ثم تنفخ الروح ، أما طعامه الذي كان معه قبل أن يموت فقد بقي تلك الأزمان الطويلة سليما ، لم يفسد ، ولم يتعفن ، وتلك آية أخرى تدل على قدرة الله الباهرة : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(1) .

وإبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، فكان هذا المشهد الذي حدثنا الحق تبارك وتعالى عنه ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(2) .

أمره الله أن يأخذ أربعة من الطيور فيذبحها ، ثم يفرق أجزاءها على عدة جبال ، ثم ناداها آمرا إياها بالاجتماع ، فكان كل عضو يأتي ويقع في مكانه ، فلما تكامل اجتماعها نفخ الله فيها الروح ، وانطلقت محلقة في الفضاء .

وعيسى عليه السلام كان يصنع من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وكان يحيي الموتى بإذن الله ، فقد قال لقومه : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(3)

---

(1) سورة البقرة : ٢٥٩ .

(2) سورة البقرة : ٢٦٠ .

(3) سورة آل عمران : ٤٩ .

وأصحاب الكهف ضرب الله على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة ، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾[1] ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾[2] . ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾[3] .

وكانت آية موسى الكبرى عصا جامدة يلقيها على الأرض فتتحول ـ بقدرة الله ـ إلى ثعبان مبين ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[4] ، وعندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ألقى موسى عصاه فإذا هي تبتلع تلك العصي والحبال على كثرتها ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾[5] .

سادسا : ضربه المثل بإحياء الأرض بالنبات

وقد ضرب الله المثل لإعادة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية بإحيائه الأرض بعد موتها بالنبات ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[6]. وقال : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[7] وقال : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[8].وقال : ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[9] .

---

(١) سورة الكهف : ١٢ .
(٢) سورة الكهف : ١٩ .
(٣) سورة الكهف : ٢٥ .
(٤) سورة الشعراء : ٣٢ .
(٥) سورة الشعراء : ٤٥ .
(٦) سورة الروم : ٥٠ .
(٧) سورة فاطر : ٩ .
(٨) سورة فصلت : ٣٩ .
(٩) سورة الزخرف : ١١ .

سابعاً : حكمة الله تقتضي بعث العباد للجزاء والحساب :

تقتضي حكمة الله وعدله أن يبعث الله عباده ليجزيهم بما قدموا ، فالله خلق الخلق لعبادته ، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الطريق الذي يعبدونه به ، فمن العباد من استقام على طاعة الله ، وبذل نفسه وماله في سبيل ذلك . ومنهم من رفض الاستقامة على طاعة الله ، وطغى وبغى ، أفيليق بعد ذلك أن يموت الصالح والطالح ولا يجزي الله المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾[1] .

إن الكفرة الضالين هم الذين يظنون أن الكون خلق عبثا وباطلا لا لحكمة ، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح والكافر المفسد ، ولا بين مصير التقي والفاجر . ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[2] .

---

(١) سورة نون : ٣٥ ـ ٣٨ .

(٢) سورة ص ٢٧ ـ ٢٨ .

الفصل السادس
القيامة عند الأنبياء وفي كتب أهل الكتاب

المبحث الأول
اتفاق جميع الأنبياء على الإخبار بالمعاد

الإيمان بالقيامة والجنةوالنار من أصول الإيمان التي يشترك الأنبياء جميعا وأتباعُهم الصادقون في معرفتها والإيمان بها ، والقرآن وهو كتاب الله المحفوظ الذي لم يغيَّر ولم يبدَّل يدلُّ دلالة قاطعة على أن الأنبياء جميعا عرَّفوا أممهم بالقيامة ، وبَشرَّوهم بالجنة ، وأنذروهم النار ، ويدلُّ على ذلك أمور :

١ ـ أخبر القرآن عن جميع الأشقياء الكفار أهل النار أنهم يقرِّون بأن رسلهم أنذرتهم باليوم الآخر . ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1] . وقال : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2] .

فالكفار جميعا عندما يسألون عند ورودهم النار يقرون بأن رسلهم خوفتهم لقاء ذلك اليوم ، ولكنهم كفروا وكذبوا .

---

(١) سورة الملك : ٨ ـ ١٠ .

(٢) سورة الزمر : ٧١ .

وهذا الذي قررته الآيات السابقة بينه الله في غير موضع من كتابه ، فقد أخبر الحق تبارك وتعالى أن مقتضى عدله وحكمته أن لا يعذب أحدا لم تبلغه الرسالة ولم تقم عليه الحجة ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1] . ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[2] . من أجل ذلك عمت الرسالة كل البشر ، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[3] .

٢ ـ عندما أهبط الله آدم إلى الأرض عرفه بالبعث والمعاد ، ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾[4] .

وعندما غضب الله على إبليس وطرده من رحمته طلب الإمهال إلى يوم البعث فأجاب الحق طلبه ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾[5] .

٣ ـ وأول الرسل نوح عليه السلام حذر قومه يوم القيامة ، وضرب لهم الأمثال الدالة على وقوعه وحدوثه ، فقد قال لقومه : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾[6] .

٤ ـ وأبو الأنبياء خليل الرحمن ذكر اليوم الآخر كثيرا ، ففي دعائه ربه لمكة وأهلها قال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم

---

(١) سورة الإسراء : ١٥ .

(٢) سورة النساء : ١٦٥ .

(٣) سورة فاطر : ٢٤ .

(٤) سورة الأعراف : ٢٤ ـ ٢٥ .

(٥) سورة ص : ٧٩ ـ ٨١ .

(٦) سورة نوح : ١٧ ـ ١٨ .

بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] .

وفي دعائه لنفسه وأبيه والمؤمنين قال : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[2] .

وفي محاجته قومه فيما يعبدون بين أحقية ربه بالعبادة ، لأنه يطعم ويسقي ، ويميت ويحي ، ويشفي المرضى ، ويغفر الذنوب في يوم الدين ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[3]، ثم دعا ربه سائلا إياه دخول الجنة ، وأن لا يخزيه في يوم الدين ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[4] .

٥ ــ وجاء في مناجاة الله لموسى : ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾[5] .

وجاء في محاورة موسى لفرعون ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[6] .

٦ ــ وهود أنذر قومه وخوفهم لقاء ربهم فكذبوا ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) سورة البقرة : ١٢٦ .

(٢) سورة إبراهيم : ٥١ .

(٣) سورة الشعراء : ٧٩ ـ ٨٢ .

(٤) سورة الشعراء : ٨٥ ـ ٨٩ .

(٥) سورة طه : ١٤ ـ ١٦ .

(٦) سورةطه : ٥٥ .

﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (1).

٧ ـ وشعيب قال لقومه : ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (2).

٨ ـ وجاء في دعاء يوسف ربّه : ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (3).

٩ ـ وبعض أتباع الرسل الذين حكى الله مقالتهم في كتابه يعرفون البعث والنشور ، ويبشرون بالجنة ، ويحذرون من النار ، فذو القرنين عندما بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ، ووجد عندها قوما ، فقال الله له : ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (4).

ومؤمن آل فرعون كان موقنا بالبعث عارفاً به ، ولا تختلف معرفته به عن معرفتنا ، وقد حذر قومه من ذلك اليوم تحذيرا فيه تفصيل وبيان ، ومما قاله

---

(١) سورة المؤمنون : ٣٣ ـ ٣٧ .

(٢) سورة العنكبوت : ٣٦ .

(٣) سورة يوسف : ١٠١ .

(٤) سورة الكهف : ٨٦ ـ ٨٨ .

لهم : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾(1) .

وقال أيضا : ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾(2) .

وقال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾(3) .

وسحرة فرعون عندما رأوا الآية الباهرة التي جاء بها موسى خرّوا ساجدين ، وسبحوا مؤمنين ، فتهددهم فرعون بالعذاب الأليم ، فاعتصموا بالله ربهم ، ولم يلتفتوا إلى تهديد أو وعيد ، وأجابوا قائلين : ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾(4) .

---

(1) سورة المؤمن : ٣٢ ـ ٣٣ .

(2) سورة المؤمن : ٣٩ ـ ٤١ .

(3) سورة المؤمن : ٤٣ .

(4) سورة طه : ٧٣ ـ ٧٦ .

المبحث الثاني
نظرة في نصوص اليوم الآخر في كتب أهل الكتاب

لا شك أن الكتب السماوية التي أنزلها الحق تبارك وتعالى كانت تزخر نصوصها بذكر اليوم الآخر ، والتخويف منه ، والتبشير بما أعده الله للمؤمنين به في جنات النعيم ، والتحذير من النار وأهوال القيامة ، إلا أن هذه الكتب طرأ عليها تحريف كثير ، وذهب كثير من نصوصها التي تتعرض لليوم الآخر .

١ ـ ففي التوراة التي تنسب إلى موسى لا نجد إلا نصا واحدا يصرح بيوم القيامة ، وهو في التوراة السامرية صريح للغاية ، ولكنه في التوراة العبرية يحتمل معنيين ، ففي سفر تثنية الاشتراع ، الإصحاح الثاني والثلاثون ؛ (٣٤ ـ ٣٥) من التوراة السامرية : « أليس هو مجموعا عندي مختوما في خزائني ، إلى يوم الانتقام والمكافأة ، وقت تزل أقدامهم » .

وجاء النص في التوراة العبرانية هكذا : « أليس ذلك مكنوزا عندي مختوما عليه في خزائني ، لي النقمةوالجزاء في وقت تزل أقدامهم » .

فنص السامرية يدل على أن الفصل إنما يكون في يوم القيامة الذي سماه يوم الانتقام والمكافأة . أما نص العبرانية فإنه يجيز أن يكون الانتقام في الدنيا ، ويجيز أن يكون في الآخرة ، ولذلك فإن الصادوقيين من اليهود الذين لا يؤمنون إلا بتوراة موسى العبرية لا يؤمنون بالبعث والنشور ، لعدم وجود دلالة تدل على البعث والنشور .

أما أسفار الأنبياء الأخرى في التوراة ففيها بعض النصوص التي تصرح بالبعث والنشور ، وكذلك الأناجيل .

٢ ــ ففي سفر دانيال : « كثيرون من الراقدين تحت التراب يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، والازدراء الأبدي »[١] .

٣ ــ وفي سفر المزامير يذكر الحشر إلى النار فيقول : « مثل الغنم إلى النار يساقون ، الموت يرعاهم ، ويسودهم المستقيمون غداة ، وصورتهم تبلى ، والهاوية مسكن لهم »[٢] .

٤ ــ وفي إنجيل لوقا إشارة إلى عذاب القبر ، فقد جاء فيه : « ومات الغني ودفن ، فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب »[٣] . فالمقبور من أهل الفجور يكون في العذاب ويرى مقعده من النار ، والهاوية هي النار .

٥ ــ وفي إنجيل متى « فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان »[٤] .

ومن أكثر الكتب التي تحدثت عن الجنة والنار إنجيل برنابا ، فقد تحدث عن أهل الجنة ، وأنهم يأكلون ويشربون ، ولكنهم لا يتبولون ولا يتغوطون ، لأن

---

(١) الاصحاح ١٢ من سفر دانيال .
(٢) الفقرة ٥ من المزمور الخامس والخمسين .
(٣) الفقرة ٢٢ من الاصحاح السادس من انجيل لوقا .
(٤) الفقرة ٨ من الاصحاح الثامن عشر من إنجيل متى .

طعامهم وشرابهم ليس فيه خبث ولا فساد ، ولكن النصارى يكذبون بهذا الإنجيل الذي ظهر أخيرا في عصرنا هذا .

وبعض اليهود يؤمنون بالبعث والنشور وهؤلاء يسمون بحزب الكتبة ، والحزب ا لآخر وهم « الصادوقيون » لا يؤمنون بالبعث والخلود في الجنة أو النار . وقد ذكر إنجيل « مَتَّى » أن الطائفة المكذِّبة بالقيامة جاؤوا إلى عيسى وجادلوه في القيامة : « في ذلك اليوم جاء إليه صادوقيون ، الذين يقولون لا قيامة »[1] وأجاب عيسى عن سؤال أحد تلامذته القائل : « أيذهب جسدنا الذي لنا إلى الجنة ؟ » فقال له عيسى عليه السلام : « احذر يا بطرس من أن تصير صدوقيا ، فإن الصدوقيين يقولون : أن الجسد لا يقوم أيضا ، وأنه لا توجد ملائكة ، لذلك حرم على جسدهم وروحهم الدخول في الجنة » .

والنصارى يعتقدون أن الذي ينعم أو يعذب في القيامة هو الروح فحسب ، وقال بقولهم بعض الذين ينتسبون إلى الإسلام من الفلاسفة والفرق الباطنية الضالة .

---

(١) فقرة ٢٣ من الاصحاح ٢٢ من إنجيل متى .

الفصل السابع
أهوال يوم القيامة

المبحث الأول
الدلائل على عظم أهوال ذلك اليوم

يوم القيامة يوم عظيم أمره ، شديد هوله ، لا يلاقي العباد مثله ، ويدل على عظم هوله أمور :

الأول : وصف الله لذلك اليوم بالعظم ، وحسبنا أن ربنا وصفه بذلك ، ليكون أعظم مما نتصور، وأكبر مما نتخيل ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] ، وَوَصَفَه في موضع آخر بالثقل ، وفي موضع ثالث بالعسر ، ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾[2] ، ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[3] .

الثاني : الرعب والفزع الذي يصيب العباد في ذلك اليوم ، فالمرضع التي تفدي وليدها بنفسها تذهل عنه في ذلك اليوم والحامل تسقط حملها ، والناس يكون حالهم كحال السكارى الذين فقدوا عقولهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ

---

(١) سورة المطففين : ٤ ـ ٦ .

(٢) سورة الدهر : ٢٧ .

(٣) سورة الإنسان : ٢٧ . .

شَدِيدٌ ﴾(١) . ولشدة الهول تشخص أبصار الظلمة في ذلك اليوم ، فلا تطرف لشدة الرعب ، ولا يلتفتون يمينا ولا شمالا ، ولشدَّة الخوف تصبح أفئدتهم خالية لا تعي شيئا ولا تعقل شيئا ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾(٢) .

وترتفع قلوب الظالمين لشدة الهول إلى حناجرهم ، فلا تخرج ، ولا تستقر في مكانها ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾(٣) . ومعنى كاظمين : أي ساكتين لا يتكلمون .

ووصف في موضع آخر ما يصيب القلوب والأبصار في ذلك اليوم فقال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾(٤)، وقال :﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾(٥) .

وحسبك أن تعلم أن الوليد الذي لم يرتكب جرما يشيب شعر رأسه لشدة ما يرى من أهوال : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾(٦) .

الثالث : انقطاع علائق الأنساب في يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾(٧) ، فكل إنسان في ذلك

(١) سورة الحج : ١ - ٢ .
(٢) سورة إبراهيم : ٤٢ - ٤٣ .
(٣) سورة غافر : ١٨ .
(٤) سورة النور : ٣٧ .
(٥) سورة النازعات : ٨ .
(٦) سورة المزمل : ١٧ - ١٨ .
(٧) سورة المؤمنون : ١٠١ .

اليوم يهتم بنفسه ، ولا يلتفت إلى غيره ، بل إن الإنسان يفر من أحب الناس إليه ، يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾(١) .

وقال في موضع آخر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾(٢) . وقال : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(٣) .

الرابع : استعداد الكفار في يوم الدين لبذل كل شيء في سبيل الخلاص من العذاب ، فلو كانوا يملكون مافي الأرض لافتدوا به ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾(٤) ، بل لو كان للكافر ضعف مافي الأرض لافتدى به ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾(٥) ، بل هو على استعداد أن يبذل ما عنده ولو كان ملء الأرض ذهبا ، وعلى احتمال أن كان الأمر كذلك ، فإن الله لا يقبل منه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾(٦) .

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كان

---

(١) سورة عبس : ٣٣ .
(٢) سورة لقمان : ٣٣ .
(٣) سورة البقرة : ٤٨ .
(٤) سورة يونس : ٥٤ .
(٥) سورة الرعد : ١٧ .
(٦) سورة آل عمران : ٩١ .

يقول : « يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم . فيقال له : قد كنت سألتك ماهو أيسر من ذلك »[1] .

ويصل الحال بالكافر في ذلك اليوم أن يتمنى لو دفع بأعز الناس عنده في النار لينجو هو من العذاب ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾[2] .

الخامس : ويدلك على هول ذلك اليوم وشدته : طوله ، قال تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾[3] .

وسياق الآيات يدل دلالة واضحة على أن المراد به يوم القيامة ، وقد ثبت بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه يوم القيامة ، وبذلك قال الحسن ، والضحاك ، وابن زيد[4] . ولطول ذلك اليوم يظن الناس في يوم المعاد أنهم لم يلبثوا في الحياة الدنيا إلا ساعة من نهار، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾[5] ، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : « يقول تعالى مذكرا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ .. ﴾

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب ، فتح الباري : (١١/٤٠٠) .
(٢) سورة المعارج : ١١ ـ ١٥ .
(٣) سورة المعارج : ٤ ـ ٧ .
(٤) النهاية لابن كثير : (١/٣٢٣) .
(٥) سورة يونس : ٤٥ .

كقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾(١) ! وقال تعالى : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾(٣) ، وهذا دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة ، كقوله : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٤)(٥) » .

---

(١) سورة النازعات : ٤٦ .

(٢) سورة طه : ١٠٤ .

(٣) سورة الروم : ٥٥ .

(٤) سورة المؤمنون : ١١٢ .

(٥) تفسير ابن كثير (٣/٥٠٥) .

المبحث الثاني
بعض معالم أهوال القيامة

يحدثنا القرآن عن أهوال ذلك اليوم التي تَشْدَه الناس ، وتشدُّ أبصارهم ، وتملك عليهم نفوسهم ، وتزلزل قلوبهم .

ومن أعظم تلك الأهوال ذلك الدمار الكوني الشامل الرهيب الذي يصيب الأرض وجبالها ، والسماء ونجومها وشمسها وقمرها .

يحدثنا ربنا أن الأرض تزلزل وتدكُّ ، وأن الجبال تُسَيَّر وتنسف ، والبحار تُفَجّر وتُسجَّر ، والسماء تتشقق وتمور ، والشمس تُكوّر وتذهب ، والقمر يخسف ، والنجوم تنكدر ويذهب ضوؤها ، وينفرط عقدها .

وسأذكر بعض النصوص التي تصور وقائع تلك الأهوال ثم أذكر ما يحدث لكل واحد من العوالم العظيمة في ذلك اليوم .

المطلب الأول
قبض الأرض وطي السماء

يقبض الحق تبارك وتعالى الأرض بيده في يوم القيامة ، ويطوي السموات بيمينه ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

وقد أخبرنا في موضع آخر عن كيفية طيه للسموات فقال : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾[2] .

قال ابن كثير : « والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة ، قاله علي بن أبي طلحة ، والعوفي عنه ، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، واختاره ، ابن جرير ، لأنه المعروف في اللغة ، فعلى هذا فيكون معنى الكلام يوم تطوى السماء كطي السجل للكتاب ، أي على الكتاب ، بمعنى المكتوب »[3] .

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة دالة على مثل ما دلت عليه النصوص القرآنية ، ومبينة فائدة أخرى ، وهي ما يقوله الحق تبارك وتعالى بعد قبضه الأرض وطيه السماء ، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض »[4] .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوي الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرض بشماله ـ وفي رواية : يأخذهن بيده الأخرى ـ ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ »[5] .

---

(١) سورة الزمر : ٦٧ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٦٠٢/٤ .

(٤) مشكاة المصابيح : (٥٣/٣) ، ورقمه : ٥٥٢٢ .

(٥) مشكاة المصابيح (٥٣/٣) ورقمه : ٥٥٢٣ .

وروى البخاري عن عبدالله بن مسعود أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والخلائق على إصبع ثم يقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ ، حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1][2] » .

وهذا القبض للأرض والطي للسموات يقع بعد أن يفني الله خلقه ، وقيل إن المنادي ينادي بعد حشر الخلق على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله عليها ، واختاره أبو جعفر النحاس ، قال : والقول صحيح عن ابن مسعود ، وليس هو مما يؤخذ بالقياس ، ولا بتأويل .

وقال القرطبي : « والقول الأول أظهر ، لأن المقصود إظهار انفراده بالملك ، عند انقطاع دعوى المدعين ، وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ، وكل جبار ومتكبر وملكه ، وانقطعت نسبهم ودعاويهم ، وهذا أظهر »[3] .

المطلب الثاني
دك الأرض ونسف الجبال

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن أرضنا الثابتة ، وما عليها من جبال صم راسية تحمل في يوم القيامة عندما ينفخ في الصور فتدك دكة واحدة ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ

(١) سورة الزمر : ٦٧ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ، فتح الباري : (٣٩٣/١٣) .

(٣) تذكرة القرطبي : ١٧٢ .

نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾[1] ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾[2] ، وعند ذلك تتحول هذه الجبال الصلبة القاسية إلى رمل ناعم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾[3] ، أي تصبح ككثبان الرمل بعد أن كانت حجارة صماء ، والرمل المهيل : هو الذي إذا أخذت منه شيئا تبعك ما بعده ، يقال : أهلت الرمل أهيله هيلا ، إذا حركت أسفله حتى انهال من أعلاه .

وأخبر في موضع آخر أن الجبال تصبح كالعهن ، والعهن هو الصوف ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾[4] ، وفي نص آخر مَثَّلها بالصوف المنفوش ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾[5] .

ثم إن الحق تبارك وتعالى يزيل هذه الجبال عن مواضعها ، ويسوي الأرض حتى لا يكون فيها موضع مرتفع ، ولا منخفض ، وعبر القرآن عن إزالة الجبال بتسييرها مرة، وبنسفها أخرى ، ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾[6] ، ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[7] . وقال في نسفه لها : ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾[8] . ثم بين الحق حال الأرض بعد تسيير الجبال ونسفها ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾[9] أي ظاهرة لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾[10] .

---

(١) سورة الحاقة : ١٣ ـ ١٦ .
(٢) سورة الفجر : ٢١ .
(٣) سورة المزمل : ١٤ .
(٤) سورة المعارج : ٨ .
(٥) سورة القارعة : ٥ .
(٦) سورة التكوير : ٣ .
(٧) سورة النبأ : ٢٠ .
(٨) سورة المرسلات : ١٠ .
(٩) سورة الكهف : ٤٨ .
(١٠) سورة طه : ١٠٥ ـ ١٠٧ .

المطلب الثالث
تفجير البحار وتسجيرها

أما هذه البحار التي تغطي الجزء الأعظم من أرضنا ، وتعيش في باطنها عوالم هائلة من الأحياء ، وتتهادى فوقها السفن ذاهبة آيبة ، فإنها تفجّر في ذلك اليوم ، وقد علمنا في هذا العصر الهول العظيم الذي يحدثه انفجار الذرات الصغيرة التي هي أصغر من ذرات الماء فكيف إذا فجرت ذرات المياه في هذه البحار العظيمة ، عند ذلك تسجر البحار ، وتشتعل نارا ، ولك أن تتصور هذه البحار العظيمة الهائلة وقد أصبحت مادة قابلة للاشتعال ، كيف يكون منظرها ، واللهب يرتفع منها إلى أجواز الفضاء ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[2] .

وقد ذهب المفسرون قديما إلى أن المراد بتفجير البحار ، تشقق جوانبها وزوال ما بينها من الحواجز ، واختلاط الماء العذب بالماء المالح ، حتى تصير بحرا واحدا[3] ، وما ذكرناه أوضح وأقرب ، فإن التفجير بالمعنى الذي ذكرناه مناسب للتسجير ، والله أعلم بالصواب .

المطلب الرابع
موران السماء وانفطارها

أما سماؤنا الجميلة الزرقاء التي ننظر إليها فتنشرح صدورنا ، وتسر قلوبنا ، فإنها تمور مورانا ، وتضطرب اضطرابا عظيما ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾[4] .

---

(١) سورة الانفطار : ٣ .
(٢) سورة التكوير : ٧ .
(٣) تفسير الألوسي : (٣٠/٦٣) .
(٤) سورة الطور : ٩ .

ثم إنها تنفطر ، وتتشقق ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾[1] ، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾[2] .

وعند ذلك تصبح ضعيفة واهية ، كالقصر العظيم ، المتين البنيان ، الراسخ الأركان ، عندما تصيبه الزلازل ، تراه بعد القوة أصبح واهيا ضعيفا متشققا ، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾[3] .

أمّا لون السماء الأزرق الجميل فإنه يزول ويذهب ، وتأخذ السماء في التلون في ذلك اليوم كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء ، وتارة صفراء ، وأخرى خضراء ، ورابعة زرقاء ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾[4] ، وقد نقل عن ابن عباس أن السماء تكون في ذلك اليوم كالْفَرَسِ الْوَرْدِ ، والفرس الورد ـ كما يقول البغوي ـ تكون في الربيع صفراء ، وفي الشتاء حمراء ، فإذا اشتد البرد تغير لونها ، وقال الحسن البصري في قوله : (وردة كالدهان) أي تكون ألوانا[5] .

المطلب الخامس
تكوير الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم

أماهذه الشمس التي نراها تشرق كل صباح ، فتغمر أرضنا بالضياء ، وتمدنا بالنور والطاقة التي لا غنى عنها لأبصارنا وأبداننا ، وما يدب على الأرض من

---

(١) سورة الانفطار : ١ .
(٢) سورة الانشقاق : ١ ـ ٢ .
(٣) سورة الحاقة : ١٦ .
(٤) سورة الرحمن : ٣٧ .
(٥) تفسير ابن كثير (٦/٤٩٤)

أحياء ، وما ينمو فيها من نبات ، فإنها تجمع وتكوَّر ، ويذهب ضوؤها ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[1] ، والتكوير عند العرب : جمع الشيء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة ، وجمع الثياب بعضها على بعض ، وإذا جمع بعض الشمس على بعض ، ذهب ضوؤها ورمى بها .

أما القمر الذي نراه في أول كل شهر هلالا ،ثم يتكامل ويتنامى ،حتى يصبح بدرا جميلا بديعا ، يتغنى بجماله الشعراء ، ويؤنس المسافرين حين يسيرون في الليل، فإنه يخسف ويذهب ضوؤه، ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾[2] .

أما تلك النجوم المتناثرة في القبة السماوية الزرقاء ، فإن عقدها ينفرط ، فتتناثر وتنكدر ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾[3] ، ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾[4] ،والانكدار : الانتثار ، وأصله في لغة العرب : الانصباب[5] .

المطلب السادس
تفسير القرطبي للنصوص الواصفة لأهوال يوم القيامة

قال القرطبي : « روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[6] ، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾[7]، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[8] » .

---

(١) سورة التكوير : ١ .
(٢) سورة القيامة : ٧ ـ ٨ .
(٣) سورة الانفطار : ٢ .
(٤) سورة التكوير : ٢ .
(٥) تفسير ابن كثير : (٧/٢٢١) .
(٦) سورة التكوير : ١ .
(٧) سورة الانفطار : ١ .
(٨) سورة الانشقاق : ١ .

قال : هذا حديث حسن[1] .

وإنما كانت هذ السور الثلاث أخص بالقيامة ، لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها ، وتكور شمسها وانكدار نجومها ، وتناثر كواكبها ، إلى غير ذلك من أفزاعها وأهوالها ، وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم ، بعد نشر صحفهم ، وقراءة كتبهم ، وأخذها بأيمانهم وشمائلهم ، أو من وراء ظهورهم في موقفهم على ما يأتي بيانه .

قال الله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾[2]. وقال : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾[3] . وقال : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾[4] ، فتراها واهية منفطرة متشققة ، كقوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾[5] ، ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض ، وقيل إن الباء بمعنى عن ، أي تشقق عن سحاب أبيض . ويقال : انشقاقها لما يخلص إليها من حر جهنم ، وذلك إذا بطلت المياه ، وبرزت النيران ، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن ، وتتشقق لما يريد الله من نقض هذا العالم ، ورفعه . وقد قيل : إن السماء تتلون ، فتصفر ، ثم تحمر ، أو تحمر ، ثم تصفر ، كالمهرة تميل في الربيع إلى الصفرة ، فإذا اشتد الحر مالت إلى الحمرة ، ثم إلى الغبرة . قاله الحليمي .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[6] قال ابن عباس رضي الله عنه

---

(١) حديث صحيح رواه الترمذي والحاكم وأحمد ، انظر صحيح الجامع : (٣/٣٠١) ورقم الحديث : ٦١٩١ .

(٢) سورة الانشقاق : ١ .

(٣) سورة الانفطار : ١ .

(٤) سورة الفرقان : ٢٥ .

(٥) سورة النبأ : ١٩ .

(٦) سور التكوير : ١ .

تكويرها إدخالها في العرش . وقيل : ذهاب صفوها ، قاله الحسن وقتادة ، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد . وقال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة ، تلف فتمحى . وقال الربيع بن خيثم : كورت رمي بها ، ومنه : كورته ، فتكور . أي سقط . قلت : وأصل التكوير الجمع ، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها ، أي لاثها ، وجمعها ، فهي تكور ، ثم يمحو ضوءها ثم يرمى بها والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾(١) أي انتشرت ، قيل : تتناثر من أيدي الملائكة ، لأنهم يموتون ، وفي الخبر أنها معلقة بين السماء والأرض بسلاسل بأيدي الملائكة . وقال ابن عباس رضي الله عنه : انكدرت تغيرت ، وأصل الانكدار الانصباب ، فتسقط في البحار ، فتصير معها نيرانا ، إذا ذهبت المياه .

وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾(٢) هو مثل قوله ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾(٣) أي تحول عن منزلة الحجارة ، فتكون كثيبا مهيلا ، أي رملا سائلا ، وتكون كالعهن ، وتكون هباء منبثا ، وتكون سرابا ، مثل السراب الذي ليس بشيء . وقيل : إن الجبال بعد اندكاكها أنها تصير كالعهن من حر جهنم ، كما تصير السماء من حرها كالمهل قال الحليمي : وهذا والله أعلم لأن مياه الأرض كانت حاجزة بين السماء والأرض ، فإذا ارتفعت ، وزيد مع ذلك في إحماء جهنم أثر في كل واحد من السماء والأرض ما ذكر .

وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾(٤) أي عطلها أهلها ، فلم تحلب من

---

(١) سورة التكوير : ٢ .

(٢) سورة التكوير : ٣ .

(٣) سورة الكهف : ٤٧

(٤) سورة التكوير : ٤ .

الشغل بأنفسهم . والعشار : الإبل الحوامل ، وأحدها عشـر ، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، وبعدما تضع ، وإنما خص العشار بالذكر ، لأنها أعز ما يكون على العرب ، فأخبر أنها تعطل يوم القيامة . ومعناه أنهم إذا قاموا من قبورهم ، وشاهد بعضهم بعضا ورأوا الوحوش والدواب محشورة ، وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم ، لم يعبؤوا بها ، ولم يهمهم أمرها ، ويحتمل تعطل العشار إبطال الله تعالى أملاك الناس عما كان ملكهم إياها في الدنيا ، وأهل العشار يرونها ، فلا يجدون إليها سبيلا . وقيل : العشار : السحاب ، يعطل مما يكون فيه ، وهو الماء ، فلا يمطر . وقيل : العشار الديار ، تعطل فلا تسكن . وقيل : الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع ، والقول الأول أشهر وعليه من الناس الأكثر .

وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[1] أي جمعت ، والحشر الجمع ، وقد تقدم .

وقوله ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[2] . أي أوقدت ، وصارت نارا . رواه الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه . وقال قتادة : غار ماؤها ، فذهب . وقال الحسن والضحاك : فاضت . قال ابن أبي زمنين : سجرت حقيقته ملئت ، فيفضي بعضها إلى بعض ، فتصير شيئاً واحداً . وهو معنى قول الحسن . ويقال : أن الشمس تلف ، ثم تلقى في البحار ، فمنها تحمى ، وتنقلب نارا . قال الحليمي : ويحتمل إن كان هذا هكذا أن البحار في قول من فسر التسجير بالامتلاء هو أن النار حينئذ تكون أكثرها ، لأن الشمس أعظم من الأرض مرات كثيرة ، فإذا كورت ، وألقيت في البحر ، فصارت نارا ، ازدادت امتلاءا .

---

(١) سورة التكوير : ٥ .

(٢) سورة التكوير : ٦ .

وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾[1] تفسير الحسن أن تلحق كل شيعة شيعتها : اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد من دون الله شيئا يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين ، والمؤمنون بالمؤمنين . وقال عكرمة : المعنى تقرن بأجسادها ، أي ترد إليها ، وقيل : يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان . وقيل : يقرن المؤمنون بالحور العين ، والكافرون بالشياطين .

وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾[2] يعني بنات الجاهلية ، كانوا يدفنوهن أحياء ، لخصلتين : إحداهما : كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به . الثانية : مخافة الحاجة والإملاق ، وسؤال الموؤدة على وجه التوبيخ لقاتلها ، كما يقال للطفل إذا ضرب : لم ضربت ؟ وما ذنبك ؟ وقال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها ، لأنها قتلت بغير ذنب . وبعضهم يقرأ : وإذا الموؤدة سَأَلَت ، تعلق الجارية بأبيها ، فتقول : بأي ذنب قتلتني ؟ وقيل : معنى سئلت ، يسأل عنها كما قال : ﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[3] .

وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾[4] أي للحساب وسيأتي .

وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾[5] قيل : معناه طويت ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾[6] ، أي كطي الصحيفة على مافيها ، فاللام بمعنى « على » ، يقال : كشطت السقف ، أي قلعته ، فكان

(١) سورة التكوير : ٧ .
(٢) سورة التكوير : ٨ .
(٣) سورة الإسراء : ٣٤ .
(٤) سورة التكوير : ١٠ .
(٥) سورة التكوير : ١١ .
(٦) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

المعنى : قلعت ، فطويت والله أعلم ، والكشط والقشط سواء ، وهو القلع ، وقيل : السجل كاتب للنبي ﷺ ، ولا يعرف في الصحابة من اسمه سجل .

وقوله ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾[1] أي أوقدت . وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾[2] أي قربت لأهلها ، وأدنيت .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾[3] أي من عملها ، وهو مثل قوله ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾[4] .

ومما قيل في وصف أهوال ذلك اليوم شعرا[5] :

مثل لنفسك أيها المغرور	يوم القيامة والسماء تمور
إذ كورت شمس النهار وأدنيت	حتى على رأس العباد تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت	وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا البحار تفجرت من خوفها	ورأيتها مثل الجحيم تفور
وإذا الجبال تقلعت بأصولها	فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا العشار تعطلت وتخربت	خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لذى القيامة احشرت	وتقول . للأملاك أين تسير
وإذا تقاة المسلمين تزوجت	من حور عين زانهن شعور
وإذا الموؤدة سئلت عن شأنها	وبأي ذنب قتلها ميسور
وإذا الجليل طوى السماء بيمينه	طي السجلِّ كتابه المنشور

(١) سورة التكوير ١٢ .

(٢) سورة التكوير : ١٣ .

(٣) سورة التكوير : ١٤ .

(٤) سورة الانفطار : ٥ .

(٥) التذكرة للقرطبي : ٢١٤ .

وإذا الصحائف نشرت فتطايرت … وتهتكت للمؤمنين ستور
وإذا السماء تكشطت عن أهلها … ورأيت أفلاك السماء تدور
وإذا الجحيم تسعرت نيرانها … فلها على أهل الذنوب زفير
وإذا الجنان تزخرفت وتطيبت … لفتى على طول البلاء صبور
وإذا الجنين بأمه متعلق … يخشى القصاص وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف جنينه … كيف المصر على الذنوب دهور

المطلب السابع
المحاسبي يصور أهوال ذلك اليوم

يقول الحارث المحاسبي رحمه الله واصفا ما يقع في ذلك اليوم من أهوال :

« حتى إذا تكاملت عدة الموتى ، وخلت من سكانها الأرض والسماء ، فصاروا خامدين بعد حركاتهم ، فلا حسّ يسمع ، ولا شخص يُرى ، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله ، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم . فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك بأنك تدعى إلى العرض على الملك الأعلى ، فطار فؤادك ، وشاب رأسك للنداء ، لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء ـ فبينما أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض على رأسك ، فوثبت مغبراً من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك قائم على قدميك ، شاخص ببصرك نحو النداء ، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورةواحدةوهم مغبّرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم .

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم ، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق ، عراة

حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة ، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدّة المنادي ، والخلائق مقبلون نحوه ، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت ، ساعٍ بالخشوع والذلة ، حتى إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة ، قد نزع المُلْك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصَغار ، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوّهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه .

ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها لذلّ يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بليّة نابتها ولا خطيئة أصابتها ، فتوهم إقبالها بذلّها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور .

وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار ، وأقبلت الشياطين بعد عتّوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور .

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامّها ، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها . فبينما أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم ، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم ، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك ، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام ، فيا هَوْل صوت انشقاقها في سمعك ، ثم تمزقت

وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافّات ما يتشقق ويتفطر ، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها ، فأذابها ربّها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة كما قال الجليل الكبير : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[1]، ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾[2].

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب ، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه .

فتوهم تحدرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عز وجل . فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم ، ومسألتهم إياهم : أفيكم ربنا ؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم تنزيلاً لما توهمه أهل الأرض : سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آتٍ ، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم . فتوهمهم ، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم ، ثم كل شيء على ذلك وكذلك إلى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد ، وعظم الأجساد ، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفا .

حتى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين ، ولا

---

(١) سورة الرحمن : ٣٧ .

(٢) سورة المعارج : ٨ - ٩ .

ظل لأحد إلا ظلّ عرش رب العالمين ، فمن بين مستظل بظل العرش ، وبين مضحو بحر الشمس ، قد صهرته بحرها واشتد كربه وقلقه من وهجها ، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت ، فدفع بعضهم بعضاً وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء ، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمه أذنيه ، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل (وقال مرة إن الكافر) ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام » .

وعن عبدالله رفعه إلى النبي ﷺ « إن الكافر يلجم بعرقة يوم القيامة من طول ذلك اليوم ، (وقال علي : من طول القيام . قالا جميعاً) حتى يقول : رب أرحني ولو إلى النار . وأنت لامحالة أحدهم ، فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد علاك العرق ، وأطبق عليك الغم ، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب ، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء ، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه ، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم .

عن قتادة أو كعب ، قال:يوم يقوم الناس لرب العالمين.قال : « يقومون مقدار ثلاثمائة عام ، قال سمعت الحسن يقول : ما ظنك بأقوام قاموا لله عز وجل على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة ،

حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش ، واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار ، فسقوا من عين آنية قد آن حرها ، واشتد نفحها ، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم ، وموسى وعيسى من بعد ابراهيم ، كلهم يقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادي بالشغل بنفسه فيقول : نفسي نفسي ، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لإهتمامه بنفسه وخلاصها ، وكذلك يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾(١) .

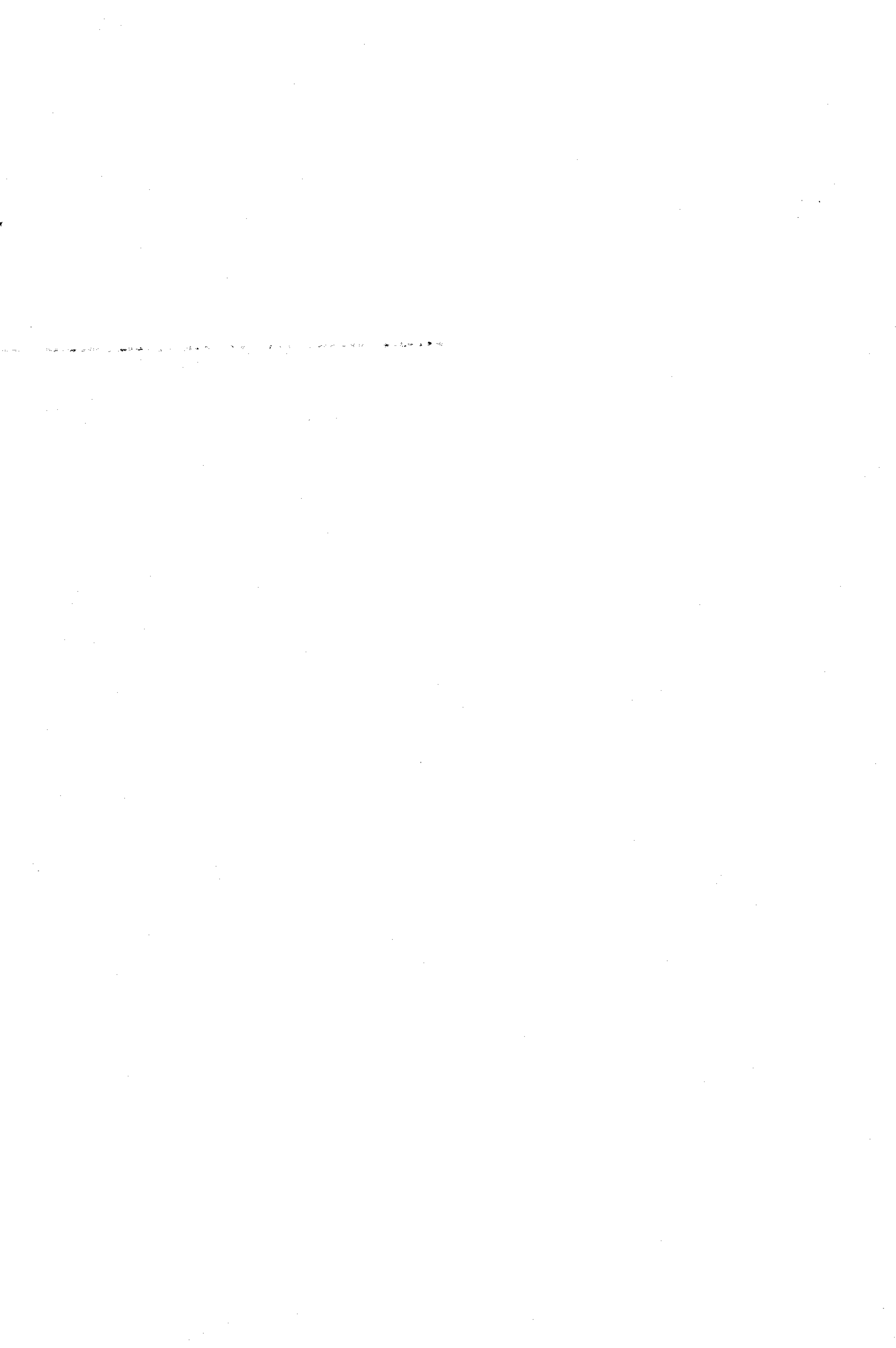
فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم ، منفرد كل واحد منهم بنفسه ، ينادي نفسي نفسي ، فلا تسمع إلا قول نفسي نفسي . فياهول ذلك وأنت تنادي معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه ، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم ، والخليل إبراهيم ، والكليم موسى ، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله ـ عز وجل ـ وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل ، كل ينادي : نفسي نفسي ، شفقاً من شدة غضب ربه ، فأين أنت منهم في اشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك بذلك اليوم ، وبحزنك وبخوفك ؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم أتوا النبي محمداً ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها ، ثم قام إلى ربه عز وجل واستأذن عليه فأذن له ثم خرَّ لربه

---

(١) سورة النحل : ١١١ .

ساجداً ، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله ، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق ، حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم[1] .

(١) كتاب التوهم والأهوال: ص ٥ .



الفصل الثامن
أحوال الناس في يوم القيامة

تختلف أحوال الناس في ذلك اليوم اختلافا بينا ، وسنعرض هنا لثلاثة : الكفار ، وعصاة الموحدين ، والأتقياء الصالحين .

المبحث الأول
حال الكفار

المطلب الأول
ذلتهم وهوانهم وحسرتهم ويأسهم

الذي يتأمل في نصوص الكتاب والسنة التي تحدثنا عن مشاهد القيامة يرى الأهوال العظام والمصائب الكبار التي تنزل بالكفرة المجرمين في ذلك اليوم العظيم .

وسنعرض في هذا المبحث بعض المشاهد التي يصفها القرآن الكريم .

١ ــ قال تعالى مبينا حال الكفار عند خروجهم من القبور ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾[1] .

---

(١) سورة المعارج : ٤٣ .

الأجداث هي القبور ، والنص يصور سرعة خروجهم من القبور في ذلك اليوم منطلقين إلى مصدر الصوت كأنهم يسرعون إلى الأنصاب التي كانوا يعبدونها في الدنيا ، ولكنهم اليوم لا ينطلقون فرحين أشرين بطرين كما كان حالهم عندما كانوا يقصدون الأنصاب ، بل هم أذلاء ، أبصارهم خاشعة ، والصغار يعلوهم ، على النعت الذي كان يعدهم الله به في الدنيا .

٢ ــ وقال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[1] .

وهذه الآية تنص على ما نصت عليه الآيات السابقة من خروجهم خاشعي الأبصار أذلاء ، مسرعين إلى مصدر الصوت الذي يناديهم ويدعوهم ، وتزيدنا بيانا باعطائنا صورة حيّة لمشهد البعث والنشور ، فحالهم في ذلك اليوم في حركتهم وانطلاقتهم وهم يخرجون مسرعين كحال الجراد المنتشر ، ويفيدنا النص أيضا اعتراف الكفار في ذلك اليوم بصعوبة موقفهم ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[2] .

٣ ــ ويفيدنا نص ثالث أن الكفار ينادون بالويل والثبور عندما ينفخ في الصور متسائلين عمن أقامهم من رقدتهم .

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾[3] .

---

(١) سورة القمر : ٦ــ٨ .

(٢) سورة القمر : ٨ .

(٣) سورة يس : ٥١ .

وقد كان أبو محكم الجسري يجتمع إليه إخوانه ، وكان حكيما ، فإذا تلي الآية السابقة بكى ، ثم قال :

« إن القيامة ذهبت فظاعتها بأوهام العقول ، أما والله لئن كان القوم في رقدة مثل ظاهر قولهم ، لما دعوا بالويل عند أول وهلة من بعثهم ، ولم يوقفوا بعد موقف عرض ولا مسألة إلا وقد عاينوا خطراً عظيماً ، وحقت عليهم القيامة بالجلائل من أمرها ، ولكن كانوا في طول الإقامة في البرزخ يألمون ويعذبون في قبورهم ، وما دعوا بالويل عند انقطاع ذلك عنهم ، إلا وقد نقلوا إلى طامة هي أعظم منه ، ولولا أن الأمر على ذلك ما استصغر القوم ما كانوا منه ، فسموه رقادا ، وإن في القرآن لدليلا على ذلك : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[1]، ثم يبكي حتى يبل لحيته »[2] .

٤ ـ ويضيف نص آخر ملامح جديدة إلى صورتهم حال بعثهم ، فأبصارهم لشدة الهول شاخصة جاحظة ، وأفئدتهم خالية إلا من الهول الذي يحيط بهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[3] .

يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله وأجزل له المثوبة ـ في تفسير هذه الآيات : « والرسول ﷺ ـ لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعا بهم في الحياة الدنيا ، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل

---

(١) سورة النازعات : ٣٤ .

(٢) النهاية لابن كثير : (١/٢٧٤) .

(٣) سورة إبراهيم : ٤٢ ـ ٤٣ .

المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة ، التي لا إمهال بعدها ، ولا فكاك منها ، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مبهوته مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك .

ثم يرسم مشهدا للقوم في زحمة الهول . . مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء ، ولا يلتفتون إلى شيء ، رافعين رؤوسهم ، لاعن إرادة ، ولكنها مشدودة ، لايملكون لها حراكا . يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب ، فلا يطرف ولا يرتد إليهم ، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية ، لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه ، أو يتذكرونه ، فهي هواء خاوية . هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه ، حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هذا الرعب ، الذي يرتسم من خلال هذه المقاطع الأربعة ، مذهلاً آخذا بهم كالطائر الصغير في مخالب الباشق الرعيب :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[1] .

فالسرعة المهرولة المدفوعة ، في الهيئة الشاخصة المكروهة المشدودة ، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي من الإدراك . . كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار »[2] .

٥ ـ ويصور القرآن الفزع الذي يسيطر على نفوس الكفار في يوم الموقف العظيم فيقول : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[3] .

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٢ .

(٢) في ظلال القرآن : (٤/٢١١١) .

(٣) سورة غافر : ١٨ .

« والآزقة . . . القريبة العاجلة . . . هي القيامة ، واللفظ يصورها كأنها زاحفة والأنفاس من ثَمَّ مكروبة لاهثة ، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر ، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم ، والكظم يكربهم ، ويثقل على صدورهم ، وهم لا يجدون حميا يعطف عليهم ، ولا شفيعا ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب »[1] .

٦ ـ وما كان هؤلاء في حكم الله مجرمين متمردين على خالقهم وإلههم ، مستكبرين عن عبادته وطاعته ـ فإنه يؤتى بهم إلى ربهم وخالقهم مقرنين في الأصفاد ، مسربلين بالقطران تغشى وجوههم النار ، ويا لفظاعة حالهم ، وعظم ما يلقون ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾[2] .

يقول الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآيات : « وتعاين الذين كفروا بالله ، فاجترموا في الدنيا الشرك يومئذ ، يعني يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾[3] ، يقول : مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد ، وهي الوثاق من غلٍّ وسلسلة ، واحدها صفد »[4] .

والسرابيل : هي القُمُصُ التي يلبسونها ، والقطران : المادة التي تطلى بها الإبل إذا أصابها الجرب ، وقيل : القطران النحاس .

٧ ـ وتدنو الشمس من رؤوس العباد في ذلك اليوم حتى لايكون بينها وبينهم إلا

---

(١) في ظلال القرآن : ٣٠٧٤/٦ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٨ ـ ٥٠ .

(٣) سورة إبراهيم : ٤٩ .

(٤) تفسير ابن جرير الطبري : (٢٥٤/١٣) .

إلا مقدار ميل واحد ، ولولا أنهم مخلوقون خلقاً غير قابل للفناء لانصهروا وذابوا وتبخروا ، ولكنهم بعد الموت لا يموتون .

ويذهب عرقهم في الأرض حتى يرويها ، ثم يرتفع فوق الأرض ، ويأخذهم على قدر أعمالهم . ففي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق ، حتى تكون منهم كمقدار ميل »

قال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل ؟ أمسافة الأرض ، أم الميل الذي تكتحل به العين .

قال : « فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه . ومنهم من يكون إلى ركبتيه . ومنهم من يكون إلى حقويه . ومنهم من يلجمه العرق إلجاما » .
قال : وأشار رسول الله بيده إلى فيه[1] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[2] ، قال : « يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه »[3] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب في صفة القيامة . (٤/٢١٩٦) ، ورقمه : (٢٨٦٤) .
(٢) سورة المطففين : ٦ .
(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب قول الله تعالى : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾ ، فتح الباري ، (١١/٣٩٢) . ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب في صفة يوم القيامة ، (٤/٢٨٦٢] ، ورقمه : ٢٨٦٢ .

سبعين ذراعا ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم »[1] .

٨ ــ وعندما يرى الكفار العذاب والهوان الذي يصيب الكفرة المشركين يصيبهم الحسرة والندم ، ولكثرة حسرة العذاب سمي الله ذلك اليوم بيوم الحسرة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] .

ولشدة تحسر الكافر وندمه على عدم اتباعه للرسول الذي بعث إليه ، واتباعه لأعداء الرسل ، فإنه يعض على يديه ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[3].

٩ ــ وفي ذلك اليوم يوقن الكفار أن ذنبهم غير مغفور ، وعذرهم غير مقبول ، فييأسوا من رحمة الله ، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[4] .

١٠ ــ ويتمنى الكفار في ذلك اليوم أن يهلكهم الله ، ويجعلهم ترابا ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾[5] ، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾[6] ، فما بالك بأقوام كانت مناياهم هي غاية المنى !!

---

(١) المصادر السابقة ، والسياق للبخاري .

(٢) سورة مريم : ٣٩ .

(٣) سورة الفرقان : ٢٧ ــ ٢٨ .

(٤) سورة الروم : ١٢ .

(٥) سورة النساء : ٤١ .

(٦) سورة النبأ : ٤٠

المطلب الثاني
إحباط أعمالهم

أعمال الكفار قسمان : قسم هو طغيان وبغي وإفساد في الأرض ونحو ذلك ، فهذه أعمال باطلة فاسدة لا يرجو أصحابها من ورائها خيرا ، ولا يتوقعون عليها ثوابا .

وقد شبه القرآن هذه الأعمال بالظلمات التي يركب بعضها بعضا ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[1] .

والقسم الثاني : أعمال يظنون أنها تغني عنهم من الله شيئا ، كالصدقة والعتاق وصلة الأرحام والإنفاق في سبل الخير ، وقد ضرب الله في كتابه لهذا النوع من الأعمال أمثلة .

فشبهها في بعض المواضع بالسراب الذي يظنه رائيه ماء ، ولكنه عندما يأتيه ـ وهو يؤمل أن يصل إليه فيروي غلته ، ويذهب ظمأه ـ لا يجده شيئا ، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[2] .

وشبهها في موضع آخر بالرياح الشديدة الباردة تهب على الزروع والثمار فتدمرها ، ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[3] ،

---

(١) سورة النور : ٤٠

(٢) سورة النور : ٣٩ .

(٣) سورة آل عمران : ١١٧ .

والصر : البرد الشديد ، وهذه الرياح الباردة هي الكفر والشرك التي تحرق أعمالهم الصالحة .

وشبهها في موضع ثالث بالرماد الذي جاءته ريح عاصف فذرته في كل مكان ، فكيف يستطيع صاحبه جمعه بعد تفرقه !! ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[1] .

ولذلك فإن الله يجعل أعمال الكفار هباء منثورا ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[2] .

وهذا الفريق الذي يظن أنه على خير يفاجأ يوم القيامة بأن عمله باطل ضائع ، ومن هؤلاء عُباد اليهود والنصارى بعد البعثة النبوية ، فإن فريقا منهم يجهدون أنفسهم بالعبادة ، وفعل الخيرات ، ويظنون أن ذلك ينفعهم عند الله تبارك وتعالى ، وكذلك الذين انتسبوا إلى الإسلام ، ولكنهم أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وعبدوا غير الله ، كل هؤلاء لا تنفعهم أعمالهم ، ولا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا ، ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾[3] .

وقد سأل مصعب بن سعد أباه سعد بن أبي وقاص عن الآخسرين أعمالا ، فقال : « هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمدا ﷺ ، وأمّا النصارى

(١) سورة إبراهيم : ١٨ .

(٢) سورة الفرقان : ٢٣ .

(٣) سورة الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٦ .

فكفروا بالجنة ، وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب »[1] .

وإنما كان اليهود والنصارى من الأخسرين أعمالا ، لأن كثيرا منهم يظنون أنفسهم على الحق ، ويجتهدون في العبادة ، وحقيقة الأمر أنهم خاسرون ، لأنهم يكفرون برسول الله الخاتم ، وكتابه المنزل ، مع كفرهم بكثير مما أنزل إليهم من ربهم ، وإيمانهم بالمحرف من دينهم .

فهذه الأعمال التي يظن الكفرة أنها نافعتهم في يوم الدين لا وزن لها ولا قيمة لها في ذلك اليوم لأنها قامت على غير أساس ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[2] والأساس هو الإسلام ، فمالم يكن المرء مسلما موحدا فعمله مردود ، وسعيه موزور غير مشكور ، روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : يا رسول الله ، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ؟ قال : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين »[3] .

المطلب الثالث
تخاصم أهل النار

عندما يعاين الكفرة أعداء الله ما أعد لهم من العذاب ، وما هم فيه من أهوال يمقتون أنفسهم كما يمقتون أحبابهم وخلانهم في الحياة الدنيا ، بل تنقلب كل محبة لم تقم على أساس من الإيمان إلى عداء ، قال تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة رقم : (١٨) فتح الباري : (٨/٤٢٥) .
(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أهون أهل الدنيا عذابا ، (١/١٩٦) ورقم الحديث ٢١٤ .

﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ، وعند ذلك يخاصم أهل النار بعضهم بعضا ، ويحاج بعضهم بعضا ، العابدون المعبودين ، والأتباع السادة المتبوعين ، والضعفاء المتكبرين ، والإنسان قرينه ، بل يخاصم الكافر أعضاءه .

١ ـ أما مخاصمة العابدين المعبودين : ففي قوله تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[2] إنهم يخاطبون آلهتهم التي كانوا يعبدون ،معترفين بضلالهم إذ كانوا يعبدونها ، ويسوون بينها وبين الخالق ، وقد خاب وخسر من رفع المخلوق إلى مرتبة الخالق ، وكل من عبد من دون الله آلهة ، فقد سوى بين الخالق والمخلوق ، وهذا هو الظلم العظيم ، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه : ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3] .

أما الصالحون الأخيار الذين عُبِدوا وهم لا يعلمون ، أو عبدوا بغير رضاهم كالملائكة وصالحي البشر ، فإنهم يتبرؤون من عابديهم ، ويكذبون زعم العابدين وافتراءهم ، فإن الملائكة ما طلبت هذه العبادة ، ولا رضيت بها ، والذين طلبوها هم الجن ، كي يضلوا البشر ويوبقوهم ، فهؤلاء الضالون عابدون للجن لا للملائكة ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة الزخرف : ٦٧ .

(٢) سورة الشعراء : ٩١ ـ ٩٩ .

(٣) سورة لقمان : ١٣ .

(٤) سورة سبأ : ٤٠ ـ ٤١ .

وعيسى بن مريم يتبرأ في يوم الدين من الذين اتخذوه إلها وعبدوه من دون الله ، ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ . . ﴾[1] .

هذا موقف جميع المعبودات التي لم ترض باتخاذها آلهة ، تتبرأ من عابديها ، وتكذبهم في دعواهم ، وتقر بعبوديتها لله ربها ، ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[2].

وقال في موضع آخر : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[3] .

٢ ــ وأما تخاصم الأتباع مع قادة الضلال من أصحاب الفكر ، والنظريات الضالة ، والمباديء المناقضة للإسلام ، فقد ذكرها الله في موضع آخر فقال : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم

(١) سورة المائدة : ١١٦ ـ ١١٧ .
(٢) سورة النحل : ٨٦ ـ ٨٧ .
(٣) سورة يونس : ٢٨ ـ ٣٠ .

مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[١] .

وهذا المذكور في هذه الآيات هو تلاوم أهل النار في عرصات القيامة ، فالأتباع يقولون لقادة الضلال أنتم الذين كنتم تزينون لنا الباطل ، وتغروننا بمخالفة الحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾[٢] ، ولكن القادة ورجال الفكر والزعماء يرفضون هذا ، ويقولون لهم : أنتم تتحملون نتيجة أعمالكم ، فقد اخترتم الكفر ، ولم يكن لنا من سلطان عليكم ، إن طغيانكم واستكباركم هو الذي أوصلكم إلى هذه النهاية .

٣ ـ **أما مخاصمة الضعفاء للسادة من الملوك والأمراء وشيوخ العشائر الذين كانوا** يتسلطون على العباد ، ويشدُّ الضعفاء أزرهم ، ويعينوهم على باطلهم بالنفس والمال فقد ذكرها الله تعالى في قوله : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[٣] ، ولندع الداعية المفسر الأستاذ سيد قطب رحمه الله ، وأجزل له المثوبة يفسر لنا هذه الآيات الكريمة ، ولنعش معه في الظلال . . . (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا . .)[٤] الطغاة المكذبون ، وأتباعهم من الضعفاء

---

(١) سورة الصافات : ١٩ ـ ٣٥

(٢) سورة البقرة : ٢٥٧ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢١ .

(٤) سورة إبراهيم : ٢١ .

المستذلين . . . ومعهم الشيطان . . . ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات . . . برزوا « جميعا » مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائما ، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق . . . برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار ، وبدأ الحوار : « فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟» . . والضعفاء هم الضعفاء . هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه ؛ وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة . ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله . والضعف ليس عذراً ، بل هو الجريمة ؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً ، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله . وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبه في الحرية ـ التي هي ميزته ومناط تكريمه ـ أو أن ينزل كارهاً . والقوة المادية ـ كائنة ما كانت ـ لاتملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية ، ويستمسك بكرامته الآدمية . فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد ، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه . أما الضمير . أما الروح . أما العقل . فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها ، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال !

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة ، وفي التفكير ، وفي السلوك ؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله ، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه ؟ لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة . فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ، ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً . . كلا ، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء . إنما هم ضعفاء لأن الضعف في

أرواحهم وفي قلوبهم-وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان !

إن المستضعفين كثرة ، والطواغيت قلة . فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة ؟ وماذا الذي يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح ، وسقوط الهمة ، وقلة النخوة ، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان ! .

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير . فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت . فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان ! .

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء . . وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة !! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم :

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾[1] ؟ . .

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم ؟!

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة ، وتعريضهم إياهم للعذاب ؟ إن السياق يحكي قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال ! .

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال :

﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[2] . .

وهو رد يبدو فيه البرم والضيق :

« لو هدانا الله لهديناكم » . .

فعلام تلوموننا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد ؟ إننا لم نهتد

(١) سورة ابراهيم : ٢١ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢١ .

ونضلكم . ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا ، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال ! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله . فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها ، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حساباً لقدرة القاهر الجبار . وإنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجع الأمر لله . . والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾[1] . . ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي ، فيعلنوا لهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر . فقد حق العذاب ، ولا راد له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى ، وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص :

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾[2] .

لقد قضي الأمر ، وانتهى الجدل ، وسكت الحوار . . وهنا نرى على المسرح عجباً . نرى الشيطان . . هاتف الغواية ، وحادي الغواة . . نراه الساعة يلبس مسوح الكهان ، أومسوح الشيطان ! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء ، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[3] .

---

(١) سورة الأعراف : ٢٨ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢١ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٢ .

الله ! الله ! أما إن الشيطان حقاً لشيطان ! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار . .

إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور ، وأغرى بالعصيان ، وزين الكفر ، وصدهم عن استماع الدعوة . . هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة ، حيث لا يملكون أن يردوها عليه ـ وقد قضي الأمر ـ هو الذي يقول الآن ، وبعد فوات الأوان :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾[1] .

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له ، وليس له عليهم من سلطان ، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم ، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ ![2] .

ثم يؤنبهم ، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم . يؤنبهم على أن أطاعوه ! :

﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾[3] ! .

ثم يخلي بهم ، وينفض يده منهم ، وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم ، ووسوس لهم أن لا غالب لهم ، فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا ، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾[4] .

وما بيننا من صلة ولا ولاء !

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٤) سورة إبراهيم : ٢٢ .

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الاشراك :
﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾[1] .

ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه :
﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] .

فيا للشيطان ، ويالهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ، ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوهم[3] .

وفي موضع آخر يذكر الله تخاصم الضعفاء والسادة المستكبرين فيقول :
﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾[4] .

وهذه الآيات الكريمة تأتي بعد الإخبار بما كان من استعلاء فرعون من تذبيحه الأطفال ، ومحاولته قتل موسى ، ومحاورته ذلك المؤمن الذي واجه فرعون ودحض حجته وباطله ، وكيف وقف الشعب موقف التابع الذي ينفذ رغبات الطاغية ، فيقوم أفراده بالتذبيح والإيذاء والمطاردة ، هؤلاء الذين كانوا في الدنيا أعوانا للظلمة المجرمين يعلمون في يوم القيامة فداحة الجريمة التي وقعوا فيها ، ويقولون للسادة أمثال فرعون : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[5] ، ولكن السادة لا يملكون لأنفسهم شيئا ، ولا يستطيعون نصر

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٢ .
(٢) سورة إبراهيم : ٢٢ .
(٣) في ظلال القرآن : ٤/٢٠٩٥ .
(٤) سورة المؤمن : ٤٧ ـ ٤٨ .
(٥) سورة المؤمن : ٤٧ .

أنفسهم، فيقولون: ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾[1] ، وهذا الموقف يدلنا على الجواب الذي يمكننا أن نواجه به المقولة الباطلة التي يرددها بعض الظلمة حيث يقولون لأتباعهم : اتبعوني ، وأنا أتحمل وزركم إن كان عليكم وزر ، فإن تحملهم مثل أوزار الذين يضلونهم ، لا يمنع العذاب عن الذين اتبعوهم ، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[2] وقال في موضع آخر محدثا عن مخاصمة الضعفاء للمستكبرين : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3] .

فالأتباع والضعفاء يتهمون سادتهم وزعمائهم قائلين لهم : أنتم الذين حلتم بيننا وبين الإيمان ، فلولاكم لكنا من الذين اتبعوا ما أنزل إلينا من ربنا ولكن المستكبرين يرفضون هذه التهمة ، ويقولون لهم : أنتم المجرمون ، كل ما في الأمر أننا دعوناكم فاستجبتم لنا ، ولم يكن لنا عليكم من سلطان ، فتقول الشعوب المستضعفة الضالة : بل مكركم بنا في الليل والنهار أضلنا وحرفنا عن جادة الصواب ، فالمؤامرات والمؤتمرات ، ووسائل الإعلان في مختلف العصور التي تصور

(١) سورة المؤمن : ٤٨ .
(٢) سورة العنكبوت : ١٢ ـ ١٣ .
(٣) سورة سبأ : ٣١ ـ ٣٣ .

الحق باطلا ، والباطل حقا ، وما كان يلقيه الزعماء من شبهات ومزاعم باطلة ، كل ذلك أضلنا وجعلنا نكفر بالله ، ونشرك به ، والحق أن الجميع خاطئون ، وهم غير معذورين في ضلالهم وكفرهم .

ويصف الحق هذا التخاصم بين أهل النار عند دخولهم النار فيقول : ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[1] .

فهؤلاء الذين كان بعضهم يرحب ببعض في الحياة الدنيا ، ويوقر بعضهم بعضا ، يتحول حالهم في ذلك اليوم فيقول بعضهم لبعض : ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾[2] . ويتمنى كل فريق على الله أن يزيد من كانوا أحبابه في الدنيا من العذاب والآلام ، إن هذا التخاصم بين أهل النار حق كائن لا شك في ذلك ، كذلك يقول ربنا تبارك وتعالى .

٤ ــ ويقع الخصام في ذلك اليوم بين الكافر وقرينه الشيطان ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ

---

(١) سورة ص : ٥٥ ـ ٦٤ .

(٢) سورة ص : ٥٩ ـ ٦٠ .

وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

٥ ـ ويبلغ الأمر أشده والمخاصمة ذروتها عندما يخاصم المرء أعضاءه ، ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] . وهذا يكون من الكفار عندما يعاينون العذاب الشديد الذي أعده الله لهم ، فيلجأون إلى التكذيب والإنكار ، ويزعمون أنهم كانوا صالحين ، ويكذبون بشهادة الملائكة والمرسلين والصالحين الذين يشهدون عليهم ، فعند ذلك يختم الله على أفواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، فعند ذلك يقولون لأعضائهم : « بعدا لكنَّ وسحقا ، عنكن كنت أجادل »[3] .

أخرج مسلم والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : «يلقى العبد ربه ، فيقول الله ؛ ألم أكرمك وأسودك وأزوجك ، وأسخّر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع فيقول : بلى أي رب ، فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقال : إني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثاني ، فيقول له مثل ذلك ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : آمنت بك وبكتابك وبرسولك ، وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقول : ألا نبعث شاهدنا عليك ، فيفكر في نفسه من الذي يشهد علي ؟ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه انطقي ، فتنطق فخذه وفمه وعظامه بعمله ما كان ،

---

(١) سورة ق : ٢٣ ـ ٢٩ .

(٢) سورة فصلت : ١٩ ـ ٢١ .

(٣) هذا جزء من حديث رواه مسلم وغيره ، انظر تفسير ابن كثير : (٦/١٦٨) .

وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط عليه »[1] .

وإن هذا الحوار الذي يجري بين العبد وجوارحه موضع عجب واستغراب ، وقد أضحك هذا الموقف الرسول ﷺ ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ،

فقال : « هل تدرون مِمّ أضحك ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال : من مخاطبة العبد ربّه . يقول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟

قال : يقول : بلى .

قال : فيقول : إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني .

قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ،

ثم يختم على فيه ، فيقال لأركانه : انطقي ، قال : فتنطق بأعماله .

قال : ثمَّ يخلى بينه وبين الكلام .

قال : فيقول : بعدا لكنَّ وسحقا . فعنكنَّ كنت أناضل »[2] .

٦ ــ ويخاصم البدن في يوم القيامة الروح .

قال ابن كثير : « وقد روى ابن مندة في كتاب « الروح » عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد ، فتقول الروح للجسد : أنت فعلت . ويقول الجسد للروح : أنت أمرت ، وأنت سولت .

فيبعث الله ملكا يفصل بينهما ، فيقول لهما :

إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير ، والآخر ضرير دخلا بستانا . فقال المقعد للضرير : إني أرى هاهنا ثمارا ، ولكن لا أصل إليها .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه : (٢٢٨٠/٤) ورقمه : ٢٩٦٩ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه : (٢٢٨٠/٤) ، ورقمه : ٢٩٦٩ .

فقال له الضرير : اركبني فتناولها . فركبه فتناولها . فأيهما المعتدي ؟

فيقولان : كلاهما .

فيقول لهما الملك : فإنكما قد حكمتما على أ نفسكما . يعني أن الجسد للروح كالمطية ، وهو راكبه »[1] .

٧ ـ وفي ذلك الموقف يمقتون أنفسهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾[2] ، كما يمقتون كل الذين كانوا لهم أنصارا وخلانا في الدنيا ، ويدعون عليهم ، ويطلبون لهم المزيد من العذاب ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[3] ، ولشدة حنقهم على من أضلهم يسألون الله أن يريهم الذين أضلوهم ليدوسوهم بأقدامهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾[4] ، وعندما يدخلون النار ترتفع أصواتهم بلعن بعضهم بعضا ، ثم يتمنى بعضهم لبعض مزيدا من العذاب ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[5] .

---

(١) تفسير ابن كثير : (٦/ ٩٢) .

(٢) سورة المؤمن : ١٠ .

(٣) سورة الأحزاب : ٦٦ ـ ٦٨ .

(٤) سورة فصلت : ٢٩ .

(٥) سورة الأعراف : ٣٨ .

المبحث الثاني
حال عصاة المؤمنين

بعض المؤمنين يكون قد قارف ذنوبا توقعه في أهوال ومشقات وصعاب ، وسنعرض في هذا المبحث لذكر بعض العصاة وما يصيبهم في ذلك اليوم من البلاء .

المطلب الأول
الذين لا يؤدون الزكاة

من حقوق الله الكبرى الزكاة ، وهي حق المال ، والذين لا يؤدون زكاة أموالهم يعذبون بهذه الأموال في الموقف العظيم ، وقد أخبرت النصوص أن عذابهم بها على وجوه .

الأول : أن يمثل لصاحب المال ماله شجاعا أقرع ، له زبيبتان ، فيطوق عنقه ، ويأخذ بلهزمتي صاحبه ، قائلا له أنا مالك ، أنا كنزك ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ، ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك . ثم تلا : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[1] ، [2] » .

والشجاع الأقرع : الحية الذكر المتمعط شعر رأسه لكثر سمّه ، والزبيبتان : نقطتان سوداوان فوق عيني الحيّة .

الثاني : أن يؤتى بالمال نفسه الذي منع زكاته ، فإن كان من الذهب والفضة جعل صفائح من نار ، ثم عذب به صاحبه ، وإن كان المال حيوانا . إبلا أو بقرا أو غنما ، أرسل على صاحبه فعذب به ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[3] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي فيها حقًّها ، إلّا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت عليه ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله ، إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

قيل : يا رسول الله ، فالإبل ؟ قال : « ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها ، ومن حقها حَلبُها يوم وردها ، إلا إذا كان يوم القيامة ، بطح لها بقاع قرقر[4] ، أوفر ما كانت ، لا يفقد منها فصيلا واحدا ، تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها ، كلما مر عليه أولاها ردّ عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة ، وإمّا إلى النار » .

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٠ .

(٢) مشكاة المصابيح : ١/٥٥٩ ، ورقم الحديث : ١٧٧٤ .

(٣) سورة التوبة : ٣٤ ـ ٣٥ .

(٤) بطح لها بقاع قرقر : بسط لها ومدّ لها بأرض مستوية .

قيل : يا رسول الله ، فالبقر والغنم ؟ قال : « ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي فيها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر ، لا يفقد منها شيئاً ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء[1] ، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضي الله بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار »[2]

المطلب الثاني
المتكبــرون

الكبر جريمة كبرى في حكم الله وشرعه ، والله يبغض أصحابها أشدَّ البغض ، وعندما يبعث الله العباد يحشر المتكبرين في صورة مهينة ذليلة ، ففي الحديث الذ ي يرويه الترمذي عن عمرو بـن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر المتكبرون أمثال الذر يوم القيامة ، في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان »[3] .

والذر صغار النمل ، وصغار النمل لا يعبأ به الناس ، فيطؤونه بأرجلهم وهم لا يشعرون .

وكما يبغض الله المتكبرين يبغض أسماءَهم التي كانوا يطلقونها على أنفسهم استكبارا واستعلاءً ، وتصبح هذه الأسماء التي كانوا يفرحون عند سماعها أنكر الأسماء وأخبثها ، وأغيظها على الله .

---

(١) العقصاء : الملتوية القرون ، والجلحاء : التي لا قرون لها . والعضباء : التي انكسر قرنها الداخل .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، في كتاب الزكاة ، باب اثم مانع الزكاة ، (٢/٦٨٠) ورقمه : ٩٨٧ ، والحديث في الصحاح والسنن عن أكثر من صحابي ، راجع جامع الأصول : ٥٥٤/٤ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/٦٣٥) ورقمه : ٥١١٢ ، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة .

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أخنع اسم عند الله يوم القيامة ، رجل تسمى ملك الأملاك » وزاد مسلم في رواية « لا مالك إلا الله عز وجل » .

ورواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة بلفظ « أغيظ رجل على الله يوم القيامة ، وأخبثه ، وأغيظه عليه ، رجل كان يسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله »[1] .

قال القاضي عياض : أخنع : معناه أشدُّ الأسماء صغارا ، وقال ابن بطال : وإذا كان الاسم أذل الأسماء ، كان من تسمى به أشدُّ ذلا[2] .

المطلب الثالث
ذنوب لا يكلم الله أصحابها ولا يزكيهم

وردت نصوص كثيرة ترهب من ذنوب توعد الله من ارتكبها بأن لا يكلمه في يوم القيامة ولا يزكيه ، وله عذاب أليم .

فمن هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ، وهم الأحبار والرهبان والعلماء الذين يكتمون ما عندهم من العلم إرضاءً لحاكم ، أو تحقيقاً لمصلحة ، أو طلبا لعرض دنيوي ، ككتمان الأحبار والرهبان ما يعرفونه من كتبهم من صفات الرسول ﷺ ، وإنكارهم لنبوته ، مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم .

وقد قال الله في هؤلاء : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٦١٩) ، ورقمه : ٩١٤ .

(٢) فتح الباري : (١٠/٥٨٩) .

وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾[1] .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾[2] . « وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم ، لأنهم كتموا وقد علموا ، فاستحقوا الغضب ، فلا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، أي لا يثنى عليهم ولا يمدحهم ، بل يعذبهم عذابا أليما »[3] .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والبيهقي ، ورواه الحاكم بنحوه . وقال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وفي رواية لابن ماجة قال : « ما من رجل يحفظ علما فيكتمه إلا أتى يوم القيامة ملجوما بلجام من نار »[4] .

ومن الذين يغضب الله عليهم يوم القيامة ، فلا يكلمهم ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم الذين ينقضون ما عاهدوا الله عليه ويشترون بأيمانهم ثمنا قليلا ، فيحلفون الأيمان الكاذبة تحقيقا لكسب دنيوي تافه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5] .

وقد ساق ابن كثير أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية :

منها الحديث الذي رواه مسلم وأهل السنن وأحمد عن أبي ذر قال : قال

---

(١) سورة البقرة : ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : (١/٣٦٣) .

(٤) الترغيب والترهيب للحافظ المنذري : (١/٩٧) .

(٥) سورة آل عمران : ٧٧ .

رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » .

قلت : يا رسول الله ، من هم ؟ خسروا وخابوا .

قال : وأعاده رسول الله ثلاث مرات .

قال : « المسبل ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمنان » .

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىء مسلم ، لقي الله - عز وجل - وهو عليه غضبان » .

ومنها ما رواه البخاري عن عبدالله بن أبي أوفى أن رجلا أقام سلعة له في السوق ، فحلف بالله لقد أعطي فيها مالم يعطه ، ليوقع فيها رجلا من المسلمين ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾[1] .

ومنها ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده ، ورجل حلف على سلعته بعد العصر ، يعني كاذبا ، ورجل بايع إماما ، فإن أعطاه وفى له ، وإن لم يعطه لم يف له » وقال الترمذي : حديث حسن صحيح[2] .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعته : لقد أعطي بها أكثر مما أعطى وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال

---

(١) سورة آل عمران : ٧٧ .

(٢) انظر هذه الأحاديث في تفسير ابن كثير : (٢ / ٦٠) .

امرىء مسلم ، ورجل منع فضل ماء ، فيقول الله يوم القيامة : اليوم أمنعك فضلي ، كما منعت فضل مالم تعمل يداك »[1] .

ومن الذنوب التي توعد الله عليها بعدم تكليم صاحبها ، وعدم نظره إليه ، وترك تزكيته ، غير ما تقدم ، الشيخ الزاني ، والملك الكذاب ، والعائل (أي الفقير) المستكبر ، والعاق لوالديه ، والمرأة المتشبهة بالرجال ، والديوث ، ومن أتى إمرأته في دبرها ، ومن جر ثوبه خيلاء .

ففي صحيح مسلم وسنن النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »[2] .

وفي مسند أحمد ، وسنن النسائي ، ومستدرك الحاكم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال ، والديوث »[3] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الذي يأتي إمرأته في دبرها لا ينظر الله إليه » رواه في« شرح السنة »[4] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثوبه بطرا »[5] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد . باب قول الله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ فتح الباري : (٤١٩/١٣) .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٧٣/٣) ، ورقمه : ٣٠٦٤ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٧٤/٣) ، ورقمه : ٣٠٦٦ .

(٤) مشكاة المصابيح (١٨٤/٢) ورقم الحديث : (٣١٩٤) ، وقال فيه محقق المشكاة : ورواه النسائي في « الكبرى » ، وهو حديث صحيح .

(٥) مشكاة المصابيح : (٤٧٢/٢) ورقمه : ٤٣١١ .

وفيهما أيضا عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة »(١) .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « الإسبال في الإزار والقميص والعمامة ، من جر منها شيئا تخيلا لم ينظر الله إليه يوم القيامة » رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة(٢) .

المطلب الرابع
الأثرياء المنعمـون

الذين يركنون إلى الدنيا ، ويطمئنون إليها ، ويكثرون من التمتع بنعيمها ، يُضَيَّق عليهم في يوم القيامة ، فقد أخبر الرسول ﷺ أن الذي يكثر شبعه في الدنيا ، يطول جوعه يوم القيامة ، ففي سنن الترمذي وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم أن الرسول ﷺ قال لأحد أصحابه : « كف عنا جشاءَك ، فإن أكثرهم شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة »(٣) . كما أخبر أن أصحاب المال الكثير والمتاع الدنيوي الواسع يكونون أقل الناس أجرا في يوم القيامة ، مالم يكونوا قد بذلوا أموالهم في سبل الخيرات ، ففي الصحيحين عن أبي ذر قال : « إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله تعالى خيرا ، فنفح فيه بيمينه وشماله ، وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيرا »(٤) .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٤٧٢) ، ورقمه : ٤٣١٢ .

(٢) وإسناده صحيح كما يقول محقق مشكاة المصابيح : (٢/٤٧٤) ، ورقم الحديث : (٤٣٣٢) .

(٣) ساق الشيخ ناصر الدين الألباني طرق الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ورقم الحديث : (٣٤٣) .

(٤) صحيح الجامع الصغير : (٢/١٦٥) ، ورقمه : (١٩٥٠) .

وقلة الحسنات تؤخرهم ، وتجعل الآخرين يتقدمونهم ، بعدما كانوا في الدنيا مقدمين ، ففي سنن ابن ماجة عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة ، إلا من قال بالمال هكذا ، وهكذا ، وكسبه طيب »[1] .

وأخبرناالرسول ﷺ أن الذين أثقلوا أنفسهم بالنعيم الدنيوي ، والغنى والثراء لا يستطيعون أن يتجاوزوا في يوم القيامة العقبات والأهوال ، ففي شعب الإيمان عن أم الدرداء قالت : قلت لأبي الدرداء : مالك لا تطلب كما يطلب فلان ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أمامكم عقبة كؤودا لا يجوزها المثقلون »[2] .

المطلب الخامس
فضيحة الغادر

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء ، فقيل : هذه غدرة فلان ابن فلان » رواه مسلم[3] .

والغادر : الذي يواعد على أمر ، ولا يفي به ، واللواء : الراية العظيمة ، لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب ، أو صاحب دعوة الجيش ، ويكون الناس تبعا له[4] . فالغادر ترفع له راية تسجل عليها غدرته ، فيفضح بذلك يوم القيامة ،

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٦٤/٤) ، ورقمه : ١٧٦٦ .

(٢) مشكاة المصابيح : (٦٠٧/٢) ورقمه : (٥٢٠٤) . وعزاه في صحيح الجامع إلى الحاكم أيضا انظر : صحيح الجامع (١٧٨/٢) ورقمه : ١٩٩٧ .

(٣) صحيح مسلم ، (١٣٥٩/٣) ورقمه : ١٧٣٥ ، والحديث رواه البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم .

(٤) شرح النووي على مسلم : (٤٢/١١) .

وتجعل هذه الراية عند مؤخرته ، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة »[1] .

وكلما كانت الغدرة كبيرة عظيمة كلما ارتفعت الراية التي يفضح بها في يوم الموقف الغظيم ، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ، ألا ولاغادر أعظم غدرا من أمير عامة »[2] ، وأمير العامة هو الحاكم أو الخليفة ، وكانت غدرته كذلك لأنَّ ضرره يتعدى إلى خلق كثير ، ولأنَّ الحاكم أو الوالي يملك القوة والسلطان فلا حاجة به إلى الغدر .

وقد جعل الله العقاب بهذا اللون من العقوبة على طريقة ما يعهده البشر ويفهمونه ألا ترى قول شاعرهم :

أسمّي ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها في المجمع

فكانت العرب ترفع للغادر لواء في المحافل ومواسم الحج ، وكذلك يطاف بالجاني مع جِنايته[3] .

المطلب السادس

الغــلول

الغلول هو الأخذ من الغنيمة على وجه الخفية ، وهو ذنب يخفي تحته شيء من الطمع والأثرة ، وقد توعد الله تبارك وتعالى الغال بفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، وذلك لتحميله ما غلّه في ذلك اليوم ، ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ

(١) صحيح مسلم : (١٣٦١/٣) ، ورقم الحديث : ١٧٣٨ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) التذكرة للقرطبي : ٢٩٧ .

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1] .

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية : « أي يأتي به حاملا له على ظهره وعلى رقبته ، معذبا بحمله وثقله ، ومرعوبا بصوته ، وموبخا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد »[2] .

ومن الغلول غلول الحكام والموظفين والعمال والولاة من الأموال العامة ، وقد وضح الرسول ﷺ كيف يحمل الغالون يوم القيامة ما غلوه في أكثر من حديث ، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فذكر الغلول فعظمه ، وعظم أمره ، ثم قال : « لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، يقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمه ، فيقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاه لها ثغاء ، يقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رأسه رقاع تخفق ، فيقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[3] ، فيقول : يا رسول

---

(١) سورة آل عمران : ١٦١

(٢) تفسير القرطبي : (٤/٢٥٦) .

(٣) الصامت : الذهب والفضة .

الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك » متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم ، وهو أتم[1] .

وأخرج الطبراني في « معجمه الكبير » ، والبيهقي في « السنن » ، والحميدي في مسنده أن الرسول ﷺ استعمل عبادة بن الصامت على الصدقة ، ثم قال له : « اتق الله يا أبا الوليد أن تأتي يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك ، له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثؤاج »[2] .

وقد ساق ابن كثير في تفسيره الأحاديث المرهبة من الغلول ، ومنها أحاديث غلول العمال من الصدقات ، وساق حديث أبي حميد الساعدي قال : « استعمل رسول الله ﷺ رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لي .

فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فقال : « ما بال العامل نبعثه على عمل ، فيقول : هذا لكم ، وهذا لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه ، فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ، إن كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاه تيعر » رواه البخاري ومسلم[3] .

المطلب السابع
غاصب الأرض

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ « من أخذ من الأرض شيئا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين »[4] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٤٠١) . ورقم الحديث : ٣٩٩٥ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٥٣٧) ، ورقمه : (٨٥٧) . والحديث صحيح .

(٣) تفسير ابن كثير : (٢/١٤٥) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض ، فتح الباري : (٥/١٠٣) .

المطلب الثامـــن
ذو الوجهيـــن

شر الناس يوم القيامة المتلوِّن الذي لا يثبت على حال واحدة وموقف واحد ، فيأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ، روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تجدون شرًّ الناس يوم القيامة ذا الوجهين ، الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه »[1] .

وورد في بعض الأحاديث أن هذا الصنف من الناس يكون له لسان من نار يوم القيامة ، فقد أخرج أبو داود واللفظ له ، والبخاري في الأدب المفرد ، والدارمي ، وأبو يعلى وغيرهم عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان له وجهان في الدنيا كان له لسان من نار يوم القيامة »[2] .

المطلب التاسع
الحاكم الذي يحتجب عن رعيته

روى أبو داود وابن ماجة والحاكم بإسناد صحيح عن أبي مريم الأزدي قال : قال رسول الله ﷺ : « من ولي من أمور المسلمين شيئا ، فاحتجب دون خلتهم ، وحاجتهم ، وفقرهم ، وفاقتهم ، احتجب الله عنه يوم القيامة ، دون خلته ، وحاجته ، وفاقته ، وفقره »[3] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٥٧٨) ، ورقمه : ٤٨٢٠ .
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٥٨٤) ، ورقمه : ٨٩٢ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٥/٣٦٨) ، ورقم الحديث : ٦٤٧١ .

المطلب العاشر
الذي يسأل وله ما يغنيه

يبعث الذي كان يسأل الناس وله ما يغنيه ، وفي وجهه خموش أو كدوش ، فقد أخرج أبو داود والنسائي والترمذي والدارمي وغيرهم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل وله ما يغنيه ، جاءَت مسألته يوم القيامة خدوشا أو خموشا أو كدوحا في وجهه .

قيل : يا رسول الله ، وما يغنيه ؟

قال : خمسون درهما ، أو قيمتها من الذهب »[1] .

وفي مسند الإمام أحمد عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « مسألة الغنى شين في وجهه يوم القيامة »[2] .

المطلب الحادي عشر
البصاق تجاه القبلة

جهة القبلة محترمة مقدسة ، ولذا فقد جاءَت الأحاديث ناهية عن استقبال القبلة واستدبارها حال البول والغائط .

ومما نهى عنه الرسول ﷺ البصاق تجاه القبلة ، وأخبرناأن الذي يتنخم تجاه القبلة يأتي يوم القيامة ونخامته في وجهه ، فقد روى البزار في مسنده ، وابن حبان وابن خزيمة في صحيحهما عن ابن عمر قال : « تبعث النخامة في القبلة يوم

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : ورقم الحديث : (٤٩٩) .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٥/٢٠٨) ورقمه : ٥٧٤٧ ، وقال المحقق فيه : صحيح .

القيامة ، وهي في وجه صاحبها »[1] .

وروى أبو داود في « سننه » وابن حبان في « صحيحه » عن حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ قال : « من تفل تجاه القبلة جاء يوم القيامة وتفله بين عينيه » ، وإسناده صحيح[2] .

المطلب الثاني عشر
من كذب في حلمه

يعاقب الذي يكذب في حلمه يوم القيامة بأن يكلف بأن يعقد بين شعيرتين ، والذي يستمع إلى قوم وهم كارهون يعاقب بأن يصب الآنك في أذنيه يوم القيامة ، والآنك الرصاص .

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ، ولن يفعل ، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ، أو يفرون منه ، صب في أذنه الآنك يوم القيامة »[3] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٣/٣) ، ورقمه : ٢٩٠٧ ، وقال الشيخ ناصر فيه : صحيح ، وانظر كلام الشيخ ناصر الدين الألباني على الحديث في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » حديث رقم : ٢٢٣ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ورقم الحديث : ٢٢٢ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب تعبير الرؤيا ، باب من كذب في حلمه ، فتح الباري : (٤٢٧/١٢) .

المبحث الثالث
حال الأتقياء

المطلب الأول
يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون

صنف من عباد الله لا يفزعون عندما يفزع الناس ، ولا يحزنون عندما يحزن الناس ، أولئك هم أولياء الرحمن الذين آمنوا بالله ، وعملوا بطاعة الله استعدادا لذلك اليوم فيؤمنهم الله في ذلك اليوم ، وعندما يبعثون من القبور تستقبلهم ملائكة الرحمن تهدىء من روعهم ، وتطمئن قلوبهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[1] ، والفزع الأكبر ، هو ما يصيب العباد عندم يبعثون من القبور ، ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[2] .

ففي ذلك اليوم ينادي منادي الرحمن أولياء الرحمن مطمئناً لهم ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾[3] وقال في موضع آخر : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

(١) سورة الأنبياء : ١٠١ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٢ .

(٣) سورة الزخرف : ٦٨ ـ ٦٩ .

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[1] .

والسر في هذا الأمن الذي يشمل الله به عبادة الأتقياء ، أن قلوبهم كانت في الدنيا عامرة بمخافة الله ، فأقاموا ليلهم ، وأظمئوا نهارهم ، واستعدوا ليوم الوقوف بين يدي الله ، فقد حكى عنهم ربهم أنهم كانوا يقولون : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[2] ، ومن كان حاله كذلك فإن الله يقيه من شر ذلك اليوم ويؤمنه ، ﴿فَوَقَىٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[3] .

وفي الحديث الذي يرويه أبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : وعزتي وجلالي ، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين ، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي »[4] .

وكلما كان العبد أكثر إخلاصا لربه تبارك وتعالى كان أكثر أمنا في يوم القيامة ، فالموحدون الذين لم يلبسوا إيمانهم بشيء من الشرك ، لهم الأمن التام يوم القيامة ، يدلك على هذا جواب إبراهيم لقومه عندما خوفوه بأصنامهم ، فأجابهم قائلا : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[5] .

---

(١) سورة يونس : ٦٢ ـ ٦٤ .

(٢) سورة الدهر : ١٠ .

(٣) سورة الدهر : ١١ ـ ١٢ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٣٧٧) ، ورقمه : ٧٤٢ ، وإسناده حسن .

(٥) سورة الأنعام : ٨١ ـ ٨٢ .

المطلب الثاني
الذين يظلهم الله في ظله

عندما يكون الناس في الموقف العظيم تحت وهج الشمس القاسي ، يذوقون من البلاء شيئاً تنوء بتحمله الجبال الشم الراسيات ـ يكون فريق من الأخيار هانئين في ظل عرش الرحمن ، لا يعانون الكربات التي يقاسي منها الآخرون .

وهؤلاء هم أصحاب الهمم العالية ، والعزائم الصادقة ، الذي تمثلت فيه عقيدة الإسلام ، وقيمه الفاضلة ، أو قاموا بأعمال جليلة ، لها في مقياس الإسلام وزن كبير .

فمن هؤلاء ؟ الإمام العادل ، الذي يملك القوة والسلطان ، ولكنه لم يطغ ، وأقام العدل بين العباد وفق سلطان الشرع الإلهي .

ومنهم الشاب الذي نشأ في عبادة ربه ، وألجم نفسه بلجام التقوى ، وردع النفس والهوى ، فعاش عمره طاهرا نقيا .

ومنهم الذين يعمرون مساجد الله ، يجدون في رحابها الأنس بالله ومناجاته ، فلا يكادون يفارقونها حتى يحنوا إلى رحابها .

ومن هؤلاء المتحابون في الله تبارك وتعالى ، تجمعهم رابطة الأخوة فيه ، ويجتمعون على البر والتقوى والصلاح ، ويتفرقون على عمل صالح .

ومنهم الذين تعرض لهم فتنة النساء ، فيحول خوف الله بينهم وبين الوقوع في الفاحشة .

ومنهم المنفق الذي يخلص دينه لله ، فيخفي الصدقة حتى عن نفسه .

ومنهم الذي تملأ مخافة الله قلبه ، فتفيض عيناه من أجل ذلك وهو وحيد ليس معه أحد .

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعة يظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربِّهِ ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته إمرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »[1] .

وقد جاءَت نصوص كثيرة تدل على إظلال الله للمتحابين فيه في ظل العرش في ذلك اليوم منها حديث أبي هريرة عند مسلم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي ، يوم لا ظل إلا ظلي »[2] .

وفي معجم الطبراني الكبير ومسند أحمد ، وصحيح ابن حبان ، ومستدرك الحاكم ، عن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المتحابين في الله في ظل العرش »[3] . وفي كتاب « الاخوان » لابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : « حقت محبتي على المتحابين ، أظلهم في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظلي »[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب من جلس في المسجد ، فتح الباري : (٢/١٤٣) . ورواه مسلم : (٢/٧١٥) ، ورقمه : (١٠٣) والسياق للبخاري .

(٢) رواه مسلم : (٤/١٩٨٨) ، ورقمه : ٢٥٦٦ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٢/١٦١) ورقمه : ١٩٣٣ .

(٤) صحيح الجامع الصغير : (٤/١١٦) .

والإظلال في ظل العرش ليس مقصورا على السبعة المذكورين في الحديث ، فقد جاءَت نصوص كثيرة تدل على أن الله يظل غيرهم ، وقد جمع ابن حجر العسقلاني الخصال التي يظل الله أصحابها في كتاب سماه : « معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال »[1] .

ومن هذه الخصال إنظار المعسر أو الوضع عنه ، ففي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي اليسر عن رسول الله ﷺ قال : « من أنظر معسرا أو وضع عنه ، أظله الله في ظله »[2] .

وفي مسند أحمد وسنن الدارمي بإسناد صحيح عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ قال : « من نفس عن غريمه أو محا عنه ، كان في ظل العرش يوم القيامة »[3] .

المطلب الثالث
الذين يسعون في حاجة إخوانهم ويسدّون خلتهم

من أعظم ما يفرج كربات العبد في يوم القيامة سعي العبد في الدنيا في فك كربات المكروبين ، ومساعدة المحتاجين ، والتيسير على المعسرين ، وإقالة عثرات الزالين ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »[4] .

---

(١) فتح الباري : (١٤٤/٢) .
(٢) صحيح مسلم : (٢٣٠٢/٤) ، ورقمه : ٣٠٠٦ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٣٦٤/٤) ، ورقمه : ١٤٥٢ .
(٤) مشكاة المصابيح : (٧١/١) ورقم الحديث : ٢٠٤ .

وروى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمر أن رسول لله ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة » [١] .

وروى الدينوري في « المجالسة » ، والبيهقي في « الشعب » والضياء في « المختارة » عن أنس أن النبي ﷺ قال : « من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في الدنيا والآخرة »[٢] .

المطلب الرابع
الذين ييسرون على المعسرين

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسرا تجاوز عنه ، لعل الله أن يتجاوز عنا ، قال : فلقي الله فتجاوزعنه »[٣] .

وروى النسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إن رجلا لم يعمل خيرا قط ، وكان يداين الناس ، فيقول لرسوله : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز ، لعل الله يتجاوز عنا .
فلما هلك قال : هل عملت خيرا قط ؟ قال : لا ، إلا أنه كان لي غلام ، وكنت أداين الناس ، فإذا بعثته يتقاضى قلت له : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز ، لعل الله أن يتجاوز عنا . قال الله : قد تجاوزت عنك »[٤] .

(١) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب لا يظلم المسلم المسلم ، فتح الباري : (٥/٩٧) .
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/٢١٨) ورقم الحديث : ١٢١٧ .
(٣) مشكاة المصابيح : (٢/١٠٨) ، ورقم الحديث : (٢٨٩٩) .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٢/٢٠٤) ، ورقم الحديث : ٢٠٧٣ .

وفي مستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن حذيفة ، وعقبة بن عامر ، وأبي مسعود ، عن رسول الله ﷺ قال : « أتى الله عز وجل بعبد من عباده آتاه الله مالا ، فقال له : ماذا عملت في الدنيا ؟ فقال : ما عملت من شيء يا رب ، إلا أنك آتيتني مالا ، فكنت أبايع الناس ، وكان من خلقي أن أيسر على الموسر وأنظر المعسر . قال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك ، تجاوزوا عن عبدي »[1] .

المطلب الخامس
الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا

العادلون في يوم القيامة في مقام رفيع ، يجلسون على منابر من نورعن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور ، عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا »[2] .

المطلب السادس
الشهداء والمرابطون

إذا فزع الناس في يوم القيامة فإن الشهيد لا يفزع ، ففي سنن الترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معدي كرب قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير

(١) صحيح الجامع الصغير : (١/٩٢) ، ورقم الحديث : ١٢٤ .
(٢) صحيح مسلم : (٣/١٤٥٨) ، ورقم الحديث : ١٨٢٧ .

من الدنيا ومافيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقربائه »[1] .

والشاهد في الحديث أن الشهيد يأمن من الفزع الأكبر ، وهو فزع يوم القيامة . ومثل الشهيد المرابط في سبيل الله ، فإنه إذا مات وهو مرابط أمّنه الله من الفزع الأكبر ، فقد روى الطبراني بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ ، قال : « رباط يوم خير من صيام دهر ، ومن مات مرابطا في سبيل الله أمن من الفزع الأكبر ، وغدي عليه برزقه وريح من الجنة ، ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله »[2] .

ومن إكرام الله للشهيد يوم القيامة أن الله يبعثه وجرحه يتفجر دماً اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول لله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ، لا يُكْلَم أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم في سبيله ، إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم ، والريح ريح المسك »[3] .

وروى الترمذي والنسائي وأبو داود بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من قاتل في سبيل الله فواق[4] ناقه ، فقد وجبت له الجنة ، ومن جرح جرحا في سبيل الله ، أو نكب نكبة[5] ، فإنها تجيء يوم القيامة

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥٨) ، ورقم الحديث : ٣٨٣٤ ، وقال فيه محقق المشكاة : إسناده صحيح .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٣/١٧١) ، ورقم الحديث : ٣٤٧٣ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب من يجرح في سبيل الله ، فتح الباري : (٦/٢٠) .
(٤) الفواق : ما بين الحلبتين .
(٥) أي أصيب بنكبة ، أي حادثة .

كأغزر ما كانت ، لونها الزعفران ، وريحها المسك »[1] .

قال ابن حجر : « قال العلماء : الحكمة في بعثه كذلك أن يكون معه شاهد بفضيلته ببذله نفسه في طاعة الله تعالى »[2] .

المطلب السابع
الكاظمون الغيظ

كثيرة هي المواقف العصيبة التي يصيب العبد فيها الأذى ، وقد يكون مصدره قريب أو صديق أو مُحْسَن إليه ، ولا شك أن الأذى المسموع أو المرئي أو المحسوس الذي يصيبنا يسبب لنا ألما في أعماقنا ، فتجيش نفوسنا بأنواع الانفعالات التي تدعونا إلى المواجهة الحادة ، وضبط النفس في مثل هذه الأحوال لا يملكه إلا أفذاذ الرجال .

إن الإسلام يعدُّ كظم الغيظ خلقا إسلاميا راقيا يستحق صاحبه التكريم ، فالجنة التي عرضها السموات والأرض أعدَّت للمتقين ، وكظم الغيظ في مقدمة صفات المتقين ، ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3] .

وفي يوم القيامة يدعو رب العزة من كظم غيظه على رؤوس الخلائق ، ثم يخيره في أي الحور العين شاء ، روى الترمذي وأبو داود عن سهل بن معاذ بن جبل

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥٥) ، ورقم الحديث : ٣٨٢٥ .
(٢) فتح الباري : (٦/٢٠) .
(٣) سورة آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٤ .

عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كظم غيظا ، وهو يقدر أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور العين شاء »[1] .

المطلب الثامن
عتق الرقاب المسلمة

من الأعمال الكريمة التي يتمكن صاحبها من اقتحام العقبات الكأداء في يوم القيامة ، عتق الرقاب قال تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾[2] .

وقد ساق ابن كثير في تفسير هذه السورة النصوص الحديثية التي توضح هذه الآيات قال الإمام أحمد : حدثنا علي بن إبراهيم ، حدثنا عبدالله يعني ابن سعيد بن أبي هند ، عن اسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير ، عن سعيد بن مرجانه ، أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب ـ أي عضو ـ منها إربا منه من النار حتى أنه ليعتق باليد اليد وبالرجل الرجل وبالفرج الفرج » .

فقال علي بن الحسين : أنت سمعت هذا من أبي هريرة ؟ فقال سعيد : نعم . فقال علي بن الحسين لغلام له أفره غلمانه : ادع مطرفاً ، فلما قام بين يديه قال : اذهب فأنت حر لوجه الله ، وقد رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، من طرق عن سعيد بن مرجانة به وعند مسلم أن هذا الغلام الذي

---

(١) مشكاة المصابيح (٢/٦٣١) ورقمه ٥٠٨٨ ، وحسّن الشيخ ناصر إسناده في صحيح الجامع (٥//٣٥٣) . ورقم الحديث فيه : ٦٣٩٨ ، عزاه إلى أحمد والطبراني ، وانظر رقم : ٦٣٩٤ في صحيح الجامع .

(٢) سورة البلد : ١١ ـ ١٣ .

أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم .

وقال قتادة عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن أبي نجيح قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيما مسلم أعتق رجلا مسلماً ، فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت إمرأة مسلمة فإن الله جاعل وفاء كلّ عظم من عظامها عظماً من عظامها من النار » رواه ابن جرير ، هكذا ، وأبو نجيح هذا هو عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه .

وقال الإمام أحمد : حدثناحيوة بن شريح ،حدثنا بقية ، حدثني بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن كثير بن مرة عن عمرو بن عبسةأنه حدثهم أن النبي ﷺ قال : « من بنى مسجدا ليذكر الله فيه يبني الله له بيتاً في الجنة . ومن أعتق نفساً مسلمة كانت فديته من جهنم ، ومن شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة » .

وقال أحمد : حدثناالحكم بن نافع ، حدثنا جرير عن سليم بن عامر أن شرحبيل بن السمط قال لعمرو بن عبسة : حدثنا حديثاً ليس فيه تزيد ولا نسيان . قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار عضواً بعضو ، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ كان كمعتق رقبة من بني إسماعيل » وروى أبو داود والنسائي بعضه .

وقال أحمد : حدثناهاشم بن القاسم ، حدثنا الفرج ، حدثنا لقمان عن أبي أمامه عن عمرو بن عبسة ؛ قال السلمي : قلت له حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم ، قال : سمعته يقول : « من ولد له ثلاثة أولاد

في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة ، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار ، ومن أنفق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها » وهذه أسانيد جيدة قوية ، ولله الحمد .

وقال أبو داود : حدثنا عيسى بن محمد الرملي ، حدثنا ضمرة عن ابن أبي عبلة ، عن العريف بن عياش الديلمي ، قال : أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان ، فغضب وقال : إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته ، فيزيد وينقص ، قلنا : إنما أردنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، قال : أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب يعني النار بالقتل ، فقال : « أعتقوا عنه ، يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار » . وكذا رواه النسائي من حديث إبراهيم بن أبي عبلة ، عن العريف بن عياش الديلمي ، عن واثلة به .

وقال أحمد : حدثنا عبدالصمد ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن قيس الجذامي ، عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ قال : « من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار » .

وحدثنا عبد الوهاب الخفاف ، عن سعيد عن قتادة ؛ قال : ذكر لنا أن قيساً الجذامي حدث عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « من أعتق رقبة مؤمنة فهي فكاكه من النار » تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم وأبو أحمد ، قالا : حدثنا عيسى بن عبدالرحمن البجلي ، من بني بجيلة ، من بني سليم ، عن طلحة بن مصرف ، عن عبد الرحمن بن عوسجة ، عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول

الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، علمني عملاً يدخلني الجنة ؛ فقال : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسئلة ، أعتق النسمة وفك الرقبة » . فقال : يا رسول الله ، أوليستا بواحدة ؟قال : « لا إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في عتقها ، والمنحة الوكوف ، والفيء على ذي الرحم الظالم ، فإن لم تطق ذلك ، فأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وائمر بالمعروف ، وانْهَ عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك ، فكف لسانك إلا من الخير »[1] .

المطلب التاسع
فضل المؤذنين

من الذين يظهر فضلهم في يوم القيامة المؤذنون ، فهم أطول الناس أعناقا في ذلك اليوم ، روى مسلم في صحيحه عن معاوية بن أبي سفيان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة »[2] . وطول العنق جمال ، ثم هو مناسب لما قاموا به من عمل حيث كانوا يبلغون الناس بأصواتهم كلمات الأذان التي تعلن التوحيد وتدعو للصلاة .

والمؤذن يشهد له في ذلك اليوم كل شيء سمع صوته عندما كان يرفع صوته بالأذان في الدنيا ، روى البخاري في صحيحه أن أبا سعيد الخدري قال لعبد الرحمن بن صعصعه : « إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذَّنت في الصلاة ، فارفع بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة »[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير : (٧/٢٩٥) .

(٢) صحيح مسلم : (٤/٢٩٠) ورقم الحديث : ٣٨٧ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول النبي ﷺ : « الماهر بالقرآن . . » . فتح الباري : (١٣/٥١٨) .

المطلب العاشر
الذين يشيبون في الإسلام

يكون الشيب نورا لصاحبه إذا كان مسلما في يوم القيامة ، كما صحت بذلك الأحاديث ، ففي سنن الترمذي والنسائي عن كعب بن مرة أن رسول الله ﷺ قال : « من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة »[1] .

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن حبان عن عمر بن عبسة قال : قال رسول الله ﷺ : « من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة »[2] .

وروى البيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « الشيب نور المؤمن ، لا يشيب رجل شيبة في الإسلام إلا كانت له بكل شيبة حسنة ، ورفع بها درجة »[3] . وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعا : « لا تنتفوا الشيب ، فإنه نور يوم القيامة ، من شاب شيبة في الإسلام كانت له بكل شيبة حسنة ، ورفع بها درجة » رواه ابن حبان بإسناد حسن[4] .

وروى ابن عدي والبيهقي في الشعب عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الشيب نور في وجه المسلم ، فمن شاء فلينتف نوره »[5] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٠٤/٥) ورقم الحديث : ٦١٨٣ ، وعلّم عليه الشيخ ناصر بالصحة .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٣٠٤/٥) ورقم الحديث : ٦١٨٤ ، والحديث صحيح كما قال محقق الكتاب .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٤٧/٣) ، ورقم الحديث : ١٢٤٣ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٤٧/٣) ، ورقم الحديث : ١٢٤٤ .

المطلب الحادي عشر
فضل الوضـــوء

الذين استجابوا للرسول ﷺ ، وأقاموا الصلاة ، وأتوا بالوضوء كما أمرهم نبيهم يُدْعَوْن يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ : يقول : « إن أمتي يُدْعَون يوم القيامة غرّا محجلين من آثار الوضوء »[1] .

قال ابن حجر : « (غرا) جمع أغر ، أي ذو غُرّة ، وأصل الغرة لمعة بيضاء تكون في جبهة الفرس ، ثم استعملت في الجمال والشهرة وطيب الذكر ، والمراد بها هنا النور الكائن في وجوه أمة محمد ﷺ ، وغُرّاً منصوب على المفعولية ليُدْعَوْن أو على الحال . أي أنهم إذا دعوا على رؤوس الأشهاد نودوا بهذا الوصف ، وكانوا على هذه الصفة .

وقوله (محجلين) من التحجيل ، وهو بياض يكون في ثلاث قوائم من قوائم الفرس ، وأصله من الحِجل بكسر الحاء وهو الخلخال ، والمراد به هنا أيضا النور »[2] .

وهذه الغرة وذلك التحجيل تكون للمؤمن حلية في يوم القيامة ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء »[3] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الوضوء ، باب فضل الوضوء ، فتح الباري : (١/ ٢٣٥) .
(٢) فتح الباري : (١/ ٢٣٦) .
(٣) مشكاة المصابيح : (١/ ٩٦) ورقم الحديث : ٢٩١ .

وبهذه الحلية النورانية تتميز هذه الأمة في يوم القيامة ، وبها يعرف الرسول ﷺ أمته من بين الخلائق ، لا فرق بين أصحابه وغيرهم ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى مقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أنا قد رأينا إخواننا » .

قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟

قال : « أنتم أصحابي ، إخواننا الذين لم يأتوا بعد » .

فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من امتك يارسول الله ؟

فقال : « أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة ، بين ظهري خيل دهم بهم ، ألا يعرف خيله ؟ » .

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : « فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم[1] على الحوض »[2] .

وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة ، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه ، فأنظر إلى ما بين يدي ، فأعرف أمتي من بين الأمم ، ومن خلفي مثل ذلك ، وعن يميني مثل ذلك ، وعن شمالي مثل ذلك » .

فقال رجل : يا رسول الله ، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟

قال : « هم غُرٌّ محجلون من أثر الوضوء ، ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذريتهم »[3] .

---

(١) أي سابقهم .

(٢) مشكاة المصابيح : (١/٩٨) ، ورقم الحديث : ٢٩٨ .

(٣) مشكاة المصابيح : (١/٩٩) ورقم الحديث ٢٩٩ .

الفصل التاسع
الشفاعة

عندما يشتد البلاء بالناس في الموقف العظيم ويطول بحث العباد عن أصحاب المنازل العالية ليشفعوا لهم عند ربهم ، كي يأتي لفصل الحساب وتخليص الناس من كربات الموقف وأهواله ، فيطلبون من أبيهم آدم أن يقوم بهذه المهمة الكبيرة ، ويذكِّرونه بفضله وإكرام الله له ، فيأبى ويعتذر ، ويذكر عصيانه ربه بأكله من الشجرة التي حرّم الله عليه الأكل منها ، ويحيلهم إلى نوح أول رسول أرسله الله إلى البشر ، الذي سماه الله عبداً شكوراً ، فيأبى ويذكر ما كان منه من تقصير في بعض الأمور تجاه ربه ومولاه ، وهكذا يحيلهم إلى من بعده من أولي العزم من الرسل ، والآخر يدفعها إلى من بعده ، حتى يأتوا الرسول الخاتم : محمد ﷺ ، الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيقوم مقاما يحمده عليه الأولون والآخرون ، وتظهر به منزلته العظيمة ، ودرجته العالية ، فيستأذن على ربّه فيأذن له ، ويحمده ويمجِّده ، ويسأله في أمته ، فيستجيب له ، ذلك أن الله أعطى كل نَبيّ دعوة في أمته لا ترد ، وقد استعجل كل نبي تلك الدعوة في الدنيا ، واختبأ الرسول ﷺ دعوته إلى ذلك الموقف الذي تحتاج فيه أمته إلى دعوته ، فصلوات الله وسلامه عليه فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، كما وصفه ربّه ، وقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل نبي سأل سؤالا أو قال : لكل نبي دعوة دعاها لأمته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة »[1] .

(١) جامع الأصول : ١٠/٤٧٥ ، ورقم الحديث : ٨٠٠٩ .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ قال : « لكل نبي دعوة دعا بها في أمته ، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة »[1] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجَّل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً »[2] .

وروى الترمذي وأبو داود عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »[3] .

(١) جامع الأصول : ١٠/٤٧٥ ، ورقم الحديث : ٨٠١٠ .
(٢) جامع الأصول : ١٠/٤٧٦ ، ورقم الحديث : ٨٠١١ .
(٣) جامع الأصول : ١٠/٤٧٦ ، ورقم الحديث : ٨٠١٢ وإسناده صحيح كما قال محقق الكتاب .

المبحث الأول
أحاديث الشفاعة

وقد جاءت أحاديث كثيرة تصف الشفاعة العظمى ، وسنكتفي بإيراد ما جمعه ابن الأثير منها في جامع الأصول[1] .

١ ــ روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن معبد بن هلال العنزي قال : « انطلقنا إلى أنس بن مالك ، وتشفعنا بثابت ، فانتهينا إليه وهو يصلي الضحى ، فاستأذن لنا ثابت ، فدخلنا عليه ، وأجلس ثابتاً معه على سريره فقال له : يا أبا حمزة ، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة .

فقال : حدثنا محمد ﷺ ، قال : « إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض ، فيأتون آدم ، فيقولون : اشفع لذريتك ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم ، فإنه خليل الله ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى ، فإنه كليم الله ، فيؤتى موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيؤتى عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد .

فأؤتى فأقول : أنا لها ، ثم انطلق فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، فأقوم بين يديه ، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلّا أن يلهمنيها ، ثم أخر لربنا ساجداً ،

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٤٧٧) وقد أبقينا تخريج محقق الكتاب على حاله في الهامش .

فيقول : يامحمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقول : انطلق ، فمن كان في قلبه مثال حبة من بُرَّةٍ أو شعيرةٍ من إيمانٍ فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل .

ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال لي : انطلق ، فمن كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردلٍ من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل .

ثم أعود إلى ربي أحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ، ارفع رأسك وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ، أمتي أمتي ، فيقال لي : انطلق ، فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من أيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل » .

هذا حديث أنس الذي أنبأنا به ، فخرجنا من عنده ، فلما كنا بظهر الجبَّان[1] ، قلنا : لو ملنا إلى الحسن فسلمنا عليه وهو مستخف في دار أبي خليفة ؟ قال : فدخلنا عليه ، فسلمنا عليه ، قلنا : يا أبا سعيد ، جئنا من عند أخيك أبي حمزة ، فلم نسمع بمثل حديثٍ حدَّثناه في الشفاعة ، قال : هيه ، فحدثناه الحديث ، فقال : هيه ، قلنا : ما زادنا ؟ قال : قد حدثنا به منذ عشرين سنة ، وهو يومئذ جميع[2] ، ولقد ترك شيئاً ما أدري : أنسي الشيخ ، أم كره أن يحدثكَم فتتَّكلوا ؟ قلنا له : حدثنا ، فَضحكَ وقال : خلق الإنسان من عجل ، ما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه .

قال : « ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له

---

(١) الجبان ، والجبانة : المقابر .

(٢) رجل جميع : أي مجتمع الخلق قوي ، لم يهرم ، ولم يضعف .

ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله ، قال : فليس ذلك لك ، أو قال : ليس ذلك إليك ، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله » قال : فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك ـ أراه قال : قبل عشرين سنة ـ وهو يومئذ جميع .

وفي رواية قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيهتمون لذلك ـ وفي رواية : فيلهمون لذلك ـ فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا ؟ قال : فيأتون آدم ، فيقولون : أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي ربه منها ، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

قال : فيأتون نوحاً ، فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي رَبَّه منها ، ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلا ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست هناكم ، وذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي ربه منها ، ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله وأعطاه التوراة .

قال : فيأتون موسى ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي ربه منها ، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى روح الله وكلمته ، فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمداً ، عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال : قال رسول الله ﷺ : فيأتونني ، فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله ، فيقال : يا محمد ، ارفع ، قل يسمع ،

سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي ، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجداً ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال لي : ارفع يا محمد ، قل يسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة .

قال : فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة فأقول : يا رب ، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ، أو وجب عليه الخلود » أخرجه البخاري ومسلم .

وأخرجه البخاري تعليقاً : عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال : « يحبس المؤمنون يوم القيامة . . . وذكر نحوه ، وفي آخره : ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ـ أي وجب عليه الخلود ـ ثم تلا هذه الآية ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾[1] ، قال : وهذا المقام المحمود الذي وُعِدَهُ نبيكم ﷺ » .

زاد في رواية : فقال النبي ﷺ : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة » .

قال يزيد بن زريع : فلقيت شعبة ، فحدثته بالحديث ، فقال شعبة : حدثنا به قتادة عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ بالحديث ، إلا أن شعبة جعل مكان « الذَّرَّة » : « ذُرَةً » قال يزيد : صحف فيها أبو بسطام ، كذا في كتاب مسلم من رواية يزيد عن شعبة . قال البخاري : وقال أبانٌ عن قتادة بنحوه . وفيه « من إيمان » مكان « خير » زاد في رواية : أن النبي ﷺ قال ـ في حديث سؤال المؤمنين

---

(١) سورة الإسراء : ٧٩ .

الشفاعة ـ « فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه » وللبخاري طرف منه عن حميد عن أنس قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة شفعت ، فقلت : أدخل الجنة من كان في قلبه خردلة ، فيدخلون ، ثم أقول : أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء . قال أنس : كأني أنظر إلى أصابع النبي ﷺ »[1] .

٢ ـ وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كنا مع النبي ﷺ في دعوة ، فرفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فنهس منها نهسة[2] ، وقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون : مم ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ، ويسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه ، إلى ما بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم .

فيأتونه ، فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فقال : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح .

فيأتون نوحاً ، فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا

---

(١) رواه البخاري ١٣/٣٩٥ ـ ٣٩٧ في التوحيد ، باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، وباب قول الله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ، وباب قوله تعالى : ﴿ وكلم موسى تكليما ﴾ وفي تفسير سورة البقرة ، باب قول الله تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ ، وفي الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، ومسلم رقم ١٩٣ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

(٢) النهس : أخذ اللحم بمقدم الأسنان .

عند ربك ؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنَّه قد كان لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى إبراهيم .

فيأتون إبراهيم فيقولون : أنت نبي الله ، وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، أما ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات . . . فذكرها ـ نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى .

فيأتون موسى فيقولون : أنت رسول الله ، فضلك برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، أما ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى عيسى .

فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى ، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروحٌ منه ، وكلمت الناس في المهد ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ، فيأتون محمداً ﷺ ـ وفي رواية : فيأتوني ـ فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فأنطلق ، فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي ، فأقول : أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، فيقال : يا محمد ، أدخل من

أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ، كما بين مكة وهجر ـ أو كما بين مكة وبصرى ـ وفي كتاب البخاري : كما بين مكة وحمير .

وفي رواية قال : « وضعت بين يدي رسول الله ﷺ قصعة من ثريد ولحم ، فتناول الذراع ـ وكانت أحبَّ الشاة إليه ـ فنهس نهسة ، فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، ثم نهس أخرى ، فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، فلما رأى أصحابه لا يسألونه ، قال : ألا تقولون : كيفه ؟ قالوا : كيفه يا رسول الله ؟ قال : يقوم الناس لرب العالمين . . . وساق الحديث بمعنى ما تقدم ، وزاد في قصة إبراهيم ، فقال : وذكر قوله في الكوكب : هذا ربي ، وقوله لآلهتهم ، بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله : إني سقيم ، وقال : والذي نفس محمد بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة إلى عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر ، أو هجر ومكة ، لا أدري أي ذلك قال ؟ » أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، إلا أن في كتاب مسلم « نفسي نفسي » مرتين في قول كل نبي ،والحميدي ذكر كما نقلناه ، وفي رواية الترمذي « نفسي ، نفسي ، نفسي » ثلاثاً في الجميع[1] .

وروي مسلم عن حذيفة بن اليمان ، وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تُزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا ، استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل

---

(١) رواه البخاري ٦/٢٦٤ و ٢٦٥ في الأنبياء ، باب قول الله عز وجل : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ، وباب قول الله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ وفي تفسير سورة بني إسرائيل باب (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً) ، ومسلم رقم ١٩٤ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، والترمذي رقم ٢٤٣٦ في صفة القيامة ، باب ماجاء في الشفاعة .

أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله ، قال : فيقول إبراهيم : لست بصاحب ذلك ، إنما كنت خليلاً من وراء وراء ، اعمدوا إلى موسى الذي كلمه تكليما ، قال : فيأتون موسى ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى : لست بصاحب ذلك ، فيأتون محمداً ﷺ : فيقوم ، فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم ، فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمر أولكم كالبرق ، قال : بأبي وأمي ، أي شيء كالبرق ، قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمرِّ الريح ، ثم كمرِّ الطير ، وشد الرجال ، تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط ، فيقول : رب سلم سلم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة ، تأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ، ومكدوس[1] في النار ، والذي نفسُ أبي هريرة بيده ، إن قعر جهنم لسبعين[2] خريفاً[3] » .

٤ ــ روي الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ ـ آدم فمن سواه ـ إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، فقال : فيفزع الناس ثلاث فزعات ، فيأتون آدم ، فيقولون : أنت أبونا آدم ، فاشفع لنا إلى ربك ، فيقول : إني أذنبت ذنباً فأهبطت به إلى الأرض ، ولكن ائتوا نوحاً ، فيأتون نوحاً ، فيقول : إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأُهلكوا ، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم ،

(١) وفي بعض النسح ومكردس .
(٢) وفي بعض النسخ : لسبعون ، وكلاهما صحيح ، وانظر ما قاله النووي في شرح مسلم .
(٣) رقم ١٩٥ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

فيقول : إني كذبت ثلاث كذبات ، ثم قال رسول الله ﷺ : ما منها كذبة إلا ماحل[1] بها عن دين الله ، ولكن ائتوا موسى ، فيأتون موسى ، فيقول : قد قتلت نفساً ، ولكن ائتوا عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقول : إني عُبِدْتُ من دون الله ، ولكن ائتوا محمداً ﷺ ، فيأتوني ، فانطلق معهم . قال ابن جدعان : قال أنس : فكأني أنظر إلى رسول الله ، قال: فآخذ بحلقة باب الجنة ، فأقعقعها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : محمد ، فيفتحون لي ويرحبون ، فيقولون : مرحباً ، فأَخرّ ساجداً ، فيلهمني الله من الثناء والحمد ، فيقال لي : ارفع رأسك ، سل تُعْطَ ، واشفع تُشَفع ، وقل يُسمَع لقولك ، وهو المقام المحمود الذي قال الله تعالى : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[2] قال سفيان : ليس عن أنس إلا هذه الكلمة « فآخُذُ بحلقة باب الجنة فأُقعْقِعُها » أخرجه الترمذي[3] .

---

(١) الماحلة : المخاصمة والمجادلة .

(٢) سورة الإسراء : ٧٩ .

(٣) رقم ٣١٤٧ في التفسير ، باب ومن سورة بني إسرائيل ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وهو كما قال .

المبحث الثاني
وجه الاستدلال بالأحاديث على الشفاعة العظمى

الناظر في هذه الأحاديث يجد أن المؤمنين يرغبون إلى الأنبياء وآخرهم محمد ﷺ كي يخلصوهم من الموقف العظيم ، إلا أننا نجد أن الرسول ﷺ عندما يشفع إنما يشفع في أمته ، قال شارح الطحاوية بعد إيراده لبعض أحاديث الشفاعة التي سقناها : « والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه ، لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى ، في مأتى الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء ، كما ورد في حديث الصور ، فإنه المقصود في هذا المقام ، ومقتضى سياق أول الحديث ، فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ، ويستريحوا من مقامهم ، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه ، فإذا وصلوا إلى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة وإخراجهم من النار ، وكأن مقصود السلف ـ في الإقتصار على هذا المقدار من الحديث ـ هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها ، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح من الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث »[1] ثم ساق مضمون حديث الصور .

وفي كلام محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي عدة أمور :

١ ـ أنه أكد وجود هذا الإشكال في هذه الأحاديث ، وممن ذكر هذا الإشكال ابن

---

(١) شرح الطحاوية : ص ٢٥٥ .

حجر العسقلاني ، ونقله عن الدراوردي ، فإنه قال : « كأن راوي هذا الحديث ركب شيئا على غير أصله ، وذلك أن في أول ذكر الشفاعة في الإراحة من كرب الموقف ، وفي آخره ذكر الشفاعة في الإخراج من النار ، يعني وذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف والمرور على الصراط ، وسقوط من يسقط في تلك الحالة في النار ، ثم يقع بعد ذلك الشفاعة في الإخراج »[1] قال ابن حجر بعد نقله كلام الدراوردي « وهو إشكال قويٌّ »[2] .

٢ ـ وقد أجاب شارح الطحاوية عن هذا الإشكال ـ كما نقلناه عنه ـ أن الذين نقلوا هذه النصوص قصَّروا في النقل ، وسرّ هذا التقصير أنهم قصدوا الرد على الخوارج الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها ، وزعموا أن كل من دخل النار فإنه فيها خالد ، واحتج على ما ذهب إليه بحديث الصور الذي يصرح فيه بأن الرسول ﷺ يشفع أولا كي يأتي الحق للقضاء بين الناس ، ثم يشفع مرة أخرى لدخول الجنة ، ولو كان حديث الصور هذا صحيحاً لكان فيه حل لهذا الإشكال ، ولكنه حديث ضعيف كما بينه الشيخ ناصر الدين الألباني في تحقيقه لأحاديث الطحاوية .

ولعل ما ذهب إليه القاضي عياض وتابعه النووي وابن حجر وغيرهما عليه أكثر دقّة وتوفيقا مما قاله شارح الطحاوية ، قال ابن حجر : « وقد أجاب عن هذا الإشكال عياض وتبعه النووي وغيره بأنه قد وقع في حديث حذيفة المقرون بحديث أبي هريرة بعد قوله : « فيأتون محمدا فيقوم ويؤذن له » أي في الشفاعة ، وترسل الأمانة والرحم ، فيقومان جنبي الصراط يمينا وشمالا ، فيمر أولكم

---

(١) فتح الباري : (٤٣٧/١١) .
(٢) فتح الباري : (٤٣٨/١١) .

كالبرق » الحديث ، قال عياض : فبهذا يتصل الكلام ، لأن الشفاعة التي لجأ إليه الناس فيها هي الإراحة من كرب الموقف ، ثم تجيء الشفاعة في الإخراج ، وقد وقع في حديث أبي هريرة . . الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد ، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين ، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمرور عليه ، فكان الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف ، قال : وبهذا تجتمع متون الأحاديث ، وتترتب معانيها »[1] ، وقد زاد الحافظ ابن حجر هذه المسألة إيضاحاً ، وأورد النصوص الدالة على أن في بعض الأحاديث شيئا من الإختصار فقال : « قلت : فكأن بعض الرواة حفظ مالم يحفظ الآخر ، وسيأتي بقيته في شرح حديث الباب الذي يليه وفيه « حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً وفي جانبي الصراط كلاليب مأمورة بأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ومكدوس في النار » فظهر منه أنه ﷺ أول ما يشفع ليقضى بين الخلق ، وأن الشفاعة فيمن يخرج من النار ممن سقط تقع بعد ذلك .

وقد وقع ذلك صريحا في حديث ابن عمر اختصر في سياقه الحديث الذي ساقه أنس وأبو هريرة مطولا . وقد تقدم في كتاب الزكاة من طريق حمزة بن عبدالله بن عمر عن أبيه بلفظ : « إن الشمس تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد فيشفع ليُقضي بين الخلق ، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محمودا يحمده أهل الجمع كلهم .

ووقع في حديث أبي بن كعب عند أبي يعلي « ثم أمتدحه بمدحة يرضى بهاعني ، ثم يؤذن لي في الكلام ، ثم تمر أمتي على الصراط وهو منصوب بين ظهراني جهنم فيمرون » .

---

(١) فتح الباري : (١١/٤٣٨) .

وفي حديث ابن عباس من رواية عبدالله بن الحارث عنه عند أحمد « فيقول عز وجل : يا محمد ما تريد أن أصنع في أمتك ؟ فأقول : يا رب عجل حسابهم » وفي رواية عن ابن عباس عند أحمد وأبي يعلي « فأقول أنا لها ، حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، فإذا أراد الله أن يفرغ من خلقه نادى مناد : أين محمد وأمته » .

وتعرض الطيبي للجواب عن الإشكال بطريق آخر فقال : يجوز أن يراد بالنار الحبس والكرب والشدة التي كان أهل الموقف فيها من دنو الشمس إلى رؤوسهم وكربهم بحرِّها وسفعها حتى ألجمهم العرق ، وأن يراد بالخروج منها خلاصهم من تلك الحالة التي كانوا فيها .

قال ابن حجر : وهو احتمال بعيد ، إلا أن يقال إنه يقع إخراجان وقع ذكر أحدهما في حديث الباب على اختلاف طرقه والمراد به الخلاص من كرب الموقف ، والثاني في حديث الباب الذي يليه ويكون قوله فيه : « فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه » بعد تمام الخلاص من الموقف ونصب الصراط والإذن في المرور عليه ، ويقع الإخراج الثاني لمن يسقط في النار حال المرور فيتحدا » .

وأجاب القرطبي عن أصل الإشكال بأن في قوله آخر حديث أبي زرعة عن أبي هريرة بعد قوله ﷺ فأقول : يا رب أمتي أمتي ، « فيقال أدخل من أمتك من الباب الأيمن من أبواب الجنة من لا حساب عليه ولا عذاب » . فقال : في هذا ما يدل على أن النبي ﷺ يشفع فيما طلب من تعجيل الحساب ، فإنه لما أذن له في ادخال من لا حساب عليه دل على تأخير من عليه حساب ليحاسب ، ووقع في حديث الصور الطويل عند أبي يعلي « فأقول وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة يدخلون الجنة ، فيقول الله : وقد شفعتك فيهم وأذنت لهم في دخول الجنة » .

قلت : وفيه إشعار بأن العرض والميزان وتطاير الصحف يقع في هذا

الموطن ، ثم ينادي المنادي : ليتبع كل أمة من كانت تعبد ، فيسقط الكفار في النار ، ثم يميز بين المؤمنين والمنافقين بالامتحان بالسجود عند كشف الساق ، ثم يؤذن في نصب الصراط والمرور عليه ، فيطفأ نور المنافقين فيسقطون في النار أيضا ، ويمر المؤمنون عليه إلى الجنة ، فمن العصاة من يسقط ويوقف بعض من نجا عند القنطرة بينهم ثم يدخلون الجنة »[1] .

قلت : فهذا لو ثبت لرفع الإشكال لكن الكلبي ضعيف ، ومع ذلك لم يسنده ، ثم هو مخالف لصريح الأحاديث الصحيحة أن سؤال المؤمنين الأنبياء واحدا بعد واحد إنما يقع في الموقف قبل دخول المؤمنين الجنة والله أعلم .

---

(١) فتح الباري : (١١/٤٣٨) .

المبحث الثالث

الشفاعة المقبولة والشفاعة المرفوضة وأنواع الشفاعة المقبولة

دلت الأحاديث التي سقناها على نوعين من أنواع الشفاعة التي تقع في ذلك اليوم .

الأول : الشفاعة العظمى ، وهي المقام المحمود ، الذي يرغب الأولون والآخرون فيه إلى الرسول ﷺ ليشفع إلى ربه كي يخلص العباد من أهوال المحشر .

الثاني : الشفاعة في أهل الذنوب من الموحدين الذين دخلوا النار ، وسيأتي الحديث عن هذا النوع في مبحث « دخول الجنة » من كتاب « الجنة والنار » إن شاء الله تعالى .

وبقي أنواع جاء ذكرها في الأحاديث نعرض لها هنا على وجه الاختصار :

الأول والثاني : شفاعة الرسول ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفي آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لايدخلوها .

الثالث : شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم .

الرابع : الشفاعة في أقوام يدخلون الجنة بغير حساب ، ويمكن أن يستشهد لهذا بحديث عكاشة بن محصن حيث دعا له الرسول ﷺ أن يجعله من السبعين

ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، والحديث في الصحيحين .

الخامس : شفاعة الرسول ﷺ في تخفيف عذاب عمّه أبي طالب ، حيث يخرجه الله به إلى ضحضاح من نار يغطي قدميه يغلي لهما دماغه .

السادس : شفاعته في الإذن للمؤمنين بدخول الجنة ، وسيأتي الحديث عن هذا النوع في كتاب الجنة إن شاء الله تعالى .(١) .

والشفاعة في أهل الذنوب ليست خاصة بالرسول ﷺ ، فقد يشفع النبيون والشهداء والعلماء ، وقد يشفع للمرء أعماله ، ولكن رسولنا ﷺ له النصيب الأوفر منها ، وقد يشفع غيره أيضا في رفع درجات المؤمنين ، وبقية الأنواع خاصة بالرسول ﷺ .

هذه هي أنواع الشفاعة التي تقع في يوم القيامة ، أما الشفاعة المرفوضة فهي الشفاعة التي يتعامل بها الناس في الدنيا ، حيث يشفع الشافع وإن لم يرض الذي شفع عنده ، وقد يكره مَنْ شفع عنده على قبول شفاعة الشافعين لعظم منزلتهم وقوتهم وبأسهم، وهذه هي الشفاعة التي يعتقدها المشركون والنصارى في آلهتهم ، ويعتقدها المبتدعون من هذه الأمة في مشايخهم ، وقد أكذب الله أصحابها ، فلا أحد يشفع في ذلك اليوم إلا بإذن من الله ، ولا يشفع إلا إذا رضي الله عن الشافع والمشفوع ، قال تعالى ؛ ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾(٢) وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾(٣) .

ولذلك فإن والد إبراهيم لما مات كافراً فإن الله لا يقبل شفاعة خليله فيه في

(١) انظر في هذا الموضوع شرح الطحاوية : ٢٥٣ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٣) سورة الأنبياء : ٢٨ .

ذلك اليوم : روي البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : يلقي إبراهيم أباه آزر في يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال لإبراهيم : ما تحت قدميـك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى في النار »[1] .

(١) مشكاة المصابيح : ٥٨/٣ .



الفصل العاشر
الحساب والجزاء

تمهيد : المراد بالحساب والجزاء

يراد بالحساب والجزاء أن يُوقف الحقُّ تبارك وتعالى عباده بين يديه ، ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها ، وأقوالهم التي قالوها ، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر ، واستقامة وانحراف ، وطاعة وعصيان ، وما يستحقونه على ما قدموه من إثابة وعقوبة ، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين ، وبشمالهم إن كانوا طالحين .

ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده ، وما يقولونه له ، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين ، وشهادة الشهود ووزن للإعمال .

والحساب منه العسير ، ومنه اليسير ، ومنه التكريم ، ومنه التوبيخ والتبكيت ، ومنه الفضل والصفح ، ومتولى ذلك أكرم الأكرمين .

المبحث الأول

مشهد الحساب

حدثنا ربنا عن مشهد الحساب والجزاء في يوم الحساب فقال : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1] . وحسبنا أن نعلم أن القاضي والمحاسب في ذلك اليوم هو الحكم العدل قيوم السموات والأرض ليتبين لنا عظم هذا المشهد وجلاله ومهابته ، ولعل هذا الإشراق المنصوص عليه في الآية ، إنما يكون عند مجيء الملك الجليل لفصل القضاء ، قال تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[2] ، وهو مجيء الله أعلم بكيفيته ، نؤمن به ونعلم أنه حق ، ولا نؤوِّله ولا نحرِّفه ، ولا نكذب به ، والآية تنصُّ على مجيء الملائكة ، فهو موقف جليل تحضره ملائكة الرحمن بكتب الأعمال التي أحصت على الخلق أعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم ليكون حجة على العباد ، وهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[3] .

ويجاء في موقف القضاء والحساب بالرسل ويسألون عن الأمانة التي حمَّلهم

---

(١) سورة الزمر : ٦٩ .

(٢) سورة البقرة : ٢١٠ .

(٣) سورة الكهف : ٤٧ .

الله إياها . وهي إبلاغ وحي الله إلى من أرسلوا إليه ، ويشهدون على أقوامهم ما علموه منهم .

ويقوم الأشهاد في ذلك اليوم العظيم فيشهدون على الخلائق بما كان منهم ، والأشهاد هم الملائكة الذين كانوا يسجلون على المرء أعماله ، ويشهد أيضا الأنبياء والعلماء كما تشهد على العباد الأرض والسماء والليالي والأيام .

ويؤتى بالعباد الذين عقد الحق محكمته العظيمة لمحاسبتهم ، ويقامون صفوفا للعرض على رب العباد ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾[1] ، ويؤتى بالمجرمين منهم وهم الذين كذبوا الرسل ، وتمردوا على ربهم ، واستعلوا في الأرض ـ مقرنين في الأصفاد ، مسربلين بالقطران ، ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ۝ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[2] ولشدة الهول تجثوا الأمم على الركب عندما يدعى الناس للحساب لعظم ما يشاهدون ، وما هم فيه واقعون ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

إنه مشهد جليل عظيم نسأل الله أن ينجينا فيه بفضله وَمَنِّهِ وكرمه .

---

(١) سورة الكهف : ٤٨ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٩ ـ ٥١ .

(٣) سورة الجاثية : ٢٧ .

المبحث الثاني

هل يسأل الكفار ؟ ولماذا يسألون ؟

اختلف العلماء في الكفار : هل يحاسبون ويسألون ؟ أم يأمر بهم إلى النار من غير سؤال ، لأن أعمالهم باطلة حابطة فلا فائدة من السؤال والحساب ؟ وإذا كانوا يحاسبون ويسألون فما فائدة حسابهم وسؤالهم ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هذه المسألة تنازع فيها المتأخرون من أصحاب أحمد وغيرهم ، فممن قال إنهم لا يحاسبون أبو بكر عبدالعزيز ، وأبو الحسن التميمي ، والقاضي أبو يعلى ، وغيرهم ، وممن قال : إنهم يحاسبون : أبو حفص البرمكي من أصحاب أحمد ، وأبو سليمان الدمشقي ، وأبو طالب »[1] .

والصحيح أن الكفار محاسبون مسؤولون كما أن أعمالهم توزن ، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٣٠٥) .

(٢) سورة القصص : ٦٢ .

(٣) سورة القصص : ٦٥ .

(٤) سورة القارعة : ٦ - ١١ .

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[1] ، ولا شك أن هذه النصوص في الكفار المشركين .

أما لماذا يحاسبون وتوزن أعمالهم مع أن أعمالهم حابطة مردودة فلأمور :

الأول : إقامة الحجة عليهم ، وإظهار عدل الله فيهم ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، وهو صاحب العدل المطلق ، ولذلك يسألهم ويحاسبهم ، ويطلعهم على سجلاتهم التي حوت أعمالهم ، ويظهر الميزان عظم سيئاتهم وشناعة أفعالهم ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[2] ، ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[3] .

يقول القرطبي : « والباري ـ سبحانه وتعالى ـ يسأل الخلق في الدنيا والآخرة تقريراً لإقامة الحجة وإظهاراً للحكمة »[4] .

الثاني : أن الله يحاسبهم لتوبيخهم وتقريعهم ، يقول شيخ الإسلام : « يراد بالحساب عرض أعمال الكفار عليهم وتوبيخهم عليها ، ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات ، فإن أريد بالحساب المعنى الأول ، فلا ريب أنهم محاسبون بهذا الإعتبار .

وإن أريد به المعنى الثاني فإن قصد ذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات

---

(١) سورة المؤمنون : ١٠٣ .
(٢) سورة الأنبياء : ٤٧ .
(٣) سورة الكهف : ٤٩ .
(٤) تذكرة القرطبي : ٢٢٥ .

يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر »[1] .

وهذا التأنيب والتقريع والتوبيخ ظاهر من نصوص كثيرة كقوله تعالى ؛ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[2] . وقوله ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾[5] .

قال ابن كثير : « وأما الكفار فتوزن أعمالهم ، وإن لم تكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بهذا كفرهم ، لإظهار شقائهم وفضيحتهم على رؤوس الخلائق »[6] .

الثالث : أن الكفار مكلفون بأصول الشريعة كما هم مكلفون بفروعها ، فيسألون عما قصروا فيه وخالفوا فيه الحق ، يقول القرطبي : « وفي القرآن ما يدل على أنهم مخاطبون بها (أي فروع الشريعة) مسؤولون عنها ، محاسبون بها ، مجزيون على الإخلال بها ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٣٠٥) .
(٢) سورة الأنعام : ٣٠ .
(٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .
(٤) سورة الأعراف : ٤٤ .
(٥) سورة القصص : ٦٤ .
(٦) النهاية ، لابن كثير : (٢/٣٥) .

﴿يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1] فتوعدهم على منعهم الزكاة ، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[2] فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأنهم مسؤولون عنها، مجزيون بها »[3] .

الرابع : أن الكفار يتفاوتون في كفرهم وذنوبهم ومعاصيهم ، ويحلون في النار بمقدار هذه الذنوب ، فالنار دركات بعضها تحت بعض ، كما أن الجنة درجات بعضها فوق بعض ، وكلما كان المرء أشد كفراً وضلالا كلما كان أشد عذابا ، وبعض الكفرة يكون في الدرك الأسفل من النار ، ومنهم المنافقون ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[4] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « عقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قَلَّت سيئاته ، ومن كان له حسنات خففت عنه العذاب ، كما أن أبا طالب أخف عذابا من أبي لهب . . فكان الحساب لبيان مراتب العذاب ، لا لأجل دخولهم الجنة »[5] . ويذكر القرطبي في وزن أعمال العباد وجهين :

الأول : أنه يوضع في إحدى الكفتين كفرة وسيئاته . ولا يجد الكافر حسنة توضع في الكفة الأخرى ، فترجح كفة السيئات لكون كفة الحسنات فارغة .

والثاني : أن حسنات الكافر من صلة رحم ، وصدقة ، ومواساة للناس توضع في كفة الحسنات ، ولكن كفة السيئات ترجح بسبب كفره وشركه[6]

---

(1) سورة فصلت : ٦-٧ .
(2) سورة المدثر : ٤٢ - ٤٦ .
(3) تذكرة القرطبي : ٣٠٩ .
(4) سورة النساء : ١٤٥ .
(5)، مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٣٠٥) .
(6) تذكرة القرطبي : ٣١٢ .

والوجه الأول هو الصحيح لأن الشرك يحبط العمل ، ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[1] ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2] . وفي الحديث: « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه »[3] .

٢ ـ ولأنه قد صحّ أن الرسول ﷺ أخبر أن الكافر يطعم بحسنته في الدنيا فيوافى يوم القيامة وليس له حسنة ، ففي صحيح مسلم ، ومسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنته ، يعطى بها في الدنيا (وفي رواية يثاب عليها الرزق في الدنيا) ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بها بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها »[4]

توجيه النصوص الدالة على أن الكفار لا يسألون

فإن قيل : قررتم فيما سبق أن الكفار يسألون ويجادلون ويتكلمون ويعتذرون ، فكيف تفعلون بالنصوص الدالة على خلاف ذلك ، كقوله تعالى ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[5] ، وقوله ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾[7] ، ونحو ذلك من النصوص .

---

(١) سورة الزمر : ٦٥ .

(٢) سورة البقرة : ٢١٧ .

(٣) رواه النسائي في الجهاد عن أبي أمامة انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم : ٥٢ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/٨٢) ورقمه : ٥٣ .

(٥) سورة القصص : ٧٨ .

(٦) سورة الرحمن : ٣٩ .

(٧) سورة المرسلات : ٣٥ .

فنقول ليس بين هذه النصوص وتلك تعارض ، وقد وفَّق أهل العلم بينهما بوجوه عِدَّة .

الأول : أن الكفار لا يسألون سؤال شفاء وراحة ، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، لم عملتم كذا وكذا[1] ؟ وكذا يقال في تكليمهم واعتذارهم ، أي لا يكلمهم الله بما يحبونه ، بل يكلمهم كلام تقريع وتوبيخ[2] .

الثاني : أنهم لا يسألون سؤال استفهام ، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم ، وإنما يسألون سؤال تقرير ، فيقال لهم : لم فعلتم كذا ؟ قال الحسن وقتادة : لا يسألون عن ذنوبهم ، لأن الله حفظها عليهم وكتبتها عليهم الملائكة[3] .

الثالث : أنهم يسألون في يوم القيامة في موطن دون موطن ، قال القرطبي : « القيامة مواطن ، فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لايكون ذلك »[4] .

وقال السفاريني : « وقيل يسألون في موطن دون موطن رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما . . فللناس يوم القيامة حالات ، والآيات مخرجة باعتبار تلك الحالات ، ومن ثَمَّ قال الإمام أحمد في أجوبته القرآنية : أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون ، ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون ، فذلك قوله تعالى ؛ ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾[5] »[6] الآية ، فإذا أذن لهم في الكلام

---

(١) التذكرة للقرطبي : ٢٨٦ .

(٢) انظر : تذكرة القرطبي : ٢٨٧ .

(٣) لوامع الأنواء البهية : (٢/١٧٤) .

(٤) تذكرة القرطبي : ٢٨٦ .

(٥) سورة السجدة : ١٢ .

(٦) لوامع الأنوار البهية : (٢/١٧٤) .

تكلموا ، واختصموا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[1] ، عند الحساب وإعطاء المظالم ، ثم يقال لهم بعد ذلك : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾[2] ، يعني في الدنيا ، فإن العذاب مع هذا القول كائن[3] » .

الرابع : قال القرطبي : « إن معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[4] ، سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين ، أي إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحدا يوم القيامة أن يقال : مادينك ؟ وما كنت تصنع في الدنيا ؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمنا أو كان كافرا ، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصدور ، ويكون المشركون سود الوجوه زرقا مكروبين ، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار ، وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم . . . »[5] .

---

(١) سورة الزمر : ٣١ .

(٢) سورة ق : ٢٨ .

(٣) لوامع الأنوار البهية : ٢/١٧٤ .

(٤) سورة القصص : ٧٨ .

(٥) تذكرة القرطبي : ٢٨٧ .

المبحث الثالث

القواعد التي يحاسب العباد على أساسها

لو عَذَّب الله جميع خلقه لم يكن ظالما لهم ، لأنهم عبيده وملكه ، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء .

ولكن الحق تبارك وتعالى يحاكم عباده محاكمة عادلة ، لم تشهد البشرية لها مثيلاً من قبل ، وقد بيَّن لنا ربنا في كثير من النصوص جملة القواعد التي تقوم عليها المحاكمة والمحاسبة في ذلك اليوم .

وسنذكر من ذلك ما ظهر لنا من تلك القواعد .

١ـ العدل التام الذي لا يشوبه ظلم

يُوَفِّي الحق عز وجل ـ عباده في يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة ، ولا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1] .

وقال لقمان في وصيته لابنه معرفا إياه بعدل الله ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٨١ .

(٢) سورة لقمان : ١٦ .

وقال الحق في موضع آخر : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[2] . وقال : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾[3].

وقال تعالى : ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[4] فقد أخبر الحق تبارك وتعالى في هذه النصوص أنه يُوفي كل عبدٍ عمله ، وأنه لا يضيع منه ، ولا ينقص منه مقدار الذرة ، وهي الهباءة التي ترى في أشعة الشمس إذا دخلت من الطاق ، ولا مقدار الفتيل ولا النقير ، والفتيل هو الخيط الذي يكون في شق النواة ، والنقير : النقرة الصغيرة التي تكون في ظهر النواة .

٢- لا يؤخذ أحد بجريرة غيره

قاعدة الحساب والجزاء التي تمثل قمة العدل ومنتهاه أن الله يجازي العباد بأعمالهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، ولا يحمل الحق تبارك وتعالى أحداً وزر غيره ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[5] . وهذا هو العدل الذي لاعدل فوقه ، فالمهتدى يقطف ثمار هدايته ، والضال ضلاله على نفسه ، ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾[6] .

---

(١) سورة النساء : ٤٠ .

(٢) سورة النساء : ٧٧ .

(٣) سورة النساء : ١٢٤ .

(٤) سورة الزلزال : ٧-٨ .

(٥) سورة الأنعام : ١٦٤ .

(٦) سورة الإسراء : ١٥ .

وهذه القاعدة العظيمة إحدى الشرائع التي اتفقت الرسالات السماوية على تقريرها ، قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾[1] .

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[2] ؛ « أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى ، لا تؤخذ نفس بذنب غيرها ، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها ، وأصل الوزر الثقل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾[3] ، وهو هنا الذنب ، . . . والآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يقول : اتبعوا سبيلي أحمل أوزاركم ، ذكره ابن عباس ، وقيل : إنها نزلت ردا على العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وابنه ، وبجريرة حليفه »[4] .

الذين يحملون أثقالاً مع أثقالهم

قد يعارض بعض أهل العلم هذا الذي ذكرناه من أن الإنسان لا يحمل شيئا من أوزار الآخرين بمثل قوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾[5] وقوله : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[6] .

وهذا الذي ذكروه موافق لما ذكرناه من النصوص ، وليس بمعارض لها ،

---

(١) سورةالنجم : ٣٦ ـ ٤١ .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٤ ؛

(٣) سورة الشرح : ٢ .

(٤) تفسير القرطبي : (١٥٧/٤) .

(٥) سورة العنكبوت : ١٣ .

(٦) سورة النحل : ٢٥ .

فإن هذه النصوص تدلُّ على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب ، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله ، كما أن دعاة الهدى ينالون أجر ما عملوه ، ومثل أجر من اهتدى بهديهم ، واستفاد بعلمهم ، فإضلال هؤلاء لغيرهم هو فعل لهم يعاقبون عليه[1] .

٣- اطلاع العباد على ما قدموه من أعمال

من إعذار الله لخلقه ، وعدله في عباده أن يطلعهم على ما قدموه من صالح أعمالهم وطالحها ، حتى يحكموا على أنفسهم ، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر .

قال تعالى : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] ، وقال : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾[3] ، وقال : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾[4] . وقال : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[5] .

وإطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم . وقراءتهم لها ، فقد أخبرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أنه وكل بكل واحد منا ملكين يسجلان عليه صالح أعماله وطالحها ، فإذا مات ختم على كتابه ، فإذا كان يوم القيامة أعطى العبد كتابه ، وقيل له : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .

---

(١) توسعنا في بحث هذه المسألة في كتابنا « مقاصد المكلفين » .

(٢) سورة المائدة : ١٠٥ .

(٣) سورة آل عمران : ٣٠ .

(٤) سورة الانفطار : ٥ .

(٥) سورة الكهف : ٤٩ .

قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1] .

وهو كتاب شامل لجميع الأعمال كبيرها وصغيرها ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2] .

٤ - مضاعفة الحسنات دون السيئات

ومن رحمته أن يضاعف أجر الأعمال الصالحة ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾[3] .

وأقل ما تضاعف به الحسنة عشرة أضعاف ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾[4] . أما السيئة فلا تجزى إلا مثلها ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾[5] . وهذا مقتضى عدله تبارك وتعالى .

وقد روى الحاكم في مستدركه ، وأحمد في مسنده بإسناد حسن عن أبي ذر رضي الله عنه قال : حدثنا الصادق المصدوق فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال :« الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد . والسيئة واحدة أو أغفرها ، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا مالم تشرك بي ، لقيتك بقرابها مغفرة »[6] .

---

(١) سورة الإسراء : ١٣ .
(٢) سورة الكهف : ٤٩ .
(٣) سورة التغابن : ١٧ .
(٤) سورة الأنعام : ١٦٠ .
(٥) سورة الأنعام : ١٦٠ .
(٦) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ورقم الحديث : ١٢٨ .

ومن الأعمال التي أخبر الرسول ﷺ أنها تضاعف عشرة أضعاف قراءة القرآن ، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي والدارمي بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ حرفاً من كتاب الله ، فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول : (الم) حرف . ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . غريبٌ إسنادا[1] .

وأخبرنا رسولنا صلوات الله وسلامه عليه أيضا أن الذكر يضاعف عشرة أضعاف ، ففي السنن للترمذي والنسائي وأبي داود عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « خصلتان ـ أو خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة ، وهما يسيرٌ ، ومن يعمل بهما قليل : يسبح الله في دُبُر كل صلاة عشراً ، ويحمده عشراً ، ويكبّره عشراً ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده ، قال : فتلك خمسون ومائة باللسان ، وألف وخمسمائة في الميزان ، وإذا أخذت مضجعك تسبحه وتكبره وتحمده مائة ، فتلك مائة باللسان ، وألف في الميزان ، فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة ؟ قالوا : فكيف لا نحصيها ؟ قال : يأتي أحدكم الشيطان وهو في صلاته ، فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، حتى ينفتل ، فلعله لا يفعل ، ويأتيه وهو في مضجعه ، فلا يزال ينومه حتى ينام ، أخرجه الترمذي والنسائي .

وفي رواية أبي داود بعد قوله : « في الميزان » الأولى ، قال : « ويكبر أربعاً وثلاثين إذا أخذ مضجعه ، ويحمد ثلاثاً وثلاثين ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين ، فذلك مائة باللسان ، وألف في الميزان ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده . قالوا : يا رسول الله ، كيف هما يسيرٌ ، ومن يعمل بهما قليل ؟ قال : يأتي أحدكم

---

(١) مشكاة المصابيح : (١/٦٦١) . رقم الحديث ٢١٣٧ .

الشيطان في منامه فينومه قبل أن يقوله ، ويأتيه في صلاته فيذكره حاجته قبل أن يقولها .[1] .

وحدثنا رسولنا ﷺ في حديث الإسراء الذي يرويه البخاري وغيره تردده ﷺ بين ربه وموسى ، حيث كان يشير عليه موسى في كل مرة أن يرجع إلى ربه ، فيسأله أن يخفف عنه من الصلاة ، حتى أصبحت خمسا بعد أن كانت خمسين . قال في ختام ذلك : « قال الجبار تبارك وتعالى : إنه لا يبدل القول ، كما فرضت عليك في أم الكتاب ، فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهي خمسون في أم الكتاب ، وهي خمس عليك . فرجع إلى موسى . فقال : كيف فعلت ؟ قال : خففت عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها » .

وقد يضاعفها أكثر من ذلك ، وقد تصل المضاعفة إلى سبعمائة ضعف ، وأكثر من ذلك ، ومن ذلك أجر المنفق في سبيل الله ، قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾[2] قال ابن كثير : هذا فضل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . فقال : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3] قال سعيد بن جبير : « يعني في طاعة الله » . وقال مكحول : يعني به الانفاق في الجهاد من رباط الخيل واعداد السلاح وغير ذلك . وعن ابن عباس : الجهاد والحج يضعف الدرهم فيها إلى سبعمائة ضعف »[4] .

وأورد ابن كثير عند تفسير هذه الآية الحديث الذي يرويه مسلم والنسائي

---

(١) جامع الأصول : (٤/٣٧٢). رقم الحديث: ٢٤١٨ .

(٢) سورةالبقرة : ٢٦١ .

(٣) سورة البقرة : ٢٦١ .

(٤) تفسير ابن كثير : (١/٥٦١).

وأحمد عن عبدالله بن مسعود أن رجلا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لتأتين يوم القيامة بسبعمائة مخطومة » هذا لفظ أحمد والنسائي . ولفظ مسلم : جاء رجل بناقة مخطومة ، فقال : يا رسول الله . هذه في سبيل الله ، فقال : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة »[1] .

ومن الأعمال التي تضاعف أضعافا لا تدخل تحت حصر ، ولا يحصيها إلا الذي يجزي بها : الصوم ، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : « إلا الصوم فإنه لي : وأنا أجزي به »[2] .

والسر في كون الصائم يعطى من غير تقدير ، أن الصوم من الصبر ، والصابرون يوفون أجورهم بغير حساب ، قال تعالى ؛ ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[3] ، قال القرطبي : وقال أهل العلم : كل أجر يكال كيلا ، ويوزن وزنا إلا الصوم ، فإنه يحثى حثوا ويغرف غرفا »[4] .

ومن الصبر : الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها وكربها التي يبتلي الله بها عباده ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[5] . وعندما يرى أهل العافية عظم أجر الصابرين يتمنون أن تكون جلودهم قرضت

---

(١) تفسير ابن كثير : (١/٥٦٢) .
(٢) مشكاة المصابيح : (١/٦١٣) ، ورقمه : ١٩٥٩ .
(٣) سورة الزمر : ١٠ .
(٤) تفسير القرطبي : (١٥/٢٤٠) .
(٥) سورة البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

بالمقاريض لينالوا أجر الصابرين ، ففي سنن الترمذي عن جابر ، ومعجم الطبراني عن ابن عباس بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال : « لَيَودَّن أهل العافية يوم القيامة ، أن جلودهم قرضت بالمقاريض ، مما يرون من ثواب أهل البلاء »[1] .

ومن فضل الله تبارك وتعالى أنَّ المؤمن الذي يهم بفعل الحسنة ، ولكنه لا يفعلها تكتب له حسنة تامة ، والذي يهم بفعل السيئة ، ثم تدركه مخافة الله ، فيتركها تكتب له حسنة تامة ، ففي صحيح البخاري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ، قال : إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثمَّ بيَّن ذلك ، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها ، كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها ، فعملها ، كتبها الله له سيئة واحدة »[2] .

تبديل السيئات حسنات

وتبلغ رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن يبدِّل سيئاتهم حسنات ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة ، وآخر أهل النار خروجا منها . رجل يؤتى به يوم القيامة . فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا .

فيقول نعم : لا يستطيع أن ينكر . وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (١١١/٥) ، ورقم الحديث : ٥٣٦٠ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من هم بحسنة أو سيئة ، فتح الباري (٣٢٣/١١) .

فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة .

فيقول : رب ، عملت أشياء لا أراها ها هنا » .

فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[1] .

٥- إقامة الشهود على الكفرة والمنافقين

أعظم الشهداء في يوم المعاد على العباد هو ربهم وخالقهم وفاطرهم ، الذي لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾[2] ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾[3] .

ولكن الله يحب الأعذار إلى خلقه ، فيبعث من مخلوقاته شهداء على المكذبين الجاحدين حتى لا يكون لهم عذر ، وقد أشارت أكثر من آية إلى الشهداء الذين يشهدون على العباد، كقوله تعالى :﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾[4] ، وقوله تعالى :﴿ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾[5] .

وأول من يشهد على الأمم رسلها ، فيشهد كل رسول على أمته بالبلاغ ، ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[6] ، ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾[7] ،

---

(١) صحيح مسلم : (١/١٧٧) . ورقم الحديث : ١٩٠ .

(٢) سورة يونس : ٦١ .

(٣) سورة النساء : ٦٦ .

(٤) سورة غافر : ٥١ .

(٥) سورة الزمر : ٦٩ .

(٦) سورة النساء : ٤١ .

(٧) سورة النحل : ٨٩ .

وقوله : ﴿ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هم الرسل ، لأن كل أمة رسولها منها ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ ﴾[2] .

وكما يشهدون على أممهم بالبلاغ يشهدون عليهم بالتكذيب ، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[3] ، وقال : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾[4] قال ابن كثير في شرح الآية الأولى : « هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلوا إليهم ، . . . وقول الرسل : (لا علم لنا) قال مجاهد والحسن البصري والسدي : إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم . . . وقال ابن عباس : لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا ، رواه ابن جرير ثم اختاره ، ولا شك أنه قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الله عز وجل ، أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا ما أجبنا ، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه ، وأنت العليم بكل شيء المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا شيء »[5] .

ثم إن الأمم تكذب رسلها ، وتقول كل أمة ما جاءنا من نذير ، فتأتي هذه الأمة : أمة محمد ﷺ وتشهد للرسل بالبلاغ ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ

(١) سورة التوبة : ١٢٨ .

(٢) سورة القصص : ٧٥ .

(٣) سورة المائدة : ١٠٩ .

(٤) سورة الأعراف : ٦-٧ .

(٥) تفسير ابن كثير : (٢/٦٧٦) .

جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] .

وقد أورد البخاري في صحيحه في كتاب التفسير الحديث الذي رواه أبوسعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يدعى نوح يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك يا رب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فيشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، فذلك قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2][3] .

وقد أفاد ابن حجر أنه قد جاء الحديث عند أحمد والنسائي وابن ماجة بلفظ : « يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، ويجيء النبي ومعه الرجلان ، ويجيء النبي ومعه أكثر من ذلك . قال : فيقال لهم : أبلغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيقال للنبي : أبلغتهم ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : من يشهد لك ؟ . . . » الحديث . وذكر ابن حجر أيضاً أن في بعض روايات الحديث زيادة : « فيقال : ما علمكم ؟ فيقولون : أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا فَصَدَّقناه »[4] .

ومن الأشهاد الأرض والأيام والليالي ، تشهد بماعمل فيها وعليها ، ويشهد المال على صاحبه ، وقد عقد القرطبي في تذكرته لهذا الموضوع بابا ، وذكر فيه حديث الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال قرأ رسول الله ﷺ هذه

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٣) صحيح البخاري ، (١٣) كتاب التفسير : (١٧١/٨) .

(٤) فتح الباري : (١٧٢/٨) .

الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[1] . قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا ، كـذا وكذا فهذه أخبارها » .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

ويشهد على العبد أيضا ملائكة الرحمن الذين كانوا يسجلون عليه صالح أعماله وطالحها ، كما قال تعالى : ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[2] ، والسائق والشهيد الملكان اللذان كانا موكلين بتلك النفس .

وتشهد الملائكة على العباد بما كانوا يعملون ، ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[3] فإذا لَجَّ العبد في الخصومة ، وكذّب ربّه ، وكذب الشهود الذين شهدوا عليه ، أقام الله عليه شاهدا منه ، فتشهد على المرء أعضاؤه ، وقد مضى بيان هذا .

(١) سورة الزلزال : ٤ .
(٢) سورة ق : ٢١ .
(٣) سورة هود : ١٨ .

المبحث الرابع
ما يسأل عنه العباد

يسأل العباد عن الإله الذي كانوا يعبدونه ، وعن اجابتهم للمرسلين ، وقد بينا ذلك فيما مضى .

ويسألون عن أعمالهم التي عملوها ، وعما تمتعوا به من النعيم في الحياة الدنيا ، كما يسألون عن عهودهم ومواثيقهم ، وعن أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم ، وهذا ما سنبينه في هذا المبحث .

١ـ الكفر والشرك

أعظم ما يسأل عنه العباد هو كفرهم وشركهم ، فيسألهم عن الشركاء والأنداد الذين كانوا يعبدونهم من دون الله كما قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾[1] ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[2] .

ويسألون عن عبادتهم لغير الله من تقديم القرابين للآلهة التي كانوا يعبدونها ، ونحر الذبائح باسمها ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾[3] .

---

(١) سورة الشعراء : ٩٢ ـ ٩٣ .

(٢) سورة القصص : ٦٢ .

(٣) سورة النحل : ٥٦ .

ويسألون عن تكذيبهم للرسل ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[1] .

٢- مَا عَمِلَه فِي دُنْيَاه

يسأل المرء في يوم القيامة عن جميع أعماله التي عملها في الحياة الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] . وقال ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[3] ، وفي سنن الترمذي عن أبي بَرْزَة الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة ، حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه ماذا عمل به ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيما أبلاه ؟ »[4] .

وفي سنن الترمذي أيضا عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه ، حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ؟ وماذا عمل فيم علم »[5] .

والذي يتأمل في مثل هذا الحديث يعلم السر في دعوة الرسول ﷺ المسلم إلى

---

(١) سورة القصص : ٦٥ - ٦٦ .
(٢) سورة الحجر : ٩٢ .
(٣) سورة الأعراف : ٦.
(٤) جامع الأصول : (٤٣٦/١٠) ، ورقمه : ٧٩٦٩ . وقال المحقق : قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وكذا رمز له الشيخ ناصر بالصحة في صحيح الجامع : (١٤٨/٦) ، ورقمه : ٧١٧٧ .
(٥) جامع الأصول : (٤٣٧/١٠) ، ورقمه : ٧٩٧٠ ، وهو حديث حسن كما قال محقق جامع الأصول . وقد حسنه الشيخ ناصر في صحيح الجامع : (١٤٨/٦) ، ورقمه (٧١٧٦) .

التخفف من المال ، فكلّما كثر مال العبد كثر حسابه وطال ، وكلّما قلّ ماله خفّ حسابه وأسرع به إلى الجنة ، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن فقراء المهاجرين يسبقون أغنياءَهم إلى الجنة بأربعين سنة ، ففي صحيح مسلم عن أبي عبدالرحمن الحُبليِّ قال : جاء ثلاثة نفر إلى عبدالله بن عمرو بن العاص ، وأنا عنده ، فقالوا : يا أبا محمد ، إنا والله ، ما نقدر على شيء ، لا نفقة ، ولا دابة ، ولا متاع . فقال : ما شئتم إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يَسَّر الله لكم . وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان . وإن شئتم صبرتم . فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياءَ ، يوم القيامة إلى الجنَّة بأربعين خريفا »[1] .

٣- النعيم الذي يتمتع به

يسأل الله عباده في يوم القيامة عن النعيم الذي خولهم إياه في الدنيا ، كما قال : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[2] .

يعني بالنعيم شبع البطون ، وبارد الماء ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم ، وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصري : من النعيم الغداء والعشاء . وقال أبو قلابة : من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي . وعن ابن عباس : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار[3] .

وهذا الذي فسروها به من باب التنوع في التفسير ، فإن أصناف النعيم كثيرة

---

(١) صحيح مسلم : (٤/٢٢٨٥) . ورقمه ٢٩٧٩ .

(٢) سورة التكاثر : ٨ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٧/٣٦٤ .

لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[1] ، وبعض أنواع النعيم من الضروريات وبعضها من الكماليات ، والناس يتفاوتون في ذلك فيما بينهم ، ويوجد في عصر مالا يجده أهل عصور أخرى ، وفي بلد مالا يجده أهل بلاد أخرى ، وكل ذلك يسأل عنه العباد .

روى الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أوَّل ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ؟ ونُرَوِّك من الماء البارد »[2] .

وبعض الناس لا يستشعر النعم العظيمة التي وهبه الله إياها ، فلا يدرك النعمة التي في شربة الماء ، ولقمة الطعام ، وفيما وهبه الله من مسكن وزوجه وأولاد، ويظن أن النعم تتمثل في القصور والبساتين والمراكب فحسب ، فقد سأل رجل عبدالله بن عمرو بن العاص فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبدالله : ألك إمرأة تأوي إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال فإن لي خادما . قال : فأنت من الملوك[3] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »[4] ، ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون .

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٤ .

(٢) مشكاة المصابيح : (٢/٦٥٦) ورقمه : (٥١٩٦) ، وقال محقق المشكاة : إسناده صحيح .

(٣) صحيح مسلم : (٤/٢٢٨٥) ورقم الحديث : ٢٩٧٩ .

(٤) مشكاة المصابيح : (٢/٦٤٨) ورقمه : ٥١٥٥ .

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لا بأس بالغنى لمن اتقى الله عز وجل ، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم »[1] .

وفي بعض الأحاديث النبوية بيان من الرسول ﷺ عن صورة من صور السؤال عن النعيم الذي يواجه الله به عباده في ذلك اليوم ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يلقى (الرب) العبد فيقول : أي فلُ[2] ، ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخّر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . قال : فيقول : أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ قال : فيقول : لا . فيقول : فإني أنساك كما نسيتني .

ثم يلقى الثاني فيقول : أي فلُ ، ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخّر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . أي رب ، فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا . فيقول : فإني أنساك كما نسيتني .

ثم يلقى الثالث ، فيقول له مثل ذلك . فيقول : يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع . فيقول : ههنا إذن[3] .

قال : ثم يقال له : الآن نبعث عليك شاهدا عليك ، ويتفكر في نفسه : من ذا يشهد علي ؟ فيختم الله على فيه . ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله . وذلك ليعذر من نفسه .

وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه »[4] .

---

(١) مشكاة المصابيح ، ٦٧٦/٢ ، ورقمه : ٥٢٩٠ ، وعزاه المحقق إلى ابن ماجة ، وقال : إسناده صحيح .

(٢) فل : أي يا فلان .

(٣) معناه قف : ههنا إذن .

(٤) رواه مسلم في صحيحه : (٢٢٨٠/٤) ، ورقمه : ٢٩٦٨ .

والسؤال عن النعيم سؤال عن شكر العبد لما أنعم الله به عليه ، فإذا شكر فقد أدى حق النعمة ، وإن أبى وكفر ، أغضب عليه الله ، ففي صحيح مسلم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة ، فيحمده عليها ، أو يشرب الشّربة فيحمده عليها »[1] .

٤ - العهود والمواثيق

يسأل الله عباده عما عاهدوه عليه ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾[2] ، وكل عهد مشروع بين العباد فإن الله سائل العبد عن الوفاء به ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[3] .

٥ - السمع والبصر والفؤاد

يسأل الله العباد عن جميع ما يقولونه ، ولذلك حذرهم من القول بلا علم ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[4] قال قتادة : « لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، فإن الله سائلك عن ذلك كله »[5] .

قال ابن كثير : « ومضمون ماذكروه في الآية أن الله نهى عن القول بغير

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٤٤٦) ، ورقمه : ٤٢٠٠ .
(٢) سورة الأحزاب : ١٥ .
(٣) سورة الإسراء : ٣٤ .
(٤) سورة الإسراء : ٣٦ .
(٥) تفسير ابن كير : (٤/٣٠٨) .

علم ، بل بالظن ، الذي هو التوهم والخيال . كما قال تعالى :﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1]. وفي الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » ، وفي سنن أبي داود بئس مطيّة الرجل « زعموا » وفي الحديث الآخر : « إن أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه مالم تريا » وفي الصحيح : « من تحلم حلما كُلِّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل »[2] .

---

(١) سورة الحجرات : ١٢ .

(٢) تفسير ابن كثير : (٤/٣٠٨) .

المبحث الخامس
أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله

أول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله تبارك وتعالى الصلاة ، فإن صلحت أفلح ونجح وإلا خاب وخسر ، ففي سنن الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيئا . قال الرب تبارك وتعالى : انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك »[1] .

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، قال : يقول ربنا ـ عز وجل ـ لملائكته : انظروا في صلاة عبدي ، أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامَّةً كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئا ، قال : أنظروا ، هل لعبدي من تطوع ، فإن كان له تطوع ، قال : أتموا لعبدي فريضته من تطوعه ، ثمَّ تؤخذ الأعمال بعد ذلك »[2] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٤٣٤) ، ورقمه : ٧٩٦٤ ، وعزاه في صحيح الجامع إلى الترمذي والنسائي وابن ماجة ، وصححه . صحيح الجامع : (٢/١٨٤) ورقمه : ٢٠١٦ .

(٢) جامع الأصول : (١٠/٤٣٥) ، ورقمه : ٧٩٦٥ ، وعزاه الشيخ ناصر في صحيح الجامع إلى أبي داود وأحمد والنسائي والحاكم . وقال فيه : صحيح . صحيح الجامع : (٢/٣٥٢) ، ورقمه :٢٥٦٨ .

المبحث السادس
أنواع الحساب وأمثلة لهذه الأنواع

المطلب الأول
أنواع الحساب

يتفاوت حساب العباد ، فبعض العباد يكون حسابهم عسيرا وهؤلاء هم الكفرة المجرمون الذين أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وتمردوا على شرع الله ، وكذبوا الرسل ، وبعض عصاة الموحدين قد يطول حسابهم ويعسر بسبب كثرة الذنوب وعظمها .

وبعض العباد يدخلون الجنة بغير حساب ، وهم فئة قليلة لا يجاوزون السبعين ألفا ، وهم الصفوة من هذه الأمة ، والقمم الشامخة في الإيمان والتقى والصلاح والجهاد ، وسيأتي ذكرهم وصفتهم عند الحديث عن أهل الجنة وبعض العباد يحاسبون حسابا يسيرا ، وهؤلاء لا يناقشون الحساب ، أي لا يدقق ، ولا يحقق معهم ، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها ، وهذا معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[1] ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فقلت : يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[2] ؟ فقال رسول

(١) سورة الانشقاق : ٧ ـ ٨ .

(٢) سورة الانشقاق : ٧ ـ ٨ .

الله ﷺ : « إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك »[1] .

قال النووي في شرحه للحديث : « معنى نوقش الحساب : استقصي عليه . قال القاضي : وقوله : « عذب » له معنيان : أحدهما : أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ . والثاني : أنه مفض إلى العذاب بالنار ويؤيده قوله في الرواية الأخرى : « هلك » مكان « عذب » هذا كلام القاضي .

قال النووي : وهذا الثاني هو الصحيح ، ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصى عليه ، ولم يسامح هلك ، ودخل النار ، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء »[2] .

ونقل ابن حجر عن القرطبي في معنى قوله : « إنما ذلك العرض » قال : « إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منّة الله عليه في سترها عليه في الدنيا ، وفي عفوه عنها في الآخرة »[3] .

والمراد بالعرض ـ كما هو ظاهر من هذه الأحاديث ـ عرض ذنوب المؤمنين عليهم ، كي يدركوا مدى نعمة الله عليهم في غفرانها لهم .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب ، فتح الباري : (١١/٤٠٠) ، وصحيح مسلم : (٤/٢٢٠٤) ورقمه : ٢٨٧٦ ، واللفظ للبخاري .
(٢) النووي على مسلم : (١٧/٢٠٨) .
(٣) فتح الباري : (١١/٤٠٢) .

المطلب الثاني
أمثلة هذه الأنواع

ورد في السنة النبوية مشاهد للمناقشة والعرض والمعاتبة التي تكون من الله لعباده ، وسنسوق لكل واحد من هذه الأنواع الثلاثة مشهدا مما صح في السنة .

١ ـ مناقشة المرائين :

روى مسلم والترمذي والنسائي عن شفي بن ماتع الأصبحي رحمه الله أنه دخل المدينة ، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة ، فدنوت منه ، حتى قعدت بين يديه ، وهو يحدث الناس ، فلما سكت وخلا ، قلت له : أسألك بحق وحق ، لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته ، فقال أبو هريرة : أفعل ، لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ ، عقلته وعلمته ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة ، فمكثنا قليلا ، ثم أفاق ، فقال : لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ، ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشغ أبو هريرة نشغةً أخرى ، ثم أفاق ومسح عن وجهه ، وقال : أفعل ، لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ ، أنا وهو في هذا البيت ، ما معنا أحدُ غيري وغيره ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة ، ثم مال خارًّا على وجهه ، فأسندته طويلا ، ثم أفاق ، فقال :

حدثني رسول الله ﷺ : أن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قتل في سبيل الله ، ورجلٌ كثير المال ، فيقول الله للقارىء : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى ، يا رب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء

الليل وآناء النهار ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال : فلان قارىء ، وقد قيل ذلك .

ويؤتى بصاحب المال فيقـول الله : ألم أوسع عليك ، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى ، يا رب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم ، وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جوادٌ ، فقيل ذلك .

ثم يؤتى بالذي قُتل في سبيل الله ، فيقول الله : في ماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذلك ، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي ، فقال : يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة » .

قال الوليد أبو عثمان المدائني : فأخبرني عقبة بن مسلم : أن شفيا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا .

قال أبو عثمان : وحدثني العلاء بن أبي حكيم : « أنه كان سيافا لمعاوية ، فدخل عليه رجل ، فأخبره بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاوية : قد فُعِل بهؤلاء هكذا ، فكيف بمن بقي من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً ، حتى ظننا أنه هالك ، وقلنا : قد جاء هذا الرجل بشر ، ثم أفاق معاوية ، ومسح عن وجهه ، وقال : صدق الله ورسوله ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] . أخرجه الترمذي .

وفي رواية مسلم والنسائي عن سليمان بين يسار : قال : « تفرق الناس عن

(١) سورة هود : ١٥ ـ ١٦ .

أبي هريرة ، فقال له ناتل أخو أهل الشام : أيها الشيخ حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد ، فأتي به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، فقال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأوتي به ، فعرفه نعمة فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال : عالمٌ ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار ، ورجلٌ وسَّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتي به فعرفه بنعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جوادٌ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار » .

٢ ـ عرض الرب ذنوب عبده عليه :

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي رب . حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد : ﴿ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[1][2] .

---

(١) سورة هود : ١٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب قوله تعالى: ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ ، فتح الباري : (٩٦/٥) ، وصحيح مسلم : (٢١٢٠/٤) ، ورقمه : ٢٧٦٨ .

قال القرطبي في قوله : « فيضع عليه كنفه » أي ستره ولطفه وإكرامه ، فيخاطب خطاب ملاطفة ، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة ، فيقول له : هل تعرف ؟ فيقول : رب أعرف ، فيقول الله ممتنا عليه ، ومظهراً فضله لديه : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، أي لم أفضحك بها فيها ، وأنا أغفرها لك اليوم[1] .

٣ ـ معاتبة الرب عبده فيما وقع منه من تقصير

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن معاتبة الرب لعبده يوم القيامة ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدني .

قال : يا رب كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني ؟

قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟

يا ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقني .

قال : يا رب ، كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟

قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي ؟ »[2] .

---

(١) تذكرة القرطبي : ٢٦٣ .

(٢) مشكاة المصابيح : (١/٤٨٦) ، ورقم الحديث : ١٥٢٨ .

المبحث السابع

إيتاء العباد كتبهم

في ختام مشهد الحساب يعطى كل عبد كتابه المشتمل على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا وتختلف الطريقة التي يؤتى بها العباد كتبهم ، فأما المؤمن فإنه يؤتى كتابه بيمينه من أمامه ، فيحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله في الجنة مسرورا ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾[1]، واذا اطلع المؤمن على ما تحويه صحيفته من التوحيد وصالح الأعمال سرّ واستبشر ، وأعلن هذا السرور ، ورفع به صوته ، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[2] .

وأما الكافر والمنافق وأهل الضلال فإنهم يأتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور، وعظائم الأمور﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[3] . ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾

---

(١) سورة الانشقاق : ٧ ـ ٩ .

(٢) سورة الحاقة : ١٩ ـ ٢٤ .

(٣) سورة الانشقاق : ١٠ ـ ١٢ .

يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾[1] .

وعندما يعطى العباد كتبهم يقال لهم : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[2] .

---

(1)) سورة الحاقة : ٢٥ ـ ٣١ .

(2)) سورة الجاثية : ٢٩ .

المبحث الثامن
تصوير القرطبي لمشهد الحساب

قال القرطبي مصورا مشهد الحساب : « فإذا بعث العباد من قبورهم إلى الموقف ، وقاموا فيه ما شاء الله ، حفاة عراة ، وجاء وقت الحساب الذي يريد الله أن يحاسبهم فيه ، أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأتوها ، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه ، فأولئك هم السعداء ومنهم من يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره ، وهم الأشقياء ، فعند ذلك يقرأ كل كتاب به ، وأنشدوا :

مثل وقوفك يوم العرض عريانا ... مستوحشا قلق الأحشاء حيرانا
والنار تلهّب من غيظ ومن حنق ... على العصاة ورب العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهل ... فهل ترى فيه حرفا غير ما كانا
لما قرأت ولم تنكر قراءته ... إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملائكتي ... امضوا بعبد عصا للنار عطشانا
المشركون غداً في النار يلتهبوا ... والمؤمنون بدار الخلد سكانا

فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب ، ونصبت الموازين ، وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق : أين فلان بن فلان ؟ هلم إلى العرض على الله تعالى . وقد وكلت الملائكة بأخذك ، فقربتك إلى الله ، لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك ، إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذا قرع النداء قلبك ، فعلمت أنك المطلوب ، فارتعدت فرائصك ، واضطربت جوارحك ، وتغير لونك ، وطار قلبك ، تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه ، والوقوف بين يديه ، وقد

رفع الخلائق إليك أبصارهم ، وأنت في أيديهم ، وقد طار قلبك ، واشتد رعبك ، لعلمك أين يراد بك .

فتوهم نفسك ، وأنت بين يدي ربك ، في يدك صحيفة مخبرة بعملك ، لا تغادر بلية كتمتها ، ولا مخبأة أسررتها ، وأنت تقرأ مافيها بلسان كليل ، وقلب منكسر ، والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك ، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكركها ! وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها ! وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيما ! فيا حسرة قلبك ، ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك .

فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فعلم أنه من أهل الجنة ، فيقول : هاؤم اقرأوا كتابية ، وذلك حين يأذن الله ، فيقرأ كتابه ، فإذا كان الرجل رأسا في الخير يدعو إليه ، ويأمر به ، ويكثر تبعه عليه ، دعي باسمه واسم أبيه ، فيتقدم حتى إذا دنى أخرج له كتاب أبيض ، في باطنه السيئات ، وفي ظاهره الحسنات ، فيبدأ بالسيئات فيقرؤها فيشفق ويصفر وجهه ويتغير لونه ، فإذا بلغ آخر الكتاب ، وجد فيه : هذه سيئاتك ، وقد غفرت لك ، فيفرح عند ذلك فرحا شديدا ، ثم يقلب كتابه ، فيقرأ حسناته ، فلا يزداد إلا فرحا ، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه : هذه حسناتك ، قد ضوعفت لك ، فيبيض وجهه ، ويؤتى بتاج ، فيوضع على رأسه ، ويكسى حلتين ، ويحلّى كل مفصل فيه ، ويطول ستين ذراعا ، وهي قامة آدم . ويقال له : انطلق إلى أصحابك فبشرهم ، وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا ، فإذا أدبر قال[1] : ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴾ ، أي مرضية ، قد رضيها ، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ في السماء ، ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ ثمارها وعناقيدها ﴿دَانِيَةٞ﴾

(١) الآيات التي استشهد بها المصنف في كلامه من سورة الحاقة : ١٩ ـ ٣٢ .

أدنيت منهم . فيقول لأصحابه : هل تعرفوني ؟ فيقولون : قد غمرتك كرامة الله ، من أنت ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان ، ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي قدمتم في أيام الدنيا .

وإذا كان الرجل رأسا في الشر يدعـو إليه ، ويأمر به ، فيكثر تبعه عليه ، ونودي باسمه واسم أبيه ، فيتقدم إلى حسابه ، فيخرج له كتاب أسود ، بخط أسود ، في باطنه الحسنات ، وفي ظاهره السيئات ، فبدأ بالحسنات فيقرؤها ، ويظن أنه سينجـو ، فإذا بلغ آخر الكتاب ، وجد فيه : هذه حسناتك ، وقد رُدَّت عليك ، فيسود وجهه ، ويعلوه الحزن ، ويقنط من الخير ، ثم يقلب كتابه ، فيقرأ سيئاته ، فلا يزداد إلا حزنا ، ولا يزداد وجهه إلا سوادا . فإذا بلغ آخر الكتاب ، وجد فيه : هذه سيئاتك ، وقد ضوعفت عليك ، أي يضاعف عليه العذاب ، ليس المعنى أنه يزاد عليه مالم يعمل . قال فيعظم إلى النار ، وتزرق عيناه ، ويسود وجهه ، ويكسى سرابيل القطران .

ويقال له : انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا ، فينطلق وهو يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ يعني الموت ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ تفسير ابن عباس رضي الله عنهما : هلكت عني حجتي . قال الله تعالى : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي اجعلوه يصلى الجحيم ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ الله أعلم بأي ذراع . قال الحسن وقال ابن عباس رضي الله عنهما : سبعون ذراعاً بذراع الملك. ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ قيل: يدخل عنقه فيها ، ثم يجربها ، ولو أن حلقة منها وضعت على جبل لذاب .

فينادي أصحابه فيقول : هل تعرفوني ؟ فيقولون : لا ، ولكن قد نرى ما

بك من الحزن . فمن أنت ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان ، لكل إنسان منكم مثل هذا .

وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ، تخلع كتفه اليسرى ، فيجعل يده خلفه ، فيأخذ بها كتابه . وقال مجاهد : يحول وجهه في موضع قفاه ، فيقرأ كتابه كذلك .

فتوهم نفسك إن كنت من السعداء ، وقد خرجت على الخلائق مسرور الوجه ، قد حل بك الكمال والحسن والجمال ، كتابك في يمينك ، أخذ بضبعيك ملك ينادي على رؤوس الخلائق : هذا فلان بن فلان ، سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا . وأما إن كنت من أهل الشقاوة ، فيسود وجهك ، وتتخطى الخلائق كتابك في شمالك ، أو من وراء ظهرك ، تنادي بالويل والثبور ، وملك أخذ بضبعيك ينادي على رؤوس الخلائق : ألا إن فلان بن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدا[١] .

---

(١) تذكرة القرطبي : ٢٥٥ .



الفصل الحادي عشر

اقتصاص المظالم بين الخلق

يقتص الحكم العدل في يوم القيامة للمظلوم من ظالمه ، حتى لا يبقى لأحد عند أحد مظلمة ، حتى الحيوان يقتص لبعضه من بعض ، فإذا انتطحت شاتان إحداهما جلحاء لا قرون لها ، والأخرى ذات قرون ، فإنه يقتص لتلك من هذه ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء »[1] .

والذي يعتدي على غيره بالضرب ، يقتص منه بالضرب في يوم القيامة ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري في « الأدب المفرد » ، والبيهقي في السنن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ ضَربَ بِسوط ظلما ، اقتص منه يوم القيامة »[2] .

وفي معجم الطبراني الكبير عن عمار ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من ضرب مملوكه ظالما ، أقيد منه يوم القيامة » وإسناده صحيح[3] .

والذي يقذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد في يوم القيامة إن كان كاذبا فيما رماه به ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال أبو القاسم ﷺ : « من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحدّ يوم القيامة ، إلا أن يكون كما قال »[4] .

---

(١) صحيح مسلم : (١٩٩٧/٤) ، ورقمه : (٢٥٨٢) .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٣١٩/٥) ، ورقمه : ٦٢٥٠ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٣١٩/٥) ، ورقمه ٦٢٥٢ .
(٤) صحيح مسلم : (١٢٨٢/٣) ، ورقمه : ١٦٦٠ .

المطلب الأول
كيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة

إذا كان يوم القيامة كانت ثروة الإنسان ورأس ماله حسناته ، فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم ، فإن لم يكن له حسنات أو فنيت حسناته ، فإنه يؤخذ من سيئاتهم فيطرح فوق ظهره .

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء ، فليتحلل منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه »[1] .

وهذا الذي يأخذ الناس حسناته ، ثم يقذفون فوق ظهره بسيئاتهم هو المفلس ، كما سماه الرسول ﷺ ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون من المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « إن المفلس من أمتي ، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذه من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته ، قبل أن يقضي ما عليه ، أخذت من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار »[2] .

والمدين الذي مات ، وللناس في ذمته أموال يأخذ أصحاب الأموال من حسناته بمقدار مالهم عنده ، ففي سنن ابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عمر

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب من كانت له مظلمة عند الرجل ، فتح الباري : (١٠١/٥) .

(٢) صحيح مسلم : (١٩٩٧/٤) ، ورقمه : ٢٥٨١ .

رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات وعليه دينار أو درهم ، قضى من حسناته ، ليس ثمَّ دينار ولا درهم »[1] .

وإذا كانت بين العباد مظالم متبادلة اقتص لبعضهم من بعض ، فإن تساوى ظلم كل واحد منهما للآخر كان كفافا لا له ولا عليه ، وإن بقي لبعضهم حقوق عند الآخرين أخذها .

ففي سنن الترمذي عن عائشة ، قالت : جاء رجل فقعد بين يدي الرسول ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن لي مملوكين يكذبونني ، ويخونني ، ويعصونني ، وأشتمهم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟

فقال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك ، وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ، ولا عليك . وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلا لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم ، اقتص لهم منك الفضل » فتنحى الرجل ، وجعل يهتف ويبكي .

فقال له رسول الله ﷺ « أما تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[2] [3] .

ولما كان هذا شأن الظلم فحري بالعباد الذين يخافون ذلك اليوم أن يتركوه

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٥/٥٣٧) ، ورقم الحديث : ٦٤٣٢ .

(٢) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣/٦٦) ، ورقمه : ٥٥٦١ ، وأورده في صحيح الجامع : (٦/٣٢٧) ورقمه : ٧٨٩٥ ، وعزاه إلى أحمد والترمذي .

ويجتنبوه وقد أخبر الرسول ﷺ أن الظلم يكون ظلمات في يوم القيامة ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « الظلم ظلمات يوم القيامة »[1] .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺقال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »[2] .

المطلب الثاني
عظم شـأن الدمـاء

من أعظم الأمور عند الله أن يسفك العباد بعضهم بعضهم دم بعض في غير الطريق الذي شرعه الله تبارك وتعالى ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه الترمذي عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : « يجيء الرجل آخذا بيد الرجل ، فيقول : يا رب ، هذا قتلني : فيقول : لم قتلته ؟

فيقول : قتلته لتكون العزة لك .

فيقول : فإنها لي .

ويجيء الرجل آخذا بيد الرجل ، فيقول : أي رب ، إن هذا قتلني .

فيقول الله : لم قتلته ؟

فيقول : لتكون العزة لفلان .

فيقول : إنها ليست لفلان ، فيبوء بإثمه »[3] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب الظلم ظلمات يوم القيامة ، فتح الباري : (٥/١٠٠) ، وصحيح مسلم : (٤/١٩٦٩) ، ورقمه : ٢٥٧٩ .

(٢) صحيح مسلم : (٤/١٩٦٩) ، ورقمه : ٢٥٧٨ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٦/٣٢٤) . ورقم الحديث : ٧٨٨٥ .

وفي السنن للترمذي ، وأبي داود ، وابن ماجة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دما ، فيقول : يا رب ، سل هذا فيم قتلني ؟ حتى يدنيه من العرش »[1] .

ولعظم أمر الدماء فإنها تكون أول شيء يقضى فيه بين العباد .

فقد روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء »[2] . قال ابن حجر في شرحه للحديث : « وفي الحديث عظم أمر الدم ، فإن البداءَة إنما تكون بالأهم ، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة ، وإعلام البنية الإنسانية غاية في ذلك »[3] .

ولا تعارض بين هذا الحديث وحديث أن أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة ، قال ابن حجر العسقلاني : « ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة رفعه : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته » الحديث أخرجه أصحاب السنن ، لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق . والثاني : فيما يتعلق بعبادة الخالق . وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين ، ولفظه : « أول ما يحاسب العبد عليه صلاته ، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء »[4] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٦/٣٢٤) ورقم الحديث : ٧٨٨٧ .
(٢) جامع الأصول : (١٠//٤٣٦) ، ورقمه : ٧٩٦٨ .
(٣) فتح الباري : (١١/٣٩٧) .
(٤) فتح الباري : (١١/٣٩٦) .

المطلب الثالث
الاقتصاص للبهائم بعضها من بعض

« يقضي الله بين خلقه : الجن والإنس والبهائم ، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء ، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله : كونوا ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[1] » .

هذا حديث أخرجه ابن جرير في تفسيره بإسناده إلى أبي هريرة يرفعه ، وفي رواية أخرى أخرجها ابن جرير أيضا عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن الله يحشر الخلق كلهم ، كل دابة وطائر وإنسان ، يقول للبهائم والطير : كونوا ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[2] » .

وعن ابن جرير أيضا عن عبدالله بن عمرو قال : « إذا كان يوم القيامة مدّ الأديم ، وحشر الدواب والبهائم والوحش ، ثم يحصل القصاص بين الدواب ، يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها ، فإذا فرغ من القصاص بين الدواب ، قال لها : كوني ترابا ، قال فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[3] » .

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » .

وأخرج أحمد في مسنده بإسناد رجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة رضي الله

---

(١) سورة النبأ : ٤٠ .

(٢) سورة النبأ : ٤٠ .

(٣) سورة النبأ : ٤٠ .

عنه عن النبي ﷺ قال : « يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرّناء ، وحتى الذرة من الذرة » .

وفي المسند أيضا عن أبي هريرة يرفعه : « ألا والذي نفسي بيده ليختصمن كل شيء يوم القيامة ، حتى الشاتان فيما انتطحتا » .

وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان ، فقال : أبا ذر ، هل تدري فيم تنتطحان ؟

قال : لا .

قال : ولكن الله يدري وسيقضي بينهما »[1] .

كيف يقتص من البهائم وهي غير مكلفة ؟

أشكل على كثير من أهل العلم هذا الذي ذكره الرسول ﷺ من حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض ، وقد وضح هذا النووي في شرحه على صحيح مسلم فقال :

« هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة ، وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين ، وكما يعاد الأطفال والمجانين ، ومن لم تبلغه دعوة . وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[2] ، وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا

(١) أورد الشيخ ناصر هذه الأحاديث ، وتكلم على أسانيدها في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٦٠٦ـ ٦١١) .

(٢) سورة التكوير : ٥ .

شرع ، وجب حمله على ظاهره . قال العلماء : وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب . وأما القصاص من القرناءللجلحاء فليس هو من قصاص التكليف ، إذ لا تكليف عليها ، بل هو قصاص مقابلة ، و(الجلحاء) بالمدّ هي الجماء التي لا قرن لها . والله أعلم » .

قال الشيخ ناصر الدين الألباني بعد إيراده هذه الفقرة من كلام النووي :

وذكر نحوه ابن الملك في « مبارق الأزهار » (٢/٢٩٣) مختصراً . ونقل عنه العلامةالشيخ علي القاريء في « المرقاة » (٤/٧٦١) أنه قال :

« فإن قيل : الشاة غير مكلفة ، فكيف يقتص منها ؟ قلنا : إن الله تعالى فعال لما يريد ، ولا يسأل عما يفعله ، والغرض منه إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع ، بل يقتص حق المظلوم من الظالم » .

قال القاريء : « وهو وجه حسن ، وتوجيه مستحسن ، إلا أن التعبير عن الحكمة بـ (الغرض) وقع في غير موضعه . وجملة الأمر أن القضية دالـة بطريق المبالغة على كمال العدالة بين كافة المكلفين ، فإنه إذا كان هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف ، فكيف بذوي العقول من الوضيع والشريف ، والقوي والضعيف ؟ » .

وعقب على هذا الشيخ ناصر قائلا :«ومن المؤسف أن تُرَد كل هذه الأحاديث من بعض علماء الكلام بمجرد الرأي ، وأعجب منه أن يجنح إليه العلامة الألوسي ! فقال بعد أن ساق الحديث عن أبي هريرة من رواية مسلم ومن رواية أحمد بلفظ الترجمة عند تفسيره آية ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[1] في تفسيره « روح المعاني » (٩/٣٠٠٦) :

« ومال حجة الإسلام الغزالي وجماعة إلى أنه لا يحشر غير الثقلين ، لعدم

(١) سورة التكوير : ٥ .

كونه مكلفاً ، ولا أهلاً لكرامة بوجه ، وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليها يدل على حشر غيرهما من الوحوش ، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحاً ، لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام . وإلى هذا القول أميل ، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول ، لأن لهم ما يصلح مستنداً في الجملة . والله تعالى أعلم » .

قلت (الشيخ ناصر) : كذا قال ـ عفا الله عنا وعنه ـ وهو منه غريب جداً لأنه على خلاف ما نعرفه عنه في كتابه المذكور ، من سلوك الجادة في تفسير آيات الكتاب على نهج السلف ، دون تأويل أو تعطيل ، فما الذي حمله هنا على أن يفسر الحديث على خلاف ما يدل عليه ظاهره ، وأن يحمله على أنه كناية عن العدل التام ، أليس هذا تكذيباً للحديث المصرح بأنه يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء ، فيقول هو تبعا لعلماء الكلام : إنه كناية ! . . . أي لا يقاد للشاة الجماء . وهذا كله يقال لو وقفنا بالنظر عند رواية مسلم المذكورة ، أما إذا انتقلنا به إلى الروايات الأُخرى كحديث الترجمة ، وحديث أبي ذر وغيره ؛ فإنها قاطعة في أن القصاص المذكور هو حقيقة وليس كناية ، ورحم الله الإمام النووي ، فقد أشار بقوله السابق : « وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره » .

قلت : أشار بهذا إلى رد التأويل المذكور ، وبمثل هذا التأويل أنكر الفلاسفة وكثير من علماء الكلام كالمعتزلة وغيرهم رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ، وعلوّه على عرشه ، ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة ، ومجيئه تعالى يوم القيامة . وغير ذلك من آيات الصفات وأحاديثها .

وبالجملة ، فالقول بحشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض هو الصواب الذي لا يجوز غيره ، فلا جرم أن ذهب إليه الجمهور كما ذكر الألوسي

نفسه في مكان آخر من « تفسيره »(٩/٢٨١) ، وبه جزم الشوكاني في تفسير آية « التكوير » من تفسيره « فتح القدير » ، فقال (٥/٣٧٧) :

« الوحوش ما توحش من دواب البر ، ومعنى (حشرت) بعثت ، حتى يقتص لبعضها من بعض ، فيقتص للجماء من القرناء »[1] .

المطلب الرابع
متى يقتص للمؤمنين بعضهم من بعض ؟

في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار ، حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذِّبوا ، أذن لهم بدخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ، لأحدهم بمسكنه في الجنّة أدل بمنزله كان في الدنيا »[2] .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ ناصر الدين الألباني : (٤/٦١٢) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب قصاص المظالم ، فتح الباري : (٥/٩٦) .

الفصل الثاني عشر
الميزان

المطلب الأول
تعريفه

في ختام ذلك اليوم ينصب الميزان لوزن أعمال العباد ، يقول القرطبي : « وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها »[1] .

وقد دلت النصوص على أن الميزان ميزان حقيقي ، لا يقدر قدره إلا الله تعالى ، فقد روى الحاكم عن سلمان عن النبي ﷺ : قال « يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت . فتقول الملائكة : يا رب لمن يزن هذا ؟ فيقول الله تعالى : لمن شئت من خلقي . فتقول الملائكة : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك »[2] .

وهو ميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[3].

---

(١) تذكرة القرطبي : ٣٠٩ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٦٥٦/٢) . ورقم الحديث : ٩٤١ .

(٣) سورة الأنبياء : ٤٧ .

وقد اختلف أهل العلم في وحدة الميزان وتعدده ، فذهب بعضهم إلى أن لكل شخص ميزانا خاصا ، أو لكل عمل ميزانا لقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1] .

وذهب آخرون إلى أن الميزان واحد ، وأن الجمع في الآية إنما هو باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص .

وقد رجح ابن حجر بعد حكايته للخلاف أن الميزان واحد ، قال : « ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله ، لأن أحوال القيامة لا تكيَّف بأحوال الدنيا »[2] .

وقال السفاريني : « قال الحسن البصري : لكل واحد من المكلفين ميزان . قال بعضهم : الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد ، لقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ . قال : وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان ، ولأفعال الجوارح ميزان ، ولما يتعلق بالقول ميزان . أورد هذا ابن عطية وقال : الناس على خلافة ، وإنما لكلٍّ واحد وزن مختص به ، والميزان واحد . وقال بعضهم إنما جمع الموازين في الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم . وهو حسن »[3] .

المطلب الثاني
الميزان عند أهل السنة

الميزان عند أهل السنة ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد وخالف في هذا المعتزلة ، وقلة قليلة من أهل السنة .

---

(١) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٢) فتح الباري : (٣/٥٣٧) .

(٣) لوامع الأنوار البهية : (٢/١٨٦) .

قال ابن حجر : « قال أبو إسحق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال . وأنكرت المعتزلة الميزان ، وقالوا : هو عبارة عن العدل ؛ فخالفوا الكتاب والسنة ، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين .

وقال ابن فورك : أنكرت المعتزلة الميزان ، بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها إذ لا تقوم بأنفسها .

قال : وقد روى بعض المتكلمين عن ابن عباس أن الله تعالى يقلب الأعراض أجساما فيزنها . انتهى .

وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء ، وعزا الطبري القول بذلك إلى مجاهد .

والراجح ما ذهب إليه الجمهور .

وَذُكِرَ الميزان عند الحسن فقال : له لسان وكفتان »[1] .

وعزا القرطبي تفسير الميزان بالعدل إلى مجاهد والضحاك والأعمش[2] .

ولعل هؤلاء العلماء فسروا الميزان بالعدل في مثل قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾[3] ، فالميزان في هذه الآية العدل ، أمر الله عباده أن يتعاملوا به فيما بينهم ، أما الميزان الذي ينصب في يوم القيامة فقد تواترت بذكره الأحاديث ، وأنه ميزان حقيقي ، وهو ظاهر القرآن[4] .

---

(١) فتح الباري : (١٣/٥٣٨) بتصرف يسير .

(٢) تذكرة القرطبي : ٣١٣ .

(٣) سورة الرحمن : ٧ ـ ٩ .

(٤) النهاية لابن كثير : (٢/٣٤) .

وقد رد الإمام أحمد على من أنكر الميزان بأن الله تعالى ذكر الميزان في قوله : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(١) . والنبي ﷺ ذكر الميزان يوم القيامة ، فمن رد على النبي ﷺ ، فقد رد على الله عز وجل(٢) .

وقد استدل شيخ الإسلام على أن الميزان غير العدل ، وأنه ميزان حقيقي توزن به الأعمال بالكتاب والسنة ، فقال :

« الميزان : هو ما يوزن به الأعمال ، وهو غير العدل كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾(٣) ، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾(٤) ، وقوله : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(٥) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . وقال عن ساقَيْ عبدالله بن مسعود : « لهما في الميزان أثقل من أحد » .

وفي الترمذي وغيره حديث البطاقة ، وصححه الترمذي والحاكم وغيرهما في الرجل الذي يؤتى به ، فينشر له تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل منها مدّ البصر ، فيوضع في كِفَّة ، ويؤتى ببطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله . قال النبي ﷺ : « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » . وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس ، فهو ما به تبين العدل . والمقصود بالوزن العدل ، كموازين الدنيا .

---

(١) سورة الأنبياء : ٤٧ .
(٢) فتح الباري : (٥٣٨/١٣) .
(٣) سورة المؤمنون : ١٠٢ .
(٤) سورة المؤمنون : ١٠٣ .
(٥) سورة الأنبياء : ٤٧ .

وأما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب »[1] .

وقد رَدَّ القرطبي على الذين أنكروا الميزان وأَوَّلوا النصوص الواردة فيه وحملوها على غير محملها قائلا : « قال علماؤنا ولو جاز حمل الميزان على ما ذكروه ، لجاز حمل الصراط على الدِّين الحق ، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح ، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة ، والملائكة على القوى المحمودة ، وهذا كله فاسد ، لأنه رد لما جاء به الصادق ، وفي الصحيحين فيعطى صحيفة حسناته ، وقوله : فيخرج له بطاقة ، وذلك يدل على الميزان الحقيقي ، وأن الموزون صحف الأعمال كما بينا وبالله التوفيق »[2] .

المطلب الثالث
ما الذي يوزن في الميزان

اختلف أهل العلم في الموزون في ذلك اليوم على أقوال :

الأول : أن الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها ، وأنها تجسم فتوضع في الميزان ، ويدل لذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيح قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[3] .

وقد دلت نصوص كثيرة على أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورة الله

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٣٠٢) .
(٢) التذكرة : ٣١٤ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) . فتح الباري (١٣/٥٣٧) .

أعلم بها ، فمن ذلك مجيء القرآن شافعا لأصحابه في يوم القيامة ، وأن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان أو غيابتان ، أو فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما . ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه . اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيابتان[1] ، أو فرقان[2] من طير صواف تحاجان عن أصحابهما »[3] .

وروى مسلم أيضا عن النواس بن سمعان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران ، كأنهما غمامتان ، أو ظلتان بينهما شرق[4] ، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما »[5] .

وهذا القول رجّحه ابن حجر العسقلاني ونصره ، فقال : « والصحيح أن الأعمال هي التي توزن ، وقد أخرج أبو داود والترمذي ، وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق » .

الثاني : أن الذي يوزن هو العامل نفسه ، فقد دلّت النصوص على أن العباد يوزنون في يوم القيامة ، فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم ، لا بضخامة

---

(١) الغيابة : أقل كثافة من الغمامة ، وأقرب إلى رأس صاحبها .
(٢) فرقان : طائفتان .
(٣) مشكاة المصابيح : (١/٦٥٦) ـ ورقم الحديث : ٢١٢٠ .
(٤) شرق : أي ضوء ونور .
(٥) مشكاة المصابيح : (١/٦٥٦) . ورقم الحديث : ٢١٢١ .

أجسامهم ، وكثرة ما عليهم من لحم ودهن ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول لله ﷺ قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال : اقرأوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾[1][2] » .

ويؤتى بالرجل النحيف الضعيف دقيق الساقين فإذا به يزن الجبال ، روى أحمد في مسنده ، عن زر بن حبيش عن ابن مسعود ، أنه كان رقيق الساقين ، فجعلت الريح تلقيه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله ﷺ : « مم تضحكون ؟ » قالوا : يانبي الله من رقة ساقيه »

قال : « والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد » .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد وإسناده جيد قوي[3] .

وما أحسن ما قال الشاعر :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد هرير

ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير

الثالث : أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال . فقد روى الترمذي في « سننه » عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مثل مدّ البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : ألك عذر ؟ فيقول لا يارب .

---

(١) سورة الكهف : ١٠٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الكهف ، فتح الباري : (٨/٤٢٦) .

(٣) النهاية لابن كثير : (٢/٢٩) .

فيقول الله تعالى : بلى ، إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم اليوم ، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفَّة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء »[1] .

وقد مال القرطبي إلى هذا القول ، فقال : « والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة ، وبها تخف ، . . . قال ابن عمر : توزن صحائف الأعمال ، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام ، فيجعل الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلا على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار »[2] .

وقال السفاريني : « والحق أن الموزون صحائف الأعمال ، وصححه ابن عبدالبر والقرطبي وغيرهما ، وصوبه الشيخ مرعي في « بهجته » ، وذهب إليه جمهور من المفسرين ، وحكاه ابن عطية عن أبي المعالي . . »[3] .

ولعل الحق أن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله ، فقد دلت النصوص التي سقناها على أن كل واحد من هذه الثلاثة يوزن ، ولم تنف النصوص المثبتة لوزن الواحد منها أن غيره لا يوزن ، فيكون مقتضى الجمع بين النصوص إثبات الوزن للثلاثة المذكورة جميعها .

وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي فقال : « والذي استظهر من

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٤٥٩) ورقمه ٧٩٨١ ، قال محقق الجامع : إسناده صحيح ، ورواه ابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم والبيهقي وغيرهم .

(٢) تذكرة القرطبي : ٣١٣ .

(٣) لوامع الأنوار البهية : (٢/١٨٧) .

النصوص ـ والله أعلم ـ أن العامل وعمله وصحيفة عمله ـ كل ذلك يوزن ، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن ، قد وردت بكل ذلك ، ولا منافاة بينها ، ويدلُّ كذلك ما رواه أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ عن عبدالله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ : قال : قال رسول الله : « توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل ، فيوضع في كفة ، ويوضع ماأحصى عليه ، فيمايل به الميزان . قال : فيبعث به إلى النار .

قال : فإذا أدبر ، إذا صائح من عند الرحمن ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول : لا تعجلوا ، فإنَّه قد بقي له ، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله ، فتوضع مع الرجل في كفه ، حتى يميل به الميزان » .

فهذا يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى ، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن ، ولله الحمد والمنة »[1] .

المطلب الرابع
الأعمال التي تثقل في الميزان

أثقل ما يوضع في ميزان العبد حسن الخلق ، فعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « إن أثقل شيء يوضع في ميزان العبد يوم القيامة خلق حسن ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء » . رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وروى أبو داود الفصل الأول[2] .

---

(١) معارج القبول : (٢/ ٢٧٢) .

(٢) مشكاة المصابيح : (٢/ ٦٣٠) ، ورقم الحديث : ٥٠٨١ .

وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) . ما بين السماء والأرض »[2] .

وروى البخاري والنسائي وأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من احتبس فرسا في سبيل الله ، إيمانا بالله ، وتصديقا بوعده ، كان شبعه وريُّه ، وروثه ، وبوله ، حسنات في ميزانه يوم القيامة »[3] .

---

(١) جامع الأصول : (٣٩٧/٤) ، ورقمه : ٢٤٦٢ .

(٢) صحيح مسلم : (٢٠٣/١) ، ورقم الحديث : ٢٢٣ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٢٢٩/٥) ، ورقم الحديث : ٥٨٤٣ .

الفصل الثالث عشر
الحوض

يكرم الله عبده ورسوله محمدا ﷺ في الموقف العظيم بإعطائه حوضا واسع الأرجاء ، ماؤه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، يأتيه هذا الماء الطيب من نهر الكوثر ، الذي أعطاه لرسوله ﷺ في الجنة ، ترد عليه أمة المصطفى ﷺ ، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا .

وقد اختلف أهل العلم في موضعه فذهب الغزالي والقرطبي إلى أنَّه يكون قبل المرور على الصراط في عرصات القيامة، واستدلوا على ذلك بأنه يؤخذبعض وارديه إلى النار فلو كان بعـد الصراط لما استطاعوا الوصول إليه[1] .

واستظهر ابن حجر أن مذهب البخاري أن الحوض يكون بعد الصراط ، لأن البخاري أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة ، وأحاديث نصب الصراط »[2] .

وما ذهب إليه القرطبي أرجح ، وقد استعرض ابن حجر أدلة الفريقين في كتابه القيم : « فتح الباري »[3] .

---

(١) انظر تذكرة القرطبي : ٣٠٢ .

(٢) انظر فتح الباري : (٤٦٦/١١) .

(٣) فتح الباري : (٤٦٦/١١) .

المبحث الأول
الأحاديث الواردة فيه

الأحاديث الواردة في الحوض متواترة ، لا شك في تواترها عند أهل العلم بأحاديث الرسول ﷺ ، وقد رواها عن الرسول ﷺ أكثر من خمسين صحابيا ، وقد ذكر ابن حجر أسماء رواة أحاديثه من الصحابة[1] .

ونحن نسوق هنا بعض هذه الأحاديث التي أوردها الخطيب التبريزي في مشكاته[2] :

١ ـ عن عبدالله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : « حوضي مسيرة شهر ، وزواياه سواء[3] . ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من يشرب منها فلا يظمأ أبدا » . متفق عليه .

٢ ـ وعن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « إنّ حوضي أبعد من أيلة[4] من عدن لهو أشدُّ بياضا من الثلج ، وأحلى من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم ، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه » .

قالوا : يا رسول الله ! أتعرفنا يومئذ ؟ قال : « نعم ، لكم سيماء[5] ليست

(١) فتح الباري : (٤٦٨/١١) .
(٢) مشكاة المصابيح : (٦٨/٣) .
(٣) أي مربع لا يزيد طوله عن عرضه شيئا .
(٤) هي مدينة العقبة في الأردن .
(٥) السيماء : العلامة .

لأحد من الأمم ، تردون علي غرا محجلين من أثر الوضوء » . رواه مسلم .

٣ ــ وفي رواية له[١] عن أنس . قال « ترى فبه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء » .

٤ ــ وفي أخرى له عن ثوبان ، قال : سئل عن شرابه . فقال : « أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل يغت[٢] ، فيه ميزابان يُمِدَّانه من الجنة ، أحدهما من ذهب والآخر من وَرِق » .

---

(١) أي لمسلم .
(٢) يَغت : أي يِصُبّ ويسيل .

المبحث الثاني

الذين يردون الحوض والذين يذادون عنه

وردت أحاديث كثيرة بين فيها الرسول ﷺ الذين يردون على حوضه ، والذين يمنعون من الشرب منه ، ونحن نذكر لك بعض ما أورده ابن الأثير منها في جامع الأصول[1] .

١ ـ روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود رضي اللهعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن إلي رجال منكم ، حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني[2] ، فأقول : أي رب ، أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ؟ »

٢ ـ ورويا أيضا عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني ، حتى إذا رأيتهم ، ورفعوا إلي ، اختلجوا دوني ، فلأقولن : أي رب ، أصيحابي ، أصيحابي ،فليقالن لي : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

وفي رواية « ليردن علي ناس من أمتي . . . الحديث ، وفي آخره : فأقول : سحقا لمن بدل بعدي » أخرجه البخاري ومسلم .

٣ ـ ورويا عن أبي حازم رحمه الله عن سهل بن سعد رضي اللهعنه ، قال :

---

(١) جامع الأصول : ٤٦٨/١ .

(٢) اختلجوا : أخذوا بسرعة .

سمعت النبي ﷺ يقول : « أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدا ، وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم ، قال أبو حازم : فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث ، فقال : هكذا سمعت سهلاً يقول ؟ فقلت : نعم ، قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد ، فيقول : فإنهم مني ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول سحقا سحقا لمن بدل بعدي » . أخرجه البخاري ومسلم .

٤ ـ ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي ـ أو قال : من أمتي ـ فَيُحَلَّؤون(١) عن الحوض ، فأقول : يا رب ، أصحابي ، فيقول : إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى » وفي رواية « فيجلون » أخرجه البخاري ومسلم .

وللبخاري : أن رسول الله ﷺ قال : « بينما أنا قائم على الحوض ، إذا زمرة ، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلم ، فقلت : إلى أين ؟ فقال : إلى النار والله ، فقلت : ما شأنهم ؟ فقال : إنهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة أخرى ، حتى عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم : هلم ، قلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم قد ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم »(٢) .

ولمسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « ترد علي أمتي الحوض ، وأنا أذود الناس عنه ، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ، قالوا : يا نبي الله تعرفنا ؟ قال : نعم ، لكم سيما ليست لأحد غيركم ، تردون غرا محجلين من آثار الوضوء وليصدن عني طائفة منكم ، فلا يصلون ، فأقول : يا رب ، هؤلاء من أصحابي ، فيجيء

---

(١) يحلؤون : أي يدفعون ويطردون .

(٢) همل النعم : الإبل الضالة . والمعنى أن الناجي منهم قليل .

ملك ، فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ » .

وفي أخرى قال : « إن حوضي أبعد من أيلة من عدن ، لهو أشد بياضاً من الثلج ، وأحلى من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم ، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه ، قالوا : يا رسول الله ، أتعرفنا يومئذ ؟ قال : نعم ، لكم سيما[1] ليست لأحد من الأمم ، تردون عليَّ غرا محجلين » .

وقد أورد القرطبي في تذكرة بعض الأحاديث التي سقناها ثم قال : « قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين : فكل من ارتدعن دين الله أو أحدث فيه مالا يرضاه الله ، ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض ، المبعدين عنه ، وأشدهم طردا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها ، والروافض على تباين ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها ، فهؤلاء كلهم مبدلون .

وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع .

ثم البعد قد يكون في حال ، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ، ولم يكن في العقائد ، وعلى هذا يكون نور الوضوء يعرفون به ، ثم يقال لهم : سحقا ، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر ، ثم يكشف لهم الغطاء فيقال لهم : سحقا سحقا ، ولا يخلد في النار إلا كل جاحد مبطل ، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان »[2] .

(١) السيما : العلامة .

(٢) التذكرة للقرطبي : ص ٣٠٦ .

الفصل الرابع عشر
الحشر إلى دار القرار: الجنة أو النار

المبحث الأول
يطلب من كل أمة أن تتبع الإله الذي كانت تعبده

في ختام هذا اليوم يحشر العباد إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار ، وهما المقرّ الأخير الذي يصير إليه العباد جميعا ، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه يطلب من كل أمة في آخر ذلك اليوم أن تتبع الإله الذي كانت تعبده ، فالذي كان يعبد الشمس يتبع الشمس ، والذي كان يعبد القمر يتبع القمر ، والذي كان يعبد الأصنام تصور لهم آلهتهم ثم تسير أمامهم ويتبعونها ، والذين كانوا يعبدون فرعون يتبعونه ، ثم إن هذه الآلهة الباطلة تتساقط في النار ، ويتساقط عبادها وراءَها في السعير ، كما قال تعالى في فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾[1] .

ولا يبقى بعد ذلك إلا المؤمنون وبقايا أهل الكتاب ، وفي المؤمنين المنافقون الذين كانوا معهم في الدنيا ، فيأتيهم ربهم ، فيقول لهم ما تنتظرون ؟ فيقولون ننتظر ربنا ، فيعرفونه بساقه عندما يكشفها لهم ، وعند ذلك يخرون له سجودا ، إلا المنافقون فلا يستطيعون ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[2] ، ثم يتبع المؤمنون ربهم ، وينصب الصراط ويعطى المؤمنون أنوارهم ، ويسيرون على الصراط ، ويطفأ نور المنافقين ، ويقال لهم : ارجعوا

---
(١) سورة هود : ٩٨ .

(٢) سورة القلم : ٤٢ .

وراءَكم فالتمسوا نورا ، ثم يضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ويمر العباد على الصراط مسرعين بقدر إيمانهم وأعمالهم الصالحة .

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ ، قال : «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر ، وغُبَّر[1] أهل الكتاب . فيدعى اليهود ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزير ابن الله . فيقال : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون ؟ قالوا : عطشنا يا ربنا ، فاسقنا . فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون في النار .

ثم يدعى النصارى ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم ، ما اتخذ الله من صاحبةولا ولد ، فيقال لهم : ما تبغون ؟ فيقولون : عطشنا ، يا ربنا فاسقنا ، قال : فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب ، يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون في النار . حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر ، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها ، قال : فماذا تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد . قالوا : يا ربنا ، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، لا نشرك بالله شيئا (مرتين أوثلاثا) حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم ،

---

(١) غبَّرهم : بقاياهم .

وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا .

ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلم سلم .

قيل : يا رسول الله ، وما الجسر ؟ قال : دحض مزلة ، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك ، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها : السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والرِّكاب ، فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم »[1] .

وروى مسلم أيضا عن أبي هريرة في وصف المرور على الصراط ، قال : قال رسول الله ﷺ : « وترسل الأمانة والرحم ، فتقومان على جنبتي الصراط يمينا وشمالا ، فيمر أولكم كالبرق ، قال : قلت : بأبي أنت وأمي ، أي شيء كالبرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمرّ الريح ، ثمّ كمرِّ الطير وشدِّ الرحال ، تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب ، سلم سلم . حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا ، قال : وعلى حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به . فمخدوش ناج ، ومكدوس في النار »[2] .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي الزبير ، أنه سمع جابر بن عبدالله يسأل عن الورود ، فقال : « نجيء نحن يوم القيامة عن كذا وكذا[3] انظر إلى ذلك فوق

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، (١/١٦٧) ورقمه : (١٨٣) .
(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة ، (١/١٨٧) ورقمه (١٩٥) .
(٣) يقول ابن رجب في تعليقه على هذه اللفظة من الحديث : « أصل هذه اللفظة تصحيف من الرواي للفظ « كوم » ، فكتب عليه كذا وكذا لإشكال فهمه عليه ، ثم كتب انظر إلى ذلك ، يأمر الناظر فيه

الناس ، قال : فتدعى الأمم بأوثانها ، وما كانت تعبد ، الأول فالأول ، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول : من تنظرون ؟ فيقولون : ننظر ربنا ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : حتى ننظر إليك ، فيتجلى لهم يضحك .

قال : فينطلق بهم ويتبعونه ، ويعطى كل إنسان منهم ، منافق أو مؤمن نورا ، ثم يتبعونه ، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك ، تأخذ من شاء الله ثم يطفأ نور المنافقين ، ثم ينجو المؤمنون أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر ، سبعون ألفا لا يحاسبون ، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء . . »[1] .

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال في إجابته للصحابة عندما سألوه عن رؤيتهم لله : « هل تُضَارُّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله . قال فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك ، يجمع الله الناس ،فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون: نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا أتانا ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب جسر جهنم ، قال رسول الله ﷺ : « فأكون أول من يجيز ، ودعاء الرسل يومئذ : اللهمَّ سلِّم سلِّم ، وبه كلاليب مثل شوك السعدان ، أما رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، فتخطف الناس بأعمالهم ،

= بالتروي والفكر في صحة لفظه ، فأدخل ذلك كله في الرواية قديما » التخويف من النار : ص ١٩٩ ، وقد ذكر أن الصواب كما جاء في المسند وكتاب السنة : « نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس ، فتدعى الأمم بأوثانها . . » .

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة : (١/١٧٥) . ورقمه (١٩١) .

منهم المُوبق بعمله ، ومنهم المخردل ، ثم ينجو . . »[1] .

وقد دلت هذ النصوص الصحيحة الصريحة الواضحة على عدة أمور مهمة ، فقد ذكرت حشر الكفار إلى النار ، ومسير المؤمنين إلى الجنة على الصراط ، وخلاص المؤمنين من المنافقين ، كما أشارت في جملتها إلى معنى الورود على النار الذي نصَّ الله عليه في قوله ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[2] .

وسنتناول هذه المباحث بشيء من التفصيل فيما يأتي .

---

(1) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب الصراط جسر جهنم ، فتح الباري : ١١/٤٤٤ ، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، (١/١٦٣) ورقم الحديث (١٨٢) ، واللفظ للبخاري .

(2) سورة مريم : ٧١ .

المبحث الثاني

حشر الكفار إلى النار

جاءت نصوص كثيرة تصور لنا كيف يكون حشر الكفار إلى النار هم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها .

١ ـ فمن ذلك أنهم يحشرون كقطعان الماشية جماعات جماعات ، ينهرون نهرا غليظا ، ويصاح بهم من هنا وهناك ، كما يفعل الراعي ببقره أو غنمه ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾(١) ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾(٢) .
وقال : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾(٣) . ومعنى يوزعون أي يجمعون ، تجمعهم الزبانية أولهم على آخرهم ، كما يفعل البشر بالبهائم .

٢ ـ وأفادت النصوص أنهم يحشرون إلى النار على وجوههم ، لا كما كانوا يمشون في الدنيا على أرجلهم ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(٤) .
روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن رجلا قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : « أليس الذي أمشاه على رجليه في

---

(١) سورة الزمر : ٧٢.
(٢) سورة الطور : ١٣ .
(٣) سورة فصلت : ١٩ .
(٤) سورة الفرقان : ٣٤ .

الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » قال قتادة : بلى وعزة ربنا[1] .

ومع حشرهم على هذه الصورة المنكرة على وجوههم فإنهم يحشرون عميا لا يرون ، وبكما لا يتكلمون ، وصما لا يسمعون ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾[2] .

٣ ـ ويزيد بلاءهم أنهم يحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾[3] .

٤ ـ وهم في هذا مغلوبون مقهورون أذلاء صاغرون ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾[4] .

٥ ـ وقبل أن يصلوا إلى النار تصك مسامعهم أصواتها التي تملأ قلوبهم رعبا وهلعا ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾[5] .

٦ ـ وعندما يبلغون النار ويعاينون أهوالها يندمون ويتمنون العودة إلى الدنياكي يؤمنوا ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[6] ،ولكنهم لا يجدون من النار مفرّاً ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾[7] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب الحشر ، فتح الباري : (٣٧٧/١١) . ومسلم : (٢١٦١/٤) . ورقمه : (٢٨٠٦) . واللفظ لمسلم .

(٢) سورة الإسراء : ٩٧ .

(٣) سورة الصافات : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٤) سورة آل عمران : ١٢ .

(٥) سورة الفرقان : ١٢ .

(٦) سورة الأنعام : ٢٧ .

(٧) سورة الكهف : ٥٣ .

٧ ـ وعند ذلك يؤمرون بالدخول في النار وغضب الجبار أذلاء خاسرين ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[1] ، ولا ينجو من النار من الجن والإنس إلا الأتقياء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ۝٧٠ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾[2] . يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات :

« يقسم الله بنفسه وهو أعظم قسم وأجله ؛ أنهم سيحشرون بعد الموت ، فهذا أمر مفروغ منه ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾ ، ولن يكونوا وحدهم ﴿لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾[3] فهم والشياطين سواء ، والشياطين هم الذين يوسوسون بالإنكار ، وبينهما صلة التابع والمتبوع ، والقائد والمقود . . وهنا يرسم صورة حسيّة وهم جاثون حول جهنم جثو الخزي والمهانة ، ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾[4] ، وهي صورة رهيبة ، وهذه الجموع التي لا يحصيها العد محشورةمحضرة إلى جهنم جاثية حولها ، تشهد هولها ، ويلفحها حرها ، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها ، وهم جاثون على ركبهم في ذلة وفزع . . وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين ، يليه مشهد النزع والجذب لمن كانواأشدَّ عتوا وتجبرا : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾[5] وفي اللفظ تشديد ، ليرسم بظله وجرسه

---

(١) سورة النحل : ٢٩ .

(٢) سورة مريم : ٦٨ ـ ٧٢ .

(٣) سورة مريم : ٦٨ .

(٤) سورة مريم : ٦٨ .

(٥) سورة مريم : ٦٩ .

صورة لهذا الانتزاع ، تتبعها صورة القذف في النار ، وهي الحركة التي يكملها الخيال .

وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها ، فلا يؤخذ أحد جزافا من هذه الجموع التي لا تحصى ، والتي أحصاها الله فردا فردا : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾[1] فهم المختارون ليكونوا طليعة المقذوفين »[2] .

وقد غيّرت هذه الآية ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[3] أحوال الصالحين ، فأسهرت ليلهم ، وعكرت عليهم صفو العيش ، وحرمتهم الضحك ، والتمتع بالشهوات ، فقد ذكر ابن كثير أن أبا ميسرة كان إذا أوى إلى فراشه قال : ياليت أمي لم تلدني ، ثم يبكي ، فقيل له ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال : أخبرنا الله أنا واردوها ، ولم نخبر أنا صادرون عنها . وقال عبدالله بن المبارك عن الحسن البصري ، قال : قال رجل لأخيه : هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك ؟ قال : فما رئي ضاحكا حتى لحق بالله ، وقال ابن عباس لرجل يحاوره : أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها ، فانظر هل نصدر عنها أم لا ؟[4] .

---

(١) سورة مريم : ٧٠ .

(٢) في ظلال القرآن : (٢٣١٧/٤) .

(٣) سورة مريم : ٧١ .

(٤) تفسير ابن كثير : (٤٧٦/٤) .

المبحث الثالث

مرور المؤمنين على الصراط وخلاص المؤمنين من المنافقين

عندما يذهب بالكفرة الملحدين ، والمشركين الضالين إلى دار البوار : جهنم يصلونها ، وبئس القرار ، يبقى في عرصات القيامة أتباع الرسل الموحدون ، وفيهم أهل الذنوب والمعاصي ، وفيهم أهل النفاق ، وتلقى عليهم الظلمة قبل الجسر كما في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : سئل الرسول ﷺ : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال : « هم في الظلمة دون الجسر » .

يقول شارح الطحاوية[1] : « وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ، ويتخلفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم ، روي البيهقي بسنده عن مسروق ، عن عبدالله ، قال : « يجمع الله الناس يوم القيامة » إلى أن قال : «فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه ، حتى يكون آخر من يعطى نوره في إبهام قدمه ، يضيء مرة ويطفأ أخرى ، إذا أضاء قدم قدمه ، وإذا أطفأ قام ، قال : فيمر ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف دحض مزلة ، ويقال لهم : امضوا على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمر

---

(١) شرح الطحاوية : ص ٤٧٠ .

كالريح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كشدّ الرّجل ، يرمل رملا على قدر أعمالهم ، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه ، تخرُّ يدٌ ، وتعلق يد ، وتخر رجل وتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فيخلصون فإذا خلصوا ، قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك ، بعد أن أراناك ، لقد أعطانا مالم يعط أحد »[1] .

وقد حدثنا الحق تبارك وتعالى عن مشهد مرور المؤمنين على الصراط ، فقال : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2] .

فالحق يخبر أن المؤمنين والمؤمنات الذين استناروا بهذا الدين العظيم في الدنيا ، وعاشوا في ضوئه ، يعطون في يوم القيامة نورا يكشف لهم الطريق الموصلة إلى جنات النعيم ، ويجنبهم العثرات والمزالق في طريق دحض مزلة ، وهناك يبشرون بجنات النعيم ، ويحرم المنافقون الذين كانوا يزعمون في الدنيا أنهم مع المؤمنين ، وأنهم منهم ، لكنهم في الحقيقة مفارقون لهم لا يهتدون

---

(١) قال الشيخ ناصر في تخريجه لأحاديث شرح الطحاوية (٤٧٠) : « صحيح ، وأخرجه الحاكم ، وأظن أن البيهقي من طريقه رواه ، وقال الحاكم : « صحيح على شرح الشيخين » ووافقه الذهبي » وبيّن الشيخ أن أحد رواته فيه ضعف ، ثم هو مدلس ، لكنه توبع ، وصرح بالتحديث ، فالحديث صحيح .

(٢) سورة الحديد : ١٢ ـ ١٥ .

بهداهم ، ولا يسلكون سبيلهم من النور ، كما حرموا أنفسهم في الدنيا من نور القرآن العظيم ، فيطلب المنافقون من أهل الإيمان أن ينتظروهم ليستضيئوا بنورهم ، وهناك يخدعون ، كما كانوا يخدعون المؤمنين في الدنيا ، ويقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، وبذلك يعود المنافقون إلى الوراء ، ويتقدم المؤمنون إلى الأمام ، فإذا تمايز الفريقان ، ضرب الله بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ويكون مصير المؤمنين والمؤمنات الجنة ، ومصير المنافقين والمنافقات النار .

وقد أخبر الحق أن دعاء المؤمنين عندما يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم هو (ربنا أتمم لنا نورنا) ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طُفىء »[2] .

---

(١) سورة التحريم : ٨ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٦١/٧ .

المبحث الرابع

الذين يمرون على الصراط هم المؤمنون دون المشركين

دلت الأحاديث التي سقناها على أن الأمم الكافرة تتبع ما كانت تعبد من آلهة باطلة ، فتسير تلك الآلهة بالعابدين حتى تهوي بهم في النار ، ثم يبقى بعد ذلك المؤمنون وفيهم المنافقون ، وعصاة المؤمنين ، وهؤلاء هم الذين ينصب لهم الصراط .

ولم أر في كتب أهل العلم من تنبه إلى ما قررناه من أن الصراط إنما يكون للمؤمنين دون غيرهم من الكفرة المشركين والملحدين غير ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى ، فإنه قال : في كتابه التخويف من النار : « واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ، ومشرك يعبد مع الله غيره ، فأما المشركون ، فإنهم لا يمرون على الصراط ، وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط »[1] وقد ساق بعض الأحاديث التي سقناها ، ومنها حديث أبي سعيد الخدري الذي في الصحيحين ، ثم قال : « فهذا الحديث صريح في أن كل من أظهر عبادة شيء سوى الله كالمسيح والعزير من أهل الكتاب فإنه يلحق بالمشركين في الوقوع في النار قبل نصب الصراط ، إلا أن عباد الأصنام والشمس والقمر وغير ذلك من المشركين تتبع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا ، فترد النار مع معبودها أولا ، وقد دل القرآن على هذا المعنى في قوله تعالى في شأن فرعون :

---

(١) التخويف من النار : ص ١٨٧ .

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾[1] . . وأما من عبدالمسيح والعزير من أهل الكتاب ، فأنهم يتخلفون مع أهل الملل المنتسبين إلى الأنبياء ، ثم يردون النار بعد ذلك .

وقد ورد في حديث آخر أن من كان يعبد المسيح يمثل له شيطان المسيح فيتبعونه ، وكذلك من كان يعبد العزير ، وفي حديث الصور أنه يمثل لهم ملك على صورة المسيح ، وملك على صورة العزير ، ولا يبقى بعد ذلك إلا من كان يعبد الله وحده في الظاهر سواء كان صادقا أو منافقا من هذه الأمة وغيرها ، ثم يتميز المنافقون عن المؤمنين بامتناعهم عن السجود ، وكذلك يمتازون عنهم بالنور الذي يقسم للمؤمنين»[2] .

وهذا نظر سديد من قائله رحمه الله .

---

(١) سورة هود : ٩٨ .

(٢) التخويف من النار : ص ١٨٨ .

المبحث الخامس
معنى ورود النار

ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بورود النار المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[1] هو دخول النار ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه[2] ، وكان يستدل على ذلك بقول الله تعالى في فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾[3] ، وبقوله : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[4] ، وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾[5] ، وروى مسلم الأعور عن مجاهد ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[6] ، قال : داخلها[7] .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالورود هنا المرور على الصراط ، يقول شارح الطحاوية : « واختلف المفسرون في المراد بالورود في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[8] ما هو ؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط قال تعالى ؛ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[9] . وفي « الصحيح » أنه ﷺ ، قال : « والذي نفسي بيده ، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة »، قالت حفصة : فقلت : يا رسول الله ، أليس الله يقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[10] . فقال : « ألم تسمعيه قال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا

---

(١) سورة مريم : ٧٢ .
(٢) التخويف من النار : ص ٢٠ .
(٣) سور هود : ٩٨ .
(٤) سورة مريم : ٨٦ .
(٥) سورة الأنبياء : ٩٩ .
(٦) سورة مريم : ٧٢ .
(٧) التخويف من النار : ص ٢٠٠ .
(٨) سورة مريم : ٧١ .
(٩) سورة مريم : ٧٢ .
(١٠) سورة مريم : ٧١ .

وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[1] . أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها ، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال : نجاه الله منهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾[2] ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا ﴾[3] . ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾[4] ، ولم يكن العذاب أصابهم ، ولكن أصاب غيرهم ، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة ، لأصابهم ما أصاب أولئك ، وكذلك حال الوارد على النار ، يمرون فوقها على الصراط ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا ، فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور أن الورود هو الورود على الصراط »[5] .

والحق أن الورود على النار ورودان : ورود الكفار أهل النار ، فهذا ورود دخول لاشك في ذلك كما قال تعالى في شأن فرعون ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾[6] ، أي بئس المدخل المدخول .

والورود الثاني : ورود الموحدين ، أي مرورهم على الصراط على النحو المذكور في الأحاديث .

---

(١) سورة مريم : ٧٢ .
(٢) سورة هود : ٥٨ .
(٣) سورة هود : ٦٦ .
(٤) سورة هود : ٩٥ .
(٥) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٤٧١ .
(٦) سورة هود : ٩٨ .

المبحث السادس

حقيقة الصراط ومعتقد أهل السنة فيه

قال السفاريني : « الصراط في اللغة الطريق الواضح . ومنه قول جرير :

أمير المؤمنين على صراط | إذا اعوج الموارد مستقيم

وفي الشرع جسر ممدود على متن جهنم ، يرده الأولون والآخرون ، فهو قنطرة بين الجنة والنار »[1] .

وقد بين شارح الطحاوية معتقده في الصراط المذكور في الأحاديث فقال :

« ونؤمن بالصراط ، وهو جسر على جهنم ، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله ﷺ سئل : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال : « هم في الظلمة دون الجسر »[2] .

وقد بين السفاريني رحمه الله تعالى ـ موقف الفرق من الصراط ، وهل هو صراط مجازي أم حقيقي ؟ ثم قرر مذهب أهل الحق الذي دلت عليه النصوص فيه ، فقال : « اتفقت الكلمة على إثبات الصراط في الجملة ، لكن أهل الحق يثبتونه على ظاهره من كونه جسرا ممدودا على متن جهنم ، أحد من السيف وأدق من الشعر ، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبدالجبار المعتزلي ، وكثير من أتباعه زعما

---

(١) لوامع الأنوار البهية : (٢/١٨٩) .

(٢) شرح الطحاوية : ص ٤٦٩ .

منهم أنه لايمكن عبوره ، وإن أمكن ففيه تعذيب ، ولا عذاب على المؤمنين والصلحاء يوم القيامة ، وإنما المراد طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾[1] ، وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾[2] ، ومنهم من حمله على الأدلة الواضحة والمباحات والأعمال الرديئة التي يسأل عنها ويؤاخذ بها، وكل هذا باطل وخرافات لوجوب حمل النصوص على حقائقها ، وليس العبور على الصراط بأعجب من المشي على الماء أو الطيران في الهواء ، أو الوقوف فيه ، وقد أجاب ﷺ عن سؤال حشر الكافر على وجهه بأن القدرة صالحة لذلك ، وأنكر العلامة القرافي كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف ، وسَبَقه إلى ذلك شيخه العز بن عبدالسلام ، والحق أن الصراط وردت به الأخبار الصحيحة وهو محمول على ظاهره بغير تأويل كما ثبت في الصحيحين والمسانيد والسنن والصحاح مما لا يحصى إلا بكلفة من أنه جسر مضروب على متن جهنم يمر عليه جميع الخلائق ، وهم في جوازه متفاوتون »[3] .

وذكر القرطبي مذهب القائلين بمجازية الصراط ، المؤولين للنصوص المصرحة به ، فقال :

« ذهب بعض من تكلم على أحاديث وصف الصراط بأنه أدق من الشعر ، وأحدُّ من السيف أن ذلك راجع إلى يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصي ، ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى لخفائها وغموضها ، وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي دقيق ، فضرب المثل بدقة الشعر فهذا من هذا الباب ، ومعنى قوله : أحد من السيف أن الأمر الدقيق الذي يصعد من عند الله تعالى إلى

---

(١) سورة محمد : ٥ .

(٢) سورة الصافات : ٢٣ .

(٣) لوامع الأنوار البهية : ٢/١٩٢ .

الملائكة في إجازة الناس على الصراط يكون في نفاذ حد السيف ومضيه إسراعا منهم إلى طاعته وامتثاله ، ولا يكون له مرد كما أن السيف إذا نفذ بحده وقوة ضاربه في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد ، وإما أن يقال : إن الصراط نفسه أحد من السيف وأدق من الشعر فذلك مدفوع بما وصف من أن الملائكة يقومون بجنبيه ، وأن فيه كلاليب وحسكا ، أي أن من يمر عليه يقع على بطنه ، ومنهم من يزل ، ثم يقوم ، وفيه أن من الذين يمرون على مَنْ يعطي النور بقدر موضع قدميه ، وفي ذلك إشارة إلى أن للمارين عليه مواطيء الأقدام ، ومعلوم أن دقة الشعر لا يحتمل هذا كله[1] .

ثم رد عليهم مقالتهم ، فقال : « ما ذكره هذا القائل مردود بما ذكرنا من الأخبار وأن الإيمان يجب بذلك ، وأن القادر على إمساك الطير في الهواء قادر على أن يمسك عليه المؤمن ، فيجريه أو يمشيه ، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند الاستحالة ولا استحالة في ذلك للآثار المروية في ذلك ، وبيانها بنقل الأئمة العدول ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور »[2] .

---

(١) التذكرة للقرطبي : ٣٣٢ .

(٢) التذكرة للقرطبي : ٣٣٣ .

المَبحَث السَّابِع

عظة المرور على الصراط

يقول القرطبي : « تفكر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط ، مع ضعف حالك واضطراب قلبك ، وتزلزل قدمك ، وثقل ظهرك بالأوزار ، المانعة لك من المشي على بساط الأرض ، فضلا عن حدة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك ، فأحسست بحدته ، واضطررت إلى أن ترفع قدمك الثاني ، والخلائق بين يديك يزلون ، ويعثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب ، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم فيا له من منظر ما أفظعه ، ومرتقى ما أصعبه ، ومجاز ما أضيقه »[1] .

وقال أيضاً :[2] « فتوهم نفسك ـ يا أخي ـ إذا صرت على الصراط ، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة ، قد لظى سعيرها ، وعلا لهيبها ، وأنت تمشي أحيانا ، وتزحف أخرى ، قال :

أبت نفسي تتوب فما احتيالي	إذا برز العباد لذي الجلالي
وقاموا من قبورهم سكارى	بأوزار كأمثال الجبال
وقد نصب الصراط لكي يجوزوا	فمنهم من يكب على الشمال

(١) التذكرة للقرطبي : ٣٣٢ .
(٢) التذكرة للقرطبي : ٣٣٠ .

ومنهم من يسير لدار عدن تلقاه العرائس بالغوالي
يقول له المهيمن يا وليي غفرت لك الذنوب فلا تبالي

وقال آخر :

إذا مد الصراط على جحيم تصول على العصاة وتستطيل
فقوم في الجحيم لهم ثبور وقوم في الجنان لهم مقيل
وبان الحق وانكشف المغطى وطال الويل واتصل العويل



المراجع مرتبة على حروف المعجم

١ ـ التخويف من النار ، للحافظ أبي الفرج بن الجوزي . طبعة المكتبة العلمية . بيروت .

٢ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي . طبعة المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة .

٣ ـ تفسير الألوسي . طبعة إدارة الطباعة المنيرية .

٤ ـ تفسير ابن كثير . طبعة دار الأندلس . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٥ ـ ١٩٦٦ .

٥ ـ تفسير القرطبي . طبعة دار الكتاب العربي . القاهرة .

٦ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ـ لابن الأثير تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط . نشر مكتبة الحلواني الطبعة الأولى ، ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢ .

٧ ـ الروح لابن القيم . نشر المكتبة العلمية . بيروت .

٨ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني . نشر المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى .

٩ ـ شرح العقيدة الطحاوية . لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي . نشر المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الرابعة . ١٣٩١ .

١٠ ـ صحيح البخاري . اعتمدنا على متن فتح الباري : طبعة السلفية . القاهرة . الطبعة الأولى .

١١ ـ صحيح الجامع الصغير للسيوطي . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نشر المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٨ ـ ١٩٦٩ .

١٢ ـ صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي . طبعة دار إحياء الكتب العربية . بيروت . الطبعة الثانية . ١٩٧٢ .

١٣ ـ العهد القديم والعهد الجديد .

١٤ ـ فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني . طبعة المكتبة السلفية . القاهرة . الطبعة الأولى .

١٥ ـ في ظلال القرآن ، لسيد قطب . طبعة دار الشروق .

١٦ ـ لسان العرب ، لابن منظور . ترتيب يوسف خياط ، ونديم مرعشلي ، طبعة دار لسان العرب .

١٧ ـ لوامع الأنوار البهية ، للسفاريني . طبعة دولة قطر . الطبعة الأولى .

١٨ ــ مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع ابن قاسم . طبعة دولة المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى .
١٩ ــ مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي . طبعة المكتب الإسلامي . دمشق . الطبعة الأولى . ١٣٨١ ـ ١٩٦١ .
٢٠ ــ معارج القبول . للشيخ حافظ حكمي طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية . الرياض .
٢١ ــ مقاصد المكلفين ، لمؤلف هذا الكتاب . طبعة مكتبة الفلاح . الكويت .
٢٢ ــ نهاية البداية والنهاية لابن كثير . نشر مكتبة النهضة الحديثة . الرياض . الطبعة الأولى . ١٩٦٨ .

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ـ العقيدة في الله	الطبعة الخامسة
٢ ـ عالم الملائكة الأبرار	الطبعة الرابعة
٣ ـ عالم الجن والشياطين	الطبعة الرابعة
٤ ـ معالم الشخصية الإسلامية	الطبعة الرابعة
٥ ـ الرسل والرسالات	الطبعة الرابعة
٦ ـ المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم	الطبعة الثالثة
٧ ـ الصوم في ضوء الكتاب والسنة	الطبعة الثالثة
٨ ـ اصل الاعتقاد	الطبعةالثالثة
٩ ـ مواقف ذات عبر	الطبعة الثانية
١٠ ـ مقاصد المكلفين «النيات في العبادات»	الطبعة الأولى
١١ ـ القياس بين مؤيديه ومعارضيه	الطبعة الثانية
١٢ ـ ثلاث شعائر	الطبعة الثالثة
١٣ ـ جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة	الطبعة الثانية
١٤ ـ خصائص الشريعة الإسلامية	الطبعة الثانية
١٥ ـ تاريخ الفقه الإسلامي	الطبعة الأولى
١٦ ـ الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية	الطبعة الثانية
١٧ ـ نحو ثقافة إسلامية أصيلة	الطبعة الأولى
١٨ ـ سلسلة محاضرات إسلامية هادفة	الطبعة الأولى
١٩ ـ القيامة الصغرى وأشراط القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢٠ ـ القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢١ ـ الجنة والنار	الطبعة الأولى

يُطلَبُ هذا الكتابُ في
المملكة العربية السعودية
من

دار الهجرة للنشر والتوزيع

ص.ب ٢٠٥٩٧ الثقبة: ٣١٩٥٢ الخبر
تلفون الخبر: ٨٩٨٣٠٠٤ تلفون الرياض: ٤٧٩٢٠٥٥



هاتف ٦٩٣٩٤٠ ـ فاكس ٦٩٣٩٤١
ص.ب ٢١١٥١١ عمّان ١١١٢١ ـ الاردن

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

٥

اليوم الآخر

٣

الجنة والنار

الدكتور عمر سليمان الأشقر





دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ٥



تأليف
الدكتور عمر سليمان الأشقر



٢٥٤ و ٢٤١
عمر

عمر سليمان الأشقر

اليوم الآخر . الجنة والنار . عمر سليمان الأشقر

ط ٤ . عمان : (د . ن) ١٩٩١

(٢٧٨) ص

ر . أ ١٩٩٠/١٠/٧٢٦

١ ـ الإسلام . عقيدة .   أ ـ العنوان

تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية

الطَبعَة السَابعَة

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م



دار النفائس

للنشـــر والتوزيـــع

الاردن ـ عمان ـ العبدلي ـ مقابل جوهرة القدس

هاتف : ٤٠ ٣٩ ٦٩ ـ فاكس : ٤١ ٣٩ ٦٩ ـ ص.ب : ٢١١٥١١

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الجنة والنار ، وخلق لكل واحدة منها أهلا وأصحابا ، وجعل الجنة دار أوليائه ، والنار دار أعدائه . والصلاة والسلام على خاتم رسله ، وأشرف خلقه الذي جاء إلى الجنة داعيا ، وفي نعيمها مرغبا ، ومن النار وعذابها مخوفا ومحذرا ومرهبا .

وأصلي وأسلم على آل الرسول وصحبه وتابعيهم بإحسان الذين أعدوا للأمر عدته ، وأخذوا له أهبته ، فأسهروا ليلهم يصلون ، ويستغفرون ، ويناجون الله ، ويرتلون كتابه ، وأظمؤوا نهارهم تقربا إلى الله بالصيام لأنهم علموا أن الأمر جد ، ولا نجاة من النار ، ولا فوز بالجنة إلا بالتشمير عن ساعد الجدّ ، وبعد :

فهذا هو القسم الثالث من أقسام اليوم الآخر ، وهو حديث عن الجنة والنار .

وقد جعلنا هذا القسم في بابين .

الباب الأول حديث عن النار ، وقد تم هذا الباب في عشرة فصول ، يسبقها تمهيد .

أما التمهيد فهو تعريف بالنار .

والفصل الأول عقدناه للتدليل على عقيدة أهل السنة والجماعة في أن الجنة والنار مخلوقتان ورددت فيه على من زعم خلاف ذلك من أهل الفرق .

والفصل الثاني حديث عن خزنة النار ، وهم الملائكة القائمون على النار ، وبيان عددهم وعظم خلقهم .

والفصل الثالث وصف للنار ، وفيه حديث عن مكانها ، وسعتها ، ودركاتها ، وأبوابها ، ووقودها ، وشدة حرها ، وكلامها ، وصفة خلقها ، وتأثيرها على الدنيا وأهلها .

والفصل الرابع سقناه للتدليل على أنها خالدة لا تبيد ، ورددنا فيه على الذين زعموا أنها تفنى وتبيد .

وفي الفصل الرابع حديث عن أهل النار وهم فريقان : فريق خالد فيها ، وهم الكفرة المشركون ، وفريق غير خالد وهم عصاة الموحدين . وقد تحدثنا عن كلا الفريقين ، وذكرنا شيئا من جرائمهم التي استحقوا بها النار .

وفي الفصل السادس حديث عن كثرة أهل النار ، وسقنا النصوص الدالة على كثرة الهالكين ، وقلة الناجين ، والسر في ذلك . وفي هذا الفصل مبحث للحديث عن النساء وأنهن أكثر أهل النار ، وبيان السبب في كونهن كذلك .

وفي الفصل السابع بيان لعظم أهل النار وضخامة خلقهم .

والفصل الثامن مخصص للحديث عن طعام أهل النار وشرابهم .

والفصل التاسع فصل طويل مسوق للحدث عن عذاب أهل النار ، وقد سقت فيه صورا من عذابهم ، كما بينت أن أهل النار متفاوتون في عذابهم في النار ، ثم ذكرت شيئا من أنواع العذاب الذي أعده الله لهم ، ومنه الصهر ، واللفح ، والسحب ، وتسويد الوجوه ، وانضاج الجلود ، واندلاق الأمعاء ، واطلاع النار على أفئدتهم ، كما سقت النصوص المبينة لقيودهم وأغلالهم وسلاسلهم ومطارقهم التي يعذبون بها .

والفصل العاشر والأخير عقدته لبيان السبل التي يتقي بها العباد نار الله .

والباب الثاني عقدته للحديث عن الجنة ، وفيه سبعة فصول ، يسبقها تمهيد . أما التمهيد فللتعريف بالجنة .

والفصل الأول عقدته لدخول الجنة ، بينت فيه مشهد دخول المؤمنين الجنة ، وشفاعة الرسول ﷺ للمؤمنين في دخولها ، وكيف يدخلها المؤمنون بعد تهذيبهم وتنقيتهم ، وتحدثت فيه عن أول المؤمنين دخولا الجنة ، وعن السبعين ألفا من هذه الأمة الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وصفتهم وعن سبق فقراء المهاجرين أغنياءهم إلى الجنة ، وعقدت مبحثا طويلا لبيان أن عصاة الموحدين الذين دخلوا النار يخرجون منها برحمة أرحم الراحمين وشفاعة الشفاعين ، وبينت مذهب أهل السنة من هذه الشفاعة ، ورددت على الذين أنكروها وردوها ، وختمت هذا الفصل بمبحثين : الأول عن آخر من يدخل الجنة ، والثاني عمن دخل الجنة قبل يوم القيامة .

والفصل الثاني سقته للتدليل على أنَّ الجنة خالدة وأهلها فيها خالدون ، وللرد على من زعم خلاف ذلك .

والفصل الثالث في صفة الجنة ، وقد تحدثنا فيه عن عظم نعيمها ، وأبوابها ، ودرجاتها ، وتربتها ، وأنهارها ، وعيونها ، وقصورها ، ونورها ، وريحها ، وأشجارها ، وثمارها ، وريحانها ، ودوابها .

والفصل الرابع حديث عن أهل الجنة والأعمال التي استحقوا بها الجنة ، وكيف يرث أهل الجنة نصيب أهل النار في الجنة ، وبيان أن الضعفاء في الجنة أكثر من الأغنياء ، وأن الرجال أكثر فيها من النساء ، وحققت القول في مسألة دخول أطفال المؤمنين وأطفال المشركين الجنة ، ومن المباحث الذي تضمنها هذا الفصل ذكر سادة أهل الجنة كهولا وشبانا ونساء ، وذكر العشرة المبشرين بالجنة ، وذكر

أسماء بعض من نص على أنه في الجنة ، وختمت هذا الفصل بذكر أن الجنة ليست ثمنا للعمل ، بل العمل سبب لدخول الجنة ، ونيل الجنة إنما هو برحمة الله وفضله .

والفصل الخامس حديث عن صفة أهل الجنة ونعيمهم فيها .

وأطول فصول هذا الباب الفصل السادس الذي عقدته للحديث عن نعيم أهل الجنة ، وبينت فيه فضل نعيم الجنة على متاع الدنيا . وتحدثت فيه عن تمتع أهل الجنة بأنواع الطعام والشراب ، كما تحدث عن فرشهم وخدمهم وسوقهم وآنية طعامهم وشرابهم ، وعن اللباس الذي يلبسونه ، والأماني التي يتمنونها ، فتتحقق على صورة عجيبة غريبة ، ليس لها في الدنيا نظير .

وعقدت مبحثا في هذا الفصل للحديث عن أزواج المؤمنين في الجنة ، سواء كن من الحور العين أم أزواجهم من نساء الدنيا .

وبينت في هذا الفصل أن أعظم ما يعطاه المؤمنون في الجنة رضوان الله عز وجل ، ولذة النظر إلى وجهه الكريم ، ومن النعيم في دار النعيم تسبيح المولى وتقديسه وتكبيره .

والفصل السابع والأخير فيه حديث عما جرى من محاجة بين الجنة والنار وحكم الله بينهما .

أسأل الله تعالى أن يوفقنا للعمل بطاعته ، وأن ينجينا من النار بمنه وكرمه ، وأن يدخلنا الجنة برحمته وفضله ، إنه سميع مجيب قريب ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد .

عمر سليمان الأشقر

الكويت

١٩ من رمضان ١٤٠٦

١٩٨٦/٥/٢٧

البَابُ الأولُ

النَار



تمهيد: تعريف وبيان

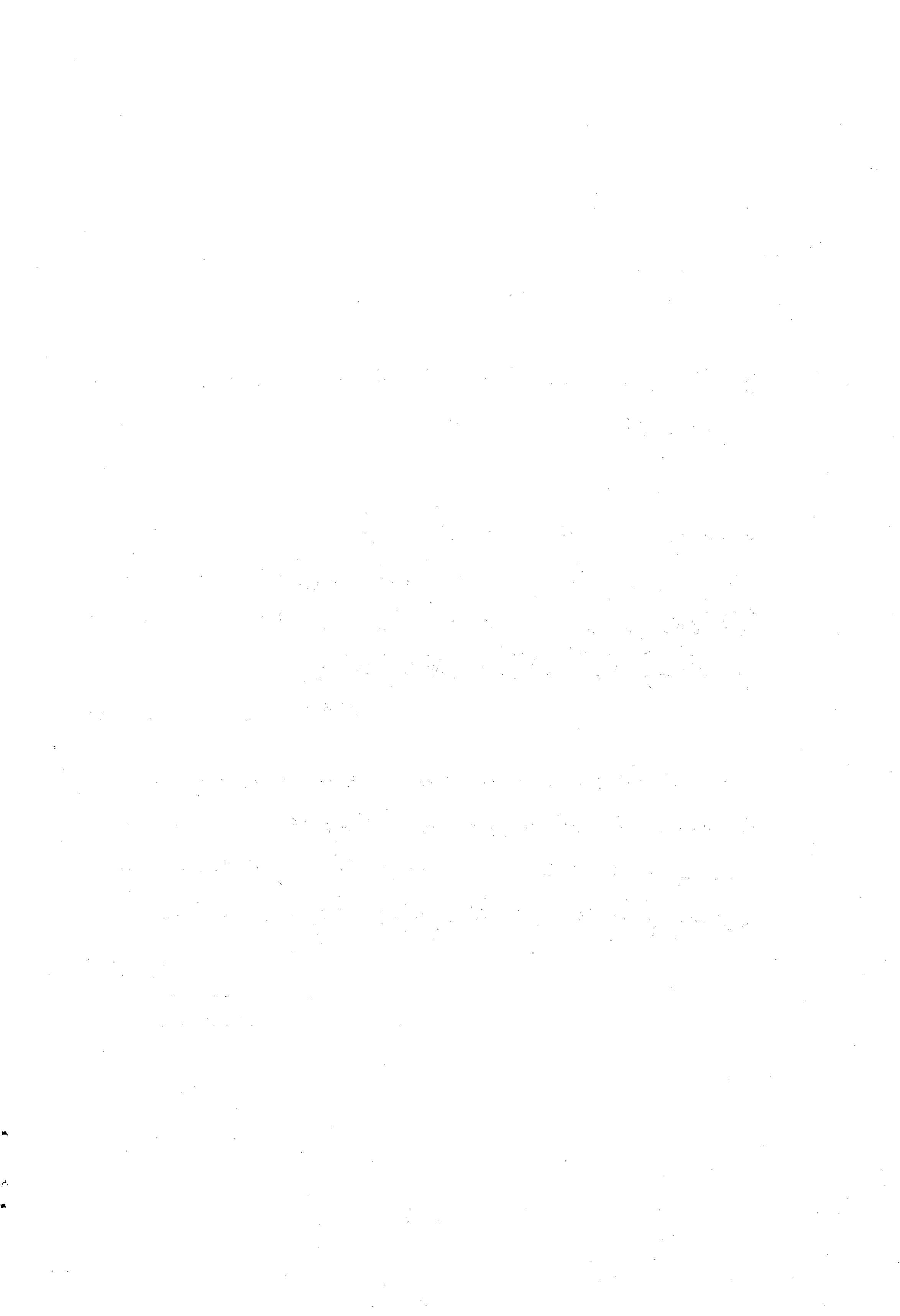
النار هي الدار التي أعدها الله للكافرين به، المتمردين على شرعه، المكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذب فيه أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين.

وهي الخزي الأكبر، والخسران العظيم، الذي لا خزي فوقه، ولا خسران أعظم منه، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1] ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[3].

وكيف لا تكون النار كما وصفنا وفيها من العذاب والآلام والأحزان ما تعجز عن تسطيره أقلامنا، وعن وصفه ألسنتنا، وهي مع ذلك خالدة وأهلها فيها خالدون، ولذلك فإن الحق أطال في ذم مقام أهل النار في النار ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[4]، ﴿هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[5].

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٢.
(٢) سورة التوبة: ٦٣.
(٣) سورة الزمر: ١٥.
(٤) سورة الفرقان: ٦٦.
(٥) سورة ص: ٥٥ ـ ٥٦.



الفصل الأول

الجنة والنار مخلوقتان

قال الطحاوي في العقيدة السلفية التي تنسب إليه المعروفة بالعقيدة الطحاوية : « والجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان أبدا ولا تبيدان ، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه ، وكل يعمل لما قد فرغ له ، وصائر إلى ما خلق له ، والخير والشر مقدَّران على العباد » .

وقال محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية في شرحه لهذا النصّ :

« أما قوله : « إن الجنة والنار مخلوقتان » ، فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يزل أهل السنة على ذلك ، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية ، فأنكرت ذلك ، وقالت : بل ينشئهما الله يوم القيامة . وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله ، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ، ولا ينبغي له أن يفعل كذا . وقاسوه على خلقه في أفعالهم ، فهم مشبهة في الأفعال ، ودخل التجهم فيهم ، فصاروا مع ذلك معطلة . وقالوا : خلق الجنة قبل الجزاء عبث ، لأنها تصير معطلةً مددا متطاولة . فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى ، وحرفوا النصوص عن مواضعها ، وضللوا وبدّعوا من خالف شريعتهم » .

ثم ساق الأدلة من الكتاب والسنة التي تدل على أنهما مخلوقتان ، « فمن نصوص الكتاب: قوله تعال عـن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾[2]، وعن النار : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[3]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾[4]. وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾[5]. وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى . كما في « الصحيحين » ، من حديث أنس رضي الله عنه ، في قصة الإسراء ، وفي آخره : « ثم انطلق بي جبرائيل ، حتى أتى سدرة المنتهى ، فغشيها ألوانٌ لا أدري ماهي ، قال : ثم دخلت الجنة ، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » .

وفي « الصحيحين » من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » . وتقدم حديث البراء بن عازب[6]، وفيه : « ينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روَحها وطيبها » . وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء .

وفي « صحيح مسلم » ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ ، فذكرت الحديث ، وفيه : وقال رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٣ .
(٢) سورة الحديد : ٢١ .
(٣) سورة آل عمران : ١٣١ .
(٤) سورة النبأ : ٢١ ـ ٢٢ .
(٥) سورةالنجم : ١٣ ـ ١٥ .
(٦) تقدم في كتاب : « القيامة الكبرى »

« رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به ، حتى لقد رأيتني آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني تقدّمت . ولقد رأيت النار يَحْطِم بعضها بعضا حين رأيتموني تأخرت » .

وفي « الصحيحين » ، واللفظ للبخاري ، عن عبدالله بن عباس ، قال : انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ ، فذكر الحديث ، وفيه : فقالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك ، ثم رأيناك تكعكعت ؟ فقال : « إني رأيت الجنة ، وتناولت عنقوداً ، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار ، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع ، ورأيت أكثر أهلها النساء » ، قالوا : بم ، يا رسول الله ؟ قال : « بكفرهن » ، قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : « يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهرَ كله ، ثم رأت منك شيئا ، قالت : ما رأيت خيراً قط » .

وفي « صحيح مسلم » من حديث أنس : « وأيم الذي نفسي بيده ، لو رأيتم ما رأيت ، لضحكتم قليلا وبكيتم كثيراً » . قالوا : وما رأيت يا رسول الله ؟ قال . « رأيت الجنة والنار » .

وفي « الموطأ والسنن » ، من حديث كعب بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما نسمة المؤمن طيرٌ تعلق في شجر الجنة ، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة »[1] . وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة .

وفي « صحيح مسلم والسنن والمسند » ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لما خلق الله الجنة والنار ، أرسل جبرائيل إلى

---

(١) قال محقق الطحاوية : صحيح .

الجنة ، فقال : اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، فرجع فقال : وعزتك ، لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بالجنة ، فحفَّت بالمكاره ، فقال : ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها . قال : فنظر إليها ، ثم رجع فقال : وعزتك ، لقد خشيت أن لا يدخلها أحد .

قال : ثم أرسله إلى النار ، قال : اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فنظر إليها ، فإذا هي يركب بعضها بعضاً ، ثم رجع فقال : وعزتك ، لايدخلها أحد سمع بها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، ثم قال : اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر إليها ، فرجع فقال : وعزتك ، لقد خشيت أن لاينجو منها أحد إلا دخلها » . ونظائر ذلك في السنة كثيرة[١] .

وقد عقد البخاري في صحيحه بابا قال فيه : « باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة[٢] وساق في هذا الباب أحاديث كثيرة تدل على أن الجنة مخلوقة ، منها الحديث الذي ينص على أن الله يُري الميت عندما يوضع في قبره مقعده من الجنة والنار ، وحديث إطلاع الرسول ﷺ على الجنة والنار ، وحديث رؤية الرسول ﷺ لقصر عمر بن الخطاب في الجنة ، وغير ذلك من الأحاديث ، وقد كان ابن حجر مصيبا عندما قال : « وأصرح مما ذكره البخاري في ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود بإسناد قوي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لماخلق الله الجنة ، قال لجبريل : « اذهب فانظر إليها »[٣] .

---

(١) شرح الطحاوية : ٤٧٦ ـ ٤٧٨ .
(٢) في كتاب بدء الخلق ، انظر فتح الباري : (٦/٣١٧) .
(٣) فتح الباري : (٦/٣٢٠) .

شبهة من قال النار لم تخلق بعد

وقد ناقش شارح الطحاوية شبهة الذين قالوا : لم تخلق النار بعد ورد عليها فقال :

« وأما شبهة من قال أنها لم تخلق بعد ، وهي : أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطراراً أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت ، لقوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(١) و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾(٢) ، وقد روى الترمذي في جامعه ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال : يا محمد ، أقرىء أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبةُ الماء ، وأنها قيعان ، وأن غِرَاسها سبحان الله ، والحمدلله ، ولا إله إلا الله والله أكبر »(٣) . قال : هذا حديث حسن غريب . وفيه أيضا من حديث أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « من قال سبحان الله وبحمده ، غرست له نخلة في الجنة »(٤) ، قال : هذا حديث حسن صحيح .

قالوا : فلو كانت مخلوقةً مفروغاً منها لم تكن قيعاناً ، ولم يكن لهذا الغراس معنى . قالوا : وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾(٥) .

فالجواب : إنكم إن أردتم بقولكم إنها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور

---

(١) سورة القصص : ٨٨ .

(٢) سورة آل عمران : ١٨٥ .

(٣) قال الشيخ ناصر في تعليقه على شرح الطحاوية ص : ١٠٦ وهو مخرج في الصحيحين .

(٤) وقال أيضا في هذا الحديث : صحيح ، وهو مخرج في المصدر السابق : ٦٤ .

(٥) سورة التحريم : ١١ .

وقيام الناس من القبور ، فهذا باطل ، يرده ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر ، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها ، وأنها لا يزال الله يُحدث فيها شيئا بعد شيء ، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أموراً أخر ـ فهذا حق لا يمكن رده ، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر .

وأما احتجاجكم بقوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1] ، فأتيتم من سوء فهمكم معنى الآية ، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن ـ نظير احتجاج إخوانكم على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما !! فلم توفقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية ، وإنما وفق لذلك أئمة الإسلام . فمن كلامهم : أن المراد « كل شيء » مما كتب الله عليه الفناء والهلاك « هالك » ، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ، وكذلك العرش ، فإنه سقف الجنة .

وقيل : المراد إلا ملكه . وقيل : إلا ما أريد به وجهه . وقيل : إن الله تعالى أنزل : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[2] ، فقالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، وطمعوا في البقاء ، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون ، فقال : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[3] لأنه حي لا يموت ، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت . وإنما قالوا ذلك توفيقاً بينها وبين النصوص المحكمة ، الدالة على بقاء الجنة ، وعلى بقاء النار أيضا ، على ما يذكر عن قريب ، إن شاء الله تعالى »[4] .

---

(١) سورة القصص : ٨٨ .

(٢) سورة الرحمن : ٢٦ .

(٣) سورة القصص : ٨٨ .

(٤) شرح الطحاوية : ص ٤٧٩ ، وراجع في هذا الموضوع « يقظة أولي الاعتبار لصديق حسن خان ص : ٣٧ ، وعقيدة السفاريني : (٢/ ٢٣٠) .

الفصل الثاني

خزنة النار

يقوم على النار ملائكة ، خلقهم عظيم ، وبأسهم شديد ، لا يعصون الله الذي خلقهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1] .

وعدتهم تسعة عشر ملكا ، كما قال تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[2] ، وقد فتن الكفار بهذا العدد ، فقد ظنوا أنه يمكن التغلب على هذا العدد القليل ، وغاب عنهم أن الواحد من هؤلاء يملك من القوة ما يواجه به البشر جميعا ، ولذلك عقب الحق على ما سبق بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[3] .

قال ابن رجب : « والمشهور بين السلف والخلف أن الفتنة إنما جاءت من

---

(١) سورة التحريم : ٦ .

(٢) سورة المدثر : ٢٦ - ٣٠ .

(٣) سورة المدثر : ٣١ .

حيث ذكر عدد الملائكة الذين اغتر الكفار بقلتهم، وظنوا أنهم يمكنهم مدافعتهم وممانعتهم ، ولم يعلموا أن كل واحد من الملائكة لا يمكن البشر كلهم مقاومته »[1] . وهؤلاء الملائكة هم الذين سماهم الله « بخزنة جهنم » في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾[2] .

(١) التخويف من النار : ص ١٧٤ .
(٢) سورة غافر : ٤٩ .

الفصل الثالث

صفة النار

المبحث الأول

مكان النار

اختلف العلماء في موقع النار الآن ؛ فقال بعضهم : هي في الأرض السفلى ،وقال آخرون :هي في السماء ،وقال آخرون بالتوقف في ذلك . وهو الصواب ، لعدم ورود نص صريح صحيح يحدد موقعها ، ومن الذين توقفوا في هذا ،الحافظ السيوطي قال : « وتَقِفُ عن النار ، أي تَقُولُ فيها بالوقف ، أي محلها ، حيث لا يعلمه إلا الله ، فلم يثبت عندي حديث أعتمده في ذلك »[1] .

وقال الشيخ ولي الله الدهلوي في عقيدته : « ولم يصرح نص في تعيين مكانهما (أي الجنة والنار) ، بل حيث شاء الله تعالى ، إذ لا احاطة لنا بخلق الله وعوالمه »[2] ، وقال صديق حسن خان عقب إيراده لقول الدهلوي هذا : « أقول : وهذا القول أرجح الأقوال وأحوطها إن شاء الله تعالى »[3] .

---

(١) يقظة أولي الاعتبار ، لصديق حسن خان : ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٣) المصدر السابق .

المبحث الثاني
سعة النار وبعد قعرها

النار شاسعة واسعة ، بعيد قعرها ، مترامية أطرافها ، يدلنا على هذا أمور :

الأول : الذين يدخلون النار أعداد لا تحصى ، ومع كثرة عددهم فإن خلق الواحد فيهم يضخم حتى يكون ضرسه في النار مثل جبل أحد ، وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام ، ومع ذلك فإنها تستوعب هذه الأعداد الهائلة التي وجدت على امتداد الحياة الدنيا من الكفرة المجرمين على عظم خلقهم ، ويبقى فيها متسع لغيرهم وقد أخبرنا الله بهذه الحقيقة في سورة ق فقال : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[1] . إن النار تشبه الطاحونة التي ينحدر إليها ألوف وألوف من أطنان الحبوب فتدور بذلك كله لا تكل ولا تمل ، وينتهي الحب والطاحونة تدور انتظارا للمزيد . وقد جاء في حديث احتجاج الجنة والنار أن الله يقول للنار : « إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ، ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما النار ، فلا تمتلىء حتى يضع رجله - وفي رواية حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله - فتقول : قط قط ، فهنالك تمتلىء ، ويُزْوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً » رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة[2] .

وعن أنس عن النبي ﷺ قال : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من

---

(١) سورة ق : ٣٠ .
(٢) جامع الأصول : (١٠/ ٥٤٤) .

مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض ، فتقول : قط ، قط ، بعزتك وكرمك » متفق عليه[1] .

الثاني : يدل على بعد قعرها أيضا أن الحجر إذا ألقي من أعلاها احتاج إلى آماد طويلة حتى يبلغ قعرها ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، إذ سمع وَجْبَة[2] ، فقال النبي ﷺ « تدرون ماهذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا ، فهو يهوي في النار إلى الآن »[3] .

وروى الحاكم عن أبي هريرة ، والطبراني عن معاذ وأبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « لو أن حجرا مثل سبع خلفات ، ألقي من شفير جهنم هوى فيها سبعين خريفا لا يبلغ قعرها »[4] .

الثالث : كثرة العدد الذي يأتي بالنار من الملائكة في يوم القيامة ، فقد وصف الرسول ﷺ مجيء النار في يوم القيامة ، الذي يقول الله فيه : ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَىِٕذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾[5] ، فقال : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » . رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود[6] . ولك أن تتخيل عظم هذا المخلوق الرهيب الذي احتاج إلى هذا العدد الهائل من الملائكة الأشدّاء الأقوياء الذين لا يعلم مدى قوتهم إلا الله تبارك وتعالى .

---

(1) مشكاة المصابيح : (٣/١٠٩) .
(2) أي سقطة .
(3) رواه مسلم ، كتاب الجنة ، باب في شدة حر النار ، (٤/٢١٨٤) ، ورقمه (٢٨٤٤) .
(4) صحيح الجامع الصغير : (٥/٥٨) ، ورقمه ٥١٢٤ ، وإسناده صحيح .
(5) سورة الفجر :٢٣
(6) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها ، باب في شدة حرّ جهنم (٤/٢١٨٤) ، ورقم الحديث : ٢٨٤٢

الرابع : ومما يدل على هول النار وكبرها أن مخلوقين عظيمين كالشمس والقمر يكونان ثورين مكورين في النار ، ففي « مشكل الآثار » للطحاوي عن سلمة بن عبدالرحمن قال : حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة». ورواه البيهقي في كتاب « البعث والنشور » وكذا البزار والإسماعيلي والخطابي ، بإسناد صحيح ، على شرط البخاري ، وقد أخرجه في صحيحه مختصرا بلفظ : « الشمس والقمر مكوران في النار »[1] .

---

(١) أورد الشيخ ناصر الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٣٢) . ورقم الحديث : ١٢٤ ، وقد نقلنا تحقيقه للحديث مختصرا .

المَبحث الثالث
دركات النار

النار متفاوتة في شدة حرّها ، وما أعده الله من العذاب لأهلها ، فليست درجة واحدة وقد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1] . والعرب تطلق : « الدرك » على كل ما تسافل ، كما تطلق : « الدرج » على كل ما تعالى ، فيقال : للجنة درجات وللنار دركات ، وكلما ذهبت النار سفلا كلما علا حرّها واشتد لهيبها[2] ، والمنافقون لهم النصيب الأوفر من العذاب ،ولذلك كانوا في الدرك الأسفل من النار .

وقد تسمى النار درجات أيضا ، ففي سورة الأنعام ذكر الله أهل الجنة والنار ، ثمَّ قال : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾[3] ، وقال : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ . . ﴾[4] ، قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : « درجات الجنة تذهب علوا ، ودرجات النار تذهب سفلا »[5] . وقد ورد عن بعض السلف أن عصاة الموحدين ممن يدخلون النار يكونون في الدرك الأعلى ،ويكـون فـي الدرك الثاني اليهود ، وفي الدرك الثالث النصارى ، وفي الدرك الرابع الصابئون ، وفي الخامس المجوس ،

---

(١) سورة النساء : ١٤٥ .

(٢) راجع تذكرة القرطبي : ص ٣٨٢ ، والتخويف من النار ، لابن رجب : ص ٥٠ .

(٣) سورة الأنعام : ١٣٢ .

(٤) سورة آل عمران : ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٥) التخويف من النار ، لابن رجب : ص : ٥ .

وفي السادس مشركو العرب ، وفي السابع المنافقون[1] . ووقع في بعض الكتب تسمية هذه الدركات : فالأول جهنم ، والثاني لظى ، والثالث الحطمة ، والرابع السعير ، والخامس سقر ، والسادس الجحيم ، والسابع الهاوية .

ولم يصح تقسيم الناس في النار وفق هذا التقسيم ، كما لم يصح تسمية دركات النار على النحو الذي ذكروه ، والصحيح أن كل واحد من هذه الأسماء التي ذكروها : جهنم ، لظى ، الحطمة .. الخ اسم علم للنار كلها ، وليس لجزء من النار دون جزء ، وصح أن الناس متفاوتون على قدر كفرهم وذنوبهم .

---

(١) إذا كان هذا التقسيم اجتهادي بحسب فقهنا للنصوص الدالة على شدة جرم الفرق المختلفة فإن هذا الترتيب الذي ذكروه يحتاج إلى إعادة نظر ، فالمجوس عباد النيران ليسوا بأقل جرما من مشركي العرب ، والأولى أن نسكت فيما سكتت عنه النصوص .

المبحث الرابع
أبواب النار

أخبر الحق أن للنار سبعة أبواب كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[1] . قال ابن كثير في تفسير الآية : « أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه ، أجارنا الله منها ، وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك بحسب عمله » ، ونُقِلَ عن علي بن أبي طالب قوله وهو يخطب : « إن أبواب جهنم هكذا ـ قال أبو هارون ـ أطباقا بعضها فوق بعض » ونقل عنه أيضا قوله : « أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض ، فيمتلىء الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، حتى تمتلىء كلها »[2] .

وعندما يَرِدُ الكفار النار تفتح أبوابها ، ثم يدخلونها خالدين ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3] ، وبعد هذا الإقرار يقال لهم : ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[4] ، وهذه الأبواب تغلق على المجرمين ، فلا مطمع لهم في الخروج منها بعد ذلك ، كما قال تعالى :

---

(١) سورة الحجر : ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) تفسير ابن كثير : (١٦٢/٤) .
(٣) سورة الزمر : ٧١ .
(٤) سورة الزمر : ٧٢ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾[1] .

قال ابن عباس : (مؤصدة) مغلقة الأبواب ، وقال مجاهد : أصد الباب بلغة قريش ، أي أغلقه[2] .

وقال الحق في سورة الهمزة : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾[3]

فأخبر الحق أن أبوابها مغلقة عليهم ، وقال ابن عباس :(في عمد ممددة) يعني الأبواب هي الممدة ، وقال قتادة في قراءة ابن مسعود : إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة[4] ، وقال عطية: هي عمد من حديد ، وقال مقاتل : أطبقت الأبواب عليهم ، ثم شدّت بأوتاد من حديد ، حتى يرجع عليهم غمها وحرها ، وعلى هذا فقوله : (ممددة) صفة للعمد ، يعني أن العمد التي أوثقت بها الأبواب ممددة مطولة ، والممدود الطويل أرسخ وأثبت من القصير[5] .

وقد تفتح أبواب النار وتغلق قبل يوم القيامة ، فقد أخبر المصطفى أن أبواب النار تغلق في شهر رمضان ، فعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين ومردة الجن »[6] .

---

(١) سورة البلد : ١٩ ـ ٢٠ .

(٢) تفسير ابن كثير : (٢٩٨/٧) .

(٣) سورة الهمزة : ١ ـ ٩ .

(٤) تفسير ابن كثير : (٣٦٨/٧) .

(٥) التخويف من النار ، لابن رجب ص : ٦١ .

(٦) التخويف من النار : ص ٦٦ .

وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إذا كان أول ليلة من رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وأغلقت أبواب النار ، فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة ، فلم يغلق منها باب »[1] .

(١) التخويف من النار : ص ٦٦ .

المبحث الخامس
وقود النار

الأحجار والفجرة الكفار وقود النار ، كما قال الحق : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾(١) ، وقال : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾(٢) .

والمراد بالناس الذين توقد النار بهم الكفرة المشركون ، وأمّا نوع الحجارة التي تكون للنار وقودا فالله أعلم بحقيقتها ، وقد ذهب بعض السلف إلى أن هذه الحجارة من كبريت ، قال عبدالله بن مسعود : هي حجارة من كبريت ، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا يعدّها للكافرين ، رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في المستدرك . وقال بهذا القول ابن عباس ومجاهد وابن جريج(٣) .

وإذا كان القول بهذا مأخوذا من الرسول ﷺ فنأخذ به ، ولا نجادل فيه ، وإن كان أمرا اجتهاديا مبنيا على العلم بطبائع الحجارة وخصائصها فهذا قول غير مسَلَّم ، فإن من الحجارة ما يفوق حجارة الكبريت قوة واشتعالا . والأوائل رأوا أن حجارة الكبريت لها خصائص ليست لغيرها من الحجارة فقالوا إنها مادة وقود النار ، يقول ابن رجب : « وأكثر المفسرين على أن المراد بالحجارة حجارة الكبريت

---

(١) سورة التحريم : ٦ .

(٢) سورة البقرة : ٢٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : (١٠٧/١) .

توقد بها النار . ويقال : إن فيها خمسة أنواع من العذاب ليس في غيرها : سرعة الإيقاد ، ونتن الرائحة ، وكثرة الدخان ، وشدة الالتصاق بالأبدان ، وقوة حرّها إذا حميت »[1] . وقد يوجد الله من أنواع الحجارة ما يفوق مافي الكبريت من خصائص ، ونحن نجزم أن مافي الآخرة مغاير لما في الدنيا .

ومما توقد به النار الآلهة التي كانت تعبد من دون الله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2] .

وحصبها : وقودها وحطبها ، وقال الجوهري : « كل ما أوقدت به النار أو هيجتها فقد حصبتها » ، وقال أبو عبيدة : « كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به »[3] .

---

(١) التخويف من النار لابن رجب : ص ١٠٧ .
(٢) سورة الأنبياء : ٩٨ ـ ٩٩ .
(٣) يقظة أولي الاعتبار : ص ٦١ .

المبحث السادس
شدة حرها وعظم دخانها وشرارها

قال الله تعالى : ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[1] ، وقد تضمنت هذه الآية ذكر ما يتبرد به الناس في الدنيا من الكرب والحر وهو ثلاثة : الماء والهواء والظل ،وذكرت الآية أن هذه لا تغني عن أهل النار شيئاً ، فهواء جهنم : السموم ، وهو الريح الحارة الشديدة الحر ، وماؤها الحميم الذي قد اشتدَّ حرّه ، وظلها اليحموم وهو قِطَعُ دخانها[2] .

وكما هوَّل في هذه الآية أمر أصحاب الشمال أهل النار ، هول في آية أخرى أمر النار فقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾[3] .

والظل الذي أشارت إليه الآية ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾[4] ، هو ظل دخان النار، والظل يشعر عادة بالنداوة والبرودة ، كما أن النفس تحبه وتستريح إليه ، أمّا هذا الظل فإنه ليس بارد المدخل ولا بكريم المنظر ، إنه ظل من يحموم .

وقد حدثنا القرآن عن هذا الظل الذي هو دخان جهنم الذي يعلو النار ،

---

(١) سورة الواقعة : ٤١ ـ ٤٤ .
(٢) التخويف من النار : ص ٨٥ .
(٣) سورة القارعة : ٨ ـ ١١ .
(٤) سورة الواقعة : ٤١ .

فقال : ﴿ انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾[1]. فالآية تقرر أن الدخان الذي يتصاعد من هذه النار لضخامته ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، وهو يلقي ظلالاً ولكنها غير ظليلة ، ولا تقي من اللهب المشتعل ، أمّا شرار هذه النار المتطاير منها فإنه يشبه الحصون الضخمة ، كما يشبه هذا الشرار الجمالة الصفر أي الإبل السود .

وقال الحق مبينا قوة هذه النار ، ومدى تأثيرها في المعذبين : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾[2]، إنها تأكل كل شيء ، وتدمر كل شيء ، لا تبقي ولا تذر ، تحرق الجلود ، وتصل إلى العظام وتصهر مافي البطون ، وتطلع على الأفئدة .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن « نارنا جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » ، قيل :يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : « فضلت عليها بتسعة وستين جزءا ، كلهنَّ مثل حرها » . رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري ، وفي لفظ مسلم : « ناركم التي يوقد ابن آدم . . »[3] .

وهذه النار لا يخبو أوارها مع تطاول الزمان ، ومرور الأيام ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾[4] ، ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾[5] ، ولذلك لا يجد الكفار طعم الراحة ، ولا يخفف عنهم العذاب مهما طال العذاب ، ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[6] . والنار تسعّر كل يوم كما في الحديث عند

---

(١) سورة المرسلات : ٣٠ ـ ٣٣ .

(٢) سورة المدثر : ٢٧ ـ ٣٠ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار ، فتح الباري : (٦/ ٣٣٠) ، ورواه مسلم في كتاب الجنة ، باب شدة حر النار : (٤/ ٢١٨٤) .

(٤) سورة النبأ : ٣٠ .

(٥) سورة الإسراء : ٩٧ .

(٦) سورة البقرة : ٨٦ .

مسلم عن عمرو بن عبسه عن النبي ﷺ قال : « صل صلاة الصبح ، ثم أقصر عن الصلاة ، حتى تطلع الشمس ، وترتفع فإنها تطلع بين قرني شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار ، ثم صل فإن الصلاة مشهودة حتى يستقل الظل بالرمح ، ثم أقصر عن الصلاة فإنه حينئذ تسجر جهنم ، فإذا أقبل الفيء فَصَلِّ » .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إذا اشتد الحرّ فأبردوا بالصلاة ، فإن شدّة الحر من فيح جهنم » .

وتُسعَّرُ النار في يوم القيامة عندما تستقبل أهلها ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾[1] ومعنى سعَّرت : أوقدت ، وأحميت .

---

(١) سورة التكوير : ١٢ ـ ١٣

المبحث السابع

النار تتكلم وتبصر

الذي يقرأ النصوص من الكتاب والسنة التي تصف النار يجدها مخلوقا يبصر ، ويتكلم ، ويشتكي ، ففي الكتاب العزيز أن النار ترى أهلها وهم قادمون عليها من بعيد ، فعند ذلك تطلق الأصوات المرعبة الدالة على مدى حنقها وغيظها على هؤلاء المجرمين ، قال تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾[1] . وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : « إن الرجل ليجر إلى النار ، فتنزوي وينقبض بعضها إلى بعض ، فيقول الرحمن : مالك ؟ فتقول : إنه يستجير مني ، فيقول : أرسلوا عبدي . وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يا رب ما كان هذا ظني بك ، فيقول الله : ما كان ظنك ؟ فيقول : أن تسعني رحمتك ، فيقول : أرسلوا عبدي . وإن الرجل ليجر إلى النار ، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى البعير ، وتزفر زفرة أخرى لا تبقي أحدا إلا أخافته »[2] .

وقد خرج الإمام أحمد والترمذي من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يخرج يوم القيامة عنق من النار ، لها عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، تقول : إني وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلها آخر ، وبالمصورين » وصححه الترمذي[3] .

---

(١) سورة الفرقان : ١٢ .

(٢) ساق ابن كثير هذا الحديث في « النهاية » (٢/ ٢١) وقال : « وإسناده صحيح » .

(٣) التخويف من النار ، ص ١٧٩ . وانظر جامع الأصول : (١٠/ ٥١٨) ، وقال المحقق : إسناده حسن ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

المبحث الثامن
رؤيا ابن عمر للنار

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن عمر قال : رأيت في المنام أنه جاءني ملكان في يد كل واحد منهما مقمعة من حديد ، ثم لقيني ملك في يده مقمعة من حديد ، قالوا : لن تُرع . نعم الرجل أنت . لو كنت تكثر الصلاة من الليل ، فانطلقوا بي حتى وقفوا بي على شفير جهنم ، فإذا هي مطوية كطي البئر ، لها قرون كقرون البئر ، بين كل قرنين ملك بيده مقمعة حديد ، وإذا فيها رجال معلقون بالسلاسل رؤوسهم أسفلهم ، وعرفت رجالا من قريش ، فانصرفوا بي عن ذات اليمين ، فقصصتها على حفصة ، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ ، فقال : « إن عبدالله رجل صالح »[1] .

---

(١) التخويف من النار ، لابن رجب : ص ٥١ .

المبحث التاسع
هل يرى أحد النار قبل يوم القيامة عياناً

الذي نعلمه أن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه قد رأى النار كما رأى الجنة في حياته ، ففي الصحيحين عن عبدالله بن عباس في صلاة الخسوف أن الرسول ﷺ قال : « إني رأيت الجنة ، فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر كاليوم منظرا قط أفظع ، ورأيت أكثر أهلها النساء »[1] .

وفي صحيح البخاري عن أسماء أن الرسول ﷺ قال : « قد دنت مني الجنة ، حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطاف من قطافها ، ودنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم ؟ فإذا إمرأة تخدشها هرة . قلت : ما شأن هذه ؟ قالوا : حبستها حتى ماتت جوعا ، لا هي أطعمتها ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض »[2] .

وفي مسند أحمد عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله ﷺ : « إن النار أدنيت مني حتى نفخت حرّها عن وجهي ، فرأيت فيها صاحب المحجن ، والذي بحر البحيرة وصاحب حمير ، وصاحبة الهرة »[3] .

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنه

---

(١) مشكاة المصابيح : (١/٤٧٠) .
(٢) صحيح الجامع : (٤/١٣٣) ، ورقم الحديث : ٤٢٤٧ .
(٣) صحيح الجامع : (٢/١٧١) ، ورقمه : ١٩٦٨ .

عرضت عليَّ الجنة والنار ، فقربت مني الجنة ، حتى لقد تناولت منها قطفا ، قصرت يدي عنه ، وعرضت عليَّ النار فجعلت أتأخر رهبة أن تغشاني ، ورأيت امرأة حميرية سوداء طويلة ، تعذب في هرة لها ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تسقها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض ، ورأيت فيها أبا ثمامة عمر بن مالك يجر قُصبة من النار »[1] .

وبعد أن يموت العباد تعرض عليهم في البرزخ مقاعدهم في الجنة إن كانوا مؤمنين ، ومقاعدهم في النار إن كانوا كافرين، وقد بينا ذلك في الحديث عن البرزخ .

---

(١) صحيح الجامع : (٢٩٨/٢) ، ورقمه : ٢٣٩٤ .

المَبحَث العَاشِر
تأثير النار على الدنيا وأهلها

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « اشتكت النار إلى ربها ، فقالت ربّ أكل بعضي بعضا ، فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ونفس في الصيف ، فأشدُّ ما تجدون من الحر ، وأشدُّ ما تجدون من الزمهرير » .

وروى البخاري أيضا عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «أبردوا بالصلاة ، فإن شدّة الحرّ من فيح جهنم »[1] .

---

(١) انظر هذين الحديثين في صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفةالنار وأنها مخلوقة ، فتح الباري : (٦/ ٣٣٠) ، وعزاهما في جامع الأصول : (١٠/ ٥١٧) إلى البخاري ومسلم والترمذي .

الفصل الرابع

النار خالدة لا تبيد

النار خالدة لا تفنى ولا تبيد ، كما قال الطحاوي في عقيدته : « والجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان ولا تبيدان »[1] ، ونقل ابن حزم اتفاق الأمة على ذلك ، فقد جاء في كتابه « الملل والنحل » قوله : « اتفقت فرق الأمّة كلها على أن لا فناء للجنة ولا لنعيمها ، ولا للنار ولا لعذابها ، إلا الجهم بن صفوان »[2] . وجاء في كتابه « مراتب الإجماع » قوله : « . . . وأن النار حق ، وأنها دار عذاب لا تفنى ، ولا يفنى أهلها بلا نهاية »[3] . والنصوص الدالة على خلود النار كثيرة جدّاً ، وسيأتي ذكر الكثير منها في تضاعيف البحث ، وحسبك أن الله سماها « دار الخلد » .

هذا مذهب أهل السنة والجماعة أن النار خالدة لا تبيد ، وأهلها فيها خالدون ، ولا يخرج منها إلا عصاة الموحدين ، أما الكفرة والمشركون فهم فيها خالدون .

---

(١) شرح الطحاوية : ص ٤٧٦ .
(٢) الملل والنحل ، لابن حزم : (٨٣/٤) .
(٣) مراتب الإجماع : ١٧٣ .

القائلون بفناء النار

والمخالفون لمذهب أهل الحق في هذه المسألة سبع فرق:

١ ـ الجهمية القائلون بفناء النار وفناء الجنة أيضا ، وقد حكى الإمام أحمد في آخر كتاب « الرد على الزنادقة » مذهب الجهمية بأن النار والجنة تفنيان، ورد عليهم ذاكرا النصوص الدالة على عدم فنائهما .

٢ ـ الخوارج والمعتزلة يقولون بخلود كل من يدخل النار ، ولو كانوا من أهل التوحيد ، وسرّ هذا القول أن الخوارج يكفرون المسلمين بالذنوب ، فكل من ارتكب ذنبا ، فإنه كافر خالد مخلد في نار جهنم ، والمعتزلة يرون أن من ارتكب ذنبا فهو في منزلة بين المنزلتين ، فلا هو مؤمن ولا كافر ، ويجرون عليه أحكام الإسلام في الدنيا ، ولكنه في الآخرة مخلد في نار جهنم ، وقد سقنا كثيرا من النصوص الدالة على أن أهل التوحيد يخرجون من النار .

٣ ـ اليهـود الذين يزعمون أنهم يعذبون في النار وقتا محدودا ، ثم يخلفهم غيرهم فيها ، وقد أكذبهم الله في زعمهم ، ورد عليهم مقالتهم ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] .

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾[2]

---

(١) سورة البقرة : (٨٠ ـ ٨١) .

(٢) سورة آل عمران : ٢٣ ـ ٢٤ .

ونقل ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس أنه قال في تفسير آية البقرة : « قال أعداء الله اليهود : لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم ، الأيام التي أصبنا فيها العجل : أربعين يوما ، فإذا انقضت عنا تلك الأيام ، انقطع عنا العذاب » .

وذكر ابن جرير عن السدى قوله : « قالت اليهود : إن الله يدخلنا النار أربعين ليلة ، حتى إذا أكلت النار خطايانا ، نادى منادٍ : أخرجوا كل مختون من ولد بني إسرائيل ، فلذلك أمرنا أن نختتن ، قالوا : فلا يَدَعُون منا في النار أحدا إلا أخرجوه »[1] .

وذكر أيضا عن ابن عباس قال : « ذكر أن اليهود وجدوا في التوراة مكتوبا : إن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهى إلى شجرة الزقوم ثابتة في أصل الجحيم ، وكان ابن عباس يقول : إن الجحيم سقر ، وفيها شجرة الزقوم ، فزعم أعداء الله أنه خلا العدد الذي وجدوا في كتابهم أياما معدودة » .

قال ابن جرير : « وإنما يعني بذلك المسير الذي ينتهي في أصل الجحيم ، فقالوا : إذا خلا العدد انتهى الأجل ، فلا عذاب وتذهب جهنم وتهلك ، فذلك قوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[2] . يعنون بذلك الأجل ، فقال ابن عباس : « لما اقتحموا من باب جهنم ساروا في العذاب ، حتى انتهوا إلى شجرة الزقوم آخر يوم من الأيام المعدودة ، قال لهم خزان سقر : زعمتم أنكم لن تمسكم النار إلا أياما معدودة ، فقد خلا العدد ، وأنتم في الأبد ، فأخذ بهم في الصعود في جهنم يرهقون »[3] .

---

(١) تفسير ابن جرير : (١/ ٣٨١) .

(٢) سورة البقرة : ٨٠ .

(٣) تفسير ابن جرير : (١/ ٣٨١) .

٣ ــ قول إمام الإتحادية **ابن عربي الطائي** ، فإنه زعم أن أهلها يعذبون فيها مدة ، ثم تنقلب طبائعهم نارية يتلذذون بالنار لموافقتها لطبائعهم ، قال ابن حجر في الفتح : « وهذا قول بعضٍ من ينسب إلى التصوف من الزنادقة »[١] .

٥ ــ قول من زعم أن أهلها يخرجون منها ، وتبقى على حالها خالدة لا تبيد .

٦ ــ قول **أبي هذيل العلاف** من أئمة المعتزلة الذاهب إلى أن حياة أهل النار تفنى ، ويصيرون جمادا لا يتحركون ، ولا يحسون بألم ، قال بذلك لأنه يقول بامتناع حوادث لا نهاية لها ، فخالف الأدلة الصريحة القطعية الثبوت بمقاييس عقلية باطلة .

٧ ــ قول من قال : إن الله يخرج منها من يشاء ، كما ورد في الأحاديث ، ثم يبقيها شيئا ، ثم يفنيها ، فإنه جعل لها أمدا تنتهي إليه[٢] .

والقول الأخير مال إليه البحر العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغفر له ، كما ذهب إليه تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى .

وقد تتابع العلماء في التأليف لبيان خطأ هذا المذهب، يقول ابن حجر العسقلاني بعد حكايته لهذا القول : « وقد مال بعض المتأخرين إلى هذا القول ، ونصره بعدة أوجه من جهة النظر ، وهو مذهب رديء مردود على قائله ، وقد أطنب السبكي الكبير في بيان وهائه فأجاد »[٣] ، وهذا الكتاب الذي أشار إليه هو

---

(١) فتح الباري : (١١/٤٢١).

(٢) راجع في هذا المبحث المصادر التالية : شرح الطحاوية : ص ٤٨٣ ، شرح عقيدة السفاريني (٢/٢٣٤) ، يقظة أولي الاعتبار لصديق حسن خان : ص ٤١ ، فتح الباري : (١١/٤٢١) .

(٣) فتح الباري : (١١/٤٢٢) .

« الاعتبار ببقاء الجنة والنار » لتقي الدين علي بن عبدالباقي السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٥٦ .

وقال صديق حسن خان : « وقد ألف العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي رسالة سماها : « توفيق الفريقين على خلود أهل الدارين » ، وفي الباب رسالة للسيد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير ، ورسالة للقاضي العلامة المجتهد محمد بن علي الشوكاني ، حاصلها بقاء الجنة والنار وخلود أهلهما فيهما »[١] .

وهنا أمور نحب بيانها :

الأول : أن هذا القول قول باطل وإن ذهب إليه عَلَمان من أعلام الإسلام ، فقد علَّمنا شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم أن حب الحق ينبغي أن يكون مقدما على حب الرجال . وأدلة بطلانه النصوص الكثيرة الدالة على خلود النار ، وهي نصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة ، وقد ذكرنا قول من نقل الإجماع على خلود النار .

الثاني : أنه لا يجوز بحال من الأحوال ذم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بسبب هذه المقالة ، فقد كفرهما قوم ، وفسقهما قوم بسبب ذلك ، وكل هذا ليس بصواب ، فإنهما مجتهدان مأجوران مثابان ، ولو علما الحق في خلاف قولهما لاتبعاه ، ودعوى أن المخالف في مثل هذا يكفَّر قائلة يُوصِل القائلين بهذا إلى تكفير أئمة هذه الأمة الذين لا يُمارَى في إمامتهم ، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يذهب إلى أن المسافر إذا لم يجد الماء لا يتيمم ولا يصلي ، وقد اتفقت الأمة على خلاف هذا ، والإمام مالك كان يرى أن « بسم الله الرحمن الرحيم » ليست آية

---

(١) يقظة أولي الاعتبار ، لصديق حسن خان : ص ٤٢ ، ورسالة الصنعاني طبعها المكتب الإسلامي ببيروت ، وقد حققها وكتب لها مقدمة ضافية الشيخ ناصر الدين الألباني فأجاد .

من كتاب الله ، وقد أجمعت الأمة على أن ما بين الدفتين قرآن ، وقال أقوام بعدم زيادة الإيمان ونقصانه مع كونه مثبت بالكتاب والسنة صريح فيهما ، والإجماع منعقد عليه .

الثالث : ينبغي أن ننبه أن لابن تيمية وابن القيم قولا بعدم فناء النار ، جاء في مجموع فتاوي شيخ الإسلام قوله في إجابة سؤال : « وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات مالا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك ، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين ، كالجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم ، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله ، وسنة رسوله ، وجماع سلف الأمة وأئمتها »[1] .

وإذا كان الأمر كذلك ، أي لهما قولان ، فلا يجوز أن نجزم بأن القول بفناء النار هو قولهما مالم يعلم أنه القول الأخير ، وإذا لم يعلم القول الأخير فالأولى التوقف في نسبة أحد المذهبين إليهما .

الرابع : الأدلة التي احتج بها شيخ الإسلام وابن القيم على فناء النار ، بعضها غير صحيح ، والصحيح منها غير صريح ، بل يمكن حمله على غير فناء النار ، بل على فناء النار التي يكون فيها عصاة الموحدين . وقد ناقش الصنعاني في رسالته التي يرد فيها على ابن تيمية وابن القيم هذه الأدلة ، وبين عدم نهوضها على ما ذهب إليه . وهذه الرسالة هي المسماة « برفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار »[2] .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (١٨/٣٠٧) .

(٢) طبعها المكتب الإسلامي ببيروت .

ومن الذين تعرضوا لهذه المسألة القرطبي في « التذكرة » ، فقد ساق النصوص الدالة على خلود الجنة والنار ، والمخبرة بأن الموت يذبح بين الجنة والنار ثم يقال : « يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » ثم قال : « هذه الأحاديث مع صحتها في خلود أهل الدارين فيها ، لا إلى غاية ولا إلى أمد ، مقيمين على الدوام والسرمد من غير موت ولا حياة ولا راحة ولا نجاة »[١] . ثم تعرض للرد على الذين قالوا بفناء النار ، وبين أن الذي يفنى إنما هو النار التي يدخلها عصاة الموحدين ، قال: «فمن قال: إنهم يخرجون منها ، وأن النار تبقى خالية بجملتها خاوية على عروشها ، وأنها تفنى وتزول ، فهو خارج عن مقتضى المعقول ، ومخالف لما جاء به الرسول ، وما أجمع عليه أهل السنة والأئمة العدول . . وإنما تخلى جهنم وهي الطبقة العلية التي فيها العصاة من أهل التوحيد ، وهي التي ينبت على شفيرها الجرجير[٢] ، قال فضل بن صالح المعافري : كنا عند مالك بن أنس ذات يوم ، فقال لنا انصرفوا ، فلما كان العشية رجعنا إليه ، فقال : إنما قلت لكم انصرفوا ، لأنه جاءني رجل يستأذن عليَّ زعم أنه قدم من الشام في مسألة فقال : يا أبا عبدالله ما تقول في أكل الجرجير ؛ فإنه يتحدث عنه أنه ينبت على شفير جهنم ؟ فقلت له : لا بأس به[٣] . فقال : أستودعك الله وأقرأ عليك السلام ، ذكره الخطيب أبو بكر أحمد رحمه الله ، وذكر أبو بكر البزار ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، قال : يأتي على النار زمان تخفق الرياح أبوابها ، ليس فيها أحد ، يعني من الموحدين ، هكذا رواه

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٤٣٦ .

(٢) هذا القول لا يصح فيه خبر ثابت ، وكأن قائلة أراد منه خمود النار التي يكون فيها عصاة الموحدين حتى ينبت النبات على حوافها .

(٣) هذه القصة إن كانت صحيحة فقد تكلف هذا السائل في سفره لتبين أمر هو في غاية الوضوح .

موقوفا من قول عبدالله بن عمرو ، وليس فيه ذكر النبي ﷺ ، ومثله لا يقال من جهة الرأي ، فهو مرفوع »[1] .

---

(١)) التذكرة للقرطبي : ص ٤٣٧ .

الفصل الخامس

أهل النيران وجرائمهم

المبحث الأول

أهلها المخلدون فيها

المطلب الأول

التعريف بهم

أهل النار الخالدون فيها الذين لا يرحلون ولا يبيدون ـ هم الكفرة والمشركون . **قال تعالى** : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1] ، وقال : ﴿لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[2] ، وقال : ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾[3] ، وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ

---

(١) سورة الأعراف : ٣٦ .

(٢) سورة الأنبياء : ٩٩ .

(٣) سورة الزخرف : ٧٤ .

عَذَابِهَا ﴾[1] . وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[2] ! وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[3] .

وقال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[4] ، وقال : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾[5] .

ولما كانوا خالدين فيها فقد وصف الحق عذاب النار بأنه مقيم ، أي لا ينقطع ، كما أضافه إلى الخلد ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[6] ، وقال : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[7] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم : ياأهل النار لا موت ، ويا أهل الجنة لا موت ، خلود »[8] . وروي عن أبي هريرة قال : قال

---

(1) سورة فاطر : ٣٦ .
(2) سورة البقرة : ٣٩ .
(3) سورة البقرة : ١٦٠ - ١٦١ .
(4) سورة التوبة : ٦٣ .
(5) سور التوبة : ١٧ .
(6) سورة المائدة : ٣٧ .
(7) سورة يونس : ٥٢ .
(8) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب ، فتح الباري : (٤٠٦/١١) .

رسول الله ﷺ : « يقال لأهل الجنة : يا أهل الجنة لا موت ، ولأهل النار : يا أهل النار خلود لا موت »[1] .

وهذا يقال بعد ذبح الموت كما في حديث ابن عمر عند البخاري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم ينادي منادي : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم »[2] .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، ويقولون : نعم هذا الموت . قال : ويقال : يا أهل النار ، هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبون وينظرون ، ويقولون : نعم ، هذا الموت ، قال فيؤمر به فيذبح . قال : ثم قال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » . قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3][4] .

وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري يرفعه قال : « إذا كان يوم القيامة أتي بالموت كالكبش الأملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيذبح وهم ينظرون ، فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة ، ولو أن أحدا مات حزنا لمات أهل النار » قال : حديث حسن صحيح[5] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق : باب صفة الجنة والنار، فتح الباري : (١١/٤١٥) .
(٣) سورة مريم : ٣٩ .
(٤) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها : (٤/٢١٨٨) .
(٥) التذكرة للقرطبي : ص ٤٣٦ .

المطلب الثاني
النار مسكن الكفرة المشركين

لما كان الكفرة المشركون خالدين في النار فإن النار تعتبر بالنسبة لهم سكناً ومأوى ، كما أن الجنة مسكن المؤمنين ، ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾[1] ، ﴿ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2] ، ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾[3] . وهي مأواهم تتولى أمرهم ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾[4] .

وهي بئست المسكن والمثوى ، ﴿ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾[5] ، ﴿ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾[6] .

المطلب الثالث
الدعاة إلى النار

أصحاب المبادىء الضالة ، والمذاهب الباطلة المخالفون لشرع الله ، والدعاة المؤمنون بباطلهم هم دعاة النار ، ﴿ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾[7] ،

---

(١) سورة آل عمران : ١٥١ .
(٢) سورة يونس : ٨ .
(٣) سورة العنكبوت : ٦٨ .
(٤) سورة الحديد : ١٥ .
(٥) سورة البقرة : ٢٠٦ .
(٦) سورة ص : ٥٥ ـ ٥٦ .
(٧) سورة البقرة : ٢٢١ .

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[1] ، ومن هؤلاء الشيطان ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[2] ، ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[3] . وهؤلاء الذين يدعون إلى النار في الدنيا يقودون أقوامهم وأتباعهم إلى النار في الآخرة ، ففرعون مثلاً ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾[4] . وكل قادة الشر الذين يدعون إلى عقائد ومبادىء مخالفة للإسلام هم دعاة إلى النار ، لأن الطريق الوحيد الذي ينجي من النار ويدخل الجنة هو طريق الإيمان ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[5] ، كانوا يدعونه إلى فرعون وكفره وشركه ، وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده والإيمان به ، ولما كان الكفار دعاة إلى النار حرم الله على المؤمنين الزواج من المشركات ، كما حرّم على المؤمنات الزواج من المشركين ، ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[6] .

المطلب الرابع
أعظم جرائم الخالدين في النار

لقد أطال القرآن في تبيان جرائم الخالدين الذين استحقوا بها الخلود في النيران ، ونحن نذكر هنا أهمها :

(١) سورة القصص : ٤١ .
(٢) سورة لقمان : ٢١ .
(٣) سورة فاطر : ٦ .
(٤) سورة هود : ٩٨ .
(٥) سورة غافر : ٤١ .
(٦) سورة البقرة : ٢٢١ .

١ ـ الكفر والشرك . فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الذين كفروا ينادون عندما يكونون في النار ، فيقال لهم : إن مقت الله لكم أعظم من مقتكم أنفسكم بسبب كفركم بالإيمان ، ثم بين أن خلودهم في النار إنما هو بسبب كفرهم وشركهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾[1] .

وحدثنا الحق تبارك وتعالى أن خزنة النار يسألون الكفار عند ورودهم النار قائلين ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ؟[2] فيكون الجواب : أنهم استحقوا النار بسبب تكذيبهم المرسلين ، وما جاؤوا به ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾[3] .

وقال في المكذبين بالكتاب : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾[4] .

وقال في المكذبين بالكتاب المشركين بالله ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[5] .

---

(١) سورة غافر : ١٠ .

(٢) سورة غافر : ٥٠ .

(٣) سورة الملك : ٩ .

(٤) سورة طه : ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٥) سورة غافر : ٧٠ .

وقال في الكفرة المشركين المسوين آلهتهم برب العالمين ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] .

وقال في حق المكذبين بيوم الدين ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[2] وقال : ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3] . وقال : ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[4] .

٢ ـ عدم القيام بالتكاليف الشرعية مع التكذيب بيوم الدين وترك الإلتزام بالضوابط الشرعية ، فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن أهل الجنة يسألون أهل النار قائلين ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾[5] ، فيجيبون قائلين : ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾[6] .

٣ ـ طاعة رؤساء الضلال وزعماء الكفر فيما قرروه من مبادىء الضلال وخطوات الكفر التي تصد عن دين الله ومتابعة المرسلين . قال تعالى في هؤلاء : ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ

---

(١) سورة الشعراء : ٩٤ ـ ٩٨ .
(٢) سورة الفرقان : ١١ .
(٣) سورة الرعد : ٥ .
(٤) سورة الإسراء : ٩٧ ـ ٩٨ .
(٥) سورة المدثر : ٤٢ .
(٦) سور المدثر : ٤٣ ـ ٤٧ .

ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[1]

وعندما يحل الكفار في النار ، وتقلب وجوههم فيها يتندمون لعدم طاعتهم الله ورسوله ، وطاعتهم السادة الكبراء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[2] .

٤ ــ النفاق : وعد الله المنافقين النار ، وهو وعد قطعه على نفسه لا يخلفه ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[3] وأخبرنا أن موقع المنافقين في النار هو دركاتها السفلى ، وهي أشدها حراً ، وأكثرها إيلاما ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[4] .

٥ ــ الكبر : وهذه صفة يتصف بها عامة أهل النار ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[5] .

وقد عقد مسلم في صحيحه بابا عنون له بقوله : « باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء » ، وذكر فيه احتجاج الجنة والنار وما قالتا وما قال الله

---

(١) سورة فصلت : ٢٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ٦٤ ـ ٦٧ .

(٣) سورة التوبة : ٦٨ .

(٤) سورة النساء : ١٤٥ .

(٥) سورة الأعراف : ٣٦ .

لهما ، وساق فيه حديث أبي هريرة يرفعه إلى الرسول ﷺ ، وفيه أن النار قالت : « يدخلني الجبارون والمتكبرون » وفي رواية قالت : « أوثرت بالمتكبرين والجبارين » . وقال الله لها : « أنت عذابي أعذب بك من أشاء »[1] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن حارثة بن وهب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ، كل عتل جواظ مستكبر »[2] وفي رواية لمسلم « كل جوَّاظ زنيم متكبر »[3]، ومصداق هذا في كتاب الله تبارك وتعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[5] ، وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾[6] .

المطلب الخامس
جملة الجرائم التي تدخل النار

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : ما عمل أهل النار ، وما عمل أهل الجنة ؟ فأجاب : عمل أهل النار : الإشراك بالله تعالى ، والتكذيب

(۱) صحيح مسلم : (٤/٢١٨٦) ورقم الحديث : ٢٨٤٦ .

(۲) جامع الأصول : (١٠/٥٤٧) ورقم الحديث : ٨١١١ .

(۳) انظر الحديث ورواياته في « صحيح مسلم » كتاب الجنة « باب النار يدخلها الجبارون »: (٤/٢١٩٠) ورقمه ٢٨٥٣ ، والعتل : الغليظ الجافي الذي لا ينقاد للخير ، والزنيم : الدعي الملصق بالقوم وليس منهم ، أو هو اللئيم في أخلاق الناس ، والجواظ : الذي جمع ومنع .

(٤) سورة الزمر : ٦٠ .

(٥) سورة الاحقاف : ٢٠ .

(٦) سورة النازعات : ٣٧ .

للرسل ، والكفر ، والحسد ، والكذب ، والخيانة ، والظلم ، والفواحش ، والغدر ، وقطيعة الرحم ، والجبن عن الجهاد ، والبخل ، واختلاف السر والعلانية ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والجزع عند المصائب ، والفخر والبطر عند النعم ، وترك فرائض الله ، واعتداء حدوده ، وانتهاك حرماته ، وخوف المخلوق دون الخالق ، والعمل رياءً وسمعه ، ومخالفة الكتاب والسنة ، أي اعتقادا وعملا ، وطاعة المخلوق في معصية الخالق ، والتعصب للباطل ، واستهزاء بآيات الله ، وجحد الحق ، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهادة ، والسحر ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، والربا ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »[1] .

وقد ذكر الرسول ﷺ جماع الذنوب التي تدخل النار ، ففي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال في خطبة له طويلة : « وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زَبْرَ له[2] ، الذين هم فيكم تبعا لا يتبعون أهلا ولا مالا ، والخائن الذي لا يخفى له طمع[3] ، وإن دقَّ إلّاخانة ،ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك . وذكر البخل ، والكذب والشنظير[4] ، الفحاش[5] » .

---

(١) يقظة أولي الاعتبار ، ص ٢٢٢ .

(٢) أي لا عقل له يمنعه مما لا ينبغي ، وقيل : هو الذي لا مال له .

(٣) أي لا يظهر له .

(٤) هو الفحاش كما هو مفسر في الحديث .

(٥) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ،باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار : (٢١٩٧/٤) . ورقمه : ٢٨٦٥ .

المطلب السادس
أشخاص بأعيانهم في النار

الكفار والمشركون في النار لا شك في ذلك ، وقد أخبرنا القرآن الكريم ، كما أخبرنا الرسول ﷺ أن أشخاصا بأعيانهم في النار ، فمن هؤلاء فرعون موسى ، ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾[1] . ومنهم امرأة نوح وامرأة لوط ، ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[2] .

ومنهم أبو لهب وامرأته ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾[3] ومنهم عمرو بن عامر الخزاعي ، فقد رآه الرسول ﷺ يجر أمعاءه في النار[4] ومنهم الذي قتل عمار وسَلَبه ، ففي معجم الطبراني بإسناد صحيح عن عمرو بن العاص وعن ابنه عن النبي ﷺ ، قال : « قاتل عمّار وسالبه في النار »[5] .

(١) سورة هود : ٩٨ .
(٢) سورة التحريم : ١٠ .
(٣) سورة تبت : ١ ـ ٥ .
(٤) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وأحمد ، وقد ذكرنا نص الحديث في موضع آخر .
(٥) صحيح الجامع : (٤/ ١١٠) ، ورقمه : ٤١٧٠ .

المطلب السابع

كفرة الجن في النار

كفرة الجن يدخلون النار كما يدخلها كفرة الإنس ، فالجن مكلفون كالإنس ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] .

وفي يوم القيامة يحشر الجن والإنس على حدّ سواء ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾[2] ، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾[3] ثم يقال للكفرة منهم : ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾[4] وعند ذلك يكبكبون في النار ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[5] ، وبذلك تتم كلمة الله القاضية بملء النار من كفرة الجن والإنس ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[6] ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[7] .

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٢) سورة الأنعام : ١٢٨ .

(٣) سورة مريم : ٦٨ .

(٤) سورة الأعراف : ٣٨ .

(٥) سورة الشعراء : ٩٤ - ٩٥ .

(٦) سورة هود : ١١٩ .

(٧) سورة فصلت : ٢٥ .

المبحث الثاني

الذين لا يخلدون في النار

المطلب الأول

التعريف بهم

الذين يدخلون النار ، ثم يخرجون منها هم أهل التوحيد الذين لم يشركوا بالله شيئاً ، ولكن لهم ذنوب كثيرة فاقت سيئاتهم ، فخفت موازينهم ، فهؤلاء يدخلون النار مددا يعلمها الله تبارك وتعالى ، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين ، ويخرج الله برحمته أقواما لم يعملوا خيرا قط .

المطلب الثاني

الذنوب المتوعد عليها بالنار

سنذكر هنا بعض الذنوب التي جاءت النصوص مخبرة أن أهلها يعذبون بسببها في النار :

١ ـ الفرق المخالفة للسنة :

روى أبو داود والدارمي وأحمد والحاكم وغيرهم عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال : ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة » .

وهذا حديث صحيح . قال فيه الحاكم بعد سياقه لأسانيده : « هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح الحديث » . ووافقه الذهبي . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فيه : « هو حديث صحيح مشهور » . وصححه الشاطبي في « الاعتصام » , وقد جمع الشيخ ناصر الدين الألباني طرقه وتكلم على أسانيده، وبين أنه حديث صحيح لا شك في صحته[1] .

وقد ذهب صديق حسن خان إلى أن الزيادة التي في الحديث وهي « كلها هالكة إلا واحدة » ومثلها « ثنتان وسبعون في النار » زيادة ضعيفة . ونقل تضعيف ذلك عن شيخه الشوكاني ومن قبله عن ابن الوزير ومن قبله عن ابن حزم . وقد استحسن قول من قال : « إن هذه الزيادة من دسيس الملاحدة ، فإن فيها التنفير عن الإسلام والتخويف من الدخول فيه »[2] .

وقد رد الشيخ ناصر الدين الألباني على من ضعف هذه الزيادة من وجهين :

الأول : أن النقد العلمي الحديثي قد دل على صحة هذه الزيادة ، فلا عبرة بقول من ضعفها .

الثاني : أن الذين صححوها أكثر وأعلم من ابن حزم ، لا سيما وهو معروف عند أهل العلم بتشدده بالنقد ، فلا ينبغي أن يحتج به إذا تفرد عند عدم المخالفة ، فكيف إذا خالف .

وأما ابن الوزير فإنه يرد الزيادة من جهة المعنى لا من جهة الإسناد ، وقد تكلم على هذا صديق حسن خان في « يقظة أولى الاعتبار » مبينا أن مقتضى الزيادة أن الذي يدخل الجنة من هذه الأمة قليل ، والنصوص الصحيحة الثابتة تدل على

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ورقم الحديث (٢٠٤) .

(٢) يقظة أولى الاعتبار : ص ٢٠٦ .

أن الداخلين من هذه الأمة الجنة كثير كثير ، يبلغون نصف أهل الجنة[1] .

والرد على هذا من عدة وجوه :

الأول : ليس معنى انقسام الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة أن يكون أكثر الأمة في النار ، لأن أكثر الأمة عوام لم يدخلوا في تلك الفرق ، والذين افترقوا وقعدوا وأصلوا مخالفين السنة قليل بالنسبة للذين جانبوا ذلك كله .

الثاني : ليس كل من خالف أهل السنة في مسألة من المسائل يعد من الفرق المخالفة للسنة ، بل المراد بهم الذين تبنوا أصولا تصيِّرهم فرقة مستقلة بنفسها ، تركوا من أجلها كثيرا من نصوص الكتاب والسنة ، كالخوارج والمعتزلة والرافضة .

أما الذين يتبنون الكتاب والسنة ولا يحيدون عنهما ، فإنهم إذا خالفوا في مسألة من المسائل لا يعدون فرقة من الفرق .

الثالث : الزيادة دلت على أن الفرق في النار ، ولكنها لم توجب لهم الخلود في النار .

ومن المعلوم أن بعض أهل هذه الفرق كفرة خالدون في النار ، كغلاة الباطنية الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر كالإسماعيلية والدروز والنصيرية ونحوهم .

ومنهم الذين خالفوا أهل السنة في مسائل كبيرة عظيمة ولكنها لا تصل إلى الكفر ، فهؤلاء ليس لهم وعد مطلق بدخول الجنة ، ولكنهم تحت المشيئة إن شاء الله غفر لهم وإن شاء عذبهم ، وقد تكون لهم أعمال صالحة عظيمة تنجيهم من

---

(1) انظر كلام الشيخ في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » حديث رقم (٢٠٤) . و « يقظة أولي الاعتبار » ص : ٢٠٧ .

النار ، وقد ينجون من النار بشفاعة الشافعين ، وقد يدخلون النار ويمكثون فيها ما شاء الله أن يمكثوا ، ثم يخرجون منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين .

٢ ـ الممتنعون من الهجرة :

لا يجوز للمسلم أن يقيم في ديار الكفر إذا وجدت ديار الإسلام خاصة إذا كان مكثه في ديار الكفر يعرضه للفتنة ، ولم يقبل الله عذر الذين تخلفوا عن الهجرة ، فقد أخبرنا الحق أن الملائكة تُبكِّت هذا الصنف من الناس حال الموت ، ولا تعذرهم عندما يدّعون أنهم كانوا مستضعفين في الأرض ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾[1] ، فلم يعذر الله من هؤلاء إلا المستضعفين الذين لا يجدون حيلة للخروج ، ولا يهتدون إلى الطريق الذي يوصلهم إلى ديار الإسلام .

٣ ـ الجائرون في الحكم :

أنزل الله الشريعة ليقوم الناس بالقسط ، وأمر الله عباده بالعدل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾[2] ، وفرض على الحكام والقضاة الحكم بالعدل وعدم الجور ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾[3] ، وقد تهدد الحق الذين لا يحكمون بالحق بالنار ، فقد روى

---

(١) سورة النساء : ٩٧ ـ ٩٨ .
(٢) سورة النحل : ٩٠ .
(٣) سورة النساء : ٥٨ .

بريدة بن الحصيب أن رسول الله ﷺ ، قال : « القضاة ثلاثة : واحد في الجنّة ، واثنان في النار ، فأمّا الذي في الجنّة : فرجل عرف الحق وقضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم ، فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل ، فهو في النار » أخرجه أبو داود[١] .

٤ ـ الكذب على الرسول الله ﷺ :

عقد ابن الإثير في كتابه الكبير : « جامع الأصول » فصلا ساق فيه كثيرا من الأحاديث التي تحذر من الكذب على الرسول ﷺ ، فمنها ما رواه البخاري ومسلم والترمذي عن على بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تكذبوا عليَّ ، فإنه من كذب عليَّ يلج النار » .

ومنها ما رواه البخاري عن سلمة بن الأكوع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تقول عليَّ مالم أقل[٢] ، فليتبوأ مقعده في النار »[٣] .

ومنها ما رواه البخاري في صحيحه ، وأبو داود في سننه عن عبدالله بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن كذبا علي ليس ككذب على أحد ، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »[٤] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/١٦٧) ، وقال محقق الكتاب : وهو حديث صحيح .
(٢) تقوَّل عليه : إذا قال عنه مالم يقله .
(٣) التبوؤ : اتخاذ المنزل ، لأن المباءَة المنزل .
(٤) جامع الأصول : (١٠/٦١١١) ، وقد ساق روايات أخرى فارجع إليه إن أحببت الاطلاع على جميع ما ساقه .

٥ ـ الكبر :

من الذنوب الكبار الكبر ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منهما أدخلته النار » وفي رواية « أذقته النار » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنا ، قال : « إن الله جميل يحب الجمال. الكبر : بطر الحق ، وغمط الناس » رواه مسلم[١] .

٦ ـ قاتل النفس بغير حق :

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[٢] ، فلا يجوز في دين الله قتل النفس المسلمة إلا بإحدى ثلاث كما في الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[٣] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يزال المؤمن في فسحة من دينه مالم يصب دما حراما » . قال ابن

---

(١) انظر هذين الحديثين وأحاديث أخرى في ذم الكبر والترهيب منه في « مشكاة المصابيح » (٣/٦٣٤ ـ ٦٣٥) .

(٢) سورة النساء : ٩٣ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٢/٣٥٥) .

عمر : « إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله »(١) . وقد حذر الرسول صلى الله ﷺ المسلمين أن يقاتل بعضهم بعضا ، وأخبر أن القاتل والمقتول في النار ، فعن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار » قال : فقلت ، أو قيل : يارسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصا على قتل صاحبه »(٢) . ولذا فإن العبد الصالح أبى أن يقاتل أخاه ، خشية أن يكون من أهل النار ، فباء القاتل بإثمه وإثم أخيه ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٣) .

٧ ـ أكلة الربا :

من الذنوب التي توبق صاحبها الربا ، وقد قال الحق في الذين يأكلونه بعد أن بلغهم تحريم الله له : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٤) ، وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾(٥) . وقد عده

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الديات ، باب قول الله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ﴾ . فتح الباري : (١٨٧/١٢) .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما : (٢٢١٣/٤) .

(٣) سورة المائدة : ٢٧ ـ ٢٩ .

(٤) سورة البقرة : ٢٧٥ .

(٥) سورة آل عمران : ١٣٠ ـ ١٣١ .

الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه واحدا من سبعة ذنوب توبق صاحبها ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قالوا : وما هن يارسول الله ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

٨ ـ أكلة أموال الناس بالباطل :

من الظلم العظيم الذي يستحق به صاحبه النار أكل أموال الناس بالباطل ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾[١] .

ومن أكل أموال الناس بالباطل أكل أموال اليتامى ظلما ، وقد خص الحق أموالهم بالذكر لضعفهم وسهولة أكل أموالهم ، ولشناعة هذه الجريمة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[٢] .

٩ ـ المصورون :

أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة المصورون الذين يضاهئون خلق الله ، ففي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أشدُّ الناس عذابا عند الله المصورون »[٣] .

---

(١) سورة النساء : ٢٩ ـ ٣٠ .

(٢) سورة النساء : ١٠ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/٥٠٠٥) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل مصور في النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفسا ، فيعذبه الله في جهنم » متفق عليه[1] .

وعن عائشة أن الرسول ﷺ قال في النمرقة التي فيها تصاوير : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم » متفق عليه[2] .

وعن عائشة أيضا ، عن النبي ﷺ قال : « أشدُّ الناس عذابا الذين يضاهون بخلق الله » متفق عليه[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو شعيرة » متفق عليه[4] .

١٠ ـ الركون إلى الظالمين :

من الأسباب التي تدخل النار الركون إلى الظالمين أعداء الله وموالاتهم ، ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾[5] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٥٠٠٥) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .
(٥) سورة هود : ١١٣ .

١١ ــ الكاسيات العاريات والذين يجلدون ظهور الناس :

من الأصناف التي تصلى النار الفاسقات المتبرجات اللواتي يفتن عباد الله ، ولا يستقمن على طاعة الله ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » أخرجه مسلم ، والبيهقي ، وأحمد[١] .

قال القرطبي في الذين معهم كأذناب البقر : « وهذه الصفة للسياط مشاهدة عندنا بالمغرب إلى الآن » قال صديق حسن خان معقبا على قول القرطبي : « بل هو مشاهد في كل مكان وزمان ، ويزداد يوما فيوما عند الأمراء والأعيان ، فنعوذ بالله من جميع ما كرهه الله »[٢] ، أقول : ولازلنا نرى هذا الصنف من الناس في كثير من الديار يجلدون أبشار الناس ، فتبا لهؤلاء وأمثالهم .

والكاسيات العاريات كثيرات في زماننا ، ولعله لم يسبق أن انتشرت فتنتهن كما انتشرت في زماننا ، وهنَّ على النعت الذي وصفه الرسول ﷺ : كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت .

١٢ ــ الذين يعذبون الحيوان :

روى مسلم في صحيحه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « عُرِضَتْ عَليَّ

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣١٦/٣) ورقم الحديث : ١٣٢٦ .

(٢) يقظة أولي الاعتبار : ص ١١٣ .

النار ، فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تُعَذَّب في هرة لها ، ربطتها فلم تُطْعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض ، حتى ماتت جوعا »[1] .

إذا كان هذا حال من يعذب هرة ، فكيف من يتفنن في تعذيب العباد ؟ فكيف إذا كان التعذيب للصالحين منهم بسبب إيمانهم وإسلامهم ؟

١٣ ـ عدم الإخلاص في طلب العلم :

ساق الحافظ المنذري كثيرا من الأحاديث التي ترهب من تعلم العلم لغير الله ، نختار لك بعضا منها : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم علما مما يبتغي به وجه الله تعالى ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة ، يعني ريحها » رواه أبو داود وابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخاري ومسلم .

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَعَلَّموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا تماروا به السفهاء ، ولا تخيَّروا به المجالس ، من فعل ذلك فالنار النار » رواه ابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والبيهقي .

وعن ابن عمر عن رسول الله عليه السلام قال : « من تعلم علما لغير الله ، أو أراد به غير الله ، فليتبوأ مقعده من النار » . رواه الترمذي وابن ماجة كلاهما عن خالد بن دريك عن ابن عمر ، ولم يسمع منه . ورجال إسنادهما ثقات[2] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٦٨٨/٣) .

(٢) انظر هذه الأحاديث وتخريجها في : « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذري : (٩١/١) .

١٤ ـ الذين يشربون في آنية الذهب والفضة :

روى البخاري ومسلم عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم » . وفي رواية لمسلم : « إن الذي يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب . . . »[١] .

وعن حذيفة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تلبسوا الحرير والديباج ، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، فإنها لهم في الدنيا ، وهي لكم في الآخرة » متفق عليه[٢] .

١٥ ـ الذي يقطع السدر الذي يظل الناس :

عن عبدالله بن حبيش قال : قال رسول الله ﷺ : « من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار » رواه أبو داود[٣] .

وروى البيهقي بإسناد صحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال : « إن الذين يقطعون السدر يصبون في النار على رؤوسهم صبا »[٤] .

١٦ ـ جزاء الانتحار :

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يده ، يجأبها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٤٦٣) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/١٢٥) ، وأورده الشيخ ناصر في « صحيح الجامع » : (٥/٣٤١) ، رقم الحديث : (٦٣٥٢) وعزاه إلى أبي داود والضياء في « المختارة » ، وقال : صحيح .

(٤) عزاه في « صحيح الجامع » (٢/٨٨) إلى البيهقي في « السنن » وقال فيه : صحيح .

أبدا ، ومن قتل نفسه بسم ، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبداً »[1] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعنها يطعنها في النار »[2] ..

(١) التخويف من النار ص ١٤٨ .
(٢) صحيح الجامع : (٥/١١١٤) .



الفصل السادس

كثرة أهل النار

المبحث الأول

النصوص الدالة على ذلك

جاءَت النصوص كثيرة وافرة دالة على كثرة من يدخل النار من بني آدم ، وقلة من يدخل الجنة منهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] . وقال الحق تبارك وتعالى لإبليس ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[3] . فكل من كفر فهو من أهل النار على كثرة من كفر من بني آدم .

ويدلك على كثرة الكفرة والمشركين الذين رفضوا دعوة الرسل أن النبي يأتي في يوم القيامةومعه الرهط ، وهم الجماعة دون العشرة ، والنبي ومعه الرجل

---

(١) سورة يوسف : ١٠٣ .
(٢) سورة سبأ : ٢٠ .
(٣) سورة ص : ٨٥ .

والرجلان ، بل إن بعض الأنبياء يأتي وحيدا لم يؤمن به أحد ، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد . . »[1] .

وجاءت نصوص كثيرة تدل على أنه يدخل في النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من كل ألف ، وواحد فقط هو الذي يدخل الجنة .

فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله : ياآدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، ثم يقول : أخرج بعث النار ، قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فذاك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سَكْرى وما هم بسكْرى ، ولكن عذاب الله شديد . فاشتدَّ ذلك عليهم فقالوا : يا رسول الله ، أينا ذلك الرجل ؟ قال : أبشروا ، فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجل . ثم قال : والذي نفسي بيده ، إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنّة . قال : فحمدنا الله وكبرنا . ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنّة ، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، أو كالرقمة في ذراع الحمار »[2] .

وروى عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره ، وقد تفاوت من أصحابه السّيْر رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ

---

(1) صحيح مسلم : (1/198) . ورقم الحديث : 220 .
(2) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب قول الله عز وجل : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ فتح الباري : (11/388) .

﴿كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1] ، فلما سمع أصحابه ذلك حثوا المطي ، وعرفوا أنه عند قول يقوله ، فلما دنوا حوله قال : « أتدرون أي يوم ذاك ؟ قال ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام ، فيناديه ربّه عز وجل ، فيقول : يا آدم ابعث بعثاً إلى النار . فيقول : يا رب ، وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد في الجنة »

قال : فأبلس أصحابه ، حتى ما أوضحوا بضاحكة . فلما رأى ذلك قال : « أبشروا واعملوا ، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس » قال : فسُرِّيَ عنهم ، ثم قال : « اعملوا وأبشروا ، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقمة في ذراع الدابة » رواه أحمد والترمذي والنسائي في كتاب التفسير في سننهما ، وقال الترمذي : حسن صحيح[2] .

وروى الترمذي في سننه عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[3] ، قال : نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر ، فقال : « أتدرون أي يوم ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بَعْث النار . قال : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال : تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة » ، فأنشأ المسلمون يبكون ، فقال رسول الله ﷺ : « قاربوا وسددوا ، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية ، قال : فيؤخذ العدد من الجاهلية ، فإن

---

(١) سورة الحج : ١ ، ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير : (٤/٦١١٠) . وهو في مسند أحمد (٤/٤٣٥) .

(٣) سورة الحج : ١ .

تمت ، وإلا كملت من المنافقين وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة ، أو كالشامة في جنب البعير » ، ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبروا ، ثم قال : ولا أدري أقال : الثلثين أم لا . وكذا رواه الإمام أحمد ، وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح[1] .

وقد يقال كيف تجمع بين هذه الأحاديث وبين ما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « أول من يدعى يوم القيامة آدم ، فتراءى ذريته ، فيقال : هذا أبوكم آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج بعث جهنم من ذريتك ، فيقول : يا رب ، كم أخرج ؟ فيقول : أخرج من كل مائة تسعة وتسعين فقالوا : يارسول الله ، إذا أخذ منا من كل مائة تسعة وتسعون ، فماذا يبقى منّا ؟ قال : إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود »[2].

والظاهر أن هذه الرواية لا تخالف الروايات الأخرى الصحيحة التي سقناها من قبل ، فإن ذلك العدد باعتبار معين ، وهذا العدد باعتبار آخر . فالأحاديث التي تجعل النسبة تسعمائة وتسعة وتسعين يمكن أن تحمل على جميع ذرية آدم ، وحديث البخاري الذي يجعلها تسعة وتسعين تحمل على جميع ذريته ما عدا يأجوج ومأجوج ، ويقرّب هذا الجمع ـ كما يقول ابن حجر ـ أن يأجوج ومأجوج ذكروا في حديث أبي سعيد دون حديث أبي هريرة ، ويمكن أن يقال أن الأحاديث الأولى تتعلق بالخلق أجمعين ، فإذا جعلت نسبة مَنْ يدخل النار إلى من يدخل الجنة باعتبار الأمم جميعا تكون النسبة (٩٩٩) ، ويكون حديث البخاري الأخير مبيناً نسبة من يدخل النار من هذه الأمة دون سواها ، قال ابن حجر : « ويُقَرِبُهُ ـ أي هذا

---

(١) تفسير ابن كثير : (٤/٦١٠) .
(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب الحشر ، فتح الباري : (١١/٣٧٨) .

القول - قولهم في حديث أبي هريرة « إذا أخذ منا » ، ثم قال : « ويحتمل أن تقع القسمة مرتين مرة من جميع الأمم قبل هذه الأمّة ، فيكون من كل ألف واحد إلى الجنة ، ومرة من هذه الأمة ، فيكون من كل ألف عشرة »[1] .

(١) فتح الباري : (١١/ ٣٩٠) ، وقد ساق أقوالا أخرى ، فارجع إليه إن أحببت الاطلاع على المزيد .

المبحث الثاني

السر في كثرة أهل النار

ليس السبب في هذا هو عدم بلوغ الحق إلى البشر على اختلاف أزمانهم وأمكنتهم ، فإن الله لا يؤاخذ العباد إذا لم تبلغهم دعوته ، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1] ، ولذلك فإن الله أرسل في كل أمة نذيرا ، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[2] .

ولكن السبب وراء ذلك يعود إلى قلة الذين استجابوا للرسل وكثرة الذين كفروا بهم وكثير من الذين استجابوا لم يكن إيمانهم خالصا نقيا .

وقد تعرض ابن رجب في كتابه « التخويف من النار » إلى السبب في قلة أهل الجنة ، وكثرة أهل النار فقال :

« فهذه الأحاديث وما في معناها تدل على أن أكثر بني آدم من أهل النار ، وتدل أيضا على أن أتباع الرسل قليل بالنسبة إلى غيرهم ، وغير أتباع الرسل كلهم في النار إلا من لم تبلغه الدعوة أو لم يتمكن من فهمها على ما جاء فيه من الاختلاف ، والمنتسبون إلى أتباع الرسل كثير منهم من تمسك بدين منسوخ ، وكتاب مبدل ، وهم أيضا من أهل النار كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾[3] .

---

(1) سورة الإسراء : ١٥ .

(2) سورة فاطر : ٢٤ .

(3) سورة هود : ١٧ .

وأما المتسبون إلى الكتاب المحكم والشريعة المؤيدة والدين الحق فكثير منهم من أهل النار أيضا ، وهم المنافقون الذين هم في الدرك الأسفل من النار ، وأمّا المنتسبون إليه ظاهرا وباطنا فكثير منهم فتن بالشبهات ، وهم أهل البدع والضلال ، وقد وردت الأحاديث على أن هذه الأمة ستفرق على بضع وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة ، وكثير منها أيضـاً فتن بالشهوات المحرمة المتوعد عليها بالنار ـ وإن لم يقتـض ذلك الخلود فيها ـ فلم ينج من الوعيد بالنار ، ولم يستحق الوعد المطلق بالجنّة من هذه الأمّة إلا فرقة واحدة ، وهو ماكان عليه النبي ﷺ وأصحابه ظاهرا وباطنا وسلم من فتنة الشهوات والشبهات ، وهؤلاء قليل جدا لاسيما في الأزمان المتأخرة »[١] .

ولعل السبب الأعظم هو اتباع الشهوات ، ذلك أن حب الشهوات مغروس في أعماق النفس الإنسانية ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٢] ، وكثير من الناس يريد الوصول إلى هذه الشهوات عن الطريق التي تهواها نفسه ويحبها قلبه ، ولا يراعي في ذلك شرع الله المنزل ، أضف إلى هذا تمسك الأبناء بميراث الآباء المناقض لشرع الله ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[٣] .

---

(١) التخويف من النار ، لابن رجب ، ص ٢١٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤ .

(٣) سورة الزخرف : ٢٣ ـ ٢٤ .

وإلف ما كان عليه الآباء وتقديسه داء ابتليت به الأمم ، لا يقل أثره عن الشهوات المغروسة في أعماق الإنسان ، إن لم يكن هو شهوة في ذاته .

وقد روى الترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي هريرةرضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لما خلق الله النار ، قال لجبريل : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ثمَّ جاء ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فحفها بالشهوات ، فقال : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ، فلما رجع ، قال : وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها » . أخرجه الترمذي وأبو داود ، وزاد النسائي : بعد قوله : « اذهب فانظر إليها » ، « وإلى ما أعددت لأهلها فيها »[1] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حجبت النار بالشهوات ، وحجبت الجنة بالمكاره » . أخرجه البخاري ومسلم ، ولمسلم « حفت » بدل : « حجبت »[2] .

قال صديق حسن خان : « والمراد بالشهوات مرادات النفوس ومستلذاتها وأهويتها »[3] ، وقال القرطبي : « الشهوات كل ما يوافق النفس ويلائمها ، وتدعو إليه ، ويوافقها ، وأصل الحفاف الدائر بالشيء المحيط به ، الذي لا يتوصل إليه إلا بعد أن يتخطى »[4] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/ ٥٢٠) ، ورقمه : ٨٠٦٨ ، وقال المحقق : قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٢) المصدر السابق : (١٠/ ٥٢٠) ، ورقمه : ٨٠٦٩ .

(٣) يقظة أولي الاعتبار : ص ٢٢٠ .

(٤) المصدر السابق .

المبحث الثالث

أكثر من يدخل النار النساء

أكثر من يدخل النار من عصاة الموحدين النساء ، كما في الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ ، أنه قال في خطبة الكسوف « رأيت النار ورأيت أكثر أهلها النساء » .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « يا معشر النساء تصدَّقن ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقلن : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير » .

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد : « وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء » .

وفي صحيح مسلم عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : « إن أقل ساكني الجنة النساء » .

وهذا لا ينافي أن كل واحد من أهل الجنة له أكثر من زوجة ، فإن المراد بالنساء اللواتي هن أكثر النار من كان منهن من ذرية آدم ، أمّا زوجات أهل الجنة الكثيرات فهن من الحور العين .

« وإنما كان النساء أقل ساكني الجنة لما يغلب عليهن من الهوى والميل إلى عاجل زينة الدنيا ، لنقصان عقولهن أن تنفذ بصائرها إلى الأخرى ، فيضعفن عن عمل الآخرة والتأهب لها ، ولميلهن إلى الدنيا والتزين لها ، ومع ذلك هن أقوى أسباب

الدنيا التي تصرف الرجال عن الآخرة ، لما فيهن من الهوى والميل لهن ، فأكثرهن معرضات عن الآخرة بأنفسهنَّ صارفات عنها لغيرهن ، سريعات الانخداع لداعيهنَّ من المعرضين عن الدين ، عسيرات الاستجابة لمن يدعوهن إلى الأخرى ، وأعمالها من المتقين »[1] ، ومع ذلك ففيهن صالحات كثير ، يقمن حدود الله ، ويلتزمن شريعته ويطعن الله ورسوله ، ويدخل منهنَّ الجنة خلق كثير ، وفيهن من يسبقن كثيرا من الرجال بإيمانهنَّ وأعمالهن الصالحة .

(١) التذكرة للقرطبي : (١/٣٦٩) .

الفصل السابع

عظم خلق أهل النار

يدخل أهل الجحيم النار على صورة ضخمة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقهم ، ففي الحديث الذي يرفعه أبو هريرة إلى رسول الله ﷺ قال : « ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع » رواه مسلم[1] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ضرس الكافر ، أو ناب الكافر ، مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث »[2] .

وقال زيد بن أرقم : « إن الرجل من أهل النار ليعظم للنار ، حتى يكون الضرس من أضراسه كأحد » . رواه أحمد وهو مرفوع ، ولكن زيدا لم يصرح برفعه[3] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن غلظ جلد الكافر اثنان

---

(1) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب يدخلها الجبارون : (٤/٢١٩٠) .

(2) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون : (٤/٢١٨٩) ، وعزاه في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/١٣٢) إلى مسلم والترمذي والحاكم وابن حبان وأحمد .

(3) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/١٣١) ، وقال فيه : إسناده صحيح على شرط مسلم .

وأربعون ذراعا ، وإن ضرسه مثل أحد ، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة » ، رواه الترمذي [1] .

وروى أبوهريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد ، وعرض جلده سبعون ذراعا ، وعضده مثل البيضاء ، وفخذه مثل وَرْقَان ، ومقعده من النار ما بيني وبين الربذة » أخرجه الحاكم وأحمد [2] .

وهذا التعظيم لجسد الكافر ليزداد عذابه وآلامه ، يقول النووي في شرحه لأحاديث مسلم في هذا الباب : « هذا كله لكونه أبلغ في ايلامه ، وكل هذا مقدور لله تعالى يجب الإيمان به لإخبار الصادق به » [3] . وقال ابن كثير معلقاً على ما أورده من هذه الأحاديث : « ليكون ذلك أنكى في تعذيبهم ، وأعظم في تعبهم ولهيبهم ، كما قال شديد العقاب : ﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ [4] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (١٠٣/٣) ، وقال محقق المشكاة : « رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، قلت : وسنده صحيح » .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٩٤/٣) ، ونسب إلى الحاكم والذهبي تصحيح الحديث ووافقهما على ذلك على ضعف في أحد رواة الحديث وهو ابن إسحق ، وقد ساق المؤلف كثيرا من المتابعات والشواهد للحديث . والبيضاء اسم جبل . أو يعني بها المدينة المعروفة بالمغرب .

(٣) شرح النووي على مسلم : (١٨٦/١٧) .

(٤) النهاية لابن كثير : (١٣٩/٢) .

الفصل الثامن

طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم

طعام أهل النار الضريع والزقوم ، وشرابهم الحميم والغسلين والغساق ، قال تعالى : ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۞ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾[1] ، والضريع شوك بأرض الحجاز يقال له الشبرق . وعن ابن عباس : الشبرق : نبت ذو شوك لاطىء بالأرض ، فإذا هاج سمي ضريعا . وقال قتادة : من أضرع الطعام وأبشعه[2] . وهذا الطعام الذي يأكله أهل النار لا يفيدهم ، فلا يجدون له لذة ، ولا تنتفع به أجسادهم ، فأكلهم له نوع من أنواع العذاب .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۞ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۞ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾[3] . وقد وصف شجرة الزقوم في آية أخرى فقال : ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۞ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۞ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۞ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۞ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ

---

(١) سورة الغاشية : ٦ ـ ٧ .

(٢) التخويف من النار لابن رجب : ص ١١٥ .

(٣) سورة الدخان : ٤٣ ـ ٤٦ .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾[1] .

وقال في موضع آخر : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾[2] .

ويؤخذ من هذه الآيات أن هذه الشجرة شجرة خبيثة ، جذورها تضرب في قعر النار ، وفروعها تمتد في أرجائها ، وثمر هذه الشجرة قبيح المنظر ولذلك شبهه برؤوس الشياطين ، وقد استقر في النفوس قبح رؤوسهم وإن كانوا لا يرونهم ، ومع خبث هذه الشجرة وخبث طلعها ، إلا أن أهل النار يلقى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفرا من الأكل منها إلى درجة ملء البطون فإذا امتلأت بطونهم أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي دردي الزيت ، فيجدون لذلك آلاما مبرحة ، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ اندفعوا إلى الحميم وهو الماء الحار الذي تناهى حرّه ، فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب وتشرب ولا تروى لمرض أصابها ، وعند ذلك يقطع الحميم أمعاءهم ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾[3] . هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم ، أعاذنا الله من حال أهل النار بمنه وكرمه .

وإذا أكل أهل النار هذا الطعام الخبيث من الضريع والزقوم غصّوا به لقبحه وخبثه وفساده ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾[4] ، والطعام ذو الغصة هو الذي يغص به آكله ، إذ يقف في حلقه .

---

(١) سورة الصافات : ٦٢ .

(٢) سورة الواقعة : ٥١ .

(٣) سورة محمد : ١٥ .

(٤) سورة المزمل : ١٢ .

وقد صور لنا الرسول ﷺ شناعة الزقوم وفظاعته ، فقال : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا ، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف عن يكون طعامه » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح[1] .

ومن طعام أهل النار الغسلين ، قال تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾[3] .

والغسلين والغساق بمعنى واحد ، وهو ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد ، وقيل ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم ، وقال القرطبي : هو عصارة أهل النار[4] .

وقد أخبر الحق أن الغسلين واحد من أنواع كثيرة تشبه هذا النوع في فظاعته وشناعته .

أما شرابهم فهو الحميم ، قال تعالى : ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾[5] ، وقال : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[6] ، وقال : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾[7] ، وقال: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾[8] .

---

(١) مشكلة المصابيح : (١٠٥/٣) ، وراوي الحديث هو ابن عباس .

(٢) سورة الحاقة : ٣٥ ـ ٣٧ .

(٣) سورة ص : ٥٨ .

(٤) يقظة أولي الاعتبار ، ص ٨٦ .

(٥) سورة محمد : ١٥ .

(٦) سورة الكهف : ٢٩ .

(٧) سورة ابراهيم : ١٦ ـ ١٧ .

(٨) سورة ص : ٥٧ .

وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شراب أهل النار :

الأول : الحميم ، وهو الماء الحار الذي تناهى حرّه ، كما قال تعالى : ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[1] ، والآن : هو الذي انتهى حره ، وقال : ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾[2] ، وهي التي انتهى حرها فليس بعدها حر .

النوع الثاني : الغساق ، وقد مضى الحديث عنه ، فإنه يذكر في مأكول أهل النار ومشروبهم .

النوع الثالث : الصديد ، وهو ما يسيل من لحم الكافر وجلده ، وفي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ ، قال : « إن على الله عهدا لمن شرب المسكرات ليسقيه طينة الخبال . قالوا : يا رسول الله ، وما طينة الخبال ؟ قال : عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار » .

الرابع : المهل . وفي حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد والترمذي عن النبي ﷺ في قوله : « كعكر الزيت ، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه » .

وقال ابن عباس : في تفسير المهل : « غليظ كدردي الزيت »

أكلهم النار

من أصحاب الذنوب من يطعمه الله جمر جهنم جزاء وفاقا ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[3] .

---

(١) سورة الرحمن : ٤٤ .

(٢) سورة الغاشية : ٥ .

(٣) سورة النساء : ١٠ .

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾[1] .

أما لباس أهل النار فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أنه يُفصّلُ لأهل النار حلل من النار ، كما قال تعالى : ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾[2] . وكان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية يقول : سبحان من خلق من النار ثيابا[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾[4] . والقطران : هو النحاس المذاب . وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقام يوم القيامة ، وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » . وخرجه ابن ماجة ولفظه : « النائحة إذا ماتت ولم تتب قطع الله لها ثيابا من قطران ودرعا من جرب » .

---

(١) سورة البقرة : ١٧٤ .

(٢) سورة الحج :١٩ .

(٣) التخويف من النار : ص ١٢٦ .

(٤) سورة إبراهيم : ٤٩ .

الفصل التاسع

عذاب أهل النار

المبحث الأول

شدة ما يكابده أهل النار من عذاب

النار عذابها شديد ، وفيها من الأهوال وألوان العذاب ما يجعل الإنسان يبذل في سبيل الخلاص منها نفائس الأموال ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾[1] ، وقال الحق في هذا المعنى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى

---

(١) سورة آل عمران : ٩١ .

(٢) سورة المائدة : ٣٦ .

بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال : ياابن آدم ، هل رأيت خيرا قط ؟ هل مرّ بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب »[1] .

إنها لحظات قليلة تنسي أكثر الكفار نعيما كلَّ أوقات السعادة والهناء . وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة : لو أن لك مافي الأرض من شيء أكنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم . فيقول : أردت منك أهون من هذا ، وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئا ، فأبيت إلا أن تشرك بي »[2] .

إن شدة النار وهولها تفقد الإنسان صوابه ، وتجعله يجود بكل أحبابه لينجو من النار ، وأنى له النجاة : ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾[3] .

وهذا العذاب الهائل المتواصل يجعل حياة هؤلاء المجرمين في تنغيص دائم ، وألم مستمر .

---

(١) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح : (١٠٢/٣) .
(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (٤١٦/١١) وانظر مشكاة المصابيح : (١٠٢/٣) .
(٣) سورة المعارج : ١١ .

المَبحَث الثاني

صُوَرٌ مِن عَذابِهِم

المطلب الأول

تفاوت عذاب أهل النار

لما كانت النار دركات بعضها أشدُّ عذابا وهولا من بعض كان أهلها متفاوتون في العذاب ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم وأحمد عن سمرة ، عن النبي ﷺ ، قال في أهل النار : « إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته » وفي رواية إلى « عنقه »[1] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن أخف أهل النار عذابا ، ففي صحيح البخاري عن النعمان بن بشير قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه » . وفي رواية أخرى في صحيح البخاري أيضا عن النعمان بن بشير : « إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل في القمقم »[2] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب شدة حرّ النار ، (٤/ ٢١٨٥) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (١١/ ٤١٧) ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان : (١/ ١٩٦) ، ورقمه ٣٦٣ ، واللفظ للبخاري .

وفي رواية عن النعمان بن بشير عند مسلم : « إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار . يغلي منهما دماغه ، كما يغلي المرجل ، ما يرى أن أحدا أشدّ منه عذابا ، وإنه لأهونهم عذابا »(١) .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : « إن أدنى أهل النار عذابا ينتعل نعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه »(٢) .

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ ، وذكر عنده عمه أبو طالب ، فقال : « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه ، يغلي منه أم دماغه »(٣) .

وقد جاءت النصوص القرآنية مصدقة لتفاوت أصحاب النار في العذاب كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾(٤) وقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾(٥) وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾(٦)

يقول القرطبي في هذا الموضوع : « هذا الباب يدلك على أن كفر من كفر فقط ، ليس ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى ، ولا شك أن الكفار في عذاب

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان : (١/١٩٦) ، ورقم الحديث : (٣٦٤) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان : (١/١٩٥) ورقم الحديث : (٣٦١) .

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (١١/٤١٧) ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ، (١/١٩٥) ، حديث رقم (٣٦٠) ، وساق فيه عدة أحاديث أخرى .

(٤) سورة النساء : ١٤٥ .

(٥) سورة غافر : ٤٦ .

(٦) سورة النحل : ٨٨ .

جهنم متفاوتون ، كما قد علم من الكتاب والسنة ، ولأنا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين وفتك فيهم وأفسد في الأرض وكفر ، مساويا لعذاب من كفر فقط وأحسن للأنبياء والمسلمين ، ألا ترى أبا طالب كيف أخرجه النبي ﷺ إلى ضحضاح لنصرته إياه ، وذبه عنه وإحسانه إليه ؟ وحديث مسلم عن سمرة يصح أن يكون في الكفار بدليل حديث أبي طالب ، ويصح أن يكون فيمن يعذب من الموحدين »[1] .

وقال ابن رجب : « واعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التي أدخلوا بها النار » ثم ساق الأدلة الدالة على ذلك ، وساق قول ابن عباس : « ليس عقاب من تغلظ كفره وأفسد في الأرض،ودعا إلى الكفر كمن ليس كذلك » ، ثم قال ابن رجب « وكذلك تفاوت عذاب عصاة الموحدين في النار بحسب أعمالهم ، فليس عقوبة أهل الكبائر كعقوبة أصحاب الصغائر ، وقد يخفف عن بعضهم بحسنات أخر له أو بما شاء الله من الأسباب ، ولهذا يموت بعضهم في النار »[2] .

المطلب الثاني
إنضاج الجلود

إن نار الجبار تحرق جلود أهل النار ، والجلد موضع الإحساس بألم الاحتراق ، ولذلك فإن الله يبدل لهم جلودا أخرى غير تلك التي احترقت ، لتحترق من جديد ، وهكذا دواليك ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٤٠٩ .

(٢) التخويف من النار : ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1] .

المطلب الثالث
الصهــر

من ألوان العذاب صب الحميم فوق رؤوسهم ، والحميم هو ذلك الماء الذي انتهى حره ، فلشدة حره تذوب أمعاؤهم وما حوته بطونهم ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾[2] .

أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ حتى يخلص إلى جوفه فيسلت مافي جوفه ، حتى يمرق من قدميه ، وهو الصهر ، ثم يعود كما كان » ، وقال : حسن غريب صحيح[3] .

المطلب الرابع
اللفــح

أكرم مافي الإنسان وجهه ، ولذلك نهانا الرسول ﷺ عن ضرب الوجه ، ومِنْ إهانة الله لأهل النار أنهم يحشرون في يوم القيامة على وجوههم عميا وصما وبكما ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا

---

(١) سورة النساء : ٥٦ .
(٢) سورة الحج : ١٩ .
(٣) التخويف من النار لابن رجب : ١٤٥ ، جامع الأصول : (١٠/ ٥٤٠)

﴿خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾[1] ، ويلقون في النار على وجوههم : ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] ، ثم إن ا لنار تلفح وجوههم وتغشاها أبدا لا يجدون حائلا يحول بينهم وبينها ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[3] ، ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾[4] ، ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[5] ، ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[6] وانظر إلى هذا المنظر الذي تقشعر لهوله الأبدان : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾[7] ، أرأيت كيف يقلب اللحم على النار ، والسمك في المقلى ، كذلك تقلب وجوههم في النار ، نعوذ بالله من عذاب أهل النار .

المطلب الخامس
السحب

ومن أنواع العذاب الأليم سحب الكفار في النار على وجوههم ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾[8] ، ويزيد من آلامهم حال سحبهم في النار أنهم مقيدون بالقيود والأغلال

---

(١) سورة الإسراء : ٩٧ .
(٢) سورة النمل : ٩٠ .
(٣) سورة الأنبياء : ٣٩ .
(٤) سورة المؤمنون : ١٠٤ .
(٥) سورة إبراهيم : ٥٠ .
(٦) سورة الزمر : ٢٤ .
(٧) سورة الأحزاب : ٦٦ .
(٨) سورة القمر : ٤٧ ـ ٤٨ .

والسلاسل ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾(١) ، قال قتادة : يسحبون مرة في النار وفي الحميم مرة(٢) .

المطلب السادس
تسويد الوجوه

يسود الله في الدار الآخرة وجوه أهل النار ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾(٣). وهو سواد شديد، كأنما حلت ظلمة الليل في وجوههم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٤) .

المطلب السابع
إحاطة النار بالكفار

أهل النار هم الكفار الذين أحاطت بهم ذنوبهم ومعاصيهم ، فلم تبق لهم حسنة ، كما قال تعالى في الرد على اليهود الذين قالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ

---

(١) سورة غافر : ٧٠ ـ ٧٢ .

(٢) التخويف من النار ، لابن رجب : ص ١٤٧ .

(٣) سورة آل عمران : ١٠٦ .

(٤) سورة يونس : ٢٧ .

﴿ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] ، ولا يكون المرء كذلك إلا إذا كان كافرا مشركا ، يقول صديق حسن خان : « المراد بالسيئة هنا الجنس ، ولا بدَّ أن يكون سببها محيطا به من جميع جوانبه ، فلا تبقى له حسنة ، وسدت عليها مسالك النجاة ، والخلود في النار هو للكفار والمشركين ، فيتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه الآية بالكفر والشرك ، وبهذا يبطل تشبث المعتزلة والخوارج لما ثبت في السنة متواترا من خروج عصاة الموحدين من النار »[2]

ولما كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السوار بالمعصم ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولذا فإن النار تحيط بالكفار من كل جهة ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[3]. والمهاد ما يكون من تحتهم، والغواش جمع غاشية ، وهي التي تغشاهم من فوقهم ، والمراد أن النيران تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾[4] ، وقال في موضع آخر : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾[5] ، وقد صرح بالإحاطة في موضع آخر : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[6] .

وقد فسر بعض السلف المهاد بالفرش ، والغواش باللحف[7] .

وتأتي الإحاطة من ناحية أخرى ، ذلك أن للنار سورا يحيط بالكفار ، فلا

---

(١) سورة البقرة : ٨١ .
(٢) يقظة أولي الاعتبار : ص ٦٧ .
(٣) سورة الأعراف : ٤١ .
(٤) سورة العنكبوت : ٥٥ .
(٥) سورة الزمر : ١٦ .
(٦) سورة التوبة : ٤٩ .
(٧) تفسير ابن كثير : (١٦٨/٣) .

يستطيع الكفار مغادرتها أو الخروج منها ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1]

وسرادق النار سورها وحائطها الذي يحيط بها .

المطلب الثامن
اطلاع النار على الأفئدة

ذكرنا أن أهل النار يضخم خلقهم في النار شيئا عظيما ، ومع ذلك فإن النار تدخل في أجسادهم حتى تصل إلى أعمق شيء فيهم ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾[2] ،قال بعض السلف في قوله : ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ ، قال : « تأكل العظم واللحم والمخ ولا تذره على ذلك »[3] .

وقال الحق تبارك وتعالى : ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[4] ، قال محمد بن كعب القرظي : « تأكله النار إلى فؤاده ، فإذا بلغت فؤاده أنشيء خلقه ، وعن ثابت البناني أنه قرأ هذه الآية ، ثم قال : تحرقهم النار إلى الأفئدة وهم أحياء لقد بلغ منهم العذاب ، ثم يبكي »[5] .

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .
(٢) سورة المدثر : ٢٦ - ٣٠ .
(٣) التخويف من النار ، لابن رجب : ١٤٦ .
(٤) سورة الهمزة : ٤ - ٧ .
(٥) التخويف من النار ، لابن رجب : ١٤٦ .

المطلب التاسع
اندلاق الأمعاء في النار

في الصحيحين عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال : « يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أقتابه في النار ، فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه ، فيقولون : أي فلان ، ما شأنك ، أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه »[1] . ثم هو يدور ويسعى حولها كما يدور الحمار برحاه .

ومن الذين يجرون أمعاءهم في النار عمرو بن لحى ، وهو أول من غير دين العرب ، وقد رآه الرسول ﷺ يجرُّ قصبة في النار ،ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرُّ قصبه في النار ، وكان أول من سيب السوائب »[2] .

المطلب العاشر
قيود أهل النار وأغلالهم وسلاسلهم ومطارقهم

أعدّ الله لأهل النار في النار سلاسل وأغلالا وقيودا ومطارق ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴾[3] ، ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا

(١) متفق عليه ، مشكاة المصابيح : (٦٤٢/٢) ، حديث رقم : ٥١٣٩ .
(٢) مشكاة المصابيح : (٦٨٨/٣) ، تسييب السوائب : تشريع سنة عمرو للعرب أحل فيه ما حرّم الله تعالى ، فقد حرّم أنواعا من الأنعام بأسباب لم ينزل الله بها من سلطان ، كأن يمنع ذبح تلك الحيوانات وحلبها والركوب عليها .
(٣) سورة الإنسان : ٤ .

غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1] ، والأغلال توضع في الأعناق ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] ، ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾[3] ، والأنكال : القيود ، سميت أنكالا لأن الله يعذبهم وينكل بهم بها ، ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا . . ﴾[4] ، والسلاسل نوع آخر من ألوان العذاب التي يقيد بها المجرمون كما يقيد المجرمون في الدنيا ، وانظر إلى هذه الصورة التي أخبرنا بها الكتاب الكريم ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾[5] .

وأعد الله لأهل النار مقامع من حديد ،وهي المطارق التي تهوي على المجرمين وهم يحاولون الخروج من النار ، فإذا بها تطوح بهم مرة أخرى إلى سواء الجحيم ، ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[6] .

---

(1) سورة المزمل : ١٢ ـ ١٣ .
(2) سورة سبأ : ٣٣ .
(3) سورة غافر : ٧١ .
(4) سورة المزمل : ١٢ .
(5) سورة الحاقة : ٣٠ ـ ٣٢ .
(6) سورة الحج : ٢١ ـ ٢٢ .

المطلب الحادي عشر
قرن معبوداتهم وشياطينهم بهم في النار

كان الكفار والمشركون يعظمون الآلهة التي يعبدونها من دون الله ، ويدافعون عنها ، ويبذلون في سبيل ذلك النفس والمال ، وفي يوم القيامة يدخل الحق تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله النار إهانة لعابديها وإذلالا لهم ، ليعلموا أنهم كانوا ضالين ، يعبدون مالا يملك لهم ضراً ولا نفعا ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۝ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] .

يقول ابن رجب : « لما عبد الكفار الآلهة من دون الله ، واعتقدوا أنها تشفع لهم عند الله ، وتقربهم إليه ، عوقبوا بأن جعلت معهم في النار إهانة لهم وإذلالا ، ونكاية لهم وإبلاغا في حسرتهم وندامتهم ، فإن الإنسان إذا قرن في العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشدَّ في ألمه وحسرته »[2] .

ومن أجل ذلك يقذف في يوم القيامة بالشمس والقمر في النار ، ليكونا مما توقد به النار ،تبكيتاًللظالمين الذين كانوا يعبدونها من دون الله ، ففي الحديث : « الشمس والقمر مكوران في النار »[3] .

يقول القرطبي : « وإنما يجمعان في جهنم ، لأنهما قد عبدا من دون الله ، لا

---

(١) سورة الأنبياء : ٩٨ ـ ٩٩ .

(٢) التخويف من النار : ص ١٠٥ .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ، والبزار والإسماعيلي والخطابي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/ ٣٢) .

تكون النار عذابا لهما ، لأنهما جماد ، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم ، هكذا قال بعض أهل العلم »[1] .

ولهذا المعنى يقرن الكفار بشياطينهم ليكون أشد لعذابهم : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[2] .

المطلب الثاني عشر
حسرتهم وندمهم ودعاؤهم

عندما يرى الكفار النار يندمون أشدَّ الندم ، ولات ساعة مندم ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[3] ، وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله ، فيرى كفره وشركه الذي يؤهله للخلود في النار ، فإنه يدعوبالثبور والهلاك ،﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾[4]. ويتكرر دعاؤهم بالويل والهلاك عندما يلقون في النار ، ويصلون حرها ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾[5] . وهناك يعلو صراخهم ويشتد عويلهم ، ويدعون ربهم آملين أن يخرجهم من النار ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٣٩٢ .

(٢) سورة الزخرف : ٣٦ ـ ٣٩ .

(٣) سورة يونس : ٥٤ .

(٤) سورة الانشقاق : : ١٠ ـ ١٢ .

(٥) سورة الفرقان : ١٣ ـ ١٤ .

﴿ ... أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[1] ، وهم يعترفون في ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقلة عقولهم ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[2] ، ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾[3] .

ولكن طلبهم يرفض بشدة ، ويجابون بما تستحق أن تجاب به الأنعام ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[4] .

لقد حق عليهم القول ، وصاروا إلى المصير الذي لا ينفع معه دعاء ولا يقبل فيه رجاء ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[5] .

ويتوجه أهل النار بعد ذلك بالنداء إلى خزنة النار ، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم كي يخفف الله عنهم شيئا مما يعانونه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾[6] .

---

(١) سورة فاطر : ٣٧ .
(٢) سورة الملك : ١٠ .
(٣) سورة غافر : ١٠ .
(٤) سورة المؤمنون : ١٠٦ ـ ١٠٨ .
(٥) سورة السجدة : ١٢ ـ ١٤ .
(٦) سورة غافر : ٤٩ ـ ٥٠ .

وعند ذلك يسألون الشفاعة كي يهلكهم ربهم ﴿ وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾[1] .

إنه الرفض لكل ما يطلبون ، لا خروج من النار ، ولا تخفيف من عذابها ، ولا إهلاك ، بل هو العذاب الأبدي السرمدي الدائم ، ويقال لهم آن ذاك : ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] .

هناك يشتد نحيبهم ، وتفيض دموعهم ، ويطول بكاؤهم ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3] ، إنهم يبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون دما ، وتؤثر دموعهم في وجوههم كما يؤثر السيل في الصخر ، ففي مستدرك الحاكم عن عبدالله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل النار ليبكون ، حتى لو أجريت السفن في دموعهم ، لجرت ، وإنهم ليبكون الدم - يعني - مكان الدمع » . وعن أنس بن مالك مرفوعا بلفظ : « يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم حتى تصير في وجوههم كهيئة الأخدود ، لو أرسلت فيه السفن لجرت »[4] ، لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهليهم عندما استحبوا الكفر على الإيمان ، واستمع إلى عويلهم وهم يرددون حال العذاب ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ

---

(١) سورة الزخرف : ٧٧ .

(٢) سورة الطور : ١٦ .

(٣) سورة التوبة : ٨٢ .

(٤) أورد الشيخ ناصر الحديثين في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٢٤٥) حديث رقم ١٦٧٩ ، وعزا الحديث الأول منهما إلى الحاكم في مستدركه ، وقد قال فيه الحاكم : « حديث صحيح الإسناد » . ووافقه الذهبي قال الشيخ ناصر : وحقه أن يزيد : على شرط الشيخين « فإن رجاله كلهم من رجالهما ، وذكر أن أحد رجاله وهو أبو النعمان ويلقب (بعارم) كان قداختلط،وساق الشيخ ناصر الحديث الثاني شاهدا للأول ، وعزاه إلى ابن ماجة وابن أبي الدنيا ، ويزيد الرقاس أحد رواته ضعيف ، وباقي رجاله رجال الشيخين .

وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[1] .

وتأمل قوله تعالى يصف حالهم ، ونعوذ بالله من حالهم : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَآءَ ربك ﴾[2] ، قال الزجاج : الزفير من شدة الأنين وهو المرتفع جدّا . وقيل الزفير: ترديد النَّفَس في الصدر من شدة الخوف حتى تنتفخ منه الأضلاع ، والشهيق النَّفَس الطويل الممتد ، أو ردُّ النفس إلى الصدر ، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه .

وقال الليث : الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه ، والشهيق أن يخرج ذلك النفس[3] .

---

(١) سورة الأحزاب : ٦٦ .

(٢) سورة هود : ١٠٦ .

(٣) يقظة أولي الاعتبار، لصديق حسن خان ص ٧٢ .



الفصل العاشر

كيف يتقي الإنسان نار الله

لما كان الكفر هو السبب في الخلود في النار فإن النجاة من النار تكون بالإيمان والعمل الصالح ، ولذا فإن المسلمين يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم كي يخلصهم من النار ، ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[1] ، ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[2] .

وقد فصّلت النصوص هذا الموضوع فبينت الأعمال التي تَقي النار ، فمن ذلك محبة الله ، ففي مستدرك الحاكم ومسند أحمد عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « والله لا يلقي الله حبيبه في النار »[3] ، والصيام جنة من النار ، ففي مسند أحمد ، والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن عن جابر بن عبدالله عن

---

(١) سورة آل عمران : ١٦ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩١ ـ ١٩٤ .

(٣) حديث صحيح ، انظر صحيح الجامع ١٠٤/٦ ، ورقم الحديث : (١٠٤/٦) .

النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : الصيام جنة يستجن بها من النار »[1] ، وعند البيهقي في الشعب من حديث عثمان بن أبي العاص عن النبي ﷺ : « الصوم جنة من عذاب الله » ورواه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وإسناده صحيح[2] ، أما إذا كان الصوم في حال جهاد الأعداء فذاك الفوز العظيم ، فعن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال : « من صام يوما في سبيل الله بعَّد الله وجهه عن النار سبعين خريفا » ، رواه أحمد ، والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي[3] .

ومما ينجي من النار مخافة الله ، والجهاد في سبيل الله ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[4] ، وروى الترمذي والنسائي في سننهما عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم »[5] ، وفي صحيح البخاري عن أبي عبس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله ، فتمسه النار »[6] ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبدا »[7] .

ومما يقي العبد من النار استجارة العبد بالله من النار ، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[8] ، وفي مسند أحمد وسنن ابن ماجة وصحيح ابن حبان ومستدرك

---

(١) صحيح الجامع : (٤/١١٤) .
(٢) صحيح الجامع : (٣/٢٦٤) .
(٣) صحيح الجامع : (٥/٣١٠) .
(٤) سورة الرحمن : ٤٦ .
(٥) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥٦) ، حديث رقم : ٣٨٢٨ ، وقال المحقق: في إسناده : صحيح .
(٦) مشكاة المصابيح : (٢/٣٤٩) ، ورقمه : ٣٧٩٤ .
(٧) مشكاة المصابيح : (٢/٣٤٩) ، ورقمه ٣٧٩٥ .
(٨) سورة الفرقان : ٦٥ .

الحاكم بإسناد صحيح عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما سأل أحد الله الجنة ثلاثا ، إلا قالت الجنة : اللهم أدخله الجنّة ، ولا استجار رجل مسلم الله من النار ثلاثا ، إلا قالت النار : اللهمَّ أجره مني »[1] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في ذكر الملائكة الذين يلتمسون مجالس الذكر وفيه : أن الله عز وجل يسألهم وهو أعلم بهم ، فيقول : « فمم يتعوذون ؟ فيقولون : من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يا رب ما رأوها ، فيقول كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشدَّ منها فرارا ، وأشدَّ مخافة ، فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم »[2] .

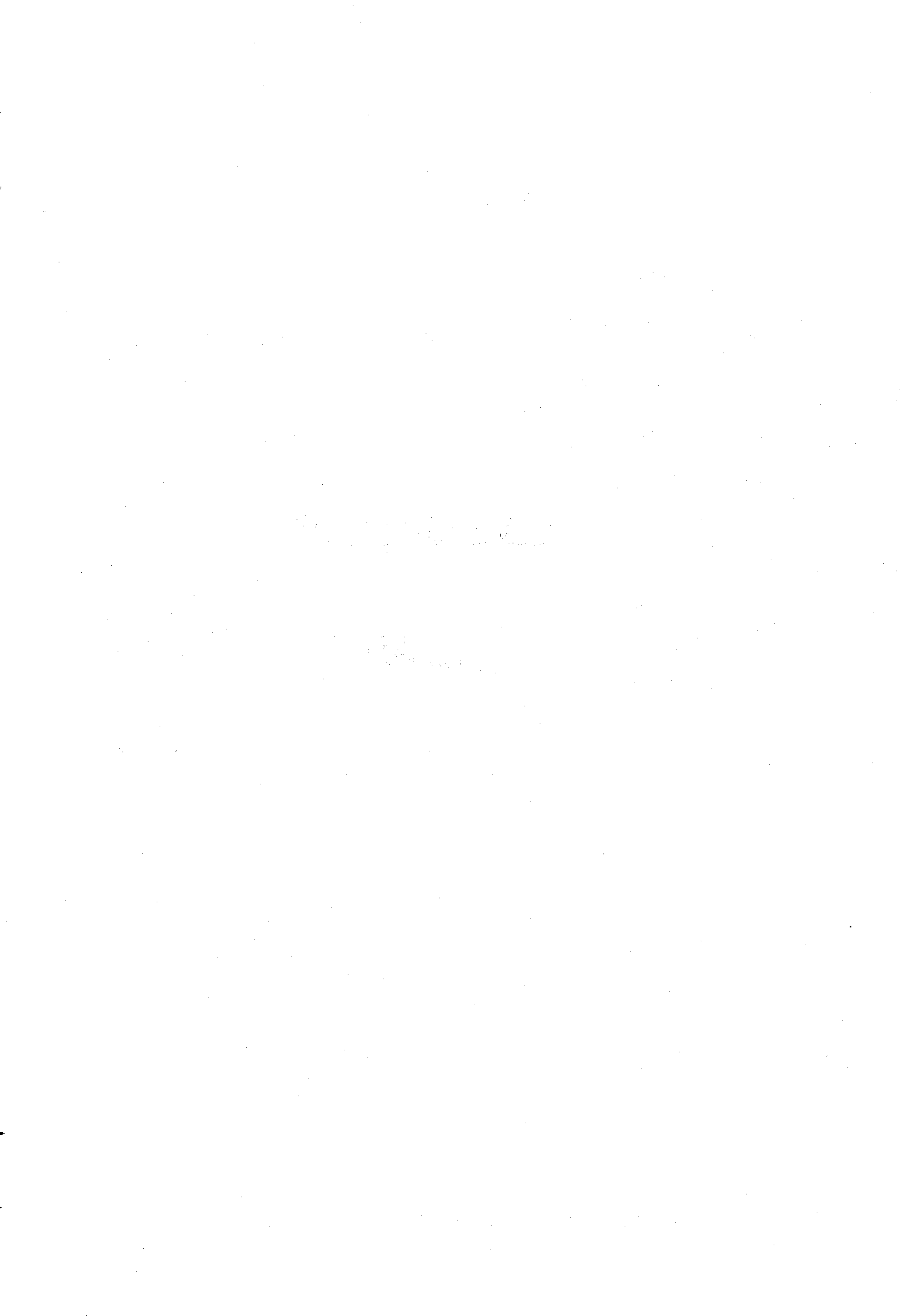
---

(١) صحيح الجامع : (١٤٥/٥) ، ورقمه : ٥٥٠٦ .
(٢) صحيح الجامع : (٢٣٣/٢) ، ورقمه : ٢١٦٩ ، وعزاه إلى البخاري ومسلم وأحمد .



البَابُ الثَانِي

الجَنَّة



تمهيد : تعريف وبيان

الجنة هي الجزاء العظيم ، والثواب الجزيل ، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته ، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص ، ولا يعكر صفوه كدر ، وما حدثنا الله به عنها ، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يحير العقل ويذهله ، لأن تصوُّر عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه .

استمع إلى قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي **« أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر » ثم قال الرسول ﷺ : اقرؤوا إن شئتم** ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[1][2] .

وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا ، فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافه حقير ، لا يساوي شيئا . ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها »[3] .

ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم ، والفوزالكبير ، والنجاة العظمى قال تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ

---

(١) سورة السجدة : ١٧ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة في كتاب : بدء الخلق ، باب : ما جاء في صفة النار . فتح الباري : (٦/٣١٨) . ورقم الحديث : ٣٢٤٤ .

(٣) فتح الباري :(٦/٣١٩) . والنووي على مسلم : (١٧/١٦٦)

وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[1] وقال : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2] وقال أيضا : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[3] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٥ .

(٢) سورة التوبة : ٧٢

(٣) سورة النساء : ١٣

الفصل الأول

دخول الجنة

لا شك أن سعادة المؤمنين لا تعادلها سعادة عندما يساقون معززين مكرمين زمرا زمرا إلى جنات النعيم ، حتى إذا ما وصلوا إليها فتحت أبوابها ، واستقبلتهم الملائكة الكرام يهنئونهم بسلامة الوصول ، بعدما عانوه من الكربات ، وشاهدوه من الأهوال ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[1] ، أي طابت أعمالكم وأقوالكم وعقائدكم ، فأصبحت نفوسكم زاكية ، وقلوبكم طاهرة ، فبذلك استحققتم الجنات .

---

(١) سورة الزمر : ٧٢

المبحث الأول

الشفاعة في دخول الجنة

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين عندما يطول عليهم الموقف في يوم الجزاء يطلبون من الأنبياء أن يستفتحوا لهم باب الجنة ، فكلهم يتمنع ويتأبى ، ويقول : لست لها حتى يبلغ الأمر نبينا محمداً ﷺ فَيَشْفَعُ في ذلك ، فَيُشَفَّعُ ، ففي صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون ، حتى تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا ، استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ، لست بصاحب ذلك . . . »[1] الحديث . وذكر فيه تدافع الأنبياء لها ، حتى يأتون محمدا ﷺ ، فيؤذن لهم .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة : (١٨٦/٤) ، ورقمه : ١٩٥

المبحث الثاني

تهذيب المؤمنين وتنقيتهم قبل الدخول

بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار ، ثم يهذَّبون وينقَّون ، وذلك بأن يقتص لبعضهم من بعض إذا كانت بينهم مظالم في الدنيا ، حتى إذا دخلوا الجنة كانوا أطهارا أبرارا ، ليس لأحد عند الآخر مظلمة ، ولا يطلب بعضهم بعضا بشيء .

روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا »(١) .

وقد سبق أن ذكرنا في « أحاديث الشفاعة » في « القيامة » أن رسولنا ﷺ هو أول من يستفتح الجنة بعد أن يأبى أبو البشر آدم وأولو العزم من الرسل التعرض لهذه المهمة .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة ، فتح الباري : (٣٩٥/١١) .

المبحث الثالث

الأوائل في دخول الجنة

أول البشر دخولا الجنة على الإطلاق هو رسولنا محمد ﷺ ، وأول الأمم دخولا الجنة أمته ، وأول من يدخل الجنة من هذه الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وقد ساق ابن كثير الأحاديث الواردة في ذلك[1] فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يقرع باب الجنة » .

وروى مسلم عن أنس أيضا ، قال : قال رسول الله ﷺ : « آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك »

وثبت في الصحيحين وسنن النسائي ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، قال : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولا الجنة » .

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « أتاني جبريل ، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي » فقال أبو بكر : يا رسول الله ، وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي » .

---

(١) النهاية لابن كثير : (٢/٢١٣)

المبحث الرابع
الذين يدخلون الجنة بغير حساب

أول زمرة تدخل من هذه الأمة الجنة هم القمم الشامخة في الإيمان والتقى والعمل الصالح والاستقامة على الدين الحق يدخلون الجنة صفا واحدا ، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ، صورهم على صورة القمر ليلة البدر .

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوطون ، آنيتهم فيها الذهب ، أمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا »[1] .

وروى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفا أو سبعمائة ألف - لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر »[2] .

وقد صح أن الله أعطى رسوله ﷺ مع كل واحد من السبعين هؤلاء سبعين ألفا ، ففي مسند أحمد بإسناد صحيح عن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٣١٨/٦) ، ورواه مسلم والترمذي وغيرهما .
(٢) المصدر السابق ، فتح الباري : (٣١٩/٦) .

ﷺ قال : « أعطيت سبعين ألفا من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، فاستزدت ربي عز وجل ، فزادني مع كل واحد سبعين ألفا »[1] وفي مسند أحمد وسنن الترمذي وصحيح ابن حبان عن أبي أمامة بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال : « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بلا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ، وثلاث حثيات من حثيات ربي »[2]. فذكر في هذا الحديث زيادة ثلاث حثيات .

وقد وصف الرسول ﷺ السبعين ألفا الأوائل وبَيَّنَ علاماتهم ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ : « عرضت عليَّ الأمم ، فأخذ النبي يمر معه الأمة ، والنبي يمر معه النفر ، والنبي يمر معه العشرة ، والنبي يمر معه الخمسة ، والنبي يمرُّ وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل ، هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير . قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب ، قلت : ولم ؟ قال : كانوا لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون ، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : اللهمَّ اجعله منهم . ثم قام إليه رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : سبقك بها عكاشة »[3] .

ولعل هؤلاء هم الذين سماهم الحق بالمقربين ، وهم السابقون ،

---

(١) صحيح الجامع : (١/ ٣٥٠) ، ورقمه : ١٠٦٨

(٢) صحيح الجامع : (٦/١٠٨) . ورقمة : ٦٩٨٨

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب ، فتح الباري : (٤٠٥/١١)

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1]،
وهؤلاء ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[2].

(١) سورة الواقعة : ١٠ ـ ١٢
(٢) سورة الواقعة : ١٣ ـ ١٤

المبحث الخامس

الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة

روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفا »(١) .

وروى الترمذي عن أبي سعيد ، وأحمد والترمذي وابن حبان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام »(٢) .

وقد بَيَّن الرسول ﷺ في موضع آخر أن هؤلاء لم يكن عندهم شيء يحاسبون عليه ، هذا مع جهادهم وفضلهم ، أخرج الحاكم في مستدركه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : فقراء المهاجرين ، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ، ويستفتحون ، فيقول لهم الخزنة : أوقد حوسبتم ؟ فيقولون : بأي شيء نحاسب ، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك ؟ قال : فيفتح لهم ، فيقيلون فيه أربعين عاما قبل أن يدخلها الناس »(٣)

---

(١) مشكاة المصابيح : (٦٦٣/٢) ، ورقمه : ٥٢٣٥

(٢) صحيح الجامع : (٩٠/٤) ورقمه : ٤١٠٤

(٣) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٥٣٢/٢) ، ورقمه : ٨٥٣ ، وقد قال الشيخ ناصر فيه : أخرجه الحاكم ؛ وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، أقول (الشيخ ناصر) : إنما هو على شرط مسلم فقط .

وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال : « قمت على باب الجنة فكان عامَّة من دخلها المساكين ، وأصحاب الجدِّ محبوسـون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار »[1] وأصحاب الجد هم الأغنياء من المسلمين .

وقد وقع في الأحاديث السابقة أن الفقراء يسبقون الأغنياء بأربعين خريفاً ، وجاء في حديث آخر بخمسمائة عام ، ووجه التوفيق بين الحديثين أن الفقراء مختلفـو الحال ، وكذلك الأغنياء ـ كما يقول القرطبي ـ[2] فالفقراء متفاوتون في قوة إيمانهم وتقدمهم ، والأغنياء كذلك ، فإذا كان الحساب باعتبار أول الفقراء دخولا الجنة وآخر الأغنياء دخولا الجنة فتكون المدة خمسمائة عام ، أما إذا نظرت إلى آخر الفقراء دخولا الجنة وأول الأغنياء دخولا الجنة فتكون المدة أربعين خريفا ، باعتبار أول الفقراء وآخر الأغنياء والله أعلم »[3] .

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (٢/ ٣٤٥) .
(٢) التذكرة ، للقرطبي : ص ٤٧٠
(٣) النهاية لابن كثير : (٢/ ٣٤٥)

المبحث السادس
أول ثلاثة يدخلون الجنة

روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : عرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة : شهيد ، وعفيف متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح مواليه »[1] .

(١) جامع الأصول : (١٠/٥٣٥) ، وعزاه محقق الجامع إلى احمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه ، والبيهقي في السنن .

المَبحَث السَابع
دخول عصاة المؤمنين الجنة

المطلب الأول
إخراجهم من النار وإدخالهم الجنة بالشفاعة

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أمّا أهل النار الذين هم أهلها ؛ فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن[1] ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال : بخطاياهم) فأماتتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحما ، أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر[2] ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبّة تكون في حميل السيل »[3] .

ولمسلم من حديث جابر بن عبدالله يرفعه إلى رسول الله ﷺ : « إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها ، إلا دارات وجوههم ، حتى يدخلون الجنة »[4]

وهؤلاء الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة يسميهم أهل الجنة

---

(١) لكنْ هنا مخففة مهملة لا تعمل .

(٢) جماعات جماعات .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ، (١/١٧٢) .

(٤) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة ، (١/١٧٨) . ودارات وجوههم : ما يحيط بالوجه من جوانبه .

بالجنهميين ، ففي صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ ، فيدخلون الجنة ، يسمون الجهنميين »[1] .

وفي الصحيح أيضا عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يخرج[2] من النار بالشفاعة كأنهم الثعارير ، قلت : وما الثعارير ؟ قال : الضغابيس »[3] .

وروى البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « يخرج قوم من النار بعدما مسهم منها سَفْعٌ ، فيدخلون الجنة ، فيسميهم أهل الجنة : الجهنميين »[4] .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة الطويل في وصف الآخرة : « حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ، ممن أراد الله أن يرحمه ، ممن يقول : لا إله إلا الله ، فيعرفونهم في النار ، يعرفونهم بأثر السجود ، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود ، حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا[5] ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون منه ، كما تنبت الحبة في حميل السيل »[6] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (١١/٤١٨) ولهم ذكر في حديث جابر عند مسلم : (١/١٧٩) .

(٢) أي قوم .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (١١/٤١٦) والثعارير : قثاء صغار ، والضغبوس : نبت يخرج قدر شبر في دقة الأصبع لا ورق له ، وفيه حموضة . والمقصود (وصفهم بالبياض والدقة) .

(٤) المصدر السابق ، فتح الباري : (١١/٤١٦) .

(٥) احترقوا .

(٦) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الرؤية : (١/٢٩٩) حديث رقم : (١٨٢)

وقد ورد في أكثر من حديث أن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار أو نصف دينار أو مثقال ذرة من إيمان ، بل يخرج أقواما لم يعملوا خيرا قط ، ففي حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل الله أهل الجنة الجنة ، يدخل من يشاء برحمته ، ويدخل أهل النار النار ، ثم يقول : « انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه . . . »[1] .

وفي حديث جابر بن عبدالله في ورود النار : « ثم تحل الشفاعة ، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير مثقال شعيرة ، فيجعلون بفناء الجنة ، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء ، حتى ينبتوا نبات الشيء في حميل السيل . ويذهب حراقه[2] ثم يسأل حتى يجعل له الدنيا وعشرة أمثالها معها »[3] .

وفي حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه ما يزن بره ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة »[4] . والأحاديث في هذا كثيرة .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين : (١٧٢/١)
(٢) حراقه : معناه أثر النار ، والضمير في « حراقه » يعود على المخرجين .
(٣) صحيح مسلم ، باب أدنى أهل الجنة منزلة : (١٧٨/١)
(٤) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة : (١٨٢/١)

المطلب الثاني
موقف الفرق من الشفاعة

أنكرت الخوارج والمعتزلة[1] شفاعة الشافعين في أهل الكبائر والذين أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها ، والذين دخلوها أن يخرجوا منها ، قال القرطبي : « وهذه الشفاعة أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة ، فمنعتها على أصولهم الفاسدة وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقبيح »[2] .

وهذه المقولة المضادة للأحاديث الصحيحة المتواترة برزت والصحابة أحياء ، روى مسلم في صحيحه عن يزيد الفقير، قال: « كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج ، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد الحج ، ثم نخرج على الناس ، قال فمررنا على المدينة ، فإذا جابر بن عبدالله يحدث القوم ، جالس إلى سارية ، عن رسول الله ﷺ ، قال : فإذا هو ذكر الجهنميين ، قال : فقلت له : يا صاحب رسول الله ، ما هذا الذي تحدّثون به والله يقول : ﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾[3] ، و ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾[4] ؟ فما هذا الذي تقولون ؟ قال : فقال : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم . قال : فهل سمعت بمقام محمد عليه السلام (يعني الذي يبعثه الله فيه) ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يخرج الله به من يخرج قال : ثم نعت وضع الصراط ومرّ الناس عليه ، قال : وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك ، قال : غير أنه قد زعم أن قوما

---

(١) الخوارج فرقة خرجت بعد معركة صفين كفرت عليا ومعاوية ، ومن معهما ، وزعمت أن أهل المعاصي مخلدون في النار ، والمعتزلة أتباع واصل بن عطاء ذهبوا مذهب المعتزلة ، في القول بتخليد أصحاب الكبائر في النار ، وتوقفوا في أمرهم في الدنيا .

(٢) التذكرة للقرطبي : ص ٢٤٩

(٣) سورة آل عمران : ١٩٢

(٤) سورة السجدة : ٢٠

يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها . قال : يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم ، قال : فيدخلون نهرا من أنهار الجنة فيغتسلون فيه ، فيخرجون كأنهم القراطيس[١] ، فرجعنا قلنا : ويحكم ، أترون الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ ؟ فرجعنا . فلا والله ، ما خرج منا غير رجل واحد »[٢] .

والخوارج والمعتزلة تطرفوا في هذه المسألة إذ زعموا أن أهل الكبائر لا يخرجون من النار ، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين ، كما أن المرجئة تطرفوا في الجانب المقابل حيث لم يقطعوا بدخول أحد من أهل الكبائر النار ، ويزعمون أن أهل الكبائر جميعا في الجنة من غير عذاب ، وكلا الفريقين مخالف للسنة المتواترة الثابتة عن الرسول ﷺ ، وهم مخالفون لإجماع سلف الأمة وأئمتها ، وقد هدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، حيث ذهبوا إلى أن أهل الكبائر تحت مشيئة الله ، إن شاء غفر لهم برحمته ، وإن شاء عذبهم بذنوبهم ، ثم أدخلهم الجنة برحمته ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٤] فالشرك لا يغفره الله ، وما دونه تحت المشيئة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . وحجة الخوارج في نفي هذه الشفاعة الآيات الواردة في نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ، فأهل الشرك يعتقدون أن الشفاعة عند الله كالشفاعة في الدنيا ، يشفع الشافع عند غيره بدون إذن منه ، ويشفع الشافع عند غيره وإن لم يرض عن المشفوع له ، وهذا لا يكون عند الله تبارك وتعالى ، وقد جاءت النصوص بإبطال هذا النوع من الشفاعة ،

---

(١) القراطيس : الصحف التي يكتب فيها .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة ، (١/١٧٩) ، ورقمه : ١٩١
(٣) سورة النساء : ٤٨
(٤) سورة الزمر : ٥٣

كماقال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾[1] . وقال : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[2] ، وقال : ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[3] ، وقد جاءت النصوص مبينة أن الشفاعة عند الله لا تكون إلا بإذنه ، ولا تكون إلا بعد أن يرضى عن الشافع والمشفوع له : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[4] وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[5] ، وقال : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾[6] ، وقال عن الملائكة أيضا : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[7] ، وقال : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[8] .

فهذه النصوص تنفي تلك الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين وتبطلها ، وتثبت الشفاعة التي تكون بإذن الله ورضاه عن الشافع والمشفوع ، والله لا يرضى عن الكفرة المشركين ، أمّا عصاة أهل التوحيد ، فيشفع فيهم الشافعون ، ولا يشفعون لمشرك . روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه »[9] .

---

(١) سورة البقرة : ٤٨

(٢) سورة المدثر : ٤٨

(٣) سورة غافر : ١٨

(٤) سورة البقرة : ٢٥٥

(٥) سورة الأنبياء : ٢٨

(٦) سورة النجم : ٢٦

(٧) سورة الأنبياء : ٢٨

(٨) سورة سبأ : ٢٣

(٩) رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (٤١٨/١١)

المبحث الثامن
آخر من يدخل الجنة

حدثنا الرسول ﷺ قصة آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنة ، وما جرى من حوار بينه وبين ربه ، وما أعطاه الله من الكرامة العظيمة التي لم يُصَدِّق أن الله أكرمه به لعظمها ، وقد جمع ابن الأثير روايات هذا الحديث في جامع الأصول ، ومنه نقلنا هذه الأحاديث[1] .

١ ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا الجنة : رجل يخرج من النار حبوا ، فيقول الله له : اذهب فادخل الجنة ؛ فيأتيها ، فيخيل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول : يارب ، وجدتها ملأى ، فيقول الله عز وجل : اذهب فادخل الجنة ؛ فإن لك مثل الدنيا ، ، وعشرة أمثالها ؛ أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا ، فيقول : أتسخر بي ـ أو أتضحك بي ـ وأنت الملك ؟ قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، فكان يقال : ذلك أدنى أهل الجنة منزلة » أخرجه البخاري ومسلم .

ولمسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار : رجل يخرج منها زحفا ، فيقال له : انطلق فادخل الجنة ، قال : فيذهب فيدخل الجنة ، فيجد الناس قد أخذوا المنازل ، فيقال له :

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٥٥٣)

أتذكر الزمان الذي كنت فيه ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : تمن ، فيتمنى فيقال له : لك الذي تمنيت ، وعشرة أضعاف الدنيا ، فيقول : أتسخر بي وأنت الملك ؟ قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه » وفي رواية الترمذي مثل هذه التي لمسلم .[1]

٢ ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشي مرة ، ويكبو مرة ، وتسفعه النار مرة ، فإذا ما جاوزها التفت إليها ، فقال : تبارك الذي نجاني منك ، لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين ، فترفع له شجرة ، فيقول : يارب ، أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها ، وأشرب من مائها ، فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها ؟ فيقول : لا ، يارب ، ويعاهده أن لايسأله غيرها، قال: وربه عز وجل يعذره،لأنه يرى مالا صبر له عليه، فيدنيه منها ، فيستظل بظلها ، ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى ، فيقول : أي رب ، أدنني من هذه لأشرب من مائها ، وأستظل بظلها ، لا أسألك غيرها فيقول : يا ابن آدم ، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها ؟ فيقول : لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها ؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها ، وربه تعالى يعذره ، لأنه يرى مالا صبر له عليه ، فيدنيه منها ، فيستظل بظلها ، ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة ، وهي أحسن من الأوليين ، فيقول : أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها ، وأشرب من مائها ، لا أسألك غيرها ، فيقول : يا ابن آدم ، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها ؟ قال : بلى ، يارب لا أسألك غيرها ـ وربه عز وجل

---

(١) رواه البخاري : (١١/٣٨٦) في الرقاق ، باب في صفة الجنة والنار ، وفي التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، ومسلم رقم : ١٨٦ في الإيمان ، باب آخر أهل النار خروجاً ، والترمذي رقم : ٢٥٩٨ في صفحة جهنم ، باب رقم ١٠ .

يعذره ، لأنه يرى مالا صبر له عليه ، فيدنيه منها ، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة ، فيقول : أي رب أدخلنيها ، فيقول : با ابن آدم ، ما يصريني[1] منك ، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ؟ قال : يارب ، أتستهزيء مني وأنت رب العالمين ؟ فضحك ابن مسعود ، فقال : ألا تسألوني مم أضحك ؟ فقالوا : مم تضحك ؟ قال : هكذا ضحك رسول الله ﷺ . فقالوا : مم تضحك يا رسول الله ؟ فقال : من ضحك رب العالمين، حين قال : أتستهزيء مني وأنت رب العالمين؟ فيقول : إني لا أستهزيء منك ، ولكني على ما أشاء قادر » أخرجه مسلم[2] .

وهذا الحديث هكذا أخرجه الحميدي وحده في أفراد مسلم ، والذي قبله في المتفق عليه ، وقال : إنما أفردناه للزيادة التي فيه .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة : رجل صرف الله وجهه عن النار قبل الجنة ، ومثل له شجرة ذات ظل ، فقال ، أي رب ، قربني من هذه الشجرة لأكون في ظلها . . وساق الحديث بنحو حديث ابن مسعود ، ولم يذكر : فيقول : يا ابن آدم ، ما يصريني منك ؟ . . إلى آخر الحديث » .

وزاد فيه : « ويذكِّره الله ، سل كذا وكذا ، فإذا انقطعت به الأماني ، قال الله : هو لك وعشرة أمثاله ، قال : ثم يدخل بيته ، فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين ، فيقولان : الحمد لله الذي أحياك لنا ، وأحيانا لك ، قال : « فيقول : ما اعطي أحد مثل ما أعطيت» أخرجه مسلم هكذا عقيب حديث ابن مسعود[3] .

---

(١) (ما يصريني) أي ما الذي يرضيك ، ويقطع مسألتك ، وأصل التصرية : القطع والجمع ، ومنه الشاة المصراة ، وهي التي جمع لبنها وقطع حلبه .

(٢) رقم ١٨٧ في الإيمان ، باب آخر أهل النار خروجاً .

(٣) رواه مسلم رقم : ١٨٨ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

المبحث التاسع

الذين دخلوا الجنة قبل يوم القيامة

أول من دخل الجنة من البشر هو أبو البشر آدم ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾[1] ،وقال: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[2] ، ولكن آدم عصى ربه بأكله من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها فأهبطه الله من الجنة إلى دار الشقاء : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[3] .

وقد رأى الرسول ﷺ الجنة ففي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : « اطلعت في الجنة فرأيت أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أهلها النساء »[4] .

---

(١) سورة البقرة : ٣٥

(٢) سورة الأعراف : ١٩

(٣) سورة طه : ١١٥ ـ ١٢٣

(٤) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٣١٨/٦)

ومن الذين يدخلون الجنة قبل يوم القيامة الشهداء ، ففي صحيح مسلم عن مسروق قال : سألنا عبدالله بن مسعود عن هذه الآية : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1] الآية ، قال : « إنا قد سألنا عن ذلك فقال : « أرواحهم في أجواف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة ، فقال : هل تشتهون شيئا ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا : قالوا : يارب ، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا »[2] .

ومن مات عرض عليه مقعده من الجنة والنار بالغداة والعشي ، ففي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعدة بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة »[3].

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٩

(٢) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥١) ، ورقمه : ٣٨٠٤

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، انظر مسلم بشرح النووي : (١٧/٣٠٠)

الفصل الثاني
الجنة خالدة وأهلها خالدون

المبحث الأول
النصوص الدالة على ذلك

الجنة خالدة لا تفنى ولا تبيد ، وأهلها فيها خالدون ، لا يرحلون عنها ولا يظعنون ، ولا يبيدون ولا يموتون ، ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾(١) ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾(٢)

وقد سقنا عند الحديث عن خلود النار ـ الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ذبح الموت بين الجنة والنار ، ثم يقال لأهل الجنة ولأهل النار : « يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » .

إن مقتضى النصوص أن الجنة تخلق خلقا غير قابل للفناء ، وكذلك أهلها ،

(١) سورة الدخان : ٥٦

(٢) سورة الكهف : ١٠٧

ففي الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعم ، لا ييأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه »[1] .

واستمع إلى النداء العلوي الرباني الذي ينادي به أهل الجنة بعد دخلوهم الجنة ، « إنَ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا ، فلا تبتئسوا أبدا ، فذلك قوله عز وجل[2] ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، باب في دوام نعيم الجنة ، (٢١٨١/٤) ، ورقمه : ٢٨٣٦ .

(٢) سورة الأعراف : ٤٣ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب دوام نعيم الجنة : (٢١٨٢/٤) ، ورقمه : ٢٨٣٧

المبحث الثاني
القائلون بفناء الجنة

قال بفناء الجنة كما قال بفناء النار الجهم بن صفوان إمام المعطلة ، وليس له سلف قط ، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا من أئمة المسلمين ، ولا من أهل السنة ، وأنكره عليه عامّة أهل السنة . وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة قال بفناء حركات أهل الجنة والنار ، بحيث يصيرون إلى سكون دائم ، لا يقدر أحد منهم على حركة[1] ، وكل هذا باطل ، قال شارح الطحاوية : « فأمّا أبدية الجنة ، وأنها لا تفنى ولا تبيد ، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[2] ، أي غير مقطوع ، ولا ينافي ذلك قوله : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾[3] [4] » وقد ذكر شارح الطحاوية اختلاف السلف في هذا الاستثناء فقال : « واختلف السلف في هذا الاستثناء : فقيل : معناه إلا مدة مكثهم في النار ، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها ، لا لكلهم . وقيل : إلا مدة مقامهم في الموقف . وقيل : إلا مدة مقامهم في القبور والموقف . وقيل : هو استثناء الرب ولا يفعله ، كما تقول : والله لأضربنك إلا أن

---

(١) راجع شرح الطحاوية : ص ٤٨٠ .
(٢) سورة هود : ١٠٨ .
(٣) سورة هود : ١٠٨ .
(٤) شرح الطحاوية : ٤٨١ .

أرى غير ذلك ، وأنت لا تراه ، بل تجزم بضربه . وقيل : « إلا » بمعنى الواو ، وهذا على قول بعض النحاة ، وهو ضعيف . وسيبويه يجعل إلا بمعنى لكن ، فيكون الاستثناء منقطعاً ، ورجحه ابن جرير وقال : إن الله تعالى لا خلف لوعده ، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1] . قالوا : ونظيره أن تقول : أسكنتك داري حولا إلا ما شئت ، أي سوى ما شئت ، ولكن ما شئت من الزيادة عليه . وقيل : الاستثناء لإعلامهم بأنهم - مع خلودهم - في مشيئة الله ، لأنهم لايخرجون عن مشيئته ، ولاينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[3] ، وقوله : ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾[4] - ونظائره كثيرة ، يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقيل : إن « ما » بمعنى « من » أي : إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء . وقيل غير ذلك .

وعلى كل تقدير ، فهذا الاستثناء من المتشابه ، وقوله : ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[5] . وكذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾[6] . وقوله : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[7] . وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع

---

(١) سورة هود : ١٠٨ .
(٢) سورة الإسراء : ٨٦ .
(٣) سورة الشورى : ٢٤ .
(٤) سورة يونس : ١٦ .
(٥) سورة هود : ١٠٨ .
(٦) سورة ص : ٥٤ .
(٧) سورة الرعد : ٣٥ .

من القرآن، وأخبر أنهم : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [1]. وهذا الاستثناء منقطع ، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [2]- تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود ، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت ، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية ، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها »[3] .

(1) سورة الدخان : ٥٦ .

(2) سورة هود : ١٠٨ .

(3) شرح العقيدة الطحاوية : ٤٨١ .



الفَصْل الثالث

صِفَة الجَنَّة

المَبحَث الأوَّل

الجَنَّة لا مثل لها

نعيم الجنة يفوق الوصف ، ويقصر دونه الخيال ، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا ، ومهما ترقى الناس في دنياهم ، فسيبقى ما يبلغونه أمراً هينا بالنسبة لنعيم الآخرة ، فالجنة كما ورد في بعض الآثار لا مثل لها ، « هي نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وفاكهة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، في مقام أبدا ، في حَبْرة ونَضْرة ، في دور عالية سليمة بهية »[1] .

وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن بناء الجنة ، فأسمعنا الرسول ﷺ في الإجابة وصفا عجبا ، يقول عليه السلام في صفة بنائها : « لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها المسك الأذفر[2] ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وتربتها

(١) هذا نص حديث أورده ابن ماجه في سننه ، في كتاب الزهد ، باب صفة الجنة ، (١٤٤٨/٢) ، ورقمه : ٤٣٣٢ ، ولم ننسبه إلى الرسول ﷺ لأن في اسناده مقالا ، وإن كان ابن حبان أورده في صحيحه ، ومعناه جميل تشهد له النصوص من الكتاب والسنة .

(٢) الملاط : المادة التي توضع بين اللبنتين .

الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولا يموت ، ولا يبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم »[1] ، وصدق الله حيث يقول : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾[2] .

وما أخفاه الله عنا من نعيم الجنة شيء عظيم لا تدركه العقول ، ولا تصل إلى كنهه الأفكار ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3] وقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[4] »[5] ورواه مسلم من عدة طرق عن أبي هريرة وجاء في بعض طرقه : « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا ، بلْه[6] ما أطلعكم الله عليه ، ثمَّ قرأ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[7] »[8] ورواه مسلم عن سهل بن سعد الساعدي قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ في آخر حديثه :

---

(١) رواه أحمد والترمذي والدارمي ، انظر مشكاة المصابيح : (٣/٨٩) ، وهو صحيح بطرقه كما أشار إلى ذلك محقق المشكاة .

(٢) سورة الانسان: ٢٠ .

(٣) سورة السجدة : ١٧ .

(٤) سورة السجدة : ١٧ .

(٥) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٦/٣١٨) .

(٦) بَلْه : بفتح الباء وسكون اللام ، ومعناها : دع ما أطلعكم الله عليه ، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم ، وكأنه أضرب عنه استقلالا له في جنب مالم يطلع عليه . أفاده النووي في شرحه على مسلم (١٧/١٦٦) .

(٧) سورة السجدة : ١٧ .

(٨) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها : (٢/٢١٧٤) ، ورقم الحديث : ٢٨٢٤ .

« فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] »[2] .

---

(١) سورة السجدة : ١٦ ـ ١٧ .

(٢) رواه مسلم ، حديث رقم : ٢٨٢٤ .

المبحث الثاني

أبواب الجنة

للجنة أبواب يدخل منها المؤمنون كما يدخل منها الملائكة ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾[1] ، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[2] ، وأخبرنا الحق تبارك وتعالى أن هذه الأبواب تفتح عندما يصل المؤمنون إليها ، وتستقبلهم الملائكة محيية بسلامة الوصول : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[3] .

وعدد أبواب الجنة ثمانية ، وأحد هذه الأبواب يسمى الريّان وهو خاص بالصائمين ففي الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : « في الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمى الريّان ، لا يدخله إلا الصائمون ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل غيرهم »[4] .

وهناك باب للمكثرين من الصلاة ، وباب للمتصدقين ، وباب للمجاهدين ، بالإضافة إلى باب الصائمين المسمى بالريّان ، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين في سبيل الله من ماله ، دعي من أبواب الجنة ، وللجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل

---

(١) سورة ص : ٥٠ .

(٢) سورة الرعد : ٢٣ .

(٣) سورة الزمر : ٧٣ .

(٤) النهاية لابن كثير : (٢/٢١٤) .

الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام » .

فقال أبو بكر : والله ما على أحد من ضرر دعي من أيها دعي ، فهل يدعى منها كلها أحد يارسول الله ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[1] .

وسؤال أبي بكر يريد به شخصاً اجتمعت فيه خصال الخير ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وجهاد ، ونحو ذلك ، بحيث يدعى من جميع تلك الأبواب ، وقد أخبر الرسول ﷺ أن الذي ينفق زوجين في سبيل الله يدعى من أبواب الجنة الثمانية ، وأخبر الرسول ﷺ أن الذي يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يرفع بصره إلى السماء ، فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله تفتح له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها يشاء .

فقد روى مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، وأهل السنن عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم رفع بصره إلى السماء ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء »[2] .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه خص الذين لا حساب عليهم بباب خاص بهم دون غيرهم وهو باب الجنة الأيمن ، وبقيتهم يشاركون بقية الأمم في الأبواب الأخرى ، ففي الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة في حديث الشفاعة « فيقول الله :

---

(١) النهاية لابن كثير : (٢/ ٢١٤) .
(٢) النهاية لابن كثير : (٢/ ٢١٩) .

يامحمد : أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر » ثم بين في هذا الحديث سعة أبواب الجنة ، وأن ما بين جانبي الباب كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى ، ففي الحديث السابق المتفق عليه يقول الرسول ﷺ : « والذي نفس محمد بيده : إن بين المصراعين من مصاريع الجنة ، أو ما بين عضادتي الباب ، كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى »[1] .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن أبواب الجنة تفتح في رمضان ، ففي الصحيحين ومسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء ، وفي رواية : « فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار »[2] .

وورد في بعض الأحاديث أن ما بين المصراعين مسيرة أربعين سنة ، فقد روى أحمد في « مسنده » وأبو نعيم في « الحلية » عن حكيم بن معاوية عن أبيه معاوية أن رسول الله ﷺ قال : « إن ما بين المصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم ، وإنه لكظيظ » وإسناده صحيح .

ورواه مسلم وأحمد عن عتبة بن غزوان قال : « لقد ذكر لنا أن ما بين المصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم ، وإنه لكظيظ من الزحام » .

---

(١) النهاية لابن كثير : (٢٢١/٢) .
(٢) مشكاة المصابيح : (٦١٢/١) .

ورواه الطبراني في معجمه الكبير عن عبد الله بن سلام : « إن ما بين المصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة ، يزاحم عليه كازدحام الإبل وردت لخمس ظمأ »[1] .

(١) هذا التحقيق أخذناه بشيء من الاختصار من سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني : (٢٧٣/٤) ، ورقم الحديث : ١٦٩٨ .

المبحث الثالث

درجـــات الجنـــة

المطلب الأول

الأدلة على أن الجنة درجات ، وأهلها فيها متفاوتون في الرفعة

الجنة درجات بعضها فوق بعض ، وأهلها متفاضلون فيها بحسب منازلهم فيها ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾(1) .

ومن الذين وضحوا هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية ، قال : « والجنة درجات متفاضلة تفاضلا عظيما ، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم . قال تبارك وتعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾(2) .

فبين الله سبحانه وتعالى أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه ، وأن عطاءه ما كان محظوراً من بر ولا فاجر ، ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا

---

(1) سورة طه : ٧٥ .

(2) سورة الإسراء : ١٨ ـ ٢١ .

﴿ ... بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[1] . فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجات الآخرة أكبر من درجات الدنيا . وأن درجات الآخرة أكبر من درجات الدنيا ، وتفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين . فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[3] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » . وفي الصحيحين عن أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . وقد قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾[5] . وقال

(١) سورة الإسراء : ٢١ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٣ .
(٣) سورة الإسراء : ٥٥ .
(٤) سورة الحديد : ١٠ .
(٥) سورة النساء : ٩٥ ـ ٩٦ .

تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3] »[4].

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، فقالوا : يارسول الله ، أفلا نبشر الناس ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله ، فأسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، أراه قال : وفوقه عرش الرحمن ـ ومنه تفجر أنهار الجنة »[5] وثبت في الصحيح أيضا عن أنس أن أم حارثة أتت رسول الله ﷺ وقد هلك حارثة يوم بدر ، أصابه سهم غرب ، فقالت : يارسول الله ، قد علمت موقع حارثة من قلبي ، فإن كان في الجنة لم أبك عليه ، وإلا سوف ترى

---

(١) سورة التوبة : ١٩ .

(٢) سورة الزمر : ٩ .

(٣) سورة المجادلة : ١١ .

(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (١١/١٨٨) .

(٥) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب درجات المجاهدين في سبيل الله : فتح الباري : (٦/١١) .

ما أصنع ، فقال لها : أجنة واحدة هي ؟ إنها جنان كثيرة ، وإنه في الفردوس الأعلى »[1] .

وقد بين الرسول ﷺ أن أهل الجنة متفاضلون في الجنة بحسب منازلهم فيها ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءَون الكوكب الدري الغابر[2] في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم . قالوا : يارسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »[3] . وفي مسند أحمد وسنن الترمذي وسنن ابن ماجه وصحيح ابن حبان عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « إن أهل الدرجات العلى يراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما »[4] . قال القرطبي : « اعلم أن هذه الغرف مختلفة في العلو والصفة بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال ، فبعضها أعلى من بعض وأرفع . . . . وقوله : « والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » ولم يذكر عملا ، ولا شيئا سوى الإيمان والتصديق للمرسلين ، ذلك ليعلم أنه عنى الإيمان البالغ وتصديق المرسلين من غير سؤال آية ولا تلجلج ، وإلا فكيف تنال الغرفات بالإيمان والتصديق الذي للعامة ، ولو كان كذلك كان جميع الموحدين في أعالي الغرفات ، وأرفع الدرجات ، وهذا محال ، وقد قال الله تعالى :

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (٤١٨/١١) .

(٢) الغابر : الذاهب أو الباقي ، فإنَّ غَبَر من الأضداد ، يقال : غبر إذا ذهب ، وغبر إذا بقى ، ويعني به أن الكوكب حالة طلوعه وغروبه بعيد عن الأبصار فيظهر صغيرا لبعده .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (٣٢٠/٦) وصحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف ، (٢١٧٧/٤) ، ورقمه : ٢٨٣١ .

(٤) صحيح الجامع الصغير ، (١٨٧/٢) ، ورقمه : ٢٠٢٦ .

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[1] ، والصبر بذل النفس والثبات له وقوفا بين يديه بالقلوب عبودية وهذه صفة المقربين ، وقال في آية أخرى :

﴿وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾[2] ، فذكر شأن الغرفة ، وأنها لا تنال بالأموال والأولاد ، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح ، ثم بين أن لهم جزاء الضعف ، وأنَّ محلهم الغرفات ، يعلمك أن هذا إيمان طمأنينة وتعلق قلب به ، مطمئنا به في كل ما نابه ، وبجميع أموره وأحكامه ، فإذا عمل عملا صالحا ، فلا يخلطه بضده ، وهو الفاسد ، فلا يكون العمل الصالح الذي لا يشوبه فساد إلا مع إيمان بالغ مطمئن صاحبه بمن آمن وبجميع أموره وأحكامه ، والمخلط ليس إيمانه وعمله هكذا ، فلهذا كانت منزلته دون غيره »[3] .

وأهل الدرجات العاليات يكونون في نعيم أرقى من الذين دونهم ، فقد ذكر الله أنه أعد للذين يخافونه جنتين ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[4] ، ووصفهما ، ثم قال : ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[5] ، أي دون تلك الجنتين في المقام والمرتبة ، ومن تأمل صفات الجنتين اللتين ذكرهما الله آخراً علم أنهما دون الأوليين في الفضل، فالأوليان للمقربين ، والأخريان لأصحاب اليمين ، كما قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري[6] ، قال القرطبي : « لما وصف الجنتين أشار إلى الفرق بينهما ، فقال في الأوليين : ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾[7] ، وقال في الأخريين : ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ

(١) سورة الفرقان : ٧٥ .
(٢) سورة سبأ : ٣٧ .
(٣) التذكرة للقرطبي : ص ٤٦٤ .
(٤) سورة الرحمن : ٤٦ .
(٥) سورة الرحمن : ٦٢ .
(٦) التذكرة للقرطبي : ٤٤٠ .
(٧) سورة الرحمن : ٥٠ .

نَضَّاخَتَانِ ﴾[1] ، أي فوارتان بالماء ، ولكنهما ليستا كالجاريتين ، لأن النضخ دون الجري ، وقال في الأولين : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾[2] ، معروف وغريب ، رطب ويابس ، فعم ولم يخص ، وفي الأخريين : ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾[3] ، ولم يقل من كل فاكهة زوجان ، وقال في الأوليين : ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾[4] ، وهو الديباج ، وفي الأخريين : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾[5] ، والعبقرى الوشي، ولا شك أن الديباج أعلى من الوشي، والرفرف كسر الخبا ، ولا شك أن الفرش المعدة للاتكاء عليها أفضل من الخبا ، وقال في الأوليين في صفة الحور العين : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[6]،وفي الآخريتين : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾[7] ، وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان ، وقال في الأوليين: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾[8] ، وفي الأخيرتين : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾[9] ، أي خضراوان كأنهما من شدة خضرتهما سوداوان ، ووصف الأوليين بكثرة الأغصان ، والآخرتين بالخضرة وحدها »[10].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما

---

(١) سورة الرحمن : ٦٦ .
(٢) سورة الرحمن : ٥٢ .
(٣) سورة الرحمن : ٦٨ .
(٤) سورة الرحمن : ٥٤ .
(٥) سورة الرحمن : ٧٦ .
(٦) سورة الرحمن : ٥٨ .
(٧) سورة الرحمن : ٧٠ .
(٨) سورة الرحمن : ٤٨ .
(٩) سورة الرحمن : ٦٤ .
(١٠)التذكرة ، للقرطبي : ص ٤٤٠ .

وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »[1] ، وفي رواية الترمذي : « إن في الجنة جنتين من فضة . . » وذكر الحديث[2] .

وذكر الحق تبارك وتعالى أن الأبرار يشربون كأسا ممزوجة بالكافور ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [3] ، وقال في موضع آخر : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ [4] ، ويبدو أن هذا ـ والعلم عند الله ـ لأهل اليمين ، وقال في موضع آخر : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [5] ، فأهل اليمين يشربون شرابا ممزوجا من تسنيم وهي عين في الجنة ، والمقربون يشربون من تسنيم صرفا غير ممزوج .

المطلب الثاني
أعلى أهل الجنة وأدناهم منزلة

روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة أن الرسول ﷺ قال : « سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أي رب ؛ وكيف ؟ وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ، فيقول : لك ذلك ومثله ، ومثله ،

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٤٩٨) ، ورقمه : ٨٠٢٩ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) سورة الانسان : ٥ .
(٤) سورة الانسان : ١٧ .
(٥) سورة المطففين : ٢٧ .

ومثله ، ومثله . فقال في الخامسة : رضيت ، رب . فيقول : لك هذا وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك . فيقول : رضيت ربِّ .

قال : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » قال : ومصداقه في كتاب الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[1] » .

المطلب الثالث
المنزلة العليا في الجنة

أعلى منزلة في الجنة ينالها شخص واحد تسمى الوسيلة ، وسينالها ـ إن شاء الله ـ النبي المصطفى المختار خيرة الله من خلقه نبينا محمد ﷺ ، قال ابن كثير في النهاية : « ذكر أعلى منزلة في الجنة ، وهي الوسيلة ، فيها مقام رسول الله ﷺ » وساق في ذلك حديث جابر بن عبدالله عند البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته : حلت له الشفاعة يوم القيامة » .

وساق حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند مسلم في صحيحه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليَّ فإن من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله تعالى لي الوسيلة ، فإن من سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة »[2] .

---

(١) سورة السجدة : ١٧ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها : (١٧٦/١) ، ورقمه : ١٨٩ .

وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ قائلين : « وما الوسيلة ؟ قال : أعلى درجة في الجنة ، لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون هو » رواه أحمد عن أبي هريرة ، وفي المسند عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الوسيلة درجة عند الله ، ليس فوقها درجة ، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة »[١] .

المطلب الرابع
الذين ينزلون الدرجات العاليات

من الذين يحلون الدرجات العاليات في الجنة الشهداء ، وأفضلهم الذين يقاتلون في الصفوف الأولى لا يلتفتون حتى يقتلوا ، ففي مسند أحمد ومعجم الطبراني عن نعيم بن همار[٢] بإسناد صحيح عن النبي ﷺ قال : « أفضل الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول ، فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة ، يضحك إليهم ربك ، فإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه »[٣] .

والساعي على الأرملة والمسكين له منزلة المجاهد في سبيل الله ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « الساعي على الأرملة والمسكين ، كالمجاهد في سبيل الله ـ وأحسبه قال : وكالقائم لا يفتر ، وكالصائم لا يفطر »[٤] .

---

(١) انظر هذه الأحاديث في « النهاية » لابن كثير : (٢/٢٣٣٢) .

(٢) قال ابن حجر في « تقريب التهذيب » : « نعيم بن همّار ، بتشديد الميم ، أو هبار ، أو خمّار ، بالمعجمة أو المهملة ، الغطفاني ، صحابي ، ورجح الأكثر أن اسم أبيه همار .

(٣) مسند أحمد : (٥/٢٨٧) . صحيح الجامع الصغير : (١/٣٦٣) ، ورقمه : ١١١٨ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، باب الاحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم : (٢/٢٢٨٦) ، ورقم الحديث : ٢٩٨٢ .

ومنزلة كافل اليتيم قريبة من منزلة الرسول ﷺ ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « كافل اليتيم له أو لغيره ، أنا وهو كهاتين في الجنة » وأشار مالك بالسبابة والوسطى[1] .

ويرفع الله درجة الآباء ببركة دعاء الأبناء ، ففي مسند أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة ، فيقول : يارب ، أَنّىٰ لي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[2] .

---

(١) المصدر السابق ، وقوله : (له أو لغيره) أي سواء أكفله من ماله ، أو من اليتيم بولاية شرعية .
(٢) النهاية لابن كثير : (٢/٣٤٠) .

المبحث الرابع

تربة الجنة

ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك عن أبي ذر في حديث المعراج قال : قال رسول الله ﷺ : « أدخلت الجنة ، فإذا فيها جنادل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » .

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي سعيد أن ابن صياد سأل الرسول ﷺ عن تربة الجنة ، فقال : « هي درمكة[1] بيضاء مسك خالص » وفي مسند أحمد عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ في اليهود : « إني سائلهم عن تربة الجنة ، وهي درمكة بيضاء ، فسألهم ، فقالوا : هي خبزة ياأبا القاسم ، فقال رسول الله ﷺ : « الخبز من الدر »[2] وروى أحمد والترمذي والدارمي عن أبي هريرة ، قال : قلت : يارسول الله ، مم خلق الخلق ؟ قال : « من ماء » . قلنا : الجنة ما بناؤها ؟ قال : « لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها الدر والياقوت ، وتربتها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولا يموت ، ولا يبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم »[3] .

---

(١) الدرمكة : واحدة الدرمك ، وهو الدقيق الحواري الخالص البياض .

(٢) انظر هذه الأحاديث في النهاية لابن كثير : (٢/٢٤٢) .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣/٨٩) ، ورقمه : ٥٦٣٠ ، وقال محقق المشكاة : وله طرق وشواهد ، وأورده في سلسلة الأحاديث الصحيحة .

المبحث الخامس
أنهار الجنة

أخبرنا الله تبارك وتعالى بأن الجنة تجري من تحتها الأنهار ، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾[1]، وأحيانا يقول: تجري من تحتهم الأنهار ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾[2] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن أنهار الجنة حديثا واضحا بيّنا ، ففي إسرائه صلوات الله وسلامه عليه : « رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها[3] نهران ظاهران ونهران باطنان ، فقلت : ياجبريل ، ما هذه الأنهار ؟ قال : أما النهران الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات »[4] .

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « رفعت لي السدرة ، فإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فأما الظاهران فالنيل والفرات ، وأما الباطنان : فنهران في الجنة »[5] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة »[6] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥ .
(٢) سورة الكهف : ٣١ .
(٣) الضمير عائد إلى سدرة المنتهى ، كما دل على ذلك سياق بعض الأحاديث .
(٤) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء ، (١/ ١٥٠) ، ورقم الحديث : ١٦٤ .
(٥) جامع الأصول : (١٠/ ٥٠٧) ، وقال المحقق : رواه البخاري تعليقا في الأشربة ، قال الحافظ في الفتح : وصله أبو عوانة والاسماعيلي والطبراني في « الصغير » من طريقه .
(٦) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة ، (٤/ ٢١٨٣) ورقم الحديث : =

« ولعل المراد من كون هذه الأنهار من الجنة أن أصلها منها كما أن أصل الإنسان من الجنة ، فلا ينافي الحديث ما هو معلوم مشاهد من أن هذه الأنهار تنبع من منابعها المعروفة في الأرض ، فإذا لم يكن هذا هو المعنى أو ما يشبهه ، فالحديث من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها ، والتسليم للمخبر عنها »[1] .

وقال القاري : « إنما جعل الأنهار الأربعة من أنهار الجنة ، لما فيها من العذوبة والهضم ، ولتضمنها البركة الإلهية ، وتشرفها بورود الأنبياء إليها وشربهم منها »[2] .

ومن أنهار الجنة الكوثر الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[3] وقد رآه الرسول ﷺ وحدثنا عنه ، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « بينما أنا أسير في الجنة ، إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف ، قلت : ما هذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فإذا طيبه ـ أو طينه ـ مسك أذفر » شك هُدْبة [4] .

وقد فسر ابن عباس : الكوثر بالخير الكثير الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ ، فقال أبو بشر لسعيد بن جبير راوي هذا التفسير عن ابن عباس : إن أناسا يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه [5] . وقد جمع الحافظ ابن كثير الأحاديث التي أخبر الرسول ﷺ فيها عن

= ٢٨٣٩ وعزاه الشيخ ناصر في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/ ٦) إلى مسلم وأحمد والآجري والخطيب .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٨) .

(٢) نقله عنه الشيخ ناصر في تعليقه على مشكاة المصابيح : (٣/ ٨٠) .

(٣) سورة الكوثر : ١ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض ، فتح الباري : (١١/ ٤٦٤) ، وهدبة أحد رواة الحديث .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض ، فتح الباري : (١١/ ٤٦٣) .

الكوثر ، فمن هذه الأحاديث ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس ، أن الرسول ﷺ حين أنزلت عليه ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[1] قال : « أتدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر وعدنيه الله عز وجل ، عليه خير كثير » .

وساق حديث أنس عند أحمد في مسنده عن الرسول ﷺ قال : « أعطيت الكوثر ، فإذا نهر يجري على ظهر الأرض ، حافتاه قباب اللؤلؤ ، ليس مسقوفا ، فضربت بيدي إلى تربته ، فإذا تربته مسك أذفر ، وحصباؤه اللؤلؤ » .

وفي رواية أخرى في المسند عن أنس يرفعه : « هو نهر أعطانيه الله في الجنة ، ترابه مسك ، ماؤه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، ترده طيور أعناقها مثل أعناق الجزور » .

وقد ساق الحافظ ابن كثير روايات أخرى كثيرة في الموضوع فارجع إليه إن شئت المزيد[2] .

وأنهار الجنة ليست ماء فحسب ، بل منها الماء ، ومنها اللبن ، ومنها الخمر ، ومنها العسل المصفى .

قال تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[3] .

---

(١) سورة الكوثر : ١

(٢) النهاية لابن كثير : (٢/٢٤٦) .

(٣) سورة محمد : ١٥ .

وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن حكيم بن معاوية (وهو جدّ بهز بن حكيم) أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة بحر العسل ، وبحر الخمر ، وبحر اللبن ، وبحر الماء ، ثم تنشق الأنهار بعد »[1] .

فأنهار الجنة تنشق من تلك البحار التي ذكرها الرسول ﷺ وأخبرنا الرسول ﷺ عن نهر يسمى بارق يكون على باب الجنة ، ويكون الشهداء في البرزخ عند هذا النهر ، ففي مسند أحمد ، ومعجم الطبراني ، ومستدرك الحاكم عن ابن عباس بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ، في قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا »[2] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٥٠٧) ، وقال المحقق : رواه الترمذي في صفة أنهار الجنة ، ورواه أيضا الدارمي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وهو كما قال .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٣/٢٣٥) ، ورقمه : ٣٦٣٦ .

المبحث السادس

عيون الجنة

في الجنة عيون كثيرة مختلفة الطعوم والمشارب ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[1] ، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾[2] ، وقال في وصف الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف ربه ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾[3] . وقال في وصف الجنتين اللتين دونها ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[4] .

وفي الجنة عينان يشرب المقربون ماءهما صرفا غير مخلوط ، ويشرب منهما الأبرار الشراب مخلوطا ممزوجاً بغيره .

العين الأولى : عين الكافور قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[5] . فقد أخبر أن الأبرار يشربون - شرابهم ممزوجا من عين الكافور ، بينما عباد الله يشربونها خالصا .

العين الثانية : عين التسنيم ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ

---

(١) سورة الحجر : ٤٥ .
(٢) سورة المرسلات : ٤١ .
(٣) سورة الرحمن : ٥٠ .
(٤) سورة الرحمن : ٦٦ .
(٥) سورة الانسان : ٥ - ٦ .

مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾(١) .

ومن عيون الجنة عين تسمى السلسبيل ، قال تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾(٢) ولعل هذه هي العين الأولى نفسها .

(١) سورة المطففين : ٢٢ ـ ٢٨ .

(٢) سورة الانسان : ١٧ ـ ١٨ .

المَبحَث السَابِع

قصُورالجَنَّة وخيامهَا

يبني الله لأهل الجنة في الجنة مساكن طيبة حسنة كما قال تعالى : ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾[1] . وقد سمى الله في مواضع من كتابه هذه المساكن بالغرفات ، قال تعالى : ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[2] ، وقال في جزاء عباد الرحمن : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾[3] ، وقال تعالى واصفا هذه الغرفات : ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾[4] ، قال ابن كثير : « أخبر عز وجل عن عباده السعداء أن لهم غرفا في الجنة وهي القصور أي الشاهقة ، ﴿ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾[5] طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات . وقد وصف لنا الرسول ﷺ هذه القصور ، ففي الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه عن أبي مالك الأشعري والترمذي عن عَلّيٍ أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام »[6] .

---

(١) سورة التوبة : ٧٢ .

(٢) سورة سبأ : ٣٧ .

(٣) سورة الفرقان : ٧٥ .

(٤) سورة الزمر : ٢٠ .

(٥) سورة الزمر : ٢٠ .

(٦) صحيح الجامع الصغير : (٢/٢٢٠) ، ورقمه : ٢١١٩ .

وقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن في الجنة خياما ، قال تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾[1] .

وهذه الخيام خيام عجيبة ، فهي من لؤلؤ ، بل هي من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها في السماء ستون ميلا ، وفي بعض الروايات عرضها ستون ميلا ، ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : « الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ثلاثون ميلا ، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون » ، قال أبو عبدالصمد والحارث عن أبي عمران : « ستون ميلا »[2] .

ورواه مسلم عن عبدالله بن قيس عن النبي ﷺ قال : « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلا ، للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن ، فلا يرى بعضهم بعضا » .

وفي رواية عند مسلم : « في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهل ، ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن »[3] .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن صفات قصور بعض أزواجه وبعض أصحابه ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، قال : أتى جبريل النبي ﷺ فقال : « يارسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام وطعام ، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب »[4] .

---

(١) سورة الرحمن : ٧٢ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة الجنة ، فتح الباري : (٣١٨/٦) .
(٣) رواه مسلم كتاب الجنة ، باب في صفة خيام الجنة : (٢١٨٢/٤) ؛ ورقمه : ٢٨٣٨ .
(٤) مشكاة المصابيح : (٢٦٦/٣) .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة وسمعت خشفة ، فقلت : من هذا ؟ فقال : هذا بلال ، ورأيت قصرا بفنائه جارية ، فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب ، فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتك » ، فقال عمر : بأبي أنت وأمي يارسول الله : أعليك أغار ؟ »[1].

وقد أخبرنا الرسول بالطريق الذي يحصل به المؤمن على مزيد من البيوت في الجنة ، فالذي يبني لله مسجدا يبني الله له بيتا في الجنة ، ففي مسند أحمد عن ابن عباس بإسناد صحيح أن الرسول ﷺ قال : « من بنى لله مسجدا ، ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى الله له بيتا في الجنة »[2] .

وفي مسند أحمد وصحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي وسنن ابن ماجه ، عن عثمان أن رسول الله ﷺ قال : « من بنى مسجدا ، يبتغي به وجه الله ، بنى الله له مثله في الجنة »[3] .

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد وسنن أبي داود ، وسنن النسائي وسنن ابن ماجه عن أم حبيبة أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى في اليوم والليلة اثنتي عشرة ركعة تطوعا ، بنى الله له بيتا في الجنة »[4] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢٢٦/٣) .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢٦٥/٥) ، ورقم الحديث : ٦٠٠٥ .
(٣) المصدر السابق ، ورقمه : ٦٠٠٧ .
(٤) صحيح الجامع : (٣١٦/٥) ، ورقمه : ٦٢٣٤ .

المبحث الثامن

نور الجنة

قال القرطبي : « قال العلماء : ليس في الجنة ليل ونهار ، وإنما هم في نور دائم أبدا ، وإنما يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب ، ذكره أبو الفرج بن الجوزي »[1] .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾[2] : « أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلا ونهارا ، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار »[3] .

ويقول ابن تيمية في هذا الموضوع : « والجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، ولا ليل ولا نهار ، لكن تعرف البكرة والعشية بنور يظهر من قبل العرش »[4] .

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٥٠٤ .

(٢) سورة مريم : ٦٢ - ٦٣.

(٣) تفسير ابن كثير : (٤٧١/٤) .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : (٣١٢/٤) .

المبحث التاسع

ريح الجنة

للجنة رائحة عبقة زكية تملأ جنباتها ، وهذه الرائحة يجدها المؤمنون من مسافات شاسعة ، ففي مسند أحمد وسنن النسائي وسنن ابن ماجه ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح أن الرسول ﷺ قال : « من قتل رجلا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاما »[1] .

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد ، وسنن النسائي ، وسنن ابن ماجه عن عبدالله بن عمرو أن الرسول ﷺ قال : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما »[2] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٣٥/٥) ، ورقم الحديث : ٦٣٢٤ .
(٢) صحيح الجامع : (٣٣٧/٥) ، ورقم الحديث : ٦٣٣٣ .

المبحث العاشر
أشجار الجنة وثمارها

المطلب الأول
أشجارها وثمارها كثيرة متنوعة دائمة

أشجار الجنة كثيرة طيبة متنوعة ، وقد أخبرنا الحق أن في الجنة أشجار العنب والنخل والرمان ، كما فيها أشجار السدر والطلح، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾(١) ، ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾(٢) ، ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾(٣) ، والسدر هو شجر النبق الشائك ، ولكنه في الجنة مخضود شوكه أي منزوع. والطلح : شجر من شجر الحجاز من نوع العضاه فيه شوك ، ولكنه في الجنة منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة .

وهذا الذي ذكره القرآن من أشجار الجنان شيء قليل مما تحويه تلك الجنـان ، ولذا قال الحق : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾(٤) ، ولكثرتها فإن أهلها يَدْعون منها بما يريدون ، ويتخيرون منها ما يشتهون ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾(٥) ، ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾(٦) ، ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ

---

(١) سورة النبأ : ٣١ ـ ٣٢ .
(٢) سورة الرحمن : ٦٩ .
(٣) سورة الواقعة : ٢٧ ـ ٣٢ .
(٤) سورة الرحمن : ٥٣ .
(٥) سورة ص : ٥ .
(٦) سورة الواقعة : ٢٠ .

وَعُيُونٍ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[1] ، وبالجملة فإن في الجنة من أنواع الثمار والنعيم كل ما تشتهيه النفوس وتلذه العيون ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾[2].

وقد قال ابن كثير كلاماً لطيفا دلل فيه على عظيم ثمار الجنة ، إذ استنتج أن الله نبه بالقليل على الكثير ، والهين على العظيم عندما ذكر السدر والطلح ، قال : « وإذا كان السدر الذي في الدنيا لا يثمر إلا ثمرة ضعيفة وهو النبق ، وشوكه كثير ، والطلح الذي لا يراد منه في الدنيا إلا الظل ، يكونان في الجنة في غاية من كثرة الثمار وحسنها ، حتى أن الثمرة الواحدة منها تتفتق عن سبعين نوعا من الطعوم ، والألوان ، التي يشبه بعضها بعضا ، فما ظنك بثمار الأشجار ، التي تكون في الدنيا حسنة الثمار ، كالتفاح ، والنخل ، والعنب ، وغير ذلك ؟ وما ظنك بأنواع الرياحين ، والأزاهير ؟ وبالجملة فإن فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نسأل الله منها من فضله »[3].

وأشجار الجنة دائمة العطاء ، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت ، وفصل دون فصل ، بل هي دائمة الإثمار والظلال ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[4] ، ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾[5] ، أي دائمة مستمرة ، وهي مع دوامها لا يمنع عنها أهل الجنة . ومن لطائف ما يجده أهل الجنة عندما تأتيهم ثمارها أنهم يجدونها تتشابه في

---

(١) سورة المرسلات : ٤١ ـ ٤٢ .
(٢) سورة الزخرف : ٧٢ .
(٣) النهاية لابن كثير : (٢/٢٦٢) .
(٤) سورة الرعد : ٣٥ .
(٥) سورة الواقعة : ٣٣ ـ ٣٤ .

المظهر ، ولكنها تختلف في المخبر ، ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾[1] .

وأشجار الجنة ذات فروع وأغصان باسقة نامية ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾[2] ، وهي شديدة الخضرة : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَّتَانِ ﴾[3] ، ولا توصف الجنة بأنها مدهامة إلا إذا كانت أشجارها مائلة إلى السواد من شدة خضرتها ، واشتباك أشجارها .

أمّا ثمار تلك الأشجار فإنها قريبة دانية مذللة ينالها أهل الجنة بيسر وسهولة ، ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[4] ، ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾[5] .

أما ظلها فكما قال تعالى : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[6]، ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾[7] ، ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ﴾ [8] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥ .
(٢) سورة الرحمن : ٤٧ ـ ٤٩ .
(٣) سورة الرحمن : ٦٣ ـ ٦٥ .
(٤) سورة الرحمن : ٥٥ .
(٥) سورة الإنسان : ١٤ .
(٦) سورة النساء : ٥٦ .
(٧) سورة الواقعة : ٣٠ .
(٨) سورة المرسلات : ٤١ .

المطلب الثاني
وصف بعض شجر الجنة

حدثنا الرسول ﷺ عن بعض شجر الجنة حديثا عجبا ينبيك عن خلق بديع هائل يسبح الخيال في تقديره والتعرف عليه طويلا ، ونحن نسوق لك بعض ما حدثنا الرسول ﷺ به .

١ ـ الشجرة التي يسير الراكب في ظلها مائة عام :

هذه شجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقها ، وقد بين الرسول ﷺ عظم هذه الشجرة بأن أخبر أن الراكب لفرس من الخيل التي تعد للسباق يحتاج إلى مائة عام حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه ، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « إن في الجنة لشجرة[١] يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام وما يقطعها »[٢] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾[٣] »[٤] .

ورواه مسلم عن أبي هريرة وسهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها »[٥] .

---

(١) في صحيح مسلم : شجرة .

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة ، فتح الباري : (٤١٦/١١) ورواه مسلم في كتاب الجنة ؛ باب إن في الجنة شجرة : (٢١٧٦/٢) ، ورقم الحديث : ٢٨٢٨ .

(٣) سورة الواقعة : ٣٠ .

(٤) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٣١٩/٦) .

(٥) رواه مسلم في كتاب الجنة ، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام (٢١٧٥/٢) ، ورقم الحديث : ٢٨٢٦ ، ٢٨٢٧ .

٢ ـ سدرة المنتهى :

وهذه الشجرة ذكرها الحق في محكم التنزيل ، وأخبر الحق أن رسولنا محمدا ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عندها ، وأن هذه الشجرة عند جنة المأوى ، كما أعلمنا أنه قد غشيها ما غشيها مما لا يعلمه إلا الله عندما رآها الرسول ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[1] . وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن هذه الشجرة بشيء مما رآه ، « ثم رفعت لي سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة . قال : (أي جبريل) هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار ، نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، قلت : ما هذان ياجبريل ؟ قال : أمّا الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات » . رواه البخاري ومسلم[2] .

وفي الصحيحين أيضا : « ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى ، ونبقها مثل قلال هجر ، وورقها مثل آذان الفيلة ، تكاد الورقة تغطي هذه الأمة . فغشيها ألوان لا أدري ما هي ، ثم أدخلت الجنة ، فإذا فيها جنابـذ اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك »[3] .

٣ ـ شجرة طوبى :

وهذه شجرة عظيمة كبيرة تصنع ثياب أهل الجنة ، ففي مسند أحمد ، وتفسير ابن جرير ، وصحيح ابن حبان عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ

---

(١) سورة النجم : ١٤ ـ ١٧ .

(٢) صحيح الجامع : (١٨/٣) ، ورقمه : ٢٨٦١ ، وعزاه إلى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٨٢/٤) ، وعزاه إلى البخاري ومسلم . ورقمه : ٤٠٧٥ .

قال : « طوبى شجرة في الجنة ، مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[1] .

وقد دل على أن ثياب أهل الجنة تشقق عنها ثمار الجنة ـ الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يارسول الله ، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة خلقا تخلق ، أم نسجا تنسج ؟ فضحك بعض القوم ، فقال رسول الله ﷺ : « ومم تضحكون ، مِنْ جاهل سأل عالما ؟ ثم أكب رسول الله ﷺ ، ثم قال : أين السائل ؟ قال : هو ذا أنا يارسول الله ، قال : « لا ، بل تشقق عنها ثمر الجنة ، ثلاث مرات »[2] .

المطلب الثالث

سيد ريحان الجنة

أخبرنا الله أن في الجنة ريحانا ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾[3] ، وأخبرنا الرسول ﷺ أن سيد ريحان أهل الجنة الحناء ، ففي معجم الطبراني الكبير بإسناد صحيح على شرط الشيخين عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « سيد ريحان الجنة الحناء »[4] .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٦٣٩/٤) ، ورقم الحديث : ١٩٨٥ ، والحديث إسناده حسن .

(٢) المصدر السابق : (٦٤٠/٤) .

(٣) الواقعة : ٨٩ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٠٧/٣) ، ورقمه : ١٤٢٠ .

المطلب الرابع
سيقان أشجار الجنة من ذهب

ومن عجيب ما أخبرنا به الرسول ﷺ أن سيقان أشجار الجنة من الذهب ، ففي سنن الترمذي ، وصحيح ابن حبان ، وسنن البيهقي ، بإسناد صحيح ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب »[1] .

المطلب الخامس
كيف يكثر المؤمن حظه من أشجار الجنة ؟

طلب خليل الرحمن أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام من نبينا محمد ﷺ في ليلة الإسراء أن يبلغ أمته السلام وأن يخبرهم بالطريقة التي يستطيعون بها تكثير حظهم من أشجار الجنة ، فقد روى الترمذي بإسناد حسن عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال : يامحمد ، أقرىء أمتك أن الجنة أرض طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »[2] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٥/١٥٠) ، قال ابن كثير في النهاية : (٢/٢٥٤) ، رواه الترمذي : وقال : حسن صحيح .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٥/٣٤) . ورقم الحديث : ٥٠٢٨ .

المبحث الحادي عشر

دواب الجنة وطيورها

في الجنة من الطيور والدواب مالا يعلمه إلا الله تعالى ، قال تعالى فيما يناله أهل الجنة من النعيم ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ ﴾[1] ، وفي سنن الترمذي عن أنس قال : سئل رسول الله ﷺ ما الكوثر ؟ قال : « ذاك نهر أعطانيه الله - يعني في الجنة - أشدُّ بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر[2] » . قال عمر إن هذه لَنَاعِمة ، قال رسول الله ﷺ : « أَكَلَتُها أنعم منها »[3] .

وأخرج أبو نعيم في الحلية ، والحاكم في مستدركه عن ابن مسعود قال : « جاء رجل بناقة مخطومة ، فقال : يارسول الله ، هذه الناقة في سبيل الله . فقال : « لك بها سبعمائه ناقة مخطومة[4] في الجنة » . وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، ووافقهما الشيخ ناصر الدين الألباني[5] . ورواه مسلم في صحيحه عن أبي مسعود الأنصاري ، قال : جاء رجل بناقة مخطومة ، فقال : هذه في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة » رواه مسلم[6] .

---

(١) سورة الواقعة : ٢١ - ٢٢ .

(٢) الجزر : الجمال .

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/٩١) ، قال المحقق : رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب ، قلت (الشيخ ناصر) : سنده حسن .

(٤) مخطومة : فيها خطام وهو قريب من الزمام .

(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٢٢٨) ، ورقم الحديث : ٦٣٤ .

(٦) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥٠) ، ورقمه : ٣٧٩٩ .

الفصل الرابع

أصحاب الجنة

المبحث الأول

الأعمال التي استحقوا بها الجنة

أصحاب الجنة هم المؤمنون الموحدون، فكل من أشرك بالله أو كفر به، أو كذب بأصل من أصول الإيمان فإنه يحرم من الجنان، ويكون في النيران .

والقرآن يذكر كثيراً أن أصحاب الجنة هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات ، وفي بعض الأحيان يفصل الأعمال الصالحة التي يستحق بها صاحبها الجنة .

ومن المواضع التي نص القرآن على استحقاق أهل الجنة الجنة بالإيمان والأعمال الصالحة قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا

(١) سورة البقرة : ٢٥

أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[1]. وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2]. وقوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[3]. وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4].

وقوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[5].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[6].وفي بعض الأحيان يذكر أنهم استحقوا الجنة لتحقيقهم أمراً من أمور الإيمان أو عملاً صالحاً، وقد يُفصل في الأعمال الصالحة، ويُطيل في ذلك .

ففي بعض الأحيان يذكر أنهم استحقوا الجنة بالإيمان والإسلام ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾[7].

---

(١) سورة النساء : ٥٦
(٢) سورة الأعراف : ٤١
(٣) سورة التوبة : ٩
(٤) سورة يونس : ٩ ـ ١٠
(٥) سورة الكهف : ٣٠ ـ ٣١
(٦) سورة طه : ٧٥ ـ ٧٦
(٧) سورة الزخرف : ٦٨ ـ ٧٠ .

وأحيانا يذكر أنهم استحقوها لأنهم أخلصوا دينهم لله ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[1].

وأحياناً يذكر استحقاقهم لها لقوة ارتباطهم بالله ورغبتهم إليه وعبادتهم له ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

ومن الأعمال الصبر والتوكل : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[3].

ومنها الاستقامة على الإيمان : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[4]. ومنها الإخبات إلى الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[5]. ومن ذلك الخوف من الله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[6]. ومن ذلك بغض الكفرة المشركين، وعدم موادتهم ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ

---

(١) سورة الصافات : ٤٠

(٢) سورة السجدة : ١٥ ـ ١٨

(٣) سورة العنكبوت : ٥٨ ـ ٥٩

(٤) سورة الأحقاف : ١٣

(٥) سورة هود : ٢٣

(٦) سورة الرحمن : ٤٧

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾[1].

وفي بعض الأحيان تفصل الآيات في ذكر الأعمال الصالحة التي يستحق بها أصحابها الجنة تفصيلاً كثيراً، فذكر في سورة الرعد أنهم استحقوها باعتقادهم أن ما أنزل على الرسول ﷺ هو الحق، وبوفائهم بالعهود، وعدم نقضهم الميثاق، ووصلهم ما أمر الله بوصله، وخشيتهم لله، وخوفهم من سوء الحساب، وصبرهم لله، وإقام الصلاة، والانفاق سراً وعلانية، ودرئهم بالحسنة السيئة ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[2].

وفي مطلع سورة المؤمنين حكم أن الفلاح إنما هو للمؤمنين، ثم بين الأعمال التي تؤهلهم للفلاح، وأعلمنا أن فلاحهم إنما يكون بإدخالهم الفردوس خالدين فيها أبدا . ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾

---

(١) سورة المجادلة : ٢٢

(٢) سورة الرعد : ٢١ ـ ٢٦

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن ثلاثة أعمال عظيمة يستحق بها أصحابها الجنة، فقد روى مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : « . . . وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»[2] .

---

(١) سورة المؤمنون : ١ ـ ١١ .

(٢) رواه مسلم، انظر شرح النووي على مسلم : (١٩٨/١٧) .

المبحث الثاني
طريق الجنة شاق

الجنة درجة عالية، والصعود إلى العلياء يحتاج إلى جهد كبير، وطريق الجنة فيه مخالفة لأهواء النفوس ومحبوباتها، وهذا يحتاج إلى عزيمة ماضية، وإرادة قوية، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره» ولمسلم حفت بدل حجبت[1] .

وفي سنن النسائي والترمذي وأبي داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لما خلق الله الجنة قال لجبريل : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفها بالمكاره، فقال : اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد»[2] .

وقد علق النووي في «شرحه على مسلم» على الحديث الأول قائلاً : «هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ من التمثيل الحسن، ومعناه لا يوصل الجنة إلا بارتكاب المكاره، والنار بالشهوات،وكذلك هما محجوبتان بهما ، فمن هتك الحجاب وصل المحجوب، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات، فأمّا المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادة،

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٥٢١) ورقمه : ٨٠٦٩

(٢) جامع الأصول : (١٠/٥٢٠) ورقمه : ٨٠٦٨، وقال الترمذي فيه : حديث حسن صحيح غريب.

والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها، وكظم الغيظ، والعفو، والحلم، والصدقة، والإحسان الى المسيء، والصبر عن الشهوات، ونحو ذلك»[1].

(١) شرح النووي على مسلم : (١٧/ ١٦٥)

المبحث الثالث

أهل الجنة يرثون نصيب أهل النار في الجنة

جعل الله لكل واحد من بني آدم منزلين : منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار، ثم إن من كتب له الشقاوة من أهل الكفر والشرك يرثون منازل أهل الجنة التي كانت لهم في النار، والذين كتب لهم السعادة من أهل الجنة يرثون منازل أهل النار التي كانت لهم في الجنة، قال تعالى في حق المؤمنين المفلحين بعد أن ذكر أعمالهم التي تدخلهم الجنة : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : «قال ابن أبي حاتم ـ وساق الإسناد الى أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأمّا المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار» وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك ، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له ، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى» وفي لفظ له : قال رسول الله ﷺ : «إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل

---

(١) سورة المؤمنون : ١٠ ـ ١١

مسلم يهودياً أونصرانياً، فيقال : هذا فكاك من النار» . . .وهذا الحديث كقوله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[1]. وقوله : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2]. فهم يرثون نصيب الكفار في الجنان[3].

---

(١) سورة مريم : ٦٣

(٢) سورة الزخرف : ٧٢

(٣) تفسير ابن كثير : (١٠/٥)

المبحث الرابع

الضعفاء أكثر أهل الجنة

أكثر من يدخل الجنة الضعفاء الذين لا يأبه الناس لهم، ولكنهم عندالله عظماء، لاخباتهم لربهم، وتذللهم له ، وقيامهم بحق العبودية لله ، روى البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ قالوا: بلى، قال: كل ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لأبره»(١) .

قال النووي في شرحه للحديث : «ومعناه يستضعفه الناس، ويحتقرونه، ويتجبرون عليه، لضعف حاله في الدنيا ، والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء . . . وليس المراد الاستيعاب»(٢) .

وفي الصحيحين ومسند أحمد عن أسامة بن زيد، قال : قال رسول الله ﷺ : «قمت على باب الجنة، فكان عامّة من دخلها المساكين، وأصحاب الجدّ محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»(٣) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «اطلعت في الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»(٤) .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٥٣٥)
(٢) النووي على مسلم : (١٧/١٨٧)
(٣) مشكاة المصابيح (٢/٦٦٣)، ورقمه: ٥٢٣٣
(٤) مشكاة المصابيح : (٢/٦٦٣)، ورقمه: ٥٢٣٤

المبحث الخامس

هل الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟

تخاصم الرجال والنساء في هذا والصحابة أحياء، ففي صحيح مسلم عن ابن سيرين قال: اختصم الرجال والنساء: أيهم أكثر في الجنة ؟ وفي رواية : إمّا تفاخروا، وإمّا تذاكروا : الرجال في الجنة أكثر أم النساء ؟ فسألوا أبا هريرة، فاحتج أبوهريرة على أنَّ النساء في الجنَّة أكثر بقول الرسول ﷺ «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوأ كوكب درّى في السماء، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم ، وما في الجنة أعزب»[١] .

والحديث واضح الدلالة على أن النساء في الجنة أكثر من الرجال، وقد احتج بعضهم على أن الرجال أكثر بحديث: «رأيتكن أكثر أهل النار». والجواب أنه لا يلزم من كونهنّ أكثر أهل النار أن يكن أقل ساكني الجنة كما يقول ابن حجر العسقلاني[٢]، فيكون الجمع بين الحديثين أن النساء أكثر أهل النار وأكثر أهل الجنة، وبذلك يكن أكثر من الرجال وجوداً في الخلق. ويمكن أن يقال : إن حديث أبي هريرة يدل على أن نوع النساء في الجنة أكثر سوءاً كن من نساء الدنيا أو من الحور العين، والسؤال هو : أيهما أكثر في الجنة: رجال أهل الدنيا أم نساؤها ؟ وقد وفَّق القرطبي بين النصين بأن النساء يكن أكثر أهل النار قبل الشفاعة وخروج

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب أول زمرة تدخل الجنة ؛ (٤/٢١٧٩) ، ورقم الحديث : ٢٨٣٤ .

(٢) فتح الباري : (٦/٣٢٥)

عصاة الموحدين من النار،فإذا خرجوا منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين كن أكثر أهل الجنة[1].

ويدل على قلة النساء في الجنة ما رواه أحمد وأبويعلي عن عمرو بن العاص قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ في هذا الشعب إذ قال : انظروا هل ترون شيئاً ؟ فقلنا : نرى غربانا فيها غراب أعصم، أحمر المنقار والرجلين، فقال رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة من النساء إلا من كان منهن مثل هذا الغراب في الغربان»[2].

---

(١) راجع التذكرة للقرطبي : ص ٤٧٥

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٤٦٦)، ورقمه: ١٨٥١، وصحح الشيخ اسناده .

المبحث السادس
الذين توفوا قبل التكليف

المطلب الأول
أطفال المؤمنين

أطفال المؤمنين الذين لم يبلغوا الحلم هم في الجنة إن شاء الله تعالى بفضل الله ورحمته . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[1] . واستدلَّ علي بن أبي طالب بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[2] . على أن أطفال المؤمنين في الجنة ، لأنهم لم يكتسبوا فيرتهنوا بكسبهم[3] . وقد عقد البخاري في صحيحه بابا عنون له بقوله : «باب فضل من مات له ولد فاحتسب» . وساق فيه حديث أنس رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «ما من الناس مسلم يتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» . وحديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النساء قلن للنبي ﷺ اجعل لنا يوماً ، فوعظهنَّ ، وقال : أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا لها حجاباً من النار. قالت امرأة : واثنان ؟ قال : واثنان»[4].

---

(١) سورة الطور: ٢١

(٢) سورة المدثر: ٣٨

(٣) التذكرة للقرطبي ص: ٥١١ ، وعزاه إلى أبي عمرو في التمهيد والاستذكار وأبي عبدالله الترمذي في نوادر الأصول .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب فضل من مات له ولد فاحتسب ، فتح الباري : (١١٨/٣) .

وعقد باباً آخر عنوانه : باب ما قيل في أولاد المشركين» وساق فيه حديث أنس السابق ، وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كان له حجاباً من النار أو دخل الجنة» . وحديث البراء رضي الله عنه قال : «لما توفى إبراهيم عليه السلام قال رسول الله ﷺ : «إن له مرضعاً في الجنة»[1] .

ووجه الدلالة في الأحاديث التي ساقها البخاري على أن أطفال المؤمنين في الجنة - كما يقول - ابن حجر - «أن من يكون سبباً في حجب النار عن أبويه أولى بأن يحجب هو . لأنه أصل الرحمة وسببها »[2] .

وقد جاءت نصوص صريحة في إدخال ذرية المؤمنين الجنة ، فمن ذلك حديث علي مرفوعاً عند عبدالله بن أحمد في زيادات المسند «إن المسلمين وأولادهم في الجنة»[3] .

وحديث أبي هريرة عند أحمد في مسنده مرفوعاً «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهما الله وإياهم بفضل رحمته الجنة»[4] .

وروى مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «صغارهم دعاميص[5] الجنة ، يتلقى أحدهم أباه أو قال أبويه ،

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المسلمين ، فتح الباري : (٣/٢٤٤) وحديث أبي هريرة رواه معلقاً .
(٢) فتح الباري : (٣/٢٤٤) .
(٣) فتح الباري : (٣/٢٤٥)
(٤) فتح الباري : (٣/٢٤٥)
(٥) يراد بالدعموص هنا : الآذن على الملوك المتصرف بين أيديهم .

فيأخذ بثوبه ، أو قال بيده ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى ، أو قال: فلا ينتهي حتى يدخله الله وإياه الجنة»[1].

وروى الإمام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «ذراري المسلمين في الجنة تكفلهم إبراهيم ﷺ»[2] .

وروى أبو نعيم في أخبار أصبهان ، والديلمي ، وابن عساكر عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «أطفال المؤمنين في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة ، حتى يدفعوهم إلى آبائهم يوم القيامة»[3].

وقد نقل النووي إجماع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين في الجنة ، ونَقَلَ عنه أنه توقف بعضهم في ذلك[4] .

وحكى القرطبي التوقف عن حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وإسحاق بن راهوية[5].

قال النووي : «توقف فيه بعضهم لحديث عائشة ، يعني الذي أخرجه مسلم بلفظ : «توفى صبي من الأنصار ، فقلت: طوبي له لم يعمل سوءًا ولم يدركه ، فقال النبي ﷺ : «أو غير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق للجنة أهلاً . . » .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/١٧٤) ، ورقم الحديث: ٤٣٢ .
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/١٥٦) ، ورقم الحديث: ٦٠٣ ، وذكر المحقق أن الحاكم صحح إسناده ووافقه الذهبي ، إلا أن الشيخ ناصر قال : هو حسن فقط .
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/٤٥١) ، ورقمه: ١٤٦٧ .
(٤) فتح الباري : (٣/٢٤٤)
(٥) التذكرة للقرطبي : (ص٥١١)

قال : والجواب عنه أنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير دليل ، أو قال ذلك قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة»[1] .

أقول: لعل الصواب أن الحديث يشير إلى أنه لا يجوز أن نجزم لواحد بعينه أنه من أهل الجنة ، وإن كنا نشهد لهم مطلقاً بالجنة . والأمر الثاني هو عدم الهجوم على ذلك كي لا يتجرأ الناس على مثل هذا كما هو حاصل في زماننا ، إذ يزعم نعاة الموتى أن ميتهم في الجنة ، وإن كان أفسق الناس .

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : « لا يشهد لكل معين من أطفال المؤمنين بأنه في الجنة ، وإن شهد لهم مطلقاً »[2] .

المطلب الثاني
أطفال المشركين

بَوّب البخاري في صحيحه باباً بعنوان «باب ما قيل في أولاد المشركين» وأورد فيه حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين ، فقال : الله إذخلقهم أعلم بما كانوا عاملين» .

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : «سئل النبي ﷺ عن ذراري المشركين ، فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين» .

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : كل مولود يولد

---

(١) فتح الباري : (٣/٢٤٤)
(٢) مجموعة فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٨١)

على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تنتج البهيمة ، هل ترى فيها جدعاء»[1] .

والبخاري رحمه الله تعالى ـ كما يقول ابن حجر ـ أشعر بهذه الترجمة أنه كان متوقفاً في أولاد المشركين ، وقد جزم بعد هذا في تفسير سورة الروم من صحيحه بما يدل على اختيار القول الصائر إلى أنهم في الجنة ، وقد رتب أيضاً أحاديث هذا الباب ترتيباً يشير إلى المذهب المختار ، فإنه صدره بالحديث الدال على التوقف ، ثم ثنى بالحديث المرجح لكونهم في الجنة ، ثم ثلث بالحديث المصرح بذلك في قوله في سياقه «وأما الصبيان حوله فأولاد الناس» قد أخرجه البخاري في التعبير بلفظ: «وأما الولدان الذين حوله فكل مولود يولد على الفطرة ، فقال بعض المسلمين : وأولاد المشركين ؟ فقال: وأولاد المشركين»[2].

قال ابن حجر : «ويؤيده ما رواه أبويعلي من حديث أنس مرفوعاً» سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم » إسناده حسن ، وَوَرَدَ تفسير «اللاهين» بأنهم الأطفال من حديث ابن عباس مرفوعاً أخرجه البزار. وأخرج أحمد من طريق خنساء بنت معاوية بن صريم عن عمتها قالت : «قلت : يا رسول الله ، مَنْ في الجنة ؟ قال : النبي في الجنة ، والشهيد في الجنة ، والمولود في الجنة» . وإسناده حسن[3] .

واحتجوا أيضاً بقوله ﷺ : « أطفال المشركين خدم أهل الجنة» رواه ابن منده في المعرفة ، وأبو نعيم في الحلية ، وأبويعلي في مسنده ، وحكم عليه الشيخ ناصر الدين الألباني بالصحة بمجموع طرقه[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ، فتح الباري : (٣/٢٤٦)
(٢) فتح الباري : (٣/٢٤٦)
(٣) فتح الباري : (٣/٢٤٦)
(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/٤٥٢) ، ورقمه : ١٤٦٨

والقول بأنهم في الجنة هو قول جمع من أهل العلم ، وهو اختيار أبي الفرج بن الجوزي[1] ، وقال النووي في هذا المذهب : «وهو المذهب الصحيح المختار الذي صار إليه المحققون لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[2] ، واحتج بالأدلة التي ساقها البخاري وغيره[3] .

أقول : وهذا القول هو الذي رجحه القرطبي أيضاً، وقد وفق القرطبي بين النصوص التي يظهر منها التعارض في هذا الموضوع بأن الرسول ﷺ قال في أول الأمر هم مع آبائهم أي في النار ، ثم حصل منه توقف في ذلك ، فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، ثم أوحى إليه أنه لايعذب أحد بذنب غيره ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[4] فحكم بأنهم في الجنة[5] ، وذكر في ذلك حديثاً رواه عبدالرزاق ، ولكن الحديث ضعيف كما قال ابن حجر العسقلاني[6] .

ويشكل على هذا التوفيق الذي ذكره ابن حجر أن المسألة ليست من مسائل النظر والاجتهاد ، ولكنها مسألة غيبية لا يتكلم فيها إلا بوحي ، والله أعلم.

وقد يشكل على القول بأن أولاد المؤمنين والمشركين في الجنة ما ورد من نصوص دالة على أن الله علم أهل الجنة والنار أزلا ، وأن الملك عندما يزور الرحم يكتب رزق الجنين وأجله وشقاءه وسعادته ، وقد يقال في الجواب : إن من مات صغيراً قبل الاكتساب فإنه يكون مكتوباً من السعداء وهو في بطن أمة ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٧٢/٢٤) ، (٣٠٣/٤)
(٢) سورة الإسراء : ١٥
(٣) فتح الباري : (٢٤٧/٣)
(٤) سورة الإسراء : ١٥
(٥) التذكرة للقرطبي : ص ٥١٥
(٦) فتح الباري : (٢٤٧/٣)

وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى أنهم في مشيئة الله تعالى ، وهذا منقول عن حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، وإسحاق ، ونقله البيهقي في «الاعتقاد» عن الشافعي في حق أولاد الكفار خاصة ، قال ابن عبدالبر : وهو مقتضى صنيع مالك ، وليس عنده في هذا شيء منصوص ، إلا أن أصحابه صرحوا بأن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال الكفار خاصة في المشيئة ، والحجة فيه حديث : «الله أعلم بما كانوا عاملين»(١) .

وهذا القول حكاه أبوالحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة(٢) ، وهو اختيار شيخ الإسلام ، فقد اختار أن أطفال المشركين في مشيئة الله ، وانهم يمتحنون في يوم القيامة ، وعزا القول بذلك إلى أبي الحسن الأشعري والإمام أحمد ، قال شيخ الإسلام : «والصواب أن يقال فيهم : الله أعلم بما كانوا عاملين ، ولا يحكم لمعين منهم بجنة ولا نار ، وقد جاء في عدة أحاديث أنهم يوم القيامة يمتحنون في عرصات القيامة يؤمرون وينهون ، فمن أطاع دخل الجنة ، ومن عصى دخل النار ، وهذا هو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة(٣) .

وقال في موضع آخر : «أطفال المشركين الذين لم يكلفوا في الدنيا يكلفون في الآخرة ، كما وردت بذلك أحاديث متعددة ، وهو القول الذي حكاه أبوالحسن الأشعري في أطفال المشركين ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه سئل عنهم فقال : «الله أعلم بما كانوا عاملين»(٤) .

---

(١) فتح الباري : (٣/٢٤٦)

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٨١ - ٤٠٤) ، (٢٤/٣٧٢)

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٤/٣٧٢) ، ٤/٣٠٣)

(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٨١)

وقد ذكر ابن حجر أنهم يمتحنون في الآخرة بأن ترفع لهم نار، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن أبى عذب ، أخرجه البزار من حديث أنس وأبي سعيد ، وأخرجه الطبراني من حديث معاذ بن جبل ، وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون ، ومن في الفترة من طرق صحيحة ، وحكى البيهقي في «كتاب الاعتقاد» أنه المذهب الصحيح[1] .

ويدل لصحة هذا القول ما ورد في محكم القرآن في قصة العبدالصالح الذي رَحَلَ نبيُّ الله موسى إلى لقائه في مجمع البحرين ، فإنه قال مبيناً السر في قتله الغلام : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾[2] ، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ في الغلام الذي قتله الخضر « طبع يوم طبع كافراً ، ولو ترك لأرهق أبويه طغياناً وكفراً » قال ابن تيمية معقباً على الحديث : «يعني طبعه الله في أم الكتاب ، أي أثبته وكتبه كافراً ، أي انه إن عاش كفر بالفعل» .

وقد ضعف القرطبي هذا المذهب محتجاً بأن الآخرة دار جزاء لا ابتلاء ، ففي « التذكرة » قال المؤلف (يعني نفسه) : « ويضعفه (القول بامتحانهم في عرصات القيامة) من جهة المعنى أن الآخرة ليست بدار تكليف ، وإنما هي دار جزاء : ثواب وعقاب ، وقال الحليمي : وهذا الحديث ليس بثابت ، وهو مخالف لأصول المسلمين ، لأن الآخرة ليست بدار امتحان ، فإن المعرفة بالله تعالى فيها تكون ضرورة ، ولا محنة مع الضرورة »[3] .

وهذا الذي اعترض به من أن التكليف ينقطع بالموت غير صحيح ، وقد رد

---

(١) فتح الباري : (٢٤٦/٣)

(٢) سورة الكهف : ٨٠

(٣) التذكرة : ص ٥١٤

على هذا شيخ الإسلام ابن تيمية ، قال : «التكليف إنما ينقطع بدخول دار الجزاء وهي الجنة والنار ، وأما عرصات القيامة فيمتحنون فيها كما يمتحنون في البرزخ ، فيقال لأحدهم : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[1] ، وقد ثبت في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال : «يتجلى الله لعباده في الموقف ، إذا قيل ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، فيتبع المشركون آلهتهم ، ويبقى المؤمنون ، فيتجلى لهم الرب الحق في غير الصورة التي كانوا يعرفون ، فينكرونه ، ثم يتجلى لهم في الصورة التي يعرفون ، فيسجد له المؤمنون ، وتبقى ظهور المنافقين كقرون البقر ، فيريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون ، وذلك قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[2][3].

فالمحنة لا تتوقف إلا بدخول الجنة والنار ، وما ذكره القرطبي من أن المعرفة بالله في ذلك اليوم ضرورية صحيح ، إلا أن المحنة تكون بالأمر والنهي كما ورد في بعض النصوص أن الله يكلفهم في ذلك اليوم بالدخول في النار ، فالذي يطيع يكون من أهل السعادة ، والذي يعصي يكون من أهل الشقاء .

---

(١) سورة القلم : ٤٢

(٢) سورة القلم : ٤٢

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٤/٣٧٢) ، وانظر : (١٧/٣٠٩)

المبحث السابع
مقدار ما يدخل الجنة من هذه الأمة

يدخل من هذه الأمة الجنة جموع كثيرة الله أعلم بعددهم ، ففي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال : حدثني ابن عباس ، قال : قال النبي ﷺ : «عرضت عليَّ الأمم ، فأخذ النبيُّ يمرُّ معه الأمّة ، والنبيُّ يمرُّ معه النفر ، والنبيُّ يمرُّ معه العشرة ، والنبي يمرُّ معه الخمسة ، والنبيُّ يمرُّ وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب»[1] .

والسواد الأول الذي ظنه الرسول ﷺ أمته هم بنو إسرائيل ، كما في بعض الروايات في الصحيح« فرجوت أن تكون أمتي فقيل هذا موسى وقومه»[2] .

ولا شك أن أمة محمد ﷺ أكثر من بني إسرائيل ، ففي الحديث «فإذا سواد كثير» قال ابن حجر «في رواية سعيد بن منصور «عظيم» وزاد «فقيل لي : انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي أنظر إلى الأفق الآخر مثله »، وفي رواية ابن فضيل : «فإذا سواد قد ملأ الأفق ، فقيل لي : انظرها هنا ، وها هنا في آفاق السماء » وفي حديث ابن مسعود : « فإذا الأفق قد سدّ بوجوه الرجال » ،

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً ، فتح الباري : (١١/٤٠٦)
(٢) فتح الباري : (١١/٤٠٧)

وفي لفظ لأحمد : « فرأيت أمتي قد ملؤوا السهل والجبل ، فأعجبني كثرتهم وهيأتهم» ، فقيل : أرضيت يا محمد ؟ قلت : نعم يا رب »[1] .

وقد ورد في بعض الأحاديث أن مع كل ألف من السبعين ألفاً سبعين ألفاً ، وثلاث حثيات من حثيات الله ، ففي مسند أحمد ، وسنن الترمذي وابن ماجه عن أبي أمامة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ، ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفاً ،وثلاث حثيات من حثيات ربي »[2] ، ولا شك أن الثلاث حثيات تدخل الجنة خلقاً كثيراً .

وقد كان رسولنا ﷺ يرجو أن تكون هذه الأمة نصف أهل الجنة ، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي سعيد الخدري عن الرسول ﷺ في ذكر بعث النار ، قال صلوات الله وسلامه عليه في آخره : « والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبرنا . فقال : « أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » ، فكبرنا . فقال : «أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبرنا . قال : « ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض ، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود »[3] .

بل ورد في بعض الأحاديث أن هذه الأمة تبلغ ثلثي أهل الجنة ، ففي سنن الترمذي بإسناد حسن ، وسنن الدارمي ، و«البعث والنشور» للبيهقي عن بريدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها من هذه الأمة ، وأربعون من سائر الأمم»[4] .

---

(١) فتح الباري : (٤٠٨/١١)

(٢) مشكاة المصابيح : (٦٤/٣) ، ورقمه : ٥٥٥٦ ، وقد حسنه الترمذي وصحح الشيخ ناصر إسناده .

(٣) مشكاة المصابيح : (٥٨/٣) ، ورقم الحديث : ٥٥٤١

(٤) مشكاة المصابيح : (٩٢/٣) ، ورقم الحديث : ٥٦٤٤

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «أنا أول شفيع في الجنة لم يصدّق نبي من الأنبياء ما صدقت ، وإن من الأنبياء نبيًّا ما صدقه من أمته إلا رجل واحد»[1] .

والسر في كثرة من آمن من هذه الأمة أن معجزة الرسول ﷺ الكبرى كانت وحياً متلواً يخاطب العقول والقلوب ، وهي معجزة باقية محفوظة إلى قيام الساعة ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من الأنبياء من نبيّ إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليَّ ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (١٢٤/٣) ، ورقم الحديث : ٥٧٤٤

(٢) مشكاة المصابيح : (١٢٤/٣) ، ورقم الحديث : ٥٧٤٦ .

المبحث الثامن
سادة أهل الجنة

المطلب الأول
سيدا كهول أهل الجنة

روى جمع من الصحابة منهم علي بن أبي طالب ، وأنس بن مالك ، وأبو جحيفة ، وجابر بن عبدالله ، وأبو سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال : « أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين » .

وقد ذكر الشيخ ناصر الدين الألباني طرقه في كتب السنة ، وقال في خاتمة تخريجه للحديث : « وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه صحيح بلا ريب ، لأن بعض طرقه حسن لذاته ، وبعضه يستشهد به . . »[1] .

المطلب الثاني
سيدا شباب أهل الجنة

أخبرنا الرسول ﷺ أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، ثبت ذلك من طرق كثيرة تبلغ درجة التواتر ، وقد جمع الشيخ ناصر الدين الألباني طرق الحديث في كتابه القيم « سلسلة الأحاديث الصحيحة » .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٨٧/١٢) ، ورقمه : ٨٢٤ .

فقد رواه الترمذي والحاكم والطبراني وأحمد وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

ورواه الترمذي وابن حبان وأحمد والطبراني وغيرهم عن حذيفة رضي الله عنه قال أتيت النبي ﷺ ، فصليت معه المغرب ، ثم قام يصلي حتى العشاء ، ثم خرج ، فأتبعته ، فقال : « عرض لي ملك استأذن ربه أن يسلم عليَّ ويبشرني في أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

وأخرجه الحاكم وابن عساكر عن عبدالله بن عمر أن الرسول ﷺ قال: « ابناي هذان سيدا شباب أهل الجنة »[1] .

المطلب الثالث
سيدات نساء أهل الجنة

السيد الحق هو الذي يثني عليه ربه ويشهد له ، والسيدة الفاضلة هي التي يرضى عنها ربها ، ويتقبلها بقبول حسن ، وأفضل النساء هن اللواتي يَحُزْن جنات النعيم ، ونساء أهل الجنة يتفاضلن ، وسيدات نساء أهل الجنة : خديجة ، وفاطمة ، ومريم ، وآسية ، ففي مسند أحمد ، ومشكل الآثار للطحاوي ، ومستدرك الحاكم ، بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة أخطط ، ثم قال : « تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون »[2] .

---

(١) وإن أحببت أن تقف على رواته ، ومخرجيه من كتب السنة ، فارجع إلى سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٣٨/٢) ، ورقم الحديث : ٧٩٧ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١٣/٤) ، ورقم الحديث : ١٥٠٨ .

ومريم وخديجة أفضل الأربع ، ففي صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال : « خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة »[1] .

ومريم هي سيدة النساء الأولى وأفضل النساء على الإطلاق ، فقد روى الطبراني بإسناد صحيح على شرط مسلم عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم ابنة عمران : فاطمة ، وخديجة ، وآسية امرأة فرعون »[2] . وكونها أفضل النساء على الإطلاق صرح به القرآن : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[3] ، وكيف لا تكون كذلك وقد صرح الحق بأنه تقبلها ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾[4] .

وهؤلاء الأربع نماذج رائعة للنساء الكاملات الصالحات ، فمريم ابنة عمران أثنى عليها ربها في قوله ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾[5] .

وخديجة الصديقة التي آمنت بالرسول ﷺ من غير تردد ، وثبتته ، وآسته بنفسها ومالها ، وقد بشرها ربها في حياتها بقصر في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أتى جبريل النبي ﷺفقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ، فتح الباري : (١٣٣/٧) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤١٠/٣) ، ورقم الحديث : ١٤٢٤ .

(٣) سورة آل عمران : ٤٢ .

(٤) سورة آل عمران : ٣٧ .

(٥) سورة التحريم : ١٢ .

طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب »[1] .

وآسية امرأة فرعون هان عليها ملك الدنيا ونعيمها ، فكفرت بفرعون وألوهيته ، فعذبها زوجها فصبرت حتى خرجت روحها إلى بارئها ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[2] .

وفاطمة الزهراء ابنة الرسول ﷺ الصابرة المحتسبة التقية الورعة فرع الشجرة الطاهرة ، وتربية معلم البشرية .

---

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها،فتح الباري : ١٣٣/٧ والحديث مروى في هذا الباب من طرق أخرى عن عائشة وعبدالله بن أبي أوفى .

(٢) سورة التحريم : ١١ .

المَبحث التَّاسِع
العَشَرة المبشرون بالجنَّة

نصَّ الرسول ﷺ نصا صريحا على أن عشرة من أصحابه من أهل الجنة ، ففي مسند أحمد عن سعيد بن زيد ، وسنن الترمذي عن عبدالرحمن بن عوف عن النبي ﷺ قال : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ، وسعد بن أبي وقاص في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة » وإسناده صحيح[1] .

وروى الحديث الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والضياء في المختارة عن سعيد بن زيد بلفظ فيه شيء من الاختلاف عن سابقه ، ولفظه : « عشرة في الجنة : النبي في الجنة ، وأبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة ، وسعد بن مالك في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة » وإسناده صحيح[2] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (١/٧٠) ، ورقمه : ٥٠ .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٤/٣٤) ، ورقمه : ٣٩٠٥ .

وتذكر لنا كتب السنة أن الرسول ﷺ كان يوما جالسا على بئر أريس وأبو موسى الأشعري بواب له ، فجاء أبو بكر الصديق فاستأذن ، فقال له الرسول ﷺ : « ائذن له وبشره بالجنة » ، ثم جاء عمر فقال : « ائذن له ، وبشره بالجنة » ثم جاء عثمان ، فقال : « إئذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه »[1] .

وروى ابن عساكر بإسناد صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « القائم بعدي في الجنة ، والذي يقوم بعده في الجنة ، والثالث والرابع في الجنة »[2] . ومراده بالقائم بعده : الذي يلي الحكم بعد موته ، وهؤلاء الأربعة هم أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ رضي الله عنهم جميعا .

وروى الترمذي والحاكم بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ قال لأبي بكر : « أنت عتيق من النار »[3] .

المبحث العاشر

بعض من نص على أنهم في الجنة غير ذكر

١ - ٢ ـ جعفر بن أبي طالب ، وحمزة بن عبدالمطلب :

من الذين أخبر الرسول ﷺ أنهم في الجنة جعفر وحمزة ، ففي سنن

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي ، جامع الأصول : (٥٦٢/٨) ، ورقمه : ٦٣٧٢ . والحديث طويل ، وقد اقتصرنا منه على موضع الشاهد فحسب .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (١٤٩/٤) ، ورقمه : ٤٣١١ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٢٤/٢) ، ورقمه : ١٤٩٤ .

(٤) قال الشيخ ناصر في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٢٦/٣) ، حديث رقم ١٢٢٦ : « حديث صحيح جاء من طرق عن أبي هريرة ، وابن عباس ، وعلي بن أبي طالب ، وأبي عامر والبراء » وقد ساق طرقة

الترمذي ، ومسند أبي يعلى ، ومستدرك الحاكم وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت جعفر بن أبي طالب ملكا يطير في الجنة بجناحين »[٤] .

وروى الطبراني ، وابن عدي ، والحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة البارحة ، فنظرت فيها ، فإذا جعفر يطير مع الملائكة ، وإذا حمزة متكىء على سرير » . وإسناده صحيح[١] .

وقد صح أن الرسول ﷺ قال : « سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب »[٢] .

٣ ـ عبدالله بن سلام :

روى أحمد والطبراني والحاكم بإسناد صحيح عن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ « عبدالله بن سلام عاشر عشرة في الجنة »[٣] .

٤ ـ زيد بن حارثة :

روى الروياني والضياء عن بريده أن النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة ، فاستقبلتني جارية شابّة ، فقلت : لمن أنت ؟ قالت : لزيد بن حارثة »[٤] .

٥ ـ زيد بن عمرو بن نفيل :

روى ابن عساكر بإسناد حسن عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «دخلت الجنة ، فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل درجتين »[٥] .

---

(١) صحيح الجامع : (٣/١٤٠) ، ورقمه : ٣٣٥٨ .
(٢) صحيح الجامع : (٣/٢١٩) ، ورقمه : ٣٥٦٩ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٤/٢٥) ، ورقمه : ٣٨٧٠ .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٣/١٤١) ، ورقمه : ٣٣٦١ .
(٥) صحيح الجامع الصغير : (٣/١٤١) ، ورقمه : ٣٣٦٢ .

وزيد هذا كان يدعو إلى التوحيد في الجاهلية ، وكان على الحنيفية ملة إبراهيم .

٦ ــ حارثة بن النعمان :

وروى الترمذي والحاكم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « دخلت الجنة ، فسمعت فيها قراءة ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : حارثة بن النعمان ، كذلكم البر ، كذلكم البر »(١) .

٧ ــ بلال ابن أبي رباح :

روى الطبراني وابن عدي بإسناد صحيح عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة ، فسمعت خَشْفة بين يدي ، قلت : ما هذه الخشفة ؟ فقيل : هذا بلال يمشي أمامك »(٢) .

وفي المسند بإسناد صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة ليلة أسري بي ، فسمعت من جانبها وجسا ، فقلت : يا جبريل ما هذا ؟ قال : بلال المؤذن »(٣) .

٨ ــ أبو الدحداح :

روى مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي وأحمد عن جابر بن سمرة أن

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (١٤٢/٣) ، ورقمه : ٣٣٦٦ .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (١٤٢/٣) ، ورقمه : ٣٣٦٤ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (١٤٣/٣) ، ورقمه : ٣٣٦٧ .

رسول الله ﷺ قال : « كم من عذق معلّق لابن الدحداح في الجنة »[1] .

وأبو الدحداح هذا هو الذي تصدق ببستانه : بيرحاء ، أفضل بساتين المدينة عندما سمع الله يقول : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾[2] .

٩ ــ ورقة بن نوفل :

روى الحاكم بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا ورقة بن نوفل ، فإني قد رأيت له جنة أو جنتين »[3] .

وورقة آمن بالرسول ﷺ عندما جاءته خديجة بالرسول ﷺ في أول أمره ، وتمنى على الله أن يدرك ظهور أمر الرسول ﷺ لينصره .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٤/١٨٥) ، ورقمه : ٤٤٥٠ .
(٢) سورة البقرة : ٢٤٥ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٦/١٥٣) ، ورقمه : ٧١٩٧ .

المبحث الحادي عشر

الجنة ليست ثمناً للعمل

الجنة شيء عظيم ، لا يمكن أن يناله المرء بأعماله التي عملها ، وإنما تنال برحمة الله وفضله ، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة »[1] .

وقد يشكل على هذا النصوص التي تشعر بأن الجنة ثمن للعمل ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

ولا تعارض بين الآيات وما دلّ عليه الحديث ، فإن الآيات تدل على أن الأعمال سبب لدخول الجنة ، وليست ثمنا لها . والحديث نفى أن تكون الأعمال ثمنا للجنة . وقد ضل في هذا فرقتان : الجبرية التي استدلت بالحديث على أن الجزاء غير مرتب على الأعمال ، لأنه لا صنع للعبد في عمله ، والقدرية استدلوا بالآيات ، وقالوا إنها تدل على أن الجنة ثمن للعمل ، وأن العبد مستحق دخول الجنة على ربه بعمله .

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٧٠) . ورقم الحديث : ٢٨١٦ .
(٢) سورة السجدة : ١٧ .
(٣) سورة الأعراف : ٤٢ .

يقول شارح الطحاوية في هذه المسألة .

« وأما ترتب الجزاء على الأعمال ، فقد ضل فيه الجبرية والقدرية ، وهدى الله أهل السنة ، وله الحمد والمنة ، فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات . فالمنفى في قوله ﷺ : « لن يدخل الجنة أحد بعمله » ـ باء العوض ، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة ، كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله ، بل ذلك برحمة الله وفضله . والباء التي في قوله : ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] وغيرها باء السبب ، أي بسبب عملكم ، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات ، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته »[2] .

---

(١) سورة السجدة : ١٧ .

(٢) شرح الطحاوية : ٤٩٥ .

الفصل الخامس

صفة أهل الجنة ونعيمهم فيها

يدخل أهل الجنة الجنة على أكمل صورة وأجملها ، على صورة أبيهم آدم عليه السلام ، فلا أكمل ولا أتم من تلك الصورة والخلقة التي خلق الله عليها أبا البشر آدم ، فقد خلقه الله تعالى بيده فأتم خلقه ، وأحسن تصويره ، وكل من يدخل الجنة يكون على صورة آدم وخلقته ، وقد خلقه الله طوالا كالنخلة السحوق ، طوله في السماء ستون ذراعا ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « خلق الله عز وجل آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا . . . فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، وطوله ستون ذراعا ، فلم يزال الخلق ينقص بعده »[1] .

وإذا كان خلقهم الظاهري متفق فكذلك خلقهم في باطنهم واحد، نفوسهم صافية ، وأرواحهم طاهرة زاكية ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة في الحديث الذي يصف فيه الرسول ﷺ دخول أهل الجنة ومنهم الزمرة الذين يدخلون الجنة

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ، (٤/٢١٨٣) ، ورقمه : ٢٨٤١ .

نورهم كالبدر قال : « أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء »[1] .

ومن جمال صورتهم أنهم يكونون جردا مردا كأنهم مكحلون ، وكلهم يدخل الجنة في عمر القوة والفتوة والشباب أبناء ثلاث وثلاثين ، ففي مسند أحمد وسنن الترمذي عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال : « يدخل أهل الجنة جردا مردا ، كأنهم مكحلون ، أبناء ثلاث وثلاثين »[2] .

وأهل الجنة ـ كما جاء في حديث أبي هريرة في الصحيحين ـ « لا يبصقون ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوطون »[3] .

وأهل الجنة لا ينامـون ، فقد جاء في حديث جابر بن عبدالله ، وعبدالله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ قال : « النوم أخو الموت ولا ينام أهل الجنة »[4] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب أول زمرة يدخلون الجنة : (٢١٧٩/٤) ، رقم الحديث ٢٨٣٤ .

(٢) صحيح الجامع : (٣٣٧/٦) ، ورقمه : ٧٩٢٨ ، وقال الشيخ ناصر فيه : صحيح .

(٣) هذا جزء من حديث طويل سقناه بكامله في « دخول الجنة » .

(٤) أورد الشيخ ناصر الدين الألباني هذا الحديث في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » : (٧٤/٣) ورقمه : ١٠٨٧ ، وقد ذكر هناك أنه أخرجه كثير من كتب الحديث منها الكامل لابن عدي ، والحلية لأبي نعيم ، تاريخ أصبهان لأبي الشيخ ، وقد جمع الشيخ ناصر طرق الحديث ، وختم الكلام على الحديث قائلا : « وبالجملة فالحديث صحيح من بعض طرقه عن جابر » .

الفصل السادس

نعيم أهل الجنة

المبحث الأول

فضل نعيم الجنة على متاع الدنيا

متاع الدنيا واقع مشهود ، ونعيم الجنة غيب موعود ، والناس يتأثرون بما يرون ويشاهدون ، ويثقل على قلوبهم ترك ما بين أيديهم إلى شيء ينالونه في الزمن الآتي ، فكيف إذا كان الموعود ينال غب الموت ؟ من أجل ذلك قارن الحق تبارك وتعالى بين متاع الدنيا ونعيم الجنة ، وبيّن أن نعيم الجنة خير من الدنيا وأفضل ، وأطال في ذم الدنيا وبيان فضل الآخرة ، وما ذلك إلا ليجتهد العباد في طلب الآخرة ونيل نعيمها .

وتجد ذم الدنيا ومدح نعيم الآخرة ، وتفضيل ما عند الله على متاع الدنيا القريب العاجل في مواضع كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾[1] . وقوله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[2] .

---

(١) سورة ال عمران : ١٩٨ .

(٢) سورة طه : ١٣١ .

وقال في موضع ثالث : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1] .

ولو ذهبنا نبحث في سر أفضلية نعيم الآخرة على متاع الدنيا لوجدناه من وجوه متعددة :

أولا : متاع الدنيا قليل ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[2] .

وقد صور لنا الرسول ﷺ قلة متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة بمثال ضربه فقال : « والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه ـ وأشار بالسبابة ـ في اليم ـ فلينظر بم ترجع »[3] . ما الذي تأخذه الأصبع إذا غمست في البحر الخضم ، إنها لا تأخذ منه قطرة . هذا هو نسبة الدنيا إلى الآخرة .

ولما كان متاع الدنيا قليلا ، فقد عاتب الله المؤثرين لمتاع الدنيا على نعيم الآخرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤ ـ ١٥ .
(٢) سورة النساء : ٧٧ .
(٣) صحيح مسلم : (٤/٢١٩٣) . ورقم الحديث : ٢٨٥٨ .
(٤) سورة التوبة : ٣٨ .

وقد ذكرنا في كتابنا هذا النصوص الدالة على كثرة نعيم الدنيا وعدم نفاذه وانقطاعه .

الثاني : هو أفضل من حيث النوع ، فثياب أهل الجنة وطعامهم وشرابهم وحليهم وقصورهم ـ أفضل مما في الدنيا ، بل لا وجه للمقارنة ، فإن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا ومافيها ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا ومافيها »[1] وفي الحديث الآخر الذي يرويه البخاري ومسلم أيضا عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ولقاب قوس أحدكم من الجنة خير مما طلعت عليه الشمس »[2] . وقارن نساء أهل الجنة بنساء الدنيا لتعلم فضل مافي الجنة على مافي الدنيا ، ففي صحيح البخاري عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءَت ما بينهما ، ولملأت ما بينهما ريحا ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا ومافيها »[3] .

وإذا شئت أن تطلع على المزيد من النصوص المبينة لفضل نعيم الجنة على متاع الدنيا فاقرأ الفصل المخصص لنعيم الجنة في كتابنا هذا .

الثالث : الجنة خالية من شوائب الدنيا وكدرها ، فطعام أهل الدنيا وشرابهم يلزم منه الغائط والبول ، والروائح الكريهة ، وإذا شرب المرء خمر الدنيا فقد عقله ، ونساء الدنيا يحضن ويلدن ، والمحيض أذى ، والجنة خالية من ذلك كله ، فأهلها لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يبصقون ولا يتفلون ، وخمر الجنة كما

---

(١) مشكاة المصابيح : (٨٥/٣) . ورقم الحديث : ٥٦١٣ .
(٢) مشكاة المصابيح : (٨٥/٣) . ورقم الحديث : ٥٦١٥ . والقدر : الموضع والمقدار .
(٣) مشكاة المصابيح : (٨٥/٣) . ورقم الحديث : ٥٦١٤ . والنصيف : الخمار .

وصفها خالقها ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[1] وماء الجنة لا يأسن، ولبنها لا يتغير طعمه ﴿ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾[2] ، ونساء أهل الجنة مطهرات من الحيض والنفاس وكل قاذورات نساء الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾[3] .

وقلوب أهل الجنة صافية ، وأقوالهم طيبة ، وأعمالهم صالحة ، فلا تسمع في الجنة كلمة نابية تكدر الخاطر ، وتعكر المزاج ، وتستثير الأعصاب ، فالجنة خالية من باطل الأقوال والأعمال ، ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾[4] ، ولا يطرق المسامع إلا الكلمة الصادقة الطيبة السالمة من عيوب كلام أهل الدنيا ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴾[5] ، ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾[6] ، ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴾[7] ، إنها دار الطهر والنقاء والصفاء الخالية من الأوشاب والأكدار ، إنها دار السلام والتسليم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾[8] .

ولذلك فإن أهل الجنة إذا خلصوا من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، ثم يهذبون وينقون بأن يقتص لبعضهم من بعض ، فيدخلون الجنة وقد صفت منهم القلوب ، وزال ما في نفوسهم من تباغض وحسد ونحو ذلك مما كان في

---

(١) سورة الصافات : ٤٦ .
(٢) سورة محمد : ١٥ .
(٣) سورة البقرة : ٢٥ .
(٤) سورة الطور : ٢٣ .
(٥) سورة النبأ : ٣٥ .
(٦) سورة مريم : ٦٢ .
(٧) سورة الغاشية : ١١ .
(٨) سورة الواقعة : ٢٥ .

الدنيا، وفي الصحيحين في صفة أهل الجنة عند دخول الجنة « لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيّا »[1] . وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾[2] .
والغل : الحقد ، وقد نقل عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب أن أهل الجنة عندما يدخلون الجنة يشربون من عين فيذهب الله مافي قلوبهم من غل ، ويشربون من عين أخرى فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم[3] ولعلهم استفادوا هذا من قوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾[4] .

الرابع : نعيم الدنيا زائل ، ونعيم الآخرة باق دائم ، ولذلك سمّي الحق تبارك وتعالى ما زين للناس من زهرة الدنيا متاعا ، لأنه يتمتع به ثمَّ يزول ، أمّا نعيم الآخرة فهو باق ، ليس له نفاد ، ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾[5] ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾[6] ، ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾[7] ، وقد ضرب الله الأمثال لسرعة زوال الدنيا وانقضائها ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[8] . فقد ضرب الله مثلا لسرعة زوال الدنيا وانقضائها

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٣١٨/٦) .
(٢) سورة الحجر : ٤٧ .
(٣) التذكرة ، للقرطبي : ص ٤٩٩ .
(٤) سورة الإنسان : ٢١ .
(٥) سورة النحل : ٩٦ .
(٦) سورة ص : ٥٤ .
(٧) سورة الرعد : ١٣ .
(٨) سورة الكهف : ٤٥ ـ ٤٦ .

بالماء النازل من السماء الذي يخالط نبات الأرض فيخضر ويزهر ويثمر ، وماهي إلا فترة وجيزة حتى تزول بهجته ، فيذوى ويصفر ، ثم تعصف به الرياح في كل مكان ، وكذلك زينة الدنيا من الشباب والمال والأبناء والحرث والزرع . . . كلها تتلاشى وتنقضي ، فالشباب يذوى ويذهب ، والصحة والعافية تبدل هرما ومرضا ، والأموال والأولادقد يذهبون ، وقد ينتزع الإنسان من أهلـه وماله ، أمّا الآخرة فلا رحيل ، ولا فناء ، ولا زوال ﴿ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[1].

الخامس : العمـل لمتـاع الدنيا ونسيان الآخرة يعقبه الحسرة والندامة ودخـول النـيران ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[2] .

---

(١) سورة النحل : ٣٠ ـ ٣١ .

(٢) سورة آل عمران : ١٨٥ .

المبحث الثاني

طعام أهل الجنة وشرابهم

سبق أن تحدثنا عن أشجار الجنة وثمارها ، وقطوفها الدانية المذللة تذليلا ، واختيار أهل الجنة من ثمارها ما يريدون ويشتهون ، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب ، ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[1] ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۝ ﴾[2] ، وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾[3] .

وذكرنا أيضا فيما سبق أن في الجنة بحر الماء ، وبحر الخمر ، وبحر اللبن ، وبحر العسل ، وأنّ أنهار الجنة تنشق من هذه البحار . وفي الجنة عيون كثيرة ، وأهل الجنة يشربون من تلك البحار والأنهار والعيون .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ ﴾[4] .

وقال : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾[5] . وقال : ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[6]

---

(١) سورة الواقعة : ٢٠ .
(٢) سورة الزخرف : ٧١ .
(٣) سورة الحاقة : ٢٤ .
(٤) سورة الإنسان : ٥ .
(٥) سورة الإنسان : ١٧ .
(٦) سورة المطففين : ٢٦ .

المطلب الأول
خمر أهل الجنة

من الشراب الذي يتفضل الله به على أهل الجنة الخمر ، وخمر الجنة خالي من العيوب والآفات التي تتصف بها خمر الدنيا ، فخمر الدنيا تذهب العقول ، وتصدع الرؤوس ، وتوجع البطون ، وتمرض الأبدان ، وتجلب الأسقام وقد تكون معيبة في صنعها أو لونها أو غير ذلك ، أمّا خمر الجنة فإنها خالية من ذلك كله ، جميلة صافية رائقة ، ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[1] . فقد وصف الله جمال لونها (بيضاء) ثم بين أنها تَلَذُّ شاربها من غير اغتيال لعقله ، كما قال : ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[2] ، ثم إن شاربها لا يمل من شربها ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[3] ، وقال في موضع آخر يصف خمر الجنة : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾[4] قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات : « لا تصدع رؤوسهم ، ولا تنزف عقولهم ، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة ، وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله خمر الجنة ، ونزهها عن هذه الخصال »[5]

وقال الحق في موضع ثالث :﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُ

---

(١) سورة الصافات : ٤٥ ـ ٤٧ .

(٢) سورة محمد : ١٨ .

(٣) سورة الصافات : ٤٧ .

(٤) سورة الواقعة : ١٧ ـ ١٩ .

(٥) تفسير ابن كثير : ٥١٤/٦ .

مِسۡكٌ﴾[1] ، والرحيق الخمر ، ووصف هذا الخمر بوصفين : الأول أنه مختوم أي موضوع عليه خاتم .الأمر الثاني : أنهم إذا شربـوه وجدوا في ختام شربهم له رائحة المسك .

المطلب الثاني
أول طعام أهل الجنة

أول طعام يتحف الله به أهل الجنة زيادة كبد الحوت ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يتكفّؤها الجبار بيده ، كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة » فأتى رجل من اليهود ، فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال : « بلى » . قال : تكون الأرض خبزة واحدة كما قال النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ إلينا ، ثم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : « ألا أخبرك بإدامهم ؟ بالام والنون . قالوا : وما هذا ؟ قال : ثور ونون ، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفا »[2]

قال النووي في شرح الحديث ما ملخصه : « النُزل : ما يعد للضيف عند نزوله ، ويتكفأها بيده : أي يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتستوي ، لأنها ليست منبسطة كالرقاقة ونحوها ، ومعنى الحديث : أن الله تعالى يجعل الأرض كالرغيف العظيم ، ويكون طعاما ونزلا لأهل الجنة ، والنون : الثور ، (والـ بالام) : لفظة عبرانية ، معناها : ثور ، وزائدة كبد الحوت : هي القطعة المنفردة المتعلقة في الكبد ، وهي أطيبها »[3] .

---

(١) سورة المطففين : ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) مشكاة المصابيح : (٣/٥٦) .

(٣) شرح النووي على مسلم : (١٧/١٣٦) .

وفي صحيح البخاري أن عبدالله بن سلام سأل النبي ﷺ أول قدومه المدينة أسئِلَةً منها : « ما أول شيء يأكله أهل الجنة ؟ فقال : زيادة كبد الحوت »[1] .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان أن يهوديا سأل الرسول ﷺ قال : « فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ « قال : زيادة كبد الحوت » .

قال : « فما غذاؤهم على إثرها ؟ قال : ينحرلهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها » .

قال : « فما شرابهم عليه ؟ » قال : « من عين تسمى سلسبيلا» ، قال : صدقت[2] .

المطلب الثالث
طعام أهل الجنة وشرابهم لا دنس معه

قد يتبادر إلى الذهن أن الطعام والشراب في الجنة ينتج عنه ما ينتج عن طعام أهل الدنيا وشرابهم من البول والغائط والمخاط والبزاق ونحو ذلك ، والأمر ليس كذلك فالجنة دار خالصة من الأذى ، وأهلها مطهرون من أوشاب أهل الدنيا ، ففي الحديث الذي يرويه صاحبا الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال نافيا هذا الظن : « أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون ، ولا يبزقون »[3] .

---

(١) النهاية لابن كثير : (٢/٢٧٠) .
(٢) النهاية لابن كثير : (٢/٢٧٠) .
(٣) رواه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٦/٣١٧) ، ورواه مسلم في كتاب الجنة ، باب أول زمرة تدخل الجنة ، (٤/٢١٧٨) ، حديث رقم : ٢٨٣٤ .

وليس هذا خاص بأول زمرة تدخل الجنة ، وإنما هوعام في كل من يدخل الجنة، ففي روايةعند مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشدّ نجم في السماء إضاءة ، ثم هم بعد ذلك منازل ، لا يتغوطون ، ولا يتبولون ، ولا يمتخطون ، ولا يبزقون »[1] .

فالذي يتفاوت فيه أهل الجنة ممانص عليه في الحديث قوة نور كل منهم ، أمّا خلوصهم من الأذى فإنهم يشتركون فيه جميعا ، فهم لا يتغوطون ولا يتبولون ، ولا يتفلون ، ولا يبزقون ، ولا يمتخطون .

وقد يقال : فأين تذهب فضلات الطعام والشراب ، وقد وجه هذا السؤال إلى الرسول ﷺ من قبل أصحابه ، فأفاد أن بقايا الطعام والشراب تتحول إلى رشح كرشح المسك يفيض من أجسادهم ، كما يتحول بعض منه أيضا إلى جشاء ، ولكنه جشاء تنبعث منه روائح طيبة عبقة عطرة ، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يتفلون ، ولا يتبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون » ، قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء كجشاء المسك »[2] .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الجنة ، باب أول زمرة تدخل الجنة ، (٤/٢١٨٨) ، ورقم الحديث : ٢٨٣٤ .
(٢) رواه مسلم في صحيحه : (٤/٢١٨٠) . ورقم الحديث : ٢٨٣٥ .

المطلب الرابع
لماذا يأكل أهل الجنة ويشربون ويمتشطون

إذا كان أهل الجنة فيها خالدون ، وكانت خالية من الآلام والأوجاع والأمراض ، لا جوع فيها ولا عطش ، ولا قاذورات ولا أوساخ ، فلماذا يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ، ولماذا يطيبون ويمتشطون ؟ .

أجاب القرطبي في التذكرة عن هذا السؤال قائلا[1]: « نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن دفع ألم اعتراهم ، فليس أكلهم عن جوع ، ولا شربهم عن ظمأ ، ولا تطيبهم عن نتن ، وإنما هي لذات متوالية ، ونعم متتابعة ، ألا ترى قوله تعالى لآدم : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[2] . وحكمة ذلك أن الله تعالى عرفهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا ، وزادهم على ذلك مالا يعلمه إلا الله عز وجل » .

المطلب الخامس
آنية طعام أهل الجنة وشرابهم

آنية طعام أهل الجنة ، التي يأكلون ويشربون بها من الذهب والفضة ، قال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾[2] ، أي وأكواب من ذهب ، وقال : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾[3] أي اجتمع فيها صفاء القوارير وبياض الفضة .

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٤٧٥ ، وانظر فتح الباري : (٦/٣٢٥) .
(٢) سورة الزخرف : ٧١ .
(٣) سورة الإنسان : ١٥ .

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة . . . وجنتان من فضة[1] ، آنيتهما ومافيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما »[2] .

ومن الآنية التي يشربون بها الأكواب والأباريق والكؤوس ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾[3] والكوب : مالا أذن له ولا عروة ولا خرطوم ، والأباريق : ذوات الآذان والعرا ، والكأس القدح الذي فيه الشراب .

---

(١) أي : وللمؤمن جنتان .

(٢) مشكاة المصابيح : (٨٦/٣) .

(٣) سورة الواقعة : ١٧ .

المبحث الثالث

لباس أهل الجنة وحليهم ومباخرهم

أهل الجنة يلبسون فيها الفاخر من اللباس ، ويتزينون فيها بأنواع الحلي من الذهب والفضة واللؤلؤ ، فمن لباسهم الحرير ، ومن حلاهم أساور الذهب والفضة واللؤلؤ : قال تعالى : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[1] ، ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[2] ، ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[3] ، ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾[4] ، وملابسهم ذات ألوان ، ومن ألوان الثياب التي يلبسون الخضر من السندس والاستبرق ، ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾[5] ، ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾[6] . ولباسهم أرقى من أي ثياب صنعها الإنسان ، فقد روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : « أتي الرسول ﷺ بثوب من حرير ، فجعلوا يعجبون من حسنه ولينه ، فقال رسول الله ﷺ : « لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أفضل من هذا »[7] .

---

(١) سورة الإنسان : ١٢ .

(٢) سورة الحج : ٢٣ .

(٣) سورة فاطر : ٣٣ .

(٤) سورة الإنسان : ٢١ .

(٥) سورة الكهف : ٣١ .

(٦) سورة الإنسان : ٢١ .

(٧) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة والنار ، فتح الباري (٣١٩/٦) .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن لأهل الجنة أمشاطاً من الذهب والفضة ، وأنهم يتبخرون بعود الطيب ، مع أن روائح المسك تفوح من أبدانهم الزاكية ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ في صفة الذين يدخلون الجنة : « آنيتهم الذهب والفضة ، وأمشاطهم الذهب ، ووقود مجامرهم الألوّه ـ قال أبو اليمان : عود الطيب ـ ورشحهم المسك »[1] .

ومن حليهم التيجان ، ففي سنن الترمذي وابن ماجه عن المقدام بن معدي كرب عن رسول الله ﷺ في ذكر الخصال التي يُعطاها الشهيد : « ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا ومافيها »[2] .

وثياب أهل الجنة وحليهم لا تبلى ولا تفنى ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعم لا ييأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه »[3] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) مشكاة المصابيح : (٣٥٨/٣) ، ورقمه : ٣٨٣٤ ، وصحح الشيخ ناصر إسناده .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب في دوام نعيم الجنة ، (٢١٨١/٤) ، ورقم الحديث : ٢٨٣٦ .

المبحث الرابع
فرش أهل الجنة

أعدت قصور الجنة ، وأماكن الجلوس في حدائقها وبساتينها بألوان فاخرة رائعة من الفرش للجلوس والاتكاء ونحو ذلك ، فالسرر كثيرة راقية والفرش عظيمة القدر بطائنها من الاستبرق ، فما بالك بظاهرها ، وهناك ترى النمارق مصفوفة على نحو يسر الخاطر ، ويبهج النفس ، والزرابي مبثوثة على شكل منسق متكامل ، قال تعالى :﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[1]، ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾[2] ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾[3] ، ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾[4] واتكاؤهم عليها على هذا النحو نوع من النعيم الذي يتمتع به أهل الجنة حين يجتمعون كما أخبر الله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[5] ، وقال : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾[6] ، ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾[7] والمراد بالنمارق: المخادّ والوسائد المساند ، والزرابي : البسط والعبقري : البسط الجياد . والرفرف : رياض الجنة . وقيل نوع من الثياب ، والأرائك : السرر .

---

(١) سورة الغاشية : ١٣ ـ ١٦ .
(٢) سورة الرحمن : ٥٤ .
(٣) سورة الطور : ٢٠ .
(٤) سورة الواقعة : ١٣ ـ ١٦ .
(٥) سورة الحجر : ٤٧ .
(٦) سورة الرحمن : ٧٦ .
(٧) سورة الكهف : ٣١ .

المبحث الخامس
خدم أهل الجنة

يخدم أهل الجنة ولدان ينشئهم الله لخدمتهم ، يكونون في غاية الجمال والكمال ، كما قال تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾[1] ، وقال في موضع آخر : ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾[2] .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : « يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان أهل الجنة (مخلدون) أي على حالة واحدة مخلدون عليها ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن ، ومن فسرهم بأنهم مخرصون،في آذانهم الأقرطة،فإنما عبر عن المعنى ، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير . وقوله تعالى:﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾[3] ، أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤا منثورا ، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن »[4] .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن هؤلاء الولدان هم الذين يموتون صغارا

---

(١) سورة الواقعة : ١٧ ـ ١٨ .
(٢) سورة الإنسان : ١٩ .
(٣) سورة الإنسان : ١٩ .
(٤) تفسير ابن كثير : (٧/١٨٤) .

من أبناء المؤمنين أو المشركين ، وقد رد العلامة ابن تيمية رحمه الله تعالى هذا القول ، وبين أن الولدان المخلدون هم خلق من خلق الجنة قال : « والولدان الذين يطوفون على أهل الجنة : خلق من خلق الجنة ليسوا من أبناء الدنيا ، بل أبناء أهل الدنيا إذا دخلوا الجنة كمل خلقهم كأهل الجنة ، على صورة أبيهم آدم »[1] .

---

(١) مجموع الفتاوي : (٤/٢٧٩) ، وانظر (٤/٣١١) .

المبحث السادس
شوق أهل الجنة

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة لسوقا ، يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال ، فتحثوا في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسنا وجمالا ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا ، فيقولون : وأنتم ،والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا »[1] .

قال النووي في شرحه لهذا الحديث : « المراد بالسوق مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق ، ومعنى يأتونها كل جمعة ، أي في مقدار كل جمعة ، أي أسبوع ، وليس هناك حقيقة أسبوع ، لفقد الشمس والليل والنهار ، . . . وخص ريح الجنة بالشمال ، لأنها ريح المطر عند العرب ، كانت تهب من جهة الشام ،وبها يأتي سحاب المطر ،وكانوا يرجون السحابة الشامية ، وجاءت في الحديث تسمية هذه الريح المثيرة ، أي المحركة ، لأنها تثير في وجوههم ما تثيره من مسك أرض الجنة وغيره من نعيمها »[2] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب في سوق الجنة ، (٤/٢١٧٨) ، ورقمه : ٢٨٣٣ .
(٢) النووي على مسلم : (١٧/١٧٠) .

• المبحث السابع
اجتماع أهل الجنة وأحاديثهم

أهل الجنة يزور بعضهم بعضا ، ويجتمعون في مجالس طيبة يتحدثون ، ويذكرون ما كان منهم في الدنيا ، وما منَّ الله به عليهم من دخول الجنان ، قال تعالى في وصف اجتماع أهل الجنة : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾(١) وأخبرنا الله بلون من ألوان الأحاديث التي يتحدثون بها في مجتمعاتهم ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾(٢)، ومن ذلك تذكرهم أهل الشر الذين كانوا يشككون أهل الإيمان ، ويدعونهم إلى الكفران ، ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الحجر : ٤٧ .

(٢) سورة الطور : ٢٥ .

(٣) سورة الصافات : ٥٠ ـ ٦١ .

المَبحث الثامن
أماني أهل الجنة

يتمنى بعض أهل الجنة فيها أماني تتحقق على نحو عجيب ، لا تشبه حال ما يحدث في الدنيا ، وقد حدثنا الرسول ﷺ عن بعض هذه الأماني وكيفية تحققها .

فهذا واحد من أهل الجنة يستأذن ربه في الزرع ، فيأذن له ، فما يكاد يلقي البذر ، حتى يضرب بجذوره في الأرض ، ثم ينمو ، ويكتمل ، وينضج في نفس الوقت ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يتحدث ـ وعنده رجل من أهل البادية ـ : « إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربّه في الزرع ، فقال له : ألست فيما شئت[1] ؟ قال : بلى ، ولكن أحب الزرع ، فبذر، فبادر الطرف نباته[2] واستواؤه ، واستحصاده ، فكان أمثال الجبال ، فيقول الله تعالى : دونك ياابن آدم ، فإنه لا يشبعك شيء » فقال الأعرابي : « والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا ، فإنهم أصحاب زرع ، وأمّا نحن فلسنا بأصحاب زرع ، فضحك رسول الله ﷺ »[3] .

وهذا آخر يتمنى الولد ، فيحقق الله له أمنيته في ساعة واحدة ، حيث تحمل وتضع في ساعة واحدة .

---

(١) أي فيما شئت من أنواع النعيم وألوان الطعام والشراب .
(٢) سابق النظر .
(٣) مشكاة المصابيح : (٣/٩٥) ، ورقم الحديث : ٥٦٥٣ .

وروى الترمذي في سننه ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه بإسناد صحيح عن أبي سعيد ؛ أن النبي ﷺ قال : « المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة ، كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي »[1] .

(١) صحيح الجامع (٦: /٥) ، ورقم الحديث : ٦٥٢٥ .

المبحث التاسع
نساء أهل الجنة

المطلب الأول
زوجة المؤمن في الدنيا زوجته في الآخرة إذا كانت مؤمنة

إذا دخل المؤمن الجنة ، فإن كانت زوجته صالحة ، فإنها تكون زوجته في الجنة أيضا ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ ﴾[1] ، وهم في الجنات منعمون مع الأزواج ، يتكئون في ظلال الجنة مسرورين فرحين ﴿ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾[2] ، ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴾[3] .

المطلب الثاني
المرأة لآخر أزواجها

روى أبو علي الحراني في « تاريخ الرقة » عن ميمون بن مهران قال : خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أم الدرداء ، فأبت أن تزوجه ، وقالت :

---

(١) سورة الرعد : ٢٣ .
(٢) سورة يس : ٥٦ .
(٣) سورة الزخرف : ٧٠ .

سمعت أن أبا الدرداء يقول : قال رسول الله ﷺ : « المرأة في آخر أزواجها ، أو قال : لآخر أزواجها » ورجال هذا الإسناد موثقون غير العباس بن صالح فليس له ترجمة ، ورواه أبو الشيخ في التاريخ بإسناد صحيح مقتصرا منه على المرفوع ، ورواه الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد ضعيف ، ولكنه بمجموع الطريقين قوي ، والمرفوع منه صحيح ، وله شاهدان موقوفان : الأول يرويه ابن عساكر عن عكرمة « أن أسماء بنت أبي بكر كانت تحت الزبير بن العوام ، وكان شديدا عليها ، فأتت أباها ، فشكت ذلك إليه ، فقال : يا بنية اصبري ، فإن المرأة إذا كان لها زوج صالح ، ثم مات عنها ، فلم تزوج بعده جمع بينهما في الجنة » .

ورجاله ثقات إلا أن فيه إرسالا لأن عكرمة لم يدرك أبا بكر إلا أن يكون تلقاه عن أسماء .

والآخر أخرجه البيهقي في السنن أن حذيفة قال لزوجته : « إن شئت أن تكوني زوجتي في الجنة ، فلا تزوجي بعدي ، فإن المرأة في الجنة لآخر أزواجها في الدنيا»[1] ، فلذلك حرّم الله على أزواج النبي ﷺ أن ينكحن من بعده ، لأنهن أزواجه في الآخرة .

المطلب الثالث
الحور العين

يزوجهم الله في الجنة بزوجات جميلات غير زوجاتهم اللواتي في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[2] . والحور : جمع حوراء ، وهي

---

(١) هذا التحقيق أخذناه بشيء من الاختصار من « سلسلة الأحاديث الصحيحة » للشيخ ناصر : (٣/٢٧٥) ورقم الحديث : ١٢٨١ .

(٢) سورة الدخان : ٥٤ .

التي يكون بياض عينها شديد البياض ، وسواده شديد السواد . والعين : جمع عيناء ، والعيناء هي واسعة العين .

وقد وصف القرآن الحور العين بأنهن كواعب أتراب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾[1] . والكاعب : المرأة الجميلة التي برز ثدياها ، والأتراب المتقاربات في السن . والحور العين من خلق الله في الجنة ، أنشأهن الله إنشاءً فجعلهنَّ أبكارا ، عربا أترابا ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾[2] وكونهن أبكارا يقضي أنه لم ينكحهن قبلهم أحد ، كما قال تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾[3] ، وهذا ينفي قول من قال : إن المراد بالزوجات اللواتي ينشئهن الله في الجنة زوجاتهم في الدنيا إذ يعيدهنّ شبابا بعد الكهولة والهرم ، وهذا المعنى صحيح ، فالله يدخل المؤمنات الجنة في سن الشباب ، ولكنهن لَسْنَ الحور العين اللواتي ينشئهن الله إنشاءً .

والمراد بالْعُرُبِ : الغنجات المتحببات لأزواجهنّ .

وقد حدثنا القرآن عن جمال نساء الجنة فقال : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾[4] والمراد بالمكنون : المخفى المصان ، الذي لم يغير صفاء لونه ضوء الشمس ، ولا عبث الأيدي ، وشبههن في موضع آخر بالياقوت والمرجان ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[5] والياقوت والمرجان حجران كريمان فيهما جمال ، ولهما منظر حسن بديع ، وقد وصف الحور بأنهن قاصرات الطرف ، وهن

---

(١) سورة النبأ : ٣١ ـ ٣٣ .
(٢) سورة الواقعة : ٣٥ ـ ٣٧ .
(٣) سورة الرحمن : ٥٦ .
(٤) سورة الواقعة : ٢٢ .
(٥) سورة الرحمن : ٥٦ ـ ٥٨ .

اللواتي قصرن بصرهن على أزواجهن ، فلم تطمح أنظارهن لغير أزواجهنَّ ، وقد شهد الله لحور الجنة بالحسن والجمال ، وحسبك أنَّ الله شهد بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾[1]

ونساء الجنة لسن كنساء الدنيا ، فإنهن مطهرات من الحيض والنفاس ، والبصاق والمخاط والبول والغائط ، وهذا مقتضى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[2] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن جمال نساء أهل الجنة ، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوطون ، آنيتهم فيها الذهب ، أمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوه ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن »[3] .

وانظر إلى هذا الجمال الذي يحدث عنه الرسول ﷺ هل تجد له نظيرا مما تعرف ؟ « ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ريحا ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا ومافيها » رواه البخاري[4] .

---

(١) سورة الرحمن : ٧٠ ـ ٧١ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥ .
(٣) رواه البخاري في صحيحه ،كتاب الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري : (٦/٣١٨) ، ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها ، باب أول زمرة تدخل الجنة : (٤/٢١٧٨) ، ورقمه : ٢٨٣٤ .
(٤) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب وزوجناهم بحور عين ، فتح الباري (٦/١٥) ، والنصيف : الخمار .

وتحديد عدد زوجات كل شخص في الجنة باثنين يبدو أنه أقل عدد ، وإلا فقد ورد أن الشهيد يزوج باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ففي سنن الترمذي وسنن ابن ماجه . بإسناد صحيح عن المقدام بن معدى كرب قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ثلاث خصال : يغفر له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقربائه »[1] .

غناء الحور العين

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الحور العين في الجنان يغنين بأصوات جميلة عذبة ، ففي معجم « الطبراني الأوسط » بإسناد صحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهنَّ بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط . إن مما يغنين : نحن الخيِّرات الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرن بقرة أعيان . وإن مما يغنين به : نحن الخالدات فلا يَمُتْنَه ، نحن الآمنات فلا يخفنه ، نحن المقيمات فلا يظعنَّه »[2] .

وروى سمويه في « فوائده » عن أنس ، عن رسول الله ﷺ : « إن الحور العين لتغنين في الجنة ، يقلن : نحن الحور الحسان ، خبئنا لأزواج كرام »[3] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٣٥٨/٣) ، ورقمه : ٣٨٣٤ .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٤٨/٢) ، ورقم الحديث : ١٥٥٧ ، وعزاه الشيخ ناصر أيضا إلى الطبراني في الأوسط ، وإلى أبي نعيم ، والضياء في صفة الجنة .

(٣) صحيح الجامع : (٥٨/٢) ، ورقمه : ١٥٩٨ .

غيرة الحور العين على أزواجهنَّ في الدنيا

أخبرنا الرسول ﷺ أن الحور العين يغرن على أزواجهن في الدنيا إذا آذى الواحدَ زوجتُه في الدنيا ، ففي مسند أحمد ، وسنن الترمذي بإسناد صحيح عن معاذ عن رسول الله ﷺ قال : « لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا، إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو دخيل عندك ، يوشك أن يفارقك إلينا»[1] .

المطلب الرابع
يعطى المؤمن في الجنة قوة مائة رجل

عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع » . قيل : يا رسول الله ، أو يطيق ذلك ؟ قال : « يعطى قوة مائة رجل » رواه الترمذي[2] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (١٢٥/٦) ، ورقم الحديث : ٧٠٦٩ .

(٢) مشكاة المصابيح : (٩٠/٣) ورقمه : ٥٦٣٦ ، وقال محقق المشكاة : « قال الترمذي : حديث صحيح غريب » قلت (المحقق) : وإسناده حسن ، بل هو صحيح ، لأن له شواهد منها عن زيد ابن أرقم عند الدارمي بسند صحيح » .

المبحث العاشر

ضحك أهل الجنة من النار

بعد أن يدخل الله أهل الجنة الجنة ينادون خصومهم من الكفار أهل النار مبكتين ومؤنبين ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] ، لقد كان الكفار في الدنيا يخاصمون المؤمنين ، ويسخرون منهم ، ويهزأون بهم ، وفي ذلك اليوم ينتصر المؤمنون ، فإذا بهم وهم في النعيم المقيم ، ينظرون إلى المجرمين فيسخرون منهم ويهزؤون بهم ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2]

نعم ، والله لقد جوزي الكفار بمثل ما كانوا يفعلون ، والجزاء من جنس العمل ، ويتذكر المؤمن في جنات النعيم ذلك القرين أو الصديق الذي كان يزين له

---

(١) سورة الأعراف : ٤٤ .

(٢) سورة المطففين : ٢٢ ـ ٣٦ .

الكفر في الدنيا ، وكان يدعوه إلى تلك المبادىء الضالة التي تجعله في صف الكافرين أعداء الله ، فيحدّث اخوانه عن ذلك القرين ، ويدعوهم للنظر إليه في مقره الذي يعذب فيه ، فعندما يرى ما يعانيه من العذاب ـ يعلم مدى نعمة الله عليه ، وكيف خلصه من حاله ، ثم يتوجه إليه باللوم والتأنيب ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1] .

---

(١) سور الصافات : ٥٠ ـ ٦٠ .

المبحث الحادي عشر
التسبيح والتكبير من نعيم أهل الجنة

الجنة دار جزاء وإنعام ، لا دار تكليف واختبار ، وقد يشكل على هذا ما رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ في صفة أول زمرة تدخل الجنة ، قال في آخره « **يسبحون الله بكرة وعشياً** »[1] ، ولا اشكال في ذلك إن شاء الله تعالى ، لأن هذا ليس من باب التكليف ، قال ابن حجر في شرحه للحديث : «قال القرطبي : هذا التسبيح ليس عن تكليف وإلزام ! ، وقد فسره جابر في حديثه عند مسلم بقوله : « يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس » ، ووجه التشبيه أن تنفس الإنسان لا كلفة عليه فيه ، ولا بدَّ منه ، فجعل تنفسهم تسبيحا ، وسببه أن قلوبهم تنورت بمعرفة الرب سبحانه ، وامتلأت بحبه ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره »[2] .

وقد قرر شيخ الإسلام أن هذا التسبيح والتكبير لون من ألوان النعيم الذي يتمتع به أهل الجنة ، قال : « هذا ليس من عمل التكليف الذي يطلب له ثواب منفصل ، بل نفس هذا العمل من النعيم الذي تتنعم به الأنفس وتتلذذ به »[3] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٦/٣١٨) .
(٢) فتح الباري : (٦/٣٢٦) .
(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٣٣٠) .

المبحث الثاني عشر

أفضل ما يعطاه أهل الجنة رضوان الله والنظر إلى وجهه الكريم

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير كله في يديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا » ، متفق عليه[1] . **وأعظم النعيم النظر إلى وجه الله الكريم في جنات النعيم ، يقول ابن الأثير : « رؤية الله هي الغاية القصوى في نعيم الآخرة ، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة ، بلَّغنا الله منها ما نرجو »**[2] .

وقد صرح الحق تبارك وتعالى برؤية العباد لربهم في جنات النعيم ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[3] ، والكفار والمشركون يحرمون من هذا النعيم العظيم ، والتكرمة الباهرة ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[4] ، وقد روى مسلم في صحيحه والترمذي في سننه عن صهيب الرومي رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ، وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك

---

(١) مشكاة المصابيح : (٨٨/٣) .

(٢) جامع الأصول : (٥٥٧/١٠) .

(٣) سورة االقيامة : ٢٣ .

(٤) سورة المطففين : ١٥ .

وتعالى » ، زاد في رواية : « ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[1] »[2] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة مجوفة ، عرضها - وفي رواية طولها - ستون ميلا ، في كل زاوية منها أهل ، ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »[3] .

والنظر إلى وجه الله تعالى من المزيد الذي وعد الله به المحسنين ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[4] ، ﴿ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[5] ، وقد فسرت الحسنى بالجنة ، والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم ، ويشير إلى هذا الحديث الذي رواه مسلم وذكرناه في صدر هذا الفصل .

ورؤية الله رؤية حقيقية ، لا كما تزعم بعض الفرق التي نفت رؤية الله تعالى بمقاييس عقلية باطلة ، وتحريفات لفظية جائرة ، وقد سئل الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة عن قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[6] ، فقيل : إن قوما يقولون : إلى ثوابه . فقال مالك : كذبوا ، فأين هم عن قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[7] ؟ قال مالك : الناس ينظرون إلى الله يوم القيامة

---

(١) سورة يونس : ٢٦ .
(٢) جامع الأصول : (١٠/٥٦٠) .
(٣) مشكاة المصابيح ، (١٠/٨٦) ، ورقمه : ٥٦١٦ .
(٤) سورة ق : ٣٥ .
(٥) سورة يونس : ٢٦ .
(٦) سورة القيامة : ٢٣ .
(٧) سورة المطففين : ١٥ .

بأعينهم ، وقال : لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة ، لم يعبر الله عن الكفار بالحجاب ، فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[1] ، رواه في « شرح السنة »[2] .

ومن الذين نصوا على رؤية المؤمنين ربهم في الجنات الطحاوي في العقيدة المشهورة باسم « العقيدة الطحاوية » ، قال : « والرؤية حق لأهل الجنة ، بغير إحاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[3] ، وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه ، وكل ما جاء في ذلك الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد ، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ . ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه »[4] .

وقال شارح الطحاوية مبينا مذاهب الفرق الضالة في هذه المسألة ومذهب أهل الحق :

« المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية . وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة .وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون ، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين ، وأهل الحديث ، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة » .

---

(١) سورة المطففين : ١٥ .
(٢) مشكاة المصابيح : (٣/١٠٠) ، ورقمه ٥٦٦٣ .
(٣) سورة القيامة ٢٢ ـ ٢٣ .
(٤) شرح الطحاوية : ٢٠٣ .

ثم بين أهمية هذه المسألة فقال :

« وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها ، وهي الغاية التي شمَّر إليها المشمرَّون ، وتنافس المتنافسون ، وحُرِمَهَا الذين هم عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مردودون» .

ثم بين أن قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[1] . من أظهر الأدلة على هذه المسألة ، وأمّا الذين أبَوْا إلا تحريفها بما يسمونه تأويلاً : فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب ، أسهل من تأويلها على أرباب التأويل. ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص .

وبين خطورة التأويل : « وهذا الذي أفسد الدنيا والدين. وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل ، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم . وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم ، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية. فهل قُتِلَ عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد ؟ وكذا ما جرى في يوم الجمل » وصفينٍ ، ومقتل الحسين ، والحرة ؟ وهل خرجت الخوارج ، واعتزلت المعتزلة ، ورفضت الروافض ، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، إلا بالتأويل الفاسد » !؟

ثم بين أن دلالة الآية على الرؤية من جانبين : الأول فقه النص. والثاني : فقه علماء السلف لهذا النص . ففي الأول قال :

«واضافة النظر إلى الوجه ، الذي هو محله ، في هذه الآية ، وتعديته بأداة

---

(١) سورة القيامة : ٢٢ .

«إلى» الصريحة في نظر العين ، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه - حقيقية موضوعة صريحة في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله .

فإن النظر له عدة استعمالات ، بحسب صلاته وتعديه بنفسه : فإن عدي بنفسه فمعناه : التوقف والانتظار : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾[1] . وإن عدي بـ «في» ، فمعناه : التفكر والاعتبار ، كقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2] . وإن عدي بـ «إلى» فمعناه : المعاينة بالأبصار ، كقوله تعالى : ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾[3] . فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر ؟ وساق في الثاني عدة نصوص عن السلف تبين فقههم للآية ، فعن «الحسن قال : نَظَرَتْ إلى ربها فنضرت بنوره ، وقال أبوصالح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[4] . قال : تنظر إلى وجه ربها عز وجل . وقال عكرمة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾[5] . قال : من النعيم ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[6] ، قال : تنظر إلى ربها نظراً ، ثم حكى عن ابن عباس مثله . وهذا قول المفسرين من أهل السنة والحديث . وقال تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[7] . قال الطبري : قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك : هو النظر إلى وجه الله عز وجل .

---

(١) سورة الحديد : ١٣

(٢) سورة الأعراف : ١٨٥

(٣) سورة الأنعام : ٩٩

(٤) سورة القيامة : ٢٣

(٥) سورة القيامة : ٢٢

(٦) سورة القيامة : ٢٣

(٧) سورة ق : ٣٥

ثم ذكر معنى الزيادة في قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[1] ، وأنها النظر إلى وجه الله الكريم وساق في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب ، قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[1] ، قال : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عندالله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو؟ ألم يُثقل موازيننا ويبيِّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهي الزيادة» . ورواه غيره بأسانيد متعددة وألفاظ أخر ، معناها أن الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل . وكذلك فسرها الصحابة رضي الله عنهم . روى ابن جرير ذلك عن جماعة ، منهم : أبوبكر الصديق رضي الله عنه ، وحذيفة ، وأبوموسى الأشعري ، وابن عباس ، رضي الله عنهم .

ومن الأدلة على هذه المسألة قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[2] . وذكر المصنف أن الشافعي -رحمه الله- وغيره من الأئمة احتجوا بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة ، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي ، وقال الحاكم : حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال : حضرت محمد بن إدريس الشافعي ، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ما تقول في قول الله عز وجل : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[3] . فقال الشافعي : لما أن حُجب هؤلاء في السخط ، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى .

---

(١) سورة يونس : ٢٦

(٢) سورة المطففين : ١٥

(٣) سورة المطففين : ١٥

ثم تعرض لاستدلال المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾[1] . وبقوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾[2] ، وذكر أن الآيتين دليل عليهم ، فالآية الأولى : تدل على ثبوت رؤيته من وجوه :

أحدها : أنه لايظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل مالا يجوز عليه ، بل هو عندهم من أعظم المحال .

الثاني : أن الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله ، وقال : ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[3] .

الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ، ولم يقل : إني لا أرى ، أو لا تجوز رؤيتي ، أو لست بمرئي . والفرق بين الجوابين ظاهر . ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجل طعاماً صح أن يقال : إنك لن تأكله . وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي ، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار ، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى .

الرابع : يوضح الوجه الثالث قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾[4] . فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار ، فكيف بالبشر الذي خُلق من ضعف ؟

الخامس : أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقراً ، وذلك ممكن ، وقد علق به الرؤية ، ولو كانت محالاً لكان نظير أن يقول : إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام . والكل عندهم سواء .

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٣ .
(٢) سورة الأنعام : ١٠٣
(٣) سورة هود : ٤٦
(٤) سورة الأعراف : ١٤٣ .

السادس : قوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[1]، فاذا جاز أن يتجلى للجبل ، الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته ؟ ولكن الله أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار ، فالبشر أضعف .

السابع : أن الله كلم موسى ، وناداه وناجاه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة ، فرؤيته أولى بالجواز . ولهذا لا يتم إنكار رؤيته الا بإنكار كلامه ، وقد جمعوا بينهما . ثم أجاب على دعواهم أن «لن» تفيد التأبيد وتدّل على نفس الرؤية في الآخرة ، وبيَّن الشيخ أنها لو قيدت بالتأبيد فلا تدل على دوام النفي في الآخرة ، فكيف إذا أطلقت ؟ ولهذا نظائر في القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾[2] ، مع قوله : ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[3] . ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها ، وقد جاء ذلك ، قال تعالى : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾[4] . فثبت أن «لن» لا تقتضي النفي المؤبد .

قال الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله :

ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقوله اردد وسواه فاعضدا

وأما الآية الثانية : فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف ، وهو : أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح إنما يكون

(١) سورة الأعراف : ١٤٣
(٢) سورة البقرة : ٩٥
(٣) سورة الزخرف : ٧٧
(٤) سورة يوسف : ٨٠

بالصفات الثبوتية ، أما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به ، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً ، كمدحه بنفي السِّنة والنوم ، المتضمن كمال القيّومية ، وفي الموت المتضمن كمال الحياة ، ونفي اللغوب والاعياء ، المتضمن كمال القدرة ، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير ، المتضمن كمال صمديته وغناه ، ونفي الظلم ، المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه ، المتضمن كمال علمه وإحاطته ، ونفي المثل ، المتضمن لكمال ذاته وصفاته ، ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن أمراً ثبوتياً ، فإن المعدم يشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه ، فإن المعنى : إنه يُرى ولا يُدرك ولا يحاط به ، فقوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1] يدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به ، فإن (الإدراك) هو الإحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ﴾[2]. فلم ينف موسى الرؤية ، وإنما نفى الإدراك ، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه ، فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك ، كما يعلم ولا يحاط به علماً ، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية ، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية. بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه .

ثم ذكر الشيخ أن «الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه ، الدالة على الرؤية متواترة ، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن . فمنها : حديث أبي هريرة : « أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٣

(٢) سورة الشعراء : ٦٢

الله ﷺ : هل تُضَارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : هل تُضَارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا : لا ، قال فإنكم ترونه كذلك» ، الحديث ، أخرجاه في «الصحيحين» بطوله. وحديث أبي سعيد الخدري أيضاً في «الصحيحين» نظيره. وحديث جرير بن عبدالله البجلي ، قال : «كنا جلوساً مع النبي ﷺ ، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة ، فقال : انكم سترون ربكم عياناً ، كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته» ، الحديث أخرجاه في «الصحيحين». وحديث صهيب المتقدم ، رواه مسلم وغيره. وحديث أبي موسى عن النبي ﷺ ، قال : «وجنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب ، آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» ، أخرجاه في «الصحيحين». ومن حديث عدي بن حاتم : «ولَيَلْقَينّ الله أحدُكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له ، فيقول : ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول : بلى يارب ، فيقول : ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول : بلى يارب»[1]. أخرجه البخاري في «صحيحه».

(١) راجع شرح الطحاوية : ص ٢٠٤ ـ ٢١٠

المبحث الثالث عشر

الفوز بنعيم الجنة لا يستلزم ترك متاع الدنيا

ظن الرهبان وكثير من عباد هذه الأمة أن نعيم الآخرة لا يمكن أن ينال إلا إذا رفض العبد طيبات الدنيا وملاذها ، ولذلك ترى هؤلاء يعذبون أجسادهم ، ويَشُقُّون على أنفسهم فيديمون الصيام والقيام ، وقد يحرِّم بعضهم الطيبات من الطعام والشراب واللباس ، وقد يتركون العمل والزواج وهذه فكرة خاطئة ، فإن الله خلق الطيبات للمؤمنين ، وذم من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1] .

والدنيا تـذم إذا كانت شاغلا عن الآخرة ، أمّا إذا جعلها العبد معبرا ومدخلا لنيل الآخرة فالأمر ليس كما يظن بعض الناس .

---

(١) سورة الأعراف : ٣٢ .

المبحث الرابع عشر

آخر دعواهم

يمر المؤمنون في الموقف العظيم بأهوال عظام ، ثم يمرون على الصراط فيشاهدون هولا ورعبا ، ثم يدخلهم الله جنات النعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن ، فيرون ما أعد الله لهم فيها من خيرات عظام ، فترتفع ألسنتهم تسبح ربهم وتقدسه ، فقد أذهب عنهم الحزن ، وصدقهم وعده ، وأورثهم الجنة ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[1] . ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾[2] ، وآخر دعواهم في الجنات النعيم : الحمد لله رب العالمين ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3] .

---

(١) سورة فاطر : ٣٣ ـ ٣٤

(٢) سورة الزمر : ٧٤

(٣) سورة يونس : ١٠

الفصل السابع

المحاجة بين الجنة والنار

أخبرنا رسولنا ﷺ أن الجنة والنار تحاجتا عند ربهما ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : فمالي لايدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ - زاد في رواية : وغرتهم - فقال الله عز وجل للجنة : أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي ، أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما النار : فلا تمتلىء حتى يضع رجله - وفي رواية : حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله - فتقول : قط قط قط ، فهنالك تمتلىء ، ويزوي بعضها إلى بعض ، ولايظلم الله من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقا » أخرجه البخاري ومسلم .

وللبخاري قال : « اختصمت الجنة والنار (إلى ربهما) ، فقالت الجنة : يارب مالها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ وقالت النار[1] فقال (الله)

---

(١) قال محقق جامع الأصول : كذا في الأصول المخطوطة . وفي النسخ المطبوعة : يعني : أوثرت بالمتكبرين ، قال الحافظ في « الفتح » : كذا وقع هنا مختصرا ، قال ابن بطال : سقط قول النار هنا من جميع النسخ ، وهو محفوظ في الحديث وأنظر « الفتح » (٤٣٤/١٣) .

للجنة : أنت رحمتي ، وقال للنار : أنت عذابي أصيب بك من أشاء ، ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما الجنة ، فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا ، وإنه ينشيء للنار[1] من يشاء ، فيلقون فيها ، فتقول : هل من مزيد ؟ ويلقون فيها ، فتقول هل من مزيد ، حتى يضع قدمه فيها ، فتمتليء ، ويزوى بعضها إلى بعض ، فتقول : قط قط » .

وله في أخرى : ـ وكان كثيرا ما يقفه أبو سفيان الحميري ، أحد رواته ، قال : « يقال لجهنم ، هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ فيضع الرب قدمه عليها ، فتقول : قط قط » .

ولمسلم بنحو الأولى ، وانتهى عند قوله : « ولكل واحدة منهما ملؤها » .

وقال في رواية: «فمالي لا يدخلني إلاضعفاء الناس وسقطهم[2] وغرتهم ؟ » وفي آخره : « فأما النار ، فلا تمتليء حتى يضع قدمه عليها ، فهنالك تمتليء ، ويزوي بعضها إلى بعض » وأخرجه الترمذي نحو الأولى [3] . [4]

(١) جزم غير واحد من أهل العلم أن هذا خطأ من بعض الرواة ، وصوابه ينشيء للجنة .

(٢) السُّقْط : المزدرى به ، ومنه السَّقط : لرديء المتاع . وغرتهم : الغرّ الذي لم يجرب الأمور ، فهو قليل الشر منقاد .

(٣) رواه البخاري (٨/٤٥٨) في تفسير سورة (ق) ، باب قوله تعالى : ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ ، وفي التوحيد ، باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ، ومسلم رقم ٢٨٤٦ في الجنة،باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ، والترمذي رقم ٢٥٦٤ في صفة الجنة ، باب ما جاء في إحتجاج الجنة والنار .

(٤) جامع الأصول : ١٠/٥٤٤ ـ ٥٤٧ .

المراجع
مرتبة على حروف المعجم

١ ـ التخويف من النار والتعريف بدار أهل البوار . للحافظ أبي الفرج ابن الجوزي . المكتبة العلمية . بيروت .

٢ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي . طبعة المكتبة السلفية . المدينة المنورة .

٣ ـ الترغيب والترهيب للمنذري . طبعة المكتبة التجارية . القاهرة . الأولى .

٤ ـ تفسير ابن كثير. طبعة دار الأندلس ـ بيروت ـ الطبعة الأولى . ١٣٨٥ ـ ١٩٦٦

٥ ـ تفسير ابن جرير الطبري . الطبعة الثانية ١٩٧٣ ـ ١٩٥٤ . طبعة مصطفى البابي الحلبي .

٦ ـ تقريب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني . طبعة المكتبة العلمية . المدينة المنورة .

٧ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ، لابن الأثير . تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط نشر مكتبة الحلواني ومكتبة الملاح . الطبعة الأولى ١٩٣٢ ـ ١٩٧٢ .

٨ ـ رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار . للصنعاني . تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني طبع المكتب الاسلامي . بيروت .

٩ ـ سنن ابن ماجه . طبعة دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٣٧٢ ـ ١٩٥٢ .

١٠ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشر المكتب الإسلامي . بيروت الطبعة الأولى .

١١ ـ شرح العقيدة الطحاوية ، لمحمد بن محمد بن أبي العزالحنفي . نشر المكتب الاسلامي بيروت . الطبعة الرابعة . ١٣٩١هـ .

١٢ ـ شرح النووي على مسلم للنووي . طبعة المكتبة العصرية . القاهرة .

١٣ ـ صحيح البخاري . اعتمدنا على متن فتح الباري . طبعة السلفية ـ القاهرة . الطبعة الأولى .

١٤ ـ صحيح الجامع الصغير . للسيوطي تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نشر المكتب الاسلامي . بيروت الطبعة الأولى ١٣٨٨ ـ ١٩٦٩ .

١٥ ــ صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي . طبعة دار إحياء الكتب العربية . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٢ .
١٦ ــ فتح الباري . لابن حجر العسقلاني . طبعة المكتبة السلفية . القاهرة . الطبعة الأولى .
١٧ ــ لوامع الأنوار البهيَّة للسفاريني طبعة دولة قطر . الطبعة الأولى .
١٨ ــ مجموع فتاوي شيخ الاسلام ابن تيمية. جمع ابن قاسم. طبعة دولة المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى .
١٩ ــ مراتب الاجماع لابن حزم . طبعة المكتبة العلمية بيروت .
٢٠ ــ مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي طبعة المكتب الاسلامي دمشق الطبعة الأولى . ١٣٨١ ـ ١٩٦١
٢١ ــ نهاية البداية والنهاية لابن كثير . نشر مكتبة النهضة الحديثة . الرياض. الطبعة الأولى ١٩٦٨ .
٢٢ ــ يقظة أولى الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار ، لصديق حسن خان . طبعة دار الأنصار . القاهرة . الطبعة الأولى . ١٣٩٨هـ ١٩٧١م .
٢٣ ــ اليوم الآخر في ظلال القرآن جمع وإعداد أحمد فائز. طبعة مؤسسة الرسالة . دمشق . الطبعة السابعة . ١٤٠٥ ـ ١٩٨٤ .

كتب مطبوعة للمؤلف

الكتاب	الطبعة
١ ـ العقيدة في الله	الطبعة الخامسة
٢ ـ عالم الملائكة الأبرار	الطبعة الرابعة
٣ ـ عالم الجن والشياطين	الطبعة الرابعة
٤ ـ معالم الشخصية الإسلامية	الطبعة الرابعة
٥ ـ الرسل والرسالات	الطبعة الرابعة
٦ ـ المرأة بين دعاة الاسلام وأدعياء التقدم	الطبعة الثالثة
٧ ـ الصوم في ضوء الكتاب والسنة	الطبعة الثالثة
٨ ـ أصل الاعتقاد	الطبعة الثالثة
٩ ـ مواقف ذات عبر	الطبعة الثانية
١٠ ـ مقاصد المكلفين « النيات في العبادات »	الطبعة الأولى
١١ ـ القياس بين مؤيديه ومعارضيه	الطبعة الأولى
١٢ ـ ثلاث شعائر	الطبعة الثالثة
١٣ ـ جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة	الطبعة الأولى
١٤ ـ خصائص الشريعة الاسلامية	الطبعة الأولى
١٥ ـ تاريخ الفقه الاسلامي	الطبعة الأولى
١٦ ـ الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية	الطبعة الثانية
١٧ ـ نحو ثقافة إسلامية أصيلة	الطبعة الأولى
١٨ ـ سلسلة محاضرات إسلامية	الطبعة الأولى
١٩ ـ القيامة الصغرى وأشراط القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢٠ ـ القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢١ ـ الجنة والنار	الطبعة الأولى

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية ـ عمان
١٩٩٠/١٠/٧٠٢

يُطلَبُ هذا الكتابُ في
المملكةِ العربيةِ السُّعوديةِ
من

دَارِ الهِجْرَةِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوزيعْ

ص.ب ٢٠٥٩٧ الثقبة ٣١٩٥٢ الخبر
تلفون الخبر: ٨٩٨٣٠٠٤ تلفون الرياض: ٤٧٩٢٠٥٥

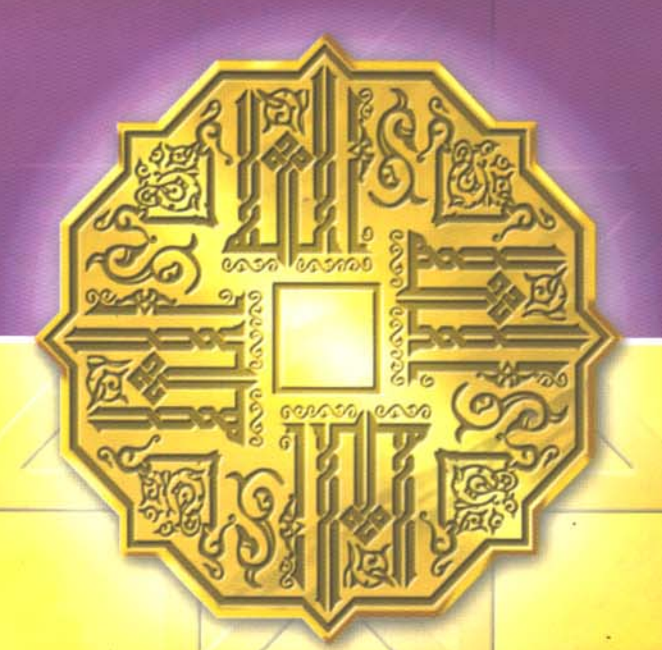


هاتف ٦٩٣٩٤٠ _ فاكس ٦٩٣٩٤١
ص.ب ٢١١٥١١ عمّان ١١١٢١ _ الاردن



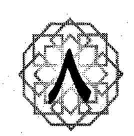


أ.د. عمر سليمان عبدالله الأشقر





العقيدة في ضوء الكتاب والسنة



القضاء والقدر

أ.د. عمر سليمان عبد الله الأشقر



بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥م

الطبعة الثالثة عشر



العبدلي مقابل عمارة جوهرة القدس

ص.ب :٩٢٧٥١١ عمّان ١١١٩٠ الأردن

هاتف: ٥٦٩٣٩٤٠ ، فاكس : ٥٦٩٣٩٤١

بريد الكتروني: ALNAFAES@HOTMAIL.COM

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا إليه صراطاً مستقيماً، وجعلنا من أهل طاعته، وأكرمنا بالإسلام، وهدانا للإيمان، وأصلي على خاتم رسله وأنبيائه، الذي بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين من ربّه، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الأخيار، وأصحابه الأبرار، وبعد:

فهٰذا هو الكتاب الأخير في السلسلة التي ابتدأتها منذ أكثر من عشر سنوات، وإنني أحمد الله على أن وفقني لإتمام هٰذا العمل، وإني لأرجو من الله القبول، وأن يجعل نيتي خالصة لوجهه، وأن يثيبني على عملي هٰذا في يوم لقياه، كما أعانني على إتمامه في هٰذه الحياة.

لقد أكرمني ربي بأن لاقت هٰذه السلسلة قبولاً حسناً عند عباد الله، وإني لأرجو ربي أن يتقبلها مني، ويرضى عن عملي بفضله وكرمه وإحسانه، وأن يغفر لي ما وقعت فيه من زلل وتقصير في العمل، وإني لأرجو من قراء هٰذه السلسلة الدعاء لكاتبها بأن يتجاوز الله عن زلاته، ويصفح عن آثامه، لعلّ الله يرحمني ببركة دعوة صالحة من عبد صالح.

وقد طال انتظار القراء لهٰذا الجزء، وحال دون إخراجه أعمال تلاحقت، ومشاغل لم أستطع منها فكاكاً، حتى شاء الله أن أجد فسحة من الوقت، فقدّرني ربي على كتابته وإتمامه، وكنت قبل هٰذا الوقت حاولت أن أكتب فيه، ولكن كان يضيق صدري بعد أن أبدأ الكتابة، فقد كنت

متخوفاً من الكتابة في موضوع زلّت فيه أقلام كثير من الناس، وضلَّ فيه كثير من الذين أُعْطُوا ذكاءً وفطنة.

لقد كان هٰذا الباب ولا يزال من أعوص الأبواب التي خاض فيها الخائضون، وكثير من أهل الضلال أتُوا من الانحراف في باب القدر، وكم من خائض فيه يظن نفسه محسناً، وهو قد تاه وحار، وتنكب الطريق.

يقول العلامة ابن القيم مقدماً لكتابه «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل»: «سلك جماهير العقلاء في هٰذا الباب في كل واد، وأخذوا في كل طريق، وتولجوا كل مضيق، وركبوا كل صعب وذلول، وقصدوا الوصول إلى معرفته، والوقوف على حقيقته وتكلَمتْ فيه الأمم قديماً وحديثاً، وساروا للوصول إلى مغزاه سيراً حثيثاً، وخاضت فيه الفرق على تباينها واختلافها، وصنّف فيه المصنفون الكتب على تنوع أصنافها، فلا أحد إلا وهو يحدث نفسه بهٰذا الشأن، ويطلب الوصول فيه إليه حقيقة العرفان، فتراه متردداً فيه مع نفسه، أو مناظراً لبني جنسه، وكلٌّ قد اختار لنفسه قولاً لا يعتقد الصواب في سواه، ولا يرتضي إلا إياه.

وكلهم إلا من تمسك بالوحي عن طريق الصواب مردود، وباب الهدى في وجهه مسدود، تحسى على غير طائل، وارتوى من ماء آجن، قد طاف على باب الأفكار، ففاز بأخس الآراء والمطالب، فرح بما عنده من العلم الذي لا يُسمن ولا يغني من جوع، وقدم آراء من أحسن به الظن على الوحي المنزل المشروع، والنصِّ المرفوع، حيران يأتم بكل حيران، يحسب كل شراب ماء فهو طول عمره ظمآن، يُنادَى إلى الصواب من مكان بعيد، أقبل إلى الهدى فلا يستجيب إلى يوم الوعيد، لقد فرح بما

عنده من الضلال، وقنع بأنواع الباطل وأصناف المحال، منعه الكفر الذي اعتقده هدى، وما هو ببالغه عن الهداة المهتدين، ولسان حاله أو قاله يقول: أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلم بالشاكرين»[1].

لقد رأيت مصداق ما قاله ابن القيم في كلامه الذي نقلناه عنه فيما اطلعت عليه من كلام الخائضين في القدر قديماً وحديثاً، فكنت أخشى على نفسي من الخوض في هٰذا الموضوع والكتابة فيه، وكان يدفعني إلى الكتابة فيه الرغبة في إتمام هٰذه السلسلة، وسؤال كثير من طلبة العلم عن أوان صدور هٰذا الكتاب.

فاستعنت بالله، وأوغلت في هٰذا الباب برفق، متأسياً بمنهج أهل العلم ممن شُهِدَ له بالاستقامة والإمامة في الدين والعلم، ولذلك فقد أكثرت من النقول فيما كتبت في هٰذا الكتاب، وأكثرت من أقوال أهل التقى والصلاح من سلفنا الصالح اتباعاً لسبيل المؤمنين، أملاً في أن لا ينحرف بي المسار، ولا أضل في منحنيات الطريق. ولقد كانت آيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ هي الأنوار التي أستضيء بها في المسار الذي سلكته، والعلم الذي دونته، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإني لأرجو من أهل العلم تسديد ما زلَّ فيه القلم، وتعثر فيه الفكر، وشرد به القول.

وقد جاء هٰذ الكتاب بعد هٰذه الفاتحة في سبعة فصول:

بينت في الفصل الأول وجوب الإيمان بالقدر، وقررت أن الإيمان به

---

(١) شفاء العيل: ص١٤.

أصل من أصول الإيمان.

وألقيت في الفصل الثاني نظرة عجلى على تاريخ القول بالقدر.

والفصل الثالث مخصص لتعريف القدر وبيان أركانه.

وقد عقدت فيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مخصص للتعريف بالقدر.

وفي المبحث الثاني: عرّفت القضاء مبيناً الصلة بينه وبين القدر.

وذكرت في المبحث الثالث أركان الإيمان بالقدر التي لا يتم إيمان أحد به مالم يؤمن بها.

والمبحث الرابع: معقود للتدليل على أن أفعال العباد مقدَّرة مقضية مخلوقة لله عز وجل، وقد أوردت كثيراً من النصوص الدالة على ذلك من الكتاب والسنة.

والفصل الرابع جعلته لبيان حدود نظر العقل في القدر، وبيان ما يمكنه إدراكه وما لا يمكنه في هٰذا الباب.

والفصل الخامس معقود لبيان المذاهب في القدر وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ذكرت فيه مذهب المكذبين بالقدر، وأوردت فيه مذهبهم، كما بينت ضلالهم، ومحاورات العلماء لهٰذا الفريق، كما أوردت ما يظنونه أدلة تؤيد مذهبهم، وهي في الواقع شبهات لا تكاد تسلط عليها أضواء الحق حتى تتلاشى وتزول لمن هداه الله وشرح صدره للإيمان.

والمبحث الثاني: مخصص لبيان المذهب الذي أضل الأمّة وعطل عقول أبنائها وشل إرادتهم وحركتهم، وعطّل طاقاتهم وجَيّر أعمالهم

لأعداء الإسلام، ألا وهو مذهب القدرية المجبرة الذين تركوا العمل، احتجاجاً بالقدر.

وقد بينت أنهم ضلوا من سبعة أوجه.

والمبحث الثالث: خصصته لبيان مذهب أهل السنة والجماعة، وقد عقدت له ثلاثة مطالب، سُقت في كل مطلب منها عقيدةً دوَّنها عالم من علماء أهل السنة في باب القدر.

والفصل السادس: جعلته لبيان السبب في ضلال العباد في باب القدر.

وذكرت في الفصل السابع والأخير بعض الثمار الطيبة للإيمان بالقدر.

أسأل الله تعالى أن أكون قد وُفِّقت في تجلية هٰذا الأصل، كما أسأله أن ينفع به عباده، إنه نعم المولى ونعم النصير، وهو حسبي ونعم الوكيل.

د.عمر سليمان الأشقر

٢٥ من رجب ١٤١٠ هـ

١٩٩٠/٢/٢١



الفصل الأول

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، ففي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب في سؤال جبريل عليه السلام الرسول ﷺ عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه. قال (أي جبريل عليه السلام): صدقت»[1]. والنصوص المخبرة عن قدر الله أو الآمرة بالإيمان بالقدر كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]. وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣].

وروى مسلم في صحيحه عن طاووس قال: «أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر. قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجزُ والكَيْس[2]، أو الكَيْس والعَجْز»[3].

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون

---

(١) شرح النووي على مسلم: ١/ ١٥٧.

(٢) الكَيْس ضد العجز.

(٣) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٤٥ ورقمه: ٢٦٥٥.

رسول الله ﷺ في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۞ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٨-٤٩][١].

والنصوص في ذلك كثيرة جداً فإنّ النصوص الدالة على علم الله وقدرته ومشيئته وخلقه تدل على قدره تبارك وتعالى، فالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله ومشيئته وخلقه، كما سيأتي بيانه، وذكر النصوص الواردة في ذلك.

والقدر يدل بوضعه -كما يقول الراغب الأصفهاني فيما نقله عنه ابن حجر العسقلاني- على القدرة وعلى المقدور الكائن بالعلم[٢].

فلله تعالى القدرة المطلقة، وقدرته لا يعجزها شيء، ومن أسمائه -تبارك وتعالى- القادر والقدير والمقتدر، والقدرة صفة من صفاته.

فالقادر اسم فاعل من قدر يقدر.

والقدير فعيل منه، وهو للمبالغة، ومعنى (القدير) الفاعل لما يشاء، على قدر ما تقتضيه الحكمة لا زائداً عليه، ولا ناقصاً عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله عز وجل. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

و(المقتدر) مفتعل من اقتدر، وهو أبلغ من (قدير) ومنه قوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

وقد سئل الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عن القدر: فقال: «القدر قدرة الله»[٣].

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢٠٤٦. ورقمه: ٢٦٥٦، ورواه الترمذي: انظر صحيح سنن الترمذي: ٣/٢٢٩.

(٢) فتح الباري: ١١/٤٧٧.

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/٣٠٨.

قال ابن القيم: «وقال الإمام أحمد: القدرُ قدرة الله. واستحسن ابن عقيل هٰذا الكلام جداً، وقال: هٰذا يدل على دقة أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفا، فإن إنكاره إنكار لقدرة الرب على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها» وقد صاغ ابن القيم هٰذا المعنى شعراً فقال:

فحقيقة القدر الذي حار الورى ... في شـأنه هو قدرة الرحمٰن

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد ... لما حـكاه عـن الرضا الربان

له قال الإمام شفى القلوب بلفظةٍ ... ذات اختصار وهي ذات بيان

ولذا فإن الذين يكذبون بالقدر لا يثبتون قدرة الله تعالى، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «مَنْ لم يقل بقول السلف فإنه لا يُثبِت لله قدرة، ولا يثبته قادراً كالجهمية ومن اتبعهم، والمعتزلة المجبرة والنافية: حقيقة قولهم أنه ليس قادراً، وليس له الملك، فإن المُلْك إما أن يكون هو القدرة، أو المقدور، أو كلاهما، وعلى كل تقدير فلا بدَّ من القدرة، فمن لم يثبت له قدرة حقيقية لم يثبت له ملكاً»[١].

والذين كذبوا بالقدر لم يوحدوا الله عز وجل، فإن نفاة القدر «يقولون: خالق الخير غير خالق الشر، ويقول من كان منهم في ملتنا: إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله تعالى، وربما قالوا: ولا يعلمها أيضاً، ويقولون: إن جميع أفعال الحيوان واقعة بغير قدرته ولا صنعه، فيجحدون مشيئته النافذة، وقدرته الشاملة، ولهٰذا قال ابن عباس: القدر نظام التوحيد، فمن وحَّد الله وآمن بالقدر تمَّ توحيده، ومن وَحَّدَ الله وكذَّب

(١) شفاء العليل: ٤٩.

بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه»[1].

وقد تقاطر أهل العلم على تقرير القدر والنصِّ على وجوب الإيمان به، وما من عالم من علماء أهل السنة الذين هم أعلام الهدى وأنوار الدجا إلا وقد نصَّ على وجوب الإيمان به، وبدَّع وسفَّه من أنكره وردَّه.

يقول النووي رحمه الله تعالى في شرحه لأحاديث القدر من صحيح مسلم: «وفي هٰذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر، وأن جميع الواقعات بقضاء الله وقدره خيرها وشرها نفعها وضرها»[2].

وقال في موضع آخر: «تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى»[3].

ويقول ابن حجر رحمه الله تعالى: «مذهب السلف قاطبة أن الأمور كلَّها بتقدير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]»[4].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/٢٥٨.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١٦/١٩٦.

(٣) شرح النووي على مسلم ٢/١٥٥.

(٤) فتح الباري: ١١/٤٧٨.

الفَصْلُ الثَّانِي

نظرة في تاريخ القدر

الإيمان بالقدر أحد أصول الإيمان، وقد بيَّن الكتاب والسنة مفهوم القدر، وبين الرسول ﷺ أن العمل والأخذ بالأسباب هو من القدر، ولا ينافيه ولا يناقضه، وحذر أمته من الذين يكذبون بالقدر، أو يعارضون به الشرع.

وغضب الرسول ﷺ غضباً شديداً عندما خرج على أصحابه يوماً وهم يتنازعون في القدر، حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فُقِىء في وجنتيه الرمان، فقال: «أبهٰذا أمرتم، أم بهٰذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هٰذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[1].

واستجاب الصحابة رضوان الله عليهم لعزيمة نبيهم وتوجيهه، فلم يُعرف عن واحد منهم أنه نازع في القدر في حياة الرسول ﷺ أو بعد وفاته.

ولم يَرِدْ إلينا أن واحداً من المسلمين نازع في القدر في عهد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان، وكل ما ورد إلينا أن أبا عبيدة عامر بن الجراح اعترض على رجوع عمر بالناس عن دخول الشام عندما انتشر بها الطاعون، وقال لعمر بن الخطاب: «يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله»؟

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٢٢٣.

فقال عمر: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرٌ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت إن كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله»(١).

وروى اللالكائي أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية (من أرض الشام) فقال في خطبته: «من يضلل الله فلا هادي له». وكان الجثاليق(٢) بين يديه، فقال: إن الله لا يضل أحداً، وعندما كررها عمر بن الخطاب: نفض الجثاليق ثوبه ينكر قول عمر.

فقال له عمر بعد أن تُرجم له كلامه: «كذبت يا عدو الله، بل الله خلقك، والله يضلك، ثم يميتك، فيدخلك النار إن شاء الله... إن الله خلق الخلق، وقال: حين خُلق آدم نثر ذريته في يده، وكتب أهل الجنّة وماهم عاملون، وكتب أهل النار وما هم عاملون، ثم قال: «هٰؤلاء لهٰذه، وهٰؤلاء لهٰذه». فتفرق الناس وما يختلف في القدر اثنان»(٣).

وأول من تكلم بالقدر رجل من أهل البصرة كان يعمل بقالاً يقال له سَنْسَويه، قال الأوزاعي: «أول من نطق في القدر رجل من العراق يقال له: سوسن، كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصَّر، فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد»(٤).

وقال يونس بن عبيد: «أدركت البصرة وما بها قدري إلا سَنْسَويه ومعبد

---

(١) صحيح البخاري: انظر فتح الباري ١٠/ ١٧٩، ورقم الحديث: ٥٧٢٩.
(٢) جثاليق النصارى: رأسهم ومقدمهم.
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ٣/ ٦٥٩.
(٤) شرح أصول الاعتقاد: ٣/ ٧٥٠ وانظر الشريعة للآجري: ص٢٤٢.

الجهني، وآخر ملعون في بني عوافة»[1].

وروى مسلم في صحيحه عن بُرَيْدة بن يحيى بن يعمر قال: «كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني» وذكر بريدة في حديثه أن معبداً ومن معه يزعمون «أن لا قدر، وأن الأمر أنف»[2].

وقد أثار الصحابة الأحياء في ذلك الوقت كعبد الله بن عمر وابن عباس وواثلة بن الأصقع، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وأنس بن مالك حرباً على أصحاب هٰذه المقالة[3]. ثم أخذ هٰذا المذهب عن معبدٍ رؤوسُ الاعتزال وأئمته كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وغيلان الدمشقي.

فأما واصل بن عطاء رأس الاعتزال، فقد زعم أن الشر لا يجوز إضافته إلى الله، لأن الله حكيم، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر، ويحتم عليهم شيئاً، ثمَّ يجازيهم عليه.

وقرر في مقالته: أن العبد هو الفاعل للخير والشر، والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وهو المجازى على فعله، والربُّ تعالى أقدره على ذلك كله[4].

وذهب النظام من المعتزلة إلى أن الله لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي، وليست هي مقدورة لله[5].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٣/ ٧٤٩.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١/ ١٥٠.

(٣) راجع: الفرق بين الفرق: ص١٩.

(٤) الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ٤٧.

(٥) الملل والنحل: ١/ ٥٤.

وهٰذه الفرقة هي التي أطلق عليها علماؤنا: اسم القدرية. «وسموا بذلك لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه، وهٰؤلاء مع ضلالتهم يضيفون هٰذا الاسم إلى مخالفيهم من أهل الهدى، فيقولون: أنتم القدرية حين تجعلون الأشياء جارية بقدر من الله، وإنكم أولى بهٰذا الاسم منا»[1].

وقد ذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم: «أن بعض القدرية قال: لسنا بقدرية، بل أنتم القدرية، لاعتقادكم إثبات القدر.

قال ابن قتيبة والإمام (يريد الإمام الجويني): «هٰذا تمويه من هٰؤلاء الجهلة ومباهته وتواقح، فإن أهل الحق يفوضون أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى، ويضيفون القدر والأفعال إلى الله سبحانه وتعالى، وهٰؤلاء الجهلة يضيفونه إلى أنفسهم، ومُدَّعي الشيء لنفسه، ومضيفه إليها أولى بأن ينسب إليه ممن يعتقده لغيره، وينفيه عن نفسه»[2].

وقد صح أن الرسول ﷺ سمّى القدرية مجوس هٰذه الأمة، والحديث أخرجه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه على الصحيحين، وقال: صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر[3].

والسبب في تسمية هٰذه الفرقة بمجوس هٰذه الأمة «مضاهاة مذهبهم المجوس في قولهم بالأصلين: النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة، فصاروا ثَنَوِيَّة، وكذلك القدرية يضيفون

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير: ١٠/ ١٢٨.
(٢) شرح النووي على مسلم: ١/ ١٥٤.
(٣) شرح النووي على مسلم: ١/ ١٥٤.

الخير إلى الله تعالى، والشر إلى غيره، والله -سبحانه وتعالى- خالق الخير والشر جميعاً، لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته، فهما مضافان إليه -سبحانه وتعالى- خلقاً وإيجاداً، وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً»[(١)] [(٢)].

ونشأ في آخر عهد بني أميّة أقوام يزعمون أن العبد مجبور على فعله، ليس له خيار فيما يأخذ أو يدع، وبعضهم يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة، وأول من ظهر عنه هٰذا القول هو الجهم بن صفوان، وتفرع عن هٰذه البدعة أقوال شنيعة، وضلال كبير[(٣)].

وقد انتشر هٰذا القول في الأمّة الإسلامية وتقلّده كثير من العباد والزهاد والمتصوفة، وإذا كان الفريق الأول أشبه المجوس فإن هٰذا الفريق أشبه المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨].

وهٰذا الفريق شرٌّ من الفريق الأول، لأن الأولين عظموا الأمر والنهي، وأخرجوا أفعال العباد عن أن تكون خلقاً لله، وهٰذا الفريق أثبت القدر، واحتج به على إبطال الأمر والنهي[(٤)] [(٥)].

---

(١) نقل هٰذا الكلام النووي في شرحه على مسلم: ١/ ١٥٤ عن الخطابي. وانظر جامع الأصول: ١٠/١٢٨.

(٢) سيأتي مزيد بيان لهٰذه الفرقة ومعتقداتها وبيان ضلالها عندما نتكلم على الذين ضلوا في باب القدر.

(٣) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ٤٦٠، والملل والنحل للشهرستاني: ١/ ٨٥.

(٤) عقيدة السفاريني: ١/٣٠٦.

(٥) سيأتي مزيد بحث عن أصحاب هٰذا التوجه.



الفصل الثالث
التعريف بالقضاء والقدر

المبحث الأول
التعريف بالقدر

«القدر مصدر، تقول: قَدَرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أَقْدِره بالكسر والفتح قَدْراً وقَدَراً، إذا أحطت بمقداره»[(١)].

والقدر في اللغة «القضاء والحكم ومبلغ الشيء، والتقدير التروية والتفكر في تسوية الأمر»[(٢)].

والقدر في الاصطلاح: «ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه -عزّ وجلّ- قدَّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها»[(٣)].

وقال ابن حجر في تعريفه: «المراد أنّ الله -تعالى- علم مقادير الأشياء

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ١/١١٨.

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي: ص٥٩١.

(٣) عقيدة السفاريني: ١/٣٤٨.

وأزمانها قبل إيجادها، ثمّ أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته»[1].

ونقل السفاريني عن الأشعرية أن «القدر إيجاد الله -تعالى- الأشياء على قدر مخصوص، وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم»[2].

وهٰذه التعريفات متقاربة فيما بينها، وهي تفيد أن القدر يشمل أمرين:

الأول: علم الله الأزلي الذي حكم فيه بوجود ما شاء أن يوجده، وحدد صفات المخلوقات التي يريد إيجادها، وقد كتب كل ذلك في اللوح المحفوظ بكلماته، فالأرض والسماء أحجامهما وأبعادهما وطريقة تكوينهما وما بينهما وما فيهما كل ذلك مدون علمه في اللوح المحفوظ تدويناً دقيقاً وافياً.

والثاني: إيجاد ما قدر الله إيجاده على النحو الذي سبق علمه وجرى به قلمه، فيأتي الواقع المشهود مطابقاً للعلم السابق المكتوب.

والقدر يطلق ويراد به التقدير السابق لما في علم الله، ويطلق ويراد ما خلقه وأوجده على النحو الذي علمه.

وسئل الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- عن القدر فأجاب شعراً قائلاً:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ   وما شئتُ إن لم تشأ لم يكنْ

خلقتَ العباد على ما علمتَ   ففي العلم يجري الفتى والمُسِنْ

---

(١) فتح الباري: ١/١١٨.

(٢) عقيدة السفاريني: ١/٣٤٥.

على ذا مننتَ وهٰذا خذلتَ وهٰذا أعـنـتَ وهٰذا لـم تُـعِـنْ
فمنهـم شقـي ومنهـم سعيـد ومنهـم قبيـح ومنهـم حَسَـنْ[1]

(١) الاعتقاد للبيهقي: ص١٦٢. شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ٧٠٢.

المبحث الثاني

التعريف بالقضاء

«القضاء: الفصل والحكم. وقد تكرر في أحاديث الرسول ﷺ ذكر (القضاء) وأصله القطع والفصل. يُقال: قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ، إذا حكم وفصل. وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق.

وقال الزهري: القضاء في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقضاء الشيء وتمامه، وكل ما أُحكم عمله، أو أُتمَّ، أو أُدِّي، أو أُوجب، أو عُلم، أو نُفِّذ، أو أُمضي، فقد قضي، وقد جاءت هٰذه الوجوه كلها في الأحاديث[1].

وللعلماء في التفرقة بين القضاء والقدر قولان:

الأول: القضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق. يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: «قال العلماء القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله»[2]. وقال في موضع آخر: «القضاء الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل»[3].

---

(١) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٧٨.

(٢) فتح الباري: ١١/ ٤٧٧.

(٣) فتح الباري: ١١/ ١٤٩.

الثاني: عكس القول السابق، فالقدر هو الحكم السابق، والقضاء هو الخلق.

قال ابن بطال: «القضاء هو المقضي»[1] ومراده بالمقضي المخلوق، وهٰذا هو قول الخطابي، فقد قال في معالم السنن: «القدر اسم لما صار مُقدَّراً عن فعل القادر، كالهدم والنشر والقبض: أسماء لما صدر من فِعل الهادم والناشر والقابض.

والقضاء في هٰذا معناه الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ١٢] أي خلقهن»[2].

وبناء على هٰذا القول يكون «القضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنّه الفصل بين التقديرين، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع»[3].

ويدل لصحة هٰذا القول نصوص كثيرة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٢١]، وقال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٧١]. وقال: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

فالقضاء والقدر - بناء على هٰذا القول- أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»[4].

---

(١) فتح الباري: ١١/ ١٤٩.
(٢) معالم السنن للخطابي: ٧/ ٧٠.
(٣) المفردات للراغب الأصفهاني: ص٤٠٦.
(٤) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٤/ ٧٨. وانظر جامع الأصول: ١٠/ ١٠٤.

المبحث الثالث

أركان الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان، من أقرَّ بها جميعاً فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملاً، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بالقدر، وهٰذه الأركان الأربعة هي:

الأول: الإيمان بعلم الله الشامل المحيط.

الثاني: الإيمان بكتابة الله في اللوح المحفوظ لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة.

الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن.

الرابع: خلقه تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك لله في خلقه.

وسنتناول هٰذه الأصول الأربعة بشيء من التفصيل.

الركن الأول

الإيمان بعلم الله الشامل

وقد كثر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تقرير هٰذا الأصل العظيم، فعلم الله محيط بكل شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، ومالم يكن لو كان كيف

يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن والمستحيل.

وهو عالم بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن منهم من أهل الجنة، ومن منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ويخلق السموات والأرض.

وكل ذلك مقتضى اتصافه -تبارك وتعالى- بالعلم، ومقتضى كونه -تبارك وتعالى- هو العليم الخبير السميع البصير.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقال: ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢]. وقال: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾ [سبأ: ٣]. وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقال: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال الحق مقرراً علمه بما لم يكن لو كان كيف سيكون ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فالله يعلم أن هؤلاء المكذبين الذين يتمنون في يوم القيامة الرجعة إلى الدنيا أنهم لو عادوا إليها لرجعوا إلى تكذيبهم وضلالهم.

وقال في الكفار الذين لا يطيقون سماع الهدى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

ومن علمه تبارك وتعالى بما هو كائن علمه بما كان الأطفال الذين توفوا صغاراً عاملين لو أنهم كبروا قبل مماتهم.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين»[1].

وروى مسلم عن عائشة أم المؤمنين قالت: توفي صبي، فقلت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة.

فقال رسول الله ﷺ: «أولا تدرين أن الله خلق الجنة والنار، فخلق لهٰذه أهلاً ولهٰذه أهلاً».

وفي رواية عند مسلم أيضاً عن عائشة قالت: «دُعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى لهٰذا، عصفور من عصافير الجنّة، لم يعمل السوء ولم يدركه.

قال: أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنّة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[2].

وهٰذه الأحاديث تتحدث عن علم الله في من مات صغيراً، لا أن هٰؤلاء يدخلهم الله النار بعلمه فيهم من غير أن يعملوا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في قوله ﷺ في أبناء المشركين: «الله أعلم بما كانوا عاملين» «أي يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو بلغوا، ثم إنه جاء في حديثٍ إسناده مقارب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة فإن الله يمتحنهم، ويبعث إليهم رسولاً في عرصة القيامة، فمن أجابه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله

---

(١) انظر فتح الباري: ١١/ ٤٩٣ ورواه مسلم بلفظه عن أبي هريرة: ٤/ ٢٠٤٩ ورقمه: ٢٦٥٩.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٥٠ ورقمه: ٢٦٦٢.

النار» فهنالك يظهر فيهم ما علمه الله سبحانه، ويجزيهم على ما ظهر من العلم، وهو إيمانهم وكفرهم، لا على مجرد العلم»[1].

الأدلة العقلية على أن الله علم مقادير الخلائق قبل خلقهم:

والحق أن وجود هٰذا الكون، ووجود كل مخلوق فيه يدلُّ دلالة واضحة على أن الله علم به قبل خلقه، «فإنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل، لأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم»[2].

وأيضاً فإن «المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم»[3].

واستدل العلماء على علمه تبارك وتعالى بقياس الأولى: «فالمخلوقات فيها ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً».
والاستدلال بهٰذا الدليل له صيغتان:

أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين:

أحدهما عالم والآخر غير عالم، كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/ ٢٤٦.
(٢) شرح الطحاوية: ص١٤٨.
(٣) شرح الطحاوية: ص١٤٨.

الثاني: كل علم في المخلوقات فهو من الله تبارك وتعالى، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه، بل هو أحق به، ذلك أن كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق أحق به، وكلُّ نقص تنزه عنه مخلوق ما، فتنزه الخالق عنه أولى»[1].

وكل هٰذه الأدلة يمكنك أن تلمحها في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ويستدل على علمه -تبارك وتعالى- بإخباره بالأشياء والأحداث قبل وقوعها وحدوثها، فقد أخبر الحق في كتبه السابقة عن بعثه رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وصفاته وأخلاقه وعلاماته، كما أخبر عن الكثير من صفات أمته، وأخبر في محكم كتابه أن الروم سينتصرون في بضع سنين على الفُرس المجوس، ووقع الأمر كما أخبر، والإخبار عن المغيبات المستقبلة كثير في الكتاب والسنة.

الركن الثاني

الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء

دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال:

(١) شرح الطحاوية: ص١٤٨.

وعرشه على الماء»[1].

ورواه الترمذي بلفظ: «قدَّر الله المقادير قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة»[2].

وفي سنن الترمذي أيضاً عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان، وما هو كائن إلى الأبد».

قال أبو عيسى الترمذي: وهٰذا حديث غريب من هٰذا الوجه[3].

واللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق سماه القرآن بالكتاب، وبالكتاب المبين، وبالإمام المبين وبأم الكتاب، والكتاب المسطور. قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. وقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠] وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ١-٣]. وقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٤٤. ورقم الحديث: ٢٦٥٣.

(٢) سنن الترمذي: (٤٥٨/٤) ورقمه ٢١٥٦. وقال فيه: حديث حسن صحيح.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٤٥٨. ورقمه: ٢٠٥٥. والحديث صحيح. فالغرابة إنما هي في الوجه الذي أورده الترمذي في باب القدر، وإلا فإنه قد أورده في كتاب التفسير، وقال فيه: حديث حسن غريب. وقد أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن الترمذي: (٢٢٨/٢) وذكر أنه خرجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة وغيرها.

الركن الثالث

الإيمان بمشيئة الله الشاملة وقدرته النافذة

وهٰذا الأصل يقضي بالإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون في السمٰوات ولا في الأرض إلا بمشيئته، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد.

والنصوص المصرحة بهٰذا الأصل المقررة له كثيرة وافرة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٣٦]، وقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

ومشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن.

فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محاله، وما لم يشأ الله تعالى إياه لا يكن لعدم مشيئة الله تعالى ليس لعدم قدرته عليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ

جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، والآيات في هٰذا كثيرة تدل على عدم وجود مالم يشأ وجوده لعدم مشيئته ذلك، لا لعدم قدرته عليه، فإنه على كل شيء قدير تبارك وتعالى.

الركن الرابع

الإيمان بأن الله خالق كلّ شيء

قررت النصوص أن الله خالق كل شيء، فهو الذي خلق الخلق وكوّنهم وأوجدهم، فهو الخالق وما سواه مربوب مخلوق ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ﴾ [النساء: ١]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، والنصوص في هٰذا كثيرة طيبة.

المَبحث الرابع

افعال العباد مخلوقة مقدرة

لا يخرج العباد وأفعالهم عن غيرها من المخلوقات، فقد علم الله ما سيخلقه من عباده، وعلم ما هم فاعلون، وكتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما شاء، ومضى قدر الله فيهم، فعملوا على النحو الذي شاءه فيهم، وهدى مَن كتب الله له السعادة، وأضل مَن كتب عليه الشقاوة، وعلم أهلَ الجنة ويسرهم لعمل أهلها، وعلم أهلَ النار ويسرهم لعمل أهلها.

والنصوص التي سقناها فيما سبق تكفي في الدلالة على هٰذا الذي قررناه هنا، ومع ذلك فهناك نصوص كثيرة أخرى أصرح في الدلالة في هٰذه المسألة.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ [الصافات: ٥٢]، وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]. وقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وجاءت أحاديث كثيرة تواتر معناها على أن رب العباد علم ما العباد عاملون، وقدّر ذلك وقضاه وفرغ منه، وعلم ما سيصير إليه العباد من

السعادة والشقاء، وأخبرت مع ذلك كله أن القدر لا يمنع من العمل، «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

وسنورد هنا بعض النصوص الدالة على ذلك.

النصوص الدالة على تقدير الله أفعال العباد

١- الأحاديث الدالة على أن أعمال العباد جفَّت بها الأقلام وجرت بها المقادير:

روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: جاء سراقة بن مالك بن جُعْشم قال: يا رسول الله، بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جَفَّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفَّت به الأقلام وجرت به المقادير».

قال: ففيم العمل؟

فقال: «اعملوا فكلٌّ ميسر» وفي رواية: «كل عامل ميسَّر لعمله»[1].

وروى الترمذي في سننه أن عمر بن الخطاب قال للرسول ﷺ: «يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه، أمر مبتدع أو مبتدأ، أو فيما فرغ منه؟

فقال: فيما فرغ منه يا ابن الخطاب، وكلٌّ ميسَّر، أمّا من كان من أهل السعادة فإنّه يعمل للسعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فإنّه يعمل للشقاء».

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤٠ ورقم الحديث: ٢٦٤٨.

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح[١].

٢- علم الله بأهل الجنة وأهل النار:

وروى البخاري عن عمران بن حصين قال: قال رجل: يا رسول الله، «أَيُعْرف أهل الجنّة من أهل النار؟

فقال: نعم.

قال: فلم يعملون؟ قال: كلٌّ يعمل لما خلق له، أو يسر له».

وروى مسلم في صحيحه عن عليّ قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد[٢]. فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرةٌ[٣]. فنكّس[٤]، فجعل ينكث بمخصرته[٥]، ثم قال: «ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنّة أو النار، وإلاّ قد كتبت شقيّة أو سعيدة».

قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة». فقال[٦]: «اعملوا فكل ميسر، أمّا أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأمّا أهل

---

(١) رواه الترمذي: ٤/ ٤٤٥. ورقم الحديث: ٢١٣٥.

(٢) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.

(٣) المخصرة: عصا صغيرة.

(٤) نكس رأسه: خفضه.

(٥) أي يخط بمخصرته في التراب.

(٦) هكذا في الحديث كرر «فقال».

الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠]»[١].

٣- استخراج ذرية آدم من ظهره بعد خلقه وقسمهم إلى فريقين: أهل الجنة وأهل النار:

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن الله مسح ظهر آدم بعد خلقه له، واستخرج ذريته من ظهره أمثال الذر، واستخرج منهم أهل الجنة وأهل النار.

روى مالك والترمذي وأبو داود عن مسلم بن يسار قال: سئل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن هٰذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هٰؤلاء للجنّة، وبعمل أهل الجنّة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هٰؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: ففيم العمل يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنّة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنّة، فيدخله الله الجنّة.

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢٠٣٩. ورقم الحديث: ٢٦٤٧. والحديث رواه البخاري في غير موضع في صحيحه ورواه الترمذي وأبو داود. واللفظ الذي سقناه هنا لمسلم.

وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله الله النار»[1].

وروى الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح إلى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان -يعني عرفه- فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قُبُلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣][2].

وروى أحمد في مسنده بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى، فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذي في يمينه: إلى الجنّة ولا أبالي، وقال للذي في كَفِّه اليسرى: إلى النار ولا أبالي»[3].

وبين الرسول ﷺ في حديث آخر «أنَّ الله -عز وجل- خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل» فلذلك أقول جفَّ القلم على علم الله.

رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو وقال فيه: هذا حديث حسن[4].

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٣٤ ورقم الحديث: ٩٥ وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني فيه: رجال إسناده ثقات رجال الشيخين، غير أنه منقطع بين مسلم بن يسار وعمر، لكن له شواهد كثيرة.

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ٤٣.

(٣) مشكاة المصابيح: ١/ ٤٢.

(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٢٦. ورقم الحديث (٢٦٤٢).

٤- كتابة الله لأهل الجنة وأهل النار:

وروى الترمذي في سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان: فقال: أتدرون ما هٰذان الكتابان؟ فقلنا: لا يا رسول الله، إلاّ أن تخبرنا.

فقال للذي في يده اليمنى: هٰذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أُجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً.

ثمَّ قال للذي في شماله: هٰذا كتاب من ربٍّ العالمين، فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أُجمل على آخرهم[(١)]، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً.

فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟

فقال: سدِّدوا وقاربوا[(٢)]، فإن صاحب الجنّة يختم له بعمل أهل الجنّة، وإن عمل أيّ عمل. وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل.

ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما. ثمّ قال: فرغ ربكم من العباد، فريق في الجنّة وفريق في السعير».

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن غريب صحيح[(٣)].

---

(١) أجمل على آخرهم، أي: جمعوا أهل الجنة وأهل النار عن آخرهم، وعُقدت جملتهم، فلا يتطرق إليها زيادة ولا نقصان.

(٢) السداد: الصواب في القول والعمل. والمقاربة: القصد فيهما.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٤٥٠. ورقم الحديث ٢١٤١ وهو في صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر: ٢/ ٢٢٥.

٥- التقدير في ليلة القدر والتقدير اليومي:

بينا من قبل أن الله قدَّر مقادير عباده قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، ودلّ الكتاب والسنة على أن هناك تقديران تقدير حولي وتقدير يومي، فأما التقدير الحولي ففي ليلة القدر، ففيها يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر، وما يقوم به العباد من أعمال ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان: ٣-٥].

أما التقدير اليومي فهو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

روى ابن جرير عن منيب بن عبد الله عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هٰذه الآية، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال: أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين.

وجملة أقوال المفسرين في الآية «أن الله من شأنه في كل يوم أن يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ويعز قوماً ويذل قوماً، ويشفي مريضاً، ويفك عانياً، ويفرج مكروباً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنباً، إلى مالا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه»[١].

---

(١) ذكره صاحب معارج القبول: ١/ ٣٤٦ عن البغوي المفسر.

٦- كتابة ما قدر للإنسان وهو جنين في رحم أمّه:

ورد في الأحاديث أن الله يرسل ملكاً للجنين في رحم أمه فيكتب رزقه وأجله وشقاءَه وسعادته، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن عبد الله (هو ابن مسعود) قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثمّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة، فيدخلها»[١].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «وكّل الله بالرحم ملكاً، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة. فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب ذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل، فيكتب كل ذلك في بطن أمه»[٢].

وروى الترمذي في سننه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟

---

(١) رواه البخاري، انظر فتح الباري: ١١/ ٤٧٧. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٣٦. ورقم الحديث: ٢٦٤٣. والسياق لمسلم. ورواه أبو داود والترمذي أيضاً.

(٢) رواه البخاري، فتح الباري: ١١/ ٤٧٧. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٣٨. ورقمه ٢٦٤٦. والسياق للبخاري.

قال: يوفقه لعمل صالح قبل أن يموت».

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح[1].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له بعمل أهل الجنة»[2].

وعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنّة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»[3].

ومما يحسن أن يساق في هٰذا الباب لما فيه من العبرة، قصة الذي أخبر الرسول ﷺ أنه من أهل النار، ففي صحيح البخاري عن أبي حازم عن سهل بن سعد أن رجلاً من أعظم المسلمين غناءً في غزوة غزاها مع النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ فقال: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إلى هٰذا.

فاتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشدِّ الناس على المشركين، حتى جُرح فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه، حتى خرج من بين كتفيه.

فأقبل الرجل إلى الرسول مسرعاً: فقال: أشهد أنك رسول الله.

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٤٥٠. ورقمه: ٢١٤٢.

(٢) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٤٢ ورقم الحديث: ٢٦٥١.

(٣) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٤٢.

فقال: وما ذاك؟

قال: قلت لفلان من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان من أعظمنا غناءً عن المسلمين، فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جرح استعجل الموت فقتل نفسه.

فقال النبي ﷺ عند ذلك: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار، وإنه من أهل الجنّة. ويعمل عمل أهل الجنّة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»[1].

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٤٩٩ ورقم الحديث: ٦٦٠٧.



الفَصْل الرابع

حدود نظر العقل في القدر

يقول أبو المُظَفَّر السمْعَاني فيما حكاه عنه ابن حجر العسقلاني: «سبيل المعرفة في هٰذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضلَّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب، لأن القدر سِرٌّ من أسرار الله تعالى، اختص العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب»[1].

ويقول الطحاوي رحمه الله تعالى: «وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]»[2].

وقال الآجُرِّيُّ: «لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث في القدر، لأن القدر سر من أسرار الله عز وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٤٧٧. وراجع شرح النووي على مسلم: ١٦/ ١٩٦.

(٢) شرح الطحاوية: ص٢٧٦.

خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثمَّ لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق»[1].

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «من السنة اللازمة: الإيمان بالقدر خيره وشرّه، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها.

ومن لم يعرف تفسير الحديث، ولم يبلغه عقله، فقد كفى ذلك، وأحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له، مثل حديث الصادق المصدوق، وما كان مثله في القدر»[2].

وقال علي بن المديني مثل قول الإمام أحمد في القدر[3].

وهٰذا الذي قرره أهل العلم في القدر يضع لنا عدَّة قواعد في غاية الأهمية:

الأولى: وجوب الإيمان بالقدر.

الثانية: الاعتماد في معرفة القدر وحدوده وأبعاده على الكتاب والسنة، وترك الاعتماد في ذلك على نظر العقول ومحض القياس. فالعقل الإنساني لا يستطيع بنفسه أن يضع المعالم والركائز التي تنقذه في هٰذا الباب من الانحراف والضلال، والذين خاضوا في هٰذه المسألة بعقولهم ضلوا وتاهوا فمنهم من كذَّب بالقدر، ومنهم من ظن أن الإيمان بالقدر يُلْزِم القول

---

(١) الشريعة للآجري: ص١٤٩.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ص١٥٧.

(٣) المرجع السابق: ص١٦٥.

بالجبر، ومنهم من ناقض الشرع بالقدر، وكل انحراف من هٰذه الانحرافات سبب مشكلات في واقع البشر وحياتهم ومجتمعاتهم، فالانحراف العقائدي يسبب انحرافاً في السلوك وواقع الحياة.

الثالثة: ترك التعمق في البحث في القدر، فبعض جوانبه لا يمكن للعقل الإنساني مهما كان نبوغه أن يستوعبها، وبعضها الآخر لا يستوعبها إلا بصعوبة كبيرة.

قد يقال: أليس في هٰذا النهج حجر على العقل الإنساني؟ والجواب أن هٰذا ليس بحجر على الفكر الإنساني، بل هو صيانة لهٰذا العقل من أن تتبدد قواه في غير المجال الذي تحسن التفكير فيه، إنه صيانة للعقل الإنساني من العمل في غير المجال الذي يحسنه ويبدع فيه.

إن الإسلام وضع بين يدي الإنسان معالم الإيمان بالقدر، فالإيمان بالقدر يقوم على أن الله علم كلَّ ما هو كائن وكتبه وشاءَه وخلقه، واستيعاب العقل الإنساني لهٰذه الحقائق سهل ميسور، ليس فيه صعوبة، ولا غموض وتعقيد.

أما البحث في سرّ القدر والغوص في أعماقه فإنه يبدد الطاقة العقلية ويهدرها، إنّ البحث في كيفية العلم والكتابة والمشيئة والخلق، بحث في كيفية صفات الله، وكيف تعمل هٰذه الصفات، وهٰذا أمر محجوب علمه عن البشر، وهو غيب يجب الإيمان به، ولا يجوز السؤال عن كنهه، والباحث فيه كالباحث عن كيفية استواء الله على عرشه، يقال له: هٰذه الصفات التي يقوم عليها القدر معناها معلوم، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عن كيفيتها بدعة.

إن السؤال عن الكيفية هو الذي أتعب الباحثين في القدر، وجعل البحث فيه من أعقد الأمور وأصعبها، وأظهر أن الإيمان به صعب المنال، وهو سبب الحيرة التي وقع فيها كثير من الباحثين.

ولذا فقد نصَّ جمع من أهل العلم على المساحة المحذورة التي لا يجوز دخولها في باب القدر، وقد سقنا قريباً مقالة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى التي يقول فيها: «من السَّنة اللازمة الإيمان بالقدر خيره وشرّه والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟»[1].

لقد خاض الباحثون في القدر في كيفية خلق الله لأفعال العباد مع كون هٰذه الأفعال صادرة عن الإنسان حقيقة، وبحثوا عن كيفية علم الله بما العباد عاملون، وكيف يكلف عباده بالعمل مع أنه يعلم ما سيعملون، ويعلم مصيرهم إلى الجنّة أو النار.

وضرب الباحثون في هٰذا كتاب الله بعضه ببعض، وتاهوا وحاروا ولم يصلوا إلى شاطىء السلامة، وقد حذر الرسول ﷺ أمته من أن تسلك هٰذا المسار وتضرب في هٰذه البيداء، ففي سنن الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فقىء في وجنتيه الرمان، فقال: أبهٰذا أمرتم، أم بهٰذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هٰذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[2].

---

(١) شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ١٥٧.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٢٢٣.

مدى إدراك العقل للعلل والأوامر والأفعال وما فيها من حسن وقبح:

ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف إلى أن لأوامر الله ومخلوقاته عللاً وحِكماً، فإنه لا يأمر إلا لحكمة، ولا يخلق إلا لحكمة.

وبعض هٰذه الحِكم تعود إلى العباد، وبعضها يعود إلى الله تعالى، فما يعود إلى العباد هو ما فيه خيرهم وصلاحهم في العاجل والآجل، وما يعود إلى الله تعالى هو محبته أن يُعبد ويطاع ويتاب إليه ويُرجى ويُخاف منه ويتوكل عليه ويُجاهد في سبيله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

والنصوص الدالة على أن لله حِكماً في خلقه وأمره كثيرة وافرة، يصعب حصرها، والعقول البشرية تستطيع أن تدرك شيئاً من هٰذه الحكم.

وذهب جمهور أهل العلم أيضاً إلى أن العقل يستطيع أن يدرك ما في الأفعال من حسن وقبح، فالعقول تدرك أن الظلم والكذب والسرقة وقتل النفوس قبيح، وأن العدل والصدق وإصلاح ذات البين وإنقاذ الغرقى حسن وجميل.

والحكم الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع:

الأول: أن يكون الفعل مشتملاً على مصلحة أو مفسدة، ولو لم يَرِدْ الشرع بذلك، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم، والظلم

يشتمل على فسادهم، فهٰذا النوع حسن وقبيح، وقد يعلم بالعقل والشرع حسن ذلك وقبحه، لكن لا يلزم في العقول أن الإنسان معاقب على فعل القبيح من هٰذا النوع في الآخرة إن لم يرد الشرع بذلك، ومن ادعى أن الله يمكن أن يعاقب العباد على أفعالهم القبيحة من الشرك والكفر ونحو ذلك من غير إرسال رسول فقد أخطأ.

الثاني: إذا أمر الشارع بشيء صار حسناً، وإذا نهى عن شيء صار قبيحاً، واكتسب الفعل صفة الحسن والقبح بخطاب الشرع.

الثالث: أن يأمر الشارع بشيء امتحاناً واختباراً كما أمر الله إبراهيم بأن يذبح ولده إسماعيل. فالشارع ليس له قصد في ذبح الابن، ولكنه الابتلاء والاختبار.

والمعتزلة أقرت بالنوع الأول دون الثاني والثالث. والأشعرية ذهبت إلى أن جميع الأوامر والنواهي الشرعية هي من قسم الامتحان، والأفعال ليست لها صفة لا قبل الشرع ولا بالشرع، وأما الحكماء وجمهور أهل العلم فأثبتوا الأقسام الثلاثة[1].

وهٰذا الذي عليه جمهور أهل السنة من أن أفعال الله معللة وأن العقل بإمكانه أن يدرك ما في الأفعال من حسن وقبح، يفتح الباب أمام العقول الإنسانية لتبحث في الحِكَم الباهرة التي خلق الله من أجلها المخلوقات، وشرع من أجلها ما شرعه من أحكام، وهو باب كبير، يحصل العباد منه على علم عظيم، يثبت الإيمان، ويزيد اليقين، ويُعرِّف العباد بإبداع الخالق

---

(١) راجع في تعليل أفعال الله ومسألة التحسين والتقبيح العقلي: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٢٢، ٣٠٨، ٤٢٨.

العظيم ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧]، وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد وعد الحق تبارك وتعالى أن يُرِي عباده من آياته العظيمة ما يظهر صدق ما جاء به الرسول، وأنزله في الكتاب ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلۡأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

وقد جاءت النصوص آمرة بالتدبر والتأمل والنظر في آياته المنزلة، وآياته المخلوقة المبدعة ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [محمد:٢٤] ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس:١٠١] ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾ [الغاشية:١٧] ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقًّا ﴾ [عبس:٢٤-٢٦].



الفصل الخامس

المذاهب في القدر

صار المسلمون في القدر عدة مذاهب نبينها في المباحث التالية:

المبحث الأول

مذهب المكذبين بالقدر

ذهب بعض الضالين في هٰذا الباب إلى نفي القدر، وزعموا أن الله -تعالى عمَّا يقولون- لا يعلم بالأشياء قبل حصولها، ولم يتقدم علمه بها، وقالوا: إنما يعلم الله بالموجودات بعد خلقها وإيجادها.

وزعم هٰؤلاء كذباً وزوراً أن الله إذا أمر العباد ونهاهم لا يعلم من يطيعه منهم ممن يعصيه، ولا يعلم من يدخل الجنّة ممن يدخل النار، حتى إذا استجاب العباد لشرعه أو رفضوا- علم السعداء منهم والأشقياء، ويرفض هٰؤلاء الضلال الإيمان بعلم الله المتقدم، كما يكذبون بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السمٰوات والأرض، كما ثبت في الكتاب والسنة.

وقد نشأ القول بهٰذا في آخر عهد الصحابة، فأول من قال به معبد الجهني، ثمَّ تقلد عنه هٰذا المذهب الفاسد رؤوس المعتزلة وأئمتهم كواصل بن عطاء الغزال، وعمرو بن عبيد، ورويت عنهم في هٰذا أقوال

شنيعة فيها تكذيب لله ولرسوله في أن الله علم الأشياء وكتبها قبل خلقها[1].

وقد خشي الرسول ﷺ على أمته هٰذا الضلال الذي وقعت فيه هٰذه الفرقة، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه ابن عساكر عن أبي محجن وابن عبد البر في «الجامع» أن رسول الله ﷺ قال: «أخاف على أمتي من بعدي ثلاثاً: حيف الأئمة، وإيماناً بالنجوم، وتكذيباً بالقدر»[2].

وروى أبو يعلى في مسنده والخطيب في التاريخ وابن عَدِيّ في الكامل بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أخاف على أمتي من بعدي خصلتين: تكذيباً بالقدر، وتصديقاً بالنجوم»[3].

وحذر الرسول ﷺ أمته من هٰذا الضلال، ففي الحديث الذي يرويه الطبراني في معجمه الأوسط، والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أُخِّر الكلام في القدر لشرار أمتي»[4].

وروى الطبراني في معجمه الكبير عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ أمر هٰذه الأمة لا يزال مقارباً حتى يتكلموا في الولدان وفي القدر»[5].

وسمى الرسول ﷺ هٰذا الفريق بمجوس هٰذه الأمة، لأن المجوس يقولون بوجود خالقين اثنين: النور والظلمة، وهٰذا الفريق يقولون بوجود خَالِقين، بل يزعمون أن كلَّ واحد خالق من دون الله، وقد أمر الرسول ﷺ بهجران هٰذا الفريق، فلا يزارون ولا يعادون، ففي الحديث الذي

---

(١) راجع: عقيدة السفاريني: ١/ ٣٠٠، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٥٩.

(٢) صحيح الجامع الصغير: ١/ ١٢٠. ورقم الحديث: ٢١٢.

(٣) صحيح الجامع الصغير: ١/ ١٢٠. ورقم الحديث: ١٢٠.

(٤) صحيح الجامع الصغير: ١/ ١٢٣. ورقم الحديث: ٢٢٤.

(٥) صحيح الجامع الصغير: ٣/ ٧٢. ورقم الحديث: ٣٠٦٠.

يرويه أحمد في مسنده بإسناد حسن عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[١].

وفي حديث آخر يرويه أحمد وأبو داود عن ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «القدرية مجوس هٰذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[٢].

وقد صاح الصحابة بأصحاب هٰذه الضلالة من كل ناحية، وأنكروا عليهم ما جاؤوا به من الضلال والباطل، ونهوا الناس عن مخالطة هٰؤلاء ومجالستهم، وأوردوا عليهم النصوص الفاضحة لباطلهم، المقررة للحق في باب القدر.

ففي سنن الترمذي عن نافع أنَّ ابن عمر جاءَه رجل فقال: إنَّ فلاناً يقرأ عليك السلام، فقال له: إنه بلغني أنّه قد أحدث، فإن كان قد أحدث فلا تقرئه مني السلام، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون في هٰذه الأمة أو في أمتي خسف أو مسخ أو قذف في أهل القدر».

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح غريب.

وفي الترمذي عن ابن عمر أيضاً يرفعه: «يكون في أمتي خسف ومسخ وذلك في المكذبين في القدر»[٣].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ٥/ ٣٧. ورقم الحديث: ٥٠٣٩.

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ٣٨ ورقم الحديث: ١٠٧ والذي حققه الشيخ ناصر في تعليقه على المشكاة أن الحديث حسن الإسناد.

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٤٥٦. حديث رقم ٢١٥٢، ٢١٥٣.

وفي سنن الترمذي أيضاً عن عبد الواحد بن سليم قال: قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح فقلت له: يا أبا محمد، إن أهل البصرة يقولون: لا قدر. قال: يا بني، أتقرأ القرآن؟

قلت: نعم.

قال: فاقرأ الزخرف.

قل: فقرأت: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١-٤].

قال: أتدري ما أم الكتاب؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه كتاب كتبه قبل أن يخلق السمٰوات والأرض، فيه أن فرعون من أهل النار، وفيه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

قال عطاء: فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ فسألته ما كانت وصية أبيك عند الموت؟

قال: دعاني أبي فقال لي: يا بني، اتق الله، واعلم أنك لن تتقي الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره، فإن مت على غير هٰذا أدخلت النار، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم قال: اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما كان، وما هو كائن إلى الأبد».

قال الترمذي: هٰذا حديث غريب من هٰذا الوجه[١].

---

(١) سنن الترمذي: ٤/٤٥٧ ورقمه: ٢١٥٥. وانظر صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر الدين الألباني: ٢/٢٢٨.

وقد نصّ الأئمة على كفر هٰذه الطائفة التي لم تقر بعلم الله، وممن نص على كفرهم الأئمة مالك والشافعي وأحمد[1].

وقد تلاشت هٰذه الطائفة التي تكذب بعلم الله السابق أو كادت، يقول السفاريني: «قال العلماء: المنكرون لهٰذا انقرضوا، وهم الذين كفرهم عليه الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد وغيرهم من الأئمة»[2].

«وقال القرطبي: قد انقرض هٰذا المذهب، فلا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين. وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: القدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم، وواقعة منهم على وجه الاستقلال، وهو مع كونه مذهباً باطلاً أخف من المذهب الأول. قال: والمتأخرون منهم أنكروا تعلق الإرادة بأفعال العباد فراراً من تعلق القديم بالمحدث»[3].

وقال النووي: «قال أصحاب المقالات من المتكلمين: انقرضت القدرية القائلون بهٰذا القول الشنيع الباطل، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، ولكن يقولون: الخير من الله، والشر من غيره تعالى الله عن قولهم»[4].

«والقدرية يعترفون بأن الله خلق الإنسان مريداً، لكن يجعلونه مريداً بالقوة والقبول، أي قابلاً لأن يريد هٰذا ويريد هٰذا، وأمّا كونه مريداً لهٰذا

---

(١) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ٢٨٨.
(٢) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٠١.
(٣) عقيدة السفاريني: ١/ ٣٠١.
(٤) شرح النووي على مسلم: ١٥/ ١٥٤.

المُعَيَّنِ، وهٰذا المُعَيَّنِ، فهٰذا عندهم ليس مخلوقاً»[1].

«فهٰؤلاء في الحقيقة مجوس ثَـنَـوِيَّـة، بل أعظم منهم، فإن الثَنَوِيَّةَ أثبتوا خالِقَين للكون كله، وهٰؤلاء أثبتوا خالِقين لكل فرد من الأفراد، ولكل فعل من الأفعال، بل جعلوا المخلوقين كلهم خالقين، ولولا تناقضهم لكانوا أكفر من المجوس.

وطرد قولهم ولازمه وحاصله هو إخراج أفعال العباد عن خلق الله -عز وجل- وملكه، وأنها ليست داخلة في ربوبيته عزَّ وجل، وأنه يكون في ملكه ما لا يريد، ويريد ما لا يكون، وأنهم أغنياء عن الله عز وجل، فلا يستعينون على طاعته ولا ترك معصيته، ولا يعوذون بالله من شرور أنفسهم ولا سيئات أعمالهم ولا يستهدونه الصراط المستقيم»[2].

والقدرية بزعمهم أرادوا تنزيه الله وتقديسه عندما زعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكنَّ الكافر هو الذي شاء الكفر، وحجتهم في ذلك أن هٰذا يؤدي إلى الظلم، إذ كيف يشاء الله الكفر من الكافر ثم يعذبه عليه.

ولكنهم -كما يقول شارح الطحاوية- «صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شرٌّ منه، فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه -على قولهم- والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى، وهٰذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل»[3].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٠٦.
(٢) معارج القبول: ٢/ ٢٥٣.
(٣) شرح الطحاوية: ص ٢٧٧.

ومشيئة الله الكفر من الكافر ليس ظلماً له كما يدعي أهل الظلم من القدرية؛ فلله الحجة البالغة، وله في عباده من الحِكَمِ مالا يعلمه إلا هو تبارك وتعالى.

ففي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدِّيلي، قال: قال لي عمران بن الحصين: «أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجّة عليهم؟

فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم.

قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟

قال: ففزعت فزعاً شديداً. وقلت: كل شيء خَلْق الله ومِلْك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك.

إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجّة عليهم؟

فقال: «لا، بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]»[(١)].

وفي سنن أبي داود عن ابن الديلمي قال: أتيت أُبي بن كعب، فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤١، ورقم الحديث: ٢٦٥٠.

قلبي، قال: لو أن الله عذَّب أهل سمواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله، ما تقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هٰذا لدخلت النار.

قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود، فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فقال مثل ذلك[1].

والقدرية بمسلكهم هٰذا جعلوا لأهل الضلال سبيلاً عليهم، فقد ذكر عمر بن الهيثم قال: خرجنا في سفينة، وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري للمجوسي: أسلم.

فقال المجوسي: حتى يريد الله.

فقال القدري: إن الله يريد، ولكنّ الشيطان لا يريد.

قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان، هٰذا شيطان قوي. وفي رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما[2].

محاورة أهل السنة للقدرية

ولم يستطع منطق المعتزلة أن يقف في مجال الحجاج مع عوام أهل السنة فضلاً عن علمائهم وأهل الرأي فيهم.

يذكر أهل العلم أن أعرابياً أتى عمرو بن عبيد، فقال له: إن ناقتي

(١) سنن أبي داود: ٤/ ٣١٠. ورقم الحديث: ٣٦٩٩.

(٢) شرح الطحاوية: ٢٧٨.

سُرقت، فادع الله أن يردها عليَّ.

قال عمرو بن عبيد: اللهم إن ناقة هٰذا الفقير سُرقت، ولم تُرِدْ سرقتها، اللهمّ ارددها عليه.

فقال الأعرابي: الآن ذهبت ناقتي، وأيست منها.

قال: وكيف؟

قال: لأنه إذا أراد أن لا تُسرق فسرِقت، لم آمن أن يريد رجوعها فلا ترجع، ونهض من عنده منصرفاً[1].

إجابة أبو عصام القسطلاني لقدري

وقال رجل لأبي عصام القسطلاني: أرأيت إن منعني الهدى، وأوردني الضلال ثم عذبني أيكون منصفاً؟

فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئاً هو له، فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء[2].

محاورة عبد الجبار الهمداني وأبي إسحاق الإسفراييني

ودخل عبد الجبار الهمداني أحد شيوخ المعتزلة -على الصاحب ابن عباد، وعنده أبو إسحاق الإسفراييني أحد أئمة السنة، فلما رأى الأستاذ قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ص٧٤٠.

(٢) شرح الطحاوية: ص٢٧٨.

فقال الأستاذ فوراً: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال القاضي: أيشاء ربنا أن يُعْصَى؟

فقال الأستاذ: أيُعْصَى ربنا قهراً؟

فقال القاضي: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى عَليَّ بالردى، أحسن إليّ أم أساء؟

فقال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء. فبهت القاضي.

وفي تاريخ الطبري أن غيلان قال لميمون بن مهران بحضرة هشام بن عبد الملك الذي أتى به ليناقشه:

أشاء الله أن يُعصى؟

فقال له ميمون: أفعُصيَ كارهاً؟»[1].

بيْنَ عمر بن عبد العزيز وغَيْلان الدمشقي

وحاور عمر بن عبد العزيز غيلان الدمشقي أحد رؤوس الاعتزال، فقال له عمر: يا غيلان بلغني أنك تتكلم في القدر.

فقال: يَكْذِبون عليَّ يا أمير المؤمنين.

قال: اقرأ عليَّ سورة «يس».

قال: فقرأ عليه: ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ

(١) انظر هاتين القصتين في تعليق محقق شرح الطحاوية ص٢٧٨ وانظر فتح الباري: ١٣/ ٤٥١.

مُّسْتَقِيمٍ ﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩].

قال غيلان: لا والله لكأني يا أمير المؤمنين لم أقرأها قط إلا اليوم. أشهد يا أمير المؤمنين أني تائب من قولي بالقدر.

فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً فتب عليه، وإن كان كاذباً فاجعله آية للمؤمنين[١].

قال معاذ بن معاذ: حدثني صاحب لي قال:

«مرَّ التيمي بمنزل ابن عون فحدثه بهٰذا الحديث، قال ابن عون: أنا رأيته مصلوباً بدمشق»[٢].

وقال أبو جعفر الخطمي:

«شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان لشيء بلغه في القدر فقال له: ويحك يا غيلان ما هٰذا الذي بلغني عنك؟

قال: يُكْذَبُ عليَّ يا أمير المؤمنين، ويقال عليَّ ما لا أقول.

قال: ما تقول في العلم؟

---

(١) قال محقق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة: هٰذه الرواية رواها الآجري في الشريعة ص٢٢٩ وابن بطة في الإبانة (٢: ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) قال محقق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة: رواه عبد الله بن أحمد -بدون واسطة بين معاذ وابن عون- في السنة ص١٢٨ وابن بطة -وفيه أن القائل: أنا رأيته . . . هو ابن عوف. الإبانة ٢/ ٣٢٧ قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٧.

قال: نفذ العلم.

قال: أنت مخصوم، اذهب الآن فقل ما شئت.

يا غيلان، إنك إن أقررت بالعلم خصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك إن تقر به فتخصم، خير لك من أن تجحد فتكفر.

ثم قال له: أتقرأ (يس)؟

فقال: نعم.

قال: اقرأ.

قال: فقرأ ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ. . .﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١-٧].

قال: قف. كيف ترى؟

قال: كأني لم أقرأ هٰذه الآية يا أمير المؤمنين.

قال: زد.

فقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٨-٩].

فقال له عمر: قل ﴿سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٩-١٠].

قال: كيف ترى؟

قال: كأني لم أقرأ هٰذه الآيات قط، وإني أعاهد الله أن لا أتكلم في شيء مما كنت أتكلم فيه أبداً.

قال: اذهب. فلما ولَّى قال: اللهم إن كان كاذباً بما قال فأذقه حر السلاح.

قال: فلم يتكلم زمن عمر، فلما كان يزيد بن عبد الملك كان رجلاً لا يهتم بهٰذا ولا ينظر فيه.

قال: فتكلم غيلان.

فلما ولي هشام أرسل إليه فقال له: أليس قد كنت عاهدت الله لعمر لا تتكلم في شيء من هٰذا أبداً؟

قال: أقلني، فوالله لا أعود.

قال: لا أقالني الله إن أقلتك، هل تقرأ فاتحة الكتاب؟

قال: نعم.

قال: اقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥].

قال: قف. على ما استعنته؟ على أمر بيده لا تستطيعه، أو على أمر في يدك أو بيدك؟

اذهبا فاقطعا يديه ورجليه واضربا عنقه واصلباه[(١)][(٢)].

والقدرية النفاة حُرموا الاستعانة بالله الواحد الأحد، لأنهم زعموا أن الله

(١) قال محقق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة: رواه عبد الله بن أحمد -المذكور في السند- في السنة ص١٢٧-١٢٨.

(٢) شرح اعتقاد أصول أهل السنة: ٧١٣ - ٧١٥.

لا يقدر على أفعال العباد، وأن العبد هو الخالق لفعله، فكيف يستعينون بالله على مالا يقدر عليه.

وهؤلاء يعتمدون فيما يفعلون على حولهم وقوتهم وعملهم، وهم يطلبون الجزاء والأجر من الله كما يطلب الأجير أجره من مستأجره، والله ليس محتاجاً إلى العباد وأعمالهم، بل نفع ذلك عائد إلى العباد أنفسهم، ومع كون العباد هم المحتاجين إلى الأعمال، فلا غنى لهم عن الاستعانة بالله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣].

شبهات وأجوبتها

١- معنى المحو والإثبات في الصحف، وزيادة الأجل ونقصانه:

قد يشكل على بعض الناس مواضع في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ، فيقول بعضهم: إذا كان الله علم كل ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب فما معنى قوله: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد: ٣٩].

وإذا كانت الأرزاق والأعمال والآجال مكتوبة لا تزيد ولا تنقص فما توجيهكم لقوله ﷺ: «من سرَّه أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه».

وكيف تفسرون قول نوح لقومه: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح: ٣-٤].

وما قولكم في الحديث الذي فيه أن الله جعل عمر داود عليه السلام مائة سنة بعد أن كان أربعين سنة.

والجواب أن الأرزاق والأعمار نوعان:

نوع جرى به القدر وكتب في أم الكتاب، فهٰذا لا يتغير ولا يتبدل، ونوع أعلم الله به ملائكته فهٰذا هو الذي يزيد وينقص، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]. وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي قدر الله فيه الأمور على ما هي عليه.

ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص، وكذلك الرزق بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقاً وأجلاً، فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما[(١)].

«والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيد، فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلاً، فإن وصل رحمه، فيأمره بأن يزيده في أجله ورزقه. والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم ولم يتأخر»[(٢)].

يقول ابن حجر العسقلاني: «الذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل، والذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي، فيقع فيه المحو والإثبات، كالزيادة في العمر والنقص، وأما ما في علم الله فلا محو فيه ولا إثبات والعلم عند الله»[(٣)].

---

(١) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ٥٤٠.

(٢) راجع المصدر السابق: ٨/ ٥١٧.

(٣) فتح الباري: ١١/ ٤٨٨.

٢- التوفيق بين تقدير الأقدار وبين «كل مولود يولد على الفطرة»:

وقد يقول بعض الناس كيف يكون الله قدر كل شيء مع أنه صح عن رسولنا أن كل مولود يولد على الفطرة؟

فالجواب أنه لا تناقض ولا تعارض بين النصوص المبينة أن كل شيء بقدر، والنصوص المخبرة بأن كل مولود يولد على الفطرة.

فالله فطر عباده على السلامة من الاعتقادات الباطلة كما فطرهم على قبول العقائد الصحيحة، ثمَّ إذا ولدوا أحاطت بهم شياطين الإنس والجن، فأفسدت فطرهم وغيَّرتها، وثبَّت الله من شاء هدايته على الحق.

والله يعلم من يثبت على الفطرة السويّة السليمة، ومن تتغير فطرته، علم ذلك في الأزل وكتبه، فلا منافاة بين هٰذه النصوص ولا تعارض بينها، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن الله: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً».

والله يعلم من الذي تجتالُه الشياطين وتغرر به، ويعلم من يثبت على الحق، ويهدى للصواب.

وإذا عرفت هٰذا الذي بيناه علمت كيف تُوَجَّه قوله ﷺ: «خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمّه مؤمناً، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً». رواه ابن عدي في الكامل، والطبراني في الأوسط[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ٣/١١٣ ورقم الحديث: ٣٢٣٢.

٣- إذا كانت الأمور مقدرة فما معنى قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾:

وقد يحتج بعض الناس للقدرية النفاة بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ويظنون أن المراد بالحسنات والسيئات في هٰذه الآية الطاعات والمعاصي.

وهٰؤلاء أخطؤوا الفهم، فالمراد بالحسنات هنا النعم، والمراد بالسيئات المصائب، يدلنا على صحة هٰذا الفقه سياق النص. قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

فالله يحكي عن المنافقين أنهم كانوا إذا أصابتهم حسنة مثل الرزق والنصر والعافية، قالوا: هٰذه من الله، وإذا أصابتهم سيئة -مثل ضَرْبٍ ومرض وخوف من عدو- قالوا: هٰذه من عندك يا محمد. أنت الذي جئت بهٰذا الدين الذي عادانا الناس لأجله، وابتلينا لأجله بهٰذه المصائب.

فالحسنات هنا النعم، والسيئات المصائب، وهٰذه كقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

ثم قرر الحق أن المصائب والنعم لا تخرج عن قدر الله ومشيئته ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

ثم بين الحق تبارك وتعالى أن السيئات التي هي المصائب ليس لها سبب إذا أذنب العبد إلا من نفسه، وأما ما يصيب العبد من الخير فلا تنحصر أسبابه، لأنه من فضل الله، يحصل بعمل العبد وبغير عمله من إنعام الله عليه، فالواجب على العباد أن يشكروا ربهم ويحمدوه على ما أنعم به عليهم، كما يجب أن يكثروا من التوبة والأوبة والاستغفار مما اقترفوه من ذنوب سببت لهم المصائب والبلايا.

وإذا أنت تأملت في قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ . . .﴾ ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ علمت أن الحسنة والسيئة هي فعل الله بالعباد التي هي المصائب والنعم، أما قوله ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي بسبب ذنوب العبد وخطاياه، وهٰذا وإن كان مقدراً إلا أن الله قدر أن تكون المصيبة بسبب الذنب.

أما الحسنات والسيئات التي هي أفعال العباد فلا يقال فيها: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ وإنما يقول: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]. وإنما قال هنا: ﴿جَآءَ﴾ لأن الحسنة فعل الجائي، ولذلك صرح بهٰذا في جانب الذنوب والمعاصي: ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤][1].

٤- كيف يخلق الله الشرَّ ويقدره؟

وقد يشاغب بعض القدرية فيقولون: إنَّ الله مقدس عن فعل الشر، وإن الواجب على العباد أن ينزهوا ربهم عن الشر وفعله، وهٰؤلاء خلطوا حقاً

---

(١) راجع في هٰذا المبحث: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١١٠، ٢٢٤.

بباطل فالتبست عليهم الأمور.

وجواب هٰذه الشبهة أن الله تعالى لا يخلق الشرَّ المحض الذي لا خير فيه، ولا منفعة فيه لأحد، وليس له فيه حِكْمَة ولا رحمة، ولا يعذب الناس بلا ذنب، وقد بين العلماء أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما ما في خلق إبليس والحشرات والكواسر من الحكمة والرحمة.

فالشيء الواحد يكون خلقه باعتبار خيراً، وباعتبار آخر شراً، فالله خلق إبليس يبتلي به عباده، فمنهم من يمقته، ويحاربه ويحارب منهجه، ويعاديه ويعادي أولياءَه، ويوالي الرحمٰن ويخضع له، ومنهم من يواليه ويتبع خطواته.

المبحث الثاني

التاركون للعمل اتكالاً على القدر

ضل فريق آخر في باب القدر فقالوا: إذا كان الله عالماً بكل شيء نفعله، وعالماً بمصيرنا إلى الجنة أو النار، وكان هو الخالق لأفعالنا، فلماذا نعمل وننصب؟ ولماذا لا نترك الأقدار تجري في أَعِنَّتِهَا، وسيأتينا ما قدر لنا شئنا أم أبينا.

وقد تَعمَّقَتْ هٰذه الضلالة عند طوائف من العُبَّاد والزهاد وأهل التصوف، ولم تقله طائفة واحدة بعينها من طوائف أهل المقالات، وكان ولا يزال هٰذا القول على ألسنة كثير من جهال المسلمين وأهل الزيغ والزندقة[1].

وهٰذا الفريق يؤمن بالقدر، وأن الله عالم بكل شيء، وخالق لكل شيء، ومريد لجميع الكائنات، ولكنهم زعموا أن كل ما خلقه الله وشاءه فقد رضيه وأحبّه، وزعموا أنه لا حاجة بالعباد إلى العمل والأخذ بالأسباب، فما قُدِّر لهم سيأتيهم، وزعموا أن العباد مجبورون على أفعالهم، فالإنسان عندهم ليس له قدرة تؤثر في الفعل، بل هو مع القدر كالريشة في مهب الريح، وكالساقط من قمة جبل شامخ إلى واد بعيد غورُه، سحيق قَعرُه، لا يملك وهو يتردى فيه من أمره شيئاً.

لقد ترك هٰؤلاء العمل احتجاجاً بالقدر قبل وقوعه، واحتجوا بالقدر

---

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/٥٩، ٩٩، ٢٥٦.

على ما يقع منهم من أعمال مخالفة للشرع، ووصل بهم الحال إلى عدم التفريق بين الكفر والإيمان، وأهل الهدى والضلال، لأن جميع ذلك خلق الله، فلم التفريق؟

إن هٰذه العقيدة المنحرفة أضلت عقولاً كثيرة وانحرف مسارها عن جادة الحق والصواب، فاضطربت عندها موازين العدل والحق، وعطلت هٰذه العقيدة المنحرفة طاقات هائلة في العالم الإسلامي، أقعدتها عن العمل، بل جيِّرت أعمالها لمصلحة أعداء الإسلام في بعض الأحيان.

لقد كان من آثار هٰذه العقيدة الزعم بأن الله أحب الكفر والشرك والقتل والزنا والسرقة وعقوق الوالدين وغير ذلك من الذنوب والمعاصي، لأنهم يزعمون أن كل شيء خلقه الله وأوجده فهو يحبه ويرضاه.

ومن آثارها أن أصحابها تركوا الأعمال الصالحة الخيرة التي توصلهم إلى الجنّة وتنجيهم من النار، وارتكبوا كثيراً من الموبقات بدعوى أن القدر آت آت، وكل ما قدر للعبد سيصيبه، فلماذا العمل والتعب والنصب.

لقد ترك هٰؤلاء الأخذ بالأسباب، فتركوا الصلاة والصيام، كما تركوا الدعاء والاستعانة بالله والتوكل عليه، لأنه لا فائدة منها، فالذي يريده الله ماض قادم لا ينفع معه دعاء ولا عمل.

ورضي كثير من هٰؤلاء بظلم الظالمين وإفساد المفسدين، لأن ما يفعلونه قدر الله وإرادته.

وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يهتموا بإقامة الحدود والقصاص، لأن ما وقع من المفاسد والجرائم مقدر لا بدَّ منه.

وقد عرض شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- لهٰذا الفريق ومعتقده

وحاله في مواضع من كتبه، فقال: «الذين اعترفوا بالقضاء والقدر، وزعموا أن ذلك يوافق الأمر والنهي، فهٰؤلاء يؤول أمرهم إلى تعطيل الشرائع والأمر والنهي، مع الاعتراف بالربوبية العامة لكل مخلوق، وأنه ما من دابة إلا ربي آخذ بناصيتها، وهٰذا هو الذي يُبتلى به كثيراً -إمّا اعتقاداً وإما حالاً- طوائف من الصوفية والفقراء، حتى يخرج منهم إلى الإباحة للمحرمات، وإسقاط الواجبات، ورفع العقوبات»[١].

وقال أيضاً فيهم: «هٰؤلاء رأوا أن الله خالق المخلوقات كلها، فهو خالق أفعال العباد، ومريد الكائنات، ولم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر، ولا عرفان ولا نكر، ولا حق ولا باطل، ولا مهتدي ولا ضال، ولا راشد ولا غوي، ولا نبي ولا متنبىء، ولا ولي لله ولا عدو، ولا مرضي لله ولا مسخوط، ولا محبوب لله ولا ممقوت، ولا بين العدل والظلم، ولا بين البر والعقوق، ولا بين أعمال أهل الجنّة وأعمال أهل النار، ولا بين الأبرار والفجار، حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق والمشيئة النافذة والقدرة الشاملة والخلق العام، فشهدوا المشترك بين المخلوقات، وعموا عن الفارق بينهما»[٢].

«وقد يغلو أصحاب هٰذا الطريق حتى يجعلوا عين الموجودات هي الله، ويمسكون بموافقة الإرادة القدرية في السيئات الواقعة منهم، كقول الحريري: أنا كافر برب يعصى، وقول ابن إسرائيل:

أصبحت منفعلاً لما يختاره   مني ففعلي كله طاعات

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٥٦.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٦٠.

وقد يسمون هٰذا حقيقة باعتبار أنه حقيقة الربوبية»[1].

وعرض ابن القيم لهٰذه الفرقة وضلالاتها في كتابه القيم «شفاء العليل» فقال: «ثمَّ نبغت طائفة أخرى زعمت أن حركة الإنسان الاختيارية -ولا اختيار- كحركة الأشجار عند هبوب الرياح، وكحركات الأمواج، وأنه على الطاعة مجبور، وأنه غير ميسر لما خلق له، بل هو عليه مجبور ومقصور.

ثم تلاهم أتباعهم على آثارهم مقتدين، ولمنهاجهم مقتفين، فقرروا هٰذا المذهب وانتموا إليه، وحققوه، وزادوا عليه أن تكاليف الرب تعالى لعباده كلها تكليف مالا يطاق، وأنها في الحقيقة كتكليف المقعد أن يرقى إلى السبع الطباق، فالتكليف بالإيمان وشرائعه تكليف بما ليس من فعل العبد، ولا هو بمقدوره، وإنما هو تكليف بفعل من هو منفرد بالخلق، وهو على كل شيء قدير، فكلف عباده بأفعاله، وليسوا عليها قادرين، ثم عاقبهم عليها، وليسوا في الحقيقة لها فاعلين.

ثمَّ تلاهم على آثارهم محققوهم من العُبَّاد، فقالوا: ليس في الكون معصية البتَّة، إذ الفاعل مطيع للإرادة موافق للمراد، كما قيل:

أصبحت منفعلاً لما يختاره   مني ففعلي كله طاعات

ولاموا بعض هٰؤلاء على فعله فقال: إن كنت عصيت أمره، فقد أطعت إرادته، ومطيع الإرادة غير ملوم، وهو في الحقيقة غير مذموم، وقرر محققوهم من المتكلمين في هٰذا المذهب بأن الإرادة والمشيئة والمحبة في حق الرب سبحانه هي واحدة، فمحبته هي نفس مشيئته، وكل ما في

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٥٧.

الكون فقد أراده وشاءه، وكل ما شاءه فقد أحبه.

. . . ولقد ظنت هٰذه الفرقة بالله أسوأ الظنون، ونسبته إلى أقبح الظلم، وقالوا: إن أوامر الرب ونواهيه كتكليف العبد أن يرقى فوق السمٰوات، وكتكليف الميت إحياء الأموات، والله يعذب عباده أشدَّ التعذيب على فعل مالا يقدرون على تركه، وعلى ترك مالا يقدرون على فعله، بل يعاقبهم على نفس فعله الذي هو لهم غير مقدور، وليس أحد ميسر له، بل هو عليه مقهور، ونرى العارف منهم ينشد مترنماً، ومن ربّه متشكياً ومتظلماً:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء»[1]

وقد تنبه ابن القيم إلى أن هٰذا الصنف من البشر قصدوا «تحميل ذنوبهم على الأقدار، وتبريئها من الذنوب والأوزار، وقالوا إنها في الحقيقة فعل الخلاق العليم»[2].

وتنبه المقدم لكتاب «الشفاء» إلى أن هٰذا السبب هو الذي جعل «الاتجاه السائد في كل العصور هو الجبر» فقال: «عقيدة الجبر تحمل عن الإنسان تبعاته، وتضع عنه أوزار ما اقترف من الإثم، وتلقي التبعة على القوة التي حركت إرادة الإنسان، ودفعت رغبته وقادته في تصرفاته، فكاد السواد الأعظم من الناس يدين بالجبر، فمن كان وثنياً اعتقد بأن أمره بيد الآلهة التي يعبدها، يلقي التبعة على الدهر، ويعتقد أن المرء طوع تقلب الحدثان.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم: ص١٥، ١٦.

(٢) شفاء العليل: ص١٦.

ومن يقول أنه مؤمن بالله يعتقد أن الأقدار تُسيِّره كيف تشاء، وأنه مسلوب الإرادة عديم الاختيار، حتى اتخذ هٰذا البحث مظهراً جديداً في العصور الحديثة، حيث قال المجبرة منهم: إن إرادة الإنسان مقيدة بالغرائز والوراثة والبيئة، وليس للإنسان يد في إحداث هٰذه الأمور، وإذن فليس له اختيار فيما يقترف من ذنب وإثم، لأن الإرادة لا أثر لها في البواعث النفسية، بل هي ثمرة هٰذه البواعث، وهي خاضعة لمؤثرات نفسية أو خارجية خضوعاً لا محيص عنه.

ولما انتشرت فكرة الجبر بين المسلمين في العصور المتأخرة عن طريق الطرق الزائغة والمتصوفة أضرَّت ضرراً عظيماً، سيما مع ترك الأسباب. قال بعضهم:

جرى قلم القضاء بما يكون   فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق   ويرزق في غيابته الجنين[1]»

ومقالة هٰذا الفريق تؤدي إلى الكفر بالله، والتكذيب بما جاء في كتبه، وأخبرت به رسله، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى:

«فمن أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي فهو شر ممن أثبت الأمر والنهي، ولم يثبت القدر، وهٰذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل بين جميع الخلق، فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور والمحظور والمؤمنين والكفار، وأهل الطاعة وأهل المعصية لم يؤمن بأحد من الرسل، ولا بشيء من الكتب، وكان عنده آدم وإبليس سواء، ونوح وقومه سواء،

---

(١) شفاء العليل: ص ٥.

وموسى وفرعون سواء، والسابقون الأولون والكفار سواء»[1].

وقال فيهم أيضاً: «من يقر بتقدم علم الله وكتابه، ولكن يزعم أن ذلك يغني عن الأمر والنهي والعمل، وأنه لا يحتاج إلى العمل، بل من قضى بالسعادة دخل الجنة، بلا عمل أصلاً، ومن قضى بالشقاوة شقي بلا عمل، فهٰؤلاء أكفر من أولئك (يعني المكذبين بالقدر) وأضل سبيلاً، ومضمون قول هٰؤلاء تعطيل الأمر والنهي، والحلال والحرام، والوعد والوعيد، وهٰؤلاء أكفر من اليهود والنصارى بكثير»[2].

وقال أيضاً: «هٰؤلاء القوم إذا أصروا على هٰذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى، فإن اليهود والنصارى يؤمنون بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، لكن حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض»[3].

الرد على القدرية الجبرية

والرد على ضلال هٰذه الفرقة من وجوه:

الأول: خطؤهم في إطلاق اسم الجبر على ما يؤديه الإنسان من أفعال:

استعمل هٰؤلاء لفظاً لم يرد به الكتاب والسنة، والواجب على العباد أن يستخدموا الألفاظ التي جاءت بها النصوص، روى اللالكائي بإسناده إلى

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٠٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٨٨.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٦٢.

بقية قال: سألت الأوزاعي والزبيدي عن الجبر؟

فقال الزبيدي: أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر ويقهر، ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحب.

وقال الأوزاعي: ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن والسنة فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل، فهٰذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ»[1].

وورد مثل هٰذه الأقوال عن جمع من علماء السلف مثل سفيان الثوري وأبي إسحاق الفزاري وغيرهم[2].

وإنما أنكروا إطلاق القول بأن الإنسان مجبر على فعله، لأن لفظ (الجبر) مجمل، فقد يراد بالإجبار معنى الإكراه كقولك: أجبر الأب ابنته على النكاح، وجبر الحاكم الرجل على بيع ماله لوفاء دينه، ومعنى الإجبار هنا الإكراه، فيكون معنى قولهم: أجبر الله العباد، أي: أكرههم، لا أنه جعلهم مريدين لأفعالهم مختارين لها عن حبٍّ ورضا.

وإطلاق هٰذا على الله -تبارك وتعالى- خطأ بين، «فإن الله أعلى وأجل من أن يجبر أحداً، وإنما يجبر غيره العاجز عن أن يجعله مريداً للفعل مختاراً له محباً له راضياً به، والله سبحانه قادر على ذلك، فهو الذي جعل المريد للفعل المحب له الراضي به مريداً له محباً له راضياً به، فكيف يقال أجبره وأكرهه، كما يجبر المخلوق المخلوق»[3].

---

(١) شرح اعتقاد أصول أهل السنة: ص٧٠٠ مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٠٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١٣٢، ٢٩٤، ٤٦١.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٦٣.

وأما إطلاق الجبر مراداً به أن الله جعل العباد مريدين لما يشاء منهم مختارين له من غير إكراه فهٰذا صحيح، وقال بعض السلف في معنى الجبار: هو الذي جبر العباد على ما أراد[1].

ولما كان لفظ الجبر لفظ مجمل يطلق على هٰذا وهٰذا منع السلف من إطلاقه نفياً أو إثباتاً.

ذكر شيخ الإسلام عن أبي بكر الخلال في كتابه (السنة) أن المروذي قال للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، رجل يقول إن الله أجبر العباد، فقال: هٰكذا لا نقول، وأنكر ذلك، وقال: يُضلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء.

وذكر عن المروذي أن رجلاً قال: إن الله لم يجبر العباد على المعاصي، فرد عليه آخر، فقال: إن الله جبر العباد، أراد بذلك إثبات القدر، فسألوا عن ذلك أحمد بن حنبل، فأنكر عليهما جميعاً على الذي قال جَبَر، وعلى الذي قال لم يجبر حتى تاب، وأمره أن يقول: يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

وذكر عن أبي إسحاق الفزاري قال: جاءني الأوزاعي فقال: أتاني رجلان فسألاني عن القدر، فأحببت أن آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيبهما.

قلت: رحمك الله، أنت أولى بالجواب.

قال: فأتاني الأوزاعي ومعه الرجلان، فقال: تكلما.

فقالا: قدم علينا ناس من أهل القدر، فنازعونا في القدر ونازعناهم

---

(١) راجع: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٦٤.

فيه، حتى بلغ بنا وبهم إلى أن قلنا: إن الله جبرنا على ما نهانا عنه، وحال بيننا وبين ما أمرنا به، ورزقنا ما حرَّم علينا.

فقلت: يا هٰؤلاء، إن الذين أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة، وأحدثوا حدثاً، وإني أراكم قد خرجتم من البدعة إلى مثل ما خرجوا إليه.

فقال الأوزاعي: أصبت وأحسنت يا أبا إسحاق»[١].

الثاني: إنكار الاختيار في أفعال العباد نقص في العقل:

الذين يزعمون أن الإنسان ليس له إرادة يفعل بها ألغوا عقولهم، فضلوا وأضلوا، وإلاّ فإننا نعلم من أنفسنا أن حركتنا ليست كحركة الجماد، الذي لا يملك شيئاً لذاته في تحركه وسكونه.

بل إننا نفرق بين الحركات غير الإرادية التي تجري في أجسادنا وبين الحركات الإرادية، فحركة القلب، وحركة الرئتين، وجريان الدم في دورته في عروق الإنسان، وآلاف العمليات المعقدة التي تجري في أجسادنا -من غير أن نعرفها ونعلم بها- ليس لنا فيها خيار، بل هي حركات اضطرارية ليس للإنسان إرادة في إيجادها وتحقيقها، ومثل ذلك حركة المرعوش الذي لا يملك إيقاف اهتزاز يده.

أما أكل الإنسان وشربه وركوبه، وبيعه وشراؤه، وقعوده وقيامه، وزواجه وطلاقه، ونحو ذلك فهو يتم بإرادة وقدرة ومشيئة، والذين يسلبون الإنسان هٰذه القدرة ضلت عقولهم، واختلفت عندهم الموازين.

والقرآن مليء بإسناد الأفعال إلى من قاموا بها كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنَ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٠٣.

﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يـــس: ٢٠] ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩] والنصوص في هٰذا كثيرة يصعب إحصاؤها تسند الأفعال إلى من قاموا بها.

الوجه الثالث: زعمهم أن كل شيء قدره الله وخلقه فقد رضيه وأحبه:

وهٰذا زعم باطل، فالله شاء وجود الكفر والشرك والذنوب والمعاصي من الزنا والسرقة وعقوق الوالدين والكذب وقول الزور، وأكل مال الناس بالباطل، ولكنه كرهها وأبغضها ونهى عباده عنها.

قال ابن القيم: «أخبرني شيخ الإسلام -قدس الله روحه- أنه لام بعض هٰذه الطائفة على محبة ما يبغض الله ورسوله.

فقال له الملوم: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، وجميع ما في الكون مراده، فأي شيء أُبغضُ منه؟

فقال له الشيخ: إذا كان الله قد سخط على أقوام ولعنهم وغضب عليهم وذمهم، فواليتهم أنت وأحببت أفعالهم ورضيتها، تكون موالياً له أو معادياً له؟

قال: فبهت الجبري ولم ينطق بكلمة»[1].

وسيأتي مزيد بحث في هٰذه المسألة عند الحديث عن الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

---

(١) شفاء العليل: ص١٦.

الوجه الرابع: زعمهم أن الإيمان بالقدر يقضي بترك الأعمال وإهمال الأسباب:

لقد أخطأ هٰذا الفريق في دعواه أن الإيمان بالقدر لا يحتاج العبد معه إلى العمل، وذهل هٰؤلاء عن حقيقة القدر، فالله قدَّر النتائج وأسبابها، ولم يقدر المسببات من غير أسباب، فمن زعم أن الله قدر النتائج والمسببات من غير مقدماتها وأسبابها فقد أعظم على الله الفرية.

فالله إذا قدَّر أن يرزق فلاناً رزقاً فقد جعل لذلك الرزق أسباباً ينال بها، فمن ادعى أن لا حاجة به إلى السعي في طلب الرزق وأنَّ ما قدر له من رزق سوف يأتيه سعى أو لم يسع لم يفقه قدر الله في عباده.

وإذا قدر الله أن يرزق فلاناً ولداً، فإنه يكون قدر له أن يتزوج ويعاشر زوجه، فالأسباب هي من الأقدار.

والله يقدر أن فلاناً يدخل الجنة، ويقدر مع ذلك أن هٰذا الإنسان يؤمن ويعمل الصالحات، ويستقيم على أمر الله، ويقدر أن فلاناً يكون من أهل النار، ويقدر أسباب ذلك من تركه الإيمان والأعمال الصالحة.

ويقدر أن فلاناً يمرض فيتناول الدواء فيشفى، فالله قدر المرض، وقدر السبب الذي يزيل المرض ويحقق الشفاء.

والله يقدر أن فلاناً يدعوه ويستغيث به، فيجيب دعاءَه ويقبل رجاءَه، ويقدر أن فلاناً لا يدعوه ولا يرجوه، فيكله إلى نفسه، ويبقيه في تعسه، فالله قدر المسببات وقدر أسبابها، ومن زعم أن المسبب يقع من غير سبب فإنه لم يفقه دين الله، ولم يعرف قدر الله، وهو كمن يزعم أن الولد يأتي

من غير سبب، وأن الزرع يحصل من غير ماء ولا تراب، وأن الشبع يحدث من غير طعام، والري يكون من غير تناول شراب.

والنصوص الدالة على هٰذا الذي شرحناه وبيناه كثيرة وافرة.

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شؤون الحياة، فقد أمرت بالعمل والسعي في طلب الرزق، واتخاذ العدة لمواجهة الأعداء، والتزود للأسفار.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] وقال: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وأمر المسافرين للحج بالتزود ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] وأمر بالدعاء والاستعانة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وأمر باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوانه وجنته كالصلاة والصيام والزكاة والحج.

وحياة الرسول ﷺ وأصحابه، بل حياة المرسلين جميعاً والسائرين على نهجهم كلها شاهدة على أخذهم بالأسباب، والجد والاجتهاد في الأعمال.

إن الأخذ بالأسباب هو من قدر الله تبارك وتعالى، وليس مناقضاً للقدر ولا منافياً له.

وقد فقَّه الرسول ﷺ أصحابه بمعنى القدر، وأنه لا يُوجبُ ترك العمل،

بل يوجب الجد والاجتهاد فيه لبلوغ ما يطمح الإنسان في نيله وتحقيقه، فقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن فائدة العمل إذا كانت الأعمال مقدرة مقضية جفَّ بها القلم، وفرغ منها رب العالمين، فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وقرأ عليه السلام: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

وقال بعض الصحابة الذين فقهوا عن الله ورسوله مراده لما سمع أحاديث القدر: «ما كنت بأشدّ اجتهاداً مني الآن».

إن الذي يفقه عن الله مراده في القدر يعلم أن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال، بل يدفع إلى الجد والاجتهاد والحرص على تحصيل ما ينفعه في الدنيا والآخرة.

إلا أنه يجب التنبه إلى أن العبد وإن أَخَذَ بالأسباب فإنه لا يجوز أن يعتمد عليها، ويتوكل عليها، بل يجب أن يتوكل على خالقها ومنشئها.

وقد قال علماؤنا: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك: أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه، وليس في المخلوقات ما يستحق هٰذا، لأنه ليس مستقلاً، ولا بدَّ له من شركاء وأضداد، ومع هٰذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر، وهٰذا مما يبين أن الله ربُّ كل شيء ومليكه، وأن

السمٰوات والأرض وما بينهما والأفلاك وما حوته لها خالق مدبر غيرها، وذلك أن كل ما يصدر عن فلك أو كوكب أو ملك أو غير ذلك، فإنك تجده ليس مستقلاً بإحداث شيء من الحوادث، بل لا بدَّ له من مشارك ومعاون، وهو مع ذلك له معارضات وممانعات»[1].

«فكل سبب له شريك وله ضد، فإن لم يعاونه شريكه، ولم يُصرف عنه ضده لم يحصل سببه، فالمطر وحده لا ينبت إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثمَّ الزرع لا يتمُّ حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف المفسدات»[2].

والعقلاء من البشر يعلمون أنهم لا يستقلون بفعل ما يريدون، فكثير منهم تتهيأ له الأسباب، ثم يحال بينه وبين ما يشتهي وما يريد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

يذكر اللالكائي أن رجلاً طلب من جاريته أن تسقيه، فجاءته بقدح من زجاج، فصبت له ماء، فوضعه على راحته، ثم رفعه إلى فيه، ثم قال: يزعم ناس أني لا أستطيع أن أشرب هٰذا، ثم قال: هي حرة إن لم أشربه (يعني جاريته التي صبت الماء).

فما كان من الجارية إلا أن ضربت القَدَح بِرِدْن قميصه، فوقع القدَح وانكسر وأهراق الماء[3].

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ١٧٠.

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٨/ ١٦٧.

(٣) شرح أصول أهل السنة: ٧٢٧.

وهٰكذا أثبتت هٰذه الجارية لهٰذا المسكين أنه لا يقدر على كل ما يريد مالم يقدره الله، فلقنته درساً، وحررت نفسها من رق العبودية.

وكم من ثري أو قوي أو مُقدّم قوم ظن أن الدنيا خضعت له وأعطته زمامها، وجد نفسه عاجزاً لا يستطيع أن يفعل شيئاً، قد يقعده عن فعل ما يشتهي عدو طاغ، أو مرضٌ مُقْعِدٌ، أو خيانة صديق. أو طمع محب ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

الوجه الخامس: احتجاجهم بالقدر:

وهٰؤلاء يحتجون بالقدر على ترك العمل، فتجد الواحد عندما يدعى إلى الصلاة والصيام وقراءة القرآن يقول: لو شاء الله لي أن أعمل هٰذا عملته، كما يحتجون به على ما يوقعونه بالناس من الظلم والفساد، أو ما يقع من ظلم وفساد، فيقولون في المظالم والمناكر والمفاسد التي تقع: هٰذه إرادة الله ومشيئته وليس لنا حيلة في ذلك، وقد أدى هٰذا بهم إلى ترك الباطل يستشري في ديار الإسلام.

وترى هٰذا الصنف من البشر خاضعين للظلمة، بل إن بعضاً منهم يصبح أعواناً للظلمة، وتراهم يخاطبون الناس قائلين: ليس لكم إلا أن تصبروا على مشيئة الله وقدره فيكم. وترى بعض هٰؤلاء يفعلون الموبقات ويرتكبون المنكرات من الزنا والفسوق والعصيان ويحتجون لأفعالهم بالقدر.

وهٰؤلاء إن اعتقدوا أن كل شيء واقع فهو حجّة أضحكوا العقلاء منهم، وأوقعوا أنفسهم في مأزق لا يجدون منه خلاصاً، وابن القيم يذكر وقائع

من هٰؤلاء تزري بأصحاب العقول، وتجعل أصحابها في مرتبة أقل من البهائم، يذكر عن واحد من هٰؤلاء أنه رأى غلامه يفجر بجاريته، فلما أراد معاقبتهما، وكان غلامه يعرف مذهبه في القدر، فقال له: إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك.

فقال له ذلك الجاهل: لَعِلْمُكَ بالقضاء والقدر أحب إليَّ من كلّ شيء، أنت حرّ لوجه الله.

ورأى آخر رجلاً يفجر بزوجته، فأقبل يضربها وهي تقول: القضاء والقدر، فقال: يا عدوة الله أتزنين وتعتذرين بمثل هٰذا؟

فقالت: أوَّه تركت السنّة، وأخذت بمذهب ابن عباس.

فتنبه، ورمى بالسوط من يده، واعتذر إليها، وقال: لولا أنت لضللت.

ورأى آخر رجلاً يفجر بامرأته، فقال: ما هٰذا؟

فقالت: هٰذا قضاء الله وقدره.

فقال: الخيرة فيما قضى الله. فلقب بالخيرة فيما قضى الله[1].

ولو كان الاحتجاج بالقدر صحيحاً لأمكن لكل واحد أن يقتل ويفسد ويأخذ الأموال ويظلم العباد، فإذا سئل عن أفعاله احتج بالقدر، وكل العقلاء يعلمون بأن هٰذه الحجة مرفوضة غير مرضية، وإلا فإن الحياة تفسد.

وكثير من الذين يحتجون بالقدر لظلمهم وفسقهم وضلالهم يثورون إذا ما وقع عليهم الظلم، ولا يرضون من غيرهم أن يحتج على ظلمه لهم بالقدر.

---

(١) نقل عن ابن القيم هٰذه الوقائع وغيرها صاحب معارج القبول: ٢/ ٢٥٥.

إن المنهج الذي فقهه علماؤنا عن ربنا ونبينا أنه يجب علينا أن نؤمن بالقدر، ولكن لا يجوز لنا أن نحتج به على ترك العمل، كما لا يجوز لنا أن نحتج به على مخالفتنا للشرع، وإنما يحتج بالقدر على المصائب دون المعايب.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «العبد له في المقدور حالان: حال قبل القدر وحال بعده.

فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه، فإذا قدر المقدور بغير فعله فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به، وإن كان بفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك، وإن كان ذنباً استغفر إليه من ذلك.

وله في المأمور حالان:

حال قبل الفعل، وهو العزم على الامتثال والاستعانة بالله على ذلك، وحال بعد الفعل وهو الاستغفار من التقصير وشكر الله على ما أنعم به من الخير. قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥] أمره أن يصبر على المصائب المقدرة، ويستغفر من الذنب.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال يوسف: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

فذكر الصبر على المصائب والتقوى بترك المعائب، وقال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو

تفتح عمل الشيطان»[1] [2].

إن العبد المؤمن الحصيف لا يترك العمل بدعوى أنَّ قدر الله ماض فيه، بل الواجب عليه أن يأخذ الأمر بقوة، يعلم ما يطلبه الله، ويفكر فيما يفيده وينفعه، ثمَّ يبذل قصارى جهده في القيام بأمر الله، وبالأخذ بالأسباب للأمور التي يظن أن فيها نفعه وصلاحه، فإذا لم يوفق فلا يقضي وقته بالتحسر والتأسف، وإنما يقول في هٰذا الموضع قدر الله وما شاء فعل.

إن الإيمان بالقدر والاحتجاج به يأتي لمعالجة المشكل النفسي الذي يذهب الطاقة الإنسانية ويبددها في حال الفشل والإخفاق، ولا يكون مانعاً من العمل والإبداع في مقبل الزمان.

استدلالهم بحديث احتجاج آدم بالقدر:

وقد يستدل من قلَّ علمه بحديث احتجاج آدم وموسى على الاحتجاج بالقدر في المعايب، وهو حديث صحيح روته كتب الصحاح والسنن.

روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما، فحج آدم موسى.

قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثمَّ أُهبط الناس بخطياتك إلى الأرض؟

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة: ٤/ ٢٠٥٢. ورقم الحديث: ٢٦٦٤.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٧٦.

فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟

قال موسى: بأربعين عاماً.

قال آدم: فهل وجدت فيها: وعصى آدم ربّه فغوى؟

قال: نعم.

قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟

قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى»[(١)].

وليس في هٰذا الحديث حجة للذين يحتجون بالقدر على القبائح والمعايب، فآدم عليه السلام لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وموسى عليه السلام لم يلم أباه آدم على ذنب تاب منه، وتاب الله عليه منه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم من موسى على المصيبة التي أخرجت آدم وأولاده من الجنّة.

فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعايب[(٢)].

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢٠٤٣ ورقم الحديث ٢٦٥٢. وللحديث عند مسلم عدة روايات، وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع من كتابه. ورواه أبو داود والترمذي في سننهما. انظر روايات الحديث في جامع الأصول: (١٠/ ١٢٤).

(٢) شرح الطحاوية: ص١٥٤. وأجاب بهٰذا الجواب شيخ الإسلام أيضاً: انظر شفاء العليل: ص ٣٥.

فعلى العبد أن يستسلم للقدر إذا أصابته مصيبة ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، أما المذنبون فليس لهم الاحتجاج بالقدر، بل الواجب عليهم أن يتوبوا ويستغفروا ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥] فأرشد إلى الصبر في المصائب والاستغفار من الذنوب والمعايب.

والله ذم إبليس لا لاعترافه بالمقدر في قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الحجر:٣٩]، وإنما على احتجاجه بالقدر.

وأجاب ابن القيم عن الإشكال الذي وقع في حديث احتجاج آدم بالقدر بجواب آخر فقال: «الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع، ويضر في موضع، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه، وترك معاودته، كما فعل آدم، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع، لأنّه لا يدفع بالقدر أمراً ولا نهياً، ولا يبطل به شريعة، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءَة من الحول والقوة.

يوضحه أن آدم قال لموسى: أتلومني على أن عملت عملاً كان مكتوباً عليّ قبل أن أخلق؟ فإذا أذنب الرجل ذنباً ثُمَّ تاب منه توبة، وزال أمره حتى كأن لم يكن، فأنّبهُ مؤنب عليه ولامه، حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ويقول: هٰذا أمر كان قد قدر علي قبل أن أخلق، فإنه لم يدفع بالقدر حقاً، ولا ذكره حجّة له على باطل ولا محذور في الاحتجاج به.

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به، ففي حال المستقبل بأن يرتكب فعلاً محرماً أو يترك واجباً، فيلومه عليه لائم، فيحتج بالقدر على إقامته

عليه، وإصراره، فيبطل به حقاً، ويرتكب به باطلاً، كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله»[1].

هل الرضا بالمقدور واجب؟

إذا كانت المعاصي بقضاء الله فكيف لنا أن نكره قضاءَه ونبغضه، والجواب: «أنه لا يوجد في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ﷺ آية ولا حديث يأمر العباد بأن يرضوا بكل مقدر من أفعال العباد حسنها وسيئها، ولكن الواجب على الناس أن يرضوا بما أمر الله به، فليس لأحد أن يسخط ما أمر الله به. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وينبغي للعبد أن يرضى بما يقدره الله عليه من المصائب التي ليست ذنوباً، مثل أن يبتليه بفقر أو مرض أو ذل وأذى الخلق له، فإن الصبر على المصائب واجب، وأما الرضا بها فهو مشروع، ولكن هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين لأصحاب أحمد وغيرهم: أصحهما أنه مستحب ليس بواجب»[2].

الوجه السادس: الزعم بأن تكليف العباد غير ما فعلوا هو من باب التكليف بما لا يطاق:

وزعم من ذهب هٰذا المذهب أن فاعلي المعاصي والذنوب لا

---

(١) شفاء العليل: ص٣٥.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٩٠.

يستطيعون غير ما فعلوا، وتكليفهم بخلاف ما فعلوا تكليف بما لا يطاق، وتكليف مالا يطاق جاءت الشريعة بنفيه في قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧]، واحتجوا بمثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:١٠١]، وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩].

قالوا: فهٰذه الآيات مصرحة بأنهم لم يكونوا يستطيعون الفعل، وهٰؤلاء ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وزعموا أنه متناقض، وحاشاه أن يكون كذلك.

والجواب عما شغبوا به «أن الاستطاعة المنفية في الآيات التي احتجوا بها ليست هي الاستطاعة المشروطة في الأمر والنهي، فإن تلك إذا انتفت انتفى الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والحمد والذم، والثواب والعقاب. ومعلوم أن العباد في هٰذه الحال مأمورون منهيون موعودون متوعدون، فعلم أن المنفية ليست هي المشروطة في الأمر والنهي»[1].

فالاستطاعة المنفية في الآيات التي احتجوا بها ليست بسبب استحالة الفعل أو عجزهم عنه، وإنما هي بسبب تركهم له والاشتغال بضده، كالكافر كلفه الله الإيمان في حال كفره، لأنه غير عاجز عنه ولا مستحيل فعله، فهو كالذي لا يقدر على العلم لاشتغاله بالمعيشة[2].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٩١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٢٩٦.

أما الاستطاعة التي هي مناط التكليف، فهي المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]، ومثل قوله ﷺ: «صلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب».

ومعلوم أن الله لا يكلف مالا يطاق لوجود ضده من العجز، فلا يكلف المقعد بأن يصلي قائماً، ولا يكلف المريض بالصيام، ولا يكلف الأعمى بالجهاد والقتال، لخروج ذلك عن المقدور.

وقد اتفق أهل العلم أن العبد إذا عجز عن بعض الواجبات سقط عنه ما عجز عنه، فمن قطعت منه رجله سقط عنه غسلها، ومن لم يستطع اغتسال الجنابة أو القيام أو الركوع ونحو ذلك سقط عنه ما عجز عنه. وبذلك يظهر لك أن عدم الاستطاعة المذكورة في الآيات التي احتج بها هٰذا الفريق غير مشروطة في شيء من الأمر والنهي والتكليف باتفاق المسلمين، والاستطاعة الشرعية الي هي مناط الأمر والنهي في الآيات التي سقناها هي التي لم يكلف الله أحداً شيئاً بدونها[1].

الوجه السابع: يلزم من قولهم التسوية بين المُخْتلِفَيْن:

لقد أدى هٰذا المذهب بأصحابه والقائلين به إلى التسوية بين الأخيار والفجار، والأبرار والأشرار، وأهل الجنة وأهل النار، وقد فرق بينهم العليم الخبير ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ

---

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٣٠.

نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص:٢٧-٢٨]، وقال: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ [الجاثية:٢١]، وقال: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

المَبحث الثالث

مذهب أهل السنة والجماعة في القدر

بينا لك مذاهب الذين ضلوا في القدر، وأحب هنا أن أذكر مذهب أهل السنة والجماعة في هٰذا الباب، وقد دون مذهبهم كثير من أهل العلم، وأنا أسوق هنا ما دوَّنه ثلاثة من أعلامهم.

المطلب الأول

شيخ الإسلام ابن تيمية يلخص مذهبهم

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأجزل له المثوبة: «مذهب أهل السنة والجماعة في هٰذا الباب ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أنَّ الله خالق كلّ شيء ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد.

وأنّه سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءَه، بل هو القادر على كل شيء، ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه.

وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون،

وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم: قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة.

فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون»[١].

«وسلف الأمّة وأئمتها متفقون على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به، منهيون عما نهاهم الله عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة.

ومتفقون على أنه لا حجّة لأحد على الله في واجب تركه، ولا محرّم فعله، بل لله الحجّة البالغة على عباده»[٢].

«ومما اتفق عليه سلف الأمّة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بقدرتهم ومشيئتهم ما أقدرهم الله عليه مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله»[٣].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٤٩.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٥٢.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ٤٥٩.

المطلب الثاني

عقيدة الإمام أبي بكر محمد الحسين الآجُرِّي في القدر

قال رحمه الله: «مذهبنا في القدر أن نقول: إن الله عز وجل خلق الجنة وخلق النار، ولكل واحدة منهما أهل، وأقسم بعزته أنه يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين.

ثم خلق آدم عليه السلام، واستخرج من ظهره كل ذرية هو خالقها إلى يوم القيامة. ثم جعلهم فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وخلق إبليس، وأمره بالسجود لآدم عليه السلام، وقد علم أنه لا يسجد للمقدور، الذي قد جرى عليه من الشقوة التي سبقت في العلم من الله عز وجل، لا معارض لله الكريم في حكمه، يفعل في خلقه ما يريد، عدلاً من ربنا قضاؤه وقدره.

وخلق آدم وحواء عليهما السلام، للأرض خلقهما، أسكنهما الجنة، وأمرهما أن يأكلا منها رغداً ما شاءا، ونهاهما عن شجرة واحدة أن لا يقرباها، وقد جرى مقدوره أنهما سيعصيانه بأكلهما من الشجرة. فهو تبارك وتعالى في الظاهر ينهاهما، وفي الباطن من علمه: قد قدر عليهما أنهما يأكلان منها ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. لم يكن لهما بُدٌّ من أكلهما، سبباً للمعصية، وسبباً لخروجهما من الجنة، إذ كانا للأرض خلقا، وأنه سيغفر لهما بعد المعصية، كل ذلك سابق في علمه، لا يجوز أن يكون شيء يحدث في جميع خلقه، إلا وقد جرى مقدوره به، وأحاط به علماً قبل كونه أنه سيكون.

خلق الخلق، كما شاء لما شاء، فجعلهم شقياً وسعيداً قبل أن يخرجهم إلى الدنيا، وهم في بطون أمهاتهم، وكتب آجالهم، وكتب أرزاقهم، وكتب أعمالهم، ثم أخرجهم إلى الدنيا، وكل إنسان يسعى فيما كُتِبَ له وعليه.

ثم بعث رسله، وأنزل عليهم وحيه، وأمرهم بالبلاغ لخلقه، فبلغوا رسالات ربهم، ونصحوا قومهم، فمن جرى في مقدور الله عز وجل أن يؤمن آمن، ومن جرى في مقدوره أن يكفر كفر، قال الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [التغابن: ٢] أحب من أراد من عباده، فشرح صدره للإيمان والإسلام، ومقت آخرين، فختم على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلن يهتدوا أبداً، يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

الخلق كلهم له، يفعل في خلقه ما يريد، غير ظالم لهم، جل ذكره عن أن ينسب ربنا إلى الظلم، إنما يظلم من يأخذ ما ليس له بملك، وأما ربنا عز وجل فله ما في السمٰوات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الثَّرى، وله الدنيا والآخرة، جل ذكره، وتقدست أسماؤه، أحب الطاعة من عباده، وأمر بها، فجرت ممن أطاعه بتوفيقه لهم، ونهى عن المعاصي، وأراد كونها من غير محبته منه لها، ولا للأمر بها، تعالى الله عز وجل أن يأمر بالفحشاء، أو يحبها، وجل ربنا وعز أن يجري في ملكه مالم يرد أن يجري، أو شيء لم يحط به علمه قبل كونه، قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وبعد أن يخلقهم، قبل أن يعملوا قضاء وقدراً.

قد جرى القلم بأمره عز وجل في اللوح المحفوظ بما يكون، من برّ أو فجور، يثني على من عمل بطاعته من عبيده، ويضيف العمل إلى العباد، ويعدهم عليه الجزاء العظيم، ولولا توفيقه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] وكذا ذم قوماً عملوا بمعصيته، وتوعدهم على العمل بها، وأضاف العمل إليهم بما عملوا، وذلك بمقدور جرى عليهم، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

قال محمد بن الحسين رحمه الله تعالى: هٰذا مذهبنا في القدر»[١].

المطلب الثالث

عقيدة الطحاوي في القدر

يقول الطحاوي رحمه الله في القدر: «خلق الخلق بعلمه، وقدر لهم أقداراً وضرب لهم آجالاً، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته.

وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء الله لهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلاً.

(١) الشريعة للآجري: ١٥٠-١٥٢.

وكلهم متقلبون في مشيئته بين فضله وعدله.

وهو متعال عن الأضداد والأنداد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره.

آمنا بذلك كله، وأيقنا أن كلاً من عنده»[1].

«وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنّة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزاد في ذلك العدد، ولا ينقص منه.

وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله.

وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

فهٰذا جملة ما يحتاج إليه من هو منوّرٌ قلبه من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود

---

(١) العقيدة الطحاوية شرح وتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني: ص٢١.

كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك العلم المفقود.

ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد قدر، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى في أنه كائن، ليجعلوه غير كائن، لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبدَ لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقب، ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سمٰواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فويل لمن صار في القدر لله خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً»[1].

(١) العقيدة الطحاوية: ٣١.



الفصل السادس

أسباب الضلال في القدر

والسبب في ضلال كل من القدرية النفاة والقدرية المجبرة في هٰذا الباب أن كل واحد من الفريقين رأى جزءاً من الحقيقة وعمي عن جزء منها، فكان مثله مثل الأعور الذي يرى أحد جانبي الشيء، ولا يرى الجانب الآخر، فالقدرية النفاة الذين نفوا القدر قالوا: إن الله لا يريد الكفر والذنوب والمعاصي ولا يحبها ولا يرضاها، فيكف نقول إنه خلق أفعال العباد وفيها الكفر والذنوب والمعاصي.

والقدرية المجبرة آمنوا بأن الله خالق كل شيء، وزعموا أن كل شيء خلقه وأوجده فقد أحبَّه ورضيه.

وأهل السنة والجماعة أبصروا الحقيقة كلها، فآمنوا بالحق الذي عند كل واحد من الفريقين، ونفوا الباطل الذي تلبس به كل واحد منها.

فهم يقولون: «إن الله وإن كان يريد المعاصي قدراً، فهو لا يحبها، ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها وينهى عنها».

وهٰذا قول السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهٰذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله لم يحنث إذا لم يفعله، وإن كان واجباً أو مستحباً.

ولو قال: إن أحب الله، حنث إن كان واجباً أو مستحباً.

والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان:

إرادة قدرية خلقية، وإرادة دينية شرعية.

فالإرادة الشرعية هي المتضمنة المحبة والرضا، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات.

فالإرادة الشرعية كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فهٰذا النوع من الإرادة لا تستلزم وقوع المراد، إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة، وهٰذه الإرادة تدل دلالة واضحة على أنه لا يحب الذنوب والمعاصي والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءَها خلقاً وإيجاداً.

وأنه يحب ما يتعلق بالأمور الدينية ويرضاها ويثيب عليها أصحابها، ويدخلهم الجنة، وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وينصر بها العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين[١].

وهٰذه الإرادة تتناول جميع الطاعات حدثت أو لم تحدث[٢].

---

(١) راجع شرح الطحاوية: ص١١٦. ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٨٨، ٥٨.

(٢) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ١٩٨.

والإرادة الكونية القدرية هي الإرادة الشاملة لجميع الموجودات، التي يقال فيها: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهٰذه الإرادة مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

وهٰذه الإرادة إرادة شاملة لا يخرج عنها أحد من الكائنات، فكل الحوادث الكونية داخلة في مراد الله ومشيئته هٰذه، وهٰذه يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأهل الجنّة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه، ويصلي عليهم هو وملائكته، وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون[(١)].

وهٰذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي دون مالم يحدث منها[(٢)].

والمخلوقات مع كل من الإرادتين أربعة أقسام:

الأول: ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع، فأمره وأحبه ورضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك ما كان.

والثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من

---

(١) راجع: شرح الطحاوية: ص ١١٦ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٩٨، ٥٨.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٩٨.

الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين، وهو يحبها ويرضاها وقعت أو لم تقع.

والثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي، فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والرابع: ما لم تتعلق به هٰذه الإرادة ولا هٰذه، فهٰذا مالم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصي[1].

والسعيد من عباد الله من أراد الله منه تقديراً ما أراد به تشريعاً، والعبد الشقي من أراد به تقديراً مالم يرد به تشريعاً، وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، علموا أنَّ أحكام الله في خلقه تجري على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر، أو نظر إلى القدر دون الشرع كان أعور، مثل قريش الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨][2].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٨٩.

(٢) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٨/ ١٩٨.

الفصل السابع

ثمار الإيمان بالقدر

بينا من قبل أن عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام مبرأة من التخاذل والكسل والخمول الذي أصاب قطاعاً كبيراً من الأمّة الإسلامية عبر العصور باسم الإيمان بالقدر، والمسؤول عن ذلك هو انحراف المسلمين في باب القدر حيث لم يفقهوه على وجهه.

ومن تأمل في عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام وجد لها ثماراً كثيرة طيبة، كانت ولا زالت سبباً في صلاح الفرد والأمّة.

وسنحاول أن نجلي بعض ثماره التي ظهرت خلال هٰذه الدراسة.

١- الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك:

لقد زعم كثير من الفلاسفة أن الخير من الله، وأن الشر من صنع آلهة من دونه، وإنما قالوا هٰذا القول فراراً من نسبة الشر إلى الله تعالى[١].

والمجوس زعموا أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر.

والذين زعموا من هٰذه الأمّة أن الله لم يخلق أفعال العباد، أو لم يخلق الضال منها أثبتوا خالقين من دون الله.

ولا يتم توحيد الله إلا لمن أقرَّ أن الله وحده الخالق لكل شيء

---

(١) شفاء العليل: ص١٤.

في الكون، وأن إرادته ماضية في خلقه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكل المكذبين بالقدر لم يوحدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته، والإيمان بالقدر مفرق طريق بين التوحيد والشرك. فالمؤمن بالقدر يُقرُّ بأن هٰذا الكون وما فيه صادر عن إلٰه واحد ومعبود واحد، ومن لم يؤمن هٰذا الإيمان فإنه يجعل من دون الله آلهة وأرباباً.

٢- الاستقامة على منهج سواء في السراء والضراء:

العباد بما فيهم من قصور وضعف لا يستقيمون على منهج سواء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء، لا تبطره النعمة، ولا تيئسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]. ولا يكون حاله حال قارون الذي بغى على قومه، واستطال عليهم بما أعطاه الله من كنوز وأموال: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

فإذا أصاب العبد الضراء والبلاء علم أن هٰذا بتقدير الله ابتلاء منه، فلا يجزع ولا ييأس، بل يحتسب ويصبر، فيسكب هٰذا الإيمان في قلب العبد

المؤمن الرضا والطمأنينة ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وقد امتدح الله عباده: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

٣- المؤمن بالقدر دائماً على حذر:

المؤمنون بالقدر دائماً على حذر ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] فقلوب العباد دائمة التقلب والتغير، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء، والفتن التي توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائماً أن يأتيه ما يضله كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهٰذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائبة للاستقامة، والإكثار من الصالحات، ومجانبة المعاصي والموبقات.

كما يبقى قلب العبد معلقاً بخالقه، يدعوه ويرجوه ويستعينه، ويسأله الثبات على الحق، كما يسأله الرشد والسداد.

٤- مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت:

إذا آمن العبد بأنَّ كل ما يصيبه مكتوب، وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله، فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة، وقد كان

هٰذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت في مظانه، ويرمي بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته، ثمَّ تراه يموت على فراشه، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً، وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال.

وكان هٰذا الإيمان من أعظم ما ثبَّت قلوب الصالحين في مواجهة الظلمة والطغاة، لا يخافون في الله لومة لائم، لأنهم يعلمون أن الأمر بيد الله، وما قدر لهم سيأتيهم.

وكانوا لا يخافون من قول كلمة الحق خشية انقطاع الرزق، فالرزق بيد الله، وما كتبه الله لعبده من رزق لا يستطيع أحد منعه، وما منعه الله لعبد من عبيدة لا يستطيع أحد إيصاله إليه.

المراجع

١- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد. دار الآفاق الجديدة - بيروت. الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢- جامع الأصول لابن الأثير. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. مكتبة الحلواني وآخرون. ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

٣- سنن أبي داود. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية - القاهرة.

٤- سنن الترمذي. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٥- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة. لأبي القاسم هبة الله بن الحسين الطبري اللالكائي. دار طيبة - الرياض.

٦- شرح العقيدة الطحاوية. المكتب الإسلامي - بيروت. الرابعة ١٣٩١هـ.

٧- شرح النووي على صحيح مسلم. المطبعة المصرية ومكتبتها. القاهرة.

٨- الشريعة للآجري. دار الكتب العلمية - بيروت. الأولى ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٩- شفاء العليل لابن القيم. دار الكتاب العربي - مصر.

١٠- صحيح البخاري. اعتمدت على متن فتح الباري. طبعة السلفية.

١١- صحيح الجامع الصغير. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت.

١٢- صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر الدين الألباني. مكتب التربية العربي. الرياض. الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٣- صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث - بيروت الثانية ١٩٧٢م.

١٤- العقيدة الطحاوية. شرح وتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت الأولى. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٥- فتح الباري لابن حجر. طبعة السلفية - القاهرة.

١٦- الفرق بين الفرق لعبد القاهر بن طاهر الإسفراييني. دار المعرفة - بيروت.

١٧- القاموس المحيط للفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة - بيروت. الأولى. ١٤٠٦هـ.

١٨- لوامع الأنوار البهية. للسفاريني. دولة قطر.

١٩- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير. المكتبة العلمية - بيروت.

٢٠- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع ابن قاسم. طبع دولة المملكة العربية السعودية.

٢١- مشكاة المصابيح. للخطيب التبريزي. بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. بيروت ١٣٨٣هـ - ١٩٦٢م.

٢٢- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد لأحمد حافظ حكمي. مطبوعات الرئاسة العلمية لإدارات البحوث - الرياض.

٢٣- معالم السنن للخطابي على مختصر سنن أبي داود للمنذري. مطبعة السنة المحمدية. ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

٢٤- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني. تحقيق محمد سيد كيلاني. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر. ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

٢٥- الملل والنحل للشهرستاني. دار المعرفة - بيروت. الثانية. ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.



العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

١- العقيدة في الله
٢- عالم الملائكة الأبرار
٣- عالم الجن والشياطين
٤- الرسل والرسالات
٥- القيامة الصغرى
٦- القيامة الكبرى
٧- الجنة والنار
٨- القضاء والقدر

